السلسلة الجامعية

الهادي روجي إدريس

الدولة الصنهاجية

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12 م.

نقله إلى العربية
حمادي الساحلي

الجزء الأول



الدَّولةُ الصِّنهاجيَّة

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري
من القرن 10 إلى القرن 12 م.

نقله إلى العربيَّة
حمَّادي السَّاحلي

الجزء الأول



هذه الترجمة تصدر للكتاب المنشور باللغة الفرنسية سنة 1962
La Berbérie Orientale sous les Zirides Xe - XIIe siècle
Par Hady Roger Idris
الصادر عن :
Librairie d'Amérique et D'Orient
ADRIEN-MAISONNEUVE
11, Rue Saint-Sulpice, PARIS (6e)

الطبعة الأولى
1992

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: 113-5787
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

في نطاق الجهود المبذولة في سبيل نشر البحوث والدراسات الجامعيّة المتعلّقة بتاريخ المغرب العربي، سواء منها المؤلّفة رأسًا باللّغة العربيّة أو المنقولة عن اللّغة الفرنسيّة(1)، قرّرت «دار الغرب الإسلامي»، جزاها الله كلّ خير، تعريب ونشر أطروحة المأسوف عليه الأستاذ الهادي روجي إدريس التي خصّصها لتاريخ الدولة الصنهاجيّة ونشرها بالفرنسيّة في سنة 1962 بعنوان «بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري».

والجدير بالملاحظة أنّ مؤلّف هذا الكتاب هو مؤرّخ فرنسي من أصل تونسي وُلِد بفرنسا وفقد أباه أصيل مدينة باجة التونسيّة في سنّ مبكّرة، فسهرت أمّه الفرنسيّة الجنسيّة على تربيته تربيةً فرنسيّة خالصة وأضافت إلى اسمه العربي «الهادي» اسمًا فرنسيًّا «روجي». ولكن ذلك لم يمنع الفتى من الحنين إلى وطنه الأصلي. فما إن التحق بالمعهد الثانوي، حتى حرص على حذق لغة آبائه وأجداده، فاختار دراسة اللّغة العربيّة كلغة أجنبيّة ثانية (إلى جانب اللّغة الإنجليزية) واستمرّ خارج المعهد وأثناء أوقات فراغه في إتقان المعلومات الّتي تلقّاها عن أساتذته باللّغة العربيّة، وذلك بواسطة مطالعة أمّهات الكتب العربيّة. وإثر حصوله على البكالوريا التحق بالجامعة حيث زاول دراساته العليا إلى أن أحرز الإجازة في اللّغة والآداب العربيّة، ثم واصل طريقه في هذا الاتّجاه، فأعدّ شهادة الدراسات العليا في اللّغة العربيّة واجتاز مناظرة التبريز (agrégation) فنجح فيها بامتياز. ونزولاً عند رغبته عيّنته وزارة التربية والتعليم الفرنسيّة في مطلع الأربعينات مدرّسًا للّغة والآداب العربيّة بمعهد كارنو بتونس. واستغلّ وجوده في موطن آبائه وأجداده للتعمّق في دراسة الحضارة العربيّة الإسلاميّة والتدرّب على مناهج البحث العلمي، بمساعدة نخبة من المستشرقين الفرنسيّين المقيمين عهدئذ بتونس، وفي مقدّمتهم العالم اللّغوي الشهير الأستاذ ويليام مارسي (William Marçais) مدير مدرسة اللّغة والآداب العربيّة بتونس (المعروفة آنذاك باسم مدرسة

---

1) «الدولة الأغلبيّة»، تأليف محمّد الطالبي وتعريب المنجي الصيّادي، 1985.
«تاريخ إفريقية في العهد الحفصي»، تأليف روبار برنشفيك وتعريب حمّادي السّاحلي، 1988.

العطّارين). وسرعان ما اتّجهت همّته إلى التعمّق في دراسة فترة من فترات التاريخ التونسي التي لم تحظ بعدُ بدراسة معمّقة، فاتّصل به الأستاذ روبار برنشفيك الذي كان قد انتهى منذ عهد قريب من إعداد أطروحته ونشرها في شكل كتاب يحمل عنوان «بلاد البربر الشرقيّة في العهد الحفصي»، وأشار عليه بدراسة تاريخ الدولة الصنهاجيّة الذي ما زال في حاجة إلى دراسة علميّة معمّقة، ووعده بالإشراف على عمله. فشرع منذ ذلك الحين في إحصاء وجمع المصادر والمراجع والوثائق اللاّزمة للقيام بذلك العمل وأخذ يتأهّب لفحصها ودراستها واستغلالها تحت إشراف الأستاذ برنشفيك. وقد ساعده على ذلك تعيينه أستاذًا مُعيدًا في اللّغة والآداب العربيّة بمعهد الدراسات العليا بتونس الذي أنشئ منذ سنة 1945 وكان تابعًا إداريًّا لجامعة باريس. فما لبث الأستاذ الهادي إدريس أن أقبل على نشر النتائج الأولى لبحوثه على صفحات مختلف المجلاّت والدوريّات المهتمّة بالدّراسات الشرقيّة[2]. وفي الأثناء تمّت نقلته إلى كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بمدينة الجزائر، فعكف على تحرير رسالته التي أتمّها في آخر سنة 1959 وأصدرها بالجزائر سنة 1962 في شكل كتاب (في جزأين) يحمل إسم «بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري»، وذلك تحت إشراف معهد الدراسات الشرقيّة التابع لكلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بمدينة الجزائر.

ويستطيع مطالع هذا الكتاب أن يتبيّن من أوّل وهلة أنّ صاحبه قد سار على نفس المنهج الذي سلكه قبله الأستاذ برنشفيك في تأليف أطروحته المشار إليها أعلاه.

فقد استهلّ المؤلّف كتابه بدراسة تحليليّة ضافية للمصادر والمراجع التي اعتمدها في نقل الأخبار والروايات. ويلاحظ المطالع أنه اعتمد على وجه الخصوص المصادر الأربعة التالية :

1 – ابن خلدون : «كتاب العبر»، النصّ العربي والترجمة الفرنسيّة التي أصدرها دي سلان في الجزائر ما بين سنة 1852 وسنة 1856 بعنوان «تاريخ البربر»[3].
2 – ابن عذاري : «البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب» (الجزء الأوّل).
3 – ابن الأثير: «الكامل في التاريخ».
4 – «رحلة التجاني».

وكثيرًا ما نقل المؤلّف عن تلك المصادر فقرات بحذافيرها، دون زيادة ولا نقصان، لا سيّما في الجزء الأوّل من الكتاب المخصّص للتاريخ السّياسي. وقد رأينا من الأمانة أن ننقل تلك الفقرات بنصّها العربي الأصلي، ولم نَرَ فائدة في إعادة صياغتها في لغة عربيّة حديثة، مثل بقيّة نصوص الكتاب المنقولة من اللّغة الفرنسيّة.

---

2) أنظر في القسم المخصّص للمصادر والمراجع قائمة البحوث والفصول التي نشرها المؤلّف قبل صدور كتابه.
3) أشار المؤلّف إلى هذه الترجمة في الهوامش بعبارة «البربر»، اقتداءً بالأستاذ برنشفيك.

ولكنّ المؤلّف لم يكتف دائمًا – والحقّ يقال – بنقل الفقرات كما هي ، بل كثيرًا ما كان يقارن بين مختلف الروايات ويبرز ما فيها أحيانًا من تناقضات ويردفها بتعاليق وملاحظات تدلّ على إلمامه بالموضوع المطروق وتشبّعه بروح نقديّة عالية ، مع ما كان يتحلّى به من نزاهة علميّة جديرة بالتنويه ، بالإضافة إلى حرصه الشّديد على الدّقة العلميّة والتحرّي في نقل الأخبار والإشارة دومًا وأبدًا إلى مصادرها.

وقد قسّم المؤلّف كتابه إلى قسمَيْن كبيرَيْن :

1 – القسم الأوّل : وهو يبحث في جميع أطوار التاريخ السياسي لكامل المنطقة الممتدّة من طرابلس شرقًا إلى بجاية غربًا ، والمعروفة لدى الإخباريّين المسلمين باسم «إفريقية» ، وقد أطلق عليها المؤرّخون الغربيّون اسم «بلاد البربر الشرقيّة» ، وذلك منذ نشأة الدّولة الصّنهاجيّة (أي إمارة مناد وزيري وتأسيس مدينة أشير في سنة 325 هـ / 935م) حتى دخول الموحّدين إلى إفريقية وانتصارهم على النرمان في سنة الأخماس (555هـ / 1660م) . والجدير بالملاحظة أن المؤلّف لم يقتصر على تاريخ دولة بني زيري (كما يمكن أن يدلّ على ذلك عنوان الكتاب) ، بل درس أيضًا تاريخ دولة بني حمّاد منذ تأسيس مدينة القلعة (398 هـ / 1007م) إلى استيلاء عبد المؤمن بن علي على بجاية (547 هـ / 1152م) ، وذلك – حسب قوله – «لأنّ تاريخ بني حمّاد مرتبط أشدّ الارتباط بتاريخ أبناء عمومتهم بني زيري ، بحيث لا يمكن فصل هذا عن ذاك»[4].

2 – القسم الثاني : وقد خُصِّصَ لدراسة شتّى مظاهر الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة والدينيّة ، ومختلف النُّظُم الإداريّة والسياسيّة والمؤسّسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة القائمة الذات عهدئذ في إفريقية ، أي كلّ ما يمكن أن يمثّل «الحضارة القيروانيّة» التي بلغت ذروتها في عهد الدّولة الصنهاجيّة.

وبناء على ما يكتسيه هذا التأليف من أهميّة تاريخيّة بالغة ، فقد أقدمنا بطيبة خاطر على نقله من اللّغة الفرنسيّة إلى اللّغة العربيّة ، تلبيةً لطلب صديقنا المحترم الحاج الحبيب اللمسي صاحب «دار الغرب الإسلامي» ، وذلك تعميمًا للفائدة ومساهمةً منّا في إثراء المكتبة التاريخيّة العربيّة بالكتب النّفيسة.

وقد قمنا بتعريب الكتاب بجميع أبوابه وفصوله وحواشيه ، دون زيادة ولا نقصان ، ما عدا إضافة بعض التوضيحات الطفيفة والإحالة على بعض المصادر المطبوعة التي كانت مخطوطة عند تأليف الكتاب أو الطبعات الجديدة لبعض المصادر التي اعتمدها المؤلّف في طبعات قديمة أصبحت غير متوفّرة في الوقت الحاضر. وقد حرصنا على وضع تلك الإضافات بين معقّفين [ ] للتمييز بينها وبين تعاليق وإحالات المؤلّف. كما اختصرنا

4) أنظر التوطئة.

عددًا قليلاً من الهوامش ذات الطابع الأكاديمي البحت، إذ لا يفوتنا أنّ الكتاب هو في الأصل رسالة أعدّها صاحبها لنيل شهادة الدكتوراه.

وختامًا نرجو أن تحظى هذه الترجمة بحسن القبول لدى القرّاء الأفاضل وأن تُساهم في تعريف الناطقين بالضّاد بحقبة هامّة من تاريخنا العربيّ الإسلامي المجيد.

والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

تونس في ١٥ جمادى الثانية ١٤١١ – الموافق لأوّل يناير ١٩٩١.

حمّادي السّاحلي

توطئة

منذ صدور أطروحة جورج مارسي، العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر (١٩١٣) التي ما زالت صالحة إلى الآن على نحوٍ جدير بالملاحظة، كان علينا أن ننتظر أطروحة روبار برنشفيك، بلاد البربر الشرقية في عهد بني حفص (١٩٤٠ – ١٩٤٧)، لنظفر بأوّل دراسة تأليفيّة موفّقة حول إحدى فترات تاريخ البلاد التونسيّة في العصر الوسيط.

وإن دراستنا هذه حول بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري، التي لم تكن إلى حدّ الآن موضوع بحث معمّق، كان من الممكن أن يكون إعدادها أيْسَر، لو صدرت قبل ذلك دراسة أخرى لتجديد أطروحة فندر هيدن حول الدولة الأغلبيّة، وبالخصوص لو ظهرت دراسة شاملة حول الدوْلة الفاطميَة بافريقية التي أصبحت الآن معروفة على وجه أحسن[1].

أمّا بالنسبة إلى الفترة الممتدّة من الغزوة الموحّدية إلى قيام الدّولة الحفصيّة، فإن قلّة الوثائق تجعل من الصعب إعداد دراسة جدّيّة حولها.

ومن ناحية أخرى، فإن الجزء الأوّل من كتاب هويسي ميراندا[2] حول تاريخ الدّولة الموحّدية لم يتناول بالدّرس إفريقيّة إلاّ باعتبارها مجالاً للعمليّات الحربيّة التي قامت بها جيوش عبد المؤمن بن علي.

وإن طبيعة المعلومات المتوفّرة لدينا لدراسة تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، لتكفي وحدها لتبرير توسيع مجال دراستنا في المكان والزمان، أي المغرب الأوسط وإفريقيّة بمعنى المعنى، خلال أكثر من قرنَين، منذ أن تسلّم مقاليد الحكم أمير قبيلة صنهاجة البربريّة التابعة للمغرب الأوسط، بلكّين بن زيري بن مناد (361هـ/ 972م)

---

1) [إثر صدور كتاب الأستاذ إدريس في سنة 1962 ظهرت على التوالي أطروحة الأستاذ محمّد الطالبي حول الدّولة الأغلبيّة في سنة 1966 وأطروحة الأستاذ فرحات الدشراوي حول الدولة الفاطميّة بالمغرب في سنة 1981].

2) [Huici Miranda، التاريخ السياسي للإمبراطوريّة الموحّدية، الجزء الأوّل، تطوان، 1956].

الذي عيّنه المعزّ لدين الله الفاطمي، قبل تحوّله إلى مصر، لتسيير شؤون المغرب، إلى حدوث الغزوة الهلاليّة التي انتهت في حدود سنة 555هـ/ 1160م. ومن ناحية أخرى، فإنه لا مناص من الرّجوع إلى منشإ الدولة الصنهاجيّة (أي إمارة مناد وزيري وتأسيس مدينة أشير في سنة 324هـ/ 935م).

كما أنّ تاريخ بني حمّاد الذين حكموا المغرب الأوسط عمليًّا منذ تأسيس القلعة (398هـ/ 1007م)، إلى احتلال بجاية من طرف عبد المؤمن بن علي (547هـ/ 1152م)، مرتبط أشدّ الارتباط بتاريخ أبناء عمومتهم بني زيري في إفريقية، بحيث لا يمكن فصل هذا عن ذاك، لأنّ أخبارهما متداخلة ضمن المصادر التي هي بين أيدينا.

ولئن كان احتلال النّرمان لمدينة المهديّة (543هـ/ 1143م) إعلانًا عن سقوط بني زيري في إفريقيّة، فإنّ الملحمة الصنهاجيّة ستتواصل بضع سنوات أخرى، بفضل بقاء بني حمّاد على رأس مملكة بجاية، وأخيرًا فهل يمكن التوقّف قبل انتهاء الغزوة الموحّدية التي أزاحت النرمان عن سواحل إفريقيّة وقضت على الفوضى الناشئة عن الغزوة الهلاليّة؟ لا سيّما وأن عبد المؤمن بن علي هو الذي وضع حدًّا لسيطرة بني هلال الذين قضوا على الدولة الصنهاجيّة. ذلك أنّ دخولهم إلى بلاد المغرب، إثر القطيعة التي حصلت بين المعزّ بن باديس ومخدومه الخليفة الفاطمي بالمغرب، يمثّل عقدة الفاجعة التي لا بدّ من ذكر نهايتها.

وخلال الفترة الصنهاجيّة، نلاحظ أن الحضارة التي سنصفها بالقيروانيّة قد بلغت ذروتها ثم انقرضت. لذلك فقد أعطينا للأبواب الستّة المخصّصة للتاريخ السياسي الذي يشتمل عليه الجزء الأوّل من هذا الكتاب العناوين التالية: النشأة – الازدهار – الأوْج – الكارثة – محاولة النهوض – الاحتضار.

وأنه لمن دواعي الغبطة والسّرور أننا استطعنا أن نعطي للجزء الثاني المتعلّق بالمؤسّسات والحياة العامّة نفس الأهمّيّة، وأن نقسّمه أيضًا إلى ستّة أبواب: البلاد والعباد – النظام السياسي والإداري – الحياة الإجتماعيّة – الحياة الإقتصاديّة – الحياة الدينيّة – الحياة الثقافيّة والفنيّة.

ولأوّل وهلة يمكن أن يبدو هذا التوازن اصطناعيًّا، ولكنّنا رأينا أنه مفروض علينا، سواء بالنظر إلى طبيعة الموادّ المتوفّرة لدينا، أو بحسب مقتضيات العرض. إلاّ أنّ هذا التصميم كغيره من التصاميم الأخرى، له ثمنه في المقابل. فلو كنّا وضعنا الباب الأوّل من الجزء الثاني في صدر الكتاب، لربّما كان من الممكن أن يزيد ذلك في توضيح التاريخ السياسي، إذ أنه يمثّل – إن صحّ التعبير – ركيزته الجغرافيّة والعِرْقيّة، تمامًا مثل الباب ما قبل الأخير المتعلّق بالحياة الدينيّة، والذي يمثّل أحدَ عناصره الأساسيّة. إلا أننا قد حاولنا تدارك هذا الأمر مع التنقيص إلى أقصى حدّ ممكن من التكرار والإحالات التي لا مفرّ منها.

وإنّي انتهز هذه الفرصة لأقدّم أخلص عبارات الودّ والامتنان إلى السيّد روبار

برنشفيك الذي تفضّل عليّ باقتراح موضوع هذه الدراسة والإشراف عليها. كما أتوجّه بعبارات التقدير والاعتراف بالجميل إلى السيدين جورج مارسي وحسن حسني عبد الوهّاب اللّذَيْن لم يبخلا عليّ بمساعدتهما ونصائحهما، وكذلك إلى السيّديْن ريجي بلاشير وكلود كاهين اللّذيْن أحاطاني برعايتهما. وأخيرًا أشكر صديقي شارل بلاّ على توفير أسباب صدور هذه الدراسة التي هي مدينة إلى حدّ بعيد لحماس الناشر وإخلاصه.

الجزائر، ماي 1959

المؤلّف

المقدمة ـ المصادر

نظرًا لقلّة المخطوطات وضآلة الوثائق المتعلّقة بالمسكوكات والنقائش والآثار، فقد اضطُرِرْنا اضطرارًا إلى الاعتماد على المعلومات المستمدّة أساسًا من الكتب والمأخوذة بصورة غير مباشرة. وسنحرص في الدراسة النقديّة الموالية المتعلّقة بأهمّ المصادر المعتمَدَة، على التمييز بين الكتب الأصليّة والكتب المركّزة على النقول، وترتيب كلّ منها حسب تواريخها ومواضيعها، وفقًا للتصميم الذي وقع عليه الاختيار. وسوف نتوقّف طويلاً عند كتب الأخبار المفقودة التابعة للعصر الصنهاجي، والتي تُعتَبر مع ذلك من المصادر الأساسيّة للمعلومات المتناقلة، وكذلك عند جميع المؤلّفات الكفيلة بالتعويض عن النّقص في النّصوص التاريخية.

1) الإخباريّون وأشباه المؤرّخين

أ) المصادر الأصليّة:

1- لقد ألّف الطبيب القيرواني الذائع الصيت ابن الجزّار[1] (المتوفّى سنة 395هـ/1004م) ثلاثة كتب تاريخية وهي: **كتاب مغازي إفريقية** (حول الفتح العربي) **وكتاب أخبار الدّولة** (حول الدّولة الفاطمية) **وكتاب التّعريف بصحيح التاريخ** (مجموعة تراجم في 10 أجزاء اطّلع عليها ياقوت). ويُقال إنّه ألّف أيضًا كتاب **طبقات**

---

1) بروكلمان، 1/237 – 274 **والملحق**، 1/424؛ السيوطي، **البغية**، 117؛ **الكشف**، 2/318؛ ابن أبي أصيبع، الجزائر 1958، 8 – 12؛ **الأدباء**، 2/136 – 137؛ **الاتّعاظ**، 132؛ **رياض النفوس**، مخطوط باريس ص 101؛ سعيد الأندلسي، **طبقات الأمم**، الترجمة، 119، **ابن جلجل**، 88 – 91، والإحالة ص 88 (المراجع). هذا وإن الكتاب الأخير لا يمكن أن يكون قد ألّف في أوائل سنة 377هـ لأنه قد جاء فيه ذكر وفاة ابن الجزّار، وعلى كلّ ينبغي تصحيح 377 كما يلي: 397 أو 399، كما جاء في **التكملة**، 297.

القضاة[2] وكتاب **عجائب البلدان** (كتاب في الجغرافيا)[3].

كما اعتمد ابن الجزّار الذي يُعتبَر المصدر الأساسي لمؤلّف **كتاب العيون المجهول**[4]، كاتبان أندلسيّان هما : الجغرافي البكري والإخباري ابن حيّان، وكذلك مؤلّفان آخران من مؤلّفي التراجم وهما : القيرواني أبو بكر المالكي والمشرقي الصفدي.

2- وقد شغل [أبو إسحاق إبراهيم] الرقيق[5] (المتوفّى سنة 418 هـ/ 1027 - 1028م) منصب رئيس ديوان الإنشاء في الدولة الصنهاجية مدّة ربع قرن وذلك في عهد كلّ من المنصور وباديس والمعزّ، وقام بعدّة مهمّات ديبلوماسيّة وألّف كتابًا في التاريخ حول أنساب البربر. وقد تناول كتابه **تاريخ إفريقية والمغرب (أو تاريخ القيروان)** بالدّرس الفترة الممتدة إلى سنة 417 هـ/ 1026 - 1027م، حسب رواية ابن خلدون[6] الذي كان يوليه، بالنسبة إلى تاريخ إفريقية، نفس المصداقية التي كان يمنحها لابن حيّان (المتوفّى سنة 469 هـ/ 1076م)، بالنسبة إلى تاريخ الأندلس[7].

ويبدو أنّ آثار رجل البلاط هذا الذي ربّما كان المؤرّخ الرسمي لمخدوميه، قد كانت المصدر الأساسي للإخباريّين، بالنسبة إلى الفترة المعنيّة بالأمر. ذلك أن ابن حمّاد وابن الأبار وابن عذاري والتجاني والنويري وابن خلدون وابن شدّاد والشمّاخي والصفدي وغيرهم، لم يمتنعوا عن الاستشهاد بتلك الآثار، الأمر الذي يخفّف من وطأة فقدانها[7م].

3- كثيرًا ما نُسب إلى ابن رشيق الشّاعر الذائع الصّيت والناقد والكاتب بديوان الإنشاء ومادح المعزّ بن باديس (المتوفّى سنة 542هـ/ 1147 - 1148م)، كتابًا من كتب الأخبار يحمل عنوان : **تاريخ القيروان أو ميزان الأعمال في أيّام (أو : تاريخ) الدّول**[8].

---

2) **الحلل السندسيّة**، [طبعة بيروت، 1984، 707/1].

3) **Fagnan**، **مقتطفات غير منشورة**، 127؛ وابن الجلجل، 90، الإحالة 3.

4) بروكلمان، 344/7-427 **والملحق** 587/1؛ وأماري **تاريخ المسلمين بصقلية**، 288/2، الإحالة 1.

5) أنظر الباب 12 من هذا الكتاب، **دائرة المعارف الإسلاميّة**، أبو عبد الله الشيعي، 106/1-107.

6) البربر، 266/3؛ وفي **البيان**، 272/1-273، جاء ذكر الرقيق ضمن أحداث سنة 415 هـ.

7) **المقدّمة**، 7/1.

7م) [صدرت قطعة من كتاب الرقيق «تاريخ إفريقيّة والمغرب» تبدأ من أواسط القرن الأوّل إلى أواخر القرن الثاني هـ، تحقيق المنجي الكعبي، نشر السّقطي، تونس 1968].

8) أنظر حول ابن رشيق : بروكلمان، 307/1، **والكشف** رقم 2285، 142/2، **والمقدّمة**، 8/1، الإحالة 2، **والبربر**، 161/2، الإحالة 3؛ وابن قفطي، 304/1، الإحالة؛ والصفدي، الترجمة، 1912، 259، الإحالة 2؛ وفندرهيدن، **الأغالبة**، 19. أنظر أيضًا الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.

ولأوّل وهلة يبدو أنّ إشارة ابن بسّام (المتوفّى سنة 524هـ/ 1147 – 1148م) إلى رجوع المعزّ إلى طاعة الخليفة الفاطمي، تؤيّد هذه النسبة[9]. ولكن رغم أنّ الأمر يتعلّق بشاعر من شعراء العصر الصنهاجي، فإنه لا شيء يدلّ على أن ابن بسّام قد اقتبس تلك الفقرة من أحد كتب ابن رشيق الذي لم يشر إليه أي مصدر من المصادر الأصليّة.

وبالعكس من ذلك فإن المؤلّف المجهول لكتاب **مفاخر البربر**، بعدما تحدّث عن ابتداء الدولة الموحّدية، أشار إلى أن كلّ ذلك قد ذكره العالم الشيخ والباحث الحصيف أبو علي ابن رشيق في كتابه **ميزان الأعمال في أيّام الدّول**[10].

ولم يذكر صاحب **البيان** كتاب ابن رشيق إلاّ في آخر قائمة كتب الأخبار، ولم يشر إليه من بين المؤلفات الصّنهاجية[11]. كما أشار ابن خلدون إلى أنّ ابن رشيق في كتابه **ميزان الأعمال** لم يورد، مثل غيره من الكتّاب الخاملي الذكر، سوى جدول تاريخيّ مقتضب جدًّا[12]. وأخيرًا فقد ذكر السخاوي من بين الإخباريّين القيروانيّين أبا القاسم عبد الرحمان بن محمّد بن رشيق[13]. فلا يمكن حينئذٍ أن ننسب إلى صاحب **العمدة** كتابًا تاريخيًّا ربّما ألّفه فيما بعد كاتب آخر يحمل نفس اللّقب. وربّما يكون قد ألّف كتابًا في الأخبار أهمله أصحاب التراجم الذين اهتمّوا بالخصوص بإنتاجه الأدبي الصرف. وهذا ما يفسّر الإشارة التي أوردها ابن بسّام. ولتأييد هذا الافتراض يمكن أن نؤكّد أنّ ابن رشيق وابن شرف كانا يتنافسان في نفس الميدان، وانّ كثيرًا من المصادر البالغة الأهميّة قد أهملت ذكر أحد المتنافِسَيْن.

4– لقد أتمّ الأديب الشهير وشاعر المعزّ بن باديس ابن شرف (المتوفّى سنة 460هـ/ 1068م)[14] التأليف الذي كان قد وضعه ابن رشيق، وذلك في شكل كتاب يحمل عنوان **الذّيل**.

وقد ذكر ابن عذاري هذا الكتاب من بين مصادره[15] واعتمد عليه في أخبار مدّة ولاية المعزّ حتّى سنة 443هـ/ أوائل 1052م، وهي السنة التي ينتهي فيها كتاب

---

9) إدريس، حوليّات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر 1953، 25، 39.
10) **مفاخر البربر**، 59 – 60.
11) **البيان**، 3/1.
12) **المقدّمة**، 8/1.
13) **السخاوي**، 129.
14) بروكلمان، 268/1 – 315 **والملحق**، 473/1. أنظر أيضًا الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.
15) **البيان**، 2/1.

ابن شرف، حسبما يبدو، ويبدأ كتاب أبي الصلت[16]. كما أشار التجاني إلى كتاب ابن شرف عندما ذكر وفاة الفقيه اللّبيدي (المتوفّى سنة 440 هـ / 1048 م)[17]، وتحدّث عن ابنه الذي لا نعرف تاريخ وفاته[18]. كما أشار البرزلي من جهته إلى تاريخ ابن شرف[19].

وعندما تعرّض ابن ناجي لقضيّة محمّد بن عبد الصّمد التي أُثيرَت حوالي سنة 441 هـ / 1049 – 1050م، أورد فقرة من تأليف الشاعر ابن شرف متبوعة بفقرتين بقلم ابنه جعفر بن محمد بن شرف[20]. ويبدو أن هذا الابن الذي كان فيلسوفًا وشاعرًا وناثرًا، لم يكن مؤرّخًا. وليس من المؤكّد أن تكون الفقرة المذكورة مقتبسة مباشرة من تاريخ ابن شرف، بل ربّما يتعلق الأمر بخبر شفوي استقاه أحد الأندلسيّين أو زيادة أضافها ابن الشاعر ابن الشاعر الذي نقل مؤلّفات والده إلى كاتب السِّيَر الأندلسي ابن بشكوال على وجه الخصوص[21]. وهذه الفقرة تكتسي أهميّة بالغة. إذ فيها إشارة إلى أن هزيمة المعزّ بن باديس كانت عقوبة سلّطها الله على مَنِ اضطهد أحد الأولياء الصالحين [أي ابن عبد الصّمد]. وهذا دليل على ضرورة التحرّي في اعتماد الأخبار المنقولة عن ابن شرف الذي، بعدما مدح المعزّ بن باديس، أصبح أحد الفارّين من إفريقيّة، الخادمين لركاب الأمويّين بالأندلس[22]. وأخيرًا فإنّ لدينا بعض أشعار ابن شرف حول نكبة القيروان[23].

5– لقد تجوّل الفقيه والتاجر القيرواني محمّد بن سعدون[24] (المتوفّى سنة 485 أو 486 هـ / 1092 – 1093م بأغمات)، في بلاد المغرب والأندلس واعتنق المذهب الصوفي في

---

16) نفس المرجع، 292/1. إنّ سنة 455 هـ / 1063م التي أشار إليها ابن شرف كتاريخ وفاة المعزّ في موضعين من كتابه (**البيان**، 292/1 – 298)، عند ذكر بعض المعلومات العامّة حول المعزّ، لا عند تسلسل الأحداث التاريخيّة، لا تدلّ على أنّ كتاب **الذيل** يمتدّ إلى تلك الفترة.

17) رحلة التجاني، 83: «قال ابن شرف في صلته لتاريخ الرقيق».

18) نفس المرجع: «أخبر عنه ابن شرف في تاريخه».

19) البرزلي، مخطوط ح.ح. عبد الوهاب، ص 39 (قفا الصفحة): «**الذيل** لابن شرف». نفس المؤلف، **المختصر**، ص 160 (وجه الصفحة): «تأليف ابن شرف الذي على الرقيق».

20) **معالم الإيمان**، 238/3.

21) **الصلة**، 545/2 – 546 رقم 1208 حول جعفر ابن شرف. أنظر أيضًا: المقري، طبعة القاهرة 1949، 363/4 – 367؛ والضبّي 520 – 521، رقم 1557؛ والميمني، 116 – 121. أنظر أيضًا الباب 12 من هذا الكتاب.

22) برنشفيك، تحيّة غوديفروا ديمونبين، 147 – 158.

23) **معالم الإيمان**، 13/1 – 15 و240/2؛ وابن بسّام، 1/1، 74 و1/4، 109، 177 – 179، 181 – 184؛ وياقوت، **معجم الأدباء**؛ و ح.ح. عبد الوهّاب، **المنتخب المدرسي**، 78 – 81؛ والميمني، 98 – 100، 115.

24) إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر، 1955، 35 – 36.

آخر حياته على وجه الخصوص. وألّف من بين كتبه الأخرى كتاب **تأسّي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان**[25] المعروف أيضًا باسم: **تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلّب الزمن**[26]. وهذا العنوان المثير للذكريات يعني أن موضوع الكتاب يمتدّ إلى تاريخ خراب القيروان.

ولكنّ ابن سعدون لم يُشِر في أوّل الفقرة التي أوردها ابن عذاري[27] حول بني عُبَيْد، من ابتداء دولتهم إلى عهد المستنصر، إلاّ إلى ثلاثة أبواب فقط من كتابه، حيث قال: «فيه باب أذكر فيه أوّل من وضع هذه الدعوة التي شرع فيها عُبَيد الله وذرّيته، والسّبب الذي دعاهم لذلك، وباب أذكر فيه تسييرهم الرّكبان، بدعوتهم ودُعَاتهم إلى البلدان، وباب أذكر فيه عبيد الله ونسبه وانتماءه إلى النّبيّ ﷺ كاذبًا، وسبب مُلْكِه المغرب كلّه».

فيحقّ لنا حينئذٍ أن نتساءل هل أنه ألّف أبوابًا أخرى حول بني زيري ذاتهم؟ وهل أنّه لم يكن سوى كاتب مناهض للدعوة الفاطميّة؟[28].

6– أبو الصّلت أميّة بن عبد العزيز[29] (المتوفّى سنة 529هـ/ 1135م)، هو ذلك العالم الأندلسيّ المتعدّد الموضوعات الذي غادر الإسكندريّة سنة 506هـ/ 1112 – 1113م متوجّهًا إلى المهديّة حيث أقام إلى آخر حياته. وقد مدح الثلاثة خلفاء الصنهاجيّين الأخيرين يحيى وعلي والحسن الذين خصّوه برعايتهم، وألّف للحسن كتابًا في التاريخ، اعتبره التجاني، ذَيْلاً لتاريخ الرقيق[30]. فهل كان عنوان هذا الكتاب: **الديباجة في مفاخر صنهاجة**؟[31] وهو عنوان الكتاب الذي نسبه ياقوت إلى مؤرّخنا. إنّ هذا الافتراض مشكوك فيه، لأنّ المؤلّف المجهول لكتاب **مفاخر البربر** قد ميّز كتاب

25) **معالم الإيمان**، 2/245 – 246.
26) **البيان**، 1/281.
27) نفس المرجع.
28) **الديباج**، 273.
29) بروكلمان، 1/486 – 487، 641 **والملحق**، 1/889؛ Pons-Boignes، **المؤرّخون والجغرافيون العرب بالأندلس**، 198 – 201؛ **التكملة**، نشر ابن الشنب، رقم 539؛ ابن خلّكان، 1/80 – 81، 2/241 – 242؛ المقرّي، طبعة القاهرة، 1302هـ، 1/372، 2/193، 205 – 206، 282 – 284، **معجم الأدباء**، 7/52 – 70، **أعمال الأعلام**، 458، الإحالة 3، **البيان**، 1/312، وحسب هذا الكتاب توفّي أبو الصّلت سنة 536هـ؛ **شذرات الذهب**، 4/83 – 85، 144، وحسب هذا الكتاب توفّي سنة 547 و528هـ؛ **تاريخ المسلمين بصقلّية**، 1/40؛ **مخلوف**، 2/201.
30) **رحلة التجاني**، 125.
31) **معجم الأدباء**، 7/64.

الديباجة في أخبار صنهاجة، المطابق – حسبما يبدو – للكتاب السابق الذكر، عن «كتاب أبي الصّلت الذي وضعه للحسن صاحب المهديّة»[32].

وقد سبق أن رأينا أنّ كتاب أبي الصّلت يبدأ حيث توقّف ابن شرف، أي حوالي سنة 443هـ/ 1052م، وذلك حسب رواية ابن عذاري الذي أشار إلى ما يلي :

«إلى هنا انتهى كلام أبي الصّلت في أخبار المهديّة وأميرها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم إلى سنة 517 [1123]»[33]. بل يبدو أنّ أبا الصّلت المطّلع على الأحداث أحسن اطّلاع، قد أورد بعض الوثائق الأصليّة[34] التي استشهد بها كلٌّ من ابن عذاري والتجاني وابن الخطيب وابن خلدون.

7– ابن شدّاد[35] المشهور باسم أبي محمّد عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المعزّ بن باديس، والمعروف أكثر باسم أبي الغريب عزّ الدّين الصّنهاجي : هو حفيد الخليفة الصّنهاجي الرّابع تميم بن المعزّ (المتوفّى سنة 501هـ/ 1108م). وابن أخي الخليفة الخامس يحيى بن تميم (المتوفّى سنة 509هـ/ 1160م). وقد كان من رجال حاشية الحسن، حيث صرّح بأنه طالع كتابًا من خزانة كتب «هذا السلطان»[36].

وتشهد على وجوده في صقليّة قصّة تتعلّق بعبد المؤمن بن علي، مفادها أنّ أحد سكّان المهديّة المسلمين، التقى به سنة 551هـ/ 1156– 1157م في بالرمو ورواها له[37].

وممّا لا شكّ فيه أنّه تحوّل إلى سوريا. فقد روى عماد الدين [الأصفهاني]

32) **المفاخر**، 51.

33) **البيان**، 309/1.

34) إدريس، تحليل وترجمة نصّين يرجع تاريخهما إلى العصر الصّنهاجي، تونس، 1952.

35) بروكلمان، **الملحق**، 572/1؛ **تاريخ المسلمين بصقليّة**، 40/1 – 41، 486/3؛ فورنال، 207/2؛ كاترميتر، **ترجمة المعزّ**، المجلّة الآسيويّة، أوت 1836، 114– 131؛ فاغنان، **مائوية أماري**، 43/2؛ بيل، **بنو غانية**، 77، الإحالة 2؛ **الاتّعاظ**، 47؛ ابن خلّكان، 99/1، 239/2 – 240، **معجم البلدان**، 76/7؛ أبو الفداء، **تاريخ**، 3/1، 96/2– 99 (صقلية) و131– 132 (بنو حمّاد)؛ الصفدي، المجلّة الآسيوية، مارس – افريل 1912، 259، الإحالة 4.

36) ابن خلّكان، 240/2.

37) أماري، **تاريخ المسلمين بصقلية**، ص 486 : يؤكّد المؤلف أنّ ابن شدّاد كان موجودًا في معسكر عبد المؤمن بن علي أثناء المعركة الحربيّة التي دارت بالمهديّة سنة 554هـ/ 1159م. والجدير بالملاحظة أنّ هذه الرواية التي أوردها التجاني في رحلته، ص 348، منقولة عن شاهد عيان. إلاّ أنّ الجملة الوحيدة المحرّرة في صيغة المتكلّم : «وقال الحاكي كنت حاضرًا وعبد المؤمن يبكي...»، تفيد – حسبما يبدو – أنّها منقولة على لسان الشخص الذي أخبر ابن شدّاد بما جرى في تلك المعركة، ولعلّه يكون المهدوي المعني بالأمر.

صاحب **خريدة القصر** أنّ الأمير عبد العزيز بن شدّاد بن تميم الذي كان يقيم آنذاك بدمشق، قد أبلغه في سنة 571هـ/ 1176م ديوان جدّه تميم[38].

ومن جهة أخرى، فقد أورد التجاني فقرة من تاريخ ابن شدّاد تتعلّق بشهادة أدلى بها [محمّد بن البرّاء] المهدوي في دمشق سنة 582هـ/ 1186م[39].

وقد ألّف ابن شدّاد كتابًا في أخبار القيروان، كثيرًا ما اقتضب الناقلون عنوانه، وهو: كتاب **الجمع والبيان في أخبار القيروان، فيمن فيها وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأعيان**، أو: كتاب **الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان**[40]. كما ألّف كتابًا آخر في أخبار صقليّة.

ولقد استشهد بابن شدّاد كلٌّ من ابن خلّكان والتجاني وأبو الفداء والنويري والمقريزي. وبعد ذلك بسنين طويلة تأسّف ابن أبي دينار لعدم تمكّنه من استعمال **تاريخ القيروان**[41].

8– وألّف حمّاد بن إبراهيم بن أبي يوسف المخزومي لصاحب بجاية العزيز بن حمّاد (المتوفّى سنة 518هـ/ 1124م) كتابًا في التاريخ، يقول ابن الأبّار إنه اطّلع عليه.

9– أمّا ابن حمّاد (= ابن حمادُو)[43] (المتوفّى سنة 628هـ/ 1231م)، أصيل بلدة

---

38) **الخريدة**، مخطوط باريس رقم 3330، ص 60 (وجه الصفحة). [أنظر القسم المطبوع من الخريدة حول شعراء المغرب (ط 3)، تونس 1986، ص 142].

39) **رحلة التجاني**، 14، والإحالة 1. ولا ينبغي الخلط بين ابن شدّاد حفيد تميم واثنين آخرَيْن يحملان نفس لقبه، أحدهما قاضي حلب (المتوفّى سنة 632هـ/ 1234– 35م)، وهو مؤلف ترجمة صلاح الدين، والآخر (المتوفّى سنة 128) قد ألّف وصفًا لمدينة حلب. أنظر: ابن خلّكان، 354/2– 360؛ وسوفاجي، **المقدّمة**، 82– 147.

40) تمّ العثور مؤخّرًا على المخطوط المزعوم للجزء الثاني من **الجمع والبيان**، الذي كان قد فُقِد من دار الكتب الوطنية بتونس. ومن سوء الحظ فقد تبيّن من دراسته أن الأمر يتعلّق بنسخة جزئية من **تاريخ أبي الفداء** (من سنة 397 إلى سنة 692هـ/ 997– 1293م)، تبتدئ بفقرة مأخوذة من كتاب ابن شدّاد. وهذا ما يفسّر نسبة المخطوط إلى هذا الكاتب خطأ. أنظر: **تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي**، [الترجمة العربية، ص 405 الإحالة 85]؛ **وتاريخ أبي الفداء**، 131/2، 29/4.

41) **المؤنس**، 39.

42) **التكملة**، تحقيق ابن الشنب، 156.

43) لقد أعطانا الغبريني اسمه الكامل، (128– 130)، وهو أبو عبد الله محمّد بن علي بن حمّاد بن عيسى بن أبي بكر الصّنهاجي. أنظر: **دائرة المعارف الإسلامية** (الطبعة الثانية)، الفصل الخاصّ بأبي يزيد، 168/1، وقد جاء فيه أنه لا ينبغي الخلط بين ابن حمّاد وابن حمّادو. أنظر: ابن حمّاد، **تاريخ الملوك العبيديّين**، نشر وترجمة فندرهيدن، وليفي بروفنسال، أرابيكا، 25/1– 26، الإحالة 3، **والمفاخر**، 51– 65 وبرنشفيك، تحية غوديفروا ديمومبين، القاهرة، 1935– 1945، ص 156، الإحالة 2 وأماري، نصوص عربيّة، 1857، 317– 318؛ والصفدي، 157/4– 158، رقم 1692.

حمزة التابعة لقلعة بني حمّاد ، فقد زاول دراسته في بجاية وطاف في أنحاء المغرب وتولّى القضاء بالجزيرة ثمّ بسلا . وقد ألّف كتاب **النّبذ المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة بإفريقية وبجاية** ، وهو مفقود ، وكتابًا صغيرًا قد وصلنا حول تاريخ العبيديّين . ويبدو أن الكتاب الأوّل الذي اعتمده كلّ من ابن خلدون والمؤلف المجهول **لمفاخر البربر** ، يُعتَبَر مفيدًا بالنسبة إلى تاريخ بني حمّاد بوجه خاصّ وتاريخ بني زيري بوجه عامّ . وقد استشهد التجاني أيضًا بابن حمّاد .

10– كما ألّف سَمِيُّه ابن حمّادُو البرنوسي السبتي (القرن السادس عشر هجري / الثاني عشر ميلادي) كتاب **المقتبس (أو القبس) في أخبار المغرب والأندلس** الذي اعتمده ابن عذاري[44] .

11– وأخيرًا تجدر الإشارة إلى «**مذكّرات**» عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة (469–483 هـ / 1076 – 1091 م)[45] .

ب) **كتب الأخبار المغربيّة :**

12– يُعتبَر كتاب **البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغْرِب** الذي جمع مادّته الكاتب المغربي ابن عذاري المرّاكشي ، أهمّ مصدر من مصادرنا . فكثيرًا ما يذكر المؤلّف المصادر التي اعتمدها ، وقد أشار إليها في مقدّمته[46] .

13– أمّا كتاب **مفاخر البربر** الذي جمع مادّته مؤلفه المجهول سنة 712 هـ / 1312 م ، فهو من المصادر الأصليّة التي اعتمدها ابن خلدون ، وقد أفادنا بكثير من المعلومات الهامّة .

14– يتضمّن كتاب **العبر** للمؤرّخ الكبير ابن خلدون (المتوفّى سنة 808 هـ / 1406 م) معلومات وثائقية على غاية من الأهمّيّة ، إلاّ أنّها تفتقر في أغلب الأحيان إلى المراجع وتتّسم بمزايا ونقائص معروفة حقّ المعرفة . والجدير بالتذكير أنه يتعيّن علينا أن لا

---

44) **البيان** ، 5/1–237 ؛ **أعمال الأعمال** ، 465 ، الإحالة 2 ؛ **المفاخر** ، 64 ؛ ليفي بروفنسال ، أرابيكا ، 25/1–26 ، الإحالة 3 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** (الطبعة الثانية) ، الفصل الخاصّ بأبي يزيد ، 168/1 .

45) لقد وضع عبد الله مذكّراته في بلدة أغمات [بالمغرب الأقصى] ، بعدما خلعه يوسف بن تاشفين سنة 483 هـ / 1090 م ؛ ليفي بروفنسال ، الأندلس ، 1935/3 ، الجزء الثاني ، 236 – 237 .

46) إنّ النصّ الوارد في المخطوطات ليس دائمًا على أحسن ما يرام ، ويا للأسف ، وذلك بالرّغم من النشرة الجيّدة التي حقّقها دوزي وراجعها وصحّحها وزاد فيها حسب مخطوطات جديدة كولان وليفي بروفنسال . ويبدو أنّ آخر الجزء الأوّل ، وبالخصوص القسم المتعلّق بولاية الحسن – لا سيّما بعد سنة 517 هـ – فيه نقص كبير (من سنة 539 إلى سنة 543 ومن سنة 544 إلى سنة 551) . والجدير بالتذكير أنّ سنة 517 هي التي ينتهي فيها تاريخ أبي الصّلت . فلو كان لدينا النصّ الأصلي لاعتبرنا آخر الكتاب غير مُتقَنْ .

نجاري بلا رويّة كتابًا يختلف عن كتب الأخبار المعهودة ، ولكن لا ينبغي الاعتماد عليه بصورة مطلقة . كما تجدر الإشارة إلى أنّ ابن خلدون قد اعتمد كتاب المؤرخ الحفصي ابن نخيل ، المفقود[47] ، واستشهد بالكاتب الأندلسي ابن النحوي[48] .

15–16– ويمكن أيضًا استقاء معلومات متفرّقة من **أعمال الأعلام ورقم الحلل** للكاتب الغرناطي الشهير المتعدّد الموضوعات ، ابن الخطيب (المتوفّى سنة 776 هـ / 1374 م) ومن كتاب **المؤنس** لابن أبي دينار (العصر التركي) .

17–18–19– أمّا الكتابان اللّذان وضعهما في العصر التركي كلٌّ من الوزير السرّاج [**الحلل السندسيّة**] ومحمود مقديش[48م] [**نزهة الأنظار**][49] ، فإنهما لا يتضمّنان معلومات غير موجودة في المصادر الأخرى . فلا يمكن الإشارة إليهما إلاّ على سبيل الذكر ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى «**سيرة بني هلال**»[50] .

ج) **المصادر الموحّدية المختلفة :**

بالنسبة إلى الغزوة الموحّدية ، يمكن الرجوع إلى الوثائق القديمة التي تمّ إثراؤها من حسن الحظّ بفضل ليفي بروفنسال ، كما تمّ إحياؤها منذ عهد قريب بعناية هويسي. ميراندا .

20– **مذكّرات** البيذق المعاصر للمهدي [ابن تومرت] وعبد المؤمن [بن علي] .

21– 37 **رسالة رسميّة موحّدية**.

22– كتاب **نظم الجمان في أخبار الزمان**، لابن القطّان (المتوفّى سنة 629 هـ / 1230م) ، الذي كان قاضيًا بسجلماسة . وقد ذكره ابن عذاري من بين مصادره[51] ، كما اعتمده في كثير من الأحيان عند الحديث عن وقائع سابقة بكثير لقيام الدولة الموحّدية ، وبعضها يتعلّق ببني زيري[52] .

---

47) **البربر**، 36/2 ، 288 – 293 . وحول ابن نخيل أنظر : **تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي** [الترجمة العربية ، 405/2] .

48) **البربر**، 2/2 – 5 .

48م) [لا ابن مقديش كما جاء في النصّ الأصلي] .

49) حول مقديش ، أنظر : نالينو : **مائوية أماري**، 306/1 – 356 .

50) جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر**، المقدّمة ، 8 – 10 ؛ بروكلمان ، 62/2 – 72 **والملحق** ، 64/2 ، هارتمان ، **بنو هلال** ، برلين 189 ، 289 ، 315 ؛ بيل ، **الجازية**.

51) **البيان**، 3/1 ؛ ليفي بروفنسال ، **وثائق لم يسبق نشرها حول التاريخ الموحّدي**، المقدّمة ، 5 ، الإحالة 1 . ولنفس المؤلف ، **تحيّة رُوني باسي** ، 335/2 – 393 ، والإعلان عن نشر الجزء 13 من **نظم الجمان** (من سنة 500 إلى سنة 533 هـ) . أنظر أيضًا : Pons-Boignes ، ص 275 .

52) **البيان**، الترجمة 1 ، الفهرس 502 .

23– كتاب **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** لعبد الواحد المرّاكشي الذي انتهى من كتابته في سنة 621 هـ / 1224 م.

24– **روض القرطاس** لابن أبي زرع (أوائل القرن الرابع عشر م)، الذي ألّفه سنة 1326 حول تاريخ فاس والمغرب الأقصى، وهو تقليد لكتاب ابن عذاري، **البيان** بالنسبة إلى الفترة التي نبحث فيها.

25– **تاريخ الدولتين**، المنسوب إلى الزركشي (القرن 15 م).

26– **الحلل الموشيّة**، وهو كتاب في تاريخ المرابطين والموحّدين، وضعه مؤلّف مجهول في سنة 786 هـ / 1384 م، وينسب إلى ابن الخطيب (المتوفّى سنة 776 هـ / 1374 م).

27– **المصادر الأباضية**، وأهمّها **كتاب السّيَر** للشمّاخي (المتوفّى سنة 228 هـ / 1521 م)، وهو مجموعة من التراجم، يتضمّن بعض المعلومات التاريخية حول بني زيري وبعض مقتطفات من كتب أباضية مفقودة، ومن كتاب الرقيق[53].

د) **المصادر الفاطميّة والمتفرّقة :**

خلافًا لما هو متوقّع، فإن المعلومات الممكن استقاؤها من كتب الأخبار الفاطميّة زهيدة، إذ أنّ مؤلّفيها لم يهتمّوا قطّ بإفريقيّة، ولكنّ هذا الميدان الذي هو الآن بصدد الاستكشاف قد يهيّئ لنا مفاجآت سارّة.

28– إنّ آثار قاضي المعزّ لدين الله الذائع الصّيت، أبي حنيفة النّعمان توضّح لنا المذهب الشيعي بإفريقيّة قبل قيام الدولة الصنهاجيّة، وكذلك تاريخ الفترة الأولى من العهد الفاطمي.

وتتمثّل هذه الآثار في كتاب **الهمّة** وكتاب **دعائم الإسلام** (لم يظهر الجزء الثاني إلى حدّ الآن) وكتاب **المجالس والمسايرات** (لم ينشر بأكمله إلى حدّ كتابة هذه الدراسة[53 م]) وكتاب **افتتاح الدعوة**.

29– توفّر لنا **سيرة الأستاذ جوذر**[54] معلومات على غاية من الأهمّيّة حول بني حمدون.

30– اعتمد ابن حمّاد وابن عذاري، لدراسة تاريخ الدولة الفاطمية، آثار قاضي مصر

53) لم نجن أيّ فائدة من مخطوطتيْ كتاب أبي زكرياء و**طبقات** الدرجيني بالمكتبة الجامعية بالجزائر، لأنّ الشماخي قد استقى من هذين الأثرين السابقين لكتابه بمدّة طويلة، أهمّ المعلومات المتعلقة بالفترة المعنية بالأمر.

53م) [من بين آثار القاضي النعمان التي نُشرت بعد صدور النصّ الفرنسي لهذا الكتاب، نذكر بالخصوص :
– **افتتاح الدعوة**، تحقيق وداد القاضي، بيروت 1970.
– **افتتاح الدعوة**، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1975.
– **المجالس والمسايرات**، نشر كلية الآداب، تونس 1978].

54) لم نستفد كثيرًا من هذا الكتاب.

القضاعي (المتوفّى سنة 454هـ / 1062م)، وهي كتب عديدة مفقودة.

31– كما استفدنا من تأليف الكاتب بديوان الإنشاء الفاطمي ابن الصيرفي (المتوفّى سنة 420هـ / 1029م)، وهو يحمل عنوان: **الإشارة إلى من نال الوزارة**.

32– وألّف ابن ميسّر (المتوفّى سنة 677هـ / 1278م)، المواصل لعمل المؤرّخ الفاطمي المسبحي (المتوفّى سنة 420هـ / 1029م)، كتاب **قضاة مصر**، **والحوليّات المصرية** التي لم يصلنا منها إلا القسم الثاني[55]، وقد اقتبسنا منه معلومات مفيدة.

33– ومن بين مؤلّفات المقريزي (المتوفّى سنة 846هـ / 1442م) نذكر: **خطط مصر** وبالخصوص تاريخ الخلفاء الفاطميّين الذي يحمل عنوان **اتّعاظ الحنفاء**، ومن سوء الحظّ فإن المخطوط المنشور يتوقّف في سنة 363هـ[56].

34– كما أنّ تأليف الكاتب أبي المحاسن بن تغري بردي (القرن الخامس عشر م): **النجوم الزاهرة**، يعتبر كتابًا لا يستهان به.

35– ويتضمّن كتاب **سجلّات منتصريّة** بعض الفقرات المفيدة.

35م– كما اطّلعنا على **ديوان وسيرة** «داعي الدعاة» المؤيّد في الدين (المتوفّى سنة 470هـ / 1077 – 1078م)[56م].

هـ) **كتب الأخبار الشرقيّة**:

36– يكتسي كتاب التاريخ العام الذائع الصّيت **الكامل في التاريخ**، الذي ألّفه الكاتب السوري ابن الأثير (المتوفّى سنة 630هـ / 1234م)، أهميّة بالغة. إلاّ أنّ هذا الكتاب الجامع والمحكم الحبك[57]، الذي يحتوي على عدّة وثائق لم يذكر المؤلف في

---

55) من سنة 439 إلى 553هـ، مع نقص من سنة 362 إلى سنة 378هـ.

56) لقد أدرج المقريزي في كتاب **الخطط** بعض مقتطفات من هذا الكتاب، وقد نقلها حرفيًا أو لخّصها. كما أضيفت إلى النشرة المصرية من كتاب **الاتّعاظ** في الملحق. ولم نتمكّن من الاطّلاع على المخطوط الكامل الذي يوجد باسطنبول.

56م) [من بين المصادر الفاطميّة التي نُشرت بعد ظهور النصّ الفرنسي لهذا الكتاب، نذكر بالخصوص كتاب **عيون الأخبار** للدّاعي إدريس عماد الدين:
– السبع الرابع، نشر مصطفى غالب، بيروت 1973.
– السبع الخامس، نفس الناشر، بيروت 1984.
– السبع السادس، نفس الناشر، بيروت 1984.
– مقتطفات، نشر فرحات الدشراوي، تونس 1979.
– تاريخ الخلفاء الفاطميّين بالمغرب، نشر محمد اليعلاوي، بيروت 1985].

57) ليس من النادر أن يتخلّى المؤلّف عن سرد الأحداث حسب تسلسلها التاريخيّ ليجمع في عرض متتابع أحداثًا في فترات متباعدة. أنظر مثلاً ما قاله ابن الأثير إثر الفصل المتعلّق بغزوة بني هلال (442 – 543هـ): =

أغلب الأحيان مصادرها، ويا للأسف، ينبغي تناوله بكلّ حذر، كما هو الشأن بالنسبة إلى كتاب ابن خلدون.

37– كتاب **نهاية الأرب**، وهو عبارة عن موسوعة من تأليف الكاتب المصري النّويري (المتوفّى سنة 733 هـ/ 1332م)، تتضمّن بعض الأخبار عن بني زيري، وهي ليست مجرّد تقليد لتاريخ ابن الأثير.

38– ومن أهمّ مزايا حوليّات الكاتب السوري أبي الفداء (المتوفّى سنة 732 هـ/ 1331م)، أنها تحتوي على استشهادات مقتبسة من تاريخ ابن شدّاد.

و) المصادر غير الإسلاميّة :

39–40– إنّ المصادر المسيحيّة النّادرة والمتفرّقة التي اعتمدها كلٌّ من دي ماس لاتري وأماري وكورتوا وغيرهم[57م]، لا تكتسي نفس أهميّة الوثائق اليهوديّة العربيّة التابعة لبيعة القاهرة والتي يواصل الباحث غواتين دراستها دراسة منهجيّة[58].

2) الجغرافيّون والرحّالون

أ) المصادر الأصليّة :

لقد جمع بعض المعاصرين للفترة المعنية بالأمر الذين زاروا كلّهم إفريقية – ما عدا واحد منهم فقط – وثائق جغرافية غزيرة المادة تغطّي كامل تاريخ الدولة الصنهاجيّة. ومن حسن الحظّ فهي ما زالت محفوظة إلى حدّ الآن.

41– لا ينبغي إهمال كتاب الجغرافيا الذي ألّفه اليعقوبي (المتوفّى بعد سنة 278 هـ/ 891م)، وهو مؤلّف مشرقي اعتنق المذهب الشيعيّ وطاف في أنحاء بلاد المغرب، وذلك بالرغم من أنّ الكتاب سابق للعصر الصنهاجيّ.

42– كما أنّ كتاب المؤلّف المشرقي ابن حوقل (المتوفّى بعد سنة 367 هـ/ 977م)، الذي زار المغرب هو أيضًا، يوفّر لنا معلومات ثمينة حول إفريقية قُبيل قيام الدّولة الصّنهاجيّة.

= «وكان ينبغي أن يأتي كلّ شيء من ذلك في السنة التي حدث فيها، وإنّما أوردناه متتابعًا ليكون أحسن لسياقته، فإنه إذا انقطع وتخلّلته الحوادث في السنين لم يُفْهَم» (**الكامل**، 238/9).

57م) [أنظر قائمة المراجع غير العربية الواردة في آخر الجزء الأوّل من هذا الكتاب].

58) ومن سوء الحظّ بالنسبة إلى موضوع دراستنا، فإنّ هذا الباحث قد أعطى الأولويّة لبلدان المشرق والشرق الأقصى، وتأتي الوثائق المغربية الصّميمة في المقام الأخير. ولكنّه تفضّل بإمدادنا بنسخة مرقونة من الدراسة التي سيساهم بها في **تحيّة ليفي بروفنسال**، وهي تبحث في موضوع له علاقة بدراستنا. ولكن ضيق الوقت لم يسمح لنا باستغلال ذلك الفصل البالغ الأهميّة.

43– من المحتمل أن يكون المقدسي (المتوفّى سنة 378 هـ / 588م) قد زار هو أيضًا بلاد المغرب. وتعتبر شهادته على غاية من الأهمّيّة لأنها صادرة عن رجل محبّ للاطّلاع ومؤهّل للفهم.

44– أمّا البكري (المتوفّى سنة 487 هـ / 1094م)، فإنه لم يغادر الأندلس. وقد ألّف في سنة 461 هـ / 1068م كتابًا جغرافيًّا نفيسًا جدًّا، بالاعتماد على المعلومات الشفوية أو المنقولة من الكتب. ويتمثّل مصدره الأساسيّ في الكاتب محمّد بن يوسف الورّاق[59] (المتوفّى سنة 363 هـ / 974م)، الذي هاجر إفريقية ووضع نفسه في خدمة أمراء بني أميّة بالأندلس، وقد كتب لهم عدّة مؤلّفات تاريخيّة وجغرافيّة، أهمّها كتاب **مسالك إفريقيّة وممالكها**.

واجدير بالملاحظة أن آثار هذا الكاتب الذي تُعتبَر شهاداته المتعلّقة بالقرن الحادي عشر أقلّ قيمة من الشهادات المتعلّقة بالقرن العاشر [ميلاديّ][60]، قد تضمّنت معلومات حول بعض المسالك المضبوطة، واستطرادات تاريخيّة ثمينة.

45– بعد الدّراسات التي زاولها بقرطبة والرّحلات الطويلة التي قام بها، تحوّل الإدريسيّ (المتوفّى سنة 560 هـ / 1166م) إلى صقليّة بدعوة من ملكها رُجَار الثّاني. وقد ألّف له كتابًا جغرافيًّا غزير المادّة أتمّه في سنة 548 هـ / 1154م ثمّ توسّع فيه وأهداه إلى الملك غليوم الأوّل. إلاّ أنّ ذلك الكتاب لم يصلنا إلاّ في شكل مختصر لم يتمّ نشره إلى حدّ الآن. أمّا بالنسبة إلى المغرب فإن «**كتاب رُجَار**» يوفّر لنا معلومات غزيرة مستمدّة في آن واحد من الكتب ومن الملاحظات الشخصيّة. وإننا نجد فيه وصفًا صالحًا في الجملة بالنسبة إلى عهود آخر ملوك بني زيري. وبالمقابلة بينه وبين الكتب الجغرافيّة السابقة، وبالخصوص كتاب البكري، نلاحظ ما انجرّت عن غزوة بني هلال من تغييرات عميقة.

ب) **الكتب المنقولة:**

46– ينبغي الاطّلاع على كتاب **الاستبصار** الذي جمع مادّته كاتب مجهول في سنة 587 هـ / 1191م.

47– ومن ناحية أخرى فإن المعجم الجغرافي الذي ألّفه الكاتب المشرقي ياقوت (المتوفّى سنة

---

59) برنشفيك، تحيّة غوديفروا دي مونبين، القاهرة، 1935 – 1945/ 149 – 151.

60) من ذلك مثلاً أنه لم يشر حتى مجرّد الإشارة إلى بني هلال، إلاّ أنه أشار إلى بناء أسوار القيروان في سنة 444 هـ من طرف المعزّ بن باديس، ولكنّه ذكر أن نهب تلك المدينة قد تمّ في سنة 425 عوضًا عن 449 هـ. كما أنه أشار إلى تلك الواقعة عند الحديث عن القلعة التي أصبحت مركزًا هامًّا للقوافل بعد خراب القيروان، البكري، 25 – 26، 49.

627 هـ / 1229م) لم يهمل ذكر المواقع المغربية التي خصّص لها عدّة فقرات ليست على غاية من الطرافة ولكنها مع ذلك مفيدة.

48– ويُعتبَر كتاب الرحّالة التونسي [عبد الله] التجاني، **الرحلة** وثيقة تاريخية وجغرافية على غاية من الأهمية. وهو عبارة عن وصف للرحلة التي قام بها المؤلّف في إفريقيّة من سنة 706 إلى سنة 709 هـ / 1037–1309م. ولئن كان من الممكن الاستغناء عمّا وردت فيه من معلومات جغرافيّة موجودة في بعض المصادر الأخرى أو لا تهمّ الفترة التي نتناولها بالدرس، فإنّه لا غنًى لنا عن العروض التاريخيّة التي تتضمّن استشهادات مقتبسة من بعض كتب الأخبار المفقودة، لا سيّما منها التابعة للعصر الصنهاجيّ.

3) التّراجم والمصادر الفقهيّة والأدبيّة

تتمثّل مصادرنا بالنسبة إلى الحياة الدينيّة في كتب التّراجم والسِّيَر[61] التي ألّفها الكتّاب الآتي ذكرهم، وهم كلّهم من أهل السنّة: المالكي (المتوفّى سنة 575هـ/ 1179م)، والدبّاغ (المتوفّى سنة 699هـ/ 1300م)[62]، وابن ناجي (المتوفّى سنة 839هـ/ 1435م)، الذي واصل عمل الكاتب السابق، والغبريني (المتوفّى سنة 800هـ/ 1397م)، وابن الجزري (المتوفّى سنة 833هـ/ 1678م)، وابن مريم (المتوفّى بعد سنة 1011هـ/ 1602م)، وابن العماد (المتوفّى سنة 1089هـ/ 1678م)، ومخلوف [المتوفّى سنة 1941].

كما استفدنا من الاطّلاع على **مناقب** الجبنياني (المتوفّى سنة 369هـ/ 979م)، ومحرز بن خلف (المتوفّى سنة 413هـ/ 1022م).

ومن بين كتب الفقه[63]، نذكر بالخصوص **رسالة** ابن أبي زيد [القيرواني] (المتوفّى سنة 386هـ/ 996م)، التي من المفيد جدًّا مقارنتها مع **دعائم الإسلام** للقاضي النعمان.

كما أنّ الفتاوى العديدة الصادرة في العصر الصنهاجي والتي نقلها لنا كلٌّ من البرزلي

---

61) لم يصلنا كتاب **الافتخار** للتجيبي (المتوفّى سنة 432هـ/ 1030م) والجزء الثالث (المفترض) من كتاب **رياض النفوس** لأبي بكر المالكي، وكتاب **العوالي**، وغير ذلك من كتب التراجم.

62) وهو مؤلف كتاب **واسطة النظام في تواريخ ملوك الإسلام**، وفيه رأي مصيب ومعتدل حول العبيديّين بإفريقيّة، مقديش، 343/1.

63) هناك كتب فقهية أخرى مثل **النوادر** لابن أبي زيد، ما زالت مخطوطة ولا يسمح المقام بالبحث عنها ودراستها.

والونشريسي وابن الشبّاط ، قد تضمّنت معلومات واضحة كلّ الوضوح حول حقيقة الحياة الاجتماعية والاقتصادية[64] .

وبالنسبة إلى الحياة الأدبية ، فقد عَوَّضْنا الكتابَيْن الهامَّيْن المفقودَيْن حول تاريخ الأدب الصنهاجي ، وهما **الأنموذج** لابن رشيق **وحديقة القصر** لأبي الصّلت ، بالمقتطفات التي نقلها عنهما كلٌّ من التّجاني والصفدي وعماد الدين الأصفهاني وابن فضل الله العمري[65] .

---

64) لقد اضطُرِرْنا في كلّ إحالة إلى إعادة ذكر اسم الفقيه وتاريخ وفاته ، لوضع كلّ فتوى في إطارها التاريخيّ. وأهملنا ذكر الفتاوى ذات الطابع النظري الصرف التي لا تهمّ إلاّ تاريخ الفقه الإسلامي . وبالنسبة إلى الفتاوى الأخرى ، فإن السؤال المطروح هو الذي يمثّل الوثيقة القابلة للاستغلال ، ولو أن الجواب يوفّر لنا في أغلب الأحيان معلومات مدقّقة ومتداخلة مع بعض الاعتبارات الشرعيّة ، حول القضايا المعروضة . كما يمدّنا أحيانًا بنصّ الفتوى والإشارة إلى بعض الفتاوى الأخرى الخ...

ونورد فيما يلي قائمة أهمّ فقهاء العصر الصّنهاجي ، مرتّبين حسب التسلسل الزمني [مع ذكر تاريخ وفاتهم بين قوسيْن] :

- ابن أخي هشام (371–373 / 981–983) .
- ابن التبّان (371 / 981) .
- ابن أبي زيد االقيرواني (386 / 996) .
- ابن شبلون (390–91 / 999–1000) .
- الداوودي (402 / 1011) .
- القابسي (403 / 1012) .
- ابن الكاتب (408 / 1017) .
- أبو الطيب عبد المنعم الكندي (421 / 1030) .
- أبو زكرياء يحيى الشقراطسي (429 / 1038) .
- أبو عمران الفاسي (430 / 1038) .
- أبو حفص عمر بن العطّار (430 / 1038) .
- أبو بكر بن عبد الرحمان (432 – 435 / 1040 – 1043) .
- أبو الطيّب بن خلدون (435 / 1040) .
- أبو عبد الملك مروان البوني (قبل 440 / 1048) .
- ابن الضابط (بعد 440 / 1048 – 1049) .
- التونسي (443 / 1051) .
- ابن محرز (450 / 1058) .
- أبو القاسم عبد الجليل الربعي المعروف باسم الديباجي بن الصابوني تلميذ أبي عمران الفاسي .
- السيوري (460–462 / 1067–1069) .
- أبو إسحاق القفصي زميل التونسي والسيوري .
- أبو محمد عبد الله بن أبي زكريا الشقراطسي (466 / 1073) .
- اللّخمي (478 / 1085) .
- عبد الحميد بن الصايغ (486 / 1093) .
- المازري (536 / 1141) .
- أبو الفرج التونسي معاصر (؟) للمازري .
- ابن مشكان آخر تلامذة المازري .

65) من ذلك أن الجزء السابع عشر من كتاب **مسالك الأبصار**، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 2327 ، يتضمّن من صفحة 41 إلى صفحة 129 قسمًا لا بأس به من **الأنموذج**. ومن كتاب الصفدي **الوافي** ، لم نطلع إلا على الأجزاء المنشورة . ومن ناحية أخرى تجدر الإشارة إلى أن **خريدة العصر** لعماد الدين الأصفهاني تتضمّن بعض قطع من مختارات الكاتب الصقلي المهدوي ابن بشرون (منتصف القرن الثاني عشر ميلادي) .

واستقينا بعض المعلومات حول المبادلات الثقافية بين إفريقيّة من جهة وبين بقيّة بلدان الغرب الإسلاميّ والمشرق من جهة أخرى، من كتب التراجم والفهارس التي ألّفها بعض الكتّاب الأندلسيّين أمثال ابن الفرضي (المتوفّى سنة 403هـ/ 1012م)، والحميدي (المتوفّى سنة 488هـ/ 1095م)، وابن بشكوال (المتوفّى سنة 578هـ/ 1183م)، وابن خير (المتوفّى سنة 575هـ/ 1179م)، والضبّي (المتوفّى سنة 599هـ 1203م)، وابن الأبّار (المتوفّى بتونس سنة 658هـ/ 1260م)، والمقري (المتوفّى سنة 1061هـ/ 1651م)، أو التي ألّفها بعض الكتّاب الشرقيّين أمثال عماد الدين الأصفهاني (المتوفّى سنة 597هـ/ 1201م)، وياقوت (المتوفّى سنة 627هـ/ 1229م)، وابن القفطي (المتوفّى سنة 646هـ/ 1248م)، وابن خلّكان الذي أتمّ تأليف **الوفيات** سنة 673هـ/ 1274م، وابن شاكر الكتبي الذي ألّف كتابه **الفوات** سنة 754هـ/ 1353 – 1354م، والصفدي (المتوفّى سنة 763هـ/ 1362م).

وأخيرًا لا يفوتنا أن نذكر كتابَيْن نفيسَيْن من كتب المختارات الأدبيّة، ألّفهما في العصر الحديث الكاتبان التونسيّان محمّد النيفر [المتوفّى سنة 1912] **عنوان الأريب**، وحسن حسني عبد الوهّاب [المتوفّى سنة 1968] **المنتخب المدرسي**[65م].

وينبغي أن نضيف إلى أبحاث الأستاذَيْن المتخصّصَيْن في الآثار الإسلاميّة بالمغرب العربي، جورج مارسي وهانري تراس، أبحاث سليمان مصطفى زبيس في تونس ولويس غولفين في الجزائر[66].

وبالنسبة إلى الفنون الصغرى، استقينا معلوماتنا من أعمال جورج مارسي ولويس بوانسو وفرنسوا فيري.

وأمّا فيما يتعلّق بالمسكوكات والنقائش، فقد اعتمدنا على دراسات فرّوجيا دي كنديا وكتاب هازال، بالنسبة إلى المسكوكات، ورجعنا إلى منشورات برنار روا (Roy) ولويس بوانسو وسليمان مصطفى زبيس بالنسبة إلى النقائش.

65م) [بعد ظهور النصّ الفرنسي من هذا الكتاب، صدرت أطروحة الأستاذ الشاذلي بو يحيى التي تحمل عنوان: **الحياة الأدبية في عهد بني زيري**، (باللغة الفرنسية)، تونس 1972].

66) على إثر اندلاع حوادث [الجزائر]، توقّف التنقيب عن المواقع الأثريّة في إفريقيّة الصّنهاجية بعض الوقت، بعدما شهد تقدّمًا كان يبشّر بكلّ خير. أمّا كتاب لويس غولفين الذي صدر أخيرًا بعنوان: **المغرب الأوسط في عهد بني زيري** (باللغة الفرنسية)، فإن قيمته تكمن بالخصوص في القسم الأثري الممتاز.

القسم الأول

التاريخ السياسي

الباب الأوّل
نشأة الدّولة الصّنهاجيّة

الفصل الأوّل
أصل صنهاجة

في مطلع القرن الرّابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي ، وعلى وجه التحديد عندما انتزع الفاطميّون إفريقيّة من أيدي الأغالبة ، بدأ ظهور الصنهاجيّين التابعين لقبيلة بربريّة حضريّة مستقرّة غربيّ المغرب الأوسط ، والذين سيحكمون تلك البلاد فيما بعد ، وقد برزوا من شبه الظلّ الأسطوري الذي يسمح لنا مع ذلك بأن نلمح من خلاله مخاض تلك القوّة الجديدة .

وحول منشإ صنهاجة[1] دافع علماء الأنساب البربر والعرب عن نظريّتَيْن متناقضتَيْن :

1) بالنسبة إلى ابن خلدون ، **العبر**، 152/6 ، فإن كلمة صنهاج هي الصيغة المعرّبة لكلمة زناج وهو اسم الجدّ الأعلى الذي أُطْلِقَ على الصنهاجيّين. أمّا المختصّون في اللغة البربرية فإنهم يرون أن هناك وجه شبه بين هذه الكلمات الثّلاث : زناجة وصنهاجة وسينيغال ، أنظر: مارسيل كوهين، **مجلّة الدراسات العربية** ، عدد 33 ، الجزائر ، ماي – جويلية 1947 ؛ والبار لوكلير، نفس المجلة ، عدد 38 ، الجزائر ، ماي – جويلية 1948 ؛ **وبنو غانية** ، المقدّمة ، 5 – 6 ، الإحالة 3 . فينبغي حينئذٍ رفض هذيان فقهاء اللغة العرب الذين قرّروا قراءة كلمة صنهاجة على النحو التالي : صُنهاجة (بالضمّ) ، حسب ابن دريد الذي لا يعترف بأيّ قراءة أخرى أو صِنهاجة (بالكسر) ، حسب البعض الآخر. أنظر ابن خلّكان ، 87/1 .

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ ليفي بروفنسال الذي يرجع إليه الفضل في نشر وترجمة **مذكّرات عبد الله** التي ألّفها آخر أمراء بني زيري بالأندلس في مدينة أغمات ، بعدما خلعه يوسف بن تاشفين سنة 483هـ/ 1090م ، يفترض أنّ المخطوط الوحيد المستعمل هو مبيّضة النصّ الأصلي التي راجعها هذا الأخير، ويظنّ أنّ الأمر ربّما يتعلّق بالنسخة التي جلبها ابن الخطيب من أغمات سنة 761هـ/ 1359 – 1360م. وبما أنّ حرف «الصّاد» كان مشكولاً بالكسر في كثير من المواضع في المخطوط ، فإن ليفي روفنسال قد اقترح قراءة كلمة صِنْهاجَة الواردة في تلك المواضع =

1 – نظريّة علماء الأنساب البربر[2] :

لقد قسّم علماء الأنساب البربر القبائل البربريّة إلى مجموعتيْن رئيسيّتيْن : البرانس أعقاب برنس بن برّ ، والبُتْر المنحدرون من سلالة مادغيس الأبتر بن برّ ، ونسبوا الجدّ الأعلى برّ الذي أعطى اسمه لهذه المجموعة إلى كنعان بن حزم بن نوح[3] .

وسوف لا نتوقّف عند النظر في صحّة هذا التقسيم ، ولكنّنا نقول إنه يجسّم ، حسب الاحتمال ، الشعور الذي كان يحدو مختلف القبائل البربريّة حول نسب كلّ قبيلة . ويبدو أنّ علماء الأنساب قد تبنّوْا تارةً النظريّة السّابقة للتجربة وطورًا تأويل الوقائع المترتّبة على التجربة[4] .

وبطبيعة الحال فإن الاتّجاه الثاني هو الأكثر إفادة . وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا

= بالكسر. ولعلّ الشكل قد زيد فيما بعد من طرف ناسخ أو قارئ ؛ يمكن أن يكون ابن الخطيب ذاته ، أو ربّما ارتكز على الملاحظة المشار إليها أعلاه ، التي أبداها بعض اللغويّين العرب . وحتى لو كان ذلك الشكل من وضع المؤلف ذاته ، فإنه لا يمثّل حجّة غير قابلة للطعن . ولذلك فقد فضّلنا الاعتماد على القراءة المعهودة . أنظر : **مذكرات عبد الله** ، الترجمة ، 236 ، 237 ، 238 ، الإحالة 13 .

2) ابن حزم ، **الجمهرة** ، 461 ؛ **مفاخر** ، 47 – 51 ، 64 – 66 ؛ **العبر** ، 152/6 ؛ **البربر** ، 1 ، المقدّمة 15 ، 2/2 – 3 ؛ ابن حوقل ، 104/1 – 107 ؛ البكري ، 104 ، **البلدان** ، 104/2 ؛ فورنال ، 33/1 – 36 ، 204/2 والإحالات ؛ **بنو غانية** ، المقدّمة ، 5 – 6 ، الإحالة 2 ؛ جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر** ، المقدّمة ، 18 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** ، 158/1 .

3) غوتيي ، **عصور المغرب المظلمة** ، 202 – 214 (النشرة الثانية) ؛ **ماضي شمال إفريقيا** ، 227 – 239 . وحسب هذا المؤلّف فإن التقسيم المذكور ربّما يتطابق مع نمطين مختلفين من أنماط العيش «فأبناء برنس هم سكّان الجبال المستقرّون وأبناء ماغديس هم البدو الرحّل المقيمون في السهول» . ولا حاجة لنا في مناقشة هذا الافتراض الجذّاب والجريء في نفس الوقت .

4) ابن حوقل ، 104/1 – 107 . ويذكر المؤلف على التوالي : 1) الصّنهاجيّون الخلّص ، 2) والصّنهاجيّون الذين هم بين الحبشة والزنج وهم بنو تانماك ملوك تادكمة والقبائل التابعة لهم . وحسب بعضهم فإنهم زنوج منحدرون من أمّهات زنجيّات وربّما ابيضّت بشرتهم تحت تأثير الطقس الشمالي . وحسب البعض الآخر فإنهم من أصل صنهاجي . ويستند أصحاب الرأي الأوّل على الكندي الذي يؤكّد أن البيض الذين يعيشون في السّودان يصبحون زنوجًا بعد 7 أجيال وبالعكس من ذلك فإن الزنوج الذين يعيشون في بلاد البيض تبيضّ بشرتهم خلال الجيل السابع . أمّا أصحاب الرأي الثاني فإنّهم يعتبرون أنّ صنهاجة تضمّ فروع بني تماكيزت ومساطة ، التابعين لأسرة بلكين يوسف بن زيري خليفة بني عُبَيد في المغرب . ومن بين القبائل الصّنهاجيّة المنحدرة من حلب ... (نقص في النص) ... يُوجَد بنو عمر زيري وقبيلته يساوة؟ ويفرن؟ وايماكيتن؟ وإيتوتن؟ وإيترُوين؟ وإيوازين؟ وأُسواله؟ وبنو كسيلة وبنو ورتاف؟ وإيزقارن؟ وتَلكاتة . ويتحدّث ابن حوقل بعد ذلك عن القبائل الزناتية ويميّز بين «صنهاجة الكفّار» و«صنهاجة المسلمين» . أنظر : كنار ، **ترجمة سيرة جعفر** ، مجلّة هسبيريس 1952 ، 312 ، والإحالة 3 .

الصّدد أنّ قبيلتَيْ كتامة وصنهاجة المواليتَيْن للفاطميّين، وقبيلة مصمودة التي بعثت الحركة الموحّدية، هي من القبائل المنحدرة من البرانس، بينما عدوّتها اللّدودة زناتة التي ينتمي إليها بنو برزال ومغراوة وبنو يفرن ويكوّنون بطونها الثلاثة الرئيسيّة، تنحدر من البتر، وكذلك الشأن بالنسبة إلى قبيلة مكناسة الأكثر قرابةً منها. كما تنتمي أيضًا إلى البتر قبائل نفوسة وهوّارة وبنو دمار ولواتة ونفزاوة التابعة للمنطقة الجنوبيّة من إفريقيّة[5].

ولئن كانت هذه القرابة القبليّة الحقيقيّة أو الوهميّة لا تحول دائمًا دون الصراعات بين الإخوة، إلاّ أنّه بدون هذه الرابطة، يظلّ كلّ تحالف غير متجانس معرّضًا للانفصام.

وأخيرًا فإنّ بعض علماء الأنساب البربر الراغبين في إسناد نسب شريف إلى أبناء جنسهم، لم يتردّدوا في تأكيد انحدار البربر من سلالة عربيّة مُضَرية، حيث جعلوا من برّ ابنًا من أبناء قيس عَيْلان بن إلياس بن مُضَر، وقد فنّد ابن حزم هذا الادّعاء[6]. وبما أنّ معظم الفاتحين العرب القادمين إلى المغرب، إن لم نقل جلّهم، هم من سلالة حِمْيريّة، فلا غرابة حينئذٍ إذا ما لاحظنا أنّ بعض علماء الأنساب الذين هم مع ذلك من أصل عربي قد أسندوا إلى البربر أصلاً عربيًّا.

2 – نظرية علماء الأنساب العرب[7]:

إنّ صاحب هذه النظريّة، أو على الأقلّ أوّل من نادى بها، هو النسّاب العربي الشهير أصيل الكوفة، ابن الكلبي (المتوفّى سنة 204 أو 206 هـ/ 819 – 821م)، وقد نسج على

---

5) وحول نسب زناتة، أنظر: ابن حزم، **الجمهرة**، 461؛ الاستشهاد بيوسف الورّاق الذي أورد خبرًا منقولاً عن أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد، ابن أبي يزيد الشهير، «صاحب الحمار»، 462 – 463؛ ابن حوقل، 1/106 – 107 الذي أحصى القبائل الزناتية إحصاء شاملاً، **البربر**، 1/المقدّمة؛ **النقوش العربية**، 1/232 – 234، 257، 379 – 380 والإحالات؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة**، 3/19 (لواتة)، و4/1293 (زناتة).

6) ابن حزم، **الجمهرة**، 461. وقد لاحظ المؤلف أن النسابين (العرب؟) لا يعرفون ابنًا لقيس عيلان يحمل اسم برّ. والجدير بالملاحظة أن الإدريسي (الترجمة، 102) يؤكّد أنّ الزناتيّين هم في الأصل من العرب الخلّص المنحدرين من برّ بن قيس بن إياس بن مُضَر، ولم يصبحوا بربرًا إلا بواسطة المصاهرة مع المصامدة.

7) الطبري، طبعة القاهرة، 1/229؛ ابن حزم، **الجمهرة**، 6 – 7، 406، 408 – 410، 411، 461؛ ابن خلّكان، 1/98؛ **العبر**، 6/152؛ النويري، 2/101 – 102؛ **مفاخر**، 51، 66 – 69؛ المرّاكشي، طبعة 1847، 254؛ البكري، 21، **المؤنس**، 71 – 72؛ **البلدان**، 2/104؛ **بنو غانية**، المقدّمة، 5 – 6 / الإحالة 2؛ فورنال، 2/204.

منواله كثير من المؤلفين اللاّحقين[8].

ومن المعلوم أنّ علم الأنساب العربي التقليديّ قد ميّز بين عرب الشمال أو العدنانيّين المنحدرين من عدنان بن إسماعيل، وبين عرب الجنوب أو القحطانيّين الذين هم من سلالة قحطان المطابق ليقطان بن عابر[9]. والحال أنّ ابن الكلبي قد زعم أنّ أحد أحفاد قحطان، وهو إفريقش بن صيفي قد تحوّل من اليمن إلى إفريقيّة مرورًا بسوريا وفلسطين، حيث التقى ببعض الكنعانيّين الذين أبقاهم يوشع، فاصطحبهم إلى إفريقيّة التي فتحها وقتل ملكها جرجير. ولا شكّ أن الأمر يتعلّق بالبطريق البيزنطي الذي كان مقيمًا بقرطاجنة وقتله عبد الله بن سعد أثناء غزوته الأولى ضدّ إفريقيّة في عهد الخليفة عثمان بن عفّان[10]. فيا لها من غلطة تاريخيّة فادحة!

وحسب هذه الرواية فقد أقرّ إفريقش بإفريقيّة الكنعانيّين الذين أصبحوا يسمّون البربر، عندما قال لهم: «ما أكثر بربرتكم»، ومكث الحميريّون الذين قدموا مع القائد الفاتح في إفريقيّة، ومنهم تنحدر صنهاجة وكتامة، حسبما يبدو.

وقد لخّص ابن خلدون هذه الرواية في **مقدّمته**[11]، دون أن يشير إلى جرجير ولا إلى الكنعانيّين، واعتبر البربر أهل البلاد الأصليّين، للسّبب الذي نعرفه. كما أشار إلى تلك الرواية التي نقلها عدد من المؤلفين الآخرين[12]، وفنّدها باعتبارها من قبيل الخرافات.

إلاّ أنّه بعدما أكّد في **كتاب العِبَر**[13] أنّ البربر ليسوا من أصل عربي، استثنى منهم الصنهاجيّين والكتاميّين الذين ينحدرون من أصل عربي، حسب علماء الأنساب العرب، وأيّد هذا الرأي[14].

---

8) أنظر: هُوَار، **تاريخ الأدب العربي**، 177–178؛ بروكلمان، 1/138–140؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة**، 2/730–731. لقد احتدّ التنافس بين عرب الشمال والجنوب منذ العهد الأموي، وذلك في شكل نزاع بين القيسيّين والكلبيّين. أنظر: نيكولسون، **تاريخ العرب**، كمبريدج 1930، 199، الإحالة 2.

9) **دائرة المعارف الإسلامية**، 2/669–671 (قحطان). إنّ التطابق بين يقطان وقحطان يلحق القحطانيّين بالتقاليد التوراتية (مثل العدنانيّين بالنّسبة إلى إسماعيل ابن إبراهيم).

10) ابن عبد الحكم، **فتح المغرب والأندلس**، ترجمة غاتو، الطبعة الثانية، الجزائر 1948، 42–47.

11) **المقدّمة**، 1/19–23.

12) نفس المرجع، 1/19–23؛ المسعودي، **مروج الذهب**، 111، 143–144، 240–243، 293–294.

13) **البربر**، 1/185 و2/64 وما بعدها.

14) كما نُسِب الهواريّون إلى أصل حميريّ، اليعقوبي، طبعة 1892، 346؛ **مفاخر**، 71–72، **المؤنس**، 71–72. ونسب نفس الأصل إلى المصامدة، فورنال، 2/204، الإحالة 5. أنظر أيضًا حول هذا الموضوع: اليعقوبي، 345–357.

وهناك رواية أخرى لاحقة بدون شكّ للرواية المذكورة ، قد تبنّاها بعض المؤلفين الآخرين ، ومن بينهم ابن شدّاد حفيد تميم. وهي تنسب إلى المثنّى بن المِسْوَر بن يحصوب الدور الذي قام به إفريقش ، وقد أهملت تمامًا ذكر هذا الأخير[15].

وحسب رواية أسطوريّة نقلها أو اختلقها ابن شدّاد – وهي تشبه ما تنبّأ به فيما بعد أحد المغاربة من مستقبل لمناد –[16] قدم المثنّى بن المِسْوَر إلى المغرب إثر اجتياح اليمن من طرف الحبشيّين ، بناءً على نصائح أحد العرّافين الذين تنبّأ بأن أحفاده سيقيمون دولة عتيدة بالمغرب. ويبدو أن خبر هذا التنبّؤ قد نُقِل أبًا عن جدّ إلى أن تحقّق.

كما ادّعى النسّابون الزناتيّون من جانبهم أن قبيلتهم تنحدر من أصل حميري[17].

ومهما يكن من أمر فإنّ بني زيري الصنهاجيّين قد ادّعوا دومًا وأبدًا أنّهم ينتسبون إلى أصل حميري. ولنا عدّة شهادات على هذا الادّعاء الذي لم يتردّد بعض المتملّقين في الإعلان عنه في مدائحهم[18].

وإليك فيما يلي هذه النّادرة المعبّرة[19] : فقد هجا الشّاعر الصّابوني (المتوفّى سنة 409 هـ / 1018 – 1019م) المدعوّ ابن الوسطاني[20] ناسبًا مساوئه إلى جنسه البربري. فدافع عنه الشاعر السرّاي ، ملاحظًا أنّ الصّابوني قد تهجّم بهذا الهجاء على عُدّة العزيز بالله

15) العِبَر ، 152/6 ، ينقل هذه الرواية عن ابن النحوي ، وقد نقلها أيضًا عماد الدين الأصفهاني في خريدة القصر ؛ وابن خلّكان ، 198/1. أنظر أيضًا مقديش ، 137/1 ، الاستشهاد بابن شدّاد الذي ربّما يكون هو صاحب هذه الرواية. ولكنّنا نجد بوادرها في الجمهرة ، 462 – 463 ، عند الحديث عن أوريغ جدّ الهوّارين. حيث صرّح ابن حزم أن الذين يعتبرون أن أوريغ ينحدر من المثنّى بن المسور هم مخطئون. ثم أضاف قائلاً : وهناك من يدّعي أيضًا أنّ صنهاج ولمط هما أبنا امرأة تدعى تازكي (أو تازكاي) ، وأبوهما مجهول. وقد تزوّجها أوريغ وأنجب منها ابنًا اسمه هوّار. بحيث أنّ صنهاج ولمط وهوّار هم إخوة من الأمّ.

16) أنظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

17) البربر ، 182/3 – 183.

18) أنظر بالخصوص ثلاثة أبيات شعر للحلواني ، ابن بسّام ، 230/6 – 231. كما مدح إسماعيل بن إبراهيم القيرواني اللغوي الزويلي ابن باديس مصرّحًا بأنه ينحدر من حِمْيَر وقحطان ، ابن قفطي ، 192/1 – 193. ولم يتردّد ابن رشيق في النسج على هذا المنوال (العمدة ، المقدّمة ، 2/1) ، وكذلك علي الصيرفي ، (العمري ، مخطوط باريس 3027 ، ص 92 (القفا) و93 (الوجه)). أنظر أيضًا : الفصل الثاني من الباب الثاني ، وقد جاء فيه أن المنصورَ يفتخر بنسبه الحميري.

19) أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.

20) هل ينبغي تصحيح هذا الاسم بالواسطي أو الوسطاني؟

(المنصور) الذي هو من أصل بربري. ولكنّ الصابوني قد أفحمه معلنًا أنّ المعزّ (بن باديس) ينتمي إلى بيت حميري !

التّلكاتة[21] :

ومن بين الفروع العديدة التابعة لقبيلة صنهاجة ، والتي يُعتبَر تقدير عددها بسبعين فرعًا ، تقديرًا اصطلاحيًّا ، نكتفي بالإشارة إلى الفرعَيْن الأكثر أهمّيّة ، واللّذَيْن أسّسا بعض الإمبراطوريّات في بلاد المغرب ، وهما فرع تَلْكَاتَة (أو تُلُكّاتة أو تَلْكّاتة) الذي ينتمي إليه بنو زيري بإفريقية والأندلس وبنو حمّاد بالمغرب الأوسط ، وفرع لمتونة الذي تمكّن بمساعدة أبناء جنسه من فرع مسوفة ، من إقامة الدولة المرابطية . وقد كان فرع تكلاتة أهل مَدَر (حضريّين) وفرع لمتونه أهل وَبَر (بدو رحّل) .

وليست لدينا معلومات مدقّقة حول حدود المنطقة التي كان يقيم بها التلكاتة عند سقوط الدولة الأغلبية ، ولكن يبدو أنّهم استقرّوا قبل ذلك في المنطقة الغربية من المغرب الأوسط . وقد أشار ابن خلدون إلى أنّ الصنهاجيّين ، ويعني بذلك التلكاتة كانوا مشهورين بأنّهم من «موالي»[22] الخليفة علي بن أبي طالب والزناتيّين المغراوة من «موالي» الخليفة عثمان بن عفّان ، ولكنّه لا يدري كيف تمّ ذلك . ومن الواضح أنّ هذا الولاء ناتج عن إخلاص صنهاجة للفاطميّين وإخلاص مغراوة للأمويّين.

---

21) **العبر**، 152/6 – 153 ؛ **البيان** ، 262/3 ؛ **مفاخر** ، 51 – 52 ؛ ابن حوقل ، 105/1 ؛ ليفي بروفنسال ، **وثائق لم يسبق نشرها عن الموحّدين** ، الفهرس ، ص 264 ، ولنفس المؤلف ، **مذكرات عبد الله** ، الترجمة 304 ، والإحالة 25 .

22) الكلمة المستعملة هي «ولاية». عندما اعتنقوا الإسلام أصبحوا «موالي» (جمع مولى) .

الفصل الثاني
مَنَاد[1]

كان مَنَاد بن منقوش على رأس تلكاتة قبل سقوط الدّولة الأغلبيّة سنة 296 هـ / 909 م. وقد تحوّل إلى المشرق في نفس السّنة التي زار فيها تلك الرّبوع «يونس القائم بدين برغواطة»[2]. وكان مناد آنذاك صاحب القلعة المناديّة القريبة من سجلماسة. وحسب هذه الرواية فإن مناد قد أقام عاصمته في قلعةٍ كانت تحمل اسمه وتقع في ضواحي تلك المدينة. وقد قيل إنه كان من موالي علي بن أبي طالب وإن نسبه يرجع إلى قحطان[3].

وحسب ما رواهُ ابن خلدون فإن بعض مؤرّخي المغرب قد اعتبروا أنّ مَناد بن منقوش كان يحكم قسمًا من إفريقيّة والمغرب باسم العبّاسيّين وبواسطة الأغالبة[4]. وممّا يزيد في صعوبة التحقّق من صحّة هذه الرّواية أن صورة ذلك الرّجل كانت تكتسي صبغة خرافيّة لا جدال فيها.

فقد كان يتميّز بقوّة عجيبة «وكان كثير المال والولد، حسن الضيافة لمن يمرّ به» [على

1) النويري، 103/2 – 104؛ البكري، 137؛ **البيان**، 225/1؛ **العِبَر**، 153/6؛ **الكامل**، 374/8؛ **مفاخر**، 51؛ فورنال، 207/2 – 208.

2) حسب ابن عذاري (**البيان**) والبكري، اعتمادًا على أبي العبّاس فضل بن مفضّل بن عمرو المَذْحَجِي، فقد رحل إلى المشرق في تلك السنة بالإضافة إلى مَناد: «عبّاس بن ناصح وزيد بن سِنان الزّناتي صاحب الواصِليّة وبرغوث بن سعيد التّراري جدّ بني عبد الرزّاق ويُعرَفون ببني وكيل الصّفريّة وآخر ذهب عني اسمه». وقد نقلنا العبارة التي استعملها البكري «عام واحد». ويبدو أنّ السنة التي أوردها **البيان** (201 هـ / 816 – 817 م) مشكوك في صحّتها، إذ سنرى أنّ ابن مناد وخليفته زيري قد توفّي في رمضان سنة 360 هـ / 970 – 971 م. فلعلّ المقصود 250 أو 301 هـ.

3) ذكر ابن خلدون في **العِبَر**، 153/6 نسب مناد حسب المؤرّخ الأندلسي ابن النحوي. أمّا النّسب الذي أورده ابن شدّاد ونقله عماد الدين في **خريدة العصر** (مخطوط باريس 3330 ص 50 قفا) وابن خلّكان (98/1) والنويري (102/2)، فهو مفصّل أكثر. أنظر: فورنال، 207/2.

4) **العِبَر**، 153/6، وحسب جورج مارسي وليفي بروفنسال (حوليات معهد الدراسات الشرقيّة، 1937، 14 – 15 والإحالة 3 ص 14)، فإن الإشارة إلى المدعوّ مصال بن حماد والي الميلة، المنقوشة على مثقال من الزجاج في سنة 127 هـ / 745 م، تدلّ على أن تدخّل الصنهاجيّين في إفريقيّة يرجع عهده إلى منتصف القرن الثامن إن لم نقل إلى أوائله. كما نجد اسم مصال في شكل مصالة، ولكن هذا الاسم لا يكتسي صبغة صنهاجيّة خالصة، مثل: مصالة بن حبوس أمير مكناسة. أنظر الفصل الثالث من هذا الباب.

حدّ تعبير ابن عذاري]. وكان له مسجد يأتي إليه النّاس من كل صوب وحدب. وعندما يتحوّل إليه لأداء الصّلاة، كان يسلّم على القادمين ثم يصطحبهم إلى بيته ويخصّهم بكرمه الحاتمي. فيقيمون في ضيافته ما شاؤوا من الوقت ثم يغادرون بيته محمّلين بالهدايا والمؤونة والملابس.

وذات يوم استقبل مَناد في بيته رجلاً مغربيًّا كان قد سلبه قطّاع الطريق أمتعته وهو راجع من الحجّ، فالتمس من مَناد أن يمدّ إليه يد المساعدة. وبعدما تفحّص الضيف كتف النعجة التي ذُبحت تكريمًا له، طلب إلى مضيّفه أن يقدّم إليه أبناءه فتمّ له ذلك. ولمّا لم يجد لدى أيّ واحد من أولئك الأبناء الأمارة التي كان يبحث عنها، سأل مناد هل أنّ له أبناء آخرين. فأجابه أنّ إحدى زوجاته التي لم تنجب أولادًا من قبل هي الآن حامل. وعند ذلك أوصاه الضّيف بأن يوليها بالغ العناية، لأنها ستلد طفلاً سوف يملك بلاد المغرب بأسرها وسوف يخلفه أحفاده أبًا عن جدّ. فأكّد مَناد أنّ ما تنبّأ به الرّجل مطابق للروايات التي يتناقلها الصنهاجيّون جيلاً بعد جيل، ولكنّهم لم يكونوا يعرفون إلى حدّ ذلك التاريخ في أيّ فرع من فروع قبيلتهم سوف يظهر ذلك الشخص الموهوب. ولا نعلم شيئًا آخر عن مَناد، كما أن تاريخ وفاته غير معلوم. وكذلك الشأن بالنسبة إلى بداية زيري بن مَناد.

الفصل الثّالث
زيري بن مَنَاد[1]

ما إن وُلِد زيري حتى بَدَت عليه إشارات تؤكّد صحّة ما تنبّأ به له الزائر المغربي. فقد كان طفلاً بهيًّا من أجمل ما خلق الله. على أنّ جمال أبناء مناد قد كان مضرب الأمثال في المغرب.

وعندما بلغ الطفل سنّ العاشرة، كان يبدو وكأنه في سنّ العشرين. ومن فرط تأثيره على أقرانه، أنّهم كانوا يسمّونه «السلطان». وقد كانوا يتشبّهون في لعبهم بجنود الخيّالة، مستعملين العصيّ بدلاً من الدّواب، وكانوا يتظاهرون بشنّ المعارك الحربيّة تحت قيادته. وبعد ذلك كان يصطَحبهم إلى بيت والدَيْه، حيث كانت أمّه تقدّم إليهم الطعام تحت إشرافه، بدون أن يتناول شيئًا من ذلك.

ولمّا أصبح في ريعان الشباب كان يقوم على رأس أبناء عمّه وبعض الشبّان الصناديد بغارات على قبائل زناتة، فيقتل ويسبي ثم يوزّع الغنائم بدون أن يستأثر لنفسه بأدنى امتياز.

وبفضل ما كان يتحلّى به من شجاعة وحزم وحسن سلوك وشهامة وتواضع مع العامّة، ظهر بمظهر البطل الذي أكّدت التكهّنات أنه سيبرز في صفوف الصّنهاجيّين.

وعندما تبيّن أن التلكاتة هم الذين سيحقّقون التّنبّؤات المعلَن عنها، بفضل زيري بن مَناد، حسدتهم القبائل الأخرى وشنّت هجومًا على زيري، ولكنّه تمكّن بعد معارك طويلة من دحر خصومه وقتلهم، ثمّ رجع إلى جبله محمّلاً بالغنائم والأسرى.

وأكّد ابن الأثير أن زيري «تقدّم في أيّام أبيه وقاد كثيرًا من صنهاجة وأغار بهم وسبى»[2]. ويتّضح من ذلك أنّ مناد الذي لا شكّ أنه كان طاعنًا في السنّ آنذاك قد تنازل عن جزء من سلطته إلى ذلك الابن الباسل. وسنرى أنّ ملوك بني زيري كانوا يعهدون في أغلب الأحيان بمهامّ مدنيّة وعسكريّة سامية إلى أولياء عهدهم.

---

1) النويري، 104/2 – 109؛ البربر، 8/2، 468 – 488؛ الكامل، 246/8؛ ابن خلّكان، 197/1؛ شذرات، 29/3 – 30؛ المؤنس، 72 – 73؛ فورنال، 208/2.

2) الكامل، 246/8.

ابتداء الخلافة الفاطميّة في إفريقيّة :

لقد قدم عُبَيْد الله المهدي[3] من المشرق معتمدًا على نسبه العلوي ، فتمكّن في سنة 296 هـ / 909م من خلع الأسرة المالكة العربيّة التابعة للخلافة الإسلاميّة السنيّة ببغداد والمواصلة لعمل الولاة الأمويّين والعبّاسيّين. وقد نجحت في ظرف قرن واحد (184 – 296 هـ / 800 – 909م) ، في إقامة الدولة الأغلبيّة العتيدة وتأسيس تلك الحضارة التي سنطلق عليها اسم «الحضارة القيروانيّة».

والجدير بالذّكر أنّ صانعي هذا النّصر المذهل الذي سرعان ما تتوّج بقيام خلافة شيعيّة مضادّة للخلافة السنيّة ، هم أولئك الكتاميّون من سكّان جبال القبائل الصغرى بالمغرب الأوسط . فهؤلاء البربر الحضريّون الذين اعتنقوا المذهب الشيعي منذ عهد قريب قد انضمّوا بحماس إلى الفاطميّين في ظلّ رايتهم البيضاء ، وأصبحوا يمثّلون القوّة العسكريّة والهياكل الأساسيّة للدّولة الجديدة التي حافظت في الظاهر على أهمّ عناصر النظام الإداري القائم الذات

ولتوطيد أركان دولته ، كان على المهدي أن يظهر ما كان يتّسم به من حزم شديد خلال سنواتٍ عديدة تميّزت بالثورات البالغة الخطورة التي أعلنها الكتاميّون وبإعدام الداعية أبي عبد الله ، لمحاولته الاستحواذ على الدولة التي ساهم مساهمة فعّالة في تشييدها .

وبعدما تمكّن المهدي من السيطرة على الوضع في إفريقيّة ، توجّهت أنظاره إلى المشرق وعلى وجه التحديد إلى مصر ، لأنّ المغرب لم يكن يمثّل بالنّسبة إليه سوى قاعدة انطلاق لغزو العالم الإسلامي . ولكن المحاولة التي كانت سابقة لأوانها قد باءت بالفشل . وعندئذ أرجأ تحقيق مطامعه الشرقيّة إلى فرصة لاحقة ، وحوّل ثِقَل سلاحه إلى المغرب الأقصى .

منطقة النفوذ الفاطميّ الأصليّة :

كانت سلطة المهدي تمتدّ إلى كامل المناطق التي كانت خاضعة للدّولة الأغلبيّة ، أعني في الجملة البلاد التونسيّة الحالية بإضافة طرابلس وبرقة ومنطقة قسنطينة باستثناء جبل الأوراس الذي كان خاضعًا للخوارج ، وصقليّة . وكانت ضواحي طرابلس في قبضة

---

3) انظر : ح . ابراهيم حسن و ط . أحمد شرف ، عبيد الله المهدي ، القاهرة 1947 .

الأباضيّين المستقرّين في جبل نفوسة ، في حين كانت منطقة الجريد التي يسيطر عليها الخوارج خاضعة للسلطة المركزيّة. وبفعل الواقع لم تَعُدْ منطقة القبائل الصغرى الكتامية ، منطقة حدوديّة خارجة عن السلطة المركزيّة.

ويبدو أنّ بقيّة مناطق المغرب الأوسط – بما في ذلك بلاد صنهاجة – ما زالت تجهل سلطة الخليفة الفاطمي المباشرة. ومع ذلك فقد تمكّنت تلك السلطة من السيطرة على تاهرت وسجلماسة والتعجيل بسقوط الدولتين الخارجيّتين القائمتين هناك ، (بنو رستم في تاهرت وبنو مدرار في سجلماسة).

أمّا بالنسبة إلى المغرب الأقصى ، فمنذ انقسام المملكة العلويّة بين أبناء إدريس الثاني ، إثر وفاة مؤسّس فاس سنة 213 هـ / 828 م ، أصبح الوضع السياسي في تلك البلاد على غاية من الغموض. فقد كانت المعارك حامية الوطيس بين الدُّوَيْلات الإدريسيّة العديدة التي لم تكن سيادتها تتجاوز المدن الخاضعة لها. وكانت قبائل برغواطة البربريّة المعتنقة لديانة غريبة خارجة عن السنّة ، تحتلّ منطقة الشاويّة[4]. كما كان يقيم جنوب تطوان قَوْمٌ آخرون من البربر الخوارج ، وهم الغمارة ، علاوة على الدّولتين القائمتين في سبتة ونكور.

إفريقية في عهد عبيد الله المهديّ :

ممّا لا شكّ فيه أنّ مصادرنا التي تكاد تكون كلّها سنيّة قد سوّدت صورة إفريقيّة المضطهَدة من طرف حكّامها الجدد. ولكن ، باستثناء الأرستقراطيّين وكبار البورجوازيين الحنفيّين الذين سرعان ما اعتنقوا المذهب الشيعي ، من المؤكّد أنّ الدعاية الشيعيّة لم تستطع التأثير في الجماهير الشعبيّة المتمسّكة بالمذهب المالكي ، بل انها بالعكس من ذلك قد زادت في إشعاع ذلك المذهب بواسطة المجادلات الدينيّة ، وفي ترسيخ عقيدة المالكيّين ، بسبب ما تعرّضوا له من ألوان القمع. ولم تستطع لا عجرفة الكتاميّين المسؤولين عن الكثير من الابتزازات ، ولا تفاقم الجباية أكثر فأكثر ، تقريب الأهالي المغلوبين على أمرهم ممّن كانوا يطلقون عليهم اسم «المشارقة».

ولئن كان تأسيس مدينة المهديّة التي استقرّ بها عبيد الله المهديّ سنة 308 هـ / 921 م ، مطابقًا لرغبة كثير من مؤسّسي الدّول الإسلاميّة في استهلال مدّة ولايتهم بنقل عاصمة

---

4) كانت تلك القبائل تسيطر على المنطقة الواقعة بين وادي بو رقراق ووادي أمّ الربيع والمحيط الأطلسي والجبل.

مُلْكهم من مدينة إلى أخرى ، إلّا أنّ بناء تلك المدينة الجديدة يدلّ أيضًا على أنّ الخليفة الفاطمي لم يكن يشعر بالأمان في رقادة ومن باب أولى وأحرى في القيروان التي كانت مركز المقاومة المالكيّة. كما أنّ اختيار موقع المهديّة ينمّ عن مطامع توسّعيّة في اتّجاه المشرق.

مساعي الفاطميّين في المغرب الأقصى :

تتميّز الفترة الجديدة التي ستبدأ في تاريخ المغرب الأقصى بالتنافس بين إمبراطوريّتين اثنتين ، هما الإمبراطوريّة الفاطميّة في إفريقيّة والإمبراطوريّة الأمويّة في قرطبة. وسيكون هذا التنافس مصحوبًا بالتناحر بين الرعاة الزناتيّين الرُّحّل وبين المزارعين الصّنهاجيّين الحضريّين.

مقاومة الزناتيّين وتأسيس أشير(5) :

لقد بذل الخليفة الفاطمي جهودًا جبّارة من سنة 304 إلى سنة 319هـ/ 917 – 931م ، لمقاومة الأدارسة الموالين للأمويّين ، وذلك بالاعتماد أوّلاً وبالذات على قبائل مكناسة التي تربطها بزناتة علاقات القرابة. وقد كان على رأس تلك القبائل على وجه الخصوص مصالة بن حبوس المسيطر على منطقة تاهرت وابن عمّه موسى بن أبي العافية المهيمن على قسم كبير من المغرب الأقصى.

ولكنّ الجيوش الفاطميّة ، بعدما أحرزت عدّة انتصارات على الأدارسة الذين تقهقروا في اتجاه المغرب الأوسط ومليلة ، تصدّت لقبيلة مغراوة التي تمثّل مع قبيلة بني يفرن ، فرعَيْن أساسيَّيْن من فروع صنهاجة. وقد كان المغراويّون يتنقّلون تحت قيادة محمّد بن خَزَر في جميع أنحاء المغرب الأوسط من منطقة الشلف إلى ما وراء تلمسان. وقد أعلنوا الثورة وقتلوا مصالة بن حبوس سنة 312هـ/ 924م. فغادر أبو القاسم بن عبيد الله المهديّة سنة 315 – 316هـ/ 927 – 928م ، لتهدئة المغرب الأوسط وانتصر على المغراويّين ، ثم أجلاهم

5) النويري ، 105/2 – 106 ؛ **الكامل** ، 246/8 ؛ **البيان** ، 174/1 و262/3 ؛ ابن حوقل ، 107/1 ؛ **العِبَر** ، 153/6 – 154 ؛ **البربر** ، 5/2 – 6 ، 489 – 493 ؛ ابن خلّكان ، 197/1 ؛ البكري ، 60 ؛ **شذرات** ، 29/3 – 30 ؛ فورنال ، 208/2 – 210 ، 219 – 221 ؛ شارل اندري جوملیان ، **تاريخ شمال إفريقيا** ، 66/2 – 68 ؛ غوتيي ، **عصور المغرب المظلمة** ، الطبعة الأولى ، 340 – 343 ، الطبعة الثانية ، 364 – 368 ؛ **إسبانيا الإسلامية** ، 93/2 – 97 ، 101 – 106.

إلى الصحراء واحتلّ تاهرت. وواصل مسيرته إلى أن بلغ نكور وجراوة حيث هزم الأدارسة. ولكنّه لم يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ لاحظ أن سلطة القائد المكناسي موسى بن أبي العافية قويّة بما فيه الكفاية.

وفي تلك الفترة بالذّات (316 هـ/ 929م) نادى الأمير الأموي عبد الرّحمان الثّالث بنفسه خليفة وأمير المؤمنين في قرطبة وتلقّب باسم النّاصر لدين الله، معلنًا عن قيام خلافة سنيّة مضادّة للخلافة الشيعيّة.

وبعدما استولى الأمويّون على ملّيلة منذ سنة 314 هـ/ 927 م، احتلّوا مدينة سبتة، فخلع موسى بن أبي العافية طاعة الخليفة الفاطمي وأعلن عن ولائه للأمويّين، وسرعان ما اقتدى به محمّد بن خزر ومغراوة وبنو يفرن. في حين ظلّت مكناسة وفيّة للخليفة الفاطمي في تاهرت. إلّا أنّ معظم مناطق شمال المغرب الأقصى وقسمًا من المغرب الأوسط قد أصبحت شبه محميّات أمويّة. وعندما توفّي عبيد الله المهدي سنة 322 هـ/ 934م، وجد موسى بن أبي العافية نفسه من جديد، بعد جهد جهيد، على رأس ممالكه السابقة في حين استولى المغراويّون على المغرب الأوسط حتى تخوم منطقة الشلف. إلّا أن مجموعة أخرى مغراويّة قد تمكّنت بعد ذلك بقليل من الاستيلاء من جديد على تاهرت.

وقد وجّه أغلب الملوك الأدارسة ورؤساء مكناسة وزناتة سفارات متكرّرة إلى قرطبة. كما أغدق الأمويّون من جانبهم الهدايا والإعانات على رؤساء مغراوة الذين قدّموا إليهم شواهد الطاعة مرارًا وتكرارًا.

وفي أثناء تلك الفترة بالذّات يمكن أن يكون قد حصل بين الزناتيّين والصنهاجيّين ذلك الاشتباك الذي أشار إليه مصدران[6] من مصادرنا، ربّما بالاعتماد على رواية ابن شدّاد. إلّا أن ذلك لا يمثّل ضمانًا ثابتًا لصحّة تلك الرواية.

وبعدما أخضع زيري الصنهاجيّين لسلطته، ربّما يكون الزناتيّون قد تأهّبوا لمهاجمته بالتّواطؤ مع أبناء قبيلته الذين كسّر شوكتهم منذ عهد قريب. ولمّا اطّلع زيري على ما كان يُحَاك ضدّه، شنّ الحرب على الزناتيّين، فهجم عليهم لَيْلاً على حين غفلة بأرض مغيلة[7]

---

6) النويري، 105/2؛ الكامل، 246/8.

7) وهو حصن يقع في منتصف الطريق بين فاس ومكناس. ليفي بروفنسال، وثائق لم يسبق نشرها حول التاريخ الموحّدي، 104/ الإحالة 2.

«وقتل منهم كثيرًا وغنم ما معهم» ، ثمّ عاد الصنهاجيّون إلى جبل تيتري محمّلين بالغنائم ومعهم 300 فرس أخذوها من العدوّ.

تأسيس مدينة أشير (324هـ / 935 – 936م) :

وعندئذٍ ذاع صيت زيري بن مناد في جميع أنحاء المغرب وتأكّدت قوّته. ونزولاً عند رغبة أتباعه الذين ازداد عددهم أكثر فأكثر غادر محلّ إقامته الذي أصبح ضيّقًا وأسّس جنوب مدينة الجزائر في جبل تيتري مدينة أشير[8] التي كثيرًا ما كانت تسمّى : أشير زيري ، وذلك في سنة 324هـ / 935 – 936م[9] في عهد الخليفة الفاطمي الثاني أبي القاسم القائم بأمر الله (322 – 324هـ / 934 – 946م).

فاستقدم البنّائين من حمزة والمسيلة وطبنة. واستجابةً لطلبه أوفد إليه الخليفة الفاطمي الحرفيّين ووضع على ذمّته مهندسًا معماريًّا لا مثيل له في إفريقيّة ، كما أمدّه بجميع المعدّات ولا سيّما الحديد. ولمّا انتهى بناء المدينة لم يُخفِ الخليفة رضاه عن ذلك[10]. فقدّم كلّ المساعدة إلى زيري الذي عمّر المدينة الجديدة ببعض أعيان طبنة والمسيلة وحمزة. وقد كانت تلك القلعة الحصينة تتّسم بنقطة ضعف وحيدة تقع في الجهة الشرقية من المدينة ، وقد عُهِد بحمايتها إلى عشرة رجال فقط ، كما كان بها منبعًا للمياه الغزيرة. وسرعان ما أصبحت أشير عامرة بالتجّار والعلماء والفقهاء ، ومزدهرة غاية الازدهار. وقبل ذلك التاريخ لم تكن المعاملات التجاريّة تقع في تلك المنطقة بالنقود ، بل بالمقايضة بواسطة الإبل والبقر والغنم. ويقال إن زيري قد ضرب النقود وأجرى رواتب العسكريّين حتى صار الناس يتصرّفون في مبالغ طائلة من الدراهم والدنانير. وبعدما أصبح السكّان في مأمن من غارات الزناتيّين ،

8) حول أشير انظر الباب السابع من هذا الكتاب.

9) حسب النويري ، وحسب **الكامل** 364هـ ، ربّما بسبب الاشتباه بين 324 و364 ، لا سيّما وأن الفقرة تتحدّث عن القائم لا خلفائه. ولئن ورد تاريخ تأسيس أشير في بعض المصادر في عهد الخليفة الفاطمي الثالث اسماعيل المنصور (334 – 341هـ) (ابن خلدون) وحتى في عهد المعزّ (**البيان** ، 3) ، فذلك بسبب الخلط بين تأسيس المدينة ذاته وبين الأشغال التي أُجريت في فترة لاحقة ، بناء الأسوار والحصون الجديدة الخ...

10) حسب النويري ، بالاعتماد بدون شكّ على ابن شدّاد ، صرّح الخليفة قائلاً : نفضّل أن يكون أجوارنا العرب خير من البربر.

تفرّغوا لأشغالهم في كنف الأمن والأمان. وإنّنا نميل إلى نسبة هذا الوصف المثالي إلى ابن شدّاد الذي نسب أيضًا إلى زيري الواقعتين الآتي ذكرهما.

لقد عادت الحروب بين الزناتيّين والصنهاجيّين إثر تأسيس أشير[11]. ويقال إنّ زيري قد عهد بالحكم إلى أخيه ماكسن بن مَناد ثمّ هجم على مدينة جراوة[12] التي كان موسى بن أبي العافية واليًا عليها باسم الخليفة الأمويّ عبد الرّحمان النّاصر وكان يدفع له الخراج. ولا يمكن أن تكون هذه الغزوة قد وقعت إلّا بعد سنة 319 هـ / 931م، وهي السنة التي تصادف تاريخ خروج الأمير المكناسي القويّ النفوذ عن طاعة الأمويّين، وهو لم يكن مجرّد والٍ على جراوة.

ويقال إنه قد قدم لمقابلة زيري وتوجّه إليه بالخطاب التالي: يا مولاي! إني لم أدخل في طاعة الأمويّين إلّا للاحتماء بهم من زناتة. والآن وقد بعثك الله إليّ وجمع بيننا، فقد صرت عبدك المطيع والمستعدّ لإعانتك. فإني قريب منك، والسيف القريب أحسن لحمايتي من السّيف البعيد!

ويبدو أن هذا الخطاب الغريب قد اختُلِق اختلاقًا[13]. وبعدما أغدق عليه زيري العطايا قال له: خاطبني عندما تتعرّض لأيّ خطر، فإني قادرٌ على إمدادك بكلّ ما تحتاج إليه من جند.

فاشتكى إليه موسى بن أبي العافية من رجال غمارة الذين اعتنقوا مذهب شخصٍ ادّعى النبوّة [يُقال له حاميم]، وانساقوا نحو الفساد واستحلال المحرّمات. فأسرع زيري صحبة موسى بن أبي العافية إلى معاقبة أولئك المارقين. وقيل إنه قد هزمهم وأخذ المفتري إلى أشير وأحاله على الفقهاء[14] الذين حكموا عليه بالإعدام[15].

ومن المعلوم[16] أنّ حاميم المفتري قد ظهر سنة 310 هـ / 922 – 923م في إقليم مجكاسة الواقع في أرض غمارة التابعة لمنطقة نكور، وعلى وجه التحديد في «الجبل المنسوب إليه»،

---

11) حسب النويري (بالاستناد إلى ابن شدّاد)؟

12) وهو ميناء يقع شرقيّ مليلة.

13) فورنال، 220/2: اعتبر بحقّ هذا الخطاب مثيرًا للسخرية.

14) حسب النويري و**الكامل** بالاعتماد بدون شكّ على ابن شدّاد.

15) كان يستشهد بالآيات القرآنية التالية: ﴿حمٓ. تنزيل من الله العزيز الحكيم﴾ (الجاثية، 1 – 2 والأحقاف، 1 – 2)، ﴿حمٓ. تنزيل من الله العزيز العليم﴾ (غافر، 1 – 2).

16) **مفاخر**، 77؛ البكري، 100 – 101؛ **البيان**، 192/1؛ **البربر**، 144/2.

وهو جبل حاميم القريب من تطوان. «وقُتِل بمصمودة السّاحل في أحواز طنجة» سنة 315 هـ / 927 – 928م. وبناءً على ذلك فإن وفاته قد سبقت ببضع سنوات دخول الأمير المكناسي في طاعة الأمويّين، سنة 319 هـ / 931م، ومن باب أولى وأحرى لا يمكن أن تكون العقوبة التي سلّطها زيري على حاميم قد وقعت بعد تأسيس مدينة أشير (324 هـ / 935 – 936م). فهذه الواقعة – على الأقلّ حسبما رُوِيَتْ لنا – هي من نسج الخيال.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الفاطميّين، أمام قلّة المساعدة المقدّمة إليهم من طرف المكناسيّين التابعين للمنطقة الشرقية (تاهرت) وارتداد المكناسيّين التابعين للمنطقة الغربيّة، قد حاولوا القيام بحملة عسكريّة قويّة ضدّ الزناتيّين والمكناسيّين الموالين للأمويّين[17]. ففي السنة التي تأسّست فيها مدينة أشير (324 هـ / 935 – 936م)، توغّل الخصيّ ميسور في تراب المغرب الأقصى وتمكّن من إخضاع مدينة فاس بعد حصارٍ دام عدّة شهور. فالتجأ موسى بن أبي العافية إلى الجبل ولكنّه انهزم عدّة مرّات وأُجبِر على الانسحاب إلى الصحراء. وكان الأدارسة الموالون للفاطميّين هم أوّل المستفيدين من هذه الحملة التي يبدو أنّ زيري لم يشارك فيها.

وبعد انصراف ميسور، تمكّن موسى بن أبي العافية من استرجاع ممالكه والانتصار على الأدارسة في نكور.

وبعد وفاة موسى بن أبي العافية في سنة 327 هـ / 938 – 939م[18]، ظلّ ابنه مَدْيَن وفيًّا للأمويّين وللتحالف مع مغراوة. وقد حاول الأمويّون – مهما كان الحال – الحفاظ على حالة السلم القائمة بين مغراوة ومكناسة وأبناء موسى بن أبي العافية الثلاثة الذين اقتسموا ممالكه[19].

إلّا أنّ الثورة العارمة التي أعلنها أبو يزيد طوال ما يناهز الاثنتي عشرة سنة، لم تسمح للفاطميّين بالتدخّل في المغرب الأقصى حيث استطاع الزناتيّون الموالون للأمويّين تركيز مواقعهم بدون أيّ إزعاج. وفي المقابل تقلّص إلى حدّ كبير تأثير المكناسيّين، وقد انضمّ قسم منهم – لا سيّما أتباع حميد بن زليطن – إلى الأمويّين[20].

---

17) **تاريخ المغرب**، 185/1.

18) **البربر**، 270/1. بعض المصادر الأخرى تذكر تاريخًا متأخّرًا أكثر، 328 – 341 هـ، انظر فورنال، 220/2 – 221.

19) **تاريخ المغرب**، 185/1.

20) نفس المرجع.

علي بن حمدون وتأسيس المسيلة[21] :

قبل ظهور «صاحب الحمار» لم يكن زيري بن مَناد وأتباعه الصنهاجيّون ، الممثّلين الوحيدين للخليفة الفاطمي في المغرب الأوسط الذي كان جزء منه في قبضة بني حمدون المنافسين للصنهاجيّين فيما بعد . ذلك أنّ علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي والمنضمّ إلى عبيد الله المهدي قبل قدومه إلى المغرب ، قد أخذ نصيبه من مخاطر المرحلة الأولى وساهم مساهمة فعّالة في تأسيس الدولة الفاطمية .

وإثر رجوعه من إحدى غزواته في المناطق الغربية ، كلّف أبو القاسم محمّد ، ابن المهدي ووليّ عهده ، علي بن حمدون ببناء مدينة لمنع تقدّم الزناتيّين . وقد تمّ ذلك فيما بين سنة 313 و315 هـ / 925 – 928 م[22] على تخوم الزاب ، ربّما في موقع بلدة صغيرة كانت تسمّى المسيلة ، وقد أطلق عليها اسم المحمّديّة نسبةً إلى أبي القاسم محمّد ، وعُيّن عليّ بن حمدون واليًا عليها وعلى كامل منطقة الزاب . وقد تربّى ولداه ، جعفر الذي سيخلفه ويحيى في بلاط أبي القاسم محمّد ، وأرضعت أمّ جعفر الأمير معدّ الذي سيتولّى الخلافة فيما بعد باسم المعزّ لدين الله[23] .

وقد قيل بدون ذكر السّبب ، أنّ عليّ بن حمدون هو الذي خرّب مدينة أدنة التي توجد بينها وبين المحمّدية (المسيلة) مرحلة ، وبينها وبين طبنة مرحلتان[24] ، وذلك بعد رجوع ميسور من المغرب الأقصى سنة 324 هـ / 935 – 936 م .

---

21) **البيان** ، 190/1 ، 214 – 215 ، 258/2 – 259 ، 267/3 – 268 ؛ **البربر** ، 510/2 ، 528 ، 553 – 554 ؛ **المؤنس** ، 54 ؛ البكري ، 59 ومواضع مختلفة ؛ **البلدان** ، 58/7 – 59 ؛ ابن خلّكان ، 113/1 ؛ فورنال ، 147/2 – 149 ، 205 ؛ **سيرة جوذر** ، 75 ، 129 ، 175 ؛ الإحالة 8 .

22) لعلّ التاريخ الأوّل يصادف بداية الأشغال والتاريخ الثاني يصادف نهايتها . البكري و**البيان** : 313 هـ ، أبو الفداء و**البلدان** و**العبر** و**المؤنس** : 315 هـ .

23) **البربر** ، 554/2 .

24) جاء في **البيان** (244/1) ما يلي : «وفي سنة 334 خرّب علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي مدينة المسيلة» ، ولا شكّ أنّ هذا النصّ ناقص ، فينبغي إتمامه بما أورده البكري حول هذا الموضوع (ص 144) . وحول أدنة ، أنظر ابن حمّاد ، ا لترجمة ، 50 ، الإحالة 2 .

أبو يزيد حتى سنة 336 هـ / 948 م :

بفضل وجود زيري بن مناد غربًا وعلي بن حمدون شرقًا ، أصبح الخليفة الفاطمي لا يخشى أيّ خطر جسيم في المغرب الأوسط ، وفي مقدوره أن يواصل بنجاح مقاومة البربر الموالين للأمويّين. وفي ذلك الوقت بالذّات ثار في جبل أوراس[25] الزناتي الخارجي أبو يزيد [مخلد بن كيداد]. ومن بين أخبار هذه الثورة التي كادت تفضي إلى إجلاء الفاطميّين خارج بلاد المغرب ، سوف لا نتعرّض هنا إلا لأخبار العمليّات الحربيّة التي قام بها الصنهاجيّون وبنو حمدون.

فقد اندلعت الثورة في أواخر سنة 332 هـ / أوائل سنة 944 م وتمكّنت في أقلّ من ستة أشهر من إخضاع إفريقيّة بتمامها وكمالها ما عدا المهديّة[26]. وسنلاحظ ضعف المقاومة الفاطميّة[26] ، ذلك أنّ جيش الخليفة لم يتصدّ للمرّة الأولى للمُغِير إلّا في باجة ، ولكنّه انهزم وأُجبِرَ على التقهقر إلى مدينة تونس التي سقطت بين أيدي المتمرّد وأسرع أهلها إلى الاعتراف بأبي يزيد انتقامًا من الشيعة[27].

ثمّ دخل «صاحب الحمار» القيروان التي تحالفت معه هي أيضًا ، وذلك يوم 23 صفر 333 هـ / 15 أكتوبر 944 م ، وخرج أهلها الذين لم يتعوّدوا على الحرب ، وعلى رأسهم فقهاؤهم لقتال الشيعة إلى جانب الخوارج ، ولكن الدائرة قد دارت عليهم. وكان الخوارج ينظرون بعين الرضا إلى تقتيل حلفائهم المزعومين من أهل السنّة. [فقد قال أبو يزيد لجنوده – حسب رواية ابن عذاري – : «إذا التقيتم مع القوم ، فانكشفوا عن أهل القيروان ، حتى يتمكّن أعداؤكم من قتلهم ، فيكونون هم الذين قتلوهم ، لا نحن ! فنستريح منهم»[28]].

وبعد ذلك بقليل حاول الجيش الفاطمي بقيادة ميسور إزاحة أبي يزيد من القيروان.

---

25) لوتورنو، **ثورة أبي يزيد في القرن العاشر**، الكرّاسات التونسية ، عدد 2 ، 1953 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** ، 115/1 – 116 (روني باسي). والطبعة الثانية ، 167/1 – 168 (شتارن) ؛ جورج مارسي ، **المغرب الإسلامي والمشرق** ، 147 – 153 ؛ فورنال ، 223 – 224 ينتمي أبو يزيد حسب الاحتمال إلى قبيلة بني يفرن.

26) استنادًا إلى ابن حمّاد (19 – 20) لا ينفي لوتورنو (المرجع السابق) احتمال قيام علي بن حمدون بحملة ضدّ أبي يزيد حوالي سنة 943. ولكن المصدر الذي اعتمد عليه لم يذكر أي تاريخ ، بل يبدو أنه روى تلك الواقعة في سنة 334 هـ / 945 – 946 م.

27) لوتورنو، المرجع المذكور، 108 – 116. وجاء في **دائرة المعارف الإسلامية** ، الطبعة الثانية ، 168 ، ان تاريخ الاستيلاء على باجة هو: 13 محرم 333 هـ / 5 سبتمبر 944 م.

28) [ابن عذاري ، **البيان** ، 218/1]. انظر أيضًا ، إدريس ، مجلّة الدّراسات الإسلاميّة ، 1936 ، 80 – 87.

ولكن بعد عدّة معارك طاحنة، وإثر انفصال قسم من الفرق المساعدة المتكوّن من بني كملان التابعين لهوّارة(29)، انهزم الجيش وقُتِلَ قائده يوم 12 ربيع الأوّل 333 هـ / 2 نوفمبر 944م، ولعلّ الأمر يتعلّق بهزيمة الوادي المالح الذي يبعد عن المهديّة بحوالي عشر كيلومترات(30).

وفي أواخر ربيع الثاني سنة 333هـ / ديسمبر 944م، أمر القائم بأمر الله بحفر خندق حول أرباض المهديّة وزويلة واستنجد بزيري بن مَناد ورؤساء كتامة وبعض القبائل الأخرى، حاثًا إياهم على الالتحاق به. فتأهّب أولئك الرؤساء، ومن بينهم بدون شكّ علي بن حمدون، للاستجابة لنداء الخليفة المتحصّن في شبه جزيرة المهديّة(31).

ولكنّ خطر الهجوم على أبي يزيد من خلف، لم يخفّف من سرعة مسيرته. فقد بادر إلى حصار المهديّة، رغبةً منه في عدم التخفيف من حماس جنوده المنتصرين، واعتقادًا منه في الانتصار، وربّما حرصًا منه على التعجيل بحسم الأمر قبل تعرّض ساقة جيشه للخطر(32). وإثر ذلك شنّ هجومًا قويًّا على المهديّة يوم 3 جمادى الثانية 333هـ / 21 جانفي 945م.

فدخل أبو يزيد زويلة من باب الفتح «وتفرّق أصحابه ينهبون ويقتلون». ثمّ واصل طريقه إلى أن بلغ المصلّى من باب المهديّة. وكان الفاطميّون يعتقدون، «حسبما أنذر به المهدي عند بناء المهدية»، أن المتمرّد سوف لا يتجاوز ذلك الموضع الذي يبعد عن المهديّة مسافة «رمية سهم». وقد علم أبو يزيد، وهو يتأهّب لاجتياز المصلّى، أنّ الكتاميّين قد قضوا من ورائه على قسم من جيشه في باب الفتح، وأنّ زيري بن مَناد قد قدم منذ قليل على رأس جيش من الصّنهاجيّين. فتراجع جنود النكّاريّة في اتّجاه باب الفتح ليتمكّنوا من الهجوم على زيري والكتّاميّين من خلف. واضطرّ أبو يزيد في آخر الأمر إلى العودة إلى معسكره(33).

وقد تواصل حصار المهديّة حتى شهر صفر 334هـ / سبتمبر – أكتوبر 945م، تتخلّله هجومات عنيفة وهجومات مضادّة. وكان زيري بن مَناد يقوم من حين لآخر بمناوشات لا نعرف تفاصيلها. ويقال إنّ القائم بأمر الله قد وجّه إليه خطابًا، عندما كانت المجاعة المريعة

29) كان بنو كملان بالأوراس من أكبر أنصار أبي يزيد. أمّا الذين كانوا يعملون في صفوف ميسور، فقد تمّ إجلاؤهم من منطقة المسيلة قبل عشرين سنة من ذلك التاريخ، وهذا ما يفسّر انفصالهم عن أبي يزيد.

30) **البيان**، 218/1؛ **الكامل**، 166/8؛ **البربر**، 532/2، 207/3؛ **البكري**، 29.

31) **الكامل**، 166/8–167؛ **رحلة التجاني**، 325؛ **الاتّعاظ**، 113؛ **المؤنس**، 56–57.

32) **الكامل**، 166/8. يقال إن أبا يزيد قد بادر إلى الهجوم على المهدية بعدما علم أن الصنهاجيّين والكتاميّين وبعض القبائل الأخرى كانوا يتأهّبون لمدّ يد المساعدة إلى الخليفة الفاطمي.

33) **الكامل**، 167/8؛ **الاتّعاظ**، 113–114؛ فورنال، 224/2.

السائدة في المهديّة على أشدّها ، لإعلامه بالوضع . فأرسل الأمير الصّنهاجيّ إلى المحاصَرين فرقة محمّلة بالمؤونة ، متركّبة من ألف حمولة من القمح ومخفورة بمائتي فارس صنهاجي وخمسمائة من العبيد . وقد تمكّنت هذه الفرقة من الدخول إلى المهديّة وأرسل الخليفة إلى زيري ، جزاءًا على هذا المدد النفيس ، هديّة ثمينة تتمثّل في مجموعة من الأقمشة والخيول الأصيلة والسّروج المزركشة بالأحجار الكريمة . ونحن نستغرب من تفكير الخليفة في إرسال هدايا من هذا القبيل في مثل تلك الظروف العصيبة ، وبالخصوص التفويت في عدد من الخيول النافعة لجنوده والصالحة على الأقلّ لتزويدهم باللّحوم(34) .

وبعدما انفصل عن «صاحب الحمار» جلّ جنوده الذين سئموا طول الحصار وشبعوا من الغنائم ، عاد إلى القيروان في صفر 334هـ / سبتمبر – أكتوبر 945م .

ومن شدّة مهارة ذلك العجوز الداهية ، أنّه استعاد سيرته السابقة المتقشّفة التي كان تخلّيه عنها قد أبعد عنه عددًا كبيرًا من أنصاره . فتجمّع البربر من جديد تحت قيادته ، شعورًا منهم لا محالة بخطورة الوضع .

وقد كانت مدينتا تونس وسوسة اللّتان استرجعهما الخليفة الفاطمي مسرحًا لمعارك حامية الوطيس . وكانت المعركة الدائرة للاستيلاء على المدينة الأولى موضوع روايتين متناقضتين ، الأولى مغربيّة والثانية فاطميّة(35) .

فحسب الرواية الأولى(35م) طلب القائم بأمر الله إلى جميع أنصاره ، وبالخصوص علي بن حمدون ، تجميع جنودهم لمساعدته على محاربة أبي يزيد . فقام والي الزاب بتعبئة جيش غفير في المسيلة وسطيف وقسنطينة ، وتوجّه على رأسه إلى المهديّة . ثم تحوّل إلى ضواحي باجة مرورًا بالكاف . وكان ابن «صاحب الحمار» أيّوب قد استولى على باجة ، بعدما استرجع

---

34) **البربر**، 2/5 – 6 ؛ النويري ، 2/107 ؛ **الكامل** ، 8/246 ؛ فورنال ، 2/247 .

35) **البربر**، 2/554 – 555 ، 3/209 . هاتان الرّوايتان اللّتان تنتهيان بموت علي بن حمدون المفاجئ ، مطابقتان للمعلومات التي أوردها البكري .

35م) **البيان** ، 2/259 ؛ ابن حمّاد ، 19 – 20 . وهناك رواية ثالثة قريبة من رواية ابن عذاري ؛ **الكامل** ، 8/169 ؛ **البربر** ، 2/534 – 535 . ويذكر ابن عذاري في **البيان** (1/215) أنّ والي المسيلة «قد هلك في فتنة أبي يزيد» ، سنة 326 (7 نوفمبر 937هـ / 28 أكتوبر 938م) . ومن الواضح أن هذا التاريخ خاطئ . أمّا فورنال (2/255 – 257) فإنه يرى أن الحملة التي نسبها ابن الأثير وابن خلدون إلى علي بن حمدون ربّما قام بها القائد الفاطمي المشرف على حامية مدينة تونس ، ابن علي بن حمدون أو بالأحرى الحسن بن علي . وهذا الافتراض مطابق لمعطيات الرواية الفاطميّة .

مدينة تونس. فباغت علي بن حمدون ليلاً في معسكره وهزمه وأجبره على الهروب. وقد دارت المعركة حسب الاحتمال في وادي مجردة[36]. ويُعزى سبب انهزام عليّ بن حمدون إلى تقاعس أحد قوّاده وهو أبو الفضل بن أبي سلاس. وأثناء هروبه في الظلام سقط ابن حمدون في إحدى الوهاد، فلقي حتفه، وذلك سنة 334 هـ/ 945 – 946 م.

وبالعكس من ذلك، فإن بعض المصادر[37] تؤكّد أنه لم يمت بل التجأ إلى المسيلة. وزحف أيّوب على مدينة تونس ولكنّه هُزِم شرّ هزيمة من طرف الحامية الفاطميّة وأُجبر على العودة إلى القيروان في ربيع الأوّل 334 هـ/ أكتوبر – نوفمبر 945م. وإثر هذه الهزيمة فكّر أبو يزيد في الرحيل من القيروان، وأرسل ابنه أيّوب من جديد لمحاربة علي بن حمدون في موضع يقال له بلطة[38]. وبعد معارك طويلة كان فيها القتال سجالاً بين الفريقين، استطاع أيّوب الاستيلاء على المسيلة غدرًا. ففرّ علي بن حمدون على رأس 300 فارس و400 راجل إلى بلاد كتامة، حيث جنّد عددًا كبيرًا من رجال كتامة ونفزاوة ومزاتة وغيرهم من البربر، ثمّ توجّه إلى قسنطينة وعَسْكَرَ بها. ومن هناك شنّ بنجاح هجومًا على الهواريّين الذين كان يعتمد عليهم أبو يزيد. ورغم ما بذله «صاحب الحمار» من جهود، لم يستطع منع خصمه من الاستيلاء على تيجس وباغاية. وعندئذٍ قام بحصار سوسة.

أمّا الرواية الفاطميّة[39] فقد أهملت ذكر علي بن حمدون وأكّدت أنّ خصم أيّوب بن أبي يزيد هو القائد الفاطمي حسن بن علي. وحسب هذه الرواية فقد دارت معارك حامية الوطيس حول مدينة تونس (التي انتقلت من فريق إلى فريق عدّة مرّات) ومدينة باجة. وفي ربيع الثّاني هزم القائد الفاطمي الحسن بن علي شرّ هزيمة أيّوب بن أبي يزيد الذي سرعان ما أخذ ثأره. فانسحب الحسن بن علي إلى بلاد كتامة وتحصّن بها (ثمّ استولى على تيجس وباغاية) من وراء أبي يزيد. وفي 6 جمادى الثانية ضرب أبو يزيد الحصار على سوسة[40].

ولئن صدّقنا الرواية المغربية التي نسبت إلى علي بن حمدون خطأً بعض العمليّات

---

36) جاء في نصّ ابن حمّاد : «بفحص على وادي وجرة». ونقترح تصحيح الكلمة الأخيرة كما يلي : «مجردة أو بجردة».

37) رواية ابن خلدون الثالثة، **البربر**، 534 – 535 و**الكامل**، 169/8.

38) وهي بلدة أثبت البكري وجودها في منطقة باجة (ص 57). **البربر**، 534/2 – 535.

39) حسب رواية فاطميّة معاصرة، أثبت عماد الدين الإدريسي أهمّ ما جاء فيها في **عيون الأخبار** (النصف الثاني من الجزء الخامس) واعتمدها الرقيق. انظر: **دائرة المعارف الإسلاميّة**، الطبعة الثانية، الفصل الخاص بأبي يزيد (167/1 – 168، شتارن).

40) انظر تلخيص هذه الرّواية في الفصل المشار إليه أعلاه من **دائرة المعارف الإسلامية**، 168/1.

المذكورة ولا سيّما المعارك التي دارت رحاها حول ضواحي تونس ، فهل يجوز لنا رفضها لفائدة الرواية الفاطمية ، خصوصًا ونحن لا نملك نصّها الأصلي؟ أفلا يجوز لنا أن نفترض أنّ الرواية الفاطميّة المعتمَدة في **عيون الأخبار**، والتي أخطأت في الاتّجاه المعاكس ، ربّما اشتبه الأمر على ناقلها بسبب تشابه اسمَيْ القائد الفاطمي ووالي المسيلة ، فنسب إلى الحسن بن علي الأعمال الباهرة التي قام بها علي بن حمدون؟ فليس من المعقول أن يكون ابن حمدون قد بقي مكتوف اليدين أثناء تلك الفاجعة التي كان من الممكن أن تعرّض للخطر الدّولة الفاطميّة ذاتها التي كان يحبّها حبًّا جمًّا .

وبناءً على ذلك يمكننا تقديم هذا الافتراض الذي يوفّق شيئًا ما بين الروايتين المتناقضتين. فلعلّ علي بن حمدون قد لقي حتفه في الظروف السابقة الذكر وبقي المتخاصمان أيّوب بن أبي يزيد والقائد الفاطمي الحسن بن علي وجهًا لوجه طوال جميع مراحل الفترة اللاّحقة[41].

ويبدو أنّ الأمويّين بالأندلس ، أعداء الفاطميّين من قديم ، قد كانوا ، رغم بعد الشقّة بينهم ، يتابعون بشغف أطوار ثورة أبي يزيد . وقد دخل النكّاري في مفاوضات مع أمراء قرطبة ، بالرغم من نزعته الخارجيّة المتطرّفة وربّما بإيعاز من أهل القيروان المالكيّين. من ذلك أنّ مبعوثَيْن اثنين من قِبَل «صاحب الحمار» قد مثلا أمام عبد الرحمان الناصر في آخر شوّال 335هـ / 14 جوان 945م[42] وسلّما إليه رسالة من أبي يزيد يعلمه فيها بانتصاره على الشيعة ويقدّم إليه شواهد الطاعة معترفًا به كإمام. وقيل أن أبا يزيد قد صار منذ ذلك التاريخ حتى وفاته يوجّه الرسائل تلو الرسائل إلى قرطبة .

وفي سنة 334هـ / 13 أوت 946م وصل إلى قرطبة وفد يضمّ ثلاثة أشخاص من أهل القيروان ، أبرزهم تميم بن أبي العرب التميمي . وبعدما استمع الخليفة الأمويّ باهتمام إلى المعلومات التي قدّمها إليه الوفد ، سلّم إليه خطابًا إلى أبي يزيد مرفوقًا بعدّة هدايا وخِلَع . وليس من الغريب أن نجد من بين أعضاء الوفد ابن الكاتب الشهير أبي العرب التميمي (صاحب **كتاب طبقات علماء إفريقية**) الذي توفّي في رجب 333هـ / 17 – 18 مارس

---

41) معركة بلطة ، احتلال المسيلة ، تعبئة جيش من الكتاميّين ، الاستيلاء على تيجس وباغاية . وبما أنّ كلّ شخص يحمل اسم علي يكنّى عادةً بأبي الحسن ، فمن المحتمل أن يكون اسم الحسن بن علي تحريفًا لأبي الحسن علي بن حمدون ، وفي هذه الصورة فإن والي الزاب والقائد الفاطمي ليسا سوى شخص واحد .

42) **البيان** (الترجمة) ، 2/352 – 353 ، 355 – 356 ؛ **البربر**، 2/530 ، 3/205 – 207 ، 530 ؛ **إسبانيا الإسلامية** ، 2/103 – 104 ؛ **دائرة المعارف الإسلامية** ، الطبعة الثانية ، 1/168 (شتارن) .

945م وهو يحارب الشيعة. وقد كان من أبرز أنصار فكرة انضمام أهل السنّة في القيروان إلى صف «صاحب الحمار»[43].

ولقد توقّف الكفاح الذي كان يخوض غماره القائم بأمر الله بحماس ونجاح مطّرد، إثر وفاته يوم 13 شوّال 334هـ / 18 ماي 946م. إلّا أنّ وليّ العهد المنصور الذي كتم خبر وفاة والده، قد تمكّن من تخليص سوسة والدخول إلى القيروان يوم 23 شوّال 334هـ / 28 ماي 946م. فاضطرّ أبو يزيد إلى التقهقر إلى الغرب بعد معركة طاحنة دارت رحاها يوم 13 محرّم 335هـ / 14 أوت 946م[44]. وبعد أن أحرز القائد الحسن بن علي انتصارات باهرة، التحق بالمنصور.

والجدير بالملاحظة أنّ أبا يزيد قد انهزم في الوقت الذي كانت فيه الإعانة القادمة إليه من الأندلس على وشك الوصول. فعاد الأسطول الأموي الذي كان في طريقه إلى إفريقيّة على أعقابه، لما لاحظ قائده ابن رماحس عدم جدوى تدخّله. وغادر المنصور القيروان يوم 26 ربيع الأوّل 335هـ / 25 أكتوبر 946م لملاحقة المتمرّد.

وفي طبنة تلقّى رسالة من جعفر بن علي بن حمدون الذي خلف والده بوصفه واليًا على المسيلة والزّاب، يعلمه فيها بإلقاء القبض على رجل ادّعى الإمامة وأثار فتنة سياسيّة ودينيّة في جبل الأوراس. وبعدما غادر الخليفة طبنة التحق به جعفر بن علي وأهدى إليه خيولاً وجمالاً وزبادًا وسلّم إليه الرجل المفتري وأربعة من أنصاره، فقتله بعدما عذّبه عذابًا فظيعًا[45].

ثمّ مرّ من مقّرة[46] حيث دخل كثير من الناس في طاعته بسبب ما أغدق عليهم من الهدايا. ولكنّ ذلك لم يمنع أبا يزيد من تعبئة عدد كبير من المجنّدين.

وقيل إن المنصور قد كاتب زيري بن مَناد وماكسن بن سعد[47] وأرسل إليهما مجموعة من الهدايا المتركّبة من الذهب والفضّة والتحف العجيبة. فأتاه القائدان بجماعة من المحاربين من صنهاجة وعجيسة، وانضمّا إليه مع الرجال الذين تمكّنا من تجنيدهم. وحسب معلومات أخرى فإن زيري لم يلتحق بالمنصور إلّا فيما بعد، ولكننا لا نستطيع التحقّق من ذلك، لأننا

43) **ابو العرب** (الترجمة)، الجزائر، 1920، المقدّمة، 10–16؛ إدريس، مجلّة الدراسات الإسلامية، 1936، 80–87.

44) **سيرة جوذر**، 44–46.

45) ابن حمّاد، 26؛ فورنال، 267/2.

46) شمال شطّ الحضنة، شمال غربي بسكرة.

47) ابن حمّاد، 27. هذا الشخص غير معروف في المصادر الأخرى.

لا نعرف تفاصيل تلك الحملات العسكريّة معرفة جيّدة ، ولا شكّ أن زيري كان كثير التنقّل.

وبعدما هزم المنصور أبا يزيد قرب مقّرة (12 جمادى الأولى 335 هـ/ 9 ديسمبر 947 م) ، دخل المسيلة والتجأ أبو يزيد إلى جبل سالات بالقرب من بو سعادة.

وانضمّ قسم كبير من مغراوة الزناتيّين إلى صفّ المنصور، كما دخل في طاعته الأمير القويّ النفوذ محمّد بن خزَر[48]. ولكن عوض أن يلاحق الخليفة الفاطمي المتمرّد الذي لم يُعْثَر له على أثر، توجّه في عزّ الشتاء وتحت الثلوج نحو بلاد صنهاجة حيث ذاق جنوده العذاب[49].

وفي دمرة؟[50] أو بلاد غمارة[51] أو بالأحرى في حائط حمزة[52] التقى المنصور بالأمير زيري وإخوته وأغدق عليهم العطايا وأهدى إلى زيري وأبنائه وإخوته الخيول الأصيلة ذات السروج المطرّزة بالذهب والفضّة.

ونلاحظ هنا المبالغة في أمر انضمام مغراوة إلى صفّ المنصور وتدخّل زيري وصنهاجة. وسيكون لهذين العاملين مفعول كبير لصالح الفاطميّين[53].

وانهزم أبو يزيد هزيمة أولى نكراء وكاد أن يُقبَض عليه «فقد أدركه فارسان فعقرا فرسه ، فسقط عنه ، فأركبه بعض أصحابه ، وأدركه الأمير زيري فطعنه وألقاه ، وكثر عليه القتال حتى خلّصه أصحابه ، وخلصوا به ، وتبعهم المنصور فقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف»[54].

فابتعد الخليفة عن مدينة حمزة وعسكر على حافة وادي لعلع[55] ، حيث أقعده المرض مدّة تناهز الشهرين ولم يعد هناك أيّ أثر للعدوّ ، فقرّر التحوّل إلى تاهرت ، وانتهز أبو

---

48) نفس المرجع ، انظر أيضًا : فورنال ، 266/2.

49) لوتورنو، المرجع المذكور، **ثورة أبي يزيد**.

50) الكامل ، 172/8 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 92/2 ؛ فورنال ، 270/2 ، الإحالة 3.

51) **البربر**، 538/2.

52) ابن حمّاد ، 29 ؛ **الاتّعاظ** ، 123 ؛ البكري ، 64 – 65 ؛ فورنال ، 270/2.

53) ابن حمّاد ، 30 ؛ **العِبَر**، 154/6 ؛ فورنال ، 290/2 – 292.

54) **الاتّعاظ** ، 124. انظر أيضًا : **الكامل**، 172/8 ؛ ابن حمّاد ، 31.

55) ابن حمّاد ، 29.

يزيد فرصة ابتعاد المنصور ليحاصر المسيلة التي كانت بدون شكّ بين يدي جعفر بن علي[56].

فرجع الخليفة إلى الغرب ودخل المسيلة يوم 5 رجب 335 هـ / 30 جانفي 947 م ، بينما اختفى أبو يزيد في جبال عقد وكيّانة[57].

ومن المسيلة التي جعل منها قاعدة لعملياته الحربية ، شنّ المنصور هجومًا يوم 10 شعبان 335 هـ / 6 مارس 947 م. وتواصلت ملاحقة أبي يزيد عبر جبل وَعْر حوالي خمسة أشهر.

وانطلق المنصور من المسيلة يوم أوّل رمضان 335 هـ / 26 مارس 947 م للزحف على جبل كيّانة . ومن الغد تمكّن من ملاحقة عدوّه الذي أفلت من قبضته مرّة أخرى والتجأ أبو يزيد إلى قلعة تاقربست[58] واحتمى بها ، وهي تقع في الموضع الذي ستقام فيه فيما بعد قلعة بني حمّاد ، ولم تتمّ إزاحته منها إلّا يوم 22 محرّم 336 هـ / 13 أوت 947 م ، بعد عدّة عمليات تضليل ومحاصرة قام بها قيصر الفتي وزيري بن مَناد[59]. وأخيرًا أُلقي القبض على أبي يزيد الذي مات متأثّرًا بجراحه يوم 27 محرّم 336 هـ / 18 أوت 947 م[60].

وتجمّعت بقايا جيش الخوارج تحت قيادة فضل بن أبي يزيد الذي كان يقوم بعملياته بالتنسيق مع معبد بن خزَر. فقد حاولا الهجوم على ساقة جيش المنصور ولكنهما سقطا في كمين نصبه زيري بن مَناد وخسرا خلقًا كثيرًا. فطارد المنصور معبد بن خزَر إلى أن وصل إلى المسيلة ولم يُعْثَر له على أثر[61]. وفي صفر 336 هـ / أوت – سبتمبر 947 م اضطرّ الخليفة الفاطمي إلى التدخّل في تاهرت لبسط سلطانه عليها من جديد ، بعدما انفصل عنه الأمير المكناسي حميد بن زليطن. وتوقّف في سوق حمزة حيث اجتمع بالصنهاجيّين التابعين

---

56) نفس المرجع . انظر أيضًا : **البربر**، 538/2 ؛ فورنال ، 270/2 ؛ لوتورنو، المرجع المذكور، دائرة المعارف الإسلامية (2) ، 168/1 .

57) ابن حمّاد ، 30 .

58) ابن حمّاد ، الترجمة ، 51 ، الإحالة 1 ؛ جبل كيّان هو القسم الغربي من جبل المعاديد الحالي ، فورنال ، 272/2 – 273 .

59) ابن حمّاد ، 32 ؛ **العِبَر**، 154/6 ؛ فورنال ، 273/2 .

60) ابن حمّاد ، 32 – 36 ؛ **الاتّعاظ** ، 124 – 125 ؛ **رحلة التجاني** ، 234 – 235 ؛ **البيان**، 220/1 ؛ فورنال ، 273/2 – 274 ؛ لوتورنو، المرجع المذكور، 124 – 125 ؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة** (2) ، 168/1 ؛ جورج مارسي ، **المغرب الإسلامي والمشرق**، باريس 1946 ، 147 – 153 .

61) **البربر**، 211/3 – 212 .

لزيري بن مَناد وجمع الإمدادات الواردة عليه من كلّ مكان ثمّ ذهب لتخليص تاهرت[62].

وحسبما رواه ابن خلدون ، فإنّ المنصور قد عيّن أثناء إقامته بتاهرت يعلى بن محمّد اليفرني واليًا على تلك المدينة وزيري بن مَناد قائدًا على قبيلة صنهاجة وكامل المنطقة[63].

ثمّ أضاف المؤرّخ[64] أنّ الخليفة ، قبل مغادرته للمغرب ، قد جازى زيري بن مَناد ، فأغدق عليه عطايا ثمينة وعيّنه قائدًا على صنهاجة ورخّص له في بناء القصور والديار والحمامّات في أشير.

ودخل المنصور القيروان يوم الخميس 27 جمادي الثانية 336 هـ/ 15 جانفي 948م وخُصّ باستقبال حماسي[65].

وقيل إنّه سرعان ما استأنف حملته للقضاء على فضل بن أبي يزيد[66]. ويبدو أنّ ابن خلدون قد أشار إلى هذه الحملة عندما أكّد أنّ زيري بن مَناد والصنهاجيّين قد قاموا بحملتهم بالاشتراك مع شفا(؟) وقيصر – وهما من موالي المنصور– ضدّ فضل الذي هجم صحبة معبد بن خزَر على طبنة وبسكرة ثم التجأ إلى جبال كيّانة ليفلت من ملاحقة المنصور. وفي آخر الأمر انهزم فضل وقُتِل يوم أوّل ذي القعدة سنة 336 هـ/ 13 ماي 948م. وطيف برأسه في القيروان[67].

---

62) البربر، 2/539– 540 ، 3/212 ؛ ابن حمّاد ، 36 ؛ فورنال ، 2/276 . غادر المنصور المسيلة متوجّهًا إلى تاهرت في 24 صفر.

63) البربر، 2/539– 540 ؛ فورنال ، 2/279 ؛ المؤنس ، 72 : «وأوّل اتّصال زيري بالمنصور، لما دخل المغرب في طلب أبي يزيد الخارجي ، ودخل بلاد صنهاجة سنة 335هـ (946– 947م) ، وهناك وافاه زيري بعساكره وأهل بيته ودخل في طاعته فخلع عليه ووصله بصلة ونصب له فازة وقلّده سيفًا وعقد له على أهل بيته ومن اتّصل به من أهل صنهاجة والبربر».

64) وأضاف صاحب المؤنس قائلاً : «وزاده ولاية تاهرت فضمّها إلى عمله واتّسعت ولايته». والواقع أن تسميته واليًا على تاهرت قد تمّت بعد ذلك التاريخ بمدّة طويلة ، حسب المصادر الأخرى ، بما في ذلك تاريخ ابن خلدون ذاته ، انظر: العبَر، 6/154.

65) وكان قد غادر عاصمته منذ أكثر من سنتين.

66) ابن حمّاد ، 37.

67) دائرة المعارف الإسلاميّة (2) ، 1/168 ؛ ابن حمّاد ، 38 ؛ البربر ، 2/539 ، وحسب ابن خلدون (البربر، 3/211) فإن المنصور الذي عاد إلى إفريقية سنة 335 هـ قد قام في آخر السنة بحملة عسكريّة ضدّ الفضل. وممّا لا شكّ فيه أن تلك الحملة قد تمّت في سنة 336 هـ.

وكان من حكمة المنصور أن عفا عن أهل القيروان الذين كانوا قد تحالفوا مع «صاحب الحمار» وخفّف من المذهب الشيعي ووضع حدًّا للاضطهادات المسلّطة على أهل السنّة.

زيري بن مَناد من 336 إلى 343هـ/ 948– 955م :

لا نعرف بالضبط تفاصيل المعارك التي دارت فيما بعد بين المغراويّين، وقد انضمّ رئيسهم محمّد بن خزر من جديد إلى الأمويّين، وبين الصنهاجيين التابعين لزيري بن مناد[68]. وكلّ ما نعلمه أن الزناتيّين قد حاصروا مدينة أشير بقيادة المدعوّ كمات بن مَدْيَني الزناتي[69]. وفي أثناء أحد الاشتباكات العديدة –حسبما رواه النويري نقلاً عن ابن شدّاد، وهي رواية تكتسي طابعًا خرافيًّا واضحًا– انصرف زيري للهجوم على كمات وترك في أشير ابنه كبّاب الذي لم يبلغ آنذاك سنّ الرشد، بعدما أمره بعدم الخروج من المدينة. ولكنّ الصبيّ، لمّا سمع الصّياح وقرع الطبول، أسرع إلى القتال متنكّرًا وقتل كمات. وبعد ما قام كبّاب بهذه العملية البطوليّة التي لم تُعرَف إلا فيما بعد، قفل راجعًا إلى المدينة من نفس الباب الذي أطلق عليه اسم «باب كبّاب». وقد أعدم زيري عددًا كبيرًا من الزناتيّين الذين ساندوا كمات.

وإثر ذلك ثار المدعوّ سعيد بن يوسف في جبل الأوراس ضدّ الخليفة المنصور. فوجّه إليه زيري جيشًا عرمرمًا بقيادة ابنه بلكين. والتقى الفريقان في فحص أبي غزالة في ضواحي باغاية. فانتصر بلكّين على المتمرّد وقتله مع عدد كبير من أنصاره المنتمين في معظمهم إلى هوّارة وأرسل رؤوسهم إلى المنصور[70].

وحسب رواية أخرى[71]، توجّه المنصور على رأس جيش غفير إلى الأوراس لقمع الهوّاريّين الذين تجمّعوا ضدّه **بسفح غزالة**. ولمّا وصل الخليفة إلى الأربس، أمر بلكّين بالزحف على المتمرّدين وعاد إلى القيروان. فهزم بلكّين جنود العدوّ الذين تفرّقوا في الزاب وبعض المناطق الأخرى، ومنهم من فرّوا حتى إلى السّودان.

---

68) النويري، 2/107– 108؛ **الكامل**، 8/246؛ **البربر**، 3/232– 233.

69) حسبما رواه النويري.

70) **الكامل**، 8/246؛ النويري، 2/107– 108.

71) ابن حمّاد، 40. لعلّ الأمر يتعلّق بحملة سنة 342هـ/ 953– 954م.

وفي آخر جمادى الأولى 341 هـ / منتصف أكتوبر 952م ، وصل إلى الأندلس خبرٌ مفاده أنّ زيري بن مَناد الذي يحكم تاهرت باسم الشيعي قد أوقع في الأسر سعيد بن خَزَر أكبر رؤساء زناتة[72] . وليس من الثّابت أنّ زيري قد كان منذ ذلك العهد واليًا رسميًّا على تاهرت . ولكن من الممكن أن نستنتج من ذلك أنه كان في الواقع صاحب تلك المدينة بصورة أو بأخرى ، وأنه كان يحارب الزناتيّين بكلّ حزم.

وفي منسلخ شوّال 341 هـ / 19 مارس 953م توفّي المنصور، تاركًا الملك لابنه أبي تميم معدّ المعروف باسم المعزّ لدين الله [الفاطميّ] الذائع الصّيت ، آخر ملوك بني عُبَيْد في إفريقيّة .

وبعد ذلك بقليل انضمّ يعلى بن محمّد اليفرني إلى الفاطميّين الذين خصّوه بحظوة بالغة . كما عاد إلى حظيرتهم المغراوي محمّد بن خزر وخدمهم بإخلاص إلى آخر حياته (350 هـ / 961 – 962م)[73] .

وحسبما رواه ابن خلدون[74] ، فإن أمير تنّس الإدريسي ، علي بن يحيى بن محمّد الذي هزمه زيري بن مَناد سنة 342 هـ / 953 – 954م قد التجأ إلى الخير بن محمّد بن خزر المغراوي ثمّ تحوّل لدى الناصر وظهر من جديد في المغرب الأوسط سنة 343 هـ / 954 – 955م[75] .

وقد قامت الجيوش الفاطميّة بعمليّات عسكريّة في جبل الأوراس سنة 342 هـ / 953 – 954م وأخضعت سكّانها بني كملان ومليلة وهوّارة . ومن المحتمل جدًّا أن يكون الصنهاجيّون قد شاركوا في هذه العمليّات[76] .

وفي السنة الموالية (343 هـ / 954 – 955م) استقدم المعزّ من أشير زيري بن مناد أمير صنهاجة الذي تسلّم منه هديّة ثمينة ثم رجع إلى مقرّ ولايته . ويبدو أنّ سبب هذه المقابلة راجع إلى الوضع السائد آنذاك بالمغرب الأقصى ، حيث تفاقمت قوّة يعلى بن محمّد اليفرني الموالي للخليفة الأموي الناصر وأصبحت تنذر بالخطر.

---

72) **البيان** ، 234/2 . ألم يكن هناك خلط بين سعيد بن يوسف وسعيد بن خزر؟

73) **البربر** ، 232/3 – 233 ؛ فورنال ، 308/2 ؛ **اسبانيا الإسلامية** ، 107/2 .

74) **البربر** ، 570/2 .

75) **البيان** ، 235/2 .

76) **الاتّعاظ** ، 134 ؛ **المؤنس** ، 60 – 61 ؛ **سيرة جوذر** ، 75 – 84 .

غزوة جوهر (347 هـ / 958م – 349 هـ / 960م) :

في صفر سنة 347 هـ / 24 أفريل – 22 ماي 958م قرّر المعزّ الذي كان مصمّمًا على إعادة نفوذه في المغرب الأقصى ، تكليف قائده جوهر بالتحوّل إلى تلك الربوع على رأس جيش عتيد ، وأوصاه بأن يصطحب معه أمير صنهاجة زيري بن مَناد عند مروره من المغرب الأوسط . والجدير بالملاحظة أن الفاطميّين لم يتدخّلوا في المغرب الأقصى بصورة مباشرة منذ غزوة سنة 336 هـ / 947م .

كما اصطحب جوهر معه جعفر بن حمدون الأندلسي والي المسيلة . ففزع المغراويّون وعلى رأسهم محمّد بن خزر وبنو يفرن ودخلوا في طاعة القائد الفاطمي ، وكذلك يعلى بن محمّد والي تاهرت وإفكان ، رغم أنه كان متقلّدًا لولاية المغرب الأوسط بأمر من الخليفة الأموي .

وفي إفكان (أو إفغان) رأى جوهر نفسه مضطرًّا إلى معاملة بني يفرن بقسوة ، لأنّهم لم يتردّدوا في نهب ساقة جيشه . فأمر باعتقال يعلى بن محمّد الذي قتله الجنود الكتاميّون . وقد دبّر زيري هذه العمليّة ليتخلّص من القائد اليفرني الخطير . ويظنّ الزناتيّون ، حسبما أكّده ابن خلدون ، أنه هو الذي ساهم في قتله . ومهما يكن من أمر فإن موقف يعلى بن محمّد لم يكن واضحًا وإن من حقّنا أن نتساءل هل صحيح أنه استسلم فعلاً لجوهر؟[78]

ثمّ حاصر القائد الفاطمي مدينة فاس التي كانت آنذاك في قبضة الوالي الموالي للأمويّين ، أحمد بن بكر بن الجذامي الذي أبدى مقاومة ناجحة . وإثر ذلك زحف جوهر على سجلماسة وافتكّها عنوةً من يدي محمّد بن الفتح بن واسول الذي تمّ القبض عليه .

وبعدما أخضع الجيش الفاطمي شمال المغرب الأقصى بأكمله تقريبًا ، حتّى سواحل المحيط الأطلسي ، زحف من جديد على مدينة فاس واقتحمها بعد حصار طويل ، بفضل

---

77) **العِبَر** ، 154/6 ؛ **الكامل** ، 207/8 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 101/11 ؛ **المؤنس** ، 72 ؛ **البيان** ، 198/1 ، 222 – 223 ؛ البكري ، 151 ؛ فورنال ، 316/2 – 326 ؛ **تاريخ المغرب** ، 186/1 .

78) **العِبَر** ، 154/6 ؛ فورنال ، 321/2 . وقد فضّل هذا المؤلف رواية **روض القرطاس** المختلفة تمام الاختلاف عن رواية كل من ابن الأثير وابن خلدون ، ولذلك فهو يرى أن يعلى لم يستسلم إلى جوهر .

المناورة الحربيّة التي دبّرها زيري بن مَناد ، وذلك في رمضان 348هـ / 5 نوفمبر – 4 ديسمبر 956م[79] .

وقد انتصر الأمير الصنهاجي الذي يقال إنه كان يقتسم القيادة مع جوهر ، بعدما اقتحم المدينة ليلاً على حين غفلة متسلّقًا الأسوار الخارجية بواسطة السلالم ، وقتل المدافعين عنها . وعندئذٍ نزل المغيرون متّجهين نحو الأسوار ، ففتحوا أبواب المدينة وأوقدوا المشاعل ودقّوا الطبول . وعندما استمع جوهر إلى هذا الضجيج امتطى صهوة جواده ودخل فاس على رأس جيوشه[80] ، وسقط أحمد بن بكر الجذامي بين أيدي المنتصرين .

وعندئذٍ احتلّ جوهر جميع الأراضي التي كانت خاضعة في القديم لميسور واستولى على كافة المدن ما عدا سبتة وطنجة . وأطرد الولاة الأمويّين وعوّضهم بولاة فاطميّين وألحق تاهرت بالأقاليم الخاضعة لسلطة زيري بن مَناد الذي صاحبه حتى إفريقية . ويمكن تحديد تاريخ وصول جوهر إلى المنصوريّة والمهديّة منتصرًا وهو يجرّ وراءه والي كلّ من سجلماسة وفاس السابقين ، بشهر رجب 349هـ / 27 أوت – 25 سبتمبر 960م[81] .

المدن التي أسّسها بلكّين :

يشير ابن خلدون إلى أنّ زيري بن مَناد ، بعد مدّة قليلة من تقلّده ولاية تاهرت ، سمح لابنه بلكّين بتأسيس ثلاث مدن جديدة وهي الجزائر ومليانة ومدية[82] . ولعلّ الأمر يتعلّق

79) جاء في **البيان** ، 198/1 خطأً ما يلي : «دخل بنو خزر وزناتة مدنية تيهرت ونزلوا دار الإمارة . ثم اضطرب أمر أهل تيهرت ، وتغلّب عليها يعلى بن محمّد اليفرني الزناتي ، إلى أن قدم جوهر قائد الشيعة سنة 349» . وجاء في نفس الكتاب (ص 222) أن جوهر قد استولى على مدينة فاس سنة 347هـ / 958 – 959م . والحقيقة ان احتلال هذه المدينة لم يتمّ إلا في سنة 348هـ . ثمّ عكس المؤلف تسلسل الأحداث فقال : بعدما استولى جوهر على فاس «توجّه إلى تيطوان ، ووصل إلى مضيق سبتة ، فلم يقدر عليها ، ورجع عنها وقصد بعساكره إلى سجلماسة» . انظر أيضًا : فورنال ، 322/2 ، الإحالة 2 .

80) القصة مفصّلة في **الكامل** ، 207/8 .

81) تاريخ إعدام محمّد بن الفتح حسب رواية ابن عذاري (**البيان** ، 222/1) الذي لم يشر إلّا إلى الشهر . أما فورنال (326/2) فقد أشار إلى أن الحملة دامت من صفر 347 إلى شعبان 349 . وحول الطواف بالرجلين في أسواق القيروان في قفصين ، واعتقالهما بالمهديّة حيث لقيا حتفهما ، انظر تفاصيل تلك القصة الطريفة في : «**المعزّ**» ص 33 (وقد نقلها السلاوي في **الاستقصاء** ، 86 – 87) . وجاء في **المفاخر** ، أن جوهر التحق بالخليفة سنة 349هـ .

82) ابن خلدون : مدينة لمدونة ، نسبة إلى بطن من بطون صنهاجة . ويشير فورنال إلى لقب «اللمدوني» الذي ما زال مستعملاً إلى الآن .

بتوسيع وتهيئة بعض التجمّعات السكّانية التي لم تبلغ بعدُ درجة المدن الكبرى، أكثر ممّا يتعلّق ببناء مدن جديدة من الأساس. ويبدو أنّ بلكّين قد أقام بمليانة[83].

وفي الأثناء كان زيري بن مناد المخلص للفاطميّين أكثر من أيّ وقت مضى، يقاتل المغراويّين بدون انقطاع[84].

إلّا أنّ الأمير المغراوي محمّد بن خزر الذي كان قد ساهم في حملة جوهر بالمغرب الأقصى قد ظلّ مخلصًا للمعزّ. ولكنّه توفّي في القيروان أثناء الزيارة التي أدّاها إليه سنة 350 هـ / 961 – 962 م.

وقد تعاظم النفوذ الفاطمي بالمغرب الأقصى، في الوقت الذي أصبح فيه النفوذ الأموي مقصورًا على إقليمَيْ سبتة وطنجة. وانضمّ قائد زناتة إلى محمّد بن الخير بن محمّد بن خزر، وأخذ في مناوشة المناطق التابعة للمعزّ لدين الله، بإيعاز من خليفة الناصر (المتوفّى سنة 350 هـ / 961م)، الحَكَم الثاني[85].

غزوة جوهر في المغرب (355 هـ / 965 – 966م)[86]
وفتح مصر (358 هـ / 969م) :

قبل أن يوجّه المعزّ قائده الأوّل لفتح مصر، كلّفه بالقيام بحملة عسكريّة أخرى في المغرب الأقصى لم يرد ذكرها إلّا في بعض المصادر وبصورة مقتضبة.

فقد انطلق جوهر سنة 355 هـ / 965 – 966م ورجع في آخر محرّم 358 هـ / 965 – 968م محمّلاً «بالقطائع» (المعالم) الموظفة على البربر. ولم تذكر تلك المصادر هل أن الصنهاجيّين قد شاركوا في تلك الحملة، ولكنّ الأمر محتمل.

وفي شعبان 358 هـ / 20 جوان – 18 جويلية 969م، تمكّن جوهر من السيطرة على مصر.

---

83) البكري، 61 – 69.

84) **العِبَر**، 154/6 ؛ **تاريخ المغرب**، 186/1. وقد استعرض البكري على التوالي : تاهرت وحصن تاجمِلت (على بعد مرحلتين من تاهرت) الذي يُسكنه الزناتيّون بنو دمّار، وإيزمامة وهو حصن يسكنه اللواتة ونفزاوة ومدينة حاز؟ الواقعة على ضفاف نهر، وهي مدينة مهجورة، أجلى عنها أهلها زيري بن مَناد، وبورة، وهو نهر دائم السيلان يحيط به بنو يرناتن الذين كانوا يقيمون سابقًا في مدينة هاز، وحصن موزية...

85) **مفاخر**، 5 – 6 ؛ **البربر**، 544/2 ؛ فورنال، 327/2، 334 – 335.

86) **البربر**، 546/2 ؛ ابن خلّكان، 102/2 ؛ فورنال، 338/2 – 339.

الثورة الزناتية الخارجية (358هـ / 968 – 969م)[87] :

في نفس الوقت الذي انتصر فيه المعزّ لدين الله في مصر، اندلعت في المغرب الأوسط ثورة أبي خزر الزناتي[88] الذي جمع تحت لوائه البربر والنكارية، وبعبارة أخرى العناصر الزناتيّة المنتمية إلى الخوارج. ويبدو أنّ الأمر كان على غاية من الخطورة، حيث تصدّى الخليفة بنفسه للعدوّ. فقد وصل إلى باغاية ولكنّ المتمرّدين تفرّقوا واعتصموا بالجبال، فأخذ في مطاردتهم[89]. ثمّ رجع إلى المنصوريّة بعدما كلّف بلكّين بمواصلة العمليّات الحربيّة. فالتحق ابن زيري بالعدوّ ولكن لم يُعْثَر له على أثر ولم يُسْمَع عنه أيّ شيء طوال عدّة شهور، إذ أنّه قد التجأ لدى «حاكم» نفوسة[90].

وفي آخر الأمر قدم القائد الخارجي في شهر ربيع الثاني 359هـ / 11 فيفري – 11 مارس 970م لتقديم شواهد الطاعة إلى المعزّ الذي عفا عنه ومنحه جراية. أما رفيقه القائد الأباضي أبو نوح، فقد وقع في الأسر واستنطقه المعزّ ثمّ عفا عنه بفضل وساطة بلكّين[91]. وقبل أن يتحوّل الخليفة إلى معاقبة أبي خزر، أمر الخصيّ جوذر[92] بالذهاب إلى المهديّة لإعداد تحويل الذخائر الفاطميّة الوفيرة إلى مصر. وعندئذٍ انتشرت في البلاد إشاعة مفادها أن المعزّ سيكلّف جوذر بخلافته في إفريقية.

فلمّا علم جوذر بهذا الخبر فزع وبادر بتوجيه خطاب إلى الخليفة ليعرب له عن رغبته في عدم الابتعاد عنه. فأجابه المعزّ بعبارات مؤثرة قائلاً له إنّه لا ينوي أبدًا التخلّي عن وزيره المخلص الذي اشتعل رأسه شيبًا في خدمة الله والخليفة ولا بدّ أن يكون حاضرًا ليشاهد ما منّ الله به من نِعَم على بني عُبَيْد، وأن يساهم في ذلك. على أنّه حتّى لو عيّنه نائبًا لأمير إفريقية، فكيف يتسنّى له الحصول على شواهد الإخلاص والمساعدة اللاّزمة للاضطلاع بمهمّته في مثل تلك البلاد التي عمّ فيها الفساد؟ إن الخليفة لم يتركه في المهديّة إلّا اعتبارًا

87) **البربر**، 548/2 – 549؛ **الكامل**، 236/8؛ الشمّاخي، 348 – 354، وهذا المصدر الإباضي الهامّ لا يتحدّث عن دور بلكين.

88) **الكامل**، المرجع السابق، والشمّاخي.

89) وحسب **سيرة جوذر**، 108 – 110، واصل الخليفة مسيرته حتى بسكرة.

90) وهو أبو زكرياء بن أبي عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس رئيس نفوسة فيما بين 60 و70 سنة. الشماخي، 318 – 322؛ ليفيشكي، **دراسات إباضية**، 50/1.

91) أبو زكرياء، الترجمة، 308.

92) **سيرة جوذر**، 108 – 109.

لقواه الخائرة ، إلّا أنّ الانفصال الذي لا مفرّ منه ، لو تمّ تعيين جوذر على رأس المغرب ، ربّما يودي بحياة الوزير. وعلى كلّ حال فإن الخليفة قد حرص على تمكينه من أداء مناسك الحجّ وزيارة قبر الرّسول ﷺ. وختم المعزّ رسالته المؤثّرة ، متمنّيًا أن يجد لخلافته في المغرب شخصًا آخر يتحلّى بمثل ما يتيميّز به حبيبه جوذر من إخلاص ووفاء.

انتصار بلكّين على زناتة[93] :

لم يتأخّر الحَكَم الثاني عن مواصلة السياسة الإفريقيّة التي انتهجها والده من قبله ، وذلك بالاعتماد على الزناتيّين ، وقد كان رئيسهم الأمير المغراوي محمّد بن الخير بن محمّد بن خزر يناوش أنصار الفاطميّين ، واستطاع إخضاع قسم كبير من أراضيهم الغربية وكانت مهمّة زيري تتمثّل في عرقلة هذا التوسّع المخطر وامتلاك أيّ شبر من الأرض يتمكّن من انتزاعه من أيدي العدوّ.

وتلقّى بلكّين من والده أو من المعزّ أو منهما معًا على الأرجح ، الإذن بالهجوم على زناتة على رأس الجيش الصنهاجي. وبفضل المعلومات التي قدّمها إليه أحد أنصار محمد بن الخير ، زحف على زناتة على حين غفلة يوم 15 ربيع الثاني 360 هـ / 15 فيفري 971م في ضواحي تلمسان بلا ريب[94] . وقد دارت المعركة لصالح الصنهاجيّين الذين أوقعوا في الأسر عددًا كبيرًا من خصومهم. وقد ترك الزناتيّون جثث سبعة عشر أميرًا من أمرائهم في ساحة الوغى التي تكدّست فيها عظام المغلوبين مدّة طويلة. أمّا محمّد بن الخير الذي أحاطت به مجموعة من جنوده ، فقد قتل نفسه بسيفه يوم 17 ربيع الثاني 360 هـ ، ووصل رأسه إلى المعزّ يوم 24 من نفس الشهر[95] . «فحلّ ذلك عند المعزّ محلاً عظيمًا وقعد للهناء به ثلاثة أيام»[96] .

ووصل إلى القاهرة مبعوثون يحملون رأس محمّد بن الخير ورؤوس 3000 من الزناتيّين ، مع رسالة من المعزّ يعلن فيها عن هذا الانتصار الباهر. وقد قرئت الرسالة على منبر الجامع

93) **البيان** ، 259/2 ؛ **العِبَر** ، 154/6 ؛ **الكامل** ، 243/8 ؛ ابن حوقل ، 107/1 ؛ **مفاخر** ، **الاتّعاظ** ، 180 ؛ فورنال ، 352/2.

94) ابن بسّام ، 1/1 – 405.

95) **الاتّعاظ** : «ولثلاث بقين منه».

96) **الكامل** ، المرجع المذكور.

العتيق بالفسطاط[97].

وقد زادت هذه الهزيمة في نفوذ الخلافة الفاطميّة بالمناطق الغربيّة من المغرب وآلت إلى انضمام عدد كبير من القبائل إلى صفوف الفاطميّين. ولكنّ المغراويّين لم يعترفوا بهزيمتهم النهائية، فاجتمعوا من جديد حول الخير بن محمّد بن الخير نجل رئيسهم التعيس الحظّ.

الصراع بين جعفر بن علي وزيري بن مناد ووفاة هذا الأمير[98]:

كان من المفروض أن يطرح انصراف المعزّ إلى مصر في القريب العاجل موضوع اختيار خليفته في المغرب. الأمر الذي زاد في حدّة الصّراع بين المتنافسين الاثنين: جعفر بن علي وزيري بن مناد.

ولقد زاد الانتصار الذي أحرزه بلكّين منذ عهد قريب في نفوذ زيري بن مناد الذي ما فتئ يطارد الزناتيّين حتّى ضواحي المسيلة. ولم يرض عن هذه التدخّلات الصنهاجيّة جعفر بن علي والي الزاب والمسيلة، حيث كان يقيم مع أخيه يحيى، مظهرًا نفسه في مظهر الملك الحقيقي الذي مدحه الشاعر الفاطمي الذائع الصّيت ابن هاني[99].

ويقال إن زيري وابنه بلكّين قد كانا يحاولان تأليب الخليفة على جعفر بن علي، مذكّرين إياه بتواطؤ والي الزاب في وقت من الأوقات مع أمير مغراوة محمّد بن الخير[100]. ولعلّ المقصود بذلك أنّ أمير المسيلة عوض مساندة الصنهاجيّين قد شجّع الزناتيّين بصورة تزيد أو تنقص. ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن له أيّ ضلع في انتصار الصنهاجيّين.

---

97) الاتّعاظ، 180 – 196.

98) النويري، 108/2 – 109؛ العِبَر، 154/6 – 155؛ الكامل، 247/8؛ البيان، 215/1، 257/2 – 260، 267/3 – 268؛ مفاخر، 6 – 7؛ ابن الأبّار، الحلّة، 305/1 – 306؛ ابن بسّام، 1/1، 404 – 405؛ ابن خلّكان، 113/1، 197؛ المؤنس، 72 – 73؛ شذرات، 29/3 – 30؛ البكري، 59؛ فورنال، 256/2، 352 – 355؛ تاريخ المغرب، 187/1؛ إسبانيا الإسلامية، 187/2 – 188؛ انظر بالخصوص الإحالة 1 في صفحة 187 حول ثلاث روايات لانضمام جعفر بن علي إلى الأمويين أوردها ابن حيّان في المقتبس حسب محمّد بن يوسف الورّاق وأبي جعفر بن الجزّار وعيسى الرّازي؛ أعمال، 453؛ سيرة جوذر، في مواضع مختلفة.

99) البربر، 555/2؛ ابن الصيرفي، 30 – 31. وفي هذا المصدر اسم والي الزاب هو جعفر بن حمدون المعروف بالأندلسي، وهناك إشارة مماثلة في ابن حمّاد، 12.

100) البربر، 555/2، 234/3.

ويكاد يكون من الثابت أنّ المعزّ كان يفكّر في جعفر بن علي بن حمدون لتكليفه على الأقلّ بولاية إفريقية. فقد أمر ببناء (أو بالأحرى بتهيئة) دار ابن رباح بالقيروان المعروفة باسم دار الإمارة. وشاع آنذاك خبرٌ مفاده أنّ ذلك المبنى معدّ لجعفر بن علي الذي سيُعيَّن واليًا على إفريقية، في حين ترجع ولاية بلاد المغرب بأسرها إلى زيري[101].

على أنه يحقّ للأوّل أن يتفاخر بانتسابه إلى أحد المساهمين في تأسيس الدولة الفاطميّة، وهوه علي بن حمدون الجذامي أصيل اليمن، ذلك البلد الذي كان أكبر مركز من مراكز الإسماعيلية. وكان قد طلب عدّة مرّات ولكن بدون جدوى، على غرار الشخصيّة الثالثة في الدولة، جوذر الخصيّ، الحصول على رتبة من أعلى الرتب الإسماالية ألا وهي رتبة «الباب»[102].

ومن ناحية أخرى، ألم يكن جعفر شقيق المعزّ من الرّضاع ومحسوب القائد القويّ النفوذ جوذر الذي كان قد كلّفه الخليفة القائم بتربيته؟

ومع ذلك فإن **ديوان** ابن هاني و**سيرة جوذر** قد برّرا، بل ربّما أيّدا، مناورات زيري وبلكّين لتأليب الخليفة على والي المسيلة.

ولا ندري بالضبط متى نظم ابن هاني تلك القصيدة التي مدح بها جعفر[103] وختمها بدعوته إلى عدم خيانة الثقة الموضوعة فيه والبقاء على الوفاء لأسرة بني عُبَيْد التي تعرف كيف تعفو عند المقدرة.

ويدلّ المصدران المذكوران على أنّ الأمويّين قد كانت لهم جواسيس في المسيلة، مثل ذلك الجاسوس المدعوّ عثمان بن أمين الذي لم يتّخذ جعفر أيّ إجراء ضدّه، بل امتنع حتى عن إعلام جوذر بوجوده بالمسيلة. وعندما علم جوذر بالأمر أخبر بذلك الخليفة الذي كان على علم من قبل بالرعاية التي كان يحظى بها ذلك الشخص في المسيلة، حيث كان ابن الرمّاحة لا يتردّد في تلبية رغباته والاعتناء بممتلكاته. فأمر الخليفة عونه الأمين جوذر بمكاتبة الوالي لاستفساره حول هذا الموضوع[104].

---

(101) النويري، 108/2؛ وفي **المؤنس**، 72: «شاع بين الناس أن المعزّ يريد أن يستخلف يوسف بن زيري على جميع بلاد إفريقية»؛ **أعمال**، 455، كان جعفر يرغب في ولاية إفريقية والمغرب. وحول الإشاعة المتعلقة باحتمال تعيين الخصيّ جوذر، انظر: **سيرة جوذر**، 108-109.

(102) نفس المرجع، 74-75.

(103) **ديوان** ابن هاني، طبعة القاهرة 1352هـ، رقم 28، البيتان 34-35.

(104) **سيرة جوذر**، 123-124.

كما ندّد ابن هاني في إحدى قصائده بكاتب جعفر المسمّى أحمد الوهراني المناصر للأمويّين، الذي خان الإمام والإسلام، مناشدًا إيّاه بالكفّ عن هذا التأثير الضارّ الذي من شأنه تعريض المنطقة للخراب[105].

ومن ناحية أخرى لم يكن المعزّ راضيًا عن تصرّفات جعفر الذي لم يكن مجبورًا بوصفه واليًا ذا سلطة مطلقة على دفع مبلغ معيّن لبيت المال. وقد نصحه جوذر بقبول الاقتراحات المتعلقة بإقطاع ضرائب المسيلة والزاب لفائدة الخلافة، والاكتفاء بمبلغ 70000 دينار في السنة. وهذا يعني حرمان جعفر من صلاحيّته الجبائية وتمكينه من مرتّب سنويّ ثابت. وأحال جوذر إلى المعزّ رسالة يبيّن فيها جعفر حجم المداخيل التي ستنفق قريبًا في أغراض أخرى، منبّهًا إلى أنه لا يستطيع أن يضيف إلى الفائض االذي كان يدفعه لبيت المال سوى مبلغ طفيف. وحرصًا من الخليفة على عدم سحب ثقته من جعفر، لكي لا يرضي خصوم الوالي، رفض عزله رغم نصائح جوذر، واكتفى بتوجيه إنذار إليه[106].

وردًّا على الرسالة التي وجّهها إليه جوذر لدعوته إلى بذل المزيد من المال لإرضاء الخليفة الذي كان ناقمًا عليه، وعد جعفر بأنه سيحاول تلبية هذا الطلب، ملاحظًا أنّه كان ضحيّة بعض الوشاة (لعلّه يقصد بلكّين؟) ومؤكّدًا أنّ مقاطعته غير قادرة على تسديد المبلغ المطلوب. وقد ذكّره الخليفة بأن عليّ بن حمدون، بالرّغم ممّا أدّاه إلى الفاطميّين من خدمات جليلة لم يتمتّع بنفس الحظوة التي يتمتّع بها ابنه. فيتعيّن حينئذٍ على جعفر أن يحاول عدم إثبات التّهم الموجّهة إليه حتى لا يكون المعزّ مضطرًّا إلى عزله[107].

وأخيرًا استدعى المعزّ في وقت غير محدّد بلكّين بن زيري وجعفر بن علي لإصلاح ذات البين بينهما. وقد جرت المقابلة الصاخبة بدون حضور شهود، حيث اعتذر جوذر عن الحضور، بالنظر لا محالة إلى العلاقات القائمة بينه وبين بني حمدون. والجدير بالملاحظة أنّ المعزّ قد أجاب على رسالة أعرب فيها جوذر عن سروره بتصالح الخصمين، مشيرًا إلى ما كان عليه أن يتحلّى به من رباطة جأش لتحمّل تجاوزاتهما، وموصيًا جوذر بأن يطلب إلى

---

105) **ديوان ابن هاني**، رقم 29.

106) **سيرة جوذر**، 129 – 132؛ كنار: «عائلة متحزّبين»، تحيّة جورج مارسي، 46/2: بعدما رأى المؤلف أنّ جعفر بن علي المذكور في **سيرة جوذر** (131 – 133) هو جعفر بن علي بن حمدون، آهتدى في آخر الأمر بحقّ إلى أن المعني بالأمر هو جعفر بن علي بن أبي الحسين الكلبي.

107) **سيرة جوذر**، 140 – 141، رقم 38 وجّه جعفر إلى الخليفة مباشرة خطابًا آخر لا نعرف محتواه.

محسوبه الوفاء بتعهّداته وطاعة الإمام[108].

وباختصار، فقد قيل إن جعفر كان طامعًا في أن يكون الرئيس الأوحد لبلاد المغرب بأسرها. وحينما استدعاه الخليفة، ربّما ليعهد إليه بولاية إفريقيّة[109]، فضّل الاحتراس ولم يُلبِّ الدعوة[110]. فاستدعاه مرّة ثانية وأوفد إليه فرج الفتى. ولكنّه غادر المسيلة عندما كان المبعوث على بعد مرحلة من تلك المدينة، متعلّلاً بالتحوّل إلى المنصوريّة للالتحاق بالخليفة، وذلك في جمادى الثانية سنة 360 هـ/ أفريل 971م[111]، واصطحب معه جنوده وعائلته وعبيده وجميع ذخائره، وكان مرفوقًا أيضًا بشقيقه يحيى.

وبدعوى مناهضة زيري له، التحق بالزناتيّين وتحالف معهم ودخل في طاعة الأمويّين بالأندلس.

ولمّا وصل فرج إلى المسيلة أُحيطَ علمًا بانفصال جعفر بن علي. وقد خصّه الزناتيّون بحسن القبول واختاروه قائدًا عليهم. وبذلك فقد أخذ بنو خزر بثأر والدهم محمّد بن الخير.

واعتبارًا من شهر رمضان 360 هـ/ 28 جوان – 27 جويلية 971م انطلق زيري بن مناد على رأس جيش عتيد مكوّن من الصنهاجيّين وبعض العناصر الأخرى للتصدّي للتّحالف على حين غرّة قبل أن يجد المتحالفون الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم. فهزمه أمير مغراوة الخير بن محمّد وجعفر بن علي شرّ هزيمة. وفي أوج المعركة، بينما كان زيري يثير حماس فرسانه، إذ كبا به جواده فسقط إلى الأرض وقُتل. وقد دارت رحى تلك المعركة حول أسوار تاهرت[112].

وبادر جعفر إلى توجيه رسالة إلى الحَكَم[113]، ثمّ تحوّل المنتصرون بحذر نحو السواحل المقابلة للأندلس. وفي يوم 5 شوّال 360 هـ/ أوّل أوت 971م نزل في ميناء بشينة وفدٌ

---

108) نفس المرجع، 100–101؛ كنار، المرجع المذكور، 45. لعلّ هذه المقابلة كانت أساس رواية المقريزي؛ **الاتّعاظ**، 142–143.

109) **العِبَر**، 154/6.

110) لقد أورد كاترمير في الفصل المنشور بالمجلة الآسيوية (1837، 87 – 89) «ترجمة المعزّ»، رواية شبه خرافية مقتبسة من كتاب **المقفّى** للمقريزي حول الزيارة التي أدّاها جعفر بن علي إلى المعزّ بسردانية في شوّال 361 هـ والكلمات المنسوبة إلى الشخصين.

111) **مفاخر**.

112) **البيان**، 257/2. وفي رواية ابن حيّان التي نقلها ابن بسّام، 405/2، أطلق على هذه المعركة اسم يوم قرض، وهو اسم مكان لم نتمكّن من تعريفه.

113) حول الشخص المكلّف بإبلاغ الرسالة. انظر المعلومات المشكوك فيها الواردة في **البيان**، 258/2.

متركّب من رؤساء مغراوة مصحوبين بشقيق جعفر بن علي ، يحيى المكلّف بتسليم رأس زيري إلى الخليفة الأموي[114] . فأهدى الحَكَم إلى الزناتيّين هدايا من الفضّة وخلع عليهم ورخّص لجعفر باجتياز البحر. وسرعان ما خشي والي الزاب السابق أن يخونه حلفاؤه ، كما خاف من ردود فعل بلكّين التي لا مناص منها[115] . فتحوّل إلى الأندلس حيث نزل في بزليانة حوالي 11 ذي القعدة 360هـ / 5 سبتمبر 971م ، فاستقبله محمد بن أبي عامر وشقيقه يحيى وسير به في موكب بهيج إلى قرطبة . وفي يوم 25 ذي القعدة 360هـ / 19 سبتمبر 971م[116] خصّ الخليفة الأموي المغاربة باستقبال حارّ في مدينة الزهراء .

وفي الجملة فقد كان زيري بن مناد أميرًا ذا سلوك حسن تجاه الشعب والتجّار ، ولكنّه أمسك البربر بيد من حديد وبسط سلطانه على مدينة أشير التي أسّسها هو نفسه ، وعلى الإقليمين اللّذين أسندهما إليه المنصور ، وهما منطقتا تاهرت وباغاية . وكان جميع أبنائه الذين يربو عددهم على المائة ، كرماء وفرسانًا صناديد ، وكان أبوهم قد عهد إليهم بالقيام بعدّة حملات عسكريّة[117] .

114) **البيان** ، 2/259 – 260 ؛ **إسبانيا الإسلامية** ، 2/188 ؛ **مفاخر** ، 7 .

115) وأضاف النويري أن الزناتيّين قد تأسّفوا لوفاة زيري ، وهو تأكيد غريب يدلّ لا محالة على أنهم كانوا يخشون انتقام بلكين الذي سوف لا يتأخّر.

116) النويري ، 2/106 ؛ **مفاخر** ، 7 – 8 ؛ **البيان** ، 2/260 ؛ فورنال ه 2/355 ؛ **البربر** ، 2/555 ؛ ابن الأبار ، **الحلّة** ، 305 – 307 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 2/195 – 196 ، 260 – 262 ، 3/375. وقد عهد إليهم الحكم الثاني بولاية المناطق التابعة إليه بالمغرب ، وذلك سنة 365هـ / 975 – 976م . وقد أُعْدِمَ جعفر في 3 شعبان 372هـ / 21 جانفي 983م. واضطرّ يحيى في آخر الأمر إلى التحوّل إلى مصر لدى الخليفة العزيز.

117) النويري ، 2/109 : يبدو أن هذا الوصف ، كغيره من الأوصاف الأخرى المفتقرة إلى الأصالة ، هو من وضع أحد المؤرّخين الرسميّين. وحسب إشارة أوردها النويري (ويبدو أنها مقتبسة من ابن شدّاد) وهي واردة أيضًا في أغلب المصادر ، فإن مدّة إمارة زيري قد بلغت 26 سنة عند وفاته في سنة 360هـ / 971م ، وهذا يتطابق ، بفرق سنة واحدة ، مع تاريخ تقليده الإمارة من طرف المنصور في سنة 336هـ / 947 – 948م.

الفصل الرّابع
بلكّين بن زيري

حملة بلكّين ضدّ زناتة (361 هـ / 971 – 972م)[1] :

إثر وفاة زيري أنتقلت قيادة صنهاجة بدون صعوبة إلى ابنه بلكّين الذي كان موجودًا آنذاك بأشير. وسعيًا إلى الأخذ بثأر أبيه، وبأمر من المعزّ الذي أمدّه بالرجال والعتاد ورخّص له في الاحتفاظ بالمناطق التي سيستولي عليها، جنّد بلكّين قوّات غفيرة، ولم يصطحب معه أيّ واحد من الذين كانوا حاضرين عندما لقي والده حتفه، باستثناء ثلاثة أشخاص فقط. وذلك لأنّه كان يعتبر لا محالة أنّهم قد تخاذلوا عندما تركوا أميرهم يموت، دون أن يضحّوا بأنفسهم في سبيله.

وقد أسرع إلى القتال منذ أواخر سنة 360 هـ / خريف 971م، حسب الأرجح[2] مصرّحًا بأنه سوف لا يترك أيّ مهلة للعدوّ. فبادر بتطهير ضواحي طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة[3]، حيث قضى على زناتة ومزاتة وهوّارة ونفزة وغيرهم من البربر، إلى أن وصل إلى تاهرت وأعلن أنه سوف لا يمنح الأمان لأيّ بربري حيثما وُجِدَ، سواء كان من الفرسان أو من مربّي الخيول.

ولمّا استولى على المغرب الأوسط بأسره، أجلى زناتة إلى ما وراء نهر الملوية وجدّ في مطاردة الأمير المغراوي خير بن محمّد بن الخير، إلى أن وصل إلى سجلماسة، ففزع أميرها المدراري ودخل في طاعة الفاطميّين. وأخيرًا التحق بالجيش الزناتي، فشتّت شمله وقبض على الخير بن محمّد وأعدمه[4].

---

1) النويري، 2/109 – 110، العبر، 6/155، الكامل، 8/247، مفاخر، 8، أعمال، 453، المؤنس، 73، فورنال، 2/355 – 357، اسبانيا الإسلامية، 2/188 – 189.

2) أغلب المصادر تذكر سنة 361 هـ. وهناك مصدر واحد (مفاخر) ينصّ على أوائل 361 هـ. إلاّ أنّ رسالة المعزّ المؤرّخة في محرّم 361 هـ / 24 أكتوبر - 22 نوفمبر 971م، التي لا شكّ أنّها صدرت بعد رجوع بلكّين إلى أشير، تضطرّنا إلى تأخير بداية العمليّات الحربية إلى آخر سنة 360 هـ.

3) ويضيف كتاب المفاخر، 8 إلى تلك القائمة: شاية إثر علطة تاريخيّة أو خلط ممكن الوقوع بين شاية ومحّانة.

4) انظر حول قضيّة حلافة أمير زناتة المنشقّة، بالخصوص، فورنال، 2/356 – 357 والإحالات.

ومكث في ساحة الوغى ثلاثة أيام. ولمّا اشتكى الصنهاجيّون من رائحة الجثث، قيل أنه «أمر أن يجعل القدور على رؤوسهم ويطبخ فيها»[5]. وقد كُدِّست الجثث وصعد عليها المؤذّنون للنّداء إلى الصّلاة.

ومن المحتمل أن تكون عدّة قبائل، ومنها بالخصوص مكناسة، قد انضمّت إثر تلك المعركة إلى بني زيري.

وبعدما أخذ بلكّين بثأر أبيه وطهّر المغرب الأوسط لمدّة طويلة من الزناتيّين، قفل راجعًا إلى أشير بلا شكّ في أوائل سنة 361 هـ/ آخر أكتوبر 971م. وقد أثلجت هذه الحملة الساحقة صدر الخليفة الذي جازى الأمير المنتصر على الزناتيّين، بأن وهبه إقطاع المسيلة والزاب الذي كان تحت تصرّف جعفر بن علي.

وبعد ذلك بقليل أي في محرّم 361 هـ/ 24 أكتوبر — 22 نوفمبر 971م، استدعى المعزّ بلكّين لمقابلته وأمره بوقف جميع العمليّات الحربية وحسن معاملة الزناتيّين، وطلب إليه أن يرجع إليهم ما سبى من نسائهم وأطفالهم. فامتثل ابن زيري لهذه الأوامر وأطلق سبيل الأسرى وتأهّب للالتحاق بمولاه. ولا شكّ أن الخليفة كان حريصًا في تلك الساعة الحَرِجة على أن يكرّس الصنهاجيّون جهودهم لاستتباب الأمن في إفريقيّة، عوض صرفها في مقاومة الزناتيّين الذين تكسّرت شوكتهم.

وقبل الانصراف اختار بلكّين من بين عبيده عمّالاً للمدن الراجعة إليه بالنظر وهي تاهرت وأشير والمسيلة وبسكرة وطبنة وباغاية ومجّانة. وحسبما ورد في كتاب متأخّر من كتب الأخبار القليلة القيمة: فقد نفذت كتبه إلى عمّاله: «من يوسف بن زيري خليفة السّلطان»[6] ولعلّ الأمر يتعلّق بنصّ محرّف. «ولمّا وصل إلى المعزّ جلس له في الإيوان وأدخل عليه فقبّله وتحدّث معه وشكر أفعاله وقلّده سيفه وخلع عليه خلعة من لباسه وقاد بين يديه أربعين فرسًا بسروج الذهب المثقلة وأربعين تختًا بالثياب الفاخرة وخلع على جميع أصحابه وأكرمهم غاية الإكرام»[7]. ومن المحتمل أن تكون هذه الرّواية هي أيضًا محرّفة. على أنه لا يُستبعد أن يكون الخليفة الفاطمي قد قصد بهذا الاستقبال الرّائع، التعبير عن نيّته في تكليف بلكّين بخلافته في المغرب. وعلى كلّ حال فإن كلّ هذا التكريم الذي هو

---

5) [ابن الأثير، **الكامل**].

6) **المؤنس**، 73.

7) نفس المرجع.

عبارة عن عمليّة تنصيب تمهيديّة ، قد أثارت حسد الكتاميّين الذين أبدوا ملاحظات إلى الخليفة بدون جدوى. ولمّا عزم المعزّ على الرحيل إلى مصر قدّم إليه بلكّين «ألْفَي جمل من إبل زناتة لحمل ماله بالقصور من الذخائر»[8].

* * *

إنّ أهمّ حدث شهده المغرب خلال نصف القرن المنتهي وستكون له أخطر العواقب في المستقبل ، يتمثّل في ظهور قوّة جديدة أثناء الصّراع بين الفاطميّين والأمويّين، ألا وهي قوّة الصنهاجيّين التكلاتة الذين سرعان ما عوّضوا المكناسيّين ، باعتبارهم أكبر المناصرين للقضيّة الفاطمية . وقد تبيّن أن هذه القوّة الثابتة تعتبر سدًّا منيعًا في وجه التحرّك الزناتي . ويمكن أن نتابع على خريطة توسّعها من الغرب إلى الشرق ، أو على الأقلّ محاور تمركزها في المغرب الأوسط : قلعة مناد وأشير زيري ومدن بلكّين الثلاث : الجزائر ومليانة ومدية . وهي قوّة حَضَريّة على غرار قوّة الكتاميّين ، ولكن خلافًا للقوّة الأخيرة ، فهي متجذّرة في أرضها ذاتها . وقد سنحت لها ثورة أبي يزيد الفرصة للظهور بإفريقيّة والإسهام في إنقاذ الدولة الفاطميّة في فترة حاسمة من حياتها . كما خوّلت لها خيانة بني حمدون الفرصة للقضاء على منافستهم المحرجة وتقويض الحاجز الذي كان يمثّل عقبة في طريقها نحو الشرق . وها هي الآن تهيمن على تاهرت وباغاية والمسيلة والزاب !

وحينما تدقّ ساعة الرحيل إلى مصر التي ينتظرها الفاطميّون بفارغ صبر، أليست هي المؤهّلة قبل غيرها لتحكم باسمهم بلاد المغرب التي سيغادرونها بدون رجعة ، ولتحلّ محلّ الكتاميّين الذين سيحتاج إليهم بنو عُبَيْد لتحقيق رغبتهم في الهيمنة على المشرق؟

8) [الاتّعاظ ، 144].

الباب الثاني

إزدهار الدّولة الصّنهاجيّة
ملوك بني زيري الثّلاثة الأول
بلكين والمنصور وباديس

نظرة عامّة

خلال ما يناهز نصف القرن من سنة 361 إلى سنة 406هـ/ 792 – 1016م، توالى على الحكم ملوك بني زيري الثلاثة الأوائل : **بلكّين** (361 – 373هـ/ 972 – 984م) **والمنصور** (373 – 386هـ/ 984 – 996م) **وباديس** (386 – 406هـ/ 996 – 1016م) وقد حكم كلّ من الأوّل والثاني حوالي عشر سنوات وحكم الثالث حوالي عشرين سنة واجتهدوا في مواصلة تثبيت دعائم الدولة الفتيّة على نحوٍ لافتٍ للنظر، محاولين إيجاد الحلول الملائمة للمشاكل الجوهرية التي تعترض سبيلهم.

وقد حرص بلكّين رئيس صنهاجة وملك أشير على وجه الخصوص، باعتباره الخادم الأمين للخليفة الفاطمي، على نصرة القضيّة الفاطميّة ضدّ الزناتيّين الموالين للأمويّين في المغرب الأقصى، حيث قام بعمليّات حربيّة متتالية، بينما كان مخدومه منشغل البال بمثل ذلك الإسراف في القوات اللازمة والمجدية أكثر في المغرب الأوسط الذي هجره الكتاميّون. فقد اندفع بلكّين نحو الغرب بشبه سرعة مكتسبة، محاولاً في آن واحد تحقيق التوسّع الذي كان يحلم به أسياده في السّابق وإشفاء غليل حقدٍ قَبَلي قديم مرتكز على النّزاع العريق القائم بين البدو الرُّحّل وبين الحَضَر.

ولكي يتمكّن من حريّة التصرّف في الجهة الشرقيّة، عهد بولاية إفريقيّة التي تمثّل المقابل الخطير واللاّزم لما اختار القيام به من أعمال، إلى أحد أبناء تلك البلاد، الذي

سرعان ما تحوّل إلى طاغية، بعد ما أزاح منافسه الأوّل الذي كان ينتمي إلى سلك كبار رجال الدولة الفاطميّة.

ويبدو أنّ هذا الشخص الطّموح، قد تقرّب في أوّل الأمر من المذهب المالكي المناهض للشيعة والكتاميّين، ولكنّه لمّا نال مرغوبه انتصب خادمًا مطيعًا للخليفة الفاطمي.

أمّا المنصور، فقد استهلّ عهده بالتفكير في القيام بحملة عسكريّة جديدة ضد الزناتيّين في الجهة الغربيّة، ولكنه بعدما مُنِيَ بالخيبة عدل عن تحقيق مشروعه. أفلم يكن التوسّع الصنهاجي منذ البداية مُوَجَّهًا حَتْمًا نحو إفريقية؟ ومن ناحية أخرى فإنّ السلطة شبه المطلقة التي يتمتّع بها ممثّل الخليفة المشرف على تلك المنطقة باسم ابن زيري لا محالة، ألا تمثّل خطرًا جسيمًا بالنسبة إلى السلطة الأميرية؟ وقد بلغ السّيل الزبى عندما أُجْبِرَ زعماء صنهاجة، بمن فيهم المنصور هو نفسه، رغم انتسابهم رسميًّا إلى المذهب الشيعي، على مبايعة ممثّلهم في إفريقيّة الذي ارتقى إلى أعلى رتبة من المراتب الإسماعيليّة. وعند ذلك عزله المنصور وعيّن شخصًا آخر مكانه، دون أن يتعرّض لأدنى تأنيب من قِبَل الخليفة. ولا يكفي لتفسير عدم ردود فعل المعزّ، قلّة اهتمامه أكثر فأكثر بشؤون المغرب. فالواقع أنّه كان يعوّل حسب الاحتمال على نجاح الثورة الكتامية الرهيبة التي لا شكّ أنّه هو الذي دبّرها، وقد حمى وطيسها منذ عهد قريب. ولكنّ المنصور قد قمعها بسرعة وأخضع لسلطته منطقة القبائل الصغرى الأبيّة.

ويُعتبَر إعدام الدّاعي عبد الله بن محمّد الكاتب وإخضاع كتامة، من الإشارات الدّالة على استقلالية إفريقية في المستقبل. ذلك أنّ سلطة المنصور التي خرجت منتصرة من هذا الامتحان العصيب، لم تلبث أن تعزّزت بانضمام عدّة مجموعات زناتية إلى بني زيري، مقيمة الدليل على حكمة السياسة المتّبعة في هذا المضمار والمتماشية مع تطوّرات الحتميّة التاريخيّة.

وقد عكّرت صَفْوَ نهاية عهد المنصور ثورةُ عمّه أبي البهار الذي اعتمد، كما كان مُنْتظَرًا، على المغراويّين والأمويّين، ولكنّ الأمير لم يفارق الحياة الدنيا حتّى أخمد تلك الثورة التي كانت هي أيضًا مفعمة بالعِبَر. أَفَلا يُخْشى من تقدّم الصنهاجيّين نحو الشرق انفصالهم عن نقطة انطلاقهم الأولى وعزلهم عن مكان نشأتهم حيث يستطيع طموح أحد أقاربهم بعث دولة مستقلّة هناك؟ أفلا يمثّل ذلك الانفصال إشارة تنبئ باحتمال حصول انقسام مريع في صفوفهم؟ إن إحباط تمرّد أبي البهار قد أقرّ إزاحة الصنهاجيّين من المغرب الأقصى الذي سقط بين أيدي المغراويّين الموالين للأمويّين، برئاسة زعيمهم زيري بن عطيّة.

ورغم صغر سنّه، فقد ظهر باديس من أوّل وهلة بمظهر الملك القويّ النفوذ. وهو أيضًا

قد عهد بولاية إفريقيّة إلى أمير مساعد من أصل عربي. كما كان في الظاهر أكثر ولاءًا من سلفه للخليفة الفاطمي الذي لم يُثِر في وجهه أي مشكل، ما عدا التدخّل في طرابلس، على أنّ ذلك التدخّل قد كان متبوعًا، والحقّ يقال، بضمّ برقة إلى الأقاليم التابعة لبني زيري.

وكلّ ما كان يخشاه باديس هو قيام حملة زناتية قويّة تنطلق من تاهرت وتزحف عبر المغرب الأوسط إلى أن تصل إلى طرابلس. وهذا ما وقع بالفعل، فقد شنّ زيري بن عطية ورجاله المغراويّون منذ سنة 389 هـ / 998 – 999 م، تلك الحملة المتوقّعة التي تصدّى لها عَمّا الأمير يطّوفت والي تاهرت وحمّاد والي أشير، ولكنّهما لم يتمكّنا من إيقاف تقدّمها. فهبّ باديس لنجدتهما، إلاّ أنّه أُجبِرَ على التصدّي لخطرَيْن آخرين، وهما الثورة الزناتيّة بالمغرب الأقصى بقيادة فلفل بن سعيد والي طبنة وثورة أعمامه الذين انضمّوا إلى المتمرّد. وانتهز زيري بن عطيّة تلك الفرصة ليستولي على منطقة شاسعة ويعلن عن ولائه للأمويّين، بعدما حاصر مدينة أشير. فاستسلم إليه زاوي بن زيري في حين أعلن أبو البهار عن ولائه للأمويّين هو أيضًا. ومن حسن الحظّ، فقد هزم باديس فلفل بن سعيد هزيمة نكراء، بعدما أحرز هذا الأخير نجاحًا باهرًا أثار الفزع في القيروان ذاتها. فانسحب زيري بن عطية وأعمام الأمير باديس إلى الغرب، ما عدا ماكسن الذي بقي إلى جانب فلفل بن سعيد. وأخيرًا فرّ فلفل إلى الصحراء وقُتِل ماكسن ولقي زيري بن عطيّة حتفه. فرجع الوضع إلى سالف عهده بفضل حمّاد على وجه الخصوص، ثم تعكّر من جديد إثر قيام حملة عسكريّة زناتيّة مضادّة، وتمكّن حمّاد من صدّها ابتداء من سنة 395 هـ / 1004 – 1005 م. وبعدما أعاد الأمن إلى نصابه في المغرب الأوسط وأجلى الزناتيّين إلى المغرب الأقصى، أسّس مدينة القلعة سنة 398 هـ / 1007 – 1008 م.

وعندئذٍ انتهز فلفل بن سعيد فرصة الوضع الغامض الذي كان سائدًا آنذاك في الجنوب الشرقي من إفريقيّة لإثارة الشغب من جديد والاستيلاء على طرابلس. وقبل وفاته تمكّن باديس من تحييد الزناتيّين بواسطة بعض التنازلات. ولكنّ ذلك لم يكن سوى فترة هدوء عابرة سرعان ما تلتها ثورة ورّو بن سعيد. فلم ينتهز الزناتيّون المقيمون في جنوب إفريقية، فرصة التضليل التي وفّرتها ثورة حمّاد، وبالخصوص لم يضعوا حدًّا لاختلافاتهم، ففقدوا حماسهم شيئًا فشيئًا.

وانتهى عهد باديس بحادثين اثنين سيكون لهما بالغ الأثر في المستقبل: ألا وهما ثورة حمّاد في المغرب الأوسط والاضطرابات الأولى المضادّة للشيعة التي اندلعت في إفريقيّة. وقد انجرّ عن ذلك انبعاث مملكة بني حمّاد وقطع العلاقات مع القاهرة في عهد المعزّ بن باديس.

الفصل الأوّل
ولاية بلكّين
(362 – 373 هـ/972 – 984م)

رحيل المعزّ إلى مصر وتولية بلكّين[1] :

قبل أن يتحوّل المعزّ نهائيًّا إلى مصر، أقام معسكره خارج المنصوريّة، وبعدما أتمّ جميع الاستعدادات، توجّه إلى سردانية[1م] يوم الاثنين 21 شوّال 361هـ/ 5 أوت 972[2]، صحبة بلكّين. وهناك جرى موكب التقليد الرسمي يوم الأربعاء 20 ذو الحجّة 361هـ/ 2 أكتوبر 972م[3].

وإنّ ما قدّمه بلكّين ووالده من خدمات جليلة إلى الدولة، ليكفي وحده لتبرير هذا الاختيار الذي لا جدال فيه، لا سيما بعد خيانة جعفر بن علي بن حمدون[4]. ومع ذلك

1) النويري، 101/2، 110 – 111؛ **الكامل**، 244/8 – 247؛ **العبر**، 155/6؛ **البيان**، 228/1، 263/3؛ ابن خلّكان، 93/1؛ **شذرات**، 53/3 – 54، 80 – 81؛ **رحلة** التجاني، 12 – 14؛ **تاريخ** أبي الفداء، 112/2؛ **المؤنس**، 62 – 64؛ الشماخي، 354 – 355؛ **أعمال**، 451 – 453؛ **نجوم**، 72/4؛ **حسن المحاضرة**، 13/2؛ **الاتعاظ**، 142 – 145، 186؛ **الخطط**، 165/2؛ المقريزي، **كتاب السلوك**، استعمله كاترمير في «**حياة المعزّ**»، المجلة الآسيويّة 1837، 75 – 90؛ فورنال، 358/2 – 368؛ **ستوريا**، 273/2 – 274، 329 – 339؛ دائرة المعارف الإسلاميّة، 812/1؛ بلكّين (روني باسي)، و1349/1 (الطبعة الثانية)، الهادي روجي إدريس.

1م) [سردانية قرية قريبة من القيروان].

2) تشير أدقّ المصادر وأوثقها إلى التاريخ التالي: «لثمان بقين من شوّال»، ويشتمل هذا الشهر على 29 يومًا. فورنال، 360/2، الإحالة 2؛ **الاتعاظ**، 144، 186؛ لا شكّ أنّ العبارة الواردة في «**الشذرات**» (53/3 – 54) محرّفة، وكذلك العبارة الواردة في المخطوط المُعْتَمَد من طرف كاترمير الذي قرأ: «يوم 22».

3) حسبما جاء في «**الاتعاظ**»: يوم الأربعاء لتسع بقين من ذي الحجّة، لا يوم الجمعة 22 كما اقترح ذلك فورنال، 361/2 والإحالة 1. وفي المصادر الأخرى (النويري وابن خلّكان و**المؤنس**، الخ..): لسبع بقين، ولم يشر أيّ مصدر منها إلى يوم الجمعة. والجدير بالملاحظة أنّ كثيرًا ما يقع الخلط بين 7 و 9 بالنسبة لقراءة النصوص العربيّة القديمة. فإذا صادف 21 شوّال يوم اثنين، يكون يوم الاثنين الموالي يوم 28 والثلاثاء 29 شوّال والأربعاء 1 – 8 – 15 – 22 – 29 شوّال والخميس 30 ذو القعدة والجمعة أوّل ذو الحجّة والأربعاء 6 – 13 – 20 – 27 ذو الحجّة. وفي **الشذرات**، (80/3 – 81): الأربعاء 23.

4) أنظر بالخصوص، **البربر**، 9/2.

فإنّ بعض المصادر لم تتردّد في ذكر رواية خرافيّة[5] ربّما اقتبسها ناقلوها من كتب أحد المؤرّخين الرسميّين، مثل ابن شدّاد :

قال ابن بسّام : «لمّا تغلّب بنو عُبَيْد الناجمون بافريقيّة على مصر فخلص لهم صميمها، وتمّ لهم ملكها ونعيمها، وأراد معدّ بن إسماعيل بن محمد بن عُبَيْد الله الملقّب بالمعزّ لدين الله، اقتعاد صهوتها، وإثبات قدمه على ذروتها، دعا زيري بن مناد، وهو يومئذ من صنهاجة بمكان السّنام من الغارب، وبمنزلة الوجدان من نفس الطالب، وكان له عشر من الولد آساد شرى وأقمار سرى، فقال : أدع لي بنيك، فقد علمت رأيي فيهم وفيك، وكان أصغرهم سنّا، وأهونهم عليهم شأنًا، يوسف بن زيري فدعا ولده ما عداه، والمعزّ ما يريد سواه، وكانت عند المعزّ – زعموا – أثارة من الحدثان قد علم بها مصائر أحواله، وأهل الغناء من رجاله، وكانت عنده لخليفته على إفريقيّة إذا صار إليه ملك مصر علامة يأنس بها أنس الكبير بذكر شبابه، ويعرفها عرفان العاشق بديار أحبابه، فنظر في وجوه بني زيري فأنكرها، حين تفقّد تلك العلامة فلم يرها، فقال لزيري : هل غادرت من بنيك أحدًا، فلست أرى لمن ها هنا منهم أيدا ولا يدا، فقال له : إلاّ غلامًا وطفق يصغر شأنه، والمقدار قد عناه وأعانه، ويطوي أخباره، والاختيار يدير عليه مداره، فقال له المعزّ : لا أراك حتى أراه، فلست أريد سواه، فلمّا رآه عرفه، وفوّض إليه من حينه واستخلفه».

وهناك رواية مماثلة[6] ولكنّها تكتسي أكثر أهمية، لأنّها سواء أكانت صحيحة أم لا، تلقي الأضواء على نفسيّات الأشخاص المعنيّين بالأمر :

«لمّا عزم [المعزّ] على المسير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب، فوقع اختياره على أبي أحمد جعفر بن علي [ابن حمدون الأندلسي]، فاستدعاه، وأسرّ إليه أنّه يريد استخلافه بالمغرب، فقال : تترك معي أحد أولادك أو اخوانك جالسًا في القصر وأنا أدبّر، ولا تسألني عن شيء من الأموال، لأنّ ما أجبيه يكون بإزاء ما أنفقه، وإذا أردتُ أمرًا فعلتُه ولم أنتظر ورود الأمر فيه لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قِبَل نفسي.

فغضب المعزّ وقال : يا جعفر عزلتَني عن ملكي، وأردتَ أن تجعل لي شريكًا في أمري، واستبددتَ بالأعمال والأموال دوني، قم فقد أخطأت حظّك وما أصبت رشدك.

---

5) رواية ابن بسّام التي ذكرها التجاني بصريح العبارة، 12–13، ونقلها ابن عذاري حرفيًّا، **البيان**، 296/1.

6) **الاتّعاظ**، 142–143؛ **الخطط**، 165/2، وقد اعتمدنا النصّ الأوّل.

واستدعى المعزّ يوسف بن زيري الصنهاجي وقال له : تأهّب لخلافة المغرب . [فأكبر ابن زيري العرض] وقال : يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ﷺ ، ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتَني يا مولانا بلا سيف ولا رمح . فلم يزل به حتى أجاب ، وقال : يا مولانا ، [أقبل ولكن] بشريطة أن تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره ، والخبر لمن تثق به ، وتجعلني أنا قائمًا بين أيديهم ، فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب ، ويكون الأمر لهم ، وأنا خادم بين ذلك . فحسن هذا من المعزّ [وشكره ، فلما انصرف] قال له عمّ أبيه أبو طالب أحمد بن المهدي عُبَيْد الله : يا مولانا وتثق بهذا القول من يوسف أنه يفي بما ذكره؟ فقال [المعزّ] : يا عمّنا كم بين قول يوسف وقول جعفر . واعلم يا عمّ أنّ الأمر الذي طلبه جعفر ابتداءً من آخر ما يصير إليه أمر يوسف ، فإذا تطاولت المدّة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا أولاً أحسن وأجْوَد عند ذوي العقول ، وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره» .

وفي نفس هذا المعنى تكاد كلّ المصادر تُجمِع على أنّ المعزّ قد قدّم إلى بلكين ثلاث توصيّات قبل أن يودّعه . فقد قال له : «إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : إيّاك أن ترفع الجباية عن أهل البادية والسيف عن البربر[7] ، ولا تُوَلِّ أحدًا من إخوتك وبني عمّك ، فإنّهم يرون أنّهم أحقّ بهذا الأمر منك ، وافعل مع أهل الحَضَر خيرًا»[8] ، وحسب رواية أخرى : «وكذلك مع جامع الجباية أبو مَضَر زيادة الله» .

وقد ترك المعزّ أمرَ صقليّة لواليها أبي القاسم علي بن الحسن بن علي بن الحسين الكلبي ، وهو ثالث من تولّى الحكم في صقليّة من أمراء الأسرة الكلبيّة[9] . وسلّم إلى بلكّين جميع مقاطعات المغرب وإفريقيّة ، ما عدا طرابلس[10] . وأعطى الإذن لكتّابه بأن يكتبوا إلى العمّال وولاة الأشغال ليأمروهم بالسمع والطاعة لخليفته . وعندما مرّ المعزّ من طرابلس في طريقه إلى مصر ، ولّى عليها أحد الكتاميّين المتمتّعين بثقته ، وهو عبد الله بن يخلف .

---

7) المقصود بالبربر الزناتيّين الرُّحَّل وكذلك الخوارج .

8) الحَضَر أو الحاضِر ، ونجد أيضًا عبارة «الحاضرة» أي سكّان العاصمة . النويري : أبو مضر (كنية زيادة الله بن عبد الله بن عبد القديم) .

9) **الكامل** ، 245/8 : جاء فيه خطأٌ : الحسن بن علي بن الحسين (المتوفّى حوالي سنة 359 هـ) . ونجد هذا الخلط بين الأب والابن الذي عيّن واليًا على صقليّة في سنة 360 هـ ، في **الاتّعاظ** ، 144 والإحالة 4 . أنظر أيضًا : **تاريخ أبي الفداء** ، 97/2 (نقلاً عن ابن شدّاد) وستوريا ، 336/2 .

10) ومن باب أولي وأحرى لم تكن برقة وأجدابية وسرت تابعة لبلكّين.

ويقال إنّ المعزّ قد طلب إلى شيوخ كتامة قبل رحيله إلى مصر أن يدفعوا الخراج للرجال الذين سيكلّفهم بذلك ، فرفضوا الامتثال إلى ذلك الأمر. ويبدو أنّ ذلك الرفض قد أثلج صدر المعزّ الذي ربّما استعمل تلك الحيلة ليتأكّد أنّ الكتاميّين سوف لا يخضعون أبدًا لسلطة صنهاجة[11].

ولعلّ هذه الرواية صحيحة ، لأنّ الخليفة ربّما خشي التحالف بين كتامة وصنهاجة ، وأراد أن تحول إستقلاليّة الكتاميّين دون هيمنة الصنهاجيّين ، أو على الأقلّ أن تكون موازية لها .

وقد قدّم المعزّ إلى بلكّين خلعة الخلافة ، وألبسه ثيابًا فاخرة وأهدى إليه أحسن ما عنده من الخيول المسرّجة وعهد إليه بقيادة الجيش وجمع الضرائب وإدارة الأقاليم «وجعل خاتمه في يده»[12]. وأصبحت الرسائل الصّادرة عن بلكّين منذ ذلك الحين تُستَهَلّ بالعبارة التالية : «من عبد الله أبي الفتوح يوسف ابن زيري خليفة أمير المؤمنين».

ذلك أنّ الخليفة قد كان عوّض اسم بلكّين البربري[13] باسم يوسف وكنّاه بأبي الفتوح عوض الكنية التي يبدو أنّه كان معروفًا بها ، وهي «أبو حبّوس»[14].

كما أضفى عليه لقبًا فخريًّا ، وهو «سيف الدولة»[15] ، وقيل «سيف العزيز بالله»[16] أو «عدّة العزيز بالله»[17] ، ولو أنّ هذا اللّقب قد حمله أيضًا خليفته المنصور. وأطلق عليه

11) **الأتعاظ** ، 140 – 141 ؛ **الخطط** ، 162/2 ؛ **المعز** ، 65 – 66 .

12) **مفاخر** ، 13 ؛ **وأعمال** ، 451 .

13) ورد ذكر هذا الاسم في مصادرنا بثلاثة أشكال مختلفة : بلقّين وبلجّين وبلكّين. أنظر : **الكامل** و**العبر** و**البيان** ؛ وابن قنفطي ، 138/2 ؛ و**النجوم** ، 70/5 ؛ و**ستوريا** ، 329/2 الإحالة 2 .

14) وبالفعل فإنّ ابنه حمّاد بن يوسف بن زيري ، قد أُطْلِق عليه مرّة واحدة على الأقلّ اسم حمّاد بن أبي حبوس ويبدو أنّ حبوس هو اسم المنصور. أنظر : **الاستبصار** (الترجمة 100) . وأخيرًا يبدو أنّ يوسف بن أبي حبّوس الذي ورد ذكره في **البيان** ، 260/1 – 262 هو أخو حمّاد .

15) **العبر** ، 155/6 . ذكر ابن شرف في القصيدة التي مدح بها المعزّ بن باديس (**البيان** ، 295/1) الألقاب الفخريّة التي حملها آباؤه ومنها لقب حُسَام (أي السيف) الذي أُطْلِقَ على بلكّين .

16) لم يُعَيَّن العزيز وليًّا للعهد إلاّ قبل مدّة قليلة من وفاة والده في سنة 365 هـ/975م ؛ ابن حمّاد ، 48 ؛ **البيان** ، 229/1 ؛ **أعمال** ، 452 .

17) ابن حمّاد ، 48 . من المستبعد أن يكون المنصور قد حمل نفس اللقب الفخريّ الذي أُطْلِقَ على والده . ويمكن أن نقدّم التفسير التالي : ربّما أطلق المعزّ على بلكّين لقب سيف الدولة وبعدما ارتقى العزيز بالله إلى العرش سنة 365 هـ ، حوّل ذلك اللقب إلى سيف العزيز بالله .

مصدرٌ واحد اسم بلكّين بن زيري ظهير الدولة[18].

وعهد الخليفة بالجباية في إفريقيّة[19] إلى أبي مضر زيادة الله بن عبد الله بن القديم[20] الذي أوصى به خليفته خيرًا، وبإدارة الخراج إلى عبد الله الخراساني وخلف المرصدي، وأمر جميع أولئك الموظفين بالسمع والطاعة ليوسف بن زيري[21]. ثم غادر سردانية، بعدما أقام بها أربعة أشهر[22]، وذلك يوم الخميس 5 صفر 362 هـ/ 15 نوفمبر 972م[23]، وصحبه بلكّين بن زيري. فمرّ من صفاقس ووصل إلى قابس يوم 11 ربيع الأوّل/ 17 ديسمبر 972 وغادرها يوم الأربعاء 10/ 19 ديسمبر 972[24]. وفي المكان المعروف باسم آبار الخشب[25] الواقع جنوب قابس، حسب الاحتمال، أمر بلكّين بالعودة يوم 11 ربيع الأوّل/ 20 ديسمبر 972، وتوجّه نحو طرابلس، وقد وصل إليها يوم الأربعاء 24 ربيع الأوّل/ 2 جانفي 973[26]، واستأنف طريقه يوم السبت 16 ربيع الثاني 362 هـ/ 24 جانفي 973م[27].

---

18) **نقط**، الطبعة الثانية، القاهرة 1951، ص 86.

19) **الكامل**: «جباية أموال إفريقيّة»؛ النويري: «نظر الدواوين بسائر قرى إفريقيّة، جامع الأموال بإفريقيّة»؛ ابن حوقل، 1/96–97: تحدّث عن واقعة رواها له زيادة الله أبو مضر بن عبد الله، صاحب الخراج بالقيروان سنة 360هـ/ 970–971م، أنظر: فورنال، 2/357 الإحالة 4.

20) حول والده عبد الله بن محمّد المعروف باسم ابن القَديم (أو القُدَيْم)، وهو من أحفاد الأغالبة وتولّى الوزارة في عهد المهدي الذي أمر بقتله سنة 299 هـ/ 911–912م. أنظر: **البيان**، 1/167 و**المعزّ**، 145.

21) النويري، 2 و3؛ و**الكامل**، 8/244.

22) أنظر **الكامل** و**العبر** و**المؤنس** وفي الحقيقة حوالي ثلاثة أشهر ونصف الشهر.

23) ابن خلّكان، 5 صفر يصادف نظريًّا يوم الجمعة. أنظر: فورنال، 2/362 والإحالة 2. وسنلاحظ اختلافات مماثلة في التواريخ: الاثنين، عوض الثلاثاء 8 ربيع الأوّل 362 هـ والاربعاء عوض الخميس 10 ربيع الأوّل 362 هـ والأربعاء عوض الخميس 24 ربيع الأوّل 362 هـ والسبت عوض الجمعة 16 ربيع الأوّل 362. ويذكر **المؤنس** خطأً لا محالة «في أوّل صفر»، ويمكن إصلاحها كما يلي: «في أوائل صفر». **مفاخر**: «في صدر ربيع الأوّل».

24) تاريخ الوصول حسب **الأعمال** وتاريخ الرحيل حسب **المؤنس**.

25) حسب رواية **الأعمال** لا غير. وحسب الإدريسي تقع آبار الخشب بين قابس وطرابلس فيما وراء الفوّارة التي تبعد 30 فرسخًا عن قابس. كما يشير ابن خرداذبه إلى أن فوّارة تقع على بعد 30 فرسخًا من قابس. أنظر: بلاشير، **مقتطفات من أهمّ الجغرافيّين العرب**، 25. وهناك مصدر واحد، **البربر**، 2/10 يقول إنّ بلكّين قد رافق الخليفة حتى ضواحي صفاقس. وتاريخ 11 مذكور في **المفاخر**، ص 13.

26) **المؤنس**.

27) النويري و**المؤنس**. وصل إلى الاسكندرية في آخر شعبان ودخل القاهرة يوم 5 رمضان 362 هـ/ 9 جوان 973م مسبوقًا بتوابيت آبائه.

وفي نفس الطريق انفصلت عنه فرقة من الجيش والتجأت إلى جبل نفوسة ، فأخذ في مطاردتها بدون جدوى[28]. وفي طرابلس أو في ضواحيها على الأرجح ، طلب الخليفة إلى القائدَين الأباضيَّيْن اللّذَيْن كانا قد شقّا عصا الطاعة ، وهما أبو نوح وأبو خزَر، أن يصاحباه إلى مصر. فاعتذر الأوّل متعلّلاً بالمرض ، وأمّا الثاني فقد رافق المعزّ الذي أغدق عليه العطايا. وفي القاهرة أثارت المزايا المقدّمة إلى ذلك الشخص المعروف باسم «عالم المغرب» حسد وزراء الخليفة ورجال حاشيته. وقد أشارت بعض المصادر إلى أنّه كان يدرّس المذهب الأباضي لعشرين طالبًا وكان يقوم هو نفسه بشؤونهم[29].

وبعدما ودّع بلكّين الخليفة ، بادر بالرجوع إلى القيروان في نفس اليوم ، أي الخميس 11 ربيع الأول 362 هـ / 20 ديسمبر 972 م[30]. «فنزل بقصر السلطان بصبرة وخرج إليه أهل القيروان فهنّوه وأظهروا السّرور بقدومه وأقام هنالك شهرين وبعث العمّال والولاة [وجباة الأموال] إلى جميع البلاد ، ونفذت أوامره في إفريقية والمغرب»[31] وقد قام بقمع الثورة التي أعلنها الخوارج في منطقة قابس ، حيث نهب المتمرّدون تلك المدينة واقتحموها ، ولكنّهم هُزِموا شرّ هزيمة[32].

وبعدما نظّم بلكّين الإدارة وطمأن الخواطر، التفت إلى المغرب ، وفقًا لرغائبه الخاصّة ، وتلبيةً لدعوة الخليفة الذي أوصاه بأن يستهلّ عهده بالقيام بحملة عسكريّة بالمغرب ، ليجتثّ منها بذور الفتنة وآثار بني أميّة[33].

28) حسب رواية **الكامل**، 8/244 – 245.

29) الشماخي ، 354 – 355.

30) النويري و**المؤنس**. أمّا صاحب «**المفاخر**» فإنّه لم يذكر اليوم.

31) إذا علمنا أنّ بلكّين لم يغادر العاصمة في اتّجاه المغرب إلاّ في شهر شعبان ، لا يمكننا أن نصدّق رواية صاحب **المؤنس** (74) الذي أكّد أنّه أقام شهرين بالقيروان المنصورية ، لأنّ الأمر يتعلّق بأربعة أشهر على أقلّ تقدير.

32) ابن حوقل (المتوفّى بعد سنة 367 هـ/977م) ، 1/70.

33) **العبر**، 6/155 ؛ والشمّاخي ، 354 – 355.

حملة بلكّين بالمغرب الأوسط[34] :

رحل بلكّين إلى المغرب في شعبان 362هـ / 7 ماي – 4 جوان 973م[35] على رأس جيش صنهاجي وفرقة كتاميّة كان المعزّ قد تركها بإفريقيّة[36]. وتعتبر هذه الإشارة من الأهمّيّة بمكان ، إذ أنها تقيم الدّليل على أنّ جميع الكتاميّين لم يصاحبوا الخليفة الفاطمي إلى مصر ، وأنّ المعزّ قد وضع قسمًا منهم تحت قيادة ممثّله بالمغرب.

ولمّا وصل بلكّين إلى باغاية ولّى عليها عاملاً وأوصاه بالرفق بأهلها. وبفضل ذلك دخلت باغاية في الطاعة. ولكن ما إن استأنف طريقه – ولم تقل لنا المصادر أين كانت وجهته ، ولا شكّ أنّه قد اتّجه نحو الغرب – حتّى ثار أهل باغاية على عاملهم الجديد ، وانتصروا عليه وتحصّنوا وراء أسوار مدينتهم. وعندئذ وجّه إليهم بلكّين بعض الجنود فهزموهم. وبينما كان يتأهّب للزّحف على المتمرّدين إذ قدم عليه مبعوث من عامل تاهرت خلوف بن أبي محمّد[37] يخبره بأنّ أهل تلك المدينة قد أزاحوا عاملهم. فانصرف بلكّين لمعاقبة المتمرّدين وتمكّن من استرجاع تاهرت عنوة في رمضان 362هـ / 5 جوان – 5 جويلية 973م وقتل الرّجال وسبى النسوة والأطفال ونهب المدينة وأحرقها.

وفي حين كان يستعدّ للزّحف على باغاية التي ما زالت لا محالة في حالة تمرّد ، بلغه أنّ الزناتيّين قد استولوا على تلمسان. فرحل إليهم ولكنّهم فرّوا منه. وبعد حصار طويل استسلمت المدينة ، فعفا عن المتمرّدين ولكنّه أجلاهم إلى مدينة أشير حيث أقاموا بالقرب منها مدينة جديدة أسْمَوْهَا تلمسان[38].

إلاّ أنّ المعزّ قد أمر بلكّين بعدم التوغّل في المغرب ، فقفل راجعًا إلى القيروان. على أنّنا لا نعلم هل تمكّن من استرجاع باغاية وهو في طريقه إلى القيروان. ولكن يبدو أنّ هذا

34) النويري ، 2/111–112 ؛ **الكامل** ، 8/245 ؛ **العبر** ، 6/156 ؛ **مفاخر** ، 13 ؛ **المؤنس** ، 74 ؛ **الاتّعاظ** ، 198 ؛ فورنال ، 2/363.

35) النويري و**مفاخر**. ويذكر صاحب **المؤنس** شهر شعبان 363هـ ، ولا شكّ أنّه أخطأ في الحساب بمقدار سنة ، لا سيما وأنّ هذا المصدر المتأخّر هو الوحيد الذي ادّعى أنّ بلكّين لم يُقِم في القيروان المنصورية سوى شهرَيْن.

36) **العبر** ، 6/156.

37) حسب النويري : «الخلوف بن محمود» الذي أصبح يسمّى بعد بضعة أسطر «خلوف بن أبي محمّد» ، ويبدو أنّ هذه هي التسمية الصحيحة.

38) **الكامل** والنويري : «تلنسان» (هل يتعلّق الأمر بخطإ ارتكبه الناسخ أم هو تحريف مقصود لكلمة تلمسان؟).

الافتراض صحيح. وربّما كان تاريخ رجوعه قبل شهر صفر 363هـ/ نوفمبر 973م، إذ تفيد بعض المصادر أنّه في نفس ذلك الشهر «طيف في القاهرة بنحو مائتي رأس قُدِمَ بها من المغرب»[39]. ولا شكّ أنّ هذه الرؤوس قد بعث بها بلكّين إلى مخدومه بعد عودته إلى إفريقيّة.

وفي ربيع الأوّل 363هـ/ 30 نوفمبر - 29 ديسمبر 973م[40] عاد إلى المغرب، وعلى الأرجح إلى أشير، بعدما ولّى على القيروان وصبرة عاملاً يقال له جعفر بن تمّرت[41] وترك له عددًا كبيرًا من الخيّالة.

تعيين عبد الله الكاتب عاملاً على إفريقيّة[42]:

إثر وفاة جعفر بن تمّرت عامل القيروان وصبرة المنصوريّة في جمادى الثانية 363هـ/ 27 فيفري - 27 مارس 974م، أعلم زيادة الله بن القديم أبا الفتوح يوسف (بلكّين) بذلك، وطلب إليه تعويض الرّاحل بشخص آخر يساعده على إدارة شؤون البلاد. فقرّر تعيين عبد الله بن محمّد الكاتب التميمي، وهو ابن أمير أغلبي كان قد فرّ إلى نفزاوة عند ارتقاء الفاطميّين إلى الحكم، وهناك وُلِد وربّاه خاله صالح. وقد برع الشّاب في كتابة الرسائل[43] والخطابة، وكان يحذق جيّدًا اللغة العربيّة واللّغة البربريّة، فعيّنه ابن زيري كاتبًا في ديوان الإنشاء. وعندما تقلّد بلكّين الحكم أقرّه في منصبه وأغدق عليه العطايا. ولكنّه رفض رفضًا باتًّا المنصب الجديد المعروض عليه بدون أن نعرف السبب. وفي آخر الأمر استدعى بلكّين الأمير حبوس بن زيري[44] وكرامة بن إبراهيم وكبّاب بن زيري وخلوف بن أبي محمّد، بمحضر الموظّف المتعنّت، وسألهم ماذا يستحقّ من يعصي أمر الأمير ويرفض التحوّل إلى إفريقيّة ليشغل منصب نائب الأمير. فأجابوا أنّ مثل هذه الجريمة تستوجب القتل، ودعوا عبد الله الكاتبَ إلى الامتثال إلى أمر الأمير، وهدّدوه بالقتل إذا تمادى في الرّفض. فانتهى

---

39) **الاتّعاظ**، 198.
40) حسب النويري الذي لم يذكر السنة.
41) النويري المخطوط: «تمرت وتموت» (يموت؟).
42) النويري، 112/2 - 113؛ **الكامل**، 245/8؛ **العبر**، 157/6؛ **مفاخر**، 13؛ **البيان**، 230/1.
43) النويري: «تعلّم الخطّ والترسيل».
44) حسب رواية النويري، وقد جاءت في النصّ عبارة «جيوش» التي ربّما هي تحريف لاسم «حبوس».

به الأمر إلى الاستسلام وتحوّل إلى إفريقيّة على مضض منه. ولمّا وصل إلى القيروان كان في استقباله زيادة الله ابن القديم. فترجّل الرجلان وتعانقا واستمرّا في وفاق تامّ مدّةً من الزمن. ولكنّ علاقاتهما ما لبثت أن تعكّرت وبدأت المواجهة بينهما. ويبدو أنّ بلكّين قد ساند نائبه ومنحه كامل ثقته ضدّ خصمه زيادة الله ابن القديم الذي يقال إنه كان مواليًا للخليفة الفاطمي أوّلاً وقبل كلّ شيء، وقد كان «كاتبه» من قبل[45]. ونحن نجهل تفاصيل تلك الخصومة التي أثارت اضطرابات خطيرة في القيروان وانتهت بانتصار عبد الله الكاتب الذي ألقى القبض على خصمه ووجد نفسه بمفرده على رأس الإدارة منذ الثامن من ربيع الأوّل 364هـ/ 26 نوفمبر 974م. وكان زيادة الله بن القديم قد باشر خطّته مدّة سنتين وشهرين ونصف الشهر[46]. ولا ندري هل أرسله عبد الله الكاتب إلى بلكّين الذي زجّ به في السجن، أم هل اعتقله في سجنه الخاصّ. ومهما يكن من أمر فقد لقي مصرعه في السّجن يوم الأربعاء 11 جمادى الأولى 366هـ/ 5 جانفي 977م[47] «وقيل إنّ عبد الله قتله بأنواع من العذاب»[48].

فكيف نفسّر بقاء بلكّين بالمغرب الأوسط، حيث يبدو أنّ وجوده لم يكن ضروريًّا، طوال حصول مثل تلك الأزمة البالغة الخطورة؟ ومن المستبعد أن يكون عدم اكتراثه بافريقيّة قد بلغ ذلك الحدّ. ولعلّه بمساندته لنائبه في القيروان قد أراد أن يظهر بمظهر الخصم اللّدود للشخص الذي كان يحظى برعاية الخليفة. ولكن يبدو أنّه، بالرغم من تواطئه مع عبد الله الكاتب، قد أراد أن يبقى خارج النزاع حتى يضفي عليه صبغة الخصومة الإفريقيّة المحض. ولذلك فإنّنا نميل إلى الاعتقاد أنّ أعيان القيروان قد ساندوا طموح ممثّل بلكّين. ولا يستبعد أن يكون هذا الانقلاب مستجيبًا لمطامح المذهب المالكي الذي كان ينتظر بفارغ الصبر فرصة التحرّر من نير الهيمنة الشيعيّة. وفي هذه الحالة يكون الأمر متعلّقًا بأوّل مظهر من مظاهر الرغبة التي كانت تشعر بها إفريقيّة السنيّة من أجل التحرّر. ولعلّ مناصرة الكتاميّين لقضيّة زيادة الله ابن القديم من شأنها أن تدعّم إلى حدّ كبير هذا الافتراض.

---

45) ذلك ما أكّده صاحب كتاب **«مفاخر البربر»**. وقد أطلق على زيادة الله اسم كاتب المعزّ لدين الله. وفي **البيان** نجد تارة «القُدَيْم»، 230/1، وتارة «القَديم»، 167/1.

46) حسب رواية النويري.

47) هذا التاريخ ذكره النويري الذي يؤكّد أنّ عبد الله أرسله إلى بلكّين وأنّه توفّي في السجن، دون أيّ توضيح آخر.

48) حسب رواية **البيان** الذي نصّ على أنه قد توفّي سنة 366هـ في سجن عبد الله الكاتب.

ثورة خلف بن خير واستسلام باغاية[49] :

بعد مدّة قليلة من عزل زيادة الله بن القديم، التجأ خلف بن خير المنتمي إلى قبيلة هراش؟[50] إلى قلعةٍ صحبة عدد من البربر التابعين لبعض القبائل الأخرى. ويبدو أنّ الأمر يتعلّق برجل كتامي انحاز إلى الشخص الموالي للخليفة ضدّ ممثّل بلكّين. إذ من المحتمل أن يكون جميع الذين التحقوا بزيادة الله بن القديم لمناصرته هم من الكتاميّين الذين أبقاهم المعزّ في إفريقيّة.

وقد أرسل عبد الله الكاتب، خطابًا إلى بلكّين يخبره فيه بأنّه يسيطر على إفريقيّة بأسرها، فلا خوف عليه حينئذ من خلف بن خير وأنصاره.

فزحف بلكّين بجيش عرمرم على القلعة التي تحصّن بها خلف بن خير وأحاط بها من كلّ جانب ثمّ استولى عليها في اليوم الرابع من الحصار، وقد أفلت خلف من بين يديه. إلاّ أنّ عددًا كبيرًا من المتمرّدين قد لقي مصرعه وأرسل بلّكين 7000 رأس من رؤوس القتلى إلى القيروان، فأمر عبد الله الكاتب بأن يطاف بها في المدينة قبل توجيهها إلى القاهرة. كما تجاوزَ عددُ المبعدين عددَ القتلى واستولى الجيش على كلّ ما وجد في القلعة من غنائم.

والتحق خلف بن خير ببلاد كتامة، فأعلم بلكّين الكتاميّين أنّ كلّ من يدافع عنه أو يؤويه يُعتبَر خارجًا عن القانون ويُعامَل على هذا الأساس. وتبعًا لذلك فقد سلّمه الكتاميّون الذين التجأ إليهم، مع ابنه وأخيه وخمسة من أبناء عمومته إلى بلكّين الذي جازى كلّ من قدّم إليه هذه الخدمة الجليلة وأرسل الأسرى إلى عبد الله الكاتب ليطوف بهم على الجمال ويعرّضهم للإهانة. وقد امتثل عبد الله لتلك الأوامر، ثم أعدم أولئك المساكين وبعث برؤوسهم إلى مصر.

وبعدما استولى بلّكين على القلعة اختار من بين المغلوبين أربعة آلاف من العبيد ليكونوا في خدمته. فطلب واحدٌ منهم مقابلة الأمير، بدعوى أنّه يريد أن يسدي إليه نصيحة. فقُدِّم عن غير قصد إلى أحد أبناء عمّ بلكّين الذي كان يشبه الأمير إلى حدّ كبير، وهو المسمّى إبراهيم بن يزيد. ولمّا اقترب منه شقّ بطنه بسكّين، فخرجت أمعاؤه ولفظ أنفاسه الأخيرة. وقد أراد القاتل أن يأخذ بثأر سيّده الذي قتله بلكّين في القلعة[51]. وفي الحين أمر الأمير بقتل

---

49) النويري، 113/2 – 114؛ **الكامل**، 245/8 وفي هذا المصدر: «خلف بن حسين».

50) النويري.

51) نفس المرجع. ويشير المرجع إلى أنّه كان «غلام» سيّده.

جميع العبيد الآخرين الذين كان يعتزم استخدامهم. ثم أوفد عشرة أشخاص من القيروان إلى أهل باغاية ليعرضوا عليهم الاستسلام، وإلاّ فإنّ مضيرهم سيكون مماثلاً لمصير أنصار خلف بن خير. فقبلوا هذا العرض واشترط الأمير تسليم باغاية وإخلاءها. ثم هدّم المدينة وخرّبها، ولكنّه ترك ضواحيها على حالها. وإثر هذه العمليّة رجع إلى إفريقيّة في أوائل سنة 365 هـ / أواخر سنة 975م، على سبيل التقريب.

علاقات بلكّين مع الفاطميّين :

بعث بلكّين بهديّة إلى المعزّ، وفي الأثناء بلغه نبأ وفاة الخليفة الذي أدركته المنيّة في شهر ربيع الأوّل 365 هـ / 8 ديسمبر 975 – 5 جانفي 976م[52]، وولاية ابنه العزيز بالله، فردّ الهديّة من طرابلس. وفي جمادى الثانية 365 هـ / 5 فيفري – 4 مارس 976م بعث إلى الخليفة الجديد بهديّة أخرى، سار بها إلى أن وصل إلى مكان لم يُذْكَر اسمه في المصادر ثم قفل راجعًا إلى رقّادة. فخرج أهل المدينة للترحيب به، وخصّهم بحفاوة بالغة واستقبال حارّ. وبعدما سلّم عليه القضاة والشيوخ الذين قدموا لتوديعه، تحوّل إلى فحص أبي صالح الذي وصله يوم 27 رجب 365 هـ / 31 مارس 976م[53].

وأرسل العزيز بالله دنانير مضروبة باسمه إلى المغرب حيث أصبحت متداولة بين النّاس وأقرّ بلكّين على ولاية إفريقيّة[54].

سياسة عبد الله الكاتب الجبائيّة :

وفي سنة 366 هـ / 30 أوت 976 – 18 أوت 977م، أي بعد وفاة زيادة الله ابن القديم، حسبما يبدو، (11 جمادى الأولى 366 هـ / 5 جانفي 977م)، «نادى عامل إفريقيّة والقيروان، وهو عبد الله الكاتب، فاجتمع النّاس إليه، فأخذ من أعيانهم نحو الستمائة

(52) هناك خلاف حول تاريخ وفاته. أنظر: **البيان**، 229/1؛ و**الكامل**، 263/8 – 264؛ و**الخطط**، 66/6؛ و**الاتّعاظ**، 294؛ وابن خلّكان، 103/2؛ وفورنال، 366/2 – 367.

(53) **البيان**، 229/1؛ **المؤنس**، 74 وهي بلدة «الفحص» في العصر الحديث.

(54) **الكامل**، 263/8 – 264؛ **الخطط**، 60/6؛ **الاتّعاظ**، 294.

رجل من أغنيائهم وأغرمهم الأموال بالتعيين : يأخذ من الرجل الواحد عشرة آلاف دينار، ومن آخر دينارًا واحدًا. فاجتمعت له بالقيروان أموال كثيرة. وعمّ هذا الغُرْم سائر أعمال إفريقيّة، ما عدا الفقهاء والصلحاء والأدباء وأولياء السلطان. وكان الذي جبى من القيروان نيّفًا على أربعمائة ألف دينار عينًا. وبقي الأمر كذلك في الطلب، إلى أن وصل الأمر من مصر إلى أبي الفتوح برفع الغُرْم عن النّاس، فأطلقهم عبد الله الكاتب في أواخر شوّال [366 هـ/ جوان 977 م].

وفي سنة 367 بعث عبد الله الكاتب عامل إفريقيّة هذا المال إلى ملك مصر العزيز بالله، بأمر أبي الفتوح صاحب إفريقيّة من قِبَل العزيز بالله، وكتب على كلّ صرّة اسم صاحبها. فكان خروج هذا المال من المنصوريّة لخمسٍ بقين من جمادى الأخيرة [367 هـ/ 6 فيفري 978 م]. ولمّا وصل المال إلى مصر، ردّ العزيز بالله بعض الصّرر لأربابها»[55].

ويبدو أن عبد الله الكاتب، ما إن نجحت عمليّته، ولو بإظهار حماس مفرط من شأنه أن يعرّض شعبيّته للخطر، حتى أخذ يسعى إلى استعطاف الخليفة ليعفو عنه إقدامه على عزل زيادة الله ابن القديم. ويبدو أنّ هذه الجباية المشطّة التي كان مدخولها راجعًا إلى الخليفة، لم تكن سوى مناورة ماهرة للتخفيف من غضب العزيز بالله، في الوقت الذي كان فيه خليفته بلكّين بن زيري يتأهّب لاستجدائه.

ففي نفس تلك السنة، 367 هـ/ 19 أوت 977 – 8 أوت 978 م، «بعث بلكّين إلى العزيز بالله يطلب منه سرت وإجدابيّة وطرابلس، وأن يضيفها إلى عمله. فأنعم عليه بها»[55م]. وقد أقرّت هذه المنّة استقلاليّة الأمير بلكّين شبه المطلقة بعد خمس سنوات فحسب من توليته. وهذا يدلّ على أنّ الفاطميّين قد أصبحوا غير مكترثين أكثر فأكثر بشؤون المغرب وأنّ بلكّين قد صار يتمتّع بكامل ثقتهم.

وإثر رحيل آخر عامل فاطمي من منطقة طرابلس، وهو عبد الله ابن يخلف الكتامي الذي دُعِيَ بدون شكّ إلى القاهرة، ولّى بلكّين عليها المسمّى يحيى بن خليفة الملياني، ثم عزله بعد ذلك ببضعة أشهر، وعوّضه بأحد الموالي، وهو تمصولت بن بكّار الذي كان يحبّه

---

55) **البيان**، 230/1. أنظر أيضًا : **مناقب**، 252 – 253 والإحالة 142.

55م) **المؤنس**، 75.

كثيرًا ، وقد كان آنذاك قائدًا على عنّابة . فمكث هذا العامل على رأس طرابلس ما يناهز العشرين سنة[56] .

وفي سنة 367 هـ / 977 – 978 م عيّن الخليفة العزيز بالله باديس بن زيري شقيق بلكّين أميرًا على الحجيج القاصدين مكّة ، حيث كانت الخطبة تلقى باسمه . «فلمّا وصل إلى مكّة أتاه اللّصوص بها فقالوا له : نتقبّل منك الموسم بخمسين ألف درهم ولا تتعرّض لنا . فقال لهم : أفعل ذلك ، اجمعوا لي أصحابكم حتّى يكون العقد مع جميعكم . فاجتمعوا ، فكانوا نيّفًا وثلاثين رجلاً . فقال : هل بقي منكم أحد؟ فحلفوا أنّه لم يبق منهم أحد ، فقطع أيديهم كلّهم»[57] .

وفي ليلة الأربعاء 5 ربيع الأوّل 369 هـ / 30 سبتمبر 979 م «ظهرت بإفريقيّة في السماء حمرة ، فخرج النّاس إلى المساجد للضجيج والتضرّع إلى الله تعالى. وفي غد تلك الليلة ، هرب كبّاب ومغنين ابنا زيري بن مناد من قصر أخيهما السلطان أبي الفتوح الذي كانا فيه محبوسَيْن ، وقد لبسا ثياب النّساء وخرجا في نسوة دخلن إليهما لزيارتهما ، فوجدا عبيدهما قد أعدّوا لهما خيلاً وسلاحًا ، فركبا ومضيا نحو المشرق ، حتى وصلا مصر ، فأنزلهما العزيز بالله ، وخلع عليهما ووصلهما ، وبقيا هنالك بقيّة هذه السنة .

«وفي سنة 370 هـ [17 جويلية 980 – 6 جويلية 981 م] صرف العزيز بالله كبّابًا ومغنينا ابنيْ زيري إلى أبي الفتوح يوسف بن زيري ، أمير إفريقيّة ، وأمره أن يعفوَ عنهما ولا يتعرّض لهما ، ففعل ذلك»[58] .

وفي نفس تلك السنة كان بلكّين يقوم بحملة عسكريّة بالمغرب ، «فبعث ولده المنصور إلى القيروان لتجهيز هديّة إلى مصر. فوصل المنصور إلى رقّادة وأقام بها مدّة وبعث بالهديّة ،

---

56) **النويري** ، 114/2 ؛ **الكامل** ، 263/8 – 264 ؛ **البيان** ، 230/1 ؛ **المؤنس** ، 75 . وقد ندّد الكاتب الأباضي الشمّاخي ، 336 – 337 بالابتزازات التي قام بها في جبل نفوسة «تمصولت مولى المعزّ بن باديس الذي أجبر الشيخ الخارجي أبا الخير توزين الزواجي على دفع 100 دينار» . ويتعلّق الأمر لا محالة بتمصولت بن بكار أحد موالي المعزّ لدين الله .

57) **الكامل** ، أنظر أيضًا : السيوطي ، **حسن المحاضرة** ، 168/2 .

58) **البيان** ، 237/1 – 238 ؛ **والكامل** ، يوم 5 يصادف نظريًّا يوم الثلاثاء . لم يتعرّض صاحب الكامل لقضيّة شقيقيْ بلكين ولكنه أشار إلى الزلزال الذي دام 40 يومًا بالمهديّة وإلى الحمرة التي ظهرت في السماء في سنة 367 هـ . وجاء في **البيان** ، 288/1 ، حول زلزال المهديّة ما يلي :

«وفي جمادى الأولى من هذه السنة (371 هـ) كان بالمهديّة زلازل دامت الشهر كلّه وعشرة أيام بعده ، تُزَلْزِلُ في كلّ يوم مرّات ، حتى هرب أكثر أهلها ، وأسلموا ديارهم وما فيها» .

وكانت أوّل هديّة خرجت على يَدَيْه وأوّل وصوله إلى القيروان ، لأنّه لم يكن دخلها قبل ذلك ، لأنّ ولادته كانت في أشير وإقامته بها ولم يدخل إلى إفريقيّة إلاّ في هذه السنة ورجع إلى المغرب »(59).

وسوف نرى كيف سيطلب الخليفة إلى بلكّين في سنة 371 هـ / 7 جويلية 981 – 25 جوان 982 م ، أن يوجّه إليه أقرب أقربائه من أبناء أسرته وأحسن مَنْ عنده من الفرسان ، ولكن بلكّين قد رفض ذلك الطلب رفضًا معلّلاً(60).

وأثناء الحملة الأخيرة التي قام بها بلكّين بالمغرب الأقصى ، اغتنم عبد الله الكاتب فرصة غياب مخدومه مدّة طويلة (من شعبان 368 إلى ذي الحجّة 373 هـ / مارس 979 – ماي 984 م) لتعزيز نفوذه وربّما لتحقيق مشاريعه الطّموحة . فقد أفادت بعض المصادر أنّه اشترى في سنة 373 هـ / 15 جوان 983 – 3 جوان 984 م ، «العبيد السّودان ، وجعل على كلّ عامل من ثلاثين عبدًا إلى ما دون ذلك ، وكذلك على أصحاب الخراج ووجوه رجاله . فاجتمع له منهم ألوف وأسكنهم بالمنصوريّة »(61).

وفي نفس السنة «عمل بَيْتَ الحديد وملأه أموالاً ، ثم عمل بَيْتَ خشب وملأه أموالاً أيضًا . واستخلف على المنصوريّة جعفر بن حبيب وخرج إلى المهديّة على عادته في كلّ سنة »(62).

نظرة على المغرب الأقصى من 362 إلى 368 هـ / أواخر 972 – أوائل 979(63) :

بعد رحيل المعزّ إلى مصر ، تمكّن بنو أميّة الذين لم يعودوا يملكون [بالمغرب] سوى سبتة ، من التغلّب على الأدارسة . فمنذ سنة 365 هـ / أواخر 975 م ، كلّفوا جعفر بن علي بن حمدون وأخاه يحيى بالتحوّل إلى شمال المغرب الأقصى لتنظيم جيش مُجنّد على عين المكان . وقد خصّهما الزناتيّون باستقبال حارّ ووفّروا لهما عددًا من الفرسان . وإثر وفاة الحَكَم الثاني

---

59) **المؤنس** ، 75 .
60) أنظر الفقرة الموالية من هذا الفصل .
61) **البيان** ، 238/1 .
62) نفس المرجع .
63) **مفاخر** ، 8 – 16 ؛ **البيان** ، 404/2 – 411 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 189/2 – 196 ، 259 – 261 ؛ **تاريخ المغرب** ، 187/1 ؛ فورنال ، 355 – 357 ، 363 – 364 .

(366 هـ / 976 م) دخل في طاعتهما زعيما مغراوة ، زيري بن عطيّة وأخوه مقاتل وزعيم بني يفرن ، وكذلك المكناسيّون.

وكان بعض الأدارسة ، ومنهم حسن بن كنون ، قد انتقلوا حوالي سنة 365 هـ / 975 – 976 م إلى مصر عبر إفريقيّة ، فاحتفى بهم الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ وعد حسن بن كنون بمساعدته على استرجاع عرشه.

وفي الأثناء ركّز ابن أبي عامر سياسته الموالية لزناتة وحصّن سبتة تحصينًا عظيمًا ، وإثر سوء تفاهم وقع بين الأخوَيْن استولى يحيى على البصرة في حين رجع جعفر إلى الأندلس ، بعدما فشلت الحملة التي قام بها ضدّ برغواطة ، وعهد بحكومة المغرب إلى يحيى (367 هـ / 978 م)[64].

والجدير بالتذكير أنّ ابن أبي عامر قد أصبح مسيطرًا على الحكم الأمويّ بالأندلس سيطرة تامّة ، بعد عزل زميله جعفر بن عثمان المصحفي (شعبان 367 هـ / مارس 978 م)[65].

وفي نفس تلك السنة حسب الاحتمال[66] وربّما في شهر شعبان أسرع الأمير المغراوي الموالي للأمويّين ، خزرون بن فلفل بن خزَر الزناتي ، إلى الزّحف على سجلماسة في عدد عظيم من الزجال ، ذلك أنّ تلك المدينة كانت قد سقطت بين أيدي الأباضيّين ، بعدما استولى عليها جوهر ، وكان يحكمها عهدئذ أحد أمراء بني مدرار الذي تلقّب بلقب خليفي وهو المعتزّ بالله. «فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، وقُتِل المعتزّ لخمسٍ بقينَ من رمضان [367 هـ / 6 ماي 978 م] ، وملك خزرون سجلماسة وبعث برأس المعتزّ إلى الأندلس»[66م]. وهكذا تصبح سجلماسة لأوّل مرّة تابعة للأمويّين الذين ولّوا عليها خزرون بن فلفل بن خزَر الزناتي. وسيثير تعاظم سلطة الزناتيّين ردود فعل قويّة من قِبَل الصنهاجيّين.

---

64) لا شكّ أنّ صاحب **البيان** (230/1 – 231) قد أخطأ عندما ذكر أنّ بلكّين حاصر سبتة سنة 367 هـ (عوض 369 هـ) «وبعث إليه ابن أبي عامر برأس جعفر بن علي ، أراد أن يرضيه بذلك». وذلك لأنّ نفس المؤلّف (تحقيق دوزي ، 300/2 – 301) ذكر أنّ المعنيّ بالأمر توفّي سنة 372 هـ. كما أخطأ صاحب **المؤنس** ، 72 – 73 عندما ذكر أنّ ابن أبي عامر قتل جعفر بن علي سنة 367 هـ (عوض 372 هـ) وبعث برأسه إلى بلكّين. والواقع أنّ هذه الأحداث قد جرت في سنة 372 هـ.

65) **البيان** ، 230/2 – 231 وجاء في **المفاخر** خطأً شعبان 369 هـ وذلك بسبب الخلط بين 7 و 9.

66) **البيان** ، 230/1 – 231 ؛ **ومفاخر** ، 16 : «376 هـ» عوض «367 هـ» ؛ **الكامل** ، 264/8 : «365 هـ» ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 261/2 : «ربيع 980 / شعبان 369 هـ» ؛ ابن حوقل ، 107/1 ؛ فورنال ، 355/2 والإحالة 5.

66م) [**البيان** ، 231/1].

الحملة العسكريّة الكبرى على المغرب ووفاة بلكّين :

أ- المرحلة الأولى، حتى الاستيلاء على البصرة[67] :

غادر بلكّين إفريقيّة في اتّجاه المغرب يوم الأربعاء 24 شعبان 368هـ/ 27 مارس 979م[68]، ورغم اقتضاب المعلومات الواردة في المصادر، فإنّها تشير إلى السّرعة الفائقة التي اكتستها العمليّات الحربيّة خلال المرحلة الأولى من الحملة. فقد زحف بلكّين على فاس على رأس ستة آلاف فارس من خيرة الفرسان[69]، وتمكّن حسبما يبدو من انتزاع المدينة من أيدي عامِلَيْها : عامل عدوة القرويّين الذي لقي حتفه وعامل عدوة الأندلسيّين الذي صاحب الأمير حتى ضواحي سبتة[70].

وأثناء إقامة بلكّين بفاس تمّ بناء جامع الأندلسيّين الذي ما زال قائم الذات، ويوجد به منبر يحمل ظهره الذي استعمل من جديد فيما بعد، تاريخ شوّال 369هـ/ 20 أفريل – 19 ماي 980م[71].

واستولى بلكّين بعد ذلك على سجلماسة[72] التي تجمّع بها الزناتيّون فهزمهم وأعدم أمير مغراوة ابن خزر[73]. ثم استولى على بلاد الهبط، وفرّ جميع عمّال بني أميّة والزناتيّين والمغراويّين وبني يفرن[74]، متّجهين نحو سبتة، ومن بينهم يحيى بن علي صاحب البصرة.

فاقتفى بلكّين أثرهم حتى سبتة، ووصل إلى أعْلَى ربوة تطوان، بعدما تقدّم بصعوبة عبر الأدغال التي قطع أشجارها وأحرقها. ومن أعلى جبل النّور المشرف على المدينة أبصر معسكر الزناتيّين المنتصب في أسفل أسوار القلعة، فتعجّب من كثرة الرجال المحتشدين هناك، وأهميّة الإمدادات الواردة من الأندلس. ذلك أنّ أمير مغراوة محمّد بن الخير قد استنفر ابن

---

67) **البيان**، 230/1–232 و316/2؛ **العبر**، 156/6؛ **مفاخر**، 16–18؛ **المؤنس**، 74؛ **إسبانيا الإسلاميّة**، 261/2–262؛ **تاريخ المغرب**، 187/1–188.

68) **البيان**، 231/1، يذكر اليوم (وهو نظريًّا الخميس). المصادر متفقة على أنّ الحملة قد جرت في سنة 369هـ.

69) **مفاخر**، 17.

70) **القرطاس**.

71) هانري تراس، **جامع الأندلسيّين**، منشورات معهد الدراسات العليا المغربيّة، باريس.

72) حسب ابن خلدون، **البربر**، 256/3، «خلف وانودين بن خزرون بن فلفل أباه بسجلماسة»، **اسبانيا الإسلاميّة**، 261/2؛ **مفاخر**، 16.

73) **العبر**، 156/6.

74) **مفاخر**، 17؛ **البربر**، 11/2 و236/3.

أبي عامر الذي أعدّ له جيشًا وسار على رأسه إلى أن وصل إلى الجزيرة وأشرف على تحوّله إلى سبتة ، وكان قد عهد بقيادته إلى جعفر بن علي الذي تسلّم مائة حمل من الذهب ، وبعدما عبر المضيق التحق بزعماء زناتة ونظّم صفوف جيشه ، استعدادًا للمعركة . وأمام هذا المشهد استشار بلكّين رجاله ، كما أخذ رأي عامل فاس السابق عبد الكريم الذي كان يرافقه . فأشار عليه بالعدول عن الهجوم على تلك المدينة المحصّنة ، لأنّ العدوّ سوف يبدي مقاومة مستميتة لو تعذّر عليه الخروج من المدينة ، وربّما يتعرّض الأمير لهجوم الزناتيّين من خلف ، دون أن يستطيع الإفلات من قبضتهم ، لو مُنِيَ بالهزيمة . وحتّى لو انتصر فإنّه سيتكبّد خسائر جسيمة ، ويقال إنّ بلكّين ، بعدما فكّر مليًّا في الأمر ، أمر بإعدام عبد الكريم ، حتى لا يتفطّن الزناتيّون للمخطّط الذي عرضه عليه ، وليتخلّص أيضًا من شخص مُخطِر .

وأمام إستحالة إخضاع المدينة بدون دعم أسطول قادر على الحيلولة دون وصول الإمدادات القادمة من الأندلس ، ونظرًا لقلّة عدد جيوشه ، قرّر بلكّين العدول عن الهجوم على سبتة التي شبّهها – حسبما يُقال – بأفعى متأهّبة للعضّ . وتوجّه نحو البصرة ، فاستولى عليها ونهبها وأمر بهدمها[75] وعاد الزناتيّون إلى أراضيهم . ثم زحف على أصيلا[76] التي لا شكّ أنّه قد استولى عليها ، رغم أنّ المصادر لم تشر إلى ذلك ، ومن هناك تحوّل إلى برغواطة[77] .

وحسب رواية ابن خلدون[78] ، فإنّ بلكّين ، بعدما أجلى مغراوة وبني يفرن إلى المغرب الأقصى ، سمح لبني ومانو وبني الومي بالبقاء في الأراضي التي يحتلّونها . وقد صارت هاتان القبيلتان من القبائل التابعة لصنهاجة . ولكن يصعب علينا – ويا للأسف – التأكيد هل أنّ انضمام هاتين القبيلتين المكناسيّتين – حسبما يبدو – قد حصل إثر حملة 360 – 361 أم إثر حملة 368 – 373؟

75) **البيان** ، 235/1 – 237 ، الفصل المخصّص للبصرة .

76) نفس المرجع .

77) حول هذه القبيلة ، أنظر: **البيان** ، 223/1 – 227 ؛ البكري ، 134 – 141 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 189/2 – 190 ؛ وحول أصل برغواطة أنظر الحُمَيْدي ، 33 ، الإحالة 1 . كانت هذه القبيلة تحتلّ منطقة تامسنا في أقصى المنطقة الغربيّة من شمال المغرب الأقصى ؛ البكري ، 14 ، وصل إلى قرطبة سنة 352 هـ/963م مبعوث من ملك برغواطة يدعى زمّور .

78) وأضاف المؤلّف أنّ بني ومانو أصبحوا زعماء بني حمّاد ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبني إلومي . وبعد سنة 470 هـ/ 1077 – 1078م ساعدت هاتان القبيلتان المرابطين ضدّ المنصور بن النّاصر .

وفي موضع آخر[79] يشير المؤلّف ذاته بنفس الغموض الذي يكتنف تواريخ الوقائع ، إلى أنّ بلكّين ، بعدما انتزع المغرب الأوسط من أيدي الأمراء المغراويّين وبني خزر ، عقد حلفًا مع المكناسيّين الذين أصبحوا تابعين لبني زيري .

ب– **المرحلة الثانية : الحملة على برغواطة**[80] :

«كان ملك برغواطة صالح بن عيسى بن أبي الأنصار ، وكان فصيحًا شاعرًا ، فأطاعوه حتى جعلوه نبيًّا»[81] . وقد هزمهم بلكّين شرّ هزيمة أثناء معارك طاحنة ، وقتل المفتري وسبى النسوة والأطفال وأرسل السبي إلى إفريقيّة . وفي يوم السبت 8 ربيع الأوّل 371 هـ / 11 سبتمبر 981 م[82] دخل أسرى برغواطة إلى القيروان ، فلقيهم عامل بلكّين عبد الله الكاتب مع سكّان القيروان والمنصوريّة ، «ورأى أهل إفريقيّة من السّبي ما لم يَرَهُ أحدٌ منهم لكثرته» .

وهناك إشارة هامّة في بعض المصادر تفيد ما يلي :

«أقام أبو الفتوح في بلاد الغرب . فكانت السجلاّت تَرِدُ عليه من مصر فتصله على البريد إلى فاس أو غيرها ، ثم يرجع بها إلى عامل إفريقيّة [أي عبد الله الكاتب] فتُقْرَأ بعد مدّة من تاريخها»[82م] .

وفي سنة 371 هـ / 981–982 م ، «وصل باديس بن زيري من مصر برسالة [من العزيز بالله] إلى أبي الفتوح يأمره بتخيّر ألف فارس من إخوته الأبطال صنهاجة ، منهم حَبُّوس ومَاكْسَن ، وزاوي ، وحَمَامة ، بنو زيري ، وبنو حَمَامة بن مناد ، وزاوي بن مناد ، ونظرائهم . فكتب إليه [بلكّين من بلاد الغرب] يعرّفه بتغلّب بني أميّة أمراء الأندلس على بلاد الغرب ، وأنّ الدعاء لهم فيه على المنابر ، وأنّه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال الذين

---

79) **البربر** ، 271/1 .

80) **البيان** ، 237/1 ؛ **الكامل** ، 14/9 ؛ النويري ، 114/2 – 115 ؛ **العبر** ، 156/6 ؛ **مفاخر** ، 18 ؛ **المؤنس** ، 75 .

81) **البيان** ، 237/1 . وحول أبيه : أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي عُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ، أنظر : **البيان** ، 225/1 والبكري ، 137 . وهذا الشخص هو الذي جعل منه ابن خلدون (**البربر** ، 12/2 ، 131) والنويري (114/2) وابن الأثير ، (**الكامل**) ، خصمًا لبلكّين ، وهو خطأ .

82) يذكر **البيان** اليوم ، وهو نظريًّا الأحد .

82م) [**البيان** ، 237/1] .

سمّاهم أمير المؤمنين ، فإن عزم على بعثهم إليه ، ترك الغرب وسار بنفسه في جملتهم . فلم يُعِدْ إليه جوابًا فيهم »[83] .

وفي سنة 372 هـ / 26 جوان 982 – 14 جوان 983 م ، غادر بلكّين بلاد برغواطة وقفل راجعًا[84] .

وقد أكّدت عدّة مصادر أنّ ابن أبي عامر ، سعيًا منه إلى التقرّب من بلكّين ، بعث إليه برأس قاتل أبيه زيري بن مناد ، وهو جعفر بن علي بن حمدون الذي قُتِلَ يوم الأحد 3 شعبان 372 هـ / 21 جانفي 983 م[85] . وتبدو هذه المبادرة غريبة ، لا سيما وأنّ ابن أبي عامر قد ادّعى أنّه لم يكن له أيّ ضلع في قتل جعفر بن علي ، بل تظاهر بالبكاء عليه . ولكنّ شقيق القتيل يحيى بن علي لم يغترّ بذلك . وقد أبعده الطاغية الأندلسي إلى المغرب بعد المشادّة الحادّة التي جرت بينهما . فتوجّه إلى سجلماسة وأخذ احتياطاته لكي لا يقابل بلكّين ، ومن هناك ارتحل إلى مصر عبر الصحراء . ولمّا وصل إلى القاهرة استقبله العزيز بالله استقبالاً حارًّا وشكره على التصريح الذي كان أدلى به في قرطبة عندما اضطهده الحَكَم ، فقد خاطبه قائلاً : « هذا جزاء من فضّل بني أميّة المروانيّين على ذريّة فاطمة ابنة الرسول ﷺ » . ولمّا علم بلكّين بوصوله إلى مصر اغتاظ وقرّر الانتقام منه ، فاحتجز أحد أبنائه يقال له عامر ، كان قد بقي بالمغرب بعد رحيل والده فأمر بقتله . ومكث يحيى بن علي مدّة طويلة بمصر ، حيث أدّى خدمات جليلة إلى الفاطميّين . وسيدور الحديث حوله من جديد في عهد باديس[86] .

ومن ناحية أخرى ، بعد مدة قليلة من وفاة بلكّين ، سمح العزيز بالله ، بإشارة من وزيره يعقوب بن كلس ، للحسن بن كنون الإدريسي اللاّجئ في بلاطه ولأفراد عائلته بالعودة إلى

---

83) نفس المرجع . وممّا تجدر الإشارة إليه بهذه المناسبة أنّ بعض كتّاب التراجم ذكروا خلافًا للواقع أنّ بلكّين حضر بالقيروان في جنازة الفقيه ابن أخي هشام يوم 7 صفر 371 هـ أو 375 . ولا بدّ أنهم خلطوا بين الأمير وبين عبد الله بن محمّد الكاتب الذي كان يحكم إفريقيّة باسمه . أنظر : ادريس ، **الحلّة الإفريقيّة** ، سنة 1956 ، صفحة 356 والإحالة عدد 38 .

84) **البربر** ، 131/2 ، ويؤكّد النويري أنّ بلكّين قد قفل راجعًا واستولى على فاس وسجلماسة وبلاد الهبط والبصرة وسائر بلاد المغرب . ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بالتذكير بغزوات بلكّين السابقة .

85) هذه الواقعة مؤرّخة بسنة 367 هـ / 977 – 978 م في كلّ من **المؤنس** ، 72 – 73 ، 75 و**البيان** ، 231/1 . ولكنّ المصدر الأخير قد أورد في موضع آخر التاريخ الصحيح ، 300/2 – 301 .

86) ابن الأبّار ، **الحلّة** ، 305 – 307 ؛ **البربر** ، 557/2 .

المغرب ، لانتزاع مملكتهم من أيدي بني أميّة . وبطلبٍ من الخليفة ، قدّم بلكّين إلى الحسن إعانات ماليّة ووضع على ذمّته كوكبة من الجنود الصنهاجيّين ووعده بزيادة الاعانة في الوقت المناسب . وتمكّن الحسن من جلب عدد كبير من بني يفرن إلى حظيرته ، وفي مقدّمتهم قائدهم يدّو بن يعلى وشقيقه زيري وابن عمّه أبو يدس . ولكنّ القائد الأموي عمرو بن عبد الله عسكلاجة الذي نزل بالمغرب سنة 375هـ/ ماي 985 – ماي 986م ، قد أحبط تلك المحاولة الرامية إلى إرجاع الأدارسة إلى العرش ، لا سيما وأنّها لم تَحْظَ بمساندة المنصور ، خليفة بلكّين ، الذي كان آنذاك مشغول البال بقضايا أخرى . وانضمّ بنو يفرن إلى صفّ الأمويّين ، في حين أصبح المغراويّون بقيادة زيري بن عطيّة يسيطرون على شمال المغرب الأقصى لحساب بني عامر[87] .

وفي سنة 373هـ/ 983 – 984م ، بعد وفاة بلكّين ، حسب الاحتمال ، «انتقل أولاد زيري بن مناد وهم : زاوي وحمامة وماكسن ، إخوة بلكّين إلى الأندلس . وسبب ذلك أنّه وقع بينهم وبين أخيهم حمّاد حروب وقتال على بلاد بينهم . فغلبهم حمّاد ، فتوجّهوا إلى طنجة ومنها إلى قرطبة ، فأنزلهم محمّد بن أبي عامر وسُرَّ بهم وأجرى عليهم الوظائف وأكرمهم»[88] . وقد شاركوا في الحرب بكلّ بسالة تحت راية بني أميّة .

وفاة بلكّين[89] :

ما إن خفّف بلكّين الخناق على البصرة وشمال المغرب الأقصى ، حتى رجع بنو يفرن ومغراوة إلى الأراضي التي أُخْرِجوا منها . وبينما كان بلكّين يبتعد عنها ، إذ دخل وانودين[90] بن خزرون بن فلفل إلى سجلماسة فأطرد عامل بني زيري ونهب ما فيها من أموال ومدّخرات . وعندما بلغ هذا الخبر إلى بلكّين ، عاد على عقبيه في اتّجاه سجلماسة التي كان

---

87) **مفاخر** ، 19 ؛ **البربر** ، 2/151 – 152 ، 3/218 – 219 ؛ **البيان** ، 2/301 – 302 ؛ **تاريخ المغرب** ، 1/188 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 2/263 .

88) **الكامل** ، 9/13 – 14 .

89) **النويري** ، 2/115 – 116 ؛ **البيان** ، 1/239 ؛ **الكامل** ، 9/14 ؛ **العبر** ، 6/156 ؛ **مفاخر** ، 16 – 18 ؛ ابن خلّكان ، 1/93 ؛ **المؤنس** ، 75 ؛ **شذرات** ، 3/80 – 81 ؛ **البلدان** (إفريقيّة) ، 1/303 ؛ فورنال ، 2/36 ؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة** ، 1/812 ؛ **إسبانيا الإسلاميّة** ، 2/261 .

90) جاء خطأً في **الكامل** ، خلافًا للمصادر الأخرى : خزرون الزناتي عوض وانودين بن خزرون .

قد أتى منها[91] ولكنّه أصيب في طريقه إليها بِقُولَنج ، «وقيل خرجت في يده بثرة». وحسب رواية ابن خلدون[92] ، غادر وانودين سجلماسة لمّا اقترب بلكّين منها ، ثم أعاد احتلالها لمّا علم أنّ بلكّين قد عاد على عقبيه من جديد ، لأنّه ربّما يكون قد شعر بقرب المنيّة . ومهما يكن من أمر ، فإنّ بلكّين قد أقعده المرض في مكان يقع بين سجلماسة وتلمسان ، ولعلّه يقع بالقرب من مجاز تازة. وقد حرّف النسّاخون اسم ذلك الموقع ، بحيث أصبح من الصعب ضبطه ضبطًا دقيقًا[93] . وفي ذلك المكان أدركته المنيّة يوم الأحد 21 ذي الحجّة 373 هـ / 25 ماي 984 م[94] .

وقد حكم بلكّين ثلاث عشرة سنة وبضعة أشهر بوصفه أمير صنهاجة ، خلفًا لأبيه زيري بن مناد ، وحكم اثنتي عشرة سنة بوصفه[95] خليفة الفاطميّين. وترك من بعده عددًا كبيرًا من الأبناء ، إذ تشير بعض المصادر إلى أنّه ، قبل أن يستخلفه المعزّ على المغرب ، كانت له عدّة قصور بها أربعمائة حظيّة ، «حتى قيل إنّ البشائر وفدت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدًا»[96] .

* * *

91) حسب رواية **البيان** ، 239/1 ، وقد جاء فيه ما يلي : «وذلك أنّ ابن خزرون الزناتي ضرب على سجلماسة ، فدخلها وأخذ ما كان فيها من الأموال ، وكان بها عامل أبي الفتوح (بلكّين) ، فأتاه الخبر بذلك ، فرحل إليها». وقد أكّد هذه الرواية كلّ من **الكامل** ، 14/9 و**المؤنس** ، 75. ولكنّ المصادر الأخرى أهملتها واقتصرت على الإشارة إلى رجوع بلكّين إلى سجلماسة ولم تذكر رجوعه إلى الوراء في اتّجاه تلك المدينة ، أنظر مثلاً : النويري ، 115/2 و**البربر** ، 12/2 ، 131 ، 250/3.

92) **البربر** ، 256/3.

93) **البيان** : «واركنفو» ؛ النويري : «وركس – واركيين – وركيين» ؛ **الكامل** : «وارقلين» ؛ **المؤنس وشذرات** : «واركلان» ؛ **العبر** : «واركش» ؛ **البربر** : «وركسن». وأشار فورنال إلى أنّ الأمر ربّما يتعلّق بوادي وَارُجّين قرب مجاز تازة في بلاد مكناسة ووادي صاء الذي أشار إليه البكري ، 142.

94) وحسب **البيان** : «يوم الأحد لتسع بقين من ذي الحجّة» ، والجدير بالملاحظة أنّ هذا الشهر من سنة 373 هـ يشتمل على ثلاثين يومًا . وحسب **الكامل** والنويري وابن خلّكان و**المؤنس** : «لسبع بقين من ذي الحجّة». وقد أوضح صاحب **شذرات** أنّ تاريخ الوفاة يصادف يوم الأحد ، فينبغي اعتماد التاريخ الوارد في **البيان** ، إذ أنّه مطابق لتلك الإشارة.

95) النويري.

96) **الكامل** ، 14/9. أنظر أيضًا : النويري ، 115/2 – 116 ، نقلاً عن ابن حزم ، كتاب **نقط العروس** ، وأنظر ابن خلّكان الذي أشار إلى وجود حوالي 1000 رجل و1000 امرأة من أقاربه في نفس المكان.

لقد كرّس أمير أشير وأوّل ملوك بني زيري كلّ جهوده ، قلبًا وقالبًا ، لمقاومة الزناتيّين في المغرب الأوسط ، محقّقًا بذلك الآمال التي علّقها عليه مخدومه الخليفة الفاطمي ، إلاّ أنّه قد ظهر منذ ذلك الحين أنّ تسليم إفريقيّة إلى عامل عربيّ قويّ النّفوذ يمثّل حلاً على غاية من الخطورة ، يتعيّن العدول عنه إن عاجلاً أو آجلاً. وسوف لا يتأخّر المنصور بن بلكّين كثيرًا قبل الشعور بذلك الخطر وتفاديه.

الفصل الثاني
ولاية المنصور
(374 - 386 هـ/984 - 996م)

ارتقاء المنصور إلى الإمارة[1] :

قبل أن يلفظ يوسف بلكّين أنفاسه الأخيرة ترك وصيّته لأبي زَعْبَل بن هشام، وكان من مواليه ومن أشدّ القوّاد إخلاصًا له. فكتب أبو زعبل إلى المنصور الموجود آنذاك بمدينة أشير، وقد كان عاملاً عليها[2]، ليعلمه بوفاة والده.

والجدير بالملاحظة أنّ المصادر التي بين أيدينا لم تفدنا بأيّ شيء من المعلومات حول المنصور قبل إرتقائه إلى الإمارة بمدينة أشير في أوائل سنة 374 هـ/984م، بل إنها لم تذكر لنا حتى تاريخ ولادته ولم توفّر لنا أيّ مؤشّر زمني لمعرفة ذلك التاريخ. إلاّ أنّ أعماله الأولى تدلّ على أنّه كان رجلاً مكتملاً.

ونحن نتذكّر أنّه كان قد غادر للمرّة الأولى مسقط رأسه أشير في سنة 370 هـ/ 980 - 981م لتقديم هديّة إلى الخليفة الفاطمي، ثم قفل راجعًا إلى المغرب بعدما أقام مدّة قصيرة برقّادة.

وما إن علم المنصور بوفاة والده، حتى أوفد أخاه يطّوفت إلى إفريقيّة، «وأمره أن يَطْوِيَ المراحل إلى القيروان والمنصوريّة بِرَسم القبض على عبد الله بن محمّد الكاتب، وكان بالمهديّة، ونائباه على المنصوريّة جعفر بن حبيب وعلى القيروان بَرْهُون العامل. فصبّحهم يَطُّوفَت سَحَرَ يوم الثلاثاء منتصف المحرّم [374 هـ/ 18 جوان 984م]. فنظر إلى الخزائن مُغْلَقة وإلى بيت المال مُقْفَلاً، فأخذ المفاتيح وفتح بيت المال وبيت السّلاح وفرّق على أصحابه، وركّبَ من كان مُتَرجِّلاً من الصنهاجيّين بالمنصوريّة، ثم خرج، والتقى مع

1) **البيان**، 1/239 - 240؛ **النويري**، 2/116 - 117؛ **الكامل**، 9/14، 52؛ **العبر**، 6/51؛ **المؤنس**، 75 - 76؛ **أعمال**، 453. وحسب إشارة أوردها صاحب **الاستبصار المجهول**، فإن لقب حبوس الذي كان يحمله الأمير قد تفوّق - حسبما يبدو - على لقب المنصور الذي كان في أوّل الأمر لقبًا شرفيًّا. ولكن ربّما وقع الخلط بين الأمير المنصور وبين ابن زيري الثالث بغرناطة، واسمه باديس بن حبوس.

2) **العبر**، 6/157.

عبد الله الكاتب في بعض الطريق ، فوثب عليه وأَرْجَلَهُ عن فرسه ، وانْتُهِبَتْ أسبابُه واعْتُقِلَ بالمنصوريّة أيّامًا »[3] .

وبعد ذلك بقليل «أمر المنصور بإطلاقه ورفع يَدَه عن البلد ، ثم عاد الأمر إلى عبد الله بن محمّد[4] ، فأمر بالقضاة ووجوه القوم من شيوخ القيروان [وأصحاب الخراج][5] وغيرهم ، وتوجّه معهم بِرَسْم التهنئة والتعزية للمنصور» .

فلمّا وصلوا إلى أشير ، وكان عددهم يقدّر بمائتَيْ رجل ، «وجدوا المنصور خارج البلد على جبلها . فسلّموا عليه وقبّلوا يَدَه ودَعَوْا له ، فقال لهم : «يعزّ عليّ حركتكم في هذا الزّمان[6] إلاّ أنّ سروري برؤيتكم أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها»[7] .

ثم شكر عبد الله الكاتب ، وذمّ فعل أخيه [يطّوفت] ، ثم أمر عبد الله الكاتب أن يدفع للوافدين عليه عشرة آلاف دينار ضيافةً ، فَدَعَوْا له وانصرفوا»[8] .

ومن الغد عقد لهم «مجلسًا عظيمًا ودخلوا عليه وهو في زيّ عجيب من ضخامة الملك ، وأوقف حوله الصّقالبة والأجناد وأظهر لهم من الأبّهة ما أبهر عقولهم»[9] .

«وفي خامس يوم من وصولهم أمر بهم فدخلوا عليه فلاطفهم ، وممّا قال لهم : «إنّ أبي وجدّي كانا يأخذان النّاس بالقهر ، وأنا لا آخذ أحدًا إلاّ بالإحسان . وما أنا في هذا الملك ممّن يُوَلّى بكتاب ويُعْزَل بكتاب ، ولا أشكر على هذا الملك إلاّ الله سبحانه وتعالى ، لأنّي ورثته عن آبائي وأجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْيَر» .

ثم أمر لهم بالانصراف إلى بلادهم وأَوْلَى عبد الله الكاتب جميع إفريقيّة والنظر في أمورها على ما كان عليه في أيّام أبيه . فكانت مدّة مسيرهم ورجوعهم خمسة وثلاثين يومًا»[10] .

---

3) **الكامل** ، 52/9 .
4) **المؤنس** ، 78 .
5) «أصحاب الخراج» حسب النويري لا غير.
6) تمّت هذه المقابلة في الصيف.
7) **المؤنس** ، 78 .
8) **البيان** ، 52/9 .
9) **المؤنس** ، المرجع المذكور.
10) حسبما جاء في **المؤنس** لا غير.

هذا وقد ورد وصفُ المنصور في أغلب المصادر[11] بعبارات مماثلة. والغالب على الظنّ أنّه مقتبس من مصدر واحد، ربّما يكون كتاب المؤرّخ الرسمي الرّقيق الذي نقل عنه ابن عذاري الكلمات التالية:

«قال الرّقيق: وقد ذكرتُ سيرته وحروبه وعطاياه في كتاب مُفْرَدٍ لأخبار جدّه وأبيه وأخباره»[12].

وقد جاء في وصف المنصور ما يلي:

«كان أبو الفتح المنصور عدّة العزيز بالله كريمًا، سمحًا، جَوَادًا، صارمًا، عازمًا»[13]. «وكان رجلاً عاقلاً عفيفًا، يحبّ الرفق بالأمر»[14]. ويدلّ الخطاب الذي توجّه به إلى القيروانيّين – سواء أكان صحيحًا أم منتحلاً – ما كان يتميّز به من خصال وما كانت تخالج فكره من نوايا سياسيّة.

قدم المنصور إلى رقّادة يوم الاثنين 19 رجب 374هـ/ 16 ديسمبر 984[15]، «فتلقّاه عبد الله الكاتب في خلق عظيم من أهل القيروان، فأظهر للنّاس الخير ووعدهم بكلّ جميل وأتاه العمّال بالهديّة والأموال وأعطاه عبد الله هدايا جليلة. ثم أخذ المنصور في جهاز هديّة بعثها إلى مصر مع زروال بن نصر، فقيل إنّ قيمة ما كان فيها من الأمتعة والدوابّ والطُّرَف ألف ألف دينار عينًا»[16].

وأثناء إقامته برقّادة «ولّى المنصور الأعمال واستعمل الأمراء واستخلف عبد الله الكاتب على جباية الأموال بالقيروان والمهديّة وجميع إفريقيّة»[17]. وصام رمضان برقّادة وأمر ببناء مصلّى للعيد فيها[18].

ويوم عيد الفطر (أوّل شوّال 374هـ/ 25 فيفري 985م)[19]، «خرج للصلاة بسرج

11) **البيان**، 239/1؛ النويري، 122/2؛ **الكامل**، 52/9؛ **المؤنس**، 78.
12) **البيان**، 239/1.
13) نفس المرجع.
14) **المؤنس**، 78.
15) النويري، هذا التاريخ يقابل نظريًّا يوم الثّلاثاء.
16) **البيان**، 240/1.
17) **الكامل**، 14/9.
18) **المؤنس**، 78.
19) حسب السياق يتعلّق الأمر بعيد الفطر. ولكن يبدو، حسبما سنرى فيما بعد، أنّ المنصور قد قضى أيضًا في رقّادة عيد الأضحى (10 ذو الحجّة).

مكلّل بالدرّ والياقوت في أحسن زيّ ، وخرج إليه من القيروان خلق عظيم» ، فصلّى بالمصلّى وخطب القاضي ابن الكوفي[20] ، ثم قفل راجعًا إلى قصره.

وحسب رواية ابن خلدون لا غير[21] ، تسلّم المنصور في صبرة المنصوريّة الوثيقة الرسميّة التي ولاّه بها العزيز بالله على إفريقيّة والمغرب حسب نفس الشروط التي فُرِضَت على أبيه. وفي الحين عهد إلى عمّه أبي البهار بعمل تاهرت ، وإلى أخيه يطّوفت بعمل أشير.

حملة يطّوفت وارتحال المنصور إلى المغرب[22] :

تشير المصادر – بدون أيّ تحديد زمني –[23] إلى أنّ المنصور قد وجّه أخاه يطّوفت سنة 374 هـ/ 984– 985م ، على رأس جيش إلى فاس وسجلماسة «يطلب ردّهما وردّ تلك البلاد الغربيّة ، إذ كانت خرجت عن طاعة صنهاجة عند وفاة أبي الفتوح ، فوصل إلى مدينة فاس ، وكان بها زيري بن عطيّة الزناتي الملقّب بالفرطاس[24]. فلمّا أحسّ بوفادة يطّوفت بن أبي الفتوح ، عاجل بالخروج إليه والهجوم عليه. فقاتله قتالاً شديدًا حتى انهزم يطّوفت وظفرت زناتة بصنهاجة ، فاتّبعوهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وأسّروا آخرين وهرب الباقون إلى تاهرت. وهُزِم في هذه الواقعة قائدان له[25] اسمهما ابن شعبان وابن عامل ، فَسُمِّر ابن شعبان على باب فاس وقُتِلَ ابن عامل شرّ قتلة ، وبقي زيري بن عطيّة مالكًا لفاس وما حولها».

«ولمّا بلغ المنصور هزيمة أخيه ، خرج من المنصوريّة يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلَت من ذي الحجّة [374 هـ/ 7 ماي 985م][26] بِرَسْم الغرب ، خرج ومعه عبد الله

20) ولا «ابن الكومي» ، كما جاء في **البيان** ، 240/1.

21) **العبر** ، 157/6.

22) المصدران الرئيسيّان اللذان يتكاملان هما : **البيان** ، 240/1 – 241 ، والنويري ، 117/2. أنظر أيضًا : **الكامل** ، 14/9 و**العبر** ، 13/2 و**المؤنس** ، 76.

23) لقد جرت هذه القضية حسب **البيان** ، مباشرة بعد ولادة باديس (13 ربيع الأوّل 374 هـ/ 14 أوت 984م) ، في حين يتحدّث عنها النويري بعد رجوع المنصور إلى المغرب.

24) «الفرطاس» حسب **البيان** ، لا «القرطاس» (قراءة **الكامل**).

25) في عبارة «قائدان له» ، الضمير مبهم ، وقد أسندناه إلى يطّوفت لا إلى زيري بن عطيّة.

26) حسبما جاء في **البيان** لا غير ، وهذا التاريخ يوافق نظريًّا يوم الثلاثاء.

الكاتب ، واستخلف عبدُ الله على القيروان ابنَه يوسف [الذي سار سيرة حسنة][27] . ثم رجع عبد الله بعد ذلك بعمالة إفريقيّة كلّها »[28] ، وذلك لا محالة إثر رجوعه من المغرب. وأقام المنصور برقّادة ربّما لترتيب سفره ، إلى يوم الأربعاء 26 ذي الحجّة 374هـ/ 20 ماي 985م[29] ، وهو تاريخ تحوّله إلى أشير. وبعث إلى يطّوفت بجيش آخر بقيادة عبد الله الكاتب ، لنجدته ، فتلقّاه بتاهرت[30] . ثم تحوّل يطّوفت إلى أشير مع بقايا جيشه وجيش عبد الله الكاتب ، للالتحاق بأخيه[31] . «**ولم يتعرّض المنصور بعد ذلك إلى بلاد زناتة**»[32] التي أصبحت مسرحًا للتنافس بين زيري بن عطيّة وسعيد بن خزرون ويدّو بن يعلى. وتُعْتَبَر هذه الإشارة من الأهمّيّة بمكان. فهل سيكرّس بنو زيري جهودهم بعد ذلك للمغرب الأوسط وإفريقيّة على وجه الخصوص ، بعدما قرّروا التوقّف عن مطاردة الزناتيّين بالمغرب الأقصى؟ ومهما يكن من أمر فإنّ توغّل الصنهاجيّين في المناطق الشرقيّة من بلاد المغرب سيتفاقم أكثر فأكثر اعتبارًا من ذلك التاريخ.

بناء قصر المنصوريّة[33] :

«وفي سنة 375هـ [24 ماي 985 – 12 ماي 986م] أمر أبو الفتح المنصور أن يُعْمَلَ بالقيروان[34] – [وفي رواية أخرى بجامع القيروان][35] – أبوابٌ من حديد ، وأمر ببناء قصره الكبير بصبرة المنصوريّة». وقد تمّ بناؤه بسرعة فائقة خلال السنة الموالية (376هـ/ 13 ماي 986 – 2 ماي 987م) ، بعناية يوسف بن عبد الله الكاتب. «فبلغ إنفاقه فيه قبل تمامه مائة ألف دينار». وأحاط ذلك القصر والقصر المجاور له الذي كان قد بناه شفيع الصقلي صاحب

---

27) لقد أهمل **البيان** هذا الوصف وذكره النويري.
28) **البيان** ، 240/1 – 241.
29) حسب النويري ، 117/2 لا غير.
30) **البيان** ، المرجع المذكور.
31) النويري ، **المؤنس** ، **العبر**.
32) **البيان** ، المرجع المذكور.
33) نفس المرجع ، 241/I.
34) نفس المرجع (المخطوط ب).
35) نفس المرجع (المخطوط أ).

المظلّة[36]، بسور واحد، وغرس حوله الأشجار من كلّ ناحية، فبلغ الانفاق عليه ثمانمائة ألف دينار[37].

ووصل المنصور إلى إفريقيّة قادمًا من أشير يوم الاثنين 15 محرّم 377هـ/ 17 ماي 987م[38]، ونزل في القصر الجديد، «وأتى معه عبد الله الكاتب وجميع عساكره ووجوه بني عمّه ورجاله». ولا شكّ أنّ عبد الله قد استرجع وقتئذ جميع سلطاته بوصفه عاملاً على إفريقيّة.

مقتل عبد الله الكاتب[39]:

«بلغ عبدُ الله بن محمّد الكاتب مع المنصور ما لم يبلغه أحدٌ من قرابته وأهل بيته ودولته، وانحصرت أموره كلّها تحت قبضته، فجمع الأموال، ورتّب الأحوال وأعطى السياسة والرياسة حقّها». وكان عبد الله المعروف «بالمختال» «لا يداري أحدًا من أولاد زيري ولا أكابر الدولة». وكان أهل القيروان المالكيّة يبغضونه سواء من أجل إفراطه في الجباية أو لقيامه بالدعوة للمذهب الشيعي في حياة الفقيه القيرواني ابن التبّان (المتوفّى سنة 371 أو 373هـ/ 981 – 983م)، حسب بعض المصادر[40]. فقد حاول حمل علماء القيروان وحتى الشاعر ابن البقّال[41] على اعتناق المذهب الشيعي.

ولا نستغرب من انضمام ذلك الرجل إلى الإسماعيليّة، إذا ما تذكّرنا تحمّس أجداده الأغالبة للمذهب الحنفي، ومع ذلك فإنّ كثيرًا من الحنفيّين، ومنهم قاضي المعزّ الشهير أبو حنيفة النعمان، قد اعتنقوا المذهب الشيعي.

---

36) أنظر حول «صاحب المظلة» في عهد المعزّ لدين الله الفاطمي، **الاتّعاظ**، 191 – 196.

37) **المؤنس**، 78.

38) النويري، 117/2، هذا التاريخ يوافق نظريًّا يوم الثلاثاء.

39) نفس المرجع. أنظر أيضًا: **البيان**، 342/1 – 343؛ **العبر**، 157/6؛ **الكامل**، 21/9، وقد جاء فيه خطأً أنّ هذه الحادثة قد جدّت في سنة 376هـ/986م؛ **معالم**، 113/3؛ **مفاخر**، 13؛ **مناقب**، 230؛ ابن **قنفطي**، 2، رقم 394، ص 179.

40) **معالم الإيمان**، 113/3.

41) حول هذا الشاعر، أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.

وإنّ ما كان يتميّز به عبد الله الكاتب من سلطة مطلقة وكبرياء ، كان لا بدّ له أن يثير حسد بعض الناس وارتياب الآخرين وحقدهم ، لا سيما وقد كان يظهر بمظهر الممثّل الشخصي للخليفة الفاطمي الذي لا شكّ أنّه كان على علم بما يُحَاك ضدّ أكبر عون من أعوانه في إفريقيّة. فهل كان الخليفة يريد تعزيز جانب «الكاتب» والمزيد من ضمان أمنه؟ ومهما يكن من أمر فقد قرّر أن يعهد إليه بأسمى منصب في الإمارة.

وحسبما رواه النويري[42] ، فقد وجّه العزيز بالله خطابًا إلى المنصور يعلمه فيه بأنّه قد عهد بمهمّة «الدعوة» إلى عبد الله بن محمّد الكاتب ويأمره بتطبيق ذلك القرار.

فامتثل المنصور إلى أمر الخليفة وفرش بالزرابي القسم التابع لقصر السلطان ، المعروف بقصر البحر[43] . وفي يوم الاثنين 7 جمادى الثانية 377 هـ / 4 أكتوبر 987م[44] عقد مجلسًا حضره أقاربه ووجوه بني عمّه ، فدخل عبد الله الكاتب وتلقّى «الدعوة» ، أي أنّه أصبح «داعيًا» من دُعاة المذهب الإسماعيلي والإمام الفاطمي. ويُقَال إنّه ، إثر حفل التنصيب ، وضع يده على رأسه قائلاً : «الآن قد نجوت من الهلاك وأصبحت لا أخشى على شَعْرِي ولا على جلدي». وهو لا يدري أنّ ذلك التشريف – بالعكس ممّا كان يظنّ – سيكون سببًا في هلاكه[45] .

«فقد ألقى عنه حسن ابن خالته[46] إلى المنصور أمورًا من القدح في دولته ، وأنّه كان السبب في خروج الداعي الثائر أبي الفَهْم بكتامة[47] ، وأنّه كان يُصَغِّر خَبَرَه حتى تفاقم أمره». كما اتّهمه بأنه كتب إلى يعقوب بن كلّس ، وزير العزيز بالله[48] ليقترح عليه تبادل

---

42) النويري ، 117 – 118.

43) لقد تحدّث النويري عن «قصر الحجر». وقد قرأنا هذه العبارة «قصر البحر» ، لأنّه لم يُعرَف أيّ قصر في المنصورية باسم «قصر الحجر» ، في حين غالبًا ما تتحدّث المصادر عن «قصر البحر» ، مثل قصر البحر الذي بناه العزيز في القاهرة (ابن خلّكان ، 152/2) وقصر البحر الموجود في قلعة بني حمّاد (أنظر الباب السابع من هذا الكتاب). ولكن ألا يتعلّق الأمر – كما هو الشأن بالنسبة إلى مراكش – «بمحلّ مركزي مبنيّ بالحجارة وليس بالطوب مثل البناءات الأخرى» ، ولذلك سمّي قصر الحجر؟ (أنظر ليفي بروفنسال ، **تأسيس مرّاكش** 462 هـ / 1070م) في تحيّة جورج مارسي ، 119/2).

44) يقابل نظريًّا يوم الثلاثاء.

45) حسب النويري ، وهو المؤلّف الوحيد الذي أشار إلى هذه القضيّة الهامة.

46) **البيان** ، المرجع المذكور.

47) أنظر الفقرات الموالية من هذا الباب.

48) أنظر حول هذا الوزير المصادر الفاطميّة وبالخصوص **الاتّعاظ** ، فهرس الأعلام ، 369.

السفارات معه ، وأنّه قد تعهّد بخيانة المنصور «ولمّا أحسّ وجوهُ بني زيري وأكابرُ الدّولة من المنصور بعض التغيّر عليه» ، زادوا في الوشاية به إلى أن خامرت المنصور كثير من الشكوك حول خليفته. ولكنّه أراد أن يراعيه ويحول دونه ودون إنجاز مشاريعه المخطرة ، فخاطبه قائلاً : «اَعْتَزِلْ عن عَمَل إفريقيّة واقْتَصِرْ على الخاتم والكتابة ! وكلُّ من تولّى متصرّفٌ ، بين يديك وتحت أَمْرِكَ ! » فكان جوابهُ أن قال : «القَتْلة ولا العُزْلة»[49].

«فلمّا كان يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب [377 هـ / 6 نوفمبر 987 م] غدا إلى ديوان[50] قد بناه ، فجلس فيه لانتظار ركوب المنصور ، وبيده جزءٌ من القرآن ، يقرأ فيه حتى قيل له : «قد رَكِب» ، فأطلقه وركب فرسه بِرَسْم لقائه وهو يقول :

[طويل]

ومَنْ يَأْمنِ الدنيا يَكُنْ مِثْلَ قابِضٍ   على الماء خَانَتْهُ فُروجُ الأصابع»

وجاء في «**البيان المُغْرِب**» أيضًا أنّ عبد الله الكاتب ، «لمّا تنكّر له المنصور لا يزال يتمثّل بهذا البيت :

[طويل]

أَرَى أَلْفَ بانٍ لا يقوم لِهَادِمٍ   فكيف بِبانٍ حَوْلَه أَلْفُ هادِمِ

وكان يتمثّل أيضًا بقوله :

[كامل]

لي مُـــدَّةٌ لا بـــدَّ أَبْلُغهـــا   حتّـى إذا قَضَّيْتُهَـــا مِـــتُّ

لـو صَارَعَتْنِـي الأُسْدُ ضَارِيَـــةً   لَصَرَعْتُهَا مَا لَمْ يَجِ الوَقْتُ»

«فلمّا وصل إليه المنصور ، نزل عبد الله إليه وسلّم عليه وقبّل يده ثمّ وقف. فدار بينهما كلام كثير لم يقف أحدٌ على صحّته. ثمّ طعنه المنصور برمحه ، فجعل أكمامه على وجهه وقال : «على ملّة الله وملّة رسوله ! » ، لم يُسْمَع له غيْرُ ذلك. وضربه عبد الله أخو المنصور برمح بين كتفيه فسقط إلى الأرض ميّتًا. ثم أُوتِيَ بابنه يوسف ، فضربه المنصور ومَاكْسن بن

---

49) حسب النويري ، أمّا البيان فقد أورد هذا الخطاب على لسان الوشاة.

50) وردت هذه الكلمة «ديوان» وكامل الفقرة في البيان فحسب. فهل لا يمكن قراءتها «إيوان» ، أي القصر الذي يتركب من عدّة صفوف من الأعمدة ويضمّ قاعة فخمة مفتوحة. وقد أكّد النويري التاريخ المذكور.

زيري ، فسقط ميّتًا»[51] . وينمّ هذا التشفّي من قِبَل بني زيري عمّا كانوا يضمرونه من حقد لممثل الخليفة الفاطمي.

ولمّا مات عبد الله وابنه يوسف ، التقى قاضي القيروان وشيوخها بالمنصور ، فقال لهم : «لم أقتل عبد الله من أجل المال أو لكسب أيّ شيء. إنّما قتلته خشيةً منه على نفسي». فدعَوْا له بطول العمر وانصرفوا[52].

ولعلّ العقوبة التي سُلّطَت على «الداعي» الشيعي وابنه قد أثلجت صدور أهل القيروان المالكيّة. إلاّ أنّهم سرعان ما تعرّضوا لردود فعل عنيفة من وَحْي الشيعة حسبما يظهر. «إذ دار العسكر على النّاس ، فانتهبوهم وسلبوهم وقطعوا الطرق فأخذوا كلّ من وجدوا من المسافرين وغيرهم ، ومالوا إلى وادي القصّارين وإلى باب تونس ، أحد أبواب القيروان ، فنهبوا ما كان عند القصّارين ، فذَهَبَتْ في ذلك اليوم أموال المسلمين وقُتِلَ خَلْقٌ ممّن دافع عن نفسه وماله»[53].

أمّا عبدُ الله وابنه ، فقد دُفِنَا دون غَسْلٍ ولا كَفْنٍ في اصطبل المنصور ، تحت الحنايا ، بالقرب من قصره[54].

«وولّى أعمال إفريقيّة من قِبَل أبي الفتح المنصور ، يوسف بن أبي محمّد ، وكان عاملاً على قفصة ، فأعطاه البنود والطبول وخلع عليه وولاّه إفريقيّة مكان عبد الله ، يوم الخميس 5 شعبان 377 هـ / 30 نوفمبر 987 م»[55] ، وأسكنه دار القائد جوهر[56].

---

51) البيان ، 242/1.
52) نفس المرجع.
53) نفس المرجع ، 243/1.
54) حسب النويري.
55) حسب النويري «لخمس خلون» (نظريًّا يوم الأربعاء). وقد ذكر المؤلف تاريخ عزل يوسف بن محمد ، الذي لم يشر إليه صاحب البيان ، وهو يوم الأحد لسبع بقين من ربيع الأوّل 382 هـ. وقد افترضنا أنّ هذا السهو هو الذي تسبّب في تعويض كلمة «خلون» بكلمة «بقين» في النصّ الوارد في «البيان» (لخمس بقين).
56) هذه الإشارة الهامّة التي ذكرها النويري غير موجودة في «البيان». ويتعلّق الأمر بالقائد الذي فتح مصر ، أنظر المصادر الفاطميّة ولا سيما الاتّعاظ ، فهرس الأعلام ، 353.

عزل يوسف بن أبي محمّد وتعيين أبي عبد الله محمّد الكاتب[57] :

لم يكن هذا الاختيار مصيبًا ، ولعلّه كان يستجيب إلى رغبة المنصور الذي كان لا يريد أن يعهد بِعَمَل إفريقيّة إلى شخص آخر من طراز عبد الله بن محمّد الكاتب . ذلك أنّ يوسف بن أبي محمّد قد كان منغمسًا في اللّذّات ، «فكان مشتغلاً بالأكل والشرب ، فإذا دخل الوَرْدُ ، اصطبح عليه ، فلا يظهر حتى يفنى الورد وينقطع ، وكان يجلس فيه وينام عليه ، فسمّي «شيخ الورد» . وأسلم الأمور لابن البوني ، فكان أهل الحاضرة معه في أمن وعافية ، وأهل البادية في عذاب وغرامة . وكان جبّارًا عنيدًا وسَمْحًا جَوَادًا ، وكان يخرج في كلّ سنة ، فيدور على كُور إفريقيّة ويجبي الأموال ويأخذ الهدايا من كلّ بلد ويرجع . قال الرّقيق : كنّا إذا دُرْنَا مع يوسف بن أبي محمّد على البلدان واستطاب موضعًا وأعجبه حسنه أقام فيه مُصْطَبِحًا الشهرَ والشهرين ، وأبو الحسن البوني يجبي الأموال ، ويقبض الهدايا ويقوم بأمور أَخِلّة يوسف وعسكره . وكان يعطي لخاصّة يوسف في كلّ يوم خمسة آلاف درهم ، وينفق على يوسف لِمَطْبَخَتِهِ وفاكهته نَحْوَ ذلك المال المذكور»[58] .

ورغم ما أثارته تلك الابتزازات وذلك السلوك المزري ، من غضب ، لا سيما في البادية ، فإنّ المنصور قد غضّ عنها الطرف ، حسبما يبدو ، مدّة سنوات عديدة .

وإثر وفاة الحسين بن خلف المرصدي ، صاحب خراج القيروان في سنة 380 هـ / 31 مارس 990 – 19 مارس 991م ، «أمر أبو الفتح المنصور بولاية محمّد بن عبد القاهر بن خلف الخراج مع سلامة بن عيسى ، فجلسا معًا في ديوان خراج المنصوريّة»[59] .

وفي سنة 381هـ / 20 مارس 991 – 8 مارس 992م ، وصل المنصور إلى المنصوريّة ونزل في قصره الجديد الذي كان قد شيّده بدون شكّ يوسف بن عبد الله الكاتب . «فخرج إليه أهل القيروان يتلقّونه ، فأدناهم وأثنى عليهم ووعدهم خيرًا» . ويبدو أنّ الأمير كان يرغب في تهدئة الخواطر ومحاملة المالكيّة . ويمكن استخلاص هذا الافتراض من الواقعتين التاليتين :

«فقد رُفِعَ له في عَبْدٍ من عبيده أنّه قذف بعض الصحابة – رضي الله عنهم – ، فأمر بقتله وصَلْب جثّته ، ونُودِيَ على رأسه بمدينة القيروان» .

---

57) **البيان** ، 245/1 – 246 ؛ النويري ، 119/2 ؛ **الكامل** ، 37/9 ؛ **المؤنس** ، 77 .

58) **البيان** ، 245/1 .

59) نفس المرجع .

وقضى المنصور عيد الأضحى في قصره (10 ذو الحجّة 381 هـ / 17 فيفري 992 م). «وخرج للنّاس يوم العيد في زيٍّ عجيب من المركوب والملبوس ورفع عن أهل البادية بقية خراج»[60].

وهكذا فإنّ حرص المنصور على إرضاء أهل القيروان قد كان واضحًا، ولم يبق له سوى عزل «شيخ الورد»!.

وفي سنة 382 هـ / 9 مارس 992 – 25 فيفري 993 م، بمناسبة ختان ابنه باديس، «ترك المنصور البقايا [بقية الخراج] للرّعايا»[61]. وحرصًا منه على إعادة تنظيم الشؤون الماليّة، وربّما الحصول على المال بطريقة أخرى سهلة وناجعة، «فقد قبض على (ابن) البوني وابنه وطلب منهما مالاً كثيرًا فأنكراه. وكان المنصور قدر أن يأخذ منهما أموالاً يفتخر بها على أضياف كانوا عنده في يوم طلبها. وقال لهم: «لو أن عَبْدًا من عبيدي[62] طُلِبَ منه بيوت مال لَوُجِدَ ذلك عنده». فصادف إنكار البوني ذلك المحلّ فأمر بذبحه». وعزل يوسف بن أبي محمّد يوم الأحد 23 ربيع الأوّل 382 هـ / 29 ماي 992 م[63] وولّى عمل إفريقيّة محمد بن أبي العرب الكاتب الذي سيبقى على رأسها بقيّة مدّة ولاية المنصور وكامل مدّة ولاية باديس. أمّا يوسف بن أبي محمّد، فلم يَرِدْ ذِكْرُ اسمه من جديد إلاّ في سنة 385 هـ / 5 فيفري 995 – 24 جانفي 996 م، بمناسبة تعيينه عاملاً على متّيجة. ولكنّ هذا الخبر لم يذكره سوى صاحب «**البيان المُغْرب**» الذي أضفى على هذا الشخص صفة «القايد». فهل أنّ الأمر كان يتعلّق فِعْلاً بشيخ الورد؟

وفي سنة 382 هـ أيضًا / 992 – 993 م – حسبما جاء في «**المؤنس**» –[64]، «عزل المنصور عامله عن الأربص وسيّر إليها مولاه قيصر، فوجد في المخازن التي للوالي المعزول ستمائة ألف قفيز من الطّعام».

وفي ذي القعدة 382 هـ / 29 ديسمبر 992 – 27 جانفي 993 م «خرج المنصور متنزّهًا إلى سردانية وخرج إليه الشيوخ من أهل القيروان وسألوه أن يُعَيِّدَ عندهم فأجابهم إلى

60) حسب **المؤنس** لا غير.

61) هذه الإشارة غير المؤرّخة موجودة في **الكامل**، 52/9. وربّما هناك خلط مع الإعفاء من الخراج الذي تم في سنة 381 هـ.

62) **البيان**، المخطوط ب «عبيدي» والمخطوط أ «عبيدكم».

63) حسب النويري لا غير، في **البيان**، «382 هـ» وفي **الكامل**، «381 هـ».

64) حسب **المؤنس** لا غير.

ذلك»[65]. كما شهدت سنة 382هـ وصول هدايا من السودان، من بينها زرّافة، «فخرج المنصور حتى دخلت بين يديه».

وأخيرًا في سنة 385هـ/ 5 فيفري 995 – 24 جانفي 996م توفّي أخو المنصور الذي قتل عبد الله بن محمّد الكاتب، كما رأينا، وهو الأمير عبد الله ابن يوسف (بلكّين) بن زيري بن مناد.

باديس بن المنصور وليّ العهد[66]:

في ليلة الأحد 13 ربيع الأوّل 374هـ/ 14 أوت 984م «وُلِدَ للمنصور وَلَدٌ سمّاه باديس»[67]. وقد خُتِن في شهر ربيع الأوّل[68] 382هـ/ 7 ماي 991 – 5 جوان 992م في قصر والده بالمنصوريّة. «وأَهْدَتْ له العمّال على قدر مراتبهم وأتته هديّة من عند ابن الخطيب عامله على زويلة فيها زرّافة وطُرَف من أثاث السودان وشيء مستكثر. وقَدِم إليه عامل طرابلس بهديّة جليلة فيها مائة حمل من المال، سوى الخيل ولطائف المشرق»[69].

وفي نفس السنة «وصل سِجِلٌّ من العزيز بالله بولاية العهد لأبي مناد باديس بن المنصور، فَسُرَّ المنصور بذلك، وجاءته الهدايا من البلدان ومن كلّ جهة ومكان»[70].

«وفي سنة ثلاثٍ وثمانين (26 فيفري 993 – 14 فيفري 994م) خرج وَلَدُه ووليُّ عهده باديس إلى مدينة أشير ومعه جدّته يعلان»[71].

«وفي سنة أربعٍ وثمانين [15 فيفري 994 – 4 فيفري 995م] رجع من المغرب إلى المنصوريّة، وكانت أوّل سفرة سافرها، فخرج إليه أبوه وأهل الدولة وجميع أهل القيروان، فسلّموا عليه، وكان يومًا مشهودًا»[72].

---

65) نفس المرجع.

66) **البيان**، 240/1، 246 – 247؛ النويري، 122/2؛ و**المؤنس**، 76 – 77.

67) **البيان**، 240/1؛ النويري، 122/2؛ ابن خلّكان، 86/1 – 87 وهو المصدر الوحيد الذي أكّد أنّ باديس وُلِد في أشير. **المؤنس**، 76: «11 ربيع الأوّل»، نظريًّا تاريخ 13 يوافق يوم الخميس وتاريخ 11 يوافق يوم الثلاثاء.

68) نفس المرجع.

69) حسب **المؤنس** لا غير.

70) **البيان**، 246/1.

71) **المؤنس**، 77. أما **البيان**، فهو لم يشر إلى جدّة باديس.

72) **المؤنس**، المرجع المذكور.

الوضع بالمغرب الأقصى واستسلام سعيد بن خزرون[73] :

لا يسمح المقام بتفصيل الأحداث التي تتابعت بالمغرب الأقصى من 375 إلى 379 هـ / 985 – 989م. فبعدما قضى بنو أميّة على الحسن بن كنون الإدريسي (375 هـ / 985 – 986م) فضّلوا المغراويّين على بقيّة رؤساء زناتة، وبالخصوص يدّو بن يعلى اليفرني. وإثر وفاة مقاتل بن عطيّة سنة 378 هـ / 988م، عوّضه أخوه زيري بن عطيّة على رأس قبيلته. وفي السنة الموالية استقبله الخليفة الأموي في قرطبة استقبالاً بهيجًا وأضفى عليه لقب وزير.

وإثر تلفّظ الأمير المغراوي بكلمات مناهضة لابن أبي عامر، حاول هذا الأخير اكتساب مودّة يدّو بن يعلى. ولكنّ الزعيم اليفرني الذي دُعِيَ إلى زيارة قرطبة، رفض تلبية تلك الدعوة وشقّ عصا الطّاعة، فانجرّ عن ذلك انضمام زيري بن عطيّة من جديد إلى صفّ ابن أبي عامر. وقد تمكّن يدّو بن يعلى من الانتصار على الجيش الأندلسي المغراوي. فأثارت تلك الهزيمة قلق ابن أبي عامر الذي كلّف زيري بن عطيّة بإرجاع الوضع إلى نصابه بفاس وتعويض عامل تلك المدينة ابن عبد الودود الذي لَقِيَ مصرعه في المعركة[74].

وممّا لا شكّ فيه أنّ الحظوة التي وجدها المغراويّون لدى بني أميّة قد أثارت الغيرة في نفوس بقيّة الزناتيّين. من ذلك أنّ أحد كِبار الناقمين، وهو سعيد بن خزرون بن فلفل قد تحوّل إلى أشير صحبة ابنه ورّو. فاستقبله المنصور بكلّ حفاوة وأغدق عليه العطايا، وكان الأمير قد رجع إلى أشير منذ مدّة قليلة بعد أن أخمد ثورة أبي الفَهْم وكتامة. وقال لسعيد ذات يوم: «يا سعيد! هل تعرف مَنْ هو أَكْرَمُ منّي؟». قال: «نعم!». قال: «ومَنْ هُوَ؟». قال: «أنا». قال له المنصور: «وَلِمَ ذلك؟». قال: «لأنّك جُدْتَ عليّ بالمال، وجُدْتُ أنا عليك بنفسي!». «فولّى سعيدًا هذا مدينة طُبنة... وزوّج المنصور ابنته من ورّو بن سعيد»[75]. «فلامه على ذلك بعضُ أهله، فقال: «كان أبي وجدّي يستتبعانهم

---

73) مفاخر، 20 – 22؛ إسبانيا الإسلاميّة، 263/2 – 265؛ البربر، 15/2، 247/3، 259؛ البيان، 244/1 – 246؛ الكامل، 28/9.

74) مفاخر، 22 – 23؛ إسبانيا الإسلاميّة، 265/2 – 266.

75) البيان، 244/1. لعلّه بسبب هفوة قلم ادّعى صاحب الكامل أنّ المنصور قد زوّج ابنه من إحدى بنات سعيد بن خزرون.

بالسّيف ، وأمّا أنا فمن رَمَاني برمح رَمَيْتُه بكيس ، حتّى تكون مودّتُهم طبعًا واختيارًا »[76].

وبالفعل فقد انجرّ عن ذلك الزّواج انضمام كثيرٌ من الزناتيّين إلى صفّ المنصور. وتوجّه سعيد بن خزرون إلى طبنة للاستقرار بها.

وفي سنة 381 أو 382 هـ / 991 – 992 م[77] وصل سعيد إلى المنصوريّة «فَلَقِيَه المنصور وعانقه ، ثم دخل معه إلى قصره وأنزله وأجرى عليه الأرزاق الواسعة. فاعتلّ سعيد بن خزرون أيّامًا ، ومات في أوّل رجب فكفنه المنصور بسبعين ثوبًا ... وفي هذه السنة وصل إلى المنصور فلفل بن سعيد بن خزرون بعد موت أبيه ، فأعطاه ثلاثين حِملاً من المال وثمانين تَختًا من أنواع الكِسَى وخَيْلاً بسروج مُحَلاّة ، وعشرة من البنود الجدد المذهّبة وردّه إلى طبنة أميرًا عليها »[78].

العلاقات مع الفاطميّين وانتفاضات كتامة[79] :

رغم ما أدلى به المنصور من تصريحات جريئة عند توليته ، فقد ظلّت علاقاته ممتازة مع الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، وقد أرسل إليه هديّة في سنة 376 هـ / 986 – 987 م[80].

ولكن في تلك السنة بالذات «دخل عمّال المنصور إلى بلد كتامة وجبوا منها الأموال ، ولم تكن قبل ذلك تدخل إليها »[81]. ورغم أنّ هذا الخبر لم يَرِد ذكره إلاّ في مصدر متأخّر ، فلا شيءَ يدعو إلى الشكّ في صحّته. ذلك أنّ تلك المبادرة الجبائيّة تعتبر من الأهميّة بمكان ، إذ أنّ الكتاميّين الذين كانوا سببًا في نجاح الفاطميّين ، ما زالوا من أكبر أنصارهم ، رغم شدّة تحرّكاتهم وكثرة مطالبهم. ويبدو أن المبادرة المذكورة قد سبقت بمدّة قليلة قدومَ الدّاعي أبي الفَهْم حسن بن نصرويّة الخراساني[82] إلى إفريقيّة مبعوثًا من الخليفة الفاطمي بمصر.

76) **الكامل** ، 28/9 .

77) **البيان** ، 246/1 : «382 هـ». لا تسمح لنا أيّة مقارنة بين المصادر باختيار التاريخ الصحيح. من المحتمل أن يكون سعيد بن خزرون قد وصل في أواخر سنة 381 هـ ومرض في سنة 382 هـ.

78) **البيان** ، 246/1 .

79) النويري ، 119/2 – 121 ، وهو أهمّ مصدر بالنسبة إلى الثورتين الكتاميّتين ؛ **الكامل** ، 21/9 – 22 ، 27 – 28 ؛ **البيان** ، 241/1 ، 243 – 244 ، 247 ؛ البكري ، 63 – 64 ؛ **المؤنس** ، 77 .

80) حسب **المؤنس** لا غير.

81) **المؤنس** ، 77 .

82) النويري. في **البيان** : «أبو الفهم الخراساني» وفي **الكامل** : «أبو الفهم حسن بن نصر».

فاستقبله يوسف بن عبد الله الكاتب ، عامل القيروان بالنيابة ، بكلّ حفاوة وأغدق عليه العطايا ، وأعرب أبو الفهم عن رغبته في التحوّل إلى منطقة القبائل الصغرى لدعوة الكتاميّين إلى المذهب الشيعي ، وفقًا للمهمّة التي كلّفه بها الخليفة. وهذا لا يعني أنّ تلك المهمّة كانت مقصورة على كتامة ، بل بالعكس من ذلك ، فإنّنا نميل إلى الاعتقاد أنّ العزيز بالله قد عيّنه داعيًا للقيام بمهمّة تمتدّ إلى إفريقيّة وجزء من المناطق الغربيّة الخاضعة للسلطة الفاطميّة.

وقد وجّه يوسف بن عبد الله الكاتب رسالة حول هذا الموضوع إلى أبيه الذي كان موجودًا آنذاك في المغرب الأوسط مع المنصور، أي في سنة 376 هـ / 986 – 987م. فأجابه عبد الله الكاتب بما يلي : «أعطه ما يشاء واتركه يذهب إلى حيث يشاء». وامتثالاً إلى هذا الأمر، لبّى يوسف جميع مطالب أبي الفهم ووضع على ذمّته خيولاً محلاّةً بالسّروج وتخوتًا من مختلف أنواع الكِسَى وأعطاه مبالغ طائلة من الدراهم. ونحن لا ندري هل تمّ ذلك بدون علم المنصور أو رغمًا عنه. ولكنّنا رأينا كيف أنّ الأمير قد عاب على عبد الله الكاتب وابنه يوسف تلك التصرّفات التي كانت سببًا في هلاكهما.

«فتوجّه أبو الفهم بذلك لبلاد كتامة ، فدعاهم فأجابوه. وتقرّرت أموره عندهم ، حتى صار يركب الخيل ويجمع العساكر ويعمل البنود ويضرب السكّة ، فعظم أمره وشاع خبره»[83]. ويمكننا أن نتصوّر انشغال بال المنصور بهذا الأمر، فقد فكّر في إحباط أي تمرّد متوقّع من شأنه أن يكون على غاية من الخطورة ، لا سيما إذا كان بإيعاز من الخليفة ذاته ، كما أشار إلى ذلك ابن الأثير بقوله : «وغرضه [أي الخليفة] أن تميل كتامة إليه [أي إلى أبي الفهم] ويرسل إليه جندًا يقاتلون المنصور **ويأخذون إفريقيّة** ، لِمَا رأى من قوّته»[84].

ومهما يكن من أمر، فقد استقبل المنصور – ربّما إثر مقتل عبد الله الكاتب – مبعوثَيْن من قِبَل العزيز بالله ، أحدهما كتامي يقال له أبو العزم ، والثاني عبدٌ من عبيده يقال له محمد بن ميمون الوزّان ، يحملان سجلّيْن موجَّهَيْن إلى المنصور لدعوته إلى عدم التعرّض لأبي الفهم وكتامة. وحسب رواية ابن الأثير فإنّ المنصور «قد أرسل إلى العزيز بمصر يعرّفه الحال ويعلمه بعزمه على مهاجمة أبي الفهم. فأرسل إليه العزيز الرسولين المذكورين. فلمّا وصلا إلى المنصور وأبلغاه رسالة العزيز، أغلظ القول لهما وأغلظا له. فأمرهما بالمقام عنده بقيّة

83) **البيان** ، 241/1.

84) من الجدير بالتذكير أنّ الكتاميّين هم الذين قضوا في السابق على الأغالبة ومكّنوا المهدي من إقامة دولته ، وذلك بقطع النظر عن الدّور الذي قاموا به في فتح مصر.

شعبان ورمضان [377هـ] ولم يتركهما يمضيان إلى كتامة، وتجهّز لحرب كتامة وأبي الفهم»[85].

وفي شوّال 377هـ/ 24 جانفي – 21 فيفري 988م غادر المنصور إفريقيّة على رأس جيش ولم يصل إلى بلاد كتامة إلاّ في أوائل سنة 378هـ/ ربيع 988م، لأنّه لم يسرع الخطى.

«فقصد مدينة ميلة وأراد قتل أهلها وسبي نسائهم وذراريهم، فخرجوا يتضرّعون ويبكون، فعفا عنهم، وأمر بخرابها وهَدَم سورها وأمر أهلها بالمسير منها إلى باغاية، فاجتمعوا وساروا إليها. فلقيهم ماكسن بن زيري [عمّ المنصور] بعسكرهُ، فأخذ منهم ما كان معهم من مال وغيره. وبقيت ميلة خرابًا ثم عُمِّرت بعد ذلك»[86]. وصرّح المنصور إلى الرسولين اللذين كانا معه رغمًا عنهما قائلاً: «هؤلاء هم الناس الذين زعمتما أنّهم سيقودونني إلى سيّدكما والحبل في عنقي!» وهو يشير بذلك إلى ما تلفّظا به من كلمات عند وصولهما إليه.

«وسار المنصور إلى كتامة، فكان لا يمرّ بقصر ولا منزل إلاّ هدمه، حتى بلغ مدينة سطيف – وهي كرسيّ عزّهم – فاقتتلوا عندها قتالاً عظيمًا. فانهزمت كتامة وهرب أبو الفهم إلى جبلٍ وَعْرٍ فيه ناس من كتامة يقال لهم: بنو إبراهيم. فأرسل إليهم المنصور يتهدّدهم إن لم يسلّموه. فقالوا: هو ضيفنا ولا نسلّمه، ولكن أرسل أنت فخذه ونحن لا نمنعه»[87].

«فأرسل إليه المنصور مَنْ أخذه. فلمّا صار بين يديه أمر به، فلُطِمَ لطمًا شديدًا، ونُتِفَت لحيته حتى أشرف على الموت. وعند ذلك أمر بخروجه، وقد بقيت فيه حُشاشة من الرّوح. فأخذه بعض رجاله فنحره وشقّ بطنه، وأُخْرِجت كبِدُه، فشُوِيَت وأُكِلَت، وأخذه عبيد المنصور، فشرّحوا لحمه وأكلوه، حتّى لم يبق إلاّ عظامه متجرّدة، وذلك يوم الثلاثاء لثلاثٍ خلون من صفر (378هـ/ 23 ماي 988م)، وقُتِلَ معه جماعة من الدّعاة ووجوه كُتامة، منهم والي ميلة. ونزل بكتامة الذلّ والهوان»[88].

وولّى المنصور على كتامة أبا زَعْبَل بن هشام[89] «وأبناءه». والجدير بالملاحظة أنّ هذه

---

85) **الكامل**، 21/9.

86) **الكامل**، 21/9؛ و**البيان**، 243/1.

87) **الكامل**، المرجع المذكور.

88) **البيان**، 243/1 – 244.

89) **البيان**، 239/1؛ النويري، 116/2 – 121: «أبو زعبل بن مسلم».

العبارة مبهمة شيئًا ما[90]. فهل المقصود بذلك أنّ أبا زعبل وأبناءه قد تقاسما السلطة في تلك المنطقة، أم أنّ أبناءه قد خلفوه بعد موته؟ ومهما يكن من أمر فإنّ «العَمَل» الذي كان يشرف على حظوظه أبو زعبل كان يشمل على الأقلّ قصر الافريقي وقسنطينة[91]، وكذلك ميلة وسطيف، بلا شكّ[92].

«وعاد المنصور إلى أشير[93] وردّ الرسولَيْن إلى العزيز. فأخبراه بما فعل بأبي الفهم وقالا: «جئنا من عند شياطين يأكلون النّاس»[94]. فأرسل العزيز إلى المنصور يطيّب قلبه وأرسل إليه هديّة ولم يذكر له أبا الفهم»[95].

ولكنّ الكتاميّين استأنفوا القتال في السنة الموالية، أي 379هـ/ 11 أفريل 989 — 30 مارس 990م[96]، تلبيةً لدعوة «إنسان آخر من كتامة يقال له أبو الفرج لا يُعرَف من أيّ موضع هو، زعم أنّ أباه وَلَد القائم العلوي جدّ المعزّ لدين الله. فعمل أكثر ممّا عمله أبو الفهم[97] واجتمعت إليه كتامة واتّخذ البنود والطبول وضرب السكّة[98]. وجرت بينه وبين نائب المنصور [أبي زعبل] وعساكره بمدينة ميلة وسطيف حروب كثيرة ووقعات متعدّدة، فسار المنصور إليه بعساكره، وزحف موالي المنصور في عساكر كتامة، فكان بينهما حرب شديدة، فانهزم أبو الفرج وكتامة وقتل منهم مقتلة عظيمة واختفى أبو الفرج في غار في جبل. فوثب عليه غلامان كانا له وأتيَا به المنصور، فسرّه ذلك وقتله شرّ قتلة. وشحن المنصور بلاد

---

90) هذه العبارة استعملها النويري.

91) **البيان**، 261/1.

92) **الكامل**، 27/9 — 28.

93) النويري و**الكامل**، وليس «المنصوريّة والقيروان» كما ادّعى ذلك غلطًا بدون شكّ صاحب **البيان** الذي لم يشر إلى ثورة أبي الفرج ولم يذكر أنّ المنصور استقبل سعيد بن خزرون في إفريقيّة وأنّه غادر القيروان في اتّجاه تاهرت لقمع ثورة أبي البهار، وأكّد أنه رجع بعد ذلك إلى أشير. ويفهم من كلام هذا المؤلف أنّ الأمير قد بقي في المغرب الأوسط من سنة 378 إلى سنة 381هـ/ 988—992م وترك بين أيدي يوسف بن أبي محمّد والموجّه الخفيّ لسياسته ابن البوني، إفريقيّة التي لم يرجع إليها إلاّ في سنة 381هـ/ 991—992م.

94) النويري و**الكامل**.

95) **الكامل** فحسب.

96) لم يشر إلى هذه الثورة سوى النويري و**الكامل**.

97) **الكامل** فحسب.

98) **الكامل**، ولم يشر النويري إلى ضرب السكّة.

كتامة بالعساكر وبثّ عمّاله فيها ولم يدخلها عامل قبل ذلك . فجبوا أموالها وضيّقوا على أهلها ورجع المنصور إلى مدينة أشير»[99] .

وفي سنة 384 هـ / 15 فيفري 994 – 4 فيفري 995م «أتته من مصر هديّة سنيّة ومعها الفيل . فركب المنصور بعسكره وتلقّاها . ولمّا كان يوم العيد (لا ندري هل هو عيد الفطر أم عيد الأضحى ؟) خرج باديس لصلاة العيد والفيل أمامه وركب في موكب عظيم ولم يخرج معه أبوه ذلك اليوم . وأقاما بإفريقيّة ولم يرجعا إلى المغرب»[100] .

وهكذا فإنّ قضيّة كتامة ، رغم خطورتها ، لم تدخل أيّ تغيير على العلاقات القائمة بين الفاطميّين وبني زيري ، على الأقلّ على المستوى الرّسمي[101] .

وفي جمادى الأخيرة من السنة الموالية ، 385 هـ / جويلية 995م «وصل قاسم بن حجّاج إلى المنصوريّة من مصر برؤوس الرّوم الذين قتلهم مارق الكتامي بحلب»[102] .

ثورة أبي البَهَار[103] :

بينما كانت الحرب على أشدّها في المغرب الأقصى بين زيري بن عطيّة والمغراويّين الموالين لبني أميّة في الأندلس من جهة ، وبين يدّو بن يعلى وبني يفرن من جهة أخرى ، ثار أبو البَهَار بن زيري ضدّ ابن أخيه المنصور بن بلكّين بن زيري في سنة 379 هـ / 11 أفريل 989 – 30 مارس 990م ، «لشيء جرى عليه من المنصور لم يحمله لعزّة نفسه» . واقتفى أثره صهره خلوف بن أبي بكر عامل تاهرت والممثّل الأوّل للمنصور في المغرب ، وشقيق هذا الأخير عطيّة بن أبي بكر .

«فسار المنصور إليه بتاهرت ، ففارقها عمّه إلى الغرب بمن معه من أهله وأصحابه ، ودخل عسكر المنصور تاهرت فانتهبوها ، ثم طلب أهلها الأمان فأمّنهم . ثم سار في طلب عمّه

---

99) **المؤنس** ، 77 – 78 .

100) نفس المرجع . أنظر أيضًا : **البيان** ، 247/1 .

101) والجدير بالملاحظة أنّ الوزير ابن كلس لم يشر أبدًا إلى المغرب في التوصيات الأخيرة التي قدّمها إلى مخدومه العزيز بالله قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في سنة 380 هـ/990م . أنظر : ابن الصيرفي ، 23 (90) و **النجوم** ، 122/4 .

102) **البيان** ، 247/1 .

103) **مفاخر** ، 24 – 27 ؛ **البيان** ، 244/1 – 245 ؛ **الكامل** ، 28/9 ؛ **المؤنس** ، 77 . أما النويري فقد أهمل ذكر هذه القضيّة الهامة .

حتى جاوز تاهرت بسبع عشرة مرحلة ولقي العسكر شدّة. ورجع المنصور عن تبع عمّه أبي البهار وولّى على تاهرت أخاه يَطُّوفَت ومضى المنصور إلى مدينة أشير»[104].

واستولى المتمرّدون على قسم من المغرب الأوسط يمتدّ من الزاب والونشريس إلى وهران، ويضمّ مناطق تلمسان ووهران والشّلف الخ... وأصبحت الخطبة تلقى في جميع مساجد تلك البلاد الممتدّة الأطراف باسم الخليفة هشام المؤيّد. والجدير بالذكر في هذا الصّدد أنّ أبا البهار – ربّما قبل دخوله في طاعة الأمويّين – كان يتبادل الرسائل مع ابن أبي عامر القويّ النفوذ، بواسطة هدّوس القروي التاجر الذي كان يقوم بدور السفير. «فقد كتب أبو البهار إلى ابن أبي عامر يسأله الدخول في طاعته، وأن يكتب إلى زيري بن عطيّة الزناتي صاحب فاس أن يكون عنده، وكان ابن عطيّة مواليًا مصافيًا لابن أبي عامر. فكتب ابن أبي عامر إلى أبي البهار: «إن كنتَ على نيّة فيما وصفتَه عن نفسك، فأَرْسِلْ إليّ ابنَك يكون رهينة عندي، وأَفْعَلُ معك ما أحببتَه». فوجّه إليه ابنه في مركب مع ميمون المعروف بابن الدّابّة كاتبه. فعُطِب المركب وماتا جميعًا في البحر. فوجّه إليه وَلَدَه الآخر فوصل إليه. فوجّه ابن أبي عامر لأبي البهار أموالاً وكِسًى، وكتب إلى زيري بن عطيّة في حقّه أن يعاضده وينصره ويكون معه. فلمّا بلغ ذلك إلى أبي البهار وصل إلى فاس واتّفق مع زيري بن عطيّة صاحبها»[105].

وأوفد أبو البهار إلى قرطبة في سفارة ابنَ أخيه أبا بكر بن حبّوس بن زيري بن مناد، أشجع فرسان صنهاجة في عصره، صحبة عدد كبير من أقاربه. فوصل الوفد إلى قرطبة سنة 381 هـ / 20 مارس 991 – 8 مارس 992م واستُقْبِل بكلّ حفاوة وأدّى له الجيش التحيّة العسكريّة وأُغْدِقَتْ عليه العطايا. ثم رجع أبو بكر بن حبّوس محمّلاً بالهدايا التي وجّهها ابن أبي عامر إلى عمّه، وهي تتمثّل في 25 000 قطعة من الذهب و500 كسوة من الخزّ ومجموعة من الحلى والأواني وغيرها من التحف الثمينة التي تبلغ قيمتها 10 000 دينار. وتعهّد أبو البهار بمعاضدة زيري بن عطيّة ضدّ يدّو بن يعلى، حيث كان الاثنان يتقاتلان قتالاً شديدًا للاستيلاء على مدينة فاس التي كانت تنتقل من واحد إلى الآخر، كلّما تفوّق جيش أحدهما على جيش الآخر.

---

104) البيان، 244/1.

105) نفس المرجع.

وقد فوّض ابن أبي عامر إلى الحليفيْن سلطاتٍ متساوية وكلّفهما بإخضاع يدّو بن يعلى. وتمكّن كلّ واحد منهما من الاستيلاء على إحدى العدوتيْن بفاس. ولكنّ جهودهما المتظافرة لم تستطع إضعاف بني يفرن، لا سيما وقد تخلّى عنهما خلوف بن أبي بكر وأخوه عطيّة اللّذان انفصلا عن ابن أبي عامر وانضمّا إلى ابن زيري. وجزاءً لهما ولّى المنصور خلوف بن أبي بكر من جديد عاملاً على تاهرت.

وبما أنّ أبا البهار استنكف عن مقاتلة خلوف بن أبي بكر الذي كانت تربطه به أواصر القربى، فقد زحف زيري بن عطيّة بمفرده على خلوف في رمضان 381 هـ / 11 نوفمبر – 10 ديسمبر 991 م، فقتله واستمال القسم الأكبر من المغلوبين. وفرّ عطيّة بن أبي بكر أخو خلوف إلى الصحراء مع بعض أنصاره. فأخبر زيري بن عطيّة بهذا الانتصار ابن أبي عامر الذي ابتهج بالخبر وأعلن عنه من فوق منابر الجوامع.

وما إن تخلّص الأمير المغراوي من خلوف، حتّى توجّه لقتال يدّو بن يعلى اليفرني الذي يبدو أنّ ذلك الهجوم الخاطف قد فاجأه، فانهزم إثر معارك طاحنة وفرّ إلى الصحراء حيث سيلقى مصرعه بعد ذلك بمدّة قليلة[106]. واستولى المنتصرون على معسكر بني يفرن وعلى مبالغ لا تحصى من المال. وأسّر زيري بن عطيّة والدة خصمه وأخته وجميع نسائه وقتل ما يزيد على 3000 فارس. ولكنّه أعطى الأمان لعدد كبير من المغلوبين الذين ألحقهم بصفوف جيشه[107].

وقد زاد هذا الانتصار في قوّة زيري بن عطيّة، ممّا دفع ابن أبي عامر بعد مدّة قليلة إلى أن يعهد إليه بجميع أراضي المغرب الأقصى التابعة لبني أميّة، مع تكليفه بمعاقبة الخائن أبي البهار. إلاّ أنّ تاريخ هذه الوقائع غامض شيئًا ما[108]. ولكن من المحقّق أنّ الأمير المغراوي قد بادر إلى مهاجمة أبي البهار الذي لم يكن في وَضْعٍ يسمح له بالمقاومة مدّةً طويلة. ففي شوّال 382 هـ / 30 نوفمبر – 28 ديسمبر 992 م، علم ابن أبي عامر أنّ الخلاف قد استفحل في المغرب بين القائدين زيري بن عطيّة المغراوي وأبي البهار الصنهاجيّ، وأنّ هذا

---

106) وقد عُيّنَ على رأس بني يفرن ابن أخيه حبوس بن زيري بن يعلى، ولكنّه قُتِل من طرف ابن عمّه أبي يداس بن دوناس الذي كان يحاول إدخال أبناء قبيلته في طاعته. وقد ارتحل هذا الأخير مع أنصاره إلى الأندلس، فألحقهم ابن أبي عامر بجيشه. فانتقلت قيادة بني يفرن بعد ذلك إلى أحد إخوة حبوس بن زيري بن يعلى. أنظر: **مفاخر**، 26 و**إسبانيا الإسلاميّة**، 266/2.

107) أنظر رواية أخرى لهذه الأحداث، في **إسبانيا الإسلاميّة**، 266/2 – 267.

108) **البربر**، 242/2 – 243؛ **مفاخر**، 26 – 27؛ **إسبانيا الإسلاميّة**، 266/2 – 268.

الأخير، بعدما هزمه خصمه، قد فرّ إلى سبتة، متظاهرًا بعزمه على التحوّل إلى الأندلس. وفي الحين أوفد ابن أبي عامر كاتبه عيسى بن سعيد بن القطاع على رأس جيش عرمرم لمراقبة القائد الصنهاجي. ولكنّ أبا البهار لم ينتظر وصول كاتب ابن أبي عامر ورأى من الأسلم العدول عن زيارة الأندلس والتحصّن بمنطقة الرّيف في قلعة جارت (أو جروة؟)[109]. واستمرّ في الاعتراف بسلطة بني أميّة، ولكنّه أوفد رُسُلاً إلى القيروان للوساطة بينه وبين ابن أخيه المنصور بن بلكّين[110].

«وفي سنة 383 (26 فيفري 993 — 14 فيفري 994)، وصل إلى المنصور كتاب أخيه يَطُّوفَت (الذي ربّما لم يزل عاملاً على تاهرت) يخبره بوصول عمّه أبي البهار إليه. فكتب إليه المنصور أن يبعثه. فكان وصول أبي البهار إلى المنصوريّة ليلة الاثنين منتصف شعبان (5 أكتوبر 993م). فأعطاه المنصور كِسًى وجواري وفُرُشًا وسُرَّ به أعظم سرور وأنزله أحسن نُزول»[110]. ومن المحتمل أن تكون هذه الوقائع قد جدّت في سنة 382 هـ. ورخّص المنصور إلى عمّه في استرجاع منصبه السابق على رأس عَمَل تاهرت. ويبدو أنه التحق بمركزه في الحين.

وبعدما استولى زيري بن عطيّة على تلمسان وجميع المناطق التي كانت خاضعة لأبي البهار، أصبحت سلطته تمتدّ من المغرب الأقصى إلى الزّاب. وفي سنة 383 هـ/ 26 فيفري 993 — 14 فيفري 994م أسّس مدينة وجدة التي أصبحت مقرًّا لإقامته. وعندئذ وجّه إلى ابن أبي عامر هدايا بواسطة سفيره الذي وصل إلى قرطبة في أوائل شوّال 384 هـ/ نوفمبر 994م[112].

---

109) **مفاخر**، 26 : «جارت»؛ **البربر**، 242/3 : «قصر جروة».

110) **البربر**، 242/3.

111) **البيان**، 246/1 — 247 : يصادف تاريخ 15 شعبان يوم خميس في سنة 383 هـ ويوم أحد في سنة 382 هـ. وفي كتاب **البربر**، 16/2 : حُدِّد تاريخ رجوع أبي البهار إلى القيروان بسنة 382 هـ/ 992 — 993م. أما في **البيان**، فلم يرد ذكر سنة 382 هـ، ورغم أنّ الأحداث قد سجّلت بعنوان سنة 383 هـ، فإنّها قد بدأت بعبارة «في هذه السنة» وانتهت بدون أيّ إشارة صريحة للسّنة.

112) **مفاخر**، 26 — 27؛ **البربر**، 242/3 — 243؛ **إسبانيا الإسلاميّة**، 267/2 — 268. ويبدو من الصعب قبول الرواية التي أكّدها ابن الخطيب في الجزء غير المنشور من كتابه **أعمال الأعلام**، ومفادها أنّ هزيمة أبي البهار النهارية قد تمّت قبل وفاة يدّو بن يعلي، مع العلم أنّ هذا الأخير قد توفّي حسب الاحتمال بعد شهر رجب 382 هـ/ سبتمبر 992م، وهو تاريخ الزيارة التي أدّاها زيري بن عطيّة إلى قرطبة. أنظر: **إسبانيا الإسلاميّة**، 266/2 — 267 الإحالة 2. ويبدو أنّ هذه الرواية هي التي اعتمد عليها ابن خلدون (**البربر**، 242/3) ليحدّد تاريخ سفارة زيري بن عطيّة إلى ابن أبي عامر ووفاة يدّو بن يعلى بسنة 383 هـ/ 993 — 994م.

وهكذا فقد أُزيح الصنهاجيّون من المغرب الأقصى الذي أصبح منذ ذلك التاريخ خاضعًا لسلطة الأمير المغراوي القويّ النفوذ، الموالي لبني أميّة، زيري بن عطيّة.

وفاة المنصور(113) :

«وفي سنة 386 هـ توفّي أبو الفتوح المنصور عُدَّةُ العزيز بالله بن يوسف العزيز بالله بن زيري بن مناد الصنهاجي في يوم الخميس لثلاثٍ خَلَوْن من ربيع الأوّل (26 مارس 996)، ودُفِنَ بقصره الجديد الخارج عن المنصوريّة. وكانت أيّامُه(114) أحسنَ أيّام»(115).

ولم يعش الخليفة الفاطمي نزار العزيز بالله بعده سوى ستة أشهر، إذ أدركته المنيّة في شهر رمضان وتولّى خلفًا عنه ابنه الحاكم بأمر الله(116).

* * *

لقد اضْطُرَّ المنصور بحكم الواقع إلى توطيد سلطته في إفريقيّة، وترتّب على ذلك تخلّيه عن محاربة الزناتيّين في المغرب وقتل عامله على إفريقيّة [عبد الله الكاتب] الذي أراد الخليفة الفاطمي – دون أن يخشى أيّ ردّ فعل – تقليده أسمى منصب في الإمارة. كما سمح قمعُ الثورة الكتاميّة التي دبّرها الخليفة ذاته، للأمير الصنهاجي المنصور بن بلكّين بالسيطرة على منطقة القبائل الصغرى. وبذلك بدأ يظهر بكلّ وضوح الاتّجاه الإفريقي الذي اختارته أسرة بني زيري الصنهاجيّة وتَوْقُها إلى الحكم الذاتي بل حتى الاستقلال التامّ. وأخيرًا فقد بيّنت ثورة أبي البهار أن بني زيري باتّجاههم أكثر فأكثر نحو الجهة الشرقيّة ربّما سيخسرون المغرب الأوسط. وهي إشارة تنبئ بالحركة الإنفصاليّة التي سيقوم بها بنو حمّاد فيما بعد.

---

(113) **البيان**، 239/1 و247/1. ففي الفقرة الأولى ذكر المؤلف أنّ المنصور «توفّي يوم الخميس لخمس خلَوْن من ربيع الأوّل من سنة 386»، وذلك بدون شكّ بسبب هفوة قلم. وفي الفقرة الثانية أكّد أنّ المنصور «توفّي في يوم الخميس لثلاثٍ خلون من ربيع الأوّل». أنظر: النويري، 121/2–122؛ **الكامل**، 52/2؛ ابن خلّكان، 86/1–87؛ **المؤنس**، 78؛ **البلدان**، 303/1؛ **أعمال الأعلام**، 545: «عهد المنصور إلى أخيه حمّاد بالقيام بحملات عسكريّة ضدّ أراضي أعدائه فأحرز انتصارًا باهرًا وتوفّي سنة 395 هـ»(كذا).

(114) في **البيان**: «12 سنة» وفي **المؤنس**: «نحو 13 سنة»، وحسب النويري: «12 سنة وشهران و10 أيّام».

(115) **البيان**، 247/1.

(116) **المؤنس**، 78؛ **الخطط**، 66/6–68؛ **الاتّعاظ**، الذيل، 295، 297، 299.

الفصل الثالث
ولاية باديس
(386 – 406 هـ/996 – 1016 م)

ارتقاء باديس إلى العرش[1] :

عندما ارتقى باديس إلى العرش ، كان عمره لا يتجاوز اثنتي عشرة سنة ، واسمه الكامل هو : أبو مناد باديس نصير الدولة[2] . وقد أشارت المصادر[3] بعبارة غامضة إلى معارضة بني زيري بن مناد وبني حمامة بن مناد تولية باديس ، رغم ما التزموا به من عهود ، وأكّدت أنّ عبيده وعبيد أبيه قد تمكّنوا من إحباط هذه المعارضة. فهل كان الأمر يتعلّق بتمرّد أعمام المنصور بصورة صريحة أم هي مجرّد محاولات ليس إلاّ؟ وحول ما جدّ من أحداث في المنصوريّة مباشرة بعد جنازة المنصور، اقتصرت بعض المصادر على إعلامنا بأنّه : «لمّا استقرّ باديس في الأمر سار إلى سردانية وأتاه النّاس من كلّ ناحية للتعزية»[4]. وبما أنّه لم يكن يوجد عهدئذ في إفريقيّة – حسبما يقال – مقام أحسن من سردانية[5] التي تقع بالقرب من جلّولة قرب القيروان، يمكننا أن نفترض أنّ باديس وذويه قد تحوّلوا إلى ذلك المكان لاستقبال الربيع.

وبعدما مكث في سردانية بضعة أيّام قفلَ راجعًا إلى قصر المنصوريّة.

وإثر تولّيه الإمارة ارتحل إلى سوسة ، فأقام بها أيّامًا ، ثم ذهب إلى المهديّة ، فمكث فيها

---

1) **البيان**، 247/1 ؛ النويري، 122/2 ؛ **الكامل**، 53/9 ؛ **أعمال**، 454 ؛ **شذرات**، 179/3 ،عن ابن خلكان، 87/1 – 88 ؛ **المؤنس**، 76 – 78 ؛ **دائرة المعارف الإسلاميّة** (الطبعة الثانية)، 884/1.

2) حول تاريخ ميلاد باديس يشير صاحب كتاب **أعمال الأعلام** نقلاً عن الرقيق إلى أنّ باديس قد زار أباه في دار ملكه (أشير؟) في السنة التي سيتوفّى فيها المنصور، وهو ما زال طفلاً صغيرًا.

3) **البيان**، 247/2 : «وكان بنو زيري وبنو حمامة قد همّوا بأمور وخالفوا على من كان معهم على ما عقدوه...». أنظر أيضًا : **الكامل**، 53/9.

4) **الكامل**، النويري.

5) البكري، 32.

بعض الوقت. وفي تلك المدينة الفاطميّة البديعة «لعبت المراكب بين يديه ورمى النفّاطون بالنفط»[6]، ثم رجع إلى صبرة المنصوريّة.

وفي نفس تلك السنة (386هـ/996م)، ربّما بعد مدة قليلة من ارتقاء الأمير الصنهاجي الشاب إلى العرش «ثار عليه رجل صنهاجي اسمه خليفة بن مبارك. فأُخِذَ وحُمِلَ إلى باديس، فأُرْكِبَ حمارًا وجُعِلَ خلفه رجلٌ أسود يصفعه، وطيف به ولم يُقْتَل احتقارًا به وسُجِنَ»[7]. ويبدو أنّ هذه الثورة لم تكتسِ أهميّة كبيرة.

«ووصل يطّوفَت[8] إلى المنصوريّة للعزاء والتهنئة، ثم رجع إلى طبنة وجهة الغرب (ربّما تاهرت) في أواخر شعبان» سنة 386هـ/ منتصف سبتمبر 986م. ويبدو أنّ هذه البادرة التي قام بها عمّ باديس بعد عدّة أشهر من تولية ابن أخيه، قد كانت بمثابة الإعلان عن نهاية الدسائس التي كانت تُحَاك ضدّ خليفة المنصور.

وإثر وفاة والده، جدّد باديس ولاية فلفل على مدينة طبنة[9]. «وفي صفر (393هـ/ 13 فيفري – 13 مارس 997م) عقد أبو مناد ولاية أشير [لعمّه] حمّاد بن أبي الفتوح يوسف بن زيري بن مناد، فخرج عاملاً عليها وأعطاه خيلاً كثيرة وكِسًى جليلة»[10]. ويبدو أنّ حمّادًا قد احتفظ أيضًا بالمسيلة وأصبح يحكم باسم باديس بلاد المغرب الأوسط التي كان يتولّى أمورها إلى حدّ ذلك التاريخ، بصورة تزيد أو تنقص، بالاشتراك مع أخيه يطّوفَت وعمّه أبي البهار.

وسوف نرى فيما بعد ما ستنجرّ من عواقب وخيمة عن هذا التعيين الذي لم يكن الأمير – والحقّ يقال – قادرًا على تجنّبه دون إثارة غضب الصنهاجيّين في المغرب الأوسط. وسوف لا يتأخّر حمّاد عن التوسيع من نطاق سلطته وتكوين جيش عتيد وجمع ثروة طائلة. وسينتهي به الأمر إلى الثورة وإنشاء الدولة القويّة التي ستحمل اسمه في المغرب الأوسط [دولة بني حمّاد].

---

6) **المؤنس**، 78.

7) **الكامل**، 53/9.

8) **يطّوفت** بن أبي الفتوح (يوسف بن زيري).

9) **البربر**، 260/3.

10) **البيان**، 248/1؛ النويري، 122/2؛ **الكامل**، 53/9؛ **العبر**، 171/6؛ أبو الفداء، **التاريخ**، 131/2–132، يشير إلى كتاب **الجمع والبيان في أخبار القيروان**، لابن شدّاد؛ **أعمال**، 454–460؛ **المؤنس**، 78.

ورغم صغر سنّه ، فقد بادر باديس إلى تأكيد صواب الرأي المتعلّق بشخصه والذي نقله ابن خلّكان[11] ، ومفاده أنّه كان ملكًا عظيمًا ، موطّد العزم ، شديد المراس ، لا يستطيع رفع رُمْحٍ دون كسره. أمّا بخصوص قساوته تجاه أعدائه ، فسنرى كيف سيتفنّن في تعذيب حظّيه السابق يوسف بن أبي حبوس. إلاّ أنّ بعض المصادر الأخرى تؤكّد أنّه «كان مِقدامًا ، جَوَادًا ، يعطي العطاء الضخم ، وكان محسنًا لأصحابه ويعفو عن إساءاتهم»[12].

السياسة الداخليّة :

لمّا ارتقى باديس إلى الحكم ، أقرّ محمد بن أبي العرب في منصب عامل على إفريقيّة ، وهو المنصب الذي كان يشغله في عهد المنصور. وهذا الشخص الذي مدحه الرقيق وأشاد بثقافته وشجاعته ، قد استمرّ في تسيير شؤون إفريقيّة مدّة حوالي عشر سنوات ، إلى أن توفّي في أواخر سنة 396 هـ / 1005 – 1006 م[13] ، فخلفه ابنه أبو القاسم بن محمد بن أبي العرب سنة 395 هـ وأقرّ الموظفين الذين عيّنهم أبوه في مناصبهم[14].

وسنرى كيف سينضمّ مع إخوانه إلى المتمرّد الزناتي فلفل بن سعيد في أوائل سنة 399 هـ / سبتمبر 1008 م. وقد عفا عنه باديس ، ولكنّ المصادر لم توضّح لنا هل أعاده إلى منصبه أم لا[15]. وليس من المستبعد أن يكون قد عيّن مكانه يوسف بن أبي حبوس الصنهاجي ، حيث تؤكّد المصادر أنّ باديس قد أعفاه من جميع مهامه العسكريّة وغيرها سنة 403 هـ / 1012 – 1013 م[16].

ويبدو أنّ أخت باديس الأميرة أمّ ملال قد قامت بدور سياسيّ في البلاد ، لا سيما وأنّ أخاها كان يقوم بحملات عسكريّة خارج إفريقيّة بصورة تكاد تكون مستمرّة. كما

---

11) ابن خلكان ، 86/1 ؛ وشذرات ، 179/3.

12) **المؤنس** ، 79.

13) **المؤنس** ، 78 – 79 ؛ **البيان** ، 257/1 ؛ **أدباء** ، 219/1 – 222 ؛ **مناقب محرز بن خلف** ، 323 – 325 ؛ **مدارك عياض** ، 1/المقدمة ؛ **معالم الايمان** ، 175/3.

14) **البيان** ، 258/1 سمّاه في موضعين مختلفين «القاسم» ، وكذلك النويري ، 138/2. وصحّحنا الاسم اعتمادًا على النقيشة التي تحمل تاريخ تأسيس مقصورة المعزّ.

15) **البيان** ، 258/1.

16) أنظر الباب الثامن من هذا الكتاب.

كانت مربيّته المعروفة باسم «حاضنة باديس» تتمتّع بنفوذ لا يستهان به. فهذه السبيّة قد اعتنقت الإسلام وتربّت بين الأميرات الصنهاجيّات وأطلق عليها اسم فاطمة الحاضنة[17].

وقد جاء في **معالم الإيمان** ما يلي :

«كان بالمهديّة نصرانيٌّ ابن أخي حاضنة باديس صاحب القيروان، فافتضّ هذا النصراني صبيّة شريفة، فلمّا سمعت بذلك العامّة قتلوه. فبلغ ذلكْ باديسًا فعظم عليه ذلك وأرسل قائدًا بعسكر إلى المهديّة وأمر بقتل كلّ مَنْ بَلَغ. فبلغ ذلك أبا الحسن [القابسي]، فدخل المحراب وأقبل على الدّعاء في كشف هذا. فلمّا وصل القايد إلى قصر سور قرب المهديّة، بات فيه، فقام باللّيل وهو سكران يمشي على السطح، فمشى في الهواء فسقط على رأسه وانتثر دماغه. وجاء البريد بذلك إلى باديس وأُعْلِم بدعاء أبي الحسن، فرعب لذلك وقال لأبي العرب وكبراء رجاله : «تمشون للشيخ !». فلمّا ضربوا عليه وأُعْلِمَ بهم قال لهم : «تمضون إلى الجامع حتى يأتيكم العلماء»، ولم يُدخلهم إلى داره. ووجّه إلى أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي وأبي القاسم بن الكاتب وأبي عبد الله المالكي ومكّي القدسي وأبي عمر بن العتاب والخواصّ وابن سفيان وغيرهم، وأملى عليهم رسالة فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم. بالله أستعين وعليه أتوكّل. الغوث الغوث بما حلّ بالمسلمين من الافتيات عليهم !». وفي فصل منها : كيف يحلّ لمن يعتقد الإسلام أن يقوم في دم كافر افتضّ صبيّةً من سُلالة المصطفى ﷺ. لو انطبقت السماوات والأرض من أجل هذا الفعل لكان قليلاً». وقال لأصحابه : «إذا وصلتم إلى الجامع فليقرأها واحدٌ منكم على المنبر ممّن له صوت». ففعلوا ذلك، فجعل القوّاد يقول بعضهم لبعض : «والله ما السلطانُ إلاّ هذا الشيخ !»[18].

علاقات باديس مع الفاطميّين :

لم تتحدّث المصادر عن تقليد باديس الولاية من قِبَل الخليفة الفاطمي العزيز بالله. إلاّ أنّ بعضها[19] قد أشار إلى أنّ باديس «قد هيّأ هديّة ليبعثها للعزيز. فبرزت الهديّة من المنصوريّة إلى رقّادة مع جعفر بن حبيب لستٍّ خَلَوْنَ من رمضان (386هـ/ 22 سبتمبر

17) **شهيرات التونسيّات**، 47 – 49.

18) **معالم الايمان**، 175/3 – 176.

19) **البيان**، 248/1 ؛ **المؤنس**، 78.

996م) . وكان العزيز بالله قد بعث إلى أبي مناد يأمره فيه برفع القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم إلى مصر. فوصل السجلّ، والقاضي مريض، فأمره أبو مناد بالخروج مع الهديّة، فاعتذر بعلّته، فبعث إلى داره محمد بن أبي العرب وجماعة رجال الدولة، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة (386 هـ/ 17 نوفمبر 996م)، ووقف العسكر بباب أبي الربيع وظنّوا أنّ أهل القيروان يمنعونه منهم ويحولون بينه وبينهم، فهجموا عليه، وحملوه ببساطه الذي كان مريضًا عليه في ثيابه التي يلبسها في داره، لأنّهم فاجأوه وخرجوا به محمولاً. وقد اجتمع عند داره خلق عظيم ولم ينطق أحدٌ منهم. ومشوا به إلى رقّادة، وخلفهم غلام نصراني يمسكه، وأولاده وقرابته يمشون خلفه. واغتمّ بمسيره سائر النّاس وظهر عليهم الحزن والأسف لفقده، وكثر الدعاء له والثناء عليه. ثم جاءت الأخبار بوفاة العزيز بالله (يوم 28 رمضان 386 هـ/ 14 أكتوبر 996م)[20]. فأمر أبو مناد برجوعه إلى داره مكرّمًا معظّمًا». وفي سنة 387 هـ (بدون شكّ في شهر محرّم / 14 جانفي — 12 فيفري 997م) تواترت الأخبار بموت العزيز بالله. «وفيها رجع القاضي إلى داره، وهو مريض، فازداد مقداره عند النّاس».

«وفي ربيع الآخر [من نفس السنة] وصل القاضي الباهري من مصر إلى المنصوريّة، فبرز أبو مناد بعساكره عليه وخرج بجميع رجاله إليه، فرأى ما لم يَرَ مثله. ووصل المذكور بسجلَّيْنِ، فقُرِئا بجامع القيروان والمنصوريّة: أحدهما بولاية أبي مناد وتلقيبه نصير الدولة، والثاني بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم بأمر الله، والجواب عن وفاة المنصور عدّة العزيز بالله. وكان معه سجل ثالث يأخذ العهد على باديس وجماعة بني مناد للحاكم»[21].

وأقام القاضي الشريف الباهري في بيت الأمير يوسف[22]. ثم عقد باديس مجلسًا بحضور مبعوث الخليفة[23] الذي أخذ البيعة عن بني مناد ووجوه الصنهاجيّين، بعد بيعة الأمير. وبعد ذلك عقد الشريف مجلسًا في البيت الذي كان يقيم فيه وأخذ البيعة عن الصنهاجيّين وكلّ من جاؤوا لمقابلته. «ثم رجع إلى مصر بعد أن وصله أبو مناد بمال جليل»[24]، وبعث معه هديّة إلى الخليفة.

---

20) **نجوم**، 112/4 — 113؛ **خطط**، 66/4 — 67؛ **اتعاظ**، الذيل، 295.
21) **البيان**، 248/1 — 249؛ أنظر أيضًا: النويري، 122/2 — 123 و**الكامل**، 53/9 و**المؤنس**، 78.
22) **البيان**، 248/1.
23) يمكن أن يفهم من رواية **البيان** والنويري، أنّ باديس هو الذي أخذ البيعة، ولكنّ هذا التأويل غير صحيح.
24) **البيان**، 249/1؛ النويري: «ثم جهّز هديّة بعده».

وفي نفس تلك السنة ، بمناسبة الاحتفال بعيد الفطر أو عيد الأضحى ، «خرج نصير الدولة إلى المصلّى بزيّ جليل وهيئة حسنة ، وبين يديه الفيل وزرّافتان ، وجمل أبيض ساطع البياض ، لم يَرَ الناس مثله قطّ»[25]. وفي سنة 388 هـ/ 3 جانفي – 22 ديسمبر 998م «وصلت إلى نصير الدولة هديّة من مصر ، تشتمل على الجوهر والأعلاق النفيسة ، فتلقّاها ، ودُخِلَت بين يديه إلى المنصوريّة»[26].

وفي سنة 402 هـ/ 4 أوت 1011 – 22 جويلية 1012م ، احتجز بنو قرّة الهدايا التي وجّهها باديس إلى الحاكم بأمر الله واستولوا على مدينة برقة ، ففرّ عاملها عن طريق البحر[27]. ولعلّ الأمر يتعلّق بالحادثة التي جرت في سنة 405هـ/ 1014 – 1015م ، وسوف نتعرّض لها فيما بعد.

وفي السنة الموالية «وصل إلى المهديّة مركبٌ فيه هديّة جليلة من الحاكم إلى نصير الدولة باديس صاحب إفريقيّة ، وإلى ولده المنصور عزيز الدولة»[28].

«فخرج باديس إلى لقائها بالبنود والطبول ، وخرج ولده المنصور ولم يكن خرج قبل ذلك ، ومعه القضاة وأكابر الدولة»[29]. وقد جرى هذا الحفل في قصر الماء الذي يوجد لا محالة في المهديّة. فترجّل باديس لتسلّم هدايا الخليفة ، «وقد وصلت سجلاّت منه إلى نصير الدولة باضافة برقة وأعمالها إليه»[30] فأرسل عامله إليها[31].

وفي نفس السنة تحوّل إلى القاهرة الرقيق رئيس ديوان الإنشاء والمؤرّخ الرسمي لبني زيري ، لإبلاغ هديّة الأمير الصّنهاجي إلى الحاكم بأمر الله. وبتلك المناسبة نظم الرّقيق قصيدة في مدح مخدومه[32].

ويبدو أنّ من بين السجلاّت المذكورة ، كان يوجد السجلّ الذي يمنح المنصور لقب عزيز الدولة ، وذلك رغم أنّ المصادر قد تحدّثت عن ذلك السجل بعنوان الحوادث التي جرت في سنة 405 هـ/ 1014 – 1015م.

25) **البيان** ، 249/1 ؛ **المؤنس** ، 78.
26) **البيان** ، 249/1.
27) **العبر** ، 17/6.
28) **البيان** ، 259/1.
29) **المؤنس** ، 78.
30) **البيان** ، 259/1.
31) **المؤنس** ، 79 ، من المحتمل أن يكون هذا العامل هو يعلى بن فرح.
32) **أدباء** ، 218/1 ؛ **خطط** ، 370/1.

وفي سنة 404هـ وصل سجلّ من الحاكم إلى نصير الدولة ، يذكر فيه أنّه جعل ولاية العهد في حياته لابن عمّه أبي القاسم عبد الرحمان بن إلياس. فقُرِئَ بجامع القيروان والمنصوريّة ، وأُثْبِت اسمه مع اسم الحاكم في البنود[33] والسكّة ، فعظم ذلك على نصير الدولة وقال : لولا أنّ الإمام لا يُعْتَرَض على تدبيره لكاتَبْتُه ألاّ يصرفِ هذا الأمر من وَلَدِهِ إلى ابن عمّه»[34].

«وفي سنة 405هـ أخرج نصير الدولة هديّة جليلة إلى الحاكم وشيّعها بالطبول والبنود من المنصوريّة ، فوصلت إلى المهديّة وركب البحر بها يَعْلَى بن فرج. وكان فيها مائة فارس ولها سروج مُحَلاَّة شُدَّت في ثمانية عشر حِمْلاً أقفاصًا ، وكان فيها ثمانية وعشرون حِمْلاً من الخزّ والسّمور[35] والمتاع السوسي المذهّب النفيس ، وعشرون وصيفة بارعة الجمال ، وعشرة من الصقالبة وغير ذلك . ووجّهت السيدة أمّ ملال أخت نصير الدولة إلى السيّدة أخت الحاكم [ستّ الملك] هديّة أيضًا. ولمّا وصلت تلك الهدايا إلى جهّة برقة أخذها العرب (وهم بدون شكّ بنو قرّة الذين فعلوا نفس الصنيع في سنة 402هـ / 1011 – 1012م) ، وهرب يَعْلَى بن فرج وأسلمها بجميع ما فيها»[36].

محاربة زناتة :

1) المرحلة الأولى : الاستيلاء على تاهرت[37] :

إنّ النزاع الذي نشب في سنة 386هـ / 996 – 997م ، وهي سنة ارتقاء باديس إلى العرش ، بين بني زيري من جهة ، وبين القائد المغراوي القوي النفوذ زيري بن عطيّة والقائد الأندلسي ابن أبي عامر من جهة أخرى ، قد انقلب ضدّ الزناتيّين الذين انهزموا شرّ هزيمة في شوّال 388هـ / 26 سبتمبر – 24 أكتوبر 994م وأُجبِر زيري بن عطيّة على الرحيل إلى فاس صحبة عدد قليل من رجاله ثم الفرار إلى الصحراء. فعيّن ابن أبي عامر ابنه عبد الملك عاملاً على المغرب.

---

33) **البيان**، نفس المرجع. أنظر أيضًا : **اتعاظ** ، الذيل ، 311 – 312 ، وذكر فيه أنّ وليّ العهد اسمه عبد الرحيم.

34) **البيان** ، 260/1 .

35) [السمور : حيوان ثديي ذو فَرْو ثمين].

36) **البيان** ، 260/1 – 261 .

37) **النويري** ، 123/2 – 124 ؛ [illegible] ، 249/1 – 250 ؛ **الكامل** ، 63/9 ؛ **العبر** ، 179/6 ؛ **المؤنس** ، 78 – 79 .

ولم تمض مدّة طويلة حتى جمع الأمير الزناتي عددًا كبيرًا من الجنود، ولكنّه عِوَض الهجوم على شمال المغرب الأقصى الذي كان في قبضة الجيش الأندلسي، زحف على المنطقة الصنهاجيّة الشرقيّة[38].

ففي أوائل سنة 389هـ/ 23 ديسمبر 998 – جانفي 999م شرع زيري بن عطيّة في محاصرة تاهرت. فكتب عاملها يطّوفت بن يوسف بن زيري إلى ابن أخيه صاحب إفريقيّة يستنجده. «ولمّا وصل كتاب يطّوفت إلى باديس نصير الدولة، أمر نصيرُ الدولة [نائبه في إفريقيّة] محمّد بن أبي العرب الكاتب بالخروج بالعساكر إلى زناتة. فكان تبريزه في منتصف صفر من هذه السنة، حتى بلغ أشير وبها حمّاد بن يوسف بن زيري، عاملاً عليها، ومعه عسكر عظيم، فأقام بها يسيرًا، ثم رحل، ورحل حمّاد معه بعسكره، حتى وصلا إلى تاهرت، فاجتمعا بيطّوفت، ومعه أيضًا عسكر عظيم، وكان اجتماعهم بتاهرت غرة جمادى الأولى. وكان بتاهرت زيري بن عطيّة نازلاً بموضع يقال له آمسّار على مرحلتين من تاهرت»[39].

فزحف الصنهاجيّون يوم السبت 4 جمادى الأولى 389هـ/ 23 أفريل 999م[40]. وكان أكثر عسكر حمّاد من الوتلكاتيّين الذين كانوا يكرهونه، إمّا «لقلّة عطائه»[41] أو لأنّه عهد بشؤونهم إلى غلامه خلف الحِمْيَري الذي كان قد أهانهم[42].

«فلمّا حمي الوطيس واشتدّ البأس، ولّوا منهزمين فاتبعهم جميع العساكر الإفريقيّة، فرام ابن أبي العرب ردّ النّاس فلم يقدر، فولّت الهزيمة على الجميع حتى وصلوا إلى أشير، وقد أسلموا محلاّتهم ومضاربهم وكلّ ما فيها من الأموال والسلاح وغير ذلك، فاحتوى زيري بن عطيّة وإخوانه على جميع ما ذكرنا»[43]. وأعطى الأمير المغراوي أوامره بعدم ملاحقة الفارّين[44]، بسبب أهمّيّة الغنائم، بدون شكّ. «وقد قُتِلَ منهم خلق كثير وأُخِذَ أسارى كثيرة»[45].

وعندما وصل زيري بن عطيّة إلى تاهرت تقدّم إليه أهلها فوعدهم بجميل وأطلق سبيل عدد كبير من الصنهاجيّين الأسرى أو اللاّجئين في المدينة[46]. «فمضوا حتى وصلوا إلى أشير

38) مفاخر، 27 – 30؛ البيان، 252/1 – 253.
39) البيان، 249/1 – 250.
40) نفس المرجع، نظريًّا يوم الأحد.
41) الكامل، 64/9.
42) النويري.
43) البيان، 250/1.
44) حسب النويري، لا غير.
45) البيان، 250/1.
46) حسب النويري.

وبقي ابن أبي العرب وحمّاد ويطّوفت بأشير وبقي زيري بن عطيّة الزناتي على تاهرت»[47].
«ووصل الخبر إلى المنصوريّة لعشرٍ بقين من جمادى الأولى من هذه السنة»[48]، (9 ماي 999).

2) المرحلة الثانية : حملة باديس[49] :

«خرج نصير الدولة صاحب إفريقيّة من المنصوريّة يوم السبت[50] لليلتَيْن خلتا من جمادى الآخرة (21 ماي 999) ورحل حتّى وصل إلى طبنة، فبعث في طلب فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي، وكان على طبنة، فخاف منه وبعث يعتذر له، ويسأله أن يكتب له سجلاً بولاية طبنة[51]. فكتب له وبعث به إليه، ورحل عنه نصير الدولة باديس وتمادى في رحيله»[52]. ويبدو أنّ باديس قد أهدى إلى فلفل بتلك المناسبة الهدية التي تحدّث عنها ابن خلدون[53]، وهي تتمثّل في ثلاثين حملاً من الفضة وثمانين حزمة من الأقمشة النفيسة.

ونحن نستغرب من تصرّف الأمير بمثل هذا الطيش. فهل كان يظنّ أنّ هذا القائد الزناتي لا يمثّل أيّ خطورة جسيمة وأنه سيقتنع بتلك الهبة؟ ولعلّه لم يكن يرغب في إلهاء أدنى جزء من قواه التي كان حريصًا على تكريسها لمقاومة عدوّه المُخطِر زيري بن عطيّة، على أنّ ذلك لم يمنعه من التفكير في ردع فلفل فيما بعد.

«فلمّا بلغ فلفلاً أنّ باديس قد ابتعد عنه، ضرب على جهة من جهاته فأكل ما حولها ونهب وأفسد. ومضى إلى باغاية فحاصرها وأفسد تلك الجهّات كلّها وأكل ما والاها»[54].

ويبدو أنّ زيري بن عطيّة لم يبق مكتوف اليدَيْن بعد انتصاره، فقد زحف على أشير حيث كان الصنهاجيّون ينتظرون قدوم باديس، بل ربّما شرع في محاصرتها، حسبما رواه النويري الذي أكّد ما يلي[55] : «فلمّا بلغ إلى المسيلة رحل زيري بن عطيّة عن أشير إلى

---

47) **البيان**، 250/1.
48) في **البيان**: «لعشرٍ بقين».
49) النويري، 124/2 – 126؛ **البيان**، 250/1 – 251.
50) نظريًّا يوم الأحد.
51) النويري والبيان. وفي **الكامل**: «وطلب عهدًا بإقطاع مدينة طبنة».
52) **البيان**، 250/1.
53) **العبر**، 158 – 159.
54) **البيان**، 250/1.
55) النويري، 125/2.

تاهرت ، فرحل إليها باديس». وأضاف صاحب **البيان** إلى ذلك قائلاً : «ولمّا وصل إلى المسيلة رحل زيري بن عطيّة عن تاهرت. فصمّم إليه نصير الدولة»[56].

وهكذا فقد تحوّل باديس إلى أشير ومنها –حسبما يبدو– إلى تاهرت التي غادرها زيري بن عطيّة متوغّلاً في الجهة الغربيّة في اتجاه فاس. واستعمل باديس على تاهرت وأشير عمّه يطّوفت بن بلكّين «الذي استخلف على تاهرت ابنه أيّوب في أربعة آلاف فارس»[57]. فرجع باديس إلى أشير صحبة يطّوفت وبلغه ما فعل فلفل بن سعيد. فوجّه إليه جيشًا على رأسه أبو زعبل[58] وجعفر بن حبيب ومحمد بن حسن. وبعد ذلك بقليل رحل عن أشير وترك بها يطّوفت وأبناء زيري بن مناد، ماكسن وزاوي وجلال(؟) ومغنين وعزم[59] الذين طلبوا إليه السماح لهم بالبقاء في أشير مع يطّوفت، لمساعدته على تسيير شؤون البلاد. وقد رفض باديس طلبهم في أوّل الأمر وأمرهم بمرافقته، ثم سمح لهم بالبقاء في المغرب الأوسط لقضاء بعض شؤونهم، حسب زعمهم، والالتحاق به فيما بعد[60].

ويبقى الدور الذي قام به حمّاد في تلك الفترة غامضًا. فنحن نستغرب كيف تمّ تعويضه في أشير بيطّوفت بعدما كان عاملاً عليها إلى حدّ ذلك التاريخ. وحسب ابن خلدون[61]، يبدو أنّ حمّادًا قد بقي في أشير مع يطّوفت. ولكنّ بعض المصادر الأخرى، وكتاب **العبر** نفسه في موضع آخر[62]، تكذّب هذا الادّعاء. فمن المحتمل أن يكون حمّاد قد رافق باديس. ولا ندري أيضًا هل رجع محمد بن أبي العرب إلى إفريقيّة أم لا.

وصل باديس إلى المسيلة مرفوقًا بعمّ أبيه أبي البهار بن زيري لقضاء عيد الفطر بها. وأثناء موكب العيد (أوّل شوّال 389 هـ / 15 سبتمبر 999م) أحيط أبو البهار علمًا بأن إخوانه ماكسن وزاوي ومغنين وعزم قد شقّوا عصا الطاعة في أشير، وقبضوا على يطّوفت واستحوذوا على أملاكه، ولولا تمكّنه من الهروب من بين أيديهم لقتلوه[63].

---

56) **البيان**، 250/1.
57) نفس المرجع. النويري: «فعند ذلك ولّى أبو منّاد على تاهرت وأشير عمّه يطّوفت فاستخلف يطّوفت».
58) الغالب على الظنّ أنه أبو زعبل بن هشام.
59) **البيان**، 259/1؛ **العبر**، 157/6؛ النويري.
60) حسب النويري، لا غير.
61) **العبر**، 179/6.
62) نفس المرجع، 157/6.
63) **العبر**، 179/6 : «387هـ».

فخشي أبو البهار أن يلتحق يطّوفت بباديس وأن توجّه إليه تهمة التواطؤ مع إخوانه ، ولاذ بالفرار مع بنيه ورجاله وعياله. فاقتفى جنود الأمير أثره ، ولكنّهم لم يتمكّنوا من القبض عليه. وفي طريقه التقى بيطّوفت الذي أكّد له خبر تمرّد إخوانه. فأقسم له أبو البهار أنّه لم يكن له أيّ ضلع في تلك المؤامرة وأنّه لم يهرب إلاّ خوفًا على نفسه. ولكن ما إن فارقه حتى التحق بالمتمرّدين.

والتقى يطّوفت بباديس وهو ما زال في المسيلة. ولكن الأمير لم يفكّر قطّ في الرجوع من حيث أتى ، لأنّ فلفل كان يزحف آنذاك على إفريقيّة. ومن جهة أخرى يبدو أنّ زيري بن عطيّة قد اغتنم فرصة الفوضى التي أثارتها ثورة أعمام والد صاحب إفريقيّة ، ليستأنف حملته العسكريّة في اتّجاه تاهرت. فكلّف باديس عمّه حمّاد بن بلكّين بالتحوّل إلى جهة الغرب لإرجاع الأمور إلى نصابها ، بينما تكفّل هو نفسه بردع فلفل بن سعيد في الجهة الشرقيّة. ولذلك ، رغم إمكانيّة الالتباس بين هذه الحملة والحملة التي تعرّضنا لها من قبل ، يمكننا أن نؤكّد – مع كلّ التحفّظات – أنّ باديس قد نظّم حملة عسكريّة ضدّ زيري بن عطيّة ، بقيادة حمّاد ، وبمشاركة محمد بن أبي العرب[64].

ودارت المعركة في وادي مينة[65] على بعد 20 فرسخًا جنوب تاهرت. فانهزم الصنهاجيّون وتركوا معسكرهم ، وقد بلغت خسائرهم آلاف القتلى ، ومكّن هذا الانتصار الأمير المغراوي من الاستيلاء على منطقة ممتدّة الأطراف تضمّ تاهرت وتلمسان والشلف وتنّس والمسيلة. فدخل زيري بن عطيّة في طاعة الخليفة الأموي هشام الثاني والمنصور بن أبي عامر وكتب إلى هذا الأخير يلتمس منه العفو والسماح له باسترجاع سلطته السابقة. فاستجاب المنصور لهذا الطلب. ثم حاصر زيري بن عطيّة أشير وتقبّل استسلام زاوي بن زيري وبقيّة المتمرّدين على باديس من بني زيري.

ويقال إنّ ابن أبي عامر قد قبل من حيث المبدأ دخولهم في خدمته. وبايع أبو البهار هشام الثاني والمنصور بن أبي عامر. وقد وجّه إلى هذا الأخير مبعوثًا خاصًّا في آخر يوم من شوّال 389 هـ / 13 أكتوبر 998 م. ولكن المنصور الذي لم ينس أنّ أبا البهار قد خدم القضية الأمويّة قبل ذلك ببضع سنوات ، ثم خانها ، أجاب بالتسويف. وسنرى كيف سينتظر المتمرّدون وفاته (رمضان 392 هـ / 14 جويلية – 12 أوت 1002 م) ليتمكّنوا من التحوّل إلى الأندلس.

64) البربر، 3/247 – 248 ؛ مفاخر، 35.

65) مفاخر، 35.

أمّا حمّاد فيبدو أنّه بقي في المغرب الأوسط ، مُكلَّفًا من قِبَل باديس بإخماد ثورة أعمام والد الأمير[66] .

وأمّا باديس الذي تركناه في المسيلة ، فقد غادرها ثالث شوّال 389 هـ / 17 سبتمبر 999 م . فلمّا وصل إلى بلزمة بلغه نبأ انتصار فلفل بن سعيد على الجيش الذي كان قد وجّهه إليه ، وقتل أبا زعبل الذي يبدو أنّه نفس الشخص الذي كان تابعًا لبلكّين وعاملاً على تيجس وقصر الافريقي وقسنطينة[67] . كما أسّر فلفل حامد بن زعبل الذي هو بدون شكّ ابن الشخص المذكور ، ثم قتله بعدما عذّبه . وإثر هذا الانتصار زحف المتمرّد على القيروان . «فرحل باديس إلى باغاية (يوم 18 شوّال 389 هـ / 2 أكتوبر 999م)[68] وعرّفه أهلها ما قاسوه من قتال فلفل وأنّه حاصرهم خمسة وأربعين يومًا»[69] . فرحل من باغاية في طلب فلفل يوم أوّل ذي القعدة 389 هـ / 14 أكتوبر 999م ووصل إلى مرمجنّة . وفي يوم الخميس 6 ذي القعدة 389 هـ / 19 أكتوبر 999م هجم فلفل على باديس الذي رفض القتال وواصل طريقه . ثم التقى به بوادي أغلان[70] «لِعَشْرٍ خَلَوْنَ من ذي القعدة . فكانت بينهم حروب لم يُسْمَعْ بمثلها . وكان قد اجتمع لفلفل من البربر ما لا يحصى عددًا وكثرة . فانهزم فلفل إلى جبل الحناش واتبعته صنهاجة والعبيد»[71] . «وقُتِلَ من زناتة تسعة آلاف قتيل[72] سوى من قُتِلَ من البربر . وأرسل باديس كتاب الفتح إلى مدينة القيروان . وفرح أهلها لأنّهم خافوا أن يأتيهم فلفل»[73] . وكانوا قد تحصّنوا في شوارع المدينة ومنهم من التجأوا إلى المهديّة . وعاد باديس إلى المنصوريّة ظافرًا يوم الأربعاء 20 ذي القعدة 389 هـ / 2 نوفمبر 999م[74] .

---

66) **العبر** ، 157/6 .
67) **البيان** ، 239/1 – 261 ؛ النويري ، 128/2 .
68) النويري .
69) نفس المرجع .
70) **الكامل** ، 64/9 .
71) **البيان** ، 251/1 .
72) وفي **البيان** ، 7000 قتيل .
73) **الكامل** ، 64/9 .
74) النويري ، نظريًّا يوم الخميس .

3) **المرحلة الثالثة** : 390–391 هـ / 1000–1001م[75] :

بينما كان زيري بن عطيّة يحاول الإستيلاء على أشير التي ربّما كان يدافع عنها حمّاد، كان أعمام والد باديس قد تحالفوا مع فلفل بن سعيد ضدّه، وكانت قواهم المشتركة تحاصر تبسّة.

«وفي أوّل رجب من سنة 390هـ (7 جوان 1000م) خرج نصير الدولة إلى رقّادة متوجّهًا لقتال زيري بن عطيّة الزناتي أمير الغرب، لمّا بلغه أنه أتى إلى أشير. ثم جاء الخبر برحيل زيري بن عطيّة إلى الغرب، وتمادى نصير الدولة إلى أن وصل قصر الإفريقي، فبلغه حينئذ أنّ بني زيري رجعوا إلى الغرب خوفًا منه، وأنّه لم يبق مع فلفل منهم سوى ماكسن وابنه محسن، فرجع نصير الدولة إلى المنصوريّة حضرته»[76].

«وفي سنة 391هـ (أوّل ديسمبر 1000 – 19 نوفمبر 1001م) خرج نصير الدولة في طلب فلفل بن سعيد. فلمّا علم فلفل أنّه لا طاقة له بلقائه، هرب إلى الرمال، وافترق جمعه. فرجع نصير الدولة إلى إفريقيّة ومعه أبو البهار بن زيري، وقد اعتذر له ممّا فعل إخوانه فقبل عذره»[77].

«وفي هذه السنة وصل رسول حمّاد بن يوسف العزيز بالله. يذكر أنّه زحف إلى عمّه ماكسن بن زيري ومن معه، فقُتِلَ ماكسن وولداه محسن وباديس بعد حروب شديدة، وذلك بعد ثلاثٍ خَلَوْنَ من رمضان المعظم»[78]، (27 جويلية 1000م).

أمّا عزم بن زيري، فكلّ ما نعلم عنه أنه توفّي في القيروان سنة 401هـ / 15 أوت 1010 – 3 أوت 1011م[79].

وفي المغرب الأوسط، كانت المعركة بين ماكسن وحمّاد حامية الوطيس. وفي آخر الأمر تمكّن حمّاد من قتل خصمه[79م] وأبنائه محسن وباديس وحباسة الذين أكلتهم الكلاب.

---

75) **النويري**، 126/2، **الكامل**، 64/9–65. بالمقارنة مع هذين المصدرين نلاحظ أنّ **البيان**، 251/1–252 فيه تشويش في الأحداث. وقد قمنا بتصحيح النصّ ليصبح مقبولاً.

76) **البيان**، 251/1.

77) نفس المرجع.

78) نفس المرجع، 252/1.

79) **البيان**، 259/1.

79م) **العبر**. وحسب ابن حزم، **نقط العروس**، 238، فإنّ حمّاد بن بلكّين بن زيري قد ألقى عمّه بلكّين إلى الكلاب فأكلوه حيًّا.

وأمّا زاوي بن زيري فقد التجأ إلى جبل شنوة في المنطقة الساحليّة الواقعة غربي شرشل شمال مليانة[80]. وظلّ ينتظر السماح له بالتحوّل إلى الأندلس، ولم تأته الرخصة إلاّ بعد وفاة المنصور بن أبي عامر (رمضان 392 هـ / 14 جويلية – 12 أوت 1002 م)، فقد سلّمها إليه ابن المنصور، عبد الملك المظفّر الذي كان يرغب في انتداب مرتزقة إفريقيّين. فارتحل زاوي إلى الأندلس على رأس عدد كبير من أبناء قبيلته ومواليه، وكان مرفوقًا بابنيْ أخيه ماكسن، وهما حُباسة وحبوس. فاستُقْبِلوا بحفاوة بالغة في قرطبة، وقد كان وصلها قبل ذلك رأس زيري الذي قتله الزناتيّون الموالون لبني أميّة. وقام الصنهاجيّون بدور سياسي وعسكري بارز في الأندلس وتحصّلوا على إقليم الميرة. واستقرّ زاوي في غرناطة التي كانت تشهد عهدئذ ازدهارًا ملحوظًا[81].

وبعد تسعة أيّام من انتصار حمّاد، أي يوم 12 رمضان 391 هـ / 5 أوت 1001 م توفّي القائد الزناتي الشهير زيري بن عطيّة. فقد مرض وهو على أسوار مدينة أشير التي رفع عنها الحصار منذ قليل، ليعود إلى بلاده. وبفضل حمّاد بن بلكّين على وجه الخصوص عادت المياه إلى مجاريها في المغرب الأوسط وأصبح باستطاعة باديس التفرّغ لشؤون طرابلس ومقاومة فلفل بن سعيد. وتحقيقًا لهذه الغاية استدعى إلى القيروان حمّادًا الذي لا يمكن الاستغناء عن مساعدته الثمينة[82]. ويدلّ هذا القرار على أنّ باديس كان يرى أنّ سلطته قد تعزّزت بما فيه الكفاية في المغرب الأوسط وأنه في حاجة إلى جميع قواه لاستعادة نفوذه في المنطقة الجنوبيّة من إفريقيّة. ومن ناحية أخرى أفلا يمثّل وجود رجل قويّ النفوذ مثل حمّاد في المغرب الأوسط خطرًا محدقًا به؟ فمن المعقول أن يكون باديس قد راودته الشكوك تجاه طموح عمّه، بعد النتائج التي استخلصها من خيانة أعمام والده.

80) **العبر**، 179/6 و 171/6 : «التجأ زاوي وإخوانه إلى جبل شنوة، ومن هناك تحوّلوا إلى الأندلس بموافقة حمّاد». وفي **العبر**، 157/6 – 158 : «التجأ الفارّون إلى جبل شنوة، فحاصرهم حمّاد، وبعد بضعة أيّام استسلموا بشرط أن يتمّ ترحيلهم إلى الأندلس. وفي سنة 391 هـ / 1000 – 1001م وصلوا إلى بلاط ابن أبي عامر».

81) ابن بسّام، 6-61/1 – 62 ؛ **البيان**، 75/3 – 76، 108، 129، 263 – 264 ؛ **أعمال**، 260 – 261.

82) **العبر**، 158/6.

ولاية المعزّ بن زيري بن عطيّة على زناتة وحملة حمّاد ضدّه[83] :

لمّا توفّي زيري بن عطيّة أقام الزناتيّون وبنو خزر ومغراوة ابنَه المعزّ مكانه. ورغم انضمام زيري بن عطيّة وعدد كبير من بني خزر إلى بني أميّة، فإنّ الزناتيّين قد أضاعوا المغرب الأقصى بأسره، ما عدا سجلماسة، إذ كان الخليفة قد عهد بولايتها منذ أوائل سنة 390هـ/ 13 ديسمبر 999 – نوفمبر 1000م إلى وانودين بن خزرون بن فلفل، مقابل دفع مبلغ من المال كلّ سنة وتوجيه ابنه رهينةً إلى قرطبة[84].

وبطبيعة الحال، فقد بدأ المعزّ بن زيري بتوجيه نظره نحو المغرب الأوسط، اقتداءً بأبيه. وكان الوقت ملائمًا، حيث لم يكن يخشى أن يجد في تلك البلاد لا حمّادًا الذي استُدْعِيَ إلى القيروان، ولا باديس الذي كان يقاتل فلفل في جنوب إفريقيّة.

ولذلك فما إن رحل حمّاد، حتى زحف الزناتيّون على المغرب الأوسط وعاثوا فيه فسادًا، متعرّضين للقوافل ومحاصرين المسيلة وأشير. ولا يمكن أن يترك باديس هذه المغامرة بدون ردّ فعل.

ففي سنة 395هـ/ 18 أكتوبر 1004 – 7 أكتوبر 1005م كلّف حمّادًا بالذهاب لردع المغراويّين وبني يفرن. وتعهّد بعدم عودته إلى القيروان من جديد والتخلّي لفائدته عن أشير والمغرب الأوسط وكلّ المدن التي سيتمكّن من فتحها. ثم صاحبه إلى أن وصل إلى تيجس، فأقام بها بعض الوقت، حسبما يبدو. وليست لدينا معلومات مفصّلة حول العمليّات العسكريّة التي يبدو أنّها دارت بسرعة وكُلِّلت بالنجاح. وممّا لا شكّ فيه أنّ الصنهاجيّين الذين هم أهل حضر كانوا يترقّبون بفارغ صبر حلول الأمن من جديد في ربوعهم والالتفاف حول رجل من بني جنسهم يستطيع التصدّي لخصومهم الألدّاء من البدو الزناتيّين. فكان المؤسّس المقبل لمدينة القلعة هو الشخص المنتظر للقيام بتلك المهمّة.

وبعدما أُجْلِيَ الزناتيّون من المغرب الأوسط، خاب أملهم في إمكانيّة التصدّي في العاجل لحمّاد ورجاله الصنهاجيّين، لا سيما وأنّ ضغط الزناتيّين في أعماق المغرب الأدنى، بقيادة فلفل بن سعيد قد باء بالفشل بصورة تكاد تكون تامّة. على أنّهم تمكّنوا في المقابل من استعادة نفوذهم بسرعة في المغرب الأقصى.

---

83) مفاخر، 36؛ أعمال، 454–460.

84) البيان، 245/1.

الصلح بين زناتة وبني أميّة[85] :

التمس المعزّ بن زيري بن عطيّة من عبد الملك المظفر بن أبي عامر، ابن المنصور وخليفته[86] تقليده ولاية المغرب الأقصى واقترح عليه أن يوجّه إليه ابنه مُعَنْصَر رهينةً. ونحن نملك نصّ الرسالة المؤرّخة في ذي القعدة 396 هـ (أو 397) / أوت 1006م (أو 1007)، والمتضمّنة استجابة ابن أبي عامر لهذا الطلب، مقابل دفع ضريبة سنويّة وتوجيه ٱبنَيْ الأمير الزناتي مُعَنْصَر وحمامة كرهينتَيْن إلى قرطبة.

«وكتب ابن أبي عامر للمعزّ عهدَه بتجديد ولاية المغرب كلّه إلاّ مدينة سجلماسة، فإنّه كان قد عقد ولايتها لواضح الفتى قبل ذلك، وولاّها واضح وانودين بن خزرون اليفرني.... وبقي المعزّ أميرَ الغرب إلى أن حانت وفاته سنة 416 هـ وولي مكانه ابنه حمامة بن المعزّ بن زيري بن عطيّة»[87].

قضيّة طرابلس :

1) المرحلة الأولى : حتى وفاة يانس (390 هـ/ 999 – 1000م)[88] :

من الجدير بالملاحظة أنّ طرابلس كانت تابعة للأراضي الخاضعة لدولة بني زيري، وذلك منذ سنة 367 هـ/ 977 – 978م، وكان واليًا عليها تمصولت بن بكار[89] الذي ارتكب عدّة تجاوزات وجمع ثروة طائلة بواسطة استغلال منظوريه. وعندما أحيط باديس علمًا بالأمر طلب إليه القدوم إلى القيروان لتوضيح هذه القضيّة. وخوفًا على نفسه وعلى أملاكه، اقترح تمصولت على الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله أن يسلّم إليه طرابلس، واستأذن في الرحيل إلى القاهرة ليستوطنها.

85) **مفاخر**، 37 – 42 نقلاً عن ابن خلكان، 253/1 – 254.

86) توفّي المنصور في رمضان 392 هـ/ جويلية – أوت 1002م.

87) **البيان**، 245/1.

88) **خطط**، 217/1 – 218 نقلاً عن التجاني، 130 – 131؛ **العبر**، 40/7 – 41؛ **الكامل**، 65/9 – 66؛ **البيان**، 251/1 – 252؛ النويري، 126/2.

89) **نجوم**، 204/4 والإحالة رقم 1. الشماخي، 336 – 337.

وكان الفتى أبو الفتوح برجوان[90] القويّ النفوذ في بلاط الحاكم بأمر الله، منذ انتصاره في الثورة التي أعلنها سنة 387 هـ / 997 م، قد قلّد الخادم أبا الحسن يانس[91] ولاية برقة، لاقصائه من البلاط، خشية أن ينافسه. فاغتنم المساعي التي قام بها تمصولت، ليقترح على الخليفة توجيه يانس إلى طرابلس، فوافق الحاكم بأمر الله على هذا الاقتراح، وعيّن يانس واليًا على طرابلس وأمره بالتحوّل إليها حالاً. فوصل يانس إلى طرابلس سنة 390 هـ / 13 ديسمبر 999 – 30 نوفمبر 1000 م على رأس خمسة عشر ألف فارس، وارتحل تمصولت إلى مصر حاملاً معه قسمًا من ثروته، فعيّنه الخليفة واليًا على دمشق.

«فلمّا علم بذلك باديس وجّه إلى يانس يستفهمه عن سبب وصوله ويستدعي منه سجلاً إن كان بيده بالولاية فبعث إليه: «إنّما بُعِثْتُ نائبًا عن أمير المؤمنين ومثلي يكبر عن أن يُوَلّى بسجلّ». حينئذ وجّه باديس جعفر بن حبيب لقتاله. فأقام نحو ثلاثة شهور بقرية أجاس[92] متلوّمًا عليه وبعث إليه في أثناء تلك المدّة يخيّره في واحدة من ثلاث: إما بعث السجلّ إن كان بيده، وإمّا القدوم على باديس ليفاوضه فيما وصل إليه، وإمّا المناجزة بالحرب. فعاد جوابه إليه يقول: «أما الوصول فلا سبيل إليه، وأما سجلّ الولاية فأنا أكبر من ذلك إذ كنتُ خليفة أمير المؤمنين على ما هو أعظم من طرابلس، وأمّا الثالثة فأنا أوافيك عن الحركة إليّ وأجيئك إلى موضعك فأقاتلك به». فتحرّك إليه جعفر بن حبيب متوجّهًا إليه فنزل غربي زنزور ونزل يانس بالجانب الشرقي منها والزيتون بينهما، ثم التقيا فكانت الهزيمة على يانس وقُتِلَ أكثر جنده وأُخِذ هو أسيرًا، فطلب ممّن أسره أن يحملوه إلى جعفر فأبوا من ذلك واحتزّوا رأسه ثم حملوه إلى جعفر ونجا فلول المنهزمين فلجأوا إلى مدينة طرابلس، فأبى أهل طرابلس من تمكين جعفر من البلد ومن اللاّجئين إليها»[93]. فحاصر جعفر المدينة التي كان يشرف على دفاعها أحد قوّاد يانس المسمّى فتوح بن علي بن جفيانان[94].

---

90) أنظر حول هذا الوزير الذي قُتِل سنة 389 أو 390 هـ / 999 – 1000 م، اتّعاظ، الذيل، 300 نقلاً عن الخطط، 68/4.

91) حول هذا الشخص، أنظر: خطط، 68/6 واتّعاظ، الذيل، 300.

92) تقع هذه القرية بين مارث وطرابلس على بعد مرحلة جنوبي مارث؟

93) رحلة التجاني، 182 – 183.

94) العبر، 41/7.

وبعد قليل «وصل كتاب يوسف بن عامر عامل قابس، يذكر فيه أنّ فلفل رحل إلى طرابلس من على قابس لستٍّ بقين من رجب»[95]، (24 رجب 391هـ/ 19 جوان 1001م).

وبالفعل فسرعان ما تمكّن الأمير الزناتي من الاقتراب من طرابلس والاستيلاء على المواقع التي تخلّى عنها جعفر بن حبيب من باب الجلد، والتجأ لدى يحيى بن محمد أمير نفوسة. وقد بلغت المآسي التي قاساها الصنهاجيّون في جبل نفوسة إلى درجة أنّ قائدهم قد قرّر المغامرة بشنّ معركة لفتح طريق قابس. ولكنّ فلفل لم يحاول سدّ الطريق في وجهه ومنعه من الرجوع إلى القيروان، وذلك إمّا لأسباب تكتيكيّة أو لعجزه. «ولمّا وصل فلفل إلى طرابلس خرج إليه فتوح بن علي وجماعة أهلها، فتلقّوه، وأدخلوه البلد، فاستوطنها من ذلك الوقت»[96].

2) **المرحلة الثانية : وفاة فلفل بن سعيد**[97] :

بعدما استولى فلفل بن سعيد على طرابلس وضواحيها، قدّم شواهد الإخلاص إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي أوفد يحيى بن علي بن حمدون الأندلسي واليًا على طرابلس وقابس[98].

وتوجّه يحيى إلى برقة، فلم يجد فيها المال الذي وعدوا بتسليمه إليه في تلك المدينة. وكان الجيش المصاحب له متركّبًا أساسًا من بني قرّة الذين أمرهم الخليفة بمصاحبته.

«وكان وصوله إلى طرابلس يوم الجمعة لتسعٍ خَلَوْنَ من ربيع الأوّل (392ـ/ 24 جانفي 1000م)[99]... فاختلفت عليه أمور العسكر مع سوء عقله وضعف تدبيره. ووصل إلى فلفلٍ فاستخفّ به واحتقره.

---

95) **البيان**، 251/1.

96) **البيان**، 252/1.

97) **العبر**، 17/6 و41/7؛ **البيان**، 256/1؛ **الكامل**، 65/9 – 74.

98) **الكامل**، 64/9 – 65 : لقد وجّه الخليفة يحيى بن علي استجابة لطلب أهل طرابلس. وهذا تأويل غير صحيح للأحداث إذ أنّ جعفر بن حبيب قد رحل عن طرابلس التي استولى عليها فلفل بن سعيد، وقد أهمل ابن الأثير هذه الوقائع. أمّا ابن خلدون فقد أكّد (**العبر**، 17/6) أنّ يحيى بن علي قد أُرسل لنجدة فلفل ضدّ الصنهاجيّين. ويحيى هذا هو أخو جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي عامل المسيلة. وكان قد صاحبه إلى الأندلس. ولم يتحوّل إلى مصر إلاّ بعد قتل جعفر (372هـ/ 982 – 983م).

99) **البيان**، نظريًّا يوم الاثنين.

«ووصل يحيى بن علي ومعه فلفل بن سعيد وفتوح بن علي إلى مدينة قابس ، فحصروا عطيّة بن جعفر[100]. وخرج في تلك الأيّام إلى قابس عشرون رجلاً من الناشبة[101] ، فعُرِفَ بهم فلفل ، فبعث في طلبهم ، فلما أُتِي بهم ، ضرب أعناقهم. وكان وصولهم إليها يوم الاثنين لأربع عشرة خلون من شعبان من هذه السنة (18 جوان 1003م)[102] ، ثم انصرفوا راجعين إلى طرابلس. ولما رأى يحيى بن علي اختلال الحال عليه ، ولم يجد ما يعطي لرجاله ، عاد ببقيّتهم إلى مصر ، بعدما أخذ فلفل وأصحابه ما أحبّوه من خيولهم بين شراء وغصب. فلمّا وصل إلى صاحب مصر الحاكم بأمر الله أراد الايقاع به ، وبعد ذلك عفا عنه وقبل عذره»[103]. كما عفا في أوّل الأمر عن بني قرّة المسؤولين إلى حدّ ما عن فشل يحيى بن علي ، ثم أمر بقتلهم في الاسكندرية. في حين أصبح فلفل بن سعيد صاحب الأمر والنهي في طرابلس.

«وفي سنة 396هـ (8 أكتوبر 1005 — 26 سبتمبر 1006م) ثار ببرقة الوليد بن هشام وادّعى أنّه من بني أميّة من وَلَد المغيرة [بن عبد الرحمان النّاصر][104]. وكان ظهوره في العام الفارط ، وكان معلّمًا ببرقة ، فرأى في أهل برقة فرصة ، فانتسب لهم وعرّفهم أنّ عنده روايات وعلمًا ، وأنّه هو الذي يملك مصر ويقتل الجبابرة ، وأعانه قوم من لواتة وزناتة ، فنصبوه إمامًا واجتمعوا عليه. ثم أقبل البربر من كلّ ناحية إليه ، فزحف إلى برقة وحاصرها حتى فتحها وذلك في رجب من العام الفارط (أفريل — ماي 1005م). ثم قوي أمره في هذه السنة ، فأخرج الحاكم إليه جيشًا فكان بينهم قتال شديد إلى أن هُزِم عسكر مصر وقُتِل قائده»[105].

ويبدو أنّ الكاتب الأندلسي المقري[106] هو الوحيد الذي أشار إلى أنّ الوليد بن هشام

---

100) وهو شخص غير معروف ولعلّه ابن القائد جعفر بن حبيب.

101) [الناشبة : رُمَاة السهام].

102) **البيان** ، نظريًّا يوم الجمعة.

103) **البيان** ، 256/1.

104) الذي قُتِلَ سنة 366هـ/976م ؛ **البيان** ، 278/2 — 279.

105) **البيان** ، 257/1.

106) المقري ، طبعة القاهرة 1949 ، 411/3 — 413. وحسب هذا المصدر فإنّ هذا الثائر قد قُتِلَ بالقاهرة في 13 رجب 399هـ / 13 مارس 1009م ، أنظر أيضًا : **العبر** ، 257/1 — 258. لقد تمّ حصار برقة في رجب 395هـ / أفريل — ماي 1005م ، وانتصر المتمرّد على جيش الحاكم سنة 396هـ / 8 أكتوبر 1005 — 26 سبتمبر 1006م وتمّ إعدامه في منتصف شوّال 397هـ / 4 جويلية 1007م. أنظر أيضًا : **الكامل** ، 234/7 — 237.

«قد هزم في آن واحد جيش باديس الصنهاجي صاحب إفريقيّة وجيش الحاكم بأمر الله صاحب مصر». وليس من المستبعد أن يكون باديس قد وجّه لمقاتلة المتمرّد فيلقًا من الجيش الصنهاجي، بل من المحتمل أن يكون ذلك الفيلق قد تعاون بصورة تنقص أو تزيد مع الجيش الفاطمي.

وسنرى فيما بعد أنّ شخصًا آخر يبدو أنّه ابن الوليد بن هشام قد حاول سنة 403هـ / 1012 – 1013م، أن يقوم مرّة أخرى – ولكن في إفريقيّة – بنفس المغامرة التي قام بها والده، إلاّ أنّ النجاح لم يكن حليفه هذه المرّة أيضًا.

وبعد رحيل يحيى بن علي بن حمدون، يبدو أنّ فلفل بن سعيد قد تعرّض لبعض الهجومات التي وجّهها ضدّه ابن زيري صاحب إفريقيّة، ولكنّنا نجهل تفاصيلها.

«وفي سنة 399هـ (سبتمبر 1008م) هرب أبناء محمّد بن أبي العرب، (ومن بينهم أبو القاسم والي إفريقيّة)، من المنصوريّة يريدون فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي بطرابلس. فأرسل نصير الدولة إلى صاحب قابس يأمره أن يقطع بهم. فلحق بهم المذكور وأخذ منهم عليًّا ويوسف، فقطع رؤوسهما ووجّه بها إلى المنصورية منسلَخ المحرّم (30 محرم 399هـ / 14 أكتوبر 1008م). ووصل أبو القاسم بعد ذلك [إلى باديس] فعفا عنه»[107].

وبعدما فقد فلفل بن سعيد كلّ أمل في وصول أيّ نجدة من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، لم يتردّد في تقديم شواهد الطاعة إلى الخليفة الأمويّ في قرطبة، محمد بن عبد الجبّار، ملتمسًا منه المساعدة رغم بُعْدِ الشقّة.

وبالاعتماد على بني أميّة أعداء الفاطميّين الألدّاء، وعلى أتباعهم وحلفائهم، انتهج فلفل بن سعيد من جديد السياسة الزناتيّة التقليديّة الموالية للأمويّين، التي كان يمثّلها قبله الأمير المغراوي العظيم زيري بن عطيّة. ولكنّ هذه السّياسة التي يرجع عهدها إلى سنة 399هـ / 1008 – 1009م لم تسفر عن أيّ نتيجة إيجابيّة. ذلك أنّ فلفل بن سعيد «قد توفّي في سنة 400 بطرابلس بعلّة أصابته»[108]، وذلك قبل رجوع سفرائه من قرطبة.

---

(107) البيان، 258/1.

(108) نفس المرجع.

وحسب ابن خلدون (البربر، 263/3) فإنّ محمد المهدي قد حكم أقلّ من عام وذلك في سنة 399هـ / 1008 – 1009م. بحيث لا بدّ أن تكون وفاة فلفل في سنة 400هـ بعد غرّة محرم 400هـ / 25 أوت 1009م وقبل وصول باديس إلى طرابلس يوم 7 شعبان 400هـ / 26 مارس 1010م.

3) **المرحلة الثالثة**[109] :

«وولّى مكانه أخوه وَرّو بن سعيد وأطاعته زناتة. وفي تلك السنة (400 هـ) رحل أبو مناد نصير الدولة بعساكر عظيمة إلى طرابلس في طلب زناتة، فكان وصوله إلى ظاهر طرابلس يوم الاثنين لسبع خلون من شعبان[110] (26 مارس 1010م)، فتلقّاه أهلها مسرورين داعين مستبشرين وضُرِبت له فساطيط [خيام] الديباج والقباب الجليلة، ونزل. فأخذ الناسَ ريحٌ عظيمٌ خرق جميع المضارب ومزّقها وذهب بها. وجاءت رُسُل ورّو بن سعيد أخي فلفل راغبةً في الأمان والعفو، فعفا عنهم وأشهد بذلك على نفسه»[111].

واستعمل باديس ورّو بن سعيد على نفزاوة والنعيم بن كنّون على قسطيلية، بشرط أن يرحل القائدان وأتباعهما من أعمال طرابلس. ثم أولى على تلك المدينة محمد بن الحسن وعاد إلى المنصوريّة ظافرًا، صحبة النعيم بن كنّون ووفد من الزناتيّين، في حين توجّه ورّو بن سعيد مباشرة إلى نفزاوة.

ومن المحتمل أن يكون باديس قد عهد آنذاك بولاية قابس التي كان يحكمها إلى حدّ ذلك التاريخ بنو عامر، إلى أخيه إبراهيم بن المنصور بن يوسف الذي خلفه فيما بعد منصور بن ماواس[112].

وأغدق باديس النّعم على الزناتيّين الذين صاحبوه إلى المنصوريّة، «وأمر للنعيم بالبنود والطّبول والبَراذين والسروج وصرفه إلى البلاد التي أعطاه، وقاعدتها قسطيلية، فأقام بها مَلِكًا بالطبول والبنود والجيش»[113].

«وفي سنة 401 (15 أوت 1010 — 3 أوت 1011)، كان موت عزم بن زيري بن مناد بالقيروان. وفيها توفّي القائد جعفر بن حبيب»[114].

---

109) **البرير**، 263/3 — 264 ؛ **البيان**، 258/1 — 259 ؛ **الكامل**، 74/9 ؛ **المؤنس**، 79.

110) **البيان**، نظريًّا يوم الأحد.

111) **البيان**، 258/1.

112) **رحلة التجاني**، 96.

113) **البيان**، 259/1.

114) نفس المرجع.

4) المرحلة الرابعة : ثورة يرّو بن سعيد[115] :

وفي نفس السنة خرج ورّو بن سعيد عن طاعة باديس والتجأ إلى جبال نفوسة التي كانت تسكنها قبيلة آية دمّر، وتحالف معها ضدّ ابن زيري. وقد أكّد ابن خلدون أنّ النعيم بن كنّون استولى على نفزاوة وألحقها بأعماله. ويبدو أنّ هذا الإلحاق لم يَدُمْ مدّة طويلة. ذلك أنّ خزرون بن سعيد بن خزرون الزناتي قد تخاصم مع أخيه ورّو «فقصد إلى نصير الدولة سنة 462 (4 أوت 1011 – 22 جويلية 1012) وكان معه نحو سبعين فارسًا من زناتة، فأنزلهم وأحسن إليهم، ثم بعد ذلك بأيّام أعطاه مدينةً [نفزاوة]، فخرج إليها بالبنود والطبول»[116]. كما تحصّل بنو محليّة، وهم من أتباع خزرون بن سعيد، على ولاية قفصة. وهكذا أصبح الزناتيّون يملكون جميع «مُدُن الماء»[117].

وبعد ذلك بقليل زحف ورّو بجنوده الزناتيّين على طرابلس، فالتقى به عاملها محمد بن الحسن وأجبره على الفرار. وفي سنة 403هـ/ 23 جويلية 1012 – 12 جويلية 1013م زحف ورّو على طرابلس من جديد وحاصرها[118]. فأمر باديس كلاًّ من الأمراء الزناتيّين بالجريد، وخزرون بن سعيد، والنّعيم بن كنّون، بالهجوم عليه. والتقى الجمعان في صبرة[119]، الواقعة بين طرابلس وقابس، ولكن عوض أن يتحاربا، تحالفا. ولمّا رأى خزرون انضمام جنوده إلى ورّو عاد على عَقِبَيْه. فأمر باديس خزرون بالقدوم إليه، ظنًّا منه أنه قد تواطأ مع أخيه. فرفض القائد المغراوي الامتثال إلى أمر الأمير، إذ شعر بأنّها مكيدة دُبِّرت ضدّه. ولكن لمّا علم أنّ فتوح بن أحمد قد شرع في الزحف عليه على رأس جيش، رحل عن نفزاوة سنة 404هـ/ 13 جويلية 1013 – 1 جويلية 1014م وحثّ بقيّة الزناتيّين ولا سيما النعيم بن كنّون على الإقتداء به ثم التحق بأخيه ورّو بن سعيد.

فقرّر الأخوَان بعد ما تحالفا من جديد محاصرة طرابلس. ولكنّ ابن خلدون لم يخبرنا هل أنّهما نفّذا مشروعهما أم لا. ومهما يكن من أمر فإنّ الأضرار التي ألحقها الزناتيّون بجنوب إفريقيّة قد أغضبت باديس إلى درجة أنّه أمر بقتل جميع الرّهائن الزناتيّين الذين

---

115) **البربر**، 41/1، 264/3 – 266؛ **البيان**، 259/1 – 266؛ **الكامل**، 74/9.

116) **البيان**، 259/1.

117) «مدن الماء»: مركز الزراعات المرويّة.

118) **الكامل**.

119) البكري، 17.

كانوا في قبضته ، فلم يسلم منهم أحدٌ ، حتى مقاتل بن سعيد الزناتي الذي كان قد تخلّى عن أخيه(؟) ورّو بن سعيد واستسلم هو وأبناؤه وعدد كبير من أقاربه ، وقد قُتِلوا عن آخرهم .

وابتداءً من ذلك التاريخ لم يُعِرْ باديس أيّ اهتمام إلى ورّو بن سعيد ، إذ أصبحت كلّ جهوده موجّهة إلى قتال عمّه حمّاد بن بلكّين[120] .

«وفي هذه السنة (406) ، مات ورّو بن سعيد في شوّال (3 مارس — 10 أفريل 1016) ، فاختلفت كلمة الزناتيّين ، ومالت فرقة مع خليفة بن ورّو وفرقة مع خزرون ابن عمّه»[121] .

وقد ساعد عامل طرابلس محمد بن الحسن في الخفاء على بثّ الشقاق في صفوف الزناتيّين . فهجم خليفة بن ورّو الذي استمال قسمًا كبيرًا من أبناء قبيلته على أنصار خزرون بن سعيد واستولى على قيطون زناتة . ثم استسلم إلى باديس الذي كان يقوم وقتئذ بحصار قلعة بني حمّاد . أمّا خزرون بن سعيد فقد تحوّل إلى مصر وأقام بقصر الخليفة الفاطمي ، حيث قضى أبناه المنتصر وسعيد شبابهما .

ثورة عبد الله بن الوليد بن المغيرة :

لقد روى ابن عذاري[122] أنّ ثائرًا اسمه عبد الله بن الوليد بن المغيرة قد ظهر بإفريقيّة ، ولكنّ المصادر الأخرى لم تُشِر إلى هذه الثورة . ويبدو أنّ الأمر كان يتعلّق بابن أبي ركوة بن المغيرة ، لكنّنا لا نعرف بالضبط المنطقة التي ظهرت فيها هذه الثورة . وكلّ ما نعلم عنها أنّ صاحبها «كان خاملاً مشتغلاً بالتعليم ، ثم دعا إلى نفسه . فأُخِذ وسيق إلى القيروان مع صاحبٍ له ، وحُمِلا على جَمَلَيْن ، وطِيف بهما ، ثم ضُرِبَت أعناقهما ، ورُفِعا فَصُلِبا . ووُجِدَتْ عنده خريطة فيها كتاب بخطّ يده لبعض أشياخ القبائل يقول فيها : «من عبد الله أبي محمّد النّاصر لدين الله أمير المؤمنين ، إلى فلان» . ثم يذكر له أنّ تمام أمره وظهوره يكون بكتامة ، ويأمره أن يتلقّاه في أوّل صفر من سنة 404 (12 أوت 1013) فإنها آخر صنهاجة ، وبها تنقطع دولتهم»[123] .

---

120) حسب ابن خلدون ، البربر ، 265/3 .
121) البيان ، 266/1 .
122) نفس المرجع ، 260/1 .
123) نفس المرجع .

حمّاد وباديس – وصف حمّاد بن بلكّين[124] :

منذ سنة 395 هـ / 18 أكتوبر 1004 – 7 أكتوبر 1005 م ، كان حمّاد بن بلكّين الذي ترك له ابن أخيه باديس حريّة التصرّف ، يبذل قصارى جهده بلا انقطاع لإجلاء الزناتيّين من المغرب الأوسط وتركيز أسس دولة بني حمّاد التي ستقوم في المستقبل.

ولقد أثبتت تصرّفات حمّاد الذي كان رجلاً قويّ النّفوذ وصعب المراس ، صحّة ما وصفته به المصادر ، بالاعتماد على بعض النوادر الطريفة أحيانًا. فقد كان مقدامًا ، ولكنّه ماهر ، ذو رأي ثاقب . وكان في آن واحد حليمًا وقاسيًا . إذ كان يصدر أحكامه ببساطة أبويّة ويقتل أعداءه بعدما يعذّبهم أشدّ العذاب . وكان في شبابه قد درس الفقه بالقيروان وقرأ كُتُبَ الجدل . وقد كان هذا الطاغية المستبدّ الذي لم يتردّد في إلقاء عمّه ماكسن حيًّا إلى الكلاب ، يتظاهر بالورع الذي لا يحقّ لنا أن نصفه بالنفاق ، دون تثبّت . فقد روى ابن حزم أنّه كان يصوم رجب وشعبان ويمتنع عن شرب الخمر. كما روى لنا عالم الجغرافيا البكري[125] القصّة التالية التي تنمّ عن نفسيّة الرجل وعن الجوّ الذي ساد كفاحه ضدّ الزناتيّين. فقد حكى حمّاد عن نفسه أنّه لم ينخدع في حياته سوى مرّة واحدة بفتاة بربريّة . ذلك أنّه قد ارتبط في أيّام صباه بالقيروان بصداقة حميمة مع أحد أقرانه ، وللأسف الشديد لم يعثر له على أثر منذ عهد بعيد . وذات يوم فرح بلقاء صديقه أثناء إحدى الحملات العسكريّة التي قام بها ضدّ باغاية . وقد قال عن ذلك الصديق ما يلي : «لو طلب إليّ العفو عن كافّة أهل باغاية لعفوت عنهم» . وقد أخبر ذلك المسكين الأمير بكلّ تأثّر أنّه فقد ابنته . فقال له حمّاد : «لو جئتني أمس لكنت منعت هدر دماء بني قومك أخذًا بخاطرك» . ثم أمر قوّاده بأن يقدّموا إليه جميع السبايا ، فتعرّف الأب من بينهنّ على ابنته . وأسدل عليها حمّاد حجابًا ثم همّ بتسليمها إلى أبيها . فأخبرته الفتاة أنّها قادرة على منع السيف من القطع إذا قرأت عليه بعض الأدعية ، واقترحت عليه أن يجري عليها اختبارًا للتثبّت من صحّة قولها . فوافق حمّاد على ذلك ولكنّه سرعان ما أدرك أنّ الفتاة قد خدعته عندما قطع السيف رقبتها . ذلك أنّها أبت أن تعيش بعدما وقع المسّ بشرفها .

---

124) **أعمال** ، 454 – 460 ؛ ابن حزم ، **نقط** ، 175 ، 238 (الطبعة الثانية) ؛ البكري ، 184 ، 186 ، 188 ؛ **الاستبصار** ، (الترجمة) ، 100 – 104 .

125) **البكري** ، 187 – 188 .

وأشار الكاتب الأباضي الشماخي[126] إلى الحملة التي قام بها «عدوّ الله حمّاد بن بلكّين» ضدّ كدية مغراوة(؟)[127].

ولا ندري أيّ شيء عن المسمّى عبّاد بن الصادق سوى أنّه كان أحد قوّاد حمّاد بن بلكّين، حسب ابن خلدون. كما أشار نفس المؤرّخ إلى واحد من بني حمدون، وهو المدعوّ حمدون بن علي بن عليم (أو علم) الذي يبدو أنّه كان أوّل من دخل في خدمة حمّاد، من بين سلالة بعض وزراء دولة بني حمّاد[128].

تأسيس قلعة بني حمّاد (398 هـ / 1007 – 1008م)[129]:

كان من واجب حمّاد صاحب الزاب والمغرب الأوسط أن يسعى إلى تأسيس عاصمة لمملكته حتى يتسنّى له أن يتبوّأ مكانة الملوك. وقد أقام تلك العاصمة في موقع منيع شمال شرقي ميلة في خاصرة[130] جبل المعاديد في مكان يقال له أبو طويل بالقرب من جبل كيّانة المسمّى أيضًا بجبل عجيسة، وهو اسم قبيلة من أصل برانسي استوطنت ذلك المكان. وهذه العاصمة هي قلعة أبي طويل أو قلعة بني حمّاد أو القلعة، وقد تأسّست سنة 398 هـ ونقل إليها حمّاد سكّان المدينتين اللّتين كان قد خرّبهما، وهما المسيلة وحمزة، كما جلب إليها الجراوة، ويبدو أنّ تلك المدينة قد شهدت تطوّرًا كبيرًا في وقت قصير. وحرصًا على مراقبة تحرّكات الزناتيّين، كان حمّاد يقيم تارة في القلعة وطورًا في أشير.

ومن الطبيعي أن يستاء باديس من تعاظم قوّة عمّه، وحسب ابن خلدون، لم يتأخّر أعمامه وأقاربه الآخرون تحت تأثير الغيرة عن الوشاية بصاحب القلعة.

---

126) الشماخي، 403، 475 – 476.

127) نفس المرجع.

128) العبر، 153/6: «عَلَم»؛ البربر، 4/2: «عليم».

129) أعمال، 434، 460؛ الاستبصار، 101؛ الكامل، 53/9؛ العبر، 145/6 – 158؛ مفاخر، 36؛ ابن حمّاد، 32.

130) [خاصرة: ملتقى قمّة متوسطة الارتفاع بقمة مرتفعة].

الحرب بين باديس وحمّاد ووفاة باديس[131] :

يبدو أنّ المنصور بن باديس الذي لقّبه الحاكم بأمر الله بعزيز الدولة لم يُعيَّن وليًّا للعهد، لصغر سنّه. «فأراد نصير الدّولة أن يرشّحه ويضيف إليه أعمالاً يستخدم فيها أتباعَه وصنائعَه. ولكن باديس قد اتّصل به عن حمّاد بن سيف العزيز بالله[132] هَنَاتٌ أنكرها عليه، فأراد اختبارها. فكتب كتابًا إلى حمّاد يأمره فيه بتسليم عمل أبي زعبل [تيجس] وقصر الإفريقي وقسنطينة إلى مستخلف عزيز الدولة. وكان قد خلع على هاشم[133] بن جعفر وأعطاه الطبول والبنود وأمره بالخروج إلى هذا العمل، فخرج بخزائن وعُدَدٍ جليلة.

«وبعث نصير الدولة إلى إبراهيم بن سيف العزيز بالله (بلكّين) يشاوره على من يمضي بكتابه إلى حمّاد، فتسرّع إبراهيم إلى المسير بالكتاب بنفسه وقال: «لا يجد مولانا عبدًا من عبيده أَنْهَضَ بخدمته منّي». وتضمّن ذلك وأخذ على نفسه المواثيق أنّه لا يقيم في مُضِيِّه وعَوْدِه إلاّ أقلّ من عشرين يومًا. فأشار على نصير الدولة مَنْ يقرب منه بأن يعتقل إبراهيم، ولا يَدَعَه لما يريد من السفر، حتى يرى ما يكون من طاعة أخيه حمّاد ومسارعته إلى ما يأمره به نصير الدولة من ذلك. وقال لإبراهيم: «امْضِ إلى أخيك حمّاد، فإن صدقتَ فيما قلتَ وَوَفَّيْتَ بما وعدتَ، وإلاّ فافعلا ما أردتما»[134].

وخرج إبراهيم صحبة هاشم بن جعفر يوم 18 شوّال 405 هـ / 11 أفريل 1015 م[135]، ومعه 400 000 دينار ذهبًا وجميع ذخائره ورجاله وعبيده. «ولم يَعُقْهُ في ذلك عائق من نصير الدولة، وإلاّ فقد كان خروجه بأثقاله وجملة رجاله دليلاً على خلاف ما أظهر.

ثم أحسّ هاشم بن جعفر أنّه سيغدره إذا قرب من أخيه، فاعتذر له أنّ حاجةً بقيت له بباجة وعدل إلى طريقها، ووعده أن يلحقه سريعًا»[136].

---

131) النويري، 2/127 – 131. (وهو أهمّ مصدر)؛ البيان، 1/261؛ الكامل، 9/104 – 105؛ العبر، 6/158، 171 – 172؛ تاريخ أبي الفداء، 2/132 (أشار إلى الجمع والبيان لابن شدّاد)؛ أعمال، 461؛ ابن خلّكان، 1/87؛ بلدان، 1/303؛ منتخب، 63.

132) ذكر ابن عذاري (البيان، 1/261) غلطًا حمّاد بن سيف الدولة العزيز بالله (بلكّين)، عوضًا عن إبراهيم بن سيف الدولة العزيز بالله.

133) جاء في البيان: «هشام بن جعفر» عوض «هاشم» وقد استدرك المؤلّف فيما بعد وذكر مرتين متتاليتين «هاشم».

134) البيان، 1/261.

135) النويري.

136) البيان، 1/262.

فوصل إبراهيم إلى تامْديت التي تبعد عن الأربس مسيرة يومين، وكتب إلى حمّاد ليحيطه علمًا بمشاريعه. فقدم إليه حمّاد محفوفًا بثلاثين ألف فارس[137]، واجتمعت كلمتهما وخلعا أيديهما من الطاعة».

وبايع حمّاد العبّاسيّين واضطهد الشيعة[138]. ومن سوء الحظّ فانّنا نجهل ظروف هذه العمليّة السياسيّة الدينيّة وأبعادها.

«ووصل باديس في الخامس[139] من ذي الحجّة 405 هـ (27 ماي 1015م) ووضع العطاء لعساكره، وأخرج عياله وأثقاله وأخته السيّدة أمّ ملال وأولاده وعبيده إلى المهديّة». ثم رجع إلى المنصوريّة، حسب الاحتمال، في السابع من نفس الشهر.

«وأمر بالقبض على يوسف بن أبي حبوس واخوته[140]. وكان نصير الدولة لم يمض له يوم من الأيّام إلاّ جدّد عليه كرامةً وإحسانًا. ولا كان يُهْدَى إليه فرس أو ثوب من ثياب الخلافة إلاّ آثره بذلك على نفسه، مع ما حمل له من الضياع والرباع بكلّ كورة [إقليم] من كوَر إفريقيّة. وما زال يرفع من قدره ويزيد في التنويه بذكره حتى نال من أعلى المراتب ما لم يَنَلْه بعيدٌ ولا قريب، وسَمَا من رفيع الدرجات ما لم يَسْمُ له حميم ولا نسيب، وكان — والله أعلم — تسوّل له نفسه الفتكَ بالأمير نصير الدولة. فتقرّر ذلك عند نصير الدولة، فقبض عليه. وكان في قَبْضِهِ عليه ما أَوْهَنَ به كَيْدَ الأعداء»[141].

وقبل ذلك بسنتَيْن، أي في سنة 403 هـ/ 23 جويلية 1012 — 12 جويلية 1013م «عزل نصير الدولة يوسف بن أبي حبوس الصنهاجي عن أمر الجيش وغيره»[142].

ويبدو أنّ الشخص المذكور هو أحد أعمام والد باديس وشقيق حمّاد. وهذا ما يفسّر ما حظي به من اعتبار في أوّل الأمر ثم اعتقاله هو وإخوانه فيما بعد، وما سلّط عليه باديس من عقوبة قاسية إثر انهزام حمّاد.

ورحل باديس ثاني عيد الأضحى (11 ذو الحجة 405 هـ/ 2 جوان 1015م) للقيام بحملة عسكريّة في المغرب الأوسط. وكان قد كتب إلى هاشم بن جعفر يأمره بالتحصّن في

137) لا شكّ أنّ هذا الرقم مبالغ فيه.
138) العبر، 171/6.
139) في البيان، 262/1: «السابع من ذي الحجّة».
140) البيان هو المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذه القضيّة.
141) البيان، 262/1.
142) نفس المرجع، 260/1.

قلعة شقنبارية (الكاف) فامتثل هاشم لهذا الأمر.

«ورحل حمّاد وأخوه إبراهيم إلى هاشم بن جعفر والعسكر الذين معه. فكان بينهم حرب انهزم ابن جعفر ولجأ إلى باجة وغنم حمّاد مالَه وعُدَدَه»[143].

فرحل باديس إلى مكان يقال له قبر الشهيد حيث استقبل في صدر المحرّم سنة 406هـ / أواخر جوان 1015م جمعًا كبيرًا من جنود عمّه حمّاد، أتوه لتقديم شواهد الطاعة. كما جاءه لنفس الغرض عزم وفلفل ابنا حسّون بن سنون وماكسن بن بلكّين[144] وعدنان بن مُعْصَم، فخلع عليهم وأَحْسَنَ إليهم. ثم تسلّم من يدَيْ مغنين الوتلكاتي[145] رسالة من حمّاد يؤكّد فيها: «أنّه ما فارق الجماعة ولا خرج عن الطاعة»، ويعلمه بأنّه أعدّ هدية إلى المنصور بن باديس تشتمل بالخصوص على أَلفَيْ فرس. كما وجّه إليه إبراهيم رسالة في نفس المعنى. ولكن بالرغم من هذه الكلمات المعسولة، تمادى المتمرّدان في «سفك الدماء وقتل الأطفال وإحراق الزروع والمساكن وسبي النساء».

ووصل حمّاد إلى باجة فطلب أهلها منه الأمان، فأمّنهم واطمأنّوا إلى عهده، فدخلها يقتل وينهب ويحرق ويأخذ الأموال»[146]. ويبدو أنّ هذه التصرّفات قد تسبّبت في انضمام عدد كبير من أنصار حمّاد إلى باديس.

وفي أوائل صفر 406هـ / أواخر جويلية 1015م وصل باديس إلى تامديت. كما قدم إليها حمّاد على رأس ثلاثين ألف فارس[147]، بقطع النظر عن المشاة والجنود الذين انضمّوا إلى باديس، ولم تعد تفصله عن المدينة سوى مرحلة واحدة.

«وفي تامديت وردت على باديس الأخبار بوفاة ولده المنصور عزيز الدولة. وذلك أنّه كان في حين حركته إلى المهديّة عرضت له حمّى وظهر به جدري، فأقام سبعة عشر يومًا وتوفّي. فكُتِمَ عن نصير الدولة أمره خَوْفًا أن يبدو منه جزع، يكون فيه وهنًا على الدولة فيما هو بسبيله من مقابلة عدوّه. فبلغ خبره إبراهيمَ وحمّادًا فبعثا إليه وقالا له: «إنّ ولدك الذي طلبتَ له ما طلبت قد توفّي!». فما ضعضعه ذلك ولا أَوْهَنَه. وكتب إلى السيّدة [أمّ ملال] يسألها عن ذلك»[148].

---

143) **الكامل**، 104/9.

144) لعلّه عمّ باديس بن المنصور بن بلكّين.

145) لعلّه عمّ والد باديس: مغنين بن زيري.

146) **الكامل**، لا غير.

147) رقم مبالغ فيه، حسبما يبدو.

148) **البيان**، 263/1.

ويُفْهَم من هذه الرواية بدون أدنى شكّ أنّ باديس قد تلقّى في تامديت الردّ على رسالة كان قد وجّهها قبل ذلك. لأنّه لم يمكث في تلك المدينة الوقت اللاّزم لرحيل رسول من تامديت إلى المهديّة، ذهابًا وإيابًا.

«وقد ورد كتاب السيّدة بوفاته والتعزية عنه، وتَصِف سلامة المعزّ وحسن حاله. فكان صبر نصير الدولة وحسن عزائه ما كَثُرَ التعجّب به. وجلس مجلسًا عامًّا للعزاء (يوم 5 صفر 406 هـ/ 25 جويلية 1015م)، فكان لا يرى من أحد جزعًا وبكاء إلاّ سلاّه وهوّن عليه، فزاد ذلك سرورًا لإوليائه وكمدًا لحَسَدَته وأعدائه»[149].

ومن الغد، 6 صفر/26 جويلية رحل باديس من تامديت متوجّهًا إلى دكمة[150]. وهناك التحق به جمع من أنصار حمّاد يضمّ عددًا من الأقارب ورجال الحاشية وكبار رجال الدولة. كما تلقّى خطابًا من عامل أشير خلف الحِمْيري، الذي كان أشدّ أنصار حمّاد تحمّسًا وكان يحبّه أكثر من ابنه، يخبر فيه باديس بأنّه صار في طاعته، وأنه قد منع حمّاد من دخول مدينة أشير للتحصّن فيها. فوهنت عزيمة حمّاد الذي كان يعلّق آمالاً عريضة على مناعة ذلك الحصن الحصين، وتحوّل إلى تاهرت.

وحسب ابن خلدون[151]، انفصل عن حمّاد بنو أبي والليل الزناتيّون، أصحاب مدينة مقرة التي تقع على بعد 40 كيلومترًا شرقي المسيلة، وبنو حسن الصنهاجيّون، وبنو يطّوفت وبنو غمرت الزناتيّون، وكلّ أنصاره تقريبًا. كما تسلّم رئيس قبيلة بني غمرت الذي انضمّ إلى باديس هدايا ثمينة وعددًا من الدوابّ لتوزيعها على الرجال الذين التحقوا به، وتحصّل على ولاية طبنة وأعمالها. واضطرّ حمّاد إلى الفرار إلى أن وصل إلى شلف بني واطيل.

ووصل باديس إلى المحمّدية (المسيلة) يوم الجمعة 2 ربيع الأوّل 406هـ/ 20 أوت 1015م[152]، «فتلقّاه أهلها داعين شاكرين على ما منحهم من العدل والأمان وكشف عنهم الجور والعدوان. فأقام بها ستة أيّام»[153]. ثم اتجه إلى القلعة ولكنه قفل راجعًا إلى المسيلة، حسب الاحتمال، بدون قتال. وسيّر إلى «المدينة التي أحدثها حمّاد» (أي القلعة) جيشًا عتيدًا بقيادة أخيه كرامة الذي خرّب قصورها ودُوَرها، جزاء ما اقترفه حمّاد وأخوه إبراهيم من

(149) نفس المرجع.
(150) البكري، 54 والإدريسي، 120.
(151) العبر، 6/171 – 172.
(152) النويري، 2/129، نظريًّا يوم السبت.
(153) البيان، 1/263.

أعمال ، وذلك دون نهبٍ أو سفكٍ للدّماء . فقام إبراهيم الذي تحصّن لا محالة في قسم من القلعة ، بهدم القصور الموجودة خارج المدينة ، خوفاً من أن تسقط بين يدي كرامة . «وهرب إلى باديس جماعة كثيرة من جند القلعة ، فأخذ إبراهيم أبناءهم وذبحهم على صدور أمّهاتهم ، ولمّا فرغ من الأطفال قتل الأمّهات»(154).

وحسب ابن خلدون(155) ، استولى باديس على أشِير ، وقد فرّ منها إبراهيم ، ثم أخذ في مطاردة حمّاد . وأثناء توقّفه في وادي الطين ، استسلمت إليه قبيلة زناتية كبيرة ، هي قبيلة بني توجين . ذلك أنّ أميرها عطية دافلتن قد حرص على أخذ ثأر والده الذي قتله حمّاد ، واقتفى أثره ابن عمّه يدّار بن لقمان بن المعتزّ . فكافأ باديس هذين القائدين أحسن مكافأة وقَبِل المساعدة التي اقترحا تقديمها إليه . وقد أمدّنا المؤرّخ الرقيق(156) بمعلومات مفيدة حول انضمام بني توجين إلى باديس . فأخبرنا أنّ باديس ، لمّا وصل إلى ضفاف وادي شَلَف استدرج بني توجين الذين كانوا قد ساندوا حمّاد بشجاعة نادرة وجنّدوا 3000 رجل بقيادة عطيّة بن دافلتن وابن عمّه لقمان بن المعتزّ الذي كان يتمتّع بأكبر نفوذ . وقبل اندلاع المعركة وجّه ابنه يدّار إلى باديس لإعلامه بانضمام بني توجين إلى صفّه . ويمكن أن نستخلص من ذلك أنّ بني توجين وعلى رأسهم قائدهم لقمان بن المعتزّ لم يتخلّوا عن حمّاد إلاّ أثناء المعركة ، حسب مخطّط مدبّر من قبل ، بالاتّفاق بين باديس وقائِدَيْهما .

ولقد عبر باديس وادي شَلَف ومرّ بدون شكّ أمام سفح جبل الونشريس وسرسو ، دون أن يجتاز وادي واصل ، حسبما يبدو ، وأقام معسكره على ضفاف ذلك النهر في مستوى أدنى مرتفعات جبل غزول . وفي العدوة الأخرى من النهر العميق والممتلئ ، وقف حمّاد مستنداً إلى جبل بني واطيل(157) الوَعْر ، وأخذ الخصمان يستعدّان للقتال .

«فبات باديس على تحفّظ واحتراس ، ولمّا كان في غَدِ نزوله (صبيحة يوم الأحد غرّة جمادى الأولى 406 هـ / 17 أكتوبر 1015م)(158) ، برز في عساكره ومشى عليها ورتّبها وأقام كلّ قائد من قوّاده في مركزه» .

---

(154) الكامل .

(155) العبر ، 172/6 .

(156) استشهد به ابن خلدون .

(157) النويري : «وطين» .

(158) نفس المرجع ، 130/2 ، نظريًّا يوم الاثنين .

ويبدو أنّ حمّادًا لم يكن ينتظر إقدام العدوّ على مواجهة تيّار النهر في ذلك اليوم. فهل سهر كما ينبغي على حراسة جميع المجازات الممكن سلوكها؟ أم أنّه أهمل بعض تلك المجازات؟ ومهما يكن من أمر فقد تقدّم باديس على صهوة جواده وعبر النهر متبوعًا بفرسانه، في حين اجتاز المشاة ذلك النهر بواسطة السباحة، وقد تمّ ذلك في لمح البصر بدون أيّ اعتراض من طرف العدوّ. «ولمّا تقابل الفريقان وتراءى الجمعان اندلعت المعركة. ووطّن أصحاب باديس أنفسهم على الصبر أو الموت لِمَا كان حمّاد يفعله لمن يظفر به، واختلط الناس بعضهم ببعض وكثر القتل». فانفصل عن حمّاد أغلب أنصاره ولا سيما بنو توجين، وانضمّوا إلى باديس. وانهزم حمّاد بعدما تخلّى عنه جميع رجاله، ولاذ بالفرار متّجهًا إلى قلعة مغيلة[159]، بعدما قتل نساءه بيدَيْه.

«وغنم عسكر باديس أثقاله وأمواله، وفي جملة ما غنم منه عشرة آلاف درقة مختارة لَمَط[160]. ولولا اشتغال العسكر بالنهب لأُخِذَ حمّاد أسيرًا».

وكافأ باديس بني توجين الذين ساهموا مساهمة فعّالة في إحراز ذلك النصر. فسمح لهم بامتلاك جميع غنائم ذلك اليوم المشهود. وأقرّ لقمان بن المعتزّ في قيادة قبيلته وكلّ المناطق التابعة لها. كما رخّص له في الاحتفاظ بجميع الأراضي التي يتمكّن من الاستيلاء عليها أثناء المعارك التي سيخوضها لحساب ابن زيري. وستنتقل فيما بعد رئاسة قبيلة بني توجين بتمامها وكمالها إلى ذرّية دافلتن. ولعلّ ابن خلدون قد بالغ في تقدير الغنائم التي منحها الأمير لبني توجين. ولكنه أثبت الدور الذي قام به أولئك الجنود المساعدون لتمكين باديس من الانتصار[161].

وقد جاء في **البيان المغرب** حول أهمّيّة تلك الغنائم ما يلي: «ووُجِدَ رقعتان فيهما: «إنّ الذي عند القائد فلان صندوق فيه خمسون ألف دينار وسبعمائة، ومن الورق ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، ومن الأمتعة خمسون صندوقًا، غير ما كان في بيت حمّاد وخزائنه»[162].

ثم أضاف صاحب **البيان** هذا التوضيح المنقول عن أبي اسحاق الرقيق، والذي يدلّ على أنّ مؤرّخ باديس كان حاضرًا في تلك المعركة، ممّا يفسّر التفاصيل الواردة في شأنها في مصادرنا:

---

159) ربّما هي قلعة مغيلة دلول شمال تاهرت، البكري، 69.

160) [لَمَط: جلد الظبي]:

161) البربر، 5/4.

162) **البيان**، 263/1 – 264.

«قال أبو إسحاق : وُجِد رجلٌ بين يديه بغل يسوقه ، ففتّشه بعض الوصفان بين أيدينا ، فوجد في حشو برذعته وصوفها ثمانية آلاف دينار ومثل هذا ما لا يحصى كثرة. وعرضت لي أبياتٌ بعد أن صعدنا من الوادي ، وقد لقينا به مشقّة شديدة ، غير أنّ حلاوة الظفر والفوز بالسّلامة أنسى ذلك وهي :

[بسيط]

لم أنْسَ يومًا بشَلَفٍ رَاعَ منظرُه — وقد تضايق ملتقى الحَدَقِ
والخيل تعبر بالهامات خائضة — من سافح الدم مجرى. قانئُ الفَلَقِ
والبيضُ في ظُلُمات النَّقْع بارقةٌ — مِثْلَ النجوم تَهَاوَتْ في دُجَى الغَسَقِ
وقد بدا مُعلما باديسُ مُشْتهرًا — كالشمس في الجوّ لا يخفى عن الحَدَقِ
وإنّ راحتَه لو .فاض نائلُها — وبَأْسُهَا في الورى أشفوا على الغَرَقِ
تَجْلُو عِمامتُه الحمراء غُرّتَه — كأنّه قَمَرٌ في حُمْرَةَ الشَّفَقِ
لو صُوِّرَ الموتُ شخصًا ثم قيل له — «أبو مَنَادٍ تَبَدَّى ، ماتَ من فَرَقِ»[163]

«وأمّا نصير الدولة ، فيوم هزيمة حمّاد ، أخرج بكّار بن جلالة الوتلكاتي وكان قد أُخِذَ أسيرًا ، وكان بكّار كثيرًا ما ينطلق به لسانُه. وكان يوسف بن أبي حبوس معتقلاً أيضًا عند نصير الدولة ، فأُخرج بكّار بمحضر يوسف ، وحُلِقَت لحيته ، ويوسف ينظر إليه. ثم أمر : فحُلِقَت لحية يوسف ، فصارا مُثْلةً في العالم.

قال الرقيق : لمّا عاينّا يوسف ، وقد حلقت لحيته ، تحدّثنا سرًّا بيننا وقلنا : «قد كنّا نرجو ليوسف الحياة ، لأنّ الملوك تعفو بعد العقوبة ! وأما المثلة فما نرى أنّ بعدها إبقاء ! » فلمحنا نصير الدولة وقال : «ما خضتما فيه؟» ، فصدقناه سرًّا ، فقال : «ما أبعدتّما ! » وبعد ثلاث أمر بإحضاره ، فعدّد عليه مساوئ أفعاله وقبائح أعماله ، ثم أمر به ، فجُدِع أنفه وقُطِعَت أذنه ، ورُفِع من بين يديه. ثم أعيد إليه ، فقُطِعت يداه جميعًا. ثم أمر به إلى موضع اعتقاله ، فبات مُشحّطًا في دمائه. فحكى بعض الحرس أنّه سمعه يرغب أخاه أن يذبحه ويريحه خِيفَةَ أن يُخرَج من الغد ويُزاد في عذابه أمام أعدائه. فقال له أخوه : «اصبر على قضاء الله وقدره ! » فقال لبعض الحرس : «خُذ بيدي أخرج لقضاء الحاجة» ، فأخذ بيده ووقف ، فضرب ضربة عظيمة بجبهته في عمود ، فذَرَت منها عيناه ، وجرى دماغه وخرّ إلى الأرض ميّتًا.

---

163) نفس المرجع ، 264/1.

ورحل نصير الدولة من وادي شَلَف. قال الرقيق : ومن عجيب ما سمعناه عن مناخ وادي شَلَف أنّ شيخًا كبيرًا من البربر حدّثنا أنه يُعْرَف بوادي المِحَن ، وأخذ يذكر لنا مَن هُزِم فيه ومَن قُتِلَ فيه من ملوك زناتة. وكنّا على ظهر الطريق ، فلم نكتب ذلك ، إلى أن قال : آخر من مات فيه زيري بن عطيّة ، وآخر من هُزِم فيه حمّاد ، وبه قتل يوسف بن أبي حبوس ، وحُمِل منه مُعَادِلاً لأخيه ورجلاه باديتان ، ثم أمر به فدُفِنَ هناك»[164].

وحسب ابن خلدون[165] فإنّ المكناسيّين الذين كانوا قد تحالفوا مع بلكّين بعد انتصاره على بني خزر المغراويّين ، قد ظلّوا أوفياء لبني زيري. وقد توفّي أحد أمرائهم ، وهو إسماعيل بن البوني ، أثناء معركة وادي شَلَف.

«وأصبح نصير الدولة يوم الاثنين لِلَيْلَتَيْن خلتا من جمادى الأولى[166] (18 أكتوبر 1015) ، فبعث في طلب حمّاد بن باديس بن سيف العزيز بالله ، وقد تحصّن في القلعة [قلعة مغيلة] مع أخيه ، فأقاما بها ثلاثة أيّام حتى استراحا وأراحا دوابّهما ومن كان معهما. فعرّفه إبراهيم بحاجته إلى الازدياد من الطعام والملح ، فخرج حمّاد في جميع من كان معه ومع أخيه ، فسار بهم حتى دخل مدينة دَكْمَة ، وقد كان نقم على أهلها ، وكان نصير الدولة في أثره ، فتصابَحَ أهلُ الموضع بساقته ، فاعترضهم بالسيف وقتل منهم ثلاثمائة رجل. فخرج إليهم أحمد بن أبي تَوْبة فقيه هذه المدينة وصالحها ، فخوّفه بالله ووعظه وقال له : «يا حمّاد ! إذا لاقيتَ الجموع هربت منها ، وإن قاومتكَ الجيوش فَرَرْتَ عنها ! وإنّما قدرتك وسلطانك على أسير يكون في يَدَيْك ، لا نَاصِرَ عليك ! » فلمّا سمع كلامه أمر بضرب عنقه. ووقف إليه شيخ صالح منها ، فقال له : «يا حمّاد ! اتّق الله ! فاني حججت حجّتَيْن ! » فقال له : «أنا أزيدك عليهما الشهادة» ، وأمر به فضُرِبت عنقه. ووقف إليه جماعة من التجّار المسافرين ، فقالوا له : «نحن قوم غرباء ، ولا ندري ما جنى أهل هذه المدينة عليك». فقال لهم : «اجتَمِعوا وأنا أعرّفكم». ودخل معهم غيرهم ممّن طمع في الخلاص معهم. فلمّا وصلوا إليه ، أمر بهم ، فضُرِبت رقابهم أجمعين. وأخذ جميع ما كان بتلك المدينة من طعام وملح ، وعاد به إلى قلعته»[167].

---

164) نفس المرجع ، 265/1 – 266.

165) **العبر** ، 271/1.

166) في الكامل ، اليوم التاسع.

167) **البيان** ، 264/1 – 265. أطلِق على حمّاد غلطًا اسم «حمّاد بن باديس بن سيف العزيز بالله !.

وفي الأثناء واصل باديس طريقه نحو الشرق. فوصل إلى المحمّدية (المسيلة) يوم 28 جمادى الأولى 406 هـ / 13 نوفمبر 1015 م[168]. فاستقبل مبعوثًا من قِبَل عمّه إبراهيم مُكَلَّفًا بتقديم اعتذارات المتمرّد الذي اعترف بأنه أخطأ والتذكير بما أدّاه حمّاد من خدمات إلى أسرة بني زيري. ألم يسهر على الدفاع عن الحدود الغربيّة والذّود عن الدولة، تمامًا كما ساند القائد الذائع الصّيت الحجّاج بن يوسف بني أميّة؟ كمّا تلقّى باديس رسائل أخرى تتضمّن اعتذارات إبراهيم وحمّاد. ومن المحتمل أن يكون باديس قد تهرّب من الجواب واشترط شروطًا اعتبرها خصمه مجحفة، كالاستسلام بدون قيد ولا شرط.

ومهما يكن من أمر فإنّه قد ترك جيشه في القلعة التي أحاط بها من كلّ جانب ووزّع المال على الجنود، فأعطى لكلّ واحد 500 أو 1000 أو 2000 دينار. والغالب على الظنّ أنّ تلك العطايا كانت ترمي إلى تحريض جنود العدوّ على التخلّي عنه. وقد قيل لنا إنّ تلك الخطّة قد أحرجت حمّادًا الذي انفصل عنه قسم من جيشه. وقد تسبّل حصار القلعة في نقص موادّ التموين وارتفاع الأسعار.

وأخيرًا فإنّ موت ورّو بن سعيد والخلاف الذي ترتّب عليه بين أنصار خليفة بن ورّو وأنصار خزرون بن سعيد، قد بدّدا الآمال التي علّقها حمّاد على انتصار الزناتيّين في إفريقيّة واضطرار باديس إلى التوجّه إليهم لمحاربتهم. وقد كذب حمّاد على رجاله وحرّر وثائق مزيّفة تزعم أنّ باديس قد قرّر الرجوع إلى إفريقيّة. كما أكّد اتصاله برسائل من الأمير تتضمّن الدعوة إلى الصّلح.

وقد دام حصار القلعة ستة أشهر. وتلقّى باديس إمدادات تتمثّل في أعداد غفيرة من التلكاتيّين والصنهاجيّين وأصبح متيقّنًا من قدرته على الاستيلاء على القلعة واسترجاع المغرب الأوسط بأكمله.

«ولمّا كان يوم الثلاثاء لِلَيلَةٍ بقيت من ذي القعدة (29 ذي القعدة 406 هـ / 9 ماي 1016 م)[169]، أمر بالتمييز[170]. فبرز كلّ قائد في عسكره، وجلس نصير الدولة في القبّة[171] وأمر أيّوب بن يطوفت بالطّواف على العساكر وحسابها، وانتظره حتى فرغ من حسابها وعدّها. فجاءه فعرّفه بما سرّه وأبهجه وانصرف إلى قصره. ثم ركب عشيّة هذا

---

168) النويري.

169) **البيان**، النويري، نظريًّا يوم الأربعاء.

170) [التمييز : إحصاء الجنود].

171) ابن خلكان : «قبّة السلام».

اليوم ، وهو قد تناهى إقبالاً واستوى حسنًا وجمالاً ، فلعبوا بين يديه ، فكلّما هزّ رمحًا كسره وأخذ غيره ، ثم عاد إلى قصره أَفْسَحَ ما كان أملاً وأشدّ سرورًا وجذلاً ، فطعم وشرب مع خاصّته وقرابته ، فعاينوا من طربه ما لم يعهدوه منه . فلمّا مضى نحو النصف من ليلة الأربعاء انقضاء ذي القعدة[172] ، (30 ذو القعدة 406 هـ / 10 ماي 1016 م) ، قضى نحبه»[173] .

وكانت وفاته من أثر حصر البَوْل[174] ، وهو يبلغ من العمر أقلّ من 33 سنة[175] . وقد أنقذت هذه الوفاة الفجئيّة حمّادًا من الهلاك . ولولاها لما تمكّن من تأسيس دولة بني حمّاد ، على الأقلّ في ذلك الظرف بالذات .

الاضطرابات المناهضة للشيعة :

حسب ابن خلدون[176] ، لمّا شقّ حمّاد عصا الطاعة في وجه باديس سنة 405 هـ / 2 جويلية 1014 – 20 جوان 1015 م ، أعلن عن دخوله في طاعة العبّاسيّين ، وأمر بقتل الرافضة أي الشيعة ، وأعاد المذهب السنّي إلى مملكته ونطق بالعبارة التالية : «رضي الله عن الشيخَيْن» ، . وهما أبو بكر وعمر اللّذان شهّرا بهما الشيعة . واستولى عنوة على باجة ، وحثّ أهل السنّة على إبادة «المشارقة» والرافضة . وسنرى فيما يلي مدى صحّة هذه الادّعاءات .

فقد أشار ابن عذاري إلى الإجراء التالي الذي اتّخذه باديس ، ربّما قبل رحيله إلى المغرب الأوسط ، ذلك الإجراء الذي ينبغي تأويله على ضوء الاضطرابات السالفة الذكر .

«في سنة 405 هـ نادى مُنَادٍ في القيروان بانتقال من كان يسكن فيها من الصنهاجيّين إلى المنصوريّة . ثم نادى مُنَادٍ آخر بعد ذلك بإغلاق الحوانيت بالقيروان وفنادقها فأغلقت ، ولم يبق بها إلاّ بعض حوانيت الأحباس . وبلغ كراء حانوت بالمنصوريّة مائتَيْ درهم لبيع الكتّان ، وما سُمِعَ بذلك في كراء حانوت بالقيروان . فكان ذلك أوّل أسباب خرابها»[177] .

---

(172) **البيان** ، النويري ، نظريًا يوم الخميس . **أعمال** ، 454 – 455 : «لعشر ليالٍ بقين» . ربّما ينبغي قراءتها «مضين» . وحسب **المؤنس** ، 79 : «وأدركه أجله على طريق المحمّدية» .

(173) **البيان** ، 266/1 .

(174) **العبر** ، 172/6 : «بصرية» ، و 158/6 : «بمصرية» . والصحيح «بِحُصْرِيّة» أو «بِصَرْيَة» .

(175) النويري ، 132/2 – 133 : عندما توفّي باديس كان عمره 32 سنة وثمانية أشهر وبضعة أيّام ودام عهده 20 سنة وتسعة أشهر وأربعة أيّام .

(176) **العبر** ، 171/6 .

(177) **البيان** ، 261/1 .

ولا نرى ما يبرّر مثل هذا الإجراء سوى الاعتبارات السياسيّة. إذ يبدو أنّ باديس قد أمر بانسحاب الصنهاجيّين إلى المدينة الأميريّة، توقّعًا لحدوث اضطرابات مناهضة للشيعة.

ويُعْتَبَر كتاب **مناقب** محرز بن خلف[178]، حسبما بلغ إلى علمنا، الوثيقة الوحيدة التي أشارت إلى تقتيل الشيعة في مدينة تونس سنة 406هـ/ 1015–1016م. فقد قام محرز بن خلف بدور رئيسي في تلك الأحداث، حتى أنّ بعض الأخبار شبه التاريخيّة قد زعمت أنّ أحد مريدي الشيخ قد رآها في المنام[179] وقبل قتل «المشارقة» بقليل، نصح محرز بن خلف رجلاً فقيرًا كان يرغب في الزواج، برَهن قمح أحد أعيان الشيعة يقال له ابن العظيم، لتسديد نفقات زفافه.

وإثر ذلك تمّ تقتيل «المشارقة» ونَهْب مخازن الشخص المذكور، فاغتنم الرجل تلك الفرصة للاستحواذ على كميّة من القمح، استعمل بعضها لتسديد المال الذي اقترضه لزفافه وادّخر البعض الآخر.

وفي سنة 406هـ/ 1015–1016م قام محرز بن خلف في مدينة تونس بنفس الدور الذي سيقوم به أبو علي بن خلدون في القيروان في السنة الموالية. فقد شجّع الثائرين وأصدر حكم الإعدام على الشيعة، «فكان يُؤْتى بالرجل منهم إلى حضرته فيشهد عليه، فيُقتَل بشهادة الشيخ خاصّة، لا يحضر غيره من العُدول، أو يُتْرَك إذا لم يثبت عليه شيء».

وبعد ذلك ببضعة أيّام جدّت نفس الأحداث في باجة. ولكنّنا لا نستطيع التأكيد هل أنّها وقعت قبل أو بعد استيلاء حمّاد على تلك المدينة. فهناك فقرة غامضة في **مناقب** محرز بن خلف[180] تتحدّث عن وجود «السلطان» بالمغرب «وقتل المشارقة»، قبل الحوادث التي اندلعت في مدينة تونس. وفي ذلك إشارة، حسبما يبدو، إلى المجازر التي أمر بها حمّاد.

وإثر تلك الحوادث أشير على محرز بن خلف بإلحاح، بعدم الخروج من بيته لأداء الصلاة في الجامع، خوفًا على حياته.

وقد كلّف باديس يعلى بن فرج بالتوجّه إلى تونس لتسليط عقاب رادع على أهلها. فلمّا بلغهم هذا الخبر فكّر بعضهم في الرحيل عن طريق البحر صحبة محرز بن خلف، ربّما للالتجاء إلى منطقة قسنطينة التي كانت خاضعة لسلطة حمّاد. ولكن الشيخ رفض هذه الفكرة رفضًا باتًّا.

178) **مناقب** محرز بن خلف، تحقيق روجي الهادي إدريس، منشورات كلية الآداب بالجزائر، تونس 1959.

179) نفس المرجع، 307.

180) نفس المرجع، 390.

وقد أجاب أبو علي حسن بن خلدون شخصًا من أصيلي مدينة تونس كان يتردّد في الالتحاق بذويه الذين تركهم في تلك المدينة ، مؤكّدًا له أنّه بامكانه الرحيل إلى تونس ، وأنّ أهلها لا يخشون مكروهًا لانهم استجابوا لأوامر الله سبحانه وتعالى. أمّا الذين يحقّ لهم الخوف فعلاً ، فهم أهل القيروان الذين لم يفعلوا مثلهم. ولمّا علم محرز بذلك الجواب ، أشاد بفضل الشيخ القيرواني.

وعندما علم أهل تونس بواسطة الحمام الزاجل برحيل يعلى بن فرج ، أرسل محرز بن خلف إلى باديس بنفس الطريقة ، كتابًا جاء فيه ما يلي :

«قالت طائفة ليست من أهل العلم والكتاب أنّ أعيان تونس يؤخذون فيطلبون في أموالهم وأرواحهم وعلى السلطان النظر في ذلك. فاْحْذِرْ وزراء السّوء الذين يأكلون مالك ، ويقرّبون لحمك وعظمك إلى النّار ، وأنت على سفر ، فَخُذْ في الزاد ، والسلام على من اتّبع الهدى»(181).

ولمّا وصل الكتاب إلى أهل القيروان أحالوه على الأمير الذي أمر بقلع أسنان الوزير ، لأنّه اغتاب محرز بن خلف ، ثم أبلغ الكتاب إلى السيّدة زوجته.

«ولمّا وصل الكتاب إلى السيّدة علّقته عليها وكانت حاملاً. فقالت : لعلّ بركته تعود عليّ ، فعادت بركته عليها وولدت المعزّ بن باديس.

وكتب باديس من ساعته إلى تونس : قد عفا عنكم ببركة كتاب المؤدّب محرز بن خلف ، كتابًا إلى الرسول الذي بعثه ينتقم من المسلمين. فأعطاه الذي أتى بالكتاب وعلّقه على الحمام ، ووصل الحمام إلى تونس قبل وصول الرسول. فلمّا قدم الرسول بعث العامل إلى أهل المدينة ليعلمهم بما أمر به السلطان ، فأتوه والكتاب معهم ، فلمّا نظر العامل للكتاب سُقِط في يده وسرّح أمورهم ولم يعاقب أحدًا»(182).

ولا يخفى ما في هذه الرواية من تحريف ، إذ من المؤكّد أنّ ولادة المعزّ بن باديس قد سبقت مجازر سنة 406هـ بحوالي ثمانية أعوام.

ومن المعلوم أيضًا أنّ باديس قد منح بسجلّ بعض المزايا لتلامذة محرزُ بن خلف ، وبالخصوص الإعفاء من «المظالم» [أي الرّسوم]. كما أقرّ الامتيازات المسندة إلى الشيخ وأفراد عائلته ، ووسّع من نطاقها بمقتضى ظهير مؤرّخ في سنة 417هـ/ 1026 – 1027م.

---

181) نفس المرجع ، 311 – 312.

182) نفس المرجع ، 314 – 316.

وقد ورد نصّ ذلك الظهير في آخر كتاب **مناقب** محرز بن خلف[183].

وحسب رواية أسطوريّة نقلتها كثير من المصادر بنصوص مختلفة[184]، فإنّ باديس لم يقض نحبه بالمغرب الأوسط، بل في مدخل مدينة تونس.

وفيما يلي النصّ الأكثر تفصيلاً من نصوص تلك الرواية: «ولمّا عزم باديس على تونس ونوى تخريبها، يقال: جاءها وعسكره في أخبية منّ الحرير، ونزل غربي تونس بمكان يُعرَف بالحريريّة، ولأجل ذلك سُمّيت الحريريّة، وحين نزوله بها دعا خازنه ليأتي بسيوفه فاختار منها سيفًا وقال: غدًا أضرب به حتى ينكسر. فبلغ ذلك الشيخ محرز بن خلف، وكان بجبّانته، فلبس نعله وخرج من خلوته تجاه زاويته وصعد لمحلّ باب البنات إلى أن وقف غربيّ جامع الصفصافة، وهو المعروف بزاوية سيدي عبد الله الشريف، وبه ديوان الصالحين، فنظر إلى المحلّة ثم قال: تكون تونس ولا يكون باديس، ورجع. ثم إنّ باديس أخذ السيف الذي كان اختاره وجعله في حجره، وكان حدّه إلى فوق، وأخذ يتكلّم إلى أن أخذه النّعاس، وبقي يتساقط قليلاً، فلمّا أرادوا أن ينبّهوه وجدوه خرّ على حدّ السيف فنُحِرَ به. نعوذ بالله من الخسران. وكان ذبحه بيد الجنّ، لأنّ الأستاذ سيدي محرز – نفعنا الله به – كان يتصرّف في الفريقين الإنس والجنّ»[185].

وقد سبق أن رأينا أنّ يعلى بن فرج هو الذي كلّفه باديس بمعاقبة أهل تونس. فهل أنّ هذه الأسطورة تتعلّق بواقعة حقيقيّة، أي وفاة هذا القائد في مدخل مدينة تونس؟

* * *

لقد توفّي باديس في وقت مبكّر، وهو في أَوْج النشاط، قبل أن يظهر كلّ ما هو قادر عليه. فقد استبسل في محاربة الزناتيّين الموالين لبني أميّة، ولا سيما منهم المقيمين في المغرب الأوسط الذين تحالفوا مع أعمام والده المتمرّدين عليه، وأوشكوا على الانتصار، بل حتى تعريض إفريقيّة للخطر. ولولا مساعدة عمّه حمّاد بن بلكّين، لما استطاع إعادة الأمن إلى نصابه في غرب مملكته، لا سيما وأنّ الزناتيّين قد تمكّنوا في وقت مبكّر، وبمساعدة الفاطميّين أحيانًا، من فتح واجهة ثانية في جنوب إفريقيّة. وقد توفّي باديس قبل إرجاع الوضع إلى

183) نفس المرجع، 316 – 319، 325.

184) نفس المرجع، 326.

185) [الحلل السندسيّة، (طبعة بيروت)، 847/1].

نصابه في تلك المنطقة ، رغم جيوشه ودهائه . ذلك أنّ تعاظم قوة مؤسّس القلعة في المغرب الأوسط قد بلغ من الخطورة ما دفع باديس إلى حشد جميع قواه لمحاربة فلفل وورّو. وقد انتهت مدّة ولايته بالحملة العسكريّة التي انتصر فيها على حمّاد المتمرّد الذي خانه الصنهاجيّون وحلفاؤه الزناتيّون. ويمكن تفسير تلك الخيانة بمهارة باديس وسوء تدبير حمّاد وبخله الذي يرجع سببه إلى قلّة موارده بالمقارنة مع موارد ابن أخيه . أضف إلى ذلك أنّ حمّادًا ، بخروجه عن طاعة الفاطميّين ، ومبايعته للعبّاسيّين ، ربّما ارتكب خطأً فادحًا . وأقلّ ما يقال في هذا الشأن ، أنّ مثل هذا التصرّف ، لئن يبدو ملائمًا بالنسبة إلى إفريقيّة المالكيّة ، إلاّ أنّه لا يمكن أن يكون كذلك بالنسبة إلى المغرب الأوسط الذي يسيطر عليه الصنهاجيّون والكتاميّون الموالون للفاطميّين.

ومهما يكن من أمر فإنّ تغيّر موقف حمّاد على الصعيدين السياسي والديني ، والاضطرابات المناهضة للشيعة التي أثارها في تونس وباجة ، قد أبرزت حدّة المشكل الديني في إفريقيّة في ذلك التاريخ.

ومجمل القول ، كانت هناك ثلاثة مشاكل مطروحة في آخر سنة 406هـ / ماي – جوان 1016م :

– تواصل الخطر الزناتي في جنوب إفريقيّة.
– خطر الانشقاق المتوقّع بين بني حمّاد وبني زيري.
– بقاء بلاد المغرب السنيّة تابعة للدولة الفاطميّة ، بصعوبة متزايدة أكثر فأكثر.

الفصل الرابع
ملوك بني زيري الثلاثة الأوائل والبحر الأبيض المتوسّط[1]

إنّ بني زيري الذين هم من البربر العائشين في مناطق بريّة، قد شغلتهم حروبهم في المغرب، عن الاهتمام بالشؤون البحريّة، وذلك قبل أن تدفعهم الغزوة الهلاليّة نحو السواحل.

ذلك أنهم لمّا ارتقوا إلى الحكم، لم تعد البلاد الإسلاميّة تسيطر على البحر الأبيض المتوسّط، كما كان الأمر من قبل. إذ أنّ الأمبراطوريّة البيزنطيّة التي منع أسطولها المسلمين من السيطرة على الحوض الشرقي، قد شهدت في عهد المقدونيّين (867 – 1081) انتعاشة قويّة مكّنتها من تركيز سلطتها على البندقية ومدن إيطاليا الجنوبيّة. وكان النّصارى يتأهّبون لمواجهة المسلمين قصد وضع حدّ لسيطرتهم على الحوض الغربي، وقد تمكّنوا من انتزاع قاعدتين هامّتين من أيديهم، إقريتش في سنة 951م وفراكسنتوم في سنة 983م[2]، وهما بمثابة المركز المحصّن الذي كانت تنطلق منه الغزوات الإسلاميّة البحريّة في اتّجاه البروفانس، فتعيث فيها فسادًا. وبذلك انتهت الهيمنة العربيّة على الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وأصبح النّصارى منذ ذلك التاريخ يسيطرون عليه[3].

هذا وإنّ السلطة التي كانت تمارسها الأمبراطوريّة البيزنطيّة[4] من بعيد، وبصورة نظريّة، على البندقية وباري وسالرن وأمالفي ونابولي وغايتي، لم تكن تمثّل عائقًا كبيرًا في وجه العلاقات التجاريّة بين تلك الموانئ والموانئ الإسلاميّة. كما إنّ جنوة وبيزة اللتين كانتا عُرْضَةً للغارات الإسلاميّة المتعدّدة[5]، كانتا في انتظار ساعة الانتقام.

---

1) أنظر: جورج مارسي، **بلاد البربر الإسلاميّة**، 215 – 217.
2) **إسبانيا الإسلاميّة**، 2/154+ 160.
3) دي ماس لاتري، **المقدمة**، 7 ؛ ابن حوقل، 1/203 – 205.
4) حول وضع إيطاليا الجنوبيّة قبل وصول النّرمان، أنظر شالندون، 1/ص 1.
5) وبالخصوص نهب بيزة وجنوة حوالي 934 – 935 وبيزة في 1005 و1011، **ستوريا**، 2/398 والإحالة 1 ؛ اماري، **ديبلومي**، 15 – 17 ؛ هايد (Heyd)، 1/120 – 121 ؛ Lewis، *Naval Power*، 150، 194.

ومن ناحية أخرى، فقد بدأت الانتعاشة الاقتصاديّة تظهر في الغرب وتشجّع تنمية العلاقات التجاريّة الرابطة بين البحر الأدرياتيكي وإيطاليا الجنوبيّة من جهة وبين البسفور من جهة أخرى، والتي أثْرَت البندقية منذ أواخر القرن العاشر. والجدير بالتذكير في هذا الصدد أنّ البندقية قد منعت تجّارها في سنة 971م من تصدير الموادّ ذات الصبغة الاستراتيجيّة، مثل الأسلحة والخشب المستعمل في صناعة السفن، إلى البلدان الإسلاميّة، باستثناء ألواح خشب الدردار أو الصفصاف، التي يتجاوز طولها خمسة أقدام وأدوات الطبخ الخشبيّة ومسادي الحياكة، وذلك وفقًا لروح التعليمات البابويّة، وبالخصوص استجابةً لطلبات الامبراطوريّة البيزنطيّة التي هي في حرب مع المسلمين. وقد طُبِّق هذا الإجراء فَوْرًا على ثلاث سفن كانت على وشك الإقلاع، الأولى والثانية في اتّجاه المهديّة والثالثة في اتّجاه طرابلس الغرب[6].

وتعطينا هذه الواقعة فكرة عن أهمّية التجارة البحريّة التي كانت تمثّل عاملاً أساسيًّا من عوامل الغزو الفاطمي للبلاد المصريّة، ولا بدّ أنها قد تواصلت بعد ذلك في الخفاء.

وفي سنة 992م تحصّل حاكم البندقية (الدوج) من الامبراطور البيزنطي على مرسوم يمنح مدينته من المزايا ما يجعل من المستحيل مواصلة المنافسة التي كانت تقوم بها ضدّها أمالفي وباري في الشرق البيزنطي.

وفي نفس ذلك التاريخ نجح السفراء البنادقة العاملون في حلب ودمشق والقاهرة والقيروان وبالرمو، في تمكين رعاياهم المقيمين في تلك المدن من عدّة ضمانات حسب الأصول[7].

وبالتعاون مع البندقية تمكّن أسطول بيزنطي من إجلاء المسلمين من باري سنة 1002م[8]. ومنذ استيلاء البيزنطيّين على دورازو سنة 1005م، أصبح من الصعب أكثر فأكثر على الأساطيل الإسلاميّة دخول البحر الأدرياتيكي[9].

ولا شكّ أنّ مدينة أمالفي التي كانت لها علاقات تجاريّة هامّة مع مصر، لم تغفل عن

---

6) هايد (Heyd)، 113/1؛ شوب (Schaube)، 21 – 22؛ لاتري، **المقدمة**، 11 – 12.

7) لاتري، **المقدمة**، 12؛ هايد (Heyd)، 114/1؛ شوب (Schaube)، 21 – 22؛ لاكور (Lacour-Gayet) 205/2 – 206؛ بيران، **التاريخ الاقتصادي**، 174.

8) بيران، نفس المرجع، 173.

9) شالندون، 39/1.

إفريقيّة ، رغم انعدام الوثائق المؤيّدة لهذا الافتراض ، بالنسبة إلى القرن العاشر[10].

وأمّا مجاهد الموفّق بالله أمير دانية ، فإنّ أسطوله الذي كان أقوى أسطول في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، كان ينشر الرعب في سواحل قطلونيا والبروفانس وإيطاليا[11]. وقد تمكّن هذا الأمير التابع لجزر البليار من الاستقرار في جزيرة سردانية سنة 406هـ/ 1015م. ولكنّ أهل بيزة المتحالفين مع الجنويّين أطردوه منها في السنة الموالية ، استجابةً لتعليمات بابويّة[12].

ورغم سكوت الوثائق ، سواء منها العربيّة أو المسيحيّة ، بسبب ضعف الوسائل المستعملة وقلّة انتظامها ، يمكننا أن نؤكّد أنّ جهاد الإفريقيّين في البحر ، سواء على المستوى الدّولي أو على المستوى الفردي ، كان نشيطًا شيئًا ما في أيّام بلكّين والمنصور وباديس. ذلك أنّ كثافة هذا النشاط في العصر العُبَيْدي وفي عهد المعزّ بن باديس ، تجعل ذلك الافتراض من الأمور المُحتمَلة ، لا سيما وأنّ العلاقات البحريّة المتينة بين مصر وصقليّة لم تفتر طوال تلك المدّة ، حسبما يبدو.

أمّا في عهد الأمراء الصنهاجيّين الذين سبقوا المعزّ بن باديس ، فإنّ المصادر لم تذكر سوى محاولة واحدة لم تسفر عن أيّ نتيجة.

«في ذي الحجّة من سنة 365هـ [أوت 976م) أمر أبو الفتوح [بلكّين] العاملَ على إفريقيّة واليه عبد الله بن محمّد الكاتب أن يقيم أسطولاً بالمهديّة بِعُدَّةٍ من الرجال والسلاح. فخرج عبد الله إلى المهديّة وأخذ في حشد البحريّين في كلّ بلدة ، وأمر أن يُؤْخَذ كلّ من لُقِيَ منهم بالقيروان وغيرها وملأ بهم السجون. وأدرك خاصّةَ البلد وعامّتهم من الخوف ما لزموا له البيوت ، وانتهى حالهم إلى أنه إذا مات أحدٌ عندهم لا يُخرِجه إلاّ النساء»[13].

وهذه التفاصيل المدهشة ، لئن تبدو من الأمور المُبالَغ فيها ، إلاّ أنّه من الجدير بالتذكير أنّ نظام الحشد أو التجنيد الإجباري كان يمثّل القاعدة في عهد الأغالبة

10) هايد (Heyd) ، 107/1 ؛ شوب (Schaube) ، 32 – 33.

11) ليفي بروفنسال ، **إسبانيا الإسلاميّة في القرن العاشر** ، 154 ؛ دائرة المعارف الإسلاميّة ، 666/3.

12) **دائرة المعارف الإسلاميّة** ، 666/9 ؛ لاتري ، **المقدمة** ، 9 ؛ **البيان** ، 116/3 ، 155 – 158 ؛ **أدباء** ، 80/17 – 81 ؛ **العبر** ، **التكملة** ، 2 عدد 1735 ؛ **الحميدي** عدد 829 ص 331 – 332 ؛ برنو (Pernoud) ، **تاريخ التجارة في مرسيليا** ، 129 – 130 ؛ بيران ، **التاريخ الاقتصادي** ، 182 – 184.

13) **البيان** ، 229/1 ؛ **مناقب** ، 240 – 241 ، الإحالة 118.

والفاطميّين. من ذلك أنّ خادمًا قد انطلق في عهد عُبَيْد الله على رأس فرقة من الجيش لحشد البحّارة وأهل زويلة»[14].

«وفي سنة 366هـ خرج الأسطول من المهديّة في أوّل المحرّم (30 أوت 976م)، فتعذّر الريح عليها، فأقاموا حتى فرغت أزوادهم وعدموا الماء، فهرب جميع من فيها من النواتيّة والبحريّة وصاروا إلى البرّ، فنهبوا ما في المركب من عُدَّة وسلاح وهربوا إلى كلّ ناحية، فجعل عبد الله الطلب عليهم، فمن ظُفِرَ به قُتِل»[15].

والجدير بالملاحظة أنّ هذه القضيّة الغامضة لم يشر إليها إلاّ ابن عذاري في **البيان**، بدون ذكر أيّ مرجع. وهناك فقرة في **مناقب** الجبنياني يبدو أنّها تشير إلى عمليّة حشد وقعت بإذن من عبد الله. وهي تثير لدينا عدّة تساؤلات. فهل كان بلكّين يخطّط لحملة ضدّ النّصارى، أو لعمليّة غزو في البحر، أو لعمليّة بحريّة ترمي إلى دعم معركة بريّة؟ ذلك أنّ المصدر المذكور لم يشر لا إلى عدد السفن التي يتركّب منها الأسطول ولا إلى عدد النوتيّة ولا إلى وجود جنود على متنها. ومن المستبعد أن يكون المعزّ لدين الله قد ترك أسطولاً على ذمة خليفته [في المهديّة]. ومن ناحية أخرى لا يُتَصَوَّر أن يكون عبد الله قد أعدّ أسطولاً في أقلّ من شهر. فيمكن أن نفترض أنّ الأمر يتعلّق بأسطول فاطمي، وأنّ العمليّة قد أوحت بها القاهرة ولم تكن تستجيب لرغبة ابن زيري، ولذلك وقع العدول عنها. ومن الممكن أيضًا أن يكون الخليفة الفاطمي في حاجة إلى بحّارة.

وأخيرًا، فإنّنا لا نجد في المصادر أيّ أثر لتدخّل إفريقيّة في شؤون صقليّة، قبل إرتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش[16].

---

14) **رياض النفوس** ص 70–93؛ إدريس، مجلة الدراسات الشرقية، 1935، 169–170.

15) **البيان**، 230/1.

16) لا يمكن أن نغفل عن الإشارة إلى أنّ جعفر بن محمد بن الحسين الذي انطلق من مصر ليتسلّم من جابر بن أبي القاسم بن حسن بن أبي الحسين، إمارة صقليّة، قد مرّ من إفريقيّة ووصل إلى المنصوريّة صحبة التركي سوبكتين يوم الأربعاء 24 صفر 373هـ / 5 جويلية 986م؛ **أعمال**، 478 (نظريًّا يوم الاثنين). أنظر أيضًا: **البيان**، 238/1.

البَاب الثَالِث

أوْجُ الدّولة الصّنهاجيّة ولاية المعزّ بن باديس من بداية عهده إلى غزوة بني هلال

نظرة عامّة

لقد بلغت إفريقيّة في عهد المعزّ بن باديس خلال الفترة الممتدّة من سنة 407 إلى سنة 422 هـ / 1016 – 1051م ، أوْج الازدهار، إلى درجة أنّ النّاس قد اعتقدوا أنّ تلك الحالة ستدوم عدّة قرون.

والمعزّ بن باديس هو أوّل أمير صنهاجي مولود بالمنصورية. وقد شعر من أوّل وهلة بما تتميّز به الدولة الصنهاجية من صبغة إفريقيّة خالصة، وذلك حسبما يبدو، بموافقة حاشية الأمير وأبناء قبيلته، وبالخصوص تحت ضغط الجماهير الشعبيّة بالقيروان.

وهكذا، فبعدما نجح في إخضاع حمّاد بن بلكّين لسلطته، أمضى معه اتفاقيّة صُلْح، تقضي بتسليم المغرب الأوسط بأسره إلى المتمرّد. واعتبارًا من ذلك التاريخ أصبحت مملكة بني حمّاد هي التي تتولّى حراسة التخوم الغربية للدولة الصنهاجية وحمايتها من أيّ عدوان زناتي. وسيحترم حمّاد إلى آخر رمق من حياته هذه الاتّفاقية التي تمّ تعزيزها بعدد من المصاهرات.

إلاّ أنّ خليفته القائد سينقضها سنة 432 هـ / 1040 – 1041م، ثمّ سيتصالح مع ابن عمّه أمير القيروان اعتبارًا من سنة 434 هـ / 1042 – 1043م.

ولم يعد الأمر يقتضي تسليم إفريقيّة إلى نائب للأمير، يتمتّع بسلطة شبه مطلقة. فممّا لا شكّ فيه أنّ مقتل محمّد بن الحسن (413 هـ / 1022م) كان يمثّل بداية حكم المعزّ الفردي، وقد عهد بمنصب الوزارة إلى الرجل الحازم أبي البهار بن خلوف الذي سيرى منه ما يرضيه.

ومن ناحية أخرى ، اضطرّ المعزّ عدّة مرّات إلى قمع اضطرابات الزناتيّين الذين كانوا يعيثون فسادًا في جنوب إفريقية. إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من إرسال الجيش إلى صقليّة ، ولو بدون طائل ، والحقّ يقال.

ولكنّ كلّ ذلك لم يكتسِ أهمّيّة فائقة بالنظر إلى الأزمة السياسية الدينية التي بلغت ذروتها عند ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش. فقد كان ظهور التعصّب الشعبي الذي تسبّب في تقتيل الشيعة بلا رحمة ، يعبّر عن طموحات الرأي العام المالكي المتلهّف على قطع دابر المذهب الشيعي في إفريقيّة.

وعندما هدأت الثورة التي تمّ قمعها بقسوة ، لم تكن العلاقات بين بني زيري والفاطميّين أحسن ممّا كانت عليه عهدئذٍ. وسوف لا تحصل القطيعة مع القاهرة ومبايعة الخليفة العبّاسي ببغداد ، إلاّ بعد ذلك التاريخ بنحو ثلاثين سنة.

الفصل الأوّل
الأمير المعزّ بن باديس

ارتقاء المعزّ إلى العرش[1] :

ما إن قضى باديس نحبه حتى «خرج الخادم في الوقت إلى حبيب بن أبي سعيد وباديس بن أبي حمامة وأيّوب بن يطّوفت ، وهم أكبر قوّاده ، فأعلمهم بوفاته . وكان بين حبيب وباديس بن حمامة عداوة ، فخرج حبيب مسرعًا إلى باديس ، وخرج باديس إليه أيضًا ، فالتقيا في الطريق . فقال كلّ واحد منهما لصاحبه : «قد عرفتَ الذي بيننا والأَوْلى أنّ نتّفق على إصلاح هذا الخلل ، فإذا انقضى رجعنا إلى المنافسة . فاجتمعا مع أيّوب وقالوا : إنّ العدوّ قريب منّا وصاحبنا بعيد عنّا ومتى لم نقدّم رأسًا نرجع إليه في أمورنا لم نأمن العدوّ ، ونحن نعلم مَيْلَ صنهاجة إلى المعزّ ، وغيرهم إلى كرامة بن المنصور أخي باديس[2] . فاجتمعوا على تولية كرامة ظاهرًا ، فإذا وصلوا إلى موضع الأمن ولّوْا المعزّ بن باديس ، وينقطع الشرّ . فأحضروا كرامة وبايعوه وولّوه في الحال وأصبحوا وليس عند أحد من العسكر من ذلك ، وعزموا أن يقولوا للنّاس بكرة : إنّ باديس قد شرب دواء» .

«فما شعروا أن خرج الخبر من مدينة المحمّدية بوفاة السلطان وأنّ أهلها أغلقوا أبوابهم وصعدوا إلى أسوارهم . فظهر ما لم يستطيعوا إخفاءه ، فكأنّما نودي في الناس بإشاعته . فاضطربت العساكر وماج بعضهم في بعض ، وخشوا من اختلاف الكلمة ، فاجتمع رأيهم على تقديم كرامة . فأخذ عليهم العهود ، وأمر بالكتب إلى بعض البلاد . فلما رأى ذلك عبيد نصير الدولة ، ومَن انضاف إليهم من سائر الحشم ، أنكروا ذلك وقالوا : إنما قدّمناه ليحوط الرجال ويحفظ الأموال ، حتى يدفع ذلك إلى مستحقّه المعزّ ابن مولانا نصير الدولة ! ومشى ليلاً بعضهم إلى بعض ، وتحالفوا على بيعة المعزّ . فلمّا تمّ لهم ما عقدوه ، أعلنوا به يوم السبت

1) **الكامل** ، 105/9 – 106 ؛ النويري ، 131/2 – 134 ؛ **البيان** ، 266/1 – 267 ؛ أبو الفداء ، **التاريخ** ، 180/2 ؛ **العبر** ، 158/6 ؛ **أعمال** ، 454 – 455 ؛ ابن خلّكان ، 87/1 – 105 ؛ **المؤنس** ، 79 – 80 ؛ مقديش ، **نزهة الأنظار** [الطبعة الجديدة 1988 ، 366/1] .

2) **الكامل** ، 105/9 ، وحسب النويري : «ونحن نعلم أنّ ميل تلكاتة وصنهاجة المغرب إلى كرامة بن المنصور أخي باديس» .

لثلاثٍ خلون من ذي الحجّة [13 ماي 1016م] وتحالفت العساكر على ذلك طائفة بعد طائفة ، واتفقت آراؤهم على خروج كرامة إلى أشير ليحشد قبائل صنهاجة وتلكّاتة ويعود بهم إلى المحمّدية»[3]. وقد سلّموا إليه لهذا الغرض 100 000 دينار ومجموعة من الأسلحة والأمتعة. فتحوّل إلى أشير يوم الأحد 4 ذي الحجّة 406هـ / 14 ماي 1016م.

«وفي يوم السبت بموافقة عيد الأضحى [10 ذو الحجّة 406هـ / 20 ماي 1016م] رحلت العساكر من المحمّدية بعد أن أضرموا النار في الأبنية والبيوت»[4]. «وسارت العساكر على تعبئة الزحف مقدّمة وساقة وقلبًا يقدمها التابوت وأمامه الطبول والجنائب والقباب»[5].

«فأشرف حمّاد على العساكر، وهي تمرّ كالسيل بين يدي التابوت، فقال لأخيه وخاصّته : مثل هؤلاء يخدم الملوك! وصلتُ أنا إلى إفريقيّة في ثلاثين ألف فارس ، ما منهم إلاّ من أحسنتُ إليه وأنعمتُ عليه ، فعدتُ إلى القلعة وما بقي معهم إلاّ أقلّ من ستمائة ، وأنا بين أظهرهم أُرْجى. وهذا ميّت أطاعه هؤلاء كما كان حيًّا»[6].

ثم تحوّل حمّاد إلى أشير فاستولى عليها على مرأى من كرامة[7]. وما إن بلغ نبأ وفاة باديس إلى المهديّة حتى بويع المعزّ بالإمارة ، يوم 21 أو 23 ذي الحجّة 406هـ / 31 ماي أو 2 جوان 1016م[8].

---

3) **البيان** ، 267/1 . ومرّة أخرى هناك فرق بيوم في المصادر (السبت عوض الأحد) ، إلاّ أنّ التواريخ الواردة في كتاب النويري و**الكامل** و**البيان** ، تبدو متجانسة تمام التجانس :

* ليلة الثلاثاء 29 ذو القعدة 406هـ : وفاة باديس ومؤامرة القوّاد الثلاثة الكبار.
* الأربعاء 30 ذو القعدة : إعلان كرامة الأوّل ومبايعته بدون إجماع.
* الخميس والجمعة 1 و2 ذو الحجّة 406هـ : توجيه الرسائل ، وغضب عبيد باديس ، التشاور بين حبيب بن سعيد والقوّاد المتمرّدين.
* ليلة الجمعة 2 ذو الحجّة : التفاوض بين الطرفين والمبايعة السرية.
* السبت 3 ذو الحجة : إعلان كرامة الثاني ومبايعته بالإجماع.
* الأحد 4 ذو الحجّة : انطلاق كرامة في اتّجاه أشير.
* السبت 10 ذو الحجّة : غادر العساكر المحمّدية حاملين تابوت باديس.

ومن ناحية أخرى ينبغي تعويض «المحمدية» بالمهديّة ، أي : «ويعود بهم إلى المهديّة».

4) **البيان** ، 268/1 .

5) النويري ، 133/2 .

6) **البيان** ، 267/1 .

7) **العبر** ، 172/6 ؛ **أعمال** ، 455 .

8) النويري ، 133/2 : «بويع المعزّ بالمهديّة يوم الاثنين لِسَبْعٍ بقين من ذي الحجة». **الكامل** لم يوضّح التاريخ. وأمّا **البيان** ، 267/1 فقد أشار إلى أنّ ولاية المعزّ كانت بالمهدية «وبيعته بها لتسعٍ بقين من ذي الحجّة ، لما وصل الخبر بوفاة=

وقد وُلِد المعزّ بالمنصوريّة يوم الخميس 5 جمادى الأولى 398 هـ / 17 جانفي 1008 م[9]، فكان عمره حين تولّى الإمارة أقلّ من 9 سنوات[10].

«ولما وصل الخبر بوفاة أبيه والسيّدة أمّ ملال [عمّته] بالمهديّة، خرج إليها [عامل القيروان] منصور بن رشيق وقاضي القيروان والمنصوريّة وشيوخها ومن كان بها من الصنهاجيّين، فعزّوها في أخيها. وخرج المعزّ بالبنود والطّبول، فنزل إليه الناس يهنّونه جميعًا، وبايعوه وهنّوه وعزّوه وابتهلوا بالدّعاء له. وعاد إلى قصره، ودخل الناس يهنّئون السيّدة بولايته، فصرف أهل القيروان والمنصوريّة، وبقي المعزّ بالمهديّة»[11].

والجدير بالملاحظة أنّ المصادر لم تُشِرْ إلى أرملة باديس التي عاشت حتى سنة 412 هـ / 1021 – 1022 م، ولا إلى أمّ المعزّ التي حضرت مع أخت الأمير أمّ العلوّ جنازة أمّ ملال في سنة 412 هـ / 1021 – 1022 م[12]. فهل كانتا بالفعل أميرتَيْن بربريّتَيْن؟ لا بدّ أنّ الاخباريّين قد بهرتهم الوصيّة على العرش الفاتنة، فحجبت عنهم بقيّة نساء الحريم ومن باب أولى وأحرى الجواري، ومن بينهنّ المرأتان المذكورتان أو واحدة منهما، حسب الاحتمال. ويمكن أن نستخلص من ذلك أن والدة المعزّ لم تكن من بين زوجات باديس الرسميّات.

= أبيه». وليس هناك إشارة ثابتة تمكّننا من الاختيار بين سبعة وتسعة اللذين كثيرًا ما يقع الخلط بينهما. ولا شكّ أنّ ابن عذاري قد أخطأ في **البيان**، 268/1 عندما قال: «وكان وصول العسكر إلى المهديّة لثمانٍ بقين من ذي الحجّة». في حين اتفق النويري و**الكامل** على تحديد تاريخ وصول العسكر إلى المهديّة بيوم 8 محرّم 407 هـ. فيمكن تصحيح ذلك الخبر بطريقتين اثنتين: إمّا «وكان وصول العسكر إلى المهديّة لثمانٍ بقين من محرّم» أو «وكان وصول **الخبر** (عوض العسكر) إلى المهديّة لثمانٍ بقين من ذي الحجّة». وإنّ التأويل الثاني من شأنه أن يؤكّد أن خبر وفاة باديس قد وصل إلى المهديّة يوم 22 ذو الحجّة 407 هـ وأنّ المعزّ قد بويع من الغد أي يوم 23 ذو الحجّة.

9) ابن خلكان، 105/2؛ مقديش [366/1]، نظريًّا يوم السبت. وحسب ابن عذاري (**البيان**، 295/1) «فقد وُلد سنة 399 هـ»، وفي **الكامل**، «وُلِد في جمادى الأولى سنة 398 هـ».

10) **البيان**، 268/1: «8 سنوات و4 أشهر»، وحسب نفس المصدر (273/1): ولي باديس «وهو ابن ثمانية أعوام، وقيل: ابن سبعة أعوام» وفي موضع آخر (295/1): «ولي الملك سنة 407 هـ وسنّه سبعة أعوام وشهران». وفي ذلك يقول ابن شرف:

لما انقضت من المئين أربـــعُ ... وبعــدها ستّ سنين تتبـــع
وأوّل العـــام الشريف السابـــع ... دار إليهـــا أيْمَن طوالِـــع

وفي **الكامل**: «8 أعوام و6 أشهر وبضعة أيام أو 11 عامًا». وفي **تاريخ أبي الفداء**: «11 أو 8 أعوام». وفي **الأعمال**: «وهو ابن 8 أعوام لما بويع يوم 3 ذو الحجّة 406 هـ».

11) **البيان**، 267/1.

12) نفس المرجع، 270/1 – 271.

ومن غريب الصّدف أنّ المعزّ هو أوّل من بويع بالإمارة في المهديّة ، من بين أمراء بني زيري[13] ، وأنّ تلك المدينة ستصبح فيما بعد ملاذه الأخير ومقرّ إقامة خلفائه التعيسي الحظّ .

وقد كان الأمير الصغير «يركبُ في كلّ يوم ويعود إلى قبّة السلام ، وينطعم الناس بين يديه وينصرف إلى قصره»[14] . وكان قدوم عساكر باديس إلى المنصوريّة يوم الاثنين 4 محرّم 407هـ / 13 جوان 1016م[15] ، ووصولهم إلى المهدية ثامن المحرّم[16] . ولا ندري هل تمّ الاستعراض الذي بايع أثناءه الجنود الأمير الصغير قبل أو بعد دفن باديس بالمهديّة . فقد مرّ العساكر من باب المهديّة أمام المعزّ الذي كان راكبًا صهوة جواده ، وعلى يساره حبيب بن سعيد ، وتقدّمت فرق الجيش الواحدة تلو الأخرى . «ووقف حبيب يعلمه بهم ويذكر له أسماءهم ويعرّفه بقوّادهم وأكابرهم»[17] . وكان الأمير يستفسر عن أحوالهم ويخصّهم بأحسن قبول . «وقد فرح الناس بما رأوا منه من العقل والنجابة وشمائل الكرم ، مع صغر السنّ ، وقابل كل إنسان بما يليق به» . وقد دامت هذه الاستقبالات ثلاثة أيّام .

وأخيرًا ، في مثل هذا الجوّ من الفرحة العارمة غادر المعزّ المهديّة ، «وكان دخوله المنصوريّة يوم الجمعة للنصف من محرّم (24 جوان 1016م)[18] . فدخل أجمل دخول ، وبين يديه البنود والطبول ، واحتلّ بقصره أفضل حلول ، وقد سُرَّ به الخاصّ والعامّ» .

ومن الغد[19] أدّى إلى القيروان تلك الزيارة المشهودة التي ستطبع مصيره بعلامة سوداء وستزجّ به طَوْعًا أو كرهًا في طريق رهيب .

واستدعى يوم السبت 19 صفر 407هـ / 28 جويلية 1016م[20] عامل طرابلس أبا عبد الله محمّد بن الحسن إلى البلاد ، ليتولّى «نظر» الجيش وإدارة البلاد ، بما في ذلك

---

13) **المؤنس** ، 80 .

14) **البيان** ، 267/1 .

15) **الكامل** والنويري . وحسب **المؤنس** ، 80 : «في أوّل المحرم وصل العسكر مع تابوت باديس» . فهل المقصود بذلك أوائل المحرم أو الوصول إلى إفريقية ؟ ومهما يكن من أمر فلا سبيل إلى تفضيل هذا المصدر المتأخر على المصدرَيْن السابقين .

16) **الكامل** والنويري .

17) حسب النويري : «البراقة» .

18) **البيان** ، 268/1 ، نظريًّا يوم الأحد ؛ **والكامل** .

19) **النويري** : السبت 16 محرم 407هـ ، نظريًّا يوم الاثنين .

20) نفس المرجع ، 136/2 .

مناطق قابس ونفزاوة وقسطيلية وقفصة ، وقد ولّى على كل منطقة عاملاً ، كما ولّى أيوب بن يطّوفت على بلاد المغرب بأسرها[21].

وصف المعزّ بن باديس[22] :

أشار ابن خلّكان[23] إلى أنّ المعزّ لم يُعرَف إلاّ بهذا اللّقب الفخري ، وهو لقب شبه خليفي حمله قبله أوّل خليفة فاطمي بمصر ، وهو المعزّ لدين الله واسمه معدّ . وقد حاول المعزّ عبثًا مطالعة الكتب واستفسار المغاربة ، فلم يظفر بحقيقة اسمه ./ ومن ناحية أخرى لاحظ ابن خلكان أنّ اسم «المعزّ» لا يمكن اعتباره لقبًا فخريًّا ، لأنه لم يحمله أيّ أمير آخر من أمراء بني زيري . ولكنّ هذا الادّعاء يثير الاستغراب ، لأنّ الخلفاء الفاطميّين قد أضفوا على المعزّ شرف الدولة وأسلافه ألقابًا فخريّة . ولعلّ المؤلف يقصد بذلك أنّه لم يطمح أيّ أمير من أمراء بني زيري في الخلافة ولم يحمل أيّ واحد منهم لقبًا خليفيًّا[24] . فهل كان يروق لأهل إفريقية المالكيّين أن يطلقوا على زعيم المذهب السنّي لقب المعزّ أو معزّ الدين وإغفال الاسم الآخر الذي كان يحمله؟ ولئن اعتبرنا أنّ الأخبار المنقولة إلينا كلّها ذات مصدر مالكي ورسمي ، فإنّنا نلاحظ أنّ الكتّاب والمؤلّفين الشيعة لم يسمّوا خليفة باديس إلاّ باسم المعزّ . فلو كان يحمل اسمًا آخر لما تأخّروا عن استعماله للتنديد بخيانته ، والحال أنّ سجلّ المستنصر[25] قد اكتفى بلعنة «ابن باديس» .

وأشار ابن خلّكان أيضًا إلى أنّه يجهل كنية المعزّ . ومع ذلك فإنّ المصادر التي بين أيدينا قد أضفت عليه كنية أبي تميم .

وفيما يتعلّق بأوصاف المعزّ فإنه كان «أسمر اللّون ، جميل الوجه ، جهير الصوت ، حسن الخلق» . وكان «رقيق القلب ، خاشعًا ، متجنّبًا لسفك الدماء إلاّ في حدّ ، حليمًا

---

21) جميع هذه التفاصيل أوردها النويري .

22) **البيان** ، 295/1 ، 296 ، 297 ، 298 ؛ **الكامل** ، 6/10 ؛ النويري ، 146/2 ؛ ابن خلكان ، 105/2 ؛ **شذرات** ، 294/3 ؛ **نجوم** ، 71/5 ؛ **المؤنس** ، 82 – 84 ؛ **بساط** ، 48 – 50 .

23) ابن خلكان ، 105/2 .

24) وحسب ابن حزم ، **نقط العروس** (ط 2 ، 77) : ربّما فكّر في ذلك .

25) أنظر الفصل الأول من الباب الرابع .

يتجاوز عن الذنوب العظام ، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه ، مكرمًا لأهل العلم ، كثير العطاء لهم ، كريمًا ».

كما كان «متوقّد الذهن ، حاضر الخاطر ، حاذقًا بطرائق الألحان[26] ، عالمًا بالمنثور والمنظوم من الكلام ». وكان كريمًا ، مستنيرًا ، يرعى الفنون والآداب ، وقد جلب إلى بلاده ثلّة من الشعراء ، في طليعتهم الشاعران الذائعا الصّيت : ابن رشيق وابن شرف.

خاطب المعزّ هذين الشاعرين قائلاً : «أريد أن تصنعا شعرًا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء ، فإني أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضًا به ، وكلّهنّ قارئات كاتبات ، فأحبّ أن أريهنّ هذا وأدّعي أنه قديم ، لأحتجّ به على من عابه وآسي به من عيّب عليه».

فاستجاب الشاعران في الحين لهذا الطلب ، «وانتقد المعزّ على ابن رشيق قوله : يعيبون ، وقال : أوجدت لخصمها حجّة بأن بعض الناس عابه»[27].

وفي بعض الظروف الحرجة ، عندما أثيرت مثلاً قضيّة التونسي أو قضيّة القاضي أحمد بن عبد الله بن أبي زيد[28] ، كان المعزّ يجمع الشعب في الجامع الكبير ، وبعد استشارة العلماء وكبار رجال الدولة يعلن عن القرار المتّخذ بعد المداولة.

ورغم رقّته وذوقه المُرهَف ، لم يكن متخنّثًا ، بل بالعكس من ذلك كان يتميّز بشجاعة فائقة ، قال ابن بسّام[29] : «لم يكن أحدٌ في زمانه أشدّ بأسًا في الملاحم ، ولا أطْوَلَ يدًا بالمكارم ، ولا أَعْنى بلسان العرب ، ولا أَحْنى على أهل الأدب».

«وكان من الكرم على جانب عظيم . قيل إنه أهدى لبعض أصحابه في يوم واحد مائة ألف وسبعين ألف دينار»[30].

«كما وهب مرّةً مائة ألف دينار للمنتصر بن خزرون الزناتي ، وكان عنده ، وقد جاءه هذا المال فاستكثره ، فأمر به فأُفْرِغَ بين يديه ثمّ وهبه له . فقيل له : لِمَ أمرت بإخراجه من أوعيته؟ قال : لئلاّ يقال لو رآه ما سمحت نفسه به». هذا بالإضافة «إلى ما وصله من مركب أثيل وزيّ حفيل»[31].

---

26) وفي المؤنس : «كان عارفًا بعلم الأحجار» ، ولعلّ الكلمة الأخيرة تحريف لكلمة «الألحان».

27) ابن شرف ، أبكار الأفكار ، أنظر أيضًا : بساط ، 48 – 49.

28) أنظر الفصل السابع من هذا الباب.

29) البيان ، 279/1 ، نقلاً عن ابن بسّام ورحلة التجاني ، 14.

30) المؤنس ، 84.

31) البيان ، 297/1 ؛ الكامل ، 16/10 ؛ بساط ، 48 – 49.

وقد سمح ازدهار إفريقية للمعزّ بالاستجابة لشغفه بالبذخ. فقد أشار ابن خلدون[32] إلى أنّ الرقيق مؤرّخ المعزّ وكاتبه الخاصّ قد أطنب في وصف بذخ البلاط الصنهاجي الذي بلغ أوجه في عهد المعزّ. فمنذ ارتقائه إلى العرش حتى بداية غزوة بني هلال، لم ينفكّ عن إظهار معالم السخاء الخارق للعادة بمناسبة الأفراح والمآتم والاستقبالات الرسمية.

ففي يوم الأحد 19 ذي الحجّة 407هـ / 19 ماي 1017م، تمّ ختان الأمير الصغير مع عدد من أبناء الفقراء الذين تسلّموا الملابس والإعانات المالية[33].

وكان المعزّ يغتنم استلام الهدايا وعلامات الشرف التي منحها له كلّ من الخليفة الحاكم والخليفة الظاهر في سنة 407 و411 و414هـ[34]، لإقامة الحفلات الفاخرة وتنظيم المواكب الضخمة.

وفي المقابل كان يوجّه إلى الخلفاء الفاطميّين العديد من الهدايا الثّمينة[35].

وقد تزوّج المعزّ في سنة 413هـ / أفريل 1022 – 25 مارس 1023م، وهو يبلغ من العمر حوالي 15 سنة. «فكان له عرس ما تهيّأ لأحد من ملوك الإسلام. ولمّا بدأ بالحركة للعرس نُصِبت القباب خارج المدينة ونشر ما هيّأ من الأثاث والثياب وحضر من آلاف الملاهي ما لا يوصف»[36].

وكان يحبّ زوجته أمّ يوسف زليخاء[37]. قال المؤلف الأباضي الشمّاخي: «وفي عام 425هـ [1024 – 1025م] نزل بإفريقية وباء جارف أصاب الحواضر والبوادي وحصل منه

---

32) **العبر**، 158/6 – 159.

33) النويري، 136/2.

34) أنظر الفصل الثاني من هذا الباب.

35) جاء في **البساط**، 40 – 42: «أنّ المعزّ قد تسلّم من الحاكم في شهر ذي الحجّة 407هـ / ماي 1017م سجلاً يتضمن التقليد ولقب شرف الدولة. كما تسلّم سيفًا مرصّعًا بالجواهر. وكلّف مبعوثي الخليفة الفاطمي بأن يسلّموا إليه 355 برذونًا بالسروج المحلاّة وعددًا كبيرًا من العبيد». ولكنّ المصادر التي بأيدينا لم تشر إلى الهدايا التي وجّهها المعزّ إلى الخليفة. فلعلّ الأمر يتعلق بالهدايا التي وجّهها باديس في سنة 405هـ. وقد وجّه الحاكم السيف المعني بالأمر إلى ابن زيري في أوائل سنة 411هـ.

ومن ناحية أخرى فقد أكّد صاحب **المؤنس**، 81، أن صندل عامل باغاية قد بعث إلى المعزّ في سنة 408هـ «هديّة فيها 335 برذونًا بالسروج المحلاّة وعبيدًا».

36) **البيان**، 270/1، لم يعطِ المؤلف تفاصيل حول هذا الموضوع قائلاً: «قد شرحه الرقيق في كتابه وتركناه اختصارًا». **المؤنس**، 82؛ **شهيرات التونسيات**، 49 – 50 [الطبعة الثانية، ص 83].

37) **شهيرات التونسيات**، المرجع السابق.

فناء كبير في السكّان ، فكان من جميل عمل أمّ يوسف وكريم خصالها أن تصدّقت على موتى الفقراء والمعوزين بستّين ألف كفن احتسابًا لوجه الله تعالى»[38].

وفي سنة 415 هـ / 1024 – 1025م «وقف شرف الدّولة المعزّ لهديّة صندل والي باغاية ، فعُرِضَت عليه ، وهي ثلاثمائة حصان ، ومائة فرس أنثى ، وبغلات منها عشرون بسروج محلاّة ، ومائة حمل من المال. فخلع عليه وجدّد له الولاية»[39].

وكما كان الشأن في عهد باديس ، كانت الحيوانات الضارية تقوم بدور بارز في المواكب الفخمة التي كان ينظّمها المعزّ. ففي سنة 441 هـ / 1049 – 1050م «خرج الأمير إلى ظهر مدينة القيروان. وأُخْرِجَت السباع بين يديه ، فأفلت منها سبع ، فانهزم الناس أمامه ، ووقع بعضهم على بعض ، فمات منهم نحو المائتين ، ووثب السبع على رجل من كُتّاب باب الغنم يُدْعَى الكرامي فقتله»[40].

وكان المعزّ يملك مجموعة من السباع ، فقد أمر أحد الزناتيّين بمصارعة أسد[41].

«وفي سنة 423 هـ [1031 – 1032م] وصلت من ملك السّودان إلى المعزّ هديّة جليلة ، فيها رقيق كثير وزرّافات وأنواع من الحيوان غريبة». وفي ذلك إشارة إلى أنّ المعزّ كان يجلب عبيده السّود وحيواناته الضارية من السودان. وقد ترك لنا الرقيق وصفًا دقيقًا لتلك الزرّافات[42].

وبعد ذلك بثلاث سنوات ، أي في سنة 426 هـ / 1034 – 1035م «وصلت إلى المعزّ بن باديس من ملك الروم (من المرجّح أن يكون الإمبراطور البيزنطي) هديّة لم يُرَ مثلُها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر وغير ذلك»[43].

---

38) الشمّاخي ، 415.

39) **البيان** ، 273/1 ، في الأصل «بسكرة» وقد عوّضناها بباغاية باعتبار أن بسكرة كانت تابعة لبني حمّاد وهي لم تكن مركزًا لتربية الخيول. وقد أكّد ذلك ابن خلدون (**العبر** ، 158/6) وصاحب **المؤنس** ، 81.

40) **البيان** ، 278/1.

41) الشماخي ، 383 – 384.

42) **البيان** ، 275/1 ؛ **بساط** ، 43 (10 أبيات شعر لابن رشيق في وصف الزرافات).

43) **البيان** ، 275/1.

أقارب المعزّ – رجوع زاوي إلى إفريقية[44] :

لم يكفّ زاوي بن زيري وأهله، منذ هجرتهم إلى الأندلس، عن التحرّك وتقديم شواهد الإخلاص إلى بني حمّود، أمراء مالقة. وقد أدّوا خدمات جليلة إلى القاسم بن حمّود على وجه الخصوص، بانتصارهم على الدعيّ الأموي المرتضى الذي كان يحظى بمساندة الزناتيّين، ولا سيّما إثر مقتله بعد ذلك بقليل، أي في سنة 409 هـ / 1018 م.

ورغم ما يبدو من تعزيز لنفوذه إثر ذلك الانتصار الباهر، فقد قرّر زاوي بن زيري العودة إلى إفريقية، خوفًا من أن تدور عليه الدوائر. ذلك أنّه لا ينبغي أن يغترّ الصنهاجيّون الذين كانوا قليلي العدد بالأندلس بهزيمة المرتضى، إذ أنّ انتصارهم عليه يرجع سببه إلى خيانة ملوك الطوائف الأندلسيّين لسلطانهم، أكثر ممّا يرجع إلى قوّة الصنهاجيّين. وبما أنّ هؤلاء غير قادرين على مواجهة الزناتيّين المقيمين بالأندلس، فإنهم لا يستطيعون من باب أولى وأحرى التصدّي للتحالف الزناتي الأندلسي. فلم يبق لهم حينئذٍ سوى مخرج واحد للنجاة بأنفسهم، ألا وهو الرجوع إلى إفريقيّة والالتحاق ببني جنسهم.

ولكنّ الصنهاجيّين الذين كانوا يفضّلون «المرتبة الأولى في غرناطة على المرتبة الثانية في القيروان»[45] لم يستجيبوا لنداء شيخهم.

وعندئذٍ طلب زاوي بن زيري إلى المعزّ بن باديس الذي لبّى طلبه، أن يسمح له بالعودة إلى وطنه. ولم يكن بنو زيري بالقيروان يخشون قدومه بل كانوا بالعكس من ذلك يرغبون في رجوع عميد عائلتهم. فقد أكّدت بعض المصادر أنّه «لا يحتجب عنه من نسائهم زهاء ألف امرأة في ذلك الوقت، هنّ مَحْرَم له من بنات إخوته وبناتهن وبني بنيهنّ»[46].

وفي سنة 410 هـ / 1019 – 1020 م[47] غادر زاوي بن زيري الأندلس من مرسى المنكّب، ومعه نساؤه وأبناؤه، ومنهم المسمّى الحلالي[48]، وحشمه وذخائره. وترك الحكم

---

44) **مذكّرات عبد الله**، 24 – 25؛ **البيان**، 269/1، 264/3؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، طبعة القاهرة 1319 هـ، 334/1 – 337؛ **العبر**، 158/6؛ **الكامل**، 107/9؛ **تاريخ أبي الفداء**، 198/2، استشهاد **بتاريخ القيروان** (لابن شدّاد؟)؛ ليفي بروفنسال، **إسبانيا الإسلامية**، 331/2، الإحالة 1؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، 1300/4 – 1301 (ليفي بروفنسال) كنية زاوي : أبو مثنّى.

45) ليفي بروفنسال، ترجمة **مذكّرات عبد الله**.

46) ابن بسّام، **الذخيرة**، 1/1 – 402.

47) نفس المرجع.

48) نفس المرجع.

لابن أخيه حبوس بن ماكسن الذي كان شقيقه حباسة بن ماكسن قد قُتِلَ من قبل[49]. والجدير بالملاحظة أنّ مملكة غرناطة الزيرية ستبقى قائمة الذات حتى أواخر القرن الحادي عشر.

ولعلّ زاوي لم يغفل عن نقل الغنيمة الثمينة التي كان قد سلّمها إليه علي بن حمّود في سنة 406 هـ / 1016 م. وهي تتمثل في رأس سليمان بن الحكم بن مروان المستعين بالله. وقد كان زاوي حريصًا على نقل ذلك الرأس معه لأخذ ثأر أبيه زيري الذي كان رأسه قد أُهْدِيَ إلى بني مروان بالأندلس[50].

وقد وصل زاوي إلى إفريقية في سنة 410 هـ / 9 ماي 1019 — 26 أفريل 1020 م «بعد أن اغترب بالأندلس اثنين وعشرين سنة. فخرج إليه يوم وصوله شرف الدولة المعزّ بن باديس بزيّ عظيم، فترجّل له الشيخ زاوي، ونزل شرف الدولة فسلّم عليه، وسار معه حتى أنزله بالمنصوريّة»[51].

وقد لاحظ ابن بسّام، ربّما نقلاً عن ابن حيّان (المتوفّى سنة 469 هـ / 1076 م)، «أنّ المعزّ قد أقرّ زاوي في دولته وكنفه. إلاّ أنّه لم يؤثره ولا أناف بمحله ولا قلّده ولا واحدًا من ولده شيئًا من عمله، بل وكَلَهم إلى سُحْتِهم»[52].

كما أكّد عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس بن زيري، آخر أمراء غرناطة من بني زيري، في مذكّراته[53]، أنّ زاوي بن زيري قد منّى نفسه باغتنام فرصة صغر سِنّ المعزّ بن باديس للاستيلاء على المملكة الصنهاجية بإفريقية. ولكن حاشية الأمير قد قامت بتسميم الشيخ الطموح.

ومن ناحية أخرى، فإننا لا نعلم بالضبط متى توفّي زاوي بن زيري. إلاّ أنّ ابن حيّان استغلّ الإعلان عن وفاته للتشهير به بعبارات على غاية من الحدّة، حيث قال :

---

49) **البيان**، 3/111—112.

50) **البيان**، 3/116—117؛ ابن بسّام، 1/1—404.

51) **البيان**، 1/269. وحسب **العبر**، 6/180 : «وبعد غياب 20 سنة». والجدير بالتذكير أننا نجهل تاريخ ذهاب زاوي إلى الأندلس، ومن المفروض أن يكون ذلك بعد وفاة المنصور بن أبي عامر (رمضان 392 هـ / جويلية — أوت 1002 م)، لأن الذي دعاه إلى القدوم إلى الأندلس هو المظفر. وعلى كلّ حال فإن : 392 + 20 = 412 و392 + 22 = 414. ومن المحتمل أن يكون الخطأ راجعًا إلى عدم إشارة المراجع إلى تاريخ ذهاب زاوي إلى الأندلس. وحسب ابن خلدون، 391 + 20 = 411.

52) ابن بسّام، 1/1—402.

53) **مذكرات عبد الله**، (كتاب التبيان)، 24—25.

«ونُعِيَ إلينا عدوّ نفسه، زاوي بن زيري مُوقِدُ الفتنة بعد الدولة العامريّة. ورد النبأ بمهلكه في القيروان وطنه، بعد منصرفه إليها خاملاً مغموراً بين أعاظم قومه، لم يرتفع له ذكر بينهم. مهلكه كان من طاعونة أصابته. فالحمد لله المنفرد بإهلاكه، الكفيل بقصاصه، فلقد كان في الظلم والجور والاستحلال للمحارم والقسوة آية من آيات الله. أهان الله مثواه ولا قدّس صداه»[54].

وقد قيل إن الصنهاجيّين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم فوق القوانين الشرعية قد روّعوا الأندلسيّين بسلوكهم المتّسم بنفس الوحشية التي كانوا يتميّزون بها في إفريقيّة بلادهم، حيث كانوا يرتكبون أبشع أعمال التعسّف، دون أن ينالهم أدنى عقاب. ورغم ما يتّسم به هذا الحكم من تحيّز صريح، أملاه الحقد الذي كان يوحي به المرتزقة من البربر، العاملون في الأندلس عهدئذٍ، فإنه لا يخلو من الحقيقة.

وقد كان المعزّ يتبادل الرسائل مع أمراء غرناطة من بني زيري. من ذلك أنّ الأمير عبد الله قد أخبرنا في مذكّراته[56] أنّ جدّه باديس كلّما استولى على مدينة أندلسية محصّنة، قيل له إنّ أمير إفريقية صرّح بما يلي: لقد أخبرنا صاحب غرناطة أنّه استولى على عددٍ من الأصقاع والبلدان! وممّا لا شكّ فيه أنّه لو استولى على عواصم مثل قرطبة ومالقة مثلاً «لكنّا نبايعه في ذلك»[57]. ويبدو أنّ هذه المقولة قد حثّت باديس على الاستيلاء على مالقة بعد سنوات عديدة من المحاولات[58].

ولقد شهدت سنة 412هـ/ 17 أفريل 1021– 5 أفريل 1022م وفاة باديس بن (يوسف بلكّين) سيف العزيز بالله، «وصلّى عليه شرف الدولة، وكان له مشهد عظيم»[59].

---

54) ابن بسّام، **الذخيرة**، 2/1–99.

55) **البيان**، 75/3–76، 81، 108، 128–129، 263؛ **أعمال**، تحقيق ليفي بروفنسال، 263؛ ابن بسّام، 1/1–401، 1/4، 61–62.

56) **مذكرات عبد الله**، 43؛ **(كتاب التبيان)**: عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس بن زيري، وهو ثالث وآخر أمراء غرناطة. وُلد سنة 447هـ/ 1056م وعيّن إثر وفاة أبيه (456هـ/ 1064م) وليًّا لعهد جدّه باديس بن حبوس، وقد خلفه في سنة 469هـ/ 1077م. أمّا أخوه تميم المعزّ فقد عيّن أميرًا مستقلاً بمالقة.

57) نفس المرجع.

58) تولّى باديس الإمارة في سنة 429هـ/ 1038م وألحق مالقة الحمّودية بمملكته في سنة 449هـ/ 1057م وتوفّي في سنة 467هـ/ 1075م (أو 469 أو 465هـ) حسب **البيان**، وفي سنة 465هـ حسب **الإحاطة**.

59) **البيان**، 270/1.

«وفي سنة 416هـ (1025 – 1026 م) توفّي أيّوب بن يطّوفت (بن بلكّين) وحضر جنازته شرف الدولة وعضدها ، وهو المعزّ بن باديس بالبنود والطبول»[60]. وكان المعزّ قد قلّده ولاية المغرب. ولكن المصادر لم توضّح لنا هل أنّه استمرّ في الاضطلاع بتلك المهمّة أم أن شخصًا آخر قد عوّضه.

قريبات المعزّ – أرملة باديس :

«في سنة 412هـ (17 أوت 1021 – 5 أوت 1022م) توفّيت السيّدة زوجة نصير الدولة ، وكُفِنَت فيما لم يُذْكَر أنّ ملكًا من الملوك كُفِّنَ في مثله. فحكيَ من حضره من التجّار أنّ قيمته مائة ألف دينار ، وجُعِلَت في تابوت من عود هندي قد رُصِّعَ بالجوهر. وكانت لها جنازة لم يُرَ مثلها ، ودُفِنت بالمهديّة (وربّما نُقِلَت فيما بعد إلى مقبرة أمراء بني زيري بالمنستير). وكانت مسامير التابوت بألفيّ دينار»[61].

أمّ المعزّ :

لا نعلم عنها أيّ شي[62]. ويبدو أنّ المعزّ كان متأثّرًا بها. فقد أخبرنا ابن عذاري بما يلي :

«وفي سنة 433هـ نُكِبَ محمّد بن محمود بن السكّاك ، وكان المتولّي لأشغال أمّ المعزّ ، واستولى بها على دولته»[63].

60) نفس المرجع ، 273/1.
61) نفس المرجع ، 270/1.
62) حسب الشماخي ، 414 – 415 : «استشارها أحد الإباضيّين حول ابنه الذي كان أعمى ، وبناءً على نصيحتها مكّنه من الدراسة».
63) **البيان** ، 276/1.

السيّدة فاطمة :

كان المعزّ يظهر مودّة بالغة للسيّدة فاطمة المشهورة باسم «حاضنة باديس». وقد وهبت في رمضان 410 هـ / 1019 – 1020م للجامع الكبير بالقيروان مصحفًا بديعًا ما زالت بعض صفحات منه موجودة إلى الآن، وكذلك الصندوق الذي كان يحويه. وقد تضمّنت الصفحة الأولى من المصحف نصّ التحبيس الذي حرّره القاضي عبد الرحمان ابن القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم[64].

وهناك شاهدة قبر[65] متقنة الصّنع ولكنّها مشوّهة قد كُتِبَ عليها ما يلي: «هذا قبر فاطمة... (المتوفاة) في رمضان 416هـ / 26 أكتوبر – 24 أكتوبر 1025م». وتدلّنا هذه النقيشة – حسبما يبدو – على تاريخ وفاة هذه المرأة الصالحة[66].

الأميرة أمّ ملال عمّة المعزّ[67] :

إنّ الأميرة أمّ ملال، أخت باديس، التي كثيرًا ما يطلق عليها اسم «السيّدة»، هي ابنة عدّة العزيز بالله، أي المنصور. وقد تبنّت المعزّ وعُنِيَت بتربيته. وكانت تشتو به في المنصورية وتصطاف به في المهديّة. ويبدو أنّها هي التي اختارت للسهر على تربيته أبا الحسن علي بن أبي الرجال [الشيباني] الذائع الصّيت[68] (المتوفّى سنة 426هـ / 1034 – 1035م)، الذي علّمه المذهب المالكي.

ولمّا توفّي باديس عُيِّنَت أخته أمّ ملال وصيّة على الأمير الصغير، إلى أن يبلغ سنّ الرشد، فقامت بتلك المهمّة على أكمل وجه.

«وقد أوقفت على الجامع الكبير بالقيروان مصحفًا في نهاية الجمال، ما زال قسم منه موجودًا إلى الآن، مع نصّ تحبيسه على يدي القاضي عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن هاشم»[69].

---

64) **شهيرات التونسيات**، 47 – 49 [الطبعة الثانية، 81 – 82].

65) **نقائش عربيّة**، 1/عدد 234، ص 363 – 364.

66) حسب حسن حسني عبد الوهاب (**شهيرات**، ص 83): «توفيت في حدود سنة 420هـ».

67) **البيان**، 27/1. أنظر أيضًا: **المؤنس**، 81؛ و**شهيرات التونسيات**، 39 – 44 [الطبعة الثانية، 69 – 77].

68) **البيان**، 273/1.

69) **شهيرات التونسيات**، 44، الإحالة 2 [الطبعة الثانية 76].

ولمّا مرضت أمّ ملال كان شرف الدولة المعزّ «يصل إليها في كلّ يوم عائدًا ومتفقّدًا، فيجلس عندها ويأذن لرجاله وعبيده يدخلون إليها، ثمّ ينصرفون. فلما كان ليلة الخميس منسلخ رجب 414هـ (18 أكتوبر 1023م) قبضها الله. وصُلِّيَ على جنازتها بالبنود والطبول والعمّاريّات، والسيّدتان الجليلتان الوالدة والأخت بحال من التشريف لهذه الجنازة، لم يُرَ لملك ولا لِسُوقَة مثلُها»[70].

وذكر أبو إسحاق الرقيق وهو ممّن شاهد ذلك، قال:

«كفّنها المعزّ بما قيمته مائة ألف دينار، وعمل لها تابوتًا من العود الهندي مرصّعًا بالجواهر وصفائح الذهب وسمّر التابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال، وأدرجت في مائة وعشرين ثوبًا، ذرّ عليها من المسك والكافور ما لا حدّ له، وقلّد التابوت بإحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر. وقوّمت التّجار ما صرف عليها فبلغ ما ذكرناه. وأمر المعزّ بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاة فنحرت وانتهبها الناس وفرّق في مأتمها على النّساء المعوزات عشرة آلاف دينار ورثاها شعراء البلاط وكانوا أكثر من مائة شاعر بمراثي جليلة»[71].

وممّا لا شكّ فيه أنّها دُفِنت أوّلاً بالمهديّة، وبعد ذلك بحوالي سنة «نُقِلت إلى المنستير إلى مقبرة صنهاجة المعروفة بمقبرة «السيّدة» نسبة إلى هذه الأميرة. وهي وسط البلد المذكور لحدّ الآن بالقرب من الرباط الكبير»[72].

وفي نفس السنة التي توفّيت فيها أمّ ملال، وعلى وجه التحديد قبل وفاتها بشهرين، ربّما عندما مرضت، «فوّض الأمير شرف الدولة جباية الأموال وولاية الأشغال والنظر في العساكر وسائر الأشغال لأبي البهار بن خلوف، يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين (25) من جمادى الأولى 414هـ .(15 أوت 1027م)[73].

70) **البيان**، 272/1 : 30 رجب يصادف نظريًا يوم الجمعة.

71) **المؤنس**، 81، نقلاً عن أبي إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق؛ **شهيرات**، 43 – 44 [الطبعة الثانية 75 – 76]؛ **بساط**، 42 – 43. بعض التفاصيل تذكرنا بتكفين أرملة باديس، فمن الممكن أن يكون هناك التباس.

72) **شهيرات التونسيات**، 44، الإحالة 2 [الطبعة الثانية 76].

73) **البيان**، 272/1، نظريًا يوم الخميس.

الأميرة أمّ العُلُوّ أخت المعزّ :

وفي السنة الموالية ، في رجب 415هـ / 8 سبتمبر– 7 أكتوبر 1024م زوّج المعزّ أخته أمّ العلوّ ابنة نصير الدولة باديس ، من ابن عمّه الأمير عبد الله بن حمّاد الصنهاجي ؛ ابن صاحب القلعة الذي كان قد أبرم معه اتفاقية صلح في سنة 408هـ/ 1017 – 1018م[74].

«فلمّا كان يوم الأربعاء غرّة شعبان المكرّم 415هـ (18 أكتوبر 1024م)[75] ، زيّن الإيوان المعظّم للسيّدة الجليلة أم العلوّ ، ودخل الناس خاصّة وعامّة ، فنظروا من صنوف الجوهر والأَسلاك والأمتعة النفيسة وأواني الذهب والفضّة ما لم يُعمَل مثلُه ولا سُمِعَ لأحد من الملوك قبْله . قال أبو إسحاق الرقيق : فبهر عيونَ الخلق حالُ ما عاينوه وأَبْهَتَهُم عظيمُ ما شاهدوه ، وحُمِل جميع ذلك إلى الموضع الذي ضُرِبَت فيه الأبنية والقباب والأخبية ، وحُمِلَ المهر في عشرة أحمال على أبْغُلٍ على كل حِمْل جارية حسناء ، وجملته مائة ألف دينار عينًا . وذكر بعض حُذّاق التجّار أنّه قوّم ما هو لها ، فكان زائدًا على ألف ألف دينار ، وهذا ما لم يُرَ قطّ لامرأة قبلها بإفريقيّة . وزُفّت العروس في يوم الخميس[76] ، ومضى بين يديْها عبيدُ أخيها شرَف الدولة وأبيها نصير الدولة وجدّها عُدّة العزيز بالله ، ووجوه رجال الدولة ، فكان يومًا سارت الرُّكْبانُ بمحاسن آثاره ، وامتلأت البلدان بعجائب أخباره»[77] .

«وقد عُثِرَ بمكتبة جامع عقبة بالقيروان على ورقة رقّ بخطّ القاضي عبد الرحمان بن محمّد بن هاشم ، مكتوب بها توقيف هذه الأميرة لمصحف شريف على مسجد أبي عبد المطلب بباب سَلَم»[78] .

وقد صاحبت أمّ العلوّ زوجها أثناء الحملة العسكرية التي قام بها ضدّ زناتة وقضى نحبه في تلك الفترة بالذات (أي ما بين سنة 430 وسنة 440هـ/ 1048 – 1049 م)[79] . ومن المحتمل أن تكون هذه الأميرة هي التي توفّيت بسوسة في سنة 445هـ/ 1053 – 1054م .

---

74) نفس المرجع . انظر أيضًا : **بساط** ، 43 ؛ **وشهيرات** ، 45 – 47 [الطبعة الجديدة 77 – 78] .

75) نظريًّا يوم الخميس .

76) نظريًّا يوم الجمعة .

77) **البيان** ، 272/1 – 273 .

78) **شهيرات التونسيّات** ، 47 ، الإحالة 1 [الطبعة الثانية 80] .

79) ربّما أثناء الحملة التي أشرف عليها نزار بن المعزّ في سنة 433هـ . أنظر **البيان** ، 276/1 .

الفصل الثّاني
قتل الشيعة بإفريقيّة

واقعة القيروان[1] :

غداة دخول المعزّ إلى المنصوريّة يوم السبت 16 محرّم 407 هـ / 25 جوان 1016 ، قام بجولة في شوارع المدينة راكبًا فرسه ، «والنّاس يسلّمون عليه ويدعون له . فاجتاز بجماعة فسأل عنهم ، فقيل : هؤلاء رافضة»[2] ، ويقابلهم أهل السنّة . قال : مَنْ هم أهل السنّة ومن هم الرافضة ؟ فقيل : أهل السنّة هم الذين يقولون«رضي الله عن أبي بكر وعمر» ، أمّا الرافضة فهم الذين يسبّون الشيخَيْن . فقال الأمير : «رضي الله عن أبي بكر وعمر»[3] . ويقال إن المذبحة انطلقت منذ ذلك الحين.

ومن المستبعد أن يكون المعزّ ، بالرغم من صغر سنّه وتربيته السنيّة ، يجهل تمامًا المذهب الشيعي . إلاّ أنّ ذلك لا يكفي لنفي صحّة هذا الخبر على أنّه من الجدير بالتذكير أنّ المعلومات المتوفرة لدينا في هذا الشأن ، هي ذات مصدر وحيد ومتحيّز بشكل مفضوح.

ذلك أنّ المؤرّخين الرسميّين والإخباريّين ، سواء منهم أبو الصلت أو ابن شدّاد ، قد بذلوا قصارى جهدهم لإظهار المعزّ بمظهر زعيم السنّة والباعث على قطع دابر الشيعة . والغريب في الأمر أنّنا لا نجد أيّ أثر لهذا الخبر في كتب السِّيَر المالكيّة (مثل **مدارك** القاضي عياض **ومعالم الإيمان**) ، إذ إنّ المعطيات الواردة فيها تؤكّد النظرية السالفة الذكر أحيانًا ، وتنفيها أحيانًا أخرى . ولنذكر على سبيل المثال هذه الفقرة المثيرة التي ختم بها ابن عذاري حديثه عن الاضطرابات المضادّة للشيعة :

---

1) **البيان** ، 268/1 – 269 ؛ **الكامل** ، 122/9 – 123 ؛ **تاريخ** أبي الفداء ، 149/2 ؛ النويري ، 134/2 – 135 ؛ **الاستبصار** (الترجمة) ، 99 – 100 ؛ **المؤنس** ، 80 – 81 ؛ مقديش ، **نزهة الأنظار** ، 366/1 – 367 .

2) **الكامل** ، 122/9 .

3) **الكامل** ، والنويري .

«وحُكِيَ في قتل الروافض حكايات كثيرة، ممّا رآه المعزّ في منامه، وتأويل ذلك وغيره ألغينا هنا عن ذكره. ولم يزل المعزّ يعمل فكره في قطع الدعوة لهم إلى أن كانت سنة 440»[4].

ولكن قبل أن نتّهم هذه الرواية بأنّها مختلقة أو شبه خرافية، أفلا يجوز لنا أن نفترض أنّها كانت بمثابة المناورة التي ساعد بها المعزّ، بقصد أو بلا قصد، القوى الخفيّة المستعدّة للقيام بالأعمال التي أعطاها إشارة الانطلاق عندما تلفّظ ببعض العبارات المتّفق عليها من قبل؟

«فانصرفت العامّة من فورها إلى درب المعلّى بالقيروان، وهو [مكان] تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم [عددًا كبيرًا من الرجال والنّساء والأطفال]. وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم، طَمَعًا في النهب. وانبسطت أيدي العامّة في الشيعة، وأغراهم عامل القيروان (منصور بن رشيق) وحرّضهم، وسبب ذلك أنّه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه أنّ المعزّ بن باديس يريد عزله، فأراد فساده، فقُتِل من الشيعة خلق كثير»[5].

وقد اتّسع نطاق الاضطرابات، إلى درجة أنّ السلطان قد عجز عن إرجاع الأمن إلى نصابه، فعيّن عاملاً جديدًا، لم يتمكّن هو أيضًا من ذلك.

«وخرج الأمر من القيروان إلى المهديّة وسائر بلادهم. فقُتِلوا حيث وُجِدُوا وأُحْرِقوا بالنّار. فلم يُتْرَكْ منهم بمدائن إفريقيّة إلاّ من اختفى»[6]. ولجأ بعضهم إلى «مساجد البادية»، حيث لم يسلموا من الهلاك.

«ولجأ من بقي بالمهديّة منهم إلى المسجد الجامع، فقُتِلوا به عن آخرهم رجالاً ونساءً. واجتمعت العامّة على أبي البهار بن خلوف[7] لشدّته عليهم وقهره لسفهائهم. فلجأ إلى المنصوريّة، فانتهبوا داره. وبلغ ذلك عساكر ابن أخيه، فركب لينصر عمّه أبا البهار، فقتله العامّة ومثّلوا به، وقتلوا مَن كان معه»[8]. وزحفوا على المنصوريّة وهدموا دار الإمارة[9].

---

4) **البيان**، 274/1.
5) **الكامل**، 122/9.
6) **معالم الإيمان**، 192/3.
7) لعلّ الأمر يتعلق بعامل القيروان الجديد الذي عوّض منصور بن رشيق.
8) **البيان** فحسب، 268/1.
9) **معالم الإيمان**، 192/3. وفي **البيان**: «وزحفوا إلى المنصورية فهدموها».

وفي يوم 12 جمادى الأولى 407 هـ / 17 أكتوبر 1016م[10] «اجتمع بدار محمّد بن عبد الرحمان[11] نحو ألف وخمسمائة رجل من الشّيعة. فإذا خرج أحد منهم لشراء قوته قُتِلَ، حتى قُتِلَ أكثرهم»[12]. وقد تمّت مُحَاصرتهم واضطرّهم الجوع إلى الخروج، فقُتِلوا عن آخرهم، وذلك في أواخر جمادى الأولى / أواخر أكتوبر – 4 نوفمبر 1016م، وجمادى الثانية / 5 نوفمبر – 3 ديسمبر 1016م[13].

وإذا صدّقنا ما جاء في مصدر آخر متأخّر العهد من سوء الحظّ، فإن المعزّ قد أمر بالكفّ عن قتل الشيعة[14].

وأكّد ابن عذاري أنّ المسلمين قد سُرّوا بقتل الشيعة، «وذلك لمّا ظهرت الكتب التي وُجدت بديارهم، وكان فيها من الكفر والتعطيل للشريعة وإباحة المحارم شيء كثير»[15]. ومن الممكن أن يكون أهل السنّة قد عثروا عند نهب منازل الشّيعة على بعض الكتب الباطنيّة، إلاّ أنّ تحيّز مثل هذه الشهادات واضح للعيان.

وحسب المصادر التي بين أيدينا، قُتِل الشيعة في جميع أنحاء إفريقيّة. من ذلك أنّ التّجاني، عند حديثه عن الفقيه أبي الحسن علي بن محمّد بن المنمّر، قال:

«وهو أوّل من أظهر السنّة بطرابلس، لمّا كانت في إفريقيّة الوقعة المعروفة بوقعة المشارقة سنة سبع وأربعمائة قُتِل فيها الشيعة وأتباعهم. وعلى يد الفقيه أبي الحسن كان قَتْلُ مَن قُتِل بطرابلس»[16].

وهناك رواية أخرى حول انطلاق الاضطرابات، وردت في كثير من المصادر[17]. فقد لاحظ ابن عذاري أنّ الشيخ الوَرِع ابن أبي الرجال «حرّض ابن باديس وأدّبه ودلّه على مذهب مالك وعلى السنّة والجماعة، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان. فخرج المعزّ في بعض الأعياد[18] إلى المصلّى في زينته وحشوده، وهو غلام، فكبا فرسه، فقال عند ذلك: «أبو بكر وعمر»! فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه، فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنّة من أهل القيروان، ووُضِعَ السّيف في الشيعة، فقُتِلَ منهم

---

10) النويري، 135/2.
11) شخص غير معروف.
12) البيان، 268/1.
13) البيان، الكامل، والنويري.
14) المؤنس، 80 – 81.
15) البيان، 268/1 – 269.
16) رحلة التجاني، ص 265.
17) البيان، 274/1.
18) وفي العبر: «ذات يوم».

ما ينيف على الثلاثة آلاف ، فسميّ ذلك الموضع بركة الدم إلى الآن»[19] .

وإن كانت الإشارة إلى العيد والمصلّى صحيحة ، فإنّ الأمر يتعلّق إمّا بعيد الفطر (أوّل شوّال 407هـ/ 3 مارس 1017م) أو بعيد الأضحى (10 ذو الحجّة 407هـ/ 10 ماي 1017م) . فهل حصل آنذاك هيجان شعبي آخر ، أثارته من جديد عبارة تلفّظ بها المعزّ ؟ ومن ناحية أخرى إذا تأكّد لدينا أنّ الجنود الشيعة قد حاولوا فعلاً قتل الأمير الشاب ، لأنّه توسّل بالشيخَيْن أبي بكر وعمر ، فإنّ ذلك يعتبر مؤشّرًا لردّ الفعل الشيعي المتمثّل في الواقعة المأسويّة التي جدّت بعد عيد الفطر بحوالي اثني عشر يومًا .

فقد عيّن الوزير محمّد بن الحسن المسمّى محمّد بن لصويّة ؟[20] عاملاً على القيروان . وأشارت المصادر[21] إلى الظروف التي أقدم فيها هذا العامل على قتل فقيه جليل من فقهاء القيروان .

ذلك أنّ أهل القيروان قد نسبوا الاضطرابات التي شهدتها مدينتهم إلى جماعة من أهل السنّة من غيرهم .

«فلقد حُكِيَ أنّ العامّة جاءت متعلّقة برجل اتّهموه برأيهم [أي رأي الشيعة] ، فمرّوا به على شيخ من العامّة ، فسألهم عن تعلّقهم به ، فقالوا : نسير به إلى الشيخ أبي علي بن خلدون ، فننظر ما يأمرنا به . فقال لهم الشيخ العامّي : لا ! اقتلوه الآن ، فإن كان رافضيًّا أصبتم ، وإنّ كان سنيًّا عجّلتم بروحه إلى الجنّة الآن»[22] .

وحُكِيَ أيضًا أنّ العامّة شاهدوا شخصًا آخر يلاحق شيعيًّا ليقتله . فقالوا له : ماذا تفعل؟ قال : هذا زنديق من أتباع علي بن أبي طالب ، يحتقر عمر بن الخطّاب ، أو كما قال .

«فانتقم الله من الشيعة على أيدي عامّة المسلمين ، وقتلوهم كلّ مقتل . فرعب المعزّ منهم وأراد كسر شوكتهم . فدبّر قتل زعيم أهل السنّة وشيخ هذه الدعوة ، أبي علي حسن بن خلدون البلويّ»[23] .

---

19) أمّا ابن خلدون فقد ذكر أنّ العامّة ، لما سمعوا ما قاله المعزّ ، قتلوا الشيعة وجميع دعاة الرافضة .

20) قراءة ظنّيّة لاسم ربّما كان،محرّفًا حسبما ورد في **معالم الإيمان**. أما صاحب **المدارك** ، فقد اقتصر على ذكر «عامل القيروان» .

21) **المدارك** ، 2 – 286/3 – 288 ؛ **معالم الإيمان** ، 190/3 – 194 ؛ مخلوف ، عدد 271 ، 105/1 .

22) **معالم الإيمان** ، 192/3 – 193 .

23) نفس المرجع .

وقد كان هذا الفقيه الجليل وأحد أتباع أبي الحسن القابسي ، رجلاً ثريًّا وكريمًا . كان يطعم الطعام بسخاء ويحظى بنفوذ كبير لدى منافسيه من علماء القيروان . وكان الشعب يطيعه طاعةً عمياء . كما كان محرز بن خلف الذي قام بالدور المعروف في الانتفاضة المضادّة للشيعة بمدينة تونس ، يُقدّره حقّ قدره .

وبوصفه زعيم أهل السنّة ، كان هذا الشيخ يقاوم الخارجين عن الجماعة والمعتنقين للمذهب الشيعي ، الذين كانوا يكرهونه . . .

«فلمّا كان يوم الخميس الثاني عشر من شوّال سنة سبع وأربعمائة (14 مارس 1017 م) دخل عليه قوم من المشارقة والشرطة ، مع محمّد بن لصويّة[24] عامل القيروان ، بعد صلاة العصر ، وهو في مسجده ومعه جماعة من النّاس ، فقتلوا أبا محمّد الغرياني الفقيه وآخر بدويًّا ، ظانّين أنّه أبو علي . فلمّا عرفوا مالوا على أبي علي بسكاكينهم وجرّدوا جميع مَنْ كان في المسجد ، فحملوا أبا علي إلى داره وقد وقعت فيه ثلاث جراحات إحداها في صدغه أخذت إلى قفاه ، واثنتان في جانبه الأيسر أنفذتا مقاتله ، توفّي في داره بعد العشاء الآخرة»[25] .

ثمّ أضاف الرّاوي وهو الدبّاغ (المتوفّى سنة 699 هـ / 1300 م) قائلاً : «وبقي دمه بالمحراب إلى قريب زماننا هذا»[26] .

وما إن لفظ أبو علي بن خلدون أنفاسه الأخيرة حتى «ارتجّت المدينة وثارت الصيحة من نواحي القيروان ، فمال أهل المنصوريّة من الرجال والعبيد ، فنهبوا جميع ما في حوانيتها ، حتى لم يدَعُوا حانوتًا ، فذهب النّاس واشتغلوا بأنفسهم عن مقتل الشيخ أبي علي وخبره . وأراد عامل القيروان استرضاء الناس ، فجاء برجلين ، فقال إنهما اللذان قتلاه ، فقتلهما»[27] .

---

24) هكذا **ورد في معالم الإيمان**. أفلا يتعلق الأمر بالمسمّى محمّد بن والمة الذي قبض فيما بعد على والي طرابلس السابق عبد الله بن الحسن ، حسب النويري ، 139/2؟ أم أنّ الأمر يتعلّق بالمسمّى تمصولت ، وهو مولى المعزّ بن باديس الذي أشار إليه الشمّاخي ، 336 — 337 . وفيما يخصّنا فقد رأينا من باب الحذر الاحتفاظ بالاسم الوارد في **معالم الإيمان**.

25) **معالم الإيمان** ، ص 192 .

26) نفس المرجع .

27) **معالم الإيمان** ، ص 193 .

ودُفِنَ الشيخ ليلاً ، وقد أشار إلى ذلك أبو إسحاق إبراهيم الحصري في بيت من الأبيات التي رثاه بها. كما رثاه شعراء آخرون مثل ابن الورّاق وابن جرمون وابن يحيى ، وصلّى عليه أبو بكر بن عبد الرحمان[28] ، ودُفِنَ بداره ، وقبره بباب سَلَم مشهور في عصر الدبّاغ. وقد وصلنا النصّ المنقوش على شاهدة قبره ، والذي نُشِرَ في كتاب : **نقائش عربيّة**[29]. كما أنّ مسجده ما زال قائم الذات إلى يومنا هذا وهو يحمل اسمه.

ومن المحتمل أن يكون محرز بن خلف الذي توفّي سنة 413 هـ / 1022 – 1023م ، إثر الاعتداء عليه في جُنح الليل أو تسميمه[30] ، قد ذهب هو أيضًا ضحيّة ردود فعل الشيعة.

كما قُتِل في سنة 410 هـ / 1019 – 1020م الوليّ الصُالح معاوية بن عتيق أصيل مدينة تونس الذي ساهم مساهمة فعّالة في مقاومة الشيعة ، وربّما قُتِلَ وسلاحه في يده[31].

ويبدو أنّ الاضطرابات التي يقال إنّها تسبّبت في مقتل أكثر من 20 000 شيعي بالقيروان وأعمالها[32] ، قد توقّفت شيئًا ما بعدما نُهِبَت المنصوريّة إثر مقتل أبي علي بن خلدون. وممّا لا شكّ فيه أنّ سبب توقّف تلك المذبحة لا يرجع إلى ما أسفرت عنه أعمال القمع من نجاح مشكوك فيه[33] ، بل يرجع أوّلاً وبالذات إلى الاحتياطات التي اتخذها الشيعة لإنقاذ حياتهم ، وذلك بالاحتماء بالجيش.

علاقة المعزّ بالفاطميّين :

يبدو أنّه لم يصدر أيّ ردّ فعل من قِبَل الديبلوماسية الفاطمية ، بل أكثر من ذلك ، ففي آخر سنة 407 هـ ، وعلى وجه التحديد في أواخر ذي الحجّة وأواخر ماي 1017م ، تلقّى المعزّ من الحاكم خُلَعًا وسجّلاً يضفي عليه اللّقب الفخري «شرف الدولة». ذلك أنّ الخليفة الفاطمي قد ضرب صفحًا عن المذابح التي لا بدّ أنّه كان على علمٍ منها وأثنى على نائبه دون

28) قال ابن ناجي : «والصواب عدم الصلاة عليه لأنه شهيد» ، (نفس المرجع).
29) **نقائش عربية** ، 1/عدد 204 ، ص 333 – 335.
30) **مناقب** محرز بن خلف ، ص 313.
31) نفس المرجع.
32) **الاستبصار** (الترجمة) ، 99 – 100. ويبدو أنّ هذا الرقم مبالغ فيه.
33) **نقائش عربية** ، 1/عدد 201 ، 203 ، 204 ، 207.

أن يوجّه إليه أدنى تأنيب. ومن المعلوم، والحقّ يقال، أنّ الحاكم لم يكن يتمتّع بكامل ملكاته العقلية. وبمناسبة وصول سجلّ التقليد الذي أصبح المعزّ بمقتضاه نائبًا للخليفة، «ركب الأمير بالبنود والطبول»(34).

إلاّ أنّ النّار لم تزل كامنة، ففي سنة 409هـ/ 20 ماي 1018– 8 ماي 1019م «خرجت (من القيروان بدون شكّ) طائفة من الشيعة نحو مائتي فارس بعيالهم وأطفالهم، يريدون المهديّة للركوب منها إلى صقليّة، وبُعِثَت معهم خيل تشيّعهم. فلمّا وصلوا إلى قرية كامل(35) وباتوا بها، تنافر أهل المنازل عليهم، فقتلوهم وفضحوا بعض شوابّ النّساء ومن لها منهنّ جمال، ثمّ قتلوهنّ»(36). إلاّ أنّه من الممكن أن تكون هذه الحادثة مجرّد عمليّة نهب. فقد شهدت إفريقيّة في تلك السنة مجاعة كبيرة و«حروب كثيرة»(37).

وحسب رواية المشرقي ابن تجري بردي(38)، وجّه «ابن باديس» تأنيبًا إلى الحاكم بسبب أعماله الجنونيّة. ويبدو أنّ الخليفة الرهيب، حرصًا منه على إرضائه، قد أبدى اهتمامًا واضحًا بالفقه، إلى درجة أنّه كان يضع كُتُبًا فقهيّة في أكمامه. ويقال إنه طلب إلى المعزّ أن يوجّه إليه فقيهَيْن لتدريس الفقه بالمسجد الجامع بالقاهرة، وبعد قدومهما أمر ذات يوم بقتلهما بدون محاكمة. ومن المستبعد أن يكون المعزّ قد أنّب الخليفة الفاطمي الذي أصبح يعامل المذهب المالكي معاملة حسنة.

«وفي سنة 411هـ (قبل يوم 27 أفريل 1020م بقليل) ورد على المعزّ بن باديس أبو القاسم بن اليزيد، رسولاً من الحاكم بالله، بسيف مكلّلاً بنفيس الجوهر، وخلعة من لباسه لم يَرَ الناس مثلها، فلقيه شرف الدولة في أجمل زيّ وأكمل هيئة. فقُرِئَ عليه سجلّ فيه التشريف ما لم يصل لأحدٍ قبله فسُرَّ بذلك.

وفيها ورد أيضًا محمّد بن عبد العزيز بن أبي كدية بسجلّ آخر من الحاكم، جوابًا للمعزّ عمّا كان فيه من أخبار الأندلس وانقراض الدولة الأموية منها، وقيام القاسم بن حمّود فيها. فشكره على ذلك، وبعث إليه خمسة عشر عَلَمًا منسوجة بالذّهب، وركب المعزّ بن

34) **البيان**، 269/1، أنظر أيضًا : **الكامل**، 106/9؛ النويري، 136/2؛ ابن خلكان، 2/104–105؛ **أعمال**، 455–456؛ **المؤنس**، 81.

35) وهي قرية «منزل كامل» ألتي تقع بين القيروان والمهديّة، البكري، ص 29.

36) **البيان**، 269/1.

37) نفس المرجع.

38) **نجوم**، 1478/4.

باديس ، والأعلام المذكورة بين يديه يوم الأحد لِليلتَيْن بقيَتا من ربيع الآخر (27 ربيع الثاني / 20 أوت 1020م)[39].

وفي نفس تلك السّنة «وصل الخبر بوفاة الحاكم أمير مصر ، وولّي الظاهر بعده»[40].

وفي سنة 414هـ / 26 مارس 1023 – 14 مارس 1024 «وصل محمّد بن عبد العزيز [بن أبي كدية] من قِبَل الظاهر أمير مصر ، بتشريف عظيم لشرف الدولة . فقُرِئَت به سجلاّت ما وصل قبلها مثلها أجلّ حالاً ولا أعلى مقالاً . وزاده لقبًا إلى لقبه ، فسمّاه شرف الدولة وعضدها ، وبشّره بمولودَيْن وُلِدا له : أبو الطاهر وعبد الله أبو محمّد ، وبعث إليه مع ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج جليلة وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه ، ومنجوقَيْن منسوجَيْن بالذّهب على قصب فضّة ، ما دخل إفريقيّة مثلها قطّ ، وعشرين بندًا مذهّبة ومفضّضة . فلقيها شرف الدولة وعضدها أجمل لقاء ، وأعطاها حقّها من الإكرام والاعتناء ، وقُرِئَت السّجلاّت بين يديه ، ثمّ قُرِئَت بجامع القيروان وأمر بنسخها ، وأُنْفِذَت إلى الآفاق ، فكان لها من السّرور ما لا يُوصَف»[41].

فكأنّما مجازر سنة 407هـ لم تكن سوى حلم خيالي ، وكأنّما إفريقيّة ما زالت على مذهب الشيعة أكثر من أيّ وقت مضى .

«وفي هذه السنة وصله [أي المعزّ] سجلّ آخر بزيادة لقب آخر تشريف لشرف الدولة ، وأمر أن يُكاتَب «من الأمير شرف الدولة وعضدها» ، ويُخَاطَب بمثل ذلك . فلقيه أحسن لقاء ، وخلع عليه وحمله . وجرت المكاتبة من ذلك الوقت بهذا التشريف الجليل»[42].

ولئن أمكن ، ولو جزئيًّا ، تفسير قبول الأمر الواقع بجنون الحاكم بأمر الله ، فمن الواجب أن نبحث عن أسباب أخرى لموقف الخليفة الظاهر . ولنذكر فيما يلي بعض الاعتبارات الكفيلة بتبرير العطف غير المتوقّع ، من قِبَل عاهلٍ تجاه نائبه الذي أبدى على مثل ذلك النّحو من الوحشيّة مناهضته للمذهب الفاطمي .

فقد رأينا ، أنّه ، اعتمادًا على سكوت المصادر السنيّة ، بإمكاننا أن نؤكّد أنّ اضطهاد الشيعة ، على الأقلّ في شكله الدمويّ ، قد توقّف بعد سنة 409هـ / 1018 – 1019م . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يمكننا تصديق ابن خلدون[43] الذي أكّد أنّ المعزّ

---

39) **البيان** ، 1/269 – 279 .
40) نفس المرجع .
41) نفس المرجع .
42) **البيان** ، 1/271 – 272 .
43) **العبر** ، 6/12 – 13 .

قد قدّم اعتذاراته إلى الفاطميّين وألقى مسؤوليّة الاضطرابات على الرّعاع. وممّا لا شكّ فيه أنّ السلطة الزيريّة قد تولّت قمع التعصّب السنّي.

وفي موضع آخر[44] أكّد نفس المؤرّخ أنّ الخليفة قد أنّب نائبه في إفريقيّة تأنيبًا شديدًا على المجازر وأنّ وزيره الجرجرائي قد عمل على إرجاع الأمير الزيري إلى الجادة عن طريق التهديدات والإنذارات التي ردّ عليها المعزّ بالتهجّم على شرعيّة الخلفاء الفاطميّين. ومن سوء الحظ فإنّ ابن خلدون لم يذكر اسم الخليفة المعني بالأمر.

وبما أنّ مدّة وزارة الجرجرائي تمتدّ من 415 إلى 436 هـ / 1024 – 1045م، يحقّ لنا أن نتردّد بين الظاهر (411 – 427 هـ) والمستنصر (427 – 487 هـ). وسنرى أنّ الأمر يتعلق على الأرجح بالمستنصر.

والجدير بالملاحظة في هذا الشأن أنّ الدعم الذي منحه الظاهر لخليفته في إفريقية قد أملته الانتهازيّة. ذلك أنّ الخليفة الفاطمي كان يعتبر أنّ سلطة بني زيري هي القوّة الوحيدة في إفريقيّة القادرة على التصدّي للتعصّب السنّي الحريص على التخلّص من الهيمنة الفاطمية الشيعية وقطع دابر ذلك المذهب المكروه. على أنّه لا ينبغي اتّهام الخليفة الظاهر بالميوعة في الميدان الديني، وهو الذي أخرج من القاهرة فقهاء المالكيّة وغيرهم من أهل السنّة «وأمر الدعاة أن يحفّظوا الناس كتاب **دعائم الإسلام**[45] و**مختصر** الوزير يعقوب بن كلس»[46].

ومن الجدير بالذكر أيضًا أنّ المعزّ كان له في ذلك التاريخ – حسب الاحتمال – نائب في القاهرة، وهو بمثابة الممثّل أو وكيل الأعمال أو حتى السفير. وقد استدعاه الوزير عند حصول القطيعة.

وليس من المتأكّد أن تكون القصائد التي أشادت بالمعزّ باعتباره المحرّض على مجازر سنة 407 هـ، معاصرة لتلك الوقائع. فهي غير مؤرّخة، وربّما وُضِعت في مدّة القطيعة.

على أنّه إلى جانب القصائد التي استبشرت بتلك المذابح، تشير بعض المصادر إلى وجود قصائد أخرى قد تألّمت منها. قال ابن الأثير: «وأَكْثَرَ الشعراءُ ذِكْرَ هذه الحادثة، فَمِنْ فَرِحٍ مسرور ومِنْ بَاكٍ حزين»[47]. وبطبيعة الحال فإنّ المراجع السنيّة قد سكتت عن تلك الآثار ذات المصدر الشيعي.

---

44) نفس المرجع، 159/6.

45) [وهو كتاب «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام»، من تأليف القاضي النعمان].

46) المقريزي، 123/9؛ **الخطط**، 169/2؛ **الاتّعاظ** (الذيل)، 274 – 275.

47) **الكامل**، 123/9.

وقد روى لنا ابن عذاري[48] – نقلاً لا محالة عن أبي الصلت – هذا البيت الذي جادت به قريحة القاسم بن مروان :

[وافر]

وسوف يُقَتَّلون بكـــلّ أرضٍ كمـــا قُتِّلوا بـــأرض القيروان

وهذه الأبيات المجهولة المؤلّف :

[رمل]

يا معزّ الدين عِشْ في رفعةٍ وسرورٍ واغتبـــاطٍ وجَـــذَلْ
أنتَ أَرْضَيْتَ النبيَّ المصطفى وعتيقًـــا في الملاعين السِّفَـــلْ
وجعلتَ القَتْـــلَ فيهم سُنّـــةً بأقاصي الأرضِ في كلّ الدُّوَلْ

وهذا البيت المجهول المصدر أيضًا :

[طويل]

وكانت لهم بالشرق نارٌ فأُطْفِئَتْ فما ملكوا بالكُفْرِ شرقًا ولا غَرْبَا

ولدينا من جهة أخرى قطعة هامّة[49] من قصيدة شهيرة حول مقتل «الكلاب» في محرّم ، من نظم ابن الزنجي . ومن فضل هذه القصيدة أنّها معاصرة بدون شكّ لأحداث سنة 407 هـ / جوان 1016 م ، فقد أشاد بها النحويّ أبو عبد الله بن جعفر القزّاز (المتوفّى سنة 412 هـ / 1021 – 1022 م) .

ومحمل القول إنّ مذابح سنة 407 هـ تمثّل انفجار التعصّب الناتج عن تظافر أعمال بعض السّوقة المتوهّمين وبعض الفقهاء الأجلاّء . أما بالنسبة إلى دور الأمير الشابّ ، المعزّ بن باديس ، فيبدو أنّه كان لا فحسب زهيدًا ومُشَوَّهًا بواسطة الخرافات التي ظهرت فيما بعد ، بل أنّ السلطة قد توصّلت إلى إرجاع الأمن إلى نصابه ، فنالت رضى الخليفة الفاطمي الذي زاد في تقديرها . وسيشهد الصراع بين المالكية والشيعة فترة هدوء نسبي ستتواصل زهاء العشرين سنة إلى أن تلوح في الأفق بوادر القطيعة مع القاهرة .

48) **البيان** ، 274/1 .

49) النويري ، 135/2 : أبو الحسن الكاتب المشهور باسم ابن الزنجي ، 10 أبيات ؛ الصفدي ، **الوافي** ، ابن الزنجي الحسن بن علي الكاتب ، 17 بيتًا .

الفصل الثّالث
الصّراع مع حمّاد بن بلكّين

حملة كرامة بالمغرب الأوسط[1] :

من الجدير بالتذكير أنّ المعزّ بن باديس بن المنصور قد وّجه عمّه كرامة بن المنصور إلى أشير في 4 ذي الحجّة 406 هـ / 4 ماي 1016م ، لانتداب جنود صنهاجيّين والرجوع بهم إلى المحمّدية (المسيلة).

وبينما كان كرامة في أشير مع الجنود الصنهاجيين والتلكاتيين ، إذ «أتاه حمّاد في ألف وخمسمائة فارس ، فتقدّم إليه كرامة بسبعة آلاف مقاتل. فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا ، فرجع بعض أصحاب كرامة إلى بيت المال ، فانتهبوه وهربوا ، فتمّت الهزيمة عليه وعلى أصحابه. ووصل إلى مدينة أشير ، فأشار عليه قاضيها وأعيان أهلها بالمقام ومَنْع حمّاد عنها ، ففعل. ونازلهم حمّاد وطلب كرامة ليجتمع به ، فخرج إليه فأعطاه مالاً [3000 دينار] وأذن له في المسير إلى المعزّ.

وقتل حمّاد من أهل أشير كثيرًا ، حيث أشاروا على كرامة بحفظ البلد ومنع حمّاد منه. ووصل كرامة إلى المعزّ [يوم الأربعاء 19 محرّم 407 هـ / 28 جوان 1016 م][2] ، فأكرمه وأحسن إليه»[3].

وبعد ذلك بأقلّ من شهر ، أي يوم السبت 19 صفر 407 هـ / 28 جويلية 1016 م ، عيّن المعزّ أيّوب بن يطّوفت عاملاً على المغرب بأسره[4].

1) **الكامل** ، 106/9 ؛ النويري ، 136/2 ؛ **العبر** ، 171/6 ؛ **أعمال** ، 455.
2) النويري ، نظريًّا يوم الخميس.
3) **الكامل** ، 106/9.
4) النويري ، 136/2 : في نفس اليوم الذي عيّن فيه محمّد بن حسن.

حملة المعزّ ضدّ حمّاد[5] :

كان على المعزّ أن يستهلّ ولايته بتنظيم حملة عسكريّة ضدّ حمّاد الذي كان بصدد الاستيلاء على المغرب الأوسط. فبعد سنة واحدة من تاريخ رجوع كرامة إلى إفريقية، أي على الأرجح يوم الخميس 20 صفر 408 هـ / 18 جويلية 1017م[6]، تحوّل الأمير صحبة جنوده إلى رقّادة، حيث تولّى تنظيم الحملة وتوزيع الرواتب على العساكر. وانطلق يوم 4 ربيع الأوّل 408هـ / 31 جويلية 1017م، تاركًا إفريقية بين يَدَيْ نائبه العام محمّد بن حسن.

وكان حمّاد يحاصر باغاية[7]، بعدما استولى على المسيلة وأشير، فانضمّ الجنود التابعون لبعض القبائل والكتاميّون إلى المعزّ[8]. ولمّا اقترب الأمير من حمّاد، رفع هذا الأخير الحصار عن باغاية. وتقدم إبراهيم أخو حمّاد من باب المدينة واستدعى أيّوب بن يطّوفت الذي لا شكّ أنّه كان قائد الحامية، للتحادث معه. فلبّى أيّوب الدعوة وذهب لمقابلة إبراهيم الذي عاب عليه سلوكه قائلاً له : «إنّنا إخوة[9] وإن ما حدث كان بمشيئة الله». ثمّ أضاف : «إننا خاضعون لطاعة مولانا المعزّ، ونحن نرغب في إبرام الصلح على يديك. وإنّ حمّادًا يقرئك السلام ويقترح عليك أن ترسل إليه رجلاً ثِقَة ليتّصل به ويأخذ عليه العهود اللازمة لتهدئة الخواطر». فاغترّ أيّوب بهذه الكلمات المعسولة واستدعى أخاه حمامة[10] وحبوس بن القاسم بن حمامة وأمرهما بمرافقة إبراهيم. ثم التحق بهما يسورين غلام أيّوب الذي كان يحبّه أكثر من أخيه. ولما وصلوا إلى معسكر حمّاد، أنزلهم إبراهيم في «فازة السّلام»، وذهب لإعلام أخيه حمّاد بوصولهم. وبإذن من هذا الأخير جرّد ذكنون بن حلا؟[11] حمامة

5) النويري، 2/136–137؛ **الكامل**، 9/106–107؛ **البيان**، 1/269؛ أبو الفداء، **التاريخ**، 2/132، وقد اعتمد كتاب **الجمع والبيان** لابن شدّاد، ويبدو أنّه قد لخّصه إلى أبعد حدّ.

6) النويري، 2/136، وقد جاء في النصّ: «لسبع بقين»، وعوّضنا سبعة بتسعة. ذلك أنّ جداول المقابلة بين التاريخ الهجري والتاريخ الأعجمي تنصّ على ما يلي: السبت بالنسبة ليومي 22 و29 صفر 408 هـ والخميس بالنسبة ليوم 20. وكثيرًا ما يقع الخلط بين 7 و9 في المخطوطات العربية. وربّما بسبب هفوة قلم، جاء في **الكامل**، 9/106: «وسار المعزّ إلى حمّاد لثمانٍ بقين من صفر سنة ثمان وأربعمائة».

7) **الكامل**، 9/106.

8) النويري، 2/137.

9) ذُكِرَت هذه الكلمة في النصّ بصيغة الجمع لا بصيغة المثنّى.

10) حسب النويري، 2/137، وقد عوّضنا «جماعة» بحمامة.

11) النويري، 2/137، لم نجد أيّ إشارة أخرى إلى هذا الشخص. فلعلّ كلمة «حلا» تحريف لكلمة «جلالة»؟

وحبوس من ثيابهما وألبسهما ثيابًا رثّة ثم أوثقهما بسلاسل غليظة ووجّههما إلى القلعة. واستدعى حمّاد يسورين وخاطبه قائلاً : «هذان الشخصان هما ابنا عمّي. أمّا أنت فما الذي أتى بك إلى هنا؟ إنك تريد أن تتبجّح بقولك : قال لي حمّاد... وقلت لحمّاد...». ثمّ أمر بقتل ذلك المسكين. فلما بلغت تلك الأخبار إلى المعزّ، سار إلى حمّاد وأصحابه وهجم عليهم.

«والتقوا آخر ربيع الأوّل 408 هـ [26 أوت 1017م] فاقتتلوا. فما كان إلاّ ساعة حتى انهزم حمّاد وأصحابه ووضع أصحاب المعزّ فيهم السيف وغنموا ما لهم من عدد ومال وغير ذلك. فنادى المعزّ : مَنْ أتى برأس فله أربعة دنانير، فأُتِيَ بشيء كثير وأُسِرَ إبراهيم أخو حمّاد، ونجا حمّاد، وقد أصابته جراحة وتفرّق أصحابه»[12].

وولّى المعزّ على جميع أقاليم المغرب عمّه كرامة الذي عيّن على رأس كلّ إقليم عاملاً من اختياره[13].

الصّلح بين حمّاد وبني زيري[14] :

وجّه حمّاد الذي عاد إلى القلعة رسولاً إلى المعزّ يسأل العفو ويطلب الصلح. «فأجابه المعزّ : إن كنتَ على ما قلته، فأرسل ولدك القائد إلينا. فعاد جواب حمّاد أنّه إذا وصله كتاب أخيه إبراهيم بالعلامات التي بينهم، أنّه قد أخذ له عهد المعزّ، بعث ولده القائد أو حضر هو بنفسه. فحضر إبراهيم وأخذ العهود على المعزّ وأرسل إليه يعرفه بذلك ويشكر المعزّ على إحسانه إليه»[15].

وإثر إبرام الاتّفاق، رجع المعزّ إلى عاصمته المنصوريّة يوم 30 جمادى الأولى 408 هـ / 24 أكتوبر 1017م، بعدما مرّ من سطيف وقصر التّين[16]. «ولما وصل أطلق عمّه إبراهيم وخلع عليه وأعطاه الأموال وجميع ما يحتاج إليه»[17]. فلمّا علم حمّاد بذلك أرسل ابنه

12) **الكامل**، 106/9.
13) نفس المرجع.
14) النويري، 137/2 – 138؛ **الكامل**، 106 – 107؛ **العبر**، 158/6، 172؛ **المؤنس**، 81؛ أبو الفداء، **التاريخ**، 132/2، نقلاً عن **الجمع والبيان** لابن شدّاد.
15) **الكامل**، 106/9.
16) نفس المرجع.
17) نفس المرجع.

القائد إلى المعزّ، وكان وصوله يوم 15 شعبان 408هـ / 5 جانفي 1018م[18]. فأغدق عليه المعزّ العطايا التي بلغت قيمتها - كما يقول ابن خلدون - نفس قيمة الهدايا التي جاء بها. «وأجرى عليه في إقامته كلّ يوم ثلاثة آلاف درهم وخمسة وعشرين قفيزًا شعيرًا لدوابّه ودوابّ أصحابه وخلع على أصحابه مائة خلعة وأعطاه ثلاثين فرسًا بسروج الذهب، ومن الثياب ما لا يدخل تحت حصر»[19].

وأصدر المعزّ منشورًا يقضي بتعيين القائد عاملاً على المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج ببلاد زواوة ومقرة ودكمة وبلزمة وسوق حمزة (بويرة) وأعطاه بنودًا وطبولاً[20]. ولم يكن الأمر يتعلّق باقتسام المغرب الأوسط بين الأب وابنه. فبمقتضى الاتفاق المبرم مع حمّاد، اعترف المعزّ بهذا الأخير ملكًا مستقلاًّ على المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت وكلّ أعمال المغرب الأوسط التي سيتمكّن من فتحها. ومن المرجّح أن يكون الأمير القائد هو وليّ العهد الذي سيخلف أباه بعد وفاته.

ومنذ ذلك العهد أصبحت دولة بني زيري منقسمة إلى فرعَيْن: فرع أحفاد باديس بن المنصور بالقيروان وفرع خلفاء حمّاد بن بلكين بالقلعة. وسوف يحكم بنو زيري الأصليّون في القيروان ويتركون المغرب الأوسط إلى بني حمّاد. وتبعًا لذلك ستتغيّر أهداف السياسة الإفريقيّة التي كانت مُوَجَّهة إلى حدّ ذلك التاريخ، بصورة تكاد تكون تامّة، نحو الغرب مهد الصنهاجيّين.

وفي 4 رمضان 408هـ / 24 جانفي 1018م سار القائد إلى أبيه حمّاد وقدّم إليه شواهد الطاعة. كما أدّى زيارات متعدّدة إلى المعزّ[21].

وأخيرًا فقد عزّز حمّاد والمعزّ الصّلح المبرم بينهما بالمصاهرة. ففي رجب 415هـ / 8 سبتمبر - 17 أكتوبر 1024م زوّج المعزّ أخته العزيزة عليه أمّ العلوّ البالغة من العمر آنذاك 17 سنة، والتي سهرت على تربيتها هي أيضًا عمّتُها أمّ ملال، لابن عمّه عبد الله بن حمّاد[22].

---

18) النويري و**الكامل**.

19) **المؤنس**، ص 81.

20) النويري، 138/2؛ **العبر**، 158/6؛ أبو الفداء، **التاريخ**، 132/2. وفي **الكامل**، 107/9: «وأقطعه المسيلة وطبنة».

21) النويري، 138/2.

22) **البيان**، 272/1 - 273؛ **الكامل**، 106/9-107؛ **العِبَر**، 158/6؛ **شهيرات التونسيات**، 45 - 47، [الطبعة الثانية، 77 - 78].

وقد اَحْتُفِلَ بزفافهما في مواكب فخمة – كما أسلفنا – يومَيْ 1 و 2 شعبان 415 هـ / 8 – 9 أكتوبر 1024 م.

وفي السنة الموالية، 416 هـ / 4 مارس 1025 م – 21 فيفري 1026 م، توفّي بالقيروان المنصوريّة بدون شكّ، أيّوب بن يطّوفت الذي قام بدور بارز في الصراع مع حمّاد. «وحضر جنازته شرف الدولة وعضدها، المعزّ بن باديس، بالبنود والطبول»[23].

وفاة حمّاد بن بلكّين[24] :

توفّي حمّاد بن بلكّين في رجب[25] سنة 419 هـ / 24 أوت 1029 م بتازمرت[26] في ضواحي القلعة، «وكان خرج متنزهًا فمرض ومات. وحُمِل إلى القلعة فدُفِن بها، وولّي بعده ابنه القائد وعظم على المعزّ موته»[27]، فوجّه تعازيه إلى القائد[28].

---

23) **البيان**، 273/1.

24) **أعمال**، 456، 461 ؛ **الكامل**، 147/9 – 148، وهو المصدر الوحيد الذي ذكر خطأ تاريخ 417 هـ، بسبب الالتباس المتكرّر بين 7 و 9. **البيان** لم يذكر سنة 419 هـ بسبب نقص في النصّ بدون شكّ. أبو الفداء، **التاريخ**، 132/2.

25) **أعمال**، وهو المصدر الوحيد الذي ذكر الشهر والمكان. وقال أبو الفداء إنه توفّي في منتصف سنة 419 هـ، إلا أنّ رجب هو الشهر السابع من السنة.

26) ربّما هي بلدة تزملت الحالية التي تقع على بعد 30 كم جنوب غربي بجاية وعلى مسافة 8 كم قبل الوصول إلى بني منصور. انظر: **أعمال**، 456، الإحالة 5.

27) **الكامل**، 147/9.

28) حسب النويري فحسب. إذ أشار إلى أنّ المعزّ تلقّى خبر وفاة حمّاد في صفر 419 (الشهر الثاني من السنة). وهذا الأمر غير ممكن.

الفصل الرّابع
بنو حمّاد (430 – 438 هـ / 1038 – 1047 م)

وصف القائد ابن حمّاد[1] :

كان القائد ابن حمّاد وخليفته قويّ الشكيمة شديد البأس. لم يتردّد في قتل ٱبنه زيري ذاته، لسببٍ لا نعلمه من سوء الحظّ. وقد عيّن أخاه يوسف واليًا على المغرب وأخاه الآخر ويغلان[2] عاملاً على حمزة (بويرة).

الحرب بين القائد وزناتة فاس[3] :

في سنة 430 هـ / 30 أكتوبر 1038 – 22 سبتمبر 1039م قام الأمير المغراوي حمامة الذي كان يحكم فاس خلفًا عن أبيه المعزّ بن زيري بن عطيّة، بهجوم على القائد الذي قدم إلى ملاقاته. ووزّع خفيةً مبالغ مالية طائلة على الجنود الزناتيين. ولمّا علم حمامة بذلك[4] خشي تخلّي أولئك الجنود عنه، فرجع إلى فاس بعدما طلب الصلح من القائد واستسلم له.

الحرب بين القائد والمعزّ[5] :

وفي سنة 432 هـ / 11 سبتمبر 1040 – 30 أوت 1041م «خالف أولاد حمّاد على المعزّ بن باديس صاحب إفريقية وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه. فسار

1) **أعمال**، 4[illegible]؛ **العِبَر**، 172/6؛ ابن حزم، **نقط**، 237.
2) **العِبَر**، «ريعلان». ولعله عمّ القائد الذي أشار إليه النويري، 142/2 : «فألان أو نغلان».
3) **العِبَر**، 172/6؛ **تاريخ المغرب**، 190/1.
4) أنظر حول ولاية هذا الأمير الزناتي : **مفاخر**، 42؛ **البيان**، 254/1.
5) **العبر**، 158/6؛ **البيان**، 275/1؛ **الكامل**، 205/9، 18/10 – 19؛ النويري، 139/2.

إليهم المعزّ وجمع العساكر وحشدها وحصر قلعتهم المعروفة بقلعة بني حمّاد، وضيّق عليهم وأقام عليهم نحو سنتيّن»[6].

وفي سنة 434هـ/ 21 أوت 1042 – 9 أوت 1043م، اضطرّ القائد في آخر الأمر إلى إبرام الصلح مع ابن عمّه ورجع المعزّ إلى إفريقيّة[7].

كما أخبرنا مؤرّخ المعزّ الرسمي، ابن شرف[8] أنّ الفقيه الوَرِع أبا القاسم بن أبي مالك الذي كان يقيم في ضواحي قلعة بني حمّاد قد قدم إلى القيروان في سنة 438هـ/ 8 جويلية 1046 – 27 جوان 1047م بوصفه سفيرًا للقائد ابن حمّاد. وقد أثّرت فصاحته وفطنته تأثيرًا بليغًا في السلطان الذي أُعجِبَ به شديد الإعجاب. وطوال مدّة إقامته بالقيروان خلال تلك السفارة، عاش ذلك المبعوث النّزيه من ماله الخاصّ دون سواه.

---

6) **الكامل** (المرجع المذكور).

7) حسب ابن خلدون، **العبر**، 172/6، بعدما أبرم المعزّ الصلحَ مع القائد، توجّه إلى مدينة أشير لمحاصرتها قبل عودته. ولكنّ النصّ غير واضح.

8) **مدارك** القاضي عياض، 2 – 3/ صفحة 353 (القفا). وقد استشهد المؤلف بتاريخ ابن شرف.

الفصل الخامس
المعزّ وزناتة

هَيَجان زناتة :

بعد إبرام الصّلح مع حمّاد، اضْطُرّ المعزّ إلى التصدّي لبعض القبائل البربرية وبالخصوص زناتة التي أصبحت تنذر بالخطر أكثر فأكثر في الجنوب الشرقي من البلاد.

ذلك أنّ القائد الزناتي خليفة بن ورّو الذي كان قد استسلم لباديس، قد ثار ضدّ خليفته المعزّ وسمح لأخيه حمّاد بن ورّو، حتى سنة 413 هـ/ 6 أوت 1022 – 25 مارس 1023م، بالقيام بغارات في أراضي قابس وطرابلس. في سنة 411 هـ/ 27 افريل 1020 – 16 أفريل 1021م قام الزناتيّون بعمليّة سطو للاستحواذ على دوابّ المعزّ، فهزمهم عامل قابس. ويبدو أن ضرورة التصدّي للزناتيّين لم تكن غريبة عن عزل وزير المعزّ.

قتل الوزير محمّد بن الحسن[2] :

منذ ارتقاء المعزّ إلى العرش، كان وزيره وصاحب جيشه أبو عبد الله محمّد بن الحسن هو الحاكم بأمره في إفريقية. «فقد أقام سبع سنين لم يحمل إلى المعزّ من الأموال شيئًا، بل يجبيها ويرفعها عنده، وطمع طمعًا عظيمًا لا يصبر على مثله بكثرة أتباعه»[3]. وكان أخوه عبد الله عامل طرابلس يحمي الزناتيّين، «وهم أعداء دولته». وبينما كانت موارد الدولة تنقص شيئًا فشيئًا، كانت ثروة الوزير المطلق السلطة تزداد أكثر فأكثر، وكانت منازله الكثيرة العدد تشبه قصور الملوك. «فصار المعزّ لا يكاتب ملكًا ولا يراسله إلاّ ويكتب أبو عبد الله معه عن نفسه»[4]. وكان الوزير يوجّه الهدايا إلى كبار رجال الدولة في مصر، وكانوا يعاملونه بالمثل،

1) الكامل، 134/9؛ العبر، 42/7.
2) النويري، 138/2؛ الكامل، 136/9؛ العبر، 42/7 – 43.
3) الكامل، 136/3.
4) نفس المرجع.

حتى أنه تلقّى سجّلاً رسميًا من البلاط المصري. ومن المحتمل أن يكون محمّد بن الحسن قد حظي بثقة الخليفة الفاطمي، لأنّه كان يخدم سياسته التي كانت تعتمد أيضًا على الزناتيّين، كما سنرى ذلك فيما بعد.

وبناءً على ذلك فقد قرّر المعزّ البالغ من العمر آنذاك حوالي خمس عشرة سنة، التخلّص من تلك الوصاية الشديدة الوَطْأة. فكلّف أحد رجال حاشيته بأن يعرض على الوزير الانسحاب، مع كلّ ما يملكه من منقولات وعقارات. ولكن المعني بالأمر لم يستجب لتلك الدعوة واستمرّ في عمله. ولا بدّ أن الدّسائس والوشايات قد فعلت مفعولها هي أيضًا. وحسب رواية خياليّة أكثر منها تاريخيّة، يقال إن محمّد بن الحسن قد حكى قبل وفاته بشهرين أنه رأى في المنام عبد الله بن محمّد الكاتب الذي أخبره سجعًا وشعرًا بقرب وفاته[5].

وبالفعل، فقد قتله المعزّ بن باديس يوم 7 ربيع الثاني 413هـ/ 11 جويلية 1022م وأمر بمصادرة أملاكه وأمواله وجميع رجاله. وقلّد أبا القاسم بن محمّد بن أبي العرب سيفه ذاته وأخرجه بالطبول والبنود وولاّه على إفريقيّة بأسرها[6]. وقد نُقِش اسم هذا الشخص على واجهة مقصورة جامع عقبة الشهيرة بالقيروان على النحو التالي: «زمام الدولة أبو القاسم بن أبي عبّود الكاتب». ولا شكّ أن الأمر كان يتعلّق بوزير باديس السّابق[7].

إلاّ أنّ المعني بالأمر لم يمارس مهامّه مدّة طويلة. «فقد فوّض الأمير شرف الدولة (المعزّ) جباية الأموال وولاية العمّال والنظر في العساكر وسائر الأشغال لأبي البهار بن خلوف، يوم الثلاثاء، لخمسٍ بقين من جمادى الأولى 414هـ [15 أوت 1023م]»[8]. والجدير بالتذكير أنّ هذا الشخص كان من بين الذين أبلوا البلاء الحسن في قمع اضطرابات سنة 407هـ[9]. «فحسُنَتْ الأمور، وضُبِطَتْ الأطراف والثغور، واستقام التدبير، ورأى الأمير شرف الدولة من حزمه وكفايته وعزمه وشهامته، ما لم يقم به غيره، ولا وُجِدَ عند سواه بِوَجْهٍ»[10].

---

5) نفس المرجع.
6) النويري.
7) إدريس، مجلة أرابيكا، 1956/214 – 215.
8) البيان، 272/1، نظريًا يوم الخميس.
9) أنظر الفصل الثاني من هذا الباب.
10) البيان، 272/1.

ثورة عامل طرابلس[11] :

«لمّا وصل خبر قتل الوزير محمّد بن الحسن إلى أخيه بطرابلس، بعث إلى زناتة فعاهدهم وأدخلهم مدينة طرابلس، فقتلوا من كان فيها من صنهاجة وسائر الجيش وأخذوا المدينة»[12] واستقرّ خليفة بن ورّو في قصر عبد الله بن الحسن، بعدما طرده وصادر أملاكه واستولى على حرمه. «فلمّا سمع المعزّ ذلك أخذ أولاد عبد الله ونفرًا من أهلهم فحبسهم. وقد تمكّن محمد بن وليمة[13] فيما بعد من القبض على عبد الله بن الحسن، فأرسله إلى المعزّ الذي زجّ به في السجن. وقد طالب نساء وأبناء الصنهاجيّين المقتولين بطرابلس الأخذ بثأر موتاهم، فقتل المعزّ جميع أبناء محمّد بن الحسن الذين كانوا في قبضته.

الاستعدادات لمحاربة الزناتيّين[14] :

«وفي سنة 414هـ [26 مارس 1023 — 14 مارس 1024م] وردت الأخبار وتتابعت بإفريقية بأن خليفة بن ورّو ومن معه رموا في البحر مراكب كثيرة، وانهم رحلوا من طرابلس في طلب الفتوح بن القائد. وقد كان كاتب شرف الدولة المعزّ بن باديس في الانحياش إليه والدخول في طاعته، فأعطاه مدينة نفطة من عمل قسطيلية.

«فخرج شرف الدولة، فاجتاز سوسة، ثم إلى المهدية، وذلك يوم الخميس لأربعٍ خلونَ من المحرّم[15] [29 مارس 1023م]. وأمر بالنداء في حشد البحريّين، وكتب أن يلحق به كلّ من يتخلّف عنه من عساكره، ليكون رحيله من المهديّة إلى صفاقس ثم إلى قابس، قاصدًا إلى طرابلس. وأمر بالاحتفاز في إصلاح القطائع وعمارة دارة الصناعة.

«وأخذ في إنشاء العُدَد الحربيّة، فأُنشِئَ منها في المدّة القريبة ما لم يتمّ مثله في الزمن البعيد. ثم رأى الوصول إلى المنصوريّة ليأخذ الناس عُدَدَهم وما يحتاجون إليه. فكان وصوله

---

11) **الكامل**، 136/9؛ النويري، 139/2؛ **العبر**، 43/7.
12) **الكامل**، 136/9. أنظر أيضًا: **العبر**، 43/7.
13) لعلّ هذا الشخص هو الذي أطلقت عليه بعض المصادر اسم «لصوبة» وقالت إنه كان عاملاً على القيروان في سنة 407هـ. أنظر الفصل الثاني من هذا الباب.
14) **البيان**، 270/1.
15) نفس المرجع، نظريًّا يوم الجمعة.

يوم الاثنين لستٍّ بقين من المحرّم من العام [18 أفريل 1023م] »[16]. ويبدو أنّ هذا القرار الذي يمكن تفسيره – بالرغم من حرص المعزّ على الإسراع بتنفيذه – بالمدّة اللازمة لإتمام الاستعدادات، قد أملته بعض الأسباب الأخرى المستعجلة ذات الصبغة العائلية والسياسية، بل حتى الاقتصاديّة. ذلك أن المعزّ كان مضطرًّا إلى عيادة عمّته ووصيّته العزيزة عليه أمّ ملال المريضة آنذاك، وقد توفّيت إثر مرض عضال آخر رجب 414هـ/ 18 أكتوبر 1023م[17]. وكان قبل ذلك بشهرين قد ظفر أخيرًا بوزيرٍ كامل الشروط، في شخص الرجل الحازم أبي البهار بن خلوف. ومن ناحية أخرى، فقد شهدت إفريقيّة مجاعة عظيمة في السنة السابقة (413هـ/ 6 افريل 1022 – 25 مارس 1023م)[18]. فلا غرابة حينئذٍ إذا ما قرّر المعزّ العدول عن تنفيذ مشروعه المتعلّق بالهجوم على طرابلس.

وإذا كان الدينار المُودَع في متحف باردو [بتونس][19] والمضروب بطرابلس سنة 415هـ/ 1023 – 1024م، قد ضُرِبَ فعلاً في طرابلس الغرب لا في طرابلس الشام، يمكننا أن نؤكّد أنّ خليفة بن ورّو قد سكّ نقودًا فاطمية بطرابلس في ذلك التاريخ. ومن المعلوم أنّ الحاكم بأمر الله قد اختفى في ظروف غامضة في سنة 411هـ. وقد استخلص من ذلك الباحث الذي نشر تلك القطعة النقدية أنّ الزناتيّين الظاعنين في أرض طرابلس كانوا لا يعترفون بالخليفة الفاطمي الجالس على العرش آنذاك، وهو الظاهر، ويعتبرون أنّ الحاكم بأمر الله هو إمامهم الأخير. وتبدو هذه الظاهرة غريبة ولكنّها غير مستبعدة.

هَيَجان زناتة :

«وفي هذه السنة (415هـ/ 15 مارس 1024 – 3 مارس 1024م) خرج بإفريقيّة جمعٌ كثيرٌ من زناتة، فقطعوا الطريق وأفسدوا بقسطيلية ونفزاوة، وأغاروا وغنموا، واشتدّت شَوْكتهم، وكَثُرَ جَمْعُهُم»[20]. ولم يذكر لنا ناقل هذا الخبر هل أنّ خليفة بن ورّو قد قام

---

16) نفس المرجع.

17) نفس المرجع.

18) **الكامل**، 136/9: «وفيها كان بإفريقية غلاء شديد ومجاعة عظيمة لم يكن مثلها في تعذّر الأقوات».

19) فاروجيا، **المجلة التونسية**، 1936/338 – 340 و1948/105.

20) **الكامل**، 141/9.

بدور في هذه القضية التي تبدو بالغة الخطورة. «فسيّر إليهم المعزّ بن باديس جيشًا وأمرهم أن يجدّوا السير ويسبقوا أخبارهم. ففعلوا ذلك وكتموا خبرهم وطوَوْا المراحل حتى أدركوهم وهم آمنون من الطلب. فوضعوا فيهم السيف، فقتل منهم خلق كثير وعلّق خمسمائة رأس في أعناق الخيول وسُيِّرَت إلى المعزّ وكان يوم دخولها يومًا مشهودًا»[21].

إبرام الصلح مع زناتة[22]:

وفي سنة 417هـ/ 22 فيفري 1026 – 10 فيفري 1027م تحصّل خليفة بن ورّو من الخليفة الظاهر على إقراره على رأس الولاية التي استولى عليها. وفي المقابل تعهّد بالمحافظة على السيادة الفاطميّة في تلك المنطقة والسهر على أمن الطرقات وتوفير الحرس لخفر القوافل. ومما لا شكّ فيه أنّ هذا الاتّفاق قد أغضب المعزّ. ولكن في نفس تلك السنة وجّه إليه خليفة بن ورّو الذي كان حريصًا على تعزيز تأميناته، أخاه حمّاد الذي سلّم إليه هديّة ثمينة. فأهدى المعزّ إلى ضيفه، تعبيرًا له عن رضاه، هديّة لا تقلّ قيمة عن الهديّة التي تسلّمها[23].

وفي نفس تلك السنة أيضًا – ولكنّنا لا ندري هل تمّ ذلك قبل أو بعد إبرام الاتّفاق – «وردت رُسُلُ زناتة وكتامة إلى المعزّ بن باديس يطلبون منه الصلح وأن يقبل منهم الطاعة والدخول تحت حكمه، وشرطوا أنهم يحفظون الطريق وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم، فأجابهم إلى ما سألوا. وجاءت مشيخة كتامة إليه فقبلهم وأنزلهم ووصلهم وبذل لهم أموالاً جليلة»[24].

إلاّ أنّ السّلم لم تدم طويلاً. في سنة 420هـ/ 20 جانفي 1029 – 8 جانفي 1030م «زحفت جموع زناتة تريد حضرة القيروان، طمعًا في الملك. فبلغ ذلك المعزّ، فجمع عساكره وسار إليهم بنفسه، فالتقوا بموضع يُعرَف بجمديس الصابون ووقعت الحرب بين الطائفتين واشتدّ القتال، فانهزمت زناتة وقتِل منهم خلق كثير وفرّ باقيهم إلى الغرب. وعاد المعزّ ظافرًا غانمًا»[25].

---

21) نفس المرجع.

22) **الكامل**، 147/9؛ **العبر**، 43/7.

23) لقد أنهى ابن خلدون الفقرة المذكورة كما يلي: «إلى هنا تنتهي رواية ابن رشيق حول عائلة بني خزرون وتبتدئ رواية ابن حمّاد وغيره من المؤرّخين».

24) حسب **الكامل** فحسب.

25) **البيان**، 274/1 و**الكامل**، 157/9.

وفي سنة 423 هـ / 19 ديسمبر 1031 – 16 ديسمبر 1032م «كان بين أهل تونس من إفريقية خلف، فسار المعزّ بن باديس إليهم بنفسه فأصلح بينهم وسكّن الفتنة وعاد»[26].

«وفيما اجتمع ناس كثير من الشيعة بإفريقية، وساروا إلى أعمال نفطة، فاستولوا على بلد منها وسكنوه، فجرّد إليهم المعزّ عسكرًا، فدخلوا البلاد وحاربوا الشيعة وقتلوهم أجمعين»[27].

واستمرّ بنو خزرون من جهتهم في ضرب السكّة، فقد عُثِر على دينار ضُرِب بطرابلس الغرب سنة 425 هـ / 1033 – 1034م وربُع دينار من نفس الصنف[28]. ولكنّ العبارات المنقوشة على القطعتين، وهي : «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي» و«لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله»، تكتسي صبغة مضادّة للفاطميين بصورة صريحة. فيبدو أنّ الأمير الزناتي خليفة بن ورّو الذي ثار على المعزّ التابع للظاهر، قد خرج في نفس الوقت عن طاعة الخليفة الفاطمي. فهل أنّ القطيعة التي حصلت بين بني خزرون والقاهرة قد شجّعت المعزّ شيئًا ما على قطع الدّعوة للفاطميّين؟ بالرغم من أنّ هذا الاحتمال مشكوك فيه، فإن المسألة يجب أن تُطرَح.

وفي سنة 427 هـ / 5 نوفمبر 1035 – 24 أكتوبر 1036م «اجتمعت زناتة بإفريقية وزحفت في خيلها ورجلها يريدون مدينة المنصوريّة، فلقيهم جيوش المعزّ بن باديس بموضع يقال له الجفنة[29] قريبًا من القيروان، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وانهزمت عساكر المعزّ، ففارقت المعركة ووصلت إلى ما بين المنصوريّة والقيروان. ثمّ تلاقوا في الغد من ذلك اليوم وحرّض بعضهم بعضًا، فصبرت صنهاجة وانهزمت زناتة هزيمة قبيحة وقُتِل منهم عدد كبير وأُسِرَ خلق عظيم. وتُعرَف هذه الوقعة بوقعة الجفنة، وهي مشهورة لعظمها عندهم»[30].

وفي السنة الموالية (428 هـ / 25 أكتوبر 1036 – 13 أكتوبر 1037م)، «عاود المعزّ بن باديس حرب زناتة بإفريقية فهزمهم وأكثر القتل فيهم وخرّب مساكنهم وقصورهم»[31].

---

26) **الكامل**، 178/9.

27) نفس المرجع.

28) فاروجيا، **المجلة التونسية**، 1936/ 338 – 339، 1937/93 – 94، 1948/ 105 – 106.

29) هنشير الجفنة أو بير الجفنة في الخريطة.

30) حسب **الكامل**. أما في **البيان** (275/1) فقد جاء ما يلي : «فثبتت صنهاجة وثبتت زناتة». (وربّما كان هذا النصّ مبتورًا).

31) **الكامل**.

وفي سنة 429 هـ / 14 أكتوبر 1037 – 2 أكتوبر 1038م «سارت عساكر المعزّ بن باديس بإفريقية إلى بلد الزّاب ، ففتحوا مدينة تسمّى بورس[32] وقتلوا من البربر خلقًا كثيرًا وفُتِحَ من بلاد زناتة قلعة تسمّى كروم»[33].

قضيّة طرابلس[34] :

لم نعثر في النصوص على أيّ أثر لخليفة بن ورّو بعد سنة 417 هـ / 22 فيفري 1026 – 10 فيفري 1027م. وقد أخبرنا ابن خلدون أنّ ابْنَيْ خزرون ، المنتصر وسعيد قد استقرّا في ضواحي طرابلس بعدما أجلى المرتزقة الأتراك منافسيهم المغاربة من مصر، وكانوا في معظمهم من كتامة. وذات يوم ، ربّما بعد وفاة خليفة بن ورّو – ولكنّنا لا ندري متى ولا كيف تمّ ذلك – أصبح سعيد بن خزرون صاحب طرابلس ، وقد حكمها حتى وفاته سنة 429 هـ / 14 أكتوبر 1037 – 2 أكتوبر 1038م. وحسب التّجاني «فقد قتلته زغبة»[35]. وعند نقله لهذا الخبر لاحظ ابن خلدون بحقّ أنّ بني هلال الذين تنتمي إليهم قبيلة زغبة لم يدخلوا إفريقية إلاّ سنة 440 هـ / 1048 – 1049م (والواقع أنهم دخلوا في سنة 442 على أقلّ تقدير). واستنتج مؤرّخنا من ذلك أنّ فرعًا من فروع تلك القبيلة قد كان موجودًا في منطقة طرابلس قبل سنة 442 هـ.

وقد رأينا أنّ بني قرة التابعين لقبائل بني هلال قد قدموا إلى طرابلس صحبة يحيى بن علي بن حمدون في سنة 392 هـ / 1001 – 1002م ، ولكنّهم عادوا إلى برقة فيما بعد. فهل كان من بينهم بعض أنفار من قبيلة زغبة قد مكثوا هناك؟ ولربّما ارتكب التّجاني خطأً تاريخيًّا ، لأنّ منطقة طرابلس ومدينة قابس قد كانتا من نصيب زغبة أثناء غزوة بني هلال. وفي موضع آخر[36] أكّد ابن خلدون أنّ رجال زغبة الذين كانوا كثيري العدد وأقوياء قد استولوا ، عند دخولهم إلى إفريقية ، على ضواحي طرابلس وقابس وقتلوا أمير طرابلس المغراوي سعيد بن خزرون.

---

32) نفس المرجع ، (وحسب النويري قورس).
33) نفس المرجع ، (حسب النويري ، كردوم أو كردون).
34) **العبر**، 43/7 ؛ **رحلة التجاني** ، ص 267.
35) **الرحلة** ، ص 267.
36) **العبر**، 40/6.

ومهما يكن من أمر فإن الفقيه أبي الحسن علي بن محمّد بن المنمّر[37] هو الذي حكم طرابلس مدّة قصيرة من الزمن إثر مقتل سعيد بن خزرون.

«فقد فتح أبو الحسن بن المنمّر مدينة طرابلس لخزرون بن خليفة ، فدخلها وأقام بها أشهرًا ، ثم لما كان شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاثين (ديسمبر 1038) وصل المنتصر بن خزرون وكانت معه عساكر زناتة ، ففرّ خزرون بن خليفة من طرابلس مختفيًا وترك له البلد ، فدخل المنتصر وأوقع بأبي الحسن مكروهًا عظيمًا ونفاه من البلد واستباح جميع أملاكه وعذّب كثيرًا من أقاربه بسببه»[38].

فالتجأ الفقيه المسكين إلى بلدة غنيمة من بلاد مسلاتة حيث أدركته المنيّة بعد ذلك بسنتين.

وأشار ابن خلدون إلى أنّ المعزّ قد وجّه ثلاث حملات عسكريّة ضدّ زناتة «في أعوام ثلاثين وأربعمائة»[39]. فقد توجّه الزناتيّون الظاعنون بأرض طرابلس أثناء الحملة الأولى نحو المعزّ الذي قدم لمحاربتهم. «فبرزوا إليه وهزموه وقتلوا عبد الله بن حمّاد الصنهاجي وسبوا أخته أمّ العلوّ بنت باديس ثم أطلقوها بعد حين إلى أخيها»[40].

ويمكن تفسير وجود عبد الله بن حمّاد الذي ربّما كان قائدًا للجيش الصنهاجي ، بالعلاقات الممتازة التي كانت قائمة بين بني زيري وبني حمّاد ، منذ إبرام معاهدة سنة 408 هـ / 1017 – 1018م.

وبعد ذلك ردّ الزناتيّون هجومًا صنهاجيًّا ثانيًا ، ولكنّهم انهزموا أثناء الهجوم الثالث ، فاستسلموا وأبرموا معاهدة صلح مع المعزّ.

---

37) حول هذا الفقيه ، أنظر: ادريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954/ 153 – 155.

38) رحلة التجاني ، 267.

39) العبر، 43/7.

40) المرجع المذكور.

قضيّة جربة[41] :

وهجم الثوّار الزناتيّون أيضًا على جزيرة جربة. ففي سنة 431هـ / 23 ديسمبر 1039 – 10 ديسمبر 1040م، انطلقت جيوشٌ **مارقة**[42] من الجنوب التونسي (طرابلس وجبل نفوسة)، وعلى رأسها القائد النكاري، لفتح جربة. وربّما يرجع أحدُ الأسباب الرئيسية لذلك الهجوم إلى الجفاف الذي اكتسح تلك المنطقة في السنة السابقة.

«ووصل الثائر النكاري إلى جربة وافتتحها وقتل من أراد من أهلها وسبى ذراريهم وأسر ابن كلدين مقدّمهم ثم قتله وصلبه. فجهّز إليه المعزّ أسطوله وقتل أصحابه قتلاً شنيعًا واستقرّت جربة تحت طاعته»[43].

قضيّة درجين[44] :

حسب مؤلّف السِّيَر الاباضي الشمّاخي، استولى الصنهاجيّون على قلعة درجين الواقعة في أقصى ناحية غربية من منطقة قسطيلية، بعد حصار طويل، وقتلوا 1500 شخصًا من الخوارج من بينهم عدد كبير من المشائخ. وكان على رأس الجيش الصنهاجي قائدٌ اسمُه «قطار؟»[45].

ومن ناحية أخرى قال ابن عذاري في هذا السياق ما يلي: «وفي سنة 433 (31 أوت 1041 – 20 أوت 1042) وصل الأمير نزار بن المعزّ إلى الحضرة، قافلاً من سفره الذي هزم فيه زناتة. فأنشده ابن شرف قصيدته التي أوّلُها:

[كامل]

طلَعَتْ من الغربيّ شمسُ الدين   بالسّعد والإقبالِ والتمكين»[46]

---

41) **رحلة التجاني**، ص 125؛ الشماخي، 372 – 373.

42) **البيان**، تحقيق دوزي «جيوش مالقة»، ونفس المرجع، تحقيق كولان وليفي بروفنسال «جيوش مالطة». وقد اقترحنا «جيوشٌ مارقة».

43) **رحلة التجاني**، ص 125.

44) الشماخي، 466 – 467.

45) نفس المرجع.

46) **البيان**، 276/1.

ومن المعلوم أنّ الأمير الشابّ قد وُلِدَ في سنة 417 هـ / 22 فيفري 1026 – 10 فيفري 1027 م[47] . فإذا كان ابن عذاري قد أشار، حسبما ذهبنا إليه ، إلى قضيّة درجين ، فإن القائد غير المعروف الذي أطلق عليه الشمّاخي اسم «قطار» ربّما لم يكن شخصًا آخر غير الأمير نزار بن المعزّ .

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ مصادرنا الاباضية لم تتحدّث عن استسلام الخوارج ، بل بالعكس من ذلك تنبّأت بعقاب المعزّ في القريب العاجل من طرف الأمير الهلالي مؤنس بن يحيى المرداسي الصّنبري الذي سيدمّر مملكته ويطرده من القيروان والمهديّة[48] .

ونلاحظ من خلال ذلك أنّ الزناتيّين الخوارج الذين تعرّضوا لأقسى أنواع القمع ، بل الذين استسلموا بصورة وقتيّة ، قد كانوا يرون أنّ بني هلال هم الذين سيأخذون بثأرهم . وبناءً على ذلك فإنّ الصنهاجيّين يكونون أغبياء ، لو اعتمدوا أثناء معركة حيدران المقبلة على عدوّهم اللّدود .

الحملة العسكريّة ضدّ لواتة[49] :

لقد أحرز المعزّ بن باديس انتصارًا باهرًا أيضًا ضدّ لواتة . فقد أخبرنا ابن عذاري بما يلي :

«وفي سنة 437 هـ (19 جويلية 1045 – 7 جويلية 1046 م) وردت رُسُل المعزّ إلى القيروان تخبر أنه أوقع بلواتة وقتل منهم عددًا وغنم منهم أموالاً . فضُرِبَت الطبول على ذلك . وفي ذلك يقول ابن شرف قصيدة أوّلها :

[منسرح]

بـاليُمْـنِ والسعـد عُـدَّ وبـالظفرِ مُـوَفَّـقَ الـوِرْدِ غانمَ الصّدر»[50]

---

47) نفس المرجع .

48) الشماخي ، 372 – 373 . وقد صحّحنا «مؤنس» عوض «يونس» . وفي كتاب أبي الربيع أطلق على هذا الشخص اسم موسى بن يحيى الطنبري وهي قراءة خاطئة .

49) **البيان** ، 276/I .

50) نفس المرجع .

الفصل السّادس
المعزّ والبحر الأبيض المتوسّط

لقد أصبحت شؤون البحر الأبيض المتوسّط تكتسي أهميّة أكبر فأكبر، إثر تولية المعزّ بن باديس الذي هو أوّل ملك إفريقي صميم من ملوك بني زيري ، ومنذ انتهاء محاولات التوسّع الصنهاجي في المغرب. كما أصبحت أساطيل بني زيري تواجه بيزة وجنوة على وجه الخصوص ، إلى أن احتلّ النرمان جزيرة صقليّة. ففي سنة 1020م (411هـ) انطلق أسطولٌ من المهديّة وعاث فسادًا في جنوب إيطاليا ، ولكن عند عودته تمكّن بعض رعايا بيزة وجنوة من الاستيلاء على غنائمه[1].

ومن المعلوم أيضًا أنّ إمبراطور الرّوم بازيل الثاني قد نظّم حملة عسكريّة ضدّ قلبريّة تكلّلت بالنجاح. ثمّ تعزّز الجيش الذي قام بتلك الحملة وكان من المقرّر أن ينزل في صقليّة التي كان يحكمها الأكحل. ولكنّ وفاة الإمبراطور في ديسمبر 1025 قد حالت دون تنفيذ ذلك المشروع[2].

وفي سنة 416هـ/ 4 مارس 1025 – 21 فيفري 1026م ، حسب رواية ابن الأثير[3] «بلغ ذلك المعزّ بن باديس ، فجهّز أسطولاً كبيرًا بأربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقًا وتطوّع جمع كثير بالجهاد رغبةً في الأجر. فسار الأسطول في كانون الثاني (جانفي 1026) ، فلما قرب من جزيرة قوصرة[4] – وهي قريبة من برّ إفريقية – خرج عليهم ريح شديدة ونوء عظيم ، فغرق أكثرهم ولم يَنْجَ إلا اليسير».

ولم يشكّ أماري في صحّة هذه الرواية، إذ أنّه يفترض أنّ الأكحل قد استنجد بالمعزّ بن باديس ، وذلك بالإضافة إلى طموح الأمير وتحمّس الإفريقيّين للجهاد. والغريب في الأمر أنّ أيّ مصدر عربي آخر لم يؤكّد رواية ابن الأثير. ومن ناحية أخرى فإنّ هذه الكارثة تذكّرنا

1) دي ماس لاتري ، **المقدّمة** ، 8.

2) **ستوريا** ، 2/422–423 ؛ لويس ، **القوة البحرية** ، 194.

3) **الكامل** ، 9/145.

4) [المعروفة باسم جزيرة بنتلاريا].

إلى حدّ كبير بالحادثة التي جدّت في ظروف مماثلة بعد ذلك بمدّة طويلة[5]. اللهمّ إلاّ إذا كانت الحادثة الأخيرة هي نفس الحادثة التي نتحدث عنها الآن، وذلك لعدم إثارة الشكوك.

ومن الأرجح أنّ أهل بيزة قد شجّعهم ما أحرزوه من نجاح في جزيرة سردانية، فهجموا على مدينة عنّابة في سنة 1034م (426هـ) واستولوا عليها. وهناك نقيشة غير مؤرخّة في كاتدرائية بيزة تخلّد ذكرى ذلك العمل الباهر الذي ساهمت فيه حسبما يبدو بعض السفن القادمة من البروفانس[6].

وقد أصدر أبو عمران الفاسي (المتوفى سنة 430هـ/ 1038م) فتوى تتعلّق بسفينة قد انطلقت من الإسكندريّة والتحقت ببعض السفن التابعة للمهدية والمتّجهة على الأرجح إلى تلك المدينة. ولما اقتربت من جبل برقة هجم عليها بعض القراصنة الروم فأنقذتها سفنٌ صقلية وعادت بها إلى جزيرتها[7].

«وفي سنة 426هـ (16 نوفمبر 1034 — 4 نوفمبر 1035م) وصلت إلى المعزّ بن باديس من ملك الرّوم[8] هديّة لم يُرَ مثلها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر»[9]. وهذه السفارة تشبه سفارة جورج بروباتو الذي كُلِّف في ماي 1035م (426هـ) بالتوجّه إلى أمير صقلية الأكحل للتفاوض معه بشأن إبرام معاهدة صلح[10]. وقد بدأ يقترب تاريخ القطيعة بين المعزّ بن باديس والقاهرة، ويتوضّح خطر النرمان الذين استقرّوا في إيطاليا منذ سنة 1029م. وهذا ما يفسّر الحملة الديبلوماسية البيزنطية.

ولكن في سنة 439هـ/ 1046— 1047م وجّه المعزّ بن باديس أسطولاً للهجوم على جزر القسطنطينية، فرجع الأسطول ظافرًا ومحمّلاً بالغنائم.

«وفي هذه السنة تجدّدت الهدنة بين صاحب مصر وبين الروم وحمل كلّ واحد منهما لصاحبه هديّة عظيمة»[11]. ومما لا شكّ فيه أن هذا التزامن لم يكن من باب الصدفة.

---

5) انظر الفقرات الموالية.
6) **ستوريا (Storia)**، 564/2؛ لاكور غايبي، 225/2؛ برنو، **تاريخ التجارة بمرسيليا**، 121/1–130.
7) البرزلي، مخطوط الرباط، 227/2–228؛ **المختصر**، مخطوط تونس، 108–109؛ **المعيار**، 188/8–189.
8) [الامبراطور البيزنطي].
9) **البيان**، 275/1.
10) **ستوريا**، 426/2، 434–435.
11) **الكامل**، 225/9.

وبعد سنة 1034م شرع تجّار بيزة في التردّد على صقليّة ، ولحمايتهم اقتحم أسطول تابع لبيزة ميناء بلرمو وخرّب دار الصناعة الموجودة بها[12].

تدخّل بني زيري في صقليّة :

لقد شهدت جزيرة صقلية طوال عهد المعزّ بن باديس انتفاضات خطيرة. كانت من أسباب غزوها من طرف النّرمان ، وقد لفت هذا الوضع انتباه صاحب إفريقية. وليس من المستبعد أن يكون الصنهاجيّون الذين أصبح مجال تدخّلهم مقتصرًا على إفريقية وكانوا يتأهّبون لقطع صلاتهم بالقاهرة ، قد فكّروا في استرجاع تلك الجزيرة الفاطمية وتجديد الأعمال الباهرة التي قام بها الأغالبة هناك. على أن أهل صقليّة قد استنجدوا بالصنهاجيّين مرّتين متتاليتين.

والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ ابن عذاري قد ضرب صفحًا عن التحوّل الذي شهده تاريخ صقليّة الإسلامية آنذاك ولم يتعرّض للحملتين اللتين قام بهما المعزّ في تلك الجزيرة[13].

ففي أواخر عهد المعزّ بن باديس ،،حوالي سنة 405 هـ / 1014 – 1015م أُصيب أمير صقلية يوسف بن عبد الله بفالج ، «فاستناب ابنه جعفر ، فخالف عليه أخوه علي وأعانه جمع من البربر والعبيد. فأخرج إليه أخوه جعفر جندًا من المدينة ، فاقتتلوا وقُتِلَ من البربر خلق كثير وهرب من بقي منهم وأُخِذَ عليٌّ أسيرًا ، فقتله أخوه جعفر وأمر أن يُنفَى كلّ بربري بالجزيرة ، فنُفُوا إلى إفريقية»[14].

وفي المحرّم سنة عشر وأربعمائة / 9 ماي – 7 جوان 1019م ثار أهل صقلية على جعفر فخلعوه والتمسوا من أبيه أن يستعمل ابنه أحمد المعروف بالأكحل ، ففعل ذلك. «وخاف يوسف على ابنه جعفر ، فسيّره في مركب إلى مصر وسار بعده»[15].

«ولما ولّى الأكحل أخذ أمره بالحزم والاجتهاد وجمع المقاتلة وبثّ سراياه في بلاد النصارى فكانوا يحرقون ويغنمون ويسبون ويخرّبون البلاد. وأطاعه جميع القلاع التي

---

12) بيران ، 183.

13) كما لم يشر إلى الحملة التي جرت في أوائل عهد تميم.

14) **الكامل** ، 79/10.

15) نفس المرجع.

للمسلمين». وقد حاول في أوّل الأمر الاعتماد على أهل صقلية ضدّ الإفريقيين، ثم تقرّب من هؤلاء لما فشلت محاولته، «فكان يحمي أملاكهم ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية. فسار منهم جماعة إلى المعزّ بن باديس وشكوا إليه ما حلّ بهم وقالوا: نحبّ أن نكون في طاعتك، وإلاّ سلّمنا البلاد إلى الروم، وذلك سنة 427هـ (5 نوفمبر– 24 أكتوبر 1036م)»[16]. فسيّر إليهم المعزّ جيشًا يضمّ 3000 فارس و3000 راجل[17] بقيادة ابنه عبد الله[18] الذي دخل إلى مدينة بلرمو وحاصر الأكحل في قصره بالخالصة[19].

«ثم اختلف أهل صقلية، وأراد بعضهم نصرة الأكحل، فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعزّ» وسلّموا رأسه إلى عبد الله الذي لا شكّ أنه بعثه إلى أبيه. إذ أكّد ابن خلدون أنّ رأس الأكحل قد وصل فعلاً إلى المعزّ بن باديس. ولكنّ الشقّين المتخالفين ربّما خافا من انتصار عبد الله ابن المعزّ وخشيا عواقبه، فأسرعا إلى التحالف مع بعضهما بعضًا ضدّ المحتلّ. فانهزم جنود المعزّ وقُتِل منهم ثلاثمائة رجل على أقلّ تقدير[20] ورجعوا إلى إفريقيّة، تاركين الجزيرة تتخبّط في الفوضى المتفاقمة.

وحوالي سنة 1040م / 431–432هـ، حسب مصدر بيزنطي، انهزم عبد الله بالقرب من تروانا، هزمه جيش بيزنطي بقيادة جورج مانياكيس، كان قد نزل بصقلية قبل شهر سبتمبر 1038م. وكان عبد الله قد حاول الهجوم من خلف على الجيش البيزنطي الذي كان يحاصر سرقوسة. ولكنه انهزم في منتصف الطريق الرابطة بين رندازو وتروانا. وحسب مصدر نرماني، فإن النرمان هم الذين هزموه، ولم يقدم اليونانيّون إلاّ لأخذ نصيبهم من الغنيمة[21].

ومن المحتمل جدًّا أن تكون هذه الواقعة التي لم تشر إليها المصادر العربية هي نفسها التي روتها تلك المصادر بإيجاز. ذلك أن الأساطيل المسيحية لم تتأخّر، إثر فرار المعزّ إلى المهديّة (449هـ / 1057م)، عن توجيه حملات عسكرية ضدّ إفريقية، من نوع الحملة التي أشار

16) نفس المرجع. أنظر أيضًا النويري، 444–445، والعبر، 483.

17) حسب النويري لا غير. وفي العبر: 3000 فارس فحسب.

18) وفي العبر أشار ابن خلدون إلى ابن آخر من أبناء المعزّ إلى جانب عبد الله وهو أيوب. ولا شكّ أن المؤرّخ قد اشتبه عليه الأمر مع واحد من ابنَيْ تميم اللذين شاركا في حملة بصقلية.

19) العبر، وفي الكامل: «وحصر الأكحل في الخلاصة». وحول هذه البلدة الموجودة خارج مدينة بلرمو، أنظر: المقدسي، 30–31، 102.

20) في الكامل: 800 قتيل.

21) ستوريا، 446–447، 478–479، 489.

إليها ابن بسّام في سياق الحديث عن الأمير وشاعره ابن رشيق[22].

وإذا ما صدّقنا المصادر العربيّة[23]، فإن الانتصارات[24] التي أحرزها في صقلية النرمان المتحالفون مع ابن الثمنة ضدّ ابن الحوّاس، قد تسبّبت في هجرة عدد كبير من أهل صقلية إلى إفريقيّة. «فسار جماعة منهم إلى المعزّ بن باديس وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها. فعمّر أسطولاً كثيرًا وشحنه بالرجال والعُدَد وكان الزمان شتاء. فساروا إلى قوصرة، فهاج عليهم البحر فغرق أكثرهم ولم يَنْجَ إلاّ القليل. وكان ذهاب هذا الأسطول ممّا أضعف المعزّ وقوّى عليه العرب [من بني هلال] حتّى أخذوا البلاد منه»[25].

وحسب رواية ابن الأثير – وهي أوضح وأدقّ رواية – فإنّ دخول النرمان وابن الثمنة إلى الحرب قد تمّ في رجب سنة 444هـ/ 8 نوفمبر– 7 ديسمبر 1051م. ثم أشار المؤلف إلى ما أحرزوه من انتصارات وإلى معركة قصريانة التي جرت بلا ريب، حسب المصادر المسيحية[26] في شتاء سنة 1061م. واستنتج أماري[27] من ذلك أن الاخباريّين العرب، حرصًا منهم على تفسير هزيمة الصنهاجيّين بإفريقيّة، قد ارتكبوا خطأً تاريخيًّا. ذلك أنّ تدمير أسطول المعزّ قد تمّ بلا ريب خلال شتاء سنة 1061م (أوائل سنة 453هـ). على أنّ ذلك الخطأ التاريخيّ يمكن أن يكون متعلقًا برواية معركة قصريانة[28]. أليس من الأفضل تأخير تلك المغامرة البحرية الفاشلة بعدّة سنوات وتحديد تاريخها مثلاً بفترة سابقة لسقوط القيروان (449هـ/ 1057م) بل حتى لمعركة حيدران (443هـ/ 1050م). وبعد هذا أو ذاك من يدري لعلّ الأمر يتعلق بحادثة الغرق التي جرت في جانفي 1026م (416هـ)، وهي تشبه إلى حدّ كبير الحادثة التي نحاول تحديد تاريخها. ومهما يكن من أمر فلا شيء يدفعنا إلى اختيار تاريخ 1061م (453هـ) لتحديد الفترة التي جرت فيها محاولة قام بها ملكٌ في وضع ميؤوس منه. ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أن مصير بني زيري سيتحدّد من البحر، حيث ستكون جرأتهم متوقّفة على ما سيحرزونه من انتصارات بحريّة أقلّ ممّا هي متوقفة على خيباتهم البريّة.

---

22) **مسالك الأبصار** للعمري نقلاً عن **الذخيرة** لابن بسّام.

23) **الكامل**، 10/80–81، والنويري.

24) **ستوريا**، 3/72.

25) **الكامل**، 10/80.

26) **ستوريا**، 3/65–84.

27) نفس المرجع، 3/82–85 وبالخصوص الإحالة 2، 84–85.

28) لم يشر النويري إلى هذه المعركة.

الفصل السّابع
القطيعة مع القاهرة[1]

رغم أنّ الإفريقيّين أصبحوا لا يتعرّضون للشّيعة بأيّ أذى – حسبما يظهر – وربّما من أجل ذلك ، يبدو أنّ الخليفة الظّاهر لم يمنح المعزّ بن باديس أيّ تشريف جديد منذ وصول السجّلاّت التي وجّهها إليه في سنة 414 هـ / 1023 – 1024م . وقد شهدت الخلافة الفاطميّة بعض الاضطرابات وفقدت سوريا[2] . وفي سنة 415 هـ / 1024 – 1025م ، إثر وفاة الأميرة ستّ الملك التي استطاعت التحكّم في ابن أخيها الشابّ الظّاهر[3] ، انتقلت إدارة شؤون الدولة إلى الوزير الجرجرائي حتى وفاة الظّاهر سنة 427 هـ / 1036م. وقد أفضت تولية المستنصر الذي لم يكن يتجاوز عمره سبع سنوات ، في شعبان 427 هـ / 30 ماي – 27 جوان 1036م ، إلى تعزيز مركز هذا الوزير الذي سيبقى في الحكم حتى وفاته سنة 436 هـ / 1045م[4] .

وفي الأثناء استمرّ تقهقر الدولة الفاطمية ، المتمثّل في المجاعات الفظيعة والنزاعات الدامية بين المرتزقة الأتراك والمغاربة والسّود[5] .

وقد أوهنت الدعاية العبّاسية سلطة الفاطميّين. فكان خليفة بغداد يعقد من حين لآخر (402–404 ، 468 هـ / 1011–1012 ، 1052–1053 ، 1095م) اجتماعات بحضور فقهاء

1) حول القطيعة ، أنظر بالخصوص : جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر**، 53 – 59 **وبلاد البربر الإسلامية** ، 164 – 171.

2) **نجوم** ، 248/4 ، 252 – 254 . .

3) نفس المرجع ، 192/4 – 195 ، 248 ، 268 . وقد جاء فيه بصفحة 260 أنّ الرّافضة قد مُنِعوا ، في القاهرة بدون شكّ ، من النحيب يوم عاشوراء. وقد جرت معارك دامية بين الشيعة وأهل السنّة ، ومُنِع الرافضة من النحيب يوم عاشوراء والاحتفال بعيد الغدير.

4) **البيان** ، 276/1 ؛ ابن حمّاد ، 57 .

5) **نجوم** ، 1/5 – 3 ، 13 – 19 ، 59 ، 74 ، 79 ، 83 – 84 ؛ **اتعاظ** ، 280 – 283 ؛ **الخطط** ، 168/2 – 171 ؛ **سيرة المؤيّد** ، في عدة مواضع .

السنّة والأشراف، لتحرير «محاضر بالقدح في نسب الخلفاء المصريّين ونفيهم الانتساب إلى علي بن أبي طالب»[6].

وفي سنة 451 هـ / 1059 – 1060 م[7] تواصل تدهور الخلافة العبّاسيّة، رغم إقدام المستنصر على الإعلان عن تولّيه الخلافة عوضًا عن القائم بأمر الله، وذلك بسبب الاضطرابات التي اندلعت ببغداد، ودسائس الأمير البساسيري. ولم تتمكّن جهود الوزير المطلق السلطة بدر الجمالي[8] من تحسين الوضع الذي أصبح ينذر بالخطر. وقد توفّي هذا الوزير سنة 487 هـ / 1094 م، أي في نفس السنة التي توفّي فيها الخليفة المزعوم المستنصر، بعدما أنهكته الملذّات وأصبح دوره مقتصرًا على الإشراف على حفلات عيد الفطر وعيد النحر مرّتين في السنة[9].

وفي عهد الخليفة الفاطمي المستنصر، يبدو أنّ الديبلوماسيّة الفاطميّة قد غيّرت موقفها في اتّجاه الشدّة، إزاء صاحب إفريقيّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ المعزّ بن باديس لم يزل مواليًا للخلافة الفاطميّة وأنّ المذهب الشيعي لم يزل مذهب الدولة الرسمي. وحسب ابن خلدون[10]، استمرّ المعزّ في توجيه الهدايا المعهودة إلى الخليفة وتبادل الرسائل مع الوزير الجرجرائي. ولكنّ نفس المؤرّخ أشار في موضع آخر من كتابه[11] إلى أنّ الخليفة الفاطمي – وهو المستنصر بلا ريب – قد وجّه لومًا شديد اللّهجة إلى نائبه بإفريقية الذي حاول الجرجرائي إرجاعه إلى الجادّة. ثم اتّسمت المراسلات بالحدّة. وقد كان المعزّ يردّ على التهديدات بالقدح في شرعيّة الفاطميّين.

ومن الجدير بالتذكير أنّ الجرجرائي قد تولّى الوزارة في عهد الظاهر من سنة 415 إلى سنة 427 هـ / 1024 – 1036 م، وفي عهد المستنصر من سنة 427 هـ، إلى أن أدركته المنيّة في رمضان 436 هـ / 22 مارس – 20 أفريل 1045 م، وقد خلفه على رأس الوزارة ابن الأنباري. وحسب التجاني وابن خلدون، كان المعزّ بن باديس «يكاتب الوزير الجرجرائي

---

6) **اتعاظ الحنفاء**، 279، أنظر أيضًا: **نجوم**، 4/75 – 79، 116، 229 – 231؛ ابن ميسّر، 6، 37. وحول مناهضة الأشعريّين ولا سيّما البقلاني للفاطميّين، أنظر الباب الحادي عشر من هذا الكتاب.

7) **نجوم**، 5/4 – 7.

8) نفس المرجع، 5/2 – 4، 101.

9) **نجوم**، 5/139 – 141.

10) **العبر**، 6/12 – 13.

11) نفس المرجع، 6/159.

مستميلاً ومعرّضًا بالتحزّب معه على بني عُبَيْدِ الله [الفاطميّين]. وإنّما يفعل ذلك رمزًا وتعريضًا له ، لعلّه يرى منه قبولاً له فيجدّ في السعي معه على القوم. وكتب إلى الجرجرائي مرّة بخطّه قطعة تمثّل بها منها :

[بسيط]

وفيكَ صاحَبْتُ قَومًا لا خَلاقَ لهم   لَوْلاكَ ما كُنْتُ أدري أنّهم خُلِقوا

يشير إلى بني عُبَيْدِ الله ويزعم أنّه إنّما أبقى عليهم بعض الإبقاء من أجل حبّه فيه.

فلما وقف الجرجرائي عليها قال : «ألا تعجبون من هذا الأمير، صبيّ مغربي بربري يريد أن يخدع شيخًا بغداديًّا عربيًّا. وإنّما اتّهمه بأنّه فعل ذلك ليوقع بين القوم [الفاطميّين] ووزيرهم ، إن عثروا على هذه الرموز»(12).

وقبل القطيعة مع القاهرة ، لم تذكر لنا المصادر سوى واقعة واحدة مضادّة للفاطميّين في إفريقية ، وهي مذبحة نفطة في سنة 423هـ/ 1031 – 1032م. وقد رأينا آنفًا أنّ الدينار السنّي المضروب في طرابلس الغرب سنة 425هـ/ 1033– 1035م يقيم الدليل على أنّ بني خزرون قد سبقوا المعزّ في قطع علاقاتهم مع الفاطميّين وأنّ حمّادًا قد نسج على منوالهم حوالي سنة 405هـ/ 1014 – 1015م.

ويجدر بنا في هذا المقام التذكير بالاحترازات الشّديدة الواجب إبداؤها حول التأويل شبه الخرافيّ المستمدّ من المصادر السنيّة ، للقطيعة التي اعتُبِرَت إنجازًا لمخطّط مُدبَّر من قبل ، قد استنبطه المعزّ منذ شبابه الباكر. إلاّ أنّ تلك المصادر، ولا سيّما منها كتب الطبقات المالكية ، لم تكن خالية من المتناقضات. فهي تعكس ما كان يشعر به رجال الدين من احتراز مشوب بمناهضة تنقص أو تزيد للسّلطة. وتكشف عن تردّد السياسة المتّبعة في هذا المضمار والتي تبدو مفروضة أكثر منها مقبولة. فإذا ما درسنا الحياة الدينية عصرئذٍ، أدركنا مدى أهمّيّة العمل العميق والمتواصل الذي كان يقوم به فقهاء القيروان. ذلك أنّ هؤلاء المرشدين الروحيّين للجماهير الشعبية والفئات الاجتماعية الوسطى ، قد واصلوا العمل الذي بدأه الإمام سحنون وكانوا الباعثين الحقيقيّين لانتعاش المذهب السنّي في إفريقية. ومع ذلك لا ينبغي سدّ الأفق السياسي. فبينما كان نطاق الدعاية المالكية يتّسع أكثر فأكثر، نلاحظ أنّ إنشاء مملكة بني حمّاد قد حوّل وجهة بني زيري عن المغرب ، وأنّ ازدهار البلاد ونجاح عمليّة

12) رحلة التجاني ، ص 19. أنظر أيضًا : العبر، 13/6 والبيان، 297/1 والمؤنس ، 82 – 83.

تعريب صنهاجة قد بلغا حدًّا يسمح لصاحب إفريقية بالخروج عن طاعة الفاطميّين. وقد زاد في سرعة هذا التطوّر الذي لا مناص منه، تقهقر الدولة الفاطمية واندلاع الاضطرابات المضادّة للشيعة في آخر عهد باديس.

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ الأمير الصنهاجي لم يعلن في أيّ وقت من الأوقات عن استقلاله، بل كلّ ما في الأمر أنّه أصبح تابعًا لدولة أخرى. على أنّ التزاماته تجاه الخليفة الفاطميّ لم تكن ذات أهميّة، حتى أنّ الجانب السياسي للقطيعة قد تقلّص أمام الجانب الديني. ذلك أنّ مبايعة العبّاسيّين قد كانت مجرّد وسيلة لفضّ مشكل التعايش العدائي بين المذهب المالكي الشعبي والمذهب الشيعي الرسمي، وترسيخ التحالف الدائم بين العائلة المالكة الصنهاجيّة وإفريقيّة.

إلاّ أنّنا نفتقر إلى كثير من المعطيات في هذا المضمار، كما أنّ كثيرًا من النّقاط ما زالت غامضة. الأمر الذي لا يسمح لنا بإلقاء المزيد من الأضواء لتوضيح جميع جوانب القطيعة. فما هو الدور الذي قامت به حاشية الأمير في هذه القضية، وعلى وجه الخصوص أبو البهار بن خلوف، أحد كبار المسؤولين عن قمع الاضطرابات المضادّة للشيعة؟ وقد عُيّن وزيرًا في سنة 414 هـ / 1025 م، ويبدو أنّه حكم البلاد مدّة طويلة على أحسن وجهٍ ممكن. إلاّ أنّنا نجهل متى انتهت مدّة وزارته ولا ندري مَنْ خلفه، وهل خلفه فِعْلاً وزيرٌ آخر.

ويبدو أنّ القطيعة قد هيّأتها بعض المساعي الديبلوماسية التي بلغتنا بعض أصدائها، وهي تدلّ على رغبة الأمير الصنهاجي في التقرّب من أعداء الفاطميّين الألدّاء، أعني البيزنطيّين والأندلسيّين.

«ففي سنة 426 هـ (16 نوفمبر 1034 – 4 نوفمبر 1035 م) وصلت إلى المعزّ من ملك الروم هديّة لم يُرَ مثلُها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج الفاخر وغير ذلك»[13]. ويحقّ لنا أن نفترض أنّ المعزّ قد أراد ردّ الجميل إلى الامبراطور البيزنطي، عندما وجّه إليه ابن الضابط[14]. ومهما يكن من أمر، فإننا نعلم أنّ هذا الفقيه قد قام بمهمّة سفير للمعزّ في القسطنطينيّة، قبل أن يزور الأندلس من 436 إلى 438 هـ / 1044 – 1047 م. وقد افترض حسن حسني عبد الوهّاب اعتمادًا على بعض المعلومات أنّ المعني بالأمر قد قام بمهمّة سريّة

---

13) **البيان**، 275/1. أنظر أيضًا: **المؤنس**، 82.

14) أنظر ترجمة هذا الشخص في: إدريس، تحية لويس ماسينيون، 357/2 – 359.

لدى أمراء الأندلس، حيث أراد المعزّ الذي كان يتأهّب لقطع علاقاته مع القاهرة، أن يتقرّب منهم.

وإثر عودته إلى القيروان في أواخر 438 هـ / أوائل 1047م، وجّهه المعزّ مرّة ثانية إلى القسطنطينيّة. ولكنّنا لا نعلم بالضبط تاريخ رحيل ذلك السفير الذي لم يرجع إلى إفريقية. إذ يبدو أنّه توفّي بعد سنة 440 هـ / 1048 – 1049م أو سنة 444 هـ / 1052 – 1053م، في طريق الذهاب أو الإياب، أو في إحدى الجزر المسيحيّة وهو في حالة جهاد.

والجدير بالملاحظة أنّ هذا التقارب بين بني زيري والبيزنطيّين يشبه إلى حدّ بعيد الاتصالات التي جرت قبل ذلك بقرن بين قرطبة وبيزنطية لتحييد الأسطول الفاطمي[15].

ويتضمّن ديوان[16] الداعية الشيعي المؤيّد قصيدة تشير إلى المناورات التي قام بها في القيروان شخص يقال له ابن دمنة[17]. وتطلق هذه الكنية الشائنة على ابن المسلمة، العميل العبّاسي وعدوّ المؤيّد الذي كان يضمر له عداوة بالغة. إلاّ أنّ تلك الإشارة يكتنفها كثير من الغموض. ومن ناحية أخرى يمكننا القدح في شهادة الداعية الميّال إلى اتّهام خصمه بجميع الجرائم الممكن تصوّرها وتحميله مسؤوليّة الخيبات التي مُنِيَ بها الخليفة الفاطميّ. ويمكن أن نستخلص من ذلك أنّ ابن المسلمة قد قام بمهمّة لدى المعزّ بن باديس وهيّأ ظروف دخوله في طاعة الخليفة العبّاسي. وممّا يدفعنا إلى هذا الاستنتاج أنّ المؤيّد قد أكّد في سيرته الذاتية[18] أنّ وزير القائم «رئيس الرؤساء»، علي بن الحسين بن أحمد بن محمود المعروف بابن المسلمة هو الذي كاتب الأمير الصنهاجي وأهدى إليه هدايا وحثّه على شقّ عصا الطاعة.

وقد جاء في ترجمة أبي بكر أحمد بن عبد الرحمان[18] أنّ المعزّ أراد أن يبعثه رسولاً إلى صقلية للقيام بمهمّة ديبلوماسية لا محالة. فأجابه ذلك الفقيه القيرواني الشهير باستعلاء: «والله إنّ أقلامنا لأمضى عند الله من رماحك». إلاّ أنّ هذا المشروع الذي تمّ التفكير فيه قبل سنة 432 أو 435 هـ / 1040 – 1041م أو 1043 – 1044م، تاريخ وفاة ابن عبد الرحمان، لم يُنَفَّذ بطبيعة الحال. ولكنّ تكليف الأمير أحد رجال المذهب المالكي بالقيروان بمثل تلك المهمّة، يدلّ دلالة واضحة على حقيقة نواياه.

15) **اسبانيا الإسلامية**، 108/3؛ الإحالة 1.
16) المؤيّد، **الديوان**، 259 – 260. أنظر أيضًا المقدمة، 28، '169 – 170.
17) حسب كتاب ابن المقفّع : **كليلة ودمنة**.
18) **سيرة المؤيّد**، 56.

وقد كان المعزّ يتبادل الرسائل مع فقيه آخر من أصل مغربي يقيم بصقليّة ، وهو فتوح ابن الغزال البجائي[19] الذي كان يقوم بدور المُخْبِر ، حيث كان يعلم المعزّ بكلّ ما كان يجري بصقليّة . ومن أجل ذلك غار منه كبار رجال الدولة في تلك الجزيرة «من عرب وعجم» . فاتّفقوا على تأليب عامل صقلية عليه ، وذلك بدون شكّ بإعلام العامل بتلك المراسلة المخالفة للقوانين . فأمر هذا الأخير الراجع بالنظر إلى الخلافة الفاطمية بقتل ذلك الفقيه رميًا بالرمح ، وبمصادرة أملاكه ، وذلك حوالي منتصف شعبان 446 هـ / نوفمبر 1054 م ، «بينما كان السلطان مشغولاً بفتنة القيروان» .

وكلّف أمير دانية الموفّق مجاهد العامري (المتوفّى سنة 436 هـ) قاضيه ابن أبي رئال (المتوفّى سنة 440 هـ) بحمل رسالة إلى المعزّ بن باديس[20] . فوصل المبعوث الداني إلى القيروان صحبة ابنه علي المعروف باسم إقبال الدولة[21] الذي كان قد عُزِلَ منذ عهد قريب من إمارة سردانية .

وقد اجتمع ابن أبي رئال بفقهاء القيروان ، وفي مقدّمتهم أبو عمران الفاسي ، وتناقش معهم ، بالرغم من التعليمات الصادرة إليه من أميره بعدم الاجتماع بهم . وحرّر مجموعة تضمّ مائة سؤال حول مختلف المواضيع ، وترك بياضًا إثر كلّ سؤال لتدوين الجواب . وقد كان السؤال يتعلّق بالأفضليّة التي منحها الرسول ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها أو بتفوّقها على سائر صاحباتها . كما نظم بتلك المناسبة خمسة أبيات من الشعر للمعزّ ، أشاد فيها بفضل هذا الأمير الذي أيّد رجال الدين وأشار إلى الأسئلة التي طرحها على الفقهاء ومجّد القيروان موطن العلم الصحيح .

ولم يمكث في القيروان أكثر من 12 يومًا ، حيث خشيَ حلول فصل الشتاء ، فرحل صحبة مجموعة من المسافرين . ومن باب الاحتياط ، لم يقبل أيّ مبلغ من المال من السلطان ورفض المَهْرَيْن البديعَيْن اللّذين أهداهما المعزّ إليه وإلى ابنه . كما حضر صلاة العيد صحبة الأمير الذي أمر بعدم الدعاء لبني عُبَيْد في الخطبة ، مراعاةً لضيفَيْه . ويُعتبَر هذا الحدث على

---

19) **مدارك** ، 2-3/ص 353 وجه .

20) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية : 1955 ، 58 - 59 .

21) والملاحظ أن علي بن مجاهد قد رحّب (حوالي سنة 453 هـ؟) بمبعوث الخليفة العبّاسي إلى المعزّ بن باديس ، أبي الفضل محمّد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي ، ابن بسّام ، 1/4 ، 67 - 69 ، 70 - 90 ؛ وإدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1953 ، 34 ؛ وحول المراسلة المتبادلة بين علي بن مجاهد والخليفة الفاطمي المستنصر ، أنظر : **التكملة** ، عدد 1735 ، ص 622 .

غاية من الأهميّة بالنسبة إلى تاريخ القطيعة بين بني زيري وبني عُبَيْد، لأنه وقع بطبيعة الحال قبل سنة 430 هـ/ 1039م[22] تاريخ وفاة أبي عمران الفاسي.

وسنتولّى فيما يلي تحليل بعض النصوص التابعة لنفس تلك الفترة والتي توضّح الجوّ السياسي والديني الذي كان سائدًا في إفريقيّة آنذاك[23].

فقد كلّف المعزّ بن باديس ذات يوم شخصًا بإلقاء السؤال التالي على أبي بكر بن عبد الرحمان (المتوفّى سنة 435 هـ/ 1040 - 1041م)[24] :

«ما يقول الفقيه في هذه الطُّرُز التي فيها أسماء بني عُبَيْد مثل الظاهر والحاكم وغيرهما ممّا يُلبَس، أيُصَلّى فيها؟»

فأجاب الشيخ أبو بكر: «هذا سؤال أحمق، أخرق، قليل المعرفة».

وكتب الشيخ أبو عمران الفاسي جوابًا عن هذا السؤال: «إنما يجب على من بسط الله يده أن يمنع من ذلك».

فشقّ على السلطان جواب الشيخ أبي بكر، فأرسل إليه وإلى الشيخ أبي عمران، فقال للشيخ أبي بكر: «لِمَ أَجَبْتَ بهذا؟». فقال: «لأنّ السكّة تُضرَب بأسمائهم، وبنودهم تخفق على رأسك». فقال السلطان: «ما أبقيت السكّة والبنود إلا مداراةً لأجل حجّاج بيت الله الحرام والمسافرين». ثمّ قال السلطان: «أَلَمْ أقتل المشارقة؟ أَلَمْ أفعل كذا؟». فقال الشيخ: «فعلتَ وبقي عليك أن تأذن لي أن أتكلّم». قال له السلطان: «لا». ثمّ عطف عليه الشيخ أبو عمران، فقال: «لِمَ لَمْ تكتب بِمَنْعِ ذلك»؟

ثمّ أضاف المؤلّف قائلاً:

«فالشيخ أبو عمران أعان بكلامه هذا أبا بكر، ولذلك قيل كان بينهما تباعد جدًّا، حتى طمع بذلك المعزّ فيهما ليجري الحجّة على العامّة بشهادة أحدهما على الآخر، إذ كانت العامّة طوعهما. فلما اختبرهما بذلك لم يجد عندهما ما يوافقه ووجد دينهما أمتن ممّا يظنّ».

«وبعث المعزّ إلى أبي بكر بن عبد الرحمان يومًا رسولاً، فقال له: يقول لك المعزّ هل أنا عندك مسلم أم كافر؟ فقال للرسول: قُلْ له: «تتبع العلماء هذا التتبّع وتستقصي عليهم، والله لئن لم تتركني لأعرضنّك على الله عزّ وجلّ». فلم يعرض له بعد ذلك بشيء»[25].

---

22) بالضبط يوم 13 رمضان 430هـ/ 8 جوان 1039م.

23) إدريس، حوليات معهد الدّراسات الشرقية، 1955، 38-40، 55-58.

24) **معالم الإيمان**، 3/209-210.

25) نفس المرجع.

وقد حضر جنازة هذا الفقيه جمهور غفير، «وكُسِّرَت تحته نعوش كثيرة، وقطع السلطان بعض الأيدي لعدم تسليمهم للنعش وعصيانهم لأمره. ودُفِنَ بباب تونس إلى جانب أبيه عبد الرحمان»[26].

وجاء في «**معالم الإيمان**»[27] «أنّ المعزّ بن باديس بعث ابن عطاء اليهودي طبيبه وخاصّته إلى أبي عمران يستفتيه في مسألة، فلما دخل على الشيخ في داره ظنّه الشيخ بعض رجال الدولة، إلى أن قال بعض الحاضرين: أكرمك الله إنه من خيار أهل ملّته. فقال الشيخ: وما ملّته؟ فقال: هذا ابن عطاء اليهودي. فغضب أبو عمران وقال لابن عطاء: أما علمت أنّ داري كمسجدي، فكيف اجترأت على دخولها؟ وأمره بالخروج، فخرج وهو يرتعد، وكان غير مُعْلَم. فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته. وقال: أنصَرِفْ إلى مُرْسِلِك فقُل له يبعث إليّ برجل من المسلمين يأخذ جواب مسألته، فإني لأستحي أن أُحَمِّلَكَ أسماء الله وحِكَمًا من أحكامه. فلما دخل اليهودي على المعزّ ذكر له القضيّة وقال: والله يا سيّدي ما ظننتُ أنّ بإفريقية ملكًا غيرك إلاّ يومي هذا. ولقد وقفت بين يَدَيْكَ في حال غضبك الشديد، فما أدركني الفزع ولا أصابني من الرّعب ما أصابني في يومي هذا. فقال له المعزّ: إنّما فعلتُ ذلك لأريك عزّ الإسلام وهيبة علماء المسلمين وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء، لعلّك تُسْلِم»[27].

«وقال رجل بالقيروان: أنا خير البريّة. فهمّت به العامة، ثمّ لبث فحُمِلَ إلى دار أبي عمران، فقيل ذلك له. فقال له: أنت مؤمن؟ قال: نعم! قال: تصلّي وتصوم وتفعل الخير؟ قال: نعم! قال: إذهب بسلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ﴾[28]. فانفضّ النّاس عنه»[29].

والجدير بالملاحظة أنّ هذه القصّة تشبه قصص الشيعة الّذين قُدِّموا إلى محرز بن خلف في تونس سنة 406هـ/ 1016م وإلى أبي علي بن خلدون بالقيروان في السنة الموالية، لمقاضاتهم[30].

---

26) نفس المرجع.
27) **معالم الإيمان**، 3/201 – 202. .
28) سورة البيّنة، الآية 6.
29) **معالم الإيمان**، المرجع المذكور.
30) أنظر الفصل 3 من الباب الثاني والفصل 2 من الباب الثالث.

«وجرت بالقيروان مسألة أخرى في الكفّار، هل يعرفون الله أم لا ، ووقع فيها تنازع عظيم من العلماء ، وتجاوز ذلك للعامّة ، وكثر التنازع بينهم فيها ، حتى كاد يقوم بعضهم على بعض في الأسواق ويخرجون عن حدّ الاعتدال إلى القتال. وكان القائم بذلك رجل مؤدّب يركب حماره ويذهب من واحد إلى آخر، فلا يترك متكلّمًا ولا فقيهًا إلاّ سأله فيها وناظره. فقال قائل : لو ذهبتم إلى الشيخ أبي عمران لشفانا من هذه المسألة. فقام أهل السوق بجماعتهم حتى أتوا باب داره واستأذنوا عليه فأذن لهم ، فقالوا : أصلحك الله ! أنت تعلم أنّ العامّة إذا حدث بها حادث إنما تفزع إلى علمائها ، وهذه المسألة قد جرى فيها ما بلغك ، وما لنا في الأسواق شغل إلا الكلام فيها. فقال لهم : إن أَنْصَتُمْ وأحسنتم الاستماع ، أُخْبِرُكم بما عندي. قالوا : ما نحبّ إلاّ جوابًا بيّنًا على قدر أفهامنا. فقال لهم : وبالله التوفيق. ثمّ أطرق ساعة وقال : لا يكلّمني منكم إلاّ واحد ويسمع الباقون. فقصد واحد منهم ، فقال له : أرأيتَ لو لَقِيتَ رجلاً فقلتَ له : أتعرف أبا عمران الفاسي؟ فقال : أعرفه. فقلتَ : صِفْهُ لي. فقال : هو رجل يبيع البقل والحنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن صبرة. أكان يعرفني؟ قال : لا. قال : فلو لقيتَ آخر فقلتَ له : أتعرف الشيخ أبا عمران؟ قال : نعم. فقلتَ : صِفْهُ لي. فقال : نعم رجل يدرس العلم ويفتي الناس ويسكن بقرب السماط. أكان يعرفني؟ قال : نعم. قال : والأوّل ما كان يعرفني؟ قال : لا. قال لهم الشيخ : فكذلك الكافر، إذا قال لمعبوده له صاحبة أو ولد وإنه جَسَّمَ وعَبَدَ مَنْ هذه صِفَتُه ، فلم يعرف الله ولم يصفه بصفة ولم يقصد بعبادته إلاّ مَنْ هذه صِفَتُه. وهو بخلاف المؤمن الذي يقول إن معبوده الذي ﴿لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[31] ، فهذا قد عرف الله ووصفه بصفته. فقامت الجماعة وقالوا : جزا الله خيرًا من عالم ، فقد شفيت ما في قلوبنا ، ودعوا له ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا المجلس»[32].

ويبدو أنّ بعض الكرامات قد قامت بدور لا يستهان به[33] في هذا الغليان الديني الشعبي.

ففي كتاب «**نقط العروس**» الذي ألّفه ابن حزم سنة 420 هـ / 1029 م ، صنّف المؤلف المعزّ بن باديس من بين الأمراء الذين لا ينتسبون إلى قريش ولم يتمكّنوا من تحقيق طموحهم

---

31) سورة الإخلاص ، 3 – 4.

32) **معالم الإيمان** ، 202/3 – 203.

33) إدريس ، مجلة كراسات تونسية ، 1953 ، 155 – 159.

إلى الخلافة . كما أكّد أنّ المعزّ قد طمع في الخلافة ، فصرفه عن ذلك الفقيه أبو عمران الفاسي (المتوفّى سنة 430 هـ / 1039 م) الذي أعلمه أنّ النصّ قد خصّ الخلافة بالقرشيّين دون سواهم وأنّ طموحه إلى الخلافة سيفضي إلى الشقاق والارتفاع عن المسالمة . ثم خاطبه قائلاً : سوف لا تبلغ مقصودك ، لأنّك إذا فتحت هذا الباب ، فإنّ كلّ الذين تريد أن تتسلّط عليهم من أجوار وغيرهم سيتلقّبون هم أيضًا بلقب الخليفة[34] . وعندئذٍ ستخسر الامتياز الذي استأثرت به وستنحطّ سلطتك دون أن تغنم أدنى فائدة . وقد شاطر المعزّ هذا الرأي وتخلّى عن مشروعه .

ولقد رأينا[35] أنّ المعزّ بن باديس قد استفتى أبا عمران الفاسي ومعاصره أبا بكر بن عبد الرحمان حول بعض مسائل من هذا القبيل . ولكنّنا نتردّد في الاعتقاد بأنّه فكّر بصورة جدّيّة في الخلافة . أفلا يتعلّق الأمر بمجرّد سؤال ، كان الغرض منه إفحام الشيخ المُسْتَفتى ؟

هذا وإنّ موعد الدعوة للخلافة العبّاسيّة قد أخذ يقترب ، ولكنّ الإخباريّين الذين اعتمدوا على بعض أحداث معيّنة قد حدّدوا لتلك الدعوة تواريخ مختلفة تمتدّ من سنة 433 إلى سنة 443 هـ / 1041 — 1051 م . وفي الأثناء جدّت بعض الأحداث المتتابعة وجرت بعض المبادرات المُعَارِضَة ، ممّا يفسّر ما حصل من التباس في التواريخ .

فحسب رواية ابن عذاري[36] ، الذي اختار أقرب التواريخ عَهْدًا : «أظهر المعزّ [الدعوة] للدّولة العبّاسيّة وورد عليه عهد القائم بأمر الله سنة 433» . وقد أشرنا إلى هذه الرواية المُبهمَة على سبيل الذكر ، لأنّ كلّ شيء يدعو إلى الاعتقاد بأنّ التاريخ المذكور سابق لأوانه[37] .

فقد اتّفقت عدّة مصادر هامّة[38] على أنّ ذلك الحدث قد جدّ في سنة 435 هـ / 10

34) ابن حزم ، **نقط** ، الطبعة 2 ص 77 ، نقلاً عن مخطوط من رواية الحميدي الذي تتلمذ له من 430 إلى 440 هـ وتحصل منه على إجازة عامة . أنظر المرجع المذكور ، 41 — 47 .

35) أنظر إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 ، 37 — 38 ، 53 — 54 .

36) **البيان** ، 275/1 — 276 . ربّما اعتمد المؤلف شهادة أبي عبد الله محمّد بن سعدون (المتوفّى حوالي 485 — 486 هـ) الذي أكّد أنه رأى التونسي (المتوفّى سنة 443 هـ / 1051 م) في أوائل فتنة القيروان التي بدأت سنة 432 هـ / 1040 — 1041 م ، أنظر أيضًا : **مدارك** ، 2 — 348/3 و 349 قفا ؛ **ومناقب** ، 87 ؛ وادريس ، كراسات تونسية ، 1956 ، 508 — 517 .

37) لا سيّما وقد جاء في **البيان** ، 277/1 ما يلي : «وفي سنة 440 هـ / 1048 — 1049 م . قُطِعَت الخطبة لصاحب مصر ، وأحرقت بنوده» .

38) **الكامل** ، 217/9 ؛ النويري ، 139/2 — 140 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 167/2 ؛ **نجوم** ، 50/5 — 51 ؛ ابن خلكان ، 103/2 ؛ **بلدان** ، 303/1 — 304 ؛ **المؤنس** ، 82 .

أوت 1043 – 28 جويلية 1044. وبما أنّ مصدرًا من تلك المصادر (ابن خلكان) قد أكّد أنّ ذلك التاريخ مقتبس من كتاب «**تاريخ القيروان**» لابن شدّاد حفيد تميم، فينبغي أن ننسب إلى ذلك المؤرّخ الرواية المذكورة التي تتضمّن تفاصيل مضبوطة بكلّ دقّة، بحيث لا يمكن أن تكون من نسج الخيال.

ولكن بالرغم من ضرورة تفضيل تاريخ 439 – 440 هـ / 1047م الذي اعتمده مؤرخ المعزّ الرسمي وشاعره ابن شرف، وأثبتته النقود المضروبة في ذلك التاريخ بصورة لا تدعو إلى الشكّ. فقد رأينا من الفائدة عدم تغيير التواريخ المذكورة. أضِف إلى ذلك أنّ المصادر المعنيّة بالأمر هي أوّلاً وبالذات مصادر شرقية، وأنّ عددًا كبيرًا منها قد أشار أيضًا إلى تاريخ 439 – 440 هـ.

أمّا الرّواية المنسوبة إلى ابن شدّاد فهي تفيد أنّ المعزّ بن باديس قد أظهر الدعوة للدولة العبّاسيّة وخطب للخليفة القائم بأمر الله في سنة 435 هـ. «ووردت عليه الخُلَع والتقليد ببلاد إفريقية وجميع ما يفتحه. وفي أوّل الكتاب الذي مع الرُّسُل : «من عبد الله ووليّه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام وشرف الإمام وعمدة الأنام، ناصر دين الله، قاهر أعداء الله ومؤيّد سنّة رسول الله ﷺ، أبي تميم المعزّ بن المنصور وليّ أمير المؤمنين الخ...». وأُرْسِل إليه سيفٌ وفرس [وخاتم][39] وأعلام على طريق القسطنطينية. فوصل ذلك في يوم الجمعة (من حسن الصدف!). فدخل به إلى الجامع والخطيب ابن الفاكاة على المنبر يخطب الخطبة الثانية. فدخلت الأعلام فقال : هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معزّ الدين يسمعكم وأستغفر الله لي ولكم»[40].

وحسب القاضي عياض[41] كان أبو الحسن علي بن تمّام المعروف بابن المهدي والمشهور أكثر باسم المهدي، فقيهًا ذائع الصوت، له عدد كبير من الأتباع. وكان يستنكر بشدّة الأعمال المكروهة ويصدع بالحقّ. كما كان يحظى بتقدير المعزّ ويتدخّل لديه لفائدة العامّة، نيابةً عنهم. وكان يُعَدّ من بين خصوم القاضي أبي بكر أحمد بن عبد الله ابن أبي زيد[42]،

39) حسب النويري فقط.

40) **الكامل**، 217/9.

41) **مدارك**، 2–3 / ص 349 وجه و351 قفا ؛ ادريس، تحية لويس ماسينيون، 343/2–344. ربّما «المهري» عوض «المهدي».

42) إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1954، 168، 172.

إذ كان يعارضه بخصوص تحديد تاريخ الأعياد [بالحساب]. وبما أنّ أبا بكر أحمد بن عبد الله ابن أبي زيد قد تولّى القضاء من سنة 435 إلى أواخر رمضان 436 هـ وأنّ النصّ يتحدّث عن النحر، فيمكن أن نستنتج من ذلك أنّ الأمر يتعلّق بعيد الأضحى (10 ذو الحجّة 435 هـ / 9 جويلية 1044م).

فقد أعلن القاضي يوم 9 ذي الحجّة 435 هـ أنّ تاريخ العيد قد حدّد باليوم الموالي، وذلك حسبما ثبت لديه ولدى السلطان وبقية العلماء. ومن الغد الذي يصادف يوم جمعة[43] خرج الناس لصلاة العيد ثم رجعوا إلى بيوتهم وذبحوا أضاحيهم. ولم يغادر المهدي بيته إلا لأداء صلاة الجمعة. وإثر الصلاة كبّر الإمام تكبيرات التشريق. فصاح المهدي في وجهه قائلاً: «لقد كذبت يا فاسق!».

وفي اليوم الموالي للاحتفال الرسمي بالعيد، أقام المهدي صلاة العيد مع جماعة من أنصاره من بينهم الإمام الذي كان قد صلّى بالناس صلاة العيد في اليوم المنصرم. وعندما استفسره المهدي حول موقفه السابق، أجابه بأنّه فعل ذلك من باب «التقيّة».

ولمّا علم القاضي ابن أبي زيد بالأمر، استدعى الإمام الذي أخبره بأنّه أعاد صلاة العيد خوفًا من المهدي. ولكنّ تصرّفه قد سبّب له مع ذلك في العزل وفقدان الحظوة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ معارضة المهدي للقاضي تعود إلى أسباب عقائدية. ذلك أنّ الشّيعة كانوا يعتمدون الحساب لتحديد دخول الأشهر القمريّة، في حين كان أهل السنّة يعتمدون رؤية الهلال[44]. ونستنتج من ذلك أنّ الفقه الشيعي لم يزل إلى حدود سنة 435 هـ المذهب الرسميّ الوحيد الذي تعترف به دولة بني زيري.

ويبدو أنّ القاضي أبا بكر أحمد بن عبد الله بن أبي زيد قد عُزِلَ فيما بعد لنفس الأسباب، رغم أنّ المصادر لم تشر إلى ذلك بصريح العبارة. فقد تمّ عزله في الظروف التالية[45]: من المعلوم أنّ هذا الفقيه هو نجل الإمام الشهير ابن أبي زيد القيرواني صاحب **الرسالة**. وقد كان يتمتّع هو وأخوه أبو حفص عمر بنفوذ كبير في القيروان، وقد وجّه إليهما ابن رشيق أبياتًا من الشعر. والغريب في الأمر أنّ القاضي أبا بكر هذا كان من تلامذة

---

43) نظريًّا يوم الأحد.

44) إدريس، مجلة الدراسات الإسلامية، 1935، 147–148، 178.

45) نفس المؤلف، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1954، 169–172.

البراذعي الذي اتُّهِمَ بتعاطفه مع الفاطميّين ، وقد شهّر به فقهاء القيروان ، فاضطرّ إلى الفرار إلى صقليّة[46].

«وكان لما توفّي قاضي القيروان ابن هاشم في سنة 435هـ (10 أوت 1043 – 28 جويلية 1044م) خلّف ولدًا خلفه ، وكان له أشياخ أحبّوا ولايته ووراثته لخطّة أبيه . فأشاروا على السلطان [المعزّ بن باديس] بذلك ومال السلطان إلى قولهم . وكان خواصّ من الناس ممّن عرف حقيقة هذا الولد قد عَظُم الأمر عليه وتصوّر سوء المآل فيه . وكان محمّد ابن شرف أشدّ الناس إنكارًا لولايته ، لتخلّف الرأي وسوء الغلط فيه . قال : فاستخرت الله تعالى وأفردت النيّة لابتغاء وجهه . فجعلت شعرًا أمدح السلطان وأغالطه فيما شاء من توليته . فلما كانت ليلة اجتماع الناس لحضور توليته استأذنت على السلطان في إنشاد ذلك فأنشدته على خلوة منه حتى بلغت إلى قولي :

[كامل]

كان القضاء وراثةً فَرَدَدْتَه شورى ففاز بحقّه المردودِ
يا فضلها من سيرة عُمَرِيّة هي للعباد رضًى وللمعبودِ

قال : فلمّا بلغت في الإنشاد إلى هذا الموضع ، أكبّ السلطان على يده وقد قبضها كالمُطْرِقِ والمُفَاجَإِ بأمر يحتاج إلى الفكرة فيه . وتماديت في الإنشاد والسلطان لم يزل على حاله فيما أحسب حتى أتممت الشعر . فخجلت للأمر وندمت على التعزير وبقيت بعد تمام الإنشاد أتشاغل بطيّ الدرج الذي فيه الشعر . ثمّ رفع رأسه وقال لي : أصرف الشعر وأَعِدْ به غدًا ، ثمّ قُمْ فأنشده في آخر المجلس ، وإيّاك أن يعلم أحدٌ بما أوجبت لك به . فانصرفت والناس يتواعدون إلى البكور إلى السلطان لحضورهم تولية ابن هاشم في ظنّهم . فلما كان في غد ذلك المساء حضر الناس وتهيّأ ابن هاشم في خلعة القضاء وتأهّب للولاية . فلما استوى المجلس دعا السلطان بابن أبي زيد هذا فقدّمه للقضاء بغتة ، ما علم أحد بأمر حتى كان . ثمّ قمتُ فأنشدت الشعر . قال : فقوم يتعجّبون من لغته ونسخ النيّة ، وقوم يتعجّبون من تضمين الشعر للمعنى في وقته لا يدرون مَا السبب . فكان يومًا معجبًا سُرَّ الناس به بتولية ابن أبي زيد ، وابتهلوا فيه بالدعاء للسلطان ، حتى علت أصواتهم بذلك .

ولمّا ولي القضاء على رغم كثير ممّن ذكرنا ممّن أحبّ ولاية ولد القاضي ابن هاشم من

46) نفس المؤلف ، تحية لويس ماسينيون ، 2/348 – 350 .

أشياخه وأتباعه ، أدّاهم ذلك عند ولاية قضائه إلى التصويب عليه بحبائل نصبوها وأكاذيب كذبوها . وانتهى ذلك إلى السلطان ، فأمر بالنداء بصبرة والقيروان بالاجتماع بالجامع ، وأكّد أنّ لا يتخلّف أحد ، فاجتمع خلق عظيم وحضر القاضي ابن أبي زيد هذا وسائر الفقهاء ورجال السلطان وخاصّته وجنده . وكان من الكلام ما يطول شرحه ، وجملته أنّ سائر الفقهاء أجمعوا على أنّه عادل في أحكامه ، كامل في أحواله ، ليس له جرحة يُعْزَل بها إلاّ مَنْ شذّ من أتباع مَن ذكرنا . وجرى بين العوامّ وسائر الفقهاء بعيدًا من مجلس السلطان وأعيانه أمرٌ ، لولا هيبة المكان وحضور القوّاد لتفاقم الأمر وآل إلى سفك الدماء أو ما يقرب منه . ثمّ انجلت تلك الغباية الناشئة في أفق الغيّ ، الحاملة لما شاء الجهل من صواعق الطغيان والبغي ، وأعقبها تأخّره عن قضائهم . وقال له السلطان : قد رأينا أنّ عزلك أَرْوَحُ لَكَ في دينك ودنياك ، فأخّرناك لا لجرحة . فكان تأخيره عن القضاء في آخر شهر رمضان سنة 436 هـ (أفريل 1045م) »[47].

وفي سنة 437 هـ / 1045 — 1046م أصدر الفقيه القيرواني الجليل أبو إسحاق التونسي فتوى سنرى فيما يلي ما تكتسيه من أهمّيّة بالغة[48].

«فقد ورد عليه سؤال من مدينة باغاية استُفْتِيَ فيه . وكانت المسألة مسألة طلاق ومراجعة . وذكر السائل أنّ وليّ النكاح كان من الفرقة المعروفة بإفريقية الشمالية بالمشارقة وهم دعاة بني عُبَيْد . فأجاب الشيخ أبو إسحاق أنّ هذه الفرقة على قسمين : أحدهما كافر مباح الدم ، والقسم الآخر وهم الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة ، لا يلزمهم القتل ولا يبطل نكاحهم . فأنكر عليه جميع فقهاء إفريقية بالقيروان وغيرها ، واحتجّوا عليه بأنّ جماعة من أهل الزهد والعلم والعبادة بالقيروان كانوا أشدّ النّاس مباينة بالعداوة والتكفير لبني عُبَيْد وأتباعهم ، منهم أبو إسحاق السبائي ومروان العابد وربيع القطّان وأضرابهم . وأرسلوا إليه أن يعاود النظر وأن يرجع عن هذا القول فأبى عن ذلك . وانتهت

---

47) **معالم الإيمان** ، 3/233 — 234 . نلاحظ أنّ النصّ الوارد في هذا الكتاب يؤيّد أبا بكر أحمد بن أبي زيد . بينما يؤكّد النصّ الوارد في **المدارك** أنّ المعني بالأمر قد عيّن قاضيًا بالقيروان بعد الاضطرابات التي تلت زحفة بني هلال وأنّ سلوكه لم يكن طيّبًا . ونحن لا نعلم اسم الشخص الذي خلفه ، وليس من المؤكّد أن يكون نجل ابن هاشم . ومهما يكن من أمر فإنه قد احتفظ بثقة المعزّ ، حيث إن هذا الأخير قد عيّنه في الهيئة المكلّفة بمحاكمة التونسي في سنة 438 هـ / 1046م والتي لم تكن تضمّ من بين أعضائها نجل ابن هاشم . وقد توفّي أحمد بن أبي زيد بعد سنة 460 هـ / 1067 — 1068م .

48) إدريس ، كرّاسات تونسيّة ، 1956 ، 508 — 517 .

القضية إلى المعزّ بن باديس، فجمع بعض الجمع عنده في المقصورة وناظروه [التونسي] فأظهر الإنابة إلى قولهم والرجوع.

ثمّ خلا بأصحابه فأنكروا عليه رجوعه إلى قولهم وأنّه الحقّ الذي لا يجب سواه.

وكان رأي الفقهاء سدّ هذا الباب للعامّة على هؤلاء الكَفَرَة بني عُبَيد الزنادقة، وأنّ الداخل في دعوتهم وإن لم يقل بقولهم كافر، لتولّيه الكفر. فأظهر أبو إسحاق التمادي على قوله وإنكار الرجوع عنه. فأطلق الفقهاء الفتيا بمقاله هذا بالتضليل والتبديع وقال فيها الشعراء قصائد كثيرة تضمّنت أبا إسحاق والتبرّي منه، وأنشدها الشعراء والطلبة عند الفقهاء في دُورهم وجمعهم. وأمر السلطان بسجلّ من القضية من التبرّي من قوله، وقيل فيه ما يعظم به أجره، وأمر بقراءته يوم الجمعة على المنبر قبل الصلاة مستهلّ صفر 438هـ (7 أوت 1046م). ثمّ أمر السلطان بإحضاره بالمقصورة في ذلك اليوم إثر الصلاة، وأحضر معه الفقهاء أبا القاسم اللبيدي فقيه مشيخة الفقهاء وكبيرهم والفقيه أبا الحسن [ابن المقري] والقاضي أبا بكر ابن أبي محمّد بن أبي زيد خاصّة من سائر الفقهاء، وكان هذان الفقيهان من أشدّ الناس ميلاً إلى مذهب الجماعة.

وحكم في المسألة اللبيدي، فحكم بأنّ يقرّ بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس، وأن يقول: كنت ضالاً فيما رأيته ورجعت عن ذلك إلى مذهب الجماعة. فاستعظم الأمر على المنبر وقال: ها أنا أقول هذا بينكم. فساعدوه وقنعوا منه بقول ذلك بمحضر السّلطان والجماعة وأن يقوله بمجلسه ويشيعه عنه. فافترقوا على ذلك وحصلت على الشيخ منه غضاضة فخرج في صبيحة يومه [2 صفر 438هـ] متوجّهًا إلى رباط المنستير...

وقد حكى أبو عبد الله بن سعدون قال: رأيت أبا القاسم اللبيدي [في المنام] بعد موته، فسألته: مَنْ هو على الحقّ أنت أم أبو إسحاق؟ فسكت بقصده، فكأنّه يقول لي بصوت خفيّ: التونسي»[49].

«قال عياض: ولا امتراء عند كلّ منصف أنّ الحقّ فيما قاله أبو إسحاق. ولا امتراء أنّ مخالفته أوّلاً لرأي أصحابه في حسم البابُ لمصلحة العامّة لجاج، وأنّ رأي الجماعة كان أسدى للحال وأولى. وفتواه هذه جُرِيَ على العلم وطريق الحكم. ومع هذا فما نقّصه هذا عند أهل التحقيق ولا حطّ منصبه عند أهل التوفيق»[50].

---

49) **معالم الإيمان**، 220/3، 221، 222.

50) نفس المرجع.

وحسب رواية أخرى[51] ، استُفْتِي أبو إسحاق التونسي حول رجل من أهل السنّة يريد أن يتزوّج امرأة من الشيعة ويخشى أن يصَدّه ذلك عن أداء واجباته الدينيّة. فأجاب الفقيه أنّ الشيعة ينقسمون إلى قسمين : قسمٌ يرى تفوّق الأدنى على الأعلى ويفضّل عليّ بن أبي طالب على أبي بكر، والقسم الآخر وهم الذين يفضّلون عليًّا ويسبّون سائر الصحابة. فالشّيعة التابعون للقسم الأوّل لا يبطل نكاحهم ولكن ينبغي السعي إلى إقناعهم ببطلان نظريّتهم وحثّهم على التوبة. أمّا الآخرون فلا يجوز نكاحهم بأيّ حال من الأحوال لأنّهم كفّار.

ولما علم أهل القيروان بتلك الفتوى اتّهموا صاحبها بالزندقة لأنّه ميّز بين صنفين من الشيعة، وألحّوا عليه بأنّ يعتذر على رؤوس الملإ، فأبى. واقترح عليه أحد الفقهاء أن يقرّ بالتوبة على المنبر، وهي وسيلة ملتوية، الغرض منها إرضاء خصومه دون التراجع عن موقفه بصريح العبارة. لأن تلك التوبة تنطبق في قرارة نفسه على ذنوبه السابقة لا على أخطائه المذهبية. فاستجاب الشيخ لهذا الاقتراح. وعند ذلك قالت العامّة : «لما ارتدّ التونسي كان وجهه وجه كافر ولما تاب أصبح وجهه وجه مؤمن». إلاّ أنّ هذه الرواية تبدو أقلّ وضوحًا من الأولى وتكتسي صبغة خرافية صريحة.

وأخيرًا فقد لخّص البرزلي باقتضاب – من سوء الحظّ – رواية ابن شرف الذي شهد وقائع هذه القضيّة، واكتفى المؤلف بإحالة القارئ على كتاب شاعر الدولة االصنهاجية الذائع الصّيت. ومن المعلوم أنّ ابن شرف قد هاجر إلى الأندلس سنة 447 هـ / 1055 – 1056 م، وتوفّي بها بعد ذلك بثلاث عشرة سنة. ورغم أنّ تاريخ الكتاب المذكور غير معروف، فالغالب على الظنّ أنّه كان من بين الكتب التي ألّفها المهاجرون الإفريقيّون الخادمون لركاب الدولة الأموية بالأندلس، قصد الإساءة إلى سمعة الفاطميّين..

وحسب رواية ابن شرف، طُلِبَ إلى التونسي أنّ يقرّ بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس، فأبى. ثمّ طُلِب إليه بمحضر القاضي أبي بكر أحمد بن أبي محمّد بن أبي زيد وشهوده، التراجع عن أقواله، فأبى أيضًا وتوجّه إلى المنستير. وأعلمنا المؤلّف أنّ التونسي قد صنّف الشيعة إلى قسمين لأنّ له «قرابة منهم» بمدينة تونس.

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الرواية تشبه الرواية الأولى وتوفّر لنا معلومة على غاية من الأهمية. كما تؤكّد من جهة أخرى – حسب قول ابن شرف – أنّ أبا بكر بن أبي زيد كان قاضيًا في سنة 438 هـ، والحال أنّه قد عُزِلَ في آخر رمضان سنة 435 هـ كما أسلفنا. إلاّ أنّه

---

51) نفس المرجع.

ربّما يُفْهَم من إشارة صاحب **معالم الإيمان** إلى وجوده من بين الفقهاء الثلاثة الذين كلّفهم المعزّ بمحاكمة التونسي ، وعدم حضور القاضي الذي خلفه في ذلك المجلس ، أنّه قد استرجع منصب القضاء. ولكنّ تحمّس ابن شرف لمناصرة ابن أبي زيد ، يدعونا إلى اتّهامه بالانحياز وحتّى بالافتراء. على أنّ ذلك التأكيد ربّما لم يصدر عن ابن شرف ذاته ، بل يمكن أن نفترض أنّ الأمر يتعلّق بتحريف ارتكبه في فترة لاحقة شخص آخر ، قد يكون البرزلي مثلاً.

وحسبما رواه أيضًا البرزلي ، فإنّ مهاجرًا إفريقيًّا آخر بالأندلس ، وهو محمّد بن سعدون السالف الذكر (المتوفّى سنة 485 أو 486هـ / 1092 – 1094م) أشار في كتابه «**تآسي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان**» إلى فرقة ثالثة من الشيعة الذين أجمع الفقهاء على تكفيرهم ، وهم الذين يزعمون أنّ جبريل – عليه السلام – قد أخطأ لمّا أنزل الوحي على محمّد رسول الله ﷺ ، عوضًا عن عليّ بن أبي طالب – كرّم الله وجهه –. وحول هذه المسألة أيضًا ، أحال البرزلي القارئ على كتاب من تأليف ابن رشد (المتوفّى سنة 595هـ / 1198م).

ورغم أنّ أبا حفص العطّار قال : «إذا وافقني أبو إسحاق التونسي وعبد الواحد الكفيف ، ما أبالي مَنْ خالفني»[51] ، لا يبدو أنّه قد وافق على زواج السنّي بشيعيّة. فحسب رأي هذا الفقيه لا يمكن اعتبار ذلك الزواج حلالاً ، ولا ينبغي أن يتعلّل الزّوج بإمكانية حمل زوجته على اعتناق المذهب السنّي ، لأنه إذا مات يُخْشَى أن يُعْهَدَ بحضانة أبنائه إلى جدّتهم من الأمّ أو خالتهم ، إذا تزوّجت أمّهم من جديد. وحسبما رواه أحد الاباضيّين من العصر الصنهاجي ، وهو المسمّى ماكسن ، أجاب بعض الفقهاء على هذا السؤال : «هل يجوز التوارث بين الشيعة وبيننا؟» بما يلي : لا يجوز ذلك بالنسبة إلى أهل التعطيل (أي الذين ينكرون العقيدة) ، ويجوز بالنسبة إلى أهل التفضيل (أي الذين يفضّلون عليّ بن أبي طالب). ومن الغريب أن نلاحظ أنّ الاباضيّين الخوارج قد اتّخذوا موقفًا مماثلاً لموقف التونسي حول علاقتهم بالشيعة ، وهم من ألدّ أعدائهم. اللهمّ إلاّ إذا كان المصدر الاباضي المعني بالأمر قد أشار إلى رأي الفقيه القيرواني ، لا أكثر ولا أقلّ ، وهو أمرٌ محتمل أكثر. وفي هذه الصورة تكون الرواية المذكورة مجرّد ترديد لصدى الجدل الذي أثارته فتوى التونسي الشهيرة في الأوساط الإباضيّة.

«وقد توفّي الشيخ أبو إسحاق التونسي يوم الاثنين الثاني من ربيع الآخر سنة ثلاث

---

(51) نفس المرجع.

وأربعين وأربعمائة (13 أوت 1051م) وحضر جنازته المعزّ بن باديس في جمع عظيم ودُفِنَ بباب سلم»[52]. ورثاه عدد كبير من الشعراء، في طليعتهم الشاعر الذائع الصّيت ابن شرف. ويدلّ تكريم هذا الفقيه بعد وفاته على أنّ أهل القيروان قد غفروا له مواقفه المتحرّرة. ذلك أنّ المالكيّة الذين بلغوا مقصودهم بعد القطيعة، لم يبقَ لهم أيّ مبرّر ليحقدوا عليه.

وأشار ابن الأثير في سياق الحديث عن الأحداث التي جرت في سنة 439هـ/ 28 جوان 1047 – 15 جوان 1048م، إلى ما يلي:

«وفيها اقتتلت طوائف من تلكاتة، قاتل بعضهم بعضًا، وكان بينهم حربٌ صبروا فيها. فقُتِلَ منهم خلق كثير»[53].

ومن سوء الحظّ، لا شيء يسمح لنا بربط تلك الأحداث بالقطيعة التي ربّما لم تكن لها أيّة علاقة بها.

وأخيرًا فإنّ بعض المصادر الشرقية[54] تؤكّد أنّ القطيعة قد حصلت في سنة 443هـ/ 1051 – 1052م، وهي السنة التي «كان فيها لباس السواد بالقيروان»، حسبما رواه ابن عذاري[55]. بل إن ابن ميسّر قد أشار إلى أنّ المعزّ بعث شخصًا يقال له الشريف إلى الخليفة العبّاسي الذي أعلم أمير إفريقية بموافقته، بواسطة رسول يدعى أبو غالب الشرازي. وقد توجّه هذا الشخص إلى إفريقية عبر الإمبراطورية البيزنطية. فألقى الإمبراطور البيزنطي عليه القبض وسلّمه إلى الخليفة الفاطمي المستنصر. وقد دخل الأسير إلى القاهرة في مظهر شائن، وهو راكب على جمل بالجلاجل. وأمر المستنصر بحرق سجلّ التقليد واللواء الأسود والهدايا الموجّهة إلى المعزّ، في حفرة بالمكان المعروف باسم «بين القصريْن»، ثمّ أرجع الرسول إلى القسطنطينية. ولا شكّ أنّ هذه البعثة الفاشلة قد سبقت بعثة أبي الفضل البغدادي.

وقبل التعرّض للروايات[56] التي تحدّد تاريخ قطع الدعوة الفاطميّة وإظهار الدعوة

---

52) نفس المرجع.

53) **الكامل**، 225/9.

54) ابن ميسّر، 5–6؛ ابن خلكان، 103/2؛ **نجوم**، 50/5 – 51 (استشهاد من الذهبي)؛ ادريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1955، 28.

55) **البيان**، 280/1.

56) أ) ترجمة القاضي أبي عبد الله بن جعفر الكوفي، **معالم**، 243/3 – 245 حول خطبة عيد الفطر المناهضة للشيعة (1 شوال 440هـ/ 9 مارس 1049م). أنظر ادريس، تحية لويس ماسينيون، 353/2 – 357.

ب) **البيان**، 277/1 – 279. نقل عن ابن شرف فقرتين طويلتين وكذلك خطبة عيد الأضحى المناهضة للشيعة (10 ذو الحجّة 440هـ/ 16 ماي 1049م).

=

للخليفة العبّاسي ، بسنة 439 – 440 هـ / 1047 – 1049م ، وهي روايات مقتبسة في معظمها – بصورة صريحة أو غير صريحة – من تاريخ ابن شرف ، يجدر بنا الرجوع إلى المعلومات المتعلقة بالمسكوكات ، والتي تؤكّد بلا ريب صحّة ذلك التأريخ[57].

فقد كانت جميع الدنانير الزيرية في عهد المعزّ بن باديس حتى سنة 438 هـ / 1046 – 1047م من الطّراز الشيعي ، وكانت تُضرَب في المهديّة أو المنصوريّة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر. ومن سنة 439 هـ / 1047 – 1048م إلى سنة 440 هـ / 1048 – 1049م ، أصبحت الدنانير تحمل اسم صبرة عوض المنصوريّة. وبعبارة أخرى فقد تمّ تعويض اسم المدينة التي أسّسها الخليفة الفاطمي المنصور باسمها القديم ، صبرة. إلاّ أنّ الاحتفاظ بالعبارات الشيعيّة وباسم المستنصر يدلّ على أنّ القطيعة لئن أصبحت وشيكة ، فهي لم تدخل آنذاك حيّز التنفيذ.

ومن سنة 441 هـ / 1049 – 1050م إلى سنة 449 هـ / 1057 – 1058م ، أصبحت الدنانير من الطراز السنّي ، وهي تتميّز بحذف العبارات العلويّة وإلغاء اسم الخليفة الفاطمي وإثبات الآية القرآنية : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين﴾[58].

وفي سنة 446 هـ / 1054 – 1055م وسنة 447 هـ / 1055 – 1056م ضُرِبَ ديناران بالمهديّة التي كان عاملاً عليها تميم بن المعزّ. ولكنّ أغلب الدنانير كانت تحمل العبارة التالية :

= ج) استشهد ابن بسّام (1/4 ، 67 – 69 و70 – 90 بالشاعر الشهير ابن رشيق (المتوفّى سنة 456 هـ / 1063م). ولعلّ الأمر يتعلق بفقرة مقتبسة من كتاب «**الأنموذج**» لا من كتاب «**ميزان العمل في تاريخ الدول**» الذي كنت نسبته خطأً إلى هذا الشاعر. و هو كتاب ربّما يكون من تأليف كاتب متأخر يحمل نفس الاسم. أنظر أيضًا ؛ إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1953 ، 31.

د) **الكامل** ، 235/9.

هـ) **العبر** ، 14/4. وضع المؤلف ذروة القطيعة في سنة 437 هـ في فقرة أولى وفي سنة 440 هـ في فقرة ثانية. ولكن الخلط المتكرّر في المخطوطات العربية بين 7 و 9 يسمح لنا بقراءة 439 هـ ، لا سيّما وقد ورد ذكر الرسول العبّاسي أبي الفضل البغدادي.

و) **شذرات** ، 264/3. يحدّد مؤلّف هذا الكتاب تاريخ القطيعة بسنة 440 هـ. أما ابن أبي دينار (**المؤنس** ، 82) فيحدّد تاريخ الدعوة لبني العبّاس بسنة 435 هـ وقطع الدعوة الفاطميّة في الخطبة بسنة 440 هـ. ويحدّد المراكشي من جهته تاريخ القطيعة بحوالي سنة 440 هـ (تحقيق دوزي ، 1847 ، 235).

57) فرّوجيا دي كنديا ، المجلة التونسية ، 1936 ، 333 – 372 ؛ 1937 ، 89 – 136 ؛ 1948 ، 103 – 131.

58) سورة آل عمران ، الآية 85. وقد نقشت هذه الآية على الدنانير المرابطية في سنة 450 هـ.

«ضُرِب في مدينة عِزّ الإسلام والقيروان». وهي نفس العبارة المنقوشة في سنة 437هـ / 1045 – 1046م على أعلى باب صبرة[59]. كما ضُرِبت قطعة أخرى بالقيروان في سنة 448هـ / 1056 – 1057م.

فمن الأكيد حينئذٍ أنّ قطع الدعوة الفاطميّة كان أمرًا واقعًا في سنة 441هـ / 1049–1050م. إلاّ أنّ ذلك لا يعني وجوب رفض أقوال الإخباريّين الذين حدّدوا القطيعة بتواريخ سابقة لسنة 441هـ. ذلك أنّه ليس من المستبعد – خلافًا للمنطق – أن يكون بنو زيري قد استمرّوا – حتى بعد القطيعة – في ضرب نقود شيعيّة باسم المستنصر، مع إدخال بعض التعديلات البليغة عليها، لا سيّما وأنّنا سنلاحظ فيما بعد تفاوتًا في التواريخ بين الأحداث السياسية وانعكاساتها على المسكوكات. على أنّ المؤرّخين قد أشاروا إلى «تبديل السكّة» في سنة 441هـ[60].

وقد أشار ابن خلدون[61] إلى قدوم أبي الفضل عبد الواحد التّميمي حوالي سنة 443هـ / 1051م حاملاً وثيقة التقليد من الخليفة العبّاسي إلى أمير إفريقيّة. كما أشار ابن بشكوال[62] والمقري[63] إلى وجود ذلك السفير بالقيروان في عهد المعزّ بن باديس، دون ذكر أيّ تاريخ، وأوضحا أنّه توجّه إلى الأندلس بعد زحفة بني هلال وتوفّي بطليطلة سنة 455هـ / 1063م. ونقل المقري الأبيات التي نظمها بطلب من المعزّ في وصف نديم شابّ.

ومن حسن الحظّ، فقد أمدّنا ابن بسّام (المتوفّى سنة 542هـ / 1147م) بمعلومات ثمينة حول هذا الشخص[64]. وذكر لنا بصريح العبارة أنّه اعتمد على ابن رشيق، شاعر المعزّ الذائع الصّيت (المتوفّى سنة 456هـ / 1063م). ولعلّ الأمر يتعلّق بفقرة منقولة بحذافيرها أو ملخّصة من كتاب ابن رشيق: «**أنموذج الزمان في شعراء القيروان**» الذي لم يصلنا. ويبدو أنّ ابن بسّام قد نقل تلك الفقرة حرفيًّا أو ربّما أخذها عن المؤرّخ الأندلسي ابن حيّان (المتوفّى سنة 469هـ / 1076م) الذي يُعتبَر أهم مصدر من المصادر التاريخيّة.

---

59) **نقائش عربية**، 87/1 – 90.

60) **البيان**، 278/1. أنظر حول هذه المسألة: إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1953، 29 – 30.

61) **البربر**، 21/2.

62) **الصلة**، 2/ عدد 1194، ص 540.

63) المقري، طبعة القاهرة 1949، 108/4 – 110؛ ابن بسّام، 1 – 73/4، أورد نفس النصّ. أنظر أيضًا: الصفدي، 70/4 – 71 عدد 1524 (التاريخ الصحيح لوفاته حسب ابن حيّان).

64) ابن بسّام، 4 – 67/1 – 69، أنظر أيضًا: 70 – 90.

ومهما يكن من أمر، فقد أخبرنا ابن بسّام أنّ الوزير أبا الفضل محمّد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي «قد خرج من بغداد إذ مات أبوه، وأساء عشرته أخوه، وسنّه دون العشرين. فلحق بالأمير محمود [الغزنوي]، وشهد حروبه بأرض الهنود، إلى أن توفّي فولي أكبرُ ولده بعده، فبقي أبو الفضل على حاله عنده... ولحق بشروان شاه، وصحبه إلى أن توفّي أيضًا وولّوا أخاه. فكاتب أبو الفضل الخليفة أبا جعفر القائم ببغداد في الوصول إليه. فاتّفق ورود كتابه إثر وفود رسول المعزّ بن باديس عليه. فطلب الخليفة رجلاً يسفر بينهما. فأُرْشِدَ إلى أبي الفضل. فوجّه عنه وورد، فجهّزه وخرج مستترًا من بَلَدٍ إلى بلد، حتى وصل حلب، فاشتهر خبره وطُلِب. فمدح معزّ الدولة بقصيدته التي أوّلها: «عهود الصبا مَنْ بَعْدَ عهدك آمُلُ» فأمر له بثياب سريّة، وحمله على فرس عربيّة. ثمّ انفصل عنه واجتاز بمعرّة النعمان. وبها المعرّي أحمد بن سليمان [الشاعر الشهير أبو العلاء المعرّي المتوفّى سنة 449 هـ/ 1057 – 1058م]. فوصل إليه، وأنشده قصيدته اللاّمية. فقبّله المعرّي بين عينيه، وقال له: بأبي أنت من ناظم! ما أراك إلّا الرسول إلى المغرب. فوصل مصر ووزيرها يومئذٍ صدقة بن يوسف بن علي الملقّب بالفلاحي. فقصد مجلس قاضي القضاة بها. وأثبت عقدًا على رجل مشهور كان يومئذٍ ببلاد المغرب بشهادات زور. ولما ثبت ذلك من الطّومار، خرج من مصر في زيّ التجّار، يؤمّ بلاد إفريقية. فوقع على خبره صاحب الإسكندرية. وطلبه فأعجزه. وبلغ طرابلس المغرب أوّل عمل المعزّ. فأُفشِيَ أمره وفُضِحَ سرّه. فأمر المعزّ بإشخاصه. فلما وصل سُعِيَ به عنده وأراد قتله. فقال له: تأَنَّ فِيَّ، واستقصِ عليّ، فإن صدقتُ وإلا قُتِلتُ. فمشى أبو الفضل بالقيروان مرقبًا عليه، إلى أن ورد كتاب القائم بصدق، فاعتذر إليه، ورفع منزلته وأكرمه. وبسط يده في مطالبيه وحكّمه، فحملهم أبو الفضل إلى منزله وأحسن إليهم، وخلع عليهم. فعجب المعزّ من كرمه وقلّده تدبير حشمه. وكان ورود أبي الفضل بلَد القيروان سنة تسع وثلاثين (439هـ)[65]. حكى ذلك أبو علي بن رشيق، وقال: إنه أوّل من أدخل كتاب «اليتيمة» [**يتيمة الدهر**] للثعالبي عندهم»[66] (انتهى كلام ابن بسّام).

---

65) من الجدير بالملاحظة أن هذا الجزء من **الذخيرة** قد تمّ تحقيقه اعتمادًا على مخطوط واحد. ونحن نعلم أن النساخين كثيرًا ما يخلطون في الكتابة بين 7 و9 (سبعة وتسعة).

66) **يتيمة الدهر**، هو كتاب في تراجم الشعراء الشرقيين، ألّفه الثعالبي (المتوفّى سنة 429هـ/ 1037م). أنظر حول هذه القضية: إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1953، 31 – 33.

ورغم الوشايات ، فإنّنا نستغرب كيف فكّر المعزّ بن باديس في قتل رجلٍ ادّعى – خطأً أو صوابًا – أنّه رسول الخليفة العبّاسي . فلعلّ كبار رجال الدولة بالقيروان كانوا ينتظرون قدوم شخص آخر ، فاشتبهوا في أبي الفضل . ومن الواضح أنّه لم يكن يحمل أي خطاب اعتماد ، ولا أي سند معرّض للشبهة ، وذلك من باب الاحتياط . إذ كان عليه أن يجتاز بلدانًا تابعة للدولة الفاطمية ، وكان يخشى أن يُلْقَى عليه القبض . وقد أسلفنا أنّه أوشك أن يتعرّض لذلك الخطر . ووصل الخطاب الرّسمي بعد قدوم السفير ، ولا بدّ أنّه سلك طريق البحر . ذلك أنّ ابن الأثير[67] الذي حدّد تاريخ القطيعة بسنة 435 هـ ، قد أخبرنا من جهة أنّ كتاب التقليد وصل مع الخُلَع التي حملها الرُّسُل ، ومن جهة أخرى أنّ المعزّ تلقّى من القائم خُلَعًا وأعلامًا على طريق القسطنطينية .

ولكن هناك أمر لا شكّ فيه ، وهو وصول شخص قادم من بغداد إلى صبرة المنصورية في سنة 439 هـ / 1047 م ، وقد ادّعى أنّه رسول الخليفة . فاتُّهم بالتحيّل وهُدِّد بالقتل ثم أُسْعِفَ بمهلة وحُجِز في القيروان تحت الحراسة المشدّدة . وأخيرًا وصل الخطاب الرسمي المؤيّد لأقوال ذلك المبعوث الذي أغدق عليه الأمير النِّعَم . وبناء على ذلك ينبغي تحديد ذروة القطيعة الديبلوماسية بحوالي 439 – 440 هـ / 1047 – 1048 م . ولكنّ مظاهرها المتتالية تمتدّ حسب الاحتمال من سنة 433 إلى سنة 443 هـ / 1041 – 1051 م ، أي ما يناهز العشر سنوات .

وقد قدّم إلينا ابن خلدون[68] المعلومات الإضافية التالية : لمّا تلقّى الخليفة العبّاسي وثيقة المبايعة من المعزّ ، وجّه إليه بواسطة أبي الفضل البغدادي كتاب التقليد والخُلَع ، فقُرِئَ الكتاب في الجامع الأعظم بالقيروان ونُشِرَت الأعلام السوداء ، رمز العباسيّين (عوضًا عن الأعلام البيضاء رمز الفاطميّين) وهُدِّمت دار الاسماعيلية الشبيهة لا محالة ببيت الحكمة[69] ، المؤسّسة الشهيرة التي أنشأها الفاطميّون بالقاهرة .

وقد أكّد ابن عذاري وابن خلدون[70] أنّ المعزّ بن باديس قد أمر بإحراق أعلام بني

67) **الكامل** ، 217/9 .

68) **العبر** ، 14/4 .

69) يطلق هذا الاسم على مؤسسة أغلبيّة ، هي عبارة عن جامعة ذات اتجاه فلسفي ومعتزلي . وقد كانت تدرس فيها أيضًا العلوم التطبيقية ، حسبما يبدو . أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب .

70) **البيان** ، 277/1 – 279 **والعبر** ، 159/4 .

عُبَيْد بعد تمزيقها[71]. «وقد كان قَطَعَ أسماءهم من الرايات والبنود والطّرز».

وتضمّنت ترجمة أبي عبد الله محمّد بن جعفر الكوفي قاضي صبرة المنصوريّة أوّل خطبة أُلقيَت ضدّ الفاطميّين، مع الإشارة إلى ظروف إلقائها.

فقد جاء في **معالم الإيمان**[72] ما يلي:

«لمّا أمر المعزّ بن باديس بلعنة بني عُبَيْد في الخطب، وذلك في يوم عيد الفطر من سنة أربعين وأربعمائة (أوّل شوال / 9 مارس 1049م)، خطب القاضي محمّد بن جعفر هذا فقال، بعد ذكر ما جرت العادة في خطبة [عيد] الفطر:

«اللهمّ والعن الفَسَقَة الكُفّار المُرايين الفُجّار، أعداء الدين وأنصار الشياطين، المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك، المتّبعين غير سبيلك والمبدّلين لكتابك. اللهمّ العنهم لعنًا وبيلاً وأَخْزِهم خزيًا عريضًا طويلاً. اللهمّ وإنّ مولانا وسيّدنا أبا تمّام[73] المعزّ بن باديس بن المنصور، القائم بدينك والناصر لسنّة نبيّك والرافع للواء أوليائك يقول مصدّقًا لكتابك وتابعًا لأمرك، مباينًا لِمَنْ غَيّر الدين وسلك غير سبيل المرشدين المؤمنين: ﴿يا أَيُّها الكافِرونَ، لا أَعبُدُ ما تَعْبُدُونَ، وَلا أَنتُم عَابِدُونَ ما أَعْبُدُ، وَلا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ، وَلا أَنتُم عَابِدونَ ما أَعْبُدُ﴾»[74]. هكذا بإسقاط «قُلْ» من أوّل السّورة، وَتَرْكِ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، لتعلّق الأمر بالمراد. وأمر السلطان خطيب جامع القيروان أن يفعل ذلك على المنبر في الجُمَع في كلّ خطبة.

وهذا دليل على فصاحته (أي محمّد بن جعفر) ومباينته لأهل البدع ومحبّته لأهل السنّة. وجرت عليه محنة أعقبها التأخّر عن قضائهم والزهد في جوارهم. وذلك بسبب أبيات صنعها ابن رشيق، منها هذان البيتان، صنعهما معرّضًا بالقاضي محمّد بن جعفر:

[كامل]

يا سالكًا بين الأسنّة والظُّبى ... إنّي أشمّ عليك رائحة الدّم

يا ليت شعري مَنْ رقّاك بعوده ... حتى رقيت إلى مكان الأرقم

71) حسب الكتبي، **عيون التواريخ**، قطع مختارة لم يسبق نشرها، فاغنان، 258؛ **والمؤنس**، 82.

72) **معالم الإيمان**، 243/3 – 245. أنظر أيضًا: إدريس، تحية لويس ماسينيون، 355/2 – 356 والباب الثامن من هذا الكتاب.

73) **معالم الإيمان**، 243/3 – 244. لا شكّ أن الخطيب قد عوّض كنية المعزّ «أبا تميم» بكنية «أبي تمّام»؛ **البيان**، 273/1 – 278: «أبو تميم»؛ **أعمال**، 455 – 456: «المعزّ أبو تمّام».

74) سورة الكافرون، الآيات من 1 إلى 5.

فنمت [هذه الأبيات] إلى السلطان، فكانت سبب محنته. فلمّا صودر بالمكروه، فرّ من مدينة القيروان، فما سُمِعَ له خبر إلاّ من مصر.

وقرئ سجلّ القاضي علي بن أحمد البوني بجامع القيروان بولايته جميع ما كان يتولاّه محمّد بن جعفر من قضاء مدينة صبرة وزوال القضاء عن بني الكوفي...

ولم يزل محمّد بن جعفر بمصر بعد انصرافه من القيروان متعرّفًا مزيد الحظوة وسموّ الرتبة...».

«وفي سنة 443هـ [1051–1052م] وردت الأخبار أنّ محمّد بن جعفر الكوفي ولي القضاء بمصر، ولُقِّبَ قاضي القضاة وداعي الدعاة. قال ابن شرف: فنعوذ بالله من سوء العاقبة! لأنّ قاضي القوم منهم وعلى مذهبهم، يعني الشيعة»[75].

«ثمّ تخلّى عن القضاء وارتحل عن مصر، فلم يستقرّ له قرار إلا بأقصى الشام، فيقال إنه توفّي هناك بعد السبعين وأربعمائة [1077 – 1078م]»[76].

وقد أورد ابن عذاري[77] نقلاً عن ابن شرف نفس نصّ تلك الخطبة، ولكنّه أكّد أنّها أُلقيَت في عيد الإضحى (10 ذو الحجّة 440هـ/ 16 ماي 1049م)، ولم يذكر اسم الخطيب. وفي موضع آخر[78] قال: «وفي سنة 440هـ [16 جوان 1048 – 4 جوان 1049م] قُطِعَت الخطبة لصاحب مصر وأُحْرِقَت بنوده». ثمّ أضاف: «قال ابن شرف: وأمر المعزّ بن باديس أن يُدْعَى على منابر إفريقية للعبّاس ابن عبد المطّلب ويُقْطَع دعوة الشيعة العُبَيْديّين، فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة وللعبّاس ولبقيّة العشرة رضي الله عنهم»[79].

وقد قيل لنا إن كلّ هذه الإجراءات قد أدخلت البهجة والسرور على أهل القيروان المالكيّة والمصلّين الذين كانوا قد أمسكوا قبل ذلك التاريخ عن أداء صلاة الجمعة فرارًا من الدعوة الفاطميّة.

ولمّا خطب المعزّ لبني العبّاس «كتب إليه المستنصر يتهدّده ويقول له: هلاّ اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء. فأجابه المعزّ: إنّ آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه

75) **البيان**، 288/1.
76) **معالم الإيمان**، 245/3.
77) **البيان**، 277/1 – 278.
78) نفس المرجع.
79) وهم الصحابة العشرة الذين وعدهم الرسول بالجنّة.

أسلافك ، ولهم عليهم من الخِدَم أعظم من التقديم ، ولو أخّروهم لتقدّموهم بأسيافهم»[80] .

وقد أسلفنا أنّ الدنانير الزيريّة من الطّراز السنّي كانت تُضرَب في القيروان أو المهديّة من سنة 441 إلى سنة 449 هـ .

«قال ابن شرف : وفي سنة 441 هـ أمر المعزّ بتبديل السكّة في شهر شعبان فنُقِش على الأزواج في الوجه الواحد : ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دينًا فَلَنْ يُقْبَلُ منه وهو في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين﴾[81] ، وفي الوجه الثاني : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله. وضُرِبَ منها دنانير كثيرة. وأَمَرَ أيضًا بسبك ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماء بني عُبَيْد ، فسُبِكَت وكانت أموالاً عظيمة. ثمّ بثّ في الناس قطع سكّتهم وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله»[82] .

إلاّ أنّ تطبيق هذا الإجراء قد أثار بعض الصعوبات. والدّليل على ذلك أنّه بعد شهرين من صدور الأوامر المذكورة ، أي في شعبان من سنة 441 هـ / 26 فيفري – 26 مارس 1050 م «نادى مُنادٍ بأمر السلطان أبي تميم : إنه مَن تصرّف بمال عليه أسماء بني عُبَيْد نالته العقوبة الشديد»[83] .

ولدينا وثيقة أصليّة[84] حول القطيعة ، ولكنّها غير مؤرّخة – ويا للأسف – ومؤثّرة جدًّا. وهي عبارة عن مخطوط محفوظ بجامع القيروان يتمثّل في صفحة من صفحات مصحف ، من الأرجح أن تكون الصفحة الأولى ، وقد كُتِبَ عليها بخط المعزّ ذاته ، حسب الاحتمال ، العبارات التالية : «من عبد الله ووليّه المعزّ لدين الله. إنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله ﷺ ، وأنّ أفضل إنسان بعد رسول الله هو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، رضي الله عنهم. اللهمّ اَلْعَنْ بني عُبَيْد أعداءك وأعداء نبيّك. نفعنا الله بكرههم جميعًا. إنّي حبّستُ هذا المصحف على جامع القيروان حبًّا في الله سبحانه وتعالى».

وليس من المستبعَد أنْ تكون القطيعة قد تسبّبت بصورة أو بأخرى في عزل بعض الشخصيّات.

---

80) مقديش ، «نزهة الأنظار» ، 366/1. أنظر أيضًا : النويري ، 140/2 وابن خلكان ، 105/2.

81) سورة آل عمران، الآية 85.

82) البيان ، 278/1 – 279.

83) نفس المرجع.

84) نقائش عربية ، 1/عدد 10 ، ص 37 – 38.

«ففي سنة 439هـ (28 جوان 1047 — 15 جوان 1048م) نُكِبَ حبوس بن حُمَيْد الصنهاجي والي نفطة وطولب بمال كثير، ونِيلَ بالمكروه والهوان. وفيها نُكِبَ أحمد بن حجّاج قاضي قفصة، فبادر بعشرة آلاف دينار»[85].

«وفي سنة 441هـ (5 جوان 1049 — 25 ماي 1050م) نُكِبَ القائد عبّاد بن مروان الملقّب بسيف المُلْك. وكان من الخاصّة ودُفِعَ إلى أعدائه وأُمِرَ باستخراج أمواله، والقبض على جميع من استعمله في أعماله وبعد ذلك أُلْقِيَ في سرداب مظلم حتى مات فيه»[86].

وفي نفس تلك السنة «تحرّك الأمير أبو تميم إلى بلاد المغرب الأقصى، وترك ولده أبا الطاهر تميم بن المعزّ على حضرة القيروان بالمنصوريّة»[87]. وإذا كان هذا النصّ صحيحًا، فلا ريب أنّ الأمر يتعلّق بزيارة عابرة وغيبة قصيرة. فهل حثّ القائد بن حمّاد ابن عمّه على التعاون معه لمقاومة الزناتيّين بالمغرب الأقصى؟ على أنّ إفريقية قد شهدت وقتئذٍ أحداثًا سعيدة. ففي نفس السنة المذكورة (441هـ/ 1049—1050م) بُنِيَ المصلّى بالمنصوريّة. وفيها ركب المعزّ بن باديس في أحفل جمع وأحسن زيّ وخرج إلى ظاهر القيروان وأُخْرِجَت السباع بين يديه»[88].

«وفي سنة 442هـ اصطلح أهل القيروان وأهل سوسة، وقد كانت جرت بينهم وحشة. فصنع القيروانيّون للسّوسيّين دعوات غُسِلَت فيها الأيدي بماء الورد، ومُسِحَت بمناديل الشرب»[89].

وفي نفس السنة عيّن المعزّ ابنه تميم وليًّا للعهد. «قال ابن شرف: وخطب الخطيب يوم الجمعة على جامع القيروان. فدعا للسلطان المعزّ بن باديس ولولده أبي الطاهر وليّ عهده. ثمّ قال: اللهمّ اصلح عبدك ووليّك أبا الطاهر تميم بن المعزّ الطاهر من كفر مَعَدّ بن الظاهر، يعني صاحب مصر»[90].

وفي 7 محرّم 442هـ/ أوّل جوان 1050م قُلِّدَ اليازوري الوزارة بمصر، مع الاحتفاظ

---

85) **البيان**، 276/1 — 277.

86) نفس المرجع.

87) نفس المرجع.

88) نفس المرجع.

89) **البيان**، 279/1.

90) نفس المرجع. لم يذكر الخطيب لقب الخليفة المستنصر واستعمل الجناس (أبو الطاهر وطاهر).

بكلّ ما كان يتمتّع به من ألقاب وصلاحيات بوصفه «قاضي القضاة وداعي الدّعاة»(91). ورغم حصول القطيعة منذ حوالي سنتيْن ، استمرّ صاحب إفريقيّة في مكاتبة الدوائر الرسميّة بالقاهرة ، وقد كان يمثّله بها نائبٌ بمثابة القائم بالأعمال. وبما أنّ اليازوري كان من أصل متواضع ، فقد أمسك الولاة ، حسب ابن خلدون(92) ، عن مخاطبته في رسائلهم بعنوان «مولاي». فعظم ذلك عليه وعاتب ثمال بن صالح صاحب حلب والمعزّ بن باديس صاحب إفريقية اللّذين كانا يكرهانه.

وحسب مصادر أخرى(93) ، فقد وضع اليازوري اسمه على رأس المكاتيب الرسمية ، إثر تقلّده الوزارة. وخاطبه الأمراء بالألقاب الفخرية اللائقة بمقامه ، ما عدا المعزّ بن باديس الصنهاجي الذي «لم يخاطبه كما كان يخاطب مَنْ قبله من الوزراء. كان يخاطبهم بعبده (أي عبد الخليفة) ، فخاطب اليازوري بصنيعته (أي صنيعة الخليفة)(94). فاستدعى اليازوري نائب المعزّ بالقاهرة وأبدى إليه بعض الملاحظات بكلّ لطف. ولكنّ الأمير تمادى في صنيعه. فجلب الوزير من إفريقية بواسطة بعض جواسيسه «سكّين الدواة» الذي كان يستعمله المعزّ في الكتابة. ثمّ استدعى النائب وخاطبه قائلاً : هذا السكّين أخذناه بلطف ، ولو أردنا لذبحناه به بلطف ! وسلّم إليه السكّين ، فوجّهه النائب إلى مخدومه مرفوقًا برسالة. ولكنّ ذلك لم يخفّف من حنق الأمير. فتمكّن اليازوري من الاستحواذ على نعل من نعال المعزّ ، واستدعى القائم بأعماله من جديد ، وخاطبه قائلاً : اكتب لهذا البربريّ الغبيّ وقُل له : إذا لم ترجع عن غيّك ولم تتأدّب ، أدّبناك بهذا النعل ! فكاتب النائب سيّده الذي استمرّ مع ذلك في تحاشي العبارات التي فيها إطراء لليازوري. ولم يفكّر صاحب إفريقيّة أبدًا في الدّهاء الذي سيبديه الوزير عمّا قريب ، وقد ظنّ أنّه يستطيع إهانته بدون عقاب.

وهناك واقعة غريبة(95) تدلّ على احتراز السلطة الزيريّة من إثارة عواطف الشعب

---

91) ابن الصيرفي ، 40 – 41 ؛ ابن ميسّر ، 5 – د ، 9 ؛ **خطط** ، 170/2 ؛ النويري ، 140/2 ؛ **الكامل** ، 235/9 – 237.

92) **العبر** ، 13/6.

93) وبالخصوص الصيرفي **والكامل** والنويري.

94) **الكامل** ، 235/9.

95) **البرزلي** ، 3/ الكراس الثاني والثلاثون ص 8 وجه. **المختصر** ، ص 159 وجه و160 قفا. وبالنسبة لتفاصيل القصّة يحيل المؤلف على كتاب ابن شرف المواصل لتأليف الرقيق : «وقصّته طويلة أنظرها في تأليف ابن شرف الذي على ابن الرقيق». وفي **معالم الإيمان** (236/3 – 239) توجد أطول رواية حول هذه القصة ، تنتهي بالترجمة الواردة في **المدارك**. وقد استشهد المؤلف بابن شرف وابنه جعفر. ولخّص صاحب **المدارك** (2 – 3/ صفحة 349 و351 قفا) ومقديش ما جاء في **معالم الإيمان**. أمّا **البيان** ، 279/1 – 280 ، فهو المصدر الوحيد الذي ذكر كنية أبي عبد الله =

الدينيّة ، رغم حصول القطيعة ، وتسمح لنا بتدارك عدم دقّة التواريخ الواردة في المصادر ، وتحديد تاريخ مضبوط لأوّل اصطدام بين الصّنهاجيّين وبني هلال.

فقد روى كاتب السّيَر ابن ناجي[96] أنّ المسمّى أبا الحسن محمّد ابن الشيخ الواعظ عبد الصّمد[97] قد قدم من القاهرة إلى القيروان «وكان رجلاً صالحًا ، فاضلاً ، واعظًا ، زاهدًا ، صوفيًا ، عالمًا عاملاً. وكان له مجلس بالجامع الأعظم بالقيروان يجتمع إليه فيه ويسمع كلامه. وله لسان فصيح وقلب قريح ، كثير الحزن والبكاء والخوف من أولياء الله عزّ وجلّ ، المنقطعين إليه ، الخائفين الخاشعين ، المتبتّلين ، القائمين ، الصائمين ، قد ركب طريقة من الزهد والورع والخشية وصدق المقال في الوعظ ، لم يسلكها في وقته غيره ، فطبّق ذكره الآفاق وكثر ازدحام الناس إليه في مجلسه لاستماع وعظه ، ومالت إليه القلوب والأسماع ، وكثرت له الأتباع ، حتى حذره السلطان وخاف على نفسه منه.

«فاستعار السلطان منه بعض كتبه وأظهر له أنّه أحبّ مطالعة شيء منها ، فأرسل إليه بما أحبّ منها ، فأقامت عنده أيّامًا ثم أمر بردّها ، فتصفّح الواعظ أوراقًا منها ، فوجد بينها بطاقة[98] بخطّ السلطان ، كأنّه نسيها بين أوراق كتابه ، فإذا فيها : «زعمت ملوك الفرس وحكماء السّير والسياسة أنّ أهل التنمّس والوعظ وتأليف العامّة وإقامة المجالس ، أضرّ الأصناف على الملوك وأقبحُهم أثرًا في الدّول ، فيجب أن يُتَدارك أمرهم». [وأحسن طريقة لبلوغ تلك الغاية مدُّهم بالمال ، فإن قبلوه انتهى أمرهم][99].

«فلمّا قرأ الواعظ أبو الحسن محمّد بن عبد الصمد البطاقة ، علم أنّه أمرٌ استُعْمِلَ له وقُصِدَ به ونُبِّه على الرأي فيه. فاستعمل الحجّ فخرج وخرج معه عامّة وخاصّة من أهل القيروان وأمر له السلطان بزادٍ ، فخرج متوجّهًا الحجّ في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر

= عوضًا عن كنية أبي الحسن. ولعلّ الشخص المذكور له كنيتان : أبو الحسن (وهي الكنية التي تطلق عادة على الشخص الذي يحمل اسم علي) وأبو عبد الله (الكنية المقابلة لاسم محمّد). ولكن ألا يجوز أن تكون الكنية الأخيرة قد عوّضت الكنية الأولى احترامًا للعرف؟ أنظر إدريس ، تحية لويس ماسينيون ، 344/2 — 347.

96) **معالم الإيمان** ، 236/3 — 239.

97) يمكن ضبط اسمه على النحو التالي : أبو الحسن محمّد بن (أبي الفضل) عبد الصّمد (الجوهري). **البيان** ، 279/1 : «أبو عبد الله بن عبد الصّمد».

98) في الأصل «سجّادة».

99) إضافة من المدارك. **البيان** ، 280/1 : «واجتمع عليه بعض فقراء القيروان ، واستبشعوا ألفاظًا ذكرها ، فرفعوا رقاعهم إلى المعزّ بذلك».

الله رجب الفرد الحرام سنة إحدى وأربعين وأربعمائة (20 ديسمبر 1049)(100) ومعه رجال وُكِلُوا به أن يصلوا معه إلى مدينة قابس ونهي أن يُشَيِّعَه أحدٌ أو يخاطبه الخطاب. وكانت الرفقة الخارجة إلى مصر قد قرب خروجها، فأُمِرَ أن ينتظرها بمدينة قابس إلى أن يصحبها. وكُوتِب عامل قابس بأن لا يدخل إليه أحد هناك ولا يجتمع عنده اثنان ولا يخرج من المكان الذي يُنْزِله فيه إلا يوم سفره. فخرج وهو غير آمن على نفسه، وأظهر السلطان ما كان يخفيه من أمره وصار مَنْ ذكره بخير أو قال فيه جميلاً مبخوسًا مذمومًا، حتى صار كلّ من كان يفرط في مدحه ومودّته، يظهر الإفراط في ذمّه وعداوته، خوفًا على نفسه من السلطان.

«قال محمّد بن شرف (الشاعر والمؤرخ الزيري الشهير المتوفّى بإشبيلية سنة 460هـ / 1067م) : ثمّ اتّصل أنّ الواعظ لما فُصِلَ عن مدينة قابس، قتله رجل من الأعراب في طريقه ذلك(101). «قال جعفر بن محمّد بن شرف (الشاعر الأندلسي وابن المؤلف السالف الذكر، نقلاً عن والده بدون شكّ) : وبلغني أنّه دخل داخل على أبيه أبي الفضل عبد الصمد وكان واعظًا، فوجده في آخر مجلسه من الوعظ بجامع [عمرو] بن العاص، فنعى له ابنه أبا الحسن محمّد الواعظ الشهيد وأخبره بسبب قتله. فنعل قدمه في الحين وهو يلبّي بالحجّ من مكانه ذلك، ولم ينصرف إلى منزله وتبعه خلق عظيم، فحجّ ذلك العام، وكان يطوف بالبيت ويتعلّق بأستار الكعبة ويصيح ويقول : يا ربّ المعزّ عليك به ! يا ربّ عليك بابن باديس ! فكانت الهزيمة الواقعة بالقيروان في اليوم الثاني من حجّه(102) ودعائه. وذلك كان أصل خراب القيروان. فلم يشكّ أحد في إجابة دعائه».

وختم ابن ناجي كلامه قائلاً :

«وهذا أصحّ من نقل عياض عن محمّد بن عبد الصمد أنّه كان من علماء وقته بالقيروان وغلب عليه الزهد وأخذ في وعظ الناس حتى حذره صاحب القيروان وخاف منه»(103).

---

(100) نظريًا يوم 22 رجب 441هـ يصادف يوم الأربعاء. وأشار ابن عذاري (**البيان**، 279/7) إلى أنّ خروج ابن عبد الصمد كان في شهر رجب، ولم يذكر السنة. ولكنه روى هذه الحادثة في الفقرة المخصّصة لسنة 442هـ.

(101) نلاحظ عدم ذكر التاريخ.

(102) 11 ذو الحجّة 443هـ. وقد جاء في **نزهة الأنظار** (371/1) الذي هو مصدر متأخر، نقلاً عن **معالم الإيمان** : «في العام الثاني من حجّه». وعلى الأرجح أن تكون هذه الرواية من بنات أفكار المؤلّف.

(103) **مدارك**، 2-351/3-352.

وروى الأديب القيرواني أبو الطيب الكمّاد[104] أنّ صاحب القيروان كان على أحسن ما يُرام ، إلى أن استعار ذات يوم من محمّد بن عبد الصمد بعض كتبه وأظهر له أنّه أحبّ مطالعتها . فأبقاها عنده أيّامًا ثمّ ردّها له . وهنا نجد نقصًا كبيرًا في النصّ الذي أعطى بعد ذلك معلومات عن فحوى البطاقة التي ادّعى المعزّ أنّه نسيها بين أوراق الكتاب . فأدرك محمّد بن عبد الصمد أنّه هو المقصود بتلك البطاقة وقرّر الخروج إلى الحجّ ، وخرج معه جماعة من عامة الناس . ثمّ عاد فأخذته الفتنة بالقيروان .

على أنّ مثل هذه الروايات ، بالرغم من صبغتها الخرافية ، تعطينا فكرة عن الجوّ السياسي والديني الذي كان سائدًا بإفريقيّة إبّان القطيعة مع القاهرة . ويبدو أنّ أبا الحسن محمّد بن عبد الصمد كان من أولئك «الشيوخ الشعبيّين» الذين أثارت أعمالهم الخفيّة حماس فقهاء القيروان المالكية ، المحرّضين على الشغب ، بعد قيامهم بالدّور المعروف في مذابح 406 – 407 هـ / 1015 – 1016م . والغريب في الأمر أنّ المعزّ بن باديس التابع للخليفة العبّاسي ببغداد ، قد عاملهم بقسوة .

وقد أسلفنا أنّ بعض المصادر الشرقية قد حدّدت تاريخ القطيعة بسنة 443 هـ ، والحال أنّ القيروان قد شهدت خلال تلك السنة بعض مظاهر الولاء لبني العبّاس ، الرامية ، حسبما يبدو ، إلى إثارة حميّة الرأي العام عندما تدقّ ساعة الخطر .

وفي سنة 443 هـ / 15 ماي 1051 – 2 ماي 1052م ، حسبما رواه ابن عذاري ، «كان لباس السّواد بالقيروان والدّعاء لبني العبّاس»[105] .

«قال ابن شرف : وفي جمادى الثانية[106] (443 هـ / 10 أكتوبر – 7 نوفمبر 1051م) أمر المعزّ بن باديس بإحضار جماعة من الصبّاغين ، وأخرج لهم ثيابًا بيضًا من فندق الكتّان ، وأمرهم أن يصبغوها سُودًا ، فصبغوها بأحلك السواد ، وجمع الخيّاطين فقطعوها أثوابًا . ثمّ

(104) أبو الطيّب عبد المنعم بن منّ الله بن أبي بحر الهوّاري القيرواني المعروف بابن الكمّاد ، شاعر وأديب قيرواني هاجر إلى الأندلس بعد زحفة بني هلال وتوفّي سنة 493 هـ / 1099 – 1100م . **الصلة** ، 1/عدد 835 ، ص 383 ؛ **التكملة** ، عدد 1051 و1052 ؛ عبد السلام هارون ، **نوادر المخطوطات** ، الحلقة الثالثة ، القاهرة 1373 هـ / 1953م ، عدد 14 : نصّ الرسالة التي ألّفها للردّ على رسالة ابن غرسية الشعوبيّة . أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب . والجدير بالملاحظة أن ابنه محمّد قد تتلمذ في سنة 476 هـ / 1083 – 1084م إلى محمّد بن سعدون وهو مهاجر إفريقي آخر إلى الأندلس .

(105) **البيان** ، 280/1 . أنظر أيضًا : **مدارك** و **نزهة الأنظار** .

(106) **البيان** ، 280/1 ، نقلاً عن ابن شرف .

جمع الفقهاء والقضاة إلى قصره وخطيبَيْ القيروان[107] وجميع المؤذّنين وكساهم ذلك السواد، ونزلوا بأجمعهم. وركب السّلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان، ثمّ صعد الخطيب المنبر، وخطب خطبة أتى فيها على جميع الأمر بأجزل لفظ وأحسن معنى، ثمّ دعا لأبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله العبّاسي، ودعا للسلطان المعزّ بن باديس ولولده أبي الطاهر تميم وليّ عهده من بعده[108]. ثمّ أخزى بني عُبَيْد الشيعة ولعنهم»[109].

وفي نفس تلك السّنة (443هـ/ 1051–1052م)، وحسبما يبدو، بعد الإعلان عن تعيين محمّد بن جعفر قاضي القضاة بمصر، وقبل دخول بني هلال إلى إفريقيّة «وصلت إلى القيروان مكاتبة من الأمير جبارة بن مختار العربي من برقة بالسمع والطاعة للمعزّ بن باديس، وأخبر أنّه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يُدْعَى عليها للعبيدية وأحرقوا راياتهم، وتبرّؤوا منهم، ولعنوهم على منابرهم ودعوا للقائم بأمر الله العبّاسي»[110]. أفلا تدلّ هذه المبايعة على ما أصبح يحظى به صاحب إفريقية من نفوذ بعيد المدى بعد قطعه الدعوة الفاطميّة؟

* * *

لقد تفاقم اندفاع بني زيري الصنهاجيّين نحو الشرق خلال القسم الأوّل من عهد المعزّ بن باديس، حتّى أنّهم تخلّوا عن المغرب الأوسط بأسره لأبناء عمومتهم بني حمّاد الذين أصبحوا يضطلعون بمهمّة محاربة زناتة الغرب.

كما أنّ تمرّد الزناتيّين في جنوب إفريقيّة الذي أمكن التحكّم فيه، لم يمنع الأمير من التدخّل في صقلية والشروع في انتهاج سياسة متوسّطية ستصبح ابتداء من ذلك التاريخ ملازمة لكلّ اتجاه إفريقيّ صميم.

هذا وإنّ مذبحة الشيعة قد طرحت من أوّل وهلة المشكل السياسي والديني الرهيب الذي كان يرهق إفريقيّة المالكيّة ويحثّ أميرها على التخلّي عن تلك التبعية التي لم تَعُدْ تتماشى مع سيادته باعتباره مِلِكًا قيروانيًّا. وقد أفضت القطيعة مع القاهرة في آخر الأمر إلى انفراج

(107) والمقصود بذلك لا محالة خطيب جامعيْ القيروان وصبرة المنصوريّة.

(108) ويشير نفس المصدر إلى أنّ تميم بن المعزّ قد عُيّن وليًّا للعهد في السنة الموالية 442هـ/ 1050 – 1051م. **البيان**، 279/1.

(109) **البيان**، 280/1.

(110) **البيان**، 288/1.

الأزمة . ذلك أنّ المعزّ بن باديس بدعوته لخليفة بغداد قد استعاد التقاليد التي يرجع تاريخها إلى عهد الأغالبة التابعين لبني العبّاس ، ورسّخ التحالف بين صنهاجة وإفريقيّة ووفّر الأسباب لتحقيق طموحاته الشخصيّة .

وبفضل رعاية أسرةٍ مالكة بربريّة ، شبه مستقلّة وعتيدة ، تعزّزها شرقًا أسرة بني حمّاد الذين هم حلفاء لبني زيري أكثر منهم خصوم ، أصبحت إفريقيّة التي ارتقت أخيرًا إلى مصافّ دولة مستقلّة في الواقع إن لم يكن قانونًا ، تتوق إلى دخول عهد يسوده الازدهار والعظمة .

ولم يكن أيّ شيء يدعو إلى توقّع العواقب الوخيمة التي سيسفر عنها مثل هذا الإجراء المُدَبّر تدبيرًا حكيمًا . إلاّ أنّ الانتصار الذي أحرزه المذهب السنّي والمعزّ بن باديس سيكون انتصارًا عابرًا ، ويا للأسف !

الباب الرّابع

الكارثة

غزوة بني هلال ونهاية عهد المعزّ

(442–454 هـ/ 1050–1062 م)

نظرة عامّة

لقد شهدت نهاية عهد المعزّ بن باديس كارثة سياسيّة واقتصاديّة لم يسبق لها مثيل ، ألا وهي «غزوة» أو «زحفة» بني هلال. ذلك أنّ الخليفة الفاطمي ، بناءً على النّصيحة المكيافيليّة التي أسداها إليه وزيره [اليازوري] ، قد أسلم إفريقيّة إلى جحافل الأعراب الرُّحَّل الذين كانوا يضايقونه. وفي ظرف بضع سنوات أصبحت نكبة الأمير الناكث للعهد أمرًا مفروغًا منه.

ذلك أنّ المعزّ الذي كان يشكو نقصًا في عدد القوّات المسلّحة ، لم يدرك في أوّل الأمر خطورة الوضع ، فحاول تجنيد الغُزاة تحت لوائه. ولكنّ آماله قد ذهبت أدراج الرياح ! فقد فشلت المفاوضات التي أجراها معهم وأصبح مضطرًّا إلى استعمال القوّة. وقد حصلت المصادمة الحاسمة في حيدران (443 هـ/ 1052 م) وأفضت إلى انهزام رُعاة **الحضارة القيروانيّة** التي دقّت ساعة انقراضها. فسلّم سكّان البوادي الذين استولى عليهم الفزع ، أراضيهم للنهب والتجأوا إلى المدن. وأمام تقاعس السلطة المركزيّة ، تحوّلت أغلب تلك المدن إلى دُوَيْلات مستقلّة أو سقطت بين أيدي الهلاليّين الذين تقاسموا البلاد فيما بينهم. وانسحب عدد كبير من بني زيري إلى قابس ، في حين بدأ نزوح القيروانيّين إلى المهديّة وكذلك إلى مدينة تونس ، بلا شكّ. كما تحوّلت جموع من أهل إفريقيّة إلى مملكة بني حمّاد الغربيّة. ولم تحُلْ عودة المعزّ إلى طاعة الخليفة الفاطمي (446 هـ/ 1054 م) دون حصول الكارثة. فاضطرّ في سنة 449 هـ/ 1057 م إلى التخلّي عن عاصمته التي سرعان ما عاث فيها الأعراب فسادًا ، والتوجّه إلى المهديّة ، وقد كان يحكمها وليّ عهده تميم ، فعمّت الفوضى سائر البلاد.

أمّا في المغرب الأوسط ، فإنّ الأمير القائد بن حمّاد ، بعدما قطع علاقته بالفاطميّين وأيّد المعزّ في حيدران ، رجع هو أيضًا إلى الحظيرة الفاطميّة. وإثر وفاته (446هـ / 1054م) ، انتقل الحكم إلى ابنه محسن ثم إلى بلكّين الذي حارب زناتة على رأس وحدات هلاليّة في سنة 450هـ / 1058–1059. وإثر رجوعه من مدينة فاس التي استولى عليها بمرأى من الأمير المرابطي ، قتله ابن عمّه النّاصر ، سنة 454هـ / 1062م ، أي في نفس السّنة التي توفّي فيها المعزّ بن باديس.

الفصل الأوّل
بنو زيري

مقدّمات غزوة بني هلال[1] :

لقد كانت تقيم في الصعيد المصري قبائل عربيّة مشاغبة ، كانت تشغل بال السلطة الفاطميّة ، وهي قبائل بني هلال وبني سُلَيْم. وبقطع النظر عن بني سُلَيْم الذين سوف لا يرتحلون إلاّ فيما بعد ، فقد كانت موجودة هناك الثلاث قبائل الهلاليّة الرئيسيّة المنحدرة من عامر بن صعصعة وهي بحسب أهمّيّتها : الأثبج ورياح وزغبة ، بالإضافة إلى عدي وجشم وزُبيعة.

وقد فكّر الوزير اليازوري في استخدام تلك الحشود الهمجيّة ، سواء لصيانة كرامته المهانة أو لخدمة الدولة. فأشار على الخليفة بمصالحة تلك القبائل وتقليد رؤسائها إفريقية وتوجيه رجالها إلى محاربة صنهاجة[2].

ويُنسب إليه هذا الخطاب الذي قال فيه بالخصوص : «سواء نجحت المحاولة أم لم تنجح ، فإنّ الخليفة سيتخلّص من تلك العناصر التي قد تعترف له بالجميل إذا نجحت

---

1) النويري ، 141/2 ؛ رحلة التجاني ، 17 وفيها فقرة منقولة عن ابن بسّام تنسب خطأً إلى الجرجرائي إعداد الغزوة. وفي موضع آخر ، ص 22 ذكر التجاني أنّ بعض المصادر تشير إلى أن اليازوري هو الذي رخّص للهلاليّين باجتياز النيل. وأضاف قائلاً : «ولا يبعد أن يكون هذا هو الصحيح» ، لأنّ الغزوة قد تمّت بعد موت الجرجرائي بسنوات عديدة ، وقد سبق أن رأينا أنّ هذا الوزير قد توفّي سنة 436 هـ. — **البيان** ، 297/1 : وفيه أيضًا خلط بين الجرجرائي واليازوري ، ولا غرابة في ذلك ، إذ أنّ دراسة الأسلوب تسمح لنا بالتأكيد أنّ المؤلّف قد استشهد هو أيضًا بابن بسّام. كما استشهد (**البيان** ، 288/1) بابن شرف الذي لم يذكر اسم الوزير الفاطمي. — **العبر** ، 14/6 ، وقد أشار ابن خلدون إلى الخلط بين الوزيرين ، مؤكّدًا أنّ الأمر يتعلّق فعلاً باليازوري. **العبر** ، 159/6 و16/6 — 19 ، وقد اعتمد المؤلّف **سيرة بني هلال** التي ظهرت في عدّة طبعات ببيروت ، تحت عنوان «**رحلة بني هلال إلى بلاد الغرب**» ، ولا سيما طبعة 1892 — 1898 ؛ **الكامل** ، 235 — 236 ؛ **شذرات** ، 264/3 ؛ **سجلات مستنصريّة** ، عدد 5 ص 42 — 45 ؛ ابن الصيرفي ، 42 ؛ ابن ميسّر ، 6 ، 9 ؛ ابن حمّاد ، 59 ؛ **أعمال** ، 456 ، وفيها أيضًا خلط بين الوزيرين الفاطميّين ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 170/2 ؛ **المؤنس** ، 83. وحول الغزوة الهلاليّة ، أنظر جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر** ، 39 ، 113 و**بلاد البربر الإسلاميّة** ، 193 ، 328.

2) **العبر** ، 14/6.

العمليّة. وإن لم تنجح، فإنّ التعامل مع الأعراب في إفريقيّة أفضل من التعامل مع الدولة الصنهاجيّة». وقد وافق الخليفة بكلّ حماس على هذه الفكرة.

وحسب ما رواه ابن خلدون[3]، وجّه الخليفة الفاطمي وزيره إلى بني هلال في سنة 441هـ / 5 جوان 1049 – 25 ماي 1050م. ولكنّ هذا التاريخ يثير بعض الإشكال، لإنّ اليازوري قد عُيّن وزيرًا في محرّم 442هـ / 26 ماي – 24 جوان 1050م رغم أنّه من المحتمل أن يكون قد أسدى نصيحته عندما لم يكن سوى قاضي القضاة وداعي الدّعاة. هذا من جهة، ومن جهّة أخرى، يبدو أنّ اليازوري لم يتحوّل بنفسه إلى الصعيد. فقد أكّد النويري[4] أنّ الوزير، بعدما أغدق العطايا على رؤساء زغبة ورياح، كلّف أحد كبار رجال الدولة بالتوجّه إلى الصّعيد لإصلاح ذات البين بين القبيلتين، «فقد كانت بينهما حروب وحقود». كما أشار ابن ميسّر[5] إلى أنّ اليازوري قد وجّه إليهم المسمّى مكين الدولة بن مُلْهِم. بل إنّ وثيقة فاطميّة صادرة عن ديوان الرسائل[6] قد وصفت لنا بني هلال وهم يزحفون على إفريقيّة بقيادة الأمير أمين الدولة ومكينها حسن بن علي بن مُلْهِم المكلّف بالحفاظ على الوفاق بين رياح وزغبة. ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بنفس الشخص.

ومهما يكن من أمر، فقد تقبّل الأمراء الهلاليّون بكل سرور العطايا التي غمرتهم، رغم قيمتها الزهيدة[7]. كما تسلّم كلّ من وافق على اجتياز النيل من بني هلال، فَرْوًا (أو جملا؟) ودينارًا.

وحسب النويري[8]، استدعى اليازوري أمراء بني هلال وأطلق أيديهم في أقاليم إفريقيّة ووعدهم بالعُدّة والمدد وأمرهم بأن يعيثوا في البلاد فسادًا. فدخلوا إلى بلاد المغرب سنة 442هـ / 26 ماي 1050 – 14 ماي 1051م، وقد قال لهم اليازوري، حسب رواية ابن خلدون[9]: «أعطيتكم المغرب وما يملكه المعزّ بن باديس الصنهاجيّ العبد الآبق».

---

3) نفس المرجع.
4) النويري، 141/2.
5) ابن ميسّر، 6.
6) أنظر الفقرة الموالية «قابس في عهد المعزّ».
7) العبر، 14/6؛ النويري، 141/2؛ رحلة التجاني: «وأذن لهم في المعزّ أمنية طالما سرت إليها أطماعهم، وعكفت عليها أبصارهم» (نقلاً عن ابن بسّام). وهذا غير صحيح، إذ يُرْوَى أنّ الهلاليّين، لما عرض عليهم اليازوري اجتياز النيل، رفضوا ذلك العرض، فأعطى لكلّ واحد منهم فَرْوًا ودينارًا، وعندئذ اجتازوا النهر.
8) النويري، 141/2.
9) العبر، 14/6.

ومن البديهي أن يكون المعزّ قد قطع كلّ مراسلة مع ديوان الرسائل الفاطمي[10]، عندما علم بتلك الاستعدادات. وكان اليازوري قد وجّه إليه قبل ذلك كتاب وعيد وتهديد، جاء فيه بالخصوص: «إن لم ترجع عن رأيك، أَتَتْك الجيوش موصلة سنابك خيلك، ناسخة بنقعها ووميضها حكم نهارها وليلها»[11]. ثم وجّه إليه رسالة أخيرة، هذا نصّها: «أما بعد فقد أرسلتُ إليك خيلاً وحملنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً»[12].

فاحتلّ بنو هلال ناحية برقة مدفوعين بأمل الغنيمة، واستولوا على مدنها وقراها وخرّبوها. وكتبوا إلى اخوانهم الذين مكثوا في الضفّة الشرقيّة من النّيل وصفًا جذّابًا للبلاد التي اجتاحوها، لحثّهم على اللّحاق بهم. ويُقال إنّ اليازوري، بوصفه خبيرًا ماليًّا ماهرًا لم يسمح لهم باجتياز النّيل إلا بشرط «أن يؤدّي كلّ عابر فَرْوًا ودينارًا. فأخذ بذلك أكثر ممّا أعطى»[13].

ولم يتوقّف بنو هلال في ناحية برقة، بل تركوها لمن التحق بهم من بني سُلَيْم. ولم يتحوّل هؤلاء إلى إفريقيّة إلاّ فيما بعد (أوائل القرن الثاني عشر)[14].

وقد وفّر لنا ابن خلدون[15] معلومات مفيدة جدًّا حول تركيبة الغزاة الهلاليّين. ذلك أنّ مؤرّخنا الذي واجه أكثر من مرّة خلال حياته السياسيّة الطويلة أحفاد العرب الفاتحين، يعرف وضعيّة القبائل في عصره معرفة جيّدة، وقد تلقّى عدّة روايات، لا سيما منها المتعلّقة بأنسابها. ولم يتردّد في استقاء أخباره من سيرة بني هلال.

وحسب تلك المعلومات، كانت قبيلة الأثبج تضمّ بطنَيْن هامّين من بطون بني هلال، هما دُرَيْد وكرفة. وكان على رأس بني دريد فضل بن ناهد وحسن بن سرحان وأخوه بدر بن سرحان. ومن المعلوم أن الجازية الهلاليّة الذائعة الصيت هي أخت حسن بن سرحان أمير دريد. وكان على رأس بني كرفة سلامة بن رزق التابع لبطن بني كثير وشبانة[16] بن الأُحَيْمَر وأخوه سُلَيْسِل بن الأحيمر التابعان لبطن بني عطيّة.

---

10) حسب ابن ميسّر.
11) حسب التجاني نقلاً عن ابن بسّام.
12) نفس المرجع. **العبر** والنويري و**الكامل**.
13) **رحلة التجاني**، ص 20. أنظر أيضًا: **العبر**، 14/4.
14) **العبر**، 14/6 وجورج مارسي، المرجعان السابقان.
15) **العبر**، 15/6 – 19 وجورج مارسي، المرجعان المذكوران.
16) **العبر**: «شاقة» والبربر: «شبانة».

وكان بنو مُشْرِق خاضعين لسلطة زيد بن زيدان المنتمي إلى بطن بني الضحّاك. وكانت رياح أضعف قوّة وأقلّ عددًا من الأثبج.

أمّا بنو مرداس، فكانوا يمثّلون أهمّ بطن من بطون رياح، وكان على رأسهم مؤنس بن يحيى التابع لبطن بني صنبار[18]. ويلاحظ ابن خلدون أنه لا ينبغي الخلط بين «مرداس رياح» المنتمي إليهم مؤنس بن يحيى و«مرداس سُلَيْم». كما أشار من ناحية أخرى إلى «مرداس المَقْهَا» (؟)، دون أن يذكر إلى أية قبيلة ينتمون، وقد كانوا خاضعين لسلطة الأمير الفضل بن علي، والأمير فارس بن أبي الغيث الذي سيتصاهر مع المعزّ بن باديس فيما بعد، وأخيه الأمير عابد (أو عبد أو عامر)[19] ابن أبي الغيث.

ولم يُشِر ابن خلدون إلى أيّ بطن من بطون قبيلة زغبة الهامّة. وألحق بني قُرّة ببني هلال، وقد اتّجه قسم منهم إلى إفريقيّة صحبة الأثبج وزغبة. وجاء في سيرة بني هلال ذكر أحد شيوخهم وهو ماضي بن مقرب. وأورد الجغرافي البكري[20] رواية عجيبة، مفادها أن مقرب بن ماضي أمير بني قرّة ارتحل ابتداء من سنة 420هـ/ 1029-1030م إلى الصحراء للبحث عن واحة صبراوة.

ولم يذكر ابن خلدون أيّ خبر حول قبيلة عدي. في حين أشار ابن بسّام[21] إلى بعض بطون من بني عامر بن صعصعة، وهي زغبة وعدي والأثبج ورياح. وأوضح ابن خلدون أنّ بني عدي قد انقرضوا في عصره.

وهناك قبيلة هلاليّة أخرى قد انقرضت هي أيضًا في عصر ابن خلدون، وهي قبيلة ربيعة. ولكن المؤلّف افترض أنّ بني معقل الذين كانوا موجودين في عصره، ينحدرون من تلك القبيلة.

وإلى بني ثَوْر، أحفاد معاوية بن عبادة بن ربيعة البكّاء بن عامر بن صعصعة، ينتمي ذياب بن غانم الذي قام بدور كبير في سيرة بني هلال بوصفه رائد القوم، ولذلك سمّي «أبو

17) **العبر**: «سلسيل» و**البربر**: «سليسل».

18) **العبر**: «صفير» و**البربر**: «سنبار».

19) **العبر**: «عامر» و**البربر**: «عبد» وربّما «عابد»؟

20) البكري، 15-16.

21) **رحلة التجاني**، 18. ونقل ابن عذاري هذه الرواية بدون ذكر المرجع، **البيان**، 297/1.

مُخَيِّر». وهو الذي قتل (حوالي سنة 450 – 460هـ/ 1058 – 1068م) أبا سُعْدَة[22] خليفة بن يفرن التابع لأسرة بني يعلى الزناتية[23].

وأخيرًا أشار ابن خلدون إلى بعض البطون المنضوية بصورة تزيد أو تنقص إلى بني هلال، وبالخصوص الأثبج، وهي فزارة والأشجع من بني غطفان وبنو سلول أحفاد مُرّة بن صعصعة بن معاوية وبنو معقل التابعون لبطن يمني وبنو عنزة أحفاد أسد بن ربيعة بن نزار وعدوان أحفاد عمرو بن قيس بن غَيْلان، والطروديّون المنتمون إلى فهم بن قيس.

وذكر المؤرّخ في موضع آخر[24] أنّ النواحي الواقعة غربي قابس أصبحت على ملك القبائل الهلاليّة، وهي رياح وزغبة ومَعْقِل وجُشَام وقُرّة والأثبج وشدّاد وخلط وسفيان.

وقد أسند المستنصر سلفًا القيروان وباجة إلى مؤنس بن يحيى المرداسي، وقسنطينة إلى حسن بن سرحان وطرابلس وقابس إلى زغبة[25]. ولعلّ الأمر يتعلّق بمحاولة لاحقة لإقرار عمليّات التملّك التي حصلت فيما بعد[26].

ويمكن التأكيد أنّ الاجتياح لم يُتْرَك تمامًا للصدفة، إذ أن مصدرًا فاطميًّا[27] يفيد أنّ القائد الحسن بن علي بن مُلْهِم الملقّب بمكين الدولة قد كُلّف بإصلاح ذات البين بين زغبة ورياح والسّير بهم فيما بعد إلى إفريقيّة في كنف الانسجام التامّ.

بداية الاجتياح :

«لمّا حلّ بنو هلال (في سنة 442هـ/ 1050–1051م) أرض برقة وما والاها، وجدوا بلادًا كثيرة المرعى، خالية من الأهل، لأنّ زناتة كانوا أهلها، فأبادهم المعزّ»، حسب رواية

---

22) **العبر**: «أبو سعيد» و**البربر**: «أبو سعدة».

23) **العبر**، 7/44 – 46؛ **البيان**، 1/255؛ بيل، **الجازية**، 317 – 318؛ جورج مارسي، **العرب في بلاد البربر**، 10، 86، 131 – 132، 263.

24) **العبر**، 6/15.

25) **العبر**، 6/19 وجورج مارسي، المرجع السابق، 82 – 84.

26) **العبر**، 6/15.

27) ابن ميسّر، 6؛ **سجلاّت مستنصريّة**، سجلّ رقم 5، ص 42 – 45.

ابن الأثير والنويري[28]. ولكن يبدو من المستبعد أن تكون جيوش المعزّ قد وصلت إلى تلك الناحية البعيدة جدًّا عن طرابلس، للهجوم على زناتة. ومهما يكن من أمر، فقد أقام الأعراب في ناحية برقة واستوطنوها وعاثوا فسادًا في أطرافها حتى حدود طرابلس.

وحسب رواية ابن خلدون[29] «سارت قبائل دبّاب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقيّة كالجراد المنتشر لا يمرّون بشيء إلاّ أتوا عليه». وقد تمّ ذلك في سنة 443 هـ / 1051 – 1052م. ومن الممكن أن يكون بعض رجال دبّاب وعوف وزغبة قد التحقوا في أوّل الأمر ببني هلال في إفريقيّة. إلاّ أنّ أغلبيّة هذه البطون الثلاثة التابعة لبني سُلَيْم قد بقيت في برقة بلا شكّ.

ولم يُعِرْ المعزّ أيّة أهميّة إلى هذه الأخبار ولم يشعر بالخطر الذي كان يتهدّده[30]. ذلك أنّه لم يدرك في أوّل الأمر أنّ القضية تتعلّق باجتياح كبير للأعراب، وأنّ جغرافيّة إفريقيّة الطبيعيّة لا توفّر أيّ حاجز في وجه ذلك الاجتياح. ولعلّه أيضًا قد أفرط في تقدير قوّاته المسلّحة التي تمكّنت من إيقاف تقدّم زناتة. والحال أنّ إنشاء مملكة بني حمّاد قد جعل من الصعب أكثر فأكثر القيام بتعبئة جديدة للجنود الصنهاجيّين في المغرب الأوسط، موطنهم الأصلي. ومن ناحية أخرى، فإنّ جيش السلطان الذي أضعفته الحملات العسكريّة المتكرّرة وأوهنته الرفاهيّة، قد أصبح يفتقر إلى الروح النضاليّة. «وكان المعزّ لمّا رأى تقاعد صنهاجة عن قتال زناتة اشترى العبيد وأوسع لهم في العطاء، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك»[31]. أضف إلى ذلك أنّ مصادرنا تؤكّد كلّها أنّ المعزّ الذي ضجر من الصنهاجيّين قد سعى إلى إدخال العرب في خدمته[32]، قصد استعمالهم – حسب ابن خلدون – لإخضاع بني حمّاد أقاربه.

---

28) **الكامل**، 236/9 والنويري، 141/2.

29) **العبر**، 14/6.

30) **الكامل**، 236/9.

31) **الكامل**، النويري: «اشترى المعزّ العبيد، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك». هذه العبارة ليست إفريقيّة بل شرقيّة متأخّرة. ولعلّ العبيد لم يكونوا كلّهم زنوجًا. وقدّر ابن أبي دينار عددهم بعشرين ألف، **المؤنس**، 83. وكلّ هذه الأرقام مبالغ فيها.

32) **البيان**، 288/1 – 289، نقلاً عن ابن شرف، المرجع الأصلي؛ التجاني، 17 – 18، نقلاً عن ابن بسّام؛ **البيان**، 297/1، نقلاً عن ابن بسّام دون ذكر اسمه؛ **العبر**، 14/6 – 15؛ **الكامل**، 236/9؛ النويري، 143/2؛ وهي المصادر الوحيدة التي تشير إلى البساط.

ويبدو أنّ أمير رياح مؤنس بن يحيى الصنباري المرداسي الذي أعطاه المستنصر القيروان وباجة – حسب بعض المصادر – كان أوّل من دخل إفريقيّة من رؤساء القبائل العربيّة. فاستقدم المعزّ إلى بلاطه ذلك القائد الذي وُصِفَ بأنّه «كان شجاعًا، عاقلاً»(32م)، وأحسن معاملته، بل قيل إنّه قد زوّجه ابنته(33). «وشاوره في اتخاذ بني عمّه رياح جندًا، فأشار عليه مؤنس بأن لا يفعل ذلك وعرّفه بقلّة اجتماع القوم على الكلمة، وعدم انقيادهم إلى الطاعة. فألحّ عليه في ذلك إلى أن قال له المعزّ: «إنّما تريد انفرادك، حَسَدًا منك لقومك». فعزم مؤنس على الخروج إليهم، بعدما قدّم العذر وأشهد بعض رجال السلطان. ثم رحل متوجّهًا نحوهم، فنادى القوم وحشدهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السلطان والإحسان لهم. ثم قدم في ركب منهم، لم يعهدوا نعمة، ولا طالعوا حاضرة، فلمّا انتهوا إلى قرية تنادَوْا: «هذه القيروان!» ونهبوها من حينها.

فلمّا ورد الخبر على القيروان، عظم الأمر على المعزّ بن باديس، وقال: «إنّما فعل مؤنس هذا ليصحّح قوله ويظهر نصحه». فأمر بثقاف أولاده وعياله وختم على داره، حتى يعلم بما يكون من أمره. فلمّا بلغ مؤنسًا ما فُعِلَ بأهله وولده اشتدّت نكايته وعظم بلاؤه وقال: «قدّمت النصيحة، فحاق الأمر بي، ونُسِبَت الخطيئة إليّ. فكان أشدّ إضرارًا من القوم، وكان قد علم عورات القيروان»(33م). فعاث الأعراب في البلاد فسادًا وأعلنوا في كلّ مكان سيادة الخليفة المستنصر.

ورغم أنّه من الصعب تأكيد صحّة الرواية التالية، فالأرجح أن يكون الأمير العربي الدّاهية قد أومأ آنذاك إلى الرمز الشهير المتمثّل في تشبيه القيروان بالبساط. ذلك أنّ أصحابه كانوا مصمّمين على الزحف على القيروان، «فقال لهم مؤنس: «ليس المبادرة عندي برأي». فقالوا: «كيف تحبّ أن نصنع؟». فأخذ بساطًا فبسطه، ثم قال لهم: «مَنْ يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه؟». قالوا: «لا نقدر على ذلك». قال: «فهكذا القيروان، خذوا شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى إلاّ القيروان، فخذوها حينئذ»(34).

32م) **البيان**، 288/1.

33) حسب **العبر**، 14/6، 15، 16. وبفضل التجاني، ص 18 يمكن ضبط النصّ المشوّه الوارد في **البيان** 297/1 كما يلي: «فزفّ إلى زعمائهم بناتٍ كُنّ نجوم اللّيالي، وأماني المغالي، فأصبحوا له أصهارًا» (نقلاً عن ابن بسّام).

33م) **البيان**، 288/1 – 289.

34) **الكامل**، 236/9.

فاقتنع رؤساء بني هلال بهذه الحركة الاستعراضيّة المبسّطة الكفيلة بالتأثير في عقول مثل أولئك البدائيّين ، ووافقوا على رأي مؤنس ، وخاطبهم أحدهم ، وهو رافع بن حمّاد ، قائلاً : «إنّك لشيخ العرب وأميرها المقدّم علينا ، ولسنا نقطع أمرًا دونك».

وعمّت أعمال النهب ، «فأخرج السلطان إليهم بعض الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا ، وأعلموهم أنّ السلطان قد دفع عيالاتهم لهم (ربّما نساء مؤنس) ، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بالرجوع إلى الطاعة»(34م). وأرسلوا إلى المعزّ شيوخًا (لم يكن من بينهم مؤنس) ، وهم : مطرف بن كسلان وفرج بن أبي حسّان وزياد الدُّوَيْنَة (؟) وفارس بن كثير وفارس بن معروف ، فأنعم عليهم المعزّ وأكرم وفادتهم . «ثم بعد ذلك نكثوا على السلطان واستولوا على الفساد في كلّ جهة ومكان» . وخلال فترة قصيرة من الزمن – وعلى الأقلّ جنوب القيروان – «شنّ الهلاليّون الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن . فضاق بالناس الأمر وساءت أحوالهم ، فقطعت أسفارهم ونزل بإفريقيّة بلاء لم ينزل بها مثله قطّ» . ولكنّ ساعة ردّ الفعل الصنهاجيّ قد اقتربت .

هزيمة حيدران(35) ، 443 هـ / 1052م) :

لم يكتسح بنو هلال إفريقية بتمامها وكمالها ، بل يمكن أن نتصوّر أنّ هجوماتهم الخاطفة كانت تتمثّل في بعض الغارات الجريئة والحَذِرَة في نفس الوقت ، يتخلّلها تقهقر

34م) **الكامل** ، 236/9 .

35) **البيان** ، 289/1 – 293 ؛ النويري ، 145/2 ؛ **الكامل** ، 236/9 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 170/2 – 171 ؛ التجاني ، 19 ؛ **العبر** ، 14/6 – 15 ؛ **المؤنس** ، 83 ؛ جورج مارسي ، **العرب في بلاد البربر** ، 99 – 113 .

إنّ الدراسة الدقيقة والمقارنة لهذه النصوص ولا سيما نصّ **البيان** في طبعته الثانية (ليدن ، 1948) المعتمدة على مخطوطات جديدة والتي تسدّ فراغًا هامًّا ظهر في الطبعة الأولى ، تسمح لنا بفهم هذه المعركة الأولى الشهيرة بين بني زيري وبني هلال وإعادة النظر في مسألة كانت تبدو مفروغًا منها . وفي الجملة فإنّ المصادر قد نقلت بصورة تزيد أو تنقص روايتين ، لا تختلف إحداهما كثيرًا عن الأخرى . ممّا جعل النّاس يعتقدون أنّ هناك معركتَيْن تفصل بينهما سنة واحدة ، الأولى جرت في سنة 443 هـ / ربيع 1051م والثانية في سنة 444 هـ / ربيع 1052م . والسّبب في هذا الخطإ أن معركة حيدران الحقيقيّة (443 هـ) قد سبقتها هزيمة زيريّة أخرى لا نعرف تاريخها ولا مكانها .

وأنّنا نفضل على روايات بعض المؤلّفين ، أمثال ابن الأثير والنويري وبالخصوص ابن خلدون ، التي تنقصها الدقّة في ضبط التواريخ ، روايات بعض الإخباريّين الآخرين ، مثل ابن عذاري ، التي ، رغم ما فيها من أخطاء ، تنقل لنا الأخبار الأصليّة . وبناء على ذلك فإن **البيان** ، قد وفّر لنا معلومات ثمينة حول هذا الموضوع . فقد نقل المؤلف عند الحديث عن حوادث سنة 443 هـ (**البيان** ، 288/1 – 293) رواية الشاعر والمؤرّخ الرسمي الزيري ابن شرف ، =

إلى قواعد انطلاقهم. وفي الأثناء كانوا يخرّبون المناطق المنبسطة ويتحاشون المدن وينهبون ويبتزّون الأموال. ولكنّهم كانوا يفرّون إثر كلّ إنذار جدّي يُوَجَّه إليهم، ويتهرّبون من القتال. إذ كانوا يتلهّفون على الغنيمة أكثر من الغزو، فإذا أشبعوا نهمهم رجعوا على أعقابهم.

ولا تسمح المعلومات التي بين أيدينا، الغامضة إلى أقصى حدّ، بتحديد المناطق التي جرَت فيها تلك الغارات، ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ معظم المغيرين لم يتجاوزوا منطقة قابس، بما أنّ الصنهاجيّين قد حاولوا توقيفهم في حيدران الواقعة في تلك الضواحي. فهناك حدث التصادم المشهود، وهناك تعرّض للخطر، لا مصير بني زيري فحسب، بل مصير

= حول مقدّمات الغزو وهزيمة حيدران، وما تبعتها من أحداث وبالخصوص واقعة باب تونس. ثم أورد فصلاً قصيرًا أعطاه العنوان التالي: «هزيمة صنهاجة **أيضًا** بجبل حيدران، وهزيمة المعزّ بن باديس من **وجه آخر**». والمقصود بعبارة «أيضًا»: رواية أخرى حول نفس الهزيمة. وتؤكّد هذه التأويل عبارة «من وجه آخر» (أي حسب رواية أخرى)، وهي رواية منقولة عن مؤرّخ زيري آخر هو أبو الصّلت. ورغم اقتضابها فإن هذه الرواية مفيدة لأنها توفّر لنا معلومات نفيسة حول الهزيمة التي تبعت هزيمة حيدران ذاتها، وهي معلومات ناقصة في رواية ابن شرف. ثم يأتي عرض الحوادث التي جرت في سنة 444هـ، وقد جاء فيه ذكر عدد 7500 فارس من العرب. أمّا ابن الأثير والنويري فقد أشارا إلى أن عدد العرب كان «سبعة آلاف فارس، فانهزمت صنهاجة». وتحدّث ابن خلدون من جهته، بدون ذكر تواريخ مضبوطة، عن هزيمة أولى تعرضت لها جيوش صنهاجة ثم عن هزيمة حيدران ذاتها. ومن الصّعب أن نصدّق هذا المؤرّخ عندما قال إنّ المعزّ الذي تأثّر بالهزيمة الأولى قد ألقى القبض على أخي مؤنس ثم أقام معسكره خارج القيروان وحشد الجنود الحماديّين والزناتيّين وغيرهم وتوجّه إلى حيدران (**العبر**، 14/6–15).

أمّا الكاتبان المشرقيّان ابن الأثير (**الكامل**، 236/9) والنويري 145/2، فقد أوردا على التوالي روايتين حول المعركة، الأولى يبدو أنّها منقولة عن ابن شدّاد والثانية مقتبسة لا محالة من رواية أبي الصّلت التي أوردها ابن عذاري، وقد ميّزت بكل وضوح بين المعركتين. وعند الحديث عن حوادث سنة 444هـ أوضح النويري أنّ هزيمة المعزّ الأولى تمّت في سنة 443هـ والثانية في سنة 444هـ، والواقع أنّ التاريخ الأخير لا يتعلّق بمعركة حيدران بل يتعلّق بواقعه المصلّى أو بالواقعة التي جرت إثر السماح للعرب بدخول القيروان سنة 444هـ. أما أبو الفداء (**التاريخ**، 170/2)، وهو مرجع شرقي رديء نسبيًّا، فقد ذكر عند الحديث عن حوادث سنة 442هـ أنّ المعزّ قد مُنِيَ بثلاث هزائم متتالية، الأولى يبدو أنها جرت في برقة والثانية لما حشد المعزّ 30000 مقاتل، ثم انهزم ورجع إلى القيروان (كما جاء في **البيان**، حسب رواية أبي الصّلت) والثالثة عندما جمع المعزّ جنوده وهجم على العرب فانهزم. وعند ذلك وصل الهلاليّون إلى القيروان وأقاموا في المصلّى. وهذه المعلومات الغامضة والمبهمة للغاية لا يمكن اعتمادها. كما لا ينبغي اعتماد شهادة ابن بسّام التي نقلها التجاني، ص 16 ومفادها أن معركة حيدران جرت في سنة 444هـ. ويحمل القول إنّ انتصار الهلاليّين قد يكون حصل في أواخر سنة 443هـ، ولكنّ آثاره قد امتدّت إلى سنة 444هـ. وهذا ما يفسّر إشارة ابن بسّام والنويري إلى سنة 444هـ / 3 ماي 1052 – 22 أفريل 1053م. والجدير بالملاحظة أيضًا أنّ سنة 443هـ / 15 ماي 1051 – 2 ماي 1052م قد كانت ملائمة لتنظيم حملتيْن عسكريّتين في الربيع.

«**الحضارة القيروانيّة**». ومن حسن حظّنا ، فإنّ لدينا روايتَيْن متكاملتَيْن لتلك الواقعة ، الأولى مقتبسة من ابن شرف والثانية من أبي الصّلت ، وهما المؤرّخان الرسميّان للدولة الصنهاجيّة. وبالمقارنة بينهما ، ندرك أنّ الثانية تؤكّد أنّ معركة حيدران بحصر المعنى ، قد سبقتها هزيمة أخرى ، أشار إليها ابن خلدون هو أيضًا. وهناك رواية ثالثة ربّما تُنْسَب إلى ابن شدّاد.

ففي سنة 443 هـ / 15 ماي 1051—2 ماي 1052م ، أقرّ المعزّ العزم في آخر الأمر على قمع الغزاة ، فحشد جيشًا عرمرمًا يُقَدَّر عدد أفراده بحوالي «ثلاثين ألف فارس ومثله رجّالة»(35م). وهو عدد ضخم بالنسبة لذلك العصر. والجدير بالتذكير أن الحرس السلطاني قد بلغ عدده ثلاثين ألف. وإذا صدّقنا هذه الأرقام ، فإنّ المعزّ قد تمكّن حينئذ من حشد جنود يساوي عددهم عدد الحرس. ولا شكّ أنّ جميع هذه الأرقام مبالغ فيها ، ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أنّ المؤرّخين الرسميّين يحاولون دائمًا التقليل من الجيوش الرسميّة المهزومة ، لا تضخيمها ، وذلك مراعاةً لعواطف أسيادهم.

وقد أخبرنا ابن خلدون أنّ المعزّ استنجد بابن عمّه القائد بن حمّاد الذي بعث إليه ألف فارس. كما أمدّه الأعراب الزناتيّون بمثل ذلك العدد من الفرسان بقيادة المنتصر بن خزرون الذي كان موجودًا آنذاك بإفريقيّة صحبة رجاله المغراويّين ، وهو لا زال مسيطرًا على طرابلس بلا شكّ. ويبدو أنّ المعزّ قد وهبه آنذاك 100 000 دينار(36). ومهما يكن من أمر فقد كان هناك تواطؤ بين بني زيري وزناتة ضدّ عدوّهم المشترك. ودائمًا ، حسب رواية ابن خلدون ، فإنّ الثلاثين ألف مقاتل في حيدران كانوا يتألّفون من جنود زيريّين وصنهاجيّين وعدد قليل من أحفاد العرب الفاتحين وعساكر زناتة والبربر.

وقد تمكّن المعزّ من صدّ هجوم أخي مؤنس وأقام معسكره خارج القيروان استعدادًا للقتال ، وعيّن ثلاثة قوّاد على رأس الجيش ، وهم : ابن سلبون وزكنون بن وعلان وزيري الصنهاجي. وبعدما أطلق جيوشه للقاء الأعراب ، عاد إلى القيروان. ولم تقل لنا المصادر هل أنّ الجيش قد توجّه بأكمله إلى ساحة الوغى أم لا. كما أنّها لم تذكر لنا متى عاد المعزّ إلى القيروان. ولكنّ من الأرجح أنه قد وجّه ضدّ الأعراب في أوّل الأمر فِرَقًا عسكريّة صغيرة ،

35م) **الكامل** ، 236/9 والنويري (المعركة الأولى حسب رواية أبي الصّلت المفترضة) 27000 فارس ؛ **البيان** ، رقم 80000 مغلوط (معركة حيدران ذاتها حسب رواية ابن شرف) ؛ **الكامل** والنويري (حسب رواية ابن شدّاد المفترضة) : «30000 فارس ومثلها رجّالة» ؛ **العبر** (معركة حيدران) : 30000 مقاتل.

36) **البيان** ، 297/1 ، نقلا عن ابن بسّام حسبما يبدو.

هي عبارة عن طليعة لم تكن تمثّل سوى قسم من مجموع الجند، ولم يلبث أن قدم هو بنفسه ليتولّى قيادة العمليّات الحربيّة. ونحن نفترض أنه قد قضى هناك (في مكانٍ ما من الجنوب) عيد الأضحى الموافق ليوم الاثنين 10 ذو الحجّة 443 هـ / 13 أفريل 1052م. وفي نفس اليوم «انهزمت صنهاجة وقُتِلَ منهم كثير»[37]. ويقال إنّ المعزّ «قد هجم على العرب وهم في صلاة العيد، فركبت العرب خيولهم وحملت، فانهزمت صنهاجة»[38].

ومن الغد (11 ذو الحجّة 443 هـ) «مشى الأمير إلى ناحية قرية تُعرَف ببني هلال، فلمّا كان نصف النهار، أتته الأخبار أنّ القوم قد قربوا منه بأجمعهم. فأمر بالنزول في أوعار وأودية، فلم يستتمّ النزول حتى حمل العرب عليهم حملة رجل واحد»[39].

ويُحكى[40] «أنّ المعزّ قد جمع عساكره، فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها رجّالة، وكانت عدّة العرب ثلاثة آلاف فارس. فلمّا رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعزّ، هالهم ذلك وعظم عليهم. فقال لهم مؤنس بن يحيى: «ما هذا يوم فرار!». فقالوا: «أين نطعن هؤلاء، وقد لبسوا الكذاغندات [الدروع] والمغافر [الخوذات]؟». قال: «في أعينهم». فسُمّي ذلك اليوم (يوم العين)»[41].

ويبدو أنّ الصنهاجيّين قد استعملوا خطّة تنمّ عن كرههم لعبيد السلطان. «فقد اتّفقت صنهاجة على الهزيمة وتَرْك المعزّ مع العبيد حتى يرى فعلهم ويُقْتَل أكثرهم، فعند ذلك يرجعون على العرب»[42].

«فانهزم العسكر، وصبر المعزّ صبرًا عظيمًا إلى أن وصلت رماح العرب إليه، ومات من العبيد بين يديه خلق عظيم، فدوه بأنفسهم»[43]. وعندئذ رأى الصنهاجيّون أنّ الوقت قد حان للتدخّل، فغيّروا اتّجاههم محاولين بدون جدوى إنقاذ الموقف. ولكنهم انهزموا شرّ هزيمة

---

37) **البيان** (رواية أبي الصّلت).

38) **الكامل** والنويري.

39) **البيان** (رواية ابن شرف).

40) **الكامل** والنويري.

41) حسب **الكامل**: «يوم العين». وحسب النويري، فإن هذه الكلمة التاريخية لم يتلفّظ بها مؤنس، بل أمير عربي آخر لقّب فيما بعد باسم «أبو العينَيْن».

42) **الكامل** والنويري.

43) **الكامل** والنويري و**البيان** (رواية ابن شرف).

وفرّوا جميعًا، بمن في ذلك بنو مناد، ومن باب أولى وأحرى الزناتيّون بقيادة المنتصر بن خزرون[44].

وحسب رواية ابن خلدون فإنّ الجنود العرب من أبناء البلاد هم الذين أعطوا إشارة الفرار، وانضمّوا إلى العرب الهلاليّين منذ بدء المعركة، استجابة لروح العصبيّة القائمة على أواصر القرابة. وقد تبع ذلك تخلّي زناتة وصنهاجة عن المعركة. ولكن يبدو أنّ مؤلّف «**المقدّمة**» العبقري، قد أغرته فكرة تبرير إحدى نظريّاته الاجتماعيّة المحبّبة إليه أكثر، ألا وهي العصبيّة القبليّة. والواقع أنّ العرب المنحدرين من عهد الفتح لم يعودوا يمثّلون خلال القرن الخامس هجري مجموعة عرقيّة متماسكة ومتميّزة عن بقيّة سكان إفريقيّة. إذ لا يُعْقَل أن يعمد أولئك السكّان الحضريّون المتمدّنون إلى الارتماء في أحضان مجموعة من الأعراب الرُّحَّل الهمج الذين ينتمون، علاوة على ذلك، إلى قبيلة ما زالت غير ممثّلة في إفريقيّة.

«وانتهبت العرب مضارب (الفارّين) ودخلوا معسكر المعزّ السلطان فحازوه، وفيه من الذهب والفضة والأسباب والأثاث والخفّ والكراع[45] ما لا يعلم عدده إلاّ الله. وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال نحو خمسة عشر ألفًا، ومن البغال ما لا يحصيه قول. فما خلص لأحد من الجند عقال فما فوقه»[46]. وتفرّقوا في جبل حيدران ثم تجمّعوا من جديد[47]، «فأُحْصِيَ من قُتِلَ من صنهاجة في هذه الواقعة، فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة»[48].

ومن الجدير بالذّكر أنّ هذا الجبل، أو إحدى القرى القريبة منه التي تحمل نفس الاسم، هو الذي أعطى للهزيمة اسم «معركة حيدران». وبما أنّه لا يوجد في الوقت الحاضر أيّ مكان يحمل اسم بني هلال أو حيدران، فمن الصعب تحديد موقع ذلك المكان بالتّدقيق[49].

---

44) **المؤنس**، 83 ينسب هزيمة المعزّ أساسًا إلى تخلّي زناتة. وهو تأويل متأخّر تبسيطي يعتمد على العداوة التقليديّة بين زناتة وصنهاجة. وهذا لا يعني أنّ هذه الخيانة كانت حاسمة لأنّ عدد الزناتيين لم يكن كبيرًا.

45) أي الإبل والخيل.

46) **البيان**، 290/1 (رواية ابن شرف).

47) نفس المرجع، أنظر أيضًا **الكامل** والنويري.

48) **البيان** (رواية أبي الصلت)، **الكامل** والنويري (الرواية الثانية).

49) حسب ابن الأثير والنويري، يقع هذا الجبل على بعد مسيرة ثلاثة أيام من القيروان. ويوضّح ابن الأثير أنّ المعركة جرت «قبلي جبل جندران»(هكذا). ويقول ابن خلدون أنّ عرب رياح وزغبة وعدي أقاموا جنوب حيدران في ضواحي =

وقد أوحى هذا الانتصار إلى أحد المنتصرين، وهو علي بن رزق الهلالي قصيدة، يقول عنها التجاني إنها «اشتهرت في زمانه»[50]، أوّلها [طويل][51]:

لقد زار وَهْنًا من أُمَيْمَ خَيالُ وأيدي المطايا بالذّميل عِجالُ

ويقول فيها عند ذكر الوقيعة:

وإنّ ابن باديس لأَحْزَم مالك ولكن لَعَمْري ما لديه رِجَالُ
ثلاثةُ آلافٍ لنا غَلَبَتْ لـه ثلاثين أَلْفًا إنّ ذا لَنَكَالُ

وكان أهل القيروان ينتظرون الأخبار بلهفة ويفحصون الأفق من أعلى أسوار المدينة. «فلمّا كان ثالث العيد (12 ذو الحجّة 443هـ/ 15 أفريل 1052م) قدم فارسان مع ابن البوّاب، وهم قد غلبت عليهم الكآبة وكسوف البال، وحالهم يغني عن السؤال. وكثر أيضًا سؤال النّاس عن السلطان، فذكروا أنّه في حيّز السلامة. فلم تَكُ إلاّ ساعة حتى دخل قصره هو وولده (لا شكّ أنّه المنصور). ثم تساقط النّاس بعده آحادًا وجموعًا، وتخلّف عن الوصول خلق عظيم، منهم من عُلِمَ خبره، ومنهم من لم يُعْلَم. ثم ذُكِرَ أَنّ العرب أخذوا خلقًا كثيرًا من الصنهاجيّين وغيرهم»[52].

«ووصل العرب إلى نواحي القيروان، وجعل كلّ من سبق إلى قرية يسمّي نفسه لهم، ويؤمنهم ويعطيهم قلنسوة أو رقعة يكتبها لهم، علامة ليُعلِم غيره أنّه سبقه.

«وبات النّاس ليلتَيْن بالقيروان تحت ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى من الخوف، لا يدرون ما ينزل بساحتهم. وأقام النّاس يومين لا يدخل إليهم داخل ولا يخرج منهم خارج، وخيل العرب تسرح حول القيروان في كلّ جهة ومكان، والنّاس يرونهم عيانًا بيانًا.

= قابس. فهل يتعلّق الأمر ببلدة وذرف وجبل هيدوش (أو حيدوج). ويرى حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة**، 96 الإحالة 2، «أنّ حيدران مطابق لبلدة ودرن الحالية الواقعة في الجنوب الشرقي من البلاد التونسيّة في الطريق الرئيسيّة الرابطة بين قابس والقيروان». ويشير التجاني ص 20 (نقلاً عن ابن بسّام) «أنّ حيدران اسم جبل معروف بمقربة من القيروان». وهذا خطأ لا شكّ فيه.

(50) حسب التجاني، 20 – 21؛ **البيان** (رواية ابن شرف)، 290/1؛ **العبر**، 15/6؛ **الكامل**، 236/9؛ النويري، 144/2 – 145؛ مقديش، 145/1. ويشير ابن خلدون إلى أنّ هذه القصيدة منسوبة أيضًا إلى ابن شدّاد. والمقصود بدون شكّ أنها منقولة عن هذا المؤرّخ.

(51) هناك قراءات مختلفة لهذه القصيدة، وقد اعتمدنا قراءة التجاني.

(52) حسب **البيان** (رواية ابن شرف)، 290/1 – 291.

«وخرج السلطان سابع عيد الأضحى (16 ذو الحجّة 443 هـ/ 19 أفريل 1052م) بجنوده، وخرج عامّة القيروان معه، فلم يتَعَدَّ بهم المصلّى، ورجع العرب في أمانهم الذي أعطوا أهل البوادي، وانتهبوا جميعها، وانتقل أهلها إلى القيروان. وأمر السلطان كافة النّاس بانتهاب المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة – المنصوريّة، فسُرَّ المسلمون بذلك، وحسبوها من أرزاقهم، وكان مصيرها إلى ما قدّر الله فسادها أَكْلُ البهائم لها.

«وفي السابع عشر لذي الحجّة، ظهرت خيل العرب على ثلاثة أميال من القيروان. فنزل السلطان يمشي فيها، ويوصي أهلها بالاحتفاظ والبناء، وأخذ النّاس في بناء دورهم. وأمر السّلطان المعزّ أن ينتقل عامّة أهل صبرة وسوقتها [تجّارها] إلى القيروان، ويخلوا الحوانيت كلّها بصبرة، وأمر جميع مَنْ بالقيروان من الصنهاجيّين وغيرهم من العسكر، أن ينتقلوا إلى صبرة وينزلوا في حوانيتها وأسواقها، فارتجّ البلد لذلك وعظم الخطب، واشتدّ الكرب، ومدّ العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها، واقتلعوها، وخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة.

«وبات النّاس على خوف عظيم، ثم أصبحوا فعاينوا خيول العرب، فأمر السّلطان ألا يخرج العسكر على سور صبرة. قال ابن شرف: أخبرني مَنْ أثق به، قال: خرجتُ من القيروان وسرت ليلاً، فكنت أكمن النهار، فلم أمرّ بقرية إلا وقد سُحِقَت وأُكِلَتْ، أهلها عُراة أمام حيطانها، من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعهم جوعًا وبردًا. وانقطع المير عن القيروان، وتعطّلت الأسواق، وأمسك العرب جميع من أسروه، فلم يطلقوا أحدًا إلاّ بالفداء، مثل أسرى الرّوم، وأمّا الضعفاء فأمسكوهم لخدمتهم»[53].

وحسب ابن خلدون[54]، فقد عاقب المعزّ بقسوة أهل القرى الذين تحالفوا طوعًا أو كرهًا مع المغيرين. وبينما التجأ أهل البوادي المجاورة إلى القيروان، بدأ منذ ذلك الحين، حسبما يبدو، نزوح أهل القيروان إلى مدينة تونس وسوسة.

وقد هجم العرب على القيروان من جهة باب تونس، «فخرج إليهم العامّة، منهم بسلاح، ومنهم من بيده عصا لا يُدفَع بها أضعف الكلاب، فحملت عليهم فرسان العرب، وتمكّنت منهم سيوفهم ورماحهم، فتساقطوا على وجوههم وجُنوبهم، وسطحوهم من حدّ أفران الأجرّ إلى هذا الباب، ولم يبق منهم إلاّ من حصّنه أجله، ولم يتركوا على حيّ ولا ميّت

53) نفس المرجع.
54) العبر، 15/6.

خرقة تُواريه. وخرج أهل القتلى عند انصراف العرب، فرفعوا قتلاهم، فقامت النوائح والنّوادب بكلّ جهة ومكان من أزِقّة القيروان، تتصدّع لمنظرها وسماعها الجبال. وبقي خلق من الغرباء في المقتلة، وجُرِحَ من النّاس خلق كثير، ورأى النّاس ما أذهلهم من قبيح تلك الجراحات، فتفتّتت الأكباد، وذابت القلوب والأجساد، لبُنيّات قد سَوَّدْن وجوههنّ وحَلَقْنَ رؤوسهنّ على آبائهنّ وإخوانهنّ. فكان هذا يوم مصائب وأنكاد ونوائب. ولم يَرَ النّاس مثله في سائر الأمصار، فيما مضى من الأعصار. وبات النّاس في همّ وغمّ. تمّ كلام ابن شرف مُختَصَرًا»[55].

ويبدو أنّ واقعة باب تونس التي رواها ابن شرف دون سواه، هي نفس الواقعة التي سمّيناها «واقعة المصلّى»، وهي التي أشار إليها أبو الصّلت بلا شكّ. ذلك أنّ المصادر تؤكّد وجود مصلّى بالقرب من باب تونس[56].

وحسب رواية أبي الصّلت، «أقبلت العرب حتى نزلت على القيروان، ووقعت الحرب هنالك، فقُتِلَ بين رقّادة والمنصوريّة خلق كثير»[57]

ولا يمكننا أن نتصوّر إقدام الأعراب الهلاليّين على محاصرة مدينة كبيرة مثل القيروان، حصارًا حقيقيًّا. فقد امتثلوا قصدًا أو بغير قصد إلى نصائح مؤنس، وفضّلوا نهب السهول وتغاضوا عن المدن التي تستطيع مقاومتهم.

والغالب على الظنّ أنّهم ضيّقوا الخناق على القيروان إلى حدٍّ ما، بينما استمرّت عصاباتهم في نهب النواحي الغربيّة والشماليّة الغربيّة، على وجه الخصوص.

واستغلّ المعزّ هذا الهدوء النسبي لبناء سور القيروان وسور زويلة[58]، «وجعل السّور

---

55) **البيان**، 292/1.

56) **رياض النفوس** [طبعة بيروت، 1983، 8/1]. نظرًا لقرب البابَيْن بعضهما من بعض (باب تونس في الشمال وباب سَلَم في الشمال الغربي)، ربّما يكون مصلّى باب سلَم ومصلّى باب تونس هما نفس المصلّى الذي يقع بين مقبرة باب سلم ومقبرة باب تونس (الزاوية الغربية الشماليّة من المدينة). أنظر الباب السابع من هذا الكتاب. وقد رأينا أنّ ابن شرف لم يذكر المصلّى عندما روى واقعة باب تونس (ولم ينقل **البيان**، إلا مقتطفات من تلك الرواية).

57) **البيان**، 293/1 (رواية أبي الصّلت): «ثم عاد (المعزّ) إلى المنصورية. فأحصي من قتل من صنهاجة في هذه الوقعة: فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة». **الكامل**، 237/9: «ثم عاد (المعز) إلى المنصورية فأُحْصِي من قُتِل من صنهاجة ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة، ثم اقبلت العرب حتى نزلت بمصلّى القيروان ووقعت الحرب فقتل من المنصورية ورقادة خلق كثير».

58) **البيان**، 293/1 ؛ **الكامل**، 237/1. وحول بناء سور زويلة في ضواحي المهدية، أنظر البكري، 29.

ممّا يلي صبرة كالفصيل : حائطان متّصلان إلى صبرة ، وبينهما نصف ميل»[59].

وفي نفس الوقت الذي كان فيه المعزّ يواصل بكلّ حزم استعداداته الدّفاعيّة ، معلّلاً نفسه بالأمل في انسحاب الهلاليّين إلى الجنوب ، سعى إلى التّفاهم مع المغيرين الذين لم يكن عددهم يتجاوز آنذاك سبعة آلاف وخمسمائة فارس[60].

ورغم ميلنا إلى الاعتقاد بأنّ زواج بنات المعزّ بن باديس بالأمراء الهلاليّين قد تمّ في ذلك التاريخ ، فإنّ تلك المصاهرات لم تقع ، حسبما يبدو إلاّ بعد ذلك بسنتين ، أي عندما تفاقم ضغط الأعراب على القيروان. ومهما يكن من أمر ، فمن المؤكّد أنّ الأمير الصنهاجي المُحَاصَر مع مَن بقي من جنده في صبرة – المنصوريّة ، قد رغب في سنة 444هـ / 3 ماي 1052 – 22 أفريل 1053م «في رفع الحرب بينه وبين العرب» ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، «فأباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء»[61]. ويمكن أن نتصوّر غضب فقهاء القيروان عندما يرون المسلمين يقومون بعمليّات تجارية محرّمة قطعًا ، لأنّ جميع ممتلكات الهلاليّين من موادّ زراعيّة وأمتعة ونقود ، متأتيّة بالتأكيد من النّهب. ولم تستطع العامّة تحمّل وجود هؤلاء الدّخلاء ، فما لبثت الحوادث أن اندلعت بينهم وبين المغتصبين الذين لا شكّ أنّهم كانوا من ناحية أخرى ، شدادًا ، غِلاظًا ، متعجرفين. «ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربي وآخر عامّي ، وكانت الغلبة للعرب»[61] ، وقُتِلَ من القيروانيّين عدد كبير. وقد تسبّبت هذه المجزرة في وضع حدّ للتجربة التي قام بها المعزّ بلا حذر.

وفي أوائل السنة الموالية ، صفر 445هـ / 23 أفريل – 22 مارس 1053م ، ولّى المعزّ ابنه تميم على المهديّة ، «وقد كان رجاله وخاصّته حذّروه من تولية ابنه تميم وخوّفوه أن يستبدّ بنفسه ويمتنع بالمهديّة على أبيه ، فلم يسمع منهم ، وجعل ينقل إليها أهله وذخائره شيئًا فشيئًا»[62]. وتواصل نهب إفريقيّة بكلّ شراسة. ففي سنة 445هـ / 1053–1054م سقطت مدينتا أبّة والأربس ، جنوبي الكاف ، وأحاطت زغبة ورياح بالقيروان. وقدم مؤنس وأقام

59) **البيان** ، 293/1.

60) نفس المرجع. **الكامل** ، 237/9 ؛ النويري ، 145/2. وهذا الرقم (7500) يمثل حوالي ضعف عدد الهلاليّين الذين قيل إنهم شاركوا في معركة حيدران.

61) **البيان** ، 293/1 ؛ **الكامل** ، 237/9 ؛ النويري ، 145/2.

62) **رحلة التجاني** ، 328–329 ؛ **الحلل السندسيّة** ، 239 ؛ **الكامل** ، 237/9 ؛ النويري ، 147/2 ؛ ابن خلّكان ، 99/1 ؛ **البيان** ، 293/1 ؛ **العبر** ، 16/6 ، 159.

معسكره حول أسوار المدينة وشمل برعايته أفراد أسرة بني زيري ووجّههم إلى قابس وبعض النواحي الأخرى[63]. وأصبح الأعراب يسيطرون على ناحية قسطيلية بأكملها. وقد قام أحد رؤسائهم، وهو عابد (أو عبد أو عامر) بغارة ناجحة ضدّ زناتة ومغراوة، وعاد بغنيمة هامّة[64]. وما لبثت توزر وقفصة أن ثارتا ضدّ السلطة المركزيّة التي عجزت عن حمايتهما.

ثورة توزر[65] :

يبدو أنّ توزر كانت طوال عهد بني زيري تحت سلطة/أكبر العائلات نفوذًا في تلك المنطقة، ألا وهي عائلة بني يملول، ذات الأصل التنّوخي، وقد كانت تضمّ كلاًّ من بني وطّاس[66] وبني فرقان وبني ماردة(؟)[67] وبني عود[68]. وقد أشار ابن خلدون إلى أنّ رئيس مجلس توزر يحيى بن وطّاس قد أقنع أهل قسطيلية[69] أثناء الغزوة الهلاليّة بخلع طاعة بني زيري والدخول في طاعة بني حمّاد. ويبدو أنّ هذه المبايعة التي لا نعرف عنها أكثر من ذلك، قد سبقت خضوع توزر لسلطة أمير قفصة.

ثورة قفصة[70] :

كان يحكم قفصة أثناء الغزوة الهلاليّة عبد الله بن محمد بن الرّند، وكانت عائلته التابعة لبني صدغيان[71] أصيلي جربة[72] تقيم في بلدة الجُصْيين (أو الجُليين)[73] في جهة

---

63) العبر، 15/6.
64) نفس المرجع.
65) العبر، 412/6 – 413.
66) العبر: «وطّاس».
67) نفس المرجع: «مارة»، وفي موضع آخر: «بنو مروان».
68) نفس المرجع: «عوض».
69) في المخطوط: «قسنطينة»؛ العبر، 413/6.
70) العبر، 165/6 – 166.
71) نفس المرجع: «صدغيان». [ما زالت توجد إلى الآن بجزيرة جربة قرية تحمل نفس هذا الاسم].
72) حسب البربر، وفي العبر: «حَرْمَة».
73) العبر: «الجُلّيين»، البربر: «الجِرْسين».

نفزاوة. وحسب المؤرّخ الحفصي ابن نخيل[74]، كان ينتمي إلى بني ازمرتن[75] التابعين لمغراوة. وقد نجح في بسط سلطانه على المدينة وتأمين راحة السكان وضمان أمن المسافرين، مقابل دفع الجزية للأعراب. وفي سنة 445 هـ أعلن استقلاله وخضعت له أغلب مدن قسطيلية وتوزر ونفطة وتقيوس والحامّة الخ... فأسّس أسرة حاكمة صغيرة هي أسرة بني الرّند. وجلب إلى بلاطه الشعراء والأدباء وأظهر احترامه الفائق للمتديّنين وتوفّي سنة 465 هـ / 1072 – 1073م.

ثورة سوسة[76] :

من الجدير بالتذكير أن أهل القيروان كانوا قد تصالحوا مع أهل سوسة في سنة 442 هـ / 1050 – 1051م واحتفلوا جميعًا بذلك الصّلح بكلّ ابتهاج[77]. ولكن في سنة 445 هـ «خالف أهل سوسة على المعزّ بن باديس ومنعوه ما كانوا يحملون إليه من المال وقالوا : «نحن أولى به لنذبّ عن بلدنا». وتوفّيت أخت المعزّ[78] عندهم، فضمّوا أموالها وأبوا من توجيهها إليه، فبعث المعزّ إليهم في ذلك، فقالوا لرُسُله : «كيف ندفع له أموالاً نتقوّى بها نحن على مدافعته وحربه؟». فبعث المعزّ إليهم أسطولاً ضخمًا، فأصبح بمرسى سوسة، فأحرق ما فيه من المراكب، كانت نيفًا وستين مركبًا أكثرها لأهل سوسة. فعمد أهل سوسة إلى من كان عندهم من أهل القيروان، فأخذوا أموالهم وأهانوهم أشدّ الإهانة.

فوجّه المعزّ إليهم جيشًا فيه مائة فارس وأمرهم أن يتظافروا مع الأسطول على حصار سوسة ليأخذوا بمخنقها برًّا وبحرًا. فكان من قدر الله الغريب الاتفاق أن اجتاز سوسة يوم خروج هذا الجيش أسطول من قِبَل صاحب صقليّة (ابن الثمنة)، فتهيّبه أسطول المعزّ، وانصرف راجعًا إلى المهديّة، ولا علم عند المعزّ بذلك. ووصل جيش المعزّ إلى سوسة فسألوا عن الأسطول فأُخْبِروا بإقلاعه، فسقط في أيديهم. فخرج أهل سوسة ومَنْ حَفّ بها من

74) استشهد به ابن خلدون، العبر، 165/6.

75) البربر: «ازمرتن»، العبر: «مرين».

76) رحلة التجاني، 28 – 29؛ البيان، 293/1؛ المؤنس 82.

77) أنظر الباب الثالث (الفصل السابع) من هذا الكتاب.

78) الأرجح هي أمّ العلوّ أرملة عبد الله بن حمّاد بن بلكين (المتوفّى ما بين 430 – 440 هـ). وكانت قد تزوّجته سنة 475 هـ.

الأعراب إليهم، فأدخلوهم إلى المدينة وأجالوا السيف على جميعهم ونصبوا رؤوسهم على السّور. قال ابن شرف: أخبرني من شاهدها أنّ عدّتها نيف وخمسون رأسًا. قال: وإنّما سلم من سلم من الجيش لضعف في دوابّهم، منعهم من اللّحاق باخوانهم، فلمّا تحقّقوا الخبر ولّوا راجعين فسلموا من ذلك»[78 م].

وكان يدير المدينة مجلس[79]. ويعتبر تمرّد تلك المدينة الساحلية أبلغ من تمرّد توزر وحتى قفصة، حيث كان تأثير السلطة المركزيّة ضعيفًا، وكانت الفوضى سائدة في كامل المنطقة. وتجاه تقاعس السلطة التي أصبحت في حالة انحلال، تأسّس في المدينة مجلس أعيان مكلّف بإدارة الشؤون البلديّة والتفاوض مع الغزاة إن اقتضى الأمر، لصيانة مصالح السكّان. وسنرى فيما بعد أمثلة كثيرة لهذا النظام الذي يذكّرنا بنظام «الجماعة» البربريّة.

وقد وافانا ابن بسّام[80] بمعلومات حول الخلافات التي نشبت في سوسة في أواخر سنة 646 هـ/ أوائل سنة 1055م، حسب الاحتمال. فأشار، ربّما نقلاً عن ابن شرف، إلى رحيل رسول الخليفة العبّاسي أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي، من القيروان إلى سوسة (بعد سنة 446 هـ بلا شكّ)[81].

«فتطاول عليه أهلها. فخرج عنهم بعد أن أوقع الفتنة بينهم. وتركهم فرقتين: قيسيّة ويمنيّة[82]. وأوقع في نفوسهم أنّ الحرب قائمة بين هاتين القبيلتين إلى يوم القيامة. فاقتتل الفريقان إلى أن تغلّب عليهم تميم بن المعزّ. وتردّد أبو الفضل هنالك عدّة سنين. وشهد الحروب مع بلقّين. ثم انتبذ من تلك الناحية. وركب البحر فنزل بدانية».

---

78 م) رحلة التجاني، 28 – 29.

79) العبر، 159/6،.

80) ابن بسّام، 67/1/4 – 69.

81) أنظر الفقرة الموالية.

82) كانت المنافسة متواصلة في العصر الوسيط بين عرب الشمال أو المُضَريّين (ومنهم القيسيّون) وعرب الجنوب أو اليمنيّين المنحدرين من قحطان. ويدلّ نسب الدّارمي على أنّ أبا الفضل كان تميميًا أو مُضريًّا. وكان بنو هلال مُضَريّين قيسيّين، ولكن من بين المغيرين كانت توجد أيضًا بعض الفرق اليمنيّة. وقد سعى تميم إلى إذكاء الأحقاد بين المغيرين. ولا يفوتنا أنّ الصنهاجيّين كانوا يدّعون أنّهم من أصل يمني وأن كثيرًا من القيروانيّين قد التجأوا إلى سوسة أثناء غزوة الأعراب.

حصار القيروان والاستيلاء على باجة :

«وفي سنة 446 حاصرت العرب مدينة القيروان وضيّقت عليها تضييقًا شديدًا يطول ذكره. وفيها أخذ مؤنس بن يحيى (المرداسي) مدينة باجة وأطاعه أهلها»[83]. وهكذا أصبحت رياح تتحكّم في وادي مجردة العليا.

اقتسام المدن[84] :

اقتسم الأعراب مدن إفريقيّة فيما بينهم. فاستولت زغبة على مدينة طرابلس ونواحيها، واستولى بنو مرداس التابعون لفرع من فروع رياح، على باجة وما والاها. ويشكّل هذا الاستيلاء تكريسًا للأمر الواقع.

وقد أخبرنا التجاني[85] أنّ قاضي طرابلس محمد بن فاضل البكري الإفريقي الذي يبدو أنه كان قد تولّى شؤون تلك المدينة قبل سنة 444هـ/ 1053 – 1054م، «فرّ عنها (في تلك السنة) هاربًا خوفًا من أهلها». فعوّضه محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن هانش الطرابلسي الذي بقي في خطّته «إلى أن عُزِلَ عنها سنة سبع وسبعين (1084 – 1085)، فكانت ولايته اثنين وثلاثين سنة».

المصاهرات بين بني زيري وبني هلال[86] :

يبدو أنّ المعزّ الذي أصبح في ضيق شديد، قد انتهج من جديد سياسة المصاهرات التي لم يفلح فيها قبل ذلك ببضع سنوات. فقد زوّج بناته الثلاث إلى أمراء القبائل العربيّة : فارس بن أبي الغيث وأخيه عابد[87] بن أبي الغيث والفضل بن أبي علي المرداسي[88].

---

83) **البيان**، 293/1 – 294 ؛ **الكامل**، 237/9 ؛ النويري، 145/2 ؛ **المؤنس**، 82.

84) **العبر**، 15/6.

85) **رحلة التجاني**، ص 263.

86) **العبر**، 16/6، 159 ؛ التجاني، 236 ؛ **الحلل**، 239/1 – 240 ؛ **البيان**، 279/1.

87) **العبر**، 16/6 : «عائض» ؛ **البربر**، 36/1 : «عبد».

88) **العبر**، 16/6 : «المُرَادي» ؛ **البربر**، 36/1 : «المرداسي».

إلاّ أنّ المعزّ الذي تجاوزته الأحداث وصار يشعر بالوهن «قد أشار على الرعيّة بالانتقال إلى المهديّة لعجزه عن حمايتهم من العرب. وشرعت العرب في هدم الحصون والقصور، وقطعوا الثمار وخرّبوا الأنهار»(89).

الرجوع إلى الحظيرة الفاطميّة(90) :

من الجدير بالتذكير أنّ الخروج عن طاعة الفاطميّين قد تمثّل في ضرب النقود السنيّة. على أنّ دراسة المسكوكات تثبت أنّ المعزّ منذ دخوله إلى المهديّة سنة 449 هـ / 1057 – 1058م حتى وفاته سنة 454 هـ / 1062 – 1063م قد ضرب دنانير شيعيّة من النوع المعروف، وأثبت فيها اسم الخليفة الفاطمي المستنصر. وقد نسج ابنه تميم على منواله على الأقلّ حتى سنة 459 هـ / 1066 – 1067م، ولم تصلنا أيّة نقود زيريّة بعد ذلك التاريخ. ولئن كان الديناران المضروبان في صفاقس على التوالي في سنة 449 هـ و 461 هـ، أي في مدّة حمّو بن مليل البرغواطي، من النوع السنّي، فذلك لأن الأمير قد ثار ضدّ بني زيري التابعين للخلافة الفاطميّة، على الأقلّ منذ سنة 449 هـ.

ومن ناحية أخرى، فإنّ عقد النكاح المودع في محفوظات الجامع الأعظم بالقيروان(91) والمؤرّخ في غرّة رمضان 446 هـ(92) قد صدر عن «القاضي عبد الرحمان بن أحمد، قاضي الإمام القائم بأمر الله وواليه المعزّ لدين الله»(93). ونستنتج من ذلك أنّ المعزّ بن باديس ما زال حتى أوّل رمضان 446 هـ / 4 ديسمبر 1049م يعترف بالخليفة القائم بأمر الله.

وإنّ ابن بسّام هو الذي أمدّنا بالتاريخ الصّحيح لعودة بني زيري إلى طاعة الفاطميّين، وذلك نقلاً عن ابن رشيق، حسب الاحتمال(94). فبعدما تحدّث عن وصول رسول الخليفة العبّاسي، أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي، إلى القيروان سنة439 هـ /

---

89) **الكامل**، 237/9 ؛ النويري، 146/2.

90) إدريس، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1953، 25 – 39.

91) صندوق عدد 417.

92) تشير الوثيقة إلى شهادة أُدْلي بها في رجب 446 هـ، أي قبل تاريخ الوثيقة بشهرين.

93) [بمقتضى أمر مؤرخ في 1967/9/7 نقلت محفوظات جامع القيروان إلى دار الكتب الوطنية بتونس. وفي المدة الأخيرة قرّرت الحكومة التونسيّة نقلها إلى معهد البحوث الإسلاميّة برقّادة – القيروان].

94) ابن بسّام، 67/1/4 – 69.

1047 – 1048م ، أضاف أنّ هذا المبعوث شهِدَ حصار القيروان (من طرف بني هلال). «فلما كان عام ستّة وأربعين صرف المعزّ خطبته إلى صاحب مصر، ونبذ العبّاسيّة».

وهكذا ففي الوقت الذي انهارت فيه مملكة بني زيري، دخل المعزّ بن باديس من جديد في طاعة الفاطميّين سنة 446هـ / 12 أفريل 1054 – أوّل أفريل 1055م. ولمّا أصبح رسول خليفة بغداد شخصًا غير مرغوب فيه، فرّ إلى سوسة ثم إلى المغرب الأوسط، حيث دخل في خدمة بلكّين بن حمّاد[95]، ثم إلى الأندلس، حيث أدركته المنيّة، إلاّ أنّ تغيير موقف المعزّ لم يثر حوله كثير من اللّغط. ذلك أنّ أهل إفريقيّة المهدّدين في أشخاصهم وأملاكهم، لم يكن لديهم متّسع من الوقت للاهتمام بالقضايا السياسيّة والدينيّة. وهناك دينار سنّي مضروب «بمدينة عزّ الإسلام والقيروان» سنة 448هـ / 1056–1057م، يقيم الدليل على أنّ السكّة لم يدخل عليها أيّ تغيير في الحال. وممّا لا شكّ فيه أنه لم تُضْرَب نقود عديدة في مثل تلك الفترة المضطربة.

ومن الغريب أنّنا لا نجد أيّ أثر لتغيير موقف المعزّ في المصادر الفاطميّة المعروفة الآن. على أنّ صاحب إفريقيّة لم يكن منخدعًا قطّ بما يمكن أن ينجرّ عن موقفه الجديد من منافع محتملة. ذلك أنّ المنكوبين، تجاه ما لا سبيل إلى تفاديه، لا يستطيعون إلاّ التعلّل بالأمل الخدّاع في الرجوع إلى الوضع الذي كانوا عليه قبل المحنة. ولعلّ المعزّ بن باديس المتسبّب في أحداثٍ كان عاجزًا عن إيقافها، والنّادم على صنيعه، قد فكّر بصورة غريزيّة في إمكانيّة تفادي الكارثة بالرّجوع إلى الوضع القائم من قبل. ولا ينبغي أن يفوتنا أيضًا أنّ بني هلال يعترفون، على الأقلّ اسميًّا، بالفاطميّين الذين كانوا قد سلّموا إليهم إفريقيّة. فمن الممكن أن تكون بعض الأوامر والتوصيّات ونصائح الاعتدال الصادرة عن القاهرة، ذات جدوى. أمّا الأمل في مساعدة الخلافة العبّاسيّة النائية، فهو من قبيل الوهم. وبالعكس من ذلك فإنّ الأمل في الحصول على دعم معنوي أو عسكريّ من قِبَل المستنصر لفائدة خادمه النادم الذي أصبح في ضيق شديد، ليس بالأمر المستحيل. أفلا يستطيع الخليفة، رغم ما يتعرّض له من صعوبات في الدّاخل أو في الخارج، إرسال فيلق والقيام بعمليّة إنزال في المهديّة مثلاً، بفضل أسطوله الذي ما زال عتيدًا؟ أفلم يساعد آباء المعزّ في الماضي على إنقاذ الفاطميّين في

95) لا شكّ أنّ بني حمّاد قد استمرّوا في الاعتراف بالخلافة العبّاسيّة، وهذا ما يفسّر وجود أبي الفضل إلى جانب بلكين. ولكن بينما يؤكّد ابن خلدون (العبر، 172/6) أنّ القائد (المتوفّى سنة 446هـ / 1054 – 1055م) قد اعترف بالعبّاسيّين، نجد ما ينافي ذلك في أعمال ابن الخطيب.

الساعات الحرجة خلال ثورة أبي يزيد، عندما كان صاحب الحمار يحاصرهم في مدينة المهديّة ذاتها، حيث سيجد بنو زيري أنفسهم عمّا قريب مُحَاصرين بدورهم؟

وبناء على ذلك، فإنّ خضوع صاحب إفريقيّة المالكيّة من جديد للسّلطة الشيعيّة، حسبما تثبته عدّة نقود ويؤكّده إخباريّ واحد، يمكن تفسيره بسهولة. ذلك أنّ مبايعة الخليفة العبّاسي النائي قد أثارت زوبعة لا يستطيع إخمادها إلاّ الخليفة الفاطمي القريب جدًّا. ولكنّ هذه المحاولة الأخيرة لم تُجْدِ نفعًا. والحال أنّ التّصالح لا يكلّف شيئًا، في حين تبيّن أنّ القطيعة مع القاهرة كانت مفجعة، بعدما بَدَت في أوّل الأمر من قبيل الأعمال السياسيّة الباهرة.

ومن ناحية أخرى، فقد ثار ضدّ المعزّ في سنة 447هـ/ 2 أفريل 1055 – 20 مارس 1056م، المدعوّ ابن أبي زمان، الذي لا نعرف عنه أيّ شيء آخر، من سوء الحظّ.

وفي نفس تلك السنة «كانت بإفريقيّة مجاعة عظيمة وجَهْدٌ مفرط»[96].

القتال بين عبيد المعزّ وعبيد تميم[97]:

في سنة 445هـ/ 23 أفريل 1053 – 11 أفريل 1054م «وصل تميم إلى المهديّة فوجد بها عبيدًا لأبيه، كان قد أعدّهم هنالك لضبطها، قد قويت شوكتهم وكثر ملأهم. فوقعت بينهم وبين عبيده فتنة ومنازعة. فبينما هو في ذلك إذ دخل عليه شاعره محمد بن حبيب القلانسي، فأنشده قصيدة منها:

[بسيط]

لا تغمد السيف حتى تقتل السّفَلاَ	السيف يسبق قبل الحادث العذلا
فكلّهم ظنّ هذا المُلْكَ مُنتَقِلا»[98]	نَقِّـل عُـدَاتَكَ مـن دنيا لآخرة

«فقامت عامّة زويلة وسائر من كان بها من البحريّين وغيرهم، مُعَاضَدَةً لعبيد تميم، وأخرجوهم من المهديّة وقتلوا منهم عددًا كبيرًا. فدسّ تميم خبرهم إلى العرب، فقُتِلَ منهم في

96) البيان، 294/1.

97) نفس المرجع. الكامل، 257/9 – 258؛ التجاني، 329؛ الحلل، 239/1؛ تاريخ أبي الفداء، 147/2.

98) التجاني، المرجع المذكور.

الطريق خلق كثير. ويقال إنّ الذي قُتِلَ منهم سبعمائة»[99].

وقد دفعت هذه الواقعة تميم بن المعزّ عندما ارتقى إلى العرش، إلى قتل عبيد أبيه. والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ وليّ العهد تميم بن المعزّ كان قد أنشأ حرسًا خاصًّا يفوق عدَدُه عدَد حرس أبيه، وأنّه، خلافًا لما كان متوقّعًا، قد أقدم على قتل «عبيد أبيه». والحال أنّه من المفروض أن يكونوا أوفياء له.

«وبلغ المعزّ ذلك، فقوي في نفسه ما كان يُذْكَر له عن تميم من الاستبداد والاستئثار بما حصل لديه من الذخائر، ولكنّه لم يجد بدًّا من مداراته والإغضاء له عن فعلته».

وحسبما جاء في «**البيان المغرب**» لابن عذاري[100]، دخل العرب إلى إفريقيّة سنة 448هـ/ 21 مارس 1056 — 29 مارس 1057م، واستولوا على أغلب نواحيها. ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بخطإ في التاريخ، أو أنّ المقصود هو وصول موجة جديدة من المغيرين، قد استهوتهم انتصارات من سبقهم من الأعراب، فجاؤوا ليأخذوا نصيبهم من الغنيمة.

فرار المعزّ إلى المهديّة[101]:

قرّر المعزّ بن باديس يوم 27 شعبان[102] سنة 449هـ/ 29 أكتوبر 1057م الالتجاء إلى المهديّة، وكان قد وجّه إليها عائلته وذخائره. فخرج من صبرة — المنصوريّة متوجّهًا إلى المهديّة «في خفارة رجلين من العرب قد كان صاهرهما بِبِنتَيْه، يُعرَف أحدهما بالفضل بن أبي علي وهو مرداسي، ويُعْرَف الآخر بفارس بن أبي الغيث، توجّها إليه فاستخرجاه من صبرة سرًّا، وأحسّ باقي الأعراب بخروجه فلحقوه في أثناء الطريق، فواقفهم فارس بن أبي الغيث في جماعة من قومه وجعل يؤنّبهم على الاستخفاف بخفارته. فقالوا له: «إنّك قد أعظمت التحامل علينا في خفارة مثل المعزّ، وتَرْكُنا له عظيم، والفائدة في أخذه كبيرة، فلا

---

99) لقد بالغ التجاني عندما قال إنهم قُتِلوا جميعًا.

100) **البيان**، 243/3، لعلّ المقصود 442هـ؟

101) التجاني، 328 — 329؛ **الحلل**، 239/1 — 240 [الطبعة الجديدة 447/1]؛ **البيان**، 294/1، 297 — 298؛ **العبر**، 16/6؛ **الكامل**، 237/9؛ **المؤنس**، 84. وحول تعيين قائد بن ميمون، أنظر: **الكامل**، 21/1؛ النويري، 154/2.

102) حسب **البيان**، 294/1: «لِلَيْلَتين بَقِيَتا من شعبان». وحسب النويري: «لليلتين مَضَتا»، وهذا خطأ.

تمنعنا منه». فلم يزل يواقفهم ويراجعهم إلى أن خلص المعزّ وصاحبه الفضل بن أبي علي ودخل المهديّة»[103].

وفي أقصر رواية من الروايتين اللتين أوردهما ابن خلدون[104]، اقتصر المؤرّخ على التأكيد أنّ المعزّ قد توجّه من القيروان إلى المهديّة في خفارة صهره الشهير مؤنس بن يحيى الصنباري. وحسب الرواية الثانية[105] استقدم المعزّ أصهاره من رؤساء العرب الذين خفروه، وأبحر في اتّجاه المهديّة. وبما أنّ الطريق المباشرة لم تكن آمنة بما فيه الكفاية، نظرًا لوجود عدد كبير من الأعراب، فاننا نتصوّر جيّدًا أنّ المعزّ قد توجّه إلى جهة الساحل، عبر منعطف، مفضّلاً ذلك على شمال الطريق الرابطة بين القيروان وسوسة. ولكن من المستبعد أن يكون قد أبحر من سوسة، وإلاّ لماذا لم ينزل في ميناء المهديّة؟ إذ سنرى أنه قد التقى بتميم في الميّانش.

ومرّة أخرى، فان التجاني في رحلته شبه التاريخيّة هو الذي سيوفّر لنا معلومات مفيدة في هذا الشأن. فقد صرّح بما يلي: «ويقال إنّ المعزّ قد كان أخرج بعض قطعه البحريّة وسيّرها في البحر محاذية له خوفًا ممّا عساه أن يعرض له في طريقه. فلما لحقه الأعراب، كما قدّمناه، ناداه أرباب القطع بالبدار إليهم ليعتصم بالبحر من أولئك الأعراب، فلجّ في السّير وأبى من الدخول إليهم، أنفةً منه وجَلَدًا، إلى أن خلص وحصل بالمهديّة ودخلها وهو خائف من ولده تميم أن يقبض عليه. فخرج تميم للقائه وترجّل وقبّل الأرض بين يديه ومشى أمامه»[106].

ويبدو أنّ هذا اللقاء قد تمّ في ميّانش[107]. وقد قدّم تميم شواهد الطّاعة إلى أبيه، مسفّهًا بذلك الأراجيف التي اتّهمته باعتزامه الثورة على الأمير التّعيس الحظّ. ولعلّ المعزّ قد فوجئ وتأثّر بهذا الاستقبال المفعم بشواهد الاحترام، فدعا لولده وأمره بأن يمتطي صهوة جواده من جديد. ثم دخلا المهديّة ونزل المعزّ بالقصر[108].

---

103) حسب التجاني، 329 – 330.
104) **العبر**، 159/6.
105) **العبر**، 16/6.
106) التجاني، ص 330.
107) بلدة صغيرة تقع شمال المهديّة، **البلدان**، 219/8.
108) **البيان**، **الكامل**، النويري، التجاني.

ويمكن لبعض أصحاب النوايا السيّئة أن يشكّوا في نزاهة تميم وأن يتساءلوا هل أنّه لم يعمد في الحين إلى إخضاع والده لسلطته. ومهما يكن من أمر فإنّ المعزّ الذي يبدو أنّه قد استرجع صوابه، بعد كلّ الهزائم والمتاعب التي أنهكته طوال أكثر من أربعين سنة، قد فوّض إلى وليّ عهده طوعًا أو كرهًا تسيير شؤون البلاد، دون أن يتنازل عن العرش[109].

وقبل أن يغادر المعزّ عاصمته، ترك القيروان وتونس بين يَدَيْ المسمّى قائد بن ميمون[110]. وغداة رحيله الذي تمّ في الليل، حسب الاحتمال، قام ابنه المنصور الذي بقي بالقيروان بإعلام السكّان برحيل والده. فغادر أهل القيروان المدينة بإشراف المنصور والعبيد[111].

نهب القيروان:

بعد يومين فحسب من رحيل المعزّ بن باديس، أي يوم أوّل رمضان سنة 449هـ/ أوّل نوفمبر 1052م، «انتهبت العرب مدينة القيروان وخرّبتها»[112]. وقد وصف ابن رشيق في قصيدة طويلة خراب القيروان وما قاساه أهلها من عذاب، بعدما أُجْبِرُوا على مغادرة مدينتهم. وقد تحدّثت المصادر عن المصائب التي تسبّب فيها بنو فادي (أو فادغ) وبنو دهمان، خلال شهر رمضان[113].

أما ابن الصّيرفي[114]، فبعدما روى هذه الوقائع، أشار إلى أنّ كميّة كبيرة من الأشياء المنهوبة، كالأسلحة والأجهزة والأدوات الحربيّة والخيام، قد وصلت إلى القاهرة المعزّية. وتؤكّد هذه الإشارة الغريبة متانة العلاقات القائمة بين المغيرين والخلافة الفاطميّة.

---

109) **البيان**، **الكامل**، المؤنس.

110) النويري، 154/2؛ **الكامل**، 21/10. ويذكر المرجع الأخير خطأ لا محالة قابس عوض تونس.

111) حسب ابن خلدون لا غير.

112) **البيان**، 294/1؛ **الكامل**، لم يذكر إلاّ الشهر.

113) تشتمل القصيدة على 122 بيتًا، **معالم الايمان**، 15/1–16 (56 بيتًا)؛ **بساط**، 47 (27 بيتًا)؛ الميمني، 73–80. ويذكر النصّ «فادي». واسم هذه القبيلة ما زال موجودًا إلى الآن في ولاية المهدية. وبنو فادي (أو فادغ) هم من بني مرداس.

114) ابن الصيرفي، 42.

وما لبث الأعراب أن قطعوا مواصلات المهديّة ووسائل تموينها، وهجموا على زناتة[115]، وقد وصل الأثبج وعدي إلى المغرب الأوسط. ففي سنة 450هـ/ 1058 – 1059م «خرج بلكّين الصنهاجي، ومعه الأثبج وعدي لحرب زناتة»[116].

والتجأ عدد كبير من أهل إفريقيّة إلى مملكة بني حمّاد التي تسمح لها تضاريسها بالدفاع عن نفسها كما ينبغي. ويبدو أنها استفادت من تدهور إفريقيّة سياسيًّا واقتصاديًّا[117].

ثورة صفاقس[118]:

كان المعزّ بن باديس قد ولّى على صفاقس في فترة لا نعرف تاريخها بالضبط، صنيعته منصور أفروم[119] البرغواطي، «وكان من الفرسان المعروفين بالإقدام، فأراد أن يثور بها وأخذ في مخالفة العرب ومصادقتهم، فعالجه ابن عمّه حمّو بن مليل وقتله غدرًا في الحمّام سنة واحد وخمسين وأربعمائة (السبت 2 شوال 451هـ/ 11 نوفمبر 1059م)[120].

«ولمّا قتله جاء حلفاء منصور من العرب فحصروا حمّو بصفاقس، فبعث إليهم يسألهم هل قصدهم الأخذ بثأر ابن عمّه منه أو المال. فقالوا: نحن لا ندخل بينكم في الدماء، وإنّما غرضنا الأموال. فالتزم لهم من المال ما رضوا به وعجّل لهم ما تيسّر وانفصلوا. وثار حمّو بصفاقس وأظهر العناد على بني مناد».

وفي السنة الموالية 452هـ/ 6 فيفري 1060 – 25 جانفي 1061م، «وقعت بين العرب بالقيروان وبين هوّارة حربٌ كان الغلب فيها للعرب[121]، وقُتِلت هوّارة بباب أصرم[122] أحد أبوابها».

---

(115) **العبر**، 16/6.

(116) **البيان**، 294/1.

(117) **الكامل**، 18/10؛ النويري، 148/2–149.

(118) **رحلة التجاني**، 70؛ **الحلل السندسيّة**، 313/1؛ **نزهة الأنظار**، 193/2؛ **العبر**، 159/6؛ **البيان**، 294/1؛ النويري، 146/2؛ **المؤنس**، 82.

(119) قراءة ظنّيّة حسب اسم ذكره النويري فقط.

(120) **البيان**، 294/1، نظريًّا يوم الخميس. أفلا يتعلّق الأمر بيوم السبت 12 (نظريًّا يوم الأحد)؟

(121) **البيان**، 294/1؛ **الكامل**، 237/9 واكتفى المؤلف بالإشارة إلى أنّ العرب هزموا هوّارة وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا.

(122) حسب **البيان**، وقد صحّحنا القراءة المخطئة كما يلي: «باب أصرم» عوض «باب الصوم».

وحسب ابن الأثير والنويري[123] ، اضطرّ قائد بن ميمون الذي كان المعزّ قد سلّم إليه القيروان ، بعد مضيّ ثلاث سنوات ، إلى التخلّي عن المدينة التعيسة الحظّ لفائدة هوّارة والالتجاء إلى المهديّة . ويمكن أن نستنتج من ذلك أنّ قائد بن ميمون قد حكم القيروان من سنة 449 إلى سنة 452 هـ ، ثم أُطْرِد منها من طرف هوّارة الذين ما لبثوا أن أُطْرِدوا هُمْ أيضًا من طرف الأعراب .

قضيّة تقيوس[124] :

عندما يدخل الأعراب إلى مدينةٍ ما لقضاء بعض شؤونهم ، كانت عداوة الإفريقيّين لهم من جهة ، وعجرفتهم من جهة أخرى ، تثير عدّة حوادث من نوع الحادث الذي جدّ بالقيروان سنة 444 هـ / 1052—1053م[125] . ومن ذلك أيضًا أنّ الأعراب قد دخلوا في سنة 453 هـ / 1061م إلى تقيوس وهي مدينة تقع بالجريد بين توزر وقفصة وتخضع لسلطة والي قفصة المستقلّ عبد الله بن الرّند . «فسمع رجل منهم رجلا من أهل المدينة يذكر المعزّ بخير ويثني عليه ، فقتله العربي ، وكان الرجل مقدّمًا في المدينة . فقام عليهم أهل البلد وقتلوا مائتين وخمسين من العرب ، وكان سبب ذلك أن العرب دخلت إلى تقيوس متسوّقة»[126] .

بعض مظاهر الفوضى السائدة في شمال إفريقيّة[127] :

في فصلٍ يستحيل في غالب الأحيان تصحيح نصّه المحرّف ، نظرًا لعدم إمكانيّة المقابلة بينه وبين نصوص أخرى ، جمع ابن خلدون عدّة معلومات حول عدد من الرؤساء الذين هم بمثابة ملوك طوائف ، تمكّنوا بسبب الفوضى الهلاليّة من الاستيلاء على عدّة مدن ثانوية في شمال إفريقيّة . وتغطّي هذه المعلومات الفترة الممتدّة من غزوة بني هلال إلى غزوة الموحّدين .

---

123) **الكامل** ، 21/10 ؛ النويري ، 154/2 .
124) **البيان** ، 295/1 ؛ **الكامل** ، 237/9 .
125) أنظر ما سبق .
126) قراءة **الكامل** : «متسوّقة» أحسن من قراءة **البيان** «متشوّفة» .
127) **العبر** ، 169/6 — 170 .

ونظرًا لعدم تمكّننا من تحديد التسلسل الزمني لتلك المعلومات، فاننا سنوردها كما هي. وليس في ذلك ضرر كبير، لأنّ تميم بن المعزّ ومن جاء بعده من ملوك بني زيري، لم يحاولوا أبدًا استرجاع أيّة ناحية من النواحي الواقعة شمال غربي مدينة تونس، إذ كانوا مشغولين في أماكن أخرى، وكانت تنقصهم الوسائل اللاّزمة لذلك.

بنزرت[128] :

استقرّ أحد اللخميّين، يبدو أن اسمّه الكامل هو أبو الرجاء الورد[129]، في قَريشة (أو قرسينة)[130]، وهي قلعة تقع في جبل شُعَيْب[131]. ثم حشد فيها جموعًا من المغامرين المتشرّدين وأجبر سكّان القرى المجاورة لبنزرت على دفع الجزية لاتّقاء الغارات. وقد دام هذا الوضع مدّة طويلة إلى أن اتّفق أهل بنزرت الذين كانوا منقسمين إلى شقّيْن متنافسَيْن، منهم قسم يضمّ اللخميّين، على الاعتراف بسلطة الورد، وقد استقرّ في مدينة بنزرت لحمايتها من الأعراب. وعندما استولى على السهول المجاورة بنو مقدّم التابعون لبطن من بطون الأثبج وبنو دهمان التابعون لبطن بني علي أحد بطون رياح، عقد معهم الورد الصّلح مقابل دفع الجزية، وتلقّب بلقب أمير، وحرص إلى آخر حياته على تحقيق ازدهار المدينة، وقد شيّد بها عدّة بناءات ذات المنفعة العامة.

وقد أثارت بسالة ابنه وخليفته طراد خوف الأعراب. وخلفه ابنه محمد الذي قتله بعد ذلك بشهر أخوه مقرب[132] وأطلق على نفسه لقب أمير. وتمكّن هذا المغتصب من استمالة عدد كبير من الأنصار وحماية بلاده من الأعراب. وقد استطاع بفضل قوّته القيام بدور راعي الآداب، فأغدق العطايا على الشعراء الذين توافدوا على بلاطه.

ثمّ انتقل الحكم إلى أبنائه الثلاثة الذين نسجوا على منواله، وهم على التوالي عبد العزيز، وقد حكم عشر سنوات، ثم موسى، وقد حكم أربع سنوات، وأخيرًا عيسى الذي استسلم إلى عبد المؤمن بن علي سنة 552هـ/ 1157 – 1158م.

---

128) نفس المرجع.

129) نفس المرجع : «أبو الرجاء اللخمي»؛ **البريو** : «الورد».

130) **العبر**: «قرسينة»؛ **البريو**: «كريشة».

131) لعلّ الأمر يتعلّق بجبل أشكل الحالي.

132) **العبر**: «مقرن»، وربّما مقرّب.

زرعـة[133] :

كان بَرُوغْسَنْ(؟)[134] بن أبي علي الصنهاجي ضابطًا من ضبّاط العزيز بن المنصور بن حمّاد[135] الذي كان قد تزوّج أخته. ولكن إثر الانتصار الذي أحرزه هو والعزيز ضدّ الأعراب، نسب ذلك الانتصار إلى نفسه دون سواه، وادّعى أنّ السلطان قد تخاذل أثناء المعركة. فتأثّر العزيز بذلك والتجأ بروغسن، بإشارة من أخته زوجة العزيز، إلى باجة، وقد احتفى به شيخها محمود بن يزال الربعي[136]. وكان أهل زرعة، وهي قلعة تابعة لباجة، ينتمون إلى قبيلة زاتيمة(؟)[137] وهم منقسمون إلى فرعين متنافسيّن: أولاد مدني[138] وأولاد لاحِق. فسئم الفريقان من الخصام والتمسا من محمود شيخ باجة القدوم لإرجاع الأمن إلى نصابه. فوجّه إليهما بروغسن بن أبي علي ليحكم بينهما ويسهر على مصالحهما. فاستأجر بروغسن بعض الأشخاص المتشرّدين الذين كانوا يهيمون في البوادي المجاورة وأدخلهم إلى قلعة زرعة. وتزوّج امرأة[139] من أولاد مدني وناصرهم على خصومهم أولاد لاحِق. ولمّا أصبح يتحكّم في زرعة، جنّد الرجال وألّف فيلقًا يضمّ خمسمائة فارس وعاث في ضواحي القلعة فسادًا. وقد تعرّض بنو الورد أصحاب بنزرت وابن غلال(؟)[140] حاكم طبربة لهجوماته، وكان من بين ضحاياه محمد بن سباع[141] أمير بني سعيد التابعين لبطن من بطون رياح. وبما أنّ القلعة أصبحت لا تسع العدد المتزايد من السكّان، فقد بنى بروغسن بجوارها رَبَضا. فوجّه العزيز بن حمّاد جيشًا ضدّه بقيادة القايد غيلاس(؟)[142] الذي تمكّن من إلقاء القبض عليه غدرًا. ولم يَلْقَ الأسير حتفه إلاّ بعد ذلك بمدّة طويلة. فحاصر بنو سباع

---

133) العبر، 170/6: «ورغة»؛ البرير: «زرا» ربما زرعة.
134) العبر، «بدوكاس» وفي مكان آخر «أدوسكن».
135) حكم من 493هـ/ 1104 إلى 515هـ/ 1121 أو 1124م.
136) العبر: «نزال الريغي».
137) العبر: «زاتمة».
138) حسب العبر، ربّما مَدْيَني.
139) العبر: «ظاهرة».
140) أنظر الإحالة 145.
141) حسب العبر.
142) نفس المرجع.

وبنو سعيد ابنَه وخليفته منيع[143] للأخذ بثأر «أخيهم» محمد بن سباع. وبعد حصار طويل اقتحموا القلعة وقتلوا منيع وبعض أفراد من عائلته وحوّلوا البعض الآخر إلى عبيد.

طبربة[144] :

استولى على طبربة أثناء غزوة بني هلال أحد شيوخها، مدافع بن غلال(؟)[145] القيسي. فهجم عليه ابن بَيْزون(؟)[146] اللخمي في ضواحي البحرَيْن[147]، وهي بلدة تقع في حوض وادي مجردة (أو بغردة)، قُبالة الرّياحين. ودامت الحرب بين هذين القائدين مدة طويلة.

المعلّقة[148] :

هيّأ محمد بن زياد الرّياحي التابع لفرع بني فاديغ، مَخْبَأً لنفسه في أطلال قرطاج بالمكان المعروف اليوم باسم «المعلّقة». وقد جعل من مدرج تشرف أقواسه المنضّدة على ساحل البحر، حصنًا منيعًا. وكانت هذه القلعة الاصطناعيّة محميّة بجدار مبني بالتراب. وكان صاحب المعلّقة حليفًا وفيًّا لتميم بن المعزّ. وقد ساعد أهل مدينة تونس على صدّ هجوم ابن عبد المؤمن على مدينتهم. كما تبارى مع خصمه صاحب منزل دحمون.

منزل دحمون[149] :

استطاع الجندي المأجور، المدعوّ قهرون بن غنّوش[150] أن يتولّى على مدينة تونس، ربما قبل ظهور بني خراسان. ثم أُطْرِد منها لسوء سلوكه. فحوّل حنايا منزل دحمون إلى قلعة،

143) نفس المرجع.
144) العبر، 170/6.
145) قراءة ظنّيّة اعتمادًا على اسم قرية تقع في الطريق الرابطة بين تونس ومنزل بورقيبة «عين غلال». العبر: «علاّل».
146) حسب العبر.
147) ربّما: «البحريّين».
148) العبر، 146/6.
149) العبر، 170/6.
150) البرير: «غنّوش»؛ العبر: «مخنوش» (ربّما عوض غنّوش).

وأقرّ بها عصابة من الأشخاص التابعين لقبائل مختلفة وأخذ في مناوشة ضواحي تونس. وبفضل مساعدة محرز بن زياد، تمكّن أهل تونس من القضاء على ذلك الجحر الذي تحصّنت به جماعة من قطّاع الطريق. فالتجأ قهرون بن غنّوش إلى ابن غلال وتصاهر معه[151]. وقد وضع صاحب طبربة على ذمّته قلعة تسمّى قلعة غنّوش[152]. واستمرّ المغامران في أعمالهما العدوانيّة واقتدى بهما أبناؤهما فيما بعد إلى أن وصل عبد المؤمن بن علي إلى إفريقيّة ووضع حدًّا لهذه الاضطرابات في سنة 554هـ/ 1159م.

منزل رقطون[153] :

استقرّ قائد آخر من قوّاد قطّاع الطريق، وهو حمّاد بن خليفة اللّخمي بمنزل رقطون في منطقة زغوان وأخذ في القيام بعمليّات النّهب. واقتفى أثره ابنه إلى أن وصل الخليفة الموحّدي إلى إفريقيّة.

الكاف والأربس[154] :

استقرّ بالكاف (شقبنارية) عيّاد[155] بن نصر الله الكلاعي، على رأس عصابة من قطّاع الطريق التابعين لقبائل مختلفة، وتمكّن من الدفاع عن تلك المدينة ضدّ الأعراب.
وقد التمس منه ابن فتاتة(؟)[156] شيخ الأربس تخليصه من الهلاليّين، فأجلاهم عن تلك البلدة. وجزاءً على خدماته فرض على السكّان جزية سنويّة، واستمرّ في استخلاصها إلى آخر حياته. فخلفه ابنه ونسج على منواله إلى أن استسلم إلى عبد المؤمن بن علي في سنة 554هـ/ 1159م.

---

151) العبر: «فوصل ابن غلاّل يده بصهرٍ منه».
152) من المحتمل أن يكون الأمر متعلّقًا بمدرج قاش الذي تحدّث عنه صاحب الاستبصار.
153) العبر، 170/6.
154) نفس المرجع.
155) العبر: «عِماد».
156) البربر: «ابن فتاتة»؛ العبر: «ابن قليه»(؟)

ونستخلص ممّا تقدّم ذكره أنّ الفوضى كانت سائدة في شمال إفريقيّة، أكثر من أيّ مكان آخر وأنه لم يُبْذَل أيّ مجهود خلال أكثر من قرن[157] لوضع حدّ لذلك الوضع. كما نلاحظ أنّ بني هلال لم يستطيعوا الاستيلاء، بأتمّ معنى الكلمة، على أيّة بلدة ذات أهمّيّة. بل حتى في باجة، كانت سلطة الأمير الرّياحي القويّ النفوذ مؤنس بن يحيى، ذات صبغة عابرة. وفي الجملة فقد اكتفوا بحطّ رحالهم في السهول، حيث كانوا يجدون ما يسدّون به رمقهم هم ومواشيهم، واقتنعوا بفرض الضرائب على سكّان المدن والقرى[158]. ولا نعلم أيّ شيء عن الوطن القبلي والمنطقة الواقعة بين زغوان والقيروان.

وباستثناء مدينة تونس التي كانت، بالنظر إلى أهمّيّتها، رهانًا للمنافسة بين بني حمّاد وبني زيري، سنرى كيف أنّ سياسة أصحاب المهديّة من بني زيري، قد اقتصرت أساسًا على جنوب القيروان، وبالخصوص المنطقة المحاذية للسّاحل، من سوسة إلى طرابلس. وبحكم الواقع فإنّ الصنهاجيّين البربر الذين كانوا يعيشون في السباسب وأصبحوا محصورين في شبه جزيرة ضيّقة، سيُجْبَرون على الإصغاء إلى نداء البحر.

وهكذا فإنّ غزوة بني هلال تُعْتَبَر إعلانًا عن نهاية عهد التحرّكات الزيريّة داخل بلاد المغرب، بعدما أصبحت تلك التحرّكات من الأمور المشكوك فيها، وتنبئ في نفس الوقت ببداية عهد الغزو في البحر.

قابس في عهد المعزّ[159]:

«كانت ولاية قابس في أيّام الشّيعة متردّدة في بني لقمان الكتاميّين[160]. فلمّا ملكت الشّيعة مصر وانقلبت الدولة الكتاميّة بإفريقيّة صنهاجيّة، تردّدت ولاية قابس في صنهاجة وعبيدهم. فوليها في أوّل الأمر بنو عامر، ثم وليها إبراهيم [ابن المنصور][161] بن يوسف بن

(157) تقريبًا ما بين 445 و554هـ/ 1053–1059م.

(158) العبر، 19/6.

(159) التجاني، 69–70؛ الحلل، 154 [الطبعة الجديدة، 338/1]؛ العبر، 159/6، 166، 420–421. يبدو أنّ ابن خلدون قد اعتمد التجاني أو مصدرًا آخر مشتركًا بينهما؛ البكري، 18–19.

(160) رحلة التجاني، 96.

(161) إضافة ضروريّة، لأنّ الأمر يتعلّق بأحد إخوان باديس بن المنصور، أي يوسف وهو اسم بلكين. اللّهمّ إلا إذا كان الأمر يتعلّق بأحد إخوان المنصور بن يوسف (بلكين) ابن زيري لا باديس.

زيري ، وهو أخو باديس(؟) ، ثم منصور بن ماواس[162] ، ثم توالت بعد ذلك في أقوام من برغواطة ولأهم المعزّ بن باديس»[163].

وأثناء غزوة بني هلال كان والي قابس المعزّ بن محمد بن ولميّة(؟)[164] الصنهاجي. والجدير بالتذكير أنّ بعض أفراد من بني زيري كانوا قد التجأوا إلى قابس تحت حماية مؤنس في سنة 445 هـ / 1053 – 1054م[165]. والغالب على الظنّ أنّ قابس كانت تُعْتَبر مركزًا مؤهّلاً للمقاومة الفعّالة. فالأرجح أنها كانت محصّنة في قبضة حامية صنهاجيّة على غاية من الأهميّة، وأنّ واليها الصنهاجي لم ينفصل عن مخدومه – حسبما يبدو – إلاّ حوالي سنة 454 هـ / 1063م[166].

«وكان أخواه [أي المعزّ بن محمد بن ولميّة] إبراهيم وقَاضي ، قائدَيْ الأعنّة بحضرة المعزّ بن باديس. فعزلهما المعزّ عن ذلك لغرض عنّ له[166م]. ففرّا عنه مُغَاضِبَيْن ولحقا بمؤنس بن يحيى الهلالي ، أحد العرب القادمين من مصر فأكرمهما وكساهما ثيابًا وصلت إليه من مصر (هذا دليل على متانة العلاقات القائمة بين الهلاليّين والفاطميّين) وسُرَّ بقدومهما. وانصرفا إلى قابس (باتّفاق مع مؤنس بدون شكّ) ، فاجتمعا بأخيهما [المعزّ بن محمد بن ولميّة]. فاتّفقوا على قطع اسم المعزّ بن باديس من الخطبة وصرف الطاعة إلى مؤنس بن يحيى. فكان أوّل تملّك العرب لها»[167]. ولعلّ هذا التأكيد يعني أنّ السلطة الهلاليّة قد تمّ الاعتراف بها للمرّة الأولى في إفريقيّة. وهو تأويل تؤيّده الأهميّة التي أَوْلاها ديوان الرسائل الفاطمي إلى هذا الحدث في إعلان رسمي.

فقد اكتُشِفَ في الهند مخطوط إسماعيلي من أصل يمني ، يتمثّل في مجموعة من نُسَخ

---

162) لعلّ الأمر يقتضي تعويض ماواس بمَنَاس.

163) لقد روى كاتب السّيَر الإباضي الشماخي التجاوزات التي ارتكبها قائد المعزّ بقابس ، ولكنّه لم يذكر اسمه من سوء الحظّ. وفي آخر الأمر كلّف المعزّ مبعوثيه بمعاقبة الوالي الظالم ، فقتلوه ، وحملوا رأسه وألقوا بجثّته في البحر (الشماخي ، 474 – 475).

164) قراءة ظنيّة ، **العبر** ، 166/6 ؛ **البربر** ، 35/2 ، قراءة دي سلان : «ولميّة» ؛ البكري : «وانمّو» ؛ **سجلات مستنصرية** : «ابن المو».

165) **العبر** ، 15/6.

166) ابن أبي دينار (**المؤنس** ، 82) لم يذكر قابس من بين المدن التي ثارت على بني زيري.

166م) لا ندري لماذا ومتى تمّ ذلك؟ ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تمّ بعد فرار المعزّ إلى المهديّة (449 هـ / 1057م).

167) حسب التجاني وابن خلدون ، استولى الأعراب على قابس للمرّة الأولى.

لبعض الوثائق الصادرة عن ديوان الرسائل التابع للخليفة الفاطمي المستنصر، من بينها وثيقة تتعلّق بغزوة بني هلال(168).

وهي تتمثّل في خطابٍ وجّهه المستنصر إلى أمير اليمن علي بن محمد الصُّلَيْحي، مؤرّخ في رمضان سنة 458هـ/ 28 أوت – 26 سبتمبر 1036م. والجدير بالملاحظة أنّ أسلوب الرسالة الرنّان وانعدام التواريخ المضبوطة، يجعلان من الصعب تأويل تلك الوثيقة.

فقد ذكّر الخليفة في هذه الرسالة الأميرَ اليمني بادئ ذي بدء بخيانة المعزّ بن باديس وتوجيه رياح وزغبة إلى إفريقيّة، بقيادة الأمير أمين الدولة ومكينها حسن بن علي بن مُلْهِم المكلّف بإصلاح ذات البين بين العرب.

ثمّ أشار إلى الرسالة التي وجّهها إليه منذ حين ذلك القائد ليعلمه بانتصارات الهلاليّين الذين حاصروا قلعة ذلك الخائن.

وقد مَثُل بين يَدَيْ القائد كلٌّ من ابن بلكّين زوج أخت المعزّ بن باديس(169) والمعزّ بن محمد بن ولميّة(170) مقدّم قومه وابن حمّاد صاحب قلعة كيّانة(171)، ملتمسين العفو من الخليفة باسم صنهاجة.

ثم احتلّ أمين الدولة حصن قابس(172) حيث أعلن في الخطبة عقيدة ذرّيّة الرسول ﷺ، «وضرب العَيْن(173) والورق على السكّة المستنصريّة» وولّى المعزّ بن محمد بن ولميّة(174) المذكور واستولى على جميع المواقع العسكريّة البرية والبحرية وأعربت له جماعة من شيوخ تلك الأصقاع عن ولائها ورغبتها في الهجرة إلى القاهرة. وقد غمرت جميع الأراضي المحتلّة فرحة عارمة وانتشرت فيها أعمال الخير.

---

(168) **سجلاّت مستنصريّة**، القاهرة 1954، عدد 5، 42 – 43. ويبدو أنّ هذه الوثيقة مذكورة في **كتاب عيون الأخبار** للدّاعي إدريس.

(169) «صهره على أخته».

(170) في النصّ «ابن المو» (أو يلمو)، ويمكن أن نقترح: «يملول»، ولكنّ الأمر يتعلّق لا محالة بوالي المعزّ بقابس المعزّ بن محمد بن ولميّة.

(171) قراءة المخطوط صحيحة. وقد أخطأ المحقّق عندما عوّض «كيّانة» بـ«كتامة».

(172) في المخطوط: «حصن فاس».

(173) في المخطوط: «وصرف العين والورق على السكة المستنصريّة». وقد اقترحنا: «ضرب» عوض «صرف»: ولعلّ المقصود بالعين القطع السنيّة القديمة، والورق، المعدن الخام.

(174) في النصّ «ابن المو» (أو يلمو).

والقائد هو الآن في طريق العودة ، مصحوبًا بزمرة من الحجيج ، وقد انقادت البوادي والمدن ، وأصبح ابن باديس «اللّعين» محصورًا وفي ضيق شديد. وسوف يلقى حتفه عمّا قريب.

وقد ختم الخليفة رسالته المؤرّخة في رمضان 455 هـ راجيًا من الأمير اليمني أن يُعلن عن هذا الانتصار من أعلى منابر الجوامع وفي أيّ مكان كان ، سواء في المدينة أو في البادية.

على أنّنا لم نتوصّل إلى معرفة هويّة ابن بلكين[175] ولا هويّة ابن حمّاد[176] المذكورَيْن في الرسالة. ومن البديهي أنّ الأمر يتعلّق بشخصين بارزَيْن من صنهاجة ، من بين الأفراد الذين التجأوا إلى قابس[177] يبدو أنهما كانا يتكلّمان باسم صنهاجة.

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الوثيقة التابعة للمحفوظات الفاطميّة تؤكّد من جهة دور مكين الدولة ابن مُلْهِم ، ذلك الدّور الذي كان قد أشار إليه ابن ميسّر[178] ، وتشهد من جهة أخرى بأنّ قابس المعرّضة للخطر تحت حماية الصنهاجيّين الذين يمسكون بمقاليدها بكلّ حزم ، لم تستسلم إلى المغيرين –على غير ما كان يُتَوَقَّع– إلاّ في حدود سنة 455 هـ / 1062 – 1063 م. ولعلّ هؤلاء الغزاة كانوا مُنَظَّمين ومُراقَبين ، بل حتى مُسَيَّرين من قِبَل القاهرة ، أكثر ممّا يمكن أن نتصوّر[179].

وقد روى أبو الفضل جعفر بن يوسف الكلبي ، «كاتب» مؤنس بن يحيى ، الذي أطلق عليه هذا اللّقب الرنّان : «صاحب إفريقيّة» ، أنّ الهلاليّين (ومنهم الراوي) كانوا ضيوفًا على المعزّ بن محمّد بن وليّة[180] الصنهاجي صاحب مدينة قابس ، لمّا قدّم إليه أهل البادية طيرًا عجيبًا ، هو عبارة عن ببّغاء متعدّد الألوان ذي منقار طويل أحمر ، لم يسبق أن رأى مثله أيّ أحد من العرب والبربر الحاضرين[181].

---

175) من الصعب أن يكون أخو القائد بن حمّاد ، عبد الله بن حمّاد بن بلكين الذي تزوّج أخت المعزّ في سنة 415 هـ وتوفي ما بين 430 و 440 هـ.

176) هل يتعلّق الأمر بأخ آخر من إخوان صاحب قلعة بني حمّاد القائد بن حمّاد؟

177) العبر ، 15/6.

178) أنظر بداية هذا الفصل من الباب الرابع.

179) نجوم ، 71/6 ، وقد جاء فيه أنّ الحروب اندلعت بعد القطيعة بين جيوش المعزّ بن باديس والمستنصر.

180) في النصّ : «ابن وانمّو الصنهاجي».

181) حسب البكري ، 18 – 19.

وقد أقام إبراهيم بن محمّد بن وليّة واليًا على قابس إلى أن أدركته المنيّة ، فخلفه أخوه قاضي[182].

وفاة المعزّ بن باديس[183] :

بعد عهدٍ طويل دام سبعًا وأربعين سنة[184] ، توفّي المعزّ بن باديس متأثّرًا بمرض الكبد[185] يوم 24 شعبان سنة 454 هـ / 2 سبتمبر 1062 م[186] وكان عمره ستًّا وخمسين سنة (أو 58 سنة)[187] ، ودُفِن بمقبرة بني زيري في رباط المنستير.

182) التجاني ، 97.

183) المصادر غير متّفقة حول تاريخ وفاته :

أ) سنة 454 هـ : **البيان** ، 295/1 ؛ التجاني ، 330 ؛ **العبر** ، 159/6 ؛ ابن الأبار ، **الحلّة السيراء** ؛ **نجوم** ، 71/6.

ب) السبت لخمس بقين من شعبان 454 هـ (24 شعبان 454 هـ / 2 سبتمبر 1062 م : **البيان** ، 298/1 ، نقلاً عن أبي الصّلت ؛ **أعمال** ، 456 – 457.

ج) 4 شعبان 454 هـ : ابن خلكان ، 105/2 ، يمكن أن نقرأ (والرابع والعشرين) ، ممّا يؤكّد قراءة أبي الصّلت : 24 شعبان.

د) شعبان 454 هـ : **شذرات** ، 294/3 نقلاً عن ابن خلدون وابن خلكان.

هـ) سنة 453 هـ : **الكامل** ، 6/10 ؛ النويري ، 146/2 ؛ **تاريخ أبي الفداء** ، 180/2 ؛ **بلدان** ، 303/1 – 304.

و) سنة 455 هـ : **البيان** ، 295/1 – 298 نقلاً عن ابن شرف. حسن حسني عبد الوهاب ، **خلاصة** ، 97.

184) متّفقة عليه جميع المصادر تقريبًا ، إذ أنّ المعزّ قد ارتقى إلى العرش في أواخر سنة 406 هـ.

185) حسب جلّ المصادر. وحسب **العبر** ، مات بمرض البرص.

186) أنظر الإحالة رقم 183. لا يمكن تفضيل المصادر الشرقيّة (مجموعة هـ) على شهادة أبي الصّلت والمصادر (ب . ج . د) التي نقلتها عنه حسبما يبدو. وبما أنّ يوم 24 شعبان 454 هـ يصادف نظريًا يوم الاثنين لا يوم السبت فقد اقترح أماري – نالينو و **ستوريا** ، 94/3 (الإحالة 2) : الاثنين 22 شعبان 454 هـ / 31 أوت 1062 م. ويمكن أن نقترح من جانبنا : الاثنين 24 شعبان ، إذ أنّ مصادرنا تتضمّن اختلافات في التواريخ من هذا القبيل. وحسب شهادة ابن شرف التي تثير بعض الصعوبات الحسابيّة ، فإنّ الأمير قد وُلِدَ سنة 399 هـ (عوض جمادى الأولى 398 هـ) ، «وولي المُلك سنة 407 ، وسنّه سبعة أعوام وشهران ، وتوفّي سنة 455 ، وعمره ثماني وخمسون سنة ، فكانت مملكته سبعًا وأربعين سنة» (**البيان** ، 295/1). والإشارة الأخيرة تنفي وجود زلّة قلم. ويمكن أن نقترح : وُلِدَ سنة 397 هـ وارتقى إلى العرش سنة 407 هـ وعمره تسع سنوات وشهران وتوفّي سنة 455 هـ ، وعمره ثماني وخمسون سنة ، بعدما حكم سبعًا وأربعين سنة. وأخيرًا ينبغي تصحيح ما جاء في **البيان** ، 298/1 (نقلاً عن أبي الصّلت) ، كما يلي : «ولم يمكث بالمهديّة إلاّ نحو (خمس سنين)» عوض «نحو سنتين» ، إذ أنّ المعزّ قد وصل إلى المهديّة في آخر شعبان 499 هـ ، فيكون قد قضى بها 5 سنوات لا سنتّين عندما توفّي في شعبان 454 هـ.

187) حسب **شذرات** ، نقلاً عن **العبر**: 56 سنة ، وحسب **البيان** نقلاً عن ابن شرف: 58 سنة.

ولدينا المرثيّة التي رثاه بها الشاعر الذّائع الصّيت ابن رشيق[188].

وقد أكّد النويري أنه ترك بعد وفاته تسعة أبناء، هم: نزار وتميم وعبد الله وعلي وعمر (أو عمرو) وحمّاد وبلكّين وحمامة والمنصور، في حين اقتصر ابن عذاري على الإشارة إلى أبنائه: تميم ونزار وعبد الله وعُلُوّ (أو علي) وحمّاد وبلكين وحمامة والمنصور. وينبغي أن نضيف إليهم كبّاب المولود في صفر سنة 415هـ/ 14 أفريل – 12 ماي 1024م[189]. ومن المحتمل أن يكون قد توفّي صغيرًا.

«وفي سنة 417 (22 فيفري 1026 – 10 فيفري 1027م)، وُلِدَ للأمير شرف الدولة وعضدها مولود سمّاه نزارا وكتب إلى سائر عمّاله بالبشارة بذلك».

«وفي سنة 438 كانت وفاة نزار بن المعزّ بن باديس في رجب (جانفي 1047)، وكان عمره إحدى وعشرين سنة وأشهرًا». ويبدو أنّ نزارا كان وليًّا للعهد. إذ أنّ المعزّ قد ولّى مكانه بعد وفاته «وَلَدَه الآخر أبا القاسم وكنّاه العزيز بالله، وهو إذ ذاك ابن ثمانية أشهر. وتوفّي بعد ذلك وهو ابن سنة واحدة وثلاثة أشهر»[190].

ويحقّ لنا أن نتساءل لماذا أبعد المعزّ عن ولاية العهد ابنه تميم الذي كان عمره آنذاك حوالي ستّ عشرة سنة، وفضّل عليه ابنًا صغيرًا؟

ومهما يكن من أمر فإنّ المعزّ لم يعيّن ابنه تميم وليًّا للعهد إلاّ في سنة 442هـ/ 1050 – 1051م[191].

188) **الكامل**، 6/10؛ الميمني، 55؛ **بساط**، 17، 48.

189) **البيان**، 272/1.

190) نفس المرجع، 273/1.

191) أنظر الباب الثالث، الفصل السابع.

الفصل الثاني
بنو حمّاد

الدخول في طاعة العبّاسيّين ثم الرجوع إلى الحظيرة الفاطميّة[1] :

يمكن أن نسلّم بأن القائد بن حمّاد قد خلع طاعة الفاطميّين في تاريخ غير مضبوط ، ولكن تقريبًا في نفس الوقت الذي انفصل فيه ابن عمّه وحليفه ، المعزّ بن باديس ، عن القاهرة . إذ أنّه قد وجّه إليه كوكبة من الخيّالة ، ساهمت في معركة حيدران[2] . ولكن يبدو على الأرجح أنّه عاد إلى الحظيرة الفاطميّة بعد هذا الانتصار الهلالي ، الأمر الذي خوّل إليه الحصول على لقب «شرف الدولة» الذي كان يحمله المعزّ بن باديس قبل ذلك . وممّا لا شكّ فيه أنّ اختيار ذلك اللّقب قد وقع قصدًا .

وفاة القائد بن حمّاد[3] :

مرض القائد بن حمّاد ، فولّى مكانه ابنه محسن وأوصاه ، قبل أن يلتحق بجوار ربّه في رجب 446 هـ / 6 أكتوبر – 4 نوفمبر 1054م ، بالإحسان إلى عمومته وعدم الخروج من القلعة قبل ثلاث سنين . وقد دامت ولاية القائد بن حمّاد سبعًا وعشرين سنة .

---

1) **العبر** ، 172/6 ؛ **البربر** ، 46/2 : «عندما خلع المعزّ طاعة بني عُبَيْد ، رجع القائد إلى طاعتهم فنحوه لقب شرف الدولة» . وبالعكس من ذلك جاء في «**أعمال**» ، 461 : «أنه خلع طاعة بني عبيد ودخل في طاعة بني العبّاس إلى آخر حياته» .

2) **العبر** ، 14/6–15 .

3) **تاريخ** أبي الفداء ، 132/2 نقلاً عن «**الجمع والبيان**» (لابن شدّاد) ؛ النويري ، 141/2–142 ؛ **العبر** ، 172/6 ؛ **أعمال** ، 461 : ذو القعدة 446هـ ؛ **الكامل** ، 250/9 : وضع الأحداث في سنة 446 هـ ؛ **البيان**، 279/1 : وفي هذه السنة 441 هـ(هكذا) ، وردت الأخبار بالقيروان بموت القائد حمّاد بقلعته ، فقال ابن شرف من قصيدة :

لا جنودٌ إلاّ جنود السّعود   مُغنيـاتٌ عن عُـدَّةٍ وعـديـد

لا نرى العلاقة بين هذا البيت وموت القائد .

ولاية محسن بن القائد[4] :

إلاّ أنّ محسن الذي كان ذا طبع عنيف ومتجبّر، قد خالف ما أمره به والده وأراد عزل جميع أعمامه. فلمّا علم عمّه يوسف بن حمّاد الذي كان القائد قد ولاّه على المغرب، بما عزم عليه، خالفه وحشد جمعًا عظيمًا من العرب، وكان قد بنى قلعة في جبل منيع، وسمّاها «الطيّارة»[5]. فهل كان الداعي إلى هذا التمرّد، ما عقده محسن من نوايا مُبيّتة إزاء أعمامه؟ إننا نشكّ في ذلك، لأنّ مصدرَيْن[6] من مصادرنا قد أشارا بالعكس من ذلك إلى أنّ تصرّف يوسف هو الذي دفع محسن إلى اضطهاد إخوة والده. فمن المحتمل أن يكون يوسف بن حمّاد قد عمد خلال تلك الفترة إلى نهب وتخريب مدينة أشير التي لم تسترجع نشاطها إلاّ حوالي سنة 455 هـ/ 1063م[7]. وقد انطلق محسن لردع المتمرّد، فالتقى بجيوش عمّه مديني(؟) وألقى عليه القبض بعدما تخلّى عنه التلكاتة. وعند ذلك قتل الأمير أربعة من أعمامه: مديني المعني بالأمر وإخوانه الثلاثة، مناد ويغلان(؟)[8] وتميم. ثم كتب إلى يوسف يستدعيه. فأجابه: «كيف أثق بِكَ وقد قتلتَ أربعًا من عمومتك؟» وبالعكس من ذلك، فقد لبّى دعوته عمّه بلقّين بن محمد والي أفريون[9]، الذي تلقّى كتابًا مماثلاً من ابن أخيه. ولعلّه ظنّ أنه لا يخشى منه أيّ مكروه. فسار إليه، ولمّا قرب منه وجّه إليه محسن رجالاً من العرب بقيادة خليفة بن مكن وعطيّة الشريف، وأمرهم أن يقتلوه.

«فلمّا خرجوا، قال لهم أميرهم خليفة بن مكن: «إنّ بلكّين (أو بلقّين) لم يزل محسنًا إلينا، فكيف نقتله؟». فأعلموا بلكّين بما أمرهم به محسن، فخاف، فقال له خليفة: «لا تخف، وإن كنت تريد قتل محسن، فأنا أقتله لك». فاستعدّ بلكّين لقتاله وسار إليه، فلمّا

---

4) النويري، 142/2؛ **الكامل**، 250/9، 10/18–19؛ **تاريخ أبي الفداء**، 132/2 نقلاً عن «**الجمع والبيان**» (لابن شدّاد)؛ **العبر**، 172/6؛ **أعمال**، 461؛ **البيان**، ادّعى غلطًا أنّ القائد توفّي سنة 441 هـ ولم يشر إلى ولاية محسن بن القائد. نفس المرجع، 294/1: أشار إلى أنّ بلقّين الصنهاجي تولّى قلعة حمّاد سنة 447 هـ.

5) لا نستطيع تحديد موقع هذه القلعة.

6) **العبر**، **أعمال**.

7) البكري، 60.

8) أنظر الباب الثالث، الفصل الرابع من هذا الكتاب.

9) **الكامل**، النويري، **أعمال**: «أكربون».

علم محسن بذلك وكان قد فارق القلعة، عاد هاربًا إليها، فأدركه بلكين وقتله»[10]. فلم تدم ولايته سوى تسعة أشهر[11].

ودخل بلقّين بن محمّد بن حمّاد القلعة واستولى على الحكم بلا قتال - حسبما يبدو - وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة 447هـ/ 31 ماي - 29 جوان 1055م.

ولاية بلقين بن محمد بن حمّاد (447-454هـ/ 1055-1062م)

لقد كان بلقّين بن محمّد بن حمّاد الذي خلف محسن بن القائد بن حمّاد، أميرًا ماهرًا، حازمًا، شديد المراس، سفّاكًا للدّماء، قتل بالخصوص وزير ابن أخيه محسن. ولتوضيح ما أظهره هذا الأمير من قوّة الشكيمة، أورد الكاتب الأندلسي ابن بسّام في «**الذخيرة**» النادرة التالية :

«حُدِّثْتُ أنه آب مرّةً من بعض غزواته الأفراد، المقلقلة لأحشاء الأنام والبلاد، فكأنه ارتاح إلى ما يرتاح إليه الناس من إراحة نفسه، والخَلْوَةِ ولو ساعة بوجه أُنْسِهِ، فجلس لذلك مجلسًا حشد له شهواته، وتقدّم في إحضار ما يصلح من آلاته وأدواته، وأمر قَيِّمَةَ جواريه باستحضار عقيلة أترابها يومئذ جلالة سلطان، وحسنَ سماع وعيان، إحدى بنات عمّه دِنْيًا، لم يُرَ بعدها - زعموا - ولا قبلها أبْرَعُ ظرفًا، ولا أقتلُ طرفًا منها، فجاءت تودّ الثريّا لو تكونُ نعلها، والشّمس لو تُصَوَّرُ مثلَها، وقد خطرت بنفسه إحدى هَنَاتِهِ، وتمثّلت له بعضُ غزواته، فأخذ يدبّر، وطفق يُورِد ويُصدِر. قالت قَيِّمتُه : وكأنّي أنظر إلى الكأس في يده، وإلى ابنة عمّه قائمةً على رأسه، من لَدُنْ صُلِّيَتِ العصرُ حتى طلع الفجر، وحانت منه بعد طول ليلته نظرة فرآها، فاعتذر إليها واستدناها، ووعدها ومنّاها، وقام من حينه فوضع الكأس ملأى في طَاقٍ وطبع عليها، وأمر بالركوب من حينه، فغزا غزوته المشهورة إلى الغرب من العُدْوَة، بلغ فيها مدينة فاس، فوطئ الدّول، ودوّخ السهل والجبل[12]، ثم رجع فجلس ذلك المجلسَ بعينه، واستدعى كأسه تلك وابنة عمّه، فخلا بأنسه، وقضى وطره من لذّة نفسه، بعد أيّام كثيرة، وحروب مُبيرة»[13].

---

10) **الكامل**، 250/9.

11) **العبر، أعمال** : «8 أشهر و23 يومًا».

12) يتعلق الأمر لا محالة بالحملة التي قام بها سنة 454هـ/1062م.

13) **الذخيرة**، لابن بسّام [تحقيق إحسان عبّاس، الدار العربيّة للكتاب، 1975، 189/1-190].

انتفاضة بسكرة[14] :

كان الشّيوخ الماسكون بزمام الحكم في بسكرة ، في عهد بني حمّاد ، تابعين لإحدى عائلات تلك المدينة ، وهي عائلة بني رُمّان[15] القويّة النّفوذ ، نظرًا لكثرة رجالها وامتلاكها لجلّ الممتلكات العقارية الواقعة في ضواحي المدينة.

وحوالي سنة 450 هـ / 1058–1059م ، أثار مقدّم بسكرة جعفر بن أبي رُمّان انتفاضة ضدّ بلقّين بن محمّد. فاقتحم الجيش الصنهاجي المدينة بقيادة خلف بن أبي حَيْدَرَة. وأُجْلِيَ أعيان المدينة ، وبالأحرى جميع أفراد عائلة بني رمّان ، إلى القلعة حيث قُتِلوا جميعًا.

وعندئذ انتقلت إدارة بسكرة إلى بني سندي ، وهي عائلة أخرى من عائلات المدينة. فقد أبرم معهم بلقّين معاهدة صلح وولاّهم على بسكرة مقابل الدّخول في طاعة بني حمّاد. ويبدو أنّ أوّل من تولّى منهم الحكم في تلك المدينة هو عروس بن سندي ، رئيس تلك الأسرة الحاكمة التي أصبحت تتمتّع باستقلال يكاد يكون تامًّا ، إلى أن انقرضت إثر دخول الموحّدين إلى إفريقيّة. فأخذت مكانها أسرة بني زيان ، وهم من الأعراب الأثبج ، حسب ابن خلدون. وقد ظلّ عروس بن سندي وفيًّا للصنهاجيّين. فهو الذي قتل القائد الزناتي المنتصر بن خزرون.

الصّراع بين زناتة وبني هلال[16] :

لم يستطع الأعراب الرحّل الزناتيّون والهلاليّون التعايش في إفريقيّة. فقد أجلى بنو هلال الزناتيّين من جنوب إفريقيّة إلى جنوب المغرب الأوسط ، أمثال بني غمرت الذين أُجْبِروا على الإقامة في بعض القُرى الواقعة جنوب المسيلة.

فثارت ضدّ الغزاة مجموعة كبيرة من القبائل الزناتيّة المتحالفة ، هي مجموعة بني ياسين ، بايعاز من بني يعلى بتلمسان. وقد عيّن أمير تلمسان ، وهو أحد أحفاد محمد بن خزر ، وزيره أبا سُعْدَة خليفة اليفرني – المشهور في سيرة بني هلال باسم خليفة الزناتي – على رأس مجموعة

---

14) العبر ، 172/6.

15) «رُمّان» ويمكن أن نقرأها «رُومان» ، من ذرية السكان اللاتينيّين الذين مكثوا في إفريقيّة.

16) العبر ، 16/6–19.

كبيرة من بني ياسين الذين خاضوا معارك طاحنة طوال سنين عديدة ضدّ الهلاليّين في منطقة الزّاب وسهول التلّ إلاّ أنّ مصرع أبي سعدة أثناء معركة سيّئة الحظّ قد أفضى إلى انفصام التحالف الزناتي وتشتّت عناصره في جميع أنحاء منطقة التلّ. وأصبح جبل راشد (جبل عمور) ومزاب يمثّلان الحدّ الفاصل بين الزناتيّين الرُّحّل والأعراب الرّحّل.

أمّا بنو حمّاد الذين عجزوا عن التصدّي للمغيرين، فقد اضطرّوا إلى التفاهم معهم عن طريق التحالف مع الأثبج والتنازل عن البوادي لفائدتهم. وقد أملى عليهم هذا الاختيار اعتماد خصومهم بني زيري على بني رياح وزغبة.

وسيأتي فيما بعد بنو زغبة، إثر إقصائهم من إفريقيّة من طرف بني رياح، ليضعوا أنفسهم على ذمّة بني حمّاد.

الحملة العسكريّة ضدّ زناتة :

«في سنة 449 (28 فيفري 1058–16 فيفري 1059) خرج بلقّين، ومعه الأثبج وعدي، لحرب زناتة، فكسرها وقتل منها عددًا كبيرًا»[17].

ومن الصّعب تحديد موقع هذه المعركة، لا سيما وقد تمّ إجلاء بعض الزناتيّين لا إلى التلّ بل إلى الصحراء. فقد حصّن بنو واركلة بلدة ورقلة التي التجأ إليها عدد كبير من الزناتيّين الفارّين من الهلاليّين، في الوقت الذي استحوذ فيه الأثبج على بعض الممتلكات في سهول الزاب وقلعة بني حمّاد[18].

الحملة العسكريّة ضدّ المرابطين:

وفي الوقت الذي كان فيه الأتراك السلجوقيّون يعيدون المذهب السنّي إلى سالف عهده في شرق البلاد الإسلاميّة، قامت بعض القبائل البربريّة (لمتونة وجدالة ولمطة) في الغرب الإسلامي بحركة سياسيّة ودينيّة عتيدة، ستنشأ عنها الدولة المرابطيّة[19].

17) **البيان**، 294/1. أنظر أيضًا: **الكامل**، 237/9؛ النويري، 146/2.

18) **العبر**، 51/7.

19) حول المرابطين، أنظر: **دائرة المعارف الإسلاميّة**، 322/1–323.

ولعلّ سقوط سجلماسة بين يدي المرابطين سنة 453 هـ / 1061 – 1062م[20] لم يكن غريبًا عن اعتزام بني حمّاد القيام بغارة في المغرب الأقصى. والجدير بالتذكير في هذا الصّدد أنّ إحدى طرق الذهب السوداني الرئيسيّة كانت تمرّ عبر سجلماسة التي ازدادت أهمّيّتها إثر قطع طرق الجريد وطرابلس من طرف الهلاليّين. وربّما كان من الأفضل بالنسبة إلى بلقّين بن محمد بن حمّاد الاحتفاظ بقواه لردّ الزحفة الهلاليّة عوض هدرها في تلك المناطق النائية، للتصدّي لهذه الدولة البربريّة الجديدة التي لا يستطيع القضاء عليها، مهما كان الأمر.

وعلى كلّ حال، ففي شهر صفر 454 هـ / 14 فيفري – 14 مارس 1062م، سار بلقّين إلى المغرب، حيث كان المرابطي يوسف بن تاشفين بصدد زعزعة السلطة الزناتيّة. وانتهز بلقّين فرصة ابتعاد الأمير الزناتي الفتوح عن عاصمته فاس، ليدخل إليها، ويبدو أنّه لم يلتق بالمرابطين. وممّا لا شكّ فيه أنّ يوسف بن تاشفين الذي كان شاعرًا بعدم جدوى الغارات الخاطفة الواردة من الشرق، وحريصًا على الاحتفاظ بقواه التي ما زالت غير كافية لإخضاع المصامدة، قد تحوّل إلى الصحراء، ولا شكّ أيضًا أنّ مصادرنا قد بالغت عندما أكّدت أنّ بلقّين بن حمّاد «قد وطئ جميع الغرب ودوّخه بجيوش عظيمة»[21].

والواقعة الوحيدة المضبوطة التي أشارت إليها المصادر، هي احتلال مدينة فاس سنة 454 هـ / 15 جانفي 1062– 3 جانفي 1063م، وما لبث بلقّين أن غادرها متوجّهًا إلى القلعة[22] ومعه بعض الرهائن من أعيان المدينة. ولم تدم الحملة سوى بضعة أشهر[23].

والجدير بالتذكير – حسب ابن بسّام –[24] أنّ أبا الفضل محمد بن عبد الواحد، رسول الخليفة العبّاسي إلى المعزّ بن باديس «قد شهد الحروب مع بلقّين. ثم انتبذ من تلك النّاحية وركب البحر، فنزل بدانية». وقد احتفى به أميرها علي بن مجاهد. ومن يدري لعلّه غادر المغرب الأوسط إثر وفاة بلقّين[25].

---

20) أنظر بالخصوص، **الكامل**، 9/258–259.

21) **البيان**، 1/255.

22) حسب **العبر**، 7/35–36 **وأعمال**.

23) انطلق في صفر 454هـ / 14 فيفري – 14 مارس 1062م وقتل في رجب 454هـ / 11 جولية – 9 أوت 1062م.

24) ابن بسّام، 1/4 : 67، 69–70، 90. [طبعة الدار العربيّة للكتاب، 4/89].

25) ثم تحوّل إلى بلنسية ومنها إلى طليطلة (آخر جمادي الأولى 454 هـ / أوائل جوان 1062م) حيث استقبله أميرها المأمون ابن ذي النون وأغدق عليه العطايا. وتوفّي هناك منتصف شوّال سنة 455 هـ / 11 أكتوبر 1063م.

مقتل بلقّين بن محمد بن حمّاد[26] :

في تاريخٍ غير محدّد، وعلى الأرجح قبل حملة المغرب الأقصى، فَقَدَ بلقّين أخاه مُقَاتِل بن محمّد الذي كان قد تزوّج ناميرَت ابنة عمّه علنّاس بن حمّاد. وقد ظنّ بلقّين أنّ ابنة عمّه هي التي قتلت زوجها، فقتلها. فأخذ أخوها الناصر بن علنّاس على نفسه أن ينتقم لها. ففاجأ بلقّين عند عودته من فاس، يوم أوّل رجب 454هـ/ 11 جويلية 1062م[27] بتسالة جنوب وهران، وقتله. ثم نودي به أميرًا ودخل القلعة يوم الخميس 14 (أو 15 شعبان) 454هـ/ 23 (أو 24) أوت 1062م[28].

وقد قدّم إلينا ابن بسّام حول هذه الواقعة رواية جذّابة وخياليّة شيئًا ما :

«كان بلقّين مُولعًا بالإدلاج إذا ارتحل، مؤثّرًا للانفراد كلّما ركب ونزل، فأقسم تلك الليلة ألاّ يُدَلج إلاّ حاسِرًا، وليقتلنّ الناصر إذا نزل ولو كان أسدًا خادرًا، فأعجلَه عن الأمر، ولمّا يَبْدُ وَضَحُ الفجر، لقيه كأنّه يسلّم عليه، أو يسير بين يَدَيْهِ، فما راجعه الكلام، إلاّ وقد جلّله الحسام، وأراح منه البلاد والأنام، ثم قام مقامه، واستظلّ أعلامه، وأمر برأسه فرُفِع على بعضها وسِيرَ أمامه، والناس يظنّون أنّ بلقّين، قد قتل بعض أتباعه الممتحَنين، فهم يتساءلون عمّن قتل، ويرجمون الظنّ فيما فعل، حتى طلعت الشّمس، وارتفع اللّبس، فأمر برفع مضاربه، وحُشِر زعماء ذويه وأقاربه، فقال : أنتم تعلمون أنّ بلقّين قتل أختي، وفجعني بأكرم حُرْمَتي، وإنّما شَفَيْتُ صدري، وأخذتُ بِوَتْري، لا أنّي حدّثتُ نفسي بسلطانكم، ولا رأيتُني أهلاً للدخول في شيء من شأنكم. فردّوا عليه جميلاً، ورأوا إمهالَه قليلا، وظنّوا أنّه لم يجسُرْ على ما فعل إلاّ وله أشياع، وحوله أعوان على ذلك وأتباع، فكلّ واحد منهم قد ارتاب بِمَنْ يليه، وأهمّه ما هو فيه. وأمر لحينه بخزائن بلقّين فأنهبها ذُؤْبَان العرب وصقورة زناتة، فاستخلص بذلك غيوبهم، وأمال إليه قلوبهم، ورحل تحت ليلته يطوي المراحل، ويعتسف المجاهل، فسبق الأخبار إلى القلعة، فَوَطِئَ الحريم، وتملك الظاعنَ والمقيم»[29].

* * *

26) **العبر**، 172/6؛ **أعمال**، 463، نقلاً عن ابن بسّام؛ النويري، 146/2؛ **تاريخ** أبي الفداء، 132/2.

27) حسب النويري، 146/2.

28) **أعمال**، 463، الخميس منتصف شعبان (نظريًّا يوم 14 شعبان/ 23 أوت 1062 يصادف يوم جمعة).

29) **الذخيرة**، لابن بسّام [تحقيق إحسان عبّاس، 190/1–191].

لقد شهدت سنة 454هـ / 1062م تغييرًا على رأس المملكتين الصنهاجيّتين، ولكن وضع كلّ واحدة منهما يختلف تمامًا عن الأخرى.

ففي إفريقيّة، البلد المنبسط الذي اجتاحته جحافل الغزاة الرحّل بتمامه وكماله، فأصبح عرضة للفوضى، لم تَبْقَ لتميم بن زيري سوى المهديّة.

وبالعكس من ذلك فإنّ الناصر بن حمّاد ما زال يتحكّم بقوّة في شمال ووسط مرتفعات المغرب الأوسط. ولئن سقط المنخفض الجنوبي بين أيدي الهلاليّين، فإنّ هؤلاء يتعرّضون هنالك لمقاومة زناتيّة مستميتة. في حين يتوقّع أن يتعزّز التحالف بين بني حمّاد وبني هلال. وسنرى كيف سيحاول هذان الأميران القويّا النفوذ فضّ المشاكل التي تعترض سبيل كلٍّ واحد منهما.

الباب الخامس

محاولة النهوض

ولايات تميم (454 – 501 هـ/ 1062 – 1108م.)
والنّاصر (454 – 481 هـ/ 1062 – 1088م.)
والمنصور (481 – 498 هـ/ 1088 – 1105م.)

نظرة عامّة

سيحاول تميم بن المعزّ طوال نصف قرن تقريبًا (454 – 501 هـ) إرجاع الدولة الصنهاجيّة المفكّكة إلى سالف عزّها. ولبلوغ هذه الغاية سيسعى إلى إذكاء الأحقاد بين الهلاليّين، بالاعتماد بالخصوص على بني رياح وبني عدي ضدّ الأثبج وزغبة.

وبعد مدّة قليلة من انتصاره على صاحب صفاقس حمّو بن مليل (455 هـ/ 1062م)، تمكّن من إخضاع سوسة.

أمّا النّاصر بن حمّاد الذي لم تضعف قوّته، بل تعاظمت أكثر فأكثر، فقد أجبر قسمًا من إفريقيّة على الدخول في طاعته (مثل صفاقس وقسطيلية وتونس). وفي سنة 457 هـ/ 1064 – 1065م أشرف على تكوين تحالف ضخم مؤلّفٍ بين البربر وبني هلال (صنهاجة والأثبج وعدي)، ومُوَجَّهٍ ضد المجموعات العربيّة الأخرى (رياح وزغبة وسُلَيْم)، بالإضافة إلى مغراوة. ولكنّ بني رياح قد تمكّنوا، بمساعدة تميم من إقناع أبناء قبيلتهم المتحالفين مع النّاصر بالتخلّي عنه في غمار المعركة. كما أبرم الزناتيّون التابعون للفريقين اتفاقًا مماثلاً فيما بينهم. ورغم أنّ آثار هزيمة سبيبة كانت أقلّ عنفًا وأبعد مجالاً، فإنّ عواقبها كانت وخيمة على بني حمّاد، مثلما كانت عواقب هزيمة حيدران وخيمة على بني زيري.

وقد أخضع تميم مدينة تونس (458 – 460 هـ / 1065 – 1067 م) التي كان يحكمها عهدئذ عبد الحقّ بن خراسان صنيعة ابن حمّاد. واستمرّ النّاصر بعد نهضته من هزيمة سبيبة في الاعتماد على الأثبج. فتمكّن سنة 460 هـ / 1067 – 1068 م من الاستيلاء على الأربس ثم القيروان، ولكنه رأى من الخطورة بمكان البقاء فيها مدّة طويلة، فقفل راجعًا إلى القلعة، في حين أسرع تميم إلى استرجاع القيروان بواسطة جيش مؤلّف من بني زيري ورياح.

ومنذ سنة 461 هـ / 1068 – 1069 م اضطرّ النّاصر إلى التخلّي عن القلعة المعرّضة أكثر من اللّزوم لهجومات الهلاليّين واستقرّ في بجاية التي أسّسها منذ عهد قريب في موقع شبيه بموقع المهديّة.

وفيما بين سنة 466 و 470 هـ / 1073 – 1078 م، أجلى بنو رياح من القيروان بني زغبة الذين باعوا القيروان لبني حمّاد، قبل انسحابهم منها، إثر المساعي التي قام بها كلّ من أمير صفاقس حمّو بن مليل التابع للناصر، وقائد بن ميمون الذي تخلّى عن تميم وانضمّ إلى النّاصر.

وأخيرًا أُبْرِمت بين تميم والنّاصر معاهدة صلح (470 هـ / 1077 م) سيحترمها النّاصر إلى آخر حياته، إذ كان شغله الشاغل آنذاك مقاومة الفوضى السائدة داخل مملكته. وسيقتدي به حتى وفاة تميم، خلفاؤه: **المنصور** (481 – 498 هـ / 1088 – 1105 م) الذي نجح في مقاومة الزناتيّين والمرابطين و**باديس** الذي كان عهده قصيرًا و **العزيز**.

وكان من المتحتّم على تميم أن يحاول القيام ببعض الحملات البحريّة. فقد قام وَلَدَاه ببعض العمليّات الحربيّة في صقليّة فيما بين سنة 455 وسنة 461 هـ / 1063 – 1069 م. وبعد إحرازهما بعض الإنتصارات الباهرة التي لم يترتّب عليها سوى تأخير تنفيذ الحملة النرمانيّة، أبحرا، راجعَيْن إلى إفريقيّة. وقد تبعت تلك المحاولات بعض الغارات التي لا قيمة لها، خلال العقدَيْن المُوَالِيَيْن. ولكن في سنة 480 هـ / 1087 م فرض أسطول بيزة وجنوة صلحًا مُجْحِفًا على تميم.

وممّا زاد في خطورة هذه الصدمة، أنها أصابت تميمًا حين كان يتأهّب لاسترجاع قابس وصفاقس. أَفَلَم ينجح في فرض سلطته على القيروان (476 هـ / 1083 – 1084 م) وإبرام اتّفاق مع مالك بن علوي بعد ذلك بقليل بلا شكّ، بعدما تمكّن بمساعدة رياح، من صدّ هجوم أمير قابس المعزّز من طرف الأثبج بقيادة مالك بن علوي والمتحالف مع حمّو بن مليل؟ أَفَلَمْ يدرك أنّ له من القوّة ما يكفيه لمحاصرة قابس وصفاقس في نفس الوقت (479 هـ / 1086 – 1087 م)؟

ومن الدّلالات البليغة المعنى أنّ تميمًا سوف لا يستأنف عمليّاته الحربيّة ضدّ قابس إلاّ في سنة 486هـ/ 1093–1094م. وفي الأثناء (482هـ/ 1089–1090م) استولى مالك بن علوي على سوسة. ولكن سرعان ما أُطْرِدَ منها، بدون تدخّل تميم، ثم اختفى من الساحة السياسيّة.

كما جنّد ابن زيري الأتراك الذين تمكّنوا من الإستيلاء على طرابلس. ولكنّ قائدهم شاه مالك اختطف ابن الأمير يحيى بن تميم والتجأ إلى حمّو بن مليل. وفي آخر الأمر أرجع حمّو إلى تميم ابنه يحيى الذي تسبّب له سلوكه المشبوه فيه في إعفائه من ولاية العهد وتعويضه بأخيه مُثنّى، إذ يبدو أنه كان متواطئًا مع مختطفيه. ثم عفا تميم عن ابنه يحيى وكلّفه بمحاصرة صفاقس، «فرجع عنها ولم يفتتحها».

ومن ناحية أخرى، أفضت ثورة أحد إخوان تميم (489هـ/ 1095–1096م) إلى انتصاب مكن بن كامل بن جامع بقابس. وبإيعاز من مُثنّى الذي اغتاظ من إقصائه عن ولاية العهد، زحف ذلك القائد الرياحي بدون جدوى على صفاقس والمهديّة.

وشهدت سنة 491هـ/ 1097–1098م انتصارات تميم (احتلال جربة وقرقنة وتونس) واقصاء بني عدي من طرف بني رياح، حيث تمكّن بطن من بطونهم من الاستيلاء على باجة (500هـ/ 1106–1107م).

وأخيرًا نجح تميم، قبل أن تدركه المنيّة سنة 501هـ/ 1108م، في طرد خصمه العنيد حمّو بن مليل من صفاقس (493هـ/ 1099–1100م). وهو نجاح باهر، يبدو أنّ المحاولة الفاشلة لاسترجاع جربة (499هـ/ 1107م) لم تُنقِص من قيمته.

الفصل الأوّل
بداية عهد تميم

ولاية تميم وأوصافه[1] :

وُلِدَ تميم بن المعزّ بالمنصوريّة يوم الاثنين[2] 13 رجب 422هـ/ 6 جويلية 1031م. «وأبرزه والده للنّاس ابنَ سنتَيْن وركب، والعساكر وراءه، وطاف مدينتَيْ القيروان والمنصوريّة». ولم يُعيَّن وليًا للعهد إلاّ في سنة 442هـ/ 1050–1051م. «وولّي المهدية في صفر سنة 445هـ/ 23 ماي – 20 جوان 1053م، وعمره ثلاث وعشرين سنة».

ولنا ما يكفي من المعلومات حول أوصافه الطبيعيّة وصفاته الخُلُقيّة. «فقد كان جميلاً، وسيمًا، مُدير القامة، دُرّيَ اللّون، أشمّ، أبْلَج. وكان يكثر من استفراغ بدنه، ويرى أنّ بذلك تتمّ صحّته. وكان يستعمل كلّ حارّ من الأغذية والأدوية، ويكثر الاصطلاء بالنار، ويدخل الحمّام الحارّ، ويكثر الجماع، ويشرب الأدوية القويّة كالمحمودة وغيرها، ويُجاوز في ذلك المقدار، حتى جفّ لحمه وفسدت حركاته الطبيعيّة، وأُقْعِدَ».

«وكان شهمًا شجاعًا حازمًا عازمًا، يستصغر صعاب الأمور، ويستسهل عظائم الخطوب، ويغلب عليه شدّة البطش والمبادرة. (وكان ذكيًّا له معرفة حسنة، وكان حليمًا كثير العفو عن الجرائم). وهو أحد فحول شعراء الملوك، وذوي السبق والتقدّم في معانيه وبدائعه، حوى فيه الجودة والكثرة»[3].

---

1) **الحلّة**، 307/1 – 312 وبها فقرة منقولة عن أبي الصّلت؛ **البيان**، 298/1 – 299، 303 – 304؛ **الكامل**، 6/10، 189 – 190؛ **النويري**، 160/2 – 161؛ **العبر**، 160/6؛ **ابن خلّكان**، 98/1 – 99؛ **شذرات**، 2/4 – 3؛ **أعمال**، 457؛ **المؤنس**، 85؛ **الخريدة**، مخطوطة باريس 3330.

2) **الحلّة** و**الخريدة**.

3) **البيان**، 303/1 – 304. أنظر أيضًا **الكامل** و**الحلّة**.

ورغم شهرة ديوان تميم بن المعزّ الضخم ، فإنّه لم تصلنا منه سوى بعض المقاطع ، لا سيما منها الأبيات الواردة في «**خريدة القصر**» ، وهو كتاب غير مطبوع[3م] .

وقد اطّلع صاحب **الخريدة** [العماد الأصفهاني] على ديوان تميم ، بفضل حفيده ابن شدّاد[4] .

واستعمل تميم أحيانًا مواهبه الشعريّة لأغراض سياسيّة . «من ذلك أنّه وقع حرب بين طائفتين من العرب وهم عدي ورياح ، فقُتِلَ رجل من رياح ، ثم اصطلحوا وأهدروا دمه . وكان صلحهم ممّا يضرّ بالأمير وببلاده ، فقال أبياتًا يحرّض على الطلب بدمه . فعمد إخوة المقتول ، فقتلوا أميرًا من عدي ، واشتدّ بينهم القتال وكثرت القتلى ، حتى أخرجوا بني عدي من إفريقيّة»[5] . وقد كان من الصعوبة بمكان الحصول على مثل هذه النتيجة بحدّ السّلاح .

وسنجد بني عدي من جديد في المغرب الأوسط تحت راية النّاصر[6] . ولكنّ عمليّة الإقصاء المشار إليها هنا هي على الأرجح العمليّة التي جرت في سنة 491هـ / 1097 – 1098م . لأنّ الذين قاموا بها هم بالضبط بنو رياح[7] . وسنرى أيضًا أنّ بعض أفراد من بني عدي الذين أُطْرِدوا هم أيضًا ، ولكن من طرف الأثبج وزغبة ، كانوا موجودين في سنة 468هـ / 1075 – 1076م في ناحية طرابلس ، ومن هناك سيقودهم القائد الزناتي المنتصر بن خزرون للزحف على المغرب الأوسط[8] .

ويبدو أنّ القاعدة الذهبيّة التي كانت ترتكز عليها سياسة تميم[9] تجاه الأعراب المسيطرين على كامل البلاد المفتوحة هي : «فَرِّقْ تَسُدْ» .

ويُصَوِّر لنا هذان البيتان[10] من شعره ما كان يتّسم به من كبرياء . فقد قال :

3م) [العماد الأصفهاني الكاتب ، «خريدة القصر وجريدة العصر» . ظهر القسم المغربي من هذا الكتاب بتونس في 3 أجزاء ، ونشرته الدار التونسيّة للنشر بين 1966 و 1972 : تحقيق آذرناش آذرنوش ومحمد العروسي المطوي ومحمّد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى] .

4) **الخريدة** ، مخطوطة باريس 3330 ، ص 60 وجه ، [طبعة الدار التونسيّة للنشر ، النشرة الثالثة ، 142/1] .

5) **الكامل** ، النويري .

6) أنظر الفصل الثاني من هذا الباب .

7) أنظر الفصل السابع من هذا الباب .

8) أنظر الفصل الرابع من هذا الباب .

9) ابن خلدون ، **العبر** ، 160/6 ، 173 – 174 .

10) **البيان** ، 303/1 . أنظر أيضًا **الكامل** و**الحلّة** .

[وافر]

فـإمّـا المُلْكُ في شرف وعزّ ... عليَّ التّـاجُ في أعلَى السريرِ
وإمّـا الموتُ بين ظُبـا العوالي ... فَلَستُ بخـالـد أبَـدَ الـدّهورِ

وقد تغنّى تميم بالخمر والحبّ[11]. وأوحى إليه غلام اسمه مُدَام بقصيدة طويلة[12]. وتوافد على بلاط هذا الأمير الراعي للآداب عدد كبير من الشعراء، سواء منهم الأندلسيّين أو المغاربة والإفريقيّين، وعرف كيف يعفو بكل لباقة عن واحد منهم تجاسر على هجائه[13]. وقد يحدث أحيانًا أن يعارضهم وينتقد تعابيرهم[14]. ولم يكن قادرًا على الخروج من تلك المناظرات الأدبيّة بشرف إلاّ من كان متفوّقًا ببراعته وحنكته.

وهذه بعض النوادر التي تكشف عن طبع هذا الأمير: «قيل إنّه اشترى جارية بثمن كثير، فبلغه أنّ مولاها الذي باعها ذهب عقله وأسف على فراقها. فأحضره تميم بين يديه وأرسل الجارية إلى داره ومعها من الكسوات والأواني الفضّيّة وغيرها ومن الطيب وغيره شيء كثير. ثم أمر مولاها بالانصراف، وهو لا يعلم بذلك، فلمّا وصل إلى داره ورآها على تلك الحال، وقع مغشيًّا عليه لكثرة سروره، ثم أفاق. فلمّا كان الغد أخذ الثمن وجميع ما كان معها وحمله إلى دار تميم، فانتهره وأمره باعادة جميع ذلك إلى داره».

«وكان له في البلاد أصحاب أخبار [مُخْبِرون] يجري عليهم أرزاقًا سنيّة ليطالعوه بأحوال أصحابه، لئلا يظلموا النّاس. فكان بالقيروان تاجر له مال وثروة، فذكر في بعض الأيّام التجار تميمًا ودعوا له، وذلك التاجر حاضر، فترحّم على أبيه المعزّ ولم يذكره. فرُفِعَ ذلك إلى تميم، فأحضره إلى قصره وسأله: «هل ظلمتُكَ؟». فقال: «لا». قال: «فهل ظلمك بعض أصحابي؟». قال: «لا». قال: «فَلِمَ أطلقتَ لسانك أمس بذمّي؟». فسكت. فقال: «لولا أن يُقَال شرّه في ماله، لقتلتك». ثم أمر به، فصُفِعَ في حضرته قليلاً، ثم أطلقه، وأصحابه ينتظرونه، فسألوه عن خبره، فقال: «أسرار الملوك لا تُذاع»، فصارت بإفريقيّة مَثَلاً»[15].

11) الحلّة والنجوم.
12) البيان، 304/1. أنظر أيضًا الحلّة والكامل.
13) ابن الحدّاد الأقطع حسب تاريخ أبي الصّلت أمية.
14) الحلّة، 309.
15) حسب الكامل والنويري.

وقد أسلفنا أنّ المعزّ بن باديس ، لمّا وصل إلى المهديّة سنة 449هـ / 1057م فوّض جميع الأمور إلى ابنه ، طَوْعًا أو كرهًا. ولمّا توفّي المعزّ خلفه تميم بدون صعوبة. فاستقبل القضاة والأعيان الذين قدّموا إليه التعازي والتهاني. كما تلقّى في نفس الغرض رسالة من الأمير النّاصر بن علنّاس بن حمّاد.

وكان أوّل ما قام به قتل عبيد أبيه الذين كانوا قد نجوا من انتقامه سنة 448هـ / 1056 – 1057م(16).

وكان تميم يعطف على النصارى. فقد قال في جارية نصرانيّة الأبيات التالية(17) :

[وافر]

أليس اللهُ يعلمُ أنّ قلبي يُحِبُّكِ أيّها الوجه المليح
وأهوى لفظَكِ العَذْبَ المفدّى إذا درس الذي قال المسيح
أُظَاهِرُ غيركم بالودّ عَمْدًا وودُّكُمُ هو الودّ الصحيح
وفيكم اشتهي عيدَ النّصارى وأصواتًا لها لَحْنٌ فصيح

ووجّه تميم إلى النّاصر رسولاً ، أكّد له أنّ سيّده مهتمّ كلّ الاهتمام بعبيده النّصارى ، وقد فوّض إليهم كلّ الأمور، وترك جانبًا الصنهاجيّين والتلكاتة وجميع القبائل الأخرى(18).

فلا غرابة حينئذ إذا ما رأيناه يستقبل في قصره ميخائيل الأنطاكي وابنه جرجير (أو جرجي) اللّذيْن قدما من المشرق ودخلا في خدمته. «وكان جرجير قد عرف لسان العرب وبرع في الحساب، فحكّمه تميم في دخله وخرجه ، وجعل مصارف الأموال لنظره. فصارت أموال المسلمين كلّها في يده وأيدي أقاربه»(19). ولمّا ارتقى إلى العرش يحيى بن تميم الذي كان يكرهه ، التجأ جرجير الأنطاكي إلى صقليّة ودخل في خدمة رُجَار الثاني الذي عيّنه قائد أسطوله. ويُعْتَبر رحيل هذا النصراني خسارة لا تُعوَّض بالنسبة إلى بني زيري بالمهديّة !

ولا شكّ أنّ سلطة صاحب الأشغال القويّ النفوذ [جرجير] قد حجبت سلطة بقيّة كبار الموظّفين في عهد تميم. وهذا ما يفسّر لماذا لم نتعرّف إلاّ بواسطة إشارة خاطفة عرضيّة ،

---

16) **البيان**، 294/1 ؛ **الكامل**، 257/9 – 258 ؛ التجاني ، 333.

17) **الخريدة**، مخطوطة باريس ، ص 61 قفا [الطبعة التونسيّة ، النشرة الثالثة ، 146/1].

18) الهادي إدريس ، **أعياد نصرانيّة**... المجلة الإفريقيّة ، 1954 ، 273.

19) حول جرجير الأنطاكي ، أنظر: **رحلة التجاني** ، 333 – 334 ؛ **الحلل** ، 242/1.

على وجود وزيره المسمّى «عبد الله بن منكور متولّي أمور الدولة»[20].

ولم تذكر المصادر هل دخل تميم في طاعة الخليفة الفاطمي. ولكن يحقّ لنا أن نعتقد ذلك[21]. فلو كان تابعًا للخليفة العبّاسي لكانت المصادر السنيّة قد أشارت إلى ذلك قَطْعًا. والجدير بالملاحظة أنها سكتت عن عودة المعزّ إلى الحظيرة الفاطميّة في سنة 446 هـ / 1054 – 1055م.

وبعد مدّة قليلة من إرتقائه إلى العرش، لا ندري متى ولا كيف، أعاد تميم على رأس ولاية القيروان قائد بن ميمون الصنهاجي الذي كان قد التجأ إلى المهديّة على الأرجح منذ سنة 452 هـ / 1060م[22]. وقد ظلّ هذا الضابط وفيًّا له مدّة ستّ سنوات قبل أن يثور عليه في سنة 460 هـ / 1067 – 1068م.

قضيّتا صفاقس وسوسة[23]:

استغلّ حمّو بن مليل البرغواطي الفوضى الناشئة عن الغزوة الهلاليّة للاستبداد بالحكم في صفاقس وإعلان استقلاله.

وبعد مدّة قليلة من ارتقاء النّاصر إلى العرش (454 هـ / 1062 – 1063م)، وجّه إليه حمّو رسالة مبايعة مصحوبة بهديّة[24].

---

20) **البيان**، 301/1؛ **الكامل**، 68/10؛ **رحلة التجاني**، 333.

21) حوالي سنة 488 هـ/1095م إثر تولية المستعلي خليفة المستنصر، فرّ إلى المغرب ابن مصال اللكّي الذي وعده بالوزارة نزار بن المستنصر ومنافس المستعلي السيّء الحظ. **نجوم**، 142/5 – 145. وحول دخول يوسف بن تاشفين في طاعة الخليفة العباسي سنة 498 هـ، أنظر: **نجوم**، 191/5.

22) **الكامل**، 21/10؛ النويري، 154/2؛ **العبر**، 160/5.

23) أ – **رحلة التجاني**، 70؛ ومقديش، **نزهة الأنظار** [الطبعة الجديدة]، 193/1 – 194.
ب– **الكامل**، 6/10؛ النويري، 147/2.
ج– **العبر**، 160/6.
د– **البيان**، 299/1. وخلافًا للمصادر الأخرى، أكّد هذا المصدر أنّ احتلال سوسة قد تمّ في سنة 455 وأنّ هجوم حمّو قد وقع في السنة الموالية. ويبدو أن المؤلّف قد عكس التاريخيْن غلطًا.
هـ– **المؤنس**، 84 ربّما نقلاً عن **البيان**، وضع احتلال سوسة قبل هجوم حمّو، ولكنّه لم يذكر التاريخ. وإلى جانب «مليل» كثيرًا ما نجد «ومَلِّيل».

24) ابن خلدون، **العبر**، 173/6.

ويؤكّد دينار سنّي مضروب بصفاقس سنة 461 هـ / 1068 – 1069م أنّ حمّو بن مليل كان يضرب السكّة ، على الأقلّ في تلك الفترة ، ولا يعترف بالسلطة الفاطميّة[25].

ومنذ أن تولّى تميم ، أقرّ حمّو العزم على توسيع ممتلكاته . وبعدما تحالف مع جماعة من العرب من عدي والأثبج وحلفائهم ، زحف بهم سنة 455 هـ / 1063م على بلدة بير قشيل[26] فملكها واستحوذ عليها ، ثم سار إلى صفاقس .

فنهض تميم للقائه ، على رأس جيش يضمّ ، بالإضافة إلى البربر الصنهاجيّين بلا شكّ ، مجموعات كبيرة من عرب زغبة ورياح . وجرى الصدام في سلقطة[27] التي تبعد حوالي ستة أو ثمانية أميال عن المهدية . وانتهت المعركة الطاحنة بهزيمة القائد الطموح ، وقد نجا بأعجوبة من المجزرة التي أودت بحياة أغلب رجاله من الفرسان والمشاة . ورجع مَنْ نجا منهم إلى صفاقس . وتبدو هذه الواقعة التي تقاتل فيها بنو عدي والأثبج من جهة وبنو زغبة ورياح من جهة أخرى ، بمثابة الصراع بين الجماعات الهلاليّة المتنافسة . ولئن أمسك تميم – حسبما يبدو – عن استغلال انتصاره وملاحقة الفارّين ، فذلك على الأرجح لأنّه لم تكن لديه الوسائل اللّازمة لذلك . ولكن من الجائز أن يكون قد فضّل الإسراع بتوجيه جيشه المنتصر إلى سوسة . ومهما يكن من أمر ، فقد هجم على تلك المدينة بعد مدّة قليلة من تلك الواقعة أي في سنة 456 هـ / 1063 – 1064م . فطلب إليه أهل سوسة العفو ، فعفا عنهم . فيبدو حينئذ أنّ هذه المدينة قد استسلمت بدون مقاومة تُذكَر .

قفصة وقسطيلية في عهد تميم[28] :

يبدو أنّ تميمًا لم يحاول استرجاع قفصة ، وقد تمكّن أميرها عبد الله بن محمد بن الرند المستقلّ منذ سنة 445 هـ / 1053 – 1054م ، من فرض سلطته على قسم كبير من قسطيلية . وإثر وفاته سنة 465 هـ / 1072 – 1073م جمع ابنه وخليفته أبو عُمَر[29] المعتزّ أموالاً طائلة

25) الهادي إدريس ، مجلة معهد الدراسات الشرقيّة ، 1953 ، 31 .

26) حسب النويري ، وهو المصدر الوحيد الذي ذكر هذا الاسم . أمّا التجاني فقد قال : «بعض القُرى» (الرحلة ، 70) .

27) البكري ، 76 ، 198 .

28) ابن خلدون ، العبر ، 166/6 .

29) ألا ينبغي أن نقرأ : أبو عمرو؟

من الضرائب ، أنفقها في استمالة عدد كبير من الأنصار وإخضاع قمّودة وجبل هوارة وبقيّة مدن قسطيلية وما تبعها.

وهكذا فقد نجح في تأسيس دُوَيلة هامّة غربي جنوب إفريقيّة ، تضمّ قمودة وقفصة وقسطيلية ، وتحدّها مناطق سبيبة والقيروان وصفاقس شمالاً ، وسبخة قسطيلية (شطّ الجريد) جنوبًا. ونلاحظ الموقع الممتاز الذي تحتلّه قاعدة قفصة وسط المنطقة التي تتحكّم فيها.

وبعدما أشرف أبو عُمَر المعتزّ على حظوظ ممتلكاته بنجاح مدّة طويلة ، أصيب بالعمى. وبما أنّ ابنه تميم كان توفّي منذ عهد قريب ، فقد عيّن لخلافته حفيده يحيى بن تميم[30] الذي وضعه تحت وصايته وحكم مكانَه.

ورغم الغزوة الهلاليّة ، يبدو أنّ هذه المنطقة قد شهدت شيئًا من الازدهار الذي استمرّ حتى دخول الموحّدين إلى إفريقيّة.

30) نلاحظ : يحيى بن تميم بن المعتزّ ويحيى بن تميم بن المعزّ ، فهل هذا من باب الصدفة أم أنّه يدلّ على رغبة بني الرند في تقليد بني زيري؟

الفصل الثاني
بداية عهد الناصر[1]

[المقدّمة] :

من الجدير بالتّذكير أنّ النّاصر بن علنّاس بن حمّاد قد ارتقى إلى العرش سنة 454هـ / 1062م ، في نفس السنة التي تولّى فيها الحكم تميم بن المعزّ ، وَلَد ابن عمّه . ولا ندري ما هو عمر ذلك الأمير آنذاك . وتقول المصادر إنّه كان سفّاحًا ، كما تشهد على ذلك أعمال القتل العديدة التي ارتكبها ، كما كان مفرط الغيرة ، حسب بعض الروايات الشهيرة[2] التي لم تبلغنا من سوء الحظّ .

وقد أسند مناصب سامية إلى أربعة من إخوته : وهي ولاية المغرب ، أي القسم الغربي من مملكته ، وقد عهد بها إلى كبّاب الذي أسكنه مليانة[3] ، وولاية حمزة التي منحها لرُمّان[4] ، وولاية نقاوس[5] التي أسندها إلى خَرَز ، وقد أعاد بناء سورها الذي هدمه المعزّ بن باديس ، وولاية قسنطينة التي عهد بها إلى بلبار[6] وعيّن ولده عبد الله على رأس مدينة الجزائر ومرسى الدّجاج وولده الآخر يوسف على رأس مدينة أشير.

أما بسكرة التي خلعت طاعة بني حمّاد ، فقد كان يحكمها بنو جعفر . وكان بلقّين قد قتل مقدّمها جعفر بن أبي رُمّان[7] . ولم يحتمل النّاصر هذا التمرّد وقتًا طويلاً ، فكلّف بإخضاعها وزيره خَلَف بن أبي حيدرة الذي كان في السابق وزير سلفه بلقّين. فاستحوذ خَلَف على بسكرة عنوة ، بعدما حاصرها . ووجّه إلى القلعة بني جعفر وعددًا من أعيان المدينة ، فصلبهم النّاصر.

1) **العبر**، 173/6 ؛ **أعمال**، 463 – 465 .
2) حسب رواية **أعمال**، المصدر المذكور.
3) حسب **العبر**: «لّبا»؟
4) حسب نفس المصدر: «ورمّان». .
5) حسب نفس المصدر: «تعارس»(؟) .
6) حسب نفس المصدر: «بلباز».
7) حسب نفس المصدر: «رمّاز»(؟)

وسرعان ما قتل النّاصر وزيره خَلَف بن أبي حيدرة ، إثر سعاية من قِبَل بعض الرؤساء الصّنهاجيّين الذين أخبروا الأمير أنّ وزيره قد أراد تسليم الحكم إلى معمّر شقيق الأمير بلقّين ، إثر مقتل هذا الأخير[8] ، وأنّه كان قد تشاور معهم في هذا الشأن. وعيّن النّاصر مكانه أبا بكر بن أبي الفتوح[9] المعروف باسم أحمد بن جعفر بن أَفْلَح .

وأخبرنا ابن خلدون – وهو المصدر الوحيد الذي أمدّنا بمعلومات حول جميع هذه الوقائع – أنّ النّاصر قد ارتحل بعد ذلك لتفقّد المغرب ، أي القسم الغربي من مملكته .

وإثر وفاة بلقّين فرّ علي بن ركّان[10] ملتحقًا بأخواله[11] بني عجيسة . وبمساعدتهم استغلّ فرصة غياب النّاصر للاستيلاء على القلعة[12] أثناء غارة ليليّة . فرجع النّاصر على جناح السرعة من المسيلة ، وهجم عليهم على حين غفلة واسترجع منهم القلعة . فانتحر علي بن ركّان لكي لا يقع بين يدي خصمه القاسي .

وانضمّ إلى النّاصر عدد كبير من رؤساء القبائل ، الأمر الذي زاد في دعم قوّته . من ذلك أن حمّو بن مليل البرغواطي الذي كان قد انهزم في سلقطة ، قد وجّه إليه رسالة مبايعة مصحوبة بهدية ثمينة . كما قدم إليه مقدّم قسطيلية[13] يحيى بن وطّاس[14] على رأس وفد ، لتقديم شواهد الإخلاص . ورجع كلّ واحد منهم مغمورًا بالعطايا .

أمّا مدينة تونس ، فلم تكتف بالاعتراف بالأمير الحمّادي ، بل التمست منه تعيين والٍ عليها ، وهو مؤسّس دولة بني خراسان[15] .

---

8) حسب نفس المصدر: «ماهر».

9) هكذا سُمّي هذا الشخص . ويبدو أنّ أحمد بن جعفر بن أفلح الذي قيل أنّ الأمير قد عيّنه وزيرًا عوض خَلَف بن أبي حيدرة (العبر، 173/6) ، هو نفس الشخص الذي عيّنه النّاصر وزيرًا ، وهو أبو بكر بن أبي الفتوح ، واسمه الكامل ، حسبما يبدو، هو أبو بكر أحمد بن أبي الفتوح جعفر بن أفلح .

10) حسب العبر، المصدر المذكور.

11) حسب نفس المصدر.

12) العبر: «تافربوست دار ملكه». وحسب نفس المصدر، 145/6 كان بنو عجيسة ، وهم من البربر البرانس ، مستقرّين في الجبل الذي أسّس فيه حمّاد قلعته .

13) البربر: «قسطيلية» والعبر: «قسنطينة»؟ يتعلّق الأمر بتوزر.

14) حسب العبر.

15) أنظر الفصل الثالث الموالي.

وبعدما أصبح النّاصر يتحكّم في المغرب الأوسط وقسم من إفريقيّة ، فكّر في فتح المغرب الأدنى بأسره. وبسبب المنافسات القبليّة ، سوف يواجه أعوانًا لا يتورّعون عن الخيانة ، ويا للأسف !.

هجوم بني حمّاد وهزيمة سبيبة[16] :

في سنة 457هـ/ 13 ديسمبر 1064 – 2 ديسمبر 1065م ، أقام النّاصر حلفًا عتيدًا يجمع بين البربر والعرب. ويبدو أنّ الأثبج هم الذين حرّضوه على ذلك ، إذ كانوا يرغبون في بذل مجهود أخير لمقاومة نفوذ بني رياح المتعاظم. فاستعان شيوخ الأثبج بالنّاصر ضدّ بني رياح ، وقد لبّى ابن حمّاد طلبهم بطيبة خاطر ، لا سيما وأنّ بني رياح كانوا موالين لبني زيري.

وكان شقّ النّاصر يضمّ بالخصوص ، بالإضافة إلى الصنهاجيّين ، الأثبج وعدي من بني هلال ، وزناتة. في حين كان الشقّ المنافس يضمّ المجموعة الهلاليّة الأخرى المتركّبة من بني رياح وزغبة وبني سُلَيْم ، وقد انضمّ إليهم الأمير المغراوي ابن المعزّ بن زيري بن عطيّة[17].

«واتّصل بتميم أنّ النّاصر بن علنّاس يقع فيه في مجلسه ويذمّه ، وأنه عزم على المسير إليه ليحاصره بالمهديّة ، وأنه قد حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهديّة. فلمّا صحّ ذلك عنده ، أرسل إلى أمراء بني رياح فأحضرهم إليه وقال : أنتم تعلمون أنّ المهديّة حصن منيع أكثره في البحر ، لا يقاتل منه في البرّ غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلاً. وإنّما جمع النّاصر هذه العساكر إليكم. فقالوا له : الذي تقوله حقّ ونحبّ منك المعونة»[17م].

فأعطى تميم لكلّ واحد منهم – وكان عددهم عشرة – ألف دينار وألف درع وألف رمح وألف درقة وألف مهنّد. ثم انسحبوا «فجمعوا قومهم وتحالفوا واتّفقوا على لقاء النّاصر ،

---

16) **الكامل** ، 18/10 – 19 ؛ النويري ، 148/2 – 150 ؛ **العبر** ، 19/6 – 20 ؛ **البيان** ، 299/1 ؛ **الاستبصار** ، (الترجمة) 33.

17) حسب **العبر** ، 173/6 ، لا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بعنصر. أنظر : **البيان** ، 253/1 – 254. وفي **الكامل** أُطلِق على هذا الشخص غلطًا اسم المعزّ بن عطية الذي توفّي حوالي سنة 416 – 417هـ/ 1025 – 1027م. النويري ، 148/2 : المعزّ بن زيري الزناتي.

وأرسل إلى مَنْ مع النّاصر من بني هلال يقبّحون عندهم مساعدتهم للنّاصر ويخوّفونهم منه أنّه قويّ وأنّه يهلكهم بمَنْ معه من زناتة وصنهاجة ، وأنّهم إنّما يستمرّ لهم المقام والاستيلاء على البلاد ، إذا تمّ الخُلْف وضَعُف السلطان. فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة وقالوا : اجعلوا أوّل حملة تحملونها علينا ، فنحن ننهزم بالنّاس ونعود عليهم ، ويكون لنا ثلث الغنيمة. فأجابهم إلى ذلك واستقرّ الأمر ، وأرسل المعزّ بن زيري الزناتي إلى مَنْ مع النّاصر من زناتة بنحو ذلك ، فوعدوه أيضًا أن ينهزموا».

وليس من المستبعد أن يكون الأمير الزناتي متواطئًا مع تميم. ولكنّ الأمر يتعلّق على الأرجح بتقارب بين زناتة ورياح ، أملته الانتهازيّة. ذلك أنّ خيانة بني رياح تجعل هزيمة النّاصر من الأمور المحتملة. فمن الأفضل أن تكون زناتة إلى جانب المنتصرين ، للمساهمة في اقتسام الغنيمة ، بعد هزيمة عدوّها القديم. على أنّه من الجائز أن تكون المؤامرتان مستقلّتين الواحدة عن الأخرى ، بدون أن يعلم أيّ طرف ما دبّره الطرف الآخر.

ومهما يكن من أمر فقد رحلت رياح وزناتة ، في حين وصل النّاصر إلى الأربس على رأس جنوده الصنهاجيّين وحلفائه الهلاليّين والزناتيّين ، واحتلّ المدينة[18].

وتم اللّقاء بين المتحاربين سنة 457 هـ / 1065 م في سهل سبيبة[18م] الواقع بين القيروان وتبسّة. وحسب الاتّفاق حمل بنو رياح على الأثبج وعدي ، وحملت زناتة ، بقيادة المعزّ بن زيري على أبناء قبيلته المتحالفين مع النّاصر. فبدأ بنو هلال وزناتة في التقهقر ، وتبعهم الجنود الصنهاجيّون ، فأخذوهم من خلف غدرًا. ومُنِيَ النّاصر بهزيمة نكراء ، ولكنّه تمكّن من النجاة بنفسه صحبة عشرة فرسان ، بفضل بطولة أخيه الأكبر القاسم بن علنّاس[19] الذي لقي حتفه في المعركة. وكان قد نصح أخاه بإرسال مبعوثين إلى العرب ، واستمالتهم بالهدايا ، عوض مواجهتهم بالسلاح. وإثر الهزيمة طلب إلى النّاصر أن يسلّم إليه تاجه ورايته ، ليتمكّن من إنقاذ حياة من كان يعتبره شخصًا لا يُعَوَّض. فلبّى النّاصر طلبه وتعمّم القاسم بعمامة أخيه وخاض غمار المعركة حاملاً راية الأمير ، ليسمح له بالانسحاب ، فلقي القاسم مصرعه ، وقُتِل معه «كاتبُه» ، حسبما يبدو. ولكنّ الأمر يتعلّق على الأرجح بالقاسم بن علنّاس نفسه الذي

17م) **الكامل** ، 18/10 – 19.

18) حسب **العبر** لا غير.

18م) جاء في الكامل خطأً ما يلي : «فالتقت العساكر بمدينة **سبتة**» ، وقد وقع الخلط بين سبيبة وسبتة.

19) حسب مؤلف **الاستبصار** المجهول الذي أطلق على ابن حمّاد غلطًا اسم : المنصور بن حمّاد.

قد يكون هو كاتب الأمير[20].

«وكان مبلغ مَنْ قُتِل من صنهاجة وزناتة أربعًا وعشرين ألفًا»[21]. ونلاحظ هنا وجود زناتيّين من بين القتلى، دون أن نعرف عددهم. فهل أنّ الزناتيّين لم يتخلّوا جميعًا عن المعركة، كما أشارت إلى ذلك المصادر؟ وهل أنّ بني هلال قد أقدموا، في خضمّ المعركة، على قتل وسلب جميع البربر بدون أيّ ميز بين الصنهاجيّين والزناتيّين؟ ومن ناحية أخرى، فإنّ بني رياح -كما أسلفنا- ربّما كانوا يجهلون الاتّفاق المبرم بين الفريقين من زناتة، أو تجاهلوه.

إنّ الرّواية السابقة المعتمدة أساسًا على ما نقله ابن الأثير، تختلف عن رواية ابن خلدون، حول جوانب التواطؤ الغريب -والحقّ يقال- بين رياح وزناتة. فقد أكّد ابن خلدون[22] أنّ ابن المعزّ بن زيري والزناتيّين قد انضمّوا إلى النّاصر وأنّ الأمير المغراوي كان في سنبيبة إلى جانب ابن حمّاد، وأنّه تخلّى عنه، هو وجماعته، أثناء المعركة بإيعاز من تميم. وسكت المؤرّخ عن المشاورات التي جرت بين رياح وبني هلال وعن الاتّفاق المسبق حول تقهقر الجنود الهلاليّين التابعين لجيش النّاصر، ولم يُشِر إلى وجود الزناتيّين ضمن الجيش المنتصر المتركّب -حسب روايته- من بني رياح وزغبة لا غير. أمّا ابن عذاري[23] فقد اكتفى بالاشارة إلى أنّ «عسكر النّاصر قد كُسِرَ» (دون ذكر مكان الواقعة). وكان قد خرج في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدي والأثبج. فلقيتهم رياح وزغبة وسُلَيْم، فانهزم النّاصر... وكان من أعظم الأسباب في ذلك ما أبرمه تميم في أمره».

ومن الواضح أنّ رواية ابن خلدون أبسط من غيرها، ولكن لماذا ينبغي أن نفضّل رواية ربّما يفضي وضوحها المجرّد إلى تقليص الواقع، على رواية أخرى مفصّلة أكثر، ولكنّها معقّدة أكثر وغامضة. فهل نرى فيها شيئًا من التصنّع والخيال؟[24].

20) حسب تعبير ابن خلدون (العبر، 173/6): «قُتِلَ القاسم أخوه وكاتبه». وقد ترجم دي سلان (البربر، 49/2) هذه الجملة كما يلي: «قُتِلَ أخوه القاسم وكاتبه في هذه المعركة». وهذه الترجمة يمكن أن تكون مقبولة. ولكن من الغريب أنّ المؤرّخ لم يعطنا إسم هذا الكاتب الذي لم يرد ذكره في أيّ مصدر آخر. والجدير بالملاحظة أنّ ابن أبي الفتوح وزير النّاصر قد بقي على قيد الحياة بعد الهزيمة.

21) حسب **الكامل** والنويري.

22) **العبر**، 173/6.

23) **البيان**، 299/1.

24) وحسب رواية **الاستبصار**، فإنّ المنصور بن حمّاد (الصحيح: النّاصر) هو الذي قدم لنجدة ابن عمّه على رأس جيش عرمرم، فهزمه جميع العرب المتحالفين في سبيبة. ولا ينبغي اعتماد هذا التأويل المبسّط والوهمي.

وسقط معسكر بني حمّاد في أيدي العرب الذين غنموا ما فيه «من مال وسلاح ودوابّ وغير ذلك ، فاقتسموها على ما استقرّ بينهم». وأضاف ابن الأثير قائلاً :

«وبهذه الوقعة تمّ للعرب مُلْك البلاد ، فانهم قدموها في ضيق وفقر وقلّة دوابّ ، فاستغنوا وكثرت دوابّهم وسلاحهم ، وقلّ المحامي عن البلاد».

ويبدو أنّ جيش الخيّالة الصنهاجي الذي كان يعدّ قبل تأسيس بجاية اثني عشر ألف فارس على أقلّ تقدير[25] مقيمين بالقلعة ، قد أُبيد في سبيبة.

وأرسل المنتصرون الألوية والطبول والبوقات وخِيَمَ النّاصر بدوابّها إلى تميم. فرفض قبولها وردّها إلى العرب. وقد مسّ هذا الرفض بشعور العرب الذين احتجّوا لديه ، معلنين أنّهم خدّامه وجنوده. فأجابهم تميم أنّ رفضه ليس فيه أيّ مسّ بكرامتهم وقال : «يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمّي» ! فأرضى العرب بذلك. ويبدو أنّ هذه البادرة النبيلة تعبّر عمّا كان يشعر به تميم من غمّ. فقد أخبرتنا بعض المصادر[26] أنّه «اهتمّ لذلك وأصابه حزن شديد» ، لمّا قدّر قوّة العرب التي ساهم في دعمها وكان يظنّ أنه يستطيع استغلالها.

وإثر الهزيمة ، كلّف النّاصر وزيره ابن أبي الفتوح بإجراء مفاوضات حول اتفاقية صلح ، وأسرع إلى التصديق عليها في الحين[27]. والجدير بالملاحظة أنّ هذا المفوّض الذي قال عنه ابن الأثير[28] إنّه «كان رجلاً جيّدًا يحبّ الاتّفاق ويهوى دولة تميم» ، قد وقع عليه الاختيار من حسن الحظّ لتحقيق ذلك الغرض ، إذ أنّ المنتصرين من بني رياح كانوا على وفاق مع تميم. إلاّ أنّ تلك الاتّفاقيّة لم تُنَفَّذ ، إذا ما صدّقنا ابن خلدون[29] الذي أخبرنا بما وقع لابن حمّاد ، إثر هزيمة سبيبة. فقد التجأ إلى قسنطينة ، وبنو رياح يلاحقونه ، ثم تحوّل مع من تبقّى من رجاله البالغ عددهم أقلّ من مائتي رجل ، إلى القلعة ، حيث حاصره العدوّ فيها. وقد أتلف المُغيرون البساتين وقطعوا أشجار الغابة المُحيطة بالقلعة. كما خرّبوا طبنة والمسيلة وأخرجوا منهما السكّان ونهبوا الفنادق وردموا الآبار وقطعوا الأشجار. وقد قال المؤرّخ إنّهم نشروا الرّعب في كامل البلاد وأجبروا الأهالي على الاعتصام في مدنهم مع ولاة الأقاليم ، وأخيرًا فرضوا الجزية على السكّان الراغبين في استغلال أراضيهم.

---

25) حسب رواية **أعمال** ، 463.

26) **الكامل** والنويري.

27) **العبر** ، 173/6.

28) **الكامل** ، 19/10 ؛ النويري ، 150/2.

29) **العبر** ، 19/6 – 20.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الصّورة القاتمة تنطبق على كامل أنحاء الأمبراطوريّة الصنهاجيّة ، وقد رسمها ابن خلدون ليبيّن بالخصوص أنّ المصائب التي كانت تعانيها إفريقيّة منذ عهد بعيد ، قد لحقت آنذاك بمملكة بني حمّاد التي ظلّت بمعزل عنها إلى حدّ ذلك التاريخ .

وقد أقرّ سحق صنهاجة في سببية هيمنة بني هلال على كامل المغرب الأدنى والأوسط ، حيث أصبح بنو رياح يسيطرون على إفريقيّة والأثبج يسيطرون على المغرب الأوسط . ذلك أنّ دولة بني حمّاد قد اعترفت إلى آخر أيّامها بتفوّق الأثبج على القبائل العربيّة الأخرى ، إلى أن فقدت تلك القبيلة نفوذها وتفكّكت[30] .

---

30) نفس المصدر.

الفصل الثالث
بداية عهد بني خراسان[1]

[المقدّمة]

لا ندري ماذا حصل في مدينة تونس بخصوص سلطة قائد بن ميمون الصنهاجي الذي كان المعزّ بن باديس قد عهد إليه، قبل فراره إلى المهديّة، بمهمّة الإشراف على حظوظ القيروان وتونس. والغالب على الظنّ أنّ سلطته بتونس كانت غير ثابتة وقصيرة المدى، بل كانت اسمًا بلا مسمّى. ولئن استطاع ممثل المعزّ أن يستمرّ في الحكم ثلاث سنوات (حتى سنة 452 هـ/ 1060 – 1061م) بالقيروان، بل بالأحرى في صبرة – المنصورية، لأنه كان يقيم بها تحت رعاية حامية صنهاجيّة، بلا شكّ، فإنّ مدينة تونس سرعان ما اغتنمت الفرصة المؤاتية لقطع علاقتها مع بني زيري، وذلك بفضل الفوضى العامّة التي كانت سائدة بالبلاد. وهذا بالضبط ما أشار إليه ابن خلدون في هذا الشأن[2]. واننّا نتصوّر كيف فرّ الصنهاجيّون ملتحقين بأميرهم بالمهديّة. وحسب هذا المؤرّخ[3] فإنّ عابد[4] بن أبي الغيث صهر المعزّ قد استولى على مدينة تونس واستعبد أهلها. ولكنه لم يوضّح من سوء الحظّ تاريخ هذه الواقعة التي يبدو أنّها كانت مجرّد عمليّة نهب عابرة. وفي نفس تلك الفترة تقريبًا استحوذ أمير عربي آخر، وهو أبو مسعود، على مدينة عنّابة التي استسلمت إليه. ومن الممكن أن نفترض أنّ مدينة تونس قد فكّرت آنذاك في الاحتماء ببني حمّاد.

وحوالي سنة 450 هـ/ 1058 – 1059م تحوّل وفد من شيوخ تونس إلى قلعة بني حمّاد ليطلبوا إلى النّاصر بن عَلَنّاس «تقديم والٍ من قِبَله عليهم»[5]. وقد أكّد ابن عذاري أنّ

---

1) **الكامل**، 21/10؛ النويري، 154/2 – 155. وخلافًا للنويري فإنّ ابن الأثير قد ذكر مرّتين متواليتين خطأ، قابس عوض تونس.

2) **العبر**، 173/6.

3) نفس المرجع، 15/6.

4) **العبر**: «عائذ».

5) **البيان**، 315/1؛ **العبر**، 159/6، 163 – 164.

النّاصر لم يُلَبِّ طلبهم ورأى من الفطنة أن لا يتدخّل في شؤونهم. ذلك أنّه، شعورًا منه بالخطر وبضعفه النسبيّ، وربّما خوفًا من أن يلقى نفس المصير الذي آل إليه قريبه بالمهديّة. فضّل أن يتصرف في قضيّة تونس بنفس الواقعيّة التي توخّاها إزاء القيروان في نفس تلك الفترة. فقد كان منهجه يتمثّل في حبك الدسائس ومحاولة التفاهم وعدم التدخّل في شؤون إفريقيّة، على الأقلّ بصورة وقتيّة، وذلك بالرغم من النداءات اليائسة الموجّهة إليه من طرف الإفريقيّين الراغبين في الانضمام إليه. ولذلك فقد اقترح على شيوخ تونس أن يختاروا شيخًا منهم لإدارة شؤونهم وأن يقتصر دوره على المراقبة[6]. «ويقال إنهم راموا تقديم كبيرٍ منهم [لمنصب الولاية] فاستعفى وتوقّف. فوليها من قِبَل النّاصر عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان»[6م]. وحسب ابن خلدون، فقد استقبل النّاصر وفدًا من شيوخ تونس وعيّن واليًا على المدينة. ولكن من الجائز أن يكون المؤرّخ الذي لم يشر إلى الاقتراح الذي قدّمه النّاصر إلى شيوخ تونس، لتعيين واحد منهم على رأس المدينة، قد اختصر الرواية وأكّد من أوّل وهلة أنّ النّاصر هو الذي عيّن عبد الحق واليًا على تونس. وتبدو رواية ابن عذاري المفصّلة أكثر، أقرب للواقع. إلاّ أنه من المحتمل أن يكون هناك وفدٌ ثانٍ قد تحوّل من تونس إلى القلعة ثم رجع مصحوبًا بقرار التعيين وربّما بالوالي نفسه، لا سيما وأنّ عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان الذي يقال إنّه من مواليد تونس، هو من أصل صنهاجي، حسب ابن خلدون. والحال أنّ اسم خراسان لا يمتّ بأيّة صلة إلى صنهاجة[7].

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد انّ هذا المؤلّف هو المصدر الوحيد الذي وفّر لنا بعض المعلومات حول سياسة عبد الحقّ. فقد عمل هذا الشيخ التابع لبني حمّاد والمستقلّ عمليًّا، حسبما يبدو، على تشريك أهل تونس في تصريف شؤون المدينة، وقد كان يحمل لقب شيخ[8]. ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بنظام شبيه بنظام الجماعة البربريّة، حيث يتولّى السلطة مجلس الأعيان. وقد ابتهج أهل تونس بهذا النظام شبه الديمقراطي، فأحبّوا شيخهم الموفّق

6) **البيان**: «فأمرهم أن يختاروا شيخًا منهم، يقوم بأمرهم خلال ما ينظر إليهم».

6م) نفس المصدر.

7) جاء في **الصلة**، رقم 184، 184/1: من بين مشايخ ابن الصقلّي (ت. بعد سنة 429 هـ/ 1037 – 1038م)، ابن أبي زَيْد والداودي والقابسي وأبو عبد الله محمد بن خراسان النحوي.

8) حسب نقيشة في واجهة باب من أبواب جامع الزيتونة، مؤرّخة في رمضان 474 هـ/1081م، أنظر مصطفى زبيس، **نقائش...**، ص 38.

عبد الحقّ، لا سيّما وقد نجح في وضع حدّ لأعمال النهب التي كان يقوم بها الأعراب في البلاد المفتوحة، مقابل دفع «أتاوة معلومة» إليهم (ضريبة سنويّة).

الحملة العسكريّة ضدّ مدينة تونس[9] :

في سنة 458هـ/ 3 ديسمبر 1065 – 21 نوفمبر 1066م، اغتنم تميم هزيمة ابن عمّه صاحب القلعة الذي انتصر عليه بنو رياح في السنة السابقة بسبيبة، لمحاولة كسر شوكة ابن خراسان التابع للنّاصر. فقد غادر تميم المهديّة للزحف على مدينة تونس، على رأس جيش عظيم، وكان مصحوبًا بأمير زغبة يَبْقَى بن علي[10]. وبعد حصار دام أربعة عشر شهرًا[11] استسلم عبد الحقّ إلى ابن زيري الذي يبدو أنّه اكتفى بدخول مدينة تونس في طاعته، بمقتضى اتّفاقيّة هي عبارة عن تسوية بالتراضي أكثر ممّا هي استسلام بأتمّ معنى الكلمة. ويمكن تحديد تاريخها بأواخر 459هـ وأوائل 460هـ/ أواخر 1067م.

وتوفّي عبد الحقّ بن خراسان سنة 488هـ/ 1095م[12]. فخلفه ابنه عبد العزيز. ويمكن أن نستخلص من بعض النّقائش[13] أنّ هذا الرجل الضّعيف المدارك[14] قد تخلّى عن جزء من سلطته، إن لم نقل كلّها، إلى أخيه إسماعيل. وإثر وفاة عبد الحقّ، بل ربّما قبل ذلك، مارس الأخَوَان السلطة بالاشتراك بينهما. ولا ينبغي أن يفوتنا أنّ الأمير الخراساني لم يكن من حيث المبدأ سوى رئيس مجلس الشيوخ.

---

9) **العبر**، 160/6–164؛ **البيان**، 299/1؛ **الكامل**، 21/10؛ النويري، 154/2؛ **المؤنس**، 84.

10) **العبر**، 164/6. المصادر الأخرى لم تذكر أمير زغبة.

11) **البيان**، **الكامل**، النويري، **المؤنس**: «عام وشهران»، وهو نفس الشيء؛ **العبر**: «4 أشهر»، وهي غلطة مطبعيّة لا شكّ فيها.

12) **البيان**، 315/1؛ **العبر**، 164/6.

13) في نقيشة تأسيس مسجد المهراس بتونس مؤرّخة في رمضان 485هـ/ 5 أكتوبر – 3 نوفمبر 1095م، ورد ذكر أبي محمد عبد العزيز بن عبد الحقّ بن خراسان الملقّب بلقب «الشيخ الأجلّ». وجاء في نقيشة قبّة سيدي بو خريصان أنّ هذا الضريح قد بُنِيَ بأمر من «السلطان المنصور (بالله) أبي محمد عبد العزيز (و) أبي الطاهر إسماعيل ابنيْ الشيخ عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان... في جمادى الثانية 486هـ/ 29 جوان – 27 جويلية 1093...». أنظر: مصطفى زبيس، المرجع المذكور، I– رقم 18–19، ص 41–43.

14) **العبر**، 164/6.

ويقال إنّ تميم بن المعزّ قد فتح مدينة تونس من جديد سنة 491هـ / 1097 – 1098م[15].

ولدينا لوحة ضريح «الشيخ أبي محمّد عبد العزيز بن عبد الحقّ بن خراسان» المتوفّى يوم السبت 5 محرم سنة 499هـ / 17 سبتمبر 1105م[16]. في حين تؤكّد مصادرنا أنّه «مات سنة 500هـ»[17] (1106 – 1107م). وليس من المستبعد أن يكون أخوه إسماعيل الملقّب بالأمير في لوحة ضريحه، قد انفرد بالحكم إلى أن توفّي يوم الأحد 12 رجب سنة 500هـ / 8 مارس 1107م[18]. ومن المحتمل أن يكون ابن خلدون وابن عذاري قد خلطا بين تاريخ وفاة الأخوَيْن، لأنّهما قد أهملا دور «الأمير أبي الطاهر إسماعيل» الذي يبدو أنه تولّى الحكم في الفترة التي بقيت فيها المدينة بلا أمير، أي من 5 محرّم 499هـ إلى 12 رجب 500هـ.

فقد أكّد هذان المؤلّفان أنّ الأمير أحمد قد ارتقى إلى الحكم بعد وفاة والده عبد العزيز سنة 500هـ. فهل استحوذ إسماعيل على الحكم إثر وفاة أخيه عبد العزيز؟ وهل قام بمحاولة لوضع ابن أخيه أحمد تحت وصايته، بل للنيل من صلاحيّات مجلس الأعيان؟ والدليل على ذلك أنّه استبدل لقب شيخ بلقب أمير. ومهما يكن من أمر فإنّ ابن أخيه أحمد بن عبد العزيز هو الذي قتله[19]. ففرّ ابن ضحيّته أبو بكر بن إسماعيل إلى بنزرت وأقام بها، إلى أن وجّه إليه أهل تونس بعد ذلك بمدّة طويلة وفدًا لتقليده الحكم.

وقد وضع الأمير أحمد بن خراسان حدًّا للسياسة التقليديّة التي سنّها عبد الحقّ وانتهجها عبد العزيز من بعده، فألغى سلطة الشيوخ، «وأخرج جماعة من أهل تونس وأشياخها، ونفاهم إلى المهديّة وغيرها واستبدّ برأيه في أمور تونس»[19م]. ويبدو أنّه اعتمد

---

15) **البيان**، 302/1؛ **الكامل**، 115/10؛ النويري، 159/2.

16) مصطفى زبيس، المرجع المذكور، 1 رقم 21، ص 58 – 68. نظريًّا يوم الأحد.

17) **البيان**، **العبر**.

18) مصطفى زبيس، المرجع المذكور، 1 رقم 28 ص 62 – 63. نظريًّا يوم الجمعة. وقد أشار هذا الكتاب إلى شواهد قبور عدد كبير من بني خراسان. رقم 13، ص 53 – 54: «حُسْنُ وَرْد أمّ أبي بكر بن إسماعيل بن عبد الحقّ، ت. يوم الأحد 11 رمضان 490هـ». رقم 16، ص 55 – 56: «أَمَةُ العظيم، ابنت اسماعيل ت. يوم السبت 18 ربيع (؟) 492هـ»، رقم 33، ص 66 – 67: «أَمَة العزيز، ابنت محمد، زوجة الشيخ عبد الحيّ بن خراسان»؛ أنظر أيضًا: رقم 36، 39، 41، 43... ص 68 – 71...

19) **البيان**، 315/1. كان إسماعيل مؤهّلاً أكثر لممارسة السلطة. نصّ **العبر**، 164/6، مشوّه. ينبغي قراءته كما يلي: «قتل عمّه إسماعيل بن عبد الحقّ لمكان رسمه وفرّ ابنه أبو بكر...».

19م) **البيان**، 315/1.

على الفقهاء ، وقد كان يحلو له الاجتماع بهم . واعتبر ابن خلدون الأمير أحمد أبرز عضو من أعضاء أسرة بني خراسان. وخلال مدّة ولايته التي دامت اثنتين وعشرين سنة ، بلغت مدينة تونس الخراسانيّة ذروة ازدهارها . فقد بنى أحمد قصرًا بتونس سُمِّيَ قصر بني خراسان[20] . وأحاط المدينة بالأسوار، وأقنع الأعراب بالتزام السهر على أمن المسافرين[21] . وقد مدحه الشاعر الذائع الصّيت ابن حمديس [الصقلّي][22] .

20) نفس المصدر.
21) العبر.
22) ديوان ابن حمديس ، رقم 82 ص 108 – 110 .

الفصل الرابع
نهاية عهد النّاصر

بناء مدينة بجاية (قبل سنة 461 هـ/1068 – 1069)[1] :

بعد كارثة سبيبة استقرّ الأعراب قرب أسوار القلعة وأصبح وضع النّاصر لا يُطاق أكثر فأكثر. فحاول كسب ودّهم بالمال، ولكن سوء نيّتهم وحبّهم للنهب جعلاه يفكّر في البحث عن محلّ إقامة أكثر أمانًا. ومن باب الصدفة وقع اختياره – أثناء المفاوضات التي أجراها مع تميم – على بجاية المنافسة للمهديّة في مستقبل الأيّام.

وكان النّاصر على علم بما أثاره انتصار بني هلال من حزن شديد في نفس ابن عمّه. فقال له وزيره الطيّب القلب أبو بكر بن أبي الفتوح الذي كان لا يخفي تعاطفه مع تميم: «ألَمْ أُشِرْ عليك أن لا تقصد ابن عمّك[1م] وأن تتّفقا على العرب، فإنكّما لو اتّفقتما لأخرجتما العرب». فقال النّاصر: «لقد صدقتَ ولكن لا مردّ لما قُدّرَ، فأَصْلِحْ ذاتَ بَيْنِنا». فأرسل الوزير رسولاً من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح. فقبل تميم قوله وأراد أن يرسل رسولاً إلى النّاصر، فاستشار أصحابه، فاجتمع رأيهم على محمّد بن البعبع، وقالوا له: «هذا رجل غريب، وقد أحسنتَ إليه وحصل له منك الأموال والأملاك، وهو لا يعرف صنهاجة». فأحضره تميم وأعطاه مالاً ودوابّ وعبيدًا وأرسله»[2].

فسار محمد بن البعبع مع رسول النّاصر إلى أن وصلا إلى بجاية التي كانت آنذاك مجرّد «منزل» يسكنه بعض الفلاحين البربر من قبيلة بجاية الصنهاجيّة[3]. وقد بقي بعض أفراد من هذه القبيلة موجودين في تلك المنطقة في عصر ابن خلدون. وقال ابن البعبع في نفسه أنّ هذا المكان المحاط بجبال شاهقة مناسب جدًّا لبناء مدينة ذات ميناء ودار صناعة. ومن الجدير

---

1) **الكامل**، 19/10 – 20؛ النويري، 150/2 – 154؛ **العبر**، 20/6، 173؛ **أعمال**، 463 – 465؛ **الاستبصار** (الترجمة)، 34 – 35 (ينبغي تعويض المنصور بالنّاصر)؛ **بلدان**، فصل بجاية، 62/2 وفيه تلخيص لقضيّة ابن البعبع

1م) [أي لا تهاجمه].

2) **الكامل**، 19/10.

3) نفس المرجع.

بالملاحظة أنّ هذا الموقع لذي يحيط به البحر شرقًا وغربًا وشمالاً ، يشبه إلى حدّ بعيد موقع المهديّة. كما أنّ الطريق الغربيّة المعروفة باسم المضيق كانت محاذية لضفّة الوادي الكبير، والطريق الجنوبيّة المؤدّية إلى القلعة ، تمرّ من مجازات مرتفعة وصعبة المنال. فستكون المدينة الجديدة حينئذ بمنأى عن غارات العرب.

«فلمّا أوصل (ابن البعبع) الكتاب وأدّى الرسالة ، قال للنّاصر: «معي وصيّة إليك وأحبّ أن تخلي المجلس». فقال النّاصر: «أنا لا أخفي عن وزيري شيئًا». فقال: «بهذا أمرني الأمير تميم». فقام الوزير أبو بكر وانصرف.

فلمّا خرج ، قال الرسول : «يا مولاي ! إنّ الوزير مخامر عليك ، هواه مع الأمير تميم لا يخفي عنه من أمورك شيئًا ، وتميم مشغول مع عبيده ، قد استبدّ بهم وأطرح صنهاجة وغير هؤلاء. ولو وصلتَ بعسكرك ما بتّ إلاّ فيها لبُغْضِ الجند والرعيّة لتميم. وأنا أشير عليك بما تملك به المهديّة وغيرها». وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتّخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقيّة. وقال له: «أنا أنتقل إليك بأهلي وأدير دولتك». فأجابه النّاصر إلى ذلك وارتاب بوزيره ، وسار مع الرسول إلى بجاية ، وترك الوزير بالقلعة. فلمّا وصل النّاصر والرسول إلى بجاية ، أراه موضع الميناء والبلد والدار السلطانيّة».

(وحسب ابن خلدون ، فقد استولى النّاصر في سنة 460 هـ / 1067 – 1068م على جبل بجاية الذي كانت تسكنه قبيلة بربريّة تحمل نفس الاسم).

«فأمر النّاصر من ساعته بالبناء والعمل وسُرَّ بذلك وشكر الرّسول وعاهده على وزارته إذا عاد إليه ، ورجعا إلى القلعة. فقال النّاصر لوزيره : «إنّ هذا الرسول محبّ لنا ، وقد أشار ببناء بجاية ويريد الانتقال إلينا ، فاكتب له جواب كتبه». ففعل»[4].

وقد تسلّم محمد بن البعبع من النّاصر ألف دينار وأربعة خدم وأربع زنجيّات وأربعة بغال من اصطبل الأمير وقفل راجعًا إلى المهديّة.

«وسار الرسول ، وقد ارتاب به تميم ، حيث تجدّد بناء بجاية عُقَيْبة مسيره إليهم وحضوره مع النّاصر فيها. وكان الرسول قد طلب من النّاصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها. فأرسل معه رسولاً يثق به ، فكتب معه : «إنّي لمّا اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية ، وقد عظم أمرها عليه واتّهمني. فانظر إلى من تثق به من

4) نفس المرجع.

العرب ترسلهم إلى موضع كذا[5] ، فإني سائر إليهم (وقد اتّفقت معهم في هذا الشأن. فأَرْسِلْ من تثق بهم من بني هلال)[6]. وقد أخذت عهود زويلة وغيرها إلى طاعتك».

«وسيّر الكتاب ، فلمّا قرأه النّاصر، سلّمه إلى الوزير (أبي بكر بن أبي الفتوح)، فاستحسن الوزير ذلك وشكر الرسول وأثنى عليه وقال : «لقد نصح وبالغ في الخدمة ، فلا تؤخّر عنه إنفاذ العرب ليحضر معهم». ومضى الوزير إلى داره وكتب نسخة الكتاب[6م] وأرسل الكتاب بخطّ الرسول إلى تميم ، وكتابًا منه يذكر له الحال من أوّله إلى آخره.

فلمّا وقف تميم على الكتاب ، عجب من ذلك وبقي يتوقّع له سببًا يأخذه به. إلاّ أنّه جعل من يحرسه في اللّيل والنّهار، من حيث لا يشعر. فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم وأخبره أنّ الرسول صنع طعامًا وأحضر عنده الشريف الفهري ، وكان هذا الشريف[7] من رجال تميم وخواصّه. فأحضره تميم ، فقال : «كنت واصلاً إليك». وحدّثه : «أنّ ابن البعبع الرسول دعاني فلمّا حضرت عنده ، قال : أنا في ذمامك أحبّ أن تعرّفني مع مَنْ أخرج من المهديّة»[8].

فقال له الشريف الفهري : «لماذا تفعل ذلك ، وأنت تحظى بمكانة مرموقة لدى مولانا تميم؟». قال : «لأنّه يظنّ أنّي قد نصحت النّاصر ببناء بجاية. إني خائف!». فقال له الشريف : «يا أبا عبد الله[9] إن كنت لم تقل شيئًا ولم تدبّر أيّة مكيدة ، فلا تخشى شيئًا ، لأنّ مولانا تميم رؤوف لا يؤاخذ أحدًا بقول أو بشبهة». قال : «اتركني ، إنّي لا أستطيع البقاء هنا». فأجاب الشريف : «إذن سأهتمّ بهذه القضيّة غدًا صباحًا إن شاء الله وسأعرّفك بمن تثق بهم من العرب».

فأطلع تميم الشريف الفهري على الرسالة التي كتبها ابن البعبع بخطّ يده وأمره بإحضاره. فذهب إليه الشريف وأخبره بأنّ الأمير تميم يأمره بالمثول بين يديه ، وأنه لا يخشى أيّ مكروه. ولمّا خرجا مُتَوَجِّهَيْن إلى القصر لقيهما ماضي بن عكابش ، فخاطب محمّد بن

---

5) «أولاد عكابش» (قراءة ظنّيّة) حسب النويري ، وهو المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذا البطن.

6) زيادة من النويري.

6م) قصد تسليم تلك النسخة إلى النّاصر إذا طلبها فيما بعد.

7) من ذرية الرسول ﷺ. فهل يتعلّق الأمر بأبي الحسن الفهري الذي كلّفه تميم في سنة 499 هـ / 1105 – 1106م بالقيام بحملة عسكريّة ضدّ جزيرة جربة.

8) انتهى كلام ابن الأثير، وبقية الكلام زيادة من النويري.

9) وهذه الكنية معهودة عند العرب لأنّ ابن البعبع اسمه محمّد.

البعبع قائلاً : «يا أبا عبد الله ، لقد نزل بنو هلال بين ظهرانينا مساء أمس ، وهذه الكتب التي أرسلوها إليك». فأخذها الشريف وتوسّل إليه ابن البعبع بإرجاعها إليه لكي لا ينكشف أمره. ودخل الرجلان القصر وابن البعبع لا يزال يطالب بالكتب. فقال له الشريف : «خذها ولكن والله لن تفيدك شيئًا». وبينما هما كذلك إذ خرج تميم ، فلما رآه ابن البعبع تملّكه الرّعب ، وسقطت الكتب من يديه ، «فإذا عنوان أحدها : «من النّاصر بن علنّاس إلى شيخنا وحبيبنا فلان...». فقال له تميم : «من أين هذه الكتب؟». فسكت ، فأخذها تميم وقرأها». فقال الرسول ابن البعبع : «العفو يا مولانا !». فقال : «لا عفا الله عنك !». وأمر به فقُتِلَ وغرّقت جثّته»[10].

وقد تسبّبت هذه الواقعة أيضًا في هلاك المحرّك الثاني لهذه القضيّة السياسيّة المعقّدة ، ألا وهو الوزير أبو بكر بن أبي الفتوح الذي قتله النّاصر من أجل تحمّسه المفرط للولاء إلى بني زيري. وقد أكّد ابن خلدون – وهو أمر قريب من الواقع – أنّ الوزير السيّء الحظّ قد ذهب ضحيّة سعاية رسول تميم ، محمّد بن البعبع ، الذي كان أخبر النّاصر بميل وزيره إلى منافسه صاحب المهديّة. ولكنّ النّاصر ، بقتله وزيره المتّهم بمعارضة مشاريعه وإحباط المؤامرة التي كان من الممكن أن تنجح ، قد أراد أخذ ثأر عميله الذي ضحّى بحياته في سبيل إخلاصه لقضيّة بني حمّاد.

إلاّ أنّ هذه الدّسائس لم تؤخّر قطّ بناء مدينة بجاية التي سمّاها مؤسّسها «النّاصريّة». فقد بُنِيَ قصر اللؤلؤ من الأساس ، وبعدما عمّر النّاصر عاصمته الجديدة وأعفى أهلها من الخراج ، استقرّ بها سنة 461 هـ / 1068 – 1069م ، وكان قد نقل إليها ذخائره.

الحملة الحمّاديّة الجديدة[11] :

يبدو أنّ النّاصر قد استعاد قواه بسرعة إثر هزيمة سبيبة التي كانت كارثة بالنسبة إلى صنهاجة وزناتة ، لا بالنسبة إلى حلفائه الأثبج. ومن ناحية أخرى ، فقد رأى فريق الأثبج المتحالف مع بني حمّاد ، من الضروري مقاومة التحالف الزيري الرياحي الذي تدعّم إثر استسلام ابن خراسان. ولذلك فقد «حاصر النّاصر مدينة الأربس سنة 460 هـ (11 نوفمبر

---

10) **الكامل** ، المرجع المذكور.

11) **البيان** ، 299/1 – 300 ؛ **العبر** ، 160/6 ؛ **الكامل** ، 21/10 ؛ النويري ، 154/2 – 155 ؛ **أعمال** ، 465.

1067 – 30 أكتوبر 1068م) ، وكان معه الأثبج من العرب ، وبقي عليها حتى افتتحها وأمّن أهلها وقتل عاملها ابن مجزار»[12] ، (وهو على الأرجح أمير من بني رياح).

وفي نفس ذلك التاريخ ، حسب الاحتمال[13] أظهر الخلاف على تميم القائد بن ميمون ، الوالي الذي كان ابن زيري قد عيّنه على رأس القيروان ، ودخل في طاعة بني حمّاد.

وفي نفس تلك الفترة أيضًا ، «وصل النّاصر إلى القيروان مع العرب[13م] ودخلها»[14] وكان على رأسها عهدئذ الوالى القائد بن ميمون[15] الذي بقي فيها بعد عودة النّاصر.

«وفي سنة 461 هـ (31 أكتوبر 1068 – 19 أكتوبر 1069م) ، عاد النّاصر من القيروان إلى قلعته ، خوفًا من جموع العرب»[16]. ومن المحتمل أن يكون هذا التاريخ الذي لم يذكره سوى ابن عذاري ، هو تاريخ وصول النّاصر الذي قد يكون خرج من القيروان في الواقع في أواخر سنة 460 هـ ، أي خريف سنة 1068م. وهذا الافتراض يسمح لنا بتحديد تاريخ حملة تميم ضدّ القيروان بأواخر سنة 460 هـ. ولكن لا شيء يمنع – نظرًا لسكوت المصادر أو عدم دقّة تواريخها – من تأخير ردّ فعل تميم إلى سنة 461 هـ ، أي ربيع سنة 1069م مثلاً ، الموافق لمنتصف سنة 461 هـ ، إذ أنّ احتمال تنظيم حملة عسكريّة في فصل الشتاء أمر مشكوك فيه.

على أنّ نجاح الحملة التي قام بها بنو حمّاد بالاشتراك مع الأثبج ضدّ القيروان ، بفضل تخلّي القائد بن ميمون الصنهاجي ، كان لا بدّ له أن يثير ردّ فعل من قِبَل بني زيري وبني رياح.

12) حسب **البيان** ، 299/1 ، وفي المخطوطات ابن مكراز وابن مجراز.

13) فقد أوضح ابن خلدون (**العبر** ، 160/6) والنّويري (154/2) أنّه قد شقّ عصا الطاعة بعد ستّ سنوات من إرجاعه إلى القيروان في أوائل عهد تميم حوالي سنة 454 هـ ، فيكون ذلك في سنة 460 هـ وهي سنة دخول القيروان في طاعة النّاصر ودخول هذا الأخير إلى تلك المدينة حسب **البيان وأعمال**.

13م) وهم الأثبج بلا شكّ.

14) **البيان** ، 299/1.

15) رغم أنّ المصادر لم تُشِر إلى ذلك.

16) **البيان** ، 300/1.

فقد وجّه تميم، لمعاقبة المتمرّد، عسكرًا كثيرًا يضمّ بلا شكّ عبيده وجموعًا من العرب، من بينهم على الأقلّ بنو رياح[17].

«فلمّا سمع بهم القائد بن ميمون، علم أنّه لا طاقة له بهم، فترك القيروان وسار إلى النّاصر»[18]. فدخل عسكر تميم القيروان وخرّبوا قصر القائد الذي كان قد بناه بباب أَسْلَم[19].

طَرْد زغبة من إفريقيّة[20]:

وفي سنة 466هـ/ 6 سبتمبر 1073 — 26 أوت 1075م، أو في السنة الموالية، نشب نزاع مسلّح بين بني رياح وبني زغبة الذين انهزموا وأُطْرِدوا من إفريقيّة. ومن المؤسف – كما هو الشأن بالنسبة إلى قضيّة الحال – أن تكون الثغرات الموجودة في مصادرنا مرتبطة في أغلب الأحيان بأهمّيّة الأحداث المرويّة.

ولا ندري ما هي القيمة التي يمكن أن نوليها إلى الرواية التي تشير إلى وصول عرب من بني قرّة «قادمين من ناحية برقة ونزولهم إزاء القيروان»، في سنة 468هـ[21] (16 أوت 1075 – 4 أوت 1076م).

ومن ناحية أخرى، فإنّ عمليّة بيع القيروان من طرف زغبة تمثّل بلا شكّ مرحلة من مراحل طردهم من إفريقيّة.

---

17) حسب النويري الذي قال: «فجرّد إليه تميم عسكرًا من أجناده وعبيده». (والمقصود هنا بالعبيد حرس الأمير الذي لم يكن يضمّ السّود لا غير).

18) **الكامل**، المرجع المذكور.

19) النويري، 154/2 – 155؛ وفي **الكامل**، 21/10: «فخرّبوا دور القائد».

20) **الكامل**، 40/10؛ **البيان**، 300/1؛ **المؤنس**، 84.

21) **البيان**، 300/1؛ **المؤنس**، 84.

بيع القيروان[22] :

تتضمّن الروايات المتعلّقة ببيع القيروان تناقضات تبدو ظاهريّة أكثر منها حقيقيّة.

فقد سار القائد بن ميمون الذي كان يعيش في بلاط بني حمّاد منذ ستّ سنين[23] إلى حمّو بن مليل البرغواطي أمير صفاقس. ونجح في إقناع أمير زغبة يبقى بن علي[24] ببيع القيروان لمخدومه الجديد الذي عيّنه واليًا عليها، مكافأةً له على صنيعه. وفي سنة 470 هـ / 1077 – 1078م، أي في نفس السنة التي أُبْرِمَتْ فيها اتّفاقيّة الصلح بين بني زيري وبني حمّاد، دخل القائد بن ميمون إلى القيروان، فحصّنها وجدّد أسوارها.

ومن الغريب أن يعطي حمّو القيروان بعد شرائها إلى القائد بن ميمون مكافأةً له على توسّطه في بيعها. والقريب من الواقع أنّ أمير زغبة قد باع القيروان بالمزاد العلني تحت ضغط بني رياح. فلا عجب إذا كان المشتري هو حمّو خصم تميم وبالتالي عدوّ بني رياح. ولكن ألم يكن حمّو تابعًا للنّاصر الذي اشترى هو نفسه القيروان، حسب مصدرَيْن من مصادرنا؟[25] وهل أنّ القائد بن ميمون وحمّو بن مليل لم يتصرّفا لحساب ابن حمّاد؟ أجل! إنّنا لا نجهل ظروف رحيل القائد بن ميمون من المغرب الأوسط وبالخصوص طبيعة علاقاته اللاحقة مع النّاصر، ولكن لم يذكر أيّ مصدر أنّ تلك العلاقات قد فسدت، فيمكن أن يكون القائد بن ميمون عونًا من أعوان ابن حمّاد، مكلّفًا بمهمة لدى حمّو، وأن نعتبر حينئذ أنّ شراء القيروان كان بمثابة ردّ فعل على انتصار بني رياح الموالين لبني زيري على زغبة. ومن يدري لعلّ نجاح ديبلوماسيّة أعداء تميم قد ساعد على إبرام الصلح في سنة 470 هـ / 1077 – 1078م، أي سنة رجوع القائد بن ميمون إلى القيروان.

---

22) المصادر مصنّفة حسب الاسم الذي أعطته للمشتري:
أ – البيع إلى حمّو، **العبر**، 160/6؛ النويري، 155/2.
ب – البيع إلى النّاصر، **البيان**، 300/1؛ **المؤنس**، 84.
ج – البيع إلى القائد بن ميمون:
– **الكامل**، 21/10: «وأما قائد فإنه أقام عند النّاصر، ثم أرسل إلى أمراء العرب فاشترى منهم إمارة القيروان».
– **البيان**، 300/1: «وفي سنة 466 (وقيل 467) طُرِدت زغبة من إفريقيّة: طردتهم رياح منها، وباعت القيروان من النّاصر بن علنّاس بن حمّاد الصنهاجي صاحب القلعة».

23) هكذا حسب ابن خلدون، وحسب النويري «بعد سنتين». ولا شكّ أنّ هذا خطأ، سنتين = ستّ سنين.

24) في **العبر**، مهنّى(؟) وربّما يحيى؟

25) **البيان** و**المؤنس**.

إبرام الصّلح بين بني زيري وبني حمّاد[26] :

لا شكّ أن تعاظم قوّة بني رياح على حساب زغبة هو الذي أثار في نفس تميم قلقًا شبيهًا بالقلق الذي شعر به إثر هزيمة بني حمّاد في سبيبة. ذلك أنّ تفوّق بني رياح من شأنه أن يعرّض للخطر جهوده الرامية إلى استرجاع نفوذه باستغلال الخلافات القبليّة.

«وفي سنة 469 هـ (5 أوت 1076 — 24 جويلية 1077م)، كانت بإفريقيّة مجاعة عظيمة ووباء عظيم، مات فيه من الناس خلق كثير»[27]. وإنّ من شأن هذه الآفات إتاحة الفرصة لعقد الصلح بين بني حمّاد وبني زيري. وبعد هذا وذاك، ألم يدرك تميم والنّاصر أنّ صراعهما سيؤول لا محالة إلى إضعاف الإمكانات الصنهاجيّة المتدنيّة إلى أقصى حدّ، لفائدة بني هلال الذين ما فتئت قوّتهم تتعاظم؟

وباختصار، ففي سنة 470 هـ/ 25 جويلية 1077 — 13 جويلية 1078م، أبرم الخصمان اتّفاقية الصلح التي لا نعرف لا مقدّماتها ولا بنودها. وزوّج تميم ابنته بلاّرة للنّاصر الذي «حمل ثلاثين ألف دينار[27 م]، فأخذ منها تميم دينارًا واحدًا وردّ الباقي. وسيّر ابنته إليه من المهديّة في عسكر، وأصحبها من الحلي والجهاز ما لا يُحَدّ»[28]. وقد كان هذا القران مباركًا ومثمرًا. وكان النّاصر يحبّ هذه الأميرة المهذّبة، وقد بنى لها قصورًا في القلعة وبجاية، منها قصر بلاّرة بالقلعة. وأنجبت الأميرة عددًا من الأبناء من جملتهم المنصور الذي خلف أباه وتوفّيت أمّه في عهده»[29].

النّاصر وزناتة المغرب الأوسط[30] :

بلغت مملكة بني حمّاد ذروة قوّتها بعد بناء بجاية، وقد زادت في تعزيز تلك القوّة بلا شكّ اتّفاقية الصلح المشار إليها أعلاه، والتي سيحترمها الطرفان إلى نهاية عهد تميم. وقد أكّد

---

26) **البيان**، 300/1؛ **الكامل**، 44/10؛ النويري، 155/2 — 156؛ **المؤنس**، 84 (تاريخ مغلوط).

27) **البيان**، 300/1.

27 م) معلوم المهر.

28) **الكامل**، المرجع المذكور.

29) **شهيرات التونسيّات**، 51 — 52 [الطبعة الجديدة، 84، 85، 86].

30) **العبر**، 173 — 175.

ابن خلدون[31] بحقّ أنّ بني حمّاد قد تفوّقوا على أبناء عمومتهم من بني باديس الذين أنهكتهم الغزوة الهلاليّة. وإذا صدّقنا هذا المؤرّخ[32] الذي لم يضف أيّة إيضاحات أخرى، فقد قام النّاصر بعدّة حملات عسكريّة في المغرب الأوسط وأصبح صديق بني ومانو[33]، أولئك الزناتيّين المدافعين عن بني حمّاد، الذين كانوا آنذاك تحت قيادة بني ماخوخ. وقد تزوّج النّاصر إحدى بنات تلك العائلة القويّة النفوذ[34]. ونسج ابنه المنصور على منواله.

وحوالي سنة 460 – 470 هـ / 1067 – 1078م[35]، وصل إلى طرابلس القائد الزناتي المنتصر بن خزرون، إثر النزاعات المسلّحة التي نشبت في القاهرة بين الأتراك والمغاربة. فوجد في طرابلس بني عدي الذين كان الأثبج وزغبة قد أجلوهم من إفريقيّة، فجنّدهم ليتّجهوا معه إلى غزو المغرب. واستقرّ بالمسيلة، وتمكّنت جحافل بني هلال ومغراوة من الدّخول إلى أشير. إلاّ أنّ المنتصر الذي زحف عليه النّاصر، قد لاذ بالفرار إلى الصحراء، وما لبث أن غادرها لاستئناف أعمال النهب والسلب. فعرض عليه النّاصر الصلح، لأنّه بلا شكّ قد رأى نفسه غير قادر على إخضاعه، ومَنَحَهُ مهلة للتأمّل. وأخيرًا نجح النّاصر في استمالة ذلك المغامر، مقابل إقطاعه بوادي الزاب وريغة[36]. وفي نفس الوقت أمر عروس بن سندي[37] أمير بسكرة الخاضع لسلطته بأن ينصب كمينًا للقائد المغراوي. فلمّا وصل المنتصر بن خزرون إلى بسكرة اتّجه إليه عروس وآواه على أحسنْ ما يرام. ثم قطع رأسه، بعدما تخلّى عنه أنصاره ولاذوا بالفرار، وبعث برأسه إلى النّاصر الذي عرضه في بجاية، وصلب الجثّة في القلعة.

وأُبيدَ القادة المغراويّون والزناتيّون، أمثال ابن الفتوح بن حنّوش أمير بني سنجاس[38] الذين كانوا يسيطرون على منطقة مدية ومعنصر[39] بن حمّاد الذي قُتِلَ هو أيضًا، وكان

---

31) نفس المرجع، 174/6.
32) نفس المرجع.
33) حسب ابن خلدون (العبر، 55/7): «عندما أبعد بلكين بن زيري مغراوة وبني يفرن إلى المغرب الأقصى، سمح لبني وَمَانُو وبني إِلُومِي بالبقاء في أراضيهم. وقد عملت هاتان القبيلتان الزناتيتان في صفوف الصنهاجيّين، واغتنمتا فرصة فقدان النفوذ الصنهاجي بالمغرب الأوسط لتوسيع نطاق سلطاتهما. ولم يقع أيّ تقارب بين النّاصر وبني إلومي».
34) العبر، 175/6.
35) نفس المرجع، 43/7 – 44.
36) حسب العبر، 45/7. (تقع منطقة وادي ريغ بين الزاب وورقلة).
37) حسب العبر: هندي.
38) العبر، 174/6.
39) نفس المرجع، أنظر أيضًا: البيان، 255/1

مقيمًا قرب الشلف، وكان معنصر قد «أغلب على عامل مليانة»[40]، وقتل شيوخ بني ورسيفان[41] المغراويّين. واكتفى النّاصر المشغول البال بالأعراب، بمكاتبتهم لحثّهم على الانتقام. فهجم بنو ورسيفان على معنصر، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى النّاصر الذي عرضه مع رأس المنتصر بن خزرون.

واشتكى أهل الزاب إلى النّاصر من الزناتيّين وبني غمرت ومغراوة، حلفاء الأثبج، الذين نهبوا بلادهم. فوجّه الأمير ابنه المنصور الذي دخل على رأس جيش إلى وُرغلاّن[42]، مدينة المنتصر بن خزرون الواقعة جنوب بسكرة، وخرّبها. ثم وجّه جنوده بعيدًا إلى أن دخل على رأسهم إلى ورقلة[43]، فعيّن على رأسها عاملاً وقفل راجعًا محمّلاً بالغنائم والأسرى.

كما كان يقوم بأعمال النهب، بالاشتراك مع عرب بني عدي[44]، بطن آخر من بطون زناتة، هم بنو توجين الذين كان على رأسهم آنذاك الأمير مناد بن عبد الله. فوجّه إليهم النّاصر، على رأس جيش، ابنه المنصور الذي أسَرَ سَكَن بن عبد الله، وحميد بن غزل(؟) ولاحق بن جيهان(؟)، أمراء قبيلة عدي[45]، بالإضافة إلى أمير بني توجين وأخيه زيري وعَمَّيْهما الأغلب وحمامة.

فأمرهم (النّاصر؟) بالمثول بين يديه، وأنّبهم أشدّ تأنيب مذكّرًا إيّاهم بما قدّمه إليهم من خدمات في السابق، عندما حماهم من أولاد القاسم رؤساء بني عبد الواحد. ثم قتلهم، بعدما قطع أيديهم وأرجلهم.

وتعطينا كلّ هذه الوقائع فكرة عامّة عن الفوضى السائدة عهدئذ في المغرب الأوسط، والتي بلغت أشدّها في الجنوب والغرب، بسبب التحالفات المحليّة المبرمة بين البطون الزناتيّة والهلاليّة، على وجه الخصوص.

وتوفّي مؤسّس مدينة الناصريّة سنة 481 هـ/ 27 مارس 1088 — 15 مارس 1089م.

---

40) العبر، 174/6.

41) نفس المرجع.

42) حسب نفس المرجع: «وعلان»؛ البربر، 50/2: «أوغلاّن».

43) حسب نفس المرجع: «واركلة»؛ البربر، 50/2: «ورغلة».

44) نفس المرجع.

45) حسب البربر، 50/2 — 51: «سكن بن عبد الله وحميد بن حزل ولاحق بن جهان»، ولم يشر ابن خلدون إلى هؤلاء الأمراء الثلاثة من بني عدي (العبر، 174/6).

الفصل الخامس
ولاية المنصور بن النّاصر
(481 – 498 هـ/1088 – 1105 م)

[المقدّمة][1] :

كان المنصور صغير السنّ عندما ارتقى إلى العرش سنة 481 هـ/ 1088 – 1089 م، خلفًا لأبيه النّاصر، إذ أنّ أمّه بلاّرة قد تزوّجت سنة 470 هـ/ 1077 – 1078 م. «وقد وصلته كتب الملوك ورُسُلُهم بالتعزية بأبيه والتهنئة بالمُلْك، منهم يوسف بن تاشفين وتميم بن المعزّ (جدّه للأم). واقتفى آثار أبيه في الحزم والعزم والرياسة»[2]. وقد حقّق مثل أبيه إنجازات عديدة، وكان ملكًا مِقْدامًا، حكم البلاد بنفسه، بحماس شديد، وكان كاتبًا وشاعرًا. كما كان يرتدي الملابس المرقّعة ويقتنع بالقليل[3]. وأخيرًا فقد حظي بتقريظ الشاعر ابن حمديس [الصقلّي][4].

وبالرغم من وجود الأعراب الذين ما فتئوا يعيثون في الأرض فسادًا، فقد مكث مدّة من الزمن بالقلعة، ثم غادرها سنة 483 هـ/ 1090 – 1091 م وانتقل إلى بجاية. وهو الذي «حضّر» أسرة بني حمّاد بعد أن كانت قبل ذلك شبه بدويّة. وبفضل ذوقه المرهف شيّد المباني ودور الصناعة والقصور، وأجرى الماء في الحدائق والبساتين. وقد أخبرنا ابن خلدون أنّه، بعدما بنى في القلعة قصر المُلْك[5] وقصر الكوكب[6] وقصر السّلام[7]، بنى في بجاية

1) **العبر**، 174/6 – 176، 186، 188؛ 55/7، **الكامل**، 68/10؛ النويري، 156/2؛ **البيان**، 302/1؛ **أعمال**، 463 – 465؛ **الاستبصار**، 34 – 35.
2) **الكامل**، المرجع المذكور.
3) حسب **الأعمال**، حيث ذكر المؤلّف أنه اقتدى بمنهج الخليفة العباسي، أبي جعفر المنصور.
4) **ديوان** ابن حمديس، القطعة عدد 284، ص 389 – 391.
5) أو قصر المَلِك، ولا شكّ أنّ هذا القصر هو الذي سمّاه الشاعر الصنهاجي أبو عبد الله محمد بن حمّاد: «قصر الخلافة». أنظر: **أعمال**، 463 – 465؛ و**شهيرات التونسيّات**، 51 – 52 [الطبعة الجديدة، ص 86].
6) حسب حسن حسني عبد الوهاب، **أعمال**، 465، الإحالة 1، ما زالت أطلال هذا القصر تحمل إلى اليوم اسم المنار.
7) **العبر**، 175/6: «قصر الشام»، إثر زلّة قلم.

قصر اللؤلؤ وقصر أميمون. ومن المحتمل أن يكون المنصور قد اقتصر على ترميم بعض تلك القصور وتوسيعها وتجميلها. ويكاد يكون هذا الاحتمال ثابتًا بالنسبة إلى قصر اللؤلؤ الذي يُنْسَب بناؤه أيضًا إلى النّاصر. بل ذهب المؤلّف المجهول لكتاب **الاستبصار** إلى الادّعاء بأنّ المنصور هو الذي بنى بجاية. وتبعًا لذلك فقد أطلق عليها اسم المنصوريّة عوض النّاصريّة. وحسب ابن خلدون فإنّ المنصور هو أوّل من ضرب السكّة من ملوك بني حمّاد[8].

قضيّة قسنطينة[9] :

من الجدير بالتذكير أنّ النّاصر قد ولّى على قسنطينة أخاه بلبار[10]. وإثر تولية المنصور ثار عليه عمّه بلبار. فوجّه صاحب القلعة جيشًا ضدّه بقيادة أبي يَكْنِي[11] بن محسن بن القائد الذي عهد إليه بولاية قسنطينة وعنّابة. فاحتجز أبو يكني بلبار ووجّهه إلى القلعة، واستقرّ بقسنطينة وعهد بقيادة عنّابة إلى أخيه ويغلان.

وفي سنة 487 هـ/1094م خرج أبو يكني عن طاعة المنصور وحاول، حسبما يبدو، تأليف كتلة عظيمة تضمّ جميع خصوم الأمير المحتملين أي تميم والأعراب والمرابطين. فكلّف أخاه ويغلان بالذهاب إلى المهديّة لتسليم عنّابة إلى تميم الذي قبل هذا العرض. ورجع ويغلان إلى عنّابة مصحوبًا بابن تميم أبي الفتوح الذي لا شكّ أنّ أباه قد كلّفه باستلام المدينة وتسيير شؤونها باسمه. ومن ناحية أخرى، تمكّن أبو يكني وويغلان من استمالة عدد كبير من الأعراب وتبادل الرسائل مع المرابطين.

وقد بادر المنصور بردّ الفعل، على الأرجح قبل اتّساع رقعة الثورة. فوجّه جيشًا إلى عنّابة لاسترجاعها، وتمكّن الجيش من اقتحام المدينة بعد محاصرتها مدّة سبعة أشهر. وأسّر أبا الفتوح بن تميم ووجّهه إلى المنصور الذي أمر بسجنه في القلعة وأعطى الإذن بضرب الحصار على قسنطينة. فازداد وضع أبي يكني سوءًا على سوء، إلى أن اضطرّ إلى الالتجاء إلى قلعة بجبَل أوراس والاعتصام بها.

8) أنظر : هازار (Hazard)، 53، 56–57، 95.

9) **العبر**، 175/6، نصّ مغلوط وناقص.

10) حسب **العبر**: «بلباز».

11) **العبر**، 175/6 : أبو يكني بن محسن بن القائد، فيبدو أن الأمر يتعلّق بحفيد القائد. ولعلّ اسمه «يكندي» عوض «يكني». أنظر: ليفي بروفنسال، **وثائق لم يسبق نشرها**، الفهرس، ص 259.

واستقرّ قائد الأثبج سُلَيْسِل بن الأحيمر في قسنطينة ، ربّما بمساعدة أبي يكني الذي قد يكون كلّفه بحمايتها[12] . إلاّ أنّ القائد المذكور قد باع المدينة إلى المنصور الذي تملّكها من جديد . أمّا أبو يكني الذي بقي معتصمًا بقلعته الأوراسيّة ، فقد كان يقوم من حين لآخر بغارات على قسنطينة . ولكن الجيوش الحمّادية قد حاصرته في مخبإه واستطاعت في آخر الأمر القبض عليه وقتله .

القطيعة مع بني ومانّو والحملة الموجّهة ضدّ تلمسان والمرابطين[13] :

حوالي سنة 473 – 474 هـ / 1080 – 1082م قام العاهل المرابطي يوسف بن تاشفين المسيطر على المغرب الأقصى بحملة عسكريّة ضدّ الجهة الغربيّة من مملكة بني حمّاد التي يهيمن عليها المغراويّون[14] . وبعدما افتكّ تلمسان من بني يَعْلَى ، استولى على وهران وتنّس والونشريس والشلف وكامل أنحاء البلاد ، حتى مدينة الجزائر ، ثم قفل راجعًا إلى المغرب الأقصى سنة 475 هـ / 1082 – 1083م . ونصّب في تلمسان حامية مرابطيّة تحت سلطة الوالي محمّد بن تِينَعْمَر المسوفي[15] .

وأخذ ابن تينعمر في الإغارة على بلاد صنهاجة ، ربما بمساعدة قبيلة بني ومانو الزناتيّة العتيدة ، بقيادة ماخوخ ، رغم أنّ النّاصر والمنصور قد تزوّجا أختَيْن من أخوات هذا القائد . فردّ المنصور على تلك الغارات بجدّة وخرّب أراضي ماخوخ وحصونه وضيّق الخناق على محمد بن تينعمر ، إلى أن اضطرّ يوسف بن تاشفين إلى التصالح معه ووضع حدّ للغارات المرابطيّة في بلاد صنهاجة .

إلاّ أنّ المرابطين سرعان ما أعادوا الكرّة ، فوجّه المنصور ضدّهم ابنه الأمير عبد الله الذي أجبرهم على الانسحاب من بلاد صنهاجة والرجوع إلى المغرب الأقصى . واحتلّ عبد الله الجهة الغربيّة من المغرب الأوسط وهجم على منطقة بني ومانو ، ثم حاصر الجعبات.[16]

12) حسب البربر ، 53/2 .
13) العبر ، 175/6 – 176 ، 188 ، 46/7 .
14) أنظر : تاريخ المغرب الأقصى ، 226/1 .
15) حسب البربر . وفي العبر ، 175/6 : «سعمر المسولي» . وفي العبر ، 188/6 : «يتنعمر» . وفي العبر ، 55/7 : «تينعمر المسوفي» .
16) العبر ، 175/6 .

واستولى عليها. كما استحوذ على بلدة مَرَتْ(؟)[17]، وعفا عن أهلها ثم قفل راجعًا إلى أبيه.

وإثر استيلاء المرابطين على إشبيليـــة وهجرة المعتمـــد إلى المغرب الأقصى (484 هـ/ 1091م)، وجّه أمير الميرة معزّ الدولة بن صمادح رسالة إلى صاحب القلعة ملتمسًا منه قبوله عنده. فلبّى المنصور طلبه وسلّم إليه تدلس التي أقام بها حتى آخر حياته[18]. وهجم المنصور على ماخوخ، ولكنّ الزناتيّين انتصروا على الجيوش الصنهاجيّة، واضطرّ المنصور إلى العودة إلى بجاية. وقد بلغ غضبه إلى درجة أنّه قتل زوجته أخت خصمه[19]. وإثر هذه الفعلة الشنيعة، انضمّ ماخوخ إلى شقّ المرابطين الذين دفعوه إلى اجتياح بلاد صنهاجة. فتحوّل ابنه إلى تلمسان، ثم بمساعدة محمد بن تينعمر، سار إلى مدينة الجزائر وحاصرها مدّة يومَيْن. وإثر وفاة محمد بن تينعمر، عهد الأمير المرابطي بولاية تلمسان إلى أخي الفقيد تاشفين بن تينعمر الذي اقتحم مدينة أشير وعاث فيها فسادًا[20]. وحسب ما جاء في الفصل الذي خصّصه ابن خلدون لبني ومانو وبني إلومي[21]، فقد قدّمت هاتان القبيلتان الزناتيّتان يد المساعدة إلى المرابطين أثناء هذه الحملة. ويقال إنّ المنصور قد غضب غضبًا شديدًا وزحف على بني ومانو، ولكنّه مُنِيَ بهزيمة نكراء من طرف جنود ماخوخ، فقفل راجعًا إلى بجاية مع من تبقّى من جنوده، وقد كان المنتصرون يلاحقونهم[22]. ويقال إنّ المنصور قد قتل وقتئذ زوجته، انتقامًا من أخيها ماخوخ. ويبدو أنّ هذه الرواية المقتضبة هي إعادة لما

17) في العبر، 175/6: «قرّاب».

18) العبر، 176/6؛ البيان، 168/3؛ أعمال، 466؛ تدلس أو دلّس، تقع على بعد 14 فرسخًا من شرشل. وفي العبر وأعمال والبيان: «تنّس».

19) حسب رواية ابن خلدون (العبر، 55/7) قتل المنصور زوجته بعد استيلاء تاشفين بن تينعمر على أشير.

20) العبر، 176/6.

21) نفس المرجع، 55/7.

22) من المحتمل أن تكون هناك رسالة موجّهة من يوسف بن تاشفين إلى صاحب القلعة فيها إشارة إلى هذه الهزيمة التي مني بها المنصور بعد سنة 475 هـ بمدة طويلة، بل حتى بعد الاستعداد للحملة التي جرت في سنة 496 هـ/ 1134م. وقد أورد هذه الوثيقة الكاتب الأندلسي الفتح بن خاقان (ت. 529 هـ/ 1134م) في كتابه «قلائد العقيان» طبعة بولاق 1283 هـ/ 1866م، ص 105. ولم نتمكن من الاطلاع على النصّ الكامل لهذه الرسالة التي قيل إنها منشورة في الجزء الثاني من الذخيرة لابن بسّام (ت. 524 هـ/ 1147م)، وهذا الجزء لم يُنشر إلى الآن، وقد أشار إليها هنري بيريس في الفصل الذي نشره في «تحية جورج مارسي» 151/2 – 152 تحت عنوان «لقطات تاريخيّة حول ملوك الطوائف والمرابطين من كتاب «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان». ولولا هذا الفصل لما تسنّى لنا الاطلاع على هذه الرسالة الموجّهة الى صاحب قلعة بني حمّاد، والتي حرّرها كاتب يوسف بن تاشفين (ت. 500 هـ/ 1106 – 1107م) المعروف بابن القصيرة.

رواه المؤلّف في الفصل المخصّص لصنهاجة، مع تحويل الواقعة المعنيّة بالأمر. والدليل على ذلك أنّه أحال القارئ بعد ذلك بقليل على الفصل المذكور، عندما تحدّث عن الحملة الموجّهة ضدّ تلمسان.

الحملة العسكريّة ضدّ تلمسان[23]:

بعدما حشد المنصور الصنهاجيّين والجنود العرب من الأثبج ورياح وزغبة وربيعة أو معقل، بالإضافة إلى عدد كبير من حلفائه الزناتيّين، زحف على تلمسان على رأس عشرين ألف رجل[24]، وذلك سنة 469 هـ / 8 جويلية – 5 أوت 1103م. ولمّا وصل إلى وادي سطفسيف[25]، سيّر جيشه إلى الأمام وأخذ يراقب تقدّمه عن كثب. فالتقى تاشفين بن تينعمر الذي كان قد غادر تلمسان متوجّهًا إلى تسالة، بجيش بني حمّاد ومُني بهزيمة نكراء

= [ملاحظة: لقد ظهر الجزء الثاني من الذخيرة المشار إليه أعلاه في سنة 1978 بتحقيق الدكتور إحسان عبّاس. ووردت فيه فقرات من الرسالة المشار إليها أعلاه، التي ترجمها الاستاذ الهادي روجي إدريس في هذه الإحالة. وفيما يلي نصّها كما جاء في الذخيرة]:

«ورد كتابك الذي أنفذته من وادي منى منصرفك من الوجهة التي استظهرتَ عليها بأضدادك وأجحفتَ فيها بطارفك وتالدك، وأخفقت من مطلبك ومرادك، فوقفنا على معانيه، وعرفنا المصرّح به والمشار إليه فيه...

«وفي فصل منها: وننشدك الله الذي ما تقوم السماء والأرض إلاّ بأمره، ألم نكن عندما نزغ الشيطان بينك وبين أبي عبد الله محمد بن يوسف، رحمه الله، وتفاقم الشنآن، قد توفّرنا على ما كان بالحال من إقلاق، وتأخّرنا عما كانت النصبة تستقدم إليه بدارٍ أو سباق، ولم نمدّ الجهة حقّ إمدادها، ولا كثّرنا فوق ما كان يلزم من جماهير إعدادها، ولا عدلنا عن جهاد المشركين، ولا أقبلنا إلاّ على ما يحوط حريم المسلمين، رجاء أن يثوب استبصار، أو يقع إقصار، وأنت خلال ذلك تحتفل وتحشد، وتقوم بحميّة وتقعد، وتبرق غضبًا وترعد، وتستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافًا، وتنفق عليهم ما كنزه أولئك إسرافًا، وتمنح أهل العشرات مئين وأهل المئين آلافًا، كلّ ذلك تعتضد بهم، وتعتمد على تعصّبهم لك وتألّبهم، وتعتقد أنهم جُنّتك من المحاذير وحماك دون المقادير، وتذهل عمّا في الغيب من أحكام العزيز القدير».

[الذخيرة، تحقيق الدكتور إحسن عبّاس، 1978، القسم الثاني، المجلّد الأوّل، ص 257، 258، 259].

والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ حمّاد قد مُني هو أيضًا بهزيمة في وادي منى سنة 389 هـ/999م. وحول أبي بكر محمد بن سليمان بن القصيرة، كاتب المعتمد ثم يوسف بن تاشفين. أنظر: المراكشي، ص 115.

23) **العبر**، 176/6، 55/7؛ **أعمال**، 465.

24) حسب **أعمال**، لا غير.

25) **العبر**، 176/6: «استقسه». أنظر: البكري، 76–77: نهر سطفسيف.

أجبرته على الإلتجاء إلى جبل الصخرة[26].

ودخل الجنود إلى تلمسان لنهبها. وبينما هم كذلك إذ خرجت من المدينة حوّاء[27] زوجة تاشفين فتقدّمت إلى المنصور والتمست منه الرحمة، من أجل ما يجمع بين المرابطين وبني حمّاد من أصل واحد. فاحتفى بها الأمير وأجلى جنوده من تلمسان في صبيحة نفس اليوم وقفل راجعًا إلى عاصمته. وقد دامت الحملة حوالي سنة[28].

وفي سنة 497 هـ / 1104م أبرم يوسف بن تاشفين الصلح مع المنصور، وإرضاءً له، أعفى تاشفين بن تينعمر من ولاية تلمسان[29].

حملات المنصور الأخيرة[30] :

وبعد ذلك هجم المنصور على الزناتيّين وشتّت شملهم في الزاب والمغرب الأوسط، ثم رجع إلى بجاية، فأخضع القبائل التي كانت موجودة في ضواحي تلك المدينة، وقد تعذّر إخضاعها قبل ذلك. وأجبرها على الالتجاء إلى بعض الجبال الوعرة[31].

وتوفّي المنصور بن النّاصر بن علنّاس بن حمّاد، صاحب بجاية والقلعة في ربيع الثاني سنة 498 هـ / 21 ديسمبر 1104 – 18 جانفي 1105م[32]، بعد سبعة أشهر من رجوعه من الحملة ضدّ تلمسان.

---

26) «جبل الصخرة أو الصخرتين، هو الجزء الشرقي من الجبل الذي يشرف على تلمسان من الجهة الجنوبيّة». أنظر: الإدريسي، ص 80.

27) حسب **البربر**، 54/2. وهذا الاسم غير وارد في **العبر**، 176/6.

28) حسب **أعمال**، 465 – 466 كان الانطلاق في شوال 496 هـ وتوفّي المنصور في ربيع الثاني 493 هـ، بعد سبعة أشهر من رجوعه من تلمسان.

29) **العبر**، 188/6؛ وفي **البربر**، 82/2: «عُوّض بمزدالي الذي كان واليًا قبل ذلك على بلنسية».

30) **العبر**، 176/6.

31) ذكر ابن خلدون هذه الجبال وهي: جبل بني عمران، وجبل بني تازروت والمنصورية والصهريج والناظور وحجر المعز.

32) حسب **أعمال**، 466

ولاية باديس والعزيز[33] :

لقد قدّمت إلينا المصادر أبا معدّ باديس ، ابن المنصور وخليفته ، في صورة ملك جبّار. ومن حسن الحظّ فإنّه لم يبق في الحكم سوى بضعة أشهر. فقد كان مجازفًا ذا مزاج حادّ. فما إن ارتقى إلى العرش حتى صادر أملاك وزير أبيه عبد الكريم بن سليمان ثم عمد إلى قتله. ولمّا غادر القلعة للاستقرار في بجاية ، عزل والي هذه المدينة سهّام. كما هاجم أخاه العزيز الذي كان آنذاك واليًا على مدينة الجزائر ، فعزله ونفاه إلى جيجل. ويُحكى أنه سلّم أحد الأولياء الصالحين إلى الأسود. وقد نجا الوليّ من الهلاك بأعجوبة ، لأنّ الأسود لم تمْسَسْه بسوء.

ولقي حتفه يوم 13 ذو القعدة سنة498 هـ / 27 جويلية 1105م[34]. ولم يتأسّف على فراقه أيّ حدّ ، بمن في ذلك أمّه التي يُقال إنّها هي التي سمّمته للحيلولة دون تنفيذ مشاريعه الخبيثة ضدّها[35].

فأسرع القائد علي بن حمدون إلى دعوة العزيز من عزلته المفروضة عليه ، والإعلان عن ارتقائه إلى عرش آبائه وأجداده تحت عنوان «العزيز بالله».

والجدير بالملاحظة أنّ هذا الأمير كان نقيض أخيه المتوفّى. فقد وُلِدَ في نفس اليوم الذي ارتقى فيه أبوه إلى العرش. ولذلك فقد لُقِّب بالمَيْمُون[36]. وكن يحبّ الإنصات إلى مناقشات الفقهاء بحضره. وكانت مدّة ولايته طويلة وهادئة. وقد عقد الصلح مع زناتة وتزوّج إحدى بنات ماخوخ[37].

---

33) **العبر**، 176/6 ؛ **أعمال**، 466 ؛ **البيان**، 302/1.

34) هذا التاريخ محدّد في **أعمال**، لا غير.

35) حسب المصدر السابق ، لا غير.

36) حسب نفس المصدر ، **أعمال**، 466.

37) **العبر**، 176/6 : «وأصهر إلى ماخوخ فأنكحه ابنته وطال أمرُ مُلْكِهِ».

الفصل السّادس
تميم والبحر الأبيض المتوسّط

من سنة 455 إلى سنة 471هـ :

لقد اقتفى تميم بن المعزّ أثر أبيه ، «فبعث أيضًا أسطولاً وعسكرًا إلى الجزيرة (صقليّة) وقدّم عليه وَلَدَيْه أيّوب وعليًا»[1] ، وذلك حوالي سنة 455هـ/1063م . وباستثناء ابن الأثير والنويري[2] ، لم تتحدّث المصادر الأخرى عن هذه الحملة ، مع الملاحظ أنّ هذين المؤلّفين قد أكّدا أنها قد وقعت بعد وفاة المعزّ في سنة 453هـ / 1061 – 1062م . ومن المعلوم أنّ المعزّ توفّي يوم 22 شعبان 454هـ/ 31 أوت 1062م. فينبغي حينئذ إتمام المعلومات الواردة في المصدرَيْن المذكورَيْن بالمصادر المسيحيّة.

وعلى الأرجح ، فقد فكّر تميم في التدخّل في صقليّة إثر النجاح الذي أحرزه في السنة الأولى من مدّة ولايته. إذ لا شكّ أنّ انبعاث القوّة الزيريّة في الظاهر، ووفاة ابن الثمنة والانقسامات التي ظهرت في صفوف النصارى ، كلّ ذلك قد أعاد الأمل في نفوس أهل الجزيرة المسلمين. ولعلّ تميم كان يأمل في إبعاد أعوانه المخطرين من الأعراب الطامعين في ثواب الجهاد المقدّس : فإما الغنيمة أو الاستشهاد.

على أنّ عددًا كبيرًا منهم قد تحوّل من قبل إلى صقليّة ، حسب بعض الشهادات التي تؤكّد وجودهم بُعَيْد الاستيلاء على مسينة ، لا سيما في صفوف القوّات التي واجهها النّرمان في قصريانة ، وكذلك في سنة 1062م / 453 – 454هـ[3].

وقد نزل أيّوب مع معظم العساكر في بلرمو، حيث حظي بحسن القبول ، وتصرّف باسم أبيه في جميع المناطق التابعة للعاصمة ، من مازرة إلى سِفالو او توزة. أما أخوه عليّ فقد نزل في جرجنت لمساعدة ابن الحوّاس ، في حين توجّه جيش آخر لتعزيز قصريانة . وعلى بعد

---

1) الكامل، 81/10.
2) المصدر المذكور والنويري، 255/2.
3) ستوريا، 96/3 ؛ Courtois ، غريغوار السابع ، ، 221 ، الإحالة 2.

ميلَيْن من تلك المدينة ، انتصر رُجَار الأوّل على فرقة عسكريّة تضمّ بالخصوص خمسمائة من العرب والإفريقيّين الذين التحقوا بالجيش منذ عهد قريب[4].

فتوجّه جيش المسلمين المتركّب من جنود صنهاجيّين وصقليّين من بلرمو إلى تروانا ، وهي المركز الذي كان ينطلق منه رُجَار طوال تلك الفترة ، وذلك على أمل سحق الكفّار في جحرهم. ولكنّه مُنِيَ بهزيمة نكراء في سيرامي في جمادى الثانية سنة 455هـ/ جوان 1063م ، وسبى النّرمان عددًا كبيرًا من المسلمين ، باعوهم بصفة عبيد ، وتحصّلوا على غنائم وافرة. ووجّه رُجَار هدايا ثمينة إلى البابا الأسكندر الثاني[5].

وسقطت منطقة تروانا بأسرها نهائيًّا بين يدي رُجَار. والجدير بالتذكير أنّ أسطولاً تابعًا لبيزة (أو بيشة) قد تمكّن من النزول في بلرمو[6] في سبتمبر 1063م / 5 رمضان — 4 شوّال 455 هـ. وفي نفس الفترة تقريبًا ، هجم النّرمان على كوكبة من الفرسان تضمّ حوالي ستمائة من العرب والإفريقيّين ، قادمة من جرجنت ، ثم رجعوا إلى تروانا محمّلين بالغنائم ، بعدما قاموا بعدة غارات ناجحة[7].

وحول دور أيّوب ، ليس لدينا سوى الرواية المبهمة التي قدّمها ابن الأثير ، وهي خالية من التواريخ بصورة تكاد تكون تامّة ، ولم يضف إليها النويري أيّ شيء.

وحسب تلك الرواية ، فقد وجّه ابن الحوّاسّ صاحب قصريانة هدايا ثمينة إلى أيّوب الذي قدم إلى جرجنت حوالي سنة 456 هـ / 1064م[8] ، ووضع قصره على ذمّته. «فلمّا قام أيّوب فيها أحبّه أهلها ، فحسده ابن الحواسّ ، فكتب إليهم ليخرجوه ، فلم يفعلوا. فسار إليه عسكره وقاتله. (فانضمّ) أهل جرجنت إلى أيّوب وقاتلوا معه. وبينما ابن الحواسّ يقاتل ، أتاه سهم فقتله ، فملّك العسكر عليهم أيّوب»[9]. وقد جرت هذه الحوادث على الأرجح قُبَيْل سنة 461 هـ / 1068 — 1069م[10]. وبايع أيّوب أهل جرجنت وقصريانة وبلرمو[11].

---

4) **ستوريا** ، 97/3.
5) نفس المرجع ، 99/3 — 103.
6) نفس المرجع ، 105/3 ؛ Chalandon ، 202/1 — 203 ؛ أماري ، **ديبلومي** ، 19.
7) **ستوريا** ، 106/3 — 107.
8) نفس المرجع ، 112/3.
9) **الكامل** ، 81/10.
10) Courtois ، **غريغوار السابع** ، 221 ، الإحالة 2.
11) Chalandon ، 205/1.

إلاّ أنّنا لا نعلم متى ولماذا غادر أيّوب بلرمو، ولا ندري هل رجع إليها، أم بقي في جرجنت أم تحوّل إلى قصريانة. والغالب على الظنّ أنّ سلطة ذلك الملك المزعوم لم تدم طويلاً.

فقد وقع بعد ذلك بين أهل المدينة (بلرمو) وبين عبيد تميم فتنة أدّت إلى القتال. ثم زاد الشرّ بينهم، فاجتمع أيّوب وعليّ أخوه ورجعا في الأسطول إلى إفريقيّة بسنة إحدى وستّين (1068 – 1069) وصحبهم جماعة من أعيان صقليّة والأسطوليّة»[12].

وحسب مصدر مسيحي[13]، وجّه الإفريقيّون، وبالأحرى بنو زيري حوالي شهر أوت 1071م / أواخر 463 هـ، أسطولاً لنجدة بلرمو التي كان يحاصرها جسكار. وبعد معركة تكبّد خلالها خسائر فادحة، تمكّن الأسطول من الدخول إلى الميناء. ولكن بعد حصار طويل، اضطرّت بلرمو التي استولى عليها الجوع إلى الاستسلام يوم 8 جانفي 1072م / 13 ربيع الثاني سنة 464 هـ[14].

وبعد ذلك بمُدّة، قُتِل القائد النّرماني سارلون، ابن أخي جسكار ورُجَار الأوّل، بينما كان يتصدّى لغارة بعض الفرسان العرب. وقد أُرْسِل رأسه إلى تميم، فَوُضِع في طرف عمود وطِيفَ به في شوارع المهديّة، حيث أُعْلِنَ أن هلاك هذا القائد النّرماني سيسهّل إعادة فتح صقليّة[15].

«وفي سنة 465 هـ (17 سبتمبر 1072 – 5 سبتمبر 1073م) وصلت إلى مدينة صفاقس مراكب شرقيّة، فأخرج إليها السلطان تميم بن المعزّ أسطوله من المهديّة، فأفسدها»[16].

ومنذ الاستيلاء على بلرمو لم يسجّل الغزو النّرماني أيّ تقدّم جدير بالذكر. ذلك أنّ المسلمين لا يزالون مسيطرين على وسط صقليّة وجنوبها. وقد تمكّنوا من البقاء في طرفَيْ الجزيرة: في تاورمينا وتراباني. ويرى أماري أنّ مسلمي صقليّة الذين شحذت همّتهم المحنة وشجّعهم بنو زيري، قد ثاروا من جديد حوالي سنة 1074م / 466 – 467 هـ. وقد أشارت

12) **الكامل**، المصدر السابق. والمقصود بالأسطولية البحّارة.

13) Courtois، المرجع المذكور، 221.

14) **ستوريا**، 117/3 – 133؛ Chalandon، 205/1 – 209، وبالخصوص 207؛ Courtois، المرجع السابق، 221.

15) **ستوريا**، 134/3 – 138، وبالخصوص 137.

16) **البيان**، 300/1، رغم غموض العبارة يمكن أن يكون الأمر متعلّقًا بمراكب بيزنطية لا فاطميّة.

المصادر المسيحيّة إلى حملتَيْن زيريّتَيْن : الأولى في نِقُوطرة والثانية في مازرة ، ولكنّ المؤلّفين العرب لم يتطرّقوا إليهما[17] .

ففي 28 و 29 جوان 1074م / 1 و 2 ذو القعدة سنة 466هـ انقضّ أسطول تميم الذي كان يتجوّل في المياه الصقلّيّة ، فجأة على نقوطرة الواقعة في منطقة قلبرية ، فغنم غنائم وافرة وسبى بعض الأسرى ، ثم أطلق سبيلهم مقابل فدية وقفل راجعًا إلى المهديّة.

وفي سنة ذ107م / 467 – 468هـ نزل بعض الجنود الزيريّين في مازرة وحاصروا قلعتها مدّة ثماني أيّام ، مقرّين العزم على احتلال المدينة . ولكن رُجَار الأوّل الذي استدعاه بعض المبعوثين ، قد قدم على جناح السرعة ، مصحوبًا بفرقة عسكريّة عتيدة ، ودخل إلى القلعة ، محرزًا انتصارًا باهرًا منذ اليوم التاسع من الحصار. وقد دارت رحى المعركة وسط ساحة تقع في أسفل القلعة. وتمكّن العاهل النّرماني الخبير بالخطط الحربيّة من إلقاء المغيرين في البحر وسبي عدد كبير منهم. وقد أكّدت بعض الرّوايات المسيحيّة – رغم أنّ أماري قد اعتبرها خياليّة – أنّ ابن أخي ملك إفريقيا (أي أمير المهديّة) قد وقع بين أيدي المنتصرين مع مائة وخمسين سفينة. ولعلّ جسامة هذه الكارثة تفسّر إلى حدٍّ ما سكوت المصادر التاريخيّة الزيريّة ، ونجاح العمليّة العسكريّة التي قامت بها بيزة وجنوة في سنة 480هـ/ 1087م ، وانتهاء الغارات الزيريّة البالغة الأهمّيّة ، بل حتى انتهاء غزو الجزيرة.

وفي نفس هذه الفترة تقريبًا ، وربّما إثر هاتين الغارتين المتتاليتين ، دخل رُجَار الأوّل في مفاوضات مع تميم ، حسب الافتراض القريب من الواقع ، الذي قدّمه المؤرّخ شالندون .

وخلال الأشهر الأولى من سنة 1076م / منتصف سنة 468هـ ، تفاوض البابا جرجير السابع مع خصوم تميم ، أي النّاصر بن حمّاد والنّرمان بصقليّة[18] .

وأثناء حصار تاورمينا ، ظهرت في البحر حوالي سنة 1078م / 470 – 471هـ ، أربع عشرة سفينة حربيّة تابعة لأسطول تميم ، وأجاب الأسطول الصغير عن استفسارات رُجَار الأوّل ، أنّه لا تحدوه أيّة نيّة عدوانيّة ، وبالفعل فإنّه ما لبث أن اختفى[19] .

وفي أواخر ماي 1086م / أوائل 479هـ ، أثناء العمليّات التي سبقت حصار سرقوسة ، انتصر رُجَار الأوّل على أسطول بينافير (Benavert) الذي غرق أثناء المعركة . وحسب أقوال

17) Chalandon ، 328/1 ، 331 – 332 والإحالة 2 ، ص 153 ؛ Courtois ، غريغوار السابع ، 221 والإحالة 4 .

18) Courtois ، المرجع المذكور، 221 و Schaube ، 44 .

19) De Malterra ، 3 ، 17 ؛ في ستوريا ، 159/3 – 160 ؛ Chalandon ، 332/1 ؛ Courtois ، المرجع السابق ، 224 .

مؤرّخ مسيحي مجهول، أخرج الكونت جثة الأمير وبعث بها إلى تميم في المهديّة[20].

ومن ناحية أخرى، أكّد مالاتيرا[21]، مؤرّخ رُجَار الرّسمي، أنّ البيسانيّين (رعايا بيزة) تمكّنوا أثناء حصار سرقوسة الذي تواصل حتى سقوط المدينة (أواخر أكتوبر 1086م / رجب 478هـ)، من الاستيلاء على عاصمة تميم، باستثناء الحصن، للانتقام من إهانة قد لحقتهم. وبعدما يئسوا من إمكانية الاستيلاء على ذلك الحصن والمحافظة على المدينة، عرضوها على الكونت، فرفض العرض، متعلّلاً بالاتفاق الذي يربطه بابن زيري. وقد فنّد أماري هذه الرواية وبيّن أنّ البيسانيّين لم يعرضوا المهديّة للبيع في سنة 1086م / 478 — 479هـ، لأنهم لم يستحوذوا عليها إلا في السنة الموالية. إلاّ أنّه من الممكن أن نستخلص من ذلك أنّ استعدادات التحالف بين بيزة وجنوة قد سبقت احتلال سرقوسة.

حملة بيزة وجنوة ضدّ المهديّة (480هـ/1087م)[22]:

لقد أصبحت غزوات بني زيري البحريّة المتزايدة أكثر فأكثر، تهدّد بالخطر النشاط في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط، حتى آلت في آخر الأمر إلى شنّ «حرب صليبيّة تمهيديّة» حقيقيّة ضدّ المهديّة[23]. فقد كان من اللاّزم القضاء على ذلك الجحر الذي يأوي إليه القراصنة وإطلاق سراح عدد لا يحصى من الأسرى النّصارى، وفرض احترام الاتّفاقيّات المبرمة مع الإيطاليين والتي ما فتئ تميم ينتهكها. وربّما إثر المعاملات السيّئة التي كان يتعرّض لها تجّارها[24]، طلبت بيزة إلى جنوة التحالف معها للقيام بعمل مشترك شبيه بالعمليّة الموفّقة التي قامت بها الجمهوريّتان قبل ذلك بستّين سنة في سردانية ضدّ مُجَاهِد. والتمس ذلك التحالف المعونة من الملاّحين الإيطاليّين، كما حظي بمباركة البابا فيكتور

20) ستوريا، 169/3 والإحالة 3؛ Chalandon، (39/1) لم يتحدّث عن إرسال الجثّة.
21) ستوريا، 170/3 والإحالة 1؛ Courtois، المرجع المذكور، 224، الإحالة 2.
22) رحلة التجاني، 331 — 332، نقلاً عن المؤرّخ الزيري أبي الصّلت؛ البيان، 301/1، نقلاً عن نفس المؤلّف؛ الحلل، 240/1 — 241، نقل المؤلّف ما جاء في الرحلة؛ الكامل، 68/10؛ العبر، 487 — 488؛ أعمال، 457؛ المؤنس، 84 — 85؛ Courtois، غريغوار السابع...، 224 — 225؛ Heyd، 121/1 — 122؛ Schaube، 49 — 52؛ Lacour Gayet، 225/2؛ Pirenne، 183؛ برنشفيك، Initiation à la Tunisie، 88.
23) على حدّ تعبير برنشفيك، المرجع السابق.
24) حسب ما أكّده Heyd، ص 121.

الثالث ، رئيس دير جبل كاسينو سابقًا[25]. ومن الصعب تحديد المدّة التي تطلّبتها الاستعدادات لتلك الحملة[26].

والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ النّرمان الذين كانوا آنذاك في حالة هدنة مع تميم ، وكانوا مشغولين بإنهاء غزو صقليّة ، لم يشاركوا في تلك المؤامرة[27].

وقد عُيّنَ المسمّى بينيدكتوس ، أسقف مودينو(؟) على رأس الحملة العسكريّة[28]. كما انضمّ إليها بعض أهل أمالفي بقيادة بنتاليون وأهل رومة بقيادة المدعو بياترو[29]. وكان جيش النصارى الذي قدّرت المصادر العربيّة عدده بثلاثين ألف رجل ، من بينهم بلا شكّ مجذّفو القوارب ، يضمّ في معظمه البيسانيّين والجنويّين. وتجمّع الأسطول المسيحي المتركّب من ثلاثمائة سفينة على أقلّ تقدير[30] في قوصرة (بنتلارية) ، سنة 480 هـ / 7 أفريل 1087 — 26 مارس 1088م. وأوضح أبو الصّلت «أنّ الشّمس قد كسفت في هذا اليوم ببرج الأسد طالع تخطيط المهديّة ، كسوفًا كلّيًا»[31]. ويتعلّق الأمر بكسوف الشمس يوم أوّل أوت 1087م / 27 ربيع الثاني سنة 480 هـ. وبناء على ذلك فإنّ تاريخ تلك الحملة الأقرب من الواقع يصادف أوائل سنة 480 هـ / صائفة سنة 1087م.

«فكتب أهل قوصرة كتابًا على جناح طائر يذكرون وصول البيسانيّين والجنويّين وعددهم وحكمهم على الجزيرة»[32].

«فأراد تميم أن يسيّر عثمان بن سعيد المعروف بالمُهْر ، مقدّم الأسطول [أمير البحر]

---

25) Courtois ، غريغوار السابع ... ، 224 — 225 .

26) الكامل ، 68/10 : «أربع سنوات». لا شكّ أنّ المصدر الإسلامي الذي اعتمده ابن الأثير ولم يذكر عنوانه كعادته ، قد بالغ في ذلك ، ليبيّن أنّ الأمير الزيري لا يستطيع مقاومة مثل هذه الحملة التي تمّ إعدادها خلال مدة طويلة. وبالعكس من ذلك فقد أكّد غيدو Guido في أبيات شعر باللغة اللاتينيّة أنّ الاستعدادات دامت 3 أشهر (ستوريا ، 171/3 ، الإحالة 3).

27) Courtois ، المرجع المذكور ، 224 — 225 .

28) Heyd ، 121/1 ؛ Pirenne ، 183 ؛ Schaube ، 50 .

29) Heyd ، 121/1 — 122 والإحالة 2 ؛ ستوريا ، 171 والإحالة 4 .

30) رحلة التجاني ، والحلل والبيان والكامل والنويري : 400 قطعة. وتحدّث الشاعر غيدو في قصيدته اللاتينيّة عن 1000 سفينة !

31) رحلة التجاني والحلل والبيان. وذكر ابن خلدون أيضًا سنة «480 هـ» ؛ الكامل ، النويري ، المؤنس : «481 هـ».

32) الكامل ، فحسب .

يمنعهم من النزول ، فمنعه من ذلك بعض قوّاده اسمه عبد الله بن منكوت[33] لعداوة بينه وبين المهر»[34] .

فاستولى المغيرون على المهديّة وزويلة ونهبوهما وأحرقوهما ولم يتعرّضوا – حسبما يبدو – لأيّة مقاومة جدّيّة[35] . ولم يكتف أبو الصّلت بالاستشهاد بالفلك وبمشيئة الله تعالى وبتقاعس الوزير ، لتفسير تلك الكارثة ، بل أضاف إلى ذلك الأسباب التالية ، وهي : «غيبة عسكر السلطان عن المهديّة ، ومفاجأة الروم دون استعداد لهم وأخذ أهبة للقائهم ، وخلوّ كافّة الناس من الأسلحة والعُدَد ، وقِصَر الأسوار وتهديمها ، وتكذيب تميم مع ذلك بما يرد عليه من أخبار النّصارى»[36] . ولا شكّ أنّ هذه الأسباب معقولة ، إلاّ أنّ المؤرّخ الرسمي لدولة بني زيري قد فاته أن يعيد إلى الأذهان أنّ المهديّة كانت مدينة حصينة ، وذلك ما يفسّر قلّة احتياطات الصنهاجيّين.

ذلك أن تحصينات قصر المهديّ الذي اعتصم به تميم قد سمحت بالتصدّي لهجومات العدوّ العنيفة في أوت 1087م ، إلاّ أنّ تميمًا قد اضطرّ في آخر الأمر إلى طلب الصلح وقبول الشروط القاسية التي فرضها عليه العدوّ المنتصر. فقد أُجْبِر على دفع مبلغ طائل قدّرته أغلب المصادر بمائة ألف دينار[37] . وأضاف أحد تلك المصادر[38] أنّ جزءًا من ذلك المبلغ قد دُفِعَ نقدًا والآخر في شكل أوانٍ ذهبيّة وفضيّة ، وهذا ما يبرّر أهميّة الرقم المقدّم. وأكّدت بعض المصادر[39] أنّ تميمًا قد تحصّل على إطلاق سراح الأسرى المسلمين ، في حين ادّعت بعض المصادر الأخرى عكس ذلك[40] .

---

33) وفي **البيان** ، 301/1 : «منكور».

34) **الكامل** ، المرجع المذكور.

35) نجد صدّى لنهب زويلة والمهديّة ، مع الإشارة إلى سنة 480هـ ، في فتوى أصدرها المازري حول مسؤولية المراهنين والصنّاع ، **المعيار** ، 205/8 .

36) **رحلة التجاني** ، 331 .

37) التجاني و**الحلل** و**العبر**. أمّا ابن عذاري الذي سكت عن معاهدة الصلح ، فإنّه لم يذكر أيّ رقم ؛ **الكامل** : «30000 دينار» ؛ النويري : «80000 دينار» (هناك خلط بين هاتين القراءتين).

38) **أعمال**.

39) أشار مؤلّفان شرقيّان ، قد أخذ كلّ واحد منهما عن الآخر أو استقيا معلوماتهما من مصدر واحد ، (لعلّه ابن شدّاد) إلى أنّ الرّوم قد تعهّدوا بارجاع جميع الأسرى. **الكامل** ، 68/10 : «ثم صالح تميم الرّوم على ثلاثين ألف دينار وردّ جميع ما حَوَوْه من السّبي» ؛ النويري ، 156/2 : «فصالح تميم الروم على ثمانين ألف دينار وبشرط أن يردّوا جميع ما حووه من السبي ، ففعلوا ذلك».

40) **أعمال** ، 457 : «وأقلعوا بذلك وبأموال الناس ونسائهم» ؛ **رحلة التجاني** ، 332 و**الحلل** ، 241/1 : «وأقلعوا بأموال =

وأقلع النّصارى مُزَوَّدين بغنائم وافرة من الذهب والفضّة والأقمشة الثّمينة والسروج البرونزيّة[41]. أضف إلى ذلك أنّ تميمًا قد منح امتيازات تجاريّة للبيسانيّين والجنويّين.

وبعد هذا الانتصار بقليل، شيّد أهل بيزة كنيستهم الكتدرائيّة واستعملوا في بنائها بعض الذخائر التي نقلوها من المهديّة[43]. وقد أشاد النّصارى بهذا النصر الباهر، لا سيما في القرن الثاني عشر على لسان غيدو (Guido)، في شكلُ أبيات شعر باللاّتينيّة[44]، في حين أوحت هذه الواقعة إلى الشاعر أبي الحسن بن محمد بن الحدّاد بمرثية طويلة[45].

وهناك وثيقة تابعة للمحفوظات الإيطاليّة تدّعي أنّ أحد أبناء «تميم ملك إفريقيّة»[46]، قد أدّى اليمين رسميًّا باسم مدينة بيزة، بمناسبة المعاهدة المبرمة بيْن بيزة وأمالفي في سنة 1126 / 520 هـ. ونحن نفترض مع شوب أنّ ذلك الإبن قد أتى به البيسانيّون صغيرًا – ولِمَ لا في سنة 1087 / 480 هـ[47] – وتربّى على الديانة المسيحيّة. ولكن من الحكمة أن لا نؤلّف رواية خياليّة على أساس هذه الإشارة البسيطة. ولنقتصر على التذكير بأنّ تميمًا كان يملك عددًا كبيرًا من الجواري المسيحيّات، ولم يكن يفتقر إلى الأبناء! «فقد خلّف من الأولاد الذكور ما جاوز عددهم المائة»[48].

بعد سنة 480 هـ/1087م :

بعدما ذكر ابن الأثير «أنّ الفرنج ملكوا جزيرة صقليّة سنة أربع وثمانين وأربعمائة (1091–1092) وتطرّقوا إلى أطراف إفريقيّة، فملكوا منها شيئًا وأُخِذَ منهم، ثم ملكوا غيره»، أضاف قائلاً :

= المسلمين ونسائهم وأبنائهم». ويمكن أن يكون المقصود بذلك أموال الناس وأموال نسائهم وأولادهم. ويمكن أن يكون المقصود بذلك أيضًا : وأقلعوا بأموال الناس، وبنسائهم وبأبنائهم. أنظر: ستوريا، 174/3.

41) ستوريا، 172/3 – 173.

42) نفس المصدر.

43) Pirenne، 183.

44) ستوريا، 173/3 والإحالة 1.

45) رحلة التجاني، ص 332.

46) Schaube، 52 والإحالة 2.

47) أنظر الباب الثالث، الفصل السابع.

48) البيان، 304/1.

«فلمّا كان سنة تسعين وأربعمائة (1096 – 1097) خرجوا إلى بلاد الشام ، وكان سبب خروجهم أنّ ملكهم بردويل (بودوان) جمع جمعًا كثيرًا من الفرنج ، وكان نسيب [صهر] رُجَار الفرنجي الذي ملك صقليّة ، فأرسل إلى رُجَار يقول له : «قد جمعتُ جمعًا كثيرًا وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقيّة أفتحها وأكون مجاورًا لك» . فجمع رُجَار أصحابه واستشارهم في ذلك وقالوا : «وحقّ الانجيل ، هذا جيّد لنا ولهم وتصبح البلاد بلاد النصرانيّة» . فرفع رجله وحبق حبقة عظيمة [ضَرَط] ، وقال : «وحقّ ديني ! هذه خير من كلامكم» . قالوا : «وكيف ذلك ؟» . قال : «إذا وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقيّة وعساكر من عندي أيضًا . فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤونة لهم من صقليّة ، وينقطع عنّي ما يصل من المال من ثمن الغلاّت كل سنة . وإن لم يفلحوا ، رجعوا إلى بلادي وتأذّيت بهم ، ويقول تميم غدرتَ بي ونقضتَ عهدي ، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا ، وبلاد إفريقيّة باقية لنا ، متى وجدنا قوّة أخذناها» . وأحضر رسوله وقال له : «إذا عزمتم على جهاد المسلمين، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس ، تخلّصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر. وأما إفريقيّة فبيني وبين أهلها أَيْمان وعهود» . فتجهّزوا وخرجوا إلى الشام[49] .

وأقلّ ما يمكن أن يُقال في هذه الرواية أنّها مُريبَة . فقد لاحظ أماري أنّ الإشارة إلى أطماع النرمان في إفريقيّة ، وذكر اسم بردويل الذي يطلقه الإخباريّون المسلمون على الأمبراطور أوتون الثاني ، يسمحان لنا للوهلة الأولى بأن نفترض أنّ الراوي قد ارتكب خطأً تاريخيًّا حين خلط بين الكونت رُجَار الأوّل وابنه رُجَار الثاني وبين الصليبيّة الأولى والصليبيّة الثانية . إذ يبدو أنّ بعض التفاصيل المتعلّقة بإفريقيّة قد أضيفت في تاريخ لاحق إلى الرواية الأصليّة التي حافظت مع ذلك على فظاظتها الملائمة جدًّا لطبائع الكونت . ومن الممكن أن يكون الرّواة المسلمون قد خلطوا أيضًا بين جوابَيْن بالرّفض ، أجاب بهما الكونت العجوز: المرّة الأولى عندما رفض تلبية طلب البيسانيّين والجنويّين الذين ألّحوا عليه في الانضمام إليهم للهجوم على المهديّة ، والمرّة الثانية عندما رفض الاستجابة لنداء أروبا ، حيث كانت تدوّي صيحة : «الله يريد ذلك»[50] .

---

49) الكامل ، 10/112 – 113.

50) حول المفاوضات التي جرت في أواخر سنة 1112 بين رجار الثاني وبودوان ملك بيت المقدس أنظر : Chalandon ، 1/360 – 361.

ولمّا توفّي رُجَار الأوّل (جوان 1101 – شعبان 494 هـ) ، خلفه ابنه رُجَار الثاني[51] .

وقد أشار مؤلّف واحد إلى «وصول الرُّمانيّين إلى المهديّة[52] بأجفان كثيرة حربيّة ، تُسمّى الشواني ، ومعهم ثمانية وعشرون مركبًا[53] . وكان قصدهم أن يجدوا فرصة كما وجدها الرّوم المتقدّم ذكرهم[54] . فقصدوا إلى باب دار الصناعة ، ليمنعوا أسطول المهديّة من الخروج إليهم . فهزموهم وقتلوا كثيرًا منهم»[55] .

---

51) **ستوريا** ، 197/3 والإحالة 3 .

52) **البيان** ، 302/1 – 303 : «وصل الرُّمانيّون إلى المهديّة» . ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بالبيزنطيّين . ففي **البيان** وفي غيره من المصادر العربيّة يطلق على النّصارى ولا سيما منهم الايطاليّين والصقلّيين اسم الرّوم . ويعتقد شالندون (370/1) أنّ الأمر يتعلّق بحملة عسكريّة قامت بها بيزة أو جنوة .

53) **البيان** ، المرجع السابق . في مخطوطة ليدن : 23 مركبًا عوض 28 في طبعة كولان وليفي بروفنسال ، لا محالة حسب مخطوطة كولان .

54) أي أنهم أرادوا تجديد ما أحرزه أهل بيزة وجنوة من انتصار باهر سنة 480 هـ ، ذلك الانتصار الذي ما زال عالقًا آنذاك بأذهان النّصارى .

55) **البيان** ، 302 – 303 .

الفصل السابع
نهاية عهد تميم

حصار قابس[1] :

في سنة 474 هـ / 11 جوان 1081 — 31 ماي 1082م، «حاصر تميم بن المعزّ مدينة قابس حصارًا شديدًا (دون أن يتمكّن من احتلالها). وضيّق على أهلها وعاث عساكره في بساتينها المعروفة بالغابة، فأفسدها»[2].

الهجوم على تميم[3] :

وفي سنة 476 هـ / 21 ماي 1083 — 9 ماي 1084م، تحالف إبراهيم بن محمد بن وليّة الصنهاجي والي قابس المستقلّ مع مجموعة كبيرة من الأعراب، بقيادة مالك بن علوي (أو علوان)[3م] الصخري، ضدّ تميم[4]. وبما أنّ بني صخر هم من الأثبج[5]، فالغالب على الظنّ أنّ الأمر كان يتعلّق أساسًا بثورة هذه القبيلة الهلاليّة التي ما زالت قويّة في المغرب الأوسط، واستمرّت في القيام بدورٍ ما في إفريقيّة، رغم تفوّق خصومهم بني رياح الذين يمثّلون أهمّ أعوان ابن زيري من العرب.

وقد حاصر إبراهيم ومالك المهديّة، «فأرسل تميم إلى أحلافه من الأعراب أموالاً، فهجموا على عسكر إبراهيم، وخرج تميم بمن معه من جنده، فهجم عليه من الجهة الأخرى،

1) **الكامل**، 49/10؛ **العبر**، 160/6؛ **البيان**، 300/1. وفي هذا الكتاب الأخير ورد غلطًا ذكر صفاقس عوض قابس. **المؤنس**، 84 — 85.

2) **الكامل**، المصدر المذكور.

3) **رحلة التجاني**، 331؛ **الكامل**، 53/10؛ النويري، 155/2؛ **البيان**، 300/1.

3م) التجاني : «علوان». المصادر الأخرى وبعض مخطوطات **الرحلة** : «علوي». [**المؤنس**: «مالك بن علي»].

4) حسب التجاني، وهو المصدر الوحيد الذي تحدّث عن دور إبراهيم بن محمّد.

5) أولاد صخر هم من الأثبج التابعين لبني عياض. أنظر: **العبر**، 24/6.

فانهزم إبراهيم هزيمة فاحشة ، ورجع إبراهيم إلى قابس ، وفرّ ابن علوان إلى القيروان . فتوجّه إليه تميم ومن معه من الأعراب فحصروه بها»[6]. ولمّا لاحظ مالك استحالة المحاولة ، لا محالة بسبب قلّة عدد الجنود ونقص التحصينات (رغم أنّ قائد بن ميمون قد جدّدها قبل ذلك) ، خرج من المدينة هاربًا تحت جنح الظلام.

فاستولى جيش تميم على القيروان التي عادت من جُديد تحت سلطة بني زيري . ثم رجع تميم إلى المهديّة وتحوّل مالك إلى قابس ، بلا شكّ ، وقد رأى تميم من الصالح ، في تاريخ غير محدّد ، ولكن على الأرجح قبل سنة 479 هـ / 1086—1087م ، أن يبرم معه اتّفاقًا لا نعرف فحواه[7].

الحملة العسكريّة ضدّ قابس وصفاقس[8] :

وفي سنة 479 هـ / 18 أفريل 1086 — 7 أفريل 1087 ، حاصر تميم قابس وصفاقس في نفس الوقت. ولكن يبدو أنّ هذا الحصار الذي قال عنه ابن عذاري «أنّه لم يُسْمَعْ بمثله»[9] ، لم يُكَلَّل بأدنى نجاح. فقد ظلّت صفاقس حينئذ تحت سلطة حمّو بن مليل.

وحسب ابن خلدون ، حاصر تميم 'قاضي[10] بن محمّد الصنهاجي والي قابس منذ وفاة أخيه إبراهيم. وبما أنّنا نجهل تاريخ وفاة هذا الأخير، فمن الصعب أن نؤكّد هل أنّ المؤرّخ يشير إلى حملة سنة 479 هـ أم إلى حملة سنة 486 هـ. ومهما يكن من أمر ، فإنّ أحد هذين الأخوَيْن من إخوان المعزّ بن محمّد بن ولميّة الصنهاجي هو الذي كان على رأس تلك المدينة التي كان تميم يطمع في احتلالها.

إلاّ أنّ الحملة التي قامت بها بيزة وجنوة سنة 480 هـ ، فأضعفت تميمًا وأثّرت تأثيرًا كبيرًا في هيبته ، قد أجبرته على وضع حدّ لحملاته العسكرية طوال عدة سنوات. فرأى مالك بن علوي الوقت مناسبًا للقيام بعمليّة حربيّة.

---

6) **رحلة التجاني** ، 331.

7) حسب **الكامل** ، ولا شكّ أنّ هذا الصلح قد أبرم سنة 482 هـ / 1089—1090م.

8) **الكامل** ، 65/10 ؛ **البيان** ، 300/1 ؛ **العبر** ، 160/6 ؛ **المؤنس** ، 84 — 85.

9) **البيان** ، المرجع المذكور.

10) **العبر**: «ماضي».

استيلاء مالك بن علوي على سوسة[11] :

في سنة 482هـ/ 16 مارس 1089 – 5 مارس 1090م ، «نقض مالك بن علوي الصخري ما بينه وبين تميم بن المعزّ بن باديس من العهد ، وسار في جمع من عشيرته العرب ، فوصل إلى مدينة سوسة وأهلها (غافلون) لم يعلموا به ، فدخلها عنوة وجرى بينه وبين من بها من العسكر والعامّة قتال ، قُتِل من الطائفتين جماعة ، وكثرَ القتل في أصحابه والأسر ، وعلم أنّه لا يتمّ له مع تميم حال ، ففارقها وخرج منها إلى خلوته في الصحراء»[12]. ومن الملاحظ أنّ تميمًا لم يتدخّل بنفسه في هذه الواقعة . ولكن حتى لو أراد التدخّل ، فإنّه لم يكن قادرًا على ذلك .

«وكان بإفريقيّة هذه السنة غلاء شديد وبقي كذلك إلى سنة أربع وثمانين (1091–1092) ، وصلحت أحوال أهلها وأخصبت ورخصت الأسعار وأكثر أهلها الزرع»[13].

«وفي سنة 486 (أول فيفري 1091 – 11 فيفري 1092) ، حاصر عسكر تميم مدينة قابس ، وأقام عليها حتى فتح ربضها»[14].

مدينة طرابلس في عهد تميم[15] :

لا تتوفّر لدينا حول مدينة طرابلس في عهد تميم ، سوى معلومات قليلة . فقد أخبرنا ابن خلدون أنّه ، بعد وفاة المنتصر بن خزرون الذي قتله عروس بن سندي ، فيما بين 460 و470هـ/ 1067 – 1078م ، تولّى فرد آخر من عائلة خزرون لم يتذكّر اسمه ، على قابس التي بقيت تحت سلطة تلك العائلة ، حتى بعد سقوط الدولة الصنهاجيّة . ومن ناحية أخرى ، أكّد

11) **الكامل** ، 10/73 – 74 ؛ **البيان** ، 1/301 .
12) **الكامل** ، المصدر المذكور.
13) نفس المصدر. أنظر أيضًا : **البيان** ، 1/302 .
14) **البيان** ، المصدر المذكور.
15) أ– **قبل سنة 470هـ : العبر** ، 7/43 – 44 ؛ **البيان** ، 1/300 ؛ **الكامل** ، 10/44 ؛ التجاني ، 263 ؛ **المؤنس** ، 84 .
ب– **في سنة 488هـ : الكامل** ، 10/99 – 100 ؛ النويري ، 2/156 .

كلٌّ من ابن الأثير وابن عذاري أنّ تميمًا قد عهد بولاية طرابلس إلى ابنه مقلّد في سنة 470 هـ / 25 جويلية 1077 – 13 جويلية 1078م. ولكنّ التجاني أشار إلى أنّ أبا محمّد عبد الله بن محمّد بن إبراهيم بن هانش الطرابلسي قاضي طرابلس منذ سنة 444 هـ / 3 ماي 1052 – 22 أفريل 1053م، قد تقلّد ولاية تلك المدينة مدة اثنين وثلاثين سنة، إلى أن عُزِلَ عنها سنة سبع وسبعين (10 ماي 1084 – 28 أفريل 1085)[16].

وبعد ذلك بمدّة طويلة، أي في سنة 488 هـ / 1095م، سلّمت مدينة طرابلس مقاليد أمورها إلى مغامر قادم من الشرق، اسمه شاه مالك[17]. «وكان شاه مالك هذا من أولاد بعض الأمراء الأتراك ببلاد الشرق، فناله في بلده أمر اقتضى خروجه منه، فسار إلى مصر في مائة فارس، فأكرمه الأفضل أمير الجيوش وأعطاه اقطاعًا ومالاً، ثم بلغه عنه أسباب أوجبت إخراجه من مصر، فخرج هو وأصحابه هاربين، فاحتالوا حتى أخذوا سلاحًا وخيلاً وتوجّهوا إلى المغرب، فوصلوا إلى طرابلس الغرب، وأهل البلد كارهون لواليها، فأدخلوهم البلد وأخرجوا الوالي، وصار شاه مالك أمير البلد. فسمع تميم الخبر، فأرسل العساكر إليها، فحصروها وضيّقوا على الترك، ففتحوها، ووصل شاه مالك معهم إلى المهديّة، فسُرّ به تميم وبمن معه، وقال: «وُلِد لي مائة ولد أنتفع بهم!»[18]. فهل كان تميم في حاجة إلى مرتزقة؟.

اختطاف يحيى وحصار صفاقس[19]:

وما لبث الغزّي أن اعتبر الجراية التي رتّبها له تميم زهيدة، فعلم تميم بالخبر وخشي ذلك المرتزق الذي علّق عليه آمالاً كبيرة. «فأضمر ذلك شاه مالك في نفسه. (وذات يوم من سنة 488 هـ / 1095م)، خرج يحيى بن تميم إلى الصيد في جماعة من أعيان أصحابه، نحو مائة فارس ومعه شاه مالك مع كثير من أصحابه. وكان أبوه قد تقدّم إليه أن لا يقرب شاه مالك، فلم يفعل. فلمّا أبعدوا في طلب الصيد، غدر به شاه مالك، فقبض عليه وعلى

16) **رحلة التجاني**، المصدر المذكور.

17) [حسب **البيان**، وفي **الكامل**: «شاهملك»].

18) **الكامل**، المصدر السابق.

19) **رحلة التجاني**، 70 – 71؛ **الكامل**، 100/10؛ النويري، 156/2 – 157؛ **البيان**، 302/1؛ **العبر**، 450 – 451

جماعته وتوجّه بهم هاربًا. وأفلت رجل ممّن حضر، فوصل يركض إلى تميم فأعلمه بذلك. فركب تميم وسيّر العساكر في أثرهم، فلم يدركوهم. ووصل شاه مالك بيحيى بن تميم إلى صفاقس، فركب صاحبها حمّو بن مليل، وكان قد خالف على تميم، ولقي يحيى ومشى في ركابه راجلاً وقبّل يده وعظّمه واعترف له بالعبودية وأقام عنده أيّامًا»[20].

ويمكننا أن نتساءل هل كان يحيى متواطئًا مع مختطفه. ذلك أنّ حرارة الاستقبال الذي خصّه به حمّو المتمرّد على تميم، وموقف الأب تجاه وليّ عهده فيما بعد، وما أظهره يحيى من فتور أثناء الحملة العسكريّة الموجّهة ضدّ حمّو، كلّ هذا يسمح بتأكيد الافتراض السابق الذكر، لو لم نكن على علم بما كان يتحلّى به خليفة تميم من «تعقّل». على أنّه من الممكن أن يكون يحيى البالغ من العمر آنذاك حوالي ثلاثين سنة، قد تعقّل فيما بعد.

وخلال الأيّام القليلة التي قضاها يحيى بصفاقس، «لم يذكره أباه بكلمة، وكان قد جعله وليّ عهده، فلمّا أُخِذَ أقام أبوه مقامه ابنًا له آخر اسمه مُثَنَّى».

«ثم إنّ صاحب صفاقس خاف يحيى على نفسه أن يثور معه الجند وأهل البلد ويملّكوه عليهم. فأرسل إلى تميم كتابًا يسأله في إنفاذ الأتراك وأولادهم إليه، ليرسل ابنه يحيى، ففعل ذلك بعد امتناع، وقدم يحيى فحجبه أبوه عنه مدّة، ثم أعاده إلى حاله[20م] ورضي عنه».

«ثم جهّز تميم عسكرًا إلى صفاقس ويحيى معه، فساروا إليها وحصروها برًّا وبحرًا وضيّقوا على الأتراك بها، وأقاموا عليها شهرين وفارقها الأتراك إلى قابس»[21].

«ويقال إنّ يحيى أحبّ الإبقاء على حمّو، فلم يبالغ في حصاره». وقد روى مؤرّخ بني زيري أبو الصّلت وبعض المؤرّخين الآخرين، حسب حكاية لم ينقلها التجاني بحذافيرها، من سوء الحظّ، أن حمّو قد قال: «إنّ هذا لَعجب، بالأمس أُخَلِّص يحيى من القتل، واليوم يحاصرني!»[22].

20) **الكامل** و**البيان** و**رحلة التجاني**.

20م) [أي ولاية العهد].

21) **الكامل**، المصدر المذكور.

22) **رحلة التجاني**، المصدر المذكور.

ثورة عُمَر بن المعزّ واستيلاء تميم على قابس[23] :

لقد أظهر والي قابس في عهد تميم ، قاضي بن محمّد[24] ابن وليّة من الجبروت[25] ما دفع أهل تلك المدينة إلى قتله. «وبعثوا إلى عمر بن المعزّ بن باديس[26] ، وكان مخالفًا على أخيه تميم ، فأمّروه على أنفسهم ، وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة (31 ديسمبر 1095 — 18 ديسمبر 1096). فلمّا علم تميم بولاية أخيه ، تحرّك إلى قابس وجدّ في حصارها إلى أن افتتحها ، وكان قبل ذلك متراخيًا عنها. فقيل له في ذلك ، فقال : «لمّا كان فيها قاضي أخو إبراهيم كان بمنزلة عبد من عبيدي ، فكان زواله سهلاً متى أردت. ولمّا صار ابن المعزّ بالمهديّة وابن المعزّ بقابس ، صار الملك مقسومًا وعاد شريكًا لي ، فهذا لا يكون أبدًا ما دمت حيًّا»[27].

وقد أوحى هذا الانتصار إلى الشاعر ابن محمد «خطيب سوسة»[28] بقصيدة طويلة ، جاء في أوّلها :

[كامل]

[ضحك الزمان وكان قِدْما عابسًا لمّا فتحت بجدّ سيفك قابسا
الله يعلم ما حويت ثمارها إلاّ وكان أبوك قبل الغارسا
من كان في رزق الأسنّة خاطبا كانت له قلل البلاد عرائسا
فابشر تميم بن المعزّ بفتكة تركتك من أكناف قابس قابسا][29]

---

23) رحلة التجاني ، 97 ؛ الكامل ، 106/10 ؛ النويري ، 158/2 — 159 ؛ العبر ، 160/6 ، 166 — 167 ؛ البيان ، 302/1 ؛ ابن خلّكان ، 339/1 .

24) الكامل والعبر ، 160/6 : وقد جاء فيهما غلطًا ، قاضي بن إبراهيم ، كما لو أنّه ابن ابراهيم ، والتصحيح من التجاني ، والحلل والعبر ، 166/6 .

25) العبر ، 166/6. لقد أخطأ ابن الأثير والنويري قطعًا ، عندما نسبا هذه السيرة السيّئة لا إلى قاضي بل إلى عمر بن المعزّ بن باديس ، ولذلك لم يذكر هذان المصدران أنّ أهل قابس قد قتلوا قاضي.

26) رحلة التجاني ، والعبر والبيان. الكامل والنويري : «عمرو».

27) الرحلة ، 97.

28) نقلاً عن ابن خلّكان. الكامل والنويري : «ابن خطيب سوسة». رحلة التجاني والحلل : «وفي فتح قابس يقول الشاعر...».

29) الكامل ، المصدر السابق.

ولم تذكر لنا المصادر ما كان مصير عمر، ومن العبث تقديم أيّ افتراض في هذا الشأن. فقد اكتفى ابن عذاري بالإشارة إلى أنّ تميمًا «أخرج من قابس عمر بن المعزّ أخاه»[30]. على أنّنا لا ندري ماذا وقع بالضبط في تلك المدينة إثر هذه الحملة. وقد أكّد التجاني أنّ قابس «خالفت بعد ذلك على تميم ورجعت إلى طاعة العرب، واختلف عليها [تداول] أمراؤهم، منهم مكن بن كامل بن جامع الدهماني»[31].

وأمدّنا ابن خلدون[32] بمعلومات أدقّ حول هذا الموضوع. فأكّد أنّ تميمًا قد اضطرّ إلى تسليم قابس وما والاها إلى الهلاليّين من بني زغبة، ثم افتكّها منهم خصومهم بنو رياح. وبسط مكن بن كامل بن جامع أمير المناقشة سلطانه عليها، رغم ما بذلته الدولة الصنهاجيّة من جهود لإسترجاعها. والمناقشة هم بطن من بني دهمان الذين يؤلّفون مع إخوانهم بني فادغ قبيلة بني علي الرياحيّة[33].

والجدير بالملاحظة أنّ هذا الاستيلاء العابر – والحقّ يقال – لمدينة قابس من قِبَل زغبة سنة 489 هـ / 1095 – 1096 م، يقيم الدليل على أنّ إقصاء أبناء هذه القبيلة من إفريقيّة من طرف بني رياح حوالي سنة 466 هـ / 1073 – 1075 م لم يكن تامًّا على النحو الذي ادّعاه الإخباريّون. ويمكن أن نفترض أنّ تلك القبيلة التي أُقْصِيَت نحو الجنوب الشرقيّ، قد بقيت مقيمة بناحية قابس، أو أنّها كانت تحاول آنذاك أن تسترجع كليًّا أو جزئيًّا ما قد أُخِذَ منها. ومهما يكن من أمر فإنّ إجلاء زغبة من قابس، من طرف بني رياح سنة 489 هـ كان يمثّل المرحلة الأخيرة من انتصار رياح على زغبة.

---

30) إثر غلطة مطبعيّة لا شكّ فيها. جاء في **البيان** (302/1) ما يلي: «وقد كان ولاّه أهلَها» (بالفتح) عوض «أهلُها» بالضمّ.

31) في **رحلة التجاني**: «مكي» وفي **البيان**: «مجنّ». وفي **العبر**: «مكن».

32) **العبر**، 166/6 – 167.

33) **الخريدة**، مخطوطة باريس رقم 3330 [طبعة تونس 1986، 57/1: مكي بن كامل بن جامع الهلالي من بني فادغ من بني علي. ثم من بني هلال].

ثورة مثنّى بن تميم[34] :

«كان تميم لمّا رضي عن ابنه يحيى ، عظم ذلك على ابنه الآخر المثنّى وداخله الحسد : فلم يملك نفسه. فنُقِلَ عنه إلى أبيه ما غيّر قلبه عليه ، فأمر بإخراجه من المهديّة بأهله وأصحابه»[35] .

ومن المحتمل أن تكون هذه القضيّة التي لم تذكر لنا المصادر تاريخها ، قد وقعت بعد سنة 489هـ / 1096م ، ولكن قبل سنة 493هـ / 1100م ، فقد جرى الحديث في سياقها من جهة عن مكن الذي تولّى على قابس قبل أن يستولي عليها تميم سنة 489هـ ، ومن جهة أخرى عن حمّو بن مليل الذي أُطْرِد من صفاقس سنة 493هـ.

«فركب مثنّى في البحر ومضى إلى صفاقس ، فلم يمكّنه صاحبها من الدّخول إليها»[36] . فماذا يمكن أن يجني حمّو من هذا الاستقبال ، عدا الشعور تجاه هذا الابن من أبناء تميم بنفس القلق الذي كان شعر به تجاه يحيى؟ أضف إلى ذلك أنّ مثنّى هو خصم يحيى الذي يتعاطف معه حمّو. وبعد هذا وذاك فإنّ صاحب صفاقس لا يريد إثارة غضب تميم.

«فقصد المثنّى مدينة قابس وبها أمير يقال له مكن[37] بن كامل الدهماني ، فأنزله وأكرمه. فحسّن له مثنّى الخروج معه إلى صفاقس والمهديّة ، وأطمعه فيهما وضمن الإنفاق على الجند من ماله. فجمع مكن من يمكنه جمعه وسارا إلى صفاقس ومعهما شاه مالك التركي وأصحابه. فنزلوا على صفاقس وقاتلوها. وسمع تميم ، فجرّد إليها جندًا ، فلمّا علم المثنّى ومن معه أنهم لا طاقة لهم بها ، ساروا عنها إلى المهديّة. فنزلوا عليها وقاتلوها ، وكان الذي يتولّى القتال من المهديّة يحيى بن تميم ، وظهرت منه شهامة وشجاعة وحزم وحسن تدبير ، فلم يبلغ أولئك منها غرضًا ، فعادوا خائبين ، وقد تلف ما كان مع المثنّى من مال وغيره ، وعظم أمر يحيى وصار هو المشار إليه»[38] .

34) النويري ، 157/2 - 158 ؛ **الكامل** ، 100/10 ؛ **العبر** ، 166/6 - 167.

35) **الكامل** ، المصدر السابق.

36) نفس المصدر.

37) [في **الكامل** : «مكين»].

38) **الكامل** ، المصدر المذكور.

الحملات العسكريّة الأخرى وطرد عدي من طرف رياح[39] :

في سنة 491 هـ / 9 ديسمبر 1097 – 27 نوفمبر 1089م ، بالرغم من المجاعة الشديدة التي اجتاحت إفريقيّة في تلك السنة ، فتح تميم جربة[40] وجزيرة قرقنة ومدينة تونس[41] . فهل أنّ هذا الترتيب الذي أوردته المصادر مطابق للتسلسل التاريخي؟ ومهما يكن من أمر فإننا نستغرب من هذه الإشارة الخاطفة إلى مدينة ابن خراسان[42] ، إلى حدّ أننا نتساءل هل أنّ الأمر يتعلّق فعلاً بمدينة تونس؟ ولكن كم مرّة لا يخصّص الإخباريّون سوى كلمة واحدة لبعض الأحداث الهامّة[43] ، إن لم يغضّوا عنها الطرف تمامًا ، ويفيضون في الحديث عن جزئيّات لا قيمة لها !

من ذلك مثلاً أنّ ابن عذاري[44] ، بعدما أشار إلى فتح جزيرة قرقنة ومدينة تونس ، أضاف قائلاً : «وخرجت عدي من إفريقيّة أمام رياح» . والحال أنّ الأمر يتعلّق بإقرار تفوّق رياح عى منافسيهم الهلاليّين : زغبة وعدي . وقد كان بودّنا لو أعطانا المؤلّف معلومات مفصّلة حول ظروف هذا الإقصاء الجديد لعدي . والجدير بالتذكير أنّ بيع القيروان (466 – 470 هـ / 1073 – 1078م) وتولية الأمير الدهماني مكن بن كامل بقابس ، قد تخلّلا التوسّع الرياحي بإفريقيّة في عهد تميم .

وفي سنة 500 هـ / 1106 – 1107م ، سقطت مدينة باجة في قبضة بطن من بطون رياح ، وهم بنو الأخضر . «وقد قُتِل خلق كثير» في هذه الغزوة التي قاموا بها غدرًا[45] .

---

39) **البيان** ، 302/1 ؛ **الكامل** ، 115/10 ؛ النويري ، 159/2 .

40) **الكامل** والنويري . وهناك نقص في **البيان** .

41) **الكامل** ، النويري ، **البيان** ؛ **البلدان** ، 529/8 **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 .

42) في سنة 460 هـ دخلت مدينة تونس في طاعة تميم .

43) مثلاً : لقد ذكر ابن بسّام عرضًا رجوع المعزّ إلى الحظيرة الفاطميّة في سنة 446 هـ .

44) **البيان** ، 302/1 .

45) نفس المصدر ، 303/1 .

فتح مدينة صفاقس[46] :

لم يتمكّن تميم إلاّ في سنة 493 هـ / 17 نوفمبر 1099 – 5 نوفمبر 1100 م ، من كسر شوكة أمير صفاقس الشهير حمّو بن مليل الذي ما فتئ يواجهه منذ حوالي أربعين سنة ، سواء بصورة مباشرة أو بواسطة الغير.

وهناك نقيشتان تحلّيان واجهة الجامع الكبير بصفاقس[47] ، الأولى مؤرّخة في سنة 378 هـ / 21 أفريل 988 – 10 أفريل 989 م ، أي في عهد المنصور بن بلكين ، تشير إلى إتمام بناء الجامع . وقد أزيل اسم المؤسّس وجزء من النصّ (لعلّه يتضمّن عبارات شيعيّة) ، بإذن من الأمير حمّو بن مليل الذي نسب لنفسه بناء هذا الجامع أو تجميله وترميمه في نقيشة ثانية مجاورة للأولى . وقد جاء فيها أنّ الأشغال قد تمّت في سنة 478 هـ / 29 أفريل 1085 – 17 أفريل 1086 م ، بأمرٍ من الأمير فخر المُلْك وكَفِيه ، أبي المنصور حمّو بن مليل.

وهكذا فقد كان هذا الأمير البرغواطي يريد أن يظهر بمظهر الملك الحقيقي.

ولقد اختار حمّو وزيرًا له يُعرَف باسم مظفّر بن علي ، «وهو من كتّاب المعزّ ، كان حسن الرأي والتدبير ، فاستقامت به دولته ، وعظم شأنه»[48] . واشتهر هذا الوزير بالبلاغة وحسن الكتابة.

«وقد ذكر أبو الصّلت[49] جملة ممّا تمثّل به مظفّر في الكتب عن مخدومه إلى تميم قال : أمكنت حمّو فرصة في طائفة من جند تميم ، فقتلهم بصفاقس . وكتب مظفّر في ذلك إلى تميم متمثّلاً بقول أبي الطيّب (المتنبّي)[50] :

[متقارب]

إذا كـــان أعجبكم عــــامُكم فعودوا إلى حمص في القــابـل
فـــإنّ الحسام المصيب الـــذي قُتِلتم بــــه في يـــد القـــاتـــل

---

46) **الكامل** ، 23/10 ؛ التجاني ، 72 – 73 نقلاً عن أبي الصّلت . مقديش ، [الطبعة الجديدة ، 195/2] ؛ **البيان** ، 302/1 ؛ **العبر** ، 169/6 .

47) جورج مارسي ، **الجامع الكبير بصفاقس** ، 16 – 21 .

48) **الكامل** ، المصدر المذكور.

49) ذكر هذه الرواية التجاني ونقلها عنه مقديش.

50) ناصيف اليازجي : **كتاب العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب** ، بيروت 1305 هـ ، ص 279 .

قال : وتحدّث مرّة بالمهديّة بموت حمّو وبلغه ذلك ، فأمر مظفّر أن يكتب إلى تميم في هذا المعنى فكتب إليه متمثّلاً بقول أبي الطيّب أيضًا :

[بسيط]

كم قد دُفِنْتُ وكم أُقْبِرْتُ عندكم   ثم انتفضتُ فزال القبر والكفنُ
ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن

وكتب إليه تميم يوعده ويهدّده ويتمثّل فيه بقول الشاعر :

[طويل]

ستعلم ليلى أيّ دين تداينت   وأيّ غريم للتقاضي غريمها

فراجعه عنه مظفّر بقول قيس بن ذريح :

[طويل]

ستعلم إن شطّت به غربة النّوى   وزالوا بليلى أنّ عقلك زائل

وفي رواية أخرى أنّ مظفرا تمثّل له في مراجعته عن هذا الكتب بقول جرير :

[كامل]

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أَبْشِر بطول سلامة يا مربع

وكتب إليه في إثر وقيعة كانت له عليه كتاب إيناس وإلطاف ، فراجعه متمثّلاً بقول عبد الله بن محمّد العطّار :

[رمل]

لا تَظُنَّنَّ امْرَأً أَغْضَبَهُ   سَبَبٌ ثم انقضى ذاك السَّبَبْ
سالمَ الصّدر من الحقد ولو   أَظْهَرَ الوُدَّ ولم يُبْدِ الغَضَبْ
كرماد النّار يبقى حَرُّهَا   كامِنًا فيه وإن زال اللّهَبْ»[51]

وقد اشتدّ غضب تميم ، «فأرسل إلى مظفّر يطلبه ليستخدمه ، ووعده وبالغ في استمالته ، فلم يقبل»[52]. ويبدو أنّ تميمًا قد حاول أيضًا التقرّب إلى حمّو ولم يعزم على مهاجمته إلاّ بعد أن يئس من استمالته.

---

51) **رحلة التجاني** ، 72 – 73.

52) **الكامل** ، المصدر المذكور.

ففي سنة 493هـ / 17 نوفمبر 1099 – 5 نوفمبر 1100م، «سيّر تميم جيشًا إلى حصار صفاقس، وأمر الأمير الذي جعله مقدّم الجيش (قائد الجيش) أن يهدم ما حول المدينة ويحرقه ويقطع الأشجار، سوى ما يتعلّق بذلك الوزير، فإنّه لا يتعرّض إليه ويبالغ في صيانته، ففعل ذلك. فلمّا رأى حمّو ما فعل بأملاك النّاس ما عدا الوزير، اتّهمه فقتله»[53].

وبالعكس من ذلك، أكّد أبو الصّلت[54] أنّ مظفّرًا لم يُقتَلَ. وإنّنا لا نتردّد في تفضيل رواية مؤرّخ بني زيري. فمن المحتمل أن يكون حمّو قد فكّر في قتل الوزير المشبوه فيه، ولكنّ مظفّرًا تمكّن من النّجاة بنفسه.

«وسلّم عسكر تميم المدينة، وخرج حمّو منها، وقصد مكن بن كامل الدهماني (صاحب قابس)، فأقام عنده، فأحسن إليه ولم يزل عنده حتى مات»[55].

قال أبو الصّلت : «فلمّا فرّ حمّو إلى قابس، لم يشعر تميم إلاّ ومظفّر قائم بين يديه يطلب العفو، فعفا تميم عنه مع شدّة حقده. ومثل هذا الذنب لا تغتفره الملوك، بل يجاوز التثريب فيه إلى التعذيب، ويتعدّى العقاب إلى ضرب الرّقاب»[56].

وتداول على ولاية صفاقس وُلاَةٌ مُعيَّنون من قِبَل تميم[57]. ومنذ ذلك التاريخ حتى سقوط المدينة بين أيدي النّصارى، كانٌ وُلاتُها من أفراد عائلة باديس[58].

الحملة العسكريّة ضدّ جربة[59] :

هل تُعتبَر محاولة تميم التصالح مع حمّو علامة على تعبه؟ فمن المحتمل أن يكون قد قبل إبرام تسوية مرضية للطرفين، ورضي باعتراف شكلي بحت، على غرار اعتراف ابن خراسان صاحب تونس. على أنّ مثل ذلك الاعتراف لا يمكن أن يحطّ من شأن حمّو الذي سبق له

53) نفس المصدر، أنظر أيضًا النويري.
54) **رحلة التجاني**، المصدر السابق.
55) **الكامل**، المصدر السابق.
56) **رحلة التجاني**، 71.
57) دائمًا حسب التجاني.
58) حسب ابن خلدون، **العبر**.
59) **البيان**، 303/1؛ **العبر**، 160/6.

أن دخل في طاعة بني حمّاد. إلاّ أنّ حيويّة تميم الذي سيلقى حتفه وهو في حالة عجز، قد بدأت تضعف. وعلى كلّ حال فإنّ احتلال صفاقس يمثّل ذروة عهده الذي طال أكثر من اللّزوم. واعتبارًا من سنة 493 هـ، بَدَا الأمير العجوز وكأنّه قد اكتفى بما أحرزه من نجاح. ولم يشهد العقد الأخير من عهده سوى الحملة العسكريّة الموجّهة ضدّ جربة.

ففي سنة 499 هـ / 13 سبتمبر 1105 – أوّل سبتمبر 1106 م، وجّه تميم ضدّ جربة التي شقّت عصا الطاعة في وجهه، جيشًا وأسطولاً عظيمَيْن بقيادة أبي الحسن الفهري، وهو حسب الاحتمال إمّا الشريف الذي سبقت الإشارة إليه أو أحد أقاربه. ولكنّ أهل جربة المطّلعين على الأمر، كانوا بالمرصاد، وقد كانوا أعدّوا العدّة وضمنوا الإمدادات، الأمر الذي أجبر العدوّ على العودة على أعقابه، دون أن يحرز أدنى نجاح.

وفاة تميم(60) :

توفّي تميم بالمهديّة ليلة السبت 15 رجب سنة 501 هـ / 29 فيفري 1108 م(61). فكان عمره تسعًا وسبعين سنة، وولايته حوالي سبع وأربعين سنة(62). «وخلّف من الأولاد الذكور ما جاوز عددهم المائة(63). وقيل إنه كان له من الوَلَد ووَلَد الوَلَد نحو ثلاثمائة»(64). وقد دُفِنَ في قصره ثم نُقِلَ في السنة الموالية بلا شكّ، إلى مقبرة بني زيري بالمنستير(65).

* * *

60) **أعمال**، 457 ؛ **الخريدة**، مخطوطة باريس رقم 3330 [طبعة تونس 1986، 142/1] ؛ **الكامل**، 189/10 ؛ النويري، 160/2 ؛ **البيان**، 303/1 ؛ **الحلل السندسيّة**، مخطوطة دار الكتب الوطنيّة بتونس [طبعة بيروت، 450/1] نقلاً عن كتاب أخبار القيروان لابن شدّاد، حفيد تميم بن المعزّ ؛ **البلدان**، 304/1 ؛ **نجوم**، 197/5.

61) حسب كتاب **أعمال الاعلام** الذي وردت فيه أدقّ إشارة حول تاريخ وفاة تميم، وقد أيّدها ما جاء في **الخريدة** حول هذا التاريخ.

62) من الجدير بالتذكير أنّ تميمًا قد وُلِدَ يوم الاثنين 13 رجب 422 هـ / 6 جويلية 1031 م، فتكون سنة وفاته : 422 + 79 = 501 هـ. أمّا مدة ولايته فقد قدّرت بما يلي : 46 سنة (**نجوم**) ؛ 46 سنة وعدّة أشهر (**أعمال**) ؛ 46 سنة و10 أشهر ونصفًا، من يوم وفاة أبيه (**البيان**) ؛ 46 سنة و10 أشهر و20 يومًا (**الكامل**) ؛ 47 سنة (هكذا) و10 أشهر و20 يومًا (النويري).

63) وفي **الخريدة** : 120.

64) **البيان**، 304/1.

65) حسب **الحلل** و**أعمال** : «دُفِنَ في رباط المنستير».

ولننظر في الختام إلى نتائج ولاية هذا الأمير الصنهاجي. فإنّ عاهل المهديّة لم يسترجع سوى صفاقس وسوسة. في حين تعتبر مدينة تونس التي يحكمها ابن خراسان، مستقلّة. أمّا القيروان فالغالب على الظنّ أنها كانت خاضعة لبني رياح.

كما أبرز نجاح الحملة العسكريّة التي قامت بها بيزة وجنوة قلّة مناعة المهديّة. وأفضى الصراع بين مختلف الفرق الهلاليّة إلى تفوّق بني رياح الموالين لبني زيري وطرد زغبة وعدي من إفريقيّة. أمّا الأثبج الموالون لبني حمّاد، فقد أصبحوا يسيطرون على المغرب الأوسط المعرّض لهجومات بني هلال منذ هزيمة سبيبة. وقد فتحت تلك المعركة عهد بني حمّاد في بجاية، مثلما كانت معركة حيدران قد أعلنت عن بداية عهد بني زيري في المهديّة. وبعد إبرام الصلح في سنة 470 هـ / 1077 – 1078 م توقّف أولئك وهؤلاء عن التقاتل. ولم يعد الضغط الزناتي قائمًا إلاّ غربيّ مملكة بني حمّاد.

فالجدير بالملاحظة حينئذ أنّ إفريقيّة قد أصبحت في مطلع القرن السّادس الهجري / الثاني عشر ميلادي خاضعة للغزاة الهلاليّين، وأنّ الدولة الصنهاجيّة قد أُصيبت في الصّميم.

البـاب السّـادس

الاحتضـار
وِلايات مُلوك بَني زيري الثّلاثَة
يحيىٰ وعلي والحسن

نظرة عامّة

لقد كانت مدّة ولاية يحيى (501–509 هـ/ 1108–1116 م) وعلي (509–515 هـ/ 1116–1121 م) القصيرة، بمثابة فترة هدوء دامت زهاء الخمس عشرة سنة وسبقت الكارثة التي لم يستطع تفاديها الحسن آخر ملوك بني زيري (515–543 هـ/ 1121 –1148 م).

فقد دخل يحيى في طاعة الفاطميّين واهتمّ أوّلاً وقبل كلّ شيء بالغزو في البحر، واقتفى ابنه علي أثره، ولكنّه تمكّن من إخضاع جربة وتونس وجبل وسلات ومغراوة بالجريد.

ورغم الخطر الهلالي المحدق بالقلعة، أجبر العزيز بن حماد صاحب بجاية جربة وتونس على الدخول في طاعته. وكانت أهمّ قضية في عهد علي هي قضيّة قابس التي استنجد صاحبها بملك صقلية رجار الثاني ضدّ علي، بعدما حاول منافسة أسطول المهديّة. وبفضل التحالف مع الأعراب، على وجه الخصوص، مقابل أموال طائلة، ردّ الأمير الزيري الهجوم الذي شنّه رافع على المهديّة، وأخرجه من القيروان التي استولى عليها، ولكنه لم يستطع أن يفتكّ منه قابس.

ولقد توتّرت العلاقات بين بني زيري وأهل صقلية إلى درجة أن الموت قد فاجأ عليًّا وهو ينهي استعداداته لقتال النرمان.

وأخيرًا فان مرور مؤسّس الحركة الموحّدية ابن تومرت من إفريقيّة، عند عودته من المشرق، ينبئ بظهور الدولة الجديدة التي ستسيطر على بلاد المغرب بأسرها.

وقد فشلت في آخر الأمر المؤامرات التي دبّرها الضبّاط للتحكّم في الأمير الشابّ الحسن، إلاّ أنها كانت تشير إلى ضعف الدولة الصنهاجيّة التي كانت تعيش ساعات مجدها الأخيرة، عندما أحبطت محاولة نزول النرمان بالمهديّة سنة 517هـ/ 1123م، وإثر ذلك تعاقبت الخيبات. ففي سنة 522هـ/ 1128م سقطت مدينة تونس بين أيدي بني حمّاد الذين هجموا على المهديّة ذاتها في سنة 529هـ/ 1135م. ولكنّ هذا الخطر لا قيمة له بالمقارنة مع تفاقم هجومات النّرمان الذين استولوا على جربة سنة 530هـ/ 1135م وهجموا على المهديّة، ثم أبرموا معاهدة الصلح التي كانت بمثابة الاستسلام بالنسبة إلى بني زيري (536هـ/ 1140– 1141م). واعتبارًا من سنة 537هـ/ 1141م توالت مناوشات العدوّ في إفريقيّة، من جيجل إلى طرابلس التي تمّ الاستيلاء عليها سنة 541هـ/ 1146م. ولئن تمكّن جيش ابن زيري من افتكاك قابس سنة 542هـ/ 1147م من المتمرّد الذي كان قد دخل في طاعة رجار الثاني، إلاّ أن المهديّة ستتلقى عمّا قريب الضربة القاضية.

ففي سنة 543هـ/ 1148م، استولى جرجي الانطاكي على المهديّة التي تخلّى عنها آخر ملوك بني زيري بافريقيّة. كما استولى على سوسة وصفاقس وربّما قابس. وأقام النّرمان الصقليّون في أهمّ المدن الساحليّة، من طرابلس إلى الوطن القبلي (جزيرة شريك)، شبه نظام حماية متسامح بما فيه الكفاية، تحمّله السكان بصبر مدّةً تناهز الاثني عشرة سنة.

وبعدما عدل الحسن عن الالتجاء إلى الخليفة الفاطمي، فكّر في الاحتماء بالخليفة الموحّدي عبد المؤمن بن علي. ولكن في نهاية رحلة يُرثى لها (مالقة – عنّابة – قسنطينة – بجاية)، وضعه ابن حمّاد في الإقامة الجبريّة بمدينة الجزائر (544هـ/ 1149م)، ومكث هناك إلى أن قدم الموحّدون (547هـ/ 1151م).

ذلك أنّ عبد المؤمن بن علي قد تمكّن في تلك السنة من الاستيلاء على معظم مناطق المغرب الأوسط والقضاء على مملكة بني حمّاد والقبض على آخر أمرائها، يحيى بن حمّاد. وبعدما تغلّب على آخر انتفاضة صنهاجيّة وتمكّن من القضاء على تحالف هلالي مخطر قرب سطيف (548هـ/ 1153م)، رجع عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى تاركًا المغرب الأوسط لابنه عبد الله.

والجدير بالملاحظة أن رجار الثاني صاحب صقلية الذي شعر بالخطر الموحّدي المحدق به، هو الذي شجّع تلك الانتفاضة العربيّة. وقد استولى على عنّابة (548هـ/ 1153م) التي لم يحتلّها عبد المؤمن. وبعد ذلك بقليل، استرجع جزيرة قرقنة. وإثر وفاته (أواخر 548هـ) خلفه ابنه غليوم.

وقد بدأت تتوضّح مطامع الموحّدين في المغرب الأدنى ، إذ حاول ابن عبد المؤمن عبثًا الاستيلاء على مدينة تونس (552هـ/ 1157م).

إلاّ أن تركيز السّلطة الموحّدية في المغرب الأقصى والأندلس والصعوبات التي أصبح النّرمان يتعرّضون لها في بلادهم ، وتصلّب موقفهم تجاه أهل إفريقيّة ، كلّ ذلك قد دفع هؤلاء إلى الثورة. فقد ثارت على التوالي صفاقس (551هـ/ 1156م) وجربة وجزيرة قرقنة وزويلة التي باءت محاولتها بالفشل (552هـ/ 1157م) وطرابلس (553هـ/ 1158م). وعندما دخل جيش عبد المؤمن العظيم إلى إفريقيّة سنة 554هـ/ 1159م ، لم تبق من الممتلكات النّرمانيّة في إفريقيّة سوى المهدية وزويلة وسوسة.

وإثر استسلام مدينة تونس ، بدأ حصار المهديّة التي تمّ الاستيلاء عليها بعد ذلك بستّة أشهر ، وذلك في سنة 555هـ [سنة الأخماس] / 1160م. وفي الأثناء استتبّ الهدوء في كافّة ربوع المغرب الأدنى ، بفضل عبد الله بن عبد المؤمن ، على وجه الخصوص.

ولكنّ فتح المغرب الأدنى قد كان متبوعًا ، مثل فتح المغرب الأوسط ، بانتفاضة هلاليّة كبرى ، تمّ إخمادها بحدّ السيف في جبل القرن. وابتداء من ذلك التاريخ أصبحت بلاد المغرب الشرقيّة تابعة بأسرها للدّولة الموحّديّة.

الفصل الأوّل
ولاية يحيى بن تميم
(501–509 هـ/ 1108–1116 م)

ارتقاء يحيى إلى العرش[1] :

لقد وُلِد أبو الطاهر[2] بالمهديّة يوم الجمعة 26 ذو الحجّة سنة 457 هـ/ 28 نوفمبر 1065 م[3] ، وكان عمره عندما تولّى الحكم ثلاثًا وأربعين سنة ونيفًا[4] ، وهو ابن جارية[5] .

«وكانت ولاية الأمير بالمهديّة خلافةً عن أبيه تميم يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجّة سنة سبع وتسعين وأربعمائة (26 ذو الحجّة 497 هـ/ 19 سبتمبر 1105 م) ، والطالع الدرجة السابعة من الجدي»[6]. وقد وقع الاختيار عمدًا على تاريخ عيد ميلاد الأمير لأسباب فلكيّة لا نستغربها. فهل كان الأمر يتعلّق بتاريخ تعيين يحيى بصفة وليّ للعهد؟ ذلك أن سياق الأحداث يدعونا إلى أن نفترض أن الملك العجوز تميم ، بعد عهده الطويل الذي انتهى بالخيبات ، قد عهد إلى خليفته ، قبل بضع سنوات من وفاته ، بكامل أو بعض سلطاته. أَلَم يَكُنْ أبوه المعزّ بن باديس قد رأى من الحكمة أن يتخلّى عن الحكم لفائدته في ظروف مماثلة؟

1) **البيان** ، 304/1 ؛ ابن خلّكان ، 239/2 ؛ **أعمال** ، 458 ؛ النويري ، 161/2 ؛ **الكامل** ، 189/10 ؛ **الحلّة** ، 312/1 ؛ **شذرات** ، 26/6 ؛ **العبر** ، 160/6 ؛ **المؤنس** ، 88 .

2) حسب جميع المصادر ، ما عدا **أعمال** و**الحلّة** ، إذ جاء في هذين المصدرين : أبو علي. ولا نعلم أيّ شيء عن الطّاهر ، الذي هو حسب الاحتمال ابن يحيى الأكبر ، قد توفّي قبل ارتقاء علي إلى العرش. فهل تخلّى يحيى بعد وفاة ابنه الأكبر عن كنية أبي الطاهر واتخذ كنية أبي علي ، أم أنّ هذه الكنية الأخيرة قد أطلقت عليه فيما بعد؟

3) حسب النويري : نظريًا يوم الاثنين. وفي **الحلّة** : لأربع بقين من ذي القعدة ، والصحيح هو ذو الحجة. ذلك أن الفترة الممتدّة من 26 ذو الحجة 457 هـ إلى 15 رجب 501 هـ تطابق سنّ الأمير عندما ارتقى إلى العرش.

4) **الحلّة** : 43 سنة و7 أشهر إلاّ بضعة أيّام. ابن خلّكان : 43 سنة و6 أشهر و20 يومًا.

5) ابن خلّكان ، 240/2 – 241 نقلاً عن ابن شدّاد.

6) ابن خلّكان ، 239/2 ، نظريًا يوم الاثنين.

وبعد إتمام مراسم دفن والده ، «ركب يحيى على العادة بأكابر الدولة ، وغيّر لباس الحزن ، وفرّق في النّاس أموالاً ووعدهم بالجميل ، ففرح الناس به ومدحه الشعراء»[7].

رحيل جرجي الأنطاكي

«فلمّا مات تميم خاف هذا النصراني من يحيى فخاطب رُجَار (الثاني) صاحب صقلية وأعلمه أنه يحبّ الانتقال إليه ، فوجّه رجار إليه قطعة أظهرت أنها وصلت في رسالة. فخرج هذا النصراني وأقاربه في يوم جمعة عند اجتماع الناس للصّلاة ، وتزيّوا بزيّ البحريّين ، فطلعوا إليها وتمّ لهم أمرهم ، فلم يفطن الناس لهم إلاّ وقد أقلعوا. ولما وصلوا إلى صقلية حكّمهم عبد الرحمان النصراني (كريستودولوس) صاحب أشغالها في الجبايات ، فنصحوا وأظهروا ، واحتاج رجار أن يوجّه رسولاً إلى مصر ، فأشار عبد الرحمان بجرجي هذا ، فأرسله فنصح وأقبل بذخائر ملوكيّة أَحْظَتَه عند رجار»[8]. وقد عُيّن جرجي الأنطاكي في آخر الأمر في خطّة «أمير الأمراء» ، أي الوزير الأكبر. ذلك أن العاهل النرماني لا يمكن أن يجد عونًا أحسن من وزير تميم السابق لتطبيق سياسته الإفريقيّة.

وصف يحيى[9] :

لم يخيّب يحيى ما علّق عليه الناس من آمال. وليس في سيرته ما ينفي المدائح التي خصّه بها الشعراء والمؤرّخون الرسميّون. فقد كانت أهمّ سمة من سماته هي الفطنة. وكان عادلاً ، كريمًا ، رحيمًا بالضعفاء ، شفيقًا على الفقراء يطعمهم في الشدائد ويرفق بهم ، وكان حريصًا على سعادة رعيّته ، يباشر الأمور بنفسه ، عارفًا بدخله وخرجه. «وقد ساس العرب في بلاده ، فهابوه وانكفّت أطماعهم».

---

7) ابن خلّكان ، 239/2 ؛ **المؤنس** ، 88 ؛ النويري ، 161/2 ؛ **الحلّة** ، 312/1.

8) **رحلة التجاني** ، 333.

9) **أعمال** ، 450 نقلاً عن أبي الصلت ؛ **البيان** ، 304/1 ؛ ابن خلّكان ، 240/2 – 241 ؛ النويري ، 163/2 ؛ **الكامل** ، 216/10 ؛ **الحلّة** ، 312/1 ؛ **شذرات** ، 26/4 ؛ **المؤنس** ، 88 . أنظر أيضًا **ديوان** ابن حمديس.

وكان معجبًا بنفسه ، طويل القامة ، بحاجبه خال ، حسن الوجه ، أشهل العينين ، جهوري الصّوت. وكان كثير المطالعة لكتب السِّيَر والأخبار ، عالمًا بالنجوم وأحكامها وصناعة الطبّ والكيمياء. كما كان أديبًا ، شاعرًا ، ذا حظّ وافر من اللّغة العربيّة وقواعدها. وقد نقل له ابن الأبار بعض أبيات من الشعر ، نعتها بالضعف ، مظهرًا بذلك صرامةً في الحكم ربّما كانت مفرطة[10]. في حين أكّد أبو الصلت أنه كان يتميّز بمزاج شعري وذكاء وقّاد ، ولكنّ انشغاله بأمور الدّولة لم يسمح له بنظم الشعر ، إلاّ في أوقات فراغه[11].

وكان يرعى العلوم والآداب والفنون. وقد جلبت له سمعته في هذا الميدان جموعًا غفيرة من الشّعراء الذين لم يقصّروا في مدحه ، ومن العلماء أمثال أولئك الذين زعموا أنهم من العارفين بصناعة الكيمياء ، فأبيح لهم الدخول إلى «دار العمل»[11م] ، وحاولوا اغتيال ذلك الأمير الذي نُعِتَ في كتب الملاحم «بالملك المغدور».

«قال ابن القطّان : كان لتميم بن المعزّ من الوَلَد (أي الأبناء والأحفاد) ثلاث مائة. فنفى يحيى أكبرهم إلى المشرق والمغرب والأندلس»[12].

وفي سنة 509هـ/ 27 ماي 1115م ، «عقد الأمير يحيى نكاح العزيز بالله بن المنصور صاحب القلعة وبجاية ، على بنته بَدْر الدُّجَى ، وجهّزها إليه»[13].

علاقات يحيى مع الفاطميّين :

حسب ابن خلدون ، دخل يحيى في طاعة الفاطميّين وتلقّى من الخليفة الفاطمي رسالة تهنئة وهديّة ثمينة [14]. وقد أكّد هذا الخبر غير المؤرّخ ابن عذاري الذي أشار إلى وصول سِوَار رسول صاحب مصر في سنة 505هـ/ 10 جوان 1111 — 27 جوان 1112م ، «بهديّة إلى أمير إفريقيّة يحيى بن تميم ، فتلقّاه بغاية الإكرام والاهتمام ، وأقام عنده حتى صرفه ، وأصحبه من الذخائر والألطاف ما لا يحيط به الوصف»[15].

---

10) الحلة ، 312/1.
11) أعمال ، 458.
11م) أي المخبر.
12) البيان ، 304/1.
13) نفس المصدر.
14) العبر ، 160/6.
15) البيان ، 305/1.

يحيى والبحر الأبيض المتوسّط :

استهلّ يحيى ولايته بتوجيه عسكر كثيف إلى قلعة قليبية[16] ، التي أعلن قائدها ابن محفوظ استقلاله. «فنزل يحيى على تلك القلعة التي هي أحصن قلاع إفريقية وحصرها حصارًا شديدًا ، ولم يبرح حتى فتحها (سنة 502 هـ/ 11 أوت 1108 – 30 جويلية 1109م). وكان أبو تميم قد رام فتحها فلم يقدر على ذلك»[16م].

وقد أولى يحيى بن تميم أسطوله عناية فائقة. فقد زاد في عدد السّفن وكثّر من عمليّات الغزو في البحر المتمثلة لا في عمليّات واسعة النطاق ، بل في غارات خاطفة ، ومناوشة السفن التجارية المسيحيّة بدون انقطاع ، بواسطة مجموعة صغيرة من المراكب ، لا تترك المجال لردود فعل العدوّ إلاّ في حدود ضيّقة للغاية. ذلك هو ، حسبما يبدو ، برنامج يحيى ، الذي طبّقه خلفاؤه من بعده. وبفضل تلك الخطّة التي تتضمّن أقلّ ما يمكن من المخاطر وأكثر ما يمكن من المنافع ، سمحت الغزوات البحريّة الإفريقيّة ، لما بلغت أوج نشاطها ، بتضليل العدوّ ونشر الرعب في كامل الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، والهجوم على الجمهوريات الايطاليّة المطلّة على البحر الترّيني وسواحل البروفنس بل ربّما اللنغدوك[17]. والجدير بالملاحظة أنّ جميع الشهادات متّفقة على ذلك[18]. فقد قام يحيى ، حسبما رواه ابن الخطيب ، بغزوات بحرية ضدّ الروم الذين انتهى بهم الأمر إلى طلب الصلح[19]. وأخبرنا ابن خلدون من جانبه أنّ يحيى قد أجبر الفرنج والجنويّين والسردانيّين على دفع الجزية[20] ، إلاّ أنه لا ينبغي فهم العبارة الأخيرة بمعناها الضيّق ، كما لاحظ ذلك أماري.

وفي الجملة فقد ظلّت العلاقات بين بني زيري والنرمان طيّبة. وطوال عهد يحيى ، احترمت إفريقيّة وصقليّة الصّلح المبرم بين رجار الأوّل وتميم ، ولم يعكّر صفوه فرار جرجي الأنطاكي وذويه. وقد كثّف البَلَدَان مبادلاتهما التجاريّة ، وسنرى بعد قليل أنّ بعض

---

16) في **البيان** ، 304/1 : «إقليبية».

16م) **الكامل** ، 190/10.

17) دي ماس لاتري ، **المقدمة** ، 34.

18) **ستوريا** (Storia) ، 373/3 والإحالة 4.

19) **أعمال** ، 458 والاحالة 9 ، ولعلّها إشارة إلى الصلح بين بني زيري وبيزنطة المبرم سنة 509هـ/ 1115–1116م

20) **العبر**.

المصادر قد أثبتت وجود تجّار صقليّين بالمهديّة سنة 510–511 هـ / 1117 م[21]. ولا شكّ أن العلاقات بين بني حمّاد وصقلية كانت هي أيضًا على أحسن ما يرام. فحسبما رواه بيار دياكر، قبض بعض الغزاة الافريقيّين على عدد من الرّهبان البندكتيّين المتوجّهين من سردانية إلى اليابسة. فوجّه الكونت رجار سفراء إلى صاحب القلعة الذي أطلق سراح الأسرى في الحين[22]. فلا بدّ أن يكون بنو حمّاد والنّرمان مرتبطين مع بعضهم بمعاهدات.

وفي سنة 503 هـ / 31 جويلية 1109–19 جويلية 1110 م، «جهّز يحيى بن تميم خمسة عشر شينيًّا[22م] إلى بلاد الروم، فلقيها أسطول الروم وهو كبير، فقاتلوهم وأخذوا ستّ قطع من شواني المسلمين»[23]. وأضاف ابن الأثير قائلاً: «ولم ينهزم بعد ذلك ليحيى جيش في البرّ والبحر».

وفي سنة 507 هـ / 1113 م، «وصل أسطول المهديّة بسبي كثير من بلاد الروم في ربيع الآخر، فسُرَّ بذلك يحيى بن تميم والمسلمون»[24]. كما أشارت بعض المصادر المسيحيّة إلى الغارات التي قام بها بنو زيري ضدّ سالرنو ونابولي[25].

ويشتمل **ديوان** ابن حمديس على قصيدة في مدح يحيى، نظمها سنة 509 هـ / 1115–1116 م للاحتفاء بقدوم سفير امبراطور القسطنطينيّة ألكسيس كومين إلى المهديّة[26]. وقد سلّم المبعوث البيزنطي إلى يحيى هدايا الأمبراطور مصحوبة برسالة لطلب الكفّ عن الهجوم على البلاد البيزنطيّة. وقد وصف ابن حمديس استقبال السفير وأشار إلى رسالة الأمبراطور، ثم أكّد أنّ السفير رجع بعدما أبرم الصّلح[27].

---

21) **ستوريا**، 375/3–376.

22) نفس المرجع. أنظر أيضًا: شالندون، 369/1؛ دي جينفال في، **هسبيريس (Hespéris)**، الثلاثة أشهر الثانية 1932، 1–10.

22م) وفي البيان، 305/1: «خمسة عشر غرابًا».

23) **الكامل**، 190/10.

24) **البيان**، 305/1.

25) **ستوريا**، 373/3–374 والإحالة 4؛ شالندون، 370/1.

26) **ديوان** ابن حمديس، ص 405، 407.

27) نفس المرجع، ص 405، 406.

ثورة صفاقس[28] :

«لمّا افتتح تميم صفاقس ، كانت ولاتها تتردّد من قِبَله إلى أن توفّي سنة إحدى وخمسمائة ، وولّى ابنه يحيى ، فولّى عليها ابنه أبا الفتوح[29] . فقام عليه أهلها ونهبوا قصره وأرادوا قتله ، فغضب يحيى لذلك ، وأخذ في تفريق كلمة أهل صفاقس وتشتيت شملهم . ولم يزل يوالي عليهم البؤس ، ويملأ منهم الحبوس ، إلى أن شفى نفسه منهم ، ثم عفا عنهم بعد ذلك .

وفي الوقعة يقول أبو الصلت يذكرها ويشكر ليحيى عفوه عنهم من قصيدة طويلة :

[طويل]

وربَّ أنـاس أجّجوا نـار فتنـة ... يجنّبهـا الأتقى ويُصْلَى بها الأشقى
ولـو شاء روّى السيـف منهم فطـالما ... نضاه فسقّاه من الدم ما استسقى
ولكـن دعـاه الحلم والفضل والحِجى ... إلى أن يكـون الأحلم الأكرم الأتقى
سجيّـة مجبول السجـايـا على الهوى ... إذا غضب استأنى وإن ملك استبقى

وأوّل هذه القصيدة :

قضى الله أن يفنى عداك وأن تبقى ... وتخلد حتى تملك الغرب والشّرقا»[30] .

ولم تذكر لنا المصادر التاريخ المضبوط لهذه المؤامرة المدبّرة ضدّ أبي الفتوح . وليس من المستبعد أن يكون هو نفسه الذي أشرف – بوصفه والي المدينة – على تنفيذ الإجراءات المتّخذة ضدّ المذنبين ، وأن يكون تعويضه بأخيه عليّ قد تسبّب في تغيير موقف الأمير تجاه صفاقس . ذلك أنّ الشاعر ابن حمديس قد مجّد عليًّا الذي منح الأمان لأهل صفاقس وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم[31] .

---

28) رحلة التجاني ، 73 – 74 ، ربما نقلاً عن أبي الصلت ؛ الكامل ، 202/10 ؛ النويري ، 162/2 ؛ العبر ، 160/6 .

29) حسب النويري في سنة 504هـ/.1110 – 1111م . أما المصادر الأخرى فلم تذكر أي تاريخ . ويفهم منها أن هذا التعيين قد تم إثر تولية الأمير.

30) التجاني ، 73 – 74 .

31) ديوان ابن حمديس ، ص 445 ، 447 .

ومهما يكن من أمر فان يحيى قد «ولّى (في سنة 508هـ / 1114 – 1115م) ابنه عليًّا مدينة صفاقس[32] وولّى أخاه عيسى مدينة سوسة»[32م].

محاولة اغتيال يحيى ونهاية عهده:

لقد تعرّض يحيى قُبَيْل وفاته لمحاولة اغتيال ، وقد وصلتنا عدّة روايات عنها مقتبسة من مصدَرَيْن مختلفين اختلافًا كبيرًا. ومما لا شكّ فيه أن رواية ابن شدّاد التي نقل ابن خلّكان أكبر قسم منها ، هي التي اعتمدها ابن الأثير والنويري ، رغم وجود فوارق كبيرة بينهما. وبعد تحليل رواية ابن شدّاد والإشارة إلى الأسباب التي تدعونا إلى تصديقها ، سنتطرّق إلى رواية ابن عذاري التي لم يذكر مصدرها.

رواية ابن شدّاد[33] :

«في سنة سبع وخمسمائة (18 جوان 1113 – 6 جوان 1114) ، أتى إلى المهديّة قوم غرباء[34] قصدوا يحيى بمطالعة[35] زعموا فيها أنّهم من أهل الصناعة الكبرى[36] المواصلين إلى نهايتها. فأذن لهم في الدخول عليه ، فلما مثلوا بين يديه طالبهم بأن يظهروا له من الصناعة ما يقف عليه. فقالوا : «نحن نزيل من القصدير التدخين والصداء حتى يرجع لا فرق بينه وبين الفضّة. ولمولانا من السروج والبنود والقضب والأواني ، قناطير من الفضة ، يُجْعَل عوضها منها ما تريد ، وتُسْتَعْمَل جميع ذلك في مهمّاتك».

وسألوه أن يكون ذلك في خلوة. فأجابهم وأحضرهم للعمل. ولم يكن عند الأمير يحيى

---

32) التجاني ، 74. هذا التاريخ ذكره ابن عذاري (**البيان** ، 305/1) وابن حمديس ، **الديوان** ، ص 344 – 346.

32م) **البيان** ، 304/1 ، لا غير.

33) ابن خلكان ، 240/2 نقلاً عن رواية عبد العزيز (ابن شداد) وقد نقل هذه الرواية مقديش ، [الطبعة الجديدة ، بيروت 1988 ، 383/1 – 384].

34) ثلاثة رجال.

35) [عريضة أو مذكرة].

36) [أي صناعة الكيمياء التي تحوّل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة].

سوى الشريف أبي الحسن علي (ابن أحمد الفهري الصقلّي وزيره)[37] والقائد إبراهيم قائد الأعنّة[38]. وكانوا هم ثلاثة، وكانت بينهم أمارة، فأمكنتهم الفرصة، فقال أحدهم: «دارت البوتقة». فتواثبوا وقصد كلّ واحد منهم واحدًا بسكاكينهم. فأما الّذي قصد الأمير يحيى فقال: «أنا سرّاج». وكان يحيى جالسًا على مصطبة، فضربه فجاءت على أمّ رأسه فقطعت طاقات من العمامة، فلم تؤثّر في رأسه واسترخت يده بالسكّين على صدره، فخدشته، وضربه يحيى برجله، فألقاه على ظهره، فسمع الخدم، ففتحوا باب القصر من عندهم، فدخل يحيى وأغلق الباب دونهم، وكان زيّهم زيّ أهل الأندلس، فقُتِلوا وقُتِل في البلد جماعة ممّن كان على زيّهم. وخرج الأمير يحيى في الحال، وركب في البلد، وسكّن الفتنة»[39].

وهنا ينتهي نقل ابن خلّكان لرواية ابن شدّاد حول محاولة اغتيال الأمير يحيى. وباستثناء بعض الجزئيّات، فإن ما نقله ابن الأثير والنويري يعتبر تلخيصًا أمينًا لتلك الرواية، إلى حدّ أنّنا نعتقد أنّهما قد اعتمدا نفس المصدر[40].

إلاّ أنّهما قد حدّدا تاريخ هذه الحادثة بسنة 502هـ / 11 أوت 1108 – 30 جويلية 1109م، وقدّما إلينا معلومات إضافيّة مفيدة جدًّا، هذا نصّها:

«فقد قيل للأمير يحيى إنّ هؤلاء [الثلاثة] رآهم بعض الناس عند المقدّم[41] بن خليفة. واتّفق أن الأمير أبا الفتوح(كذا) أخا(كذا) يحيى وصل تلك الساعة إلى القصر في أصحابه، وقد لبسوا السلاح. فمُنِعَ من الدخول، فثبت عند الأمير يحيى أنّ ذلك بوضع منهما. فأحضر المقدّم بن خليفة، وأمر أولاد أخيه فقتلوه قصاصًا، لأنّه قتل أباهم. وأخرج الأمير أبا الفتوح وزوجته بلاّرة، بنت القاسم بن تميم، وهي ابنة عمّه ووكل بهما في قصر زياد بين المهديّة وصفاقس، فبقي هناك إلى أن مات يحيى»[42].

---

37) زيادة من ابن حمديس، **الديوان**.
38) أي قائد الخيالة.
39) ابن خلّكان، **الوفيات**، 240/2.
40) **الكامل**، 199/10–200 ونجد فيه هذه العبارة: «نعمل النقرات» (أي نصنع المعدن النفيس، الذهب أو الفضة). كما نجد العبارة التالية: «الكيماويّة».
31) المقدّم: لعلّه لقب عسكري (قائد أو ضابط).
42) **الكامل**، 199/10.

ونلاحظ أوّلاً أنّ أبا الفتوح لا يمكن أن يكون ابن تميم، اللّهم إلاّ إذا كان قد تزوّج حفيدة هذا الأمير، أي ابنة أخيه، وهذا غير معقول. وقد كان ابن خلّكان على حقّ عندما سمّاه أبا الفتوح بن يحيى[43]. فالأمر يتعلّق حينئذ بابن يحيى الّذي كان تزوّج ابنة عمّه بلاّرة[44].

ومن ناحية أخرى، لو كان أبو الفتوح (بن يحيى) قد سُجن في قصر زياد بعد سنة 502 هـ/ 1108–1109م، فكيف يمكن أن يكون قد عُيّن واليًا على صفاقس في سنة 504 هـ/ 1110–1111م، كما أكّد ذلك النويري؟

ومجمل القول إنّ الخلط بين ابن وأخي يحيى لا يقتضي فحسب إصلاح ما أكّده ابن الأثير، بل إنّه يثير الشكّ حول تاريخ 502 هـ. فينبغي حينئذ التمسّك برواية ابن شدّاد التي يتعيّن علينا الآن مقابلتها برواية ابن عذاري.

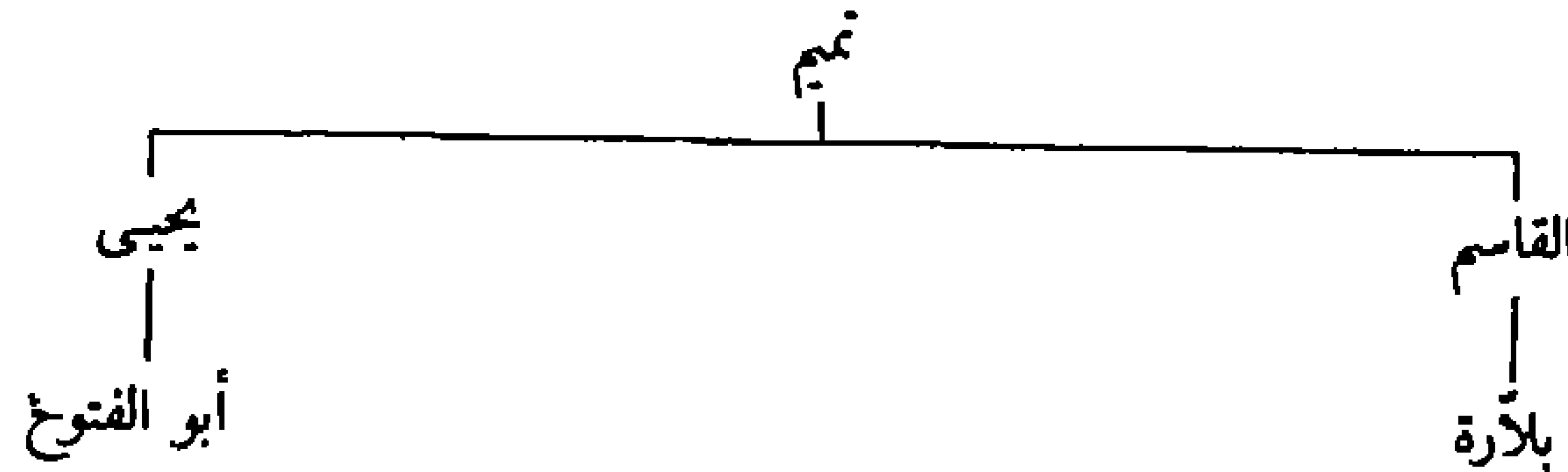
رواية ابن عذاري[45]:

«في سنة 509 هـ (27 ماي 1115– 15 ماي 1116م)، وصل إلى المهديّة رجلان أو ثلاثة[46]، ذكروا أنهم من طلبة المصامدة عارفين بصناعة الكيمياء، فأبيح لهما الدخول إلى

---

43) ابن خلّكان، 241/2.

44) فتكون العلاقة بينهم كما يلي :



ولعلّ خطأ ابن الأثير (أو الناسخ) ناتج عن قراءة النويري (162/2) : «وأبو الفتوح إبراهيم أخو يحيى». فلو كان اسم أبي الفتوح إبراهيم، لكان اسمه الكامل : أبو الفتوح إبراهيم بن يحيى بن تميم. ولعلّ هذا الخطأ راجع إلى الخلط الواقع في الكتابة بين إبراهيم وابن تميم. وقد تمّ فيما بعد تعويض عبارة «ابن يحيى» بعبارة «أخي يحيى»، فلا يمكن أن يكون أبو الفتوح ابن تميم بن يحيى. ومن ناحية أخرى ينبغي أن يكون أبو الفتوح ابن يحيى ليكون زوج بلاّرة ابنة القاسم بن تميم.

45) **البيان**، 305/1 – 306.

46) إن استعمال المثنّى في بقيّة الرواية يدلّ على أنّ عدد العارفين بالكيمياء اثنان لا ثلاثة.

دار العمل. فلما أحكما ما أرادا، استأذنا على السلطان يحيى بن تميم، فقال لهما: «أَوْقِفَاني على الطرح وحقيقة السرّ». فقالا: «على أن لا يحضر إلاّ أنت ووزيرك». فحضر هو ووزيره وعبده أبو حنّوش[47]، فصنعا البوط[48] وألقيا الرصاص[49] وأحْمَيا عليه، وجعلا كأنهما يخرجان الأكسير. فأخرجا خناجيرهما وقتلا الوزير وأبا حنّوش، وأكثرا في السلطان الجراحات، فبقي يعاني جراحه حتى مات. وقالا له حين جرحاه: «أيها الكلب! نحن أَخَواك فلان وفلان! نفيتَنا وبقيتَ في المُلْك». وثارت الصيحة إذ ذاك، فدخل العبيد وقُتِل الرجلان للحين، ومات يحيى يوم عيد الأضحى (10 ذو الحجّة) من سنة 509 (25 افريل 1116). وكان الأمير يحيى مدّة مرضه إثر هذه النوبة والغدر، /نفى ابنه (أبا) الفتوح[50] إلى قصر زياد وأظهر إتّهامه في القضيّة. فأقام هناك إلى حين وفاة أبيه وولاية عليّ أخيه. ثم نفاه عليّ أيضًا إلى المشرق فتوفّي هناك»[51].

وفي موضع آخر[51 م] قال ابن عذاري إنّ يحيى «توفّي ثاني عيد النحر من سنة 509هـ فجأة مقتولاً في قصره بالمهديّة».

إلاّ أنّ هذا التناقض لا قيمة له بالمقارنة مع الخبر الذي يصعب تصديقه، ومفاده أنّ الأخوَيْن المذكورين قد رجعا من المهجر ليقتلا أخيهما يحيى ويعرّضا حياتهما للخطر، في حين كان بامكانهما تكليف بعض الأعوان بالقيام بتلك المهمّة. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ ابن عذاري لم يذكر إسم الوزير ولم يُشِرْ إلى القائد ابراهيم. ويمكن أن نفترض أن «العبد» الغريبُ المسمّى أبو حنّوش انما هو القائد ابراهيم[52]، رغم أنّ ابن الخطيب قد أشار – كما سنرى – إلى وجود أربعة أشخاص مع الأمير. وبناء على ذلك فانّنا نشكّ في صحّة هذه الرواية التي تكتسي صبغة شبه خياليّة.

ومن ناحية أخرى، فإن الخلط الممكن في الكتابة العربيّة بين «سبعة» و«تسعة»، لا يسمح لنا من سوء الحظّ بتحديد تاريخ محاولة الاغتيال بسنة 507هـ، عوض سنة 509هـ.

---

47) [في البيان: أبو خنوس].

48) [أي البوتقة].

49) يمكن أن تكون كلمة «الرصاص» قد استعمِلَت بمعنى «القصدير» كما في رواية ابن شدّاد.

50) ينبغي تصحيح هذا الاسم كما يلي: «نفى ابنه (أبا) الفتوح»، أو «نفى (أبا) الفتوح».

51) البيان، 305/1 – 306.

51م) نفس المصدر، 304/1.

52) ربّما يكون اسمه: أبو حنّوش إبراهيم.

إلاّ أن **ديوان** ابن حمديس يبرّر تفضيل رواية ابن شدّاد. إذ نجد فيه قصيدة مدح تشير إلى هذه المؤامرة[53]. فقد ذكر أنّ الأمير نجا بفضل الله تعالى من المؤامرة التي دبّرها ثلاثة أشخاص، وأنّ وزيره الشريف علي بن أحمد الفهري قد توفّي متأثّرًا بجراحه. وقد قُتِلَ أولئك الأشخاص وصُلِبوا في زويلة. كما نظم ابن حمديس قصيدة أخرى[54] في رثاء الشريف الفهري ابن أحمد الصقلي، ولكنه لم يُشِر إلى اغتيال الأمير، لا في هذه القصيدة ولا في القصيدة التي أنشدها أمام عليّ لتعزيته وتهنئته. فلو توفّي الأمير مقتولاً، لما تأخّر الشاعر من اغتنام تلك الفرصة، وطرق مثل هذا الموضوع الجذّاب.

الرواية المنسوبة إلى أبي الصلت[55]:

بقي علينا أن نحلّل رواية أخرى حول محاولة الاغتيال، حرّرها ابن الخطيب وأوردها بين استشهادين اثنين من كتاب أبي الصلت، المؤرّخ الرسمي لبني زيري، وقد اقتبسها منه حسب الاحتمال. وباستثناء بعض الجزئيّات، فهي تؤكّد رواية ابن شدّاد، ولكن لا يمكن تفضيلها عليها.

وحسب هذه الرواية، فقد قدم ثلاثة مغاربة زعموا أنهم من العارفين بالكيمياء وطلبوا المثول بين يدي يحيى، فأستقبلهم بمحضر أربعة أشخاص من خاصّته، من بينهم قائد جيشه، وأثناء الاجتماع أخرجوا خناجرهم من أحزمتهم وقتلوا قائد الجيش ونجا الأمير، وقد أثخنوه بالجراح وانفلت منهم. وقُتِل المغاربة وصُلِبوا. وتوفّي يحيى فجأة في قصره ثاني عيد النحر (11 ذو الحجّة) من سنة 509هـ (26 أفريل 1116م).

ومن المحتمل أن يكون من بين الحاضرين الأربعة العبد أبو حنّوش، وأن يكون الوزير هو الذي قُتِلَ لا قائد الجيش، لا سيّما وأنّ هذا القائد هو – حسبما يبدو – ابراهيم بن عبد الله الذي سيكلّفه عليّ فيما بعد بالقيام بحملة عسكرية ضدّ جربة، كما سيأتي ذكره.

---

53) ابن حمديس، **الديوان**، رقم 133، ص 187 – 189.

54) نفس المرجع، رقم 96، ص 137 – 140.

55) **أعمال**، 458.

وفاة يحيى[56] :

إنّ جميع المصادر، بما في ذلك **البيان**، متّفقة على أنّ يحيى قد توفّي «فجأةً». وكما هو الشأن بالنسبة إلى محاولة الاغتيال، فإنّ أحسن رواية حول وفاة الأمير هي رواية ابن خلّكان المقتبسة لا محالة من ابن شدّاد. وقد أوردها مُخْتَصَرة شيئًا ما كلٌّ من ابن الأثير والنويري.

فقد توفّي يحيى يوم الأربعاء الموافق لعيد الأضحى (10 ذو الحجّة) من سنة 509 هـ / 25 أفريل 1116م[57]. «وكان منجّم قد قال له في تيسير[58] مولده: إن عليه قطعًا في هذا اليوم، فلا تركب، فلم يركب. وخرج أولاده وأهل دولته إلى المصلّى. فلما انقضت الصلاة حضروا عنده للسلام عليه وتهنئته، وقرأ القرّاء وأنشد الشعراء. (ودخل الحاضرون إلى الإيوان)[59] وانصرفوا إلى الطعام. فقام يحيى من باب آخر ليحضر معهم على الطعام. (ولمّا وصل إلى الباب، أشار إلى إحدى جواريه واتكأ عليها)[60]. فلم يمش غير ثلاث خُطًى حتى وقع ميّتًا. وكان عمره ستين وخمسين وخمسة عشر يومًا[61]، وكانت ولايته ثماني سنين وخمسة أشهر وعشرين يومًا[62]. وخلّف ثلاثين ولدًا ذكورًا»[63].

56) ابن خلّكان، 241/2؛ **البيان**، 304/1؛ **الكامل**، 216/10؛ النويري، 162/2 – 163؛ **العبر**، 160/6؛ **المؤنس**، 88.

57) ابن خلّكان، **الكامل**، النويري، **البيان**: لم تذكر هذه المصادر اليوم، وهو نظريًّا يوم الثلاثاء؛ **البيان**، 304/1 و**أعمال**، 458، ثاني عيد النحر؛ **المؤنس**، 88، أوّل ذو الحجّة. جميع المصادر متّفقة على سنة 509هـ.

58) حسب ابن خلّكان. في **الكامل**، طبعة القاهرة 1301هـ: «منستير» وفي طبعة القاهرة الثانية «تسثير»، وحسب النويري «تسبير».

59) الزيادة من ابن خلّكان.

60) الزيادة من ابن خلّكان.

61) **الكامل** وكذلك **أعمال**. وحسب ابن خلّكان: 52 سنة.

62) **الكامل**، وحسب ابن خلّكان: 8 سنين ونصف وفي **أعمال**: 8 سنين و8 أشهر و15 يومًا. وفي المؤنس: 8 سنين و6 أشهر.

63) **الكامل**، 216/10.

/الفصل الثاني :
ولاية علي بن يحيى
(509 – 515هـ / 1116 – 1121م)

ارتقاء علي إلى العرش[1] :

لا نعرف من مجموع الأبناء الثلاثين الذين تركهم يحيى عند وفاته إلاّ أبا الفتوح وأبا الحسن علي ، والي صفاقس ووليّ العهد ، على الأرجح[2]. وقد كان لعليّ شاعره المادح ، وهو ابن حمديس. أمّا أخوه ومنافسه المحتمل أبو الفتوح الذي يقال إنه قد حاول خلع أبيه يحيى ، فانه لم يزل مسجونًا بقصر زياد ، عند ارتقاء علي إلى العرش.

وقد وُلِدَ عليّ بالمهديّة صبيحة يوم الأحد 15 صفر سنة 479هـ / أوّل جوان 1086م ، وكان عمره لمّا ارتقى إلى العرش ثلاثون سنة[3].

«وقد اجتمع أهل الدّولة (ولا سيما عبد العزيز بن عمّار والقائد رقوى)[4] على نفاذ كتاب إلى عليّ على لسان أبيه ، وكان عليّ على صفاقس. فكتبه الكاتب ، وكتب علامة يحيى وكانت : الحمد لله وحده»[5]. واتُّخِذت الإجراءات اللاّزمة لذلك ، وكُلِّف الجيش بحراسة الأبواب. فوصل الخبر إلى علي لَيْلاً ، فخرج لوقته مخفورًا بأبي بكر بن جابر بن عسكر وبعض رؤساء العرب الآخرين في ضواحي صفاقس[6].

1) **أعمال**، 458 – 459 نقلاً عن أبي الصّلت ؛ **البيان**، 306/1 ؛ ابن خلّكان ، 241/2 ؛ **الكامل**، 216/10 ؛ النويري ، 164/2 ؛ **العبر**، 161/6 ؛ **ديوان** ابن حمديس ، ص 411 – 414.

2) حسب التجاني لا غير.

3) حسب النويري ، 166/2 وابن خلّكان ، 241/2. وتاريخ 497هـ مغلوط بلا شكّ (نظرًا للخلط في الحروف بين سبعة وتسعة) ، نظريًّا يوم الاثنين ؛ **البيان**، 306/1 ، وقد أكّد صاحبه أنّ عليا كان يبلغ من العمر 30 سنة عند ارتقائه إلى العرش.

4) حسب النويري لا غير.

5) **البيان**، 306/1.

6) حسب ابن خلدون ، **العبر**.

وفي الجمّ وجد عليّ أغلب قادة الجيش الصنهاجيّ بصدد محاصرة بعض الأعداء المعتصمين حسب الاحتمال بالقصر الأثري الشهير الذي كانت الكاهنة قد التجأت إليه في القديم[7]. وبما أن ابن حمديس قد أشاد باحتلال ذلك الحصن في قصيدة مدح بها عليًّا، ولم يرد ذكره أبدًا فيما بعد، فالغالب على الظنّ أنّه قد سقط بعد ذلك بقليل، بفضل التعزيزات المصاحبة لوليّ العهد. ومهما يكن من أمر فقد انضمّ الجيش بدون تردّد إلى عليّ الذي واصل طريقه معزّزًا بتلك المساعدة الثمينة المنشودة أم لا، إلى أن وصل إلى المهديّة عشيّة الخميس ثاني عيد النّحر، 11 ذو الحجّة سنة 509 هـ/ 26 أفريل 1116م[8]، غداة وفاة الأمير يحيى.

فصلّى الناس صلاة الجنازة على الفقيد الذي دُفِن في قصره، ثم نُقِل في السنة الموالية إلى قصر السيّدة بالمنستير[9]، وجلس عليّ يوم الجمعة ثاني عشر ذو الحجّة سنة 509 هـ[10] لتقبّل التعازي والتهاني والبيعة. وخلع على رجال الدولة ومدحه الشعراء، ومنهم ابن حمديس الذي ألقى قصيدة عصماء[11]. كما نُظِّم في ذلك اليوم استعراض عسكري بإشراف الأمير الذي رجع بعد ذلك إلى قصره.

وصف عليّ:

لقد وصفت لنا المصادر عليًّا، فقالت إنه «كان كريمًا، جوادًا، يركن إلى الراحة واللذّات، واتّكل على قوم فوّض إليهم تدبير دولته»[13].

---

7) حسب ابن خلدون وابن حمديس.

8) حسب **أعمال** وابن خلّكان والنويري.

9) حسب ابن خلّكان. وفي **الكامل**: «التربة» عوض قصر السيّدة.

10) نصّ ابن خلّكان: «يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجّة». وينبغي تصحيح هذا النصّ كما يلي: «يوم الجمعة ثالث (عيد النحر ثاني) ذي الحجّة». وهذا ما يفسّر ذلك الخطأ. إذ أنّ يوم عيد الأضحى يصادف = 10 ذو الحجّة = الأربعاء، ثاني عيد = 11 ذو الحجّة = الخميس، ثالث عيد = 12 ذو الحجّة= الجمعة. وبما أن توليته كانت من باب الصدفة السعيدة يوم الجمعة، فقد ذكر اسمه في خطبة الجمعة.

11) **أعمال**، هذه القصيدة وردت في **ديوان** الشاعر، ص 190 – 192.

12) نفس المصدر.

13) **البيان**، 306/1.

ومن الأكيد أنّه لم يظهر قطّ في ساحات الوغى، ولكن يبدو على الأقلّ أنه لم تأخذه نشوة الملذّات ولم يكن غير مكترث بأمور الدولة. فلم يظهر في القصر خلال عهده أيّ قهرمان مطلق النفوذ. وهو بعيد عن أن يكون متخنّثا وألعوبة بين أيدي المتملّقين.

وفي سنة 511هـ / 5 ماي 1117 – 23 أفريل 1118م، «وصل رسول صاحب مصر بهديّة إلى المهديّة»[14]. ولعلّ هذه السفارة لم تكن الأولى من نوعها، فلا بدّ أن يكون الأمير قد أعلم مخدوم الفقيد والده بارتقائه إلى العرش، وتلقّى وثيقة التقليد.

وقد رأى من باب الاحتياط نفي أخيه أبي الفتوح الذي أبحر مصحوبًا بزوجته بلاّرة وابنه الصبيّ العبّاس، متوجّهًا إلى مصر، وقد عامله أميرها معاملة حسنة[15].

استسلام جربة[16]:

«قال أبو الصّلت: لمّا ولّي أبو الحسن (عليّ) بن يحيى بن تميم بن المعزّ، وذلك في آخر سنة تسع وخمسمائة، واستتبّ له أمره واستوثق ملكه، أمر بإعداد الأساطيل لغزو جزيرة جربة، وحرّكه في ذلك ما ترادف عليه من قَطْعِ أهلها في البحر وإخافتهم المسافرين فيه، فتمّ ذلك وقدّم على الأسطول قائد الجيش إبراهيم بن عبد الله وأصحابه من أهل الدّولة للمشورة، فساروا إليها، وذلك في سنة عشر وخمسمائة (1116 – 1117م)[17]. فحاصروها وأخذوا بمخنقها إلى أن أقرّ أهلها بالطاعة للسلطان، وانقادوا لأمره ونزلوا على حكمه. وضمن أشياخهم ومقدّموهم جميع الفساد الواصل إلى ساحل إفريقية من قطّاعهم وأشرارهم، وأن لا يتعدّوا بمتاجرهم المهديّة. وأُعْلِم السلطان بذلك، فكفّ عنهم وجمع الأسطول، وصلح البحر وارتفع الفساد، وأمن المسافرون»[18].

---

14) نفس المصدر، 307/1.

15) **الكامل**، 200/10؛ ابن خلّكان، 241/2 و370/1؛ **نجوم**، 288/5 – 289؛ **اتّعاظ**، 324، 338. بعد وفاة زوجها أبي الفتوح، تزوّجت بلاّرة وزير الخليفة الفاطمي الظافر، الملك العادل أبا الحسن علي السلار الذي خلفه صهره العبّاس. وبناء على ذلك فإنّ أبا الفضل العبّاس بن أبي الفتوح هو حفيد يحيى وابن أخي علي.

16) التجاني، ص 125 – 126 وهو أهم مصدر. وقد نقل حرفيًا رواية أبي الصّلت. **البيان**، 306/1؛ **الكامل**، 216/10؛ ابن حمديس، **الديوان**، ص 193 – 196؛ **المؤنس**، 88.

17) بعد أقلّ من سنة من ارتقائه إلى العرش، ربما خلال صائفة 1116م.

18) رحلة التجاني، 125 – 126.

وبينما كانت هذه العملية جارية ، أو بعدها بقليل ، «أرجف العوامّ بأنه سيكون في رمضان حادث كبير ، وأنّ السلطان يموت فيه . وفشا القول بذلك ، وانتشر ، فأكذب الله أحاديثهم»[19] . وفي اليوم العاشر من شهر رمضان جادت قريحة ابن حمديس بقصيدة هنّأ فيها الأمير بسلامته وبتسفيه أراجيف المنجّمين واستيلاء الأمير على جزيرة جربة[20] . وإننا نميل إلى الاعتقاد بأنّ هذه القصيدة مؤرّخة في رمضان سنة 510 هـ/ 7 جانفي — 5 فيفري 1117 م . ذلك أنّ الشاعر لم يشر إلى الانتصارات التي أحرزها علي بعد هذا التاريخ ، رغم أن ابن عذاري ، وهو المؤلّف الوحيد الذي تحدّث عن تلك الأراجيف ، قد أدرجها ضمن حوادث سنة 511 هـ ، مستشهدًا ببيتَيْن للشاعر ابن حمديس وببيتَيْن آخرَيْن لشاعر مجهول . ولكن ألا يمكن أن نتهم صاحب **البيان** (أو أحد النسّاخ) بأنّه قد ارتكب خطأً تاريخيًّا ، وهو الذي ضرب صفحًا عن ثلاث حملات عسكريّة قام بها علي ، وعن المرحلة الأخيرة من الجملة الموجّهة ضدّ قابس ؟

استسلام مدينة تونس[21] :

في سنة 510 هـ/ 1116 م ، أي بعد مدّة قليلة من انتصاب علي ، «حصر عسكره مدينة تونس ، وبها أحمد بن خراسان ، وضيّق على مَنْ بها ، فصالحه صاحبها على ما أراد»[22] .

ذكر فتح جبل وسلات[23] :

وفي هذه السنة كلّف عليّ فرقة عسكريّة بقيادة الأمير العربي ميمون بن زياد الصخري المُعَادي بفتح جبل وسلات (الواقع شمال غربي القيروان) . والجدير بالملاحظة أن هذا الجبل

19) حسب ابن عذاري لا غير ، **البيان** ، 306/1 .
20) **ديوان** ابن حمديس ، ص 193 — 196 .
21) **الكامل** ، 220/10 ؛ **العبر** ، 161/6 ؛ النويري ، 164/2 ؛ **المؤنس** ، 88 .
22) **الكامل** ، 220/10 .
23) **الكامل** ، 220/10 ؛ **العبر** ، 161/6 ؛ النويري ، 164/2 ؛ **المؤنس** ، 88 .

المنيع اشتهر بكونه لم يخضع أبدًا للسلطة المركزيّة ، ربّما منذ الفتح الإسلامي . «ولم يزل أهله طول الدهر يفتكون بالناس ويقطعون الطريق».

«فعمل قائد الجيش الحيلة في الصعود إلى الجبل من شعب لم يكن أحد يظنّ أنه يصعد منه . فلمّا صار في أعلاه في طائفة من أصحابه ، ثار إليه أهل الجبل ، فصبر لهم وقاتلهم فيمن معه أشدّ قتال ، وتتابع الجيش في الصعود إليه ، فانهزم أهل الجبل وكثر القتل فيهم ، ومنهم من رمى نفسه فتكسّر ، ومنهم من أفلت . واحتمى جماعة كثيرة بقصر في الجبل ، فلمّا أحاط بهم الجيش ، طلبوا أن يرسل إليهم مَنْ يصلح حالهم ، فأرسل إليهم جماعة من العرب والجند ، فثار بهم أولئك بالسّلاح ، فقتلوا بعضهم ، وطلع الباقون إلى أعلى القصر ونادوا أصحابهم من الجيش ، فأتوهم وقاتلوهم ، بعضهم من أعلى القصر ، وبعضهم من أسفل . فألقى مَنْ فيه من أهل الجبل أيديهم ، فقتِلوا كلّهم»[23 م] .

قضيّة رافع (قابس وصقليّة)[24] :

من الصعب ضبط تسلسل العمليّات التي قام بها عليّ ضدّ قابس ، حوالي سنة 511هـ / 5 ماي 1117 – 23 أفريل 1118م . ذلك أن سكوت الإخباريّين المسيحيّين عن التدخّل النّرماني ، لا يسمح بإجراء أيّة مقابلة مع نصوص المؤلّفين العرب الذين اتّسمت رواياتهم بعدّة ثغرات وتناقضات ، وعدم الدقّة في تأريخ الأحداث .

فنلاحظ أوّلاً أن رواية التجاني تتضمّن بعض فقرات منقولة عن أبي الصّلت ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى رواية ابن خلدون . ومن ناحية أخرى ، بما أنّ تلك الرواية مطابقة في الجملة لرواية ابن الأثير والنويري ، فاننا سوف لا نتردّد في تفضيلها على بقيّة الروايات . ونستخلص من ذلك أنّ ما يسمّى «بحصار قابس» يتضمّن مرحلتَيْن متميّزتَيْن ، حسب التجاني ، يفصل بينهما شتاء 1117–1118م .

23م) **الكامل**، المصدر المذكور.

24) **ستوريا** (Storia)، 376/3 – 380 ؛ شالندون ، 371/1 – 372 .

المرحلة الأولى[25] :

لمّا تولّى يحيى بن تميم الحكم، صالح الأمير العربي رافع بن مكن بن كامل بن جامع الدهماني «وداراه طول حياته». وكان رافع هذا هو الحاكم بأمره في قابس، وكان قد استولى عليها في عهد تميم، بموافقة هذا الأخير وعلى كرهٍ منه بلا شكّ.

«وكان يحيى يحتمل لرافع أمورًا منها، أنّ رافعًا أنشأ بساحل قابس سفينة[26] أعدّها لما يعرض له في البحر من الأمر. فلم يُبْدِ يحيى إنكارًا لذلك، بل أعانه عليها وأمدّه بما احتاجه إليه فيها»[27].

«فلمّا ولّى عليّ أنف ذلك وكره أن يقاومه أحدٌ من أهل إفريقيّة في إجراء السّفن في البحر، فأنفذ أسطولاً[28] إلى ساحل قابس، لمنع هذه السفينة من الإقلاع، وأخذها إن أقلعت.

وعلم بذلك رافع، فكتب لِرُجار (الثاني) صاحب صقليّة يسأله الإعانة على عليّ ويخبره أنّه إنما أنشأ تلك السفينة لبعث هديّة يحبّ أن يهديها له»[29].

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الحجّة البارعة والقريبة من الواقع لم تكن هي الوحيدة، حسب الاحتمال. كما أنّها لا تتعارض مع الافتراض الصحيح الذي قدّمه أماري، وهو أنّ السلط الصقليّة قد اعتبرت مشروع رافع وسيلة لتجاوز الرّسوم المفروضة من قِبَل دولة بني زيري. وهناك افتراضات أخرى يمكن أن تخطر بالبال : أَفَلَمْ تصدر هذه المبادرة الخاصّة أو الرسميّة عن صقليّة؟ وهذا ما قد يفسّر تسامح يحيى الراغب في المحافظة على حسن علاقته مع تلك البلاد. وهل أن رافعًا لم يعمد إلى تخفيض قيمة تلك الرسوم بل حتى الإعفاء من دفعها؟

---

25) **رحلة التجاني**، 98 – 99، نقلاً عن أبي الصّلت ؛ **العبر**، 161/6 ؛ **الكامل**، 223/10 ؛ النويري، 164/2 – 165 ؛ **ستوريا**، 376/3 – 378 ؛ **البيان**، 307/1 : لم يشر هذا المصدر إلى المرحلة الأولى من العمليّات، والحال أن المصادر الأخرى قد ذكرتها.

26) وحسب **الكامل** والنويري : «مركبًا».

27) النويري : الخشب والحديد.

28) حسب النويري لا غير.

29) التجاني، 98.

ومهما يكن من أمر، «فقد بعث رُجَار إلى قابس أسطولاً ضخمًا[30] لنصرة رافع. (ولمّا وصل الأسطول الصقلي إلى المهديّة)[31]، جمع عليّ رجال دولته واستشارهم في ذلك. فكلّهم أشار عليه باسترجاع أسطوله والتغاضي عن رافع في هذه المسألة، حِفْظًا لما بينه وبين رُجَار من المصالحة. فرأى عليّ في ذلك وَهَنًا عليه، فأمر بقيّة أسطوله، فأُخْرِج للحين ووجّهه إلى قابس»[32].

وحسب ابن الأثير الذي لم يتحدّث عن هذه الاستشارة، لمّا علم عليّ باجتياز الأسطول الصقلّي بالمهديّة، تأكّد من الاتّفاق بين رُجَار ورافع، وقد كان يكذّبه. كما أكّد كلٌّ من ابن الأثير والنويري أنّ الأسطول الصنهاجي والأسطول الصقلّي وصلا في نفس الوقت إلى قابس، وأنّ الأسطول الصقلّي قد عاد من حيث أتى بدون قتال، «وبقي أسطول عليّ يحصر رافعًا بقابس مُضَيِّقًا عليه». وبالعكس من ذلك، أكّد التجاني أنّ أسطول عليّ، لمّا وصل إلى قابس، «وجد الروم قد نزلوا من قِطَعِهم لضيافة أعدّها رافع لهم. فلم يَرُعْهم إلاّ وصول الأسطول، فبادروا إلى قِطَعِهِمْ، فغلبهم المسلمون على أكثرها، وقتلوا منهم جماعة كبيرة. قال أبو الصّلت: وسلم من سلم منهم، فلاذ بالهرب، وطار من خفّة الخوف لا من خفّة الطرب. وكان ذلك من أسباب الوحشة التي وقعت بين رُجَار وعليّ وابنه الحسن بعده، حتى أدّت إلى تغلّب الروم على المهديّة وانقراض دولة بني مناد منها»[33].

وختم التجاني روايته مستشهدًا ببعض الأبيات من قصيدة نظمها محمد بن عبد الله الكاتب بمناسبة هذا الانتصار، جاء فيها:

[طويل]

لِيَهْنَ المعـــالي أن تملّك رِقَّهـــا ... عليٌّ بن يحيى بـالحجـا والتكرُّمِ
جرى وجرى صيــد الملوك فبزّهم ... إلى غـايــةٍ في المجد لم تُتَقـدَّمِ
وصمّم تصميم الحسام مبـــادرا ... لإطفـــاء نـــارٍ آذنت بـــالتضرّمِ
تعـدّى على الأعلاج في بحر قـابس ... وسار إليهم في الخميس العرمرمِ
فولّوْا على الأدبـــار كلاًّ وأجفلوا ... بنـــابٍ نبـــا عنهم وظُفْرٍ مُقَلَّمِ

---

30) النويري: يتركّب الأسطول من 24 قطعة (شواني).

31) حسب **الكامل** والنويري، ولم يتعرّض لذلك التجاني.

32) **رحلة التجاني**. 98.

33) نفس المصدر.

ولكن الشاعر لم يشر في قصيدته إلى المعركة البحرية، وكذلك ابن حمديس في القصيدة المماثلة التي نظمها لتهنئة الأمير برجوع أسطوله إلى المهديّة سنة 512 هـ(كذا)، وقد كان وجّهه لمحاربة السّفن الحربيّة القادمة من صقليّة إلى قابس[34].

فمن الممكن أن يكون التاريخ الرسميّ قد بالغ في أهميّة هذا الانتصار البحري. إلاّ أنّ سكوت هذين الشاعرين عن تلك المعركة لا يكفي لتفنيد شهادة التجاني وأبي الصّلت[35]، لفائدة شهادة ابن الأثير والنويري، بدعوى أنّ التجاني قد خلط بين أحداث متباينة. على أنّ ابن خلدون قد أكّد من جهّته أنّ عليًّا قد انتصر على النّصارى أثناء معركة بحريّة جرت خلال المرحلة الأولى من واقعة قابس[36].

وقد واصل الأسطول الصّنهاجي محاصرة مدينة قابس، ويقال إنّه أفسد ماجلها[37]، ثم رجع إلى المهديّة، بلا شكّ قبل شتاء سنة 511 هـ، ولم يسمح حصار الميناء بسقوط المدينة التي لم يقع عليها الهجوم من البرّ.

المرحلة الثانية[38] :

قام عليّ المصمّم على كسر شوكة المتمرّد، باستعدادات حربيّة في البرّ والبحر، وجنّد بعض قبائل العرب.

«فلمّا بلغ ذلك رافعًا، أرسل جماعة من وجوه قومه إلى عليّ، راغبًا في المصالحة، فلم يُجِبْه عليّ إليها»[39].

«وفي أثناء ذلك نزل رافع على المهديّة ببيوته ومَن ساعده من عشيرته[40]، فخرج من كان بالمهديّة، فهجموا على بيوته، فتصايَحَتْ نِساءُ العرب، فغار العرب لذلك، ووقعت

---

34) **ديوان** ابن حمديس، ص 205، 208.
35) كما ذهب إلى ذلك أماري، **ستوريا**، 378/3، الإحالة 1.
36) **العبر**، 167/6.
37) خزّان الماء : النويري.
38) **رحلة التجاني**، 98 – 99؛ و**البيان**، 307/1.
39) التجاني، المصدر المذكور. وفي **البيان** : «وخرج مُتَطارِحًا على وجوه قومه، راغبًا في الصلح»، وهي عبارة غامضة.
40) إذا صدّقنا النويري، فإنّ رافعًا كان على رأس حلف يجمع بين جميع القبائل العربيّة.
41) **البيان**، 307/1.

الحرب بين الفريقين، والأمير على باب زويلة»[41]. ويبدو أنّ رافعًا قد تكبّد خسائر فادحة، ولم يُقتَل من جند عليّ إلاّ رجل واحد.

«ثم خرج عسكر عليّ مرّة أخرى، فاقتتلوا أشدّ من القتال الأوّل، وكان الظّهور فيه لعسكر عليّ»[42].

ويُعْزى هذا الانتصار وما لحقته من انتصارات أخرى إلى انضمام جموع غفيرة من الأعراب إلى صفّ عليّ الذي وهبهم أموالاً جمّة، بالإضافة إلى تخلّي جنود رافع عن قائدهم الذي أصبح لا يعوّل إلاّ على بني دهمان[43].

«ولمّا رأى رافع أنّه لا طاقة له بعسكر عليّ، رحل عن المهديّة لَيْلاً إلى القيروان، فمنعه أهلها من دخولها، فقاتلهم أيّامًا قلائل ثم دخلها»[44].

وقبل ذلك، «اجتمع شيوخ دهمان واقتسموا البلاد بينهم، فأعطوا رافعًا مدينة القيروان»[45].

فوجّه عليّ جيشًا يضمّ عددًا كبيرًا من العرب لمحاصرة رافع بالقيروان. وجرت معركة حامية الوطيس انقلبت لفائدة جيش عليّ، رغم أنّ قائده إبراهيم بن أحمد قد لقي مصرعه أثناء المعركة[46].

واَضْطُرّ رافع إلى الرجوع إلى قابس. وقد عاب عليه الشاعر محمد بن بشير احتماءه بالرّوم، أي النّرمان الصقلّيّين، وأشاد بنجاعة المال الذي أنفقه بنو زيري لحلّ هذه القضيّة[47]. وقد سكت التجاني عن رجوع رافع إلى قابس، وأكّد بالعكس من ذلك أنّ محمّد بن رُشَيْد قد ملك قابس بعد دخول رافع إلى القيروان[48]. والواقع أنّ خليفة رافع هو رُشَيْد بن كامل الذي خلفه فيما بعد ابنه محمّد بن رُشَيْد[49]. وبفضل وساطة ميمون بن

---

42) **الكامل**، 223/10.
43) **البيان**، 307/1 و**العبر**، 167/6.
44) **الكامل**، المصدر المذكور.
45) **البيان**، 307/1.
46) **العبر**، 167/6؛ **البيان**، 307/1؛ **التجاني**، 98.
47) **رحلة التجاني**، ص 99.
48) نفس المصدر، ص 100.
49) **العبر**، 167/6؛ **الكامل**، 54/11.

زياد الصخري ، أبرم عليّ مع رافع معاهدة الصلح التي وضعت حدًّا لخلافهما ، بعد أن امتنع من ذلك[50].

ولا شكّ أنّ قضيّة رافع قد انجرّت عنها حالة حرب شبه حقيقيّة بين رُجَار الثاني وعليّ اللّذين كانا صديقَيْن قبل ذلك ، لا سيّما إذا ثبت أنّ أسطولَيْهما قد تصادما في ساحل قابس.

في سنة 512هـ / 1118–1119م[51] ، «وصل رسول رُجَار إلى عليّ يقتضي أموالاً كانت تثقّفت[52] له بالمهديّة[53] ، وكان علي عند تلك الوحشة قد أمسك وُكَلاَءَهُ ، فسرّحهم له عليّ ووجّههم إليه بأمواله . فلمّا وصلت إليه وجّه رسولاً ثانيًا[54] بمكاتبة فيها إغلاظ وتهديد وتقصير على العادة وإساءة في الأدب . فأغضب ذلك عليًّا وصرف رسوله دون جواب . وبلغ عليًّا أن النّصراني يتهدّده ويتوعّده ، فأمر باستجداد الأساطيل والاستعداد لقتاله . فأنشأ أسطولاً قُوِيَتْ أَنْفُسُ النّاس به ومدحته الشّعراء بسببه (منهم محمد بن بشير)»[55] . وأوضح النويري أنّ عليًّا جهّز قبل وفاته عشرة مراكب حربيّة وثلاثين غرابًا مجهّزة ومزوّدة بالمؤونة والنفط[56] .

«كما كاتب المرابطين بمرّاكش في الاجتماع معه على الدخول إلى صقليّة . فكفّ رُجَار عمّا كان يعتمده»[57] . وتوفّي علي قبل أن يتمكّن من إنجاز مشاريعه.

---

50) العبر ، 167/6 والنويري ، 165/2. ولعلّ ابن الأثير قد أشار إلى هذه المعاهدة لما أكّد «أنّ جماعة من أعيان إفريقيّة من العرب وغيرهم سألوا عليّا الصلح ، فامتنع ثم أجاب إلى ذلك وتعاهد عليه».

51) كما جاء في البيان ، المصدر المذكور.

52) وفي البيان : «أموالاً كانت مُوَثَّقة له» [أي تحت الحراسة].

53) كما كانت مهمّة ذلك الرسول تتمثّل في التماس «تجديد العقود وتأكيد العهود» (البيان ، 307/1).

54) رحلة التجاني هي المصدر الوحيد التي أشارت إلى وجود سفارتين متتاليتين.

55) رحلة التجاني ، ص 334.

56) [أي النّار اليونانيّة].

57) الكامل ، وهو المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذه المكاتبة.

الحملات العسكريّة الموجّهة ضدّ بني سنجاس[58] :

استمرّ بنو سنجاس في قطع الطرق في جنوب إفريقية ، وهم تابعون لقبيلة مغراويّة كثيرة العدد ، كانت شاركت سابقًا في الصراعات بين زناتة وصنهاجة في إفريقية والمغرب . وفي سنة 514هـ / 2 أفريل 1120 – 21 مارس 1121م ، عاثوا فسادًا في ضواحي قفصة وحاصروا المدينة وقتلوا جميع الجنود الصنهاجيّين الذين اعترضوهم[59] . فخرجتْ إليهم الحامية ، ولكنّها تكبّدت خسائر فادحة . فتوجّه إلى الجريد محمّد بن ابي العرب ، قائد علي بن يحيى ، على رأس جيش ، وتمكّن من طرد بني سنجاس وإرجاع الأمن إلى نصابه . وفي السنة الموالية (515هـ / 1121 – 1122م) ، تغلّب عليهم نفس القائد محمد بن أبي العرب الذي عاد إلى القيروان بعدد كبير من الرؤوس . ورغم إقصاء الزناتيّين الخوارج المقيمين في جنوب إفريقية إلى المرتفعات الغربيّة ، من طرف بني هلال ، فانهم ما زالوا يعيثون فسادًا في تلك المنطقة[60] .

تدخّل بني حمّاد في إفريقيّة[61] :

لقد هاجم العزيز ابن حمّاد إفريقيّة ، فحاصر جربة بواسطة أسطوله في تاريخ غير مُحَدَّد وأخضعها لسلطته . إلاّ أنّ احتلال تلك الجزيرة النائية لم يدم طويلاً .

وفي سنة 514هـ / 1120–1121م ، حاصر العزيز مدينة تونس التي كان عليّ قد أدخلها في طاعته سنة 510هـ / 1116 – 1117م . وأجبر صاحبها أحمد بن عبد العزيز بن خراسان على الدّخول في طاعته . وكان من الأولى بالنسبة إليه أن يكرّس جهوده لمقاومة الهلاليّين الذين اجتاحوا منطقة القلعة وعاثوا فيها فسادًا . وقد دافعت الحامية عن القلعة بنجاح . فوجّه العزيز من بجاية جيشًا بقيادة ابنه يحيى ، وقائده علي بن حمدون . وبعدما تمكّن ذلك الجيش من إرجاع الوضع إلى نصابه ، وتحصّل الأعراب على العفو الذي التمسوه ، قفل يحيى راجعًا إلى بجاية مع جنوده .

---

58) العبر، 47/7 .

59) العبر (المصدر المذكور) : «عسكر تلكاتة» .

60) نفس المصدر، 47/7 .

61) نفس المصدر، 164/6 .

وقد توفّي العزيز سنة 515 هـ / 1121 – 1122 أو 518 هـ / 1124 – 1125 م[62] وخلفه ابنه يحيى.

وفاة علي[63] :

توفّي علي بن يحيى بن تميم متأثّرًا بمرضه يوم الأحد 22 ربيع الثاني سنة 515 هـ / 10 جويلية 1121 م[64]. وكان يبلغ من العمر أقلّ من ستّ وثلاثين سنة. فكانت مدّة ولايته خمس سنين ونصف السّنة[65]. وخلّف من الأبناء الذّكور أربعة : الحسن والعزيز وباديس وأحمد[66]. وقبل وفاته عيّن لخلافته الأمير الحسن الذي هو أكبر أبنائه رغم صغر سنّه[67]. ودُفِن في قصر (المهديّة)، ثم نُقِلَ في السنة الموالية بلا شكّ، إلى المنستير[68].

62) نفس المصدر، 176/6؛ **البيان**، 309/1 – 310.

63) **أعمال**، 459؛ ابن خلّكان، 242/2؛ النويري، 166/2؛ **الكامل**، 250/10؛ **العبر**، 161/6؛ **المؤنس**، 89.

64) حسب **أعمال**. أما ابن خلّكان والنويري فقد ذكرا يومًا آخر: الثلاثاء، وهو نظريًّا يوم الأحد.

65) **البيان**: 5 سنين و4 أشهر و12 يومًا؛ النويري: 5 سنين و4 أشهر و13 يومًا.

66) حسب **البيان**، مع تصحيح الاسم الأخير وهو «إله» (؟) الذي ورد غلطًا في مخطوطة ليدن، وحسب النويري: الحسن وباديس وأحمد والعزيز.

67) كان عليّ يُكنّى بأبي الحسن.

68) **أعمال**، وابن خلّكان.

الفصل الثالث
مرور ابن تومرت من إفريقيّة[1]

[المقدّمة]

إنّنا لا نعرف بالضّبط تاريخ ميلاد ابن تومرت[2] مؤسّس الحركة الموحّديّة ، ولا مدّة إقامته بالمشرق[3]. ولئن يبدو من المؤكّد أنّه قد رجع إلى المغرب الأقصى بعد غيبة دامت خمسة عشر عامًا[4] ، فلا شيء يسمح بالتأكيد أنّه لم يرجع في الأثناء إلى إفريقيّة ، ما بين حجّتَيْن مثلاً ، أو بتفنيد[5] الروايات التي تشير إلى وجوده بإفريقيّة ، قبل رجوعه النهائي إلى المغرب الأقصى عن طريق بجاية.

في سنة 500 هـ/ 1106 – 1107 م ، «رحل المهدي محمّد بن تومرت من جبل هَرْغة بأقصى المغرب إلى المشرق في طلب العلم ، فجاز الأندلس ووصل قرطبة وسار منها إلى المرية»[6].

1) أ– مقتطفات من تاريخ ابن القطّان ، في ست مقتطفات لم يسبق نشرها... ، ليفي بروفنسال ، 373 – 375.
ب– البيذق ، المقدمة ، الإحالة 1 ، 50 – 55.
ج– الزركشي ، تاريخ الدولتين [الطبعة الثانية ، تحقيق محمّد ماضور ، تونس 1966 ، ص من 4 إلى 7] ؛ المراكشي ، 129 ، 164 – 165 ؛ الحلل الموشّية ، 77 ؛ تحقيق علّوش ، 86.
د– ابن خلّكان ، [الوفيات] ، 98/1 ، 34/2 – 37 ، 240 ؛ الكامل ، 241/10 ؛ النويري ، 162/2.
هـ– ابن القلانسي (ت. 555 هـ/ 1160 م) تاريخ دمشق.
و– البيان ، 303/1 ؛ العبر ، 127/6 ، 176 ، 226.

2) الزركشي ، ص 5.

3) البيان ، 303/1 : «وغاب في رحلته خمسة عشر عامًا». الزركشي ، 4 : «فتوجّه إلى المغرب بعد أن أقام بالمشرق خمسة أعوام وقبل بإفريقيّة سنة 514 هـ ومرّ بالمهديّة وذلك في مدّة علي بن يحيى». البيان ، 308/1 : «وفي سنة 514 هـ كان حلول ابن تومرت بأغمات» (ربما نقلاً عن ابن القطّان المذكور في الجملة السابقة) ، القرطاس ، 111 : وعاد من المشرق في غرة ربيع الأوّل 510 هـ وكان لقاؤه بعبد المؤمن في تاجرة ، بلدة من ناحية تلمسان.

4) هويسي ميرندا (Huici Miranda) ، تاريخ الدولة الموحّديّة السياسيّ ، 52/1 – 59.

5) كما فعل هويسي ميرندا ، 39/1 ، الإحالة ، 1.

6) البيان ، 303/1.

«ثمّ ارتحل إلى المهديّة وأخذ عن الإمام المازري (ت. 536 هـ / 1141 – 1142م). ثم انتقل إلى الإسكندرية وهو ابن ثماني عشرة سنة»[7].

ويبدو أنّ هذا الاتّصال الأوّل بالإمام المازري غير مستبعد، وقد يفسّر لنا لماذا أشار ابن خلّكان إلى وجود ابن تومرت بالمهديّة في مدّة ولاية تميم، عند عودته من المشرق[8]. ومن المحتمل أن يكون هذا المؤلّف، أو مؤلّف الكتاب الذي اعتمده، قد اشتبه عليه الأمر بين الذهاب والإياب، لأنه من الصّعب تصديق خبر وصول المهدي إلى إفريقيّة قبل سنة 501 هـ / 1108م، تاريخ وفاة تميم.

وإذا سلّمنا بأنّ ابن تومرت قد تمكّن من التردّد بين المشرق وإفريقيّة قبل التحوّل إلى بجاية للرجوع نهائيًّا إلى المغرب الأقصى، واعتبارًا لعدم اطّلاعنا على تنقّلاته، فانه يتعيّن علينا من باب الاحتياط، استعراض مختلف الروايات دون رفض أيٍّ منها مسبّقًا. وهناك روايتان أساسيّتان حول هذا الموضوع هما: رواية ابن شدّاد ورواية ابن القطّان.

رواية ابن شدّاد[9]:

عند عودته من الحجّ سنة 505هـ / 1111 – 1112م، في مدّة يحيى بن تميم، أبحر المهدي محمّد بن تومرت من الإسكندرية ووصل إلى المهديّة عن طريق طرابلس[10]، «وليس له سوى ركوة وعصا»[11]. وحسبَ ابن خلدون[12]، فقد أقام بطرابلس مدّة يدرّس ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد ناله الأذى بسبب ذلك. وفي المهديّة «نزل بمسجد معلّق على الطريق[13]. فجلس في طاق شارع إلى المحجّة ينظر إلى المارّة، فلا يرى منكرًا من آلة الملاهي أو أواني الخمور، إلاّ نزل عليها وكسّرها. فتسامع النّاس به في البلد، فجاؤوا

7) **تاريخ الدولتين**، 4.
8) ابن خلّكان، 98/1، 37/2 – 38.
9) نقلها ابن خلّكان حرفيًّا، واعتمدها حسبما يبدو ابن الأثير والنويري.
10) ابن خلّكان، 37/2: وصل إلى المهديّة في مركب قادم من الإسكندريّة. 240/2: وصل إلى المهديّة قادمًا من طرابلس (الغرب).
11) حسب **الكامل**، [والركوة بمعنى القربة].
12) **العبر**، 226/6 – 227.
13) ابن خلّكان، ولعلّ ذلك المسجد كان يسمّى «المسجد المعلّق»، وفي **الكامل**: «نزل بمسجد قبلي مسجد السبت».

إليه ، وقرأوا عليه كتبًا من أصول الدين . وبلغ خبره الأمير يحيى فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلمّا رأى سِمَتَه وسمع كلامه أكرمه وأجلّه وسأله الدّعاء . فقال له : أصلحك الله لرعيّتك »[14] .

«ثم رحل عن المدينة وأقام بالمنستير مع جماعة من الصالحين مدّة ، وسار إلى بجاية ، ففعل فيها مثل ذلك ، فأُخْرِجَ منها إلى قرية اسمها ملاّلة ، فلقيه عبد المؤمن»[15] .

رواية ابن القطّان[16] :

وحسب هذه الرواية، وصل ابن تومرت إلى المهديّة في مدّة علي بن يحيى (509 – 515هـ/ 1116 – 1121م) ، حوالي 510 – 511هـ/ 1116 – 1118م على سبيل التقريب[17] . وبعدما فكّر الأمير في قتل الإمام الذي كسّر أواني الخمور في سوق من أسواق المهديّة ، بعث إليه المازري ، فأنّبه وخاطبه بلطف قائلاً : «إني أخاف عليك من بغض الأمير ومن جنده» . وعند ذلك ارتحل ابن تومرت إلى المنستير.

ابن تومرت في تونس وقسنطينة[18] :

لقد أمدّتنا «مذكّرات» البَيْذق بشهادة منقولة مباشرة حول إقامة ابن تومرت بمدينة تونس . وحسب هذه الشهادة ، فقد ألقى المهدي دروسًا على طلاّب تلك المدينة خلال إقامته القصيرة التي لم تتجاوز مدّتها خمسة عشر يومًا . وفي الأثناء صلّى ذات يوم صلاة الجمعة بالمسجد الجامع . وإثر الصلاة ، أدّى المصلّون صلاة الجنازة على الأموات . فلاحظ ابن تومرت وجود جثمان أحد الأموات وراء المصلّين. فسألهم لماذا لم يصلّوا عليه . فقالوا له إنه يهودي كان في حياته يؤدّي الصّلاة كسائر المسلمين . فأمّ المهدي المصلّين، وصلّى على ذلك

14) ابن خلّكان ، **الوفيات** ، 38/2 .

15) **الكامل** ، وعبد المؤمن بن علي القيسي سيكون أوّل خلفاء الدولة الموحّديّة .

16) ليفي بروفنسال ، ست مقتطفات لم يسبق نشرها...

17) **القرطاس** ، 108 ؛ ميرندا ، المرجع المذكور ، 176/1.

18) ليفي بروفنسال ، المرجع المذكور ، 50 – 51. وأشار الزركشي إلى مرور ابن تومرت من تونس بقوله : «ثم ان المهدي انتقل إلى تونس مدّة بني خراسان الولاة عليها» ، **تاريخ الدولتين** ، 4.

الميت صلاة الجنازة، إذ اعتبره من المؤمنين. ثم استدعى الفقهاء ولامهم على عدم الصّلاة على اليهودي[19]، مستشهدًا بالقرآن والسنّة. فاعترفوا بجهلهم وأخذوا عنه أمور دينهم مدّةً من الزمن. ثم غادر ابن تومرت مدينة تونس مصحوبًا بشخصَيْن[20]، يبدو أنّهما كانا من عامّة الحجيج المغاربة. ودخل قسنطينة، وقد كان واليًا عليها سبع ابن الأمير العزيز بن حمّاد[21]، فألقى فيها أيضًا بعض الدّروس، مذكّرًا الجاهلين بقواعد الشريعة، ثم ارتحل إلى بجاية.

ابن تومرت في بجاية :

لدينا عدّة روايات متباينة حول إقامة المهدي في عاصمة بني حمّاد. فقد تحدّث بعضها عن أبناء العزيز وسكت البعض الآخر عنهم. ونجد من بين الروايات الأولى رواية البيذق، ومن بين الروايات الثانية، رواية ابن القطّان.

وحسب رواية البَيْذق[22]، نزل المهدي، عند وصوله إلى بجاية في مسجد الرَّيْحَانة. وحرّم احتذاء النّعال ذات السّيور المذهّبة والتعمّم بعمامات الجاهليّة. ونهى الرجال عن التزيّن بزينة النّساء وارتداء الجلابيب المعروفة باسم «الفتوحيّات».

وأثناء إقامته في تلك المدينة خلال شهر رمضان[23] تردّد عليه بعض الفقهاء[24]. وفي يوم عيد الفطر ضرب الرجال والنساء المختلطين في الشارع وشتّت شملهم. فحذّره أحد أبناء الأمير العزيز من ردود فعل العامّة. فارتحل الإمام إلى ملاّلة حيث بنى له أبناء العزيز

---

19) هذا الأمر يبدو غريبًا. على أنّ وجود جثمان هذا اليهودي بالجامع يدلّ على انه قد اعتنق الدين الإسلامي في حياته، إذ كان يؤدّي الصلاة كسائر المسلمين. وهذه الظاهرة من الميز العنصري المنافية لتعاليم الدين الإسلامي جديرة بالملاحظة. ومما تجدر الإشارة إليه أنّ عبد المؤمن قد اضطهد اليهود والنصارى.

20) وقد ورد اسمهما في النصّ وهما : يوسف الدكالي والحاج عبد الرحمان.

21) حسب البيذق، 51—52. وهو المصدر الوحيد الذي أكّد إقامة المهدي بتلك المدينة.

22) نفس المصدر، 52—54.

23) حسب ابن خلدون، العبر، 176/6، وقد ذكر أن ابن تومرت وصل إلى بجاية سنة 512هـ. وبناء على ذلك فان الأمر يتعلق بشهر رمضان من سنة 512هـ/ 16 ديسمبر 1118 — 14 جانفي 1119م.

24) من بينهم، حسب البيذق : محرز وإبراهيم الزبدوي وإبراهيم بن محمد الملي ويوسف بن الجزيري الجراوي والقاضي عبد الرحمان بن الحاج الصنهاجي.

مسجدًا[25] ، وتوافد عليه الطلاّب من كلّ حدب وصوب. وبعد انتهاء الدرس كان يجلس في مفترق الطرقات تحت «خرّوب العجوز» ويأخذ في ذكر الله. وذات يوم دخل إلى بجاية ، ولمّا وصل إلى باب البحر سكب على الأرض الخمر الذي كان يُبَاع هناك. فضربه عبيد سبع (بن العزيز)[26] ، ورجع إلى المسجد.

وتحدّث البيذق بعد ذلك عن اللّقاء الذي جمع بين ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي. وقد أكّدت جلّ المصادر الأخرى أنّ ذلك اللّقاء قد تمّ في ملاّلة. ثم ارتحل المهدي إلى المغرب الأقصى صحبة عبد المؤمن.

وحسب رواية ابن القطّان[27] ، فقد لقي ابن تومرت في بجاية بعض الشبّان المرتدين لأزياء النّساء ، وقد أثاروا إعجاب فاسدي الأخلاق ، فوضع حدًّا لهذا المنكر. وفي أحد الأعياد[28] رأى الرجال مختلطين بالنساء والصبيان ، وهم مرتدون أفخر الملابس ، وعيونهم مُكَحَّلة ، فانهال عليهم ضربًا ، وآل الأمر إلى التشاجر وتجريد النّساء من مجوهراتهنّ. ولما علم العزيز بذلك أمر بعض الطّلبة بالتحادث مع «فقيه السّوس» الذي تسبّب في هذا الحادث. فاجتمعوا في بيت أحدهم وأحضروا الطعام والشراب. ثم وجّهوا أحد زملائهم لإحضار الإمام من المسجد الذي كان يتردّد عليه ، فرفض تلبية دعوتهم. وعند ذلك بعثوا إليه الكاتب عمر بن فلفول الذي نجح في استمالته بالحُسْنى ، وحاول إقناعه بالكفّ عن تغيير المنكر. وانتهت المناقشة بتغلّب الإمام على معارضيه.

وهناك بعض الشّهادات الأخرى الجديرة بالذكر.

فقد أكّد المراكشي أنّ أهل بجاية قبلوا ملاحظات ابن تومرت ، ولكنّ الأمير أطرده من المدينة[29]. وروى الزركشي أنّ ابن تومرت «انتقل إلى بجاية – وبها والي العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علنّاس بن حمّاد الصنهاجي – وكان يجلس على صخرة بقارعة الطريق قريبًا من ديار ملاّلة ، وهي معروفة به إلى الآن» ، (أي في عصر المؤلّف)[30].

---

25) ورد في النص أنّ هذا المسجد قد بُني قرب دار يَرْزيجَن بن عمر الذي كان يكنّى بأبي محمد ، ثم سُمِّي «عبد الواحد». البيذق ، 52.

26) البيذق ، 53.

27) ليفي بروفنسال ، المرجع المذكور.

28) لا شكّ أنه يوم عيد الفطر ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفًا.

29) المراكشي ، طبعة 1847 ، ص 129.

30) **تاريخ الدولتين** ، ص 5.

وحسب رواية ابن خلدون، لاحظ ابن تومرت أنّ العزيز ابن المنصور يعيش في البذخ، فوجّه إليه وإلى ضبّاطه تحذيرًا شديد اللّهجة. وساءته ذات يوم بعض الأفعال، وهو يتجوّل في شوارع المدينة، فكسّر أواني الخمر وآلات الملاهي. فاغتاظ السلطان وجمع مجلس وزرائه. فالتجأ ابن تومرت إلى ملاّلة واحتمى بقبيلة بني وُرْياغل الصنهاجيّة العتيدة. وقد حدّد هذا المؤرّخ تاريخ إقامة المهدي في بجاية بسنة 512هـ/ 1118 - 1119م[31].

وروى المراكشي[32]، نقلاً عن شيخ موحّدي، أنّ عبد المؤمن، عند عودته إلى المغرب الأقصى، بعد فتح إفريقيّة، توقّف في بجاية. وخلال إحدى جولاته في المدينة مرّ من «سُوَيْقَة» بالقرب من الباب المعروف باسم «باب قاطنة». فسأل عن تاجرٍ، فقيل له إنه قد توفّي. فاشترى جميع الدكاكين الموجودة في السّوق وحبّسها على أولاد الفقيد. وتبريرًا لهذه المبادرة، قال عبد المؤمن ما يلي:

أثناء إقامة ابن تومرت في بجاية، بقي الإمام ورفقاؤه عدّة أيام بلا أكل. فاشترى عبد المؤمن من التاجر المذكور خبزًا وإدامًا وعرض عليه رهن كلّ ما كان يملكه آنذاك، وهو «سكّين الدّواة». فرفض التّاجر هذا العرض ورجا من مخاطبه أن يأتي إليه كلّما دعت الحاجة إلى ذلك ليتزوّد منه مجّانًا، لوجه الله تعالى.

ولا حاجة لنا إلى تأكيد ما تكتسيه هذه الرواية والرواية الموالية من صبغة خرافية. فحسب الرواية الأخيرة، اجتاز عبد المؤمن بجاية في نفس اليوم، على صهوة جواده، صحبة يحيى بن العزيز الذي كان مترجّلاً. فأخذ ابن حمّاد الذي كان معفّرًا، يبكي، متوسّلاً إلى عبد المؤمن الذي ذكّره بالواقعة التالية:

بينما كان يحيى بن العزيز يقوم ذات يوم بإحدى جولاته، إذ نظر إليه عبد المؤمن الذي داست عقب قدمه حوافر دابّة الأمير. فأمر يحيى أحد عبيده بتعنيفه.

وبعدما لقّن الخليفة هذا الدّرس للمغلوب على أمره الذي تملّكه الخجل وخشي أن يصيبه ما لا تُحْمَد عقباه، قال له: «إنّما أردت توبيخك». ثم وضع حدًّا لمحنته.

كما نجد صدًى لمرور ابن تومرت من إفريقيّة في «**تاريخ دمشق**» لابن القلانسي[33]. فبعدما أشار هذا المؤلّف إلى رجوع ابن تومرت إلى المغرب إثر رحيله إلى العراق ومصر، وما

---

31) **العبر**، 127/6 - 128؛ **البيان**، 308/1. وقد أشار ابن عذاري، نقلاً عن ابن القطّان، حسبما يبدو، إلى أن المهدي قد حلّ بأغمات سنة 514هـ.

32) المراكشي، المرجع المذكور، 164 - 165.

33) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، 291 - 293.

قام به من نشاط في المغرب الأقصى ، حيث شرع في نشر «مذهب الفكر» ، اعتبارًا من سنة 512هـ ، روى ، حسب شاهد عيان[34] ، قصّة إقامة ابن تومرت في المهديّة ، فقد قدم المهدي من السّوس ، حيث تمكّن من استمالة عدد كبير من المصامدة ، ولمّا وصل إلى المهديّة أمر أهلها بأن يبنوا قصرًا «على نيّة الفكرة»[35] وأن «يعبدوا بالفكرة»[36] . فوافق على ذلك علماء المهديّة وفقهاؤها في اجتماع عامّ ، باستثناء واحد من أجلاّئهم ، أنكر اقتراح الإمام بشدّة حتى انتهى الأمر بإلغاء مشروع ابن تومرت وفراره من المهديّة ، دون أن يتمّ له ما كان يرومه . وإثر هذه الخيبة ، تحوّل إلى بجاية ، فحرّم فيها شرب الخمر وكسّر أواني الخمور. ولمّا استدعاه والي المدينة ميمون بن حمدون ، رفض المال الذي عرضه عليه تعفّفًا وتزهّدًا .

وروى الزركشي أنّ ابن تومرت «له بمدينة زويلة مسجد يُعرَف باسمه ، (وهو بلا شكّ مسجد المهدي) . قال الشيخ أبو الحسن البطرني : رأيت شيخنا خليلا المزدوري قال : رأيت الشيخ الصّالح أبا عبد الله محمّد الصقلّي[36] المدفون بثابر من عمل مرناق ، إحدى قرى تونس ، قال : اجتاز عَلَيَّ الإمام المهدي وأنا أسكن بزويلة ، فقال لي : يا شيخ الإمام أبو حامد (الغزالي) يسلّم عليك ! قال البطرني : وبلغني أنّ الصقلّي عاش ثلاثمائة سنة وثلاث عشرة سنة»[37] .

وأضاف الزركشي قائلاً :

«ثم إنّ المهدي انتقل إلى تونس مدّة بني خراسان الولاة عليها . ثم انتقل إلى بجاية ، وبها والي العزيز ابن المنصور ابن الناصر بن علنّاس الصنهاجي» .

وأقلّ ما يمكن أن يُقال في هذه الروايات المتعدّدة ، أنّها أقرب إلى الخرافة منها إلى التاريخ . ولكنّ الغالب على الظنّ أنّ روايَتَيْ ابن القلانسي والزركشي تشيران إلى زيارة ابن تومرت الأخيرة إلى المهدية .

---

34) وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الجبّار الصقلي ، أي نفس الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد الصقلّي الذي أشار إليه الزركشي ، **تاريخ الدولتين** ، 4 .

35) [أي مسخرًا لمذهب المهدي] .

36) وهو نفس الشخص الذي أخبر ابن القلانسي باقامة ابن تومرت في المهديّة .

37) **تاريخ الدولتين** ، 4 . وحول السؤال المتعلق بالتقاء ابن تومرت بالإمام الغزالي ، أنظر : ميرندا ، المرجع المذكور 29/1 – 32 وغولد زيهر : محمد ابن تومرت وعلم التوحيد الاسلامي بشمال إفريقيا في القرن الحادي عشر ، مقدمة كتاب ابن تومرت ، الجزائر 1903 ، ص 5 وما بعدها . لوتورنو ، (Le Tourneau) : هل اجتمع الغزالي بابن تومرت؟ نشرية الدراسات العربيّة ، 1947 ، ص 147 – 148 .

وفي الختام نلاحظ أنّه ليس من المستبعد أن يكون ابن تومرت، بعدما أبحر من المرية، قد توقّف في المهديّة حوالي سنة 501هـ/ 1108م، في مدّة تميم، ثم رجع إليها سنة 505هـ/ 1111–1112م في مدّة يحيى. وبعدما قضى زهاء العشر سنين في المشرق عاد إلى المغرب حوالي سنة 510–511هـ/ 1116–1118م. ويبدو أنه مرّ خلال رحلته من المدن التالية: طرابلس – المهديّة – المنستير – تونس – قسنطينة – بجاية (حيث كان موجودًا سنة 512هـ، وقد قضى بها شهر رمضان/ 16 ديسمبر 1118 – 14 جانفي 1119م) – ملاّلة، وقد التقى فيها بعبد المؤمن بن علي، وأقام بها عدّة شهور، قبل عودته إلى المغرب الأقصى، سالكًا الطريق الساحليّة، إلى أن وصل إلى تلمسان[38].

فهل كان يخطر ببال الصنهاجيّين أنّهم قد شهدوا مرور الرّجل الذي سيبعث دولة جديدة وسيعمد بعد ذلك بحوالي أربعين سنة إلى الإجهاز على دولتهم؟

38) أنظر: هويسي ميرندا، المرجع السابق، لا سيما الخريطة المنشورة بين ص 40 و41 وص 59. وقد قضى ابن تومرت سنة 513هـ/ 1119–1120م في قطع المسافة الفاصلة بين ملالة وسلا. وأقام بمرّاكش في أوائل سنة 514هـ/ ربيع وصائفة سنة 1120م ثم تحوّل إلى أغمات وقضى بها شتاء سنة 514هـ/ 1120–1121م.

الفصل الرّابع
ولاية الحسن بن علي وغزو النّرمان إفريقيّة

ارتقاء الحسن إلى العرش(1) :

لقد وُلِدَ وليّ العهد الحسن بن علي بسوسة في رجب سنة 502هـ/ 4 فيفري – 5 مارس 1109م ، وكان عمره عندما ارتقى إلى العرش اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر. وغداة وفاة أبيه ، حسب الاحتمال ، «دخل الناس إليه مهنّئين بالمُلْك ومعزّين بالوفاة ، وأنشده الشّعراء»(2) .

«وركب على عادته وطاف البلاد وفرح النّاس به وفرّق أموالاً في العبيد والأجناد وخلع على أصحاب دولته وأكابر أجناده»(3) .

«وتكفّل بأمر دولته صندل الخادم(4) لا لمعرفةٍ ولا لسياسة»(5) «فلم تطل أيّامه حتى توفّي ، فوقع الاختلاف بين أصحابه وقوّاده ، كلّ منهم يقول : أنا المقدّم على الجميع وبيدي الحلّ والشدّ. فلم يزالوا كذلك إلى أن فوّض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له أبو عزيز مُوَفّق ، فصلحت الأمور»(6) . ولا نعلم متى ولا كيف أمسك الحسن بزمام الدولة. وقد كان هذا الأمير يُكَنّى بأبي يحيى(7) . إلاّ أنّ ديوان الرسائل الفاطمي قد أطلق عليه في سنة 517هـ/ 1123م – كما سنرى – لقب «تاج الخلافة أبي منصور» .

---

1) **البيان** ، 308/1 ؛ **الكامل** ، 250/10 ؛ النويري ، 166/2 ؛ **العبر** ، 161/6 ؛ ابن خلّكان ، 242/2 ؛ **المؤنس** ، 89 .

2) **البيان** ، 308/1 .

3) **المؤنس** ، 89 ؛ ابن خلّكان ، 242/2 .

4) أطلقت عليه المصادر النعوت التالية : المولى – الخادم – الخصيّ [وفي **المؤنس** : القائد] .

5) **البيان** ، 308/1 .

6) **الكامل**. أمّا ابن عذاري فإنّه لم يشر لا إلى وفاة صندل ولا إلى وفاة خليفته .

7) أنظر بالخصوص ، **ديوان** ابن حمديس ، ص 454 ، مع الملاحظ أن القصيدة رقم 46 – 49 تشير إلى انتصار الديماس (517هـ/ 1123م) .

هجوم النرمان على المهديّة (قضيّة قصر الديماس)[8] :

في سنة 516 هـ / 1122 م وجّه الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ضدّ سواحل قلبرّيّة أسطولاً بقيادة أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون[9]، ففتتح مدينة نقوطرة وسبى نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجده فيها.

فاقتنع رُجَار الثاني بأنّ هذا العمل العدواني ناتج عن الحلف المبرم بين بني زيري والمرابطين في مدّة عليّ، وظنّ أنّ الباعث على ذلك إنما هو الحسن. «فجدّ في تعمير الشواني والمراكب وحَشَدَ فأَكْثَرَ، ومنع من السفر إلى إفريقيّة وغيرها من بلاد المغرب»[10]. ويبدو أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بانجاز مشروع مُبيَّت، بل يتعلّق بتنظيم غارة خاطفة لردع الحسن، لا سيما وقد كانت قضيّة جنوب إيطاليا تشغل بال العاهل النّرماني[11].

«فلمّا انقطعت الطريق عن إفريقية، توقّع الأمير الحسن بن علي خروج العدوّ إلى المهديّة. فأمر باتّخاذ العُدَد وتجديد الأسوار وجمع المُقَاتِلَة، فأتاه من أهل البلاد ومن العرب جمع كثير»[12] واتخذت الدولة جميع الإحتياطات لمواجهة أيّ هجوم متوقّع، بل إنها التمست تدخّل الخليفة الفاطمي لدى البلاط الصقلّي.

ولسرد الوقائع، ليس أحسن من اعتماد رحلة التجاني التي وردت فيها رواية غزيرة المعلومات، تتضمّن بعض فصول من البيان الذي وجّهه الحسن إلى سائر الجهات لإعلامها

---

8) أ) أهمّ مصدر هو التجاني، ونجد نفس النصّ في الحلل، 243/1 – 246، وفيه فقرة طويلة منسوبة إلى مؤرّخ بني زيري ابن شدّاد، تتضمّن سردًا مفصّلاً للوقائع ونصّ البيان الذي أصدره الحسن. وفي الخريدة [قسم المغرب، تونس 1986، النشرة الثالثة، ص 204 – 205]، قصيدة «في مدح حسن بن علي بن يحيى بن تميم، وقد كثر الإرجاف بخروج أسطول صاحب صقليّة إلى إفريقيّة وقصد به المهديّة في سنة سبع عشرة وخمسمائة».
ب) الكامل، 260/10 – 261.
ج) العبر، 161/6.
د) البيان، 309/1.
هـ) ديوان ابن حمديس، ص ص 46 – 49، 220 – 224، 225 – 229.
و) ابن ميسّر، 63.
ز) المؤنس، 89 – 90.

9) البيان والعبر، والتجاني يسمّيه علي بن ميمون.

10) الكامل، المصدر السابق.

11) ستوريا، 387/3.

12) الكامل. لا ينبغي اعتماد الرّقم المبالغ فيه الذي أورده ابن أبي دينار: 100000 راجل و10000 فارس.

بهذا الفتح. ويبدو أنّ ذلك البيان مقتبس من كتاب المؤرّخ الرسمي للدولة، أبو الصّلت أميّة، الذي ينتهي بالضبط في سنة 517هـ[13]. وقد أكّدت المصادر الأخرى تلك المعطيات.

في جمادى الأولى سنة 517هـ/ 27 جوان – 26 جويلية 1123م، وجّه كونت صقليّة إلى المهديّة أسطولاً في نحو من ثلاثمائة مركب حُمِلَ على ظهرها ثلاثون ألف راكب وزهاء ألف فارس، بقيادة جرجي الأنطاكي وعبد الرحمان بن عبد العزيز المسمّى في المصادر المسيحيّة «كريستو دولوس»[14].

ولمّا سار الأسطول من مرسى علي[14م]، تعرّض لعاصفة بحريّة عنيفة، فرّقته وكبّدته خسائر فادحة. وقد علم الحسن بإبحار الأسطول النّرماني وبالكارثة التي أصابته بواسطة ركّاب سفينة نرمانيّة دفعت بها العاصفة إلى سواحل إفريقيّة. «ونازل مَنْ سلم منهم جزيرة قَوْصَرة، ففتحوها وقتلوا مَنْ بها وسبوا وغنموا وساروا عنها، فوصلوا إلى إفريقيّة»[15].

ولمّا أحيط الحسن علمًا بالأمر، كان له من الوقت ما يكفيه لاتّخاذ الإجراءات الدفاعيّة القصوى. وقد ذكر شاعره ابن حمديس اسم القائد العام للجيش، وهو أبو إسحاق إبراهيم[16]، واسم قائد القبائل العربيّة من بني هلال وبني رياح الذين عزّزوا جانب الجيوش النظاميّة بنو دهمان وبنو زياد وبنو صخر، وهو محرز بن زياد[17].

فلمّا كان يوم السبت لخمسٍ بقين من جمادى الأولى سنة 517هـ (21 جويلية 1123م)، وصل أسطول رُجَار[18] (الثاني) إلى المهديّة، فأرسى بالجزيرة المعروفة بجزيرة الأحاسي[19]، وهي على عشرة أميال من المهديّة. ونزل قائداه عبد الرحمان (بن عبد العزيز) وجرجي (الأنطاكي)[20] إلى الجزيرة وضُرِبَتْ لهما ولمقدّمي الفرنج مضارب هناك،

---

13) **البيان**، 309/1 : «إلى هنا انتهى كلام أبي الصّلت في أخبار المهديّة وأميرها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم إلى سنة 517هـ».

14) **ستوريا**، 360/3 – 363 ؛ شالندون، 373/1 – 374.

14م) مرسى علي: Marsala

15) **الكامل**.

16) **ديوان** ابن حمديس ص 222 – 228. ولا نعلم أي شيء آخر عن هذا الشخص.

17) **ديوان** ابن حمديس، ص 223.

18) في الأصل: «لُجّار».

19) الأحاسي: جمع حِسى أو حِسي وهو البئر الموجودة في أرض رمليّة.

20) [في الأصل: «جرجير»].

وكان وصولهم آخر النهار. فخرج منهم خلق كثير وانبسطوا حتّى بعدوا عن البحر أميالاً ثم عادوا إلى الجزيرة[21].

«ووصل القائدان في اليوم الثاني (26 جمادى الأولى 517هـ / 22 جويلية 1123م) في البحر في بعض قطعهم (300 شانية) إلى المهديّة، فأطافا بها وانتهيا إلى ساحل زويلة، فهالهما ما رَأَيَا بالأسوار والسواحل من النّاس، وانصرفا عائِدَيْن إلى الجزيرة. فوجدا طائفة من العرب والأجناد قد دخلوا إليها وكشفوا مَنْ كان بها من الروم عن مواضعهم وقتلوا منهم قومًا وانتهبوا بعض أسلحتهم.

«فلمّا كان في اليوم الثالث (الاثنين 27 جمادى الأولى / 23 جويلية) تمكّن النصارى من القصر المعروف بقصر الديماس[22] وحصل به زهاء مائة منهم بإعانة بعض الأعراب لهم على ذلك[23]، لِمَا منّاهم به عبد الرحمان وصاحبه. وقد كان رُجّار أمرهما بذلك من النزول بجزيرة الأحاسي والتحيّل في أخذ قصر الديماس بمباطنة العرب، ثم الزحف من هناك في البرّ بالرجال والخيل إلى المهديّة.

«فلمّا كان اليوم الرابع (الثلاثاء 28 جمادى الأولى / 24 جويلية) اجتمع المسلمون وخرجوا من المدينة وكبّروا تكبيرة راعت مَنْ في الجزيرة، فظنّوا أنهم داخلون إليهم، فانهزموا إلى مراكبهم وقتلوا بأيديهم كثيرًا من خيلهم. ودخل المسلمون الجزيرة وليس بها أحدٌ منهم، فوجدوا فيها خيلاً (400 فرس) وآلات وأسلحة أعجلهم الهرب عن حملها»[24].

وعند ذلك زحف الأعراب على قصر الديماس الذي اعتصم به زهاء مائة نرماني.

---

21) جاء في بيان الأمير الحسن أنّ النرمان «أنزلوا عن ظهور مراكبهم ما كان أبقاه الغرق من أفراسهم، فكانت خمسمائة فرس».

22) يوجد هذا الحصن بالقرب من قرية البقالطة الحالية الواقعة في منتصف الطريق الرابطة بين المنستير والمهديّة. وحول معنى ديماس أنظر: دوزي، الملحق، 460/1. وأشار حسن حسني عبد الوهاب في فصله: «المدن العربية المنقرضة» (تحية ويليام مارسي، باريس 1950، ص 14) أنّ هذه الربوة تشتمل على بقايا رباط أقيم في موقع مدينة تَبْسا أو تبسوس، العتيقة.

23) وقعت الإشارة إلى هذه الخيانة في ديوان ابن حمديس ص 221، وفي الرواية المنسوبة إلى أبي الصّلت وكذلك في البيان الرّسمي، الذي لم يذكر سوى خائن واحد، مراعاةً للأعراب. أما المصادر الأخرى (البيان والكامل والعبر) فإنها لم تشر إلى هذه الواقعة المحتملة، رغم أنه من الممكن أن تكون ذريعة للتنقيص من أهمّية هذه الهزيمة الجزئية. ولكنّ بيان الأمير الحسن قد أشاد بالأعراب، فلا يمكن أن يختلق هذه الخيانة، بل بالعكس من ذلك، فإنه قد أشار إليها على مضض. على أن الأعراب هم الذين كانوا يدافعون عن الحصن حسب ابن الأثير.

24) رحلة التجاني، 336.

«فجرّدنا[25] من خيلنا من تولّى أمره ، وباشر حصره . إذ كانت العرب لا تباشر مثل هذا ، إنما تعرف الحُصُن [ج. حصان] لا الحصون ، وإنما يعظم غناؤها في السهول لا الحزون» .

ويواصل التجاني روايته قائلاً :

«وأحاط (المسلمون) بقصر الديماس يقاتلونه ، والأسطول في البحر يعاين ذلك ولا يستطيع إغاثة مَنْ في القصر ، لكثرة ما اجتمع في البرّ من عساكر المسلمين ، فلما علموا أنهم غير قادرين على استنقاذ مَنْ في القصر ، أقلعوا عائدين إلى صقليّة»[26] .

«وكان عدد المراكب الواردة من صقلية ثلاثمائة مركب ، فلم يرجع منها إلى صقلية إلاّ قدر مائة مركب ، ولم يَنْجَ من الخيل إلاّ فَرَسان»[27] .

وتواصل حصار الديماس ستة عشر يومًا ، فطلب مَنْ في القصر من النزمان الأمان من الحسن[28] ، بل اقترح عدد منهم دفع فدية غالية للنجاة بأنفسهم . فلم يستجب الأمير لطلبهم ، إرْضاءً للأعراب الذين رفضوا ذلك العرض .

«وأقام المسلمون يقاتلون مَنْ في القصر إلى أن اشتدّ عليهم الحصار وفنى ماؤهم وطعامهم ، فخرجوا منه ليلة الأربعاء الرابع عشر من جمادى الأولى (ليلة 5 أوت) ، فتخطّفتهم سيوف الأعراب ، فقُتِلوا عن آخرهم»[29] .

ولمّا رجع الفرنج مقهورين ، أرسل الأمير الحسن البشرى إلى سائر البلاد ، وقال الشعراء في الحادثة ، فأكثروا»[30] .

ورغم عدم استغرابنا من هذا الابتهاج ، فانه يحقّ لنا أن نتساءل هل أنه لا يدلّ على جسامة الخطر الذي وقع تفاديه ، والتخوّف من المستقبل؟ .

ومهما يكن من أمر ، فان المؤرّخ ابن مُيَسّر[31] قد أخبرنا بوصول رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور الحسن بن علي ، صاحب المهديّة إلى القاهرة في شهر جمادى الأولى سنة 517 هـ / 27 جوان – 26 جويلية 1123 م ، لتقديم شواهد الطاعة إلى الخليفة باسم الأمير

---

25) [من بيان الأمير الحسن] .

26) **رحلة التجاني** ، 336 .

27) **المؤنس** ، 89 – 90 .

28) **البيان** و**ديوان** ابن حمديس ، ص 222 .

29) التجاني ، المصدر المذكور .

30) **الكامل** ، 10/260 – 261 .

31) ابن ميسّر ، 63 .

الحسن وإعلامه بأن حاكم صقلية «رُجَار بن لُجَار» الذي أساء إلى الأمير مرارًا وتكرارًا، يستعدّ لإشهار الحرب عليه. والتمس الحسن من الخليفة الفاطمي التدخّل لدى رُجَار لمنعه من ذلك. فوجّه الخليفة إلى صقلية رسوله مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخدّ. وتمّ الصّلح بين المتخاصِمَيْن. ويُفْهَم من ذلك أنّ العلاقات بين الدولة الفاطميّة وصقلية كانت طيّبة آنذاك. ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ المؤرّخ الفاطمي قد بالغ عمدًا في أهميّة الوساطة الفاطميّة التي يبدو أنها لم تحرز ما نسبها إليها من نجاح. كما أنّه لم يُشِرْ إلى واقعة الديماس، ممّا يدلّ على أنّ توجيه الرسول قد سبقها[32]. أضف إلى ذلك أنّه لم يؤكّد أيّ مصدر آخر إبرام الصّلح بين بني زيري والنّرمان بواسطة الخليفة الفاطمي.

ولا شكّ أنّ مجزرة قصر الديماس قد أثارت رغبة الانتقام لدى البلاط الصقلي الذي تأثر تأثّرًا بالغًا بفشل الحملة العسكريّة[33]. فمن الغريب أن يكون ذلك تمهيدًا لإبرام اتّفاق محتمل! على أنّ المصادر، سواء منها المسيحيّة أو الإسلاميّة[34]، قد أكّدت أنّ الأعمال الحربيّة تواصلت بين الصقليّين والمسلمين في السنوات الموالية. فقد أخضع رُجَار الثاني لسلطته عدّة جزر من بينها مالطة سنة 1127م / 521هـ. إلاّ أنّ المسلمين ولا سيّما المرابطين هم الذين كانوا يقومون في أغلب الأحيان بالهجومات على سواحل صقلية. ففي صائفة سنة 1127م / 521هـ هجم على مدينتيْ باتي وسرقوسة أمير البحر المرابطي الشهير محمد بن ميمون صاحب الغارة الجريئة على نقوطرة، فنهبهما وأحرقهما. وأوشك أهل قطانية أن يتعرّضوا لنفس المصير، لو لم يقع تنبيههم إلى ذلك في الإبان، حتّى يأخذوا الاستعدادات اللازمة للدفاع عن مدينتهم. وقد بادر رُجَار إلى ردّ الفعل بالتحالف مع كونت برشلونة ريموند الثالث ضدّ المرابطين وإبرام معاهدة معه في جانفي 1128م / أواخر 521 أوائل 522هـ. كما أبرم معاهدة أخرى مع مدينة سافونة يوم 11 ماي من نفس السنة / 9 جمادى الأولى 522هـ، ممّا يدلّ على رغبة كونت صقليّة في ضمان إيجاد حلفاء له خلال المعركة التي سيخوضها ضدّ المسلمين[35]. إلاّ أنّ قضايا دوقيّة بُويَة التي تمكّن من إخضاعها، قد تسبّبت في ركود مشاريعه الإفريقيّة طوال عدّة سنوات.

---

32) جرت الواقعة في أواخر جمادى الأولى ووصل الرسول في نفس الشهر.

33) **ستوريا**، 3/394 – 395.

34) **العبر**، 6/161؛ والتجاني، 336. وينبغي إتمام هذين المصدرين الغامضين ببعض المصادر المسيحيّة: ستوريا، 3/385 – 386؛ وشالندون، 1/377.

35) **ستوريا**، 3/396 – 398 وشالندون، 1/378 – 379.

وبعدما أصبح رُجار الثاني يتحكّم في جنوب إيطاليا وجزيرة صقليّة، تلقّب بلقب المَلِك، وقد تمّ تتويجه يوم 25 ديسمبر 1130م / 22 محرّم 525هـ[36].

مدينة تونس من سنة 522 إلى سنة 550هـ:

حسب إشارة خاطفة لم يوردها سوى ابن عذاري[37]، «في سنة 522هـ/ (1128م) بعث العزيز بالله بن المنصور صاحب بجاية عسكرًا إلى المهديّة، قوّد عليه ابن المُهَلَّب، فنزل عليها، ثمّ انصرف ناكصًا على عقبه». ويبدو أنّ الأمر كان يتعلّق بغارة أو محاولة استطلاعيّة ترمي إلى تحضير حملة عسكريّة لاحقة. إذ أنّ المؤلّف لم يتحدّث عن معارك.

ومهما يكن من أمر، ففي نفس تلك السنة [38]، هجم على مدينة تونس مُطَرَّف بن علي بن خزرون الزناتي[39] قائد يحيى بن العزيز بن حمّاد. وحسب ابن خلدون[40]، انطلق مطرّف من بجاية، فاحتلّ جلّ مدن إفريقيّة قبل أن يستولي على تونس. وهذا الإدّعاء الذي لم يؤكّده أيّ مصدر آخر، لا يمكن الاعتماد عليه. إلاّ أنّه ليس من المستبعد أن يكون القائد الحمّادي قد أخضع في طريقه بعض المدن قبل الاستيلاء على مدينة بني خراسان.

وعندما وصل مطرّف إلى مدينة تونس خرج إليه أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن خراسان واستسلم بين يديه. «فنُقِلَ إلى بجاية وبها مات»[41]. وولّى مطرّف كرامة بن

---

36) ستوريا، 399/3 – 403 وشالندون، 379/1، 1/2 – 2.

37) البيان، 310/1، وقد سمّي ابن حمّاد خطأً العزيز، والحال أن هذا الأمير قد توفي سنة 515 أو 518هـ.

38) البيان، 310/1؛ العبر، 164/6.

39) البيان، 310/1. وقد حافظنا على قراءة «خزرون» ولو أنّ المؤلّف يسمّيه في موضع آخر (312/1 – 315): علي بن حمّود. وحسب ابن خلدون والتجاني وابن الأثير: مطرّف بن حمدون. ويمكن تفسير هذا الالتباس بالدور الذي قام به بنو حمدون في بجاية. ومن ناحية أخرى فقد وُصِفَ مطرّف عدة مرات بالفقيه (التجاني والحلل والمؤنس). وبسبب الالتباس أو تحريف النصّ، حسبما يبدو، قال ابن خلدون (العبر، 177/6) أنّ مطرّف وجّه «ولده» ضدّ تونس. فهل نستنتج من ذلك أن هذا الأخير قد رافق أباه؟ ويضيف نفس المؤرّخ أنّ الهجوم الّذي وُجِّه ضدّ المهديّة بدون جدوى قد تمّ أثناء هذه الحملة.

40) العبر، 164/6.

41) البيان، 310/1: «ونقل إلى الحجاز وبها مات». ولكننا نجد في موضع آخر من نفس الكتاب (315/1): «فنقله إلى بجاية». ولذلك فاننا نقترح إصلاح الفقرة السابقة كما يلي: «ونُقِلَ إلى بجاية وبها مات». اللّهم إلا إذا اعتبرنا أنّ أحمد قد تحوّل إلى الحجاز قبل نقله إلى بجاية، وبه مات. ومع ذلك فإنّه يتعيّن تأكيد الإصلاح المذكور الذي يرتكز على نصّ البيان ذاته.

المنصور بن حمّاد عمّ يحيى بن العزيز، الذي بقي واليًا على تونس إلى أن مات سنة(كذا). فخلفه أخوه أبو الفتوح بن المنصور، وتوفّي وهو مباشر لولاية تونس. ثم وَلِيَهَا بعده ابنه محمد بن أبي الفتوح، «فلم تُسْتَحْسَنَ سيرته، فأُخْرِج عنها ووليها مَعَدّ بن المنصور فأقام عليها إلى سنة 543هـ/ (1148 - 1149م)»[42].

وكانت بإفريقيّة وقتئذ مجاعة عظيمة. وقبل ذلك بقليل سقطت المهديّة وصفاقس[43] بين أيدي النّرمان. «فأخذ أهل تونس في الاستعداد والأهبة والوقوف بجماعتهم وقتًا بعد وقت عند باب البحر، بمحضر واليهم معدّ بن المنصور وهو في الدّيوان[44] على الباب. فخرجوا يومًا من أيّام عرضهم، فوجدوا قاربا يُوسِقُ زرعًا (حبوبًا)، فأنكرت العامّة خروج الزرع من بلدهم في تلك الشدّة إلى موضع تحت مملكة الروم، واجتمعوا على منعه، وضجّت العامّة وارتفع صياحهم، فتعرّض لهم رجال معدّ بن المنصور، فوضعوا السلاح في عبيد معدّ واليهم، وقتلوهم قتلة شنيعة، وأطلقوا النار تحت برج الديوان، فنزل معدّ عنه، واستسلم للعامّة، فوقفوا عنه، فكانوا يأخذون رجاله وعبيده من تحت ركابه ويقتلونهم. وبقي معدّ بعد ذلك بتونس على حال قهرٍ من العامّة، وكتب إلى بجاية، فجاءه غراب [سفينة حربيّة] منها، فطلع فيه مع بنيه، وسار إلى بجاية. ورجع النظر في تونس لقائد من قوّاد صنهاجة (اسمه العزيز بن دافال)[45] مدّة يسيرة، ثم انصرف وبقي البلد في حكم العامّة»[46].

وقبل ذلك بقليل استولى محرز بن زياد أمير قبيلة بني عليّ الرياحيّة على بلدة المعلّقة الواقعة بين تونس وقرطاجنة، فجزع أهل تونس وأشهروا عليه الحرب. وطوال العمليّات الحربيّة التي تخلّلتها انتصارات وهزائم، حظي محرز بمساندة جند المهديّة، إلى أن استولى النصارى على تلك المدينة[47].

---

42) **البيان**، 316/1.

43) **البيان**، 313/1، وقد جاء فيه أنّ هذه الواقعة قد جرت بعد سقوط المهديّة. وكان النّصارى قد احتلّوا صفاقس ودخلوا إلى عنابة. والحال أنّهم لم يستولوا على هذه المدينة الأخيرة إلاّ في سنة 548هـ. فلعلّ الأمر يتعلّق بمجرّد غارة خاطفة.

44) [الديوان : مكتب الجمارك]..

45) **العبر**، 146/6 : دامال.

46) **البيان**، 314/1.

47) **العبر**، المصدر المذكور.

«وكان القتال بين أهل باب السويقة وأهل باب الجزيرة[48] ، ومدبّرهم في تلك المدّة قاضيهم أبو محمّد عبد المنعم ابن الإمام أبي الحسن[49] .

«ولمّا اشتدّ خوف أهل تونس من صاحب صقلية وممّا سمعوه من غضب صاحب بجاية واستعداده لهم ، أخذوا في تمليك محرز بن زياد العربي[50] بإرادة قاضيهم ، فلمّا عزموا على ذلك ، ووصل محرز إلى تونس وخرج القاضي والأشياخ إلى لقائه ، صاح رجل من العامّة : «لا طاعة لعربي ولا غُزّي» . وقامت الفتنة ، فرجع ابن زياد إلى المعلّقة[51] ، وأراد القاضي الرجوع إلى المدينة ، فمنعته العامّة وأخرجته ، فسار مع ابن زياد إلى المعلّقة وأقام بها مدّة طويلة إلى أن مات . فيقال انه كان راقدًا في الصيف في طاق عُلُوّ ، فوقع منها ومات ، ويقال إنه رُمِيَ منها»[52] .

ومهما يكن من أمر ، فان أهل تونس ، بعدما أبعدوا محرز بن زياد ، لم يجدوا واليًا يناسبهم . وعند ذلك رأوا أنّ أحسن حلّ يتمثّل في إرجاع أحد بني خراسان إلى الحكم ، ربّما لأنهم ملّوا الفتن أو شعورًا منهم بخطورة الوضع . «فوجّهوا إلى أبي بكر بن إسماعيل بن عبد الحقّ بن خراسان (الذي كان في بنزرت) ، فوصل إلى تونس باللّيل ، فرُفِع في قفّة من السّور»[53] . ولعلّ هذا الدّخول السرّي الذي لا يكفي تفسيره بغلق أبواب المدينة في اللّيل ، يسمح لنا بأن نفترض أنّ أهل تونس لم يكونوا كلّهم راضين عن تولية ذلك الأمير.

وعلى كلّ حال ، فقد تولّى أبو بكر بن خراسان على تونس نحو سبعة أشهر ، «ثم غدر به عبد الله ابن أخيه عبد العزيز ، وأخرجه في قارب في البحر ، فرماه البحر ميّتًا عند قلعة ابن غَبُوش . فيقال إنه غَرِق ، ويقال إنه غُرِّق»[54] .

«فولّى تونس عبد الله بن عبد العزيز نحو عشر سنين ، (إلى أن فتح الموحّدون المدينة) . وهو الذي قتل القاضي أبا الفضل جعفر بن حلوان ، وقتل معه ولده وولد أخته ابن البنّاد ،

48) [باب سويقة وباب الجزيرة ربضان تابعان لمدينة تونس].

49) **العبر** ، 164/6 ؛ و**البيان** ، 314/1. ويظن أماري (**ستوريا** ، 436/3) أن ربض باب سويقة تسكنه العامّة وربض باب الجزيرة تسكنه الخاصّة.

50) [في الأصل «محمد»].

51) [في الأصل «القلعة»].

52) **البيان** ، 314/1.

53) نفس المصدر.

54) نفس المصدر.

لمّا خشي أن يجمعوا عليه العرب»[55]. ولعلّ الأمر كان يتعلّق بمؤامرة مدبّرة لفائدة القائد الرياحي محرز بن زياد.

هجوم بني حمّاد على المهديّة[56] :

في سنة 529 هـ / 22 أكتوبر 1134 – 10 أكتوبر 1135م، وعلى الأرجح في أخر تلك السنة[57]، وجّه صاحب بجاية يحيى بن عبد العزيز بن حمّاد حملة عسكريّة عظيمة ضدّ المهديّة. ويبدو أنّ قسمًا من أهل تلك المدينة قد دعاه إلى القيام بتلك الحملة.

«وكان سبب ذلك – حسب ابن الأثير – أنّ الحسن أحبّ ميمون بن زياد أمير طائفة كبيرة من العرب، ومال إليه وأكثر الإنعام عليه، فحسده غيره من العرب، فساروا إلى يحيى بن العزيز بأولادهم وجعلوهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكرًا ليملكوا المهديّة»[58]. أفلا يكون هذا الأمير العربي الذي أحبّه الحسن، هو نفس الأمير الذي كان عليّ قد وجّهه إلى جبل وسلات سنة 510 هـ / 1116م لإرجاع الأمن إلى نصابه، وهو ميمون بن زياد الصخري المعادي؟[59] وبما أنّ بني صخر هم من الأثبج، فلا بدّ أن تكون بعض الفرق الهلاليّة الأخرى، ولا سيما منها قبيلة رياح المرتبطة ببني زيري، قد استاءت من تفاقم نفوذ ميمون بن زياد.

ولكننا نلاحظ أنّ هذا الخبر لم يورده سوى المؤلّف المشرقي ابن الأثير دون ذكر المرجع، وأنّ التحليل النقدي للنصّ يسمح لنا بقراءة «محرز» عوض «ميمون». وفي هذه الصورة يكون الأمر متعلّقًا بمحرز بن زياد صاحب المعلّقة الذي سيستقبل فيما بعد الملك الصنهاجي المخلوع الذي أطرده النصارى من المهديّة، فيمكن أن يكون محرز بن زياد هو ذلك الحظيّ الذي «أكثر الحسن الإنعام عليه، فحسده غيره من العرب». لا سيما وأنّ

---

55) نفس المصدر.

56) **الكامل**، 14/11 وهو أهمّ مصدر؛ **البيان**، 312/1؛ **العبر**، 161/6 – 162؛ التجاني، 340 – 341؛ **الحلل**، 246/1؛ **المؤنس**، 90. وفي **البيان**، ينبغي تعويض علي بن حمّود، بمطرّف بن علي بن حزرون، والعزيز بن المنصور بيحيى بن العزيز بن المنصور.

57) مصدر واحد، وهو **البيان**، يقول : 530 هـ.

58) **الكامل** : ميمون بن زيادة.

59) أنظر الفقرة السابقة من الكتاب حول قضيّة جبل وسلات.

إسراع الحسن إلى الالتجاء لدى ذلك الحظيّ إثر خروجه من المهديّة ، قد يؤيّد ذلك الافتراض. ألَمْ يؤكّد ابن الأثير في هذا السياق أنّ الحسن «قد وصل إلى محرز ، وكان الحسن قد فضّله على جميع العرب وأحسن إليه ووصله بكثير من المال»؟[60]

ودائمًا ، حسب نفس المصدر ، أجاب العرب يحيى «وهو متباطئ». ثم أضاف المؤلّف قائلاً :

«فاتّفق أنه وصله كُتُبٌ من بعض مشايخ المهديّة بمثل ذلك». وقد كان بودّنا التعرّف على هويّة هذا الشخص.

ومن ناحية أخرى ، أكّد ابن أبي دينار هذا التدخّل الثاني قائلاً : «فكاتب أهل المهديّة يحيى بن العزيز صاحب بجاية وأطمعوه بتسليم البلد»[61] ، وذلك لأنّ الحسن قد صالح الملك رُجَار الثاني وأرسل إليه بهديّة وقبل الشروط التي فرضها عليه. ويبدو أنّ الطرفَيْن كانا يرغبان في إبرام الصّلح. ذلك أنّ حكومة المهديّة كانت في حاجة إلى القمح الصقلّي ، وكانت تخشى القتال على واجهتين في نفس الوقت ، فرأت من الصالح التفاهم مع النّرمان لتتمكّن من مقاومة خطر بني حمّاد على أحسن وجه. وإنّنا نجهل تاريخ المحادثات التي بادر الحسن بإجرائها مع رُجَار الثاني. ومن المحتمل أن تكون قد أُبْرِمَت معاهدة صلح بين العاهلَيْن. ومن المستبعد أن يكون صاحب صقليّة قد أظهر تصلّبًا في موقفه ، لأن تصدير الحبوب مربح جدًّا ، ولأنّ أعمال الشغب الواجب عليه قمعها ، من شأنها أن تؤول إلى إرجاء تنفيذ المشاريع الإفريقيّة إلى موعد لاحق[62].

وبناء على ذلك فقد وجّه يحيى أسطولاً وجيشًا بقيادة مُطَرِّف بن خزرون[63] ضدّ المهديّة ، وسلّم إلى ذلك القائد أموالاً لتوزيعها على العرب. «فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم جمع كثير من العرب حتى نزلوا على المهديّة»[64]. فحاصروها من جهة الجنوب وأقاموا معسكرهم بالقرب من زويلة. وتوافد الأعراب على مطرّف من كلّ حدب

---

60) **الكامل** ، 57/11.

61) **المؤنس** ، 90.

62) شالندون ، 157/2 – 158 وستوريا ، 410/2 – 411.

63) [في **الكامل** «ابن حمدون»] ، ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بمطرّف بن علي بن خزرون الزناتي.

64) **الكامل** ، المصدر المذكور.

وصوب ، «ولم يكن له إرب في القتل ، لإطماع أهل البلد إيّاه. وطال الحصار على أهل المهديّة»[65].

«وكان مطرّف (وهو فقيه أيضًا) يظهر التقشّف والتورّع عن الدّماء، وقال : «إنّما أتيت الآن لأتسلّم البلد بغير قتال». فخاب ظنّه ، وبقي أيّامًا لم يقاتل ، ثم إنهم باشروا ، فظهر أهل المهديّة عليهم ، وأثّروا فيهم. وتتابع القتال ، وفي كلّ مرّة كان الظّفر لأهل البلد ، وقتل من الخارجين الجمّ الغفير. وجمع مطرّف عسكره برًّا وبحرًا ، لمّا يئس من التسليم ، وقاتل أشدّ قتال. فملكت شوانيه شاطئ البحر وقربوا من السّور ، فاشتدّ الأمر ، فأمر الحسن بفتح الباب ، وخرج أوّل النّاس ، وحمل هو ومَنْ معه عليهم ، وقال : «أنا الحسن» ! فلما سمع من يقاتله ذلك ، سلّموا عليه ، وانهزموا عنه إجلالاً له»[66].

والجدير بالملاحظة أنّ هذه الصّورة البطوليّة التي أُضْفِيَت على خروج الحسن من المدينة ، لا تخلو من عظمة. ولكن يصعب علينا التصديق بأنّها قد أثّرت مثل ذلك التأثير في الخصم. ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بتأويل شبه خرافي أقرب إلى التمجيد منه إلى التاريخ. ولكنّنا نستخلص من هذه الرواية أنّ الهجوم الذي شنّه مطرّف قد مُنِي بفشل ذريع ، وليس ذلك بالأمر الغريب ، لأنّه يستحيل عمليًّا الاستيلاء على مدينة حصينة مثل المهديّة عن طريق البرّ.

«ثمّ أخرج الحسن شوانيه تلك الساعة من الميناء ، فأخذ منها أربع قطع وهرب الباقون[67]. وحسب رواية ابن عذاري[68] ، لم يأخذ الحسن من أسطول بجاية سوى غُرَابَيْن ، وأمر بسجن قائدَيْهما. وبعد رحيل مطرّف ، «أمر الحسن بقتل القائدَيْن ، فقُتِل أحدهما بين يديه ، ووُجِد الآخر قد مات من سهم كان أصابه».

ثمّ وصل الأعراب بقيادة ميمون بن زياد[69] ، لنصرة الحسن. كما وصلت نجدة من رُجَار صاحب صقليّة في البحر في عشرين قطعة.

---

65) **المؤنس** ، 90.
66) حسب **الكامل**.
67) نفس المصدر.
68) **البيان** ، 312/1.
69) أو محرز بن زياد؟

وحسب ابن أبي دينار، «أَمَرَ رُجار المقدّم على الأسطول أن يقف عند أَمْرِ الحسن ونَهْيِه»[70]. أمّا ابن خلدون[71]، فإنّه أكّد أنّ الحسن قد استولى عليه الفزع، لمّا شعر بالخطر المحدق به، فأسرع إلى إبرام الصّلح مع صاحب صقليّة، وبمقتضى ذلك أمكنه الاستعانة بالأسطول الصقلّي. ولكنّنا أسلفنا أنّ رُجار الثاني والحسن كانا مرتبطَيْن بمعاهدة صلح، قبل هجوم بني حمّاد. والأقرب إلى الواقع أنّ الحسن قد التمس المساعدة من حليفه. ويبدو أنّ المؤرّخ قد استنتج من ذلك إبرام اتّفاقية ديبلوماسيّة بين العاهلَيْن.

وإثر فشل الهجوم على المهديّة برًّا وبحرًا، ووصول ميمون بن زياد[72]، «في كثير من العرب لنصرة الحسن، وكذلك وصول نجدة صاحب صقليّة، علم مطرّف أنه لا طاقة له بهم».

«فحصر الأسطول الصقلّي شواني صاحب بجاية، فأمر الحسن بإطلاقها»، لأنّه كره سفك دماء المسلمين، على حدّ تعبير ابن أبي دينار. ولمّا علم مطرّف باقتراب الأسطول المسيحي، «ارتحل عن المهديّة مُسْرِعًا»، في اتّجاه بجاية[73]. وقد دام حصار المهديّة سبعين يومًا.

وبعد رحيل الأسطول الصقلّي، كاتب الحسن رُجَار الثاني ليشكره على مساعدته، وتبادل معه عرابين السّلام والصداقة. وربّما لا ينبغي تصديق ما ادّعاه ابن أبي دينار، لمّا قال إنّ الحسن أعلم رُجَار «إنّه داخل تحت أمره ونهيه». بينما يؤكّد ابن الأثير أن رُجَار «قد أظهر للحسن أنّه مهادنه وموافقه، وهو مع ذلك يعمّر الشّواني ويكثر عددها وآلاتها»[74].

وفي نفس الفترة تقريبًا استمرّت الجمهوريّات الايطاليّة في الإغارة على سواحل إفريقية الشماليّة. من ذلك أنّ أسطولاً قادمًا من بيزة ومعزّزًا بسفن تابعة لجنوة بل حتى للبروفانس، قد استولى على عنّابة في سنة 528 – 529هـ / 1134م، وعاث فسادًا في سواحل إفريقيّة، حتى شاطئ قرطاجنّة، وقد أخبرتنا بهذه الغارة المصادر المسيحيّة[75] التي ذكرت أيضًا أن

---

70) المؤنس، 90.
71) العبر، 6/161–162.
72) أو محرز بن زياد؟
73) رحلة التجاني، 340.
74) الكامل.
75) ماس لاتري، المقدمة، 8.

البيسانيّين قد استولوا على طبرقة في سنة 534 – 535 هـ / 1140م واستغلّوا رصيفها المرجاني. ويبدو أنّ تجارة المرجان كانت من اختصاص مدينة تونس[76].

استيلاء النّرمان على جزيرة جربة[77] :

استولى النّرمان على جربة في أواخر 529 هـ / أوائل 530 هـ، وربّما في خريف سنة 1135م[78]. «وكانت جزيرة جربة من بلاد إفريقيّة قد ٱسْتَوَتْ في كثرة عمارتها وخيراتها، غير أنّ أهلها طغَوْا، فلا يدخلون تحت طاعة سلطان، ويُعْرَفون بالفساد وقطع الطريق»[79]، وذلك منذ أن استولى عليها عليّ سنة 510 هـ / 1116م.

«فخرج إليها جمع من الفرنج (ومن رجال المسلمين)[80] من أهل صقليّة، في أسطول كثير وجمّ غفير، فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة. فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها واجتمع أهلها وقاتلوا قتالاً شديدًا، فوقع بين الفريقين وقعات عظيمة، فثبت أهل جربة، فقُتِلَ منهم بشر كثير، فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها، وهلك أكثر رجالها، ومَنْ بقي منهم أخذوا لأنفسهم أمانًا من صاحب صقليّة، وافتكّوا أسراهم وسبيهم وحريمهم»[81].

«دخلت جزيرة جربة تحت طاعة رُجَار وولّى عليها عاملاً من قِبَله»[82]، وفرض عليها الجزية.

والواقع أنّ الأمر كان يتعلّق بالنّسبة إلى ملك النّرمان بمحو ذكرى الفشل الذي مُنِيَ به سنة 517 هـ / 1123م، أكثر ممّا يتعلّق بعقاب القراصنة، وكان يتعلّق بالخصوص بالحصول

---

76) نفس المؤلّف : بيبليوغرافيا مدرسة شارت، 5/السلسلة الثانية، 1848، 135.
77) **البيان**، 312/1 ؛ **الكامل**، 14/11 – 15 ؛ النويري، 166/2 – 167 ؛ **تاريخ أبي الفداء**، 10/3 ؛ التجاني، 124 ؛ **الحلل**، 170/1 ؛ **المؤنس**، 90 – 91.
78) الإدريسي : أواخر 529 هـ ؛ **البيان**، 530 هـ. والمصادر الأخرى : 529 هـ.
79) **الكامل**، 14/11 – 15.
80) زيادة من **المؤنس**.
81) **الكامل**، المصدر المذكور.
82) **المؤنس**.

على قاعدة بحرية في خليج قابس، في سبيل إنجاز المشروع الذي كان يفكّر فيه رُجار، والمتمثّل في غزو إفريقيّة، وعلى الأقلّ سواحلها.

وقد كانت تربط بين صقليّة ومصر عهدئذ علاقات وديّة تجاريّة وديبلوماسيّة. فأخبر رُجَار الثاني الخليفة الفاطمي باستيلائه على جربة. وفي ردّه الذي يمكن تحديد تاريخه بسنة 1137، وقد احتفظ القلقشندي بنصّه[83]، أجاب الحافظ بأنه يعتبر ذلك الإستيلاء عمليّة مشروعة.

وقد حلّل السيد كنار هذه الوثيقة تحليلاً صائبًا. فافترض «أنّ هذه القضيّة ربّما كانت موضوع مراسلة سابقة وأنّ رسالة رُجَار الثاني المُشَار إليها هنا كانت ردًّا على طلب استفسار صادر عن الخليفة»[84]. ويبدو أنّ رُجَار قد تعلّل بضرورة القضاء على جحر القراصنة الذي عانت منه بلا شكّ سُفُنُه ذاتها. على أنّ وضع الجزيرة آنذاك قد جعل منها منطقة تكاد تكون مستقلّة عن أمراء المهديّة. كما أنّ أهل جربة كانوا لا يحترمون قطّ الاتفاقات المبرمة بين الحسن والنّرمان، ويرون أنّها لا تعنيهم. ونظرًا للعلاقات الوديّة التي كانت قائمة بين بني زيري والفاطميّين منذ عهد يحيى بن تميم، فقد شكّ السيد كنار في صدق المشاعر التي عبّر عنها الحافظ. إلاّ أنّ عدم اكتراث الخليفة المثير للاستغراب، قد يكون ظاهريًّا وشكليًّا ليس إلاّ، بل يمكن أن يكون قد أملاه عليه حرصه على المحافظة على العلاقات الطيّبة التي كانت تربطه بصاحب صقليّة المُخْطِر.

ومهما يكن من أمر، فإننا سنرى كيف سيستحوذ الأسطول النّرماني بعد ذلك بقليل على عدد من السّفن الموجّهة من مصر إلى الحسن، وحتى على سفينة مشحونة بهدايا موجّهة إلى الحافظ ذاته.

ولم تحاول جربة عبثًا استرجاع حريّتها إلاّ في سنة 548هـ/ 1153م. قال التجاني نقلاً عن أبي الصّلت:

«فلمّا كانت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ثار أهلها على النّصارى وقتلوا منهم جماعة كثيرة، فغزاهم النّصارى من عامهم وتغلّبوا على الجزيرة ثانيةً، فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولم يبقوا بها إلاّ من لا بال له»[85].

---

83) **صبح الأعشى**، 6/458 – 463.

84) Canard، **رسالة من الخليفة الفاطمي الحافظ إلى رُجَار الثاني...**، حوليات معهد الدراسات الشرقية، 1954، 91 – 92.

85) **التجاني**، 126.

القضيّة الحمّاديّة الزيريّة البحريّة والعلاقات مع الفاطميّين[86] :

وفي نفس الفترة تقريبًا ، حاول يحيى بن العزيز استعطاف الخليفة الفاطمي الحافظ (524 – 544 هـ / 1130 – 1149 م) .

«في سنة 536 هـ (1141 – 1142 م) – حسب رواية ابن عذاري المقتضبة جدًّا من سوء الحظّ – أخذ صاحب المهديّة المركب الذي أنشأه صاحب بجاية ، وبعثه بهديّة إلى صاحب مصر. وسبب ذلك أنه كان في الإسكندرية مركب للحسن صاحب المهديّة عطّله عن السّفر صاحب الديوان[87] ، لأنّه سعى في الشتات بين الحسن وبين صاحب مصر ، وقصد المواصلة بين صاحب مصر وصاحب بجاية»[88] .

«فأقلعت المراكب ، وبقي هو محبوسًا . وأقلع في جملتها المركب البجائي ببضائع عظيمة لها شأن ، وأثمان للتجّار ، وهديّة إلى صاحب بجاية . فعمل عليه الحسن وأخذه وأمر بتفريغه . وبقي المركب فارغًا حتى جاءت صدمة[89] أكتوبر ، فانكسر» .

وفي نفس السّنة ، استحوذ جُرْجي الانطاكي على المركب الجديد الذي «أنشأه الحسن من خشب المركب الذي انكسر لصاحب مصر»[90] .

هجوم جرجي الأنطاكي على المهديّة ومعاهدة سنة 536 هـ[91] :

حسب رواية ابن أبي دينار ، في سنة 536 هـ / 1140 – 1141 م ، «ابتدأت الوحشة بين رُجَار والحسن ، بسبب مال استسلفه [اقترضه] الحسن من بعض وكلاء رُجَار وماطله به»[92] . وسنرى فيما بعد[93] أنّ صقليّة كانت لا تسلّم قمحها إلاّ مقابل مبلغ معلوم من

86) **البيان** ، 312/1 .
87) صاحب الديوان = رئيس الجمارك.
88) اننا نستغرب من هذه المبادرة التي اتخذها شخص مرؤوس.
89) [صدمة أكتوبر : أي عاصفة بحريّة].
90) **البيان** ، 312/1 – 313 .
91) نفس المصدر. أنظر أيضًا : **الكامل** ، 41/11 ؛ التجاني ، 340 – 341 ؛ **الحلل** ، 246/1 ؛ **المؤنس** ، 90 – 91 .
92) **المؤنس** ، المصدر السابق .
93) أنظر الباب العاشر.

الذهب. ولذلك يبدو أنّ الأمر كان يتعلّق بقرض نقدي لتمويل شراء القمح ، أكثر مما كان يتمثّل في عملية بيع لأجل.

ولمّا علم رُجَار الحريص على استخلاص أمواله ، بواسطة جواسيسه المقيمين بالمهديّة ، بوجود مراكب مشحونة بالسلع في ذلك الميناء ، كانت تتأهّب للإقلاع ، وجّه في الحين قائد أسطوله جرجي الأنطاكي في خمسة وعشرين غرابًا. فهجم الأسطول الصقلّي على مرسى المهديّة واستحوذ على المراكب الراسية هناك ، ولا سيما «المركب الذي كان الحسن قد احتفل فيه وشحنه بذخائر ملوكيّة ليوجّه بها إلى الحافظ العُبَيْدي صاحب مصر ، وكان ذلك المركب يسمّى «بنصف الدنيا»[94].

وحسب رواية غريبة أوردها ابن الأثير ، «أخذ رُجَار الفرنجي مراكب سُيِّرَت من مصر إلى الحسن صاحب إفريقيّة»[95].

وبما أنّ رُجَار الثاني والحسن كانت تربط بينهما معاهدات ، فقد اتّهم الإخباريّون «اللّعين» بغدر الحسن.

وأكّد التجاني أنّ رُجَار «لم يزل يوالي الغزو على المهديّة بأساطيله والمقدّم عليها جرجير (جرجي) المذكور ، إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة»[96]. ولا شكّ أنّ المؤلّف يشير إلى تفاقم السياسة العدوانيّة التي بدأ تنفيذها اعتبارًا من احتلال جربة في سنة 1135م / 529 – 530هـ.

والغالب على الظنّ ، حسب بعض الروايات[97] ، أنّ الحسن الذي ضُيِّقَ عليه الخناق وأصبح في حاجة أكثر فأكثر إلى القمح الصقلّي ، وهو يفتقر إلى النقود وليس لديه من القوّات البحرية ما يكفي للدفاع عن مدخل المهديّة ، قد وجّه وفدًا إلى رُجَار الثاني سنة 536هـ أو ما يقارب ذلك التاريخ ، لالتماس الصلح. وقد اضطرّ إلى قبول شروط مجحفة إلى حدّ أنّ ابن أبي دينار الذي يبدو أنّه بالغ في ذلك ، قد زعم أنّ الحسن بقبوله لشروط رُجَار «قد دخل في طاعته وأصبح عاملاً من عمّاله»[98]. أفلا يدلّ الحديث عن «حماية اقتصاديّة» على أنّه ناتج عن خطإ تاريخيّ؟

94) التجاني ، 34 ؛ و Canard ، المرجع المذكور ، ص 133.
95) الكامل ، 41/11.
96) التجاني ، 340.
97) الكامل والمؤنس.
98) المؤنس.

كما ذكر نفس المؤلّف أنّ الحسن، قبل إرسال الوفد إلى رُجَار الثاني، «أهدى إليه عدّة أسارى، فلم تُغْنِ عنه شيئًا». فلعلّ الأمر يتعلّق بالصقليّين الذين وقعوا في الأسر أثناء الهجوم الأخير الذي شنّه جرجي الأنطاكي على المهديّة، أو يتعلّق ببعض الأسرى المسيحيّين من ضحايا عمليّات الغزو في البحر التي كان يقوم بها بنو زيري.

هجوم النّرمان على طرابلس وجيجل[99]:

في سنة 537هـ/ 1142 – 1143م حاول النّرمان الاستيلاء على طرابلس التي لم يدخل أهلها في طاعة الأمير الحسن. وحسب ابن الأثير، فان تلك المدينة لم يكن يحكمها بنو خزرون الزناتيّون، بل شيوخ بني مطروح[100]، من عرب بني تميم. وخلافًا لذلك أكّد التجاني أنّ طرابلس «لم تزل بأيدي (بني خزرون) الزناتيّين إلى سنة أربعين وخمسمائة»[101].

وقد وصل الجنود الصقليّون إلى طرابلس تاسع ذي الحجّة 537هـ، «فنازلوا البلد وقاتلوه وعلّقوا الكلاليب في سوره ونقبوه. فلمّا كان الغد وصل جماعة من العرب نجدةً لأهل البلد، فقوي أهل طرابلس بهم، فخرجوا إلى الأسطول، فحملوا عليهم حملة منكرة، فانهزموا هزيمة فاحشة، وقُتِل منهم خلق كثير، ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والدوابّ، فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج إلى صقليّة»[102].

وبعد ذلك بقليل، أي في نفس السّنة، حسبما يبدو، نزل النّرمان بمدينة جيجل، «فلمّا رآهم أهل البلد، هربوا إلى البراري والجبال، فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأخربوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حمّاد للنزهة، ثم عادوا»[103]. واستمرّ رُجَار الثاني والخليفة الفاطمي في تبادل الرسائل[104].

وإذا ما صدّقنا رواية ابن عذاري[105]، فقد استولى رُجَار الثاني سنة 538هـ/

---

99) **الكامل**، 42/11 وهو أهمّ مصدر، **البيان**، 313/1؛ **المؤنس**، 91؛ **تاريخ أبي الفداء**، 16/3.

100) **الكامل**، 42/11.

101) التجاني، 241.

102) **الكامل**، المصدر المذكور.

103) نفس المصدر.

104) أنظر حول هذه المراسلة: ابن ميسّر، 85 (أحداث 538هـ).

105) **البيان**، 313/1.

1143 – 1144م على صفاقس التي دخلت في طاعته. ولكننا سنرى فيما بعد أنّ تلك المدينة لم يتمّ الإستيلاء عليها إلاّ في سنة 543هـ/ 1148 – 1149م. ويبدو أنّ تلك الرواية مغلوطة أو منقوصة. ذلك أنّ المؤلّف قد انتقل بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن غزو المهديّة سنة 543هـ. ويرى شالندون[106] أنّ ابن عذاري قد اشتبه عليه غزو صفاقس بغزو جزيرة قرقنة الواقعة في عرض سواحل تلك المدينة. والغريب في الأمر أنّ مؤلّفا متأخّرًا[107] قد حدّد تاريخ ذلك الإستيلاء بسنة 537هـ. إلاّ أنّه ليس من المستحيل أن يكون الأسطول الصقلّي قد نزل بصفاقس سنة 538هـ، لا سيما وقد ذكر ابن الأثير أنّ «صاحب جزيرة صقليّة أرسل في سنة 539 سريّة في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال، فنهبوا وقتلوا»[108].

«وفي نفس تلك السّنة، خرج أسطول الفرنج من صقليّة إلى ساحل إفريقيّة والغرب، ففتحوا مدينة برشك[109] وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقليّة إلى المسلمين»[110].

وفي سنة 540هـ/ 1144م، جاء دور جزيرة قرقنة. فقد هجم عليها الأسطول الصقلّي وسبى أهلها وباعهم في صقليّة[111].

وعند ذلك ذكّر الحسن صاحب صقليّة رُجَار الثاني بمضمون المعاهدات المبرمة بينهما. فاعتذر رُجَار عن ذلك، متعلّلاً بأنّ أهل الجزيرة لا يقرّون بطاعة الأمير.

استيلاء النّرمان على طرابلس[112]:

لقد شهدت إفريقيّة في سنة 540هـ/ 1145 – 1146م[113] مجاعة رهيبة أهلكت العباد

---

106) شالندون، 160/2.

107) **المؤنس**، 91. ويعتقد أماري (ستوريا، 415) أنّ الأمر يتعلّق بغلطة ناسخ؛ **الكامل**، 84/11: يحدّد تاريخ الحدث بسنة 540هـ/ 1144 – 1145م.

108) **الكامل**، 45/11؛ ستوريا، 415/3.

109) برشك: مدينة تقع بين شرشل وتنّس.

110) **الكامل**، 47/11؛ **تاريخ أبي الفداء**، 17/3؛ الإدريسي، 10.

111) أنظر الإحالة رقم 107.

112) **العبر**، 168/6؛ **الكامل**، 48/11 – 49؛ النويري، 167/2؛ التجاني، 241؛ ابن خلّكان، 242/2؛ **تاريخ أبي الفداء**، 18/3؛ الإدريسي، 121 – 122؛ **شذرات**، 128/4.

113) التجاني، 241؛ **العبر**، 44/7؛ **المؤنس**، 91: 541هـ؛ وأما **البيان**، فهو ينتقل مباشرة من 538 إلى 543هـ، والنصّ ناقص لا محالة.

وأجبرت كثيرًا منهم على الهجرة إلى الخارج ، ولا سيما إلى صقلّية ، رغم أنها بلاد مسيحيّة . لكنّنا نعرف متانة العلاقات القائمة آنذاك بين صقلّية وإفريقيّة ، والسياسة التحرّريّة التي كان ينتهجها رُجَار الثاني إزاء المسلمين.

وممّا لا شكّ فيه أنّ ملك صقلّية قد رأى الوقت مناسبًا للتدخّل في إفريقيّة ، قصد مَحْوِ آثار فشل الحملة العسكريّة الموجّهة ضدّ طرابلس في سنة 537هـ/ 1142-1143م .

وفي أواخر سنة 540هـ[114] وعلى الأرجح في أوائل شهر جوان 1146م ، توجّه إلى طرابلس أسطول صقلّي متركّب من مائتيْ سفينة[115] بقيادة جرجي الأنطاكي. ونزل النّرمان بمدينة طرابلس ثالث المحرم 541هـ/ 15 جوان 1146م ، «فأحاطوا بها برًّا وبحرًا. فخرج إليهم أهلها وأنشبوا القتال ، فدامت الحرب ثلاثة أيام. فلمّا كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجّة عظيمة ، وخلت الأسوار من المقاتلة. وسبب ذلك أنّ أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيّام يسيرة قد اختلفوا ، فأخرج طائفة منهم بني مطروح ، وقدّموا عليهم رجلاً من الملثّمين (المرابطين) قدم يريد الحجّ ، ومعه جماعة ، فولّوه أمرهم. فلما نازلهم الفرنج أعادت الطائفة الأخرى بني مطروح ، فوقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار»[116] .

«فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم وطلعوا على السّور. واشتدّ القتال ، فملك الفرنج المدينة عنوة وقهرًا بالسيف (وذلك يوم الثلاثاء 6 محرّم 541هـ/ 18 جوان 1146م) . فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب مَنْ قدر على الهرب والتجأ إلى البربر والعرب»[117] .

هذا ما رواه ابن الأثير عن استيلاء النّرمان على طرابلس. إلاّ أنّ التجاني لم يُشِرْ إلى نهب المدينة ، بل أكّد أنّ جرجي «قد أحسن إلى أهلها ، لِمَا أضمره من تملّك غيرها من البلاد الإسلاميّة»[118] ، ولا شكّ أنّ المؤلّف يشير إلى العفو العامّ الذي أُعْلِن عنه بُعَيْد

---

114) ولذلك فقد حدّد الإدريسي والتجاني وابن خلدون تاريخ احتلال طرابلس بسنة 540هـ/ 1145-1146م . واختارت المصادر الإسلاميّة الأخرى أوائل 541هـ. ويؤكّد ابن خلدون (العبر، 44/7) والتجاني ، 241 : أنّ احتلال طرابلس قد سبقه احتلال المهديّة وصفاقس. فهل يتعلّق الأمر بخطإ؟ ذلك ما يعتقده أماري. أم أنّ المؤلّفَيْن يقصدان بذلك أنّ المدينتَيْن كانتا عمليًا تحت سيطرة النرمان؟

115) الرقم الوارد في المؤنس.

116) يمكننا أن نتساءل هل أنّ بني مطروح لم يساعدوا إلى حدٍّ ما النّصارى على تحقيق الانتصار؟ لأن التخلّي عن الأسوار يبدو أمرًا غريبًا.

117) **الكامل**.

118) التجاني ، 241 .

احتلال طرابلس. ويمكن أن نفترض أنّ القائد الصقلّي قد خفّف من حدّة المضايقات ثم لم يلبث أن وضع حدًّا لها. «فنُودِي بالأمان في كافّة النّاس ورجع كلّ من فرّ من المدينة»[119]. وأطرد جرجي بني خزرون، وبقي قسم منهم في بوادي طرابلس إلى أن تمّ الفتح الموحّدي[120]. «وولّى على البلد شيخه أبا يحيى بن مطروح التميمي، وجعل قاضيهم رجلاً منهم يعرف بأبي الحجّاج يوسف ابن زيري، وهو صاحب التأليف المعروف بـ «**الكافي في الوثائق**». فكانت أحكام المسلمين كلّها مصروفة إلى واليهم وقاضيهم، ولم يكن النّصراني يتعرّض لشيء من أحكامهم»[121]. ولعلّ هذا النظام شبه الإستقلالي كان يشبه النظام المعمول به في بعض المدن الإيطاليّة وفي صقليّة بالذات إثر الغزو النّرماني.

«وأقام الفرنج (بطرابلس) ستة شهور حتى حصّنوا سورها وحفروا خنادقها. ولمّا عادوا أخذوا رهائن أهلها ومعهم بنو مطروح والملثّم (الوالي المرابطي السابق). ثم أعادوا رهائنهم وأخذوا رهائن الوالي وحده. واستقامت أمور المدينة، وأُلزِم أهل صقليّة والسفن والروم بالسفر إليها، فانعمرت سريعًا»[122].

وكان لا بدّ لاحتلال طرابلس أن يؤثّر تأثيرًا طيّبًا في تطوّر التجارة الصقليّة. ويبدو أنّ المدينة لم تُثِرْ أيّ صعوبة في وجه حكّامها الجدُد، خلال الاثنتي عشرة سنة الموالية.

قضيّة قابس[123]:

لا ندري متى تولّى رُشَيْد[124] على مدينة قابس، خلفًا لرافع بن مكن بن جامع. وحسب رواية المؤرّخ الحفصي ابن نخيل، التي نقلها ابن خلدون[125]، فانّ رُشَيْد هو الذي

---

119) **الكامل**.

120) **العبر**، 44/7.

121) التجاني، 241 – 242.

122) **الكامل**.

123) **الكامل**، 54 – 55. وهو أهمّ وأوضح مصدر؛ **العبر**، 167/6 وفيه رواية مقتضبة وغامضة؛ التجاني، 95 وابن الأثير لم يذكر معمّرًا؛ **المؤنس**، 91، وفيه معلومات هامّة لم تذكرها المصادر الأخرى.

124) حسب التجاني، 69، هو «رشيد بن مدافع بن جامع».

125) **العبر**، 167/6.

بنى قصر العروسَيْن الشهير وضرب السكّة باسمه (السكّة الرُّشَيْدِيّة). وقد أكّد التجاني[126] أنّ أهل قابس ينسبون بناء هذا القصر الواقع في القصبة بمقربة من المسجد الجامع، لرُشَيْد بن مدافع بن جامع[126م]. ولكنّه أضاف أنه «وقف في بعض أبواب القصر على أسطر كتبت نقشًا في الحجر نصّها : أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع ابن أمير الأمراء مكن[127] بن جامع في رجب سنة خمسمائة / 26 فيفري – 27 مارس 1107م». ثم أعطى الرحّالة تفسيرًا لهذا التناقض الظاهري، فقال : «وأخبرني بعض الطلبة من أهل قابس أنه وقع لبعض المؤرّخين على أنّ صنهاجة هم الذين ابتدأوا بنيانه وانتهوا به إلى قدر ثُلُثَيْه، فأتمّه بنو جامع الهلاليّون».

فيبدو حينئذ أنّ بناء قصر العروسَيْن الذي هو نسخة طبق الأصل من قصر بني حمّاد في بجاية، قد بدأه الصنهاجيّون وواصله رافع وأتمّه رُشَيْد.

وإثر وفاة رُشَيْد، «عمد مولًى له اسمه يوسف إلى ولده الصغير واسمه محمّد، فولاّه الأمر وأخرج ولده الكبير مُعَمَّرا، واستولى يوسف على البلد وحكم على محمّد لصغر سنّه، وجرى منه أشياء من التعرّض إلى حرم سيّده، وكان من جملتهنّ امرأة من بني قُرّة. فأرسلت إلى إخوتها تشكو إليهم ما هي فيه، فجاء إخوتها لأخذها، فمنعها يوسف وقال : «هذه حرمة مولاي» ! ولم يسلّمها. فسار بنو قرّة ومعمّر بن رُشَيْد إلى الحسن صاحب إفريقيّة، وشكوا إليه ما يفعل يوسف، فكاتبه الحسن في ذلك ولم يجبه وقال : «لئن لم يكفّ الحسن عنّي، وإلاّ سلّمت قابس إلى صاحب صقليّة». فجهّز الحسن العسكر له.

«فلمّا سمع يوسف بذلك أرسل إلى رُجَار صاحب صقليّة وبذل له الطاعة وقال له : «أريد منك خلعة وعهدًا بولاية قابس، لأكون نائبًا عنك، كما فعلت مع بني مطروح أصحاب طرابلس». فسيّر إليه رُجَار الخلعة والعهد فلبسها وقُرِئ العهد بمجمع النّاس»[128].

وحسب رواية ابن أبي دينار[129]، بعث صاحب صقليّة إلى عامله الجديد «ما يتشرّف به من تشاريف النّصارى وجبى أموال قابس من تحت طاعته». فماذا كان مصير الأمير الشابّ محمّد بن رُشَيْد؟ يبدو حسب ما رواه ابن خلدون في فقرة غامضة أن المُغْتَصِبَ قد

---

126) التجاني، 68 – 70.

126م) هكذا في الأصل، والصحيح «رشيد بن كامل بن جامع».

127) [في الأصل «مكّيّ»].

128) **الكامل**.

129) **المؤنس**، 91.

أخرجه من المدينة. ولكن يظهر أنّ الأمر يتعلّق بطرد معمّر بن رُشَيْد[130]. وسنرى أنّ جرجي الأنطاكي قد صرّح للأمير الحسن، قبل بضع ساعات من احتلال المهديّة، قائلاً: «إنّما جئت بهذا الأسطول طالبًا بثأر محمّد بن رُشَيْد صاحب قابس وردّه إليها».

وقد أورد ابن خلدون والتجاني[131] هذه الرواية المختلفة والخاطئة، حسبما يبدو، حول اغتصاب يوسف للسلطة:

«اتّفق أن خرج محمّد من قابس لحرب عدوّ له وترك أحد بنيه نائبًا عنه، فطرده يوسف مولى أبيه منها واستولى على المدينة وانتسب إلى طاعة رُجَار».

ويبدو من المستبعد أن يكون محمد بن رُشَيْد الصغير السنّ والخاضع لسلطة يوسف، قد خرج من قابس للقيام بحملة عسكريّة وعهد بإدارة المدينة إلى أحد أبنائه!

وروى ابن الأثير من جانبه أنّ «يوسف صاحب قابس قد أرسل رسولاً إلى رُجَار صاحب صقليّة، فاجتمع هو والحسين رسول صاحب المهديّة عنده، فجرى بين الرسولين مناظرة. فذكر رسول يوسف الحسن ونال منه وذمّه. ثم أنهما عادا في وقت واحد، وركبا البحر كلّ واحد منهما في مركبه. فأرسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف. فسيّر الحسن جماعة من أصحابه في البحر، فأخذوا رسول يوسف وأحضروه عند الحسن فسبّه وقال: «ملّكتَ الفرنج بلاد الإسلام وطوّلت لسانك بذمّي»! ثم أركبه جملاً وعلى رأسه جلاجل وطيف فيه في البلد، ونودي عليه: «هذا جزاء مَنْ سعى أن يملّك الفرنج بلاد المسلمين». فلمّا توسّط المهديّة ثار به العامّة، فقتلوه بالحجارة»[132].

وفي سنة 542هـ/ 1147–1148م وجّه الحسن ضدّ قابس – تلبيةً لطلب معمّر بن رُشَيْد – جيشًا معزّزًا بجمع من الأعراب بقيادة محرز بن زياد الشهير، الذي اعتبره ابن أبي دينار قائد الحملة.

«فثار أهل البلد بيوسف، لِمَا اعتمده من طاعة الفرنج، وسلّموا البلد إلى عسكر الحسن. وتحصّن يوسف في القصر، فقاتلوه حتى فتحوه، وأُخِذَ يوسف أسيرًا. فتولّى عذابه معمّر بن رُشَيْد وبنو قرّة فقطعوا ذكره وعذّبوه بأنواع العذاب. وولّى معمّر قابس مكان أخيه وأخذ بنو قرّة أختهم.

(130) **العبر**، 167/6.
(131) **العبر**، 167/6 و**الرحلة**، 100.
(132) **الكامل**، 54/11–55.

«وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف وقصدوا(هكذا) رُجَار صاحب صقليّة، فاستجاروا به وشكوا إليه ما لقوا من الحسن (وأعلمه عيسى أنّ الحسن ممّن أعان على يوسف)[133]. فغضب رُجَار لذلك»[134]، لكون كلّ منهما تحت طاعته، وعوّل على غزو المهديّة[135].

«فأخرج رُجَار أسطوله لحصار قابس، فحاصرها مدّة ثم رجع»[136]. ويمكن تفسير فشل هذه الحملة بضعف الأسطول الصقلّي، لأن أكبر قسم منه كان إذ ذاك بصدد القتال ضدّ الأمبراطوريّة البيزنطيّة[137].

الاستيلاء على المهديّة[138]:

كانت سنة 1148م / 542 – 543هـ، بالنسبة إلى رُجَار الثاني، تمثّل فترة ملائمة للقيام بعمليّة عسكرية واسعة النطاق في إفريقيّة. ذلك أنّ توازن القوى البيزنطيّة والصقليّة كان في صالحه، ممّا يسمح له بالقيام بتلك العمليّة دون أن يعرّض مشاريعه المقبلة في الناحية الشرقيّة للخطر. فقد آن الأوان حينئذ لتعزيز نفوذه لدى النصارى، وذلك بالمساهمة أخيرًا في الحرب الصليبيّة التي أعلنها القدّيس برنار وبلغت ذروتها في المشرق، دون أن يتخلّى عن مطامعه الشخصيّة التي استطاع تحقيق جزء منها. ومن ناحية أخرى فإنّ المجاعة التي اجتاحت إفريقيّة وامتدّت إلى سائر بلاد المغرب منذ سنة 537هـ، قد بلغت منتهاها في سنة 542هـ. ذلك أنّ إفريقيّة لم تجد فحسب، خلال تلك السنوات الخمس، صعوبة كبيرة للتزوّد

---

133) زيادة من المؤنس.

134) الكامل.

135) المؤنس.

136) التجاني، 100.

137) ستوريا، 420/3؛ شالندون، 163/2.

138) أ) الكامل، 56/11 – 57 وهو أهمّ مصدر؛ والنويري، 168/2 – 169، وروايتهما متطابقة في الجملة مع رواية التجاني، 341، التي نقلها صاحب الحلل السندسيّة بحذافيرها، 246/1 – 247. وهذه المصادر الأربعة قد نقلت رواياتها بلا شكّ عن ابن شدّاد.

ب) رواية مقتضبة في العبر، 126/6؛ والبيان، 313/1.

ج) تاريخ أبي الفداء، 19/3 – 20؛ شذرات، 134/4؛ الحلل الموشيّة، 117.

د) ستوريا، 420/3 – 426؛ وشالندون، 163/2 – 164.

بالقمح الضروري ، إذ أُجْبِر الحسن العاجز عن تسديد ديونه على قبول الشروط التي فرضها عليه دائنه في سنة 536 هـ ، بل أنّها صارت تتوقّع إقدام رُجَار الثاني على منع المؤونة عنها ، بعدما أقرّ العزم على غزو بقيّة سواحل شرق الغرب الإسلامي . وقد كان شتاء سنة 543 هـ / 1147 – 1148 م مريعًا ، «فإنّ النّاس فارقوا البلاد والقرى وأكل بعضهم بعضًا ، وكثر الموت في النّاس»[139] . وممّا زاد في هول الكارثة ظهور وباء الطاعون الذي أهلك العباد . ففرّ إلى صقليّة عدد كبير من أهل إفريقيّة ، ولا سيّما منهم الأشراف .

واغتنم رُجَار هذه الفرصة ، فجهّز أسطولاً عظيمًا بقيادة أمير البحر جرجي الأنطاكي ، يتركّب من ثلاثمائة سفينة ، منها نحو مائتين وخمسين شينيًّا[140] .

«وكان بعض القوّاد قد أرسله الحسن إلى رُجَار برسالة ، فأخذ لنفسه وأهله أمانًا»[141] . فهل كان هذا الوعد بالأمان مكافأة على خيانة؟ على كلّ حال فإنّ الحسن لم يغادر المهديّة ، لا هو ولا أهله ، قبل وصول النّرمان[142] .

وقد أشارت المصادر إلى ضعف القوّات المسلّحة التي كانت تحت تصرّف الحسن لردّ العدوّ . ولا شكّ أنّ هذا التأكيد قريب جدًّا من الواقع . فلا حاجة لنا حينئذ إلى التساؤل هل أنّ الغرض من ذلك ، هو الحرص على تبرير موقف أمير المهديّة المتّسم لا محالة بالتخاذل . ذلك أنّ الجنود الإفريقيّين الذين كانوا يتقاضون رواتب زهيدة أو لا شيء ، سرعان ما تقلّص عددهم وهلك خيلهم . «ومع ذلك ، كانت بقيّة العسكر في محاربة ابن خراسان صاحب تونس ، عضدًا لمحرز بن زياد الفادغي صاحب المعلّقة»[143] .

على أنّه يصعب علينا أن نصدّق ارتكاب الحسن لمثل هذه الهفوة . فليس من المستبعد أن يكون أولئك الجنود الذين لا يتلقّون أيّ أجر وبالتالي لا يخضعون للسلطة ، قد انضمّوا من تلقاء أنفسهم إلى ابن زياد ، طمعًا في نهب مدينة تونس .

ووصل أسطول النّرمان إلى جزيرة قوصرة ، «فصدفوا بها مركبًا وصل من المهديّة ، فأُخِذ أهله وأُحْضِروا بين يدي جرجي مقدّم الأسطول ، فسألهم عن حال إفريقيّة ، ووجد في

139) **الكامل.**

140) حسب ابن الأثير وأبي الفدا ، : 250 شينيًا ؛ النويري : 150 شينيًا ، التجاني : 300 مركب ، **العبر** ، 350 مركبًا ؛ **شذرات** : 250 مركبًا .

141) **الكامل.**

142) **شالندون** ، 163/2.

143) **التجاني** ، 341.

المركب قفص حَمَام ، فسألهم هل أرسلوا منها ، فحلفوا بالله أنّهم لم يرسلوا شيئًا . فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطّه : «أنّنا لمّا وصلنا جزيرة قوصرة ، وجدنا بها مراكب من صقليّة ، فسألناهم عن الأسطول المخذول ، فذكروا أنّه أقلع إلى جزائر القسطنطينيّة» وأُطْلِق الحمام ، فوصل إلى المهديّة ، فسُرَّ الأمير الحسن والنّاس.

«وأراد جرجي بذلك أن يصل بغتة ، وقدّر وصولهم إلى المهديّة وقت السّحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها ، فلو تمّ ذلك لم يسلم منهم أحد. فقدّر الله أن أرسل عليهم ريحًا هائلاً ، فلم يقدروا على السير إلاّ بالمقاذف. فطلع النهار ثاني صفر في هذه السّنة (2 صفر 543 هـ / 22 جوان 1148 م)[144] ، فرآهم النّاس.

«فلمّا رأى جرجي ذلك ، وأنّ الخديعة فاتته ، أرسل إلى الأمير الحسن يقول : «إنّما جئت بهذا الأسطول طالبًا بثأر محمّد بن رُشَيْد صاحب قابس وردّه إليها. وأمّا أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق إلى مدّة[145] ، ونريد منك عسكرًا يكون معنا».

«فجمع الحسن النّاس من الفقهاء والأعيان وشاورهم. فقالوا : «نقاتل عدوّنا ، فإنّ بلدنا حصين». فقال : «أخاف أن ينزل إلى البرّ ويحصرنا برًّا وبحرًا ، ويحول بيننا وبين الميرة ، وليس لنا ما يقوتنا شهرًا. فتُؤْخَذ (المدينة) قهرًا. وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر خيرًا من المُلْك[146]. وقد طلب منّي عسكرًا إلى قابس ، فإن فعلت ، فما يحلّ لي معونة الكفّار على المسلمين. وإن امتنعت ، يقول انتقض ما بيننا من الصّلح. وليس يريد إلاّ أن يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البرّ. وليس لنا بقتاله طاقة ، والرأي أن نخرج بالأهل والولد ، وننزل عن البلد. فمن أراد أن يفعل كفعلنا ، فليبادر معنا»[147].

وليس لدينا ما يثبت صحّة هذا الخطاب. ولكن يبدو أنّه منقول عن شاهد عيان ،

---

144) الكامل ، النويري ، أبو الفداء : 2 صفر. البيان : «وتُعرَف هذه الكائنة الشنعاء بكائنة يوم الاثنين» ، نظريًا يوم الثلاثاء. ابن خلّكان : «يوم الاثنين ثاني عشر صفر» ، وكلمة عشر زائدة. فاحتلال سوسة هو الذي تمّ يوم الثاني عشر.

145) حسب المعمول به في ذلك العهد ، كانت المعاهدات تُبرَم لمدة عشر سنوات. وبناء على ذلك فإنّ معاهدة سنة 536 هـ ما زالت سارية المفعول ، على الأقلّ رسميًّا.

146) حسب ابن الأثير ، وحسب النويري : «وأنا أرى سلامة المسلمين من القتل والأسر خيرًا من الملك». وفي رحلة التجاني : «وذكر ابن شدّاد من كلام الحسن عند خروجه : سلامة المسلمين من القتل والأسر ، خير إليّ من المُلْك والقصر».

147) الكامل.

وهو ابن شدّاد أحد أقرباء الحسن ومؤرّخه الرسميّ. وحتى الفقرات التي تبدو وكأنّها مرافعة للدفاع عن موقف الحسن، فهي ليست بعيدة عن الواقع.

«وأمر الحسن في الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وخفّ حمله. وخرج النّاس على وجوههم بأهليهم وأولادهم وما خفّ من أموالهم وأثاثهم. ومن النّاس من اختفى عند النّصارى وفي الكنائس. وبقي الأسطول في البحر تمنعه الرّيح من الوصول إلى المهديّة إلى ثُلُثَيْ النّهار»[148].

«فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع، ودخل جرجي القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه إلاّ ما خفّ من ذخائر الملوك، وفيه من حظاياه، ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النّفيسة وكلّ شيء غريب يقلّ وجود مثلِهِ فختم عليه وجمع سراري الحسن من قصره.

«ولمّا ملك المدينة، نُهِبَت مقدار ساعتين، ونُودِي بالأمان[149] (في المهديّتين [المهديّة وزويلة]. فارتفع النّهب عنهما، وأخرج النّصارى منهما، فأنزلهم فيما بينهما في مضاربهم وأخبيتهم)[149م].

«وأصبح جرجي من الغدّ، فأرسل إلى مَنْ قَرُب من العرب، فدخلوا عليه، فأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة. وأرسل من جند المهديّة الذين تخلّفوا بها جماعة ومعهم أمان لأهل المهديّة الّذين خرجوا منها، ودوابّ يحملون عليها الأطفال والنّساء، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع، ولهم بالمهديّة خبايا وودائع. فلمّا وصل إليهم الأمان رجعوا»[150]. وفرّق عليهم (جرجي) مالاً وطعامًا أقرضهم إيّاه، فصلحت أحوالهم واغتبط النّاس بالمهديّة لمّا رأوا عدل النّصارى[151].

«ولقي المقدّم على الأسطول [جرجي] أولاد الحسن وأهله وأمّهات أولاده، فأحسن

---

148) حسب ابن الأثير، وحسب النويري «ثلث النهار»، وهذا خطأ. وفي رحلة التجاني: «وبقي الأسطول على ظاهر البحر إلى الساعة السابعة من وصوله».

149) **الكامل**.

149م) [زيادة من التجاني].

150) **الكامل**.

151) زيادة من التجاني.

إليهم وأرسلهم إلى صقليّة . وعمّر «عدوّ الله» المدينتين ، زويلة والمهديّة ، ودفع للتجّار رؤوس أموال وأحسن لفقهائهم ، وجعل قاضيًا مرضيًّا يحكم بين النّاس ومهّد قواعد البلدَيْن»(152) .

الاستيلاء على سوسة وصفاقس :

«ولمّا استقرّ جرجي بالمهديّة ، سيّر أسطولاً بعد أسبوع إلى مدينة صفاقس ، وسيّر أسطولاً آخر إلى مدينة سوسة . فأمّا سوسة ، فإنّ أهلها ، لمّا سمعوا خبر المهديّة ، وكان واليها علي بن الحسن الأمير ، فخرج إلى أبيه وخرج النّاس لخروجه ، فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر 543 هـ / 2 جويلية 1148 م»(153) .

أمّا التجاني(154) ، فقد أكّد أنّ سوسة «استقرّت آخرا تحت ملك جبارة بن كامل بن سرحان بن أبي العَيْنَيْن (أو العين) الفادغي (أو الفادعي العلوي) الهلالي البعيد الصيت ، المشتهر بالجود ، ومن يده أخذها النّصارى ، حين أخذوا المهديّة من يد الحسن» .

ويمكن أن لا يكون هناك أيّ تناقض بين هاتين الرّوايتين . إذ يجوز أن تكون سوسة خاضعة في آن واحد لسلطة أمير من بني زيري ، وهو الوالي بالاسم ، ولسلطة أمير من بني رياح وهو الحاكم المطلق النفوذ .

«وأمّا صفاقس ، فإنّ أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم ، فقاتلهم الفرنج . فخرج إليهم أهل البلد ، فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم النّاس حتى أبعدوا عن البلد ، ثم عطفوا عليهم ، فانهزم قوم إلى البلد وقوم إلى البريّة ، وقُتِلَ منهم جماعة . ودخل الفرنج البلد بعد قتال شديد وقتلى كثيرة ، وأُسِرَ من بقي من الرجال ، وسُبِيَ الحريم ، وذلك في الثالث والعشرين من صفر (543 هـ / 13 جويلية 1148 م)(155) . ثمّ نُودِيَ بالأمان ، فعاد أهلها وافتكّوا حرمهم وأولادهم ، ورُفِقَ بهم وبأهل سوسة والمهديّة . وبعد ذلك وصلت كتب رُجَار لجميع أهل إفريقيّة بالأمان والمواعيد الحسنة»(155م) .

---

152) **المؤنس** ، 92 .

153) **الكامل** .

154) التجاني ، 30 .

155) هذا خطأ ، والصحيح : 13 صفر

155م) **الكامل** .

«وقد أسكن (جرجي) بصفاقس جملة من النّصارى الذين افتتحها بهم»[156]. وأراد ملك صقليّة أن يستعمل عليها أبا الحسن[156م] الفرياني، «وكان من العلماء الصالحين. فأظهر العجز والضعف وقال: «آستَعْمِلَ ولدي». فاستعمله وأخذ أباه رهينة إلى صقليّة. فلمّا أراد المسير إليها قال لولده عمر: «إنّني كبير السنّ وقد قارب أجلي، فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدوّ، فآفْعَلْ، ولا تُرَاقِبْهم ولا تنظر في أنّني أُقْتَل، وآحسِبْ أنّي قد متُّ»[157].

«ولمّا استقرّت أحوال البلاد سار جرجي في أسطول إلى قلعة قليبية، وهي قلعة حصينة [في الوطن القبلي]. فلمّا وصل إليها سمعته العرب، فاجتمعوا إليها ونزل إليهم الفرنج فاقتتلوا، فانهزم الفرنج، وقُتِل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين إلى المهديّة»[158].

ورغم أنّ المصادر العربيّة أكّدت أنّ رُجَار الثاني قد أصبح يسيطر على جميع سواحل إفريقيّة، من طرابلس إلى الوطن القبلي، فإنّها لم تذكر احتلال قابس الذي أشارت إليه المصادر المسيحيّة[159]. إلاّ أنّ هذه المصادر قد ذكرت قابس التي كان يحكمها محمّد بن رُشَيْد، باسم ملك صقليّة، من بين المدن التي ثارت ضدّ النّرمان[160]. هذا من جهّة، ومن جهّة أخرى فقد أسلفنا أن جرجي الأنطاكي قد صرّح للحسن أنّه ما جاء إلاّ ليرجع ذلك الوالي إلى منصبه. فيمكن التأكيد حينئذ أنّ قابس قد استسلمت وخضعت لسلطة محمّد بن رُشَيْد. فهل يمكن أن نفسّر سكوت الإخباريّين المسلمين بالسهولة التي تحصّل بها النّرمان على هذه النتيجة؟ وهل استسلمت قابس قبل وصول النّصارى إليها؟

وقد رأى النّرمان من الحكمة الاقتصار على احتلال المدن الساحليّة التي منحوها نوعًا من الاستقلاليّة. فقد كانوا يسيطرون على السّواحل الممتدّة من طرابلس إلى ضواحي مدينة تونس. فهل يعني ذلك أنّ نفوذهم كان ضعيفًا داخل البلاد؟ كلاّ! فقد أكّد ابن الأثير واقتفى أثره النويري، أنّ الفرنج أصبحوا يسيطرون على بلاد المغرب، «من طرابلس الغرب

---

156) [زيادة من التجاني].
156م) في **الكامل**: «وأبا الحسين».
157) نفس المصدر.
158) نفس المصدر.
159) **ستوريا**، 428/3.
160) **ستوريا**، 482/3؛ وشالندون، 238/2.

إلى قريب تونس، ومن المغرب إلى دون القيروان»[161]. كما تحدّث ابن أبي دينار عن جرجي الأنطاكي بعد إستيلائه على المهديّة، فقال: «وجاءته وفود العرب وأكابرهم، فدخلوا في طاعته»[162].

وقد أجمع المؤلّفون المسلمون – وشهاداتهم تكتسي أهميّة بالغة في هذا السّياق – أنّ أهل البلاد قد قبلوا بطيبة خاطر الخضوع للنّصارى المحترمين لحريّاتهم الدينيّة والقضائيّة والإداريّة. ولا شكّ أنهم انتفعوا من التطوّر الذي كانت تشهده المبادلات التجاريّة بين صقليّة وإفريقيّة. ولا شكّ أنّ المعاملات التجاريّة مع السودان عن طريق طرابلس وقابس قد اتّسع نطاقها. كما أنّ إلغاء نظام ملوك الطوائف وإبطال المراقبة التي كانوا يقومون بها على المبادلات التجاريّة، مقابل أجر، قد ساهما بلا شكّ في تخفيض بعض المعاليم الجمركيّة بل حتى حذفها كليًّا أو جزئيًّا. ولئن كان «المحميّين» مُطالَبين طبعًا بدفع «الجزية» و«الخراج»، إلاّ أنهم لم يكونوا مستَغَلّين. بالعكس من ذلك، يبدو أنّ الجباية كانت متّسمة بالمرونة وحريصة على كسب ودّ الخاضعين للضريبة، إن صحّ التعبير. وفي هذا المعنى قال ابن أبي دينار عن جرجي الأنطاكي: «إنّه جبى خراج الرعايا برفق منه وإحسان، واستمال النّاس وسار فيهم سيرة حسنة بالرّفق بهم»[163].

ولا شكّ أنّ هذه السياسة التحرّريّة الجريئة، بالنسبة إلى ذلك العصر، تفسّر لماذا لم تحاول إفريقيّة، طوال اثنتي عشرة سنة، التخلّص من حكم النّرمان.

واعتبارًا من سنة 544هـ/ 1449 – 1550م[164]، «اختلف رُجَار صاحب صقليّة وملك القسطنطينيّة، وجرت بينهما حروب كثيرة، ودامت عدّة سنين، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين. ولولا ذلك لملك رُجَار جميع بلاد إفريقيّة. وكان القتال بينهم برًّا وبحرًا، والظفر في جميع ذلك لصاحب صقليّة»[165]، بفضل وزيره أمير البحر جرجي الأنطاكي. ولكنّ موت هذا القائد الذائع الصّيت قد حرم رُجَار الثاني من خدمات صانع جميع الفتوحات الإفريقيّة. وقد كان من المستحيل تعويض تلك الخسارة بخليفة الفقيد فيليب المهدوي.

---

161) **الكامل**، 58/11.

162) **المؤنس**، 92.

163) نفس المصدر.

164) **الكامل**، 65/11؛ **ستوريا**، 328/3 – 429.

165) **الكامل**، المصدر السابق.

فرار الحسن[166] :

«وأمّا الحسن، فإنّه سار بأهله وأولاده، وكانوا اثني عشر ولدًا ذكرًا غير الإناث، وخواصّ خدمه، قاصدًا إلى محرز بن زياد[167] وهو بالمعلّقة.

«فلقيه في طريقه أميرٌ من العرب يسمّى حسن بن ثعلب، فطلب منه مالاً انكسر له في ديوانه. فلم يمكن الحسن إخراج مال، لئلاّ يُؤْخَذ، فسلّم إليه ولده يحيى رهينة. وسار فوصل في اليوم الثاني إلى محرز، وكان الحسن قد فضّله على جميع العرب وأحسن إليه ووصله بكثير من المال.

«فلقيه محرز لقاء جميلاً وتوجّع لما حلّ به، فأقام عنده شهورًا»[168].

وأخبرنا ابن أبي دينار «أنّ أهل البلد قد تراجعوا عنه»[169]. والغالب على الظنّ أنّه لم يقبل الانضمام إليه، لا أبناء قبيلة ابن زياد ولا جنود بني زيري، لأنّهم كانوا يعتبرون قضيّة الملك المخلوع خاسرة نهائيًّا، لا سيّما وقد أصبح مُفْلِسًا دون رجعة. وما لبث الحسن أن شعر أن الأمير الرياحي ذاته قد بدأ يتضايق من وجوده.

«فأحبّ الانتقال إلى مصر، وواليها إذ ذاك [الخليفة الفاطمي] الحافظ، وباسمه كان الحسن يخطب في بلاده. فابتاع من تونس مركبًا أعدّه لسفره»[170].

«فعلم جرجي الأنطاكي بذلك، فأعدّ له عشرين قطعة ترقب إقلاعه فتتبعه. وعلم بذلك الحسن فعدل عن السفر إلى مصر.

«ونظر في التوجّه إلى الخليفة [الموحّدي] عبد المؤمن بن علي بالمغرب. وأنفذ ولده يحيى وتميمًا وعليًّا إلى ابن عمّه يحيى بن العزيز صاحب بجاية، وكتب له يستأذنه في الوصول إلى حضرته (وتجديد العهد إليه)[170م] وأن يكون توجّهه إلى عبد المؤمن بعد اجتماعه به. فتلقّى بنيه ميمون بن حمدون وزير يحيى أحسن تلقّ. وكتب على لسان يحيى إلى الحسن

---

166) **الكامل**، 57/11؛ النويري، 171/2؛ التجاني، 342 – 343؛ **الحلل**، 247/1 – 248؛ **المؤنس**، 92؛ ابن خلّكان، 242/2؛ **أعمال**، 459 – 460؛ **العبر**، 162/6.

167) أطلق عليه ابن خلّكان كنية: «أبو محفوظ».

168) **الكامل**، 57/11.

169) **المؤنس**، 92.

170) التجاني، 342.

170م) زيادة من **الكامل**.

بالتوجّع على ما جرى عليه والتحريض على الوصول والعدول على ما خطر بباله من قصد غيره»[171]. والمقصود بذلك إقناع الحسن بالعدول عن فكرة التوجّه إلى عبد المؤمن. ويبدو أنّ هذا العرض لم يتقدّم به يحيى الذي ربّما لم يكن على علم به، وأنّ الوزير قد قام بهذه المبادرة من تلقاء نفسه، عن حسن أو سوء نيّة. ولكن يحقّ لنا أن نتساءل هل أنّ الأمير لم يكن متواطئًا مع وزيره؟ وممّا يؤكّد هذا الافتراض الشكوك التي أبداها محرز بن زياد والاستقبال الذي ينتظر الحسن في بجاية. أليس من الأفضل إبقاء الأمير المخلوع أسيرًا، عوض تمكينه من التوجّه إلى الخليفة الموحّدي القويّ النفوذ، لاسترجاع عرشه أو تحقيق بعض رغباته التي ربّما تعود بالخطر على بني حمّاد ذاتهم؟ لا سيّما وقد كان صاحب بجاية مطّلعًا أكثر من اللزوم على مطامع الخليفة.

«فأعلم الحسن محرز بن زياد بما كتب ابن عمّه، فأشار عليه بالتنكيب عنه وأن يتوجّه حيث ما أحبّ، فهو خير له منه. فلم يُطِعْه الحسن، وتوجّه إلى بجاية. فلمّا قرب منها ندب يحيى وزيره (أي ميمون ابن حمدون) إلى لقاء الحسن، فامتنع من ذلك[172]. وبعد لأي ما أمر أخاه القائد بن العزيز بالخروج إلى لقائه مع مشيخة البلد، وأن يعدلوا به عن بجاية إلى الجزائر، فيكون مقامه بها»[173].

وحسب رواية أخرى[174]، تحوّل الحسن إلى عنّابة، وكان على رأسها الحارث بن المنصور أخو العزيز بن حمّاد، ثم ارتحل إلى قسنطينة، وكان واليها سبع بن العزيز أخو يحيى. فوجّه سبع الحسن، مخفورًا بالحرس، إلى مدينة الجزائر، حيث خصّه القائد بن العزيز بأحسن قبول.

ومهما يكن من أمر فإنّ صاحب بجاية ابن حمّاد لم يجتمع بابن عمّه ابن زيري المطرود من المهديّة. إذ يبدو أن يحيى قد أبى أداء التحيّة إلى الحسن الذي كان يظهر بمظهر رئيس الأسرة[175].

---

171) التجاني، المصدر المذكور.
172) لم يذكر المؤلّف سبب هذا الامتناع.
173) التجاني، 343.
174) **العبر**، 167/6 وهو المصدر الوحيد الذي أشار إلى مرور الحسن من عنابة وقسنطينة.
175) **أعمال**، 459–469.

ويبدو أنّ المعاملة التي سيُعَامَلُ بها ذلك الأمير التعيس الحظّ الذي لم يفقد مع ذلك كلّ أبّهته ، لا تشرّف يحيى ولا وزيره.

فقد توجّه القائد بن العزيز صحبة الحسن إلى مدينة الجزائر، في شهر محرّم سنة 544هـ / 11 ماي – 9 جوان 1149م(176). «وأنزله هو وأولاده في أمكنة لا تليق بهم ، وأجرى عليهم جرايات لا تكفيهم . وأمر ميمون بمراعاة أحوال الحسن ومنعه من السفر والكتب إلى الخليفة عبد المؤمن ، لما توقّعه من استعانة عبد المؤمن به في أخذ بجاية . فبولغ في التشديد عليه في ذلك ، وأقام ساكنًا بها إلى أن نزل عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط ، عام سبع وأربعين وخمسمائة (1151 – 1152)»(177).

(176) حسب ابن خلّكان ، 242/2 . أمّا ابن الأثير (**الكامل** ، 71/11) ، فقد أشار إلى اعتقال الحسن في جزيرة بني مزغنان (الجزائر) منذ سنة 543هـ . وبما أنّ محرّم هو أوّل شهر من السنة الهجريّة ، فالمقصود بذلك لا محالة : الأيّام الأخيرة من سنة 543هـ.

(177) التجاني ، 343 .

الفصل الخامس

استيلاء عبد المؤمن على المغرب الأوسط

(547 – 548 هـ / 1152 – 1153م)

المغرب الأوسط قُبَيْل الفتح الموحّدي[1] :

بعدما قضى عبد المؤمن بن علي على الدولة المرابطيّة في المغرب الأقصى وفي الأندلس، كان من الطبيعي أن يفكّر في الاستيلاء على بقيّة بلاد المغرب العاجزة عن التصدّي لجيوشه. وقد شجّعته على القيام بهذه المبادرة، حسب ابن خلدون[2]، الخلافات القائمة بين أمراء إفريقيّة، وأعمال التخريب التي يقوم بها الأعراب المحاصِرون للقيروان، واستيلاء الأمير الرياحي موسى بن يحيى المرداسي على باجة. ويبدو أنّ المؤرّخ قد أولى أهمّيّة مفرطة إلى هذا الحدث الأخير الذي لم تُشِرْ إليه المصادر الأخرى. وقد أصبح المغرب الأوسط لقمة سائغة. إذ لا ينبغي أن توهمنا الهجومات التي شنّها آخر ملوك بني حمّاد على إفريقيّة (الهجوم على تونس سنة 522هـ وعلى المهديّة سنة 529هـ) بنجاعة القوّات التي سيواجهها الخليفة في تلك الربوع.

وصف آخر ملوك بني حمّاد[3] :

لقد قدّمت إلينا المصادر الأمير أبا زكرياء[4] يحيى بن العزيز، آخر ملوك بني حمّاد في مظهر أمير فاضل، شهم، فصيح، ذي أسلوب رقيق، حاضر البديهة، ولكنّه قليل الحزم، مولع بالنساء والصيد. وكان مُحاطًا بزهاء عشرين رجلاً مسنًّا، وبعجائز يسلّينه بمزاحهنّ،

---

1) **تاريخ المغرب الأقصى**، 278/1 – 293؛ ميرندا، **التاريخ السياسي**، 109/1، 161.

2) **العبر**، 235/6.

3) **أعمال**، 466 – 467 (أهمّ مصدر)؛ **العبر**، 176/6 – 177.

4) لقد أثبتت هذه الكنية الرسالة رقم 8، ليفي بروفنسال، **سبع وثلاثون رسالة...**، مجلة هسبيريس، 1914، 28 – 29.

وفي المساء كان يتمدّد على فراش وثير ويستقدم المهرّجين والحيوانات المروّضة. فتراه يفحص هذا الباز ويتأمّل في ذلك الكلب، ويلتمس نكتة من هذا المهرّج، ويأخذ في الضحك. وكان مصحوبًا دومًا وأبدًا بأخواته تقسوط وأمّ ملال وشبلة، وهنّ مزيّنات كالعرائس. ثم يستسلم إلى النوم، وفي الصّباح يتوجّه إلى الصيد.

وقد أقدم يحيى على تغيير السكّة، الأمر الذي لم يتجرّأ عليه قبله أيّ ملك من ملوك بني حمّاد، احترامًا لأسيادهم، خلفاء بني عُبَيْد، حسبما يبدو. فضرب في الناصريّة (بجاية) دنانير باسم الخليفة [العباسي] المقتفي[5]، سنة 543 هـ / 1148 – 1149 م، ممّا يدلّ على أنّه دخل في طاعة الخلافة العبّاسيّة. ونحن نعرف اسم كاتبه الخاصّ وكاتم سرّه، الفقيه أبي حفص عمر بن فلفول[6] الذي يبدو أنّه كان صاحب ديوان الرسائل.

في سنة 543 هـ زار يحيى مدينة القلعة ونقل منها إلى بجاية كلّ ما وجد فيها من أشياء نفيسة.

الحملة العسكريّة الموجّهة ضدّ توزر[7]:

وجّه يحيى بن العزيز جيشًا بقيادة الفقيه مطرّف بن علي بن خزرون[8] ضدّ ابن فرقان الذي شقّ عصا الطّاعة في توزر. فاستولى ابن خزرون على تلك المدينة وألقى القبض على المتمرّد ووجّهه إلى أميره. فسُجِنَ في مدينة الجزائر وبقي في السجن إلى آخر حياته. ويقال، حسب رواية أخرى نقلها ابن خلدون، إنّ يحيى بن العزيز قد قتله. وليس لدينا أيّ مؤشّر لتحديد تاريخ هذه الحملة العسكرية، بالنظر إلى الحملات الأخرى التي وجّهها آخر ملوك بني حمّاد ضدّ إفريقيّة.

---

5) العبر، 177/6، ووصف هذه النقود مقتبس عن ابن حمّاد.

6) حسب ابن بشرون الذي روى أبياتًا من نظم هذا الشخص، ألقاها الأمير عبد الله بن العزيز الحمّادي الذي التقى به في صقليّة، أنظر الباب الثاني عشر من هذا الكتاب.

7) العبر، 177/6. جرت هذه الواقعة في الفترة الفاصلة بين زيارة الأمير إلى القلعة (543 هـ) وحملة مطرّف ضدّ تونس (522 هـ) والمهديّة (530 هـ). فمن العبث حينئذ محاولة تحديد تاريخها.

8) في النصّ «حمدون».

الفتح الموحّدي للمغرب الأوسط[9] :

من الجدير بالذكر أنّ الأخبار المتعلّقة برحيل عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط غامضة، وأغلب الروايات المتوفّرة لدينا متناقضة. وبما أنّه يصعب علينا تجريح شهادة المؤلّف الموحّدي البيذق الذي ساهم في فتح المغرب الأوسط، ومفادها أنّ الخليفة قد انطلق من سلا، ولم يُشِرْ المؤلّف إلى إقامته في سبتة، كما يصعب علينا من جهة ثانية رفض الروايات الأخرى التي تؤكّد أنه انطلق من سبتة، ولم تُشِر إلى مروره من سلا، فيتعيّن علينا حينئذ محاولة التوفيق بين تلك الروايات.

والجدير بالملاحظة بادئ ذي بدء، أنّ الخليفة قد أحاط استعداداته بسرّيّة مطلقة. فقد قطع جميع المواصلات مع المغرب الأوسط ومنع أيّ تنقّل في الطرقات، وحظر السفر من سلا إلى مكناس ومن مكناس إلى فاس أو من تلمسان إلى فاس. وأمر بتنفيذ هذه الإجراءات بكلّ صرامة، ووضع في الطرقات رجالاً ثقات لمنع المرور منها[10]. «فظنّ النّاس أنه يريد العبور إلى الأندلس»[11].

ولعلّه من الأفضل أن لا نساير بعض الإخباريّين[12] الذين ادّعوا أن عبد المؤمن قد ارتحل إلى سبتة «ليظنّ النّاس أنه يريد العبور إلى الأندلس». أمّا البيذق، فبعدما أشار إلى الاعتراف بالسلطة الموحّديّة في سنة 544هـ وتحوّل الخليفة إلى سلا في نفس تلك السنة وإقامته بها خمسة شهور لمراقبة بناء رباط الفتح، أكّد أنّ عبد المؤمن الذي أمر الجيش بالقدوم إلى سلا لمبايعته، قد ارتحل بعد ذلك إلى بجاية[13].

وبما أنّ الحملة العسكريّة في المغرب الأوسط قد جرت في سنة 544هـ فإنّنا نلاحظ أنّ البيذق الذي لا يهتمّ كثيرًا بتسلسل الأحداث، لم يقدّم إلينا عرضًا مفصّلاً عن نشاط

9) **العبر**، 20/6، 162، 177؛ **الكامل**، 57/11؛ النويري، 204/2–206؛ **رحلة التجاني**، 343؛ **الحلل**، 248/1–249؛ البيذق، 51، 113–115؛ ليفي بروفنسال، المرجع المذكور، المراكشي، الطبعة الأولى، 146–147؛ **الحلل الموشّية**، 112–113؛ **القرطاس**، 125–126؛ ابن خلكان، 242/2؛ **أعمال**، 459–460؛ **المؤنس**، 111؛ **تاريخ أبي الفداء**، 23/3؛ ميرندا، **تاريخ**...، 160/1، 167؛ علي مراد، **عبد المؤمن يغزو إفريقيا الشماليّة**، حوليات معهد الدراسات الشرقيّة، 1957، 132–136.

10) البيذق، الترجمة 186 والهامش 3.

11) نفس المصدر.

12) **القرطاس** و**الحلل الموشّية** والبيذق، الترجمة 187 والهامش 1.

13) البيذق، الترجمة، 185–186.

الخليفة من سنة 544 إلى سنة 547هـ. ولذلك فإنّه لا يسعنا إلاّ تصديق الإخباريّين الآخرين، ولا سيما منهم ابن الأثير الذي أكّد أن عبد المؤمن «قد سار من مرّاكش إلى سبتة سنة ست وأربعين. فأقام بها مدّة يعمل الأسطول ويجمع العساكر... وكتب إليهم ليتجهّزوا ويكونوا على الحركة أيّ وقت طلبهم، والنّاس يظنّون أنه يريد العبور إلى الأندلس. فأرسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برًّا وبحرًا، وسار من سبتة في صفر سنة سبع وأربعين»[14]. ولعلّ الأمر كان يتعلّق فعلاً بمشروع حملة عسكريّة في الأندلس.

ثم تظاهر، حسبما يبدو، بالرجوع إلى مراكش، ووصل إلى قصر عبد الكريم (القصر الكبير)، فاستعرض عساكره. ولا شكّ أنّ الأمر كان يتعلّق بالحشد الأوّل للجنود الموحّدين، كما أكّد ذلك ابن الأثير الذي قال إن الخليفة «أسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه في طريقه»[15]. ثم تحوّل إلى سلا لإتمام الاستعدادات الحربيّة.

وسلك الطريق الوحيد الممكن سلوكه آنذاك، والمتمثّل في المنخفض الممتدّ جنوب الريف والمفضي إلى مجاز تازة[16]. وبعدما قضى يومًا في تلمسان، استولى على مليانة، ثم تقدّم في اتجاه مدينة الجزائر. فتخلّى والي بني حمّاد القائد بن العزيز عن المدينة التي اختار أهلها الحسن بن عليّ واليًا عليهم. فسار الحسن إلى عبد المؤمن وهو بمدينة متيجة وقدّم إليه شواهد الطاعة. فأعرب الخليفة عن تقديره له واستصحبه معه.

وحسب رواية التجاني، «جعل الحسن يغريه بأخذ بجاية، حَسَدًا لابن عمّه»[17]. وحتى لو فرضنا صحّة هذه الرواية، فإن الخليفة الموحّدي لم يكن في حاجة إلى ذلك الإغراء.

ولمّا وصل عبد المؤمن إلى مدينة الجزائر، زاره أمير الأثبج أبو الخليل بن كسلان وحبّاس بن مُسَيْفَر، أحد أعيان بني جشم، فاستقبلهما استقبالاً حسنًا وعيّن كل واحد منهما على رأس قبيلته[18].

---

14) **الكامل**، 71/11.

15) نفس المرجع.

16) حسب البيذق، كانت الرحلة على النحو التالي: سلا، المعمورة، الهبط، وادي ورغة، مسون...، بجاية، البيذق، الترجمة 186-187 والهامش 1.

17) **رحلة التجاني**، 343.

18) حسب ابن خلدون، **العبر**، 20/6: أبو الجليل بن شاكر حبّاس بن مُسَيْفَر.

ومن البديهي أنّ يحيى المنهمك في اللّهو والملذّات لم يكن مؤهّلاً لإنقاذ مثل ذلك الوضع الميؤوس منه. فقد كلّف أخاه سبع بالتصدّي للموحّدين. إلاّ أنّ الجيش الصنهاجي قد انهزم في أمّ العلو[19] بجبل زيري.

وأكّد ابن الأثير الذي لم يذكر تلك المعركة أن وزير يحيى، ميمون بن حمدون، «جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن، فلقيهم مقدّمته وهي تزيد على عشرين ألف فارس، فانهزم أهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدّمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول الخليفة بيومَيْن»[20].

فهل اشتبهت على المؤلّف هذه الواقعة بمحاولة سبع بن العزيز؟ إننا نميل إلى الاعتقاد بأن خروج ميمون بن حمدون كان بمثابة ذرّ الرّماد على العيون، لإخفاء عمليّة استسلام بأتمّ معنى الكلمة. وأوضح النويري من جهته أن ميمون قد جمع عساكره التي أخرجها من بجاية، وبعدما انتظر عدّة أيّام قفل راجعًا دون قتال. ويمكن توضيح هذا الموقف الغامض، إذا سلّمنا بصحّة الإشارة التاليه التي أكّدها مصدران موحّديّان[21]، ومفادها أنّ وزير ابن حمّاد المتواطئ مع عبد المؤمن والذي كان يتبادل معه الرسائل، قد سلّم إليه المدينة من غير قتال.

ولا شكّ أنّ احتلال بجاية قد سبق بقليل يوم 24 جمادى الأولى 547 هـ / 27 أوت 1152[22]، تاريخ إحدى الوثائق الموحّديّة الرسميّة[23]، وهي رسالة موجّهة من بجاية إلى أهل قسنطينة، يعلن فيها عبد المؤمن عن احتلال عاصمة بني حمّاد ويشيد بالقائد أبي محمد ميمون بن علي بن حمدون – أي وزير يحيى – وأخيه الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن

---

19) مكان غير مُحَدَّد. ونستنتج من المعلومات التي قدّمها ابن خلدون أنّ ذلك المكان يقع بين مدينة الجزائر وعنّابة على بعد حوالي مسيرة يوم عن المدينة الأخيرة. أما «جبل زيري» فلم يذكره إلاّ التجاني الذي لم يشر إلى موقع «أمّ العلو»، وهو إسم أخت المعزّ بن باديس وزوجة عبد الله ابن حمّاد.

20) **الكامل**.

21) الأول **القرطاس** الذي أطلق على الوزير اسم: أبو عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون، والثاني، **الحلل الموشّية**، وقد أطلق عليه اسم ابن حمدون.

22) لا في ذي القعدة 547 هـ، وهو التاريخ الذي ورد في **القرطاس** ولا في سنة 559 هـ، كما أكّد ذلك ابن خلدون، **العبر**، 20/6. أنظر البيذق، الترجمة 188 والهامش وليفي بروفنسال، المرجع السابق.

23) ليفي بروفنسال، نفس المرجع.

علي بن حمدون[24] ، اللّذين انضمّا مع أقاربهما إلى النظام «الموحّدي». وتقلّدا منصبيْن مرموقيْن. وبمهارة فائقة ، دعا الخليفة أهل قسنطينة إلى الاستسلام ، واعدًا إيّاهم بالأمان ، وتطبيق السنّة ورفع المظالم وإلغاء المكوس المنافية للشريعة[25].

وأكّد ابن الأثير أن عبد المؤمن ، «لمّا فتح بجاية ، لم يتعرّض إلى مال أهلها ولا غيره. وسبب ذلك أنّ بني حمدون استأمنوا فوفى لهم بأمانه»[26].

رحيل يحيى[27] :

تمكّن يحيى من الإبحار مع ذَخائره في مركبَيْن كان قد أعدّهما للفرار في صورة الانهزام. ويبدو أنه كان ينوي السفر إلى برقة[28] ، عبر صقليّة ، ثم التحوّل إلى بغداد دون اجتياز مصر ، خشية أن ينتقم منه الخليفة ، لأنه كان خرج عن طاعته. وقيل أيضًا إنّه بعدما تخلّى عن بجاية أمر كاتبه أبا عبد الله محمد الكاتب[29] بمراسلة أمراء العرب ليلتمس منهم العون. ولمّا وصل إلى عنابة التقى فيها بأخيه الحارث الذي ربّما كان واليًا عليها[30]. «فجعل الحارث يتأفّف منه ويؤنّبه على إهمال المُلْك. فخرج عنه يحيى إلى قسنطينة ، وبها إذ ذاك أخوه الحسن بن العزيز ، فأكرمه الحسن وتخلّى له عن الأمر ، فأقام بقسنطينة أيامًا»[31].

الاستيلاء على قلعة بني حمّاد[32] :

وجّه عبد المؤمن جيشًا بقيادة ابنه عبد الله ، ضدّ القلعة ، وقد كانت تدافع عنها حامية صنهاجيّة على رأسها أخو يحيى جوشان بن العزيز. «فلمّا رأى أهلها عساكر الموحّدين ، هربوا

24) يمكن أن يكون هذا الشخص هو الفقيه مطرّف بن علي بن خزرون ويمكن أيضًا أن يكون هذا التشابه في الاسم بين الشّخصين بالإضافة إلى كونهما فقيهَيْن ، من أسباب تعويض خزرون بحمدون.

25) وهي القَبَالات والمكوس والمغارم والمظالم.

26) **الكامل** ، 71/11.

27) **رحلة التجاني** ، 342 ؛ **العبر** ، 236/6 ؛ المراكشي ، 147 ؛ **القرطاس** ، 126.

28) حسب التجاني ، وفي **العبر** ، صقليّة عوض برقة.

29) **الخريدة** [القسم المغربي ، تونس 1986 ، 83/1].

30) هناك خلط ممكن مع الحارث بن المنصور.

31) **رحلة التجاني** ، 344.

32) **العبر** ، 167/6 ، 236 ؛ **الكامل** ، 71/11 ؛ النويري ، 205—206 ؛ **القرطاس** ، 126.

منها في رؤوس الجبال»[33]. فاقتحم الجيش المدينة وأحرقها. ولقي مصرعهما جوشان بن العزيز وابن الدحّاس، من قبيلة الأثبج. كما قُتِلَ بالسيف جميع رجال الحامية[34]. وأسّر الموحّدون عددًا كبيرًا من أهل المدينة واستحوذوا على غنائم كثيرة، وزّعها الخليفة على أصحابه.

استسلام يحيى[35] :

لقد وردت أدقّ رواية حول احتلال قسنطينة واستسلام أبي زكرياء يحيى بن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن حمّاد، في رسالة مؤرّخة في 10 شعبان 547هـ/ 10 نوفمبر 1152م، وجّهها عبد المؤمن من بجاية إلى الموحّدين بتلمسان.

وحسبما جاء في تلك الرسالة، فقد توجّهت جيوش موحّديّة قادمة من القلعة التي تمّ الاستيلاء عليها من قبل، إلى قسنطينة التي التجأ إليها يحيى وإخوانه وعائلة أمه. وإثر معركة طاحنة كانت فيها الغلبة للمغيرين، قرّر الأمير الاستسلام. وتفاوض في هذا الشأن وفدٌ يضمّ أحد إخوان يحيى (لعلّه الحسن) وشيوخًا من صنهاجة وقسنطينة. وقد تحوّل ذلك الوفد إلى بجاية حيث خُصّ بأحسن قبول ثم رجع إلى قسنطينة التي فتحت أبوابها في وجه الموحّدين.

ولمّا تحصّل الحسن وأفراد عائلته على الأمان، تحوّلوا إلى بجاية للقاء عبد المؤمن الذي عاملهم معاملة حسنة. وقد لاحظ ابن الأثير أنّ يحيى وابن عمّه الحسن قد اجتمعا عند الخليفة. «وكان يحيى قد فرح لمّا أُخِذَت بلاد إفريقيّة من الحسن بن عليّ، فَرَحًا ظهر عليه، فكان يذمّه ويذكر معايبه. فلم تطل المدّة حتى أُخِذت بلاده»[36]. ثم ما لبث أن وجّه الخليفة الأميرين إلى مرّاكش وأجرى عليهما جرايات ذات بال. ولكنّ المصادر لم توضّح متى تمّ ذلك[37].

---

33) **الكامل**، المصدر السابق.

34) يقول ابن خلدون (**العبر**، 236/6) : 18000 قتيل، ولا شكّ أنّ هذا الرقم مبالغ فيه.

35) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، **الكامل**، 71/11 ؛ **رحلة التجاني**، 344 ؛ المراكشي، 147-148 ؛ **الحلل الموشّية**، 113.

36) **الكامل**، المصدر السابق.

37) التجاني، المصدر السابق. وذكر المراكشي أنّ الحسن عاد إلى مراكش صحبة الخليفة بعد فتح مملكة بني حمّاد وضمنيًّا بعد معركة سطيف.

وبعدما تخلّص يحيى من هموم المُلْك ، تفرّغ لرياضته المحبّبة إليه . فقد وصفته لنا بعض المصادر[38] ، وهو يقتنص أسودًا بواسطة شباك من حديد ، ثم أهداها إلى عبد المؤمن الذي لم يتأخّر عن مكافأة آخر ملوك بني حمّاد ، وقد أصبح يزوّده بالوحوش . كما توسّع الإخباري الموحّدي المراكشي ، على سبيل المجاملة - حسبما يبدو - أو ربّما بشيء من المبالغة ، في وصف حياة البذخ التي كان يعيشها بنو حمّاد في مراكش ، بفضل سخاء الخليفة . وقد اشتكى يحيى ذات يوم ، بمحضر عبد المؤمن ، من الصعوبات التي يلقاها هو وأفراد عائلته للحصول على كسور النقود[38م] اللازمة لقضاء حوائجهم . فسلّم إليه الخليفة ثلاثة أكياس مملوءة نقودًا ، وأكد له أنه سوف لا يحتاج إلى أيّ شيء ما دام في بلاطه .

وفاة يحيى[39] :

«فلمّا كانت سنة ثمان وأربعين (1153 - 1154م) وصل الخليفة إلى سلا واستصحب يحيى معه ، فأسكنه بها في بعض قصور بني عشرة[40] . وأقام بسلا إلى أن مات هناك (سنة 557هـ / 1161 - 1162م) ودُفِنَ في مقابرها الجوفيّة ممّا يلي البحر»[41] .

انتفاضة صنهاجة[42] :

وفي بجاية اضطرّ عبد المؤمن إلى قمع انتفاضة بربريّة ، كانت أولى إشارات القلق الذي أثاره فتح المغرب الأوسط . «فقد تجمّعت صنهاجة في أمم لا يحصيها إلاّ الله تعالى . وتقدّم

38) **الحلل الموشّية** ، 113 .

38م) أنصاف درهم وأرباع وأثمان درهم ، وخرارب (1/16) (ج . خرّوبة) .

39) **رحلة التجاني** ، 344 ؛ **مفاخر** ، 51 ؛ **العبر** ، 177/6 .

40) حسب التجاني ، وفي **العبر** : بنو عشيرة .

41) **رحلة التجاني** ، 344 .

42) **الكامل** ، 71/11 وفيه رواية مفصّلة . وفي البيذق ، 115 ، إشارة خاطفة . وحسب ابن الأثير جرت هذه الواقعة في الفترة الفاصلة بين احتلال بجاية واحتلال القلعة . أما البيذق فهو يؤكّد أنها جرت أثناء الحملة التي انتهت بمعركة سطيف . وقد فضلنا رواية المؤلّف الموحّدي المعاصر لتلك الأحداث على رواية المؤلّف المشرقي المتأخّر . ونقل النويري رواية ابن الأثير بحذافيرها مع قراءة : «أبو قابسة» عوض «أبو قصبة» . **القرطاس** ، 126 : مكث الخليفة شهرَيْن في بجاية .

عليهم رجل اسمه أبو قصبة[43] واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن. فأرسل إليهم جيشًا كثيرًا، ومقدّمهم أبو سعيد يخلف وهو من «الخمسين».

[هذا ما رواه ابن الأثير عن ثورة صنهاجة][44]. وبالعكس من ذلك، أكّد البيذق أنّه لم يبق إذ ذاك في المدينة مع الخليفة إلاّ أتباعه من «أهل الدار»، مع مجموع الخدم. فهيّأهم للقتال وسار معهم إلى المتمرّد قائلاً: «ضعوا الرمح في يدي». ولم يسبق له أن أمسك مثل ذلك السلاح منذ «سنة البُحَيْرة». ثم أضاف قائلاً: «اهجموا على العدوّ بعون الله تعالى». فانقضّ على خصومه وهزم أبا قصبة وكبّد بني زلدوي خسائر جسيمة ونصره الله بعزّه وقوّته[45]. ثم اتّجه جند الموحّدين إلى القلعة، فجرت المعركة في سفح الجبل شرقي بجاية. وانهزم أبو قصبة وقُتِلَ أكثر مَن معه ونُهِبَت أموالهم وسُبِيَت نساؤهم وذراريهم[46].

ثورة الأعراب ومعركة سطيف[47]:

بعدما ملك عبد المؤمن بلاد بني حمّاد، قفل راجعًا. وما إن وصل إلى متيجة، حتى بلغه خبر قيام الأعراب بانتفاضة هائلة، لا يكفي لإخمادها وجود الجنود الذين تركهم في إفريقيّة لمراقبتها.

وحسب ابن خلدون[48]، فان المخاوف التي ساورت أعراب إفريقيّة كانت ناشئة عن استيلاء عبد المؤمن على قلعة بني حمّاد. إلاّ أن الانتصارات السابقة التي أحرزها الموحّدون تكفي وحدها لتبرير تلك المخاوف. ومن حسن الحظّ فان الرسالة التي وجّهها الخليفة من تلمسان إلى أهل مراكش والمؤرّخة في غرة ربيع الأوّل 548هـ/ 26 جوان 1153م، تؤكّد

43) حسب ابن الأثير.

44) **الكامل**، 71/11.

45) البيذق، 115.

46) وحسب ابن الأثير، هجم الموحّدون بعد ذلك على قلعة بني حمّاد الحصينة. أمّا النويري فقد ادّعى أنّ أبا سعيد يخلف قد تحوّل إلى قلعة بني حمّاد بعد انهزام أبي قابسة.

47) ليفي بروفنسال، المرجع المذكور، الرسالة رقم 9؛ البيذق، 114–115؛ **الكامل**، 83/11–84؛ **العبر**، 20/6، 236؛ رحلة التجاني، 343–344؛ **الحلل**، 249/1.

48) **العبر**، 236/6.

المعلومات التي قدّمها كلّ من ابن الأثير وابن خلدون وتسمح لنا بتوضيح الوقائع وضبط تسلسلها.

فقد تمّ إجلاء الأعراب من المغرب الأوسط إلى الصحراء، أمّا الذين استسلموا، فقد قدّموا شواهد إخلاص تبعث على الريبة، وبعد احتلال القلعة واستسلام قسنطينة لاحظت العساكر الموحّدية التي بقيت في إفريقيّة لمراقبتها، أنّ الأعراب الذين عرفوا إلى حدّ ذلك التاريخ كيف يتفاهمون مع بني زيري وملوك الطوائف، بل تلاءموا حتى مع الاحتلال النرماني، قد أدركوا أنّ الموحّدين بعد استيلائهم على قسنطينة سوف يوجّهون أنظارهم لا محالة إلى إفريقيّة العاجزة عن مقاومتهم مدّة طويلة. وشعورًا منهم بالخطر الذي يهدّد كيانهم وإيمانًا باستحالة التوفيق بين السّلم الموحّدية المتوقّعة ونمط عيشهم، تشاوروا فيما بينهم ووجّهوا نداءات وصلت حتى إلى طرابلس، بل حتى إلى الإسكندرية. وتحالف العرب، وهم بنو هلال والأثبج وعدي ورياح وزغبة وقرّة[49]، على التعاون والتظافر وتعاهدوا على الاتحاد ومناصرة «ملكهم» يحيى بن العزيز[50]. وعزموا على لقاء عبد المؤمن بالرجال والأهل والمال ليقاتلوه «قتال الحريم».

«واتّصل الخبر بالملك رُجَار (الثاني) صاحب صقليّة، فأرسل إلى أمراء العرب، وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم، يحثّهم على لقاء عبد المؤمن، ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم، على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن. فشكروه وقالوا: ما بنا حاجة إلى نجدته، ولا نستعين بغير المسلمين»[51].

وزحف الأعراب على منطقة قسنطينة، قادمين من منطقة باجة التي تجمّعوا فيها. واستجابةً للتعليمات التي تلقّوها، تراجع الجنود الموحّدون الذين ضيّق عليهم العدوّ الخناق، إلى أن وصلوا إلى وادي العقيق في ناحية سطيف. فأخبروا عبد المؤمن بالوضع وأعلموه بعزمهم على خوض المعركة في ذلك المكان. فوجّه إليهم الخليفة الذي كان موجودًا بمدينة متيجة امدادات هامّة التحقت بهم على جناح السرعة قبل خوض المعركة. وكانت تتمثّل في ثلاثين

49) **الكامل**: بنو هلال، الأثبج، عدي، رياح، زغبة؛ **العبر**: الأثبج، زغبة، رياح، قرّة.

50) **العبر**، 236/6.

51) **الكامل**.

ألف فارس بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي وسعد الله بن يحيى[52]. وكانت الجيوش المكلفة بالتصدّي للأعراب تحت قيادة عبد الله بن عبد المؤمن الذي كان قد طلب إلى أبيه توجيه الإمدادات إلى ساحة القتال[53]، ولا شكّ أنّ الثلاثين ألف فارس يمثّلون معظم رجال الجيش الموحّدي المصاحب للخليفة عند عودته إلى المغرب الأقصى.

إلاّ أنّ عدد الجنود الموحّدين، بالرغم من الإمدادات الواصلة إليهم، كان أقلّ بكثير من عدد رجال العدوّ. وبناء على ذلك فقد تراجع الجيش الموحّدي وتبعه الأعراب، إلى أن وصلوا إلى سهل سطيف المحاط بالجبال. وصباح يوم الخميس أوّل صفر 548هـ/ 28 أفريل 1153م[54]، حمل عليهم الموحّدون على حين غفلة. وقد فاجأ ذلك الهجوم المباغت الأعراب الذين كان ينقصهم العتاد والانسجام وكانوا عرضة لضربات جيش منظّم ومنضبط. فالتقى الجمعان ودامت المعركة كامل اليوم وانتهت بتقهقر الأعراب الذين تركوا للمنتصرين «جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث وأنعام».

وأخبرنا البيذق أنّ أحد أمراء العرب، وهو ديغل بن ميمون، قد استسلم، ربّما قبل اندلاع المعركة، وأنّ الخليفة قد أعطى إلى جنوده التعليمات التالية: إذا سمعتم العرب يقولون: «إلى الوراء»، فالحقوهم ولا تأبهوا بالغنائم![55]

وبالفعل فقد لاحق المنتصرون الفارّين طوال يوم وليلة على مسافة تتراوح بين 40 و50 ميل[56]. ومن بعد غد[57] انقسم الجيش الموحّدي إلى عدّة فرق، كلّ فرقة تعمل في قطاع معيّن. وقد لاحقت بعض الفرق الأعراب على مسافة بعيدة مدّة أربعة أيّام أو أكثر، وامتدّت الملاحقة إلى تخوم إفريقيّة. وتجمّعت الكتائب المكلّفة بجمع الغنائم والأسرى واتّجهت إلى ناحية تلمسان للالتحاق بالخليفة.

وفي رسالته[58] المؤرّخة في غرّة ربيع الثاني 548هـ/ 26 جوان 1153م، أعلن عبد المؤمن أنّ طلائع الجيش المنتصر بدأت تصل إلى تلمسان.

---

52) حسب **الكامل** والنويري: أبو سعيد بن يخلف، عبد العزيز وعيسى من أولاد أبي مُعاذ.

53) **العبر**، 236/6.

54) النويري: نظريًا يوم الثلاثاء؛ **الكامل**، صفر 548هـ؛ **العبر**، 236/6؛ حوالي 546–547هـ.

55) البيذق، 114–115.

56) نفس المصدر.

57) حسب ابن خلدون (**العبر**، 20/6، 236) دامت المعركة ثلاثة أيّام كاملة وبدأ التقهقر في اليوم الرابع.

58) ليفي بروفنسال، المرجع المذكور.

«وقسّم جميع الأموال على عسكره. وترك النّساء والأولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وأمر بصيانتهم. فلمّا وصلوا إلى مراكش أنزلهم في الأماكن الفسيحة وأجرى لهم النفقات الواسعة وأمر ابنه محمّدًا أن يكاتب أمراء العرب ويعلمهم أنّ نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة.

«فلما وصل كتاب محمّد إلى العرب، سارعوا إلى المسير إلى مراكش. فلما وصلوا إليها (ربّما في سنة 549هـ / 1152 — 1153م)[59]، أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة، فاسترق قلوبهم وأقاموا عنده»[60]. ثم رجعوا إلى إفريقيّة محمّلين بالعطايا.

وحسب رواية البيذق، ترك الخليفة بعض الغنائم والأسرى في فاس، والبعض الآخر في مراكش وسلا. ولكنّه قاد إلى مراكش «سلاطين» العرب ونساءهم: وهم ديغل بن ميمون وحبّاس بن الروميّة وابن النهّاس وابن زيّان وأبو قطران وأبو عرفة والقائد ابن مطرّف. فردّ الخليفة إلى هؤلاء القوّاد نساءهم وقدّم إليهم الهدايا وأرجعهم إلى بلادهم. فقالوا له: «هل تأمرنا بأن نعود إليك من بعد؟». قال: «نحن الذين ستتوجّه إليكم». ثمّ أرجعهم مع نسائهم وكلّف القبائل بنقلهم[61].

والجدير بالتذكير أنّ ديغل بن ميمون قد استسلم، حسبما يبدو، قبل اندلاع المعركة. أمّا الأمراء الآخرون المشار إليهم أعلاه، فالغريب أننا لم نجد من بينهم أيّ واحد من الذين حثّهم رُجّار الثاني على محاربة عبد المؤمن.

وقبل مغادرة المغرب الأوسط، عهد عبد المؤمن بولاية بجاية وقلعة بني حمّاد وما والاهما إلى ابنه عبد الله[62]. وقد ارتحل الخليفة دون أن يستولي على عنّابة (بونة) التي غادرها واليها الحارث بن العزيز بن حمّاد وهرب مع أخيه عبد الله إلى صقليّة[63].

---

59) حسب العبر، مع تعويض 547هـ بتاريخ 549هـ (الخلط بين سبعة وتسعة).

60) الكامل، 83/11.

61) البيذق، 116.

62) حسب المراكشي (147) الذي أكّد انه استعمله على بجاية.

63) الكامل، 71/11.

فهل رأى عبد المؤمن من باب الحذر إهمال فتح ذلك الميناء القريب جدًّا من إفريقيّة ذاتها التي لم يفكّر بعدُ في فتحها ، وبدأت فيها بلا شكّ الاستعدادات للانتفاضة الهلاليّة المقبلة ؟

استيلاء النّرمان على مدينة بونة (عنّابة)[64] :

كان رُجَار الثاني الذي حاول التحالف مع بني هلال ضدّ عبد المؤمن ، ينتظر رحيل الخليفة ليهجم على عنّابة . ولا شكّ أنّ ثورة جربة التي تمكّن من إخمادها منذ عهد قريب ، قد لفتت انتباهه إلى شرق بلاد المغرب . وقد بدا له بلا شكّ أنّ الاستيلاء على عنابة أمر ميسور ومفيد جدًّا في صورة استئناف الموحّدين لمشاريعهم الهجوميّة . أليس من الطبيعي ، بعد استيلائه على سواحل المغرب الشرقيّة أن يسعى إلى تمديد نفوذه في اتّجاه الغرب؟

وفي سنة 548 هـ / 1153 م ، «سار أسطول رُجَار إلى مدينة بونة ، وكان المقدّم عليه فتاه فيليب المهدوي ، فحصرها واستعان بالعرب عليها ، وأخذها في رجب (22 سبتمبر – 21 اكتوبر 1153 م) ، فسبى أهلها وملك ما فيها ، غير أنه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى ، فأقام بها عشرة أيّام وعاد إلى المهديّة وبعض الأسرى معه ، وعاد إلى صقليّة .

«فغضب رُجَار عليه لِمَا اعتمده من الرفق بالمسلمين في بونة . وكان يقال إنّ فيليب وجميع فتيانه مسلمون يكتمون ذلك . وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك وأنه مسلم .

«فجمع له رُجَار الأساقفة والقسوس والرهبان ، فحكموا بأن يُحْرَق ، فأُحْرِق في رمضان (548 هـ / 20 نوفمبر – 19 ديسمبر 1153 م)»[65] .

والجدير بالذّكر أنّ الخصيّ فيليب المهدويّ كان قد عُيّن أميرًا للبحر إثر وفاة رفيقه أو مخدومه جرجي الأنطاكي . وقد أُطْلِق عليه اللّقب المذكور ، لأنّه من مواليد المهديّة ، أو لأنّ أبويه من أصيلي تلك المدينة . أمّا بالنسبة لظروف محاكمته ، فقد بيّن أماري أنّ شهادة المعلّق على كتاب رمولد السّالرني[66] تؤيّد رواية ابن الأثير ، وأكّد أنّ انشغال بال رُجَار الثاني

---

64) **الكامل** ، 84/11 ؛ **البيان** ، 313/1 ؛ الإدريسي ، 117 .

65) **الكامل** ، المصدر المذكور.

66) «Romunald de Salerne» .

بالأمور الدينيّة قد جعل منه، على حدّ تعبير شالندون، «ملكًا شبيهًا بالملك فيليب الثاني الحريص أكثر من اللزوم على خلاص نفسه بواسطة الإعدام بالحرق»[67]. وبناء على ما كان يظهره صاحب صقليّة دومًا وأبدًا من تسامح إلى حدّ ذلك التاريخ، أنكر شالندون الرأي الذي أبداه أماري في شأنه، واعتبر أنّ فيليب المهدوي المُعْتَنِق للديانة الإسلاميّة لم يُحرَق من أجل أفكاره الدينيّة، بل لأنّه خان بلاده أثناء الحملة العسكريّة ضدّ عنّابة. ولا يسمح لنا المقام بإعادة النّظر في هذه القضيّة.

ومن ناحية أخرى، فإنّ الإدريسي[68] الذي كان يحظى برعاية رُجَار الثاني، وقد أهدَى إليه كتاب الجغرافيا الذي فرغ من تأليفه في سنة 548هـ، قد صرّح بأنّ المدينة المذكورة التي ضعفت وقلّ عدد سكّانها، كان يحكمها باسم ملك صقليّة عامل من بني حمّاد، وهو الحارث بن العزيز أخو يحيى[69] الذي ربّما أرجعه فيليب المهدويّ إلى منصبه السابق. إلاّ أننا لا ندري متى ولا كيف خرج النزمان من تلك المدينة.

استيلاء النزمان على جزيرة قرقنة[70]:

أشار الإدريسي إلى أنّ النّزمان، بعد استيلائهم على عنّابة، أعادوا احتلال جزيرة قرقنة في نفس تلك السنة، 548هـ/ 1153م. ممّا يدلّ على أنّ تلك الجزيرة كانت قد ٱفْتُكّت منهم. ولكن لا ندري متى ولا كيف تمّ ذلك.

وتوفّي صاحب صقليّة رُجَار الثاني[71] يوم 26 فيفري 1154 / 10 ذو الحجّة 548هـ، وعمره ثمان وخمسون سنة، وترك لابنه غليوم مملكة ممتدّة الأطراف يسودها الأمن والسّلام.

---

67) شالندون، 104/2.

68) الإدريسي، 117.

69) العبر، 177/6؛ شالندون، 166/2.

70) الإدريسي، 127؛ ستوريا، 432/3–433؛ الكامل، 85/11، وقد جاء فيه ما يلي: «في سنة 548 (29 مارس 1153 – 17 مارس 1154م) وصلت مراكب من صقليّة، فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصريّة». وقد افترض أماري (ستوريا، 433/3) أنّ الأمر يتعلّق بمدينة تنس بالجزائر. ولكن نلّينو (ستوريا، 433/3، الهامش 3) بيّن أنّ هذا الافتراض غير صحيح.

71) الكامل، 84/11؛ ستوريا، 447–448؛ شالندون، 166/2.

محاولة استيلاء الموحّدين على مدينة تونس[72] :

حوالي سنة 551هـ/ 1156م ، «وجّه عبد المؤمن (القائد) عبد الله ابن سليمان في قِطَع من أسطول سبتة ، وأمره بالكشف عن تونس وقوّتها والمجاورين لها من الأعراب»[73].

وبعد ذلك بعام (552هـ/ 1157م)[74] هجم أبو محمّد عبد الله بن عبد المؤمن على تونس على رأس جيش عظيم من المصامدة والأعراب وغيرهم. وكان قد قام قبل ذلك بغارات في إفريقيّة تطبيقًا لتعليمات أبيه ، وقطع الميرة عن مدينة تونس. ويبدو أنّ الخليفة قد أمر بالقيام بتلك الحملة إثر الطلبات التي قدّمها إليه أهل إفريقيّة حول تجاوزات الأعراب[75]. وقد أبدت تونس مقاومة مستميتة. «وأخذ المغيرون في قطع أشجارها وتغوير مياهها»[76].

ودخلت إلى تونس فرقة من الأعراب بقيادة محرز بن زياد الرياحي أمير المعلّقة[77]. وبمساعدتهم ، إن لم نقل بفضلهم ، تمكّن أهل المدينة من الخروج والانتصار على القائد الموحّدي الذي «أقلع عنها إلى بجاية». ولئن يصعب علينا ، لافتقارنا إلى الوثائق ، توضيح كيفيّة تدخّل محرز بن زياد حليف الحسن ، إلاّ أنّنا لا نتردّد في التأكيد أنه ، لولا ذلك التدخّل ، لما انهزم ابن عبد المؤمن ولربّما استطاع الاستيلاء على مدينة تونس ، لا سيّما وهو يتصرّف في قوّات عسكريّة لا شكّ أنّها تفوق من حيث العدد والعُدَّة القوات التي سمحت ، قبل ذلك بحوالي ثلاثين سنة ، للقائد الحمّادي مطرّف من احتلال تلك المدينة. فهل كان ينقص الجيش الموحّدي الانسجام؟ إذ أكّد المراكشي أنّه كان يضمّ «الأعراب وغيرهم». وهل تخلّى هؤلاء عن القتال عندما رأوا أنفسهم يواجهون بني جنسهم ، سكّان المعلّقة الرياحيّين؟ أفلم يحاول محرز فرض سلطته على أهل تونس وإقصاء عبد الله ابن عبد العزيز بن

---

72) **البيان** ، 316/1 ؛ المراكشي ، 162–163 ؛ التجاني ، 345 ؛ **الحلل** ، 249–250 ؛ **العبر** ، 164/6–165.

73) حسب **البيان** لا غير.

74) في **البيان** 553هـ ، والصحيح ما أثبتناه.

75) **العبر**.

76) حسب المراكشي لا غير. وعلى كلّ حال فانّ مدينة تونس لم تكن تفتقر إلى الماء الصالح للشراب بفضل آبارها ومواجلها ، كما أكّد هذا المؤلّف أنّ الأمير الخراساني كان يحكم تونس باسم رُجَار الثاني صاحب صقليّة. أنظر: **ستوريا** ، 435/3–437.

77) حسب ابن خلدون لا غير. وقد أشار المراكشي إلى وجود كوكبة هامّة من الخيّالة في صفوف أهل تونس. ولعلّه يشير إلى خيالة محرز بن زياد.

خراسان؟ كلّ هذه الأسئلة تبقى بلا جواب ، لأنه ليس لدينا حول تلك الفترة من تاريخ مدينة تونس سوى بعض المعلومات المقتضبة التي قدّمها ابن خلدون ، ومفادها أنّ عبد الله ابن عبد العزيز كان قد توفّي أثناء تلك الحوادث وخلفه ابن أخيه علي ابن الأمير الخراساني الثالث أحمد بن عبد العزيز ، الذي اضطرّ بعد ذلك بخمسة شهور إلى الدخول في طاعة عبد المؤمن .

وهناك نقطة واحدة لا يعتريها أيّ شكّ ، بفضل وثيقة محفوظة بأعجوبة في أرشيفات مدينة بيزة . ومفادها أنّ عبد الله ابن عبد العزيز قد أخبر رئيس أساقفة بيزة في آخر يوم من شهر جمادى الأولى سنة 552هـ / 10 جويلية 1157م ، بالانتصار الذي أحرزه منذ قليل على المصامدة ، أي على ابن عبد المؤمن . ولا يمكن الشكّ في صحّة تلك الوثيقة التي تؤكّد أهمّ ما جاء في معاهدة تجاريّة بين بيزة وتونس من بنود قد تمّ ضبطها شفاهيًّا . وقد نشر أماري النصّ العربي لتلك الرسالة مع شرحها الوارد بين السطور باللغة اللاّتينيّة . كما نشر دي ماس لاتري ، نقلاً عن سجلّ الوثائق البيسانيّة ، ترجمة لاتينيّة أخرى مطابقة للشرح المذكور[78] .

وبعدما رُفع الحصار على مَدينة تونس تحوّل ابن الخليفة إلى بنزرت ، حيث أكرمه صاحبها عيسى بن مقرب بن طراد بن الورد . ولم يكتف بذلك ، بل قدّم إليه شواهد الطاعة والتمس منه إبقاء ضابط من ضبّاطه في بنزرت بصفة «حافظ» . وقد أعرب له عبد المؤمن فيما بعد عن رضاه (555هـ/ 1159م) ، فمنحه إقطاعًا وأثبت اسمه في سجلّ موظّفي الدولة[79] .

ورجع أبو محمّد عبد الله إلى بجاية مع من تبقّى من جنوده ، وأعلم والده بالخيبة التي مُنِي بها في تونس .

ويبدو أنّ ابن خراسان لم يكن تابعًا لملك صقليّة ، كما ادّعت ذلك بعض المصادر المسيحيّة والإسلاميّة[80] . ذلك أنّ الأمير الخراساني الذي أبرم معاهدة تجاريّة مع بيزة سنة 552هـ ، كان يتصرّف تصرّف الملك المستقلّ .

---

78) أنظر الباب العاشر من هذا الكتاب .

79) العبر ، 170/6 .

80) Robert du Mont Saint Michel : احتلّ جيش ملك صقليّة مدينة تونس في سنة 1152 . Dandalo : جعل رُجّار ملك تونس تابعًا له (على ذكر غزوة سنة 1148م) . المراكشي : عندما استولى الموحّدون على تونس سنة 1159 كانت تابعة لرُوجّار الذي كان له فيها عامل اسمه عبد الله ابن خراسان . أنظر : ستوريا ، 435–437 .

تعيينات في القيادة الموحّديّة العليا[81]:

منذ كارثة سطيف أصبح أمراء العرب يتردّدون مرارًا وتكرارًا على الخليفة الموحّدي الذي كان يغمرهم بنِعَمِه. وفي رسالة رسميّة وجّهها عبد المؤمن إلى أهل سبتة وطنجة، ويمكن تحديد تاريخها بسنة 551هـ، أخبرهم أنّ أمراء العرب بإفريقيّة قد التمسوا منه تعيين ابنه الأكبر أبي عبد الله محمد واليًا على إفريقيّة ووليًّا للعهد. ولئن كان الأمر غير مستبعد، إلاّ أنّ الخليفة قد اتّخذ بعض الإحتياطات الخطابيّة لتبرير الاقتراحَيْن المذكورَيْن، ولا سيّما الاقتراح الأخير. أفلم يكن الطّلب الذي تقدّم به أمراء العرب موحًى به إليهم بصورة أو بأخرى؟ وهل لم يحرص الخليفة على إقصاء بعض الموحّدين لفائدة ابنه، لا سيّما أبو حفص عمر الهنتاتي، الذي تعطيه التراتيب الموحّديّة الأولويّة في ولاية الأمر بعد عبد المؤمن؟

وفي رسالة ثانية موجّهة من الرباط إلى أهل سبتة في 12 ربيع الأوّل 551هـ/ 5 ماي 1156م، أخبرهم عبد المؤمن أنّ أعضاء وفود القبائل الهلاليّة والقسم الشرقي من المملكة قد أعلموه، بأنّ الأمير أبا عبد الله محمد، تبعًا لتعيينه وليًّا للعهد، لا يمكن أن يكون واليًا على بلادهم وألحّوا عليه بأن يوجّه معهم أحد أبنائه ليتولّى مهمة توحيد البلاد حول شخصه وإرجاع الطمأنينة إلى تلك الربوع. فوافق كبار القادة الموحّدين على ذلك الطلب. وأعرب عن نفس تلك الرغبة ممثلو منطقة تلمسان والغرب الأوسط وغيرهما. وبعدما عيّن الخليفة الخطوط العامّة للتقسيم المقترح، ودون أن يعيّن أيّ واحد من أبنائه، صرّح بأنّ كلّ واحد منهم سيستعين بمجلس شورى.

ومن بين التسميات المصرّح بها، نشير إلى تعيين أبي محمّد عبد الله عاملاً على بجاية وأعمالها، وأبي حفص عمر عاملاً على تلمسان.[82].

وفي سنة 552هـ/ 1157–1158م «ملك الموحّدون مدينة المرية من الفرنج وانقرضت دولة المرابطين بالأندلس»[83].

---

81) ليفي بروفنسال، المرجع المذكور، الرسالتان 13 و14؛ **الكامل**، 94/11–95؛ النويري، 207/2؛ لوتورنو (Le Tourneau)، «من الحركة الموحّديّة إلى دولة بني عبد المؤمن...» تحية جورج مارسي، 111/2–116. أنظر أيضًا، علي مراد، المرجع المذكور أعلاه.

82) **العبر**، 170/6.

83) **الكامل**، 95/11.

ثورة إفريقيّة على النرمان :

أسباب هذه الثورة[84] : لقد شهدت صقليّة فترات صعبة في عهد غليوم الأوّل الذي كان «فاسد التدبير» ، [على حدّ تعبير ابن الأثير] ، حتى لُقِّب «بالفاسد» ، وفي عهد وزيره أمير البحر ماجون الباري . ولا شكّ أنّ الاضطرابات التي جدّت في إيطاليا الجنوبيّة حوالي 1155–1156 قد كانت لها انعكاسات في إفريقيّة . ففي صفاقس التي ستعطي إشارة الانطلاق للثورة ، أكّد ابن خلدون[85] أنّ النصارى أخذوا في اضطّهاد المسلمين. والجدير بالملاحظة أنّ هذا التأكيد القريب من الواقع صالح أيضًا بالنسبة إلى المدن الإفريقيّة الأخرى التي أقلع ولاتها النرمان عن سياسة رُجَار الثاني المُتّسمة بالمرونة والعدل والتسامح . وأخذوا في استغلال المسلمين واضطهادهم. وسنرى أنّ الثورة ستندلع في طرابلس على الأقلّ لأنّ النصارى الذين أصبحوا يتدخّلون في الشؤون الدينيّة بعدما كانوا يتحاشون ذلك من قبل ، قد أمروا أهل المدينة بذمّ الموحّدين[86] .

ويتّضح من ذلك أنّ القسوة التي أبداها الصقليّون تجاه أهل إفريقيّة ، في الوقت الذي كان فيه الخليفة الموحّدي يتأهّب لاجتياح تلك البلاد ، هي التي تفسّر بالطبع اندلاع الاضطرابات . إلاّ أنه يحقّ لنا أن نتساءل هل أنّ تصلّب السياسة النرمانيّة لم يكن ناشئًا – ولو جزئيًّا – عن تشنّج أعصاب الإفريقيّين؟

ثورة صفاقس[87] : استمرّ عمر الفرياني منذ سنة 543 هـ/ 1143م في الاضطلاع بمهامّه كعامل على صفاقس . في حين لا يزال والده أبو الحسن رهينة في صقليّة . وقد أسلفنا أنه أمر ابنه قبل رحيله «بأن يخالف متى أمكنته الفرصة في الخلاف على العدوّ» ، وأن يعتبر أباه قد مات فعلاً .

ويقال إنّ صفاقس قد شهدت ذات ليلة مجزرة حقيقيّة ، ولكن يبدو ، من سوء الحظّ ، أنّ وقائعها قد أضيفت عليها مسحة خياليّة . [وقد رواها ابن الأثير على النحو التالي] :

---

84) نفس المصدر.

85) العبر ، 169/6.

86) رحلة التجاني ، 242 .

87) الكامل ، 91/11–92 ؛ العبر ، 169/6 ؛ مقديش ، الزركشي ، الحلل ، 139/1–140 ؛ ستوريا ، 478/3–480 ؛ شالندون ، 236/2–237 .

«لما وجد عمر الفرصة، دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال: ليطلع منكم جماعة إلى السور، وجماعة يقصدون إلى مساكن الفرنج والنصارى جميعهم، ويقتلونهم كلّهم. فقالوا له: إنّ سيّدنا الشيخ والدك نخاف عليه. قال: هو أمرني بهذا، وإذا قُتِلَ بالشيخ ألوف من الأعداء، فما مات. فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم»[88].

والجدير بالملاحظة أنّ ابن الأثير قد روى هذه الحادثة في سياق الحديث عن أحداث سنة 551هـ / 25 فيفري 1156 – 12 فيفري 1157م. وختم حديثه قائلاً: «وكان ذلك أوّل سنة إحدى وخمسين وخمسمائة». وكنّا لا نتردّد مع بعض المؤلّفين[89] في الاعتقاد أنّ تلك الواقعة قد جرت في اليوم الأوّل من السنة (الهجريّة) الجديدة، أي في الليلة الفاصلة بين 30 ذي الحجّة 550 وأوّل محرّم 551هـ، لو لم يدرج الراوية الصفاقسي المتأخّر (القرن السابع عشر م)، محمود مقديش[90]، ضمن روايته المنقولة عن المصادر القديمة (ابن الأثير والتجاني وابن خلدون)، معلومات غريبة قد استقاها من الروايات الشعبيّة التي ربما كانت رائجة في عصره. وهذا نصّها:

«وكان ذلك أوّل السنة المذكورة (أي أوائل يناير)[91]. وما قاموا عليهم حتى جعلوا صهريجًا تحت الأرض شرقي المسجد الأعظم في صورة مخزن للماء، وصاروا كلّ ليلة ينزلون إليه لعمل السلاح، وإلى الآن يسمّونه ماجل الصاغة، وكان بابه مكشوفًا. فلما أحدثوا الساباط الشرقي من المسجد للموازين، وجعلوا هناك حانوتًا صار بجانبه، وهو تحت الطريق من جهة شرق المسجد. ولما جاءت ليلة يناير عيد النّصارى، أظهروا معهم الفرح بموسم النّصارى، وأمروا بطبخ الفول في كلّ دار، وجعلوا جماعة يدورون على الدور في صورة شحّاتين يشحتون الفول، وأمر كلّ صاحب دار أن يخرج من الفول بقدر ما عنده من الرجال، فجمعوا ما تحصّل وعدّوه وعرفوا ما عندهم، وأعطوا كلّ أحد من السلاح بقدر ما أعطاهم من الفول. وأحدثوا لَعِبًا سمّوه لعب ضرب النار، وإلى الآن يلعب به الصغار. ولما أتقنوا وجه الحيلة مالوا على الكفرة ليلاً، فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الكفّار عن آخرهم كما تقدّم»[92].

---

88) **الكامل**، المصدر المذكور.

89) أماري، **ستوريا**، 479/3.

90) [في الأصل: ابن مقديش، والصحيح ما أثبتناه].

91) من التقويم اليوليوسي، [أي التقويم الذي وضعه يوليوس قيصر سنة 46 ق.م.].

92) [مقديش، **نزهة الأنظار**، الطبعة الجديدة، بيروت 1988، 491/1–492]، الطبعة الحجرية، 193/1.

والجدير بالذّكر أنّ طبخ الفول وضرب النّار بمناسبة رأس السّنة المسيحيّة حسب التقويم اليوليوسي من العادات البربريّة القديمة[92م]. وبناء على ذلك، فان اغتنام فرصة الاحتفال برأس السنة لمباغتة النّصارى المحتفين بذلك العيد والسعي إلى إبادتهم، يعتبر خدعة بارعة. فليس من المستبعد أن تكون الأسطورة قد اعتمدت تلك الحادثة وحرّفتها تحريفًا يزيد أو ينقص. وليس من المستحيل حينئذ أن يكون قتل النّصارى في صفاقس قد تمّ في الليلة الفاصلة بين 31 ديسمبر 1155 وأوّل يناير 1156 (6 ذو القعدة 550هـ)[93].

تعذيب أبي الحسن الفرياني[94] :

«فلمّا اتّصل الخبر بغليوم[94م] ملك صقليّة أحضر أبا الحسن وعرّفه ما عمل ابنه. فأمره أن يكتب إليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود إلى طاعته، ويخوّفه عاقبة فعله. فقال: «مَنْ قَدِمَ على هذا لا يرجع بكتاب»[95].

فسجن الملك رهينته وبعث إلى عمر برسالة يأمره فيها بالاستسلام ويتوعّده بقتل أبيه، إن لم يرجع إلى الطاعة. وقد نقل إلينا التجاني التقرير الذي رفعه الرّسول إلى سيّده عند عودته من مهمّته، [وهذا نصّه]:

«قال الرسول: فوصلت إلى صفاقس، فلم أُمَكَّن من النزول إلى البرّ. ولمّا كان من الغد سمعت في البلد ضجّة، ثم فُتِحَ باب البحر وخرج النّاس يكبّرون ويهلّلون، ومعهم نعش قد رفعوه على رؤوسهم، فحطّوه، ثم تقدّم عمر فصلّى عليه ودفنه وعزّاه النّاس وانفصلوا. قال: فاستدعيت الجواب فقيل لي: الشيخ مشغول بالعزاء في والده الذي بصقليّة، والنعش الذي قد رأيت نعشه. وقد عزم على موته والسلوى عنه وليس لك جواب إلاّ ما رأيت.

فلمّا بلغ ذلك طاغية صقليّة أمر بالشيخ أبي الحسن فسُحِبَ إلى المشنقة بوادي عبّاس، فشُنِق وهو يتلو كتاب الله، إلى أن فاضت نفسه رحمه الله»[96].

92م) روجي الهادي إدريس، أعياد مسيحيّة...، المجلة الإفريقيّة، 1954، 266-268.

93) من الجدير بالتذكير أنّ السنوات التي سبقت 5 أكتوبر 1582 كلّها سنوات يوليوسيّة بأتمّ معنى الكلمة. أنظر، H.G. Gattenoz، جداول الموافقة...، الطبعة الثانية، الرباط، 1954، المقدمة.

94) حسب التجاني، والكامل، 91/11-92.

94م) [في الكامل: غليالم، وفي رحلة التجاني: غليام].

95) الكامل، 91/11.

96) التجاني، 75.

ثورة زويلة[97] :

لقد فكّر عمر الفرياني في استئصال النّصارى من المهديّة التي هي قاعدتهم الرئيسيّة في إفريقيّة ، فأرسل إلى أهل زويلة يحرّضهم على الثورة . ومن المعلوم أنّ النّرمان كانوا لا يقيمون بتلك المدينة ، حسب الاحتمال ، ولكن انتفاضة زويلة كانت ترمي إلى محاصرة المهديّة .

«فقدم عرب البلاد إلى زويلة ، فأعانوا أهلها على مَنْ بالمهديّة من الفرنج ، وقطعوا الميرة عن المهديّة» ، (وذلك في شوال 551 هـ / 17 نوفمبر – 15 ديسمبر 1156م)[98] .

«وأمّا أهل زويلة ، فانهم كثر جمعهم بالعرب وأهل صفاقس وغيرهم ، فحصروا المهديّة وضيّقوا عليها ، وكانت الأقوات بالمهديّة قليلة ، فسيّر إليهم صاحب صقليّة عشرين شينيًّا فيها الرجال والطعام والسّلاح ، فدخلوا البلد وأرسلوا العرب وبذلوا لهم مالاً لينهزموا وخرجوا من الغد ، فاقتتلوا هم وأهل زويلة ، فانهزمت العرب وبقي أهل زويلة وأهل صفاقس ، وركبوا في البحر فنجوا ، وبقي أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج ، فانهزموا إلى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السّور وصبروا حتى قُتِلَ أكثرهم ولم ينج إلا القليل ، فتفرّقوا ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن ، فلما قتلوا هرب مَنْ سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البرّ ولم يعرجوا على شيء من أموالهم ودخل الفرنج زويلة ، فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ونهبوا الأموال»[99] .

وكان ذلك في سنة 552 هـ / 13 فيفري 1157– أوّل فيفري 1158م[100] . وحسب روبار رئيس دير جبل القديس ميخائيل ، أقرّ غليوم الأوّل النّصارى في زويلة وعيّن لهم رئيسًا للأساقفة[101] . ويرى شالندون أنّ ذلك يعني استعمال منطقة المهديّة ملجأ لجميع النّصارى بإفريقيّة خلال بضع سنوات .

---

97) **الكامل** ، 91/11–92؛ **البيان** ، 316/1 .

98) زيادة من **البيان** .

99) **الكامل** ، المصدر السابق .

100) **البيان** ، المصدر المذكور .

101) **ستوريا** ، 483/3–484 ؛ شالندون ، 238/2 ، يرى من الممكن أن تكون جزيرة قرقنة قد استُرْجِعَت (نوفمبر – ديسمبر 1157) .

عصيان طرابلس[102] :

أمام الخطر الموحّدي المتفاقم ، وربّما إثر الاستيلاء على عنابة الذي لا نعرف تاريخه بالضبط[103] ، رأى النرمان من باب الاحتياط التأكّد من ولاء مدينة طرابلس ، رغم أنّهم لم يتعرّضوا هناك لأيّ عمل عدواني منذ اثني عشر عامًا . ولا شكّ أنّ إخماد ثورة زويلة لم يكن كافيًا لمنع أهل طرابلس من الاقتداء بصفاقس وجربة وجزيرة قرقنة التيْ فشل النّصارى في استردادها . وحرصًا منهم على الحيلولة دون قيام أي تحالف بين الموحّدين وطرابلس ، أمر النرمان أهل المدينة «أن يصعدوا المنابر (ربما أثناء صلاة الجمعة) فيتكلّموا في جهة الموحّدين بسوء . فأعظم أهل طرابلس ذلك واجتمعوا إلى قاضيهم أبي الحجّاج (يوسف بن زيري) فسفر بينهم وبين النّصارى وأعلم النّصراني (أي رئيس النّصارى بطرابلس بدون شكّ) عنهم أنّه لا سبيل إلى نيل ذلك منهم ، وأن الأمر إنما كان العقد بينهم أن لا يكلّفوا المسلمين بشيء يخالف دينهم وذكر أهل الدين بسوء ، ممّا يخالف الدّين ، فإن رضوا منهم بهذا وإلاّ سلّموا لهم البلد وخرجوا عنهم ، فأعفاهم النصراني من ذلك . وأحدث الله عند أهل طرابلس عزمًا على القيام عليهم والتخلّص من أيديهم ، فأسَرُّوا النجوى بذلك بينهم واتّعدوا لليلة معيّنة ، ونصبوا تلك الليلة في الطّرقات خشبًا وأناشيط تمنع الخيل من الجري فيها وثاروا عليهم . فبادر النصارى إلى خيولهم وركضوها فلم تجد مجالاً ، فأُخِذُوا قبضًا باليد ، وعاد البلد إلى تملّك المسلمين . وكان هذا في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (2 فيفري 1158 — 22 جانفي 1159م) . وحكم على البلد شيخه أبو يحيى بن مطروح ، وكان رجلاً شهمًا حازمًا ، وصالح العرب المجاورين له فاستقام حاله»[104] . واستمرّ على ذلك إلى أن نزل الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى إفريقيّة .

---

(102) التجاني ، 242 وهي أكثر المصادر تفصيلاً ؛ العبر ، 168/6 ؛ الكامل ، 91/11.

(103) لقد اتبعنا الترتيب الذي أورده ابن الأثير ، إذ تحدّث عن احتلال عنابة بعد ثورة قابس . ولكن هذا المؤلّف لا يحترم دائمًا التسلسل التاريخي ، لا سيّما عند الحديث عن أحداث سنة 551هـ.

(104) التجاني ، 242.

ثورة قابس والاستيلاء على عنّابة[105] :

وفي نفس الفترة تقريبًا ثار محمد بن رُشَيْد في قابس وخرج عن طاعة النزمان ، ولعلّ ثورة طرابلس قد شجّعته على ذلك[106].

ورغم أنّنا لا نعرف بالضبط متى استولى الموحّدون على مدينة عنّابة ، فالغالب على الظنّ أنّ ذلك الاستيلاء قد تمّ أيضًا في نفس تلك الفترة ، مباشرةً إثر ثورة قابس.

«وخرج جميع إفريقيّة عن حكم الفرنج ، ما عدا المهديّة وسوسة»[107].

---

(105) **الكامل** ، 91/11.

(106) حسب ابن الأثير الذي أشار على التوالي إلى ثورة طرابلس ثم ثورة قابس. وأخيرًا استيلاء الخليفة الموحّدي على عنّابة.

(107) **الكامل** ، 91/11.

الفصل السّادس
استيلاء عبد المؤمن على إفريقيّة
(554–555 هـ / 1159–1160 م)

المرحلة الأولى : الاستعدادات واحتلال مدينة تونس[1] :

منذ أن عاد عبد المؤمن إلى مراكش، بعد أن فتح المغرب الأوسط سنة 548 هـ / 1152 م، والأمير الحسن المخلوع المقيم بتلك المدينة يحثّه على الزحف على إفريقيّة. وإثر فشل ثورة زويلة ضدّ النصارى (552 هـ / 1157 – 1158 م)، وفد بعض من نجا من أهل المدينة إلى عبد المؤمن وهو بمراكش يستجيرونه. فوعدهم الخليفة بالإعانة «ولو بعد حين» وأمر بإنزالهم ومنحهم ألفيْ دينار. وقد أسلفنا أنّ عبد المؤمن ما لبث أن وجّه جيشًا بقيادة ابنه أبي محمّد عبد الله إلى مدينة تونس التي كانت قد قاومت بنجاح سنة 552 هـ / 1157 م. فكان على الخليفة أن ينتقم لهذه الخيبة !

وحسب ابن خلدون[2]، ارتحل عبد المؤمن إلى سلا سنة 553 هـ / 1158–1159 م، وكان ينوي التحوّل إلى الأندلس، حيث انتصر ملك النصارى على ابنه أبي يعقوب تحت أسوار مدينة أشبيلية. فلما علم بانهيار مملكة بني زيري بإفريقيّة واحتلال المهديّة[2م]، جمع جيشه في سلا ثم غادر المدينة بعدما عيّن أبا حفص نائبًا عنه بالمغرب ويوسف بن سليمان عاملاً على فاس. وإثر قيامه بغارة خاطفة، أجبر الصقليّين المقيمين بالمهديّة على الاستسلام سنة 555 هـ، ولم يتحدّث أيّ مصدر آخر عن مشروع تنظيم حملة عسكريّة في الأندلس.

---

1) أ– **رحلة التجاني**، 346–347 ؛ و**الحلل السندسيّة**، 1/249–251 ؛ مقديش، **نزهة الأنظار**، 1/495–496، نقلاً عن ابن شدّاد.

ب– **الكامل**، 108–109 ؛ والنويري، 210–211، نقلاً أيضًا عن ابن شدّاد بدون ذكره.

ج– **العبر**، 6/162، 237 ؛ **البيان**، 1/316 ؛ **المؤنس**، 116.

د– مصادر موحّديّة بحسب أهمّيتها : البيذق، 120 ؛ **الحلل الموشّية**، 115–117 ؛ المراكشي، 162 ؛ الزركشي، 7–9 ؛ ابن صاحب الصلاة، المكتبة العربية الصقليّة، 197 ؛ **القرطاس**، 128–129.

2) **العبر**، 6/237.

2م) لعلّ الأمر يتعلّق بحركات العصيان ضدّ النصارى وفشل انتفاضة زويلة.

وهو مشروع يعيد إلى الأذهان بشكل غريب الفكرة التي نُسِبَت إلى عبد المؤمن قبل رحيله لفتح المغرب الأوسط منذ عهد بعيد. وربّما لا ينبغي أن نحتفظ من رواية ابن خلدون المقتضبة بغرابة، إلاّ بالمعلومات المتعلّقة بتعيين أبي حفص ويوسف بن سليمان، وحشد الجنود بسلا، كما أكّد ذلك صاحب **الحلل الموشّية**.

فقد ورد في هذا المصدر وصف طريف لمسيرة الجيش الموحّدي الذي انطلق من سلا ووصل إلى تونس في ظرف ستة أشهر، وقطع حينئذ مسافة يستطيع أن يقطعها أيّ فارس سريع في ظرف سبعين يومًا. وكان ذلك الجيش يضمّ 75 000 فارس و500 000 راجل، وهذه التقديرات مبالغ فيها لا محالة. وكان الجيش يتحرّك كلّ يوم بعد صلاة الصبح إثر قرع الطبول، وهو موزّع إلى أربع فرق عسكريّة، كلّ فرقة مدعوّة إلى الرحيل في يوم معيّن والحلول بمكان معيّن قرب عين ماء. والمقصود بذلك بلا شكّ أنّ تلك الفرق كانت تنطلق على التوالي في أيّام محدّدة من قبل. وعندما يمتطي الخليفة صهوة جواده، يحيط به قوّاد الجيش، وبعد الدّعاء ينطلق مسبوقًا من بعيد بكوكبة من الفرسان تضمّ مائة فارس، ويسير وراءه الجنود والبعير الحامل لهودج تزيّنه أربع رايات حمراء ويحتوي على تابوت مرصّع بالجواهر، به مصحف الخليفة عثمان بن عفّان، الذي أتى به عبد المؤمن من قرطبة. ويسير الخليفة الموحّدي متبوعًا بأبي حفص[3]، وبوليّ عهده أبي عبد الله المتقدّم على إخوانه الآخرين، ووراءهم البنود والطبول ورجال الدولة، ويتحرّك الموكب في نظام تامّ. وتتوقّف كلّ فرقة عسكريّة في المكان المعيّن لها. وقد وُضِع على ذمة الجيش كلّ ما يحتاج إليه في السفر، وذلك بالخصوص بفضل الحرفيّين الذين وفّروا له جميع أسباب الراحة. ولتموين ذلك الجيش العظيم الذي قدّر ابن الأثير عدده بمائة ألف مقاتل وبعدد مماثل «من الأتباع والسوقة»، أمر الخليفة «بعمل الرّوايا والقِرَب وما يحتاج إليه العساكر. وكتب إلى جميع نوّابه في الغرب، وكان قد ملك إلى قرب تونس، يأمرهم بحفظ جميع ما يُتَحَصَّل من الغلاّت ثلاث سنين، ونقلوها إلى المنازل وطيّنوا عليها، فصارت كأنّها تلال. وبلغ من حفظه لعساكره أنّهم كانوا يمشون بين الزروع، فلا تتأذّى بهم سنبلة. وإذا نزلوا صلّوا جميعًا مع إمام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلّف منهم أحدٌ كائنًا مَنْ كان»[4].

---

3) حول أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، أنظر: البيذق، الترجمة 50.

4) **الكامل**، 108–109.

وبما أنّنا نجد الجملتين الأخيرتين في الفقرة المأخوذة من تاريخ ابن شدّاد والواردة في رحلة التجاني ، فالغالب على الظنّ أنّ ابن الأثير قد استقى أغلب معلوماته من ذلك الكتاب.

وعلى غرار التجاني ، سنعطي الكلمة لابن شدّاد ليعلمنا بما يلي : «كانت مقدّمة هذا العسكر اثنيْ عشر ألفا ، قد كلّفوا بحفر الآبار في الطريق واستخراج المياه. فكانوا يتقدّمون قبله بيومَيْن ، فلا يأتي إلاّ وقد هُيِّئَتْ له الغلاّت ومُلِئَت الأحواض بالمياه. ولولا هذا التدبير لم يقدر على قطع هذه المسافة البعيدة بهذه الجيوش العظيمة. وكان كلّما مرّ بأرض فيها عرب ، بادروا إليه فاستصحب أعيانهم معه ، وقد كانت وقعة سطيف أذلّتهم»[5].

«وكان أسطوله في البحر سبعين مركبًا[6] ، قوّادها محمّد بن عبد العزيز ابن ميمون من البيت المشهور في قيادة البحر وابن الخرّاط وأبو الحسن الشاطبي ، وغير هؤلاء ممّن هو مثلهم في المعرفة والشهرة»[7].

وكان عبد المؤمن مصحوبًا بالحسن بن علي. ويسهل علينا أن نتصوّر ما كان يشعر به الأمير المخلوع من غبطة لعودته إلى مملكته. وأكّد ابن الأثير أنّ الخليفة «قد قدّمه بين يديه». فهل يمكن أن نستنتج من ذلك أنّ عبد المؤمن قد وضع ببراعة الحسن في مقدّمة الجيش لإقناع النّاس بأنّ غرضه من فتح إفريقيّة إنّما هو إرجاع الصنهاجيّين إلى الحكم؟

وفي طريقه استصحب الخليفة ابنَيْه أبا حفص عامل تلمسان وأبا محمّد عبد الله عامل بجاية[8]. والغالب على الظنّ أنّ ذلك الجيش العظيم قد تجمّع في باجة في نفس المكان الذي سبق أن تجمّع فيه الأعراب قبل هزيمتهم في سطيف. إذ أكّد التجاني أنّ عبد المؤمن قد استعرض جيشه في باجة ، «فكانت الخيل أَزْيَدَ من مائة ألف فارس وأمّا الرجّالة فلا يُحصون كثرةً». وأثناء هذا التوقّف الذي لا نعرف مدّته بالضبط ، ولكنّه على الأرجح كان قصير الأمد ، «وجّه الخليفة إلى أهل تونس بالتأمين والعفو» ، لحثّهم على تسليم المدينة إليه. وقد كان يرغب بدون شكّ في إعلامهم بأنّه لا يضمر لهم أيّة ضغينة من أجل الهزيمة التي ألحقوها بابنه قبل ذلك بستّين.

5) تدلّ هذه الإشارة على أنّ أفواجًا غفيرة من أعراب المغرب الأوسط وإفريقيّة ما انفكّت تعزز الجيوش الموحّدية إلى أن وصلت إلى تونس.

6) في الكامل : «سبعين شينيًّا وطريدة وشَلَنْدِي».

7) رحلة التجاني. 346-347.

8) حسب ابن صاحب الصلاة.

«فارتحل عبد المؤمن من باجة ونزل على طبرية وأعاد إلى أهل تونس الترغيب والترهيب ، فلم يقبلوا ، فارتحل إلى تونس».

وكان عبد المؤمن قد غادر مراكش يوم أوّل شوّال 553 هـ/ 26 أكتوبر 1158م ، أو بعد ذلك بقليل[9]. وحسب رواية ابن الأثير ، «سار من مرّاكش في صفر من هذه السنة ، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة». في حين أكّد التجاني ، نقلاً عن ابن شدّاد بلا شكّ ، أنّ نزوله بتونس كان يوم السبت 10 جمادى الأولى 554 هـ[10]. فمن المحتمل أن يكون حصار تونس قد دام شهرًا ونصف الشهر[11].

وحسب المصدر المذكور ، «اتّصلت الأخبية من الحنايا[12] إلى حلق الوادي ، وعاين أهل تونس أمرًا عظيمًا وأيقنوا بالهلاك. وأقام العسكر ثلاثة أيّام لا يقاتلون. فنزل على عبد المؤمن أشياخ لطلب السلم من أهل تونس ، منهم بنو عبد السيّد عمر ومعاوية وعبد السيّد ، ومنهم ابنا منصور بن اسماعيل وابن عمّه عتيق ، ومنهم الخارجي محمد وحمزة ابن حمزة وعبد العزيز القمودي ، وغيرهم ، وكانوا اثنيْ عشر رجلاً»[13]. وكان بنو السيّد من الأشراف الهاشميّين ، وبهذه الصفة على الأقلّ كانوا ذوي نفوذ كبير. وقد نُشِرَت قبريّة واحد منهم ، وُصِف بالفقيه والإمام ، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد السيّد الهاشمي المالكي المتوفّى في العشر الأواخر من شوّال سنة 528 هـ/ 1113م[14].

---

9) **القرطاس** ، 120 : ارتحل في العشر الأوائل من شوال 553 هـ/ 26 أكتوبر—4 نوفمبر 1158م. ابن صاحب الصلاة : سار في أوّل شوال 553 هـ/ 26 أكتوبر 1158م واتخذ عبد السلام بن محمد الكومي وزيرًا له ووصل إلى سلا.

10) وذكر مقديش التاريخين.

11) أماري (**ستوريا** ، 487/3) استخلص أن عبد المؤمن بعد هجومه على تونس التي أبدت مقاومة (ماي 1159) ، تحول إلى القيروان وسوسة وصفاقس ثم رجع إلى تونس يوم 13 جويلية 1159. **القرطاس** ، 129 ؛ **المؤنس** ، 116 : «وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة تحرك عبد المؤمن من مدينة مراكش وقصد إفريقيّة بأمم لا تحصى فوصل الزاب وبلاد إفريقية فقتل من عصى وأمّن من استأمن إلى أن وصل مدينة تونس فحاصرها ثلاثة أيّام وارتحل عنها وترك جيشًا محاصرًا لها وسار إلى القيروان ففتحها وفتح سوسة وصفاقس وارتحل إلى المهديّة فحاصرها سبعة أشهر». **البيان** ، 316/1 : «ونازل تونس ثم أقلع عنها وحاصر النصارى بالمهديّة» ، وهو ناقص وربما محرّف. ويؤكّد البيذق ، 120 أنّ احتلال تونس سبق ارتحال الخليفة إلى المهديّة.

12) وهي بلا شكّ حنايا باردو.

13) **رحلة التجاني** ، 345.

14) سليمان مصطفى زبيس ، **نقائش** ، 1 ، عدد 49 ص 73.

«فوصل الأشياخ إلى عبد المؤمن وطلبوا العفو منه فأُسْعِفُوا به ، بعد مكابدة شديدة وامتناع عظيم من عبد المؤمن»[15].

ورغم تطابق رواية ابن الأثير مع الرواية السابقة ، فانها تختلف عنها في بعض الجزئيّات . فحسب هذا المؤلّف ، «أقبل أسطول عبد المؤمن في البحر إلى مدينة تونس ، فلما نازلها أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته ، فامتنعوا ، فقاتلهم من الغد أشدّ قتال ، فلم يبق إلاّ أَخْذُها ودخول الأسطول إليها . فجاءت ريح عاصف منعت الموحّدين من دخول البلد ، فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوه ، فلما جنّ الليل نزل سبعة رجلاً من أعيان أهلها إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم»[16].

والجدير بالملاحظة أنّ التجاني وابن الأثير متكاملَيْن ومتَّفقَيْن تقريبًا حول الشروط التي فرضها عبد المؤمن على أهل تونس. «فقد اشترط مسالمتهم في أنفسهم ومشاطرتهم في رباعهم وأموالهم كلّها للمخزن ، ما عدا ملبوس رقابهم ، وغير أهل تونس من قراها وسائر بلادها ، يُشَاطَرون في أموالهم». وأمّا صاحب تونس علي بن أحمد بن خراسان[17] الذي خلف عمّه عبد الله ابن خراسان[18] قبل ذلك بخمسة شهور ، فقد اشترط عليه ، علاوة على دفع نصف أمواله مثل بقيّة أهل تونس ، «الخروج من تونس والانتقال إلى بجاية. فوقع الشرط على ذلك وتسلّم عبد المؤمن منه تونس وخرج ابن خراسان منها من يومه ، فمات في الطريق»[19].

«وعرض عبد المؤمن الإسلام على مَنْ بتونس من اليهود والنّصارى ، فمن أسلم سَلِمَ ومن امتنع قُتِل».

ومن ناحية أخرى ، هل يمكن تصديق الرواية التالية التي أكّد صاحبها أنه استقاها من مصدر آخر غير ابن شدّاد؟ وهي رواية تكتسي صبغة خرافيّة ، حسبما يبدو. فقد قال التجاني :

«ومن غير كلام ابن شدّاد ، أنّ عبد الله بن عبد المؤمن لمّا فعل به أهل تونس ما فعلوا حين نزل عليهم قبل هذا ، حلف أن يدخلها بالسيف ويقتل جميع من تقع عينه عليه من

15) التجاني ، المصدر المذكور.

16) **الكامل** ، المصدر السابق.

17) حسب رواية ابن خلدون ، **العبر** ، 165/6 وتسمّيه بعض المصادر خطأً (البيذق وابن الأثير) : أحمد بن خراسان.

18) اسمه الكامل : عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان.

19) **رحلة التجاني** ، 346.

أهلها ، فأمر النّاس أن يدخلوا دورهم ولا يخرج أحد منهم حتى يسمع النداء ليدخل عبد الله إلى البلد. فدخلها وسيفه في يده ، فلم يلق إلاّ شيخًا قتله وانصرف ، وقد برّت يمينه»[20].

وأثناء الأيّام الثلاثة التي قضاها عبد المؤمن بتونس ، «منع العسكر من دخولها وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم»[21]. ثم عهد بالمدينة إلى نائبه أبي محمّد عبد السلام الكومي. وقد نسب البيذق إلى هذا الوزير القيام بدور بارز في الاستيلاء على مدينة تونس. ومن المحتمل أن يكون قد أشرف على سير العمليّات وساهم مساهمة فعّالة في المفاوضات.

وخلال هذه الفترة أعيد بناء القصبة ببروجها المثلّثة الزوايا وتمّ فصلها عن المدينة بسور»[22].

وكان يساعد عامل المدينة «أشياخ من الموحّدين لاستخلاص الأموال من أهل تونس. فوقع البحث عن أموالهم ودُخِلَت دورهم فحُمِل جميع ما فيها وبيع ما أمكن بيعه من رباعهم وأملاكهم»[23].

وحسب رواية ابن الأثير، «أقام أهل تونس بها بأجرة تُؤْخَذ عن نصف مساكنهم». ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بمساكن بعض الأثرياء القادرين على دفع رسوم تساوي قيمتها نصف القيمة العقاريّة لمساكنهم. ومن الممكن أن تكون طريقة توظيف تلك «الأجرة» مختلفة بحسب الحالات الخاصّة. ولعلّ الموحّدين قد اجتنبوا إخراج النّاس من مساكنهم ، لا سيما وأنّ بيع العقارات بالمزاد العلني سرعان ما تجاوز إمكانات المشترين المحتملين. وقد كان بودّنا أن نعلم هل أنّ هؤلاء المشترين هم من أهل المدينة ، أم كان يوجد من بينهم بعض الموحّدين.

ومن المحتمل أن يكون مثل هذا الإجراء قد طُبِّقَ على سائر البلاد المفتوحة. إذ أكّد التجاني «أنّ الأمناء قد خرجوا إلى سائر بلاد إفريقيّة لمشاطرة الرعيّة في جميع ما بأيديهم ، حتى لم يبق من إفريقيّة بقعة إلاّ عمّها ذلك»[24].

---

20) نفس المصدر.

21) **الكامل** ، المصدر المذكور.

22) برنشفيك ، **الدولة الحفصيّة** ، (الترجمة العربية) ، 373/1.

23) **رحلة التجاني** ، 346.

24) نفس المصدر.

المرحلة الثانية : الاستيلاء على المهديّة[25] :

إنّنا نجهل الطرق التي سلكها عبد المؤمن في رحلته إلى المهديّة ، وقد وصلها «ضحوة» يوم الأربعاء 12 رجب سنة 554هـ/ 30 جويلية 1159م[26] ، ثم التحق به الأسطول الموحّدي الذي كان «يحاذيه في البحر». وتمّ حصار المهديّة برًّا وبحرًا ، كما كان الشأن بالنسبة إلى مدينة تونس.

ونزل الخليفة بزويلة ، وقد أخلاها العدوّ. فكان يقضي النهار في خيمته ويبيت في إحدى الدور بزويلة. وفي لمح البصر امتلأت المدينة بالعساكر وأهل الأسواق وأصبحت معمورة بين عشيّة وضحاها. «ومَنْ لم يكن له موضع من العسكر ، نزل بظاهرها ، وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء»[28]. وتعني عبارة «أهل البلاد» إمّا أهل زويلة أو أهل المهديّة. ذلك أنّ النصارى المعرّضين للحصار الوشيك لم يكن من صالحهم أن يتركوا في المهديّة أناسًا سيكونون عالة عليهم ، ولذلك فانهم لم يحاولوا منع المسلمين من الخروج من المهديّة بل ساعدوهم ، إن لم نقل أجبروهم على ذلك.

«وأقبل النّاس يقاتلون المهديّة مع الخليفة ، فلا يؤثّر ذلك فيها لحصانتها وضيق مأخذ القتال منها ، لأنّ البحر دائر بأكثرها»[29]. وكان يقيم بالمهديّة آنذاك ثلاثة آلاف فرنجي[30].

---

25) أ– **رحلة التجاني** ، 347 نقلاً عن ابن شدّاد وهو شاهد عيان ؛ و**الحلل السندسيّة** ، 1/251–252 ؛ ومقديش ، 1/495–496.

ب– **الكامل** ، 109–110 ، اعتمد هو أيضًا ابن شدّاد دون ذكره. والنويري ، 2/211–213.

ج– **العبر** ، 6/237–238 ؛ **البيان** ، 1/316 ؛ **المؤنس** ، 115–116.

د– البيذق ، 120.

هـ– ليفي بروفنسال ، **سبع وثلاثين رسالة** ، هسبيريس ، 1941 ، 43–45.

و– **الحلل الموشّية** ، 117 ؛ المراكشي ، 162–163 : **القرطاس** ، 117 ، 129 ؛ الزركشي ، 8

26) حسب التجاني نقلاً عن ابن شدّاد ، نظريًّا يوم الخميس. باستثناء ابن الأثير الذي ذكر تاريخ 18 رجب (وهو خطأ في القراءة ، ثامن عوض ثاني) ، ذكرت جميع المصادر بما في ذلك النويري ، التي نقلت حرفيًّا ما أورده ابن الأثير ، تاريخ 12.

27) **الكامل** والنويري : «أهل البلد».

28) **الكامل** والنويري.

29) **رحلة التجاني** ، 347.

30) **الحلل الموشّية** ، 117.

وكان الموحّدون يستعملون بعض الأسلحة الحربيّة كالمجانيق وقاذفات الصّواريخ[31].

«وكان الفرنج يخرجون من المهديّة ، فينهبون أطراف العسكر. فأمر عبد المؤمن ببناء سور بين عسكره والمدينة يمنعهم من الخروج».

«وركب عبد المؤمن في شيني ، ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها ، وطاف بها في البحر ، فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تُفْتَح بقتال برًّا ولا بحرًا ، وليس لها إلاّ المطاولة . وقال للحسن : كيف نزلت عن مثل هذا الحصن؟ فقال : لقلّة من يُوثَق به وعدم القوت وحكم القدر. فقال : صدقت وترك القتال. فلم يمض غير قليل ، حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير»[32]. إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من غلاء المعيشة[33].

وحاول ملك صقليّة تخليص المهديّة ، فاستدعى أسطوله الذي كان قد عاث فسادًا في سواحل الأندلس ، بقيادة الخصيّ بيدرو ، ونهب جزيرة يابسة[34].

«فلمّا كان في يوم الاثنين لثمانٍ بقين من شعبان 554هـ/ 7 سبتمبر 1159م[35] ، جاء أسطول صقليّة في مائة وخمسين شينيًّا غير الطرائد»[36].

«فحضر (ابن ميمون) مقدّم أسطول عبد المؤمن (الذي لم يكن يضمّ سوى 70 مركبًا) بين يدي الخليفة (وربّما كان مصحوبًا بكبار القوّاد) ، فقال له : إنّ هذا الأسطول قد أقبل ولا يصل إلاّ متفرّقًا بحكم النّوء ، فلتأذن لنا في الخروج إليه. فسكت عبد المؤمن ، فاغتنموا سكوته وبادروا إلى القِطَع فملؤوها بما احتاجوا إليه من العُدَد وخرجوا واصطفّت عساكر

---

31) ويدّعي ابن أبي زرع صاحب **روض القرطاس** أنّ المعارك البحريّة والبريّة تواصلت بلا انقطاع ليلاً ونهارًا وتداولت القبائل الموحّديّة إلى أن تمّ الاستيلاء على المدينة ومات عدد كبير من النّصارى. وتحدّث البيذق أيضًا عن المجانيق.

32) **الكامل**، المصدر السابق.

33) حسب المراكشي بيعت ثلاث حبّات الفول بدرهم مؤمني (1/2 درهم قانوني).

34) وضع ابن الأثير الذي لم يحترم مرة أخرى التواريخ ، احتلال أو استسلام صفاقس وطرابلس ونفوسة وقصور إفريقيّة قبل وصول الأسطول النرماني. والحال أنّ هناك رسالتين رسميّتين موحّدتين ، الأولى مؤرّخة في 20 ذي القعدة 554هـ/ 4 ديسمبر 1159م والثانية غير مؤرّخة ولكنها صادرة بعد الأولى بقليل ، تفيدان بأنّ سقوط قفصة وقابس على الأقلّ قد تمّ بعد هجوم الأسطول الصقلي الذي أشار إليه التجاني ، دون ذكر التاريخ الذي أورده ابن الأثير، مباشرة بعد الحادثة التي جرت بين عبد المؤمن والحسن.

35) حسب النويري ، وفي **الكامل** : «ولمّا كان في الثاني والعشرين من شعبان» وهي قراءة يبدو أنها مستمدّة من الجملة التي أوردها النويري : الاثنين 22 شعبان/ 8 سبتمبر 1159م، نقلاً لا محالة عن **الكامل**.

36) **الكامل**، المصدر المذكور؛ وفي **الحلل الموشّية**، مائة جفن محمّلة بالطعام والمؤونة.

37) حسب التجاني : «فحضر مقدّمو (بالجمع) أسطول عبد المؤمن». وقد فضّلنا استعمال المفرد، وفقًا لما ورد في المخطوط. ومن المحتمل أن يكون ابن ميمون مصحوبًا بكبار القوّاد، **ستوريا**، 490-491.

المسلمين على الساحل. قال الحاكي[38] : كنت حاضرًا وعبد المؤمن يبكي ويسجد في الأرض ويقول : اللّهمّ لا تضعضع دعائم الإسلام !

«ولما قرب أسطول الفرنج من دار الصناعة، خرجت إليه من المهديّة قطعة لتلقّيه. فبادر ابن ميمون إلى أخذها. وكانَ بعض أسطول الفرنج أيضًا قد حطّ قلعه، فأعجله أسطول المسلمين عن الدخول واستولى على ثمان قطع منه[39]. فاجتمع بقيّة الأسطول وولّوا منهزمين.

«فسجد عبد المؤمن شكرًا لله تعالى وفرّق في غزاة الأسطول اثني عشر ألف دينار مؤمنيّة»[40].

والجدير بالملاحظة أنّ رواية فلكان[41] (Falcand) الذي أكّد أنّ الخصيّ بيدرو قد خان وأعطى الإذن بالتراجع، بلا سبب، بل بلا قتال، تبدو بعيدة عن الواقع. ذلك أنّ هذا الإخباريّ الصقليّ المنحاز إلى أبعد حدّ قد أراد اتّهام قائد الأسطول النرماني بالخيانة. ورغم ما شعر به النّصارى من خيبة أمل إثر هذه الهزيمة، فقد قاوموا حتى أواخر ذي الحجة 554هـ / أوائل جانفي 1160م، وأخيرًا قبلوا التفاوض في شأن الاستسلام.

وقد زعم فلكان[42] أنّ الخصيان الموجودين في البلاط الصقلّي كاتبوا عبد المؤمن، مؤكّدين له عدم توجيه أيّ مدد إلى المهديّة وملتمسين منه استخدام النصارى المُحَاصَرين أو إرجاعهم إلى صقليّة. ويقال إنّ الحامية قد طلبت إلى الخليفة السماح لها بجسّ نبض غليوم، وتعهّدت بتسليم المدينة إليه إذا يئست من النجدة. ويبدو أنّ رسولهم قد اتّصل بالبلاط الملكي في بلرمو، ولكنه لم يتحصّل على أيّ وعد. ذلك أنّ الوزير ماجون قد أقنع غليوم بأنّ المهديّة ليست في حاجة إلى المؤونة. وتبعًا لذلك، أرغمت المجاعة النّصارى المحاصَرين على الاستسلام. ولكنّ أماري رأى أنّ هذه الرواية بعيدة عن الواقع.

ورغم ما يثيره تحامل فلكان على بيدرو الخصيّ والوزير ماجون، من شكوك حول صحّة تلك الرواية، فهل يكفي ذلك لرفضها رفضًا باتًّا؟ فمن الممكن أن تكون قد جرت اتّصالات

38) من المحتمل جدًّا أن يكون هذا الحاكي هو ابن شدّاد.

39) حسب التجاني، وفي **الكامل** «سبع شواني». وأضاف ابن الأثير: «ولو كان معهم شواني لأخذوا أكثرهم». ونقل مقديش هذه الجملة كما يلي: «ولو كان معهم قلوع لأخذوا أكثرهم».

40) **رحلة التجاني**، 348–349.

41) **ستوريا**، 491/3؛ شالندون، 240/2.

42) نفس المصدر.

من هذا القبيل قبل استسلام المهديّة ، لا سيما وأنّ ذلك لا يتنافى مع ما جاء في الرواية الواردة في المصادر الإسلاميّة ، والتي اعتبرها كلّ من أماري وشالندون أصحّ من الرواية السابقة.

وقد أكّد التجاني وابن الأثير ، بالاعتماد دائمًا على ابن شدّاد – حسبما يبدو – أنّ النّصارى قد فنى قوتهم حتى أكلوا الخيل. «فنزل حينئذٍ من فرسان الفرنج عشرة[43] وسألوا الأمان لمن فيها (المهديّة) من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم».

«فعرض عليهم (الخليفة) الإسلام ودعاهم إليه ، فلم يجيبوا وتردّدوا إليه أيّامًا بالكلام الليّن وقالوا : ما عسى المهديّة وما فيها من الفرنج بالنسبة إلى مُلْكِك العظيم وأمرك الكبير ، وإن أنعمت علينا كنّا أرِقّاءك في بلادنا. فرأى منهم كمالا في الأجسام وتؤدة في الكلام فأعطاهم ما أرادوا»[44].

وأكّد ابن الأثير «أنّ صاحب صقليّة قد قال : إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهديّة ، قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقليّة وأخذنا حرمهم وأموالهم».

وأعطى الخليفة إلى النّصارى سفنًا لترحيلهم إلى بلادهم. «فركبوا وساروا وكان الزمان شتاء ، فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقليّة إلاّ النّفر اليسير»[45].

ودخل عبد المؤمن المهديّة التي ظلّت اثني عشر عامًا خاضعة للنصارى ، يوم عاشوراء الموافق للعاشر من محرم سنة 555هـ (21 جانفي 1160م) ، وسمّى تلك السنة «سنة الأخماس». وبفضل براعة الخليفة وصبره المتّسم بالحذر ، كادت الخسائر الموحّدية تكون منعدمة. فقد أكّد البيذق أنّ الموحّدي الوحيد الذي قُتِلَ أثناء اقتحام المهديّة هو أبو عبد الله ابن أبي بكر بن إيغيت.

إتمام فتح إفريقيّة :

أثناء حصار المهديّة الذي دام ستة أشهر[46] ، تمكّن عبد المؤمن من فتح إفريقيّة بتمامها وكمالها تقريبًا. ومن الصعب استعادة مراحل ذلك الفتح الذي اكتسى جانب منه صبغة

---

43) مصدر واحد «الحلل الموشّية» يذكر 8 عوض 10.

44) رحلة التجاني ، 349.

45) الكامل.

46) المراكشي ، 163 : دام الحصار سبعة أشهر إلاّ بضعة أيّام.

سلميّة. والجانب الآخر صبغة حربيّة . لأنّ المصادر لم تذكر تلك المراحل بنفس الترتيب ولم تُشِرْ إلى تسلسلها الزمني[47] .

ويبدو باديءَ ذي بدء أنّ بعض المدن الهامّة قد أذعنت للخليفة بالطاعة ، ولا سيما سوسة وصفاقس وطرابلس التي يظهر أنّها انضمّت إلى الموحّدين في تواريخ متتالية ولكنّها متقاربة .

سوسة :

من المحتمل أن تكون سوسة التي لم تزل هي والمهديّة في قبضة النرمان ولم تحاول الثورة عليهم ، قد اقتفت أثر المدن الساحليّة الأخرى ، منذ وصول الجيش الموحّدي ، وربّما بعد مدّة قليلة من فشل أسطول الخصيّ بيدرو.

«فلمّا وصل عبد المؤمن إلى إفريقيّة واستنقذ المهديّة من يد النصارى وقام كلّ أهل بلد على مَنْ عنده منهم ، امتثل أهل سوسة ذلك ورحل أشياخهم إلى عبد المؤمن ، ورحل إليه أيضًا جبارة بن كامل بن سرحان بن أبي العينين. فقدّم على أهل سوسة حافظًا [عاملاً] من الموحّدين يُعرَف بعبد الحقّ بن علناس الكومي ، فطرقهم أسطول النصارى ثانية وهم على غرّة ، فاستولى على البلد وقتل من أهله من قتل وسبى من سبى وخرّب البلد تخريبًا عظيمًا لم يبن على الإقامة فيه وأسّر الحافظ المذكور وأهله وولده وتوجّه بهم إلى صقليّة فأقاموا بها مدّة ثم افتدوا بعد ذلك ورجعوا»[48] .

صفاقس[49] :

لمّا استولى عبد المؤمن على المهديّة ، «وصل إليه عمر بن أبي الحسن الفرياني (بطل ثورة إفريقيّة على النرمان) مع جماعة من أشياخ صفاقس ، فأذعنوا له بالطاعة وعيّن لهم عبد المؤمن حافظًا من الموحّدين وأمر عمر بالرجوع إلى بلده وأن تكون الأشغال المخزنيّة تتصرّف على يده ، فأقام على ذلك إلى أن توفّي وخلفه في ذلك ولده عبد الرحمان بن عمر»[50] .

47) البيذق ، الترجمة 201 .

48) رحلة التجاني ، 30 ، والحلل السندسيّة ، 117/1 ، أما بقيّة المصادر فلم تشر إلى هذه الواقعة .

49) رحلة التجاني ، 36 ؛ الحلل السندسيّة ، 139/1–140 ؛ مقديش ، 497/1 ؛ الزركشي ، 8 ؛ العبر ، 169/6 .

50) رحلة التجاني ، 76 .

طرابلس[51] :

«لمّا نزل الخليفة عبد المؤمن إلى إفريقيّة وافتتح المهديّة، وصلت إليه وفود البلاد، وكان من جملتهم وفد طرابلس وشيخه ابن مطروح. فبايعوا عبد المؤمن الذي قدّمه على أهل بلده، فلم يزل محمود السيرة فيهم إلى أن عجز»[52].

نفوسة وقصور إفريقيّة[53] :

يبدو أنّ استسلام جبال نفوسة وقصور إفريقيّة (أي الرُباطات والحصون الساحليّة أو بالأحرى المواقع المحصّنة في جنوب البلاد)، قد تمّ دون التعرّض لصعوبات جمّة.

الجـريد[54] :

وجّه الموحّدون حملة عسكريّة ضدّ مدن الجريد : توزر وقفصة ونفطة والحامّة. ولا شكّ أنّ الأمر يتعلّق بحملة أبي محمّد عبد الله، ابن الخليفة، الذي قام بدور بارز في تهدئة البلاد.

قـابس[55] :

وهو الذي أخذ قابس من يد آخر مَنْ ملكها من بني جامع، وهو مدافع بن رُشَيْد بن كامل، شقيق محمد بن رُشَيْد. «وقد كان عبد المؤمن بن علي لاطفه واستدعاه بأشعار خاطبه بها وتلوّم عليه، فامتنع من جوابه. فلما وصل إلى حصار المهديّة، أنفذ إليه عسكرًا،

---

51) نفس المصدر، 243 ؛ **العبر**، 168/6.

52) **رحلة التجاني**، 243.

53) **الكامل**، 109/11 ؛ النويري، 212/2.

54) المراكشي، 163 ؛ **العبر**، 237/6 ؛ **القرطاس**، 129.

55) **العبر**، 167/6 ؛ ليفي بروفنسال، المرجع المذكور. وفي الدينار المضروب بقابس سنة 551هـ باسم «الإمام عبد الله أمير المؤمنين». يمكن أن نقرأ : «الأمير الرشيد بن الرُّشَيْد».

قائده ابنه عبد الله. فلما علم مدافع بإقباله جمع أهله وعشيرته ومن انحاش إليه وفرّ. ولقيه عسكر عبد الله، فاتّبعته شرذمة منه، فواقفهم ساعة ثم انهزم وقُتِلَ جماعة من أهله وعشيرته».

«وكان له أيّام ملكه وزير يُعْرَف بسلاّم بن فرحان [القابسي] بذل نفسه دونه يوم خروجهم من قابس وقاتل عنه إلى أن قُتِلَ (أواخر شعبان 554هـ/ أوائل سبتمبر 1159م)»[56].

وقد نقل إلينا صاحب **خريدة القصر**[57] قطعة من قصيدة أنشدها في مدح سيّده. كما نقل هذين البيتين من قصيدة أخرى، قيل إنّه ارتجلها يوم قتله :

[كامل]

[أكـذا أموتُ ومـا بلغتُ مرادي   بين الصّوارم والقنـا الميّـادِ
حيث العيون لوامح وطوامح   مـا بين أحبـابٍ وبين أعـادي]

«وتوغّل مدافع في الهرب، فاستجار بأعراب طرابلس فأجاروه. وكان شاعرًا حافظًا للسيرة والأخبار، عالمًا بالأنساب. فلما أتى عليه عامان طريدًا شريدًا، استشار عشيرته في اللّحاق بعبد المؤمن فأشاروا عليه بذلك، فسار إليه فلقيه بمدينة فاس[58]. فرضي عنه وأسكنه هنالك. فتوفّي بها وقد ناهز التسعين»[59].

ونقل صاحب **الخريدة** أبياتًا[60] في ذكر أيام بني جامع الذين حكموا قابس مدّة تسعين سنة، نظمها أحد أفراد تلك الأسرة، وهو أبو ساكن عامر بن محمد بن مكن[61] بن كامل بن جامع الذي فرّ إلى دمشق، كما أورد أبياتًا أخرى من نظم ابنه ساكن بن عامر الذي كان موجودًا بدمشق سنة إحدى وتسعين وخمسمائة / 1195م.

وفي حاشية رسالة وجّهها من المعسكر الموحّدي بظاهر المهديّة يوم 20 ذو القعدة 554هـ/ 3 ديسمبر 1159م، أخبر عبد المؤمن أهل غرناطة أنه تلقّى طلب الأمان من

---

56) **رحلة التجاني**، 100–101.
57) نفس المصدر.
58) في الأصل «قابس» والصواب ما أثبتناه.
59) **رحلة التجاني**، 101.
60) نقلها التجاني في رحلته، 102–103.
61) في الأصل «مكي» والصواب ما أثبتناه.

الأعراب الفارّين إلى قابس. كما أعلمهم بنبإ الإستيلاء على مدينة قفصة وأحاطهم علمًا بأنّه قد وجّه إليهم في نفس الوقت رسالة خاصّة حول تلك الوقائع وبأنّه قرّر الرجوع إلى المغرب[62].

قفصـة :

وفي رسالة أخرى[63] موجّهة من عبد المؤمن بن علي إلى أهل قرطبة من داخل مدينة قفصة، ولكنّها غير مؤرّخة بسبب نقص في الوثيقة، نجد رواية مفصّلة للعمليّات التي أفضت إلى إخضاع تلك المدينة. إلاّ أنّ الإخباريّين لم يشيروا إلاّ إلى إذعان آخر أمراء بني الرند الذين حكموا قفصة منذ سنة 445هـ / 1053–1054م. الأمر الذي يجعل من الصّعب التحقّق من صحّة البيانات الواردة في ذلك الإعلان الرسميّ المحرّر بغرض الدعاية في الخارج. ومن المستبعد، رغم الإشارة إلى توجيه الرسالة من داخل مدينة قفصة، أن يكون الخليفة قد تحوّل إلى تلك المدينة قبل مدّة قليلة من استسلام المهديّة. ومع أنّ هذا الاحتمال ليس مستحيلاً إلى حدّ ما، أفلا يكون من الأفضل أن نفترض أن عبد المؤمن قد نقل فحوى رسالة موجّهة من قائد الحملة، ابنه أبي محمد عبد الله الذي نسبت إليه فقرة من كتاب **العبر** الاستيلاء على قفصة[64].

وقد جاء في تلك الوثيقة أنّ أحد المتمرّدين قد اتخذ تلك المدينة مركزًا لقيادته العامّة وجمع بها عصابة من المغامرين الأعراب، ثم أخذ في شنّ الغارات وقطع الطرقات ونشر الرعب والدمار. ولما وصل الخليفة إلى إفريقيّة أعلم مراسليه بضرورة إخضاع قفصة وأخبرهم بزيارة أشياخ العرب ودخولهم في طاعته. فتقرّر حينئذ حشد القوّات العسكريّة الموجودة في إفريقيّة والزحف بها على قفصة. وكان أصحابها مقتنعين بمناعة مدينتهم الحصينة، ولهم الحقّ في ذلك، نظرًا لوجود عدّة تحصينات عتيدة بها، علاوة على موقع تلك المنطقة الصعبة المنال والمحاطة بالصحراء من كلّ جانب، وانعدام المؤونة في المناطق المجاورة لها وصعوبة جلبها إليها، بحيث يستحيل على أيّ جيش عظيم أن يقوم بحصار طويل الأمد، لافتقاره إلى الطعام

---

62) انتظر احتلال المهديّة ولم يرجع إلى مراكش إلاّ في أوائل الصائفة الموالية.

63) ليفي بروفنسال، المرجع السابق.

64) ابن خلدون، **العبر**، 273/6.

والشراب. فعزّز الخليفة عساكره باستقدام الجنود الموحّدين المقيمين في بجاية وإفريقيّة، وتحرّك الجيش في اتجاه القيروان التي لم يقع التعرّض لخبر احتلالها حتى بمجرّد الإشارة. ورغم أنّ الطرقات كانت خالية شيئًا ما، فقد وصل الجيش إلى قفصة، دون أن يحتاج إلى أيّ شيء. وفي الحين نصب مضاربه خارج أسوار المدينة التي شرع في حصارها وأخذ في بناء مخازن الحبوب. ومن الغد تصدّى لهجوم قام به أهل قفصة المحاصَرون وأجبرهم على الاعتصام بالمدينة. وتسهيلاً لمهمّة حصار قفصة وتضييق الخناق على أهلها، قام الجيش باتلاف الزرع وهدم المباني المحيطة بالمدينة. كما تمّ حفر الخنادق وسدّ الممرّات الموجودة تحت الأرض. وإثر ذلك قرّر الموحّدون إخضاع المدينة بالهجوم عليها بواسطة آلات الحصار، فنصبوا المجانيق، وقد ساعدتهم على صنعها صدفة ملائمة. ذلك أن النصارى، خلافًا لعادتهم، كانوا قد أنزلوا في تلك السنة في سواحل إفريقيّة كميّة كبيرة من الخشب الصالح للبناء، فتمّ جلبها عن طريق الصّحراء.

ولمّا أوشكت الاستعدادات على النهاية وأصبح الجنود يتلهّفون على اقتحام المدينة، رأى الخليفة من واجبه أن يمنح العدوّ فرصة أخيرة للتوبة. فوجّه إليه وفدًا من الشيوخ والطلاّب الموحّدين والأعراب، ليعرضوا عليه الأمان، إذا سلّم المدينة وأذعن بالطاعة.

ولمّا أُجيب الوفد بالرفض، شنّ الموحّدون غارات عنيفة متتابعة، وأخذت الآلات المنصوبة قبالة الأسوار في قذف الصّواريخ، في حين قام المغبرون بردم الخندق المعدّ لحماية السّور. وقد مكّنهم هجوم ناجح من الاستيلاء على الستارة وهدم البرج وجزء كبير من الستارة ذاتها، مع تكبيد العدوّ خسائر فادحة. فرأى صاحب قفصة عدم جدوى مواصلة المقاومة وخشي القتل، لو استولى الموحّدون على المدينة بالسيف. فوجّه وفدًا من الأشياخ والأعيان لطلب الأمان من الخليفة، مقابل استسلام المدينة. ورغم سوابق المتمرّدين الخطيرة، فقد منحهم عبد المؤمن الأمان، وأسرع زعيمهم إلى الرحيل مع أهله، وقد غمرته الفرحة لتمكّنه من النجاة بنفسه، واستقرّ الموحّدون بالمدينة.

وقد أحسّ الخليفة بالحاجة إلى تبرئة ساحة أهل قفصة، إلى حدّ ما، فأعطاهم الأمان، باعتبارهم قد تعرّضوا للاضطهاد والإرهاب من قِبَل شرذمة من المغامرين العديمي الذمّة الذين جمعهم زعيمهم. وطوال مدّة الحصار تسلّم الموحّدون كمّيّات ضخمة من المؤونة، رغم قلّة المحاصيل الزراعيّة بإفريقيّة في تلك السنة وفراغ المخازن من الحبوب. وقد أشار عبد المؤمن في رسالته إلى ما تكتسيه قفصة من أهميّة استراتيجيّة، إذ أنّها تتحكّم في كامل الجهة التي وهبها الله لها وتحيط بها مناطق بالغة الخصوبة وبساتين ومياه جارية.

وقد ظلّت تشغل بال الخليفة القضيّة التي سبق له أن خاطب مراسليه في شأنها، أعني إجلاء أعراب إفريقيّة إلى الأندلس قصد تشريكهم في الجهاد المقدّس، للتكفير عن ذنوبهم. ومهما يكن من أمر فان تهدئة مثل تلك المنطقة المشهورة بصعوبتها الفائقة، قد أصبحت شيئًا مفروغًا منه.

ومن البديهي أن تحاول تلك الرسالة الرسميّة تمويه الحقيقة، شيئًا ما، وتمجيد أعمال الخليفة المحبّ للعدل. وقد سعى عبد المؤمن إلى تبرئة ساحَة أهل قفصة الذين كانوا في الواقع ضحايا المغامرين، أكثر ممّا كانوا متواطئين معهم. كما حاول اتّهام أولئك الأشخاص وزعيمهم، وغضّ الطرف عن مساهمة بني هلال في «ثورة» قفصة المزعومة، تلك المساهمة التي كانت على الأرجح فعّالة.

ومن الواضح أنّ الخليفة قد راعى الأعراب، لأنّه كان يأمل في استخدامهم فيما بعد في الأندلس، في محاربة النصارى.

على أنّ المصادر الأخرى[65] قد أوردت رواية مختلفة حول إخضاع صاحب قفصة الذي اضطرّ إلى رئاسة الوفد المكلّف بالتفاوض في شأن تسليم المدينة إلى الموحّدين.

وقد كان هذا الشخص المدعوّ يحيى بن تميم بن المعتزّ [بن الرند]، يحكم المدينة بالفعل، مكان الحاكم الاسمي، وهو جدّه عمر المعتزّ الذي كان شيخًا هرمًا وأعمى، لا يقدر على مباشرة الحكم.

«وكان (يحيى) بطلاً مشهورًا، وولده كذلك، وهما من مغراوة سكّان نفزاوة»[66].

«فتوجّه يحيى بن تميم بن المعتزّ[67]، صاحب قفصة مع جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن. فلمّا أعلمه حاجبه بهم، قال: قد اشتبه (الأمر) عليك، ليس هؤلاء أهل قفصة. فقال الحاجب: ما اشتبه عليّ. فقال عبد المؤمن: كيف يكون ذلك والمهدي يقول: إنّ أصحابنا (أي الموحّدين) يقطعون أشجارها ويهدّمون أسوارها. ومع ذلك نقبل ونكفّ عنهم»[68]. فأرجعهم إلى بلادهم مصحوبين بجماعة من الموحّدين من بينهم زكري بن برمون[69] الذي عيّنه عاملاً عليهم.

---

65) **الكامل**، 109/11؛ النويري، 212/2؛ الزركشي، **القرطاس**، 129؛ **الحلل الموشّية**، 117.

66) [الزركشي، 12].

67) في **الكامل**، ابن المعزّ، والصواب ما أثبتناه.

68) **الكامل**، 109/11؛ ومقديش، 497/1–498.

69) النويري: نومون، فهل ينبغي أن نقرأ تلك الكلمة: «البِرْذَوْن»، البيذق، 124: عمر البرذون.

ولمّا دخل أهل قفصة على الخليفة ، «أنشده شاعرهم أبو محمد عبد الله بن أبي العبّاس التيفاشي قصيدة امتدحه بها ، أوّلها :

[بسيط]

أهزّ عطفيه بين البيض والأَسَلِ مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فوصله بألف دينار، وأشار إليه عند ذكر هذا البيت أن اقتصر»[70].

ولمّا وفد صاحب قفصة يحيى بن تميم بن المعتزّ على الخليفة عبد المؤمن ، «أكرمه ووصله وأمره بالانتقال إلى بجاية بحاشيته وأهله. فأقاموا بها برهة من الدهر. وتوفّي المعتزّ الأعمى ، ثم عاد مَلِكُهم (يحيى بن تميم) إلى قفصة»[71].

وحسب ابن خلدون[72] ، وجّه عبد المؤمن بعد استيلائه علس قفصة في سنة 554هـ جميع أفراد عائلة ابن الرند إلى بجاية ، وقد توفّي بها المعتزّ في سنة 557هـ / 1162م ، وعمره أربع عشرة ومائة سنة أو تسعين سنة. وتوفّي حفيده يحيى بن تميم بعد ذلك بقليل.

المدن الأخرى[73] :

استولى ابن الخليفة أبو محمّد عبد الله على التوالي على قابس وقفصة وزرعة وطبرية وجبل زغوان والكاف والأربس[74] ، أثناء حصار المهديّة وربّما خلال حملة واحدة. ووضع حدًّا للفوضى التي كانت سائدة في إفريقيّة منذ زحفة بني هلال. وأذعن للسلطة الموحّدية كافّة المغامرين والمرتزقة ، مهما كان شأنهم ودخلوا في طاعتها[75].

فقد كان احتلال المهديّة مرفوقًا حينئذ بغزو إفريقيّة وانهيار الهيمنة النرمانيّة على تلك الربوع نهائيا ، ويبدو أنّ غليوم الأوّل ، بعد فشله في محاولة تخليص المهديّة ، اضطرّ إلى التفويت في جميع ممتلكاته في إفريقيّة ، شعورًا منه لا محالة باستحالة مواجهة القوّة العسكريّة

70) **الكامل**، 109/11.

71) الزركشي ، 12.

72) **العبر**، 166/6. وحول الثورات التي دبّرها فيما بعد ضدّ الخليفة الموحّدي أبو يعقوب المسمّى يوسف بن علي بن المعتزّ ، ولعلّه عمّ يحيى بن تميم بن المعتزّ. انظر: **العبر**، 166/6 ؛ والمراكشي ، 218 ؛ و**القرطاس** ، 139.

73) **العبر**، 169/6–171.

74) نفس المصدر، 237/6.

75) نفس المصدر، 169/6–171.

الموحدّية بنجاح ، سواء في البرّ أو في البحر. كما يبدو أنّ هذه السياسة الواقعيّة المُوعَز بها من طرف الوزير ماجون الذي حمّله معاصروه مسؤوليّتها ، قد أملتها على ملك صقليّة ضرورة التفرّغ لمقاومة الامبراطوريّة الألمانيّة[76]. ذلك أنّ صقليّة المهدّدة في كيانها ذاته كانت غير قادرة على التصدّي للسلطنة الموحّديّة وهي في عنفوان قوّتها. وحتى لو كان ذلك ممكنًا ، فإن انقاذ المهديّة لا بدّ أن يكون تمهيدًا لحملات عسكريّة جديدة مخطرة وطويلة الأمد.

«وأقام عبد المؤمن بالمهديّة عشرين يومًا ، فأصلح ما ثلم من سورها ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعُدَد ، وولّى عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي» ، وترك معه الحسن ابن زيري للشورى. وأسكن الأمير الصنهاجي السابق زويلة[77] وأعطاه دُورًا بالمهديّة وأقطعه ضيعتَيْن[78] وأجرى جرايات على أبنائه وعبيده. وحسب ابن خلدون[79] ، أسكنه المهديّة وأقطعه وحيص (أو رُخّيش؟).

«وولّى عبد المؤمن على إفريقيّة ولده أبا إسحاق إبراهيم ، وعلى تونس الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي يرفيان الهرغي ، وولّى على أعمالها المخزنيّة أبا حفص عمر بن فاخر العبدري»[80].

ردّ فعل بني رياح ومعركة جبل القرن (555هـ / 1160)[81] :

«لمّا فرغ عبد المؤمن من أمر المهديّة وأراد العود إلى المغرب ، جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بإفريقيّة وقال لهم : «قد وجبت نصرة الإسلام ، فان المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين ، وما يقاتلهم أحد مثلكم ، فبكم فُتِحت البلاد أوّل الإسلام وبكم يُدفَع عنها العدوّ الآن ، ونريد

76) شالندون ، 2/240–241.
77) رحلة التجاني ، 349.
78) حسب ابن خلّكان ، 2/241 ؛ وفي البلدان ، 1/304 : «وأقطعه قريتين».
79) العبر ، 6/162.
80) الزركشي ، 13 ؛ وفي الحلل الموشّية ، 113 ، 115 : «وولّى الخليفة أبا محمد بن أبي حفص على إفريقيّة والسيد أبا محمد على بجاية».
81) الكامل ، 11/110–111 ، والنويري ، 2/213–215 ؛ العبر ، 6/165 ؛ ليفي بروفنسال (المرجع السابق ؛ جورج مرسي ، «العرب في بلاد البربر» ، 181–187.

منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله». فأجابوا بالسمع والطاعة، فحلّفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف، فحلفوا ومشوا معه إلى مضيق جبل زغوان وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك وهو من أمرائهم ورؤوس القبائل فيهم. فجاء إلى عبد المؤمن بالليل وقال له سرًّا : إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس وقالوا ما غرضه إلا إخراجنا من بلادنا وأنّهم لا يفون بما حلفوا عليه. فقال : يأخذ الله عزّ وجلّ الغادر. فلمّا كانت الليلة الثانية هربوا إلى عشائرهم ودخلوا البرّ ولم يبق منهم إلاّ يوسف بن مالك، فسمّاه عبد المؤمن يوسف الصادق، ولم يحدث عبد المؤمن في أمرهم شيئًا وسار مغرّبًا يحثّ السّير حتى قرب من قسنطينة فنزل في موضع مخصب يقال له وادي النساء، والفصل ربيع والكلأ مستحسن، فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتّة، ودام كذلك عشرين يومًا، فبقي النّاس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبرًا مع كثرته وعظمته ويقولون ما أزعجه إلاّ خبر وصله من الأندلس، فحثّ لأجله في السير. فعادت العرب الذين جفلوا منه من البريّة إلى البلاد لمّا أمنوا جانبه، سكنوا البلاد التي ألفوها واستقرّوا فيها. فلمّا علم عبد المؤمن برجوعهم جهّز إليهم وَلَدَيْه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحّدين وشجعانهم فجدّوا السير وقطعوا المفاوز، فلمّا شعر العرب إلاّ والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصّحراء ليمنعوهم الدخول إليها إن راموا ذلك. وكانوا قد نزلوا جنوبًا من القيروان عند جبل يقال له جبل القرن[82] وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدّميهم أبو محفوظ محرز بن زيادْ (الفادغي)[83] ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم. فلمّا أطلّت عساكر عبد المؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم، ففرّ مسعود وجبارة بن كامل ومَنْ معهما من عشائرهما وثبت محرز بن زياد وأمرهم بالثبات والقتال، فلم يلتفتوا إليه، فثبت هو ومن معه من جمهور العرب، فناجزهم الموحّدون القتال في العشر الأواسط من ربيع الآخر من السنة (555هـ/ 20-30 أفريل 1160م). وثبت الجمعان واشتدّ العراك، فاتفق أن محرز بن زياد قُتِلَ ورُفِع رأسه على رمح[84]. فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال، وحُمِل جميع ذلك إلى عبد المؤمن وهو بذلك المنزل، فأمر بحفظ النساء العربيّات الصرائح وحملهنّ معه تحت الحفظ

82) وقد شهد هذا الجبل عدة معارك شهيرة.

83) صاحب المعلّقة وأمير بني علي من قبيلة رياح.

84) حسب ابن خلدون، العبر، 165/6، ألقي القبض عليه فقتل وعلّقت جثته في مشنقة نُصِبَت على سور القيروان.

والبرّ والصيانة إلى بلاد الغرب وفعل معهنّ مثل ما فعل في حريم الأثبج. ثم أقبلت إليه وفود رياح مهاجرين في طلب حريمهم كما فعل الأثبج، فأجمل الصنيع لهم وردّ الحريم إليهم...، وجُمِعَت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل القرن، فبقيت دهرًا طويلاً كالتلّ العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد»[85].

وقد أوحى هذا الانتصار الباهر الذي يقيم الدّليل مرّة أخرى على عبقريّة عبد المؤمن العسكريّة، إلى قاضي تونس أبي الحسن بن أحمد الأبيّ بقصيدة مطلعها:

[بسيط]

[ولّى الشّباب أمام الشّيب منهزمًا فذا يصول وذا يشتدّ في الهرب][86]

وفي طريقه إلى المغرب، وجّه الخليفة يوم الاثنين 24 ربيع الثاني 555هـ/ 3 ماي 1160م[87] من متيجة رسالة إلى طلاّب فاس. ومن مزايا هذه الوثيقة أنها تؤكّد ما جاء في روايات الإخباريّين. فقد ورد فيها أنه قد تمّ القضاء على قوّة رياح التي كانت تتحكّم في أقاليم إفريقيّة، وقد وصلت إلى الخليفة طلائع الجيش المنتصر مصحوبة بغنائم وافرة وبعدد لا يحصى من الأسرى وأعلنت عن تخليص إفريقيّة بتمامها وكمالها من نير الأعراب. كما أعادت الرسالة إلى الأذهان نبأ انضمام قائد بني محمّد إلى الحظيرة الموحّديّة. والجدير بالملاحظة أنّ هذه الطائفة التي لم تقم قبل ذلك التاريخ بدور بارز، رغم كثرة عدد رجالها، قد بقيت في حالة انتظار، ربّما لأنّ انضمام قائدها للموحّدين قد اكتسى صبغة شخصيّة. وبعد ذلك التحق بنو محمّد بأجمعهم بالجيش النظامي للمشاركة في الجهاد. وكانت قبيلة جُشام العتيدة قد قامت منذ قليل بنفس العمل، وقبلت الاستقرار بالمغرب. أمّا الأثبج وبنو زغبة، فقد قدم أعيانهم للاستفسار حول شروط الصّلح. وبعدما علموا بالشروط التي فرضها الموحّدون وعدوا بالتفكير في الموضوع والتزموا ببعض التعهّدات. فان أوفوا بعهودهم، سوف لا يجنون إلاّ الخير، كما صرّح بذلك الخليفة. وأمّا الآخرون فلن يفلتوا من العقاب المنتظر.

تلك هي وضعيّة بني هلال، كما وصفها عبد المؤمن، إثر هزيمتهم النّكراء التي لم تبلغ إلى علمه، حسبما يبدو. ولا داعي لإنكار صحّة هذه الرواية.

---

85) **الكامل**، 110/11-111.

86) الزركشي، 13.

87) حسب الرسالة المشار إليها أعلاه، ص 121.

ومن ناحية أخرى ، فإن الأثبج الذين سمح لهم الصنهاجيّون ببسط هيمنتهم على القبائل العربيّة الأخرى في المغرب الأوسط ، قد أوهنتهم الخصومات الداخليّة قبل قدوم الموحّدين(88) .

والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد ، إنّ إفريقيّة التي تخلّصت من النزمان لم يتمّ فتحها فحسب ، بل أنها أوشكت أن تصبح «آمنة ساكنة» ، بفضل إخضاع بني هلال وإجلائهم إلى المغرب . كما أنّ مبادرة الخليفة بدعوة الهلاليّين إلى التحوّل إلى الأندلس للمشاركة في الجهاد ، تشبه المناورة التي قام بها الأمير الأغلبي في سالف الزمان للتخلّص من بني تميم الطائشين ، وذلك بتوجيههم إلى غزو صقليّة . وقد آتت تلك السياسة الحكيمة أكلها وأراحت شرق المغرب من الحضور الهلالي . وحسب رواية ابن الأثير ، «لم يبق في إفريقيّة خارجًا عن طاعة عبد المؤمن إلاّ مسعود بن زمّام البَلاّط وطائفته في أطراف البلاد»(89) .

ورجع عبد المؤمن إلى مرّاكش عن طريق بجاية وتلمسان وتاجرة ، مسقط رأسه ، حيث استعرض جيوشه التي كانت تحمل 500 راية و200 طبل(90) . وحسب رواية البيذق ، لمّا وصل الخليفة إلى سلا مصحوبًا بأمراء العرب وحريمهم وذراريهم ، عيّن لهم أماكن للإقامة بها في جميع أرجاء المغرب ، ثم ارتحل إلى مرّاكش وأقام بها سنتين.

أمّا الحسن بن علي ، فقد أقام بالمهديّة وزويلة إلى أن توفّي عبد المؤمن بسلا في جمادي الثانية سنة 558هـ/ 7 ماي – 4 جوان 1163(91) .

ولا ندري لماذا أمر خليفة عبد المؤمن أبو يعقوب يوسف الأمير الحسن بالارتحال إلى المغرب ، فلعلّه أصدر ذلك الأمر من باب الاحتياط . وبناء على ذلك «فقد طلع الحسن بأهله وولده وحاشيته ، وذلك في سنة 566هـ/ 1170–1171م . فلمّا وصل إلى الموضع المعروف بتامسنا (في جنوب الرّباط) ، توفّي هناك ببقعة تعرف بآبار زلوا ، وقبره هناك . وكانت وفاته في شهر رجب من العام المذكور (10 مارس – 8 أفريل 1171)(92) .

* * *

88) **العبر** ، 22/6 . كان بنو دريد يسيطرون على بني كرفة وبني عياض وبني قرّة .

89) **الكامل** ، 111/11 .

90) المراكشي ، 165–166 ؛ البيذق ، الترجمة ، 202 .

91) البيذق ، الترجمة ، 205–206 .

92) **رحلة التجاني** ، 349–350 و**الحلل السندسيّة** ، 252/1 : أقام الحسن بزويلة عشر سنوات . وبالعكس من ذلك يؤكّد ابن خلدون ، **العبر** ، 162/6 : أنّ الأمير أقام بالمهديّة ثماني سنوات وتوفّي سنة 563هـ/ 1167–1168م . وينبغي اعتماد التاريخ الوارد في **رحلة التجاني** .

وهكذا انقرضت الدولة الصنهاجيّة من شرق الغرب الإسلامي في سنة 555هـ / 1160م ، إذ لم يقدر ، لا آخر ملوك بني زيري في المهديّة ، ولا أمراء بني حمّاد في بجاية على إنقاذ دولتهم التي أصابتها الفوضى الناشئة عن غزوة بني هلال في الصميم. وحتّى لو حاولوا ذلك بتظافر جهودهم عوض التناحر ، فالأرجح أنهم ما كانوا ليحرزوا أيّ نجاح. ذلك أنّ العراقيل التي وضعها الهلاليّون كانت جسيمة إلى أبعد حدّ ، وقد تفاقمت من جرّاء التنافس بين رياح والأثبج ، وبين خصومهم النرمان والموحّدين ، ذوي القوّة المفرطة والروح الفتيّة التوسّعيّة.

ويبدو وكأنّ الأمر يتعلّق بمأساة ثلاثيّة[93] يتحكّم فيها القضاء والقدر وتسيّرها حركيّة حتميّة.

فعندما يُرفَع الستار على إفريقيّة في مطلع القرن الخامس هجري ، يبدأ الفصل الأوّل من المأساة (ولاية كلّ من يحيى وعلي) ، فتبدو إمارة المهديّة وكأنّها في حالة انتظار ، لا تقدر على تحسين وضع ميؤوس منه ، كان الأمير تميم بن المعزّ قد حاول معالجته مدّة طويلة بدون جدوى. فلم تستطع ردود فعلها المتذبذبة تدارك ضعفها الذاتي. وفي حين أخذ الملك النرماني يسدّد إليها الضربات الواحدة تلو الأخرى ، يمرّ شبح ابن تومرت العظيم المنذر بخطر رهيب. فتتعقّد الحوادث بصورة محتومة.

وفي الفصل الثاني ، بعد ظهور بصيص من الأمل (واقعة الديماس) ، يصوّب رُجَار الثاني سلاحه نحو إفريقيّة ، بينما يتجاسر ابن حمّاد على التقدّم لنيل حصّته من الغنيمة.

ويبدأ الفصل الثالث بنجاح آخر أحرزه بنو زيري (احتلال قابس) ، ولكنّه ينتهي بسقوط المهديّة والسواحل الشرقيّة. وتختم المأساة بفرار الحسن وانتصاب الحماية النرمانيّة.

ثم يتغيّر المشهد ويظهر المغرب الأوسط على الركح. فيزحف جيش عبد المؤمن زحفة ساحقة ويخضع بسهولة الأمير الحمّادي الذي أصبح في وضع ميؤوس منه (الفصل الأوّل). وعندئذ يشعر الهلاليّون بالخطر المحدق بهم فيتحالفون ضدّ البربري الغازي الذي تمكّن من الانتصار عليهم (الفصل الثاني). وفي الفصل الثالث ينجح فيليب المهدويّ في الاستيلاء على عنّابة ، معلنًا عن قرب المواجهة بين الموحّدين المسيطرين على المغرب الأوسط وبين النرمان الذين بسطوا حمايتهم على سواحل إفريقيّة. وينزل الستار على وفاة رُجَار الثاني وتولية غليوم. ويمكن التكهّن وقتئذ بخاتمة الصراع.

93) [الثلاثيّة عند قدماء اليونانيّين هي مأساة ذات ثلاثة أقسام].

ويرجع بنا القسم الثالث من المأساة إلى إفريقيّة ، حيث يمكن مشاهدة التطوّرات التالية :

1– محاولة الموحّدين الاستيلاء على مدينة تونس.

2– ثورة عدد من المدن التي يحتلّها النرمان ، بحيث لم تبق خاضعة لسلطتهم سوى المهديّة وزويلة وسوسة التي تنتظر مَنْ سيحرّرها.

3– الفتح الموحّدي : استسلام مدينة تونس ثم حصار المهديّة والاستيلاء عليها ، وأخيرًا التهدئة العامّة.

4– آخر انتفاضة يقوم بها بنو هلال بلا جدوى. وهي تشبه إلى حدّ بعيد الانتفاضة التي تلت فتح المغرب الأوسط.

وبذلك تختم الملحمة الصنهاجيّة. ذلك أنّ شرق الغرب الإسلامي ، بعد تخلّصه من الفوضى الهلاليّة والاحتلال النرماني ، سيشهد السّلم الموحدّية التي لم تستطع – ويا للأسف – بعث **الحضارة القيروانيّة** من جديد ، أي ذلك الازدهار الغابر الذي رفعته دولة بربريّة حازمة قبل انقراضها إلى أعلى علّيين.

ولم تبق للصنهاجيّين سوى ذكرى مآثرهم الخالدة ، علاوة على هذه السلوى غير المجدية : فقد قضت الغزوة الموحّديّة على سلطة الزناتيّين ، أعدائهم الألدّاء بالمغرب الأوسط وإفريقيّة ، مثلما قضت على سلطتهم ذاتها وعلى سلطة الغزاة الهلاليّين المتسبّبين الأصليّين في هلاكهم. فأصبح أولئك وهؤلاء المتنافسون أشدّ التنافس منذ عهد بعيد ، سواء كانوا مقيمين أو رُحّلاً ، موجودين جنبًا إلى جنب في صفّ المهزومين.

المـراجع

1- المراجع العربيّة

ابن الأبّار: **كتاب الحلّة السيراء في أشعار الأمراء**، نشر M.J. Muller، الطبعة الثانية، مونيخ 1866 - 1878.

- **تكملة الصّلة**، نشر Codéra، مدريد 1887 - 1889، **الذيل**، نشر A. Bel وابن الشنب، الجزائر 1920.
- **إعتاب الكتّاب**، تحقيق صالح الأشتر، غير منشور.

ابن الأثير: **كتاب الكامل في التاريخ**، 14 مجلّدا، طبعة القاهرة 1301هـ.

إدريس (الهادي روجي): **مناقب أبي إسحاق الجبنياني**، تأليف أبي القاسم العبيدي، ومناقب **محرز بن خلف**، تأليف أبي الطاهر الفارسي (تحقيق وترجمة)، تونس 1959.

الإدريسي: **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق وترجمة Dozy و De Goeje تحت عنوان: « *Description de l'Afrique et de l'Espagne* »، ليدن 1866.

الإصفهاني (عماد الدين): **خريدة القصر وجريدة العصر**، مخطوط دار الكتب الوطنيّة بباريس رقم 3330 (الجزء 11) ورقم 3331 (الجزء 12).

[قسم شعراء المغرب (3 أجزاء) تحقيق محمد المرزوقي ومحمود العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، نشر الدار التونسيّة للنشر، تونس 1966 - 1972، ط. 3، 1986].

الاصطخري: **كتاب المسالك والممالك**، نشر De Goeje، ليدن 1870.

أمين (أحمد): **ظهر الإسلام**، الطبعة الثانية، القاهرة 1365هـ/1946م

الأندلسي (سعيد): **طبقات الأمم**، ترجمة ريجيس بلاشير، باريس 1935.

البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب (لا يتضمّن الجزء الأوّل).

- مخطوط الجزائر، الجزء الأوّل من نفس الكتاب، المكتبة الوطنيّة بالجزائر رقم 1333.
- مخطوط الرباط، الجزء الثاني، مكتبة الرباط رقم 210.
- **المختصر**، تلخيص لنفس الكتاب، دار الكتب الوطنيّة، تونس.

ابن بسّام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسم الأوّل، الجزآن 1 و2، القاهرة 1939 - 1942، القسم الرابع، الجزء الأوّل، القاهرة 1945.

[الطبعة الجديدة (8 أجزاء) تحقيق إحسان عبّاس ، نشر الدار العربيّة للكتاب ، تونس — ليبيا ، 1981].

ابن بشكوال : **كتاب الصلة في تاريخ أيمّة الأندلس...** ، نشر Codéra ، المكتبة العربيّة الإسبانيّة ، 1—2 ، مدريد 1883.

البكري (أبو عُبَيْد) : **المسالك والممالك** ، تحقيق دي سلان الذي نقله إلى الفرنسيّة بعنوان « *Description de l'Afrique septentrionale* » ، الجزائر 1911 ، الطبعة الثانية ، الجزائر 1913.

البيذق : **كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحّدين** ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس 1928.

التجاني : **الرحلة** ، طبعة تونس (أنظر أيضًا الطبعة الثانية ، تونس 1958 ، مع الفهارس ، تقديم حسن حسني عبد الوهّاب).

ابن تغري بردي (أبو المحاسن) : **النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة** ، طبعة القاهرة ، 1929.

ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القرّاء** ، نشر G. Bergstrasser (جزآن) ، ليبزيغ — القاهرة 1352—1353هـ / 1932—1933م.

ابن جلجل : **طبقات الأطبّاء والحكماء** ، تحقيق فؤاد السيّد ، القاهرة 1955.

الجودي : **تاريخ قضاة القيروان** ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب.

حاجي خليفة : **كشف الظنون [عن أسماء الكتب والفنون]** ، اسطنبول 1310 — 1311هـ.

ابن حزم : **جمهرة أنساب العرب** ، تحقيق ليفي بروفنسال ، سلسلة ذخائر العرب ، 2 ، القاهرة 1368هـ / 1948م.

حسن (حسن إبراهيم) وطه أحمد شرف : **المعزّ لدين الله** ، القاهرة 1367هـ / 1948م.

— **عُبَيْد الله المهدي** ، القاهرة 1366هـ / 1947م.

الحُصْري : زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق زكي مبارك ، (4 أجزاء) ، القاهرة 1344هـ / 1925م.

ابن حمّاد (= ابن حمّادو) : **أخبار ملوك بني عُبَيْد** ، تحقيق وترجمة Vonderheyden ، منشورات كليّة الآداب بالجزائر ، السلسلة 3 ، الجزء 2 ، الجزائر — باريس 1927.

ابن حمديس : **الديوان** ، نشر Schiaparelli ، رومة 1897.

الحُمَيْدي : **جذوة المقتبس** ، القاهرة 1952.

ابن حوقل : **المسالك والممالك** ، نشر J.H. Kramers (جزآن) ، ليدن 1938—1939.

ابن حيّان : **المقتبس** ، نشره ليفي بروفنسال في كتابه *Fragments historiques sur les Berbéres du Moyen Age* ، الرباط 1934 ، ص 5 — 15.

ابن خاقان (الفتح) : **قلائد العقيان** ، طبعة بولاق 1283هـ.

ابن الخطيب (لسان الدين) . **كتاب أعمال الأعلام...** تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب (مائوية أماري) . بلرمو 1910 . 2 . 427 — 494.

— **رقم الحُلَل في نظم الدُّوَل** . تونس 1316هـ.

– **الحلل الموشّية في ذكر الأخبار المراكشيّة**، تونس 1329هـ/ 1911م، نشر علّوش. منشورات معهد الدراسات العليا المغربيّة، 2، الرباط 1936.
– **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة مختصرة، القاهرة 1319هـ.
ابن خلدون: **كتاب العبر...** (7 أجزاء)، طبعة بولاق 1284هـ [وطبعة بيروت 1958]. ترجمة دي سلان، بعنوان «تاريخ البربر» (4 أجزاء»، الجزائر 1852–1856، الطبعة الثانية، نشر كازانوفا (3 أجزاء)، باريس 1925–1934، والجزء الرابع نشر كازانوفا وهنري بيريس، باريس 1956.
ابن خلّكان: **وفيات الأعيان**، (جزآن)، القاهرة 1310هـ.
ابن الخوجة (مَحمّد): **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**، (الطبعة الأولى)، تونس 1358هـ/ 1939.
[الطبعة الثانية، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى وحمّادي السّاحلي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985].
ابن خيّر: **الفهرست**، نشر Codéra و Ribiera Tarrago، المكتبة العربيّة الإسبانيّة، 9–10، سرقوسة 1894–1895.
ابن أبي دينار (القيرواني): **المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس**،
[ط. 1، تونس 1286هـ/ 1869].
ط. 2، تونس 1350هـ/ 1931.
[ط. 3، تحقيق مَحمّد شمّام، تونس 1967].
الذهبي: **تذكرة الحفّاظ**، (4 أجزاء)، حيدرأباد 1333–1334هـ.
أبو الربيع: **كتاب السّير**، مذكّرات نقلها حسن حسني عبد الوهّاب عن مخطوط من هذا الكتاب.
ابن رشيق: **العُمْدَة في صناعة الشعر**، جزآن في مجلّد، القاهرة 1344هـ/ 1925.
– [**أنموذج الزمان في شعراء القيروان**. تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكّوش. تونس 1986].
الرّقيق [ابراهيم بن القاسم القيرواني]، **المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور**. مخطوط دار الكتب الوطنيّة بباريس. [طُبع هذا الكتاب في تونس سنة 1976. تحقيق عبد الحفيظ منصور].
زبيس (سليمان مصطفى): **دولة بني خراسان بتونس**. مجلّة الندوة. 1–2، تونس 1953.
ابن أبي زرع: **كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس**. نشر Tornberg. أوبسلا 1843.
الزركشي: **تاريخ الدولتين الموحّديّة والحفصيّة**، تونس 1289هـ [الطبعة الثانية. تحقيق محمد ماضبور. تونس 1966].
زمبور: **معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي**. نقله إلى العربيّة زكي محمد حسن باي

وحسن أحمد محمود، القاهرة 1370هـ/ 1951.

ابن أبي زيد (القيرواني) : **الرسالة**، نشرها ونقلها إلى اللغة الفرنسيّة L. Bercher، المكتبة العربيّة الفرنسيّة، الجزائر 1945.

ابن سحنون (محمد) : **كتاب آداب المعلّمين**، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، تونس 1350هـ/ 1931. [الطبعة الثانية، مراجعة محمد العروسي المطوي، تونس 1972].

السخاوي : **الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التأريخ**، دمشق 1349هـ/ 1930-1931.

السقطي : **كتاب أندلسي في الحسبة**، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية، 21، باريس 1931.

السّيوطي : **بغية الوُعاة في طبقات اللغويّين والنّحاة**، طبعة القاهرة 1326هـ/ 1908.

– **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، (جزآن)، القاهرة 1321هـ/ 1903.

ابن الشبّاط : **صلة السِّمط** (شرح تسميط **الشقراطسيّة**، من نظم المؤلّف)، (جزآن)، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب.

ابن شرف : **رسالة الانتقاد**، تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب، دمشق 1320هـ.

الشمّاخي : **كتاب السّير**، طبعة حجريّة، القاهرة 1301هـ/ 1883-1884.

أبو الصّلت (أُميّة) : **الرّسالة المصريّة**، نوادر المخطوطات، 1، القاهرة، 32-40.

الصفدي : **كتاب الوافي بالوفيات**، اسطنبول 1931 و1949 ودمشق 1953 و1959 (4 أجزاء).

الصّيرفي، كتاب **قانون ديوان الرسائل**، تحقيق علي باي بهجت المصري وترجمة هنري ماسي، نشريّة المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة، 11، 1914، 65-115، القاهرة.

ابن الصّيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، نشريّة المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة، 25، القاهرة 1924.

الضبّي : **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، نشر Codéra، المكتبة العربيّة الإسبانيّة، 3، مدريد 1885.

الطّبري : **أخبار الرّسل والملوك**، نشر M. De Goeje، 15 جزءًا، ليدن 1879-1901 طبعة القاهرة، بدون تاريخ، 13 جزءًا.

ابن عبد الحكيم : **فتوح إفريقيّة والأندلس**، تحقيق وترجمة A. Gateau، المكتبة العربيّة الفرنسيّة، ط. 2، الجزائر 1948.

العبدري : **الرحلة**، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب.

عبد الوهّاب (حسن حسني) :

– **الجُمانة**، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة بالقاهرة، نصوص عربيّة ودراسات إسلاميّة، 9، القاهرة 1953.

– **خلاصة تاريخ تونس**، ط. 2، تونس 1344هـ/ 1918، [الطبعة الثالثة منقّحة ومصحّحة، تونس 1953، والطبعة الرابعة، تونس 1968].

– **الإمام المازري**، تونس 1955.
– **بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق**، تونس. [الطبعة الثانية صدرت بتونس سنة 1970، بعناية محمد العروسي المطوي].
– **المنتخب المدرسي من الأدب التونسي**، الطبعة الثانية بالقاهرة، 1944. [وصدرت ثالثة بتونس سنة 1968 بعنوان: **مجمل تاريخ الأدب التونسي**].
– **شهيرات التونسيّات**، الطبعة الأولى، تونس 1934 [والطبعة الثالثة، تونس 1966].
– [**ورقات عن الحضارة العربيّة بإفريقيّة التونسيّة**، (3 أجزاء)، تونس 1965 – 1972].
– **العناية بالكتب وجمعها في إفريقيّة التونسيّة**، جامعة الدول العربيّة، معهد المخطوطات العربيّة، 1، القاهرة ماي 1955، 72 – 90.

ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار المغرب**، نشر ج. س. كولان وليفي بروفنسال، 1 – 2، ليدن 1948 – 1951، الطبعة الثالثة، ليفي بروفنسال، باريس 1930.

أبو العرب: **كتاب طبقات علماء إفريقيّة**، منشورات كليّة الآداب بالجزائر، (جزآن) باريس 1915 – 1920.

العزيزي (أبو علي منصور): **سيرة الأستاذ جوذر**، تحقيق كامل حسين وعبد الهادي شعيرة، سلسلة مخطوطات الفاطميّين، 11، القاهرة 1954.

ابن العماد: **كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (8 أجزاء)، القاهرة 1350 – 1351هـ.

عياض: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك**، مجموعة حسن حسني عبد الوهّاب.

الغبريني: **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق ابن الشنب، الجزائر 1910 [وظهرت طبعة ثانية بالجزائر سنة 1981، تحقيق رابح بونار].

أبو الفداء: **تقويم البلدان**، نشر Reinaud و De Slane، باريس 1840.

ابن فرحون: **الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، القاهرة، 1329هـ.

ابن الفرضي: **كتاب تاريخ علماء الأندلس**، نشر Codéra، المكتبة العربيّة الإسبانيّة، 7 – 8، مدريد 1890 – 1891.

ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، موسوعة في 27 جزء، الجزء 17، مخطوط المكتبة الوطنيّة بباريس رقم 2527.

فكري (أحمد): **المسجد الجامع بالقيروان**، القاهرة 1936.

ابن القفطي: **إنباه الرّواة على أنباه النّحاة**، القاهرة 1369 – 1371هـ / 1950 – 1952.

ابن القلانسي: **تاريخ دمشق**، نشر Amedroz، ليدن 1908.

القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، 14 جزءًا، القاهرة، 1913 – 1920.

ابن القنفذ: **كتاب الوفيّات**، نشر هنري بيريس، الجزائر، 1939.

الكُتُبي (محمد بن شاكر) : **فوات الوفيات** ، (جزآن) ، القاهرة ، 1299هـ / 1882 .
ابن كمّاد : **الرّسالة** ، تحقيق عبد السلام هارون ، نوادر المخطوطات ، السلسلة الثالثة ، القاهرة 1373هـ / 1953 عدد 14 .
ليفي بروفنسال : مذكّرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسمّى **بكتاب التّبيان** ، سلسلة ذخائر العرب ، 18 ، القاهرة 1955 .
ماجد : **السجلاّت المستنصريّة** ، القاهرة 1954 .
المالكي (أبو بكر) : **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيّة...** ، مخطوط المكتبة الوطنيّة بباريس رقم 2153 . الجزء الأوّل ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة 1951 .
[وصدر الكتاب في 3 أجزاء عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1983 ، تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكّوش] .
الماوردي : **الأحكام السلطانيّة** ، القاهرة 1298هـ .
مخلوف (محمد) : **شجرة النّور الزكيّة في طبقات المالكيّة** ، (جزآن) ، القاهرة 1350هـ .
المراكشي (عبد الواحد) : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، نشر دوزي ، ليدن 1847 ، الطبعة الثانية ، 1881 .
ابن مريم : **البستان...** تحقيق ابن الشنب ، الجزائر 1908 .
المسعودي : **مروج الذهب** ، نشر وترجمة Barbier de Meynard و Pavé de Courteille (9 أجزاء) ، باريس 1872 – 1877 .
المقري : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، (4 أجزاء) ، القاهرة 1302 ، الطبعة الثانية ، القاهرة 1368هـ / 1949 .
المقريزي : **الخطط المقريزيّة** ، 4 أجزاء في مجلّدَيْن ، القاهرة 1324 – 1326 .
– **اتّعاظ الحنفاء بأخبار الأيمّة الفاطميّين الخلفاء** ، القاهرة 1367هـ/1948 .
– **النقود الفاطميّة** : في **ثلاث رسائل** ، اسطنبول 1298هـ/1880 .
مقديش (محمود) : **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار** ، (جزآن) طبعة حجرية تونس 1321 .
[وصدر الكتاب سنة 1988 في جزأين عن دار الغرب الإسلامي ببيروت ، تحقيق علي الزواري ومحمّد محفوظ] .
المكّي (محمود علي) : التشيّع في الأندلس ، مدريد 1954 .
المؤيّد في الدين ، داعي الدعاة ، **الديوان** ، تحقيق كامل حسين ، القاهرة 1949 .
– **سيرة المؤيّد في الدين** ، تحقيق كامل حسين ، القاهرة 1949 .
ابن مُيَسَّر : **الخلفاء الفاطميّون** ، نشر هنري ماسي ، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة 1919 .
الميمني : **كتاب النّتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف** ، القاهرة ، 1343هـ / 1924 – 1925 .

ابن ناجي : شرح رسالة ابن أبي زيد، (جزآن)، القاهرة 1914.
— **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، (4 أجزاء)، تونس 1320هـ/1900.
[الجزء الأوّل، تحقيق ابراهيم شبوح مكتبة الخانجي (القاهرة) 1968؛ الجزء الثاني، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي (القاهرة) والمكتبة العتيقة (تونس)؛ 1972، الجزء الثالث، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة (تونس)، 1978].
النّعمان (أبو حنيفة) : **دعائم الإسلام**، 1، نشر Fyzee، القاهرة، 1370هـ/1951.
— **كتاب الهمّة وآداب اتباع الأيمّة**، تحقيق كامل حسين، القاهرة (بلا تاريخ).
النّويري : كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، حقق وترجم إلى الاسبانيّة الفصول المتعلّقة بالمغرب الإسلامي Gaspar Remiro، (جزآن)، غرناطة، 1917- 1919.
النيفر (محمّد) : **عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسيّة من عالم أديب**، (جزآن)، تونس 1351هـ.
ابن هاني : الديوان، القاهرة 1352.
الوزير السرّاج : الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة، قطعة من الجزء الأوّل، تونس 1287هـ/ 1870- 1871، والجزء الثاني بأكمله، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس عدد 20R.
[صدر الكتاب كاملاً (3 أجزاء) سنة 1985 عن دار الغرب الإسلامي ببيروت، تحقيق محمّد الحبيب الهيلة].
الونشريسي : المعيار، (12 جزءًا)، طبعة حجريّة، فاس 1314- 1315هـ.
[الطبعة الجديدة صدرت سنة 1981 في 13 مجلدًا، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف د. محمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981].
اليازجي (ناصيف) : **كتاب العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب** (المتنبّي)، بيروت 1305هـ.
ياقوت : معجم البلدان، (8 أجزاء) القاهرة 1906.
— **معجم الأدباء** (20 جزء)، القاهرة 1936- 1938.
اليعقوبي : كتاب البلدان، الطبعة الثانية، نشر .De Goeje، المكتبة الجغرافية العربيّة، 7، ليدن 1892.

2- المراجع الأجنبية

Abdul Wahab (H.H.), «Coup d'œil sur les apports ethniques étrangers en Tunisie», *R. T.*, 1917.

—, «Deux dinars nomades de Sicile» *R.T., 1930,* 215–218.

—, «Les Steppes tunisiennes (région de Gammouda) pendant le Moyen Âge, *C.T.*, n° 5, 1945, 5–16.

—, Note (sans titre), *Bulletin archéologique du Comité*, 1922, CXLVIII–CLI.

—, «Villes arabes disparues», *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, 1–15.

Abu Zakariya, *Chronique*, trad. Masqueray, Alger 1878.

Amari (M.), *Bibliotheca arabo-sicula, textes arabes*, Leipzig, 1857, appendice 1875 et 1887.

—, *I Diplomi arabi del real archivo fiorentino*, Florence 1863–1867.

—, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 2e éd., revue par C.A. Nallino, 3 tomes en 7 vol., Catane 1937–1939.

André Julien (C.), *Histoire de l'Afrique du Nord*, 2e éd. 2 vol; 1er vol. revu par C. Courtois, 2e vol revu par R. Le Tourneau, Paris 1951, 1952.

Azizi (Abu Ali al-Mansour), *Vie de l'Ustadh Jawdhar*, trad. M. Canard, Publications de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, Alger 1957.

Basset (R.), «Les Sanctuaires du Djebel Nefoussa», *J.A.*, mai-juin 1899, 437–470, juillet-août 1899, 88–120.

—, «Un épisode d'une chanson de geste arabe sur le seconde conquête de l'Afrique septentrionale par les Musulmans», *Bulletin de correspondance africaine*, 1885, 136–148.

Beaussier (M.), *Dictionnaire pratique arabe-français*, 2e éd., Alger 1931.

Bel (A.), «La Djazia, chanson arabe précédée d'observations sur quelques légendes arabes et sur la geste des Beni Hilal, extraits du *J.A.*, mars-avril 1902 et mars-avril 1903, Paris 1903.

—, *Les Benous Ghanya, derniers représentants de l'empire almoravide, et leur lutte contre l'empire almohade.* Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger, Paris 1903.

Ben Ali Fekar, *La commande (El qirad) en droit musulman*, Lyon–Paris 1910.

Ben Milad (A.), *L'Ecole médicale de Kairouan*, Paris, 1933.

Blachère (R.), *Extraits des principaux géographes arabes du Moyen Âge*, Bibliotheca arabica, VII, Paris–Beyrouth 1932.

—, *Le Coran, Traduction selon un essai de reclassement des sourates*, collection Islam d'hier et d'aujourd'hui, III, IV, V; *Introduction au Coran*, Paris 1947, II et III, Paris 1949–1951.

—, *Un poète arabe du IVe siècle H., al-Motanabi*, Paris 1935.

Blancard (L.), *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Âge*, 2 vol., Marseille, 1884–1885.

Boisonnade, «Les relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord ou Maghreb du XIIe au XVe siècles», Extrait du *Bulletin de la Section de Géographie*, Paris, 1929.

Braudel (F.), *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Pris, 1949.

Brockelmann (C.), *Geschichte der Arabischen Litteratur*, 2 vol., Weimar 1898–1902, 2e éd. avec références à la première, 3 vol. de suppléments avec renvoi à la 1ere éd., Leyde, 1937–1942.

Brunschvig (R.), «*Considérations sociologiques sur le droit musulman*», *Studia Islamica*, III, 1955, 61–73.

—, *Coup d'œil sur l'histoire des foires à travers l'Islam*, Recueil de la société Jean Bodin, V, La Foire, Bruxelles, 1953, 43–74.

—, «Fiqh fatimide et Histoire de l'Ifriqiya», *Mélanges G. Marçais*, II, Alger, 1957, 13–20.

—, *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, 2 vol., Paris 1940, 1947. [Traduit en arabe par H. Sahli, Beyrouth, 1988].

—, *La Tunisie dans le Haut Moyen Âge, sa place dans l'histoire*, Conférences de l'Institut français d'Archéologie orientale, Caire 1948.

—, «Mesures de capacité de la Tunisie médiévale», *R.A.*, 3e–4e trim. 1935, 86–96.

—, «Sur les mesures tunisiennes de capacité au commencement du XVIIe siécle», *A.I.E.O.*, 1937, 74–87.

—, «Un aspect de la littérature historico-géographique de l'Islam», *Mélanges Gaudefroy-Demombynes*, Caire 1935–1945.

—, «Urbanisme médiéval et droit musulman», *R.E.I.*, 1947, 127–157.

—, «A propos d'un toponyme tunisien du Moyen Âge», *R.T.*, 1935, 159–155.

Cahen (C.), «*L'Histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval*», *Studia Islamica*, III, 1955, 93–115.

—, Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amalfi au Xe siècle, estratto dall' *Archivio Storico per le Province Napoletane*, Nouvelle série, XXXIV, 1953–1954, Naples 1954 (tiré à part 8 p.).

Canard (M.), «La procession du Nouvel An chez les Fatimides», *A.I.E.O.*, X, 1952, 364–398.

—, *Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin, Essai de comparaison*, Byzantion 1951, 2e fasc., 355–420.

—, «L'Impérialisme des Fatimides et leur propagande», *A.I.E.O.*, VI, Paris 1942–1947, 162–199.

—, «Une famille de partisans, puis d'adversaires, des Fatimides en Afrique du Nord», *Mélanges G. Marçais*, II, 33–49.

—, *Une lettre du calife fatimide el-Hafidh à Roger II*, Palerme 1955, 125–146.

—, *L'Autobiographie d'un chambellan du Mahdi Obeidallah le Fatimide* (trad. de la Sirat Jaâfar al-Hajib), *Hespéris*, 1952.

—, «Un vizir chrétien à l'époque fatimide: l'arménien Braham», *A.I.E.O.*, 1954.

Cattenoz (H.G.), *Tables de concordance des ères chrétienne et hégirienne*, Rabat 1953.

Cazès (D.), «Antiquités judaïques en Tripolitaine», *R.E.J.*, xx, 1890, 86–87.

—, *Essai sur l'histoire des Israélites de Tunisie*, Paris 1888.

Chalandon (F.), *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile*, 2 vol., Paris 1907.

—, «*L'Etat politique de l'Italie méridionale à l'arrivée des Normands*», *Mélanges d'Archéologie et d'Histoire*, xxi, 1901, 411–452.

Chiandano (M.) and Moresco (M.), *Il cartotare di Giovanni Scriba*, 2 vol., Turin 1933.

Cohen (M.) et Leriche (A.), «Zenega – Senhadja – Sénégal», *Bulletin des Etudes arabes*, nº 38, 118–119.

Courtois (C.), «Grégoire VII et l'Afrique du Nord, Remarques sur les communautés chrétiennes d'Afrique au XIe siècle», *Revue Historique*, Avril–juin 1945, 97–122, guil.-sept., 1945, 193–226.

—, «Remarques sur le commerce maritime en Afrique au XIe siècle», *Mélanges G. Marçais*, ii, Alger 1957, 51–59.

Cumston (G.G.), *Histoire de la médecine du temps des Pharaons jusqu'au XVIIIe siècle*, trad. Dispan de Floran, Paris 1931.

Cusa (S.), *I Diplomi greci ed arabi di Sicilia*, Palermo 1868.

Darmesteter (A.), «Le Talmud», *R.E.J.*, xviii, 1889 (Actes et Conférences, 381–442).

De Beylié (Général L.), *La Kalâa des Beni Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XIe siècle*, Paris 1909.

De Cenival (P.), *Le prétendu évêché de la Kalâa des Beni Hammad*, Hespéris, 2e tr. 1932, 1–14.

De Mas Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Âge*, 2 vol., 1er vol. Paris 1866, avec une introduction paginée à part, 2e vol., Paris 1872, Supplément et tables.

Despois (J.), *La Tunisie orientale; Sahel et Basse steppe*, Paris 1940.

—, *Le Djebel Nefoussa*, Paris 1935.

—, *L'Afrique du Nord*, Paris 1949.

Dozy (R.), *Dictionnaire des noms de vêtements chez les Arabes*, Amsterdam 1845.

—, *Suppléments aux dictionnaires arabes*, 2 vol., 2e éd., Leyde–Paris 1927.

Encyclopédie de l'Islam, 4 vol. et 1 suppl., Leyde–Paris 1908–1942, 2e éd. à partir de 1954.

Encyclopaedia Judaïca, 10 vol., Berlin 1928–1934.

Ettinghausen (R.), Early realism in islamic art, *Studi orientalistici in onore di G. Levi Della Vida*, i, 61–82.

Fagnan (E.), *Extraits inédits relatifs au Maghreb*, Alger 1924.

—, *Additions aux dictionnaires arabes*, Alger, 1923.

Farmer (H.G.), «A Maghribi Work on musical instruments», *J.R.A.S.*, 1935, 339–353.

Farrugia de Candia (J.), «Articles de numismatique», *R.T.*, 1936, 333–372, 1937,

89–136, 1948, 103–131; *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (année 1950)*, Paris 1953, 119–123.

Féraud (L.C.), *Annales tripolitaines* publiées avec une traduction et des notes par Augustin Barnard, Tunis–Paris 1927.

Ferron et Pinard, «Céramiques musulmanes à Carthage», *Cahiers de Byrsa*, IV, 1954, 41–65.

Fikry (A.), *La Mosquée az-Zaytouna à Tunis*, Proceedings de la Société égypyienne d'études historiques, II, 1952, Caire 1953, 27–64.

Fischel (W.J.), «*Jews in the economic and political life of mediaeval Islam*», *Royal Asiatic Society monographs*, XXII, Londres 1937.

Fournel (H.), *Les Berbères*, 2 vol., Paris 1857–1875.

Gabrieli (F.), *Ibn Hamdis*, Mazara 1948.

—, *Indice alfabetico di tutte le biografie di al-Safadi...*, Rendiconti della reale academia dei Lincei, classe de scienze morali storiche e filologiche, senia quinta, Rome 1913–1916.

—, «La origine del movemento almohade en una fonte storice d'Oriente», *Arabica*, 1956, 1–7.

Garcia Gomez (E.), Unas «ordonanzas del zoco» de siglio IX..., *Al-Andalus*, XXII, fasc. 2, 1957, 253–316.

Gardet (L.) et Anawati (M.M.), *Introduction à la théologie musulmane*, Paris 1948.

Gaudefroy-Demombynes (M.), «Notes sur l'histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam», *R.E.I.*, 1939, 109–147.

—, «Un magistrat musulman: le mohtasib», *Journal des Savants*, 1947, 33–40.

Gautier (E.F.), *L'Islamisation de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs du Maghreb*, Paris 1927, 2e éd.; *Le Passé de l'Afrique du Nord, Les Siècles obscurs*, Paris 1937.

Gobert (E.G.), «Les Références historiques des nourritures tunisiennes», *C.T.*, 1955, 501–542.

Goitein (S.D.), *From the Mediterranean to India: Documents on the trade to India, South Arabia and East Africa from the eleventh and twelth centuries*, The medieval Academy of America, Cambridge, Massachussets, *Speculum*, XXIX, April 1954 nº 2 part I, 181–197.

—, "Glimpses from the Cairo Geniza on naval warfare in the Mediterranean and on the Mongol invasion", *Studi Orientalici in onore di G. Levi Della Vida*, I, 1956, 393–408.

—, *Jews and Arabs*, New York 1955.

—, "*The cairo Geniza as a source for the history of muslim civilisation*", *Studia Islamica*, III, 1955, 75–91.

—, "The last phase of Yehuda Haleṿi's life in the light of the Geniza papers", *Tabriz Quaterly*, XXIV, 1954, 1–24.

Goldziher (I.), *Le dogme et la loi de l'islam*, trad. Arin, Paris 1910.

—, «Le Rosaire dans l'Islam», *Revue de l'Histoire des religions*, XXI, 1890, 295–300.

—, *Mélamges Judéo-Arabes*, XVII, R. Nissim b. Jacob moutaẓilite, *R.E.J.*, XLVII, 1902, 179–186.

—, *Le livre d'Ibn Toumart*, Alger 1903.

Golvin (L.), *Le Maghreb central à l'époque des zirides, Recherches d'archéologie et d'histoire*, Paris 1957.

—, «Note sur quelques fragments de plâtre trouvés récemment à la Qalâa des Beni Hammad», *Mélanges G. Marçais*, II, 75–94.

—, *Recherches archéologiques à la Qalâa des Beni Hammad*, Thèse secondaire (dactylographié) pour le Doctorat ès Lettres présentée devant la Faculté des Lettres d'Alger (année 1953).

—, «Contribution à l'étude des nattes à décor épigraphique au Moyen Âge», *A.I.E.O.*, 1959, 213–231.

Conzalès Palencia (A.), *Rectification de la meute, tratado de logica par Abusalt de Denia*, Madrid 1915.

Graetz (H.), *History of Jews*, vol. III, Philadelphie 1894.

Hadj Sadok (M.), *Description du Maghrib et de l'Europe au IX^e siècle*, Bibliothèque arabe française, VI, Alger 1949.

Hartmann (M.), Die Beni Hilal-Geschichten, Zeitschrift für afrikanische und oceanische Sprachen der Deutschen Kolonien, IV, Berlin 1898, 289–315.

Hazard (H.W.), «*The numismatic history of late medieval North Africa*», *Numismatic Studies*, n° 8, The american Numismatic Society, New York 1952.

Heyd (W.), *Histoire du commerce du Levant au Moyen Âge*, trad. Furcy Raynaud, 2 vol., Leipzig 1936.

Hilty (G.), «El libro complido en los indizios de las estrellas», *Al Andalus*, XX, 1955, 1–74.

—, *Aly Aben Ragel, El libro complido de los indicios de las estrellas*, Traduction en la corte de Alfonso al Sabio, Madrid 1954.

Hrbek (I.), Die Slarven in Dienste der Fatimiden, *Archiv Orientalni*, XXI, Prague 1953(4), 543–581.

Huici Miranda (A.), *Historia politica del Imperio Almohade*, primera parte, Tétouan 1956.

—, «La Historia y la legenda en los origines del imperio almohade», *al-Andalus*, XIV, fasc. 2, 239 seq.

Idris (H.R.), *Analyse et traduction de 2 textes de l'époque ziride*, 70[e] Congrès de l'A.F.A.S. (Tunis mai 1951), fasc. 3, 209–216.

—, «A propos d'un extrait du Kitab al-Mihad d'al-Mazari al-Iskandarani», *C.T.*, 1953, 155–159.

—, «Contribution à l'histoire de l'Ifrikiya dp. le Riyadh en-Nufus d'Abu Bakr el-Maliki», *R.E.I.*, 1935, cah. 2, 105–178, cah. 3, 273–305, cah. 1, 45–104.

—, «Contribution à l'histoire de la vie religieuse en Ifriqiya ziride», *Mélanges L. Massignon*, II, Damas 1957, 327–359.

—, «Deux juristes Kairouanais de l'époque ziride: Ibn Abi Zayd et al-Qabisi», *A.I.E.O.*, XII, 1954, 122–198.

—, «Essai de datation de la maqsura de la grande Mosquée de Kairouan», *Arabica*, III, mai 1956, 214–215.

—, «Essai sur la diffusion de l'acharisme en Ifriqiya», *C.T.*, 1953, 126–140.

—, «Deux maîtres de l'école juridique Kairouanaise sous les Zirides: Abu Bakr Ahmad b. Abd al-Rahman et Abu Imran al-Fassi», *A.I.E.O.*, 1955, 28–58.

—, «Fêtes chrétiennes célébrées en Ifriqiya à l'époque ziride», *R.A.*, n° 440–441, 1954, 267–276.

—, «La vie intellectuelle en Ifriqiya méridionale sous les Zirides d'après Ibn al-Chabbat», *Mélanges G. Marçais*, II, 95–106.

—, «Le crépuscule de l'école malikite Kairouanaise», *C.T.*, 1956, 494–507.

—, «Mesures de capacité de l'époque ziride», *C.T.*, 1956, 119–126.

—, «Note sur l'identification du dédicataire de la Risala d'Ibn Abi Zayd al-Qayrawani», *C.T.*, 1953, 63–68.

—, «Quelques juristes ifriqiyens de la fin du X[e] siècle», *R.A.*, n[os] 446–449, 1956, 349–373.

—, «Une des phases de la lutte du malikisme contre le chiisme sous les zirides (XI[e] siècle); al-Tounisi; juriste Kairouanais et sa célèbre fatwa sur les chiites», *C.T.*, 1956, 508–517.

—, «Sur le retour des zirides à l'obédience fatimide», *A.I.E.O.*, XI, 1953, pp. 25–39.

—, «L'Ecole malékite de Mahdia: L'Imam al-Mazari», *Mémorial E. Lévi-Provençal.*

—, «Problématique de l'épopée sanhadjienne en Berbérie orientale», *A.I.E.O.*, 1959, 243–255.

Idrisi, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, éd. trad. Dozy et De Goeje, Leyde 1866.

Khatchatrian, «*Le tracé de la lanterne d'al-Mu*ᶜ*izz à Kairouan et ses liens avec la basse Antiquité et l'Arménie*», *Arts asiatiques*, II, 1955, fasc. 2, 137–144.

Kindi, «Governors and Judges of Egypt», *Gibb Memorial*, XIX, Leyde 1912.

Lacour-Gayet (J.), *Histoire du commerce, II, Le commerce de l'Ancien Monde jusqu'à la fin du XV[e] siècle*, Paris, 1950.

Lane (E.W.), *An arabic english lexicon*, 8 vol., Londres 1863–1893.

Leclerc (D[r] L.), *Histoire de la médecine arabe*, 2 vol., Paris 1876.

Le Tourneau (R.), «La révolte d'Abu Yazid», *C.T.*, 1953, 103–125.

—, «*Al-Ghazali et Ibn Toumart se sont-ils rencontrés?*» *Bulletin des Études arabes*, 1947, 147–148.

—, «Du mouvement almohade à la dynastie muminide: la révolte des frères d'Ibn Toumart de 1153 à 1156», *Mélanges G. Marçais*, II, 111–116.

Levi Della Vida (G.), Un' altra versione islamica dello «stratagemma della Vergine», estratto da «Silloge Byzantina» in onore di Silvio Giuseppe Mercali, Rome 1957, 287–293.

Levi-Provençal (E.), *L'Espagne musulmane au X[e] siècle*, Paris 1932.

—, *Fragments historiques sur les Berbères au Moyen Âge*, Extraits inédits d'un recueil compilé en 712/1312 et intitulé Kitab Mafakhir al-Barbar, Rabat 1934.

—, *Six fragments inédits d'une chronique anonyme du début des Almohades*, éd. trad., *Mélanges René Basset*, II, 117–120.

—, *Réflexions sur l'empire almoravide au début du XI[e] siècle*, cinquantenaire de la Faculté des Lettres d'Alger, 1932.

—, *Histoire de l'Espagne musulmane*, 3 vol., Paris Leyde 1950–1953.

—, *Trente sept lettres officielles almohades*, éd. Rabat 1941, analysés par lui dans *Hespéris*, 1941.

Lévi (R.), «notes on costume from arabic sources», *J.R.A.S.*, 1953, 64–157.

Lewicki (T.), *Etudes ibadites nord africaines*, partie I, Varsovie 1955.

—, «Le Culte du bélier dans la Tunisie musulmane», *R.E.I.*, 1935, cah. 2, 196–200.

—, *Les Ibadites en Tunisie au Moyen Âge*, Academia di Scienze e Lettere, Bib. di Roma, Conferenze, fasc. 6, Rome 1959.

—, *La Répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen Âge*, 1ere partie, *Rocznik orientalistyczny*, XXI, 1957, 301–343.

—, «*Les Subdivisions de l'Ibadiya*», *Studia Islamica*, IX, 1958, 72–82.

—, «*Notice sur la chronique ibadite d'ad-Dargini*», *Rocznik orientalistyczny*, XI, 1936, 146–172.

—, «Quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibadite», *R.E.I.*, 1934, cah. 3, Paris 1935, 275–296.

—, Une chronique ibadite «Kitab al-Siyar», *R.E.I.*, 1934, cah. 1, 59–78.

—, *Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord* (Memorial Tadeusz Kowalski), Cracovie, 1953, 415–480.

Lewis (A.R.), *Naval Power and trade in the Mediterranean*, Princeton, New Jersy, 1951.

Lewis (B.), "The Fatimids and the route to India", *Revue de la Faculté des sc. économiques de l'Université d'Istanbul*, XI, 1949–1950.

Lezine (A.), «Deux Ribat du Sahel Tunisien», *C.T.*, 1956, 279–288.

—, «*Le Ribat de Sousse*», Direction des Antiquités et des Arts de Tunisie, Notes et Documents, XIV, Tunis 1956.

Lombard (M.), *Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane (VIIe–IXe S.)*..., Bibl. générale de l'École Pratique des Hautes Études, VIe section, Paris 1958, 53–106.

—, L'or musulman du VIIe *au XIe S.*, Annales Economies, Sociétés, Civilisations, II, av.–juin 1947, 143–160.

—, *Une carte du bois dans la Med. mus.*, ibdem, av.–juin 1959, 234–254.

Lopez (R.S.) et Raymond (I.W.), *Medieval trade in the Mediterranean World*, New York 1955.

Magalhaes Godinho (V.), «Mediterraneo saarino e as caravanas do ouro», *Revista de Historia*, Sao-Paulo, Brésil, no 23, juil.–sep. 1955, 74–134; no 24, oct.–dec. 1955, 307–353; no 25, janv.–mars 1956, 59–107.

Mann (J.), *The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimids...*, 2 vol., Oxford University Press 1920–1922.

Marçais (G.), *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Âge*, Paris 1946.

—, *Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe S.*, Constantine–Paris 1913.

—, *Manuel d'Art Musulman*, 2 vol., Paris 1926–1927; remanié sous le titre: *l'Architecture musulmane d'occident*, Paris 1954.

Marçais (G.) et Poinssot (L.), *Objets Kairouanais*, Notes et Documents, XI, fasc. I et II, 2 vol., Tunis 1948–1952.

Marçais (G.) et Golvin (L.), *La Grande Mosquée de Sfax*, Tunis 1960.

Marçais (W.), «Comment l'Afrique du Nord a été arabisée», *A.I.E.O.*, IV, 1938, 1–23, 1956, 5–17.

—, *L'islamisme et la vie urbaine*, comptes rendus de l'Académie des Inscriptions, 1928, 86–100.

Marçais (W.) et Guiga (A.), *Textes arabes de Takrouna*, Paris 1925.

Merad (Ali), « Abdel Mou'min à la conquête de l'Afrique du Nord », *A.I.E.O.*, Alger 1957, 109–163.

Mercier (M.), *Le feu grégois: les feux de guerre depuis l'Antiquité – la poudre à canon*, Paris 1953.

Miles (G.C.), *Early arabic glass weights and stamps*, Numismatic notes and monographs, nº 111, New York, 1948.

—, *A supplement*, Numismatic notes..., nº 120, New York, 1951.

Monchicourt (R.), *La région du Haut Tell en Tunisie*, Paris 1913.

Montagne (R.), *La civilisation du désert*, Paris 1947.

Motylinski (A.), « Bibliographie du Mzab... », *Bulletin de correspondance africaine*, III, Alger 1885, 15–72.

—, *Le Djebel Nefoussa*, Paris 1899.

Muquaddasi, *Description de l'Occident musulamn au IVe–Xe siècle...*, éd. trad. C. Pellat, Alger 1950.

Nallino (C.A.), Raccolta di scritti editi e inediti, V, Astrologia, Astronomia, Geografia, A cura di Maria Nallino, Publicazionni dell' Instituto per l'Oriente, Rome 1944.

—, « Venizia e Sfax nel secolo XVIII secondo il cronista arabo Maqdish », *Centenario M. Amari*, I, 306–356.

Nicholson (R.A.), *A Literary history of the Arabs*, Cambridge 1930.

Nuwayri, *Historia de los Musulmanes de Espanà y Africa* (Extrait de la *Nihayat al-arab*), éd. trad. espagnole Gaspar Remiro, Revista del Centro de Estudios historicos de Granada y su Reino, 2 vol., Grenade 1917–19.

Obermann (J.), "The arabic original of Ibn Shahins's Book of Confort Known as the Hibbur Yaphe of R. Nissim b. Yaâqobh », *Yal oriental series researches*, XVII, New Haven 1933.

—, *Two Ely'ah stories in judeo arabic translation*, Hebrew Union College Annual XXIII, 1950–51, 387–404.

Pellat (Ch.), « Ibn Hazm bibliographe et apologiste de l'Espagne musulmane », *Al-Andalus*, XIX, Madrid 1954, 53–102.

Pérès (H.), « Glanes historiques sur les Moulok al-Tawaïf et les Almoravides dans les 'Oalaïd al-Iqyan' d'al-Fath Ibn Khaqan », *Mélanges G. Marçais*, II, 147–152.

—, *La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle*, 2e éd., Publications de l'Institut d'Etudes orientales, Faculté des Lettres d'Alger, V, Paris 1953.

Pernoud (R.), *Histoire du Commerce de Marseille*, 3 vol., Paris 1949–1951, tome I, 109–375.

Pirenne (H.), *Histoire économique de l'occident médiéval*, Bruxelles 1951.

Pirenne (J.), *Les grands courants de l'Histoire universelle, II, De l'expansion musulmane aux traités de Westphalie*, Neuf Châtel, Paris 1950.

Poinssot (L.), *Castella (Qastiliya)*, Bulletin archéologique du Comité, 27 mai 1940, V-IX, 1938–1940, 415–422.

—, *Inscriptions arabes de Kairouan...*, Publications de l'Institut des Hautes Études de Tunis, II, fasc. I-II, Paris 1950 et 1958.

Pons Boignes (F.), *En suyo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles*, Madrid 1896.

Poznanski (S.), «Kalâat Beni Hammad», *R.E.J.*, t. 58, 1909, 297–298.

Quatremère (N.), «Mémoires historiques sur la dynastie des Khalifes fatimides, vie d'El Moïzz», *J.A.*, 3e sèrie, août 1836.

Renouard (Y.), *Le rôle des hommes d'affaires italiens dans la Méditeranée au Moyen Âge*, Revue de la Méditerranée 1955.

Rice (D.S.), *Studies in islamik metal work, V, B.S.O.A.S.*, xvii/2, 1955, 206–231.

Rizzitano (U.), *Ibn Charaf al-Qayrawani e la sua Risalah al-Intiqaad*, Rivista degli studi orientali, Rome 1956, 51–72.

Sajeda Shukri, *Sumer, A journal of Archeology in Iraq*, x, Baghdad 1951.

Salama (P.), *Les voies romaines de l'Afrique du Nord*, Alger 1951.

Sarton (G.), *Introduction to the history of science*, 3 tomes en 5 volumes, Baltimore 1927–1948.

Sauvaire (H.), «Matériaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmane», extrait du *J.A.*, 7e série, xv, 1880.

Sauvaget (J.), *Intoduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris 1943.

Sayous (A.E.), *Le commerce des Européens à Tunis depuis le XIIe siècle jusqu'à la fin du XVIe*, Paris 1929.

Schacht (J.), «Bibliothèques et manuscrits abadites», *R.A.*, 1956, 375–398.

—, *Esquisse d'une histoire du droit musulman*, trad. Arin, Paris 1953.

—, «*New sources for the history oh Muhammadan theology*», *Studia Islamica*, i, 1953, 40 seq.

—, «Sur la transmission de la Doctrine dans les écoles juridiques de l'Islam», *A.I.E.O.*, 1952, 399–419.

—, *The origins of Mohammadan jurisprudence*, Oxford 1950, 2e éd. 1952.

Schaube (A.), *Handesgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis zum Ende deer Kreuzzüge*, Munich–Berlin 1906.

Seston (W.), «Sur les derniers temps du christianisme en Afrique», *Mélanges de l'École de Rome*, liii, 1936, fasc. i–iv, 101–124.

Simon (M.), «Le judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne», *Revue d'Histoire et de Philosophie religieuse*, xxvi, 1946, 1–31, 105–145.

Solignac (M.), *Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VIIe au XIe S.*, Publications de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, xiii, Alger 1953.

Stern (S.M.), «Three North African topographical notes», *Arabica*, I, 1954, 343–345.

—, *An Original Document from the Fatimid Chancery concerning Italian marchants*, Studi orientalistici in onore di G. Levi della Vida, ii, 1956, 529–538.

Sudhoff (M.K.), *Archeion, organe officiel du Comité International d'Histoire et Sciences*, xiv, no 3, août–sept. 1932.

Talbi (M.), «Quelques données sur la vie sociale en occident musulman», d'après un traité de Hisba du XVe siècle, *Arabica*, 1954, 294–306.

Terrasse (H.), *Histoire de Maroc*, 2 vol., Casablanca 1949–1950.

—, *L'art hispano-mauresque des origines au XIIIe siècle*, Paris 1932.

—, *La Mosquée des Andalous*, Paris, s.d.,

Thorndike (L.), *A History of magic and experimental science*, 6 vol., New York

1923–1941; vol. I, 4e éd. 1947, 743–754.

Trabulsi (A.), *La critique poétique des Arabes jusqu'au Ve siècle H.*, Damas 1956.

Tyan (E.), *Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam*, 2 vol., Paris 1938.

—, *Institutions de droit public musulman, I, Le Califat*, Paris 1954.

Vajda (G.), Le commentaire Kairouanais sur le « livre de la Création », *R.E.I.*, Nlle série, VII, 1–62, X, juil. 1949 – dec. 1950, 67–92.

—, *Galien – Gamaliel*, Annuaire de l'Institut de Philosophie et d'Histoire orientales et Slaves, XII, 1953, *Mélanges Isodore Lévy*, 641–652.

—, *Introduction à la pensée juive du Moyen Âge*, Paris 1947.

Vonderheyden (M.), *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benou l-Aghlab*, Paris 1927.

Zambaur (E. de), *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam*, Hanovre 1927.

Zbiss (S.M.), « Le Musée d'art musulman de Sidi Bou Khrissan à Tunis » *Bulletin économique de la Tunisie*, n° 77, juin 1953, 96–100.

—, *Le Ribat, Institution militaro-religieuse...*, Comptes rendus de l'Académie des inscriptions, 1954, 143–147.

—, « Mahdia et Sabra–Mansouriya », Nouveaux documents d'art fatimide d'occident, *J.A.*, 1956, 79–93.

—, *Note sur les cimetières musulmans de Tunis...*, Extrait du 70e congrès de l'A.F.A.S (Tunis, mai 1951), fasc. 3, tiré à part.

—, *Corpus des inscriptions arabes de Tunisie*, 1ere partie, Tunis 1955; 2e partie, Tunis 1960.

Abrévations:

A.I.E.O. = *Annales de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger.*

C.T. = *Les cahiers de Tunisie.*

J.A. = *Journal asiatique.*

J.R.A.S. = *Journal of the Royal Asiatic Society.*

R.A. = *Revue Africaine.*

R.E.I. = *Revue des Études Islamiques.*

R.E.J. = *Revue des Études Juives.*

R.T. = *Revue Tunisienne.*

فهرس المواضيع



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.,113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم : 1992 - 3 - 2000 - 203

التنضيد : مؤسسة الخدمات الطباعية (حسيب درغام وأبناؤه) المكلس

الطباعة : دار صادر — بيروت

HADY ROGER IDRIS

La Berbérie orientale sous les Zirides
Xe - XIIe siècle

TRADUIT EN ARABE
PAR
HAMADI SAHLI

Tome I



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

الهادي روجي إدريس

الدّولة الصّنهاجيّة

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري
من القرن 10 إلى القرن 12 م.

نقله إلى العربيّة
حمّادي السّاحلي

الجزء الثّاني


دار الغرب الإسلامي

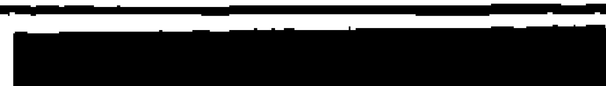
هذه الترجمة تصدر للكتاب المنشور باللغة الفرنسية سنة 1962
La Berbérie Orientale sous les Zirides Xe - XIIe siècle
Par Hady Roger Idris
الصادر عن :
Librairie d'Amérique et D'Orient
ADRIEN-MAISONNEUVE
11, Rue Saint-Sulpice, PARIS (6e)

الطبعة الأولى
1992

La traduction de cette thèse est publiée avec l'accord de l'éditeur initial de l'ouvrage.

(ننشر هذه الترجمة باتّفاق مع الناشر الأصليّ للكتاب)

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان



القسم الثاني

المؤسسات والحياة العامة

الباب السَّابع
البِلاَد وَالعِبَاد

نظـرة عامّـة :

في هذه اللّمحة شبه الجغرافيّة ، المقتصرة في أغلب الأحيان على تسميات جافّة وغير ثابتة ، لم نحتفظ إلاّ بالبيانات الصالحة للعصر الصنهاجي .

وقد دعتنا متانة المسالك والمراكز العمرانيّة إلى اعتبار نفس الطرقات التي سلكها الجغرافيّون العرب ، إذ كانت نظرتهم تمثل وثيقة تاريخيّة غزيرة بالمعلومات .

ففي البرّ تبينّ وسائل النقل المستعملة (أي الدوابّ بلا عَرَبات) وجود مأوى في كلّ محطّة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى المساحلة التي تستدعي وجود موانىء ساحليّة ، تفصل بين الميناء والآخر مسيرة يوم في البحر . أمّا سلسلة الرباطات المكثّفة بوجه خاصّ في السواحل التونسيّة، والمعزّزة في الغالب بسلسلة ثانية من الرباطات الداخلية ، فإن المسافات التي تفصل بينها تطابق عموماً مقتضيات رؤية الأضواء القائمة مقام الإشارات .

وإنّ إفريقيّة بحصر المعنى التي تحتوي على مجموعة من السهول المتميّزة بسهولة المواصلات وقلة المضايق والجبال المنيعة ، وتتمثّل في بلاد منظمة على أحسن وجه ممكن حول القيروان ، يقابلها المغرب الأوسط الذي يتمثّل في مركّب من الجبال المفصول بعضها عن بعض بصورة غير منتظمة .

كما إنّ سكّان شرق بلاد المغرب الحضريّين والمقيمين فوق أرض مزدهرة على وجه العموم ، كانوا يتصدّون دوماً وأبداً للأعراب الرّحل الذين كانوا يهدّدونهم . إلاّ أنّ زحفة بني هلال سوف تقضي على هذا التوازن النّسبي وستُفْضي إلى تراجع الزراعات لفائدة المراعي ، وتصحير عدد كبير من المناطق المزدهرة . وفي حين تحضّر الفاتحون العرب القليلو العدد بسرعة ، كانت الحشود الهلاليّة الغفيرة عاجزة عن التخلّي عن الحياة الرعويّة وتعاطي الفلاحة .

وعلى غرار هجرة الكتاميّين في العهد الفاطمي ، كانت هجرة بني زيري الصنهاجيّين في اتجاه

إفـريقيّة ، عن طـريق المنخفض الجنوبي بـالمغرب الأوسط ، مـرتبطة بنمط العيش ومقتضيـات الجغرافيا . وكان هؤلاء القوم المستقرّون الأفظاظ الذين لم يشملهم الدين الإسلامي بما فيه الكفاية ولم يتمّ تعريبهم تعريباً كاملاً ، قد غادروا منطقتهم الجبليّة الفقيرة نسبيّاً ، والثريّة برجالها ومساكنها المتفرّقة . ويبدو أن هذا المدد البربري الجديد الذي نجهل أهميّته من حيث الكمّ ، ولكنّنا نظنّ أنه كان ضعيفاً ، لا سيما بعد تأسيس مملكة بني حمّاد التي خفّضت من نسق تدفّقه ، بل أوقفته تماماً ، قد اندمج بسهولة في صلب المجموعـة العربيّـة البربـريّة المنصهـرة من قبل في بـوتقة الحضـارة القيروانية .

ولئن كنّا نجهل طرق تعريب الصنهاجيّين القادمين إلى إفريقية ، إلاّ أننا نفترض أنّ ذلك قد تمّ بسرعة بالنظر إلى تعريب رؤسائهم[1] . أما بالنسبة إلى الذين قدموا إلى إفريقية مع بني زيري ، فإنّ الصنهاجيين الذين مكثوا بالمغرب الأوسط قد حافظوا على فظاظتهم السابقة .

ولقد تفاقم ، بالرغم من الانتفاضات الزناتية العنيفة ، تقهقـر اللغة الـبربريّـة والمذهـب الخارجي السائرَيْن في خطّ واحد ، ذلك التقهقر الذي بدأ منذ العهد الفاطمي . إلاّ أنّ الغزوة الهلالية التي استهدفت السهول وأجلت سكّان الريف إلى أعالي الجبال ، لم تؤثّر فيها ولم تتسرّب إلى الجبال التي ظلّت إلى يومنا هذا بربريّة اللّسان ، مثل مناطق القبائل ، ولا سيما الأوراس معقل المذهـب الخارجي .

ويبدو أن الشعر [الشعبي] قد بقي مدّة طويلة ملاذ اللغة البربرية[2] . ولتقدير مدى اتّساع رقعة المذهب الخارجي البربري في جنوب إفريقية ، يكفي التذكير بأن أهل قسطيلية وقفصة ونفطة والحامّة وبشّار وجبل نفوسة كانوا ـ حسب ابن حوقل[3] ـ من الخوارج الإباضيـة أو الوهبيّـة . وبالطبع ينبغي أن نضيف إلى تلك المناطق جزيرة جربة وأقصى جنوب المغرب الأوسط (شوف

---

1) علاوة على الألقاب البربريّة التي يحملها بعض الأشخاص الذين قاموا بدور سياسي ، نلاحظ وجود بعض آثار لأسماء بربريّة ، انظر ، مناقب ، 105 ، 115 ، 128 ـ ونفائش عربيّة ، 304/1، 340-341 ، 376-378 ، 401-402 ، 462-466/2 .

2) الشماخي ، 256 ، 400 ، 405-406 ، 408-409 (في عصر أبي نوح) : هل يمكن تسمية الله باللغة البربريـة باسم يز ريلمر ؟ 498 ، 519 ، 520 .

3) ابن حوقل ، 96/1 ، وأضاف أن أجوارهم التابعين لقبيلتين بربريّتين كبيرتين ، زناتة ومزاتة كانوا في معظمهم معتزلة من أتباع واصل بن عطاء .

وأريغ وورجلان والزاب)[4]، وربّما أيضاً جبل وسلات وجبل زغوان وجبل خمير ، التي تعتبر بمثابة التخوم الخارجة عن المركز . وفي عهد المعزّ بن باديس كان يقيم عدد من الخوارج الوهبيّين بقابس التي كانت تضمّ عدداً من المساجد الخاصّة بهم[5] .

وكان الإباضيون يقومون بدور بارز في السودان ، وقد نشروا فيه الإسلام بصورة تزيد أو تنقص قبل بني زيري[6] .

أمّا بقايا المسيحيّين واليهود ، فسنتحدّث عنهم في الباب المخصّص للحياة الدينيّة .

وقد ظلّ المغرب الأوسط إبّان الفتح الموحّدي منطقة مُجَزَّأة ومفتقرة إلى نواة تركيز لا يمكن أن تكون لا بجاية ولا قسنطينة ولا من باب أولى وأحرى القلعة المهجورة . وأمّا في المغرب الأدنى ، فقد كانت مدينة تونس مُهَيَّأة لتحلّ محلّ القيروان المتقهقرة ولتصبح عاصمة ما كانت تُسمّى إفريقية .

إلاّ أنّ العرض الموالي سيبيّن إلى أيّ حدّ ، تمكّنت الغزوة الهلالية من قلب جغرافيا شرق المغرب البشريّة رأساً على عقب . وقد بدأت هذه البلاد في البحث عن توازن جديد بين الرّعاة الرُّحّل والمزارعين المستقرّين[7] ، بفضل تسوية بالتراضي ، كانت ضروريّة ومع ذلك مفيدة ، لا سيما بالنسبة إلى المراكز العمرانيّة التي ظلّت قائمة الذّات .

---

4) الشماخي ، 413 ، 418-419 (إشارة إلى تراجع التأثير الخارجي في المغرب الأوسط) ، 440 ، 447 ، 458 ، 463 ، 468 ، 480 ، 484-485 ، 488 ، 588-598 .

5) نفس المصدر ، 474-475 .

6) نفس المصدر ، 457-458 ، 483-484 ، 516 ، والبكري ، 178 .

7) سندرس الدور البالغ الأهمية الذي يقوم به البحر في إفريقيّة عند الحديث عن التجارة الخارجية .

الفصل الأوّل
إفريقيّة

القيروان :

كان معظم السكّان ، قبل غزوة بني هلال ، مستقرّين ، وكان التّرحال قليل الانتشار . إذ كانت إفريقيّة تشتمل على عدد كبير ، من المراكز العمرانية الزاهرة[8] . وكانت ضواحي القيروان تعتبره أصدق مثال لذلك الازدهار غير المنتظر .

ورغم ما كانت تشهده كلّ من صبرة ـ المنصورية ، وزويلة ـ المهديّة ، من تطوّر كبير ، فإن القيروان لا تزال تقوم في عهد بني زيري ، بالنسبة إلى إفريقية ، بدور العاصمة السياسيّة والاقتصادية والدينية والثقافية . وممّا لا شكّ فيه أن الفترة السابقة للقطيعة قد كانت ملائمة لها . إذ إنّ انتصار المذهب المالكي كان يمثّل انتصارها هي بالذّات ، أوّلاً وقبل كلّ شيء .

ولئن لم تتأثّر القيروان بما قُدِّر من مصير ، يبدو لأوّل وهلة من باب المفارقات ، لذلك المعسكر الذي رفعه الأغالبة إلى مقام العاصمة ، ولا بتفاهة الدور الذي أصبحت تقوم به منذ خرابها إلى الآن ، إلاّ أنّه لم يكن هناك ما ينبىء بانحطاطها القريب والحتمي . ذلك أن مدينة تونس تستطيع أن تتحكّم في شمال البلاد وتتطوّر إلى أبعد حدّ ، دون أن تلحق بها أيّ ضرر . أمّا مدن الساحل ، فلا تستطيع أيّة واحدة منها أن تحلّ محلّها .

ولا شيء يدلّ على أن إنشاء مملكة بني حمّاد قد تسبّب بأيّة صورة من الصّور في التنقيص من كثافة المبادلات بين القيروان والمغرب الأوسط . فقد كانت القيروان عبارة عن مركز كبير لحطّ رحال القوافل وسوقاً ضخمة . وكان ازدهارها مرتبطاً بازدهار المنطقة الشاسعة الواقعة جنوب الظهر التونسي ، التي كانت آنذاك مستغلّة أحسن استغلال وآهلة بالسكّان ، أكثر ممّا كان مرتبطاً بمرتبتها كعاصمة للبلاد . وكانت القيروان تجتذب وتوزّع المنتجات الواردة ، سواء من الساحل وقمّودة أو من الجريد ونفزاوة .

---

8) انظر مثلاً ، شهادة المقدسي ، 22-23 .

كما كانت تحظى برعاية المعزّ بن باديس الذي فكّر في ربطها بالبحر ، رغم أن موانىء السواحل الشرقية كانت تعتبر منافذ بحريّة تابعة لها[9] .

ولئن لم يتمكّن ذلك المعسكر الحصين الذائع الصيت الذي شيّده الفاتحون العرب ، من الانبعاث ، بعدما هدّمه الغزاة الهلاليّون ، فيبدو أن سبب ذلك يرجع أوّلاً وبالذات إلى إقدام أولئك الأعراب الرّحل على تخريب البوادي المزدهرة التي كان ثراؤها متوقّفاً على ثراء السّوق الكبرى المتمثلة في مدينة سيدي عقبة . فبالنسبة إلى السّباسب الإفريقية ، كان أيّ تهوان من قِبَل المجهود البشري ، يرجع بالوبال على الزراعات التي تترصّدها الصحراء .

الأبواب والأسوار :

لقد دكّ زيادة الله بن إبراهيم [ابن الأغلب] في سنة 209 هـ/ 824-825 م سور القيروان القديم الذي كان قد بناه محمد بن الأشعث سنة 144 هـ/ 761-762 م ، ويبلغ عرضه عشرة أذرع ، وذلك لمعاقبة أهل القيروان الذين أيّدوا ثورة منصور الطنبذي . وقد أمسك الفاطميّون وملوك بني زيري الثلاثة الأوائل عن ترميمه . وحسب البكري[10] كان سور القيروان يشتمل على الأبواب [السبعة] التالية : باب تونس في الشمال ، وباب أبي الربيع في الجنوب الشرقي ، وباب عبد الله وباب نافع في الشرق ، وباب أصْرَم وباب سَلَم (أو باب أسْلَم) في الغرب ، وباب آخر لم يذكر المؤلف اسمه في الجنوب الغربي[11] .

واعتباراً للخطر الهلالي ، أسرع ابن زيري في سنة 444 هـ/ 1052-1053 م إلى الزيادة في علوّ السّور الذي ارتفع إلى 22000 ذراع . وأقيم من جهة صبرة سور متقدّم يتمثل في جدارَيْن متوازيَيْن يبعد الواحد عن الآخر حوالي نصف ميل ، للربط بين المدينتين . وقد أكّد البكري[12] أن القيروان أصبحت تشتمل وقتئذ على أربعة عشر باباً : الأبواب السبعة السابقة الذكر ، وباب النخيل والباب الحديث والبابان التابعان للسور الرابط بين القيروان وصبرة ، وباب الطّراز وباب القلّالين وباب سحنون الفقيه . وأشارت المصادر إلى وجود بابَيْن آخرين في العصر الصنهاجي ،

---

9) انظر الباب الثاني عشر : : الحياة الفكرية والفنية .

10) البكري ، 25 .

11) يمكن أن يتعلّق الأمر بباب الغنم أو بالأحرى باب الريح الواقع في اتجاه فحص الدوّارة . وحول باب سلم أو أسلم انظر ، مناقب ، 197 ، الهامش عدد 4 ، وشوريا ، 183/2 ، الهامش 1 . وحسب حسن حسني عبد الوهاب ، بساط ، 4-5 ، كان باب عبد الله يحمل اسم عبد الله (بن الزبير بن العوّام) .

12) البكري ، 25 .

هما : باب الغنم وباب الرّيح[13] .

ويبدو أنّ القيروان ، قد اشتملت دوماً وأبداً على سبعة محارس (وهي نوع من الثكنات وحصون الحراسة) منها أربعة خارج السّور وثلاثة داخل المدينة[14] .

المقابر :

كانت أهمّ مقابر القيروان[15] تمتدّ خارج السّور في جميع النواحي ، ما عدا الناحيتَيْن الغربية والجنوبية الغربية . ففي الناحية الشمالية كانت توجد مقبرة باب تونس ، حيث دُفِنَ [أبو الحسن] القابسي ، وفي الناحية الغربية تقع المقبرة البلويّة حيث يوجد ضريح الصحابي الجليل أبو زمعة البلوي [رضي الله عنه] . وفي الناحية الشمالية الغربية فيما وراء باب أسلم (أو سَلَم) كانت تمتدّ المقبرة العظمى التي تسمّى أيضاً مقبرة قريش وتعرف اليوم بالجناح الأخضر[16] .

وكان موجوداً بباب أسلم مصلّى الجنائز الذي هو عبارة عن مسجد في الهواء الطلق مخصّص للصلاة على الأموات[17] . كما كان موجوداً بباب تونس مصلّى آخر مماثل[18] . وغير بعيد عن ذلك المكان ، في باب أصرم أقيمت صلاة الجنازة مرّتين متتاليتين بالرَّيْحانيّة[19] . وفي الناحية الشرقية ، كانت توجد مقبرة باب نافع ، بالإضافة إلى مقبرة سحنون ومقبرة السّيوري (ت. 460 هـ/

---

13) انظر : إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 102 والبيان ، 278/1 . وحول باب الريح ، الباب الشرقي للعباسية القصر القديم ، انظر ، بساط ، 12-13 .

14) البكري ، 24 ، الإدريسي ، المعجم ، 283-284 ، محرس .

15) إدريس ، المرجع المذكور ، 100 - 101 - 102 ، معالم ، 3/7 ـ 75-98 ، 99-105 ، 119-120 ، 122 ، 128-129 ، 132 ، 164 ، 168 ، 179-180 ، بساط ، 9-8 ، برنشفيك ، العهد الحفصي ، 369/1-372 . [الترجمة العربية ، 402/1 ـ 404] .

16) وربما لم تكن من باب الصدفة تسمية الطريق الشمالية الغربية المفضية إلى آبّة والأربس وغيرهما ، من طرف البكري ، 53-54 ، باسم الجناح الأخضر . وقد كانت تلك الطريق تعبر مقبرة باب أسلم ، وربما سميت منذ ذلك التاريخ بذلك الاسم ، انظر ، نقائش عربية ، 104/1 ، الهامش 1 .

17) معالم ، 164/3-166 .

18) إدريس ، المرجع السابق ، 100 .

19) معالم ، 147/3 : صلّى القابسي على ابن أبي زيد (ت. 386 هـ/ 996 م) بالريحانيّة عند باب أصرم ودُفِن بداره . معالم ، 211/3 : لمّا توفّي أبو بكر بن عبد الرحمان (432 أو 435 هـ/ 1040-1044 م) ، « صلّى عليه ولده بالرّيحانيّة ودفن بباب تونس إلى جانب أبيه عبد الرحمان » . قارن بين اسم هذه المقبرة وبين اسم باب ريحانة أو باب للاّريحانة التابع للجامع الأعظم في العصر الحفصي ، برنشفيك ، العهد الحفصي ، 361/1-366 [الترجمة العربية ، 398/1] .

1067-1068 م)[20] . وفي القـرن الرابـع هجري (10-11 م) ، دُفِن عـدد كبـير من الأمـوات بالرماديّة ، ويبدو أنّ هذا الاسم كان يُطلَق على مقبرة باب أسلم الواقعة على ربوة تعتبر امتداداً لربوة الجناح الأخضر[21] . وبالنسبة إلى نفس العصر ، لم نجد أيّة إشارة إلى استعمال مقبرة باب أبي الربيع[22] .

الجامـع الأعظـم :

في سنـة 374 هـ/ 984-985 م، أضاف المنصـور إلى الجامـع الأعظم [بـالقيروان] أبـواباً جديدة . كما أمر المعزّ بإعادة دهن سقوفه وأضاف إليه المقصورة الشهيرة التي يمكن تحديد تاريخها بسنة 413 هـ/ 1022-1023 م[23] .

وكان للجامع الأعظم عشرة أبواب[24] وهي : باب السماط وباب الرهادنة وباب الفضوليّين وباب المئذنة وباب الصبّاغين وباب الحدّادين[25] وباب سوق الخميس وباب الميضاة وأخيراً باب الخاصّة الذي يفتح على شارع التّمارين (باعة التّمر) . أمّا بقيّة رواية المقدسي[26] الغامضة شيئاً ما ، فيبدو أنها تعني أن رجال الحاشية يمكنهم المرور من باب اللحّامين وسوق الرمّاحين .

المساجـد الأخـرى[27] :

كانت أهمّ مساجد القيروان القديمة [28] تتمثّل فيما يلي :

---

20) برنشفيك ، المرجع المذكور ، 361/1-372 [الترجمة العربية ، 403/1] .

21) معالم ، 7/3 ـ 75 ـ 105 ـ 122 ـ 132 ـ 168 . نقائش عربية ، 1 عدد 54 ص 116 وما بعدها ، و 146/1 ، الهامش 1 .

22) دفن فيها ابن البرذون وابن هُذَيْل بعد تعذيبهما في سنة 299 هـ/ 911-912 م ؛ معالم ، 177/2 ـ 182 ـ 183 . أبو العرب ، 216 . الديباج ، 87-88 . البيان ، 154/1 وهي المقبرة التي ستعرف فيما بعد باسم مقبرة أبي عبد الله محمد العسّال .

23) جورج مارسي ، قباب وسقوف الجامع الأعظم بالقيروان ، تونس 1926 ، البيان ، 241/1 ، البكري ، 22-24 ، العهد الحفصي ، 365/1-366 [الترجمة العربية ، 398/1] ، إدريس ، مجلة أرابيكا ، ماي 1956 ، 214-215 .

24) المقدسي ، 14-17 . اقتصر البكري على ذكر عدد الأبواب .

25) حسب الرياض ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 99 . المقدسي : باب الحواريّين .

26) « باب الخاصّة في التمارين ولهمُ باب اللحّامين وسوق الرمّاحين » .

27) بساط ، 6-7 ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1986 ، 99-100 ، معالم ، 54/3 ، العهد الحفصي ، 365/1-368 [الترجمة العربية ، 399/1-402] .

28) حسب ابن ناجي ، معالم ، 54/3 ، الذي أكد أن عدد المساجد القديمة سبعة .

— مسجد عبد الله بباب عبد الله الذي يحمل اسم عبد الله بن الزبير[29] .
— المسجد الكبير الذي يبدو أنّه كان يحمل على التوالي اسم مسجد إسماعيل ثم مسجد الزيتونة ، وقد بناه إسماعيل بن عُبَيْد تاجر الله ، مولى الأنصار ، في محرس الأنصار ، وقام مقام المسجد الجامع [جامع خطبة] مدّة إتمام أشغال الجامع الأعظم[30] .
— مسجد الأنصار الواقع قرب محرس الأنصار ، وينسب بناؤه الأوّل إلى الصحابي رُوَيْفَع بن ثابت الأنصاري[31] .
— مسجد أبي ميسرة ، « وهو عن يسار الداخل للقيروان من باب تونس »[32] .
— مسجد حَنَش الواقع في جهة باب الريح ويحمل اسم التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني[33] .
— مسجد الحبلي الواقع بباب تونس والمنسوب إلى التابعي عبد الله بن يزيد الحبلي[34] .
— مسجد ابن أبي سرح[35] ، ويقال : إنه كان يسمّى مسجد ابن الزبير[36] .
— وكان موجوداً على يمين الخارج من باب نافع مسجد بناه علي (أوَ أُبيّ) بن رباح اللّخمي في القرن الثاني من الهجرة[37] .
— وبالقرب من نفس الباب كان يوجد المسجد الذي بناه في نفس الفترة زياد بن أنْعَم[38] .
— ويطلق اسم مسجد هارون[39] ، حسب الاحتمال ، على المسجد المعروف باسم « مسجد

---

29) بساط ، 6-7 .
30) نفس المصدر . العهد الحفصي ، 367/1 [الترجمة العربية ، 399/1] . رياض النفوس ، مخطوط باريس 10 و[طبعة بيروت ـ 107/1] .
31) بساط ، 6-7 ، العهد الحفصي ، 367/1[الترجمة العربية، 399/1] . وحول ترميم هذا المسجد في القرن السادس ، انظر ، معالم ، 256/3 .
32) معالم ، 54/3 ، بساط ، 6-7 ، العهد الحفصي ، 368/1 [الترجمة العربية ، 400/1] .
33) رياض النفوس ، مخطوط باريس 11/ظ [طبعة بيروت ، 121/1] .
34) معالم ،138/1-139، انظر ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 99 . وسمّي هذا المسجد فيما بعد على التوالي مسجد الرباطي ومسجد ابن عياض وأخيراً مسجد أولاد بني جعيط ، العهد الحفصي ، 368/1 [الترجمة العربية ، 400/1] .
35) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 7 ظ .
36) معالم ، 138/1-139 . أفلا يتعلق الأمر بمسجد عبد الله المشار إليه أعلاه والمنسوب إلى عبد الله بن الزبير ؟ .
37) رياض النفوس ، مخطوط باريس 11 ظ . [طبعة بيروت ، 119/1] . معالم ، 28/1 ، 152 ، العهد الحفصي ، 368/1 [الترجمة العربية ، 400/1] .
38) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 12 ظ . [طبعة بيروت ، 129/1] ، معالم ، 164/1 .
39) رياض النفوس ، مخطوط باريس 64 و ـ 97 و ـ [طبعة بيروت ، 430/2] ، معالم ، 197/2 ، أبو العرب ، 233 ، =

الأبواب الثلاثة » الذي بناه في سنة 252 هـ/ 866 م أبو جعفر محمد بن محمد بن خيرون المعافري (ت. 301 هـ/ 912-913 م) .

- وكان يوجد غير بعيد من سبيل بئر برّوطة مسجد أسد بن الفرات الذي بُني تخليداً لذكر هذا الفقيه صِنْو الإمام سحنون(40) .
- مسجد يحيى بن عمر الواقع بالقرب من حمّام النعمان(41) .
- مسجد (أبي) عيّاش الفقيه ، وهو يحمل اسم أحد أصحاب سحنون(42) .
- مسجد أحمد بن أبي سليمان ومسجد عبد الجبّار ، وقد أقيما تخليداً لذكر صاحبَيْن من أصحاب سحنون(43) .

مساجد العصر الصنهاجي :

- مسجد الحسن بن خلدون ، وقد قُتِل فيه هذا الفقيه سنة 407 هـ/ 1016 م .
- مسجد أبي بكر بن عبد الرحمان (ت. 432 أو 435 هـ/ (1040-1043 م)(44) .

- **العهد الحفصي** ، 368/1 [الترجمة العربية ، 400/1] ، البيان ، 169/1 ، وقد أطلق على هذا المسجد اسم المسجد الشريف الذي ربما يكون مجرّد نعت . **نقائش عربية** ، 61/1-64 ، 184-186 ، 254 وفي نفس المرجع ، 186/1 نجد ما يلي :

محمد بن خيّرون أبو جعفر محمد (ت. 301 هـ) أحمد

أبو الحسن جعفر (ت. 310 هـ) أبو محمد حسن (ت. 347 هـ) .

40) حسب تعليق لحسن حسني عبد الوهاب ، **أعمال** ، 493 . ولعلّ الأمر يتعلق بمسجد مقام بالقرب من بئر بروطة ، **معالم** ، 231/4 ، **العهد الحفصي** ، 369/1 [الترجمة العربية ، 401/1] .

41) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس 54/ظ [طبعة بيروت ، 494/1] .

42) نفس المصدر ، **مخطوط** باريس 72/ظ : مسجد عبّاس الفقيه صاحب سحنون [طبعة بيروت ، 152/2 : مسجد أبي عيّاش الفقيه صاحب سحنون] ، **البيان** ، 182/1-183 : مسجد ابن عيّاش الفقيه . وحول أبو عيّاش ، انظر ، **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 51/و [طبعة بيروت ، 235/1 ـ 354 ـ 417] ، **معالم** ، 174/2 ، **مدارك** ، **مخطوط** حسن حسني عبد الوهاب .

43) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس 54 ظ. [طبعة بيروت ، 501/1] .

44) **معالم** ، 192/3 - 140/4 . المسجد الأول ما زال قائم الذات ويسمى مسجد ابن خلدون . **نقائش عربية** ، 335/1 ، حسب ، **معالم** ، 211/1-212 . والمسجد الثاني كان موجوداً قرب سور المدينة بحارة الغرانطة . ولا شكّ أن الأمر يتعلق بالسور التابع للعصر الموالي للعهد الصنهاجي . أفلا يكون اسم هذه الحارة : « القرامطة » عوض الغرانطة (أهل غرناطة) ؟ .

ـ مسجد السّدرة[45] .

ـ مسجد أبي الحَكَم[46] ، وقد اعتصم به السّبائي مدّة عشرين سنة .

ـ مسجد أبي زرجونة[47] .

ـ مسجد آخر يقع بالقرب من حمام أبي إسحاق ودرب الأقرع بن بكّار[48] .

ـ مسجد ابن أبي نصر[49] .

ـ مسجد عون[50] .

ـ مسجد ابن اللجّام[51] .

ـ مسجد أبي الفتح الواقع في المكان الذي ينتصب فيه « أصحاب الشواذيق » (صانعو الأغطية)[52] .

ـ مسجد رحبة القرشيّين[53] .

ـ مسجد المقرعة القريب من الجامع الأعظم[54] .

ـ مسجد أبي عبد المطّلب الواقع بباب سَلَم (أو أسلم)[55] ، وقد أهدت إليه الأميرة أمّ العلوّ أخت المعزّ بن باديس مصحفاً .

---

45) معالم ، 105/3 وحول السّدرة ، انظر : رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 20 ظ . ، [طبعة بيروت ، 208/1] . وحسب معالم ، 129/2 ، فإن السدرة هي ربض من أرباض القيروان .

46) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 101 ظ . [طبعة بيروت ، 475/2] .

47) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 76 و . [طبعة بيروت ، 204/2] ، ستوريا ، 266/2 : أبو زرمونة .

48) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 72 ظ . [طبعة بيروت ، 151/2] .

49) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 36 و . [طبعة بيروت ، 336/1] .

50) نفس المصدر ، مخطوط باريس 41 و . [طبعة بيروت ، 375/1] ، ولا شك أن الأمر يتعلّق بعون بن يوسف صاحب سحنون .

51) معالم ، 113/3 . وانظر ، رياض النفوس ، مخطوط باريس 84 و . [طبعة بيروت ، 332/2 : أبو محمد عبد الله بن سعد اللجّام] .

52) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 13 و . [طبعة بيروت ، 138/1] .

53) أبو العرب ، 231 ، معالم ، 6/3 .

54) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 43 ظ [مسجد المقرعة لا « المفزعة » كما جاء خطأ في النصّ الفرنسي ، انظر : رياض النفوس طبعة بيروت ، 398/2 ، الهامش 20] .

55) شهيرات التونسيات (ط 1) ، 47 ، الهامش 1 .

ـ مسجد التوفيق بباب سلم الذي يرجع تاريخه ، حسب الاحتمال ، إلى العصر الصنهاجي[56] .
ـ مسجد باب سَلَم المعلّق الكبير[57] .

وأخيراً ، ورد ذكر مسجد المرجي (ولعله المرخي) في قبريّة مؤرّخة في سنة 416 هـ/ 1025 م[58] .

بنـاءات مختلفـة :

كان قصر الحكومة السابق المعروف بدار الإمارة قائماً شرقيّ الجامع الأعظم[59] ، وكان يضمّ مختلف المصالح الإدارية (الدواوين)[60] . وكان المجلس الشرعي « دار القاضي » ملاصقاً للجامع الأعظم من الجهة الشرقية[61] .

ويبدو أنّ القصور الأغلبيّة السابقة لم تزل قائمة الذات عهدئذ ، وهي قصر الفتح وقصر الحمص وقصر الماء الواقع غربيّ الماجل الكبير قرب باب تونس . وقد شيّد الصنهاجيّون القصر الجديد ، ولكنّهم كانوا يفضّلون الإقامة في المصائف المحيطة بالمدينة . وكانت دار الضيافة مخصّصة لاستقبـال السفراء وكبار رجال الدولة[62] .

الشـــوارع :

كان الشارع الرئيسي المعروف باسم السّماط ، مسقّفاً ومحاطاً من الجانبين بالدكاكين ، وكان يمتدّ من باب تونس شمالاً إلى باب أبي الربيع جنوباً ، « وطوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث ، ومن الجامع إلى باب تونس ثُلُثا ميل »[63] .

---

56) **العهد الحفصي** ، 369/1 [الترجمة العربية ، 401/1] .
57) نفس المرجع ، وفي القاهرة بنى الخليفة الحاكم ثلاثة مساجد معلّقة ، **الخطط** ، 42/2 ، **والنّجوم** ، 54/4 .
58) **نقائش عربيّة** ، 360/1 ، بادريس ، حوليّات معهد الدّراسات الشرقيّة ، 1954 ، 129 : محمد المرخي (؟) (ت. 334 هـ/ 946 م) .
59) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 9 و ـ 22 ظ . [طبعة بيروت ، 12/1 ـ 97 ـ 225 ، 226 ، 237] . البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب . وفي فتوى صادرة عن السّيوري (ت. 460 أو 462 هـ/ 1067-1069 م) ، **المعيار** ، 26/7 ، ورد ذكر بعض الأعمدة التي نُقِلت من مسجد متداع يقع قبالة قصر الأمراء ، واستعملت من جديد في جامع القيروان .
60) **بساط** ، 10-11 .
61) نفس المرجع ، 26 .
62) نفس المرجع ، 10-11 .
63) البكري ، 25-26 .

وقد حوّل الخليفة الفاطمي المنصور وابنه المعزّ لدين الله جميع المتاجر والصناعات من القيروان إلى صبرة المنصوريّة[64] . وفي سنة 405 هـ/ 1014 م اتخذ باديس إجراءاً مماثلاً[65] . ويبدو أنّ أسواق القيروان قد استأنفت نشاطها السابق إثر ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش .

وقد أعطانا صاحب رياض النفوس المعلومات التالية حول ذلك الشارع الذي أسماه « السّماط الأعظم » :

يسلك المارّ « مُرَبّع السّماط الذي يُؤْخَذُ منه إلى « السقطيّين » [باعة الأسقاط أي الأشياء القديمة] وإلى ناحية « الأبزاريّين » [باعة الطّيب] »[66] . وفي موضع آخر[67] أشار المؤلّف إلى شخص كان قاصداً الجامع الأعظم ، فقال : إنه مرّ من درب سعيد بن السّكران ثم ساباط [ممرّ مسقّف] ابن العزفي حتى انتهى إلى المسجد الواقع قرب حمّام أبي إسحاق جوار درب الأقرع بن بكّار .

وكانت القيروان تضمّ خمسة عشر درباً[68] ، منها الدّروب التي كانت تحمل أسماء الأبواب المفضية إليها ، حسب الاحتمال ، وهي : درب (أبي) الربيع ودرب عبد الله ودرب تونس ودرب أصْرَم ودرب أَسْلَم[69] . وكانت توجد دروب أخرى ، وهي : درب الحذّائين[70] ودرب السكّة[71] قرب دار ابن أبي زيد ودرب المُعَلّ[72] الذي كان يقيم به الشيعة ودرب الأقرع بن بكّار[73] ودرب أزهر[74] قرب باب تونس ، ودرب عبيد بن سوادة[75] ودرب الهذلي[76] ودرب ابن

---

64) البيان ، 219/1 ، البكري ، 25 وحسب المقدسي ، 14-15 ، الذي ألّف كتابه حوالي سنة 375 هـ/ 985 م ، تحوّل تجّار القيروان الخاضعين للضرائب إلى صبرة لطلب الرزق وهجروا أسواق العاصمة .

65) البيان ، 261/1 .

66) رياض النفوس ، مخطوط باريس 22 ظ . [طبعة بيروت ، 225/1] ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 101 ، بساط ، 5 .

67) رياض النفوس ، مخطوط باريس 9 ظ . [طبعة بيروت ، 151/2] ، بساط ، 5 .

68) المقدسي ، 16-17 .

69) هذا دليل آخر يؤيّد افتراضنا : باب سَلْم = باب أَسْلَمْ .

70) المقدسي ، 16-17 : الحذّائيّن .

71) معالم ، 121/3 ، مدارك ، 2-245/3 ظ . إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 ، 367 .

72) البيان ، 268/1 .

73) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 72/ ظ . [طبعة بيروت ، 151/2] .

74) نفس المصدر .

75) نفس المصدر .

76) بساط ، 5 .

دينـار[77] ودرب البهلول [بن راشد][78] ودرب المهـدي[79] بالقـرب من أحد أبـواب الجامـع الأعظم ، ودرب زيدان[80] ودرب الفرساس[81] قرب سوق اليهود ، ودرب أمّ أيّوب[82] قرب سوق الأحد . وتقع دار القاضي ابن أبي منظور في الشارع الأعظم[83] .

وأمّا أسماء الشوارع الأخرى فهي : شارع ابن المعتّب ، وهو يحمل اسم أحمد بن معتّب بن الأزهر (ت. 277 هـ/ 890-891 م) الذي كان يقيم فيه[84] ، وزقاق ابن حسنة[85] وزقاق ابن دينار[86] وزقاق بني (أو ابن) غانم[87] وزقاق الفرّانين[88] ، قرب السّماط ، والزّقاق الذي كان يقيم به « قوم من الجزيريّين » (أي سكّان جزيرة شريك)[89] .

السّاحـات والأسـواق :

أشار المالكي إلى الطرق التالية التي سلكها أحد الشبّان ، فقال : « مرّ من باب الريح حيث كان يسكن السبائي ثم رحبة ابن أبي داود ، وتمادى في طريقه فمرّ بالسّماط على دار ابن أسود الداعي ثم سوق ابن هشام (حيث كانت تباع المواد الغذائية كالبقول والحنطة والزيت واللحم)

---

77) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 ظ . [طبعة بيروت ، 362/2] .
78) نفس المصدر، 20 و . [طبعة بيروت ، 203/1] .
79) نفس المصدر ، 95 و . [طبعة بيروت ، 405/2] .
80) نفس المصدر ، 22 و .
81) بساط ، 5 ، نقلاً بلا شك عن المدارك ، 2-78/3 و .
82) نفس المرجع .
83) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و . [طبعة بيروت ، 359/2] . ولعل الشارع الأعظم تسمية أخـرى للسماط الأعظم .
84) بساط ، 5 ، مدارك ، 2-8/3 و .
85) بساط ، 5 .
86) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 ظ . [طبعة بيروت 274/1] .
87) نفس المصدر ، 18 و . [طبعة بيروت 185/1] ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 101 .
88) نفس المصدر ، 44 ظ . 63 و . [طبعة بيروت ، 405/1] .
89) نفس المصدر ، 55 و . 104 ظ . [واعتبر ناشر طبعة بيروت ، 505/2 ، الهامش 393 ، أن هذا الزقاق ينسب إلى قوم من مسلمة الروم أصيلي إحدى جزر البحر الأبيض المتوسـط. ولعل هذا الافتراض هو الأقرب إلى الصواب] . ويبدو أن الحي الموجود في الوقت الحاضر قرب الجامع الأعظم بالقيروان والمعروف بحي القرانطة ، قد سُمِي بهذا الاسم نسْبةً إلى القرامطة (أي الشيعة) . كما يوجد الآن شارع بمدينة تونس اسمه « نهج القرمَطو » ، ولعل هذا الاسم تحريف لكلمة « قرامطة » .

إلى أن وصل إلى بئر أمّ عياض ، (وهي بئر قديمة تقع قرب الجامع الأعظم)[90] . وقد أشارت مصادر أخرى إلى وجود بئر برّوطة الشهيرة[91] .

أمّا السّاحات التي كان يطلق عليها اسم الرحبة ، فهي تتمثّل فيما يلي : رحبة بني دِراج [أو بني دارج] ، وينبغي لمن يدخل القيروان من باب تونس[92] ويروم الوصول إليها ، أن يمرّ من رحبة الأنصار[93] ورحبة القرشيّين[94] . وكانت توجد بالقيروان دار تسمّى دار الجمل[95] .

ويبدو أنّ سوق الأحد الواقعة غربيّ المدينة[96] كانت من أكبر أسواق القيروان ، تباع بها الأقمشة والفخّار . وفي وسط هذه السوق التي كان لها باب يسمّى باب سوق الأحد ، كان يوجد حيّ اسمه حارة أبي محرز . وأشار أحد المصادر إلى وجود صبّاغ في باب أبي الربيع[97] ، كما تحدّث عن سوق (الغنم) الواقعة بباب الغنم[98] ، وعن شراء الإبل من باب سَلْم[99] .

وكانت سوق العبيد تعرف باسم البِرْكَة[100] . ويبدو أن سوق الدّجاج كانت تقام كلّ يوم خميس قرب باب تونس[101] . ومن بين أسواق القيروان الأخرى ، نذكر : سوق الكتّانين[102]

90) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 102 ظ ، 105 و . 104 ظ [طبعة بيروت ، 488/2] - معالم ، 203/3 . وقد اشترى الشاعر الصرائري (ت . 418 هـ/ 1027 م) اللحم من سوق هشام .

91) مناقب ، 201 ، الهامش 19 - العهد الحفصي ، 364/1-369 [الترجمة العربية ، 397/1] .

92) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 24 و . [طبعة بيروت ، 235/1-236] .

93) معالم ، 19/3 .

94) أبو العرب ، 231 - معالم ، 6/3 .

95) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 82 ظ . [طبعة بيروت ، 236/2] .

96) نفس المصدر ، 44 و . [طبعة بيروت ، 404/1] - مدارك ، 2-192/3 ، و . ظ . أبو العرب ، 177 . الشماخي ، 260 - معالم ، 237/2 : كان هاشم بن مسرور يدخل من باب أبي الربيع فيتصدق (على الفقراء) ثم من باب سوق الأحد فيتصدق ، ويسير في الشارع ويتصدق . وكان يدخل من باب سَلَم (أو أسلم) ويتصدّق . بساط ، 5 ، ابن قفطي ، 210/2 : تعال معنا إلى ماجل مهرية لنتسلى . . . وكانت داره قريبة من سوق الأحد .

97) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 86 ظ . [طبعة بيروت ، 308/2] .

98) نفس المصدر ، 91 ظ . [طبعة بيروت ، 366/2] .

99) نفس المصدر ، 29 ظ . [طبعة بيروت ، 275/1] .

100) نفس المصدر ، 91 ظ . [طبعة بيروت ، 366/2] ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى القاهرة وتونس وفاس .

101) نفس المصدر ، 72 و . [طبعة بيروت ، 146/2] . المقدسي ، 14-17 : باب سوق الخميس هو أحد أبواب الجامع الأعظم العشرة .

102) بساط ، 5-6 .

وسوق الغَزْل (الخيوط)[103] وسوق الخزّازين (باعة أقمشة الحرير)[104] وسوق إسماعيل التي تحمل اسم إسماعيل تاجر الله وتقع بالقرب من المسجد الكبير الذي بناه ذلك التابعي[105] وسوق الكعك[106] والسوق الكبيرة[107] التي كان يوجد بها بعض الطبّاخين ، وسوق الجواهريّين[108] وسوق الصّيارفة[109] . وغير بعيد عنها توجد في سوق الضّرب (أي السكّة) ، القيصريّة[110] (وهي عبارة عن مستودع عام) . وتقع دار الضرب بجوار باب الطراز[111] . كما توجد أيضاً سوق البزّازين[112] (باعة النسيج) وسوق السرّاجين[113] وسوق الرهادنة[114] (أو الرهادرة أي باعة الأقمشة) الواقعة حسب الاحتمال قرب باب الرهادنة التابع للجامع الأعظم ، وسوق الجزّارين[115] وسوق العطّارين[116] وسوق الطعام (الحبوب)[117] وسوق الزجّاجين[118] . وفي

---

103) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 72 ظ . [طبعة بيروت ، 146/2] **بساط** ، 5-6 ، وقد أكّد المؤلف أن سوق الأحد وسوق الكتانين وسوق الغزل كانت متلاصقة .

104) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 42 ظ . [طبعة بيروت ، 390/1] . وقد ورد فيه ذكر شاب خزّاز . **مخطوط** لندن : الجزارين ، دون ذكر مهنة الشاب .

105) نفس المصدر ، 10 و . [طبعة بيروت ، 407/1] . معالم ، 149/1 .

106) نفس المصدر ، 72 ظ . [طبعة بيروت ، 151/1] .

107) نفس المصدر ، 52 ظ . [طبعة بيروت ، 575/1] .

108) **بساط** ، 5-6 .

109) نفس المرجع ، ابن قنفطي ، 210/2 ، مرّ المهري إلى ناحية القيصرية من سقوق الصيارفة .

110) البكري ، 22 . **نقائش عربية** ، 11/1 الهامش 2 . وأشار برنشفيك إلى وجود قيصرية في كل من تونس وبجاية ، **العهد الحفصي** ، 345/1-347 ، 382 ، 235/2 .

111) **بساط** ، 10 .

112) نفس المرجع ، 5-6 . **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 46 ظ . [طبعة بيروت ، 421/1] .

113) **بساط** ، 5-6 .

114) نفس المرجع . **نقائش عربية** ، 279/1-282 و2 عدد 308 . **العهد الحفصي** ، 364/1 [الترجمة العربية ، 397/1] . وحول الرهادنة/ الرهادرة ، انظر : الإدريسي ، المعجم ، 309 ، ودوزي ، الذيل ، 562/1 .

115) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 44 ظ . [طبعة بيروت ، 405/1] ، ابن **قنفطي** ، 210/2 : مررنا من الجزارين .

116) ابن **قنفطي** ، 210/2 : رومي من سكان (سوق ؟) العطارين .

117) نفس المصدر ، 210/2 . وفي **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 36 ظ : « سوق املار » [حسب قراءة مؤلف هذا الكتاب . أما ناشر طبعة بيروت ، فقد قرأها « سوق إيلان » ، وهي قراءة ظنية ، انظر الطبعة المذكورة ، 338/1 ، الهامش 46] . **نقائش عربية** ، 2/ عدد 318 : قبرية عبد العزيز بن خلف الحريري تاجر بسوق الحريريين (ت . 427 هـ/ 1036) .

118) أبو العرب ، 78 .

العصر الأغلبي تمّ ، حسب الاحتمال ، بناء الحوانيت الجديدة[119] في أقصى الجانب الشرقي من سوق الرهادنة وفي آخر سوق الكتانين . وهي عبارة عن دور قديمة تمّ تحويلها إلى دكاكين وأطلق عليها اسم « الحوانيت الجديدة » . وقد غادر النّاس أسواقهم وانتصبوا في الحوانيت التي أذن الأمير ببنائها[120] .

وأخبرتنا فتوى صادرة عن أحد فقهاء العصر الصنهاجي[121] ، أن الفاطميّين قد بنوا في موقع السجن القديم سوقاً أسموها سوق الحبس وأشار أبو الحسن القابسي إلى هذه السوق قائلاً : إن سوق الحبس جحيم وأسواق صبرة معرّة ، ويبدو أن حبس الزيادة هو السجن الجديد الذي بناه بنو عُبَيْد[122] . وكان فندق (أو فنادق) ابن خيرون مجاوراً للسجن[123] . وأشارت بعض المصادر إلى فندق آخر يقال له فندق الكتّان[124] .

وفي شهر ربيع الأوّل 305 هـ/ 22 أوت ـ 20 سبتمبر 917 م ، « تمّ شأن القاسميّة (نسبة إلى الخليفة الفاطمي أبي القاسم) بالقيروان»، وانتقل إليها التجار وأهل الصناعات »[125] . وفي الإبراهيمية[126] التي لا شكّ أنها كانت تحمل اسم الخليفة الأغلبي إبراهيم الثاني ، كان الناس يشترون الأبْدَان[126م] . وكانت موجودة « على ضفّة الوادي (وادي القصّارين) نوّالات[127] مغصوبة يباع فيها البقل »[127م] .

---

119) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 22 ظ . [طبعة بيروت ، 280/1] .
120) معالم ، 24/2 .
121) فتوى القابسي (ت . 403 هـ/ 1012) ، المعيار ، 431/9 .
122) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 101 ظ .
123) البيان ، 169/1 . رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 64 و . ابن فرضي عدد 1197 ، في ترجمة شخص من قرطبة (ت . 317 هـ) قيل إنه نزل بالقيروان في فندق ابن خيرون .
124) البيان ، 280/1 .
125) نفس المصدر ، 180/1 . وورد ذكر القاسمية في رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 104 و . [طبعة بيروت ، 499/2] .
126) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 101 و . [طبعة بيروت ، 469/2] .
126 م) [أبدان = جمع بَدَن وهو ثوب يصنع عادة من الصوف] .
127) [نوالات = جمع نوالة أي الكوخ لا الدكان ، كما أكد ذلك المؤلف] .
127 م) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 85 ظ . [طبعة بيروت ، 293/2] .

الحمّامــات العمـوميّــة :

كانت القيروان تضمّ أربعة وثمانين حمّاماً عمومياً[128] على أقلّ تقدير ، نخصّ بالذكر منها حمّام النّعمان وحمّام أبي إسحاق ، « جوار درب الأقرع بن بكّار »[129] ، وحمّام الجزّارين ، « ورَبْعُه حبس على القصر الجديد »[129م] ، وحمّام أبي محمّد الذي كان مخصّصاً لذريّة أبي محمد (بن أبي زيد) ، وحمّام ابن العزفي[130] ، وحمّام أبي الربيع الواقع ، حسب الاحتمال ، قرب بـاب أبي الربيع[131] .

الأربـاض :

كان ربض المُبْتلين أو الدِّمنة يضمّ دار الجُذمـاء ، ومأوى المكفـوفين والعُجّـز المعوزين ، ومسجدَيْن يجتمع فيهما النّاس للذكر والدعاء ، وهما مسجد السّبت المبني بالطّوب ومسجد الخميس الذي بناه الزّاهد إبراهيم الدمني (ت. 305 هـ/ 917-918 م) بالقرب من « حارة المرضى » . ولعلّ هذه الدمنة لا تختلف عن دمنة سومة[132] .

كما كان موجوداً بالقيروان أيضاً ربض السدرة[133] وربض الرَّوْحاء[134] الذي يبدو أنه كان

---

128) حسب البكري ، 26 . وأكد صاحب البساط ، 11-12 ، أن هذا الرقم هو دون الواقع ، لأن الإدريسي (ص 110) قد صرح بأن صبرة ـ المنصورية كانت تعد 300 حمام . ولكن أفلا يكون هذا التقدير مبالغاً فيه ؟ على أن الإدريسي قد أوضح أن معظم هذه الحمامات لم تكن عمومية بل كانت موجودة في المساكن الخاصة .

129) **رياض النفوس** مخطوط باريس ، 54 ظ ، 72 ظ ، 102 و . [طبعة بيروت 269/2] ، **معالم** ، 141/2-142 - **مدارك** ، 2-182/3 و .

129م) [**رياض النفوس** ، طبعة بيروت ، 151/2] .

130) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 72 ظ . [طبعة بيروت 151/2] .

131) فتوى القابسي (ت . 403 هـ/1012) ، **المعيار** ، 431/9 .

132) **بساط** ، 10 ، العهد الحفصي ، 368/1 [الترجمة العربية 401/1] ، **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 54 ظ ، 71 - ظ . و . 72 ظ . و . 84 ظ . [طبعة بيروت 138/2] ، **معالم** ، 115/2-117 ، 235 ، 27/3-28 ، 134 . البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب 222 ظ ومخطوط الجزائر 95/1 ظ ، **المعيار** ، 310/309/1 . وفي فتوى صادرة عن القابسي (ت . 403 هـ/1012) ، **المعيار** ، 25/7 ورد ذكر دمنة تقع في مكانٍ ما بإفريقية ويقيم بها أناس غير مصابين بأي مرض يتوارثون ويبيعون الممتلكات ، وبها موضع يقال له الأحباس المحبّسة في الأصل على الجلماء .

133) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 20 ظ . [طبعة بيروت ، 209/1] . **معالم** ، 129/2 ، **بساط** ، 5 .

134) **مدارك** ، 2-22/3 و ، **بساط** ، 5 ، ياقوت ، **البلدان** ، 298/4 ، يعتبر الروحـاء (التي يكتبها روحـة) قريـة تابعـة للقيروان .

قرية مستقلّة بذاتها تقع شمال غربيّ المدينة وربض البقريّة ، وهو حيّ الملاهي[135] .

وكان لليهود سوق وحيّ خاصّ بهم يقال له حارة اليهود أو حارة خيبر[136] ومقبرة تسمّى « اليهوديّة »[137] ، وتقع ، حسب الاحتمال فيما وراء باب أبي الربيع[138] .

وكان هناك خمسة عشر حوضاً خارج المدينة[139] ، لتزويد السكّان بالماء ، منها حوضان كبيران ، أحدهما يقع في الناحية الشمالية بالقرب من باب تونس ويُعرَف اليوم باسم « فسقيّة الأغالبة » ، والثاني يقع بباب أبي الربيع . أمّا ماجل أبي الزمرّد الواقع شرقي المدينة في اتجاه سوسة ، فلعلّه يتمثل في قرية مستقلة بذاتها تقع في ضواحي القيروان[140] . وبالقرب من سوق الأحد يوجد ماجل مهريّة ، وهو عبارة عن حوض أغلبي مُعَدّ للتنزّه ، كان النّاس يتردّدون عليه للتجوّل والفسحة[141] . وكان ماء وادي السّراويل مخصّصاً لتبييض الأقشمة المنسوجة في القيروان والمصنوعة من القطن والكتّان[142] . وكانت تمتدّ شرقيّ المدينة سبخة فسيحة يستخرج منها ملح صافٍ وممتاز .

وكانت تحيط بالقيروان مساحات من الأراضي البالغة الخصوبة ، الواقعة بالخصوص في الناحية الشرقية والجنوبية الشرقية فيما وراء باب سلمَ وباب أصْرَم وباب الريح ، والتي يتكوّن منها فحص الدوّارة[143] . وفي سنوات الرخاء كانت الحبّة تنتج مائة حبّة . وكان الهواء في تلك المناطق نقيّاً وملائماً للصحّة . فكان الطبيب زياد بن خلفون ، كلّما خرج من القيروان متوجّهاً إلى رقّادة ومرّ

---

135) معالم ، 118/2 ، حسب صاحب الرياض. وفي البساط ، 5 ، 23-24 ، ورد أيضاً ذكر ربض المفلس (؟) وربض الريدان (؟) ، وقد سبق أن أشرنا إلى درب زيدان .

136) بساط ، 5-6 . وذكر حسن حسني عبد الوهاب أن الإسرائيليين بالقيروان كان يُطلَق عليهم اسم « خَيْبَري » ، المجلة التونسية ، 1917 ، ص 11 .

137) فتوى القابسي ، المعيار ، 431/9 ، والنص محرف .

138) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 86 ظ ، [طبعة بيروت ، 310/2] : لما خرج أهل القيروان مع أبي يزيد اجتمعوا في الجامع ثم اعترضوا في السماط وضربوا أخبيتهم عند اليهودية .

139) البكري ، 25-26 ، العهد الحفصي ، 373/1 [الترجمة العربية 406/1] . جورج مارسي ، الفنّ المعماري وسولينياك ، المنشآت المائية ، في مواضع مختلفة .

140) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 83 و . [طبعة بيروت ، 267/2] .

144) نفس المصدر ، 44 . [طبعة بيروت ، 404/1] ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 195 ، (Solignac) .

142) سولينياك ، نفس المرجع ، 35 .

143) البكري ، 24 : فحص الدرارة ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 72 ظ . [طبعة بيروت 150/2] : فحص الدوراة ، الشماخي ، 262 : فحص القيروان .

أمام باب أصرم ، إلّا ونزع عمامته ليتلقّى الهواء على أحسن وجه ويحافظ على سلامة صحّته . وفي اتجاه زغوان نجد فحص صالح (المطابق لسهل الفحص الحالي)[144] . ومن الأشياء الجديرة بالملاحظة أنّ الزياتين المحيطة بالقيروان لا تتضرّر قطّ ، مهما قطع أهل المدينة من حطبها لاستعمالها في أغراض منزلية ، حيث لم يكن لديهم أيّ نوع آخر من الحطب[145] .

هذا ومن الصّعب تقدير عدد سكّان القيروان قبل خرابها . وحسب البكري ، أُحْصِيَت الحيوانات المذبوحة في عيد واحد من أعياد عاشوراءِ ، فكان عددها 950 ، باعتبار رؤوس البقر لا غير[146] .

وقد تعجّب المقدسي من رخص الأسعار المعمول بها في القيروان ، قائلاً : يمكن للمرء أن يشتري بدرهم واحد خمسة أمْنَاء (المنى يساوي رطلين) من اللحْم وعشر تينات . ولا فائدة في السؤال عن سعر الزبيب والتمر والعنب والزيت[147] .

وبعد مرور زهاء العشر سنوات على تخريب القيروان من طرف بني هلال تخريباً كاملاً[148] وارتحال معظم سكّانها ، تمثّل تدهورها في بناء سور جديد أقلّ طولاً من السور السابق . فلما تمّ « اختصار » المدينة بقيت دار السّيوري (ت. 460-462 هـ/ 1067-1068 م) خارج السور ، رغم احتجاجه على ذلك[149] . ويبدو أنّ رسم السّور الحالي يرجع عهده إلى ذلك العصر ، على الأقلّ بالنسبة إلى جزء كبير منه[150] . فقد أصبحت القيروان محصورة في الحيّ الغربي وضواحي الجامع الأعظم . كما أصبح باب نافع وباب تونس اللّذان حُوّلا في اتجاه الغرب ، يحتلّان منذ ذلك التاريخ موقعهما الحالي . أمّا السّماط الذي لم يعد هناك أيّ داعٍ لبقائه ، فقد تمّ تعويضه بالشارع الرئيسي (الممرّ) الممتدّ من باب تونس إلى باب الجلّادين[151] .

---

144) المؤنس ، 55 .

145) البكري ، 26 .

146) نفس المصدر ، 60 .

147) المقدسي ، 14-15 .

148) حدّد البكري (26) تاريخ نهب القيروان خطأً بسنة 452 هـ/1060 م .

149) معالم ، 357/1-362 ، العهد الحفصي ، 358/1-360 ، [الترجمة العربية ، 392/1] .

150) العهد الحفصي ، 357/1 [الترجمة العربية ، 391/1] .

151) معالم ، 246/3 : توفي عبد الواحد ابن مفرج التلالسي حوالي سنة 480 هـ « ودُفِن بباب نافع المحدث مجاور لقبر أبي القاسم السيوري من الشرقي » . نفس المصدر ، 257/3 : « البرج الكبير الذي قرب باب تونس المحدث » . نفس المصدر ، 262/3 : « فمشى إلى كدية عند باب الجلادين ، من عادة الناس الجلوس عندها » .

وفي سنة 523 هـ/ 1128-1129 م قدّم كثير من أهل القيروان إلى الإمام المازري الذي وافق على ذلك « محضراً » يتضمّن عزمهم على بيع الموادّ المتأتّية من الأجزاء المتداعية من السور والحصن والأبراج ، وترميم تلك الأبراج التي سقطت سقوفها وأصبحت مهدّدة بالانهيار(152) .

وأشار أحد المصادر إلى وجود « البرج الكبير الذي قرب باب تونس المحدث » ، قبل سنة 580 هـ/ 1184-1185 م ، وقد كانت تقام فيه الصلاة على الجنائز(153) .

صبرة - المنصوريّة(154) :

حوالي سنة 336 هـ/ 947-949 م بنى الخليفة الفاطمي المنصور في صبرة المدينة الأميريّة التي أطلق عليها اسم المنصورية ، وذلك على بعد نصف ميل من القيروان ، على الأرجح . وكان موقع تلك المدينة الذي سُمّي في أوّل الأمر « صلب الجمل » يحتلّ تلاًّ صغيراً . ولعل الأمر يتعلّق بالمُعَلّى التي أشار إليها الحُصْري (ت. 488 هـ/ 1095 م) في إحدى قصائده(155) .

وكانت المدينة ذات الشكل الدائري(156) محاطة بسور مبني بالطوب الموصول بالجير ، ومفصولة عن بناءات القيروان بفضاء فسيح كالطريق(157). وكان التجّار ينتقّلون ذهاباً وإياباً بين القيروان وصبرة على ظهور الحمير .

وكانت لصبرة - المنصوريّة خمسة أبواب مزخرفة بالحديد ، وهي الباب القبلي (الجنوبي) والباب الشرقي ، (ولعلّ أحدهما وبالأحرى الأوّل كان يحمل اسم باب وادي القصّارين) ، وباب

---

152) فتوى المازري ، المعيار ، 154/7 ، الإدريسي ، 110 ، البكري ، 26 .

153) معالم ، 257/3 ـ العهد الحفصي ، 362/1 [الترجمة العربية ، 395/1] .

154) حسب ابن حوقل ، 72/1 ، انتهت أشغال بناء المنصورية آخر يوم من شوال 336 هـ ، البكري ، 58 ، المقدسي ، 16-17 ـ بساط ، 14-15 ـ البلدان ، 336/5 ، 178/8 ، البيان ، 219/1-276-278 ـ ابن حماد ، 24-47 جورج مارسي ، الفن المعماري ، 66 ، 79-81 ـ نقائش عربية ، 87/1 ، الهامش 2 ، سولينياك ، المنشآت المائية ، 262-265 ، 268-272 ـ سليمان مصطفى زبيس ، المهدية وصبرة المنصورية ، المجلة الأسيوية ، 1956 ، 79-93 ـ .

155) ابن بسام ، 1/4 ، 214-215 ـ المنتخب ، 84 ، ابن حماد ، 24 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 271-272 ـ البيان ، 268/1 : درب المعّلى .

156) مثل بغداد .

157) وبلا شك فقد بُني هناك الفصيل وجدارُيه سنة 444 هـ/1052-1053 م .

158) المقدسي ، 16-17 ، البكري ، 25 ، البيان ، 219/1 : في سنة 336 هـ بنى الخليفة الفاطمي المنصور المنصورية واستوطنها . « وخلت أكثر أرباض المهدية وتهدمت . ونقل أبو الطاهر سوقة القيروان إلى صبرة . وكان لها أربعة أبواب » .

زويلة وباب كتامة في الناحية الشمالية ، وباب الفتوح الذي كان يمرّ منه الأمير وجنوده متوجّهين إلى الحرب[159] .

وقد أشارت بعض المصادر[160] إلى بناء سور المنصوريّة في سنة 437 هـ/ 1045-1046 م . فهل كانت المدينة قبل ذلك بلا سور ، أم أهلّ أنّ الأمر يتعلق بترميم السور القديم ؟ ومهما يكن من أمر ، فإن أحد أبواب « مدينة عزّ الإسلام » كـان يحتوي عـلى نقيشة[161] مؤرّخـة في سنة 437 هـ/ 1045-1046 م ، ممّا يؤكّد صحّة الإشارة السابقة . وفي سنة 441 هـ/ 1049-1059 م ، « بُني المصلّى بالمنصوريّة »[162] . والجدير بالتذكير في هذا الصّدد أنّ المعزّ ، لمّا بنى سور القيروان سنة 444 هـ/ 1052-1053 م ، وصله بسور المنصورية[163] .

وقد أُقيم قصر الخليفة الفاطمي المنصور وسط المدينة[164] . وبنى المعزّ لدين الله الحنايا[165] وعدّة قصور مزدانة بالبساتين والأحواض . ومن بين المباني والقصور التي شيّدها الفاطميّون[166] ، نشير بالخصوص إلى قصر الماء[167] والإيوان والخَوَرْنَق[168] ومجلس الكافور ومجلس الرّيحان وحُجْرة التاج وحجرة الفضّة وقصر الخلافة[169] والمعزيّة .

وفي سنة 376 هـ/ 986 م ، بنى الأمير الصنهـاجي المنصور قصـراً بديعـاً[170] . وفي سنة 378 هـ/ 988-989 م ، « دخل الوادي إلى المنصوريّة وهدّم دورها »[171] .

---

159) ربما في اتجاه رقادة حيث كانت تتجمع جيوش بني زيري .

160) البيان ، 276/1 .

161) نقائش عربية ، 87/1-90 .

162) البيان ، 278/1 .

163) انظر الفقرة السابقة : الأبواب والأسوار .

164) حسب المقدسي .

165) سولينياك ، المرجع السابق ، 265 ، المعز ، 208-209 .

166) ابن حماد ، 24-47 ، المؤنس ، 82 ، جورج مارسي ، الفن المعماري ، 79-81 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 269 .

167) انظر وصف الشاعر علي ابن الأيادي لهذا القصر ، المنتخب المدرسي 46-47 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 268-269 ، المعز ، 207-208 .

168) ربما بسبب الاشتباه بين الخليفة الفاطمي (المعز لدين الله) والأمير الصنهاجي (المعز بن باديس) ، نسب صاحب المؤنس ، 82 ، إلى هذا الأخير بناء الإيْوان الأعظم والخورنق .

169) لعله قصر المنصور .

170) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني (ولاية المنصور) .

171) البيان ، 244/1 .

وكانت المنصوريّة تضمّ ثلاثمائة حمّام ، معظمها موجود داخل البيوت الخاصّة[172] ، كما تضمّ مسجداً جامعاً وأسواقاً مزدهرة وشوارع فسيحة[173] .

وحسب البكري ، كان الجُباة يستخلصون كل يوم في باب واحد من أبواب المدينة 26000 درهم ، بعنوان رسوم الدخول[174] .

وفي سنة 407 هـ/ 1016 م ، شهدت صبرة ـ المنصوريّة اضطرابات داخليّة موجّهة ضدّ الشيعة . وقد دُمّرت دار الإمارة وحُرِقَت الأسواق[175] . وبعدما خرّبها بنو هلال ، لم تنبعث من جديد .

ضواحي القيروان :

كانت توجد الرّوحاء[176] في النّاحية الشمالية الغربية من القيروان وصَدَف[177] في النّاحية الجنوبية الشرقيّة ، وتشير قبريّة مؤرّخة في 425 هـ/ 1033 م[178] إلى وجود بلدة تسمى العَلَم (وهي ما زالت قائمة الذات إلى يومنا هذا) ، تقع على بعد 25 كلم شمالي القيروان . ولا شكّ أنه لم يبق عهدئذ أيّ أثر يذكر للمراكز العمرانية الأغلبيّة السابقة مثل العبّاسية ـ القصر القديم[179] والرُّصافة[180] ورقّادة . إلاّ أن المنصور قد أقام برقّادة التي لم تبق منها إلاّ البساتين ، وبنى بها جامعاً ومصلّى سنة 374 هـ/ 984-985 م . كما أقام بها خليفته باديس[181] .

---

172) الإدريسي ، 110 ، بساط ، 14-15 .

173) بساط ، 14-15 .

174) البكري ، 25 .

175) انظر الفصل الثاني من الباب الثالث .

176) حسب خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة الواردة في صفحة 77 ، وقد رُسِمَت فيها الروحاء شمال غربي القيروان ، رغم ما جاء في رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 15 و . [طبعة بيروت ، 361/1] ، من أن شخصاً قد سار من باب أبي الربيع (الباب القبلي) إلى منزله بالروحاء ، واجتاز بلا شك كامل المدينة . البلدان ، 298/4 : الروحة قرية من قرى القيروان .

177) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، بئر صرف في الوقت الحاضر . رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 82 ظ . [طبعة بيروت ، 187/1] ، صدف اسم قبيلة يمنية .

178) نقائش عربية ، 1/ عدد 291 ص 419-420 .

179) دائرة المعارف الإسلامية (2) 24/1-25 (عبد الوهاب) .

180) بساط ، 13 ، البكري ، 28 .

181) أمر المعزّ لدين الله بحرث موقع رقادة باستثناء البساتين . البكري ، 27-28 ـ البلدان ، 267/4-268 ـ الإدريسي ، 130/3 المؤنس ، في مواضع مختلفة ، بساط ، 13-14 ـ سولينياك ، 233-235 .

وكان المسافر الذي ينطلق من القيروان[182] ، يسلك الطريق الرابطة بين رقّادة والقصر القديم ، فيمرّ أوّلاً من المُنية المعروفة[183] ، وهي بلدة ذات أهميّة ، ثم زرود[184] ، وهي بلدة تنتج كثيراً من البقول ولا سيما الجَزَر ، وأخيراً قلشانة[185] الواقعة على بعد 12 ميلاً جنوب شرقي القيروان . وهي مدينة هامّة بها جامع[186] وحمّام عمومي وزهاء العشرين فندقاً ، وتحيط بها البساتين وأشجار التّين التي تزوّد القيروان بثمارها . ويقال إنّ أهلها قد جعلوا لبيوتهم أبواباً واطئة جدّاً إلى درجة أن الدوابّ لا يستطيعون اجتيازها ، وذلك لمنع العُمّال والجباة من دخولها . وفي قلشانة كانت تتوقّف القوافل القادمة من القيروان أو المغادرة لها لشحن وتفريغ البضائع . ولم تذكر لنا المصادر هل تمّ فيما بعد أم لا ، تجديد سور المدينة المبني بالطوب والطين ، الذي كان قد هدّمه زيادة الله [الأغلبي] إثر ثورة منصور الطنبذي[187] .

وفي الناحية الجنوبية الشرقية من القصر القديم كانت توجد منية الخيل[188] ، وفي الناحية الجنوبية الغربية دوران[189] . وعلى بعد حوالي عشرين كلم جنوب شرقي القيروان تقع قرية يقال لها : بُطْنة[190] . وفي الطريق الرابطة بين القيروان وقابس نجد المراكز العمرانية التالية : قلشانة ، وغدير الأعرابي وعين الزيتونة[191] .

وقد مرّ شخص متوجّه إلى سوسة من ماجل أبي الزمرّد ، ثم مال إلى قصر القبرياني فبات

182) البكري 28 .

183) نفس المصدر ـ سولينياك ، المرجع السابق ، 228-229 ، منية تعني مدينة النزهة .

184) البكري ، 28-29 وبساط ، 15 : زرور . وحسب الإدريسي ، 103-105 ، لا يتعلق الأمر بزرود الواقعة في ضواحي القيروان ، بل يتعلق ببلدة تقع على بعد خمس مراحل من قفصة في اتجاه جبل نفوسة . ولعل المؤلف المطلع أكثر على المدن الساحلية قد أخطأ . وعلى كل حال فإنه لم يذكر قلشانة . ويوجد في تلك المنطقة وادٍ يسمى زرود .

185) اليعقوبي ، 208 ، البكري ، 29 ، المقدسي ، 66-67 ، أبو العرب ، الترجمة 75 ، معالم ، 167/1 ، نقائش عربية ، 2/عدد 306 الهامش 3 ، البلدان 147/7 .

186) في عصر سحنون كانت قلشانة أهم من المنستير وسوسة وصفاقس والأربس . وقد أضفى عليها هذا الإمام صفة « مصر » ، التي لم يخص بها المدن السابقة الأخرى ، زروق وابن ناجي ، شرح الرسالة ، 346/1 .

187) اليعقوبي ، 347-348 . وفي المعيار ، 216/2 نجد فتوى صادرة عن البرقي فيها إشارة إلى خصومة نشبت بين صفّيْن من القلشانيين ، يضم الصف الأول المدعو محمد بن عبد الحميد وأقرباءه ويسمى الصف الثاني أولاً مرق الأرض .

188) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، سولينياك ، المرجع السابق ، 24 .

189) الخلاصة ، نفس المرجع .

190) نقائش عربية ، 161/1 والهامش 3 ، قرب سيدي علي بن سالم .

191) اليعقوبي ، 347-348 .

به . وفي الصباح استأنف طريقة محاذياً الساحل إلى أن وصل إلى قصر الحمّامات حيث توقّف ليلة ثانية[192] . ومن بين المراكز العمرانية الأخرى الواقعة في ضواحي القيروان ، نشير بالخصوص إلى قرية الحُصْرُ[193] وخُشَن[194] والحريريّة[195] وقَلُوت الواقعة في الناحية الشرقية[196] وقرية بني تميم[197] الواقعة حسب الاحتمال قرب قلشانة .

قمّودة :

تقطع منطقة قمّودة المزدهرة (تاكمودة في العصر القديم)[198] بين مناطق سبيبة والقيروان وصفاقس وقفصة ، وتشتمل على عدد كبير من المدن والقرى .

ففي المنطقة الواقعة بين قفصة وماجن الفجّ ، توجد مدينة طراق الهامّة التي تضم مسجداً جامعاً وسوقاً مزدهرة وتصدّر الأنسجة الصوفيّة إلى كلّ مكان ، حتى إلى مصر ، وتحيط بها البساتين المشتملة على عدد وافر من أشجار الفستق[199] . ويوجد في بلدة ماجن الفجّ (فجّ الحمار أو الحمام) المحاطة بالبساتين فندق وحوض كبير[200] . كما توجد في الناحية الشمالية بلدة الحوريّة (تلابت في العصر القديم)[201] . وتقع شمالي الفجّ مدينة مذكور (أو مذكورة) التي حلّت منذ عهد بعيد ، بلا شكّ ، محلّ سبيطلة ، قاعدة تلك المنطقة . وقد كانت تضمّ مسجداً جامعاً وعدداً

---

192) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 83 و . [طبعة بيروت ، 2/267-268] .

193) المنتخب ، 60 . بساط ، 15 .

194) البلدان ، 3/442 ، شذرات ، 3/39 ـ وهي البلدة التي يُنْسَب إليها الخشني صاحب الطبقات (ت . 361 هـ/972) .

195) المؤنس ، 55 ، توجد ضاحية من ضواحي مدينة تونس تحمل نفس الاسم ، مناقب ، 326 .

196) الشماخي ، 261 .

197) اعتماداً على كتاب أبي عبيد البكري وكتاب الحسن بن محمد المهلبي ذكر ياقوت ، البلدان ، 6/291 ، غزة وقال إنها بلدة في إفريقية على بعد مسيرة 3 أيام من القيروان تحط بها رحالها القوافل المتجهة إلى الجزائر (؟) .

198) حسن حسني عبد الوهاب ، كراسات تونس ، 1954 م عدد 5 ص 16-5 ـ الأغالبة 61 ـ نقائش عربية ، 1/381-382 ـ الهامش 5 .

199) البكري ، 47 ـ البلدان : طراق ، 6/38 ـ قفصة ، 7/138 . وأكد حسن حسني عبد الوهاب في المرجع السابق أن هذه البلدة تقع في المكان المسمى حوانت الحواكة قرب هنشير بو علم ، في منتصف الطريق الرابطة بين قفصة وماجن الفج .

200) البكري ، 47-75 ، حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع المذكور ، و . البلدان ، 6/38 .

201) البكري ، 75 .

كبيراً من المساجد والحمّامات والفنادق والأسواق وعيون الماء ، وتحيط بها من كلّ جانب الأشجار المثمرة ، لا سيما منها أشجار التين التي كانت تزوّد بثمارها المجفّفة القيروان وسائر المدن الأخرى . وقد بلغ تين مذكور من لذّة الطّعم ما جعله يباع بأسعار أغلى من أسعار الأنواع الأخرى[202] .

ولعلّ بلدة قصيرة غير المعروفة التي اعتبرها ابن حوقل مستقلّة بذاتها لم تكن سوى تسمية أخرى لمدينة مذكور ، حسب رأي الإدريسي ، أو بالأحرى اسم حارة من الحارتين التابعتين لها[203] .

وبعيداً في اتّجاه الشمال ، نجد مدينة جمونس (وكثيراً ما تسمّى جمونس الصابون) التي يبدو أنها مطابقة لبلدة بئر الحفيّ الحالية . وهي مدينة من أكبر مدن ذلك الإقليم ، تشتمل على مسجد جامع وسوق مزدهرة وحمام عمومي وقصر مُستَعمل كمستودع عامّ ، ويحيط بها عدد كبير من القرى الزاهرة والبساتين المغروسة بالزيـاتين وأشجـار التين واللّوز[204] . وتوجـد شرقيّ قصـيرة بلدة نقاوس[205] .

ولم يُشر سوى المقدسي إلى قرية كبيرة من قرى قمّودة ، أطلق عليها اسم خَوْر الكاف[206] . وقد حاولنا تعريفهـا بمجدول التي لم يذكرها هذا المؤلّف[207] . وهي قرية كبيرة تبعد بنفس المسافة عن جمونس والساحل وتقع بالقرب من السبخة التي تحمل نفس الاسم ، وكان يقيم في تلك الجهة الزناتيون[208] . وأخيراً توجد في ما وراء تلك المنطقة في اتجاه القيروان ، قرية لبني دعّام المطابقة

---

202) اليعقوبي ، 349 ، ابن حوقل 94/1 : مذكور التي يبدو أنها عُوِضَت فيها بعد بمذكـود (حسب الناشر) ، البكـري ، 153 : مذكود ، وحسب حسن حسني عبد الوهاب (المرجع المذكور) ينبغي البحث عن موقع هذه المدينة في أطـلال سيدي علي بن عون أو من ناحية ماجن السماوي وسليسة . .

203) ابن حوقل ، 94/1 (الطبعة الأولى 67) ، الإدريسي ، 105 ، البلدان : قفصة ، 138/7 ، لقد أهمل حسن حسني عبد الوهاب (المرجع السابق) شهادة الإدريسي واقترح تحديد موقع قصيرة في أطلال قصور سيدي عيش .

204) البكري ، 75 ، ابن حوقل 94/1 : كمونس الصابون ، وجعل المقدسي ، 18-19 ، من جمونس قاعدة قمودة .

205) ابن حوقل ، 1-94 : نفايض، ابن حوقل ، الطبعة الأولى 67 : نقاوس . وذكر الإدريسي (ص 105) : نقاوس كما أوضح أن جمونس ونقاوس تقعان شرقي قصيرة = مذكورة (أو قفصة ؟) . وفي فتوى صادرة عن القابسي ، المعيار ، 415/2-41/7 ورد ذكر منزل يسمى جسطة (؟) يمكن أن يكون موجوداً في تلك النواحي .

206) المقدسي ، 18-19 .

207) ومن يدري لعل الأمر يتعلق ببلدة مزدوجة : خَوْد الكاف ـ مجدول . والجدير بالملاحظة أن البكري ، 75 قد أكد أن مجدول تشبه جمونس الصابون .

208) البكري ، 75 ، البربر ، 295/2 ، البلدان ، 388/7 ، مدارك ، 2-29/3 و ـ العهد الحفصي ، 304/1 ، الخلاصة الخريطة ص 77 . حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ، 11 . إن بحيرة مجدول التي أشار إليها البكري مطابقة لقرعة مجدول الواقعة بين جبل سيدي خليف والطريق الرئيسية عدد 20 .

لبلدة سيدي علي بن نصر الله الحالية[209] .

وقد خرّب بنو هلال منطقة قمودة وقفصة بتمامها وكمالها[210] .

زغــوان :

كانت منطقة زغوان (زيكة في العصر القديم) غزيرة المياه وعامرة بالقرى والبساتين . وكانت تُعتبَر المكان المفضّل بالنسبة إلى المتنسّكين[211] .

جبـل وســلات :

لقد ظلّ جبل وسلات الواقع غربي سهل القيروان بين أيدي مزاتة الإباضيين[212] حتى حلول بني هلال في تلك المنطقة المرويّة إلى أبعد حدّ . وقد كانت في عصر الإدريسي مغطّاة بالزراعات وآهلة بالسكّان البربر المتعاطين لتربية البقر والغنم والبغال والخيل . وقد أصبح الأعراب الذين أبعدوهم إلى الجبال يسيطرون على السهل . وكان جبل وسلات يضمّ عدداً كبيراً من الحصون ، نخصّ بالذكر منها حصن الجوزات وحصن تيفاف وحصن القيطنة ودار إسماعيل ودار الدوابّ[213] .

وعلى بعد مسيرة يوم غربيّ القيروان ، توجد مدينة جلولة في الناحية الشمالية (كولوليس في العصر القديم)[214] . وهي مدينة صغيرة محصّنة ومحاطة بالبساتين والنخيل ، تقع في مكان كثير الأطلال ، ولذلك بُنِيَت بالحجارة ، وقد تسبّبت وفرة الياسمين في شهرة عسل جلولة . كما كان

---

209) البكري ، 75 ، حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ، 11 .

210) الاستبصار ، الترجمة ، 76 .

211) البكري ، 46 ، الإدريسي ، 119 . ويلحق البكري بمنطقة زغوان فندق شَكْل ، وهي قرية كبيرة تبعد مرحلة على تونس وقرية قلمجنة (؟) التي أسسها أبو القاسم بن عُبَيْد الله لإقامة بعض المتسولين من هوارة ونفوسة .

212) سولينياك ، المرجع المذكور 61-62 ـ البرزلي ، مخطوط عبد الوهاب 94 ـ و ـ ظ . وقد ذكر أن جبلْ وسلات كان في عصره خارجاً عن القوانين الإسلامية ، « لا تناله الأحكام الشرعية » ، الشماخي ، 292 : فتوح بن أبي حاجب الوسلاتي المزاتي .

213) الإدريسي ، 119-120 ـ مقديش ، نزهة الأنظار ، الطبعة الحجرية ، 38/1 [طبعة بيروت ، 126/1] ـ العهد الحفصي ، 304/1 [طبعة بيروت ، 335/1] .

214) ابن حوقل ، 86/1 ، البكري ، 31-32 ، الإدريسي ، 120 ، البلدان ، 129/3 ، الحلل ، 83/1-85 ـ العهد الحفصي ، 304/1 [طبعة بيروت ، 335/1] . الخلاصة ، خريطة ص 77 ، بساط ، 14 .

يزرع في تلك المنطقة قصب السكر أيضاً . وكانت الثمار والبقول تُنقَل كلّ يوم إلى القيروان بكمّيات وافرة . وكان يقيم في البساتين المحيطة بالمدينة أقوام تابعون لقبيلة ضريسة .

وعلى بعد مسافة قليلة ، يقع شمالي جلولة منتزه سردانية الذائع الصيت[215] ، وقد كان يُعتَبر أحسن مُقام في إفريقيّة . إذ كان ينتج الثمار اللذيذة والورد والياسمين وقصب السكر ، وكان يعدّ زهاء الألف شجرة أترنج . وقد أُطلق على هذا المنتزه اسم سردانية ، نسبةً إلى جالية أجنبية قدمت من جزيرة سردانية إلى تلك المنطقة واستقرّت بها على الأرجح قبل قيام الدولة الفاطميّة .

وفي الناحية الغربيّة والغربية الشمالية من القيروان ، كانت توجد بعض الأماكن التي تعيد إلى الأذهان ذكرى العرب التجوبيّين الذين أقاموا في السابق في تلك المنطقة[216] .

وعلى بعد مسيرة يوم ، جنوب غربي جلولة تقع بلدة أجّر (أُغار في العصر القديم)[217] . وهي ، حسب الإدريسي ، بلدة جميلة تحيط بها الحقول المزروعة قمحاً وشعيراً . ويؤكد البكري من جهته أن ضواحي أجّر ، كانت تقيم بها بعض القبائل العربية والسكان البربر التابعون لقبيلتَيْ ضريسة ومرنيسة .

ولم نتمكّن من تحديد موقع مرنيسة التي قيل إنها بلدة بدون سور مبنيّة بالطوب . وقد أكّد المقدسي أنها تقع بين قرنـة وممّس[218] . فهل لا يتعلّق الأمر بمدينة أجّر ذاتها التي قد يكون أُطلِق عليها اسم قبيلة من أهمّ القبائل البربريّة المستقرّة في تلك المنطقة ، أي قبيلة مرنيسة ؟ وفي المنطقة الواقعة بين أجّر والأربس ، وعلى بعد مسيرة يومين من هاتين البلدتين ، نجد طاقجنّة[219] ، أو طاجنّة[220] ، أو طافجنّة[221] . وهي قرية تقع وسط سهل فسيـح وتوفّـر للسكّان ، في نـاحية الأربس ، الحنطة والشعير .

---

215) البكري ، 32 ، العبر ، 419/6 ، المؤنس ، 25 ، 62-63 ، حلل ، 83/1-85 ، نقلاً عن ابن الشباط . وقد بقي ذكر هذه القرية عالقاً بالمكان المسمى هنشير سردانية ، بساط ، 14 .

216) سولينياك ، المرجع السابق ، 163 ، الهامش 74 .

217) ابن حوقل ، 86/1 ، الإدريسي ، 120 .

218) المقدسي ، 4-5 ، 18-19 ، ومرنيسة هو اسم قبيلة بمنطقة تازة ، انظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، 335/3 ، البكري ، 90 ، 94 .

219) ابن حوقل ، الترجمة 223 .

220) الإدريسي ، 120 ، الترجمة ص 140 ، الهامش 2 : قلمجنة (حسب البكري) وطاقجنة (حسب ابن حوقل) وطاجنة (حسب الأدريسي) ونستخلص من ذلك القراءة الظنية . تاجنة .

221) ابن حوقل ، 86/1 .

مدينـة تونــس :

لقد تطوّرت مدينة تونس[1] تطوّراً كبيراً وازدادت تألّقاً في عهد بني زيري وبني خراسان ، وزاد خراب القيروان في نهضتها . فأضيف إلى المدينة العتيقة ربضان كبيران ، هما ربض بـاب السويقة في الناحية الشمالية وربض باب الجزيرة في الناحية الجنوبيّة . وقد أشارت بعض المصادر إلى وجود مجاري المياه المكشوفة في شوارع المدينة ، ممّا كان يتسبّب في عرقلة حركة المرور ، ربّما من أجل تكاثر السكّان[2] .

ويقال : إن سور تونس قد جُدِّد في عصر سيدي محرز [ابن خلف][3] . وقد أكّد البكري أنّ لتونس خمسة أبواب ، ولكنّه لم يذكر منها سوى أربعة وهي : باب الجزيرة (جزيرة شريك) في الناحية الجنوبية الشرقية ، وباب قرطاجنّة في الناحية الشمالية الشرقية وباب السّقائين في الناحية الشمالية وباب أرطة في الناحية الغربيّة . أما الباب الخامس فهو على الأرجح باب البحر[4] .

وكانت توجد قرب باب أرطة مقبرة سوق الأحد ، ويوجد خارج المدينة ، بجوار ملاّحة كبيرة ، ربض المرضى الذي يبدو ، كما يدلّ على ذلك اسمه ، أنه كان مخصّصاً للجذماء[5] .

وقد أُنجِزَت طوال الفترة المعنيّة بالأمر ، أشغال هامّة بجامع الزيتونة الأعظم فيما بين 380 و 385 هـ/ 990-996 م وهي أروقة الصحن وقبّة باب البهو . كما أنشىء باب جديد في الرّواق الشرقي سنـة 457 هـ/ 1064-1065 م ، وباب آخـر يفتح عـلى سوق العـطارين سنة 474 هـ/ 1081-1082 م[6] .

---

1) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 73/1 ، اليعقوبي ، 348-349 ، البكري ، 37-41 ـ المقدسي ، 5-4 ، 52-53 ، 64-65 . الاستبصار ، الترجمة 18 ، الإدريسي ، 111-112 ، المؤنس ، 6-10 ، 274-275 ـ مقديش ، 34/1-35 [طبعة بيروت ، 117/1-120] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 881/4-881 (برنشفيك) ، جورج مارسي ، تونس والقيروان ، باريس 1937 ـ برنشفيك ، العهد الحفصي ، 338/1-357 ، [الترجمة العربية ، 369/1-389] .
2) حسب المازري (ت . 536 هـ/1142 م) ، محمد الطالبي ، أرابيكا ، 296/3 .
3) مناقب ، 183-341 .
4) البكري ، 39-40 ، العهد الحفصي ، 340/1-342 [الترجمة العربية ، 371/1-373] ، ورد في أعمال ، 445 ذكر باب القيروان وباب الجزيرة في العصر الأغلبي ، وذكـر الإدريسي ، 111 ، خطأ لا محالة أن لتونس ثلاثة أبواب .
5) البكري ، 40 .
6) زبيس ، نقائس ، 1/ عدد 5 ، 6 ، 16 ، 17 ، ص 31-34 ، 37-41 ـ جورج مارسي ، الفن المعماري ، 71-72 العهد الحفصي ، 348/1 [الترجمة العربية 380/1] .

وانقرض عهدئذ قصر بني خراسان[7] . ويمكن تحديد تاريخ جامع القصر الذي ربّما كان تابعاً له بأوائل القرن السادس هجري ، (حوالي سنة 1106 م)[8] . كما شُيِّدَت في حدود سنة 486 هـ/ 1093-1094 م في وسط مقبرة لا تبعد كثيراً عن نهج سيدي بوخريصان الحالي ، قبّة بني خراسان ، وهي عبارة عن تُرْبة تضمّ أضرحة أعضاء تلك الأسرة[9] . وسيُطْلَق عليها فيما بعد اسم سيدي ابن نفيس ثمّ السلسلة[10] . ويرجع تاريخ بعض المعالم الدينيّة الأخرى إلى ذلك العصر ، مثل زاوية سيدي عبد العظيم[11] ومسجد المهراس[12] ومسجد عبد الله الواقع قرب الميناء[13] .

ولم نعثر على أيّ إشارة حول أسماء شوارع مدينة تونس في العصر الصنهاجي . ولعلّنا سنكتشف البعض منها بفضل إجراء دراسة مدقّقة في هذا الشأن[14] .

وكانت السّفن لا تستطيع الوصول إلى ما وراء القنال ، فيتمّ تفريغها حينئذ في موضع اسمه « وقور » ، ثمّ تنقل البضائع إلى المدينة بالزوارق[15] . وكانت تتحكّم في دخول الميناء سلسلة ممدودة بين سور مبنيّ بالحجارة في الناحية الشمالية وبين خزّان مبني أيضاً بالحجارة في الضفّة الجنوبية يقال له قصر السلسلة[16] . وقد أشار البكري إلى وجود قصر متهدّم في جزيرة شكلة (شكلي في الوقت الحاضر)[17] .

ويبدو أنّ ازدهار مدينة تونس لم يتقلّص قطّ . فقد اشتهرت ببواقيلها وصحونها الملوّنة وفخّارها المماثل للخزف المستورد من العراق ، وخوخها وثمارها . وحسب ابن حوقل كان إقليم

7) جورج مارسي ، المرجع السابق 89 .

8) نفس المرجع ، 75 ، ابن الخوجة ، معالم التوحيد ، 96-98 [طبعة بيروت ، 165] .

9) جورج مارسي ، المرجع المذكور ، 75-76 ، زبيس ، نقائش ، 1/ عدد 19 ، 42-43 .

10) زبيس ، المرجع المذكور ، 1/ عدد 8 ، 50-51 .

11) نفس المرجع ، 1/ عدد 19-57 ، عبد العظيم بن عبد الله التنوخي الزيّات (ت . 495 هـ/1101-1102 م) . توجد هذه الزاوية المتداعية بسوق السكاجين عدد 39 مكرر.

12) نفس المرجع 1/ عدد 18 ، 41-42 ، نهج جامع الزيتونة (نهج الكنيسة سابقاً) عدد 1 مكرر وبه نقيشة تأسيسه من طرف أبي محمّد عبد العزيز عبد عبد الحقّ بن خراسان مؤرخة في 485 هـ/1092-1093 م .

13) البكرّي ، 39 .

14) تفضل السيد حسن حسني عبد الوهاب بإعلامنا بوجود شارع بالقرب من نهج عاشور (حيّ سيدي محرز) يحمل اسم « نهج القرمطّور » ولعله تحريف لاسمْ : شارع القرمطي .

15) الإدريسي ، 111-112 [ومقديش ، نزهة الأنظار ، طبعة بيروت ، 120/1] .

16) البكري ، 39 .

17) نفس المصدر ، 39 .

تونس ينتج نوعاً ممتازاً من القطن الذي كان يُصدَّر إلى القيروان . وكان ينتج أيضاً القنّب والكرويّة والقرطم والعسل والسّمن والحبوب والزيت وعدداً كبيراً من الأنعام .

ضواحي مدينة تونس :

أشارت المصادر إلى وجود التجمّعات السكنيّة التالية في ضواحي مدينة تونس ، وهي قرية الفول والخضراء وطراقش ومـاينة وقـرية الحَـمّام (أو الحَمّام) وشـبركة[18] وقـرية الجبّـاسين[19] والحريريّة[20] ومنزل خارجة الواقع في سهل عتيقة (أوتيك)[21] . كما ورد فيها ذكر أريـانة[22] ومنّوبـة [23] في العصر الصنهاجي . وأبعد من ذلـك تقع في الجهـة الشماليـة الغربيـة ، ربّما في ضواحي الجديّدة ، باجة تونس[24] وطبرية ، (توبربو مينوس في القـديم) ، وقد كـانت مأوى بعض المغامرين من بني هلال[25] . وكانت طنبذة القديمة الواقعة جنوبي سبخة السيجومي تسمّى منذ ذلك العهد بالمحمّدية[26] ، [وهي ما زالت قائمة الذات إلى يـومنا هـذا] . وخلف تلك المنطقة نجـد على التـوالي ، من الشمال إلى الجنـوب ، أوذنة[27] (أوثينـة في العصر القديم) ،

---

18) مناقب ، 150 . والبلدان ، 41/6 وفيه إشارة إلى طرطايش وهو اسم إفريقي ، لعله تحريف لاسم طراقش .

19) مناقب ، 154 .

20) نفس المرجع ، 158

21) المرجع المذكور ، 118 ، 120 ، 150 .

22) نفس المرجع ، 111-112 ، 123 ، 142 ، 153 . وحول بطن إباضي اسمه أريان ، انظر الشماخي ، 373 .

23) نفس المرجع ، 117 .

24) خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، إحدى المدن الإفريقية الثلاث التي تحمل اسم باجة . والمدينتان الأخريان هما : باجة الزيت الواقعة شمال شرقي الجمّ وباجة القمح ، وهي مدينة باجة الحاليّة الواقعة في منطقة وادي مجردة . مناقب ، 103 ، 112 ، 114 ، أقام سيدي أبو سعيد الباجي في أوّل الأمر بباجة ، وهي بلدة تقع غربي مدينة تونس ، وقد وُلِد بها سنة 551 هـ . وعلّق السيد حسن حسني عبد الوهاب بخط يده على « مجموعة المناقب » التي على ملكه بهذه العبارة : « غير باجة القمح ، إنما هي باجة منّوبة » .

25) العهد الحفصي ، 300/1 ، [الترجمة العربية ، 331/1] .

26) البكري ، 38 ، رحلة التجاني ، 8-9 ، العهد الحفصي ، 301/1 [الترجمة العربية ، 332/1] .

27) الخلاصة ، الخريطة ص 77 . وأشار المقدسي إلى هذه البلدة الواقعة بين لانس (؟) وقلانس (؟) .

وشاذلة[28] وسمنجة[29] . وحسب شهادة البكري يوجد غير بعيد عن تلك المنطقة فندق شكل ، وهو عبارة عن قرية كبيرة تبعد عن مدينة تونس مسيرة يوم ، ثمّ قلمجنّة التي بناها ـ كما أسلفنا ـ أبو القاسم بن عبيد الله المهدي وخصّصها لإقامة الشحّاذين الغرباء القادمين من بلاد هوّارة ونفوسة[30] .

ونجد على شاطىء الساحل جنوبي مدينة تونس أوّلاً رباط رادس القديم (مكسولا في العصور القديمة) ، وهو ميناء كبير كان موجوداً في عصر البكري ولكن الإدريسي لم يذكره[31] . وخلف تلك المنطقة ، في المكان الذي تقع فيه بلدة حمّام الأنف (أو حمة شريك ، أو حمّة الجزيرة أو الحامّة ، فارو في العصر القديم) ، أشارت المصادر إلى وجود رباط اسمه قصر الحامّة ، وميناء اسمه مرسى الحامّة[32] . وفي قرية بني صلتان[33] كانت تقام سوق عموميّة .

أمّا في المنطقة الداخليّة ، فكان يمتد سهل مرناق الذي يقال إنه كان يشتمل في عهد الفتح الإسلامي على ما لا يقلّ عن 360 قرية[34] . وممّا لا شكّ فيه أنّه كان يضمّ في العصر الصنهاجي عدداً كبيراً من القرى . كما أشارت بعض المصادر إلى وجود بلدة إبيانة[35] وقرية بني فراس[36] الواقعة في ضواحي تونس .

---

28) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 وتقع هذه البلدة في مكان سيدي علي الحطاب وينسب إليها أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية .

29) نفس المرجع .

30) البكري ، 37-46 .

31) نفس المصدر ، 37 ، 38 ، 84 ـ **العهد الحفصي** ، 301/1 [الترجمة العربية ، 332/1] . بيل (Bel) ، **بنو غانية** ، 81 ، الهامش 1 .

32) البكري ، 84 ، ح . ح . عبد الوهاب ، تحيّة وليام مارسي ، 2-3 ـ **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 93 ـ و . [طبعة بيروت ، 377/2] ، **رحلة التجاني** ، 10 ، **العهد الحفصي** ، 301/1 ، [الترجمة العربية ، 332/1] .

33) **رياض النفوس** ، 93 و . [طبعة بيروت ، 382/2] ، دائرة المعارف الإسلامية 1936 ، 297 ، ح . ح . عبد الوهاب ، المرجع المذكور [رحلة التجاني ، 22] .

34) البكري ، 37 .

35) **مدارك** ، 166/3-2 ظ ، ح . ح . عبد الوهاب ، المرجع المذكور ، 11-13 يمكن تحديد موقعها بالمكان المعروف باسم خاربة برج الخلادي .

36) **المنتخب المدرسي** ، 57 .

وشمالي هذه المدينة كانت توجد بعض القرى الأخرى نخصّ بالذكر منها قصر الأمير الذي يبعد عن تونس ثمانية أميال ، ويبدو أنه مطابق لحلق الوادي ، ومرسى قرطاجنّة[37] والمعلّقة الكائنة في موقع قرطاجنّة والمحاطة بسور من الطوب ، وقد كانت مأوى لبني زياد الرياحيّين[38] ، وكانت جميع ضواحيها مزروعة[39] . وأشار البكري أيضاً إلى قصر قومش . وبالقرب من مرسى قرطاجنّة الذي تحوّل إلى ملّاحة ، يقع قصر الرباط المعروف باسم برج أبي سليمان . وفي قرطاجنّة ذاتها يوجد قصران يُعرفَان باسم الأختيْن[40] . ويبدو أن ضاحية المرسى الحالية كانت تسمّى عهدئذ بقصر الرّوم[41] .

وفي اتّجاه بنزرت تقع على شاطىء البحر المراكز العمرانية التالية : قصر جردان[42] وقصر جلّة[43] ومرسى رباط قصر الحجّامين[44] ورباط أبي الصقر[45] الواقع شمالي غار الملح ومرسى الثنيّة[46] ومرسى رأس الجبل ، ويسمّى طرفه الكنيسة[47] وقصر صونين[48] ، وقصر ترشة داود[49] ومرسى الوادي[50] ومرسى بني وجّاص[51] ومرسى القبّة[52] وقصر ياقوتة[53] الواقع في مدخل ميناء

---

37) البكري ، 84 .
38) نفس المصدر ، 43 ، الإدريسي ، 112-124 ـ **العهد الحفصي** ، 301/1 [الترجمة العربية ، 332/1] .
39) الإدريسي ، 114 .
40) البكري ، 44 .
41) **مناقب** ، 91 ، 101 ، 117 ، 120 ، 132 . وفي **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 69 ظ . [طبعة بيروت ، 126/2] ورد ذكر « أقلام مرساوية » ، نسبة إلى المرسى ؟ وجاء في حاشية أحد كتب المناقب ، أطلعني عليه الشيخ الفاضل بن عاشور ، أنّ حيّ دار الجلد كان يحمل في القديم اسم مرسى الروم ، المذكور في عقد ملكيّة قديم (رسم دار) .
42) الإدريسي ، 124 .
43) نفس المصدر .
44) المقدسي ، 4-5 : مرسى الحجّامين ، البكري ، 83 .
45) البكري ، 83 .
46) نفس المصدر .
47) نفس المصدر ، الإدريسي 124 .
49) نفس المصدر : برشة .
50) على بعد ثلاثة أميال من رأس بني وجّاص ، الإدريسي ، 123 .
51) نفس المصدر : وقّاص .
52) البكري ، 83 .
53) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 .

بنزرت ، وغير بعيد عنه حصن ابن أبي المهزول الذي أشارت بعض المصادر إلى وجوده في القرن الرابع هجري[54] .

إقليم سطفورة والشريط الساحلي من بنزرت إلى بونة :

كانت بنزرت[55] (هيبو دياريتوس في العصور القديمة) تُعتَبَر قاعدة الإقليم الشمال الغربي المعروف في أوائل العصر الوسيط باسم سطفورة[56] . وهي مدينة جميلة يحيط بها سور مبني بالحجارة وبها مسجد جامع وحمّام وبساتين . [وبجهة الشرق منها][57] ، توجد بحيرتها الوافرة الأسماك ، وعند تعرّض أهلها لأيّ خطر ، كانوا يلتجئون إلى الحصون المجاورة لها . وإثر زحفة بني هلال التي يبدو أنّ المدينة لم تتضرّر منها كثيراً ، ظلّت بنزرت ، كما كان شأنها من قبل ، أصغر من مدينة سوسة ، ولكنّها كانت مجهّزة وعامرة على أحسن وجه ، وذات تجارة مزدهرة . وقد ساهم بنو الورد في نموّها وأقاموا بها بناءات ذات منفعة عامّة .

وأشارت المصادر إلى تينجة من بين المدن الثلاث الهامّة التي كان يشتمل عليها إقليم سطفورة[58] وهي بنزرت وتينجة وأنبلونة[59] الواقعة بين بنزرت وتونس . وحسب ابن حوقل ، كان سكّان تلك الربوع غِلاظاً شِدَاداً في البرّ والبحر ، يعرفون كيف يتغلّبون على المخاطر والشدائد .

والجدير بالتّذكير أنّ حصن جبل شُعَيْب المعروف باسم قريشة (أو قرشينة) وبلدة زرع كانا

---

54) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 92 ظ . [طبعة بيروت ، 376/2] .

55) اليعقوبي ، 348 ، ابن حوقل ، 74/1 ، البكري ، 57-58 ، الاستبصار ، الترجمة ، 27-29 ، الإدريسي ، 114-115 ، البلدان ، 266/5 (شطفورة) ، بيل ، بنو غانية ، 115 ، هامش 3 ، العهد الحفصي ، 299/1 [الترجمة العربية ، 330/1] .

56) [اسمٌ كان يُطْلَق على الإقليم الشمالي الشرقي من البلاد التونسية ، ويكتب بالسّين والصّاد] .

57) [زيادة من الإدريسي] .

58) ابن حوقل ، 74/1 (وورد خطأ في هذه الطبعة اسم متيجة) ، البلدان ، 266/5 : متيجة (خلط مع البلدة الجزائرية) ، الإدريسي ، 114 ، العهد الحفصي ، المرجع المذكور .

59) ابن حوقل ، 78/1 ، البلدان ، 343/1 ، 266/5 : انبلونة وشطفورة ، الإدريسي ، 114 ، مقديش ، 122/1 طبعة بيروت [أشلونة] ، الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، في المكان المسمّى سيدي أحمد بوفارس .

وكراً للأعراب المرتزقة . وخلف مرسى القبّة من الجهة الغربيّة الساحليّة ، أشارت المصادر إلى وجود مرسى الروم[60] ومرسى (أو قلعة) ابن أبي خليفة[61] وعندة[62] وطبرقة (تابركة في العصر القديم) . وقد كان الأعراب خلال القرن الثاني عشر يقومون بغارات على ضواحي تلك القلعة البحرية التي كانت ترسي بها مراكب الأندلس[63] . وكذلك الشأن بالنسبة إلى المناطق الداخليّة القليلة الزرع المحيطة بمرسى الخرز (القالة في الوقت الحاضر وتونيزة في العصور القديمة) . « وهي مدينة صغيرة عليها سور حصين ولها قصبة وحولها عرب كثير ، وعمارة أهلها على صيد المرجان لكثرته وجودته »[64] .

وادي مجــردة :

في وسط وادي مجردة (بجردة في العصور القديمة) تقع مدينة باجة[65] ، (أو باجة القمح ، فاغا في العصور القديمة) ، وهي قاعدة إقليم من أخصب أقاليم المغرب ، ومدينة كبيرة تُنعَت بحقّ « بمطمر »[65م] إفريقيّة . وقد بُنِيت في منحدر ربوة تحمل اسم عين من أهمّ العيون التي كانت تزوّد باجة بالماء ، ألا وهي عين الشمس ، كما يُطلَق اسمها أيضاً على أحد أبواب المدينة . وقد أضيف إليها ربض جديد في الجهة الشرقية بعد انهيار جانب من السور في تلك الجهة . كما بني محراب المسجد الجامع الضخم في اتّجاه ذلك السور (القبلة) .

وكانت في باجة خمس حمّامات وعدد كبير من الفنادق وثلاث ساحات عمومية تقام بها

---

60) البكري ، 83 .

61) نفس المصدر ، الإدريسي ، 123 .

62) البكري ، 57 ، الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، لعلها بلدة الجبل الأبيض الحالية .

63) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 1/74-75 ، البكري ، 57 ، المقدسي ، 4-5 ، الإدريسي ، 115 ، العهد الحفصي ، المرجع المذكور .

64) ابن حوقل ، 1/75 ، البكري ، 55-83 ، المقدسي ، 4-5 ، الإدريسي ، 116 ، الاستبصار ، الترجمة ، 28-29 .

65) ابن حوقل ، 1/74 ، اليعقوبي ، 348-349 ، المقدسي ، 4-5 ، 18-19 ، البكري ، 56-57 ، الإدريسي ، 115-116 ، البلدان ، 2/25-27 العهد الحفصي ، 1/300 [الترجمة العربية ، 1/331] ، الدولة الأغلبية ، 62-64 - بيل ، بنو غانية ، 112 ، هامش 1 ، فورنال ، 1/213 ، هامش 1 .

65 م) [مَطْمَر = مكان لخزن الحبوب] .

الأسواق . وكانت تحيط بالمدينة مياه جارية تروي بساتينها ذات التربة السوداء والخفيفة . وكما هو الشأن بالنسبة إلى العصر الحاضر ، كانت منطقة باجة تجني كلّ سنة محاصيل وافرة من الحبوب والحمص والفول . وعندما ينخفض سعر الحنطة في القيروان ، كان من الممكن شراء حمل بعير من باجة بدرهمَيْن . وكان يتوجّه إليها كلّ يوم أكثر من ألف بعير ودابّة لشحن الحبوب وغيرها من الموادّ الزراعية ، دون أن ينجرّ عن ذلك أيّ ارتفاع في الأسعار المحلية .

وقد ظلّت خطّة عامل باجة التي هي من الوظائف المرغوب فيها إلى أبعد حدّ، حكراً على بني علي بن حُمَيْد الوزير ، مدّة طويلة خلال العهد الأغلبي . وقد صرّح أحد أفراد تلك الأسرة أنّهم يولون أهمّية بالغة إلى تلك الخطة من أجل حنطة عندة وسفرجل زانة وعنب بلطة وسمك درنة .

وكان الصّيادون يصطادون البوري في منطقة باجة ويرسلونه مُلبّساً بالعسل ليحتفظ بغضاضته ، إلى عُبَيْد الله المهدي الذي كان يلتذّ به .

وبالطبع فقد استقرّ بنو هلال في سهل باجة وسيطروا عليه ، ولكن يبدو أنّ ذلك لم يكن له أيّ تأثير محسوس على ازدهار المدينة ومنطقتها .

وتقع غربي المدينة بلطة[66] ودرنة (سا ي مشرق في الوقت الحاضر ؟) الواقعة بين باجة وطبرقة[67] . كما تقع بلدة خَوْلان[68] جنوبي بلطة .

وفي الجهة الشمالية الغربية توجد بلدة الأنصاريّين (الأنصاريّين في الوقت الحاضر) الواقعة في منتصف الطريق الرابطة بين باجة [القمح] وباجة تونس[69] . وفي مستوى باجة ، تقع في الناحية الجنوبية بلدة مجاز الباب (ممرسة ومبرسّة في العصور القديمة)[70] .

وعلى بعد مسيرة يوم من باجة ، أشار البكري إلى وجود قرية باسلي الواقعة في أراضي قوم

---

66) البكري ، 57 ، **الخلاصة** ، ص 77 ، **العهد الحفصي** ، 302/1 [الترجمة العربية ، 333/1] .

67) البكري ، 57 **الاستبصار** ، 88 **العهد الحفصي** ، 299/1-300 ، [الترجمة العربية . 330/1-331] .

68) **الخلاصة** ، ص 77 ، **الاستبصار** ، 88 ، العبدري ، **الرحلة** ، مخطوط على ملك ح . ح . عبد الوهاب ، 336 ، وفيه تعليق بالهامش يشير إلى أنّ هذا المنزل يقع شمالي سوق الخميس [بو سالم في الوقت الحاضر] بالقرب من بلطة وأنّ هناك وادٍ يسمّى وادي خَوْلان .

69) **الخلاصة** ، خريطة ص 77 . ينبغي التمييز بين هذا المدينة وبين المدينة التي تحمل نفس الاسم وتقع على بعد مسيرة يوم من الأربس .

70) **الخلاصة** ، خريطة ص 77 ، **الدولة الأغلبية** ، 63-64 .

من البربر اسمهم أورداجة (أو وزداجة)[71] . كما ذكر من بين القرى التابعة لمدينة باجة قرية على غاية من الجمال اسمها المغيريّة ، كانت بها عدّة كنائس قديمة بديعة[72] .

وفي الطريق الرابطة بين باجة والقيروان ، تقع بلدة قرنة التي كان يفصلها عن المدينتين المذكورتين طابقان ، ويحيط بها سور مبني بالحجارة[73] . وعلى بعد مسيرة يوم من فندق شكل وسبع مراحل من القيروان وثلاث مراحل من باجة ، كان يوجد منستير عثمان الذي هو عبارة عن قرية كبيرة بها مسجد جامع وعدّة فنادق وأسواق وحمّامات وحصن قديم . وقد كان بناها القرشيّون القادمون مع جنود الفتح ، وكان يسكنها قوم من العرب والبربر والأفارق[74] . وأشار نفس المؤلف أيضاً إلى وجود منزل مجفّة[75] .

جزيرة شريك :

كانت جزيرة شريك[76] (أو جزيرة أبي شريك أو جزيرة باشو أو الجزيرة) منطقة خصبة ذات أسواق نافقة « وعمارات متّصلة » . وقد أشارت المصادر إلى وجود بعض القرى الواقعة في المنطقة الداخلية ، نخصّ بالذكر منها قرية القرشيّين وقرية الصقالبة[77] [ما زالت قائمة الذات إلى اليوم] وقرية اللّوزة[78] . إلاّ أن أغلب القرى تقع على شاطىء البحر ، إذ نجد في الجهة الغربية في المنطقة الفاصلة بين خليج تونس ورأس أدار : قصر جُهْم[79] وقربص[80] (أو قصر قربس -

---

71) اليعقوبي ، 73-74 ، البربر (النويري) ، 426/1 ، البكري ، 56-57 ـ الدولة الأغلبية ، 62-63 .
72) البكري ، 57 ، الاستبصار ، 88 : معرّبة ، أفلا يتعلق الأمر بقرية بولاريجية ؟ .
73) المقدسي ، 4-5 ، 18-19 ، 66-67 ، البربر (النويري) ، 410/1 ، الدولة الأغلبية ، 63 .
74) البكري ، 37 ، 55-56 .
75) نفس المصدر ، 41 ، البلدان (حسب البكري) ، 434/2 : مُجَفّة .
76) البكري ، 45 ، اليعقوبي ، 348 ، المقدسي ، 20 ، ابن حوقل ، 73/1 ، الإدريسي ، 118 ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 90 ظ . 91 ـ و . [طبعة بيروت ، 334/1-340] .
77) انظر حول هذين الموقعين ، خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، فالموقع الأول يطابق المكان المعروف باسم قرشين ، المقدسي ، قرية الصقالبة (الصقالبة الحالية الواقعة قرب منزل تميم) .
78) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و . [طبعة بيروت ، 355/2] : «مضوا لزيارة نصرون بقرية اللوزة بالجزيرة » ، لا ينبغي أن تشتبه علينا هذه القرية بلوزة الساحل .
79) الإدريسي ، 124 .
80) نفس المصدر ، مناقب ، 96 .

كوربيس في العصور القديمة) ، وقصر النخلة[81] وقصر بنزرت (؟)[82] وقصر نُوبَة (سيدي داود في الوقت الحاضر وميسوا في العصور القديمة) . وكانت نوبة في العهد الأغلبي تمثّل أهمّ مرسى إبحار إلى صقليّة ، قبل إنشاء دار الصناعة بسوسة ، وقاعدة الوطن القبلي[83] .

وعلى الواجهة الشرقية تقع من الشمال إلى الجنوب . مدينة قليبية (أو إقْليبية ، كلوبيا في العصور القديمة)[84] وقصر أبي مرزوق[85] ولبنة (أو قصر لبنة)[86] وقصر سعد[87] وقُرْبَة (أو قصر قربة ـ كورويبس في العصر القديم)[88] ، وقصر توسيحان ، وهو قرية مبنيّة على رأس يحمل نفس الاسم ، بالقرب من أطلال رومانية[89] وأخيراً نابل (قصر نابل ، نيابوليس في العصور القديمة) ، حيث لم يشر الإدريسي إلاّ إلى وجود أطلال رومانيّة[90] .

وقد كان بعض المزاتيّين من الإباضيّة يقيمون بجزيرة شريك[91] .

ومنذ عهد بعيد حلّت مدينة باشو (أو منزل باشو)[92] محلّ نوبة ، وهي تقع في وسط سهل مدينة قرنبالية الحاليّة على بعد 7 كم من الجهة الجنوبية الشرقية في المكان المعروف باسم جديدة . وقد ألحّ الإدريسي على خصوبة جزيرة شريك المغروسة بالزياتين والمغطّاة بالزراعات والمرويّة على

---

81) الإدريسي ، 124 .
82) نفس المصدر .
83) اليعقوبي ، 348 ، الإدريسي ، 147 ، **العهد الحفصي** ، 306/1 [الترجمة العربية ، 337/1] ، ح . ح . عبد الوهاب ، تحية ويليام مارسي ، 2 . برنشفيك ، المجلة التونسية ، 1935 ، 149-155 ، الشماخي ، 382-383 .
84) البكري ، 45 ، 84 ، الإدريسي ، 124-125 ، اليعقوبي ، 348 ، وقد أشار إلى وجود مدينة النّواتيّة مقرّ إقامة العامل بالقرب من قليبية ، ومنها يتوجه الراكبون إلى صقلية . **الدولة الأغلبية** ، 61 ، ولم يرد ذكرها بعد ذلك ، أي بعد العصر الأغلبي ، والواقع أن الأمر يتعلق بمدينة نوبة ، انظر ح . ح . عبد الوهّاب ، المرجع المذكور .
85) الإدريسي ، 124 ، **الخلاصة** ، ص 77 .
86) الإدريسي ، 124 ، **الخلاصة** ، ص 77 .
87) الإدريسي ، 125 ، ستوريا ، 50/2 ، هامش 2 .
88) الإدريسي ، 125 .
89) نفس المصدر ، 119 ، 125 ، [وفي **نزهة الأنظار** (مقديش) ، 301/1 : توسيهان] .
90) الإدريسي ، 125 .
91) انظر الباب الحادي عشر .
92) ابن حوقل ، 73/1 ، المقدسي ، 19-20 ، البكري ، 45 ، الإدريسي ، 118 ، ح . ح . عبد الوهاب ، المرجع السابق ، 1-15 ، **بنو غانية** ، 72-74 .

أحسن ما يرام بفضل الآبار . ولكنّه أكّد أنّه « لم يبق من مدينـة باشـو إلاّ مكانها ، وفيـه قصر معمور »(93) .

ومع ذلك فقد كانت باشو مدينة كبيرة آهلة بالسكّان ، وهي أهمّ من سوسة . وكان لهذه القاعدة الإقليمية غير المُسَوَّرة مسجد جامع وعدة حمّامات وثلاث ساحات عموميّة وأسواق نافقة(94) وكانت تقام فيها في كلّ شهر أسواق عمومية يتوافد عليها الناس من كلّ حدب وصوب . ويبدو أن هذه المدينة قد كانت ضحيّة جذّابة وسهلة المنال ، من ضحايا بني هلال . فقد تمكّن قسم من سكّانها كيفما كان الحال من الاعتصام بشبه حصن ، ربّما بقي قائم الذات بعد خراب المدينة ، ولاذ الآخرون بالفرار . أفلا يحقّ لنا أن نفترض أن القصور التي لم تشر إليها المصادر قبل أوائل القرن الثاني عشر ميلادي ـ ولكن ذلك لا ينفي وجودها قبل ذلك التاريخ في شكل رباطات مثلاً ـ قد كانت ملجأ للسكّان الخائفين ؟ .

ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أن الإدريسي لم يهتمّ إلاّ بالموانىء وأنـه ألّف كتابـه لملك صقليّة النرماني . ومهما يكن من أمر فليس هناك أيّ داعٍ لعدم الاعتقاد بأن مدينة باشو قد خُرِّبت إثر زحفة بني هلال . وممّا لا شكّ فيه أن المدينة قد عمّرت من جديد فيها بعد ، إذ أكّد التجاني أن علي بن غانية قد خرّبها ونهبها في سنة 582 هـ/ 1186-1187 م ، « فاضطرّ أهلها إلى الفرار ، ففرّوا بأجمعهم إلى تونس ونزلوا بين سوريها ، فدخل عليهم فصل الشتاء هنالك فأهلكهم البرد والماء وأُحصيَ مَنْ مات منهم فكانوا اثني عشر ألفاً »(95) . ولكنّ النصّيْن غير متناقضَيْن . ذلك أنّ كثيراً من المدن التي خُرِّبَت في بداية الغزوة الهلاليّة قد استعادت شيئاً من ازدهارها فيها بعد ، ألَمْ يكن ذلك من مصلحة أهل البلاد والغزاة على حدّ السواء ؟ألَمْ تكن باشو تمثّل بالنسبة إلى أولئك وهؤلاء ضرورة حيويّة ؟ فبعد النّهب لا بدّ من السعي ، كيفما كان الحال ، إلى طلب الرزق ، بزراعة الأرض وتربية الماشية وتعاطي التجارة .

[وجاء في **رياض النفوس**] أنّ بعض المسافرين قد غـادروا ذات يوم قصر الحـديد (أو الجديد) عند طلوع الشمس ، قاصدين سوسة ، فمرّوا من ماجل أبي الزمّرد وانتهوا إلى قصر

---

93) وقـد استُعْمِلت بعض الأعمـدة المنقولـة من منـزل بـاشـو لبنـاء جـامـع القصبـة الـذي تمّ بنـاؤه من 629 هـ إلى 633 هـ/1231-1235 م ، زبيس ، **نقائش** ، 1/رقم10 ص 35 ، **رحلة التجاني** ، 14-15 ، [**تاريخ معالم التوحيد** طبعة بيروت ، 157] .

94) ابن حوقل ، البكري ، المقدسي .

95) التجاني ، المصدر السابق ، بنو غانية ، 72-74 ، ح . ح . عبد الوهاب المرجع المذكور ، 1-15

الفرياني عند المغرب . ومن الغد صباحاً استأنفوا رحلتهم محاذين البحر إلى أن وصلوا إلى قصر الحمّامات عند الظهر(96) .

وفي الناحية الجنوبيّة من مدينة باشو ، نجد على التوالي : قصر الزيت (الواقع في مكان بلدة سياغو العتيقة ، على بعد 4 كم شمال غربي الحمّامات وهو المكان المطابق تقريباً لبلدة بئر بورقبة الحالية) ، ثم فندق رَيْحان وقرية الدّواميس ، وهي قرية كبيرة محاطة بالزياتين والأشجار تقع بين باشو والقيروان ، وتبعد عنهما مسافة مرحلة(98) .

وقد كانت المرحلة الفاصلة بين الدواميس والقيروان عامرة بالقصور والمنازل والقرى(99) .

الشريط الساحلي من نابل إلى سوسة :

ثمّ نجد في الطريق المحاذي للبحر ، من نابل إلى سوسة : قصر الخيّاط(100) وقصر النخيل(101) والحمّامات التي يوجد بها قصر(102) وقصر المنار(103) وقصر المرصد(104) وقصر المرابطين(105) وهرقلة (أو أهرقلية أو هرقلية . هورياكايلا في العصور القديمة)(106) . ولعلّ البلدة المعروفة باسم منزل أبي سعيد(107) كانت موجودة في المكان الذي يُطلَق عليه اليوم اسم سيدي سعيد والواقع بين هرقلة وسوسة . وخلف هرقلة في اتجاه سوسة يوجد قصر عمر الأغلبي(108) .

---

96) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 83 و . [طبعة بيروت ، 267/2] .

97) البكري ، 45 .

98) نفس المصدر .

99) المصدر المذكور .

100) الإدريسي ، 125 .

101) نفس المصدر .

102) نفس المصدر .

103) نفس المصدر . **العهد الحفصي** ، 307/1 [طبعة بيروت ، 338/1] : قصر المنارة ، زبيس ، **نقائش** ، 1/ رقم 47 ، وقد حدّد موقع رباط المنار في بلدة بوفيشة الحالية .

104) الإدريسي ، 125 ، مقديش ، 132/1 [طبعة بيروت ، 136/1] ، **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 .

105) الإدريسي ، نفس المصدر . **الخلاصة** : على بعد 5 كم جنوبي بوفيشة في الساحل .

106) الإدريسي ، نفس المصدر .

107) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 94 ظ ، [طبعة بيروت ، 400/2] .

108) البكري ، 84 .

سوســة :

لقد كانت سوسة[109] في العصر الصنهاجي قاعدة إقليم السّاحل . وكانت تسمّى في القديم حضرموت . وهي ميناء ومدينة تجاريّة وصناعيّة ، يحيط بها البحر ويطوّقها سور مبنيّ بالحجارة المنحوتة وله ثمانية أبواب . ففي شرقي دار الصناعة[110] يفتح باب الميناء الكبير ، وأمام البابَيْن الغربيَّيْن ، لا تزال موجودة أطلال ملعب ، يرجع تاريخه إلى العصور القديمة . وتمتدّ مقبرة المدينة غربيّ الباب القبلي المعروف باسم باب القيروان . وتشرف قبّة جامع سوسة التي يرفع فيها الآذان على أبواب البحر[111] . ولا شكّ أن باب القبلة كان موجوداً في الناحية الجنوبيّة الشرقيّة[112] .

وفي وسط المدينة يوجد داخل السّور محرس الرّباط المعروف برباط سوسة الذي ما زال قائم الذات إلى اليوم[113] . وفي الزّاوية الجنوبيّة الغربيّة التي هي أعلى زاوية من زوايا السور، ترتفع منارة الميناء المعروفة باسم « منار خَلَف الفتى » . وفي سفح الرّبوة التي أقيمت على منحدرها المدينة ، تقع القصبة في الجهة الشمالية ، غير بعيد عن دار الصناعة التي تشرف عليها[114] . وأشار البكري أيضاً إلى وجود الفنطاس (؟) ، وهو مبنى قديم يقع خارج السور ، ويمثّل أوّل منظر تشاهده المراكب عند وصولها إلى الميناء .

وقد كانت سوسة المبنيّة بالحجارة المنحوتة تضمّ مسجداً جامعاً وحمّامات عموميّة وفنادق وعدّة أسواق تزخر بالبضائع والسلع ، حيث يجد المرء أحسن ما في العالم من اللّحوم وشتّى أنواع

---

109) اليعقوبي ، 348 ، ابن حوقل ، 72/1-73 ، البكري ، 34-36 ، المقدسي ، 16-17 ، الاستبصار ، الترجمة ، 16-17 ، الإدريسي ، 125 ، البغدادي، 173/5-175 ، رحلة التجاني ، 25 ، الحلل ، 129/1 ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية، 1936 ، 103 ، العهد الحفصي، 307/1-308 [الترجمة العربية ، 338/1/339] .

110) من الجدير بالتذكير أن دار الصناعة بسوسة قد أنشئت للتخفيف عن ترسانات المهدية .

111) رياض النفوس مخطوط باريس ، 95 و . [طبعة بيروت ، 403/2] : « أبواب البحر » ، إن استعمال الجمع يدلّ على وجود ثلاثة أبواب على الأقل في سوسة تحمل اسم « باب البحر » . اللّهم إلاّ إذا كانت هذه التسمية تعني ثلاثة أبواب مفضية إلى البحر ، إلاّ أن كل واحد منها يحمل اسماً خاصّاً ، وقد أطلق على أحد هذه الأبواب ، أي باب الميناء مثلاً ، اسم باب البحر . وقد قيل إنّ سوسة محاطة بالبحر من ثلاث جهات (الشمال والجنوب والشرق) .

112) نفس المصدر ، 78 ظ .

113) انظر حول هذا الرباط ، جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 32 وليزين ، رباط سوسة . . . ، تونس 1956 ، وتقديم هذا الكتاب من طرف جورج مارسي في مجلة « كرّاسات تونس » 1956 ، 127-135 .

114) حسب البكري ، وفي البلدان : محرس القصب (وهذا خطأ لا شكّ فيه) .

الفواكه ، وكلّ ذلك بأسعار زهيدة . وقد كان المسافرون يتوافدون على المدينة من كلّ حدب وصوب .

وكانت صناعة النسيج الزاهرة إلى أبعد حدّ تشغّل بسوسة عدداً كبيراً من النسّاجين ، كما كان يُصنَع بها خيط (من الذهب ؟) يباع المثقال منه بمثقالَيْن من الذهب . ويتمّ فيها أيضاً تجهيز أقمشة القيروان الرفيعة . وكانت تصدّر إلى الشرق والغرب أنسجة سوسة الفريدة من نوعها والنّاصعة البياض ، وأقمشتها الممتازة ولا سيما منها الموصلي الذي يُسْتَعْمَل لصنع العمائم ويباع بمائة دينار فما فوق[115] . وحسب البكري ، كانت جباية « ساحل القيروان » (أي سوسة والمهديّة وصفاقس وتونس) تدرّ على الدولة 80.000 مثقال (أو دينار) ، بقطع النظر عن رسوم الدخول والخروج التي لا ترجع إلى بيت المال[116] . وقبل ذلك أشار ابن حوقل إلى خصوبة تلك المنطقة التي يقوم بإحيائها مزارعون نُزهاء وأذكياء . وقد كان أهل سوسة يملكون عدّة ضيعات توفّر لهم مداخيل طائلة ويدفعون للأسير مبالغ ذات بال .

وكانت العداوة بين أهل القيروان وأهل سوسة مضرب الأمثال . وقد فسّرها ابن شرف بالأسباب التالية : « كان أهل سوسة في الأصل عبيداً لأهل القيروان . وذلك أنه لما افتتحت إفريقيّة اشتدّت إغارة الروم على مدن البحر ، فابتنيت القصور على السواحل ، كقصور سوسة وغيرها ، وجُعِل بها من عبيد أهل القيروان ومن انتدب معهم قوم للرباط ، فكثروا هناك واستقلّوا بمدينتهم . فمجرّد دعوى حملت عليها العداوة والعدوى . والواجب أن لا يُقبَل كلام قرويّ ، على سوسي ، والعكس بالعكس »[117] . وهذه العداوة المتوارثة تعطي أهمّية بالغة للمأدبة التي أقيمت بمناسبة « اصطلاح أهل القيروان وأهل سوسة »[118] ، قبيل القطيعة مع القاهرة .

ويبدو أنّ قبّة الرّمل (أو قبّة الرملة) كانت تتمثّل في الأصل في جناح خاصّ بالأمير إبراهيم ابن الأغلب[119] ، ثم دُفِن بها فيما بعد بعض الشهداء[120] . ويمكن المقابلة بين قبّة الرمل هذه

---

115) حسب الاستبصار .

116) البكري ، 36 .

117) رحلة التجاني ، 23 .

118) انظر البيان ، 279/1 .

119) رياض النفوس ، مخطوط باريس 54 و ـ 76 ظ . [طبعة بيروت 487/1 ـ 207/2-231] . وفي صفحة 98 و . (مخطوط باريس) [وصفحة 446/2 (طبعة بيروت)] : قبّة الرمل التي لا تبعد كثيراً عن قصر المنستير .

120) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 79 ظ . [طبعة بيروت 231/2] وصفحة 76 ظ . (مخطوط باريس) [وصفحة 207/2 (طبعة بيروت)] : « ودُفِن الأربسي بسوسة عند قبّة الرمل » .

وبين رملة سوسة [التي أشارت إليها بعض المصادر][121] . وقد قام الأمير المذكور بتوسيع جامع سوسة الذي أضاف إليه ثلاثة سقوف من جهة القبلة وبنى مصلّى[122] . ولعلّ الجامع قد ضاق بالمصلّين إثر توافد اللاّجئين الفارّين من الغزاة الهلاليّين ، فأذن الأمير ببناء بعض القباب ذات الزوايا البارزة وعمودَيْن ملتصقَيْن بحافتي المحراب[123] .

ولا ندري ما الغاية من وجود القبّة التابعة لقهوة القبّة الواقعة في الوقت الحاضر في نهج بين القهاوي بسوسة . وقد رأينا من المفيد الإشارة إليها لأنها تشبه إلى حدٍّ ما قبّة بني خراسان الموجودة في مدينة تونس[124] .

ونشير أيضاً إلى المعالم التالية التي كانت موجودة في ذلك العصر بسوسة ، وهي دار العامل[125] وسوق الغزل[126] والماجل[127] ودار الشيوخ[128] والقنطرة[129] التابعة للمسجد الواقع بالشواري في سوق الفحّامين ، وقصر حبشي الذي كان في السابق تابعاً لأبي إسحاق بن حبشي بن عمر الأغلبي[130] والملعب القديم (المشار إليه آنفاً)[131] ، وحمّام ابن الزمرّد[132] .

وقد تكرّرت في المصادر الإشارة إلى دمنة سوسة[133] ، وهي عبارة عن مستشفى مخصّص للجذماء ، يبدو أنه كان موجوداً بين سوسة والقيروان ، ربّما خلف مصلّى سوسة . وكان حيّ

---

121) نفس المصدر ، 54 و . [طبعة بيروت ، 486/1] .

122) نفس المصدر ، 80 و . [طبعة بيروت ، 241/2] .

123) جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 72 ، زبيس ، القبّة الأغلبية بالجامع الكبير بسوسة ، تحيّة جورج مارسي ، 193-177/2 .

124) جورج مارسي ، المرجع المذكور ، 76 .

125) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 83 ظ . [طبعة بيروت ، 275/2] .

126) فتوى المازري ، المعيار ، 173/10 ، البرزلي ، المختصر ، 142 ظ .

127) رياض النفوس ، مخطوط باريس 79 ظ . [طبعة بيروت ، 230/2] .

128) نفس المصدر ، 78 و . [طبعة بيروت ، 223/2] .

129) نفس المصدر ، 54 و . [طبعة بيروت ، 488/1] .

130) نفس المصدر ، 71 و . [طبعة بيروت ، 135/2] .

131) نفس المصدر ، 95 ظ . [طبعة بيروت ، 402/2] .

132) وأشار البرزلي (3/ و ظ) إلى « أهل المرسى » ، نقلاً عن أحكام السوق ليحيى بن عمر (ت . 289 هـ/902 م) . وقد سبق أن أشرنا إلى ماجل أبي الزمرّد بالقيروان .

133) رياض النفوس ، مخطوط باريس 54 ظ ، 60 ظ ، 71 و ، 79 ظ ، 84 ، ظ ، [طبعة بيروت ، 9/2 ، 231 ، 275] - معالم الإيمان ، 69/2-116 . وأشار البكري ، 45 إلى وجود وادي الدمنة بين قصر الزيت وفندق رَيْحان .

الجذماء يعرف بهذا الاسم المعبّر ، أي « حارة المرضى » . وقد أشارت بعض المصادر إلى شخص كان يتردّد على دمنة سوسة ويمرّ من سوق الخيّاطين (أو الحنّاطين) « في وقت عمارته »[134] .

وكان لدمنة سوسة مسجدان ، هما مسجد دمنة سوسة (أو مسجد الدمنة) وبه مصلّى من جهة القبلة ، ومسجد الخضر . ويمكننا أن نتساءل هل لا يتعلّق الأمر بمسجد السّبت ومسجد الخميس التابعَيْن لدمنة القيروان المُغايِرة لدمنة سوسة ؟ ولعلّ الاسم الأخير قد أطلقه عليها أهل القيروان الذين كانوا يتردّدون عليها مراراً وتكراراً . ولعلّ موقع هذه الدمنة المخصّصة للجذماء كان أقرب إلى سوسة منه إلى القيروان .

السّاحل :

لقد أشارت المصادر إلى القرى التالية الواقعة جنوبي سوسة في اتّجاه الجمّ ، وهي قرية المريدين (وتعرف اليوم بالمردين)[135] والوردانين[136] وقصر الكنائس (وتعرف اليوم بالكنايس)[137] والبرجين[138] ومنزل كامل[139] وتُمَاجِر[140] ، وهي مدينة هامّة بها جامع وأسواق وفنادق وحمّام عمومي وحوض (غدير ماء) ، ومحاطة بالزياتين وأشجار الخرّوب ، وباجة الزيت[141] وزبنّة[142] .

ولا ندري هل كان يوجد قبل زحفة بني هلال تجمّع سكني في موقع الجمّ (تيزدروس في

---

134) إن قلّة الدقّة في ضبط حركات المخطوط لا تسمح لنا باختيار إحدى القراءتين . [أمّا ناشر طبعة بيروت ، 275/2 ، فقد اختار قراءة : الخيّاطين] .

135) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 94 ظ . [طبعة بيروت ، 400/2] : المريدين .

136) **خلاصة تاريخ تونس** ، الخريطة ، ص 77 ، **العهد الحفصي** ، 309/1 [الترجمة العربية ، 340/1] .

137) **معالم الإيمان** ، 271/3 ، **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، **العهد الحفصي** ، 309/1 [الترجمة العربية ، 340/1] وفي **البيان** ، 166/1 ، ينبغي ، حسبما يبدو ، تعويض « الباس » بالكنائس ، إذ أن الأمر يتعلق بقرية من قرى الساحل .

138) وإليها ينسب عالمان من علماء الزيتونة (البرجيني) ، 380-385 هـ/990-995 م . زبيس ، **نقائش** ، 1/رقم 6 ، ص 33 .

139) البكري ، 29 .

140) نفس المصدر ، المقدسي ، 66-67 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 16 : تمجرت في منتصف الطريق الرابطة بين المهدية والقيروان على بعد مرحلتين من المدينتين ، وهي تقع بين منزل كامل وقصور الساف .

141) **البلدان** ، 27/2 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 339-340 .

142) **البلدان** ، 375/4 ـ **الخاصة** ، الخريطة ص 77 .

العصر القديم)[143] . ولكنّ التجاني قد أكّد أن « قوماً من البربر كانوا قبل هذا ساكنين بقصر مليّة من أرض زوارة » ثم استقرّوا ، بعدما أجلاهم الغزاة ، في مكان غير بعيد من الجمّ ، حيث كانت توجد في عصره قرية عامرة . وأشار نفس المؤلف إلى « نزوله بمنزلة بين زرمدين وجمّال » أي في قلب منطقة الساحل ، حيث شاهد « من اليمين والشمال قصوراً متفرّقة وقرى كثيرة قد أخلتها العرب وأجلت ناسها »[144] . وحسب البكري[145] ، كان الجمّ يمثّل الحدّ بالنسبة إلى سوق الحُسَيْني ، وهي منطقة كانت توجد بها قرية يسكنها قوم يعرفون باسم أرزلس (؟) أو أزرلس (؟) ، وبها جامع وحمّام وأسواق . وعلى بعد اثني عشر كلم جنوب شرقي الجمّ تقع قرية رُقّة في المكان الذي تحتلّه في القديم بلدة براروس[146] .

وفي فصل الشتاء كانت السفن تحتمي بمرسى شقانص[147] (ضاحية صقانس الحالية القريبة من المنستير) . ويقع هذا المرسى على بعد حوالي ثمانية أميال جنوبي سوسة ، وكان يشرف عليه « محرس رباط » عظيم يطابق قصر الطوب[148] ، حسب الاحتمال . كما أننا نعرف رباطاً آخر يقع بالقرب من سوسة ، اسمه قصر طارق[149] . ويوجد شرقي سوسة قصر سهل المعروف بالقصر الجديد[150] والواقع قبالة قصر الطوب . وبعد قصر ابن الجعد[151] (قرية ابن جعد في الوقت

---

143) رحلة التجاني ، 57-59 ، الحلل ، 131/1 ، العهد الحفصي ، 310/1 [الترجمة العربية ، 341/1] .

144) التجاني ، المصدر المذكور ، 55-56 .

145) البكري ، 20-21 .

146) ورد في رسم وقف يرجع تاريخه إلى القرن الحادي عشر ميلادي ، اسم المحبّس : وهو عبد الله بن يوسف الرقي ، (objets Kairouanais) ، 1 /210 ، هامش 11 .

147) ابن حوقل ، 73/1 ، البكري ، 84 : مرمى خفانص ، الإدريسي ، 126 : شقانس ، معالم الإيمان ، 270/3 ، 282 ، العهد الحفصي ، 308/1 . [الترجمة العربية ، 341/1] .

148) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 47 و ، 49 و ، 60 ظ ، 61 و ، 62 و ، 70 ظ ، 78 و ، [طبعة بيروت ، 410-411/1 ، 10/2-12-13 . 14-27] ، معالم الإيمان ، 75/2 ، البيان ، 171/1 ، الخلاصة ، الخريطة ص 77 .

149) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 94 ظ ، 95 و ، [طبعة بيروت ، 400/2-401] ، المنتخب ، 54 ، هامش 2 .

150) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 79 ظ ، 82 ظ ، [طبعة بيروت ، 136/2-234] . دائرة المعارف الإسلامية ، 1935 ، 297 ، معالم الإيمان ، 130/2 .

151) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 46 و ، 49 و ، 99 ظ ، [طبعة بيروت ، 410/1-411-446] ، معالم الإيمان ، 107-108 ، 173 ، الإدريسي ، 126 ، المعيار ، 183/1 ، العهد الحفصي ، 308/1 [الترجمة العربية ، 341/1] .
وكثيراً ما نجد في المصادر قصر أبي الجعد .

الحاضر) ، نجد على بعد أربعة أميال من شقانص ، قصور المنستير ، وغير بعيد عنها قنطرة[152] .

منستيــر :

كانت منستير[153] (أو المنستير ، روسبينا في القديم) المشهورة بالتعبّد ، تتركّب أساساً من ثلاثة رباطات على أقلّ تقدير[154] ، تُعرَف بقصور المنستير . ثم شُيِّدت بعض المساكن وأُلحِقت بعض الأراضي المحبّسة على المرابطين بالمنطقة ، المعروفة بالقَرْطِين[155] . وقد أُطلِق على أقدم جزء من المساكن اسم الزربية ، وكان في عصر الإمام المازري (ت. 536 هـ/ 1156 م) ، محاطاً هو والقصور الثلاثة بسور[156] .

وقد احترم بنو هلال البساتين والحدائق التي كانت تزوّد المهديّة بخيراتها ، ولم يمسّوا المتعبّدين بأيّ أذى[157] . وكان القَرْطِين يمتدّ إلى مسافة تبعد ثلاثة أميال عن المنستير[158] . وكانت تقام بهذه المدينة سوق عمومية كبيرة بمناسبة موسم عاشوراء[159] . وقد لاحظ البكري وجود طواحين فارسية ، وأشار إلى تصدير الملح الذي كانت تنتجه ملّاحة فسيحة عن طريق البحر .

وما زال رباط المنستير الكبير[160] ومسجدها الجامع[161] قائمَيْ الذّات إلى الآن . وكانت

---

152) المعيار ، 2/2 .

153) البكري ، 36 ، ابن حوقل ، 73/1 ، الإدريسي ، 108-109 ـ البلدان ، 175/8-176 ـ المقدسي ، 4-5 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 627/3 (جورج مارسي) ـ العهد الحفصي ، 308/1 [الترجمة العربية 341/1] ، مقديش ، 32/1-33 [طبعة بيروت ، 137/1] .

154) مصدر واحد ، البلدان ، 175/8 ، تحدث عن خمسة قصور محاطة بسور ، أما البكري ، 36 ، فقد أنهى حديثه عن المنستير قائلاً : توجد قرب المدينة خمسة محارس مبنية أحسن البناء يقيم بها المتعبّدون .

155) مخلوف ، شجرة النور الزكيّة ، 193/2 .

156) حسب المرجع السابق (192/2-194) الذي يشير إلى وجود آثار ذلك السور في الجهة الشرقية .

157) الإدريسي ، 108 ، مخلوف ، 193/2 .

158 حسب مخلوف، 193/2 ، ففي عصره اندثرت المنازل ، ولكن المسجد بقي قائم الذات .

159) حسب البكري .

160) جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 13/2 ، 46 ، 47 ، 50 . ليزين : رباط سوسة ، متبوع بتعليقات حول رباط المنستير ، تونس ، 1956 ، ص 35 وما بعدها . تقديم الكتاب من طرف جورج مارسي في مجلة كراسات تونس ، 1956 ، 127-135 ، البكري ، 36 .

161) جورج مارسي ، المرجع المذكور ، 76-77 ، البكري ، 36 ، البلدان ، 175/8 .

توجد جنوبي الرباط « قباب الرباط » التي هي عبارة عن بناءات عالية مشيّدة وسط صحن فسيح ، على أحسن ما يرام ، كانت تتردّد عليها المتعبّدات(162) . وهناك بناءات أخرى قريبة من مسجد السيّدة يرجع عهدها إلى القرن الحادي عشر ميلادي(163) ، كما كان موجوداً رباط آخر لم يبق له أثر الآن ، يعرف بقصر السيّدة . وقد أقيمت في مكانه دور قديمة ومسجد (صنهاجي؟) يحمل اسم الوليّ المدفون فيه ، وهو سيدي عامر ومسجد آخر اسمه مسجد الدزّ(164) .

أمّا رباط المنستير الثالث ، فيقال إنه كان موجوداً في موقع زاوية سيدي ذويب الحالية التي تضمّ مسجداً (ربّما يرجع عهده إلى ما قبل العصر الصنهاجي) . وربّما كان موجوداً بين الرباطَيْن الأخيرين دهليز تحت الأرض يسمّى الداموس(165) . وغير بعيد عن قصر المنستير (أي الرباط الكبير على الأرجح) ، تقع قبّة الرمل(166) . ولا ندري أين كان موقع سوق الخسارة(167) وبلدة كانش(168) ، القريبتَيْن من المنستير . كما أشارت بعض المصادر إلى قصر دُوَيْد (أو داود) الواقع بالقرب من تلك الجهة(169) .

ومن الجدير بالتّذكير أنّ قبور موتى أهل المهدية كانت بالمنستير ، وأن ملوك بني زيري الأخيرين كانوا يُدفَنون في بادىء الأمر في قصورهم بالمهدية ، ثم تُنقَل رفاتهم ، بعد انقضاء عام ، إلى مسجد السيّدة بالمنستير (أو مسجد قصر السيّدة) ، أي ، حسب الاحتمال ، الأميرة أمّ ملال عمّة المعزّ بن باديس(170) . وفي هذا المسجد الذي ما زال قائم الذات إلى الآن ويُعرَف بمسجد السيّدة ، لم يُعثَر إلّا على قبريّة أحد أحفاد المعزّ وهو مُرْهَف بن تميم(171) ، (مؤرّخة في سنة

---

162) البكري والبلدان .

163) جورج مارسي ، كرّاسات تونس ، 1956 ، 132 .

164) مخلوف ، 2/192-199 ، وقد تجاسر المؤلف على اعتبار اسم هذا المسجد تحريفاً لمسجد المعزّ .

165) نفس المرجع ، 2/192 .

166) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 98 و . [طبعة بيروت ، 1/487] .

167) نفس المصدر ، 95 ظ . [طبعة بيروت ، 2/15 : قصر تبصة] .

168) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 132 هامش 23 .

169) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 81 ظ ، 97 و ، [طبعة بيروت 2/252] : قصر دُوَيْد ، المدارك ، 2-3/177 و ، [طبعة بيروت ، 3/370] .

170) الإدريسي ، 108-109 ، جورج مارسي ، المرجع السابق ، 77 ، مخلوف ، 2/192 ، 198-199 . ويليام مارسي وعبد الرحمان قيقة ، نصوص تكرونة ، باريس 1924 ، 223 ، هامش 33 - ابن خلّكان ، 2/241 . المؤنس ، 93 .

171) حسب بحث قدمه حسن حسني عبد الوهاب ، زبيس ، نقائش ، 2/36 .

505 هـ/ 1111 م) . وقد أشار البكري إلى وجود مرسى قصر القوريتَيْنْ (أي مرسى قصر جزيرتيْ قورية) ، ملاحظاً أنّ هاتين الجزيرتين الكبيرتين مفصولتان ، الواحدة عن الأخرى ، بواسطة قناة صالحة للملاحة[172] .

وفي الطريق الرابطة بين المنستير والمهدية نجد على التوالي قرية تحمل اسم القاضي الأغلبي عيسى بن مسكين [مسجد عيسى في الوقت الحاضر][173] ، ثم بلدة خنيس[174] وقصر لمطة (لمطة في الوقت الحاضر ولبتيس مينور في القديم)[175] ، وهي قرية تنتج نوعاً من الملح المعدّ للتصدير ، ومكنة (المكنين في الوقت الحاضر)[176] ، وتبصة (أو الديماس ، تبسوس في القديم)[177] ، وأخيراً ميّانش[178] .

المهديّة :

لقد أعادت غزوة بني هلال إلى المهديّة[179] ازدهارها الذي فقدته منذ تأسيس المنصوريّة . وقد اعتبر المقدسي المدينة التي بناها عُبَيْد الله المهدي في طرف شبه جزيرة جمّة ، « مستودع القيروان

---

172) البكري ، 84 .

173) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، مقديش ، 2/108-109 ، 137 [طبعة بيروت ، 1/343 ، 2/246 ، 306] : قرية عيسى بن مسكين .

174) الخلاصة ، الخريطة ، ص 77 .

175) البكري ، 84 ، الإدريسي ، 126 ، العهد الحفصي ، 1/308 [الترجمة العربية ، 1/341] .

176) المدارك ، 2-3/248 ظ ، وحسب حسن حسني عبد الوهاب ، مكنين = مكنتَيْن .

177) ح . ح . عبد الوهاب ، تحية ويليام مارسي ، 14-15 ـ وفي كتاب الشماخي ، 261 : قفصة الساحل شرقي القيروان ، ينبغي ، حسب الاحتمال ، تعويض « قفصة » « بتبصة » كما جاء في رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 60 ظ ، [طبعة بيروت ، 2/15] .

178) البكري ، 29 (قراءة خاطئة) ، البلدان ، 8/219 .

179) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 1/71 ، المقدسي ، 16-17 ، البكري ، 29-31 ، الإدريسي ، 108-109 ، التجاني ، 120-121 ، الحلل ، 1/232-234 ، 235-280 ، البلدان ، 8/205-208 ، فورنال ، 2/123-124 ، ابن حمّاد ، 9-11 ، الاستبصار ، الترجمة ، 14 ، المراكشي ، الترجمة ، 196 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 3/127-128 (جورج مارسي) ، حسن إبراهيم حسن عُبَيْد الله ، 204-208 ، مقديش ، 1/32 [طبعة بيروت ، 1/138] العهد الحفصي ، 1/309 [الترجمة العربية ، 1/ 34] . زبيس ، المهدية وصبرة المنصورية . . . المجلة الأسيوية ، 1956 ، 79-93 .

ومتجر صقليّة ومصر »[180] . وقد بنى مؤسّس المهديّة أكبر قسم من المدينة في المكان الذي ردمه من البحر ، وكان اتّساعها من الشمال إلى الجنوب قدر رمية سهم . ويوجد هناك جامع بديع يحتوي على سبع مساكب ، وقصر عُبَيْد الله الذي يُفتَح على الجهة الغربيّة ، وبإزائه في الجانب الآخر من ساحة فسيحة اسمها « بين القصريْن » ، يوجد قصر أبي القاسم الذي يُفتَح على الجهة الشرقية ، ودار المحاسبات[181] .

كما تمّ تشييد سور متين مجهّز بستة عشر برجاً ، يستطيع أن يركض فوقه عدد كبير من الخيول في وقت واحد ، وهو محاذٍ لساحل البحر ، يحجز المضيق . وقد أشار الإدريسي إلى وجود مقدّم جدار من جهة البرّ يشتمل على عدد من الأبراج يفوق عدد أبراج السّور الرئيسي ، ويحيط به خندق تتجمّع فيه مياه الأمطار . وكان يتحكّم في مدخل المدينة بابان حديديّان كبيران[182] ، يقع الأوّل على الأرجح من جهة البرّ والثاني قبالة البحر[183] .

وكان مرسى المدينة[184] ـ وهو ميناء فينيقي قديم ـ المحفور في الحجر الصلد ، يستطيع أن يسع زهاء الثلاثين سفينة ، وهو متّصل بالبحر بواسطة ممرّ يبلغ عرضه حوالي خمسة عشر متراً ، وتتحكّم في مدخله سلسلة ممدودة بين برجَيْن تربط بينهما قبّة ذات طابقين . وتقع شرقي قصر عُبَيْد الله في إحدى التجويفات الموجودة في طرف شبه الجزيرة ، دار الصناعة التي تسع أكثر من مائتيْ سفينة ، حسب البكري . وتُخزَن الأعتدة والمؤونة في رواقَيْن مُقبَّبَيْن فسيحَيْن وطويلَيْن . ومن فرط ما كانت هذه الترسانة محصّنة بسور المدينة ، فإنّ أيّة سفينة محمّلة بالمقاتلين تستطيع الوصول إليها ، دون أن يقدر أيّ كان على منعها من ذلك من البرّ[185] .

---

180) المقدسي ، 16-17 ـ ستوريا ، 360/2 ، هامش 1 حول جمّة . العهد الحفصي ، 408/2 الهامش 1 [الترجمة العربية 428/2 الهامش 143] ، البيان ، 169/1 : جزيرة جمّة ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 60 ظ ، [طبعة بيروت ، 341/1] .

181) انظر حول هذه المعالم ، جورج مارمي ، الفنّ المعماري ، 69-70 ، 78-79 . زبيس ، المرجع السابق ، 81 .

182) انظر حول هذا السّور ، جورج مارمي ، المرجع المذكور 89-91 .

183) لقد بقي قائم الذات الباب المعروف اليوم باسم « السقيفة الكحلاء » . زبيس ، المرجع السابق ، 89-91 .

184) جورج مارمي ، المرجع السابق ، 91-92 .

185) حسب حسن إبراهيم حسن (المعزّ لدين الله ، 185) نقلاً عن المجالس والمسايرات للقاضي النعمان ، كانت المهدية ، في عهد المعزّ وقبل تحوّله إلى مصر ، مجهّزة بترسانتيْن (دَارَا صناعة) لم تكفيا لتلبية حاجات الأسطول . وقد ابتهج الخليفة باكتشاف سبعة مواجل قديمة تحت الأرض في دار الصناعة بسوسة ، كانت توفر الماء بواسطة حوض يكفي لتزويد السكان والسفن . فقام بترميم تلك المنشأة المائية وبنى مسجداً على عين المكان .

وفي عصر الإدريسي، كانت المهديّة التي لم تكن بها بساتين تجلب مؤونتها من المناطق المجاورة لها ، ولا سيما من قصور المنستير . وكانت تتزوّد بالماء بواسطة 360 ماجلاً ، عن طريق الأنبوب الذي نصبه عُبَيْد الله . وفي ضواحي ميّانش[186] كان الماء يتصاعد من الآبار بواسطة الدواليب ، ثم يمرّ من خزّان ويجري في أقداس وقناة إلى أن ينتهي إلى حوض قرب الجامع ، ومن هناك يُنقَل إلى القصر بالنّواعير .

وقد ألحّ الإدريسي على جمال مساكن المهدية وأناقة أهلها . ويبدو أن أكابر القوم من بني زيري المقيمين بالمنصوريّة كانوا يقضون فصل الصيف في عاصمة بني عُبَيْد السابقة .

وكانت المهديّة تصنع وتصدّر الأنسجة الجميلة البالغة الجودة[187] .

وبعد غزوة بني هلال ، وقبل ذلك بلا شكّ ، كان أهل المهديّة ينقلون موتاهم بواسطة المراكب إلى المنستير ليدفنوهم هناك . وقد لاحظ الإدريسي أنّ المهدية كانت خالية من المقابر .

وأشار المالكي مرّتين[188] إلى وجود دار البحر بالمهدية في عهد بني عبيد ، فقال : « إن الذين ماتوا في دار البحر أربعة آلاف رجل في العذاب » . ويفهم من هذا النصّ أنّ بني عبيد قد اتّخذوا دار البحر سجناً للمهديّة . ولعلّ الأمر يتعلّق بتسمية أخرى لدار الصناعة .

وجاء في بعض المصادر أنّ جثّة أبي يزيد قد صُلِبت في مجرّ الخابية[189] . وكان يوجد بالمهديّة مسجد السبت[190] . ويبدو أن اسم « رحبة القمح » كان يُطلَق على سوق الحبوب[191] . وقد بقيت قبّة السّلام التي أشارت إليها المصادر عند ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش ، قائمة الذات حتى القرن التاسع عشر . وكانت هذه البناية الصغيرة المعروفة وقتئذ ببرج العريف ، موجودة في السهل على بعد فرسخ غربي المهديّة[192] .

---

186) البكري ، 29 ، البلدان ، 219/8 ، ويقع هنشير ميّانش الحالي على بعد 6 كم جنوب غربي المهدية . وتوجد آثار حوض خزن وتوزيع الماء التي عثر عليها بلاسيت (H. Plecett) في سنة 1935 م في نفس موقع خزان سيدي مسعود الحالي ، على بعد 6 كم شمال غربي المهديّة ، سولينياك ، المنشآت المائية ، 259-262 .

187) الإدريسي ، 108 ، البلدان ، 205/8-207 .

188) رياض النفوس ، مخطوط باريس 79 و- 90 و . [طبعة بيروت 227/2 ، 345/2] .

189) حسب كتاب النبلة المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة ، للقاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمّاد .

190) حسب ابن خلّكان ، 240/2 ، نقلاً عن ابن شدّاد .

191) في ذي الحجة 432 هـ/ أوت 1041 م ، تلقّى ابن خير (الفهرست ، 38/1-39) كتاباً من فم أبي حفص عمر بن حُسَيْن المقرىء المعروف باسم ابن النفوسي بالمهدية في مسجده برحبة القمح .

192) جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 87-89 .

وقد أفسد بنو هلال البساتين والأجنّة التابعة لضاحية الحِمَى الواقعة غربي المدينة[193] . وحسب البكري ، كان جنود إفريقيّة من أعراب وبربر يقيمون في ربض الحِمَى . ومن المحتمل أن يكون موقع الميدان (ميدان سباق الخيل)[194] والمصلى[195] موجوداً بين المهديّة وزويلة . وكان يطلق على الفضاء الواقع بين المدينتَيْن اسم الرملة ، « ومقداره أشفّ من رميّة سهم »[196] .

زويلة :

كانت مدينة زويلة[197] تمتدّ على طول حوالي ميلَيْن . وكانت دورها مبنيّة بالحجارة مثل دور المهديّة ، وأسواقها وبناءاتها على غاية من الجمال ، وشوارعها عريضة . ولما استقرّ عُبَيْد الله بالمهديّة ، خصّص هذه الضاحية للإقامة العامّة والسّوقة (أرباب الدكاكين) . وكان هؤلاء يقضون النهار بالمهديّة حيث كانت توجد دكاكينهم وممتلكاتهم ، ويرجعون في المساء إلى بيوتهم بزويلة . ويقال : إن الأمير المذكور قد صرّح بأنه لم يعد يخشى من جانبهم أيّ مكروه ، بفضل هذا الإجراء . والواقع أنّ هذا الربض ما لبث أن تحوّل إلى مدينة حقيقيّة كانت بمثابة التكملة للمهدية ، إلى درجة أن النصوص قد أصبحت تتحدّث في غالب الأحيان عن المهديّتين[198] . وقد بنى المعزّ بن باديس سور زويلة في سنة 444 هـ/ 1052-1053 م[199] .

---

193) الإدريسي ، 109 ، المنتخب ، 102-103 : بيت شعر من نظم ابن عُمَيْرَة (ت . 659 هـ/1260 م) ، التجاني ، 324 ، الحلل ، 235/1 حمى زويلة .

194) المقري ، طبعة القاهرة ، 1949 ، 289/4-299 : شعر أميّة بن أبي الصلت (ت . 529 هـ/1135 م) حول السّهام التي رماها الحسن في الميدان .

195) ديوان ابن حمديس ، رقم 36 ص 49-53 .

196) الإدريسي ، 109 ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 73 ظ ، 74 ظ ، [طبعة بيروت ، 166/2-174] : صُلِبَ متعبّدان برملة المهديّة قرب المصلّى .

197) البلدان ، 416/4 .

198) انظر مثلاً : ديوان ابن حمديس ، رقم 36 ص 49-53 ، التجاني ، 331 ، 341 ، 377 ، الحلل ، 234/1-235 . وقال الإدريسي ، 109 ، إنّ المهدية في عصره كانت تتألّف من مدينتين : مدينة المهدية ومدينة زويلة . وحول حارة زويلة وباب زويلة في القاهرة ، انظر ، النجوم ، 37/4 ، والخطط ، في عدّة مواضع ، المؤنس ، 64 ، المراكشي ، طبعة 1847 ، 255 ، وقرأ المقريزي وياقوت زَوِيلَة (بفتح الزاي مثل سفينة) وفي القاموس زُوَيْلَة (بضمّ الزاي ، مثل جُهَيْنَة) . وأكّد المؤلّف الأوّل أن زويلة اسم امرأة ! .

199) وقد فكر الخليفة الفاطمي المعزّ في ذلك قُبَيْل تحوّله إلى مصر ، سيرة جوذر ، 112-184 .

وقد أشار الإدريسي إلى حسن هندام تجّار زويلة الأثرياء الذين كانوا يرتدون ملابس بيضاء ونوّه باتساع معارفهم التجارية واستقامتهم في أعمالهم . وحسب نفس المؤلف كانت توجد في ضواحي زويلة عدّة قرى ومحطّات وقصور ، يتعاطى سكّانها الزراعة (القمح والشعير والزياتين) وتربية الماشية (الغنم والبقر) . وكانت تلك المنطقة تنتج أحسن أنواع الزيت بإفريقية وتتولّى تصديرها إلى المشرق . وأكّد البكري أن المهديّة كانت تشتمل على عدد كبير من الأرباض ، مثل ربض زويلة وربض الحمى المشار إليهما آنفاً ، وقصر أبي سعيد وبقّة وقاساس[200] والغيطنة (؟) وربض قفصة[201] .

وبعد استيلاء النّرمان على صقليّة ، وفد على المهديّة وعلى غيرها من المدن والقرى الساحلية جمع غفير من المهاجرين[202] .

الشريط الساحلي من المهدية إلى صفاقس :

نجد جنوبي المهدية على التوالي قصر قراصنة[203] واللّيانة (أولليانة)[204] وسلقطة (سولكتوم في القديم)[205] وقصر العالية[206] .

---

200) المعيار ، 9/428-429 ، لعلها طساس .

201) نميل إلى قراءة : ربض تبصة ، وحسب التجاني ، 325 والحلل ، 1/235-236 ، كان سوق الأحد موجوداً بين المهدية ومعسكر أبي يزيد الذي كان بموضع يعرف بخربة جميل ، على أميال قريبة من المهدية ، في سهل ترنوط ، انظر ، البكري ، 31 . وكان قصر مسوار (؟) قريباً من المهدية ، معالم الإيمان ، 3/175 : قصر سور . وفي رياض النفوس ، 1/المقدمة ، 40 ، بندون ، وهو اسم بلدة على طريق جمّة (=المهدية) ، البيان ، 1/187 : « إذا أردت الحجّ فخُذْ على بندون ، وبندون هذه قرية في طريق جمّة » . وكان هناك منزل يقع في الطريق الرابطة بين القيروان والمهدية ، اسمه : الأَخَوَان ، البكري ، 70 . الديباج ، 237 ، الحاشية .

202) ح . ح . عبد الوهاب ، المجلة التونسية ، 1930 ، 11-12 .

203) زبيس ، نقائش ، 1/70 والهامش 167 مكرر ، 80 ـ العهد الحفصي . 1/309 [الترجمة العربية ، 1/340] ، مناقب ، 237 ، هامش 109 .

204) الخلاصة ، الخريطة ، ص 77 ، القرية المعروفة اليوم باسم ليّانة ، العهد الحفصي ، المرجع المذكور ، النيفر ، عنوان الأريب ، 1/73 .

205) البكري ، 31 ، 35 : مدينة سلقّطة ، الإدريسي ، 126 : قصر سلّقطة ، العهد الحفصي ، 1/310 [الترجمة العربية ، 1/341] ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 87 ظ ، [طبعة بيروت ، 2/320] ، البيان ، 1/219 .

206) الإدريسي ، 126 .

وفي مستوى رأس قبودية[207] توجد في الموقع الحالي لميناء الشابة الصغير بلدة رُصْفة (روسبيا في القديم) حيث ما زال موجوداً إلى الآن قصر أغلبي مجهّز بمنار اسمه برج خديجة[208] . ويبدو أن اسم رصفة كان يطلق على إقليم توجد قاعدته في الجهة الجنوبية الغربية داخل البرّ ويُعرَف باسم ينولش أو ينونش[209] .

وكان الشريط الساحلي الممتدّ من مرسى قبودية المعروف برصفة إلى صفاقس يشتمل على عدد كبير من الحصون[210] نخصّ بالذكر منها : قصر ملّولش[211] وقصر قناطة[212] ، حيث كان يُصنَع « فخّار كثير ساذج ، يتجهّز به إلى المهدية وغيرها ، وطينه أحمر » ، وقصر اللّوزة[213] وقصر زياد[214] وقصر مجدنوس وقصر قاساس وقصر قزل[215] وقصر جبلة وأخيراً صفاقس[216] .

---

207) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، العهد الحفصي ، 307/1 [الترجمة العربية ، 338/1] ، الإدريسي ، 126 : قبودية ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 88 ظ ، وينبغي تعويض قمّودة بقبّودية ، حسب مخطوط القاهرة ، [طبعة بيروت ، 321/2 : قبّودة] .

208) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، شهيرات التونسيات ، 52-54 ، هامش 1 [الطبعة الجديدة ، 87-88] ، وقد ورد ذكر الشاعرة خدّوج الرُّصْفية (منتصف القرن الرابع هجري) ، المقدسي ، 20-21 ، البلدان ، 259/6 : رُصْفة ، 27/2 : باجة الزيت .

209) الخلاصة ، الخريطة ص 77 : ينولش ، وحسب بحث لحسن حسني عبد الوهاب ، تقع هذه البلدة التي كان بها قاضٍ شمال شرقي ملّولش ، البلدان ، 529/8 : بانونش ، المقدسي ، 4-5 ، 20-21 : ينونش .

210) حسب الإدريسي ، 126 .

211) نفس المصدر : قصر مليان ، على بعد أربعة أميال من قبودية ، أي ما يطابق تقريباً موقع ملّولش ، ممّا يؤيد صحّة افتراضنا .

212) يمرّ من الجمّ واد قناطة .

213) الخلاصة ، الخريطة ص 77 . العهد الحفصي ، 310/1 [الترجمة العربية ، 341/1] .

214) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، العهد الحفصي ، المرجع المذكور ، العمري ، تحقيق ح . ح . عبد الوهاب ، 6 إدريس مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 298 .

215) مقديش ، 151/2 [طبعة بيروت ، 333/2] : ضريح سيدي منصور ببرج قزل .

216) الخلاصة ، الخريطة ص 77 لقد حُدِّد موقع قصر زياد في شمال اللوزة ، في حين أكّد الإدريسي أنه يقع جنوبي تلك البلدة . وقد حدّد هذا المؤلف المسافات بالأميال على النحو التالي : قبودية ـ قصر مُلْيَان 4 ـ قصر قناطة 4 ـ قصر اللوزة 4 ـ قصر زياد 6 ـ قصر مجدونس 8 ـ قصر قساس 8 ـ قصر قزل 2 ـ قصر جبلة 2 ـ صفاقس 5 ، ومن قصر زياد إلى قصر قزل 18 ، ومن قبودية (وجاء في المخطوط غلطا قصر زياد) إلى صفاقس « ثمانية وأربعون ميلاً تقويراً ، وروسيّة ثلاثون ميلاً » ، [مقديش ، نزهة الأنظار ، طبعة بيروت ، 138/1] .

وينبغي أن نضيف إلى هذه القائمة التي أوردها الإدريسي : محرس بطريّة (هنشير بترية في الوقت الحاضر وأكولا في القديم)[217] المجهّز بحصن مرتفع ومنارة ، ومحرس أبي الغسن ومحرس مقدومان[218] ومحرس الريحانة[219] ومرسى انشلّة (سيدي مخلوف في الوقت الحاضر وأوسيلا في القديم)[220] . وغير بعيد عن الساحل توجد بلدة ينولش (أو ينـونش) الواقعـة غربي رصفـة وجبنيانة [221] ولبيدة الواقعة في جهة الجنوب[222] . وفي تلك النواحي أشارت المصادر إلى وجود شريانة وسوق بدرنة[223] وسوق الحُسَيْني[224] وبليانة نافد[225] المطابقة لا محالة لبلدة بليانة الواقعة قرب أنشلّة[226] وبنتاي[227] ومنزل مروان العابد[228] وطرس اسباط[229] . وحسب البكري ، تمرّ الطريق الرابطة بين صفاقس والقيروان من طرفة وقصر رباح (أو قصر رياح)[230] .

217) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، البلدان ، 87/5 : صفاقس ، البكري ، 20 : بطوبّة .

218) الإدريسي ، الترجمة ، 151 ، هامش 1 .

219) ذكر البكري ، 20 ، على التوالي : محرس بطوبّة ومحرس جبلة ومحرس أبي الغسن ومحرس مقدمان ومحرس اللوزة ومحرس الريحانة .

220) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، العهد الحفصي ، 811/1 [الترجمة العربية ، 342/1] ، مناقب ، 35 .

221) مناقب ، في عدة مواضع .

222) نفس المرجع ، 27-45 .

223) المرجع المذكور ، 36 ، العهد الحفصي ، المرجع المذكور .

224) مناقب ، 74 ، 76 .

225) نفس المرجع ، 55 .

226) مقديش ، 151/2 [طبعة بيروت ، 343/2] . العهد الحفصي ، المرجع المذكور .

227) مناقب ، 71 .

228) نفس المرجع ـ 40 .

229) المرجع المذكور ، 5 . المقدسي ، الذيل ، 4-5 : جمونس الصابون ، طرس ، قسطيلية . .

230) البكري ، 20 : على بعد ثمانية أميال شمالي صفاقس ، وفي الخرائط : قصر الريح .

صفـاقـس :

لقد كانت صفاقس[1] (أو سفاقس واسمها في العصور القديمة تابرورة) مدينة كبيرة، ربّما ورثت عن الماضي شوارعها ذات الزوايا المستقيمة . وفي سنة 478 هـ/ 1085-1086 م[2] رُمِّمَ جامعها الكبير الذي كان قد بُنِيَ في سنة 235 هـ/ 849-849 - 850 م وجُدِّد بناؤه في سنة 378 هـ/ 988-989 م . وكانت المدينة ذات المساجد والأسواق والفنادق والحمّامات العديدة محاطة بسور مربّع الشكل ومبني بالحجارة ، له « أبواب مصفّحة بصفائح من حديد منيعة وعليها محارس نفيسة للرباط » . ويقع الباب الجبلي في وسط الواجهة الشمالية ، ولا ندري هل كان الباب المواجه له يحمل في العصر الصنهاجي اسم « باب الديوان » الذي يُطْلَق عليه اليوم . وقد أشار مصدر متأخّر[3] إلى عادة قديمة من عادات أهل صفاقس كانت تتمثل فيما يلي : « كانوا يخرجون سابع العرس مصطفّين من باب البحر ، يدورون خارج البلد ويدخلون من الباب الجبلي ، بعدما يكون اجتماعهم بحومة العروسَيْن » .

كما أشار مصدر آخر إلى وجود دار الجذماء[4] . « وكان لأهل صفاقس نخوة وفي أنفسهم عزّة»[4م] . وكانوا يشربون من المواجل ويجلبون الفواكه من قابس بكثرة وبأسعار رخيصة . « وأكثر صيدهم بالزروب المنصوبة لهم في الماء الميّت »[5] . ولم يكن إتلاف غابة الزيتون البديعة من طرف بني هلال تامّاً على النحو الذي أشار إليه التجاني في القرن الرابع عشر ميلادي[6] . إذ أكّد

---

1) كانت تُكتَب في القديم بالسّين أي سفاقس (لا صفاقس) ، ابن حوقل ، 70/1-71 ، البكري ، 19-20 ، المقدسي ، 4-5 ، 16-17 ، الإدريسي ، 103 ، 107 ، البلدان ، 87/5-88 ، التجاني ، 69 ، الحلل ، 135/1-136 ، مقديش ، (الطبعة الجديدة) ، 2/ ص 171 وما بعدها ، المعيار ، 182/1 ، (فتوى القابسي) : قصر سفاقس ، برنشفيك ، العهد الحفصي [الترجمة العربية ، 342/1] .

2) جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 72-73 ، ولنفس المؤلف ، الجامع الكبير بصفاقس ، تونس 1960 ، مناقب ، 197-198 .

3) مقديش ، نزهة الأنظار (الطبعة الجديدة) ، 335/2 وعندما تحدّث نفس المؤلف (490/1) عن ثورة صفاقس ضدّ النرمان ، أشار إلى وجود ساباط الموازين شرقي الجامع الكبير ، وهو جزء مغطّى من الشارع ويسمّى الرمّانة ، نسبة إلى آلة الوزن .

4) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 76 ظ . [طبعة بيروت ، 201/2] .

4م) [الإدريسي ، 107] .

5) [نفس المرجع ، والزروب شباك تنصب في البحر لصيد السمك] .

6) رحلة التجاني ، 68 .

الإدريسي[7] أن أهمّ ما كانت تنتجه صفاقس هو الزيتون الذي يُسْتَخْرَج منه زيت لا مثيل له ، كان يصدّر إلى المغرب ومصر وصقليّة وإيطاليا[8] . ويبدو أن الثياب الملوكية الرفيعة المصنوعة من صوف البحر ، التي أشار إليها التجاني[9] ، كانت موجودة منذ أوائل العصر الوسيط . فقد تحدّث عنها المقدسي باعتبارها إحدى عجائب المغرب في العصر الفاطمي[10] . وكان أهل صفاقس يتولّون « قِصارة » و « كِمادة » الأقمشة بأكثر براعة من أهل الإسكندرية[11] .

ومن بين القرى التابعة لمنطقة صفاقس أشارت المصادر إلى الناصريّة[12] وكركور (أو قرقور)[13] وفريانة[14] .

الشريط الساحلي من صفاقس إلى قابس :

توجد في عرض البحر قبالة صفاقس ، جزر قرقنة (سرتيناي في القديم) التي كانت مزروعة وتنتج كثيراً من العنب والكمّون والأنيسون ، وكان أهل الساحل يرعون فيها أنعامهم . « وليس لها دور ، وإنّما سكنى أهلها في الأخصاص »[15] . وفي أقصى جزر قرقنة يوجد برج مرتفع لتنبيه البحّارة إلى دخولهم في المياه الميّتة أو « القصير »[16] .

وتقع جنوبي صفاقس على طول الساحل المراكز التالية : طينة ونقطة ومحرس علي (المحرس

7) الإدريسي ، 107 .

8) البكري ، 20 ، ابن حوقل ، 70/1 ، وقد أكّد أن كلّ الزيت المستهلك في مصر في عصره مورّد من صفاقس ، البلدان ، 87/5 ، الاستبصار ، الترجمة ، 13 .

9) التجاني ، المصدر المذكور .

10) المقدسي ، 52-53 والهامش 143 .

11) البكري ، 20 ، البلدان ، 87/5 .

12) البلدان ، 237/8-238 ، وقد ورد فيه ذكر معاصر اسمه السلفي (ت . 576 هـ/ 1180 م) ، يحمل لقب الناصري .

13) البلدان ، 7 ، 240 : كركور ، هقديش ، 144/2-150 [طبعة بيروت ، 317/2-333 : قرقور] ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 342/2] .

14) البلدان ، 373/6 ، معالم الإيمان ، 190/3 .

15) رحلة التجاني ، 67 ، [والأخصاص هي أكواخ من القصب] .

16) البكري ، 20 [على رأس القصير بيت مشرف مبني بينه وبين البّر الكبير نحو اربعين ميلاً ، فإذا رأى قلب البيت أصحاب السفن الواردة من الإسكندرية والشام وبرقة ، أداروها إلى مواضع معلومة] .

في العصر الحاضر) ومحرس يُنْقَة (برج يونغة) ومقمداس (ماكومادس مينورس في القديم)[17] .

وإثر غزوة بني هلال ، وربّما بعد ذلك بكثير ، أقام في المحرس « قوم من هوّارة كانوا ساكنين قبل هذا بالقصور المعروفة بقصور بني خيار ، فأجلتهم العرب منها ، فانتقلوا إلى هذا الحصن ، وكان مسجداً خالياً للعبادة والرباط ، فابتنوا دياراً إلى جانبه وجعلوا على الجميع سدّاً »[18] . ويبدو أنّ قصر الروم الواقع شيئاً ما جنوبي ينقة ، يطابق موقع مقمداس[19] . والجدير بالملاحظة أن البكري[20] هو الجغرافي الوحيد الذي قدّم المعلومات التالية حول الطريق الرابطة بين قابس وصفاقس . فمن قابس يصل المسافر إلى عين الزيتونة[21] ، وهي عين جارية بالقرب من مياه راكدة ، يتحكّم فيها مرصد تابع لجابي إفريقية . ثم ينتقل إلى المحطة الموالية وهي عبارة عن منزل عامر يقع في أقصى ساحل الزيتونة ، يقال له تاورقة . وبعد ذلك يصل إلى غافق ، وهي قرية آهلة بالسكّان تقع وسط منطقة ساحلية تشتمل على عدّة قرى وتقام فيها أسواق كلّ يوم جمعة[22] . وأخيراً ينتهي إلى صفاقس .

---

17) نقائش عربية ، 376/1 هامش 2 ، جورج مارسي ، رباط سوسة ورباط المنستير ، تقديم ليزين ، كرّاسات تونس ، 1956 ، 135 والهامش 7 ، خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك ، 343/1 ، التجاني ، 84 ، الحلل ، 145/1-146 ـ رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 24 ظ ، [طبعة بيروت ، 241/1 : يُنْقَة] ، الإدريسي ، 127 ، وأكّد مقديش ، 2 ، 107 [طبعة بيروت ، 242/2] أنّ حصن يونقا كان يسمّى قصر تليلة . وحول محرس علي الذي أنشأه علي بن أسلم جدّ أبي إسحاق الجبنياني ، وأصبح يسمى فيها بعد المحرس الجديد ، انظر التجاني ، 69 والحلل ، 135/1-136 ، ومناقب ، 3 ، 198 . وفي منطقة سرت كانت توجد بلدة أخرى تسمى مقمداس ، الشماخي ، 130 .

18) رحلة التجاني ، 69 .

19) الإدريسي ، 127 : صفاقس ـ طرف الرملة (4 أميال) ـ قصر بلقة (= نقطة ؟) (10 أميال) ـ قصر تنيلة (= ينقة ؟) (8 أميال) ـ قصر الروم (4 أميال) ـ قابس (75 ميلاً) ـ ومن رأس الرملة إلى طرف الجرف : 150 ميلاً . البكري ، 85 : رأس الرملة ـ الجرف ـ قصر الروم ـ قابس . انظر أيضاً جورج مارسي ، المرجع السابق ، 1956 ، 135 والهامش 7 .

20) البكري ، 20 .

21) اليعقوبي ، 347-347 Wiet ، 208-210 : المحطة الأولى من قابس إلى القيروان هي عين الزيتونة . المقدسي ، 64-65 : الزيتونة ، البلدان ، 423/4 : عين الزيتونة على بعد مرحلة من صفاقس ، الحاج صادق ، وصف المغرب وأوروبا من القرن الثالث إلى القرن التاسع ، الجزائر ، 1949 ، 92 .

22) المقدسي ، 12-13 .

قــابـــس :

تقع مدينة قابس[23] (تاكاباس في العصور القديمة) في مؤخّرة خليج سرت ، بالقرب من مصبّ واد يحمل نفس الاسم [واد قابس] . وتتحكّم في الممرّ الضيّق الرابط بين الشطوط [السباخ] والبحر ، وتمرّ منها الطرقات الرابطة بين إفريقية والمغرب وبين طرابلس والمشرق . وكانت هذه المدينة الضخمة ذات الوظيفة البحريّة والصحراوية في نفس الوقت أصغر من طرابلس ، وهي مبنيّة بالحجارة والطوب . وكان سورها المبني بالحجارة يحتوي على ثلاثة أبواب ويحيط به خندق يُملأ بالماء عند حصول أيّ هجوم على المدينة . وكانت تشتمل على قلعة منيعة وعلى عدد من الأرباض والأسواق والحمامات ، وعلى مسجد جامع بديع . وتُنسَب المساجد الواقعة في الوقت الحاضر في حيّ جارة إلى بني جامع ، وهي مساجد سيدي إدريس وسيدي الحاج عمر وسيدي ابن عيسى[24]. وكانت تُزوِّد المدينة بالماء عين الأمير وعين سلام[25] . وقد بنى أمراء بني جامع الهلاليّون في عاصمتهم قصر العروسَيْن ، وكانوا يتباهون بجماله . وحسب رواية شفويّة استقاها التجاني ، « فإن صنهاجة هم الذين ابتدأوا بنيانه وانتهوا إلى قدر الثلثَيْن فأتمّه بنو جامع الهلاليّون »[26] .

وأكّد البكري أنّ مرفأ قابس كان يستقبل السّفن القادمة من جميع أنحاء العالم[27] . في حين لاحظ الإدريسي « أن مرساها في البحر ليس بشيء ، لأنه لا يستر من ريح ، وإنّما ترمي القوارب بواديها ، وهو نهر صغير يدخله المدّ والجزر ، وترسي به السفن الصغار وليس بكثير السّعة »[28] .

وقد كانت بساتين واحة قابس الرائعة مزروعة بشتّى أنواع النباتات ، كأشجار الزيتون والموز والتفاح والتوت والنخل ، وكانت المدينة تصدّر كمّيات كبيرة من الفواكه إلى القيروان . « وكان

---

23) ابن حوقل ، 70/1 ، البكري ، 17-18 ، المقدسي ، 12 ، 13 ، الإدريسي ، 106-107 ، الاستبصار ، الترجمة 7 ، البلدان ، 7/4-2 ـ أبو الفداء ، الجغرافيا ، الترجمة ، 198/2 ، التجاني ، ص 86 وما بعدها ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 344/1-345] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 132/2-133 .

24) جورج مارسي ، الفن المعماري ، 77-78 .

25) رحلة التجاني ، 89 : « وأما الثانية فالمشهور في اسمها عين سلام باللاّم مخفّفة ، وهي إنّما توجد في عقودهم القديمة عين سنام بالنون » .

26) ولاحظ التجاني ، 115 ، أن قلعة بني حمّاد توجد بها أيضاً المعالم التالية : المنار وعين سلام وقصر العروسَيْن .

27) البكري ، 17 .

28) الإدريسي ، 125 .

أهلها يجنون التمـور طريّة ثم يودعونها في دنّانات [جِرار] . فإذا كان بعد مدّة من ذلك خرجت عسيلة تعلو وجهها بكثير »[29] . كما أشارت المصادر إلى وفرة الكروم وقصب السكر . واشتهر أهل قابس باستعمال فضلاتهم لتسميد الحقول[30] . وكانت قابس المدينة الوحيدة في إفريقية التي تنتج نوعاً ممتازاً من الحرير . ولكن يبدو أنّ هذه الصناعة قد تدهورت . فقد ذكر الإدريسي « أنّ بها فيما سلف طرز يُعْمَل به الحرير الحسن ، وبها إلى الآن مدابغ للجلود ، يُتجهّز بها منها » . وأكّد ابن حوقل من جهته أن صناعة الجلد قد ازدهرت بها قبل العصر الصنهاجي[31] . ويشاهد الزائر من بعيد في الناحية الشرقيّة من المدينة ، برجاً عالياً مجهّزاً بمنار[32] . وتمتدّ حول قابس شرقاً وجنوباً أرباض عديدة يقيم بها الأعراب والأفارق وتقطنها جالية يهوديّة . أما المنطقة الخلفيّة ، فقد كان يقيم بها قوم من البربر الخوارج ، أي الإباضيّين ، وهم : لواتة ولماية ونفوسـة ومزاتـة وزواغة وزوارة ، وغيرهم من القبائل التي كانت تسكن في الأخصاص[33] . وتوجد في ضواحي قابس قرية تحمل اسم المعافرين ، بها مسجد يقال له مسجد سيدي علي ، نسبة إلى الفقيه الذائع الصيت أبي الحسن علي القابسي[34] .

« ولها وادٍ يأتيها من غدير كبير ، وعلى هذا الوادي قصر سجّة ، بينه وبين قابس ثلاثـة أميال ، وهو مدينة صغيرة متحضّرة بها من ناحية البحر أيضاً سوق وباعة ، وكان بها حريريّون كثيرون »[35] . وعلى بعد حوالي عشرين كيلومتراً غربي قابس ، توجد الحمّة (حمّة قابس أو مطماطة والحامّة في العصر الحاضر ، وكان اسمها في العصور القـديمة أكْـوَا) ، وهي مشهورة بـواحتها ومياهها المعدنية الساخنة[36] .

---

29) نفس المصدر .

30) البكري ، 18 ، التجاني ، 90 .

31) ابن حوقل ، 70/1 : وكان يُدبَغ بها القَرَظ والجلود التي كانت تُباع في سائر بلاد المغرب ، وكانت معطّرة وناعمة مثل الجلد الجُرَشي ، انظر حول جُرَش باليمن بالخصوص : البلدان ، 84/3-85 .

32) توجد الآن واحة اسمها المنارة ، برنشفيك ، 345/1 (الترجمة العربية) .

33) البكري ، وقد أشار الشماخي ، 409 إلى وجود مزاتة بقابس ، وحول زواغة ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ، 1934 ، 61-62 ، انظر أيضاً ابن حوقل 70/1 : كان يوجد في بادية قابس صعاليك من الخوارج يقولون بالوعد والوعيد (نظرية المعتزلة) ، غاردي وأنواتي ، المقدمة . . . 49-151 : وفي وقتٍ ما نهبوا ممتلكات الباعة ولا سيما منهم مؤدّي الضرائب .

34) معالم الإيمان ، 168/3-169 ، برنشفيك ، 345/1 (الترجمة العربية) .

35) الإدريسي ، 106-240 .

36) برنشفيك [الترجمة العربية 345/1-346]، بنو غانية ، 81، الهامش 2، الشماخي حامي من بين ويسيان (؟) 472.

ومن قابس إلى قصر ابن عَيْشُون على الساحل ثمانية أميال ، ومنه إلى قصر زجونة ثمانية أميال أيضاً ثم إلى قصر بني مأمون (أو يامون) عشرون ميلاً ، ومنه إلى أمرود أحد عشر ميلاً ، ومنه إلى قصر الجرف (رأس الجرف قبالة جربة في الوقت الحاضر) ثمانية عشر ميلاً[37] .

وينبغي أن نضيف إلى هذه الواحات الساحليّة القرى الجبليّة شبه الساحليّة الآتية : منزل تبلبو (ولو أن المصادر لم تشر إلى وجود هذه القرية في العصر الصنهاجي)[38] وكتانة[39] وقصور الزارات الثلاثة[40] .

هذا وإنّنا لا نعرف شيئاً كثيراً حول جربة (مينانكس في العصور القديمة)[41] ، سوى أنّها كانت على مذهب الخوارج . وقد أكّد الإدريسي « أنّها كانت عامُرة بقبائل البربر ، وكلامهم بالبربريّة أكثر » . وكما هو الشأن الآن ، فقد كان أهل جربة متفرّقين في بساتينها . وأشار البكري إلى وجود كثير من الذهب (؟) في هذه الجزيرة . وكان أبو الصلت قد زار مدينة جربة العتيقة الواقعة شمال حومة السوق الحالية ، فلاحظ أنها « خلاء لا أنيس فيها » ، وأوضح أنه زار « بقايا مدينة صغيرة الصنع ، مربّعة الوضع ، ويحدق بها سور مرتفع هو باقٍ إلى الآن ، وبداخلها جامع حسن البناء ، وقد تخرّب الآن ، فليس الباقي إلاّ آثاره »[42] . كما أشار أحد المصادر إلى وجود سوق الخميس في جزيرة جربة[43] .

وبعدما نوّه التجاني بتفّاح جربة الذي « لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير » ، أضاف قائلاً : « وكان من شجرة بهذه الجزيرة قبل هذا كثير ثمّ قلّ الآن بسبب أن النّصارى (النرمان)

---

37) الإدريسي ، 127 ، برونشفيك [الترجمة العربية ، 350/1-351] .
38) برنشفيك ، المرجع السابق .
39) خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك ، المرجع المذكور لعلّها كتّانة ؟ والغريب في الأمر أن المقدسي ، 64-65 ، وضع كتانة في الطريق الرابطة بين قابس والقيروان ، على بعد مرحلة بين الزيتونة والكبس (= اليسر) الواقعة على بعد مرحلة من القيروان .
40) الإدريسي ، 128 : « ومن طرف الجرف إلى رأس الأودية على الساحل أربعة وعشرون ميلاً ومنها إلى قصور الزارات عشرون ميلاً » .
41) البكري ، 19-85 ، الإدريسي ، 127-128 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 349/1-350] .
42) حسب الحلل ، 171/1 ، نقلاً عن التجاني ، 127 ، وأضاف المؤلف هذه العبارة الهامة : « قال أبو الصلت » . برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 350/1] .
43) الشماخي ، 403 .

يتحفون به ملوكهم وكبارهم ، دون تعويض لأربابه عنه ، فرأى أهل الجزيرة أنّ غيره من الشجر أعْوَد بالفائدة عليهم ، فقطعوا أكثره »[44] .

من قابس إلى طرابلس :

لقد عدّ اليعقوبي[45] خمس مراحل من قابس إلى طرابلس ، عبر المنطقة التي كانت تقيم بها زناتة ولواتة والأفارق ، وهي الفاصلات وتامديفت وقصر بني حبّان (؟) وصبرة وويلة (؟) . وأشار كلّ من المقدسي[46] والإدريسي[47] إلى القرى التالية الموجودة في الطريق الرابطة بين قابس وطرابلس ، وهي الفوّارة وآبار دخت (؟)[48] وقصر الدرق وبئر الجمّالين . وحسب الإدريسي ، كانت جميع هذه المحطّات خالية من السكّان لا يقيم بها سوى مرداس ورياح الذين عاثوا فيها فساداً . كما أشار نفس المؤلف[49] إلى وجود طريق ثانية تربط بين قابس وطرابلس وتمرّ من وادي أحناش (؟) وبئر زناتة وتامدفيت وآبار العباس وتافنات (؟) وبئر الصّفا .

وأكّد البكري[50] أن السفن كانت تنطلق من جزيرة جربة إلى مرسى الأندلسيّين ، ثم إلى قصر الدرق وعقيبلات (؟) وتنتهي إلى طرابلس بعد اجتياز جبل قنطبير المخطر .

وأشار الإدريسي[51] إلى المحطّات الموجودة بعد قصور الزارات والمسافات الفاصلة بين الواحدة والأخرى ، وهي قصر ذكومين : 25 ميلاً ، وقصر الهرا (؟) : 6 أميال ، وقصر جرجيس (جرجيس في العصر الحاضر) : 6 أميال ، وقصر بني خطّاب : 25 ميلاً ، « وهو على آخر سباخ

44) التيجاني ، 122 .

45) اليعقوبي ، 247 ، وحسب البكري ، 17 ، تمرّ الطريق الرابطة بين قابس وطرابلس من صبرة التي تسكنها زواغة . ابن حوقل ، 68/1 ، وقد سمع أن مقرّ عامل المنطقة كان بصبرة ، وذلك لمّا كانت طرابلس تابعة لإفريقية .

46) المقدسي ، 64-65 : من بئر الجمّالين إلى قابس ، البكرى ، 15-163 .

47) الإدريسي ، 121 .

48) المقدسي ، 64-65 .

49) الإدريسي ، 121 .

50) البكري ، 85 .

51) الإدريسي ، 128-129 ، وفي الخريطة ص 77 ، خلاصة تاريخ تونس ، وُضِعت نجفت في موقع جيغتيس القديمة (بو غرارة في العصر الحاضر) .

51 م) [كذا في الأصل ، وفي نزهة الأنظار ، 143/1 (طبعة بيروت) : قصر الهواء] .

الكلاب من جهة المغرب ، ويقابله في البحر اسقالة جزيرة زيزو » ، « ومن قصر بني خطّاب إلى قصر شمّاخ[52] خمسة وعشرون ميلاً ، وبينهما جون صغير يسمّى جون صلب الحمار » ، (= بحيرة البيبان الآن ؟)[53] . وقصر صالح : 10 أميال ، « وهو على قرطيل يأخذ من المشرق إلى المغرب ، طوله خمسة أميال ، ويسمّى رأس المخبز » ، وقصر كوطين : 20 ميلاً ، وقصر بني ولول : 20 ميلاً ، وقصر مركيا (؟) : 20 ميلاً ، وقصر عفسلات[54] : 20 ميلاً ، وقصر سرية (أو سربة) : 4 أميال ، وقصر سنان : ميلان ، وقصر البنداري : 3 أميال ، وقصر غرغرة : 10 أميال ، وقصر صيّاد : 6 أميال وأخيراً طرابلس : 20 ميلاً .

طرابلس :

تمثّل طرابلس[55] (أو إطرابلس ، وهو اسم يوناني معرّب معناه « الثلاث مدن » ، أي طرابلس ولبدة وسبراتة) آخر مدينة في إفريقية الشرقيّة ، وهي أهمّ من قابس . وقد احتفظت بتخطيطها المنتظم الذي يرجع عهده إلى العصور القديمة . وكان يحيط بها سور جميل مبنيّ بالحجارة البيضاء ، وقد تمّ ترميمه في سنة 345 هـ/ 956-956 م . وهو يحتوي على الأبواب الأربعة التالية : باب البحر والباب الشرقي والباب الجوفي والباب الغربي ، (وكانت تفتح على التوالي على البحر والشرق والشمال والغرب)[56] . وتوجد داخل السور بئران ، هما بئر أبي أكلنود (؟) وبئر القبّة . أما الجامع الكبير فقد بُنِي ، أو بالأحرى انتهت أشغال بنائه في العهد الفاطمي .

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من السّور ، توجد القلعة أو القصبة ، مقرّ والي المدينة ، وأمامها رياض مخصّص للوالي ، يرجع عهده إلى بني مطروح . وبالقرب من القصبة يوجد مسجد العشرة الذي لم يكن جزءاً منها ، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان مخصّصاً ، قبل الموحّدين ،

---

52) دائرة المعارف الإسلامية ، 1934 ، 59-78 .

53) برنشفيك [الترجمة العربية ، 351/1] .

54) [كذا في الأصل ، وفي نزهة الأنظار (طبعة بيروت) 144/1 : عسقلات] .

55) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 68/1 ، 70 ، البكري ، 6-9 ـ الإدريسي ، 121-122 ، المقدسي ، 12-13 ، الاستبصار ، الترجمة 3-2 ، البلدان ، 34/6-36 ، التجاني ، 237-254 ، دائرة المعارف الإسلامية (روسي) ، 861/857/4 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 424/1-428] ، المؤنس ، 61 .

56) المقدسي ، الذيل ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 426/1] .

لاجتماع الأعيان العشرة المكلّفين بإدارة المدينة . وحسب ابن حوقل[57] ، تمّ عنوةً تحويل قسم من الأسواق العديدة الموجودة في ضواحي طرابلس إلى داخل المدينة .

وقد أشارت المصادر إلى وجود بعض المساجد خارج السّور ، مثل مسجد الشّعّاب[58] ومسجد الجدّة أو الجدود الذي أصبح يسمّى فيما بعد مسجد البارزي[59] ، وهو يقع شمالي المدينة ويشرف على المقابر . وفي القرنين العاشر والحادي عشر من الميلاد كان المصلّى موجوداً في الجهة الغربية من المدينة[60] . وكان يقيم بمنطقة طرابلس قوم من البربر ، وهم هوّارة ولماية ولواتة ومزاتة وغيرهم[61] . وفي سنة 430 هـ/ 1038-1039 م غادر المدينة قسم من أهلها على الأقلّ ، إثر ظهور مجاعة[62] . ولمّا نشبت المعارك بين صنهاجة وزناتة ، قدم إليها بنو مزاتة الذين تمّ إجلاؤهم بلا شكّ من مواقعهم ، فاستقروا بها على الأقلّ مدّة من الزمن[63] .

وكان ابن حوقل قد أشار إلى إنتاج الفواكه بكثرة في منطقة طرابلس ، « كالخوخ والكمثري (الأجاص) . . والجهاز الكثير من الصّوف المرتفع وطيقان الأكسية الفاخرة الزُّرْق والكُحْل النفوسيّة (نسبة إلى نفوسة) والسّود والبيض الثمينة ، إلى مراكب تحطّ ليلاً ونهاراً . . »[64] .

وقد أشاد كلّ من ابن حوقل والبكري بخصال أهل طرابلس . وذكر التجاني « أن غابة طرابلس كانت متّصلة إلى الجبل بأنواع الفواكه على اختلافها وتعدّد أصنافها (كالتين والكمثري والتفاح والخوخ) ، فأفسدتها العرب (بنو هلال) وأجلت أهلها عنها »[65] . وكانت ملاصقة

57) ابن حوقل ، 69/1 .

58) نسبة إلى عبد الله الشعّاب (ت . 857 هـ) ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 427/1] . رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 71 و- 94 و : مسجد البندومة ، [طبعة بيروت ، 390/2 : مسجد البدويّة] ، مخطوط القاهرة : البلدوية (؟) : « وهو اليوم في قبلي (جنوبي) طرابلس بموضع يعرف بالسوق القديم ، وهي قرية مسكونة ، وفيه نحو الخمسين سارية » .

59) نسبة إلى أبي الحسن البارزي ، وحسب التجاني ، 249 ، « اشتهر هذا المسجد بسكنى أبي عثمان سعيد بن خلفون الحسّاني المعروف بالمستجاب » .

60) برنشفيك [الترجمة العربية ، 486/1] .

61) البيان ، 163/1-165 .

62) الشماخي ، 400

63) نفس المصدر ، 375 ، 399-400 .

64) ابن حوقل ، 69/1 .

65) التجاني ، 247 ، الإدريسي ، 121-122 .

للمدينة سبخة تنتج كمّيات كبيرة من الملح . كما أشار البكري[66] إلى وجود سهل في تلك الربوع يقال له فحص سوبجين ، تبلغ محاصيله الزراعية في بعض السنين مائة ضعف . وأكّد الإدريسي أن تلك المنطقة « كانت عديمة المثال في صابة الزرع ، ولا يُدْرَى في معمور الأرض مثلها في ذلك » .

ومن بين القرى التابعة لمنطقة طرابلس في العصر الصنهاجي ، أشارت المصادر إلى قرية حسّان[67] ، وذكر ابن حوقل من جهته قصر ابن كمو (؟) وَقصر مظكود (؟)[68] .

وخلف طرابلس[69] توجد أوّلاً لَبْدَة[70] (لبتيس مغنا في العصور القديمة) التي كانت كثيرة العمارة في سالف الزمان ، ثم أفسدها بنو هلال ولم يبق منها في عصر الإدريسي « إلاّ قصران كبيران ، وعمارهما قوم من هوّارة البربر ، ولها على نحو البحر قصر كبير عامر به صناعات وسوق عامرة » . وفي لبدة نخل كثير وزيتون يُستخرّج منه الزيت . ويوجد بعد ذلك قصر بني حسن وسُوَيْقة ابن مثكود[70] ، « وبها سوق مشهورة مشهودة ، وهي قصور كثيرة وأهلها يحرثون الشعير ، والعرب يخزنون بها طعامهم . ويسكنها وما حواليها قوم من هوّارة البرابر تحت طاعة العرب »[71] .

وكانت سِرْت (أو صرت)[72] مركزاً بحريّاً وجمركيّاً هامّاً يصدّر الشبّ والصوف . وقد أكّد الإدريسي أنه لم يبق فيها سوى عدد ضئيل من النخيل وأشجار التين وعدد كبير من أشجار التوت . وعلى بعد خمسة أميال جنوباً توجد بلدة ودّان[73] .

---

66) البكري ، 9 .

67) التجاني ، 249 : « أبو عثمان سعيد بن خلفون الحساني ، وأصله من قرية حسّان من قرى طرابلس » . وذكر نفس المؤلف ، 316 ، . قصر فارة وقصور الورانيز وقصر بني خيار ، « وهو أيضاً خالٍ خَرِب ، أجلت العرب أهله فانتقلوا إلى المحرس بين قابس وصفاقس » .

68) ابن حوقل ، 69/1 .

69) اليعقوبي ، 345-346 ، البكري ، 4-6 ، 85-86 ، الإدريسي ، 129-138 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 352/1] ، الإدريسي ، 122 .

70) البكري ، 9 ، ابن حوقل ، 68/1-69 .

71) الإدريسي ، 179-180 ، بنو غانية ، 134 ، الهامش 3 ، برنشفيك [الترجمة العربية 353/1] ، اليعقوبي ، 346 ، Wiet ، 205-206 : تمتدّ منازل هوّارة من سرت إلى طرابلس .

72) اليعقوبي ، 344 ، ابن حوقل ، 68/1 ، البكري ، 6 ، المقدسي ، 12-13 ، الإدريسي ، 122-130-131 .

73) اليعقوبي ، 345 ، البلدان ، 405/8-406 ، بنو غانية ، 99 الهامش 1 .

أمّا مدينة برقة[74] التي احتلّها بنو هلال ، فقد فقدت ازدهارها ، ولكنّها بقيت مركزاً تجاريّاً هامّاً في البرّ والبحر ، وكانت منطقتها تنتج القطن والفواكـه (كالجـوز والسفرجـل والأترجّ) . وكانت برقة التي يباع فيها الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وبضائع الشرق والغرب ، تصدّر إلى مصر الصوف والعسل ونوعاً مشهوراً من القطران وتمور أوجلة والزيت وتربة تستعمل للمعالجة وتُعرَف بتربة برقة . كما كانت تُدبَغ فيها الجلود .

وكانت أجدابيّة[75] في القديم مدينة تجارية كبيرة بها جامع وأسواق وفنادق الخ . . . ومركزاً هامّاً تمرّ منه القوافل السودانية ، فتحوّلت بعد غزوة بني هلال إلى قصرَيْن قائمَيْن وسط الصحراء ، يقيم بهما بعض التجار من المسلمين واليهود . وعلى بعد عشر مراحل من برقة توجد في الصحراء بلدة أوجلة[76] الواقعة جنوب غربي أجدابية ، وهي عبارة عن مركز هامّ يقع في طريق السودان ، وهناك طريق آخر يربط مباشرة بين أوجلة وودّان .

جبال مطماطة ودمّر ونفوسة :

سوف لا نفيض في الحديث عن المعقل الإباضي المستقلّ عمليّاً والواقع في أقصى شرق بلاد المغرب ، وهو عبارة عن هلال جبلي ضخم يمتدّ من قابس إلى لبدة القديمة ويقع في حافة سهل جفارة ، ويشتمل على جبال مطماطة ودمّر ونفوسة[77] .

وليست لدينا معلومات كثيرة عن الجبلَيْن الأوّلَـيْن ، سوى أنهما كـانا آهلَيْن بـأبناء لـواتة ومطماطة وأولاد دمّرو ورغمّة .

ولْنشِرْ باختصار إلى أنّ معظم الإباضيين المستقرين في منطقة القيروان والمناطق الأخرى كانوا تابعين لمزاتة[78] .

74) الأصطخري ، 37-38 ، بنو غانية ، 134 ، الهامش 2 ، حول برقـة والسكان العرب والبربر القاطنين بالمنطقة الواقعة بين تلك المدينة ومصر ، انظر ، اليعقوبي ، 342-345 ، ابن حوقل ، 66/1-67 ، الإدريسي ، 131 .

75) اليعقوبي ، 344 ، ابن حوقل ، 67/1 ، البلدان ، 121/1-122 ، الإدريسي ، 132 ، المقدسي ، 12-13 .

76) ابن حقول ، 67/1 ، البكري ، 12 ، الإدريسي ، 132 .

77) اليعقـوبي ، 346 ، ابن حوقـل ، الـترجمة 245-246 ، البكـري ، 9 ، الإدريسي ، 105 ، 122-123 ، البلدان ، 305/5 ، الاستبصار ، الترجمة 92 ، الدولة الأغلبية ، 39-46 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 353/1] ، روبلي باسي ، معابد جبل نفوسة ، المجلة ، الآسيوية . 1899 ، 423-470 ، 88-120 دبيوا ، جبل نفوسة .

78) نجد في كتاب الشماخي ، 371 ، هذه العبارة : مزاتة القيروان ، ومن بـين الزنـاتيين المنـاهضين لـلإباضيـين ، يذكـر =

أمّا جبل نفوسة ، فقد كانت تقيم به قبيلة نفوسة (نفوسة الأصلية غرباً وبنو زمّور وبنو مسكور وبنو تارديت شرقاً) ، وكذلك زناتة مغراوة وبعض عائلات من سدارتة . وكان آهـلاً بالسكّان ويشتمل على عدد كبير من القرى . وكان أهل الجبل يتعاطون زراعة الأشجار المثمرة وتربية الماشية ثم تخلّوا عنها بعد غزوة بني هلال واعتصموا بالجبال . وقد كان جبل نفوسة في العصر الوسيط يمتدّ من الغرب إلى الشرق ، انطلاقاً من لالوت (أو نالوت) إلى تيجرمين (الحدود الحالية لإقليم زنقان) .

وتطلق المصادر الإباضية القديمة اسم أميناج (المشتقّ من اسم بلدة إيناج المنقرضة) على القسم الغربي من نفوسة الذي يضمّ القاعدة الإقليمية شاروس ويتميّز تماماً عن القسم الشرقي الذي تتمثل قاعدته الإقليمية في جادو[79] .

وسنكتفي بالإشارة إلى أهمّ المراكز الواقعة من الغرب إلى الشرق ، وهي لالوت (أو نالوت)[80] التي كانت تمثّل مركزاً ثقافيّاً واقتصاديّاً هامّاً ، يشرف على حظوظه حاكم مستقلّ ، ومعبراً محتملاً يمرّ منه قسم من القوافل السودانية ، وكباو[81] ، وهي قرية هامّة وقديمة تقع في ضواحيها عدّة مراكز عمرانية نخصّ بالذكر منها ابناين[82] وفرسطاء[83] وتملوشايت[84] وتين دغيرة[85] (تندميرة في الوقت الحاضر) . وهي قرية قديمة جدّاً ما زالت مزارة إباضية إلى يومنا هذا ، وبها جامع كبير .

وحسب البكري ، نقلاً عن محمد بن يوسف بن الورّاق كانت شاروس[86] قاعدة قرى جبل

الشماخي ، 417 ، بني توجين . وجاء في نفس الكتاب ، 493-494 أن شيوخ الإباضية قد منعوا أيّ اتصال مع ثلاث قبائل بربرية متّهمة بالنهب ، وهم بنو غمرت وبنو ورسفان وبنوا إينجاسن ، وحول مزاتة طرابلس وبطن زهانة المستقرّ شمال غربي جبل نفوسة في الحدود التونسية الطرابلسية ، انظر ، اليعقوبي ، 344 ، 346 ، الإدريسي ، 123 ، T. Lewicki ، دراسات إباضيّة ، 66/1 ، الهامش 7 .

79) الشماخي ، 172-273 ، البكري ، 9 ، الإدريسي ، 105 ، دراسات إباضية ، 83/1-88 .

80) الشماخي ، في مواضع متعددة ، دراسات إباضية ، 125/1-126 .

81) الشماخي ، 163-286-330-545 ـ دراسات إباضية ، 64/1 .

82) الشماخي ، 301-305 ، 340 ، 530 ، 536 ، 550 ، دراسات إباضية ، 73/1-74 .

83) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 71/1-72 .

84) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 61/1 .

85) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 59/1-60 .

86) البكري ، 9 ، ابن حوقل ، 94/1-95 ، الإدريسي ، 105 ، الشماخي 273 برنشفيك [الترجمة العربية ، 355/1] ، دراسات إباضية ، 43/1-45 .

نفوسة . وقد نفى هذا المؤلف وجود جامع بتلك المدينة ، خلافاً لابن حوقل الذي أكّد وجوده ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى القرى المجاورة الأخرى التي يقدّر عددها بثلاثمائة قرية . وفي ضواحي شاروس كان السكّان يزرعون نوعاً ممتازاً من الشعير ، « ولهم في صنعة الخبز منه حذق ومهارة ، فاقوا في ذلك على الناس »(86م) . وتدلّ أطلال تلك المدينة المماثلة لأطلال جادو ، على ما كانت تكتسيه من أهميّة في سالف الزمان ، فقد كان بها جامع له خمس مسكبات ، وقصر مجاور لحارة اليهود(87) . وكانت تمرّ من هنالك الطريق التي تسلكها القوافل المتّجهة إلى طرابلس والسودان الغربي (تكرور) . وما زال موجوداً إلى الآن مسلك يسمّى « طريق السودان »(88) . وقد تحاربت شاروس طوال سبع سنين مع جارتها ويغو خلال القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م . وحسب رواية شفويّة استنجد أهل ويغو ببني هلال للقضاء على المدينة المنافسة التي دُمّرت في آخر القرن الحادي عشر(89) .

وتوجد في مدينة ويغو(90) التي تبعد بضع كيلومترات جنوب شرقي شاروس أطلال عظيمة ومسجد مبنيّ تحت الأرض . ويبدو أنّها كانت تمثّل أهمّ مركز إسلامي قديم في نفوسة إلى جانب القرية الكبيرة المجاورة لها ، إفاطمان(91) التي تقع بعيداً عنها في الجهة الشرقية . ويبدو أنها صارت خالية من السكّان بعد منتصف القرن الخامس الهجري بقليل .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ثلاث قرى أخرى قريبة الواحدة من الأخرى ، وهي إينير(92) وتين دوزيغ(93) وإيجطال(94) . أمّا فُسَاطُو(95) ، قاعدة الإقليم الذي يحمل نفس الاسم ، فقد كان

---

87) ما زال بعض اليهود الطرابلسيّين يحملون ألقاباً منسوبة إلى شاروس ، واكتُشِفَت في تلك المدينة قبريّات عائلات يهودية من القرن الرابع عشر م . أرشيفات مغربية ، 469/14 ، دراسات إباضية ، 45/1 هامش 2 .

88) ديبوا ، جبل نفوسة ، 289-290 . وحول إدخال ملك زنجي إلى الدين الإسلامي على يدي عالم إباضي من القرن الرابع هـ/ العاشر ، كان يتعاطى التجارة مع السودان ، انظر ، الشماخي ، 312 . انظر أيضاً ، البكري ، 158-159 ، 172 ، 177-182 . الشماخي ، 483-484 : تحوّل شيخ أباضي إلى غانة ، 457-458 ، دراسات إباضية ، 71/1 الهامش 2-72-73 .

89) الشماخي ، 327 ، ديبوا ، جبل نفوسة ، 299 ، دراسات إباضية ، 48/1 .

90) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، جبل نفوسة ، 47/1-48 .

91) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 120/1-121 .

92) الشماخي في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 34/1-35 .

93) الشماخي ، 163-317 ، دراسات إباضية ، 62/1-63 .

94) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 33/1-34 .

95) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 108/1-110 .

يديرها مقدّمون ، لم تكن علاقاتهم مع حكّام جادو دائماً على أحسن ما يرام . وفي نفس الإقليم كانت مدينة إيجناون[96] في أوائل القرن الثالث هـ/التاسع م . تمثّل خلال مدّة من الزّمن أهمّ مركز سياسي وديني في جبل نفوسة . ويدلّ اسمها[97] على وجود جالية سودانية بها قبل القرن الثامن م . وفي القرن الموالي كان والي نفوسة الرستمي يتكلّم لغة كانم السودانية ، بالإضافة إلى العربية والبربريّة . وكانت مدينة جادو المجاورة تمثّل من القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر م ، نقطة الطريق المفضية إلى زويلة في فزّان ، ومنها إلى بلاد كانم[98] .

وفي مدينة جادو التي كانت عبارة عن مركز اقتصادي وسياسي وديني قديم في نفوسة ، توجد آثار ممتدّة الأطراف[99] ، منها بقايا جامع وأسواق ، وبالقرب منها حارة اليهود وبيعة ومقبرة يهودية . وقد أشارت بعض المصادر القديمة[100] إلى وجود جالية يهُودية في تلك السوق الكبيرة التي كان يديرها قاضٍ خاصّ[101] ويتوافد عليها الناس من القرى المجاورة العديدة . وكان لكلّ من زمّور وطرميسة يوم خاصّ لارتياد السّوق . وصادف في إحدى السنين أن كان اليوم التاسع من محرّم هو اليوم المخصّص لطرميسة ، فالتمس منهم الزمّوريّون السماح لهم بقضاء شؤونهم في ذلك اليوم من السوق ، بمناسبة عاشوراء . فرفض الطرميسيّون طلبهم وانهالوا عليهم شَتْماً . وانجرّت عن ذلك معركة طاحنة بين الفريقَيْن أسفرت عن مقتل عدد كبير من طرميسة[102] .

وتوجد شرقي مدينة جادو وعدّة قرى أخرى ، نخصّ بالذكر منها ميري[103] وإيدرف[104] وتارديت[105] وأخيراً تيجرمين[106] .

---

96) الشماخي في مواضع مختلفة ، **دراسات إباضية** ، 1/94-96 .

97) جمع المذكر من الكلمة البربرية أنياو = زنجي أو أسود باللغة النفوسية ، أو الصفة المشتقة من اسم السودان البربري : جناوة ، **دراسات إباضية** ، 1/95-96 والهوامش .

98) الشماخي ، 172-185 ، **جبل نفوسة** ، 289 ، **دراسات إباضية** ، 1/90-91 ، 93 ، 96 .

99) ابن حوقل ، 1/95 ، البكري ، 9 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 92 ، الشماخي ، في مواضع مختلفة ، **جبل نفوسة** ، 245 ، **دراسات إباضية** ، 1/88 ، 92 .

100) البكري ، 9 ، الشماخي ، 243

101) الشماخي ، 324 .

102) نفس المصدر ، 243 .

103) **دراسات إباضية** ، 1/103 .

104) نفس المرجع ، 100 ، 101 .

105) نفس المرجع ، 141-142 .

106) نفس المرجع ، 111-112 .

قسطيلية (الجريد ونفزاوة وقفصة) :

تمتدّ قسطيلية في الجهة الشمالية الغربية والجهة الشرقية من سبخة التاكمرت الكبرى[107] (سبخة قسطيلية المعروفة اليوم بشطّ الجريد) . وهي منطقة ممتدّة الأطراف ذات حدود غير مضبوطة تضمّ الجريد ونفزاوة ، بل حتى قفصة وحامة قابس . وأوّل مدينة تقع في الطرف الغربي من شطّ الجريد هي درجين[108] . ومن الجريد تنطلق الطريق الشرقية المفضية إلى نفوسة والطريق الغربية المفضية إلى الأوراس[109] .

وفي الناحية الشرقية توجد مدينة نفطة (نبت في العصور القديمة)[110] ، المبنيّة بالحجارة ، وبها جامع ومسجد وعدّة حمّامات ، وهي مدينة تجاريّة تقع وسط واحة مرويّة بغزارة .

وقد روى المقدسي أنّ أهل قسطيلية (= توزر) ونفطة كانوا يأكلون الكلاب . ويبدو أنّ أكل لحم الكلاب كان منتشراً عهدئذ في الجنوب التونسي الذي كان ينتمي إلى المذهب الإباضي . وقد أشارت بعض المصادر الأخرى إلى أنّ تلك العائدة كانت شائعة أيضاً في قفصة[111] . والغريب في الأمر أن البكري[112] قد أكّد أنّ جميع أهل نفطة كانوا من الشيعة . ولذلك سمّيت

---

107) بالإضافة إلى المراجع الواردة في الهامش 113 ، انظر ، **الدولة الأغلبية** ، 51-53 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 346/1] ، دائرة المعارف الإسلامية، 856/2، T. Lewicki ، الإباضيون بتونس. . . ، 12-13 **الاستبصار** ، الترجمة ، 85، **الخلاصة**، الخريطة ص 77، الشماخي، ٩٨٢: قلعة بني درجين، 400: قلعة درجين، برنشفيك [الترجمة العربية، 348/1 الهامش 72]: ينبغي التمييز بين قلعة بني درجين ودرجين السفلى الجديدة. فلربّما كانت درجين في العهد الصنهاجي تشتمل على مدينة قديمة ومدينة جديدة. وحسب بحث قدّمه حسن حسني عبد الوهّاب يوجد بنفطة باب يسمّى باب درجين. وأكّد الشماخي، 447 أن خلافات نشبت في درجين السفلى الجديدة، فتحوّل أبو عبد الله محمد بن علي الصوفي إلى درجين ولكنّه توقّف في ربض نفطة حيث التقى به الفقهاء والعزّابة، ومن بينهم الشيخ يخلف بن يخلف ومحمد بن سعيد. وذهبوا إلى مسجد قنطرار العليا. فجاءه أهل درجين من الفريقين وأصلح بينهم.

109) **الدولة الأغلبية** ، 50 .

110) **اليعقوبي** ، 35 ، البكري ، 48 ، 74-75 ، **البلدان** ، 304/8-305 ، المقدسي ، 5-4 ، 60-61 ، 66-67 ، الإدريسي ، 105 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 962/3 (جورج مارسي) ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 348/1] . وحسب بحث للسيد ح . ح . عبد الوهاب ، يبدو أنّ كنّومة التي ذكرها الشماخي ، 394 ، 399-400 ، 436 ، 458 هي كنّونة إحدى قرى نفطة . وأشار برنشفيك [الترجمة العربية ، 348/1] إلى كنّومة المنافسة لسدّادة . وفي حاشية نسخة من كتاب الشماخي ، 458 ، إشارة إلى أن الأمر ربّما يتعلّق بقرية كنّوفة الواقعة شمالي نفطة ، خارج مقبرة تلك المدينة .

111) **المقدسي** 60-61 ، **الهامش** 172 ص 87-88 ، **الاستبصار** ، الترجمة 86 .

112) البكري ، 75 ، فاغنان ، مقتبسات لم يسبق نشرها ، 53 ، **الاستبصار** ، 79 .

تلك المدينة بالكوفة الصغرى .

وكانت توزر (توسوروس في العصور القديمة)[113] تمثّل قاعدة قسطيلية (أي منطقة الجريد) . وهي مدينة كبيرة يحيط بها سور مبني بالحجارة والطوب ، له أربعة أبواب ، وتضمّ مسجداً جامعاً جميلاً[114] وعدّة أسواق ، وأرباضاً فسيحة وعامرة . وكانت الواحة المرويّة بغزارة تنتج البقول والليمون والموز ، وعلى وجه الخصوص التمور المصدّرة بنسق ألف حمل بعير في اليوم[115] ، وتزوّد إفريقيّة بالفواكه . وكان يتردّد على توزر التي كانت تمثل مركزاً كبيراً للمبادلات التجارية ، عدد غفير من التجار ، وكانت تصدّر بالخصوص الأقمشة الصوفية[116] .

وقد كانت توزر في العصر الصنهاجي تقع شيئاً ما جنوبي المدينة الحالية ، في المكان القديم المطابق لبلد الحضرة (أو بلد الحَضَر) ، ولعلّها كانت تشتمل على ربضَيْن متنافسَيْن ، الأوّل وهو الأقدم يقيم به السكّان الأصليّون ، والثاني يسكنه الأعراب[117] .

وتوجد شمالي توزر على التوالي : الحمّة (حامّة الجريد ، أكْوَا في العصور القديمة) المحاطة بواحة[118] وتقيوس (الوديان ودقاش في الوقت الحاضر) ، « وهي مدينة حسنة عامرة ، لها غلّات

113) اليعقوبي ، 35 ، ابن حوقل ، 94/1 ، البلدان ، 428/2-429 ، البكري ، 48-49 ، المقدسي ، 26-27 ، ابن الشبّاط ، 15-16 ، 31-34 ، معالم الإيمان ، 216/2-218 ، بنو غانية ، 55-56 ، الهامش 5 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 347/1] .

114) كان لهذا المسجد أربع قباب ، وقد ابتدأت أشغال بناء مئذنته في سنة 418 هـ/1027-1028 م وانتهت في سنة 422 هـ/1030-1031 م . وكان الباب الشرقي الذي تعلوه قبّة يفتح على سوق الخرّازين ، ابن الشبّاط ، 33-34 ، الحلل ، 214/1-215 ، جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 77 .

115) أبو الفداء ، نقلاً عن ابن سعيد . وأشار صاحب الحلل ، 185/1 إلى زراعة قصب السكر بكثرة . ولكن ابن الشبّاط ، 34 ، أكّد أن حدائق توزر كانت تنتج جميع الفواكه ما عدا قصب السكر ، وذكر أيضاً الزنجبيل والمُخَيْطي والأهليلج .

116) وأشار ابن حوقل إلى الشُقّة والكساء والحنبل .

117) وذكر ابن الشبّاط ، 31-32 أنه سمع شيخاً يؤكد أن توزر قبل الفتح الإسلامي كانت تتركّب من قسمَيْن يفصل بينهما خندق . وذكر نفس المؤلف ، 16 ، جامع القصر ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 347/1] ، جورج مارسي ، محراب توزر المغربي ، ذكرى هنري باسي ، باريس 1928 ، 39/2-58 . وأكد التجاني ، 138 ، وجود جامعَيْن للخطبة داخل البلد . وذكر الشماخي ، 403 أنّ شيخاً أباضيّاً تعلّم بتوزر في درب بني مبلول ، وهو بطن من بطون بني واسين . ولعلّ علم الآثار سيوافينا بمزيد من المعلومات حول تاريخ توزر وغيرها من المدن الأخرى !

118) تتحدّث المصادر تارة عن الحمّة وطوراً عن الحامّة . اليعقوبي ، 35 ، ابن حوقل ، 94/1 ، الإدريسي ، 104 ، البكري ، 48 ، المدارك ، 2-2/3-9 ظ : حامّة قسطيلية ، البلدان 344/3-345 ، الاستبصار ، الترجمة ، 80-81 ، بنو غانية ، 81 ، الهامش 2 ، برنشفيك [الترجمة العربية 348/1] : يتعلق الأمر بحمّة البهاليل ، الخلاصة ، خريطة ص 77 : حمّة قسطيلية ، الشماخي ، 432 ، قنطرار من الحمّة ، الذيل ، 447 : مسجد قنطرار العليا ، الشماخي ، 359-360 ، =

الحنّاء والكمّون والكروياء ، وبها نخل وتمر حسن ، وجملة بقول طيّبة ناعمة »[119] .

وتقع شرقي الجريد على بعد ثلاث مراحل من قفصة ومرحلة من نفطة ، مدينة قَيْطون أو قيطون بيّاضة[120] التي تمثّل بداية إقليم سُماطة ، وتمرّ بها الطرق الثلاث المفضية إلى السودان وطرابلس والقيروان .

أمّا أهمّ مدن نفزاوة ، فهي من الشمال إلى الجنوب بشري[121] القريبة من فطناسة والمحاطة بسور ، وهي مقرّ عامل المنطقة في عصر اليعقوبي ، وطرّة (تلمين في الوقت الحاضر الواقعة غربي قبلي ، توريس تمليني في العصور القديمة)[122] ، وجمنة[123] ودوز[124] . وعلى الأرجح فإن بشري ، قاعدة الإقليم ، هي التي سمّاها المقدسي نفزاوة وسمّاها البكري مدينة نفزاوة[125] . وحسب المؤلف الثاني ، كانت مدينة نفزاوة الواقعة على بعد ستّ مراحل غربي القيروان تتزوّد بالماء من عين عظيمة ، يستطيع الناظر مشاهدة قاعها ، تسمّى باللغة البربرية فاورغة ، وتشتمل على سور مبني بالحجارة والطوب له ستة أبواب ، وعلى مسجد جامع وأسواق عامرة . وهي تقع بالقرب من وادٍ يحيط به النخيل والأشجار المثمرة ، وفي ضواحيها تجري عيون كثيرة . ثم أشار البكري إلى

---

195 : قنطرارات . ابن حوقل ، أشار إلى القصور الثلاثة الواقعة بين الحمّة وقفصة ، وتعليقاً على الخريطة 64/1 ذكر نفس المؤلف على التوالي : قلشانة ، مجّانة ، قصيرة ، القصور ، قفصة ، الحمّة ، نفزاوة ، سُماتة ، قسطيلية ، نفطة ، تامليل ، مدالة . وفي موضع آخر ، الترجمة 242-243 ، تحدّث عن سدّادة وتقيوس المختلفة عن سميتها في نفزاوة ، وهي مدينة جميلة تشبه بشري ولها سور مثلها . وفي نشرة 93/1-94 لم تُذكر سوى مدينة سُماتة ، وهي مدينة جميلة من مدن نفزاوة .

119) الإدريسي ، 104 ، انظر أيضاً ، اليعقوبي ، 35 ، البلدان ، 399/2 ، الاستبصار ، الترجمة ، 80-81 ، بنو غانية ، 81، الهامش 2، برنشفيك [الترجمة العربية 346/1-347]، الشماخي ، 386 وفي مكان آخر، 458؟ ورد ذكر دقاش إحدى قرى تقيوس الموجودة حسبما يبدو في القرن السادس هـ.

120) البكري ، 47 ، 747/6 الخلاصة ، خريطة ، ص 77 ، البلدان ، 197/7 ، 304/8 ، الاستبصار ، الترجمة ، 114-115 .

121) اليعقوبي ، 35 ، ابن حوقل ، 93/1-94 ، الاستبصار ، الترجمة ، 82 ، العمري ، ترجمة ديمزنبين ، 132 ، الهامش 3 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 346/1] ، الدولة الأغلبية ، 50-51 .

122) بنو غانية ، 95 ، الهامش ، برنشفيك ، المرجع السابق ، أبو الفداء ، الجغرافيا ، الترجمة ، 201/2 : ويصنع بلّور صافٍ جدّاً وأقمشة صوفية تصدّر إلى الإسكندرية .

123) الخلاصة ، ص 77 .

124) نفس المرجع

125) المقدسي ، 4-5 ، 26-27 ، البكري ، 47 ، البلدان ، 303/8-304 .

وجود مدينة قديمة تقع جنوبي مدينة نفزاوة ، سمّاها « المدينة » . وقد كانت محاطة بسور وتحتوي على مسجد جامع وحمّام عمومي وسوق ، وفي ضواحيها توجد بعض العيون والبساتين . ومن المحتمل جدّاً أن يكون الأمر متعلّقاً بمدينة طُرّة(126) .

وبين نفطة وباديس ، أشار ابن حوقل إلى وجود مدالة (مرحلة واحدة) ثم طامليل (مرحلتان) وأخيراً باديس (مرحلة واحدة)(127) .

وتقع شمالي الجريد المعروف وقتئذ بقسطيلية(128) ، مدينة قفصة (كبسة في العصور القديمة)(129) وسط واحة جميلة . وقد كانت ديارها وأسوارها مبنيّة بالحجارة والمرمر القديم . وكانت محاطة بأكثر من مائتي قصر تُعْرَف « بقصور قفصة »(130) . وأكّد البكري أن قفصة كانت تسدّد 50.000 دينار من الجباية . وكانت تلك المنطقة الغزيرة المياه توفّر شتّى أنواع الفواكه التي كان تزوّد بها القيروان . فكانت تنتج على وجه الخصوص ، تمورا غليظة مثل بيض الحمام ، والفستق المصدّر إلى إفريقية ، بل حتى إلى مصر والأندلس وسجلماسة . وكان أهلها يزرعون الزياتين وأشجار التين والتفاح والكروم والحناء والقطن والكمّون والنباتات العصريّة(131) . وكانت أسواق المدينة نافقة . وكانت تُصنَع بها طاسات لشرب الماء رقيقة جدّاً وناصعة البياض ، إلى درجة أنّها سُمّيت (على غرار بواقيل تونس) « الريحيّة » (نسبةً إلى الريح = خفيفة الوزن) . كما كان يُصنَع بها البلّور والأواني البرّاقة من الدّاخل أو المنحّبة والأردية والعمامات الصوفية البالغة الرقّة .

وحسب الإدريسي ، لا يزال السكّان الذين هم من الأفارق المبربرين ، يتكلّمون في عصره اللغة اللاّتينيّة الإفريقيّة ، وقد كان بقفصة مسجد يقال له : مسجد هوّارة(132) وكان أولئك البربر ينتجعون في المنطقة الوسطى من البلاد التونسية(133) .

---

126) انظر أيضاً ، الاستبصار ، الترجمة ، 82 ، البلدان ، 304-303/8 .

127) ابن حوقل ، 64/1 (شرح الخريطة) ، 88 .

128) دائرة المعارف الإسلامية ، 856-855/2 .

129) ابن حوقل ، 94/1 ، اليعقوبي ، 349 ، البكري ، 47 ، المقدسي ، 4-5 ، 64-65 ، الإدريسي ، 104 ، الاستبصار ، الترجمة ، 71-75 . البلدان ، 138/7 ، بنو غانية ، 57 ، الهامش 1 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 336/1] .

130) أشار المقدسي ، 4-5 ، 66-67 إلى مدينة القصور الواقعة على بعد مرحلتين من القيروان ، ويبدو أن الأمر يتعلق بقفصة .

131) الاستبصار ، الترجمة ، 74-75 .

132) نفس المصدر ، 71 .

133) العمري ، ترجمة دي مونبين ، 108 .

واشتهر أحد قصور قفصة ، وهو شقراطس ، بالكاتب المنسوب إليه ، وهو الشقراطسي[134] . وعلى بعد خمس مراحل جنوبي قفصة ، في اتجاه جبل نفوسة توجد مدينة زرود[135] . وعلى بعد أربع أو خمس مراحل جنوب غربي قفصة تقع مدينة بيلقين[136] التي خرّبها الأعراب .

غرب إفريقية الوسطى :

يبدو أنّ الكاف (شقبنارية) لم تكن في العصر الصنهاجي سوى موقع المدينة القديمة سيكافينيرية ، وربّما كانت توجد هناك قرية[137] .

وتوجد جنوب شرقي الكاف ، على بعد ثلاث مراحل من القيروان مدينة الأربس (لاريس أو لاريبوس في العصور القديمة)[138] ، وقد كانت قاعدة إقليمية تشتمل على مسجد جامع مبني بالحجارة وربض كبير يقال له بلد الأنبار . « وفي وسطها أعين ماء جارية لا تجفّ ، واسم عين منها رباح والأخرى زياد ، وماء عين زياد أطيب من ماء عين رباح ، ولها معدن حديد ، وليس حولها من خارجها عود نابت البتّة » . ولكنها كانت تنتج أحسن نوع من الزعفران ، وتنتج أيضاً القمح والشعير بكثرة ، وكذلك الفواكه . وتدلّ إحدى التسميات[139] على وجود سليانة الواقعة في الجهة الشرقية . وعلى بعد ثلاثة أميال جنوب غربي الأربس ، توجد مدينة أبّة (أبّا في العصور القديمة)[140] المنتمية في الواقع إلى منطقة مشتركة بينها وبين الأربس ، وقد اشتهرت هي الأخرى

---

134) المنتخب المدرسي ، 86 ، إدريس ، تحيّة جورج مارسي ، 95-106 .

135) الإدريسي ، 105 .

136) نفس المصدر .

137) لم يتحدث عنها البكري ، 33 ، إلا في العصر البيزنطي عندما ذكر كنيستها ، الاستبصار ، الترجمة ، 94-95 ، بنو غانية ، 112 ، الهامش 4 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 333/1] .

138) ابن حوقل ، 86/1 ، البكري ، 136-137 ، بنو غانية ، 112 الهامش 2 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، الخلاصة ، خريطة ، ص 77 ، وفي شرح الرسالة لابن ناجي ، 246/1 يمكن أن تكون أولاج (؟) هي الأربس . وقد سمع اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) أنها كانت تشتمل على عشرة مساجد .

139) نقائش عربيّة ، 237/1-238 ، قبريّة مؤرخة في 325 هـ/937 م .

140) ابن حوقل ، 87/1 ، البكري ، 53 ، المقدسي ، 66-67 ، الإدريسي ، 177 ، البلدان ، 99/1-100 ، برنشفيك ، المرجع السابق ، الخلاصة ، الخريطة ، ص 77 ، بنو غانية ، 147 ، الهامش 5 . نلاحظ في الخريطة : محطّة الزعفران ومحطة الأربس .

بإنتاج الزعفران . « وكان بها عين جارية منها شربهم ، وسور مبني بالتراب » . وكانت أسعارها رخيصة . ولكن أكثرها قد صار خراباً في عصر الإدريسي .

وفي الجهة الجنوبية الغربية توجد منذ ذلك التاريخ قلعة الصنم (أو قلعة سنان) التي كانت تسمّى آنذاك قلعة السكّة[141] ، وكانت تقام بها سوق عموميّة ، والقلعة الجرداء التي كانت تسمّى قلعة الديك[142] .

وفي الطريق الرابطة بين الأربس وتامديت ، على بعد مرحلة من سبيبة ، تقع ، على ضفاف واد سرّات (سهل برجنّة) ، مدينة مرماجنّة الجميلة[143] التي كان بها مسجد جامع وفندق وسوق ، وقد كانت تابعة لهوّارة ، واعتبرها المقدسي جزءاً من إقليم تبسّة . وكانت تلك المنطقة تنتج كثيراً من القمح والشعير . وقد سدّد أهل مرماجنّة ، إثر غزوة بني هلال ، ضريبة إلى الأعراب[144] .

وأشار البكري إلى المراكز التالية الواقعة في الطريق الرابطة بين القيروان وبونة ، وهي أجّار والفهميّين (؟) وجزيرة أبي حمامة ومدينة الأنصاريّين التي تفصلها عن الأربس مرحلة واحدة ولا تبعد كثيراً عن سهل بلّ (= بلا ريجية) . وقد كانت تنتج أحسن أنواع الحنطة في إفريقية[145] .

وأشارت بعض المصادر إلى وجود مدينة القصرين الحالية (سيليوم في العصور القديمة) ، الواقعة جنوب غربي سبيطلة . كما تدلّ إحدى التسميات على وجود فريانة غربي القصرين ، ولكنّ

---

141) البكري ، 49 ، **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك ، المرجع المذكور .

142) المرجعان السابقان .

143) ابن حوقل ، 87-84/1 ، البكري ، 145 ، المقدسي ، 18-19 ، الإدريسي ، 118-119 ، **الاستبصار** ، 89 ، **البلدان** ، 29/8 ، برنشفيك ، المرجع السابق .

144) ذكر المقدسي (المصدر السابق) بعد مرماجنّة ، قلانش ، ويسمّى إقليمها مكنة أبي منصور التي تنتج بكثرة التين والزيتون والموادّ الغذائية ، ثم إقليم قبيشة ، وقاعدته طرناسة ، ويسكنه بنو العباس الذين استولوا عليه ، وكان ينتج سرفرجلا ممتازاً وبه عدّة زياتين وأشجار التين . وحول بني العباس الذين ينتمون إلى قبيلة بربريّة هامّة . انظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، 719/2: قلعة بني عبّاس. ويذكر المقدسي بعد ذلك إقليم رُصْفة، وقاعدته ينونش .

145) البكري ، 46-47 : من جزيرة أبي حمامة ,الربونة، توجد خمس مراحل تتخلّلها عدّة قرى . وحسب البكري ، الترجمة ، 99 ، الهامش 1 ، فإن مدينة الأنصاريّين مطابقة لقلعة جابر الحالية ، الواقعة على بعد سبعة فراسخ من الكاف . وقد أوضح المؤلف أن أحفاد جابر بن عبد الله السلامي الأنصاري كانوا قد استقرّوا بها في سالف الزمان .

146) الإدريسي ، 91، الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 335/1 الهامش 25] .

الجغرافيّين العرب قد أهملوا ذكرها ، ما عدا ياقوت[147] .

وتوجد بين التلّ الأعلى وسهل قمّودة المراكز التالية : ممّس[148] (أو ساقية ممّس) ، وهي قرية كبيرة بها مسجد وفندق ، وسبيطلة (سوفيتولا في القديم)[149] التي تدهورت في ذلك التاريخ ، إن لم تكن قد اندثرت تماماً ، وسبيبة (سوفاس أو سوفيبوس في القديم)[150] ، المحاطة بسور حصين مبني بالحجارة ، وبها جامع وحمامات وربض يشتمل على أسواق وخانات ، وفيها مياه جارية غزيرة ، مما يفسّر وجود طواحين مائية وبساتين . وبها زراعات متنوّعة مثل الحبوب والفواكه والزعفران والكمّون والكرويّة والكتّان والبقول ، كما كانت تمثّل مركزاً هامّاً من مراكز تربية الماشية .

وأكّد البكري أنّ المرتفعات المجاورة لمدينة سبيبة كانت آهلة بالأعراب من بني مغلس وبني كسلان ، وحولهم قبائل هوّارة ومرنيسة البربرية . وبطبيعة الحال ، احتلّ بنو هلال تلك المنطقة .

وبين سبيبة والقيروان ، على بعد مرحلة من المدينة الثانية ، (في موقع بلدة أولاد حفّوز الحالية بلا شكّ) ، كانت توجد قرية الجُهَيْنِيّين (أو جهنيّين) ، وهي قرية كبيرة بها عدة فنادق ودكاكين ، يسكنها حسب الاحتمال أعراب جُهَيْنة (وبنو غطفان) وتحفّ بها البساتين[151] .

وأشار البكري إلى وجود عدد من القرى المطابقة لبعض المنشآت المائية الواقعة بين ممّس والقيروان ، وهي قرية المستعين وقصر الخير وقصر الزّرادبة المعروف باسم الخُطّارة[152] .

---

147) نقائش عربية ، 1/378-379 ، البلدان ، 6/373 : فرّيانة قرية كبيرة قريبة من صفاقس (كذا) ، فهل اغترّ المؤلف بوجود عائلة عمر الفرياني أو ربما بعض العائلات الأخرى أصيلة فريانة في صفاقس ؟ ولكن من غير المستبعد أن تكون هناك بلدتان تحملان نفس الاسم ، الأولى تقع في الشرق والثانية في الغرب .

148) البكري ، 146 ، المقدسي ، 4-5 ، البيان ، 1/150 ، البلدان ، 8/158 : ممسا ، بلدة في المغرب ، خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، سولينياك ، المنشآت المائية ، 154-159 .

149) البكري ، 146 ، البلدان ، 5/33 ، الخلاصة ، المرجع المذكور .

150) ابن حوقل ، 1/84 ، المقدسي ، 4-5 ، 66-67 ، البكري ، 49 ، 146 ، الإدريسي ، 119 ، الاستبصار ، الترجمة ، 88 ، البلدان ، 5/32 ـ خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك [الترجمة العربيّة ، 1/335] . وأشار البكري ، 146 ، إلى وجود مرصد على الطريق الرابطة بين (تبسة) وسبيبة يقال له عين التينة . وحول موقع منزل الحري المجاور للمرصد وكدية الشاعر التي يبدو أن البكري قد وضعها بين قرية الجهينيّين والقيروان ، انظر ، سولينياك ، المرجع السابق ، 164-165 .

151) ابن حوقل ، 1/84 ، البكري ، 146 ، الإدريسي ، 119 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 161-164 .

152) البكري ، 146 ، سولينياك المرجع السابق ، 165-169 ، البيان ، 1/149 : « فحصر باروقّس بين مدينة جلولا وحمام السُّرادق » .

الفصـل الثانـي
المغـرب الأوسـط

أقصى الجنـوب :

تمتّد جنوب غربي الجريد وغربي نفزاوة ، من الشرق إلى الغرب منطقة شاسعة كانت بأسرها بين أيدي الخوارج[1] . وهي سوف وواد ريغ وخلفها في اتجاه الغرب ، الحضيض الصحراوي الواقع جنوبي الزاب ، والممتدّ إلى أبعد من تلك المنطقة . وتوجد واحة ورقلة الكبيرة (ورجلان أو وارقلان أو وارغلان أو وارجلان)[2] على بعد أكثر من 350 كم من بسكرة . وقد كـانت تعتبر « بوّابة السّـودان » والمعبر الضروري الـذي تمرّ منـه القوافـل الحاملة للذهب والعبيـد إلى التلّ القسنطيني .

منطقـة تبسّـة :

تقع مدينة تبسّة (تيفيست في العصور القديمة)[3] شرقي وادي شبرو وسط سهل عالٍ ،

1) برنشفيك ، **العهد الحفصي** [الترجمة العربية ، 1/297-328] ، وحول سُوف انظر ، الشماخي ، 360 ، 339-340 ، وحول أريغ (= تقرت التي ليست لدينا بشأنها أية معلومات صحيحة بالنسبة إلى العصر الصنهاجي) انظر ، الشماخي ، 360 (وجود مغراوة)، 387، 388-389 (ضواحي أريغ التي كان يعيث فيها بنو وَرْماز فساداً) ، 417 ، 424-425 (وجود بني ويليل) ، 421 ، 422 : قصر بني ويليل ، 429 ، 466 :

بنو ويليل في تلا عيسى والقنطرة)، 429، 430-431: تلا عيسى بين اريغ ورجلان. وحول تجديت، القرية من أريغ في الجهة الجنوبية، انظر الشماخي 387، 431-432-434 (مقبرة تجديت)، 488، 522 (من طرّة إلى تجديت).

2) برنشفيك [الترجمة العربية ، 1/328] ، البلدان ، 8/414 ، البكري ، 77 ، 182 (من ورجلان إلى مدينة قسطيلية 14 يوماً ومنها إلى القيروان 7 أيـام)، الإدريسي، الفهارس، 237، الشـماخي ، في عدّة مـواضع، وحـول جبل بني مصعب: الشماخي، 390-425-426، 442. وحول الطريق من درع إلى سجلماسة عبر أجرو (= أجلو؟)، تونين، أجران، وشّان، أمرغاد، انظر، البكري، 156، وحـول 468، 484-485، وحول تـونين، نفس المصـدر، 413، 437، 400، 450، 480.

3) البكري ، 49 ، 145-146 ، المقدسي ، 18-19 ، 66-67 ، البلدان ، 2/363 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 91-92 ، =

وتحفّ بها البساتينُ وأشجار الجوز ذات الثمار الجيّدة ، وهي مدينة كبيرة مبنيّة بالحجارة ، قد هدّم أبو يزيد جزءاً من سورها .

وكانت الطريق الرّابطة بين القيروان ومجّانة والمحاذية لجبل أوراس ومنطقة الشّطوط القسنطينيّة ، تمرّ في الشتاء عبر سبيبة وتبسّة ومسكيانة . وفي الصيف يمرّ المسافرون من مرماجنة[4] . وكانت تبسّة التي تمثّل مفرق طرق هامّ تشتمل على عدّة أقباء مخصّصة لاستقبال القوافل ، يستطيع كلّ قبو إيواء ألفيْ دابّة فما فوق في فصل الأمطار والثلوج[5] . ولا شكّ أن تبسّة قد تضرّرت كثيراً من غزوة بني هلال . فقد أكّد صاحب **الاستبصار** الخفيّ الاسم أنه لم يبق فيها معموراً في سنة 587 هـ/ 1191 م سوى « القصر » المحصّن الذي لم يشر إليه الإدريسي حتى مجرّد الإشارة[6] .

وتوجد غربي تبسّة ، بين هذه المدينة وبين باغاي ، على بعد مرحلة من مجّانة وبجاية بلدة مسكيانة[7] الواقعة في الوادي الذي يحمل نفس الاسم . وهي قرية عامرة ، يحيط بها سور قديم ، ولها سوق مستطيلة كالسماط[7] . وقد كانت منطقتها مروّية بغزارة ومزروعة . وحسب ابن حوقل ، كانت مسكيانة أكبر من مرماجنّة[9] ، وكان يشرف على حظوظ المدينتين والٍ واحد .

باغـاي :

تقع باغاي (أو باغاية)[10] في سفح جبل أوراس ، على بعد حوالي اثني عشر كيلومتراً شمالي

= برنشفيك [الترجمة العربية ، 1/323] البكري ، 49 : وهو يقول أن تبسة تقع شرقي وادي ملاق ، وفي خرائطنا يبدأ وادي ملاق في الشمال الغربي انطلاقاً من رافد واديْ مسكيانة وشبرو .

4) البكري ، 145 ، وجاء في كتاب افتتاح الدعوة الذي ألفه القاضي النعمان سنة 346 هـ ، أنّ الداعي أبا عبد الله قد سلك الطريق التالية : ايكجان ، بجاية ، المسكيانة ، تبسّة ، حيدرة ، القصرين ، دارمدين ، انظر S.M. Stern ، مجلة أرابيكا ، عدد 3 ، 344 .

5) البكري ، 145-146 .

6) ياقوت ، البلدان ، 363/2 .

7) ابن حوقل ، 84/1 ، البكري ، 50 ، الإدريسي ، 119 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية 323/1] .

8) إننا نفضل على قراءة Kramers (المسالك والممالك) : « كالبساط » ، قراءة Degoeje التي أكّدها البكري : « كالسماط » .

9) حسب ما ادعاه الإدريسي ربما نقلاً عن ابن حوقل .

10) اليعقوبي ، 350 ، ابن حوقل ، 94/1 ، البكري ، 50 ، 144-145 ، المقدسي ، 20-21 ، 66-67 ، الإدريسي ، 103-104 ، 119-120 ، البلدان ، 41/2 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 323/1] .

مدينة خنشلة الحالية ، وهي مدينة كبيرة عليها سوران من حجر ، ويحيط بها من جميع الجهات ، ما عدا الجهة الغربيّة ، ربض عليه سور ، وبه أسواق وحمامات وفنادق . أما المسجد الجامع فكان يوجد داخل الحصن .

وقد كانت ضواحي المدينة المرويّة بغزارة بالجداول النازلة من جبل أوراس ، مغروسة بالأشجار المثمرة ومغطّاة بالحقول والمراعي . وحسب ابن حوقل ، كان يحكم باغاي عامل مستقلّ يجبي الضرائب (كالصّدقات[11] والمعاون وغيرها من الإيرادات) .

وكان يقيم في سهل باغاي قوم من مزاته وضريسة ، وكان هؤلاء البربر على المذهب الإباضي ، مثل سكّان باغاي الأهليّين . وحرصاً على تجنيب إبلهم قساوة الشتاء ، كانوا يتجهون نحو الرمال .

وقد تمّ تحويل أسواق باغاي إلى الربض في عهد بني زيري . ولكن بعد غزوة بني هلال ، انجرّ عن غارات الأعراب إخلاء الربض ونقل الأسواق إلى داخل المدينة . وقد تضرّرت من تلك الغارات البوادي التي كانت بها في سالف الزمان عدّة قرى ومنازل ، « وعمارها برابر يعاملون العرب (أي يدفعون لهم الجزية) ، وأكثر غلّاتهم الحنطة والشعير »[12] . إلا أن شيوخهم هم الذين كانوا يجبون الضرائب (المعاون) ويديرون شؤونهم[13] .

وأشار البكري[14] إلى وجود قاساس بين باغاي وبلزمة ، وهي مدينة عتيقة تقع على ضفة نهر ، في غربيّه جبل شاهق ، وقد كانت الطريق تمرّ من مدرسن . كما قدّم إلينا ابن حوقل المعلومات التالية[15] : تنطلق الطريق من باغاي وتمرّ من بلزمة ونقاوس وطبنة ، ثم تلتحق بالطريق الرابطة بين مجّانة وتيجس وبونة . ومن تيجس يمكن الذهاب إلى قسنطينة وميلة وسطيف والمسيلة ، أما أقصر طريق مفضية إلى المغرب ، فهي الطريق التي تمرّ من سطيف وحائط حمزة وأشير .

---

11) حسب قراءة Degoeje ، أمّا Kramers فقد قرأ تلك الكلمة : « الصّلاة » ، دون اعتبار القراءة السابقة التي تبدو ملائمة أكثر للسياق .

12) الإدريسي ، 104 .

13) نفس المصدر .

14) البكري ، 50 ، وحسب دي سلان توجد اليوم بلدتان تحملان نفس الاسم الأولى تقع على بعد 7 فراسخ جنوب شرقي تبسّة والثانية على بعد 8 فراسخ شرقي باتنة .

15) ابن حوقل ، 85/1 .

مجّانـة :

تقع مجّانة[16] بالقرب من جبل ونزة على بعد مرحلة كبيرة من مرماجنّة ، وقد اشتهرت بحجر الطواحن الصّلد الذي كان يُقتَطع من الجبال المجاورة ويُصدَّر إلى القيروان وسائر بلاد المغرب ، ولذلك سُمِّيَت مجّانة المطاحن . وتسمّى أيضاً قلعة بُسْر ، نسبةً إلى مؤسّسها وفاتح المنطقة بسر بن أرطا ، أو مجّانة المعادن ، بسبب معادنها الكثيرة كالحديد والفضّة[17] والمرتك [أوّل أكسيد الرصاص] ، والرصاص والإثمد ، وكان يحيط بها سور من تراب أو طوب ، ولها جامع وأسواق وحمّامات . ويحتوي حصنها على 360 ماجلاً . وأخيراً فقد كانت مجّانة مفرق طرق هامّ[18] .

وكان أهل مجّانة أساساً من أصل عربي ، وكانت ضواحيها في قبضة لواتة . وكانت باديتها الخصبة المرويّة بغزارة والمزروعة تنتج الحبوب وعلى وجه الخصوص الزعفران . « وأرض مجّانة تغلّبت عليها العرب ، فتختزن بها طعامها »[19] .

وعلى بعد مرحلتين من الأربس ومرحلة من مرماجنّة توجد تامديت[20] ، وهي مدينة صغيرة تقع بين وادي ملاق وتيفاش ، ولها سور من تراب ، « وغلّات أهلها من الحنطة والشعير المقدار الكثير » .

أما تيفاش (تيبازة في العصور القديمة) ، فهي « مدينة قديمة عليها سور (مبني) بالحجارة والجير ، وبها عين جارية ، ولها بساتين ورياضات ، وأكثر غلّاتها الشعير »[21] .

---

16) اليعقوبي ، 349 ، ابن حوقل ، 84/1 ، البكري ، 145 ، المقدسي ، 66-67 ، الإدريسي ، 117-118 ، البلدان ، 386/7 ، الاستبصار ، الترجمة 89 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 322/1-323] ، جورج مارمي وليفي بروفنسال ، حوليات الدراسات الإسلامية الشرقية ، 3 ، 1937 ، 13-18 .

17) حسب البكري ، 145 ، كان منجم من مناجم الفضة تابعاً للواتة ويسمّى الوريطسي (؟) .

18) نقائش عربية ، 159/1 ، الهامش 4 ، المقدسي ، 66-67 : من مجّانة إلى تبسّة ، إلى باغاي ، إلى دوفانة ، إلى عين العصافير ، إلى دار ملول ، إلى طبنة ، إلى مقرة أو إلى المسيلة وهي مرحلة ، وكلّ واحدة من تلك المدن تبعد عن الأخرى مسيرة مرحلة . وحسب ابن حوقل هناك طريق تمرّ من مجّانة إلى تيجس ومنها إلى مسكيانة ، وتنفصل عن طريق باغاي قبل وادي ملاق .

19) الإدريسي ، 118 .

20) ابن حوقل ، 87/1-88 ، البكري ، 53 ، الإدريسي ، 117-118 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 322/1-323] .

21) الإدريسي ، 120 ، البكري ، 53 : ويقال لتلك المدينة تيفاش الظالمة ، البلدان ، 442/2 ، برنشفيك [الترجمة العربيّة ، 331/1] ، أشار ابن حوقل ، 64/1 ، إلى وجود مدينتين بين تيفاش وباغاي ، وهما أبّة وقصر الزيت .

ومن تيفاش إلى قصر الإفريقي[22] مرحلة ، وهي مدينة كبيرة « لا سور لها ، ولها مزارع وإصابات جمّة من الحنطة والشعير » .

الطريق من قصر الإفريقي إلى المسيلة :

تنطلق من قصر الإفريقي طريق تشقّ الهضاب القسنطينيّة ، ويسمّى جزء منها على الأقلّ الجناح الأخضر ، ثم تمرّ من المراكز التالية[23] :

- أركو[24] ، وهي قرية « لها جنّات وعيون ومياه وبساتين » .
- تيجس (تيجيزيس في القديم)[25] ، وهي محاطة بسور مبني بالحجارة ، وربض ممتدّ حول المدينة من الجنوب الشرقي إلى الشمال ، ولها أسواق وجامع وحمّام . وحسب البكري كان يقيم بها بربر نفزة وورغروسة وبنو أوتمّـو وكزناية وحمزة زناتة .
- مدينة المهريّين[26] ، الواقعة وسط سهل فسيح يسكنه قوم من كتامة ومزاته ، وبه عدّة قرى .
- تامسنت[27] .
- دكمة[28] ، « وهي قرية لها سوق وأصلها من كتامة » ، ومنها يمكن التحوّل إلى القلعة عبر مدينة

---

22) ابن حوقل ، 87/1 ، البكري ، 53 ، الإدريسي ، 120 ، البلدان ، 98/7 ، وقد أهمل هؤلاء الجغرافيون ذكر المدينة العتيقة توبرسكوم نوميداريوم الواقعة قرب منابع مجردة والتي توجد على أنقاضها قرية الخميسة الحالية . وجاء في كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان أن أحد أعوان الداعية أبي عبد الله قد سلك الطريق التالية : إيكجان (بين سطيف وميلة) ، قصر الإفريقي (بين تيفاش وتيجس) طبرسق ، بلاد مكلاتة وبني عمر ، إيكجان ، أرابيكا 6 عدد 3 S.M. Stern ، 343 .

23) ابن حوقل ، 87/1-88 ، البكري ، 53-54 ، المقدسي ، 6-7 ، الإدريسي ، 140-141 .

24) ذكرها ابن حوقل والإدريسي . البكري : من قصر الإفريقي إلى وادي الدنانير ثم تيجس الخ . . . البلدان ، 1 ، 195 . إن مدينة ركوة التي ذكرها المقدسي ، 6-7 وقال إنها تقع بين قصر الإفريقي وقسنطينة ، يمكن أن تكون مدينة أركو ذاتها .

25) ذكر اليعقوبي ، 351 أن تيجس تقع في عمل باغاي ولم يشر إلاّ إلى وجود النفزيّين ، ابن حوقل ، 87/1 ، البكري ، 53-54 ، المقدسي ، 6-7 ، وأهمل الإدريسي ذكر تيجس . وأشار البكري ، 53-54 إلى وجود مدينة توبوت بين تيجس والمهريّين في حدود بلاد كتامة ، وتوبسلكي ، وهي مدينة صغيرة تقع في سفح أنف ، ابن حوقل : إيزدران ، قرية تنتج الحنطة والشعير، ابن حوقل، تحقيق Kramers: نهزدوان، ولم يشر المحقق إلى قراءات المخطوطات الأخرى. وأشار الإدريسي إلى وجود قرية بردوان بين أركو والمهريّين، «وهي من أقاليم القمح والشعير».

26) حسب قراءة ابن حوقل والمقدسي وأحد مخطوطات البكري . وحسب الإدريسي كان لها في القديم سور ، قراءة أخرى : سوق .

27) حسب ابن حوقل والمقدسي ، البكري : تامسلت والإدريسي : تامسيت .

28) البكري ، 54 ، البلدان ، 66/6 : دكمة .

الغدير ، أو إلى المسيلة عبر أوسجيت (إيكيزبينو في القديم)[29] ، وهي قرية بها بعض الدكاكين التابعة لكتامة وتستند إلى المنحدر السفلي لجبل القلعة وتلاصق من الناحية الشمالية أرض عجيسة .

بلزمة :

توجد بلزمة[30] وسط فحص فسيح مزروع على أحسن ما يرام وعامر بالقرى ، وبينها وبين بجاية وقسنطينة يومان . وهي تتمثل في حصن بناؤه بالحجارة وله ربض وسوق ، وقد أصبحت هذه القلعة التميميّة التي قاومت الأمير الأغلبي في سالف الزمن ، تحت سيطرة مزاتة ، حسب البكري . وفي الجهة الغربيّة توجد مدينة اللاوّز[31] التي ربّما تكون مطابقة لمدينة نقاوس أو لبلدة مجاورة لها .

« ومن طبنة شرقاً إلى دار ملّول مرحلة كبيرة ، وكانت فيما سلف من الدهر مدينة عامرة وأسواقها قائمة » فتحوّلت إلى مجرّد منزل (= محطّة) يتوقف فيه المسافرون . وكان بها حصن مطلّ فيه مرصد يرجع تاريخه إلى عهد ازدهار المدينة ، « ينظر إلى محال العرب في بلادهم ، ويتطلّع منه إلى ما بَعُدَ من الأرض »[32] .

أوراس :

كان جبل أُورَاس الضخم (أَوْراس ، أورازيوس في القديم)[33] ، البربري والإباضي آهلاً بأقوام من هوّارة ومكناسة[34] . وكما كان الشأن في العصر الأغلبي ، كانت تلك المنطقة المرويّة بغزارة والمزروعة ، متشبّثة باستقلالها . ومن مجموع القرى المعلّقة التي كان عددها يساوي لا محالة

---

29) ابن حوقل ، الإدريسي وابن حمّاد ، 32 .

30) اليعقوبي ، 351 ، البكري ، 50 ، ابن حوقل ، 93/1 ، الإدريسي ، 99 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 323/1] .

31) البكري ، 50 ، ولعلّ هناك نقص في النصّ .

32) ابن حوقل ، 85/1 ، المقدسي ، 4-7 ، 66-67 ، الإدريسي ، 109 .

33) ابن حوقل ، 84/1-85 ، البكري ، 144 ، الإدريسي ، 93-94 ، الاستبصار ، الترجمة ، 92 ، الهامش ، 4 ، البلدان ، 370/1 ، الدولة الأغلبية ، 46-47 ، بيل ، بنو غانية ، 139 ، الهامش 1 . برنشفيك ، في عدة مواضع .

34) الاتعاظ ، 134 . في بداية عهد المعز لدين الله الفاطمي كان يسكن جبل أوراس بنو كملان ومليلة وهوّارة .

عدد القرى الحالية ، لا نعرف سوى قرية واحدة ، وهي دوفانة[35] الواقعة بين دار ملّول وباغاي .

الـزّاب :

في المنطقة الجنوبية الغربية من أوراس ، تبتدىء منطقة الزاب الشرقية ، وتعتبر بادس (أو باديس ، بدياس في القديم)[36] أهمّ مدينة من مدنها ، وهي تتألّف من حصنَيْن ، لكلّ واحد منهما جامع وأسواق . وكانت الحقول المحيطة بها والمرويّـة بغزارة تـزرع بالشعـير مرّتـين في السنة . وما زالت تلك المدينة عامرة في عصر الإدريسي ، ولكنّ بني هلال الذين ملكوا أرضها كانوا يمنعون أهلها من الخروج منها إلا بخفارة رجل منهم .

أما منطقة الزاب الوسطى أو إقليم بسكرة ، فقد كانت تضمّ عدداً كبيراً من المدن ، أكبرها قاعدة الإقليم ، بسكرة (فسكيرا في العصور القديمة)[37] . وقد كان هذا الحصن المبني « في كدية تراب عالٍ » ، والمحاط بسور وخندق ، يحتوي على جامع وعدّة مساجد وحمّامات عمومية وتحفّ به الأرباض . وكان له من الأبواب ، باب المقبرة وباب الحمّام وباب ثالث لم يذكر البكري اسمه . وقد حُفِرت داخل السور عدة آبار يُستخرَج منها ماء عذب ، نخصّ بالذكر منها البئر الواقعـة بالجامع والتي لا تنضب أبداً . كما يوجد داخل المدينة رياض مرويّ بواسطة تحويل مجرى النهر . وعلى بعد بضعة فراسخ يقع في الناحية الشمالية الغربية جبل الملح الذي كانت تقتطع منه قوالب الملح[38] . وكانت المدينة محاطة بغابة ممتدّة على مسافة ستة أميال ومغروسة بالنخيل والزياتين وشتّى أنواع الأشجار المثمرة وقد أُطْلِق عليها اسم بسكرة النخيـل ، إذ اشتهرت بجـودة تمورهـا التي أصبحت مضرب الأمثال[39] .

---

35) بين دار ملّول وباغاي ، على بعد مرحلة من هاتين البلدتين ، وحسب ابن حوقل ، 85/1 تقع قرية دوفانة في جبل أوراس ويسكنها بنو كُمّان (؟) (أو ولهان) الذين كانوا هم وبعض البربر من أبناء عمومتهم يملكون كامل المناطق المجاورة .

36) البكري ، 74 ، الإدريسي ، 94 ، المقدسي ، 8-9 ، البلدان ، 29/2 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 327/1] ولم تشر المصادر إلى وجود تنّومة في العصر الحفصي . ولعلّ جمونة التي أشار إليها البكري هي تنّومة ذاتها .

37) ابن حوقل ، 88/1 ، البكـري ، 52 ، المقدسي ، 8-9 ، الإدريسي ، 94 ، البلدان ، 182/2 ، بنـو غانيـة ، 90 ، الهامش 1 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 326/1] الدولة الأغلبية ، 50 .

38) وأضاف البكري أن عبيد الله وخلفاءه قد استعملوا ذلك الملح في طعامهم .

39) وأشار البكري إلى الأنواع التالية من التمور : النوع الذي يسميه أهل بسكرة الكسبا وهو الصيحاني الذي يعتبر أحسن الأنواع ويضرب به المثل ، ونوع اللياري (قراءة أخرى : كباري) وهو أبيض وأملس ، وقد أمر عبيد الله عمّاله بمنع بيع =

وكان سكّان بسكرة من المولّدين[40] . وكانت تقيم في ضواحيها بعض قبائل بربريّة ، وهي سدراتة وبنو مغراوة التابعون لأسرة بني خزر ، وبنو إيزمرتين . وكانت بسكرة تمثل مركزاً هامّاً من مراكز الدراسات الدينيّة ، وكان سكانها على مذهب أهل المدينة ، أي المذهب المالكي .

وجنوب شرقي بسكرة ، توجد مدينة تهودة (أو تهوذة)[41] المعروفة بمدينة السُّحْر ، وهي مدينة عامرة مبنية بالحجارة ومطوّقة بربض يحيط بـه من كلّ جـانب خندق يُمْـلأ بالمـاء في وقت الحرب ، بواسطة نهر نازل من جبل أوراس . وكان لها جامع بديع وعدّة مساجد وأسواق وفنادق . وفي ضواحي المدينة التي تعدّ أكثر من عشرين قرية ، تمتدّ الحقول المزروعة وواحات النخيل التي توفّر محاصيل من شتى أنواع الفواكه والحبوب . وكان يسكن تهودة قوم من الأعراب ، بعضهم من القرشيّيـن ، ويقابلهم خصومهم الأباضيون التابعون لهوّارة ومكناسة ، المستقرّون شمالي المدينة . وقد أكّد البكري أنهم ، خلافاً لأجوارهم المقيمين في بسكرة ، كانوا على مذهب أهل العراق ، أي المذهب الحنفي . وفي تهودة يوجد ضريح عقبة بن نافع الذي أدخل عليه المعزّ بن باديس بعض التحسينات[42] . وفي تلك الناحية توجد ملشون[43] . وتُعتبَر طولقة[44] أهمّ بلدة في منطقة الزاب الغربية ، وهي تتألّف من ثلاث مدن ، كلّ واحدة منها محاطة بسور من الطوب وخندق ، يسكن الأولى المولّدون والثانية العرب اليمنيّون والثالثة العرب القيسيّون . وتوجد في ضواحي تلك المنطقة عدّة بساتين مغروسة بالزياتين والكروم والنخيل والأشجار المثمرة .

وتقع جنوب غربي طولقة واحة بنطيوس[45] التي توجد بها ثلاث مدن جنباً إلى جنب ، لكلّ

ذلك النوع من التمر وإرسال جميع المحاصيل إليه . إلى غير ذلك من الأنواع الأخرى العديدة . انظر ، دوزي ، الملحق ، 561/2 .

40) حسب البكري .

41) البكري ، 72-74 المقدسي ، 8-9 ، البلدان ، 438/2 ، **الدولة الأغلبية** ، 56 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 326/1] .

42) البكري ، 74 . والجدير بالملاحظة أن تحسين هذا الضريح ينسب إلى المعزّ بن باديس ، جورج مارمي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 4 ، 1936-1940 م ، ص 1 وما بعدها ، **الفنّ المعماري** ، 71 .

43) أبو العرب ، 98 ، البكري ، 52 ، البلدان ، 149/8 ، **الاستبصار** ، **الترجمة** ، 109 .

44) البكري ، 52 ، المقدسي ، 8-9 ، البلدان ، 72/6 ، **الدولة الأغلبية** ، 56-57 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 326/1] ، ابن حوقل ، 95/1 ، الإدريسي ، 106 . ولا يمكن الموافقة على رواية هذا المؤلف الذي ادّعى أن مدينة طولقة تقع في آنٍ واحد بين جبل نفوسة ومدينة نفزاوة وغربي بسكرة وبادس .

45) البكري ، 52-72 ، المقدسي ، 4-5 ، 8-9 ، **الدولة الأغلبية** ، 57 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 326/1] .

واحدة جامعها وسورها المحاط بخندق ، يسكن الأولى بنو جرف من ذوي الأصل الفارسي ، والثانية المولّدون ، وكلّهم من أهل السنّة . أما الثالثة فيسكنها بنو واصل ، وهم من البربر الأباضيين . وهذه المدن الثلاث مرويّة بنفس النهر الواقع في الناحية الغربية والوارد من الشمال . وفي جهة الغرب تقع « صحراء » بنطيوس المروية بثلث النهر المذكور . ومن الممكن تقدير المحاصيل الزراعية مباشرة إثر انتهاء البذر ، بدون أيّ خطإ متوقّع . وفي تلك النواحي تكثر الزياتين والنخيل والقرى . وتشير بعض المصادر إلى وجود واحة مليلي (جملاي في العصور القديمة)[46] الواقعة شيئاً ما في الجهة الشرقية . وقد أشار البكري[47] إلى وجود ساقية ابن خزر غربي بنطيوس ، وسط النخيل والأشجار المثمرة ، وتُعرَف أيضاً باسم إزمرين ، حيث لا يزال قائم الذات فيها قصر قديم متهدّم . وفي الناحية الغربية تمتدّ منطقة صُحراويّة يتراوح طولها بين ثلاث وأربع مراحل ، ويتردّد عليها المغراويّون .

كما أشار البكري إلى حمّونة من بين مدن إقليم بسكرة . وأشار المقدسي من جانبه إلى جميلة . ولعلّ الأمر يتعلّق بنفس المدينة التي يتعيّن علينا ضبط اسمها وتحديد موقعها[48] . وألحق الإدريسي بنفس تلك المنطقة قلعة (أو حصن) بِشْر[49] ، وهو حصن منيع تحيط به الزروع التي سقطت بين أيدي الأعراب أثناء غزوة بني هلال .

الحضنـة :

توجد مدينة نقاوس (نيسيفيبوس في القديم)[50] في أقصى الجهة الشمالية الشرقية من منطقة

---

46) البكري ، 52 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 326/1] . ولا شك أن مدينة الدوسن ذات الأصل العتيق التي أكّدت المصادر وجودها في العصر الحفصي كانت موجودة أيضاً في العصر الصنهاجي .

47) البكري ، 72 .

48) نفس المصدر ، 52 : من بين المدن التابعة لبسكرة نذكر مدينة جمّونة ومدينة طولقة ومدينة مليلا (هكذا) ومدينة بنطيوس . . . وهناك قرية أخرى تسمّى ملشون . . . المقدسي 8-9 : تشتمل منطقة الزاب التي عاصمتها المسيلة على المدن التالية : مقّرة وطبنة وبسكرة وبادس وتهودة وطولقة وجميلة وبنطيوس وأدنة وأشير . ولعلّ جمونة التي ذكرها البكري هي تنومة الموجودة في منطقة الزاب الشرقية في العصر الحفصي ، برنشفيك ، المرجع السابق .

49) الإدريسي ، 91 ، 96 ، 99-100 : بينه وبين بجاية أربعة أيام ، وهو إلى قسنطينة أقرب ، وبينهما يومان ، ولا ينبغي الخلط بين حصن بشر وقلعة بسر (= مجّانة) .

50) على بعد 4 أو 5 فراسخ من بجاية و 4 فراسخ شمال شرقي طبنة ، اليعقوبي ، 35 ، البكري ، 50 ، ابن حوقل ، 93/1 ، ←

الحضنة . وهي مدينة كبيرة لها سور مبني بالحجارة وأراضٍ مرويّة بغزارة تنتج كثيراً من اللوز والجوز والعنب والقطن والحبوب . وكان يسيطر على المنطقة المكناسيّون[51] التابعون لأحد بطون زناتة .

وتوجد مدينة طبنة[52] جنوب شرقي الحضنة ، بين شطّ الحضنة وجبال باتنة . وقد اعتبرها اليعقوبي المدينة الرئيسيّة في منطقة الزاب وقاعدتها الإقليميّة ، وأكّد البكري أنّها تمثّل أهمّ مدينة يمكن المرور منها من القيروان إلى سجلماسة . فهي قد نهضت من كبوتها العابرة التي أشار إليها ابن حوقل ، ربّما بسبب الخصومات التي نشبت بين فريقين أوّلهما عربي والآخر بربري تابع لقبيلة برقجانة[53] . وكلّما تشاجر السكان من ذوي الأصل العربي مع السكّان الأهليّين ، استنجد الأوّلون بأعراب تهودة وسطيف واستنجد الآخرون بأهل بسكرة والمناطق المجاورة لها .

ويبدو أنّ زحفة بني هلال لم تقض على ازدهار طبنة التي وصفها الإدريسي « بالحَسَنَة » . وفي الناحية الجنوبية من سور المدينة المبني بالطوب ، يوجد القصر الضخم المبني بالحجارة والمتوّج بعدد كبير من « الآزاج » (الغرف المقبّبة) . وقد اتُّخِذ مقرّاً للعمّال وكان يُغلَق بباب حديدي . وكان به مسجد جامع وخزّان كبير مزوّد بمياه نهر طبنة المستعملة لريّ حدائق المدينة . وبين باب خاقان الضخم المبني بالحجارة وباب الفتح الواقع في الناحية الغربيّة من المدينة يمتدّ السماط (شارع كبير تحفّ به الدكاكين) الذي يبدو أنه كان يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب . وفي الناحية الجنوبية يُفتَح باب تهودة[54] الذي كان ضخماً هو الآخر . وقد كانت مصاريع تلك الأبواب الثلاثة ، وباب

المقدسي ، 26-27 ، الإدريسي ، 94 ، الاستبصار ، الترجمة ، 108 : وقد تحدّث مؤلفه عن تصدير جوز نقاوس إلى القلعة ، بنو حمّادية ، 55 ، الهامش 2 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 326/1] .

51) حسب اليعقوبي ، 351 : مكنانة (؟) .

52) اليعقوبي ، 350 ، ابن حوقل ، 85/1 ، المقدسي ، 6-7 ، 8-9 ، 66-67 - البكري ، 51 ، الإدريسي ، 93 ، البلدان ، 28/6 ، 339 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 322/1] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 847/4 ، تقع أطلال طبنة على بعد 4 كم جنوبي بريكة .

53) أشار البكري ، 144 ، إلى وجود بني زنْراج حول طبنة وأعراب هوّارة ومكناسة وكبينة وورقلة في جهة نهر الغابة (واد بريكة ؟) على بعد ثلاث مراحل ، وحسب هذا المؤلف استولت الفاقة على السكان إثر تلك المجازر وتفرقوا في المناطق المجاورة . وأكّد البكري ، 50 ، أيضاً أنّ طبنة كانت آهلة بالسكّان العرب والعجم الذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم وأنّ بني زقراخ (وهي قراءة أخرى لاسم القبيلة البربرية المذكورة أعلاه) كانوا يقيمون في ضواحي المدينة . وأشار كلّ من ابن حوقل ، 85/1-86 والإدريسي ، 86 ، إلى وجود بني زنداج في منطقة المسيلة .

54) تقع تهودة جنوب شرقي بسكرة .

آخر اسمه الباب الجديد ، مصنوعة من الحديد . كما كان يوجد قبالة بلاد كتامة في الناحية الغربية من المدينة باب خامس يقال له باب كتامة ، ربما نسبةً إلى تلك القبيلة .

وفي الناحية الغربيّة يقع الربض قبالة باب الفتح ، وهو يمثّل على الأقلّ الربض الرئيسي ، إذ أكّد البكري أن طبنة كانت لها في الأصل عدّة أرباض . وتساوي مساحة ذلك الربض ثلثَيْ مساحة المدينة ذاتها . وقد كان محاطاً بسور بناه مؤسّس المدينة ، عمر بن حفص المهلّبي ، وملاصقاً لبعض البساتين . وتوجد المقبرة في الناحية الشرقية من المدينة قرب غدير فرغان الذي كانت مياهه تغمر المصلّى . وكان فجّ زيدان يطلّ على المدينة التي كانت تشقّ شوارعها جداول مليئة بالماء الصالح للشراب .

وقد كانت منطقة طبنة المروّية بغزارة مدينةً بأكثر خصوبتها لفيضانات نهر البيطام[55] ، فكانت تنتج كمّيات وافرة من الحنطة والشعير والقطن والكتّان والحبوب وغيرها من الفواكه . أمّا قطاع تربية الماشية (البقر والغنم والخيل والبغال) ، فقد كان أقلّ ازدهاراً من قطاع الزراعة . وكانت طبنة تمثّل مفرق طرق هامّ[56] ما بين الزاب وأوراس وبلزمة ، وهي لا تزال في أوائل القرن العاشر ميلادي مركزاً تجاريّاً وصناعيّاً نشيطاً .

وعلى بعد مرحلة من طبنة والمسيلة ، توجد مدينة مقرّة (مكري في العصور القديمة)[57] الواقعة على ضفّة نهر يحمل نفس الاسم ويوجد به مرصد ، حسب ابن حوقل . وكانت هذه المنطقة مرويّة بغزارة ، « وبها مزارع وحبوب ، وأهلها يزرعون الكتان » . ومن مقرّة تنطلق الطريق المفضية إلى القلعة .

وتقع مدينة المسيلة الكبيرة[58] شمال غربي منخفض الحضنة على ضفة نهر يقال له وادِ سهر .

---

55) أشار البكري ، 5 ، إلى أنّ مياه نهر بيطام كانت تغمر جميع أراضي وبساتين طبنة ، وقد كان أهلها يقولون : « بيطام بيت الطعام » ، (أي مخزن الحبوب) .

56) أعطى الإدريسي ، 93-94 الإيضاحات التالية : من طبنة إلى مقرة مرحلة وإلى المسيلة مرحلتان وإلى باغاي أربع مراحل وإلى بجاية ست مراحل ، ومن طبنة إلى دار ملّول مرحلة كبيرة وإلى نقاوس مرحلتان . وحسب ابن حوقل ، 88/1 كانت إحدى الطرق الثلاث الرابطة بين المسيلة وإفريقية تمرّ من مقرة وطبنة وبسكرة وتهودة وبادس وتمليل ومدالة ونفطة وقسطيلية وقفصة .

57) على بعد 20 كم جنوب شرقيّ المسيلة ، ابن حوقل ، 85/1 ، البكري ، 51 ، المقدسي ، 6-7 ، 8-9 ، 66-67 ، الإدريسي ، 93 ، اليعقوبي ، 351 ، البلدان ، 7 ، 125 ، بنو غانية ، 55 الهامش 2 ، برنشفيك ، [الترجمة الغربية ، 322/1] .

58) ابن حوقل ، 85/1-86 ، البكري ، 59 ، الإدريسي ، 85-86 ، الاستبصار ، الترجمة 107-108 ، المقدسي ، 4-5 ، =

ومنذ تأسيسها في عهد عُبَيْد الله المهدي سنة 313 أو 315 هـ/ 925-927 م ، وقد سمّاها المحمّديّة نسبةً إلى ابنه أبي القاسم محمّد وعهد بإدارتها إلى علي بن حمدون بن الأندلسي ، لا تزال المسيلة تعتبر قاعدة إقليم الزاب ، وتمثّل حصناً من أهمّ حصون المغرب الأوسط ، ولو أنّ ازدهار القلعة الواقعة على بعد 12 ميلاً من تلك المدينة قد أفقدها فيما بعد شيئاً من أهمّيّتها العسكرية . وقد أقام فيها بنو حمدون قصوراً فخمة لا نعرفها إلّا من خلال قصائد مادحهم ابن هانىء الذي شدّد على « بَغْدَدَة » الزّاب وشبّهها بالعراق . وقد كانت محاطة بسورَيْن يجري الماء بينهما في قناة محدقة بالمدينة ، ويُستعمَل في آنٍ واحد لحماية المدينة وريّ ضواحيها بواسطة السّكور . ولا تزال المسيلة بعد غزوة بني هلال مدينة تجاريّة وعامرة ، لها أسواق وحمّامات ، « وهي على نهر فيه ماء كثير ، منبسط على وجه الأرض ، وليس بالعميق ، وهو عذب وفيه سمك صغير ، عليه طرق حمر حسنة ، لم يُرَ في معمور الأرض سمك على صفته ، وأهل المسيلة يفتخرون به ، ويكون مقداره من شبر فَذُون وربّما صِيد منه الكثير ، ما احْتُمِل منه إلى قلعة بني حماد »(58م) .

وتنتج البساتين والحقول المحيطة بالمدينة الحنطة والشعير والفواكه والبقول والسفرجل المستطيل المنسوب إلى تنس والمصدّر إلى القيروان ، والقطن الجيّد . وتساعد المراعي الممتازة على تربية الأنعام والدوابّ ولا سيما الخيول .

وكان الخليفة الفاطمي ، عند تأسيس المسيلة قد نقل إلى فحص القيروان بني كملان أصيلي تلك المنطقة ، كما لو كان قد توقّع مساهمتهم في ثورة أبي يزيد صاحب الحمار . وأكّد ابن حوقل أن بني برزال وبني زنداج وهوّارة كانوا يقيمون في ضواحي المسيلة . وحسب البكري كان يسكن الجبل المجاور للمدينة بنو عجيسة وهوارة وبنو برزال أصحاب المسيلة السابقون . وكان يسكن تلك الربوع ، حسب الإدريسي ، بنو برزال وبنو زنداج وهوّارة وهدراتة ومزاتة .

وكان الزناتيّون التابعون لبني برزال ، المقيمون في مناطق المسيلة والزاب السفلى وسطيف وطبنة وميلة ، متحالفين مع علي بن حمدون . ولكن بعد وفاة زيري وارتحال جعفر بن علي إلى الأندلس ، أصبحوا مطارَدِين من قِبَل صنهاجة وقد شعر عدد كبير منهم بالخطر الذي كان

8-9 ، 28-29 ، 66-67 ، البلدان ، 58/8-59 ، الاتعاظ ، 105 ، بنو غانية ، 55 الهامش 1 ، حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف ، عبيد الله المهدي ، 208 ، 209 برنشفيك [الترجمة العربية ، 321/1] ، وأشار البكري إلى وجود القباب جنوب شرقي المسيلة بالقرب من مدينة قديمة اسمها بشليقة .

58 م) الإدريسي ، 85 .

يهدّدهم ، فهاجروا إلى الأندلس[59] .

وعلى بعد مرحلة من المسيلة ومرحلتين من طبنة توجد مدينة أدنة التي دُمِّرت سنة 324 هـ/ 935 م وأصبحت خالية ، حسب البكري . ولعلها استرجعت شيئاً من نشاطها فيما بعد ، لأن المقدسي قد ذكرها من بين مدن الزّاب[60] .

وقبيل ولاية بلكّين ، قامت القبيلة الصنهاجية الكبيرة تَلْكاتة التي يبدو أنها كانت تقيم شمال شرقي مقاطعة الجزائر ، بحركة توسّعيّة واسعة النطاق في قلب المغرب الأوسط ، وذلك في اتّجاه الشمال الشرقي حتى حدود القبائل الصغرى ، وبالخصوص نحو الجنوب الشرقي في اتجاه الحضنة . ويسمح لنا تعداد أهمّ مدن تلك المنطقة بضبط حدودها التقريبيّة . وهذه المدن هي : مليانة ومدية ومدينة الجزائر في الشمال ، وبويرة (= حمزة) في الشمال الشرقي والمسيلة في الجنوب الشرقي ، وأشير في الوسط . ويمكن أن نفترض أنها كانت تمتدّ في الشمال من شرشال إلى مرسى الدجاج تقريباً ، ومن الشلف إلى القبائل الكبرى ، وفي الجنوب من الشلف إلى جبل البيبان وجبال وسهل الحضنة . ويتمثل المعقل الرئيسي لتلك المنطقة في جبل تيتري ، حيث كانت توجد قاعدتها أشير . وفي الشمال الشرقي ، يبدو أنها كانت ملاصقة بصورة تزيد أو تنقص لمنطقة القبائل الصغرى وبلاد كتامة .

ولقد عانت بعض القبائل عناءً شديداً من بلكين ، وهي مزاتة وهوّارة ونفزة وغيرهم من البربر الذي كانوا يسكنون بيوتاً مبنيّة بالأحراش ، أي أنهم كانوا شبه مستقرّين[61] . أمّا الزناتيون التابعون لمغراوة ، فقد أجلاهم الصنهاجيّون من المغرب الأوسط منذ عهد قريب صحبة بني يفرن وأبعدوهم إلى الغرب .

على أنّ بلكّين قد سمح لبني ومنّو وبني الومي بالبقاء في أراضيهم ، فأصبحوا أعواناً لصنهاجة واستغلّوا فقدان هؤلاء لنفوذهم في المغرب الأوسط ، لبسط سلطانهم على تلك الربوع . وقد دخل بنو ومنّو في خدمة بني حمّاد ، وبعد سنة 470 هـ/ 1077-1078 م ، ساعدوا المرابطين ،

---

59) البيان ، 3/267-268 ، ليفي بروفنسال ، مذكرات عبد الله ، الترجمة ، 309 الهامش 26 .

60) البكري ، 144 ، البيان ، 1/214 ، مع تعويض المسيلة بأَدْنَة ، المقدسي ، 8-9 وحسب اليعقوبي ، 351-352 كانت مدينة أَرْبَا الواقعة في أقصى غرب الزاب تمثل حدود الدولة الأغلبية ، وغربي الزاب يقيم بنو برزال وهم بطن من بني دمّار الزناتيين الخوارج ، ويشير البيان ، 1/152 ، إلى مدينة أربا في سنة 297 هـ/909 م ، البلدان ، 1/176 : يقال إنّ أربا أكبر مدينة في الزاب كانت تحيط بها 360 قرية . ولعل الأمر يتعلق بأَدْنَة .

61) البربر ، 2/8-9 .

هم وبنو إلومي ، على مقاومة المنصور بن الناصر[62] .

وقد استولى بنو هلال على السهول وأبعدوا الزناتيّين إلى المناطق الجبلية في الزاب والتلّ .

أشيـــر[63] :

يؤكّد جميع المؤلّفين[64] أن زيري قد بنى في سنة 324 هـ/ 935-936 م مدينة يقال لها أشير ، تقع في جبل تيتري في مكان به عيون ماء ويقربه مقرّ إقامته السابق الذي أصبح ضيّقاً جدّاً[65] .

وقد قدّم إلينا البكري المعلومات التالية ، ربّما اعتماداً على محمد بن يوسف الورّاق : لم يكن من الممكن الوصول إلى مدينة أشير إلّا من موضع واحد ، يستطيع عشرة رجال فقط منع جيش كامل من الاقتراب منه ، وما عدا ذلك الممرّ الواقع في الناحية الشرقية والمفضي إلى عين مسعود[66] ، ليس هناك سوى الصخور التي يستحيل تسلّقها . وفي داخل المدينة كانت تنبع عينان غزيرتان عميقتان ، هما عين سليمان وعين تالان تيرغ . وأما سورها الحصين ، فقد بناه بلكين سنة 367 هـ/ 977-978 م[67] . وبعد سنة 440 هـ/ 1048-1049 م ، خرّب المدينة يوسف بن حمّاد الذي كان يحكم المغرب باسم أخيه القائد بن حمّاد[68] . ثمّ عمّرت من جديد بعد سنة 455 هـ/ 1063 م[69] . وأكّد الإدريسي أنها ما زالت في القرن الثاني عشر ميلادي تقوم بدور بارز في منطقتها

---

62) نفس المصدر ، 294/3 وحول زناتة انظر ، بنو غانية ، 146 .

63) ابن حوقل ، 90/1 ، المقدسي ، 4-5 ، 66-67 ، البكري ، 60 ، الإدريسي ، 85 ، البلدان ، 264/1-265 ، الاستبصار ، الترجمة ، 105-106 ، البربر ، 2/ الملحق عدد 1 ، 489-492 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 489/1-490 (ابن الشنب) مجلة هسبيريس ، 1953 ، 319 ، شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، 2/ الطبعة الثانية ، 66-68 ، جورج مارسي ، المجلة الإفريقية ، 1922 ، 21-32 ، ولنفس المؤلف ، الفنّ المعماري ، 66 ، 74 ، 89 والملحق ، ص 78 وما بعدها ، إسبانيا الإسلامية ، 101/2 ، دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) 720/1-1 (ج . مارسي) .

64) ربّما اعتماداً على محمد بن يوسف الورّاق ، من خلال البكري .

65) يعتقد جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 89 ، أن القلعة الصنهاجية التي سبقت أشير كانت مقامة عى رأس جبل يعرف اليوم باسم منزه بنت السلطان .

66) وهي على الأرجح عين ماء ينبغي المقابلة بينها وبين الموقع المسمّى الآن سيدي مسعود شمال شرقي عين بوسيف .

67) أوسنة 369 هـ نظراً للخلط الممكن بين سبعة وتسعة .

68) البربر ، 46/2 .

69) لا : « بعد ذلك بخمس عشرة سنة » ، انظر البكري ، الترجمة ، 127 .

الخصبة ، فقال إنها تتمثل في « حصن حسن البقعة ، كثير المنافع ، له سوق في يوم معروف يجلب إليه كل طريفة ، ويباع به كلّ لطيفة »(69م) .

وفي أوائل القرن الخامس هـ/ حوالي سنة 1120 ، كان الثعالبة (بطن من بطون معقل) يحتلّون المنطقة الممتدة من تيتري إلى مدية(70) .

وأخيراً فمن الجدير بالتذكير أنّ أهل تلمسان الذين أجلاهم بلّكين إلى أشير (أواخر 362 أو أوائل 363 هـ/ 973 م) قد بنوا(71) مدينة جديدة يقال إنهم أطلقوا عليها اسم تلمسان .

وقد كشفت الحفريّات الأخيرة(72) عن وجود قصر صنهاجي فخم (لعلّه قصر زيري ؟) في مكان أشير الحالية الواقع شرقي المدينة القديمة (أشير زيري ؟) . كما كشفت جنوبي المكان المعروف باسم بنية عن بقايا مدينة هامّة (أشير بلكين ؟ أو تلمسان ؟) ، من المحتمل أن تكون مطابقة لمدينة أشير التي وصفتها المصادر .

ويشير البكري إلى وجود مدينة تامغلت البعيدة عن أشير بثلاثة أميال والمبنية في سفح جبل يقع في طرف الصحراء(73) .

وقد أسلفنا أن زيري ، بعد مدّة قليلة من تقليده ولاية تاهرت من قِبَل الفاطميّين (349 هـ/ 960-961 م) ، سمح لابنه ببناء ـ أو بالأحرى بإعادة بناء ـ ثلاث مدن في شكل مثلّث ، وهي مدينة الجزائر ومدية ومليانة(74) .

وكانت تشعّ من أشير في اتجاه الشمال ثلاث طرقات ، تفضي الأولى إلى مرسى الدجاج والثانية إلى مدينة الجزائر والثالثة إلى مليانة ومنها إلى تَنَسْ .

وكانت الطريق الرابطة بين أشير ومرسى الدجاج(75) تمرّ من قرية شعبة ثم من فجّ يمتدّ خلفه

---

69 م) الإدريسي ، 85-86 .

70) العبر ، 64/6 ، البربر ، 92/2 ، 123 ، 253 .

71) هل أن الأمر يتعلق بمدينة جديدة تقع بالقرب من أشير أم يتعلق بمجمّع سكني جديد داخل المدينة ؟ ذلك أن العبارة الغامضة التي استعملها ابن الأثير والنويري ، وهي « عندها » ، لا تسمح بالبتّ في المسألة ، لا سيما وأنّ التحصينات ربّما لم توجَد بعد ، اللّهم إلا إذا سلمنا أن بلكين لم يشيّدها في سنة 367 هـ (أو 369) بل أعاد بناءها أو وسّعها .

72) L. Golvin ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع ، انظر أيضاً دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) 720-721 (جورج مارسي) .

73) البكري ، 66 .

74) انظر الباب الأوّل ، الفصل الثالث من هذا الكتاب .

75) البكري ، 64-65 ، البلدان ، 338/3 (حمزة) .

سهل فسيح تلتقط في أرضه جذور الغرديب ، وهي مادّة مخدّرة تصدر إلى بعيد . ويبدو أن مدينة حمزة (البويرة في الوقت الحاضر)[76] المنسوبة إلى العلوي الذي أسّسها ، مطابقة لبلدة سوق حمزة (أو حائط حمزة) وقد أمدّتنا المصادر في شأنها بالمعلومات التالية[77] :

أقام العلوي المذكور في مدينة حمزة الواقعة وسط سهل . وهي مدينة مبنية بالطوب ، ومحاطة بسور وخندق ، تابعة لصنهاجة . ويمكن المرور منها إلى مدينة بلياس[78] الواقعة على جبل شاهق ، ومن بلياس إلى مرسى الدّجاج . وفي الجهة الجنوبية تقع مدينة بني جنّاد .

وقد وصف البكري[79] الطريق الرابطة بين القيروان ومرسى الدجاج على النحو التالي : ينطلق المسافر من القيروان إلى المسيلة ثم إلى عين أوزكور ، وهي عين ماء عذب وبارد مظلّلة بشجرة ضخمة ، تقع في أقصى حدود بلاد صنهاجة ، ومنها إلى سوق ماكسن ، وهي مدينة صنهاجيّة على نهر شلف محاطة بسور ، ثم إلى (مدينة) بني جنّاد ، وهي مدينة صغيرة تقع فوق جبل على بعد ميل من البحر ، وينتهي أخيراً إلى مرسى الدجاج .

وتوجد مدية على الطريق الرّابطة بين أشير والجزائر[80] ، وهي أوّل مدينة أشار إليها البكري تحمل اسم بطن من بطون صنهاجة[81] ثم تأتي مدينة قزرونة (أو أقرزونة)[82] التي يبدو أنها كانت موجودة في ضواحي البليدة على طول النهر الذي يمرّ من هناك ، وقد كانت فيها طواحين وبساتين . وكان سهل متّيجة ـ وهو الاسم الذي يبدو أنه كان يطلق على قزرونة ـ ينتج كثيراً من الكتان الذي كان يصدّر إلى الخارج ، أما المرحلة الأخيرة قبل الوصول إلى مدينة الجزائر فهي إغْزَر التي من المحتمل أن تكون مطابقة لمدينة بوفاريك الحالية .

وعلى الطريق الرابطة بين الجزائر ومليانة[83] توجد المراكز التالية : رطل مازوغة[84] ، وهي

---

76) البكري ، 65 .

77) البكري ، 65 ، المقدسي ، 4-5 ، 20-21 ، ابن حمّاد ، 29 البلدان ، 338/3 ، ابن خلكان ، 16/1-17 ، الغبريني ، 128 .

78) البكري ، 65 .

79) نفس المصدر .

80) نفس المصدر ، انظر أيضاً ، البلدان ، 382/7 (متيجة) .

81) حسب ابن خلدون ، العبر ، 174/6 .

82) البكري ، 65 ، 76 ، المقدسي ، 4-5 ، 20-21 ، البلدان ، 382/7 .

83) البكري ، 60-61 ، ابن حوقل ، 90/1 ، الإدريسي ، 98-99 .

84) ابن حوقل ، 90/1 ، الإدريسي ، 85 : ماورغة التي لم يشر إليها البكري وذكر في مكانها سوق هوّارة .

قرية جميلة مزوّدة بالماء بغزارة ومحاطة بالزروع ، ويبدو أنها مطابقة لسوق هوّارة الذي أشار إليه البكري ، وريغة التي كانت « لها أرض متّسعة وحروث ممتدّة ، وفواكه وبساتين ، ولها سوق حسنة تُقصَد في كل جمعة »[85] ، وأخيراً سوق كرّان[86] التي تبعد مرحلة عن مليانة وثلاث مراحل عن أشير . وهي حصن قديم جداً يقع على نهر شلف وتحفّ به الحقول والبساتين وله سوق تقام في كلّ جمعة .

أمّا مليانة[87] ، فهي مدينة رومانية قديمة أعاد بناءها زيري بن مناد الذي اتّخذها مقرّاً لإقامة ابنه بلكين ، « ولها نهر يسقي أكثر زروعها وحدائقها وجنّاتها وعليها أرحاء » .

وغربي مليانة توجد أيضاً الخضراء (أوبيديو نوفوم في العصور القديمة)[88] ومدينة بني وريفن (؟)[89] وقارية[0] وتَنَسْ (كرتيناس في القديم)[91] التي تبعد ميْلَين عن البحر .

والغالب على الظنّ أن ضواحي مليانة كانت تمثّل على سبيل التقريب حدود بلاد صنهاجة الذين افتكّوا تلك المدينة من بني مطغرة . وفي الغرب تبدأ بلاد زناتة ، وقد كان بنو ورسيفن[92] المستقرّون في ضواحي الخضراء تابعين لهم .

وهناك طريق أخرى[93] تربط بين أشير وتنس عبر مدينة بني وريفن (أو ورسيفن) التابعة لبني مطغرة ، وشلف بني واطيل التابعة لزواغة ومدينة شلف و (مدينة) بني جلّيدان التابعة لبني

---

85) الإدريسي ، 85 . ولا شك أن الأمر يتعلق بحمام ريغة الحالي ، أكوا كاليداي في القديم .

86) حسب ابن حوقل ، 90/1 والبلدان ، 228/7 ، البكري : سوق كرّام .

87) الأصطخري ، 10 ابن حوقل ، 90/1 ، البكري ، 61 ، 69 ، الإدريسي ، 56 ، 84 ، 85 ، 88 ، البلدان ، 155/8 ، الاستبصار ، الترجمة 106 ، وحول السكّان البربر في جبل وانشريس ، الواقع بين مليانة وتاهرت ، انظر الإدريسي ، 85 .

88) ابن حوقل ، 90/1 ، البكري ، 61 ، الإدريسي ، 84 ، البلدان ، 447/3 .

89) ابن حوقل ، 90/1 ، البكري ، 61-69 الإدريسي ، 84 .

90) البكري ، 61 .

91) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 77/1-90 ، البكري ، 61-63 ، الإدريسي ، 84 ، البلدان ، 414/2-416

92) البكري ، 188 ، العبر ، 147/6 ، البربر ، 598/4 الفهارس ، البربر ، 186/2 : وريفان ، وحول بني مطغرة ، انظر ، اليعقوبي ، تحقيق Degoeje ، 98 ، الإدريسي ، 85 ، البكري ، 69 ، البربر ، 172/1 ، 236 ، 237 ، 62/4 .

93) البكري ، 61 ، 69 : واريفان . الإدريسي ، 85 : وقد أورد قائمة القبائل البربرية الزناتية بلا شك التي كانت مستقرّة في جبل وانشريس الواقع جنوب مليانة ، وكذلك البطون الزناتية المقيمة في المنطقة الواقعة بين تلمسان وتاهرت (نفس المصدر ، 88) وقد حرّف النسّاخ أسماء تلك القبائل والبطون تحريفاً كبيراً .

مطغرة . وقد كانت هذه القرية آهلة بالسكّان الأندلسيين والقيروانيين ، وكان دخولها ممنوعاً على بني برقجانة منذ أن حاولوا الاستيلاء عليها .

قلعة بني حمّاد[94] :

بعد ما تخلّص حمّاد من وصاية باديس ، أقام عاصمته الجديدة سنة 398 هـ/ 1007-1008 م شمالي المسيلة على آخر خواصر جبل المعاديد ، وسط مدرج يفتح على الحضنة . وقبل أن تسمّى قلعة حمّاد أو قلعة بني حماد أو القلعة ليس إلاّ ، كانت هذه المدينة الحصينة تسمّى قلعة أبي طويل ، وكان هذا الموقع الذي اختاره حمّاد أحسن اختيار ، لا يقلّ قيمة استراتيجية عن موقع أشير ، وقد عمّره بسكّان المسيلة وحمزة ، بعدما خرّب هاتين المدينتين ، ثم استقدم جراوة من المغرب . وتقع المدينة في سند جبل كيّانة المسمى أيضاً جبل تاقربست (قربوس السرج) . وأفادنا أحد المصادر[95] أنّ أبا يزيد المُطارَد من قِبَل الخليفة في رمضان 335 هـ/ 26 مارس ـ 24 أفريل 947 م ، قد التجأ إلى جبل كيّانة الذي تسلّقه واعتصم بقلعة كِيّانة المعروفة باسم تاقربست والمطلّة على قلعة بني حمّاد . وفي موضع آخر أشار نفس المؤلّف[96] عند حديثه عن العمليّات المذكورة إلى قلعة كيّانة الواقعة في جبل القلعة . وأكّد الإدريسي من جهته أنّ « أعلى جبل تاقربست متّصل ببسيط من الأرض ، ومنه مُلِكَت القلعة »[97] . ويتضح من هذه المعلومات أن عدّة حصون كانت موجودة في ذلك الموقع قبل إنشاء عاصمة بني حمّاد . ومن ناحية أخرى كنّا نودّ لو نعرف على أيّ مصدر اعتمد ياقوت لـمّا ادّعى أن بلكّين قد بنى قلعة حمّاد حوالي سنة 370 هـ/ 980-981 م ، ولكن ليس هناك ما يدعو لرفض هذا الادّعاء .

---

94) البكري ، 49 وفي عدّة مواضع ، البلدان ، 148/7 (قلعة أبي طويل) ، 149 (قلعة حمّاد) ، أعمال ، 454 ، 460 ، 463-465 ، الاستبصار ، الترجمة ، 32-33 ، 101 ، الإدريسي ، 86 ، 91 ، العبر ، 171/6 ، شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، 2/ الطبعة الثانية ، 70-71 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 324/1] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 720/2-721 ، L. Golvin ، بحوث أثرية بقلعة بني حمّاد ، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة ، الجزائر 1953 م ، ولنفس المؤلف ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع .

95) ابن حمّاد ، الترجمة ، 51 الهامش 1 .

96) نفس المصدر .

97) الإدريسي ، الترجمة ، 100 الهامش 1 ، البكري ، الترجمة 105 ، الهامش 2 .

98) البلدان ، 149/7 .

99) البربر ، 193/3 .

هذا وإنّ جراوة الذين نقلهم حمّاد إلى القلعة وأهل المسيلة وحمزة المنتمين إلى زناتة ، كانوا يسكنون بالقلعة في حيّ متميّز عن الأحياء الأخرى ، يقع على منحدر مُطِلّ على القصر الذي لم يبق منه قائم الذات سوى برج المنار(100) .

وقد كانت القلعة تشتمل على ثلاثة أبواب على الأقلّ ، وهي باب الأقواس في الناحية الشمالية وباب جراوة في الناحية الجنوبية الشرقية ، وباب جنان في الناحية الجنوبية الغربية . ويبدو أنّ الأحياء الشعبية والأسواق كانت موجودة بجوار الجامع الأعظم الذي لا شكّ أنه يقع وسط المدينة . ولا بدّ أن هناك شارعاً كبيراً يربط بين باب جنان وباب الأقواس(101) .

وقد أفادتنا بعض الحفريات(102) بمعلومات حول عدد من المؤسسات التي كانت قائمة الذات في القلعة . فقد كان يوجد في وسط المدينة على بعد حوالي 150 متراً من الجامع الأعظم الواقع في اتجاه الجنوب ، القصر المعروف بدار البحر ، وهو مركّب ضخم متألّف من بعض البناءات ، ومجهّز بمرآة مائية (البحر) . وما زال قائم الذات جنوبي المدينة على حافة الهضبة المطلّة على وادي فرج العميق ، قصر المنار الذي هو عبارة عن حصن منيع يقع شمال شرقي حيّ جراوة . وفي الناحية الغربية يقع قصر السّلام . وقبل أن يؤسّس الناصر بجاية ، جدّد الجامع الأعظم بالقلعة وبنى بجواره عدة قصور ، وهي (قصر العروسَيْن) وقصر بلارة ، نسبة إلى ابنة تميم بن المعزّ التي تزوّجها الناصر سنة 470 هـ/ 1077-1078 م ، وقصر الخلافة ، وقصر الكوكب الذي سيُطلَق اسمه فيما بعد على قصر آخر في بجاية .

وفي أوائل القرن الرابع عشر هجري ، كانت القلعة تشتمل على عدد كبير من المساجد والفنادق ، وما لبث أن توافد عليها الطلاّب والحرفيّون . ولكنّ تخريب القيروان من طرف بني هلال هو الذي رفعها إلى مرتبة العاصمة الثريّة والآهلة بالسكّان . فقد قدم أهل إفريقية زرافات ووحدانا للاستقرار بها . « وكانت قبل عمارة بجاية دار الملك لبني حمّاد ، وفيها كانت ذخائرهم وجميع أموالهم وسلاحهم ، وتبقى الحنطة بها إلى سنتين ، وبها من الفواكه والنعم شيء كثير كله

---

100) يتساءل L. Golvin هل أنّ كنيسة القلعة المكرّسة للعذراء والتي أشار إليها Pierre Diacre قد كانت موجودة في تلك المنطقة ؟ .

101) حسب نفس المؤلف .

102) نفس المؤلف ، المغرب الأوسط ، في عدّة مواضع ، جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 75 ، 81-84 ، 93-94 ، سولينياك ، المنشآت المائية ، 255 ، الاستبصار ، الترجمة ، 101 .

103) حسب أبيات من الشعر لابن حمّاد نقلها ابن الخطيب ، أعمال ، 463-465 (انظر تعليقات المحقق) .

رخيص »[104] . وكان التجّار والمسافرون يتوافدون عليها من المشرق والمغرب . وكان يُصنَع بها لبد سروج الخيول والأكسية الغليظة ذات النسج الجميل ، المطرّزة بالذهب والمنسوبة إليها . كما كانت تصنع بها الأقمشة الصوفيّة الناعمة والبراقة كالحرير[105] .

ولكنّ قدوم بني هلال ، وما انجرّ عنه من نزوح إلى بجاية ، سرعان ما وضع حداً لازدهار القلعة التي ظلّت مدّة من الزمن نقطة الارتكاز الوحيدة بالنسبة إلى الدولة الصنهاجية . وبعد بناء بجاية بقيت المدينة باستمرار في مظهر العاصمة ، ولكن دورها أصبح ثانويّاً . وقد أخلاها يحيى بن العزيز سنة 543 هـ/ 1148-1149 م ، إلاّ أنها لم تندثر تماماً إلا في حدود القرن الثالث عشر ، إذ بقيت قائمة الذات مدّة من الزمن بعد تدهورها ، وقد أقامت الدليل على ذلك بعض الحفريّات الأثرية الحديثة[106] . ولكن الذي خرّبها نهائياً هو يحيى بن غانية في أوائل القرن السابع هجري/ وأوائل القرن الثالث عشر ميلادي[107] .

وما زال موجوداً إلى الآن بجوار أطلال المدينة ضريح الوليّ الصالح سيدي الفضل الذي أُطلِق اسمه على قرية صغيرة لا تزال قائمة الذات ، مخلّدة ذكرى أبي الفضل النحوي (ت . 513 هـ/ 1119 م)[108] .

وعلى بعد مرحلتين من المسيلة ومرحلة من أشير توجد مدينة تامزكيدة[109] . وبين المسيلة وتاهرت توجد على التوالي[110] : جوزة (أو خرزة ؟) ، وهي محطة قوافل ، وهاز ، وهي قرية كبيرة في حالة خراب ، كان زيري قد أجلى سكّانها ، وجرتيل ، وهي قرية هامّة تسكنها زناتة وتقع وسط منطقة مرويّة وخصبة ، وماما (أو ابن ماما) ، وهي مدينة صغيرة بها جامع « ولها سور تراب وأكثره طوب ، ولها بما استدار بسورها خندق محفور » ، وأخيراً أغير ، وهي قرية تشقّها الطريق

104) الإدريسي ، 91 .

105) البلدان ، 149/7 .

106) إنّ قطع الفخّار التي اكتشفها الجنرال De Beylé ودرسها جورج مارسي ، «فخار وخزف قلعة بني حمّاد» قسنطينة 1913 م ، تبدو بكل وضوح موحّدية . وبعد البحث الذي نشره نفس المؤلف في نشرية الجمعية التاريخية والجغرافية بسطيف، اكتشف L. Golvin بعض أجزاء نقائش تابعة لما بعد عهد بني حمّاد .

107) البربر ، 379/1 ، بنو غانية ، 149-150 ، الهامش 3 .

108) الباب الحادي عشر ، الفصل الأوّل .

109) ابن حوقل ، 90/1 ، الإدريسي ، 85 .

110) ابن حوقل ، 86/1 ، الإدريسي ، 87-88 ، البكري ، 143 (هاز) ، 126 ، (نهر جوزة ؟ الواقع بين المسيلة وأشير) ، البربر ، 2/ الملحق عدد 1 ، 490-491 ، الهامش 1 .

وتبعد عن تاهرت مسيرة مرحلة .

وأشار الإدريسي[111] إلى القرى التالية الواقعة على الطريق التي تربط بين أشير زيري وتاهرت وتجتاز منطقة مزروعة : قرية ابن مجبر[112] ، وهي قرية كبيرة سكّانها زناتة ، وماما السالفة الذكر ، وأخيراً المدينتان الصغيرتان دارست وأَغْبَر . وفي عصر الإدريسي ، ما زالت المنطقة الممتدة من تاهرت إلى تلمسان في حوزة قبائل من بطون زناتة ، « وهم قوم رحّالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى غيره ، لكنّهم متحضّرون ، وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل »[113] .

بـونـة :

كانت بونة[114] تتألّف من مدينتَيْن : مدينة سبوس (في موقع المدينة العتيقة هيبو ريجيس) ، وتسمّى أيضاً مدينة زاوي ، وبها مساجد وأسواق وحمّام ، وبونة الحديثة ، وهي أهمّ من الأولى ، ويحيط بها بعد سنة 450 هـ/ 1058-1059 م سور ، وتتحكّم في منطقة خصبة يسكنها البربر (مصمودة وأوربة وغيرهم) . وكانت تنتج القمح والشعير والكتان والعسل والسمن وجميع أنواع الفواكه . وكان أهلها يتعاطون تربية البقر . ويضاف إلى هذه الموارد الصيد البحري والخشب والحديد المستخرج من جبل يدوغ .

وقد كان أغلب التجّار في بونة أندلسيّين . وكانت تلك المدينة توفّر لخزينة الدولة أكثر من 20,000 دينار . وكانت سفنها المصنوعة بسهولة على عين المكان تقوم بغارات على سواحل النصارى ولا سيما سواحل سردانية وكرسيكا .

وعلى إثر وصول بني هلال الذين سيطروا على تلك الربوع ، تدهورت بونة . وعند سقوطها بين أيدي النرمان في سنة 548 هـ/ 1153-1154 ، كانت فقيرة وقليلة العمران .

---

111) الإدريسي ، 87 .

112) وهي بلا شكّ قرية مجبر الحالية الواقعة شمال شرقي بغاري وجنوبي وادي شلف .

113) الإدريسي ، 88 ، وقد ذكر أسماء تلك القبائل الزناتية وأشار إلى أنسابها .

114) البكري ، 54-55 ، المقدسي ، 4-5 ، 18-19 ، الإدريسي 99 ، 103 ، 116-117 ، 123 ، البلدان ، 309/2-310 ، الاستبصار ، الترجمة ، 30-31 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 761/1-762 بنو غانية ، 141 الهامش 3 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 319/1] . وحول أصل اسم بونة ، انظر ، شال كورتوا ، غريغوار السابع ، 208-209 ، الهامش 2 . وقد تدلّ تسميتها بمدينة زاوي ، أن المعزّ بن باديس قد أقطعها للأمير العجوز الذي رجع إلى إفريقية سنة 410 هـ/1019-1020 م اللّهم إلاّ إذا كان الأمر يتعلق بتملّك سابق لذلك التاريخ أو بشخص آخر يحمل نفس الاسم .

وقد بُني مسجد بونة المعروف بمسجد سيدي بومروان سنة 435 هـ/ 1033 م في عهد المعزّ بن باديس[115] .

وعلى بعد مرحلة من بونة ، في الطريق الرابطة بينها وبين القيروان ، يقيم في زانة قوم من البربر المستقرّون بأكواخ وأخصاص وسط غابة زان ممتدّة الأطراف ، يُصدِّر خشبها إلى إفريقيّة[116] .

القبائل الصغرى :

تتمثّل منطقة القبائل الصغرى في بلاد كُتامة[117] الذين حقّقوا النصر للفاطميّين . وكان يوجد بها من الشرق إلى الغرب عددٌ من الموانىء والمراسي[118] ، وهي على التوالي :

- مرسى الخروبة الواقع بين بونة ورأس الحمراء .
- ومرسى ابن الألبيري .
- ومرسى تكوش الواقع على بعد 18 ميلاً شرقي رأس الحمراء (قرب بلدة تاكاتوا العتيقة) . وهو ميناء محميّ على أحسن وجه[119] تشتمل منطقته الداخلية على عدة قرى ، وينتج الكثير من الفواكه وجميع خيرات الأرض ، وكان يوجد به في عصر الإدريسي ، رباط[120] .
- ومرسى الروم[121] الواقع على بعد 18 من الجهة الشرقية ، خلف جزيرة غمر ، وربّما جنوب شرقي رأس الحديد . وهو ميناء صالح لإرساء السفن في فصل الشتاء .
- ومرسى استورة[122] الذي كان يمثل ميناء مدينة سكيكدة (تاسكدة ، روسيكاد في العصور القديمة)[123] .

---

115) جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 73-74 ، ولنفس المؤلف : مسجد سيدي بومروان بعنّابة ، تحية ويليام مارسي ، باريس 1950 م ، 225-236 .
116) البكري ، 54 .
117) الدولة الأغلبية ، 47-49 .
118) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 103 .
119) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 103 .
120) الإدريسي ، 103 : « وهي رابطة وبها قوم ساكنون » .
121) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 103 .
122) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 103 برنشفيك [الترجمة العربية ، 318/1] .
123) اليعقوبي ، 351 : إسكيكدة ، البكري ، 83 : سكيكدة .

ـ ومرسى القلّ (شلّو في العصور القديمة)[124] الذي ربّما كان يؤمّن المواصلات مع قسنطينة . وفي عصر الإدريسي أصبحت القلّ التي كانت في السابق مدينة صغيرة مزدهرة ، مجرّد قرية تشتمل على ميناء وعدد من المساكن التي كان أصحابها يهجرونها في الصيف ، وهو فصل العمليّات البحريّة ، ويلتجأون إلى الجبال ، فلا يبقى في السّاحل إلا الرّجال . وقد كانت منطقة القلّ مزدهرة[125] .

وكانت جبال الرهان المطلّة على البحر قبالة سردانية مليئة بالأشجار المثمرة والأنهار والحقول والمراعي الثريّة وآهلة بالسكان الكتاميّين وغيرهم . وكانت تلك المنطقة تصدّر الخشب الصالح للتصنيع إلى إفريقيّة والمناطق القريبة منها . وكانت بها عدّة أسواق وموانىء ، مثل مرسى الشجرة ومرسى الخرّاطين[126]. وفي الطرف الغربي من تلك الجبال يوجد مرسى الزيتونة الواقع على بعد مرحلة من ميلة[127] .

أمّا جيجل (إجيجلي في العصور القديمة)[128] فهي مدينة صغيرة تقع في شبه جزيرة وتشتمل على ربض ، « ولها مرسَيان ، مرسى منها في جنوبها وهو مرسى وَعْر والدخول إليه صعب لا يدخله إلا بدليل حاذق ، ومرسى من جهة الشمال ، ويسمّى مرسى الشعراء ، وهو ساكن الحركة كالحوض ، يحسن الإرساء به ، لكنّه لا يحتمل الكثير من المراكب لصغره ، وهو رمل » (الإدريسي) .

ولما استولى رُجَار ملك صقلية على جيجل انسحب أهلها إلى الجبال في مكان يبعد ميلاً عن المدينة وبنوا حصناً كانوا يلتجأون إليه في الصيف عند قدوم الأسطول النرماني ، ولا يبقى في المدينة إلاّ الرجال المُعَافُون وبعض الباعة . وقد أصبحت جيجل التي كانت عامرة في الشتاء فحسب ، مدينة خاوية وخَرِبة . لكن المنطقة التي لم تفقد خصوبتها ما زالت تنتج بوفرة الحليب والعسل

---

124) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 98 ، الاستبصار ، الترجمة ، 115-120 برنشفيك [الترجمة العربية ، 318/1] .

125) حسب الاستبصار ، الترجمة ، 31 ، كان أقليم القل يحتوي على موارد زراعية كبيرة (كالعنب والتفاح) ويدفع مبالغ طائلة من الجباية .

126) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 102 .

127) البكري ، 64 ، الإدريسي ، 102 ، البلدان ، 24/8 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 318/1] .

128) اليعقوبي ، 351 ، البكري ، 64 ، 82-83 ، المقدسي ، 6-7 ، الإدريسي ، 97-98 ، 102 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 317/1-318] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1073/1 ، وحسب الاستبصار ، الترجمة 31 ، كان إقليم جيجل منطقة هامة تصدّر إلى بجاية الفواكه والعنب والأشربة .

والسمن والحبوب ، علاوة على موارد البحر الكثير السمك .

وكان يُستخرَج من جبال كتامة الحديد والنحاس المصدّر إلى إفريقية والمناطق الأخرى واللاّزوردي[129] .

وكان يسكن منطقة جيجل الداخلية على الأرجح بنو زلداوي أو زنداوي (بنو زنـدَايْ في الوقت الحاضر) . وهو قوم « لهم منعة وتحصّن ، وهم أهل خلاف وقيام بعض على بعض ، والجبايات التي يلتزمونها لا يؤدّونها إلا بعد نزول الخيل والرجال عليهم في تلك النواحي . ومن عوائدهم التي هم عليها أن صغيرهم وكبيرهم لا يمشي من موضع إلى غيره إلا وهو شاكي السلاح »[130] .

وعلى الشريط الساحلي الممتدّ بين جيجل وبجاية تقع جزائر العافية (منار العافية في الوقت الحاضر)[131] وحصن المنصورية على البحر[132] ومرسى سبيبة[133] . كما أشار الإدريسي إلى متّوسة التي تبعد عن بجاية اثني عشر ميلاً وتقع على الساحل أو بالقرب منه ، «وهي قرية عامرة وبها معادن الجصّ ومنها يحمل إلى بجاية »[134] .

وتقع جنوبي سلسلة الجبال التابعة للقبائل الصغرى عدة مدن نخصّ بالذكر منها قالمة[135] التي لم يذكرها إلاّ الإدريسي باعتبارها مجرّد مرحلة .

قسنطينة :

تتمثّل قسنطينة (سيرتا ثم قسطنطينة في العصور القديمة)[136] في حصن منيع جاشم على

---

129) البكري ، 33 ، 83 ، [واللاّزوردي هو حجر كريم سماوي الزرقة] .

130) الإدريسي ، 97 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 317/1] ، الاستبصار ، الترجمة ، 31 ، 97 ، البيلق ، الترجمة 82 ، الهامش 2 .

131) البكري ، 82 ، الإدريسي ، 98 .

132) حسب الإدريسي ، 98 ، الذي لم يذكر مرسى سبيبة وأكّد دي سلان (البكري ، الترجمة ، 167) أنّ كتابة هذا الاسم مشكوك في صحّتها وربّما يتعلق الأمر بقرية المنصورية الحالية .

133) حسب البكري ، 82 ، الذي لم يذكر المنصورية .

134) الإدريسي ، 114 .

135) نفس المصدر ، 91 .

136) ابن حوقل ، 93/1 ، البكري ، 63 ، المقدسي ، 6-7 ، 20-21 ، الإدريسي ، 94-96 ، البلدان ، 110-113 ، الاستبصار ، الترجمة ، 96 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 418/1-424] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 885/1 .

مسطح صخري مطلّ على جرف وادي الرمل . أضف إلى ذلك أنها كانت تستفيد من موقعها في الطريق الرئيسيّة الرابطة بين إفريقيّة والمغرب الأوسط ، كما كانت متّصلة بالزاب بواسطة مسلك هامّ تمرّ منه القوافل . ولا تزال توجد بها بعض المعالم الرومانيّة القديمة . وكان سورها البالغ ارتفاعه ثلاثة أقدام يشتمل على بابين ، أوّلهما يقع في النّاحية الغربيّة ، وهو باب ميلة والثاني في الناحية الشرقية ، وهو باب القنطرة الذي يفضي إلى جسر قديم متركّب من حنايا وقنطرة فوق جرف وادي الرمل . وتقع المقبرة بالقرب من باب ميلة .

وكان السهل المحيط بالمدينة ينتج القمح والشعير بوفرة ، وكانت قسنطينة مستودعاً كبيراً للحبوب المخزونة تحت الأرض . « وفي كلّ دار منها عدّة مطامير منقورة في الحجر تقيم فيها الحنطة مائة سنة لا تفسد »[137] . وقد كانت قسنطينة في عصر البكري تابعة لكتامة وتقيم بها عائلات أصلها من ميلة ونفزاوة وقسطيلية . « وأهلها مياسير ذو أموال واسعة ومعاملات للعرب (من بني هلال) ، ومشاركة في الحرث والادّخار ، والعسل بها كثير وكذلك السمن يُتجَهَّز به إلى سائر البلاد » .

وينبغي التأكيد على ما كانت تكتسيه قسنطينة من أهميّة باعتبارها مفرق طرق . كما تجدر الإشارة إلى المعلومات التالية التي أمدّنا بها الادريسي في شأنها[138] .

« بين قسنطينة وباغاي ثلاث مراحل ، وبينها وبين بجاية ستة أيّام ، أربعة منها إلى جيجل . ومن قسنطينة إلى أبرس (؟) خمس مراحل ، ومنها إلى بجاية أربع مراحل ومنها إلى قلعة بشر يومان ، وإلى تيفاش يومان كبيران . ومنها إلى قالمة يومان كبيران وإلى القَصْرَيْن[139] ثلاثة أيام وإلى دُورمَدْيَن[140] ستة أيام وإلى مرسى القلّ يومان في أرض العرب . والطريق من قسنطينة إلى بجاية : من قسنطينة إلى النهر إلى فحص فارة إلى قرية بني خلف إلى حصن كلديس . وحصن كلديس منيع جداً ، ومنه لقسنطينة عشرون ميلاً وليس بينهما جبل ولا خندق ، وكلديس على جرف مطلّ على نهر قسنطينة . ومن حصن كلديس إلى جبل سماو وثمانية أميال ، وهو من أعظم الجبال علوّاً وأسماها ارتقاء وأصعبها مسلكاً ، وعلى أعلاه حصن ، ويُصعَد إلى أعلاه نحو من

---

137) الإدريسي ، 95 .

138) نفس المصدر 96-97 .

139) في أحد المخطوطات : القصر ، أفلا يتعلق الأمر بقصر الطين الذي مرّ منه المعزّ قادماً من سطيف ومتوجهاً إلى إفريقية سنة 408 هـ/1017-1018 م ؟

140) وحول دُور مدين ، انظر أيضاً الإدريسي ، 57 ، الذي قال إن هذه البلدة تبعد عن بجاية 11 مرحلة .

خمسة أميال ، ويُسَار في أعلاه أيضاً نحو من ثلاثة أميال » . ولا يستطيع الأغراب اختراق ذلك الجبل الذي يمثل حدود بلادهم . ومن جبل سماو « ينحدر إلى أسفل وادٍ هناك يسمى وادي شال ، ويمرّ معه إلى سوق يوسف ، وهي قرية في سند جبل ممتنع السلوك إثنا عشر ميلاً ، وهو جبل تخترقه مياه عذبة . ومنه إلى سوق بني زندوي ، وهو حصن في بسيط من الأرض قليل الحصانة ، وهي سوق لها يوم في الجمعة ، وأهل تلك الناحية يقصدونها في ذلك اليوم . ومنه إلى تالة (؟) ، وهو حصن خراب به المنزل (المحطة) ، ومنه إلى المغارة على ساحل البحر إلى مسجد بهلول ، إلى المزارع » ، وهي آخر بلدة قبل جيجل .

وأمّا مدينة ميلة[141] التي دمّرها المنصور سنة 378 هـ/ 988-989 م وأجلى أهلها إلى باغاي ، فقد جُدِّد سورها المبني بالحجارة واستعادت ازدهارها . وكان يحيط بها ربض به عدة حمامات عموميّة ، ولها مسجد جامع وأسواق وحمّامات . وكان جامعها الكبير الواقع بالقرب من الباب الشرقي المسمّى باب الرؤوس ، ملاصقاً لدار الإمارة . وكانت توجد داخل الباب الشمالي أو الباب السفليّ عين أبي السباء التي يأتي ماؤها من جبل بني ياروت[142] ، بواسطة قناة تحت الأرض ويصب في ساقية تجري وسط المدينة . وفي الصيف لا يجري الماء إلا يومَيْ السبت والأحد .

وكانت المدينة آهلة في أوّل الأمر بالعرب والأجناد والمولّدين ، وبعد غزوة بني هلال استقرّ بها قوم من البربر واستولى على باديتها الأعراب . وكانت منطقة ميلة الممتدة الأطراف والخصبة تشتمل على كثير من القرى المزدهرة ، وكانت أسعارها رخيصة جدّاً .

وكان يوجد في قلب بلاد كتامة فوق جبل إيكجان حصن حصين يحمل نفس الاسم .

وفي وسط السهل العالي ، توجد مدينة سطيف (سيتيفيس في العصور القديمة)[145] ، وهي

---

141) اليعقوبي ، 351 ، البكري ، 63-64 ، المقدسي ، 6-7 ، الإدريسي ، 94 ، البلدان ، 226/8-227 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 97 ، جورج مارسي وليفي بروفنسال ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1937 ، 13-18 ، **نقائش عربية** ، 155/1 ، الهامش 2 . وأكّد البكري أن ميلة من أهمّ مدن الزاب . وقال الإدريسي إنها « كانت في طاعة يحيى بن العزيز صاحب بجاية » .

142) حسب البكري ، البلدان نقلاً عن البكري : ساورت .

143) البكري ، 76 ، ولعلها مطابقة لبلدة تافلكانت أو تانلكانت أو تاملكانت التي ذكرها الإدريسي ، 93 .

144) المقدسي ، 6-7 ، 52-53 ، الإدريسي ، 91-98 ، ابن حمّاد ، 7 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 317/1 الهامش 16] . ويسمّى موقع إيكجان في العصر الحاضر خربة الكلاب ، وهي ترجمة عربية لاسم بربري قديم . وذكر الإدريسي أن هذه المنطقة كانت في السابق تابعة لبني حمّاد .

145) اليعقوبي ، 351 ، الأصطخري ، 39 ، ابن حوقل ، 95/1-96 ، البكري ، 76 ، الإدريسي ، 98-99 ، البلدان ، 82/5 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 320/1] .

مدينة كبيرة قد دمّر سورها الكتاميّون أنصار الداعي الشيعي الشهير أبي عبد الله ، انتقاماً من الأعراب الذين كانوا قد افتكّوها منهم وأجبروهم على دفع الجزية ، لما اقتحموا المدينة . ورغم أنّها بقيت بلا سور ، فقد كانت مزدهرة ذات أسواق نافقة وسلع رخيصة ، ولا سيّما منها الجوز ، وقد كانت تُصدَّر إلى بعيد .

وأكّد الإدريسي أن قبيلة كتامة التي كانت في سالف الزمان كثيرة العدد ، قد انخفض عدد أفرادها في عصره إلى نحو أربعة آلاف نسمة[146] ، ويقال : إنّ الكتاميّين المقيمين في ضواحي القلّ وقسنطينة ، كانوا من فرط إكرامهم لضيوفهم يسمحون لهم بالاعتداء على شرف أبنائهم ! وهي عادة كان يستنكرها أبناء قبيلتهم المقيمون في منطقة سطيف[147] .

بجايــة :

كانت بجاية (سالداي في القديم)[148] ميناء مرتبطاً بعاصمة بني حمّاد وآهلاً بالسكّان الأندلسيّين[149] . وكان يسكن الجبال المشرفة عليها قوم من كتامة يعتنقون المذهب الشيعي ويولون عناية بالغة إلى كلّ من يشاركهم في معتقداتهم . وكانت بجاية تمثّل طريقاً هامّة من طرق المواصلات وتمتاز بمرفأ محميّ على أحسن وجه . وقد لفتت انتباه الناصر بن حمّاد الراغب في الاقتراب من ساحل البحر ، على غرار أبناء عمومته بالمهدية ، ولنفس الأسباب . ولا شكّ أنه قد بنى في آخر منحدرات جبل أمسيون (= جبل غورية) مدينة بجاية الجديدة التي سمّاها الناصريّة[150] في سنة 457 هـ/ 1064-1065 م ، وذلك لا محالة إثر هزيمة سبيبة التي عرّضت أمن القلعة للخطر .

146) الإدريسي ، 99 ، ابن حوقل ، 96/1 ، الذي كان قد أشار إلى افتقار وضعف الكتاميّين الشيعة ، بسبب الجفاف المتواصل والفتن والمذابح التي قام بها بلكين يوسف بن زيري .

147) ابن حوقل ، 95/1 ، الإدريسي ، 99 .

148) البكري ، 82 ، الإدريسي ، 90-91 ، البلدان ، 62/2 ، الاستبصار ، الترجمة ، 32-33 ، 34-35 ، الغبريني ، في عدة مواضع ، دائرة المعارف الإسلامية ، 785/1-786 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 410/1-418] جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 88-89 ، 93-94 ، غولفين ، المغرب الأوسط ، 192-196 ، 224 ، 231-232 .

149) انظر أيضاً ؛ الغبريني ، 32 ، 67-69 : وقد مرّ عدد من أولئك الأندلسيّين على الأقل من تنس ، البلدان ، 2 ؛ 415 (تنس) .

150) انظر الباب الخامس ، الفصل الرابع من هذا الكتاب .

وقد تبع بناء العاصمة الجديدة نزوح السكّان إليها بصورة مماثلة لنزوح أهل إفـريقية إلى المهديّة ، ولكن ربّما بأقلّ حدّة . وقد حاول الناصر التفاهم مع بني هلال الذين كانوا يمثلون خطراً بالنسبة إلى القلعة ، لا بالنسبة إلى بجاية التي كان من المستحيل الوصول إليها إلاّ عن طـريق الوادي الكبير ، وكان يكفي سدّه بواسطة المضيق للحيلولة دون دخولها ، فلا يمكن أن يدخلها سوى من كان يستدعيهم الأمير من الأعراب لإبرام بعض الاتفاقيات الخاصة بالقلعة أو ببعض المدن الداخلية الأخرى التابعة لمملكته[151] .

وكانت السهول المحيطة بالمدينة تنتج بوفرة القمح والشعير والتين وغيرها من الفواكه . وفي سفح جبل أمسيون كانت تُجنى عدّة أنواع من النباتات الطبّية[152] . وقد اتّسع إلى أبعد حدّ نطاق المواصلات البحرية والبرية والنشاط التجاري والصناعي في الناصرية التي سرعان ما استعادت اسمها القديم : بجاية . وقد أثرى تجّار المدينة التي أصبحت مستودعاً كبيراً للبضائع ، وصاروا على اتّصال بتجّار المغرب الأقصى والصحراء والمشرق[153] . وقد أصاب الإدريسي عندما أكّد أن بجاية مدينة بازدهارها لخراب القلعة . ذلك أنّ بني هلال ، لا فحسب لم يقطعوا مواصلاتها مع المغرب الأوسط ، بل بالعكس من ذلك اضطرّوا إلى تسهيلها . ونحن نتصوّر كيف كانوا ينظّمون القوافل أو يحمونها بمقتضى اتفاقات مربحة سواء على المستوى المحلّي أو على نطاق واسع .

وقد كانت توجد في بجاية « دار صناعة لإنشاء الأساطيل للقتال ولإنشاء السّفن الحمّالة ، والمراكب النقّالة ، لأنّ الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود ، ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ، وبها معادن الحديد الطيّب »[154] .

وكما هو الشأن بالنسبة إلى المهديّة ولنفس الأسباب ، اتّسع نطاق الغزو في البحر الذي يمثّل مورد رزق سواء بالنسبة إلى الخواصّ أو بالنسبة إلى الأمراء[155] .

وقد شيّد الناصر ، وبالخصوص ابنه وخليفته المنصور ، في بجاية قصوراً فخمة أشار بها الشعراء بطيبة خاطر ، وهي قصر اللؤلؤ الواقع بلا شكّ في الناحية الشرقية من المدينة وقصر

151) انظر بالخصوص الاستبصار ، الترجمة ، 34-35 ، مع تعويض المنصور والمنصورية بالناصر والناصرية .
152) حسب الإدريسي 90 ، الذي ذكر أسماء تلك النباتات .
153) الإدريسي ، 90-91 .
154) نفس المصدر .
155) الغبريني ، 23-24 .

الكوكب الواقع في الناحية الغربية وقصر أميمون الموجود في الناحية الشمالية والذي يشرف عليه منار[156] .

ولا شكّ أنّ هذه القصور الصنهاجيّة كانت تشبه قصور القلعة ، وقد نوّه الملاحظون بنوافذها المطلّة على البحر والمزيّنة بمشبكات معدنية ، وبأبوابها المخرّمة والمزوّقة وقاعاتها ذات المقاطع والأطراف المكسيّة بالمرمر الأبيض المنقوش والمطلي بالذهب واللازورد ، وبنقائشها ورسومها الزيتية الحائطية[157] . وأمام البحر كان يوجد منتزهان رائعان يمتدّان على ضفّة الوادي الكبير وهما البديع الواقع في الناحية الغربية والرفيع الواقع في الناحية الشرقية والمتمثل في روضة غنّاء ملاصقة للسور الغربي في أسفل قصر اللؤلؤ[158] . وقد بقي قائم الذات في الجزء الشمالي الغربي من السور عدد كبير من الخزّانات التي كانت تزوّد المدينة بالماء[159] .

وقد اندثر الجامع الأعظم[160] . أما القصبة فيرجع تاريخها على الأرجح إلى العهد الموحّدي . وليست لدينا حول طوبوغرافيا بجاية ، سوى بعض الروايات التي يرجع تاريخها إلى ما بعد العصر الصنهاجي[161] ، فينبغي حينئذ اعتمادها بحذر . ولذلك فإننا سنقتصر على البيانات التي تبدو معاصرة لعهد بني حمّاد[162] . ففي الناحية الجنوبية من المدينة يوجد في وسط الواجهة البحرية وفي مصرف الجسر ، باب البحر ذو الأقواس القوطية الذي كان يسمح للسفن بالدخول إلى مدرج داخلي مماثل لمدرج المهدية[163] . وفي الناحية الشرقية يوجد على الأرجح باب المرسى[164]

---

156) الاستبصار ، الترجمة ، 36 ، جورج مارمي ، الفنّ المعماري ، 88-89 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 413/1-414] .

157) الاستبصار ، الترجمة ، 36 .

158) برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 416/1] .

159) جورج مارمي ، الفنّ المعماري ، 93-94 .

160) برنشفيك [الترجمة العربية ، 414/1] .

161) وبالخصوص الغبريني والمراكشي والبيذق .

162) انظر ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 412/1] .

163) جورج مارمي ، المرجع السابق ، 92 وهذا الباب ربما يختلف عن باب المرسى الواقع في الناحية الشرقية ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 378/1] ، الغبريني ، 29 ، وقد أكد أن قبر أبي عبد الله العربي يقع خارج باب المرسى في مسجد أبي زكرياء (يحيى ابن علي) الزواوي الذي أقام فيه رباطه لينتفع ببركة مقام هذا الرجل الصالح ، وقد توفي الزواوي سنة 611 هـ/1214-1215 م ، وتحدث نفس المؤلف ، ص 22 ، عن شخص آخر توفي سنة 582 هـ/1186-1187 م ودُفِن خارج باب المرسى .

164) انظر الهامش السابق .

وبـاب أمسيون[165] وبـاب تاطنت الـذي كان قـد عرفـه كلّ من ابن تـومرت وعبـد المؤمن بن علي[166] . أمّا باب اللّوز[167] الذي دخل منه علي بن غانية القادم من جبل الخليفة ، أي من جهة الغرب شيئاً ما جنوبي باب البنود[168] الواقع في الناحية الشمالية الغربية ، وباب باطِنَة[169] والباب الجديد[170] وباب البنود السالف الذكر ، فإنّنا نتردّد في نسبتها إلى عهد بني حمّاد .

وكانت المقابر ممتدّة خارج باب أمسيون وباب المرسى وباب البنود ، وكانت المقبرة الواقعة خارج هذا الباب تسمّى مقبرة أبي علي رسميّة (أو أبي سميّة)[171] . أما الأحياء فقد كان بعضها يحمل اسم الأبواب الموجودة بالقرب منها ، مثل حومة باب البحر ، حيث كان يباع الخمر[172] وحومة باب أمسيون[173] وحومة باب باطنة[174] . حيث كانت توجد دار المقدسي المعروفة بدار الفقيه هلال . ولا شكّ أنّ حومة اللؤلؤة كانت قريبة من القصر الذي يحمل نفس الاسم[175] . وفي حومة المذبح[176] الواقعة في ناحية الربض كان القراصنة يبيعـون أسراهم ويسدّدون معلوم الخُمُس . كما تجدر الإشارة إلى حومة ساباط الأموي[177] وحارة المقدسي التي يمكن الوصول إليها

---

165) برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 412/1] .

166) المراكشي ، 164 ، برنشفيك ، المرجع السابق .

167) الغبريني ، 24 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 413 .

168) الغبريني ، 119 ، 234 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

169) الغبريني ، 63 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

170) الغبريني ، 63 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

171) الغبريني ، 16 ، 20 ، 29 ، 35 ، 119 ، 234 ، برنشفيك ، نفس المرجع . وقد ذكر الغبريني اسم المقبرة الواقعة خارج باب البنود عندما تحدّث عن شخص قد دُفِن هناك في سنة 657 هـ/1258-1259 م ، وحول شخص آخر دفن في جبل الخليفة انظر نفس المصدر ، 20 .

172) الغبريني ، 27 ، 80 ، برنشفيك ، المرجع السابق .

173) الغبريني ، 44 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

174) الغبريني ، 108 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

175) الغبريني ، 9 : يقع مسجد أبي زكرياء يحيى الزواوي في حومة اللؤلؤة ، أي خارج باب المرسى ، برنشفيـك ، نفس المرجع .

176) الغبريني ، 23-24 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

177) برنشفيك ، نفس المرجع .

بتسلّق منحدر[178] وحومة رابطة المتمنّي الواقعة خارج السور[179] وحومة بئر مسفرة (؟)[180] القريبة من مقبرة أبي علي رسميّة (؟)، أي خارج باب البنود .

وعلاوة على الجامع الأعظم[181] يوجد مسجد الإمام المهدي أو مسجد الريحانة الذي درّس فيه ابن تومرت[182] ومسجد النطّاعين (أي صانعي السجادات المصنوعة من الجلد ؟)[183] .

وتقع على الأرجح في الواجهة البحرية خارج المدينة ما يسمّى بالشريعة (أي البطحاء) ، حيث كانت تقام سوق أسبوعية متنقّلة . وقد أشار الغبريني إلى بعض أسواق بجاية التي ربّما كانت موجودة من قبل مثل سوق قيصريّة[185] وسوق الصّوف التي يبدو أنّها كانت مطابقة لسوق الصوّافين[186] ، وأخيراً سوق باب البحر[187] .

أمّا في ضواحي بجاية فلا نعرف سوى حارة ملّالة التي بنى فيها أبناء العزيز لابن تومرت جامعاً كان الطلاب يتوافدون عليه من كلّ حدب وصوب[188] .

الطريق من بجاية إلى القلعة[189] :

لقد وصف لنا الإدريسي وصفاً مفصّلاً الطريق الرابطة بين بجاية والقلعة والمحاذية لمنطقة القبائل الكبرى عبر منخفض وادي ساحل السّمّام . فأكّد أنّ تلك الطريق تمرّ من المضيق وسوق الأحد ووادي وَهْت (؟) وحصن تاكلات أو تيكلات ، « وبه المنزل ، وهو حصن منيع على شرف مطلّ على جبل بجاية وبه سوق دائمة وبه فواكه ولحوم كثيرة ورخيصة . وبحصن تاكلات قصور

178) الغبريني ، 17 ، برنشفيك ، نفس المرجع ، لعلّ هذه الحارة مطابقة لحومة باب باطنة السالف الذكر .
179) الغبريني ، 113 ، برنشفيك ، نفس المرجع .
180) الغبريني ، 119 ، برنشفيك ، نفس المرجع .
181) الغبريني ، 37 .
182) الغبريني ، 90 ، برنشفيك ، نفس المرجع ، البيذق ، 52-54 .
183) الغبريني ، 99 ، برنشفيك نفس المرجع .
184) البيذق 52 ، المعجم ، 239 .
185) الغبريني ، 148 .
186) الغبريني ، 100-115 ، برنشفيك ، المرجع المذكور .
187) الغبريني ، 103 .
188) البيذق ، 52-53 .
189) الإدريسي ، 92-95 .

جِسّان وبساتين وجنّات كانت ليحيى بن العزيز صاحبها . ومن حصن تاكلات إلى تادَرَقْت إلى سوق الخميس إلى حصن بكر وبه المنزل ، وحصن بكر حصين وله مراع ممتدّة والوادي الكبير يجري مع أصلها ويحتويها وفيه سوق وبيع وشراء »[190] . ويوجد بعد ذلك حصن وارْفو ويسمّى أيضاً حصن وافو (أو رافو) والقصر (بني منصور في العصر الحاضر) ، « وهناك تترك وادي بجاية غرباً وتمرّ في الجنوب إلى حصن الحديد مرحلة إلى الشعراء إلى قصر بني تراكش إلى تاوَرْت ، وهي قرية كبيرة عامرة على نهر ملح وبها المنزل . ومن تاورت إلى الباب وهي جبال يخترق بينها الوادي الملح (= وادي أزرو) ، وهناك مضيق وموضع مخيف ، ومنه إلى السقائف ، ثم إلى حصن الناظور[191] إلى سوق الخميس وبه المنزل . وهذه الأرض كلّها تجولها العرب وتضرّ بأهلها ، وسوق الخميس حصن في أعلى جبل وبه مياه جارية ولا تقدر العرب عليه أبداً لمنعه . ومنه إلى الطهاطة ، وهو فحص في أعلى جبل ، ومنه إلى سوق الاثنين وبه المنزل ، وهو قصر حصين ، والعرب محدقة بأرضه وفيه رجال يحرسونه مع سائر أهله . ومنه إلى حصن تاف لكانت (؟)[192] ، وهو حصن حصين إلى تازكا ، وهو حصن صغير . ومنه إلى قصر عطيّة ، وهو حصن على أعلى جبل ، ثم إلى حصن القلعة مرحلة » . ولم يذكر الإدريسي الحصون الموجودة في المرحلة الأخيرة قبل القلعة[193] ، ولكنّه أضاف قائلاً : « وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة ، وربّما أضرج بعضهم ببعض ، غير أنّ أيدي الأجناد بها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الأضرار ، وموجب ذلك أنّ العرب لها ديّة مقتولها ، وليس عليها ديّة فيمن تقتل » .

غـديـر وارّو :

تقع مدينة الغدير (أو غدير وارو- برج غدير في الوقت الحاضر)[194] على بعد حوالي خمسة

190) الإدريسي ، نفس المصدر ، انظر أيضاً ، بنو غانية ، 54 الهامش 1 .

191) انظر أيضاً ، ابن حمّاد ، 31 .

192) حول هذه القراءة الظنّيّة انظر الهامش 143 .

193) على ذكر الحملة الأخيرة ضدّ أبي يزيد اللاجىء إلى كيّانة أو جبل القلعة ، أشار ابن حمّاد ، 32 ، إلى قلعة المري (؟) والتي هي حصن كيّانة ، وإلى قلعة تناكر (؟) التي كان البربر المقيمون في ذلك المكان يطلقون عليها في عصر المؤلف اسم شيكر (؟) .

194) البكري ، 54 ، 59-60 ، ابن حمّاد ، 28-32 ، البلدان ، 270/6 ، الاستبصار ، الترجمة ، 98-99 ، الإدريسي ، 92 .

عشر ميلاً شمال شرقي القلعة ، بين هذه المدينة والمسيلة وبين حمزة (بويرة) وطبنة . وهي مدينة كبيرة تقع قرب منابع نهر سهر وتحيط بها الجبال ، وبها جامع وأسواق نافقة ومياه جارية تحرّك الطواحين .

وكانت تلك الربوع تنتج بوفرة الفواكه والقمح واللّحوم الرخيصة والنيلة الشهيرة . وكان قنطار العنب يُبَاع فيها بدرهم . وكان يقيم بها قوم من هوّارة وبني يغمراسن ، يُقدَّر عددهم بحوالي 60.000 نسمة .

وجنوبي غدير وارو تقع قرية طرفلة التي لا مثيل لها ، حتى أنها شُبِّهَت بركن من الجنّة .

الشريط الساحلي من بجاية إلى الجزائر :

إنّ أوّل مدينة على ساحل البحر غربي بجاية هي تدلس (أو دلّس ، روسوكورو في العصور القديمة)[196] . « وهي على شرف متحصّنة ، لها سور حصين ، وديار ومنتزهات ، وبها من رخص الفواكه والأسعار ما لا يوجد بغيرها مثله ، وبقرها وأغنامها كثيرة تباع بثمن رخيص ، وتخرج من أرضها إلى كثير من الأراضي والآفاق »[197] .

وعلى بعد عشرين ميلاً يوجد مرسى الدجاج ، وهو ميناء ضيّق ، قليل العمق ، غير مأمون في فصل الشتاء ، والمدينة محاطة بالبحر من ثلاث جهات ومغلقة من الجهة الرابعة بسور ممتدّ من الضفة الغربية لشبه الجزيرة إلى الضفة الشرقية . وبها مسجد جامع وأسواق داخل السور ، « وفيها من جميع الفواكه واللحوم أشياء كثيرة ، تباع بالثمن اليسير ، والتّين يُحمَل منها منثوراً وشرائح إلى سائر الأقطار ، وأقاصي المدائن والأمصار ، وهي بذلك مشهورة » . وفي عصر الإدريسي كان يسكن مرسى الدجاج عدد قليل من الأندلسيّين والكتاميّين الذين كانوا ينسحبون في الصيف إلى المناطق الداخلية خوفاً من نزول الأعداء بالميناء .

وفي الجهة الشرقية تقع مدينة (أو مرسى) بني جنّاد[198] على بعد ميل من البحر ، وهي أصغر من مرسى الدجاج ، وسكّانها ينتمون إلى قبائل زواوة .

وبعدها نجد مدينة تامدفوس ، « وهي مرسى حسن ، عليه مدينة حصينة صغيرة خراب ،

---

791) الإدريسي ، 89-90 ، انظر أيضاً ، ابن حوقل ، 76/1 ، البكري ، 65-82 ، البلدان ، 24/8 .

197 م) الإدريسي ، 89-90 .

198) ابن حوقل ، 76/1 ، البكري 65 .

وبها بقايا بناء قديم وهياكل وأصنام وحجارة »[199] .

ثم نصل إلى مدينة الجزائر (مرسى الجزائر أو جزائر - وأحياناً - جزيرة مَزْغَنّا ، إكوسيوم في العصور القديمة)[200] . وهي إحدى المدن الثلاث التي بناها - أو بالأحرى - أعاد بناءها بلكين . وقد كانت عامرة آهلة وتجارتها رابحة وصناعتها نافقة ، يحيط بها سور . وحسب البكري ، كانت توجد بها بعض المعالم الأثرية القديمة من بينها كنيسة فسيحة قد تحوّلت إلى مصلّى ، إذ بقي منها جدار ممتدّ من الشرق إلى الغرب يقوم مقام المحراب في صلاة العيدَيْن . وفي مدينة الجزائر مسجد جامع وعدّة أسواق نافقة ، وميناؤها محميّ جدّاً ومزوّد بالماء من عيون عذبة على البحر ومن آبار ، وقد كان يتردّد عليه البحّارة القادمون من إفريقية والأندلس ومن الأقطار الأخرى . « ولها بادية كبيرة ، وجبال فيها قبائل من البربر ، وزراعتها الحنطة والشعير ، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ، ويتّخذون النحل ، فكثر عندهم السمن والعسل ، فيتجهّز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم »[200م] .

الشريط الساحلي من الجزائر إلى تنس :

تقع بين مدينة الجزائر وشرشال المرامي التالية :

- مرسى جنابية[201] ، وهي جزيرة (أو شبه جزيرة) بها مدينة قديمة خالية بالقرب من نهر .
- مرسى الذبّان (الذّباب)[202] الواقع بالقرب من أنف القناطر ، وبه بقايا جسور قديمة .
- مرسى هور[203] ، وهي قرية قديمة يسكنها بعض الصيّادين ، تقع وسط خليج يحمل نفس

---

199) الإدريسي ، 89 ، انظر أيضاً ، ابن حوقل ، 1/76-77 ، البلدان ، 2/354 .

200) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 1/76 ، البكري ، 66 ، 82 - الإدريسي ، 89-101 ، البلدان ، 3/93 ، فورنال (Fournel) ، 2/205-206 ، الهامش 5 : لا نعلم أيّ شيء حول بني مزغنا ولا حول الدور الذي يبدو أنهم قاموا به في تأسيس مدينة الجزائر أو تجديدها. وقد افترض المؤلف أن الأمر يتعلق ببطن من بطون صنهاجة بنى في فترة غير معروفة في موقع مدينة الجزائر الحالي مدينة جديدة قد قام بلكين بتوسيعها ليس إلاّ . وهو افتراض معقول ولكنّه اعتباطي .

200 م) الأدريسي ، 89 .

201) البكري ، 82 . يمكن أن تكون الجزيرة مطابقة لرأس سيدي فرج ، حيث يوجد في جنوبه نهران صغيران بالإضافة إلى وادي شفة - مزفران . وحسب P. Salama « الطرقات الرومانية في إفريقيا الشمالية » ، تقع بين ذلك الرأس وبين مصبّ النهر الأخير المدينة العتيقة أوبوري (؟) (= سيدي فرج) .

202) البكري ، 82 .

203) نفس المصدر : مرسى هور بين أنف القناطر ومرسى البطّال في جبل شنوة ، الإدريسي ، 101 : « ومن شرشال إلى طرف =

الاسم على بعد مسافة قليلة من البحر .

ـ مرسى البطّال[204] الواقع بالقرب من رأس يقال له طرف البطال ، وقبالته جزيرة صغيرة ، وهو خالٍ من السكّان حسب شهادة البكري .

أمّا شرشال (إيول سيزاريا في العصور القديمة)[205] ، فهي مدينة قديمة في حالة خراب ولكنّها كانت تشتمل في عصر ابن حوقل على ميناء . وأكّد البكري من جهته أنّ مرسى شرشال يقع بالقرب من مدينة قديمة كبيرة غير مسكونة وأنّ المدينة تشتمل على ميناء مسدود ورباطات يتوافد عليها الناس في كلّ سنة بأعداد غفيرة . ولكنّ المقدسي لم يذكرها . ويبدو أنها استعادت شيئاً من ازدهارها فيما بعد ، إذ أكّد الإدريسي أن شرشال مدينة صغيرة القدر ولكنّها آهلة بالسكّان . وقد كانت منطقتها تنتج الفواكه بكثرة ، وبالخصوص السفرجل الغليظ كالقرع والعنب والتين . وكان الأعراب يتعاطون زراعة الحنطة والشعير وتربية المواشي والنحل . ومن سوء الحظّ فإن ابن حوقل الذي كان الإدريسي يعتمد عليه كثيراً قد قدّم المعلومات السالفة الذكر[206] حول مدينة برشك (جونوجو في العصور القديمة)[207] الواقعة غربي شرشال . وحسب ابن حوقل كان سور برشك متهدّماً . أمّا الإدريسي فقد أكّد أنها « مدينة صغيرة على تلّ ، وعليها سور تراب ، وهي على ضفّة البحر ، وشرب أهلها من عيون ، وماؤها عذب وبها فواكه وحنطة كثيرة وشعير » .

والجدير بالملاحظة أنّ غرب ولاية الجزائر (فيما وراء شرشال ومليانة شمالاً وبغاري والشلف جنوباً) لم يكن تابعاً لمملكة بني حمّاد ، بحيث لا يمكن تناوله بالدرس ، ولو بصورة مقتضبة .

ـ البطال وهو خارج في البحر إثنا عشر ميلاً ، ويقابل هذا الطرف جزيرة صغيرة في البحر . ومن طرف البطال ابتداء جون هور ، وهذا الجون يقطع روسية بأربعين ميلاً وتقويره بستين ميلاً ، وهو قرية صغيرة في وسط الجون على بعد من البحر ، وبها قوم صيّادون للحوت ومكانه أقصار لا يسقط فيه أحد ويتخلص منه البتّة » .

204) البكري والإدريسي ، انظر التعليق السابق . هل يمكن أن يكون طرف البطال مطابقاً لرأس شنوة الحالي الواقع غربي الجبل الذي يحمل نفس الاسم ؟ أفلا يتعلق الأمر بتيبازة ؟

205) ابن حوقل ، 77/1 ، البكري ، 81-82 ، الإدريسي ، 89 .

206) ورد في أحد مخطوطات . المسالك والممالك لابن حوقل ، شرطقل عوض برشك ، ممّا يفسّر الالتباس الملاحظ في هذا الشأن .

207) ابن حوقل ، 77/1 ، الإدريسي ، 88 .

208) تجدر الإشارة إلى الأهمّيّة التي تكتسيها مدينة تنس باعتبارها قاعد بحرية أندلسية ، انظر شارل كورتوا ، تحية جورج مارسي ، 55/2 .

الباب الثامن
النّظام السّياسي والإداري

الفصل الأوّل
الأمير

لقد تلقّب بنو زيري وبنو حمّاد بلقب الأمير ، وخلال السنوات القليلة التي دخل فيها المعزّ بن باديس في طاعة الخليفة العباسي ، يبدو أنه وُصِف مراراً كثيرة بالوالي[1] . ورغم أنّ عامل إفريقيّة ونائب الأمير في نفس الوقت كان يظهر بصورة تزيد أو تنقص في مظهر الممثل الشخصي للخليفة خلال مدّة ولاية أمراء بني زيري الثلاثة الأوائل ، فإنّ الأمير كان مستقلاً عملياً ، فهو المتحكّم في شؤون الدولة والماسك بزمام السلطة المدنية والعسكرية والمالية والقضائية .

وقد كان أمراء بني زيري يتلقبون بالألقاب الفخرية التي أضفاها عليهم الخليفة ، وكان المؤرّخون الرسميّون يسمّونهم بها في أغلب الأحيان ، مثل ناصر الدولة بالنسبة إلى باديس ، وشرف الدولة بالنسبة إلى المعزّ بن باديس ، وتاج الخلافة بالنسبة إلى الحسن . ولمّا دخل المعزّ في طاعة العباسيّين ، أضفى الخليفة الفاطمي عمداً لا محالة نفس اللقب الفخري ، الذي كان يتلقّب به نائبه السابق في إفريقية ، أي شرف الدولة ، على القائد بن حمّاد الذي كان قد رجع إلى الحظيرة الفاطميّة .

ورغم ادّعاء الأمراء الصنهاجيّين أنهم ينحدرون من أصل حميري ، فإنهم لم يتجاسروا سواء في القيروان أو في القلعة وسواء في بجاية أو في المهدية ، على إعلان استقلالهم التامّ أو من باب أولى

1) في عقد نكاح مؤرخ في رجب وأوّل رمضان 446 هـ .

وأحرى الطمع في الخلافة[2] . ذلك أنّ هؤلاء البربر كانوا يتّسمون بشيء من الاتّزان رغم عجزهم عن الصمود أمام المشروع الطموح المستجيب إلى أبعد حدّ لطموحات أهل السنة في إفريقية ، الراغبين في التحرّر من التبعيّة الشيعية ، وذلك حينما كانوا في ذروة قوّتهم ، وهي غلطة قد دفعوا ثمنها غالياً ، ومبادرة لم يكونوا ـ والحقّ يقال ـ مسؤولين عنها تماماً .

وكان اسم الخليفة الفاطمي مرسوماً على الأعلام والرايات والبنود وطرز الملابس الرسمية . ولا يبدو أنّ الأعلام والخلع كانت تُصنَع في إفريقية ذاتها ، بل كانت تُقدَّم بعنوان هدايا من قِبَل الخليفة[3] . وكانت البنـود والطبـول تمثّل أهمّ عـلامات السيـادة . ونحن نجهل لـون الأعلام الصنهاجية[4] . ولعلّها كانت بيضاء مثل خلع الخلفاء الفاطميّين وأتباعهم . وقد رأينا أنّ ملابس كبار رجال الدولة قد صبغت باللّون الأسود إثر القطيعة مع القاهرة ، وأنّ المعزّ بن باديس قد تلقّى من خليفة بغداد بنوداً سوداء[5] ، ومن المحتمل أن يكون أمراء بني زيري قد أحبّوا اللّون الأرجواني على غرار الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي[6] فهل استعملوا اللّون الأحمر للإعراب عن غضبهم ؟[7] ومهما يكن من أمر ، فقد رُوِي أن باديس تعمّم بعمامة حمراء في سنة 405 هـ/ 1014-1015 م خلال إحدى المعارك[8] . ويبدو أن الأمير قد كان له عَلَم خاصّ ربّما كان اسمه اللّواء[9] .

كما كان بنو زيري وبنو حمّاد يضعون على رؤوسهم التاج المحبّب إلى الفاطميين . وهو عبارة عن عمامة ملفوفة حول شاشية ، تبدو وكأنها مجرّد عمامة غليظة أكثر من كونها تاجاً .

ولعلّ تأثير الأميرات الصنهاجيّات ودورهنّ في البلاط قد كانا على غاية من الأهمّيّة ، وكذلك

---

2) لاحظ ابن أبي دينـار (المؤنس، 71، 93) «إن بني حفص لم يبلغوا مـا بلغ بنـو زيـري ، وإن كـان ذكـرهم عنـد النـاس أكـثر إلا النادر منهم ، وكون بني حفص خطب لهم بأمير المؤمنين ولم يخطب لبني مناد بأمير المؤمنين ، وكانوا كلهم أهل نجدة وشجاعة وإحسان ومعروف» .

3) معالم الإيمان ، 207/3 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 ، 39-40 . وحـول المظلة الفـاطمية ، انظر ، إسبانيا الإسلامية ، 13-14 وبالخصوص كنار Canard ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 381 ، الهامش 62 .

4) حول الأعلام الفاطمية ، انظر ، كنار ، المرجع السابق ، 372 ، 383-384 ، والمعزّ ، ص 184 : كانت أعلام الأمان بيضاء ، والأعلام الفاطمية الأخرى خضراء أو بيضاء .

6) الشماخي ، 351-352 .

7) نفس المصدر ، 348 .

8) معركة شلف ، البيان ، 264/1 :

تجـلو عـمامتـه الحـمـراء غـرّتـه كـأنـه قـمـر في حمـرة الـشـفـق

9) ابن حمديس ، الديوان ، عدد 36 ص . 49-53 ، والمعزّ ، ص 184 .

الشأن بالنسبة إلى بلاط أمراء بني زيري في غرناطة[10] .

والجدير بالملاحظة من ناحية أخرى أنه كلّما توفّي أمير من أمراء بني زيري أو بني حمّاد ،خلفه بدون صعوبة وليّ العهد المعيّن من قبل ، حسب تقدّمه في السنّ . وباستثناء بعض الحالات النادرة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى حمّاد الذي استفاد من بعض الأوضاع الجغرافية ، فإنّ محاولات اغتصاب العرش من قِبَل أعمام الأمير في أغلب الأحيان ، كانت تبوء دائماً بالفشل . وكان إخلاص العبيد يساهم بقسط وافر في ارتقاء الخليفة الشرعي إلى العرش .

وحالما يُعلَن عن وفاة الجالس على العرش ، ينادى بوليّ عهده خليفةً له . وإثر موكب الدفن ، تجري عملية البيعة ثم يُنظَّم استعراض عسكري ، يتمّ أثناءه تقديم الجنود إلى الأمير الجديد . وعلى وجه العموم يبقى كبار رجال الدولة ، وعلى رأسهم الوزير الأكبر ، في مناصبهم ، ولو بصورة وقتيّة . وقد رأينا باديساً يقوم بجولة تفقّدية في بعض أنحاء مملكته إثر ارتقائه إلى العرش[11] . ثم يعلم الأمير الصنهاجي الجديد الخليفة الفاطمي بتولّيه الإمارة ، فيوجّه إليه الخليفة بواسطة سفير سجلّ التقليد وبعض الهدايا ، ولا سيما البنود . وفي مرّة من المرّات على الأقل وجّه إلى الأمير الصنهاجي طابعاً . ويُقْرَأ السجلّ بمحضر الأمير الجديد في قصره ثم في جامع القيروان وجامع صبرة المنصورية ، وتُوجَّه نُسَخٌ منه إلى مختلف الأقاليم . وإذا توفّي الخليفة في الأثناء ، يحرص من يرتقي بعده إلى العرش على تثبيت الأمير الصنهاجي في منصبه .

وقد تلقّى مرّة واحدة على الأقلّ مبعوث الخليفة البيعة نيابةً عن مخدومه . إذ أخبرتنا بعض المصادر أنّ القاضي الباهري ، مبعوث الخليفة الفاطمي الجديد « قد أخذ العهد على باديس وجماعة بني مناد للحاكم . ثم دعا وجوه الصنهاجيّين وأخذ عنهم البيعة »[12] . والغالب على الظنّ أنّ البيعة الموالية لتولية خليفة جديد ، كانت تقع عادة عند وصول سجلّ التقليد وبمحضر الداعي الفاطمي ، فهي تمثّل من ناحية ثانية دخول الأمير الصنهاجي الجديد في طاعة الإمام الإسماعيلي ، دون قيد ولا شرط . وقد رأينا المنصور يرفض تقديم البيعة إلى عامل القيروان الذي كان الخليفة قد عيّنه داعياً في إفريقية . وكلّ شيء يدعو إلى الاعتقاد أنّ الخليفة الفاطمي لم يجدّد فيما بعد مثل هذه المحاولة الفاشلة .

---

10) انظر ، كنار ، المرجع المذكور ، ص 58 ، إسبانيا الإسلامية ، 3/13-14 ، في معركة سبيبة سلّم الناصر إلى أخيه الذي كان يرمي إلى إنقاذ حياة الأمير ، تاجه ولواءه .

11) المؤنس ، 78 .

12) البيان ، 249 .

وفي الجملة فقد بقيت هذه الطقوس على حالها في عهد أمراء بني زيري الأوائل ، ثم تغيّرت جزئياً إثر تولية يحيى[13] « الذي ركب على العادة بأكابر الدولة وغيّر لباس الحزن وفرّق الأموال على الأجناد والعبيد »[14] . ولكننا لا نعلم أيّ شيء عمّا جرى عند تولية أمراء بني زيري الأخيرين في المهدية وأمراء بني حمّاد في بجاية .

وبمناسبة الاحتفال بالعيدَيْن [عيد الفطر وعيد الأضحى] ، كان الأمير هو الذي يصلّي بالناس صلاة العيد . من ذلك أن المنصور قد خرج من رقّاده يوم العيد (أول شوّال 374 هـ/ 25 فيفري 985 م) ، « فصلّى بالمصلّى وخطب القاضي ابن الكومي »[15] .

وفي الجامع كان أمراء بني زيري وبني حمّاد ، مثل أسلافهم الأغالبة والفاطميّين ، مفصولين عن بقيّة المصلّين في مقصورة . ونحن نعرف مقصورة المعزّ بن باديس التي يستطيع الزائر مشاهدتها إلى يومنا هذا في جامع القيروان[16] .

هذا وإنّنا لا نعلم بالضبط أين دفن بلكين والمنصور ، ولكن يبدو أنّ باديساً قد دفن بالمهدية ، وكذلك المعزّ وتميم بلا شكّ . ومن المحتمل أن تكون رفاتهم قد نُقِلت فيها بعد إلى المنستير ، وقد تعوّد أهل المهديّة نقل موتاهم إليها بالسفن[17] .

وكان قصر السيّدة ـ المنسوب حسب الاحتمال إلى أمّ ملال[18] ـ يضمّ قبور آخر أمراء بني زيري الذين كانوا يُدفَنون إثر وفاتهم في قصرهم ثم يُنقَلون فيما بعد إلى قصر السيّدة . وقد أشارت المصادر بصريح العبارة إلى هذه العادة ، عندما تحدثت عن وفاة يحيى وعلي . وكان بنو خراسان أصحاب مدينة تونس يصنعون لقبورهم شواهد مزدوجة[20] .

وكان بنو زيري مولعين بالاستعراضات الفخمة التي كثيراً ما كانت تشارك فيها الحيوانات النادرة (مثل الزرافات والفيلة والأسود والجمال الأصيلة)[21] . كما كانوا يستمتعون بعروض

---

13) الباب السادس ، الفصل الأول .
14) المؤنس ، 88 .
15) البيان ، 240/1 .
16) ابن خلدون ، المقدمة ، 72/2 .
17) الإدريسي ، 108-109 .
18) الباب الثالث الفصل الأول .
19) المؤنس ، 93 ، ابن خلكان ، 241/2-242 ، جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 77 .
20) سليمان مصطفى زبيس ، نقائش ، 29/1 ، 63-64 .
21) البيان ، 249/1 ، وقد وصف الشاعر عبد الكريم النهشلي (ت . 405 هـ/1014 م) الفيل الذي أهدي إلى باديس .

ومصارعات الحيوانات الضارية . وكان المعزّ بن باديس يملك معرضاً للوحوش .

ويمكن أن نؤكد أنّ هؤلاء الأمراء كانوا مولعين أيضاً بالصيد . وكانوا يحبّون الاصطياف في المساكن الريفية بضواحي القيروان (مثل سردانية وجلولة) ، حيث كانت لهم أجنحة مخصصة للصيد ، وقد جاء في كتاب ابن عذاري أن باديساً « قد ركب ليلة وفاته ولعب العساكر بين يديه ، فكلّما هزّ رمحاً كسّره وأخذ غيره »[22] . وأخبرنا مصدر آخر أنّ الحسن آخر أمراء بني زيري قد رمى سهاماً في ميدان سباق الخيل بالمهديّة[23] .

وقد بنى الأمراء الصنهاجيّون عدّة قصور . كما تفنّن الشعراء والمؤرخون الرسميّون في وصف عظمة بلاط بني زيري الذي بلغ ذروته في عهد المعزّ بن باديس ، وكلّ شيء يدلّ ، لا سيما ازدهار إفريقية قبل غزوة بني هلال ، على أنّ ذلك الوصف كان مطابقاً للواقع .

وليست لدينا معلومات مفصّلة حول ملاهيهم ومجالسهم الخاصّة[24] التي لا شكّ أنها كانت تشتمل على شرب الخمر والطرب والغناء والرقص ، بمشاركة الجاريات الغواني .

وسنرى في الفصول الموالية ما بلغته الآداب والفنون من تألّق ، بفضل بعض الأمراء الأسخياء المناصرين للآداب ، الذين عرفوا كيف يواصلون عن جدارة العمل الذي بدأه الأغالبة قبلهم . وقد كان بنو زيري بن مناد ذوي شخصيّة فذّة لا يقومون بدور أمراء من درجة ثانية ، ولم يكن من أقلّ مزاياهم عدم انغماسهم في الملذات ، فقد ظلّوا إلى آخر عهدهم يتمتّعون بشخصية قوية ، بل كانوا أشدّاء لا يتأثّرون بالبذخ الذي اعتبروه من ضروريّات العظمة ، أكثر مما اعتبروه مصدراً للمتعة الدنيئة .

وكثيراً ما كانوا يشرفون بأنفسهم على سير العمليّات الحربيّة ويضطلعون بمهمّة تسيير شؤون الدولة ، كلما سمحت لهم الظروف بذلك . على أنّ ميلهم إلى إشباع شهواتهم لم يكن من باب الفساد ، بل كان ناشئاً عن قوّة شكيمتهم وحاجتهم إلى الراحة المسموح بها للمقاتلين .

---

22) البيان ، 266/1 .

23) المقري ، طبعة القاهرة ، 1949 م ، 299/4 (قصيدة للشاعر أبي الصلت ، ت . 529 هـ/1134-1135 م) . ولنفس الشاعر قصيدة أخرى يصف فيها غلاماً يرمي بالنشاب ويلعب في الميدان بالصولجان ، الخريدة ، مخطوطة باريس 106/330 [طبعة تونس ، النشرة الثالثة ، 1985 م ، 253/1] .

24) حول مجلس لهو في قصر بلقين بن محمد بن حمّاد ، انظر ، الذخيرة لابن بسام ، 189/1 . وفي ديوان ابن حمديس عدد 110 ص 153-156 قصيدة خمرية نظمها وهو يبلغ من العمر 60 سنة أي حوالي سنة 507 هـ/1113-1114 م ، إذا كان صحيحاً أنه توفي في سنة 527 هـ وقد بلغ من العمر 80 سنة . وفي هذه القصيدة وصف لمجلس لهو في قصر بجيبى ، فقد وصف الشاعر القيان والمغنيات والراقصات وآلات الطرب : العود والمزمر والطار . انظر أيضاً الشماخي ، 517 .

الفصل الثاني
نوّاب الأمير والوزراء

لقد أسلفنا أن أمراء بني زيري الثلاثة الأوائل المشغولي البال أوّلاً وبالذّات بشؤون المغرب ، قد عهدوا بحكم إفريقية إلى نوّاب كانوا يحملون لقب عامل إفريقية ، وكان هؤلاء العـمّال من العرب لا من الصنهاجيّين . والغالب على الظنّ أنّ تسميتهم كان تُعرَض على الخليفة الفاطمي بالقاهرة للمصادقة عليها ، بل يبدو أنهم كانوا في أغلب الأحيان يحظون بثقته . ذلك أنّ الفراغ الذي تركه في إفريقية رحيل الكتاميّين والفاطميّين إلى المشرق لم يملأه الصنهاجيون الذين كانوا دوماً وأبداً في حالة قتال في الغرب ، رغم أن ارتقاء أسرة بربرية إلى الحكم قد انجرّ عنه بشكل متناقض تعزيز نفوذ الطبقة الأرستقراطية والبرجوازية العربية التي كانت تمثّل أكبر سند بالنسبة إلى عـمّال إفريقية ، إلى جانب الجند العربي الذي كان قد أخضعه الأغالبة في سالف الزمان ، وإن لم نكن مخطئين ، فإن لقب الكاتب[1] الّذي كان يطلق على العامل ، كان يعني الوزير الأكبر . ولكن ليس من المستبعد أن يكون أولئك العمال معيّنين من بين كتّاب ديوان الإنشاء أو أحفادهم . ومن جهة أخرى نشير إلى إلغاء وظيفة الحاجب الفاطمية بصورة تكاد تكون ثابتة[2] . وفي عهد أمراء بني زيري الأوائل ولا سيما باديس ، كان ممثل الأمير الصنهاجي في إفريقية يسمّى نائب الأمير .

ولعلّ دار الإمارة بالمنصورية التي هدّمها أهل السنة سنة 407 هـ/ 1016 م كانت مقرّ الإدارة المركزية ، أي مكاتب عامل إفريقية . وقد أكّدت إحدى الروايات[3] وجود الأمير تميم وحاشيته في دار الإمارة . كما أشارت إلى بيت المال وغرفة أخرى تقوم مقام المكتبة .

ولما ارتقى بلكين إلى العرش ، أبقى كاتب أبيه في منصبه ، وهو عبد الله بن محمد الكاتب

1) برنشفيك ، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** ، [الترجمة العربية ، 53/2] .

2) البيان ، 208/1-221 ، ابن حمّاد ، 32 ، 37 ، 43 : جعفر بن علي حاجب عبيد الله ثم القائم والمنصور ، وحول تعيين عبيد الله لأربعة حجّاب وكاتب واحد (أبو الفضل جعفر بن علي) ، انظر البيان ، 159/1 . وقد حمل جوهر الكاتب ، وزير المعزّ لدين الله ، لقب الوزير ابتداء من سنة 347 هـ ، المعزّ ، ص 146 . وفي العهد الأغلبي كان يطلق على الوزير الأكبر اسم البديل ، البساط ، 27-28 .

3) لا شك أن دار الإمارة تعني هنا القصر الذي كان يقيم به تميم في المهدية.

الذي كانت صلاحياته مطابقة لصلاحيات كاتب دولة في العصر الحاضر ، بل حتى وزير أكبر . ويبدو أن الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي ، من خلال تعيينه لجابي الضرائب وصاحب الخراج ، قد أراد فصل إدارة المالية عن إدارة الشؤون السياسية التي كان يتولّاها بلا شكّ عامل القيروان وصبرة ـ المنصورية . ولما توفّي العامل طلب جابي الضرائب إلى بلكين تعويض المتوفّى . فعيّن الأمير عبد الله بن محمد الكاتب الذي قبل ذلك المنصب على مضض منه . ويبدو أن المنافسة بين الجابي زيادة الله بن القديم وبين عامل القيروان ، كانت تنمّ عنْ رغبة العامل في وضع يده على إدارة شؤون البلاد بتمامها وكمالها ، سواء منها السياسية أو المالية . وبعدما تخلص من منافسه واستحوذ على مهامّه أصبح بحقّ « عامل إفريقية والقيروان » وبعبارة أبسط « صاحب القيروان »[4] . ويدلّ هذا اللّقب الجديد على ما صار يتمتع به العامل من سلطة مطلقة . وقد طبّق سياسة جبائية لا شعبية اعتبرها الخليفة ذاته مشطّة ، رغم أنه كان أهمّ مستفيد منها ، إن لم يكن المستفيد الأوحد .

وقد اتّخذ عبد الله بن محمد الكاتب لنفسه حرساً خاصّاً من العبيد ، وجمع لهذا الغرض أموالاً طائلة من كبار الموظفين وبنى عدة قصور ، وكان له شعراؤه[5] . وعند إقامته في المهديّة مرّة في السنة ، كان يترك نائبين اثنين ، أحدهما في المنصورية ، والآخر في القيروان[6] .

وقد أقرّه المنصور في منصبه وتلقّى منه هدايا ثمينة . كما صاحب العامل الأمير مرّتين متتاليتين في حملته العسكرية بالمغرب الأوسط ، حيث تولّى قيادة الجيش ، وكلّف بنيابته في القيروان ابنه يوسف الذي بنى قصر المنصور في صبرة المنصورية وأنفق عليه أموالاً طائلة .

ولكنّ ثروة نائب إفريقية الطائلة وسلطته المطلقة في إفريقية ، وصرامة نظامه الجبائي المجحف ، ودعوته الشيعيّة المتشدّدة ، واتّصالاته التي تقارب الخيانة مع الفاطميّين ، كلّ ذلك قد تسبّب في هلاك ذلك الرجل الذي كان يُعرَف باسم « المختال » ، فلمّا عهد إليه الخليفة بمهمة « الدعوة » بعد مدة قليلة من رجوعه إلى القيروان سنة 377 هـ/ 987-988 م ، قتله المنصور .

وخلفه يوسف بن أبي محمد على رأس أعمال القيروان ، وتلقى شارات السيادة ، الطبول والبنود ، وانتصب في دار القائد جوهر ، وقد أصبح ذلك القصر التابع للقائد الفاطمي الذائع

---

4) صاحب القيروان : معالم التوحيد ، 112/3 (ترجمة ابن التبّان ، ت . 371 هـ/981-982 م)، و174/3 (ترجمة القابسي . ت . 403 هـ/1012 م) .

5) نعرف كثيراً من الشعراء الذين مدحوه منهم : أبو الحسن الكاتب (ت . 408 هـ/1017-1018 م والحسن بن محمد التميمي النحوي اللغوي النسّابة الإفريقي وبكر بن علي الصابوني (ت. 409 هـ/1018-1019 م) .

6) الباب الأول ، الفصل الثاني .

الصيت مقرّ إقامة نواب أمير إفريقية . ولعلّه كان يقع داخل المدينة الأميرية ، صبرة المنصورية . إلّا أنّ ذلك الشخص المنغمس في الملذّات والمعروف باسم « شيخ الورد » ، قد فوّض سلطاته إلى المدعوّ ابن البوني الذي كان يطوف كلّ سنة في البوادي والأرياف لجمع الجباية واستلام الهدايا . وفي سنة 382 هـ/ 992-993 م وضع المنصور حدّاً لابتزازات هذين الشريكين المتواطئين .

وبعدما قتل المنصور ابن البوني ـ وقد حاول قبل ذلك أن يأخذ منه مالاً كثيراً ـ عزل شيخ الورد وعهد « بإمارة » إفريقية إلى محمد بن أبي العرب الكاتب . وقد بقي العامل الجديد الذي أقرّه باديس في منصبه ، على رأس إفريقية حتى وفاته في سنة 396 هـ/ 1005 م ، وكان قد كُلِّف سنة 389 هـ/ 999 م بتنظيم جيش عظيم وقيادته ، فخلفه ابنه أبو القاسم . ولا ندري هل استعاد منصبه بعدما حاول في سنة 399 هـ/ 1008-1009 م شقّ عصا الطاعة في وجه الأمير الذي عفا عنه فيما بعد . ومهما يكن من أمر فقد أخبرتنا المصادر أن باديساً قد أعفى يوسف بن أبي الحبوس من قيادة الجيش وغيرها من المهام الأخرى ، وذلك في سنة 403 هـ/ 1012-1013 م . ولعلّ الأمر يتعلق بخليفة أبي القاسم ، ولكننا لا نستطيع تأكيد هذا الافتراض ، رغم أن نائب الأمير سيتولى بعد ذلك قيادة الجيش . وإن كان الأمر يتعلق بأخي حمّاد الذي قد يكون تقلّد بالفعل خطّة نائب الأمر ، فإننا نستطيع أن نؤكّد أن تلك الخطة قد عُهِد بها إلى أحد أعمام الأمير . وإثر ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش ، كلّف عامل طرابلس أبا محمد بن الحسن الذي كان قد استدعاه إلى بلاطه ، « بالنظر في العساكر » والإشراف على شؤون إفريقية بأسرها ، بما في ذلك الأقاليم الجنوبية . وقد وضع هذا الشخص يده على أموال الدولة ، وأصبح بفضل ثروته وأنصاره العديدين ، الحاكم بأمره في البلاد . فبالإضافة إلى العلاقات الدبلوماسية الرسمية ، أقام علاقات خاصة مع الخلافة الفاطمية في مصر ، فكان يوجه الهدايا إلى كبار رجال الدولة المصرية ، وتلقّى ذات مرّة سجلاً من الخليفة لا نعرف محتواه . فلعل الخليفة قد عهد إليه بمهمة الدعوة في إفريقية ؟ أضف إلى ذلك أن أخاه عامل طرابلس كان متواطئاً مع الزناتيّين المتمرّدين . وفي سنة 413 هـ/ 1022 م أمر المعزّ بقتل وزيره القويّ النفوذ وعوّضه على رأس إفريقية بأبي القاسم بن أبي عبّود (المعروف بأبي عبد الله) محمد بن أبي العرب الكاتب[7] ، وقد قلّده سيفه الخاص وسلّم إليه الطبول والبنود . والجدير بالملاحظة أن اللوحة المنقوشة في مدخل مقصورة القيروان[8] قد أطلقت عليه لقب « زمام

---

7) النويري ، 138/2 .

8) إدريس ، مجلة أرابيكا ، 1956 م ، 214-215 .

الدولة » . ولكنّه عُوِّض في السنة الموالية ، 414 هـ/ 1023-1024 م بأبي البهار بن خلوف الذي كُلِّف « بجباية الأموال وولاية العمّال والنظر في العساكر وسائر الأشغال »[9] ، وقد قام بهذه المهمّة على أحسن ما يُرَام . على أنّ ما قام به هذا الشخص من دور في قمع الاضطرابات التي اندلعت في سنة 407 هـ/ 1016 م وما حظي به من ثقة من لدن الأمير ، يسمحان لنا بالاعتقاد أنه كان مخلصاً لمخدومه .

وقد تمكّن محمد بن محمود السكّاك وكيل أمّ الأمير ، بفضل ما كان يحظى به من رعاية لديها ، من تسيير شؤون الدولة ، بصورة خفيّة لا محالة ، إلى أن فقد حظوته في سنة 433 هـ/ 1041-1042 م .

ومن المحتمل أن يكون « مملوك المعزّ ، أمين الدولة وصافي الخاصّة أحمد بن زهير الكاتب » ، المذكور في نقيشة قيروانية مؤرخة في سنة 437 هـ/ 1045-1046 م ، وزيراً آخر من وزراء المعزّ بن باديس . إذ أن اللقب الفخري الذي أطلق عليه وتسميته بالكاتب لا يتركان أي مجال للشكّ في هذا الشأن[9] . وممّا لا شكّ فيه أيضاً أن عبد الله (بن؟)[10] جبارة كان هو أيضاً وزيراً[11] .

ويبدو أنّ « القائد » عبّاد بن مروان الملقّب بسيف الملك والمنتمي إلى الخاصّة ، قد كان هو الآخر وزيراً من وزراء المعزّ . فقد أخبرنا ابن عذاري أنه « نُكِبَ في سنة 441 هـ/ (1049-1050 م) ، ودُفِع إلى أعدائه وأُمِرَ باستخراج أمواله ، والقبض على جميع من استعمله في أعماله »[12] .

فيمكننا التأكيد حينئذ أنّ إفريقية كان يحكمها في عهد بني زيري حتى بداية غزوة بني هلال ، شبه نائب ملك ، ماسك بزمام السلطات المدنية والعسكرية بتفويض من الأمير . وأن منح الألقاب الفخرية لعامل إفريقية لم تكن تعني بالتأكيد توسيع نطاق سلطاته ، بل بالعكس من ذلك ، فإن ذلك الحاكم المطلق النفوذ قد تحوّل إلى وزير أكبر إثر استقرار الأمر في القيروان .

واعتباراً من تميم بن المعزّ ، وهو أوّل من استقرّ في المهدية من أمراء بني زيري ، يبدو أن

---

9) **البيان** ، 272/1 .

10) **نقائش عربية** ، 42/1 ص 87-90 ، إدريس ، مجلة أرابيكا ، 1956 م ، 214 . انظر أيضاً ، **نقائش عربية** ، 21/1 ، الهامش 16 .

11) وقد وُصِف « بالكاتب عند سيّدنا » . **نقائش عربية** ، 474/2 واعتماداً على بحث لحسن حسني عبد الوهاب أكّد مؤلفو **نقائش عربية** ، 623/2 والهامش 9 « أنّ معد ابن جبارة كاتب المعزّ قد أشار إليه ابن رشيق » .

12) **البيان** ، 279/1 .

الوزير الأكبر الملقّب « بمتولّي أمور الدولة »[13] ، قد أصبح يقوم بدور ثانوي . وقد أفلتت منه تماماً ـ حسبما يبدو ـ السلطة المالية التي عهد بها الأمير إلى جرجي الأنطاكي . والوزير الوحيد الذي نعرف اسمه ، بالنسبة إلى تلك الفترة ، هو المدعوّ عبد الله بن منكوت الذي اعتُبر مسؤولاً عن نزول النصارى بالمهدية في سنة 480 هـ/ 1084 م ، بسبب « مخالفته لقائد الأسطول في الخروج إليهم للقائهـم في الماء ومنعهم من النزول في البرّ »[13م] . ونستخلص من ذلك أن الوزير كان يتمتع بصلاحيات عسكرية في ذلك التاريخ .

كما أن محاولة اغتيال يحيى بن تميم التي جرت في سنة 409 هـ/ 1115-1116 م ، وهي آخر سنة من مدة ولاية هذا الأمير ، قد أودت بحياة وزيره الشريف أبي الحسن بن أحمد الفهري الصقلي . ونحن لا نعرف أي شيء عن هذا الوزير سوى أنه من أصلي صقلّي[14] . وممّا تجدر ملاحظته في هذا الصدد ، استعمال لفظة الوزير للمرّة الأولى للإشارة إلى هذا الموظف السامي الذي لا شكّ أن سلطته كانت محدودة جدّاً ، إذ تؤكد المصادر أن يحيى كان يدير شؤون الدولة بنفسه .

وما عدا ذلك ، فإننا لا نعرف اسم أيّ وزير في عهد علي بن يحيى . ولمّا ارتقى إلى العرش الحسن الذي كان صغير السنّ ، انتقلت الوصاية من أحد الموالي الذي لا شكّ أنه كان ضابطاً عسكريّاً ، إلى قائد من قوّاد الجيش . ولكنّ جميع هؤلاء الأشخاص ربما كانوا من كبار خدم القصر ، شبه المغتصبين للسلطة أكثر مما كانوا وزراء . كما أنّنا لا نعرف أيّ شيء عن طريقة تسيير شؤون الدولة في ذلك العهد ، لا سيما بعد بلوغ الأمير سنّ الرّشد .

أمّا دواليب الحكم في مملكة بني حمّاد فقد كانت غامضة للغاية ، وقد سبق أن ذكرنا أنّ حماداً قد عهد في سنة 389 هـ/ 998-999 م بالشؤون الصنهاجية إلى غلامه خلف الحميري الذي كان قد أهان تلكاته ثم أصبح والياً على أشير في سنة 406 هـ/ 1015-1016 م .

ومن سوء الحظّ ، لا نستطيع المزيد من التوضيح بالنسبة إلى الفترات الموالية . وكلّ ما نعرفه أن الوزارة قد انتقلت إلى أسرة بني حمدون . كما نعرف اسم وزيرين متتاليَيْن من وزراء الناصر .

وقد عيّن الخليفة الموحّدي عبد المؤمن بن علي ابنه والياً على إفريقية ، ولكنّه عهد بالسلطة المدنية والمالية على وجه الخصوص إلى شخص آخر .

---

13) البيان ، 301/1 : متولّي أمور الدولة ، التجاني ، 238 : متولّي تدبير البلد ، وفي نسخة أخرى : متولّي البلد ومدبّره .
13 م) البيان ، 301/1 .
14) لدينا قبريّة ابنته عائشة المدفونة بالمنستير ، زبيس ، 76/2 .

الفصل الثالث
ولاة الأقاليم

لقد كان على رأس كلّ مدينة بل حتى كلّ بلدة مهما كانت أهمّيتها وَالٍ أو عامل . ونحن نجهل صلاحيات هؤلاء الممثلين للأمير في إفريقية . ويبدو أن كلمة عامل مرادفة لكلمة والٍ .

إلّا أن بعض الأقاليم كانت خارجة بصورة تزيد أو تنقص عن السلطة المركزية . إذ تحدّث الدّاودي (ت. 402 هـ/ 1011 م) عن بعض المناطق التي لم يكن فيها لا قاضٍ ولا سلطان . كما سلّم أبو عمران الفاسي (ت . 430 هـ/ 1038-1039 م) بصحّة الأحكام العادلة (أحكام الجماعة) التي يصدرها مجلس الأعيان أو « عمّال المنازل » في المناطق التي لا تخضع للسلطة[1] .

ويبدو أن منصوراً بن رشيق الذي كان عاملاً على القيروان عند وفاة باديس قد قُتِل أثناء المعارك التي جرت في سنة 407 هـ/ 1016 م . وإن لم نخطىء ، فإنّ عامل القيروان ، على الأقلّ اعتباراً من ذلك التاريخ ، كان يختلف عن نائب الأمير في إفريقية ، ويبدو أنه كان تابعاً لهذا النائب الذي كان معروفاً في أغلب الأحيان باسم « صاحب القيروان » ، وهي عبارة ينبغي فهمها بمعناها الأوسع . ومن الصعب تحديد مهامّ أبي البهار بن خلوف الذي قام بدور كبير أثناء اضطرابات سنة 407 هـ . وقد رأينا أن عامل القيروان الذي عيّنه وزير المعزّ محمّد بن الحسن ، وهو المدعوّ محمد بن لصوية (؟) ، قد قتل الفقيه أبا علي بن خلدون ، « وكان على رأس قوم من المشارقة (أي الشيعة) والشرَط »[2] .

ولا ندري هل كان العمّال معيّنين من قِبَل نائب الأمير ، بعد الحصول على موافقة هذا الأخير ، أو معيّنين رأساً من قِبَل الأمير ذاته . ففي سنة 389 هـ/ 999 م عهد باديس إلى أمير زناتي بولاية طبنة وسلّم إليه سجّلاً لهذا الغرض . إلّا أن ابن الأثير لم يستعمل كلمة « ولاية » ، بل كلمة « إقطاع » . وإثر ارتقاء المنصور إلى العرش ، تولّى تعيين « العمّال والأمراء » . فهل نستخلص من هذه الإشارة الغامضة ـ والحقّ يقال ـ وجود موظّف مدني في بعض المدن ، وهو العامل المكلف

1) المعيار ، 76/10 .
2) معالم الإيمان ، 192/3 .

بالشؤون الإدارية ومنها الشؤون المالية ، إلى جانب الأمير ، وهو القائد العسكري والسياسي ؟ ألم يكن هذا الأمير هو الذي أطلق عليه القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) في إحدى فتاواه اسم « الوالي ومتولّي أمر البلد »؟[3] .

كما تحدّثت بعض المصادر عن وجود عامل في كلّ من زويلة وطرابلس وطبنـة ، في عهد المنصور الذي عيّن مولاه قيصر عاملاً أو والياً على الأربس[4] . وكان أحد الصنهاجيّين عاملاً على أريانة في عصر محرز بن خلف[5] . وقبل أن يُعيّن يوسف بن أبي محمد عاملاً على إفريقية ، كان عاملاً على قفصة ، ويبدو أنه عُيّن والياً على متيجة ، بعد عزله . وكان المدعوّ الحسن بن بلبل ، عاملاً على سوسة[6] ، وأبو الربيع سليمان بن سعيد والياً على القيروان ، وذلك لا محالة بعد غزوة بني هلال[7] .

وعندما غادر المعزّ القيروان متوجّهاً إلى القيروان التي كان ابنه تميم والياً عليها ، عيّن قائد بن ميمون والياً على القيروان وتونس . ولكن يبدو أن هذا التعيين كان استثنائياً ، لأن مدينة تونس كان على رأسها بلا شكّ والٍ خاصّ بها .

وتقلّد ولاية طرابلس التي ألحقت بالدولة الصنهاجيّة في سنة 367 هـ/ 977-978 م ، على التوالي تمصولت بن بكار الذي قام بعدّة تجاوزات وجمع ثروة طائلة ، ثم محمد بن الحسن (في عهد باديس) الذي أصبح وزيراً للمعزّ في سنة 407 هـ/ 1016 م ، فعوّضه بلا شكّ أخوه عبد الله بن الحسن الذي شقّ عصا الطاعة في وجه الأمير إثر مقتل ذلك الوزير سنة 413 هـ/ 1022-1023 م ، وألقي عليه القبض بعد ذلك بقليل ، وأشارت بعض المصادر إلى الدور السياسي الذي كان يقوم به قاضي طرابلس . ففي سنة 429 هـ/ 1037 م تولّى القاضي ابن المنمّر رئاسة المجلس البلدي ، وقبل سنة 444 هـ/ 1052-1053 م ، أشرف قاضٍ آخر على حظوظ المدينة .

وتقلّد ولاية قابس على التوالي : بنو عامر ، ويبدو أنّ آخرهم كان يوسف بن عامر ، ثم

---

3) المعيـار ، 434/9 ، 437-438 . وحول قبـريّـة شخص يـدعى الحسن بن الـطاهـر بن يـزيـد الـوالي (ت . 401 هـ/1011 م) ، انظر ، نقائش عربية ، 313/1 .

4) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني ، ولاية المنصور .

5) مناقب ، 112 ، 290 . يبدو أن عامل توزر الذي سجن أبا نوح (في عهد المنصور بن بلكين) ، كان صنهاجياً ، الشماخي ، 360 .

6) وقد مدحه الشاعر أبو الفتوح بن محمد السوسي ، الغبريني ، 47/1 والتجاني ، 26 .

7) معالم الإيمان ، 254/3 .

إبراهيم أخو باديس ومنصور بن ماواس . وأشارت بعض المصادر الإباضية إلى محمد بن تموصلت الذي كان يشرف على بلاد زواغة (في المنطقة الساحلية غربي طرابلس)[8] . ولا شكّ أن جبل نفوسة الإباضي كان يتمتع باستقلالية تامة . وفي عهد باديس التجأ المتمرّد الزناتي فلفل بن سعيد إلى أمير نفوسة يحيى بن محمد .

ومما لا شكّ فيه أن سلطة بني زيري على الجنوب والجنوب الغربي كانت ضعيفة . فقد عهد باديس في سنة 400 هـ/ 1009-1110 م بولاية نفزاوة وولاية قسطيلية على التوالي إلى ورّو بن سعيد والنُعَيم بن كنون ، بشرط أن ينجلي هذان الثائران عن طرابلس وأعمالها . وتسلّم النعيم من الأمير البنود والطبول التي كانت علامة لا لبس فيها من علامات الاستقلالية بل حتى السيادة . وفي السنة الموالية خرج ورّو بن سعيد عن طاعة باديس وتحالف مع نفوسة/ضدّه ، في حين اغتنم النعيم الفرصة وضمّ إليه نفزاوة . إلّا أنّ باديساً لم يعترف بالأمر الواقع ، فعيّن والياً على نفزاوة خزرون بن سعيد الذي توجّه إليها بالبنود والطبول ، وكان قد تحالف مع أخيه ورّو وقدّم شواهد الطاعة إلى الأمير . وتحصل على ولاية قفصة بنو مجلية الذين كانوا قد انضمّوا إلى خزرون بن سعيد . وقد لاحظ ابن خلدون أن جميع « مدن الماء » أصبحت في قبضة زناتة .

أضف إلى ذلك أنّ امتلاك زناتة ، أعداء صنهاجة الألداء ، لكامل منطقة الجريد ، ذلك الامتلاك الذي أقرّه باديس بصورة تزيد أو تنقص ، يدلّ على خروج تلك المنطقة بأسرها عملياً عن سلطة بني زيري الذين أصبحت طموحاتهم في تلك الربوع مقتصرة على الاحتفاظ بمدينة طرابلس المطموع فيها من طرف الزناتيين ، بل حتى الفاطميّين . وفي سنة 403 هـ/ 1012-1013 م ، وصلت إلى باديس من الخليفة الفاطمي « سجلّات بإضافة برقة وأعمالها إليه »[9] .

وفي سنة 378 هـ/ 988-989 م ، منح المنصور لأبي زعبل ، بوصفه عاملاً ونائباً عنه ، كامل بلاد كتامة التي كان قد أخضعها منذ عهد قريب . وكانت سلطة هذا النائب الذي كان بمثابة عامل العمّال ، تمتدّ إلى تيجس وقصر الإفريقي وقسنطينة وميلة وسطيف ، وإلى حدّ ذلك التاريخ كان الكتاميّون الذين يرجع إليهم الفضل في عظمة الدولة الفاطمية ، يتجاهلون سلطة بني زيري ولا يدفعون الضرائب . فوجه إليهم الأمير الصنهاجي الجنود والعمّال الذين جبوا السكّان وضيّقوا عليهم الخناق .

---

8) الشماخي ، 336-337 . T. Lewicki ، دراسات إباضية ، 1 ، 111 . إن مولى المعزّ بن باديس هذا قد فرض على الشيخ الإباضي أبي الخير توزين مائة دينار .

9) [البيان ، 259/1] .

وعهد أمراء بني زيري الأوائل بطيب خاطر إلى أعمامهم بأهمّ المناصب في المغرب الأوسط . ولا شكّ أنهم قد ندموا على صنيعهم فيما بعد . وتكفي الإشارة في هذا السياق إلى الانشقاق الذي حصل بين بني زيري وبني حمّاد ، لإقامة الدليل على فشل هذه السياسة المخطرة التي كانت مطابقة لا محالة لنظام حكم الشيوخ عند البربر .

ورغم انعدام الوثائق الصريحة ، فإننا نميل إلى الاعتقاد أن عامل المسيلة كان في ذات الوقت عاملاً على الزاب ، كما كان الشأن في عصر جعفر بن علي بن الأندلسي . والغالب على الظنّ أن تلك المنطقة قد انتقلت إلى سلطة حمّاد ، ولعلّها كانت خاضعة له منذ سنة 387 هـ/ 997-998 م ، تاريخ تأكيد تعيينه والياً على أشير . وبعد ذلك التاريخ بقليل ، عُيِّنَ عمّ آخر من أعمام باديس عاملاً على تاهرت .

وقد كانت تلك المنطقة بأسرها التي كان على رأسها أبو زعبل ـ كما أسلفنا ـ تابعة لحمّاد ، إذ أن باديساً قد أمره في سنة 405 هـ/ 1014-1015 م بإرجاعها إلى خليفة ابنه ووليّ عهده ، الذي ارتدى الخلعة ، كعلامة على تقلّده لوظيفته الجديدة ، وتوجه بالطبول والبنود إلى تلك المنطقة للاستيلاء عليها .

وفي سنة 406 هـ/ 1015-1016 م ، كان خلف الحميري والياً على أشير لحساب حمّاد الذي كان آنذاك مستعصياً على باديس . وفي نفس السنة ولّى باديس على طبنة وأعمالها أحد الزناتيّين الذي كان قد انضمّ إليه . ولمّا ارتقى المعزّ بن باديس إلى العرش ، عهد بولاية « الغرب بأسره » إلى أيّوب بن يطوفت . والواقع أن معظم مناطق المغرب كانت خاضعة لسلطة حمّاد ، منذ وفاة باديس وانسحاب جيش بني زيري . وبعدما هزم المعزّ بن باديس حمّاداً (سنة 408 هـ/ 1017-1018 م) ، عهد بالأقاليم الغربيّة إلى أحد أعمامه ، كرامة بن المنصور ، الذي اختار عمّالها .

وبعدما أبرم المعزّ الصلح مع حمّاد في سنة 408 هـ/ 1018 م أصدر منشوراً يقضي بمنح[10] القائد ابن خصمه السابق : المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وبلاد زواوة ومقرة ودكمة وبلزمة وحمزة ، وسلّم إليه البنود والطبول . وأصبحت مملكة بني زيري مقصورة على إفريقية ، حيث تمّ الاعتراف بحمّاد ملكاً مستقلاً على المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت ، وكل ما يمكن أن يفتحه من بلاد المغرب . وأصبح القائد ، ولو بصورة مضمرة ، وليّ عهد أبيه . ومن المعلوم أن الأمراء

10) حسب الكامل يتعلق الأمر بإقطاع ، وتحدثت المصادر الأخرى عن ولاية .

الصنهاجيين قد تعوّدوا تقليد وليّ عهدهم إحدى الولايات الهامة . وقد عيّن القائد أحد إخوانه والياً على الغرب والآخر على حمزة . وفي سنة 415 هـ/ 1024-1025 م ، كان صندل عامل باغاي تابعاً للمعزّ بن باديس ، بما أنه قد وجّه إليه الهدايا . ويتضح من ذلك أن الحدود بين مملكة بني حمّاد ومملكة بني زيري ، لم تكن واضحة بما فيه الكفاية ، لا سيما في الجنوب .

وفي عهد بني حمّاد كان يشرف على بسكرة مجلس شيوخ يحمل رئيسه اسم مقدّم (أو رئيس) وينتمي إلى إحدى العائلات الأكثر نفوذاً في المدينة . وكان للناصر بن حماد والٍ على مدينة ورقلة .

ويبدو أن خطّة « وكيل المنازل » التي كان موجودة قبل بني زيري قد ألغيت[11] . وفي إحدى الفتاوى أشير إلى أنّ أحد المقرّبين من السلطان ، قد عُيِّن ناظراً في جهة من جهات المملكة حيث جمع ثروة طائلة[12] . كما أشار مصدر إباضي إلى وجود مقدّم في طرّة حوالي سنة 471 هـ/ 1078-1079 م[13] ، وهو نفس اللّقب الذي كان يحمله ابن كلدين والي جربة شبه المستقلّ[14] .

وإنّه لمن الصعب تحديد مدى اتساع نطاق سلطة العمّال التي كانت ضعيفة خارج المدن في بعض المناطق الخاضعة للقبائل[15] . وفي بعض المناطق الجبلية نرى العمّال (أو الأمراء) يحاولون إخضاع السكّان المتمرّدين بمنعهم من حرث أراضيهم وإرعاء مواشيهم ، ثم السماح لهم بذلك فيما بعد ، مقابل تسليم عدد من الخيول بعنوان الجزية[16] ، وقد كانت بعض القرى خالية من السكّان بسبب الفقر وانعدام الأمن[17] .

ولمّا انتشرت جحافل بني هلال في بوادي إفريقية ، سقطت كثير من المدن والقرى في قبضة

---

11) رياض النفوس ، مخطوط باريس ص 79 و[طبعة بيروت، 226/2] ، وقد ورد ذكر وكيل المنزل في ترجمة أبي جعفر القمودي (ت . 324 هـ/935-936 م . [واصطلح الإفريقيون منذ العهود الإسلامية الأولى على تسمية القرية باسم المنزل] .

12) فتاوى ابن محرز (ت . حوالي 450 هـ/1058) والسيوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) ، المعيار ، 345/1-346 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 246/1 و : لعل المقصود بالناظر صاحب الجمارك أو صاحب الديوان ، كما هو الشأن بالنسبة إلى العصر الحفصي ، انظر ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 67/2] .

13) الشماخي ، 412 ، وهذا المقدم المسمى أبو علي هو اللذي اضطهد العزّابة الإباضية .

14) في القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي كان يشرفّ على كلّ بلدة هامة في منطقة نفوسة (لالوت وشروس وجادو) ، حاكم إباضي مستقل ، انظر ، دراسات إباضية ، 126/1 وفي عدة مواضع وحول وجود شخص في درجين يدعى المصدّر ، في آخر القرن السادس هـ/ الثاني عشر ميلادي ، انظر ، الشماخي ، 453 ودراسات إباضية ، 151 .

15) فتوى ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/996 م) ، المعيار ، 128/6 .

16) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 128/6 .

17) فتوى القابسي ، المعيار ، 437/9 .

بعض الأمراء العرب ، فكان أوّل من يصل إلى بلدة يضع أهلها تحت حمايته ويسلّم إليهم قلنسوة أو تذكرة يرسم عليها علامة لإقصاء المنافسين المحتملين ، وتصبح البلدة حكراً عليه ، إن صحّ التعبير . وباستثناء القيروان ، فقد قاومت المدن بفضل أسوارها . وكانت بعضها تتفاهم مع المغيرين في مقابل دفع الجزية . وبقيت بعض المدن الأخرى تحت سلطة الوالي الصنهاجي الذي كان يبادر إلى الإعلان عن استقلاله . في حين تحوّلت كثير من المدن إلى دُوَيْلات يمارس فيها السلطة نظرياً مجلس أعيان يطلق عليهم غالباً اسم الأشياخ ، وعملياً أكثر العائلات نفوذاً في المدينة . وقد طغت على تلك الفترة المضطربة عدة مظاهر بارزة ، نخصّ بالذكر منها توزيع المناطق بين أهمّ البطون الهلالية ، وظهور ملوك الطوائف في بعض المناطق (أمثال بني الورد في بنزرت وبني جامع في قابس وبني الرند في قفصة الخ . . .) ، وقد استقرّوا في الحكم بل تمكّنوا أحياناً من توسيع نطاق سلطتهم ، وظهور بعض المرتزقة العرب أو غيرهم في بعض الأماكن ، وبعض رؤساء العصابات القائمين بدور الأسياد الإقطاعيين . وقد ذهبت أدراج الرياح كلّ ما قام به بنو زيري من محاولات في المهدية لجمع أشتات مملكتهم المفككة ، واكتست انتصاراتهم صبغة جزئية وعابرة ، إذ استنفذ الغزو في البحر ومقاومة الخطر النرماني أكبر قسط من قواهم المتواضعة .

ولمّا تمكّن النصارى الصقليون من الاستحواذ على المدن الساحلية في إفريقية ، اكتفوا بالاحتلال العسكري والجباية والنهوض بالتجارة البحرية ، دون التدخّل فوق الحدّ في شؤون المدن المحتلّة التي تركوا لها حريّة التصرف على الأقلّ في أمورها المالية والقضائية . حيث كان يشرف على حظوظها الإدارية عمّال أهليّون أو مجالس أعيان ، وكثيراً ما كان احترام التعهّدات مضموناً بواسطة الرهائن . وفي بعض الأحيان ـ كما هو الشأن بالنسبة إلى طرابلس ـ كانت الدعوة توجه إلى الصقليين ، حسبما يبدو ، للاستقرار في المدينة . وقد عيّن رُجَار الثاني أحد الموالي عاملاً على قابس ، وهو يوسف الذي ارتدى الخلعة كعلامة على وظيفته الجديدة ، وأمر بتلاوة سجلّ التقليد وتسلّم « تشاريف النصارى » .

وأسند الناصر بن حماد إلى أربعة من إخوانه الأعمال التالية : القسم الغربي وقاعدته آبّة[19] ، وحمزة ونقاوس وقسنطينة . وعهد بمدينة الجزائر ومرسى الدجاج إلى أحد أبنائه وولّى ابن آخر على أشير .

---

18) [البيان ، 315/1] .

19) قراءة ظنيّة .

وبسبب الفوضى الهلالية السائدة آنذاك في إفريقية ، دخل بعض القوّاد في طاعة ابن حمّاد ، مثل عامل صفاقس السابق حمّو ومقدّم قسطيلية . كما التمست مدينة تونس من الأمير [الناصر] بن حمّاد « تقديم والٍ من قِبَله عليها ، فوليها عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان »[18] ، وهو أوّل أمراء بني خراسان .

ولكن بعد هزيمة سبيبة النكراء ، اجتاحت جحافل رياح بلاد بني حماد . وقد استجابت فكرة تأسيس بجاية وإخلاء القلعة لنفس المقتضيات التي دفعت المعزّ بن باديس قبل ذلك بحوالي عشر سنوات إلى التخلّي عن القيروان والالتجاء إلى المهدية . ولكنّ الناصر سرعان ما نهض من كبوته وهدّد بنجاح في أغلب الأحيان تونس والقيروان وغيرهما من مدن إفريقية . وفي عهد بني خراسان تصالحت مدينة تونس مع بني هلال ودفعت لهم الجزية ، وكانت رهاناً للتنافس بين بني زيري وبني حمّاد . ولكنّها ، لئن اضطرّت إلى الدخول تارة في طاعة صاحب بجاية وطوراً في طاعة صاحب المهدية ، إلّا أنها قد حافظت على حرية التصرّف في مصيرها . ويبدو أن المدينة قد حكمها طوال فترة من الزمن ، باسم مجلس الأشياخ ، آبنان من أبناء عبد الحق بن خراسان ، كان أحدهما مكلفاً بالشؤون المدنية ، والآخر ، وهو الأمير ، مكلّفاً بالشؤون العسكرية . إلّا أن سلطة الأشياخ التي تقلّص ظلها أحياناً في عهد بني خراسان ، قد تعرّضت لكثير من المِحَن التي تكاد لا نعرف عنها شيئاً .

وأخيراً تمكّن النظام الموحّدي من القضاء على الفوضى الإقطاعيّة والحماية النرمانية ، وبدأ عهد جديد بالنسبة إلى شرق بلاد المغرب . ففي مدينة بنزرت ترك ابن عبد المؤمن حافظاً موحّدياً بعدما أخضع صاحبها حوالي سنة 552 هـ/ 1157-1158 م . وبعد ذلك بسنتين كافأ عبد المؤمن الوالي المهزوم ، فمنحه إقطاعاً وسجّل اسمه في قائمة الموظفين الموحّدين . كما عيّن حافظاً في كلّ من سوسة وصفاقس ، ربّما إلى جانب العامل الأهلي . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ النظام الجديد الذي أقامه الموحّدون في إفريقية يشبه الحماية التي نصبها النرمان على المدن الساحلية ، على أن نستثني من ذلك ـ والحقّ يقال ـ التسامح الديني .

الفصل الرابع
ديوان الإنشاء والبريد والشرطة

إنّنا نجهل تماماً النظام الإداري الذي كان قائماً في عهد بني زيري . ومن المحتمل أن تكون الدواوين التي كان يعمل بها الكتّاب ، قد استمرّت في القيام بدورها ، كما كان الشأن في العهد الأغلبي والعهد الفاطمي .

ونكاد لا نعلم أيّ شيء عن ديوان الإنشاء في عهد بني زيري وبني حمّاد[1] . ويبدو أنّ هذه الخطّة كانت تسمّى الكتابة في عهد المنصور ، حوالي سنة 377 هـ/ 987-988 م . وقد كان صاحبها هو الذي يمسك الخاتم . والجدير بالتذكير في هذا الصدد أن ديوان الإنشاء قد اشتهر في أوج الدولة الصنهاجية بصاحبه الذائع الصيت أبي الحسن علي بن أبي الرجال وبالشاعرَيْن ابن رشيق وابن شرف . وقد خلف ابنَ أبي الرجال في خطّته ابنُه محمود الذي عزله المعزّ بن باديس . وقد كان هو ووالده وأبناء عائلته بمثابة « برامكة إفريقيّة » . وكان ابن أبي الرجال المنجّم الشهير قد تنبّأ قبل وفاته في سنة 426 هـ/ 1034-1035 م بتاريخ نكبة ابنه . وقد تدخّلت أخت المعزّ ، وهي بلا شكّ أمّ العلوّ ، لدى الأمير الذي عفا عن محمود وأكرمه بالغ الإكرام ومنحه عدداً من الضيعات التي كان يتصرّف فيها والده بعنوان الإقطاع[2] .

ونحن نعرف اسم أحد كتّاب الأمير يحيى بن العزيز بن حمّاد ، كان على رأس ديوان الإنشاء . وهناك كاتب آخر كان مكلّفاً في عهد يحيى بن تميم بوضع العلامة على الرسائل الرسميّة ، وهي : « الحمد لله وحده » .

وكان يمثّل المعزّ بن باديس في القاهرة ـ كما أسلفنا ـ قائم بالأعمال يسمّى النائب . وقد استدعاه الوزير الفاطمي اليازوري عدّة مرّات بعد سنة 442 هـ/ 1050-1051 م ، أي إثر القطيعة الرسمية بين القاهرة والقيروان . وقد كان النائب يحيط مخدومه علماً بتلك المقابلات .

وحسب ابن خلدون ، كان الولاة يخاطبون الوزير الفاطمي في رسائلهم بقولهم :

1) انظر ، بساط ، 33 ، برنشفيك (الدولة الحفصية) [الترجمة العربية ، 61/2] .
2) ابن الآبار، إعتاب الكتّاب ، تحقيق صالح الأشتر عدد 65 ، 128 ، لم يُنشَر .

يا مولاي ، ولكن المعزّ بن باديس استبدل في مراسلاته مع اليازوري عبارة « عبد » بعبارة « صنيعة » .

ورغم قلّة المعدّات ، يبدو أن بني زيري قد احتفظوا بديوان البريد الذي ثبت لدينا وجوده بإفريقية في العهد الفاطمي . وقد كان موجوداً آنذاك في كلّ مدينة من المدن الهامة صاحب البريد أو صاحب الخبر المكلف بإعلام الخليفة بكلّ ما يقع في تلك المدينة ، وبطبيعة الحال بإبلاغ الرسائل الرسميّة والأوامر وتقديم المعلومات حول تنفيذها[3] . وحول قضية ابن أخي حاضنة المعزّ ، أخبرتنا المصادر ، أن الأمير قد وجّه البرود إلى القابسي[4] .

وكثيراً ما كان البريد الفاطمي والصنهاجي يستعمل الحمام الزاجل لإبلاغ الرسائل إلى أصحابها . وقد استعمل هذه الوسيلة في عهد باديس رجل من القيروان وآخر من تونس ، في مراسلاتهما الخاصة . وهي وسيلة يبدو أن السلطة كانت تسمح باستعمالها[5] . وفي سنة 480 هـ/ 1087 م ، أحيط تميم علماً بسقوط قوصرة بين أيدي النصارى ، بواسطة الحمام الزاجل[6] . وفي سنة 543 هـ/ 1143 م ، في عهد الحسن بن علي بن يحيى بن تميم استحوذ أسطول رجار صاحب صقلية في سواحل قوصرة على مركب قادم من المهدية ، كان يوجد به حمام زاجل يستعمله صاحبه لتبادل الرسائل بين صقلية وإفريقية[7] . وفي نفس الفترة وجّه سفير الحسن لدى رجار الثاني من السفينة التي كان على متنها في طريقه إلى المهديّة ، رسالة إلى الأمير بواسطة الحمام الزاجل .

ولم نتمكّن من الحصول على أيّ خبر حول نظام الشرطة في العصر الصنهاجي[8] ، وكلّ ما

---

3) حول المقاربة بين خبر وكشف وبريد ، انظر الصفحات الموالية . حسب المدارك ، 2-150/3 و : تحوّل ابن اللبّاد (ت . 333 هـ/945-946 م) إلى المهدية حيث التقى بأبي جعفر البغدادي الذي أخبر عبيد الله بقدومه . فرفض الخليفة استقباله ولكنه أمر أبا جعفر البغدادي بأن يحرّر كلّ ما يرغب فيه الفقيه اللذي منحه أبو جعفر سجلاً يضفي عليه الحصانة تجاه القاضي ابن أبي المنهال . فأراد ابن اللباد الحصول على ذلك السجلّ ولكن البغدادي رفض أن يسلّمه إليه وطلب إليه الرجوع إلى بلده (أي القيروان بلا شك) حيث سيصله السجل بواسطة البريد . وحول صاحب البريد في نفزاوة في عصر القاضي ابن طالب ، انظر ، مدارك ، 2-26/3 و .

4) برود : جمع بريد ، مثل شُرَط ، أي أعوان الشرطة .

5) مناقب ، 314-315 ، انظر أيضاً البيان ، 164/1 : كتب عامل طرابلس إلى عُبَيْد الله بخبر قتل أحد المتآمرين على الخليفة ، مع حمام وصل إلى رقادة من ساعته .

6) انظر الباب السادس ، الفصل الرابع : ولاية الحسن بن علي .

7) **الكامل** ، 56/11 ـ مناقب ، 344 ، الإحالة 106 .

8) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 170 ، **بساط** ، 28-29 برنشفيك ، المرجع السابق [الترجمة العربية ، 150/2-151] .

نعلمه عنها أنها كانت تابعة لوالي المدينة[9] .

كما أنّنا لا نعلم شيئاً عن نظام السجون ، ما عدا أن النساء السجينات كنّ يقمن في سجن منفصل عن سجن الرجال ، وذلك تحت حراسة امرأة أمينة غير متزوّجة أو متزوّجة برجل من أهل الصلاح[10] .

والغالب على الظنّ أنّ حفظ الأمن بالمدن كان يتولّاه ، كما كان الشأن في الماضي ، أعوان الحرس الذين كانوا يقيمون في المحارس ويقومون بدوريّات لا سيما في الليل ، مصحوبين بأسراب من الكلاب ، لفرض احترام منع التجوّل المعلن عنه بواسطة الأبواق[11] . من ذلك أنّ رجلاً من أصحاب أبي الحسن القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) ، « غرّه القمر ليلاً فأخذه الحرس بالقيروان ، فاستعاذ بهم وأعلمهم بأنه ضيف ومن أصحاب القابسي ، فلم يلتفتوا إليه وحملوه إلى السجن وأودعوه الحرس »[12] .

وكان لبني زيري ، كما كان للأغالبة والفاطميّين من قبل ، أعوان مخابرات (وهم أصحاب الخبر)[13] . وقبل أن يصبح بلكين نائباً عن الخليفة في إفريقية ، التمس منه تعيين موظفين في الخطط التالية : القضاء والخراج والخبر[14] . وتحدّثت فقرة من ترجمة الجبنياني (ت . 369 هـ/ 979 م) عن « صاحب خبر السلطان » ، كان يقيم في الساحل ، وقد عاب على الشيخ عدم رفع الآذان الشيعي[15] . كما أشارت المصادر إلى وجود أصحاب خبر في عهد تميم ، كانوا يحيطون السلطان علماً بكلّ ما يقع في البلاد ويحاولون منع التجاوزات[16] .

---

9) معالم الإيمان ، 192/3 . الشماخي ، 336-337 .

10) فتوى اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) ، البرزلي ، المختصر ، 151 ظ .

11) إدريس ، المرجع المذكور ، بساط ، 28-29 . رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 38/2] : صاحب المحرس - مدارك ، 2-15/3 ظ : خلف أحد الشبان أباه في رئاسة الحرس . البيان ، 186/1 : في سنة 309 هـ/ 921-922 م شكا أهل القيروان إلى الخليفة جور العامل وأصحاب المحارس ، الإدريسي ، المعجم ، 283-284 .

12) معالم الإيمان ، 176/3-177 .

13) الأغالبة ، 167 ، أبو العرب ، الترجمة ، 326 . وفي البيان ، 162/14 تحدث المؤلف عن « ديوان الكشف » تحت عنوان 298 هـ/910-911 م .

14) الخطط ، 165/2 ، الاتعاظ ، 142 .

15) مناقب ، 40 ، 230-231 .

16) دوزي ، نقلاً عن النويري ، الملحق ، 347/1-348 .

وأثبتت مراسلة يهودية عربية[17] وجود صاحب خبر في المهدية في عهد آخر أمراء بني زيري ، كان يتمتّع ببعض الصلاحيات القضائية الشبيهة نوعاً ما بصلاحيات صاحب المظالم أو الحاكم . فقد توقّف في المهدية شاعر طليطلة اليهودي الشهير ، يهودا هليفي ، وهو في طريقه إلى فلسطين ، حيث ستدركه المنيّة سنة 536 هـ/ 1141 م ، وكان أحد اليهود الإسبانيّين قد كلّفه بتسليم مبلغ ثلاثين دينار إلى أخيه المدعوّ ابن البصري ، بشرط رجوعه إلى الديانة اليهودية ورحيله إلى فلسطين صحبة يهودا . فسلّم ابن البصري رقعة إلى صاحب الخبر ، أعلمه فيها بالضغوط المسلّطة عليه وطالب باستلام المبلغ الذي بعثه إليه أخوه ، مع تمسّكه بالدين الإسلامي . فاستدعى صاحب الخبر الطرفَيْن المتخاصِمَيْن بمحضر الديّان (قاضي اليهود) وأمر بإحالة قضيّتهما على القضاء الشرعي . فوجّههما القاضي إلى الأمير الذي أحالهما بدوره على القاضي . فوجّه القاضي اليمين إلى يهودا وإلى الرفيق الذي آواه ، واسمه سليمان بن يوسف . وتمّ حسم القضية بإبرام تسوية تصالحيّة بين الطرفَيْن .

ولعلّ خطّة صاحب الخبر المكلّف بإعلام الأمير بالوضع السياسي في البلاد وكيفيّة احترام حقوق كلّ فرد ، قد اختلطت بصورة تزيد أو تنقص بخطّة صاحب البريد ، الذي صار مكلّفاً في آن واحد بالسهر على البريد وبالجوسسة لفائدة السلطان . ومن المحتمل أن تكون كلمة « بريد » وكلمة « خبر » شبه مترادفتَيْن[18] .

---

17) S.D. Goitein, the last phase of yehada Halevi's life in the light of the Geniza papers, Quaterly 1954- XXIV, 1-24.

18) انظر ، دوزي ، الملحق ، 348/1 . وحول أبي جعفر البغدادي المكلف في سنة 298 هـ/910-911 م بديوان الكشف مع زميله عمران بن أبي خالد بن أبي سلام ، والذي عُيِّن في سنة 300 هـ/912-913 م على رأس ديوان البريد إلى أن أدركته المنيّة ، انظر ، البيان ، 162/1-169 . ويمكننا أن نتساءل ألم تكن مصلحة الخبر تشرف آنذاك على الكشف والبريد ؟

الفصل الخامس
الجيش والبحريّة

قيـادة الجيـش[1] :

لقد كان الأمراء الصنهاجيّون المضطلعون بمهمّة القيادة العامّة للجيش ، رجال حـرب ، يشرفون بأنفسهم على سير العمليات الحربية ، وكانوا يختارون قوّادهم بلا ميز من بين أقـاربهم ومواليهم وضبّاطهم . وحسب أسمائهم ، يبدو أن معظم أولئك القوّاد كانوا من عرب إفريقيّة . ولعلّ قائد باديس يعلى بن فرج كان ابن أحد الموالي ، فرج الصقلبي قائد المنصور[2] .

وإلى غاية عهد المعزّ بن باديس ، كان تنظيم قيادة الجيش راجعاً بالنظر إلى نائب الأمـير بإفريقية الذي كان يقوم بنفسه أحياناً بالحملات العسكرية . وعندما اقتصرت مهامّه فيها بعد على الوزارة الكبرى ، يبدو أنه احتفظ بصلاحياته العسكرية .

وكان أعلى الضباط رتبةً هم القوّاد الذين تحدّثت عنهم الأخبار دون سواهم[3] ، وقد أُطلِق على أحد القوّاد في عهد تميم اسم « المقدّم »[4] ، وهي عبارة غامضة تعني لا محالة قائد الجيش . ولكننا نجد أيضاً عبارة « قائد الجيش » . ومنذ عهد المعزّ ، وبلا شك قبله ، كان قائد الخيّالة يسمّى « قائد الأعنّة » ، وهو العنوان الذي تلقب به أُخوان مرّة وحدة على الأقلّ[6] . وفي عهد هذا الأمير نجد عبارة « العرافة » التي ربّما تعني وحدة عسكرية لا نعرف أهميتها[7] . ويمكن أن نستنتج

---

1) برنشفيك (الدولة الحفصية) [الترجمة العربية 2/88-89] .
2) انظر : I. HRBEX, Die Stawen..., 556 .
3) ورد ذكر المسمّى محمد بن الطاهر القائد في معالم الإيمان ، 3/138 .
4) انتصر على حمّو سنة 493 هـ/1099-1100 م .
5) وهو العنوان الذي حمله إبراهيم بن عبد الله ، وقد أخضع جزيرة جربة في سنة 510/1116-1117 .
6) وهما إبراهيم وقاضي شقيقا عامل قابس المعزّ بن محمّد بن ولميّة الصنهاجي . وفي حاشية يحيى نجد القائد إبراهيم ، قائد الأعنة . ولعلّ الأمر يتعلق بقائد علي المسمى إبراهيم بن أحمد . وهناك قائد آخر أو نفس الشخص في عهد علي ، اسمه إبراهيم بن عبد الله (حملة 510 هـ/1116 م ضد جربة) .
7) عند تقديم الجنود إلى الأمير الصغير المعزّ بن باديس (النويري ، 2/133) .

من ذلك أنّ كلّ عرافة على رأسها عريف (ج : عرفاء)[8] . ويبدو أن اسم « عنبر » كان يطلق على قائد أسود من عبيد المعزّ[9] . وإلى حدّ تاريخ غزوة بني هلال ، كان لكلّ فرد من أسرة بني زيري حرس خاصّ مؤلّف في معظمه على الأقلّ من العبيد المخلصين قلباً وقالباً لسيّدهم[10] . ولما انهزم حمّاد في شلف سنة 406 هـ/ 1015-1016 م ، فرّ على رأس عبيده الذين ظلّوا وحدهم أوفياء له ، مع حوالي 5000 فارس . وقد فتّش وصفان باديس (عبيده الزنوج) عن شخص استحوذ على غنيمة بلا موجب قانوني . وقد رأينا عبيد باديس يؤيّدونَ بكلّ قوّة حقّ المعزّ الصغير السنّ في الولاية خلفاً عن أبيه . كما أنشأ نائب الأمير في إفريقية عبد الله بن محمد الكاتب حرساً خاصّاً به مؤلفاً من السودانيّين الذين شاركوا بلا شكّ في الاضطرابات التي أثارها العسكر إثر مقتله (رغم أنّ المصادر لم تشر إلى ذلك) . وكان المعزّ بن باديس قد اشترى 3000 عبد . وفي سنة 448 هـ/ 1056-1057 م جرت معارك طاحنة بين عبيد المعزّ وعبيد ابنه تميم ، والي المدينة ووليّ عهده . وقد رأينا كيف بادر تميم إلى إبادة من تبقّى من حرس أبيه ، حالما تسلّم مقاليد الحكم . وليس من المستبعد أن يكون حرس تميم مؤلّفاً ، ولو بصورة جزئية على الأقلّ ، من البيض . وهذا ما يفسّر النزاع الذي نشب بين الفريقين . إذ يقال إن ذلك الأمير كان متعلّقاً شديد التعلّق بعبيده النصارى[11] .

ويحقّ لنا أن نفترض أنّ الجيش الصنهاجي الذي أبادته الحروب المتواصلة منذ قيام دولة بني زيري قد شهد نقصاً فادحاً في العدّة والعدد . وهذا ما يفسّر لماذا فكّر المعزّ في أوّل الأمر في تجنيد الهلاليّين ، ولماذا رغب تميم في استخدام الأتراك التابعين لشاه مالك حوالي سنة 488 هـ/ 1095 م .

ولم يلبث الأعراب أن قاموا بدور عسكري أساسي ، فقد جنّد علي عدداً كبيراً من أبناء القبائل العربية ، لا سيما ضدّ رافع الذي فعل نفس الشيء ، وكان على رأس الجيش الصنهاجي

---

8) برنشفيك [الترجمة العربية 88/2] . وحول عُرَفاء من كتامة في سنة 301 هـ ، انظر ، البيان ، 170/1 .

9) حسبما أشار إلى ذلك جورج مارسي .

10) وحول « حاشد السودان » ، أي العون المكلّف بتجنيد السودانيين بالقوّة ، انظر رياض النفوس ، ص 92 و[طبعة بيروت ، 367/2-368] . فقد أخذ حاشد السودان أبارزين الأسود الجمونسي (أصيل جمونس الصابون) (ت . 337 هـ/948-949) ، ومضى به إلى رقّادة .

11) إدريس ، أعياد النصارى . . . المجلّة الإفريقية ، 1954 م ، 274 والهامش 48 إن وجود الحبشيّين غير مستبعد ، إذ أكّد ابن الخطيب (أعمال ، 449) أن عبيد الله قد اتخذ له من العبيد 12000 مملوك رومي وحبشي .

الذي أخضع جبل وسلات أمير عربي . وممّا لا شكّ فيه أيضاً أن أمراء رياح كانوا أكبر سند لآخر أمراء بني زيري الذين استفادوا كثيراً من بعض التحالفات ، مثل الحلف المبرم مع محرز بن زياد صاحب المعلّقة . كما سارع بنو حماد إلى الاعتماد على الأثبج .

وإثر ارتقاء الحسن إلى العرش فرّق المال على العبيد والأجناد ، أي الحرس والمرتزقة ، دون أن نستطيع من سوء الحظ توضيح نوعيّة هذين التنظيمين[12] . ويمكن أن نفترض أنّ أغلب أولئك العبيد كانوا من البيض والنصارى ، في حين كان الجيش يضم في آن واحد الصنهاجيّين والعرب ، ولكنّنا لا نستطيع تأكيد ذلك . ولا شك أن زحفة بني هلال قد جعلت من الصعوبة بمكان الاستمرار في انتداب السودانيين اللذين لم يرد ذكرهم من جديد في عهد الأمراء الذين خلفوا تميماً . ومن الجدير بالتذكير أن الحسن قد فسّر انتصار النرمان عليه ، بافتقاره إلى الجنود الأوفياء .

القـوّات المسلّحـة :

لا يمكننا أن نقبل دون رويّة التقديرات التي قدّمها المؤرخون والإخباريّون حول عدد القوّات المسلّحة الصنهاجية ، فهي تقديرات مبالغ فيها بلا شكّ . وإذا ما صدّقناهم ، فإن بني زيري وبني حمّاد كانوا قادرين على تعبئة 30.000 فارس ونفس العدد من المشاة (أو الرجّالة)[13] . وقبل تأسيس بجاية كان عدد الجنود المقيمين بالقلعة يقدّر بحوالي 12.000 فارس وبنفس العدد من المشاة . وخلال المعركة الأولى التي دارت بين بني زيري وبني هلال ، أكّدت المصادر أن 7500 فارس عربي قد واجهوا جيشاً صنهاجيّاً لا نعلم بالضبط عدد رجاله ، ولكن يبدو أنه كان يمثل مقدمة القوّات المسلّحة الزيريّة . وأثناء هزيمة حيدران ، قيل : إن 30.000 فارس و 30.000 راجل قد هزمهم 3000 مقاتل عربي فقط . وخلال عمليّة النهب التي عقبت الهزيمة أحصِيَت 10.000 خيمة و 15.000 جمل و 3500 قتيل في صفوف الصنهاجيين . وإن وجود مثل هذا العدد من الإبل يبدو غريباً ، فلعلّ الأمر يتعلق بالدواب ، لا سيما وأنه لم يقع التعرّض للبغال ، ومن بين الغنائم التي ظفر بها المنتصرون في واقعة سبيبة ، أشارت المصادر إلى الخيام والبغال وأكّدت أن العرب قد أصبحوا بفضل هذا الانتصار مدجّجين بالسلاح ، وبالخصوص مجهّزين بالخيول التي كانوا يفتقرون

---

12) في فتوى صادرة عن اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) أشير إلى جند السلطان وعبيده (البرزلي ـ مخطوط الرباط 48/2 ظ . والمختصر ، ص 69 ظ) .

13) وعلى سبيل المثال نزل المعزّ بصقلية في سنة 427 هـ/1035-1036 م على رأس 3000 فارس و 3000 راجل .

إليها من قبل .

وقُدِّر عدد مقدّمة الجيش الموحّدي التي فتحت المغرب الأوسط بحوالي 20.000 فارس . وأثناء معركة سطيف (584 هـ/ 1153 م) هجم 30.000 فارس موحّدي على العرب الثائرين . وطاردت الفارّين أسراب من الجنود الذين صدرت لهم التعليمات بعدم الاهتمام بالغنائم . وقد أعربت المصادر عن إعجابها بتنظيم الجيش الموحّدي الذي جاء لفتح إفريقيّة ، وقدّرت عدد جنوده بما يلي : 75.000 و 500.000 راجل أو 100.000 مقاتل ومثلهم من الأتباع والسوقة . وكانت المقدّمة معزّزة بحوالي 12.000 رجل . وكان الإعلان عن تحرّك الجيش يتمّ بواسطة طبل ضخم . فتسير أربعة فيالق متتالية ، تفصل بين الفيلق والآخر ، مسيرة يوم واحد ، وينضمّ إلى كلّ فيلق طوال الطريق عدد من المجنّدين العرب . وفي باجة بلغ عدد الخيالة 100.000 فارس ، بالإضافة إلى الرجّالة الذين لا يحصى عددهم . وفي معركة جبل القرن واجه 30.000 رجل من الجنود الموحّدين الممتازين عدداً كبيراً من المقاتلين العرب الذين كان معسكرهم يحتوي على 80.000 خيمة . وفي معركة سبيبة بلغ عدد القتلى والجرحى في صفوف الصنهاجيين والزناتيين 24.000 رجل . وفي المهدية لم يواجه الموحّدون سوى 3000 رجل من الإفرنج .

الأسلحة :

كانت أهمّ الأسلحة المستعملة تتمثل في السيف والرمح الطويل والرقيق وربّما الحربة أو المزراق(14) . وكان الإباضيون في الجريد مسلّحين بالخنجر الذي يُشَدّ على الذراع الأيسر(15) .

وقد رأينا أن الجيش الصنهاجي كان يضمّ قوّاسين(16) ، وعلى الأرجح كانت السهام مريّشة وذات أسنّة فولاذية(17) .

---

14) برنشفيك [الترجمة العربية 84/2]. وشبّه الشماخي (517) المزراق بالرمح . وحول أسلحة الجيش الفاطمي في عصر المعز لدين الله انظر ، المعزّ ص 186 : الرّماح (ج . رمح) والحِرَاب (ج . حربة) والدّروع (ج . درع) والأطبار (ج . طبر) والخناجر (ج . خنجر) والبُلَط (ج . بلطة) والجِفَارات (ج . جِفَارة) .

15) أخبار أبي زكرياء ، الجزائر 1878 م ، 294 ، وبرنشفيك [الترجمة العربية 84/2] .

16) حسب رياض النفوس ، مخطوط باريس ص 16 و[طبعة بيروت ، 37/2] ، خرج جبلة [بن حمود بن عبد الرحمان] (ت . 299 هـ/ 911-912 م) ، ومعه سيف وترس وقوس وسهام .

17) ديوان ابن حمديس عدد 291 البيت 35 ص 413 .

ومن المستبعد أن يكون الجنود الصنهاجيّون قد استعملوا القـذّافة[18] ، لأنّ المصدرَيْن الوحيدَيْن اللّذين تحدّثا عنها قد أشارا إلى صيد الطيور . وكما يدلّ على ذلك الاسم الذي أطلقه ابن رشيق على السلاح المذكور ، وهو « قوس البندق » ، فإن الأمر يتعلّق بسلاح يتركّب أساساً من قوس لرمي القذائف[19] .

وفي سنة 374 هـ/ 984-985 م ، كان مستودع الأسلحة بالقيروان يسمّى « بيت السلاح » .

ويبدو أنّ استعمال الدروع المصنوعة من جلد الظبي (اللمط) كان منتشراً على نطاق واسع[20] . كما انتشر شيئاً فشيئاً[21] استعمال الدروع العادية والخوذات ، وقد أشارت إلى ذلك المصادر مرّات عديدة ، لما تحدّثت عن بعض القواد[22] . وربّما كانت مصنوعة من الحديد والبرنز[23] . وقد وصف ابن حمديس مرّتَيْن متتاليتَيْن مقاتلين مرتدين لزرود مصنوعة من الحديد[24] .

التحصينات :

إنّ المعلومات التي لدينا حول التحصينات الصنهاجية نادرة ، ولا تشير إلى استعمال أيّ تقنيّة مبتكرة في هذا الميدان[25] . وأثناء عمليّات الحصار تشير المصادر إلى الاستعمال المتكرّر للسلاليم

---

18) [قوس قديم لقذف السهام] .

19) دوزي ، الملحق ، 117/1-118 ، 418/2 ، بيريس ، الشعر الأندلسي ، 352 والهامش 5 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 85/2] . وأطلق مقديش (133/2) على القذّافة اسم «البندقية» ، وهي تسمية حديثة . والجدير بالملاحظة أن القذّافة لم تعوّض القوس في إسبانيا وفي بقية الأقطار الأوروبية إلّا اعتباراً من القرن الثالث عشر ، إسبانيا الإسلامية ، 93/3 .

20) من بين الغنائم التي أخذت من حمّاد في سنة 406 هـ/1015-1016 م ، هناك 10,000 درع مصنوعة من جلد الظبي (اللمط) ، انظر برنشفيك [الترجمة العربية ، 84/2] ، نقائش عربية ، 297/1-298 : قبريّة مؤرخة في 392 هـ/1002 م تحمل اسم ابن الدرّاق (صانع الدروع المصنوعة من الجلد) .

21) سلّم تميم إلى رياح قبل معركة سبيبة : 1000 درع و1000 درقة و1000 مهنّد . وفي حيدران كان الجنود الزيريون يلبسون الدروع والخوذات .

22) في عهد زيري كان أحد القوّاد الزناتيّين يرتدي درعاً ، النويري ، 107/2 وفعل بلكين بن حماد نفس الشيء حوالي سنة 446-447 هـ .

23) من بين الغنائم التي غنمها النصارى في سنة 480 هـ/1087 م ، توجد رحال برنزية . وكانت دروع العبيد مصنوعة أحياناً من الجلد ، بساط ، 32 .

24) ديوان ابن حمديس عدد 81 ، البيت 7 ص 107 وص 82 البيت 37 ، (مدح يحيى) .

25) نكتفي بالإشارة إلى الوصف الذي أورده برنشفيك ، [المرجع السابق . الترجمة العربية ، 87/2] .

والمنجانيق[26] . كما لاحظنا استعمال الحواجز الخشبية لمنع الفرسان النرمان من الطواف في مدينة طرابلس الثائرة في سنة 553 هـ/ 1158-1159 م .

ويبدو أن المتعبّدين في الرباطات لم يقوموا بأيّ دور عسكري في العهد الصنهاجي ، إذ كان هدفهم الاعتزال لا الحراسة[27] .

العمليّات العسكريّة :

ما هو مدى سرعة تحرّك الجيش في العهد الصنهاجي ؟ لقد قضى الجيش الذي حمل جثمان باديس 23 يوماً للتحوّل من المسيلة إلى القيروان و 4 أيام من القيروان إلى المهدية . وقضى الجيش الموحّدي العظيم الذي فتح إفريقية حوالي خمسة شهور لقطع المسافة الفاصلة بين سلا وتونس ، أي ما يعادل مسيرة 70 يوماً بالنسبة إلى فارس سريع .

وإليك فيما يلي نظام سير الجيش الصنهاجي الراجع إلى إفريقية بتابوت باديس : « سارت العساكر على تعبئة الزحف مقدمة وساقة وقلباً ، يتقدّمها التابوت وأمامه الطبول والجنائب والقباب »[28] .

وفي عهود أمراء بني زيري الأوائل ، كانت عملية حشد الجيش تقع في رقّادة حيث يتم توزيع الرواتب على الجنود . وعلى غرار الفاطميّين[29] ، تمكّن الأمراء الصنهاجيون ، حتى في أيام

---

26) استعمل أبو يزيد الدبّابات والمنجنيق في حصار سوسة سنة 334 هـ/945-946 م ، الاتعاظ ، 119 . وحول استعمال جيوش المعزّ لدين الله للمنجنيقات والدبّابات والكبش ، انظر ، المعزّ ، 184 . كما استعمل بلكين السلاليم في حصار فاس ، وكذلك النرمان في حصار طرابلس (540 هـ/1145-1146 م) ، وقد لغموا سور طرابلس في سنة 537 هـ/1142-1143 م واستعملوا الكلاليب . وحسب فتوى صادرة عن اللخمي (المعيار ، 7/100-101) يجوز للإنسان أن يقتطع من مال الزكاة ما يلزم لشراء الأسلحة وحفر الخنادق وتجهيز الحصون بالمنجنيق . وفي ديوان ابن حمديس ، رقم 291 (مدح علي بن يحيى) البيت 30 ص 413 ، إشارة إلى استعمال المنجنيق في حصار اللجم ، وكذلك في حصار قفصة والمهدية من طرف الموحّدين . كما استعملت « العرّادات » في المهدية . وحول معنى عرّادة ، انظر ، استوريا ، 2/299 الهامش 2 و3/488 الهامش 3 ، ودائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) ، 1/679 (كلود كاهين) .

27) بساط ، 31-32 : معلومات حول التنظيم العسكري للرباطات في العصر الأغلبي ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، 293-298 ـ ليزيرن : رباطان . . . ، كراسات تونس ، 1956 ، 279-288 .

28) [النويري ، 2/133] .

29) المعزّ ، 177-178 (استشهادات من مجالس القاضي النعمان ، 2/295-296) .

الشدّة ، من دفع رواتب جنودهم بصورة منتظمة . وكان الأمير يستقبل قوّاده في معسكره داخل خيمه تسمّى « قبّة السلام » . وأشارت المصادر إلى وجود خيمة مماثلة « فازة السلام » في معسكر حمّاد ، سنة 408 هـ/ 1017-1018 م . وليلة وفاة باديس سنة 406 هـ/ 1015 م ، أثناء حصار قلعة بني حمّاد ، « أمر (الأمير) بالتمييز ، فبرز كلّ قائد في عسكره ، وجلس نصير الدولة (باديس) في القبّة وأمر أيّوب بن يطوفت بالطواف على العساكر وحسابها . . ثم ركب عشيّة هذا اليوم ، وهو قد تناهى إقبالاً ، واستوى حسناً وجمالاً ، فلعبوا بين يديه ، فكلما هزّ رمحاً ، كسّره وأخذ غيره »[30] .

وبعد ذلك بقليل ركب الأمير الصغير المعزّ بن باديس ، مستعرضاً العساكر ، وعلى يساره حبيب بن سعيد « الذي وقف يعلمه بهم ويذكر له أسماءهم ويعرّفه بقوادهم وأكابرهم » . وقبل ارتقائه إلى العرش أقام المعزّ بالمهدية ، « فكان يركب في كلّ يوم ويعود إلى قبّة السلام ، وينطعم الناس بين يديه »[30م] .

ويمكن التأكيد أنّ الصنهاجيين ، سواء في إفريقية أو في القلعة أو في بجاية ، كانوا يأمرون الخيالة بالخروج كلّ صباح في زمن الحرب أو في زمن السلم ، وذلك بلا شكّ ليحافظ الفرسان على لياقتهم البدنية. وكانت هذه التمارين اليومية التي تحمل اسماً بربريّاً (تساييست أو استاييست) ، تتمثل فيما يلي :

يخرج القائد على رأس جنوده ، فيقطع مسافة محدّدة إلى أن يصل إلى مكان معيّن يتوقّف فيه ، وذلك بلا شكّ لتمكين الخيول والفرسان من الاستراحة ، ثم يعود فيقف بباب السلطان منتظراً الإذن له بالانصراف[31] .

وفي المعارك يحرز النصر دوماً وأبداً الجيش الأقلّ عدداً والأشدّ إخلاصاً والأكثر انسجاماً وتناسقاً . وبالعكس من ذلك تتعدّد حالات التخاذل والخيانة التي يتسبّب فيها الدفاع عن المصالح الخاصّة والعصبيّة . وأخيراً فإن الخيّالة هي التي تقوم بالدور الرئيسي وتكون لها الكلمة الأخيرة .

ويبدو أن تعمّم باديس بعمامة حمراء أثناء معركة شلف كانت عادة من العادات الفاطمية القديمة[32] .

---

30) [البيان ، 266/1] ، انظر أيضاً المعيار ، 134/9 ، فتوى أبي عمران الفاسي (ت . 430 هـ/1039 م) ، « اللعب بقمة التراب التي يُطعَن فيها الأعداء » .

30 م) [البيان ، 267/1] .

31) ابن حمّاد، 50-51 .

32) الشماخي ، 348 : عندما يوجّه المعزّ لدين الله جيشاً في حملة عسكرية تأديبية ، يسلّم إليه لواءاً أحمر ، علامة على غضبه .

ويمكن أن نستخلص فكرة عامّة عن الاستراتيجية الصنهاجية من روايتَيْن اثنتَيْن : أولاهما تتعلّق بمعركة شلف السالفة الذكر والثانية تتعلق بانتصار رأس الديماس (517 هـ/ 1123-1124 م) .

وقد كان الأمل في كسب الغنائم يزيد في حماس المقاتلين ، لا سيما عندما يعدهم الأمير بأربعة دنانير عن كلّ رأس يقطعونه[33] . وفي سنة 406 هـ/ 1015-1016 م تسلّم قوّاد باديس رُقَعاً تحدّد حصّة كل قائد من الغنائم نقداً وعيناً ، وكان كل صندوق مَرفوقاً بقائمة جرد .

البحـريّــة[34] :

لقد رافقت أغلبيّة قطع الأسطول الإفريقي إن لم نقل كلّها ، الفاطميّين إلى مصر . أمّا بنو زيري الذين كرّسوا كلّ جهودهم لحملاتهم العسكرية في المغرب ، فإنهم على الأرجح لم تكن لديهم قوة بحرية ، باعتبارها غير صالحة لتحقيق طموحاتهم .

وقد استمرّ انتداب البحّارة بواسطة عمليات التجنيد الإجباري المعمول بها في العصر الوسيط .

وأخبرتنا المصادر أنّ الأسطول الذي وجّهه المعزّ إلى صقلية في سنة 416 هـ/ 1025-1026 م كان يضمّ 400 قطعة[35] . ويعتبر هذا الرقم غريباً ومشكوكاً فيه ، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بحملة المعزّ الذي نزل في صقلية على رأس جيش يضمّ 3000 فارس و 3000 راجل فحسب . ومع ذلك فالغالب على الظنّ أن القوّة البحرية التي أنشأها بنو زيري كانت عظيمة . وستزداد عظمتها أكثر فأكثر في عهود أمراء المهدية الذين كان مصيرهم مرتبطاً بالبحر . وقد كان همّهم الأول يتمثل في تطوير التجارة وحمايتها من القرصنة المسيحية وتعزيز الجهاد في البحر لمواجهة الأسطول النرماني الذي ما فتىء تفوّقه يتأكّد . وربما لم تكن من باب الصدفة إشارة المصادر إلى « قائد الأسطول » أو

= وبالعكس من ذلك فإن اللواء الأبيض يرمز إلى حسن استعداده . كما قدّم إلينا نفس هذا المصدر الإباضي ، 351-352 أبا تميم (معدّ المعزّ لدين الله) مرتدياً لباساً أحمر وجالساً على سرير أحمر في قبّة حمراء . ولعلّ قبّة السلام التابعة لبني زيري كانت ملوّنة بنفس اللون . انظر أخبار أبي زكرياء ، 291-292-305 .

33) وهذا ما وقع في سنة 408 هـ/1017-1018 م (حملة المعزّ ضدّ حمّاد) .

34) وحول الأسطول قبل بني زيري ، انظر : بساط ، 29-31 . وفي عهد الفاطميين ، كانار ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 393 ، الهامش 109 ، ستوريا ، 221/2 ، المعزّ ، 186-189 .

35) وعلى سبيل المقارنة كان الأسطول الفاطمي يضمّ 600 وحدة ، الخطط ، 193/2 .

« مقدّم الأسطول » في عهد تميم[36] . وابتداء في ذلك التاريخ تطوّرت عمليّات الغزو في البحر وبلغت ذروتها في عهد يحيى وعلي . وتُعْزَى هزيمة الحسن إلى ضعف البحريّة الصنهاجية وعلى الأقلّ إلى تفوّق القوات النرمانية عليها[37] .

ولا شكّ أنّ نقص الخشب البحري[38] قد كان له بالغ الأثر في ضعف أسطول المهديّة . ذلك أن الفوضى الهلالية لم تكن لتسمح بجلبه من منطقة القبائل ، ويمكن التأكيد أن البحريّة الصنهاجية قد تقلّص ظلّها شيئاً فشيئاً لعجزها عن صنع قطع جديدة . ولا بدّ أن يكون النرمان قد بذلوا كلّ ما في وسعهم لمنع وصول الخشب إلى المهدية . وبالنّظر إلى تدهور الأسطول وتقلّص موارد الدولة المضطرة دوماً وأبداً ، لا سيما في سنوات الجدب ، إلى تزويد البلاد بالقمح ، يمكننا الحديث عن حلقة مفرغة : فبقدر ما يضعف الأسطول ، تتقلّص إمكانات شراء الخشب اللازم لصنع السفن بأسعار غالية . فلا غرابة حينئذ إذا ما علمنا أنّ بقايا سفينة بجائيّة دمّرتها العاصفة ، قد آستُعْمِلَت لصنع سفينة بالمهدية في عهد الحسن . وكان الوضع ملائماً أكثر في بجاية ، بفضل الغابات القريبة التي توفّر الخشب الجيّد والزفت والقطران[39] . أضف إلى ذلك أن بجاية كانت تملك معادن حديدية ، في حين كانت المهدية مضطرّة إلى توريد الحديد من الخارج . وكانت ورشة صنع السفن تسمى دار الصناعة أو دار الصنع . وكانت دور الصناعة في المهدية وبجاية رائعة . وفي عصر آخر أمراء بني زيري ، وقبل ذلك بكثير ، كان البحّارة يقيمون في زويلة .

هذا وإنّنا نعرف بعض أسماء الزوارق دون أن نستطيع دائماً تعريفها ، وهي : **القطعة** (ج : قِطَع) ، ويبدو أنه اسم جنس يطلق على الوحدة[40] ، **والمركب** (ج : مراكب) ، وهو عبارة عن سفينة تجارية كبيرة ، **والسفينة** (ج: سُفُن) وهي أصغر من المركب وتستعمل في الغزو في

---

36) يتعلق الأمر بعثمان بن سعيد ، المعروف بالمهر (المهذّب) ، الكامل ، الترجمة 487 ، الخطط ، 193/2 .

37) في سنة 480 هـ/1087-1088 م كان جيش بيزة وجنوة يضم 30,000 رجل على متن 300 سفينة ، وفي الديماس (517 هـ/1123-1124) كان الجيش الصقلي يضمّ 30,000 راجل و1000 فارس ، على متن 300 سفينة شراعية . وكان أسطول جرجي الأنطاكي الذي هجم على طرابلس يتركب من 200 سفينة . أمّا الأسطول الصقلي الذي استولى على المهدية في سنة 543 هـ/1148-1149 م فكان يتركب من 350 سفينة منها 250 شيني . وفي سنة 551 هـ/1156-1157 م ، أرسل غليوم 20شينيّا محملة بالأسلحة والمؤونة لمحاولة تخليص المهدية .

38) M. Lombard ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، إفريل - جوان 1959 م ، 234-254 .

39) الإدريسي ، 90-91 .

40) انظر دوزي ، الملحق ، 372/2 . في سنة 416 أو 427 هـ/1035-1036 م كان أسطول المعزّ بن باديس يضم 400 قطعة .

البحر[41] ، **والشيني** (ج: شواني) ، وهو اسم يطلق على سفينة شراعية بحرية[42] ، **والحربية** (ج: حربيات أو حرابي) ، وهي سفينة حربية[43] ، **والغُراب** وهي أيضاً سفينة حربية[44] ، **والطريدة**، وهي سفينة نقل ، **والشلندي** (أو الصندل) وهو قارب مسطّح[45] .

ويمكن تحديد تاريخ أوّل إشارة لاستعمال **النفط** (النار اليونانية) في إفريقية بسنة 387 هـ/ 997-998 م . فلما وصل باديس إلى المهدية في تلك السنة « لعبت المراكب بين يديه ورمى النفّاطون بالنفط »[46] . كما أشارت المصادر إلى استعمال النفط في أيامَ علي والحسن[47] .

---

41) الإدريسي ، 90-91 : كانت تُصنَع في بجاية الحرابي والسفن والمراكب ، ستوريا ، 377 ، الهامش 1 .

42) **الاتعاظ** ، 102 ، الهامش 1 (مراجع هامة) .

43) ستوريا ، 377/3 ، الهامش 1 ، دوزي ، الملحق ، 265/1 ، الإدريسي ، 90-91 والمعجم ، 282-283 . ديوان ابن حمديس عدد 93 ، البيت 63 . أرسل رجار الثاني إلى قابس 24 من الشواني وأرسل علي ، حربيّات و 4 شواني وبقية أسطوله المتركب من الحربيات والشواني .

44) كان أسطول تميم حوالي 470-471 هـ/1078-1079 م يتركب من 14 غراباً ، ستوريا ، 68/3-69 ، الهامش 7 ، 159-160 ، وفي سنة 503 هـ/1109-1110 م كان أسطول يحيى يضم 15 قطعة متركبة من الغربان والشواني . وقبل وفاته جهّز علي ضدّ رجار الثاني 10 حربيّات و 30 غراباً .

45) كان الأسطول الموحّدي الذي حاصر مدينة تونس يعدّه 70 سفينة (شيني وطريدة وشلندي) ، وكان الأسطول الذي حاصر المهدية يتركب من 150 غراباً ، بقطع النظر عن سفن النقل .

46) **المؤنس** ، 78 ، وحول استعمال النفط في عهد المعزّ لدين الله الفاطمي ، انظر ، المعزّ ، 184 .

47) كان الأسطول الذي أعده علي قبل وفاته مجهزاً بالنفط ، ديوان ابن حمديس ، عدد 314 البيت 28 ص 442 وعدد 320 البيت 57 ص 458 . وحول النفط انظر بالخصوص ، ستوريا ، 374/3 . و Mercier ، باريس 1953 م : Le feu grégeois: les feux de guerre depuis l'antiquité .

الفصل السادس
ضرب السكّة[1]

كانت الدولة هي التي تحتكر ضرب السكّة ، ولكنّ الخواصّ يستطيعون ، مقابل دفع معلوم مالي ، تحويل المعدن النفيس الذي يملكونه إلى نقود ، وذلك حسب عادة كانت رائجة في العالم الإسلامي في العصر الوسيط[2] .

وكان يُطلَق على صاحب السكّة وأتباعه اسم السكّاك[3] . وكانت أهمّ دور ضرب السكّة موجودة على التوالي ، حسب التدرّج التنازلي ، في المنصوريّة والمهديّة وطرابلس وزويلة . على أن نشاط دار السكّة بالمنصورية يفوق بكثير نشاط دار السكّة بالمهديّة[4] .

وحتى تاريخ القطيعة مع القاهرة ، كان بنو زيري التابعون للخلافة الفاطميّة يضربون السكّة باسم الخليفة ، وكانت القطع النقديّة المماثلة للقطع المضروبة في القاهرة تحمل اسم الخليفة ونفس النصوص الشيعية المكتوبة بخطّ كوفي جميل ، ولا تتميّز عنها إلاّ باسم مكان الضرب .

---

1) Lavoix ، 2 : مصر وسوريا ، رقم 337 ص 129 إسبانيا وإفريقيا رقم 934 ص 407 ، فروجيا (Farrugia) ، المجلة التونسية ، 1936 م ، 333-372 ، 1937 م ، 89-136 ، 1948 م ، 103-131 . والنشرة الأثرية لهيئة الأشغال التاريخية والعلمية ، باريس 1953 م (سنة 1950 م) 119-123 . H. W. Hazard, The numismatic history of late medieval North Africa, نيويورك ، 1952 م ، 52-55 ، 90-93 ـ نقائش القيروان العربية ، السفر 1 ، باريس 1950 م ، 36-38 . 165-166 . أشياء قيروانية ، السفر 4 ، باريس 1952 م ، 469-474 ، إدريس ، حول رجوع بني زيري إلى طاعة الفاطميين ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، الجزائر 1953 م ، 25-39 ، حسن حسني عبد الوهاب ، ديناران نرمانيّان بالمهدية ، المجلة التونسية ، 1930 م ، 215-218 . وحول النقود الصقلية ، انظر ، ستوريا ، 270/2 ، 520 وما بعدها . وحول النقود التي ضربها الفاطميون بمناسبة رأس السنة ، انظر M. Canard ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 394-395 .

2) فتوى ابن أبي زيد القيرواني (ت . 386 هـ/996 م) البرزلي ، مخطوط ، A.W 248/2 ظ ومخطوط الرباط ، 101/2 ط . (A. W = حسن حسني عبد الوهاب) .

3) كان وكيل أعمال أمّ المعزّ بن باديس يسمى محمد بن محمود السكّاك . وحول طريقة ضرب السكة المرابطية انظر ، جورج مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1936 م ، 180 وما بعدها .

4) حول ضرب السكة بالقيروان قرب دار ابن أبي زيد ، انظر ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 367 .

ورغم أن الدنانير الصنهاجية المضروبة في سنتيْ 439 و 440 هـ/ 1047-1048 م قد حافظت دائماً على طابعها الشيعي وعلى اسم الخليفة المستنصر ، فقد أُدْخِل عليها تغيير جديد بليغ المعنى ، يتمثل في تعويض اسم المنصورية التي أنشأها الخليفة الفاطمي المنصور باسمها القديم صبرة(5) .

وحسب رواية ابن شرف ، أمر المعزّ بن باديس في شهر شعبان 441 هـ/ 29 ديسمبر 1049 م - 26 جانفي 1050 م(6) بتعويض اسم الخليفة الفاطمي والنصوص الشيعية بنصوص سنّية نخصّ بالذكر منها هذه الآية القرآنية [التي نُقِشت في وجه الدينار] : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين ﴾(7) .

وبالفعل فإن جميع الدنانير الصنهاجية المضروبة من سنة 441 إلى سنة 449 هـ/ 1049-1058 م كانت من هذا النوع . ومنها قطعتان تتّسمان بنفس الخصائص ، أولاهما ضُربت في سنة 446 هـ/ 1054-1055 م والثانية في سنة 447 هـ/ 1055-1056 م ، وذلك في مدينة المهديّة التي كان تميم والياً عليها . ولكنّ أغلبيّة تلك النقود قد ضُربَت في المنصورية التي نُعِتَت « بمدينة عزّ الإسلام والقيروان » . وفي العبارة المنقوشة على رخامة في أعلى باب صبرة القديم والمؤرخة في سنة 437 هـ/ 1045-1046 م نجد منذ ذلك التاريخ إشارة إلى مدينة « عزّ الإسلام »(8) .

وبعد رجوع المعزّ إلى طاعة الخليفة الفاطمي في سنة 446 هـ/ 1054-1055 م(9) ، لا شكّ أنه قد أعيد ضرب السكة حسب النمط الفاطمي . ومهما يكن من أمر فإن جميع النقود المعروفة ، المضروبة في مدّة المعزّ وتميم بالمهدية من سنة 449 إلى سنة 459 هـ/ 1057-1062 م ، كانت تكتسي صبغة شيعيّة وتحمل اسم الخليفة المستنصر . ولم يصلنا أيّ نقد زيري مؤرّخ بعد سنة 459 هـ ، فهل يعني ذلك أن بني زيري لم يضربوا السكّة بعد ذلك التاريخ ؟ .

يمكن تفسير هذه الظاهرة بالزحفة الهلالية التي لا شكّ أنها عرقلت ، إن لم تكن عطّلت ،

---

5) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1953 م ، ص 29 .

6) البيان ، 1 ، 278-279 . [وفي الحقيقة لم يكن سبك المعزّ الصنهاجي لدنانيره في سنة 441 هـ كما ذكر ابن شرف ، بل إنه ضرب منها لأول مرّة سنة 439 هـ ثم استمرّ على ضرب أمثالها في كلّ عام ، حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، ج 1 - ص 447] .

7) سورة آل عمران ، الآية 79 .

8) نقائش عربية ، 1/87-90 .

9) إدريس ، المرجع السابق ، 25-29 ، آخر دينار من النوع السنّي مضروب في « مدينة عزّ الإسلام والقيروان » مؤرخ في سنة 448 هـ/1056 م .

تزويد البلاد بالذهب الخام الوارد أساساً من السودان عبر الصحراء[10] . أما الذهب الذي تمكّن بنو زيري من الحصول عليه في المهدية بواسطة التجارة البحريّة والجهاد في البحر ، فقد سبق تحويله إلى نقود قبل ذلك التاريخ . وأمّا الفضة فقد كان وجودها نادراً في إفريقية . ألم يكن اهتمام يحيى بالكيمياء وتحويل المعادن ناشئاً في آن واحد عن ذوقه الخاصّ وعن حرصه على تدارك نقص الذهب ؟ ولئن ضرب آخر أمراء بني زيري بعض النقود ، فلعلّ النرمان قد استحوذوا عليها وأعادوا سبكها[11] . وعلى كلّ حال فليست لدينا نماذج من جميع النقود التي ضُرِبت في إفريقية بعد غزوة بني هلال .

ولدينا ديناران سنيّان مضروبان في صفاقس ، الأوّل في سنة 449 هـ/ 1057-1058 م ، والثاني في سنة 461 هـ/ 1068-1069 م في مدّة الوالي حمّو بن مليل الذي استبدّ بمدينة صفاقس من 456 إلى 496 هـ/ 1063-1100 م . وقد استمرّ في ضرب النقود السنّية ، بعد انفصاله عن بني زيري الذين دخلوا من جديد في طاعة الفاطميّين منذ سنة 446 هـ/ 1054-1055 م ، وضربوا النقود الشيعيّة ، على الأقلّ ابتداء من سنة 449 هـ/ 1057-1058 م[12] .

وفي إحدى الفتاوى ورد ذكر دراهم مضروبة في دار السكّة التي أنشأها السلطان ووضع على رأسها رجل جائر ، وكانت جميع النقود المتداولة في المدينة واردة منها . فهل يجوز استعمال مثل هذه النقود لأداء مناسك الحجّ ؟ يرى صاحب الفتوى أنه لا يجوز ذلك بأيّ وجه من الوجوه ، ما دام من الممكن الحصول على « الضرب القديم » . وينبغي أن لا يؤخذ من تلك الدراهم إلا ما به الحاجة لسدّ الرمق ، دون استعمالها لأداء مناسك الحجّ أو لأيّ غرض آخر مماثل[13] . وسئل اللخمي (ت . 478 هـ/ 1085-1086 م) عن النقود التي أصدرها السلطان بالقيروان والمهدية وغيرها من النقود (المحظورة) المستعملة لتسديد رواتب الجند[13م] ، والتي لا مناص من استعمالها

---

10) حول استعمال ذهب سجلماسة لضرب النقود من طرف المعزّ لدين الله الفاطمي ، انظر ، المعزّ ، 33 .

11) هازار (Hazard) ، 55 . إن القطعة الفضية الزيرية الوحيدة المعروفة تتمثل في نصف درهم من النوع السنّي بدون ذكر التاريخ ومكان الضرب . ونفس المؤلف 281-233 ، ولم تقع الإشارة إلى أيّ نقد مصنوع من النحاس .

12) إدريس ، المرجع المذكور ، ص 31 .

13) فتوى ابن محرز (توفي حوالي 450 هـ/1058-1059 م) ، المعيار ، 345/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر 246/1 و . وفي فتوى مماثلة صادرة عن السيوري (ت . حوالي 460-462 هـ/1067-1070 م) ، المعيار ، 424/9-425 أشير إلى أن السلطان قد أنشأ في تلك المدينة « سكة تُضْرَب من مال واليها وليس من مال التاجر » .

13 م) « يأخذ الجند في أرزاقهم » .

لعدم توافر الأفضل . فأبدى الفقيه رأياً متسامحاً ، متعلّلاً بضرورة استعمال ما هو متوفر من النقود[14] .

وبعد غزوة بني هلال ، ظهرت عدّة نقود مزيّفة[15] . وعلى كلّ حال فقد تكاثرت قطع النقود حتى أصبح من الضروري في المعاملات التنصيص على عدد القطع ووزنها ونوع الضرب[16] .

وفي آخر العهد الصنهاجي كانت متداولة عدة قطع شوسيّة وطرابلسية وغيرها . .[17] . إذ لا شكّ أن أمراء الطوائف قد ضربوا السكّة باسمهم . وهذا ما فعله صاحب قابس رُشَيْد بن كامل بن جامع (515-541 هـ/ 1121-1147 م)[18] ، ونسج على منواله خلفاؤه بلا شكّ . ويقال : إن تلك النقود كانت من النّوع السنّي[19] . وقد وردت في فتوى صادرة عن الإمام المازري (ت . 536 هـ/ 1141 م)[20] البيانات التالية : إنّ الدّنانير الصفاقسيّة المعروفة بالرُّبْعِيّة[21] وغيرها من الدنانير الإفريقيّة كالثُّلُثِيّة واللّواتيّة[22] والسوسيّة[23] ، كلها نقود مغشوشة لا ينبغي

---

14) البرزلي ، مخطوط .A.W 201/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 42/2 و .

15) فتوى السيوري ، المعيار ، 297/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 232/1 ظ : حول الدنانير والدراهم المشوبة .

16) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 42/2 و- ظ . المختصر ، 67 ظ ، فتوى المازري ، المعيار ، 238/3 ، البرزلي ، مخطوط .A.W ، 84 ظ : يجب أن يذكر الشهود نوع وتاريخ وخصائص الضرب .

17 فتوى المازري ، المعيار ، 212/6-217 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و .

18) روى ابن خلدون (العبر ، 167/6) أن رشيد بن كامل ضرب « السكّة الرُّشَيْدية » .

19) حول قطعة منسوبة إلى الرشيد بن رافع ، مضروبة في قابس سنة 551 هـ/1156-1157 م . انظر ، هازار ، 55-56 ، 94 الذي اقترح قراءة الرُّشِيد بن الرُّشِيد واعتبر هذا الشخص واحداً من ابنيْ الرُّشِيد (= الرُّشَيْد) (ت . 543هـ/1148-1149 م) اللذين خلفاه الواحد تلو الآخر ، وهما محمد ثم مدافع . ولا يمكننا البتّ في هذه القضية لأنّ تاريخ قابس في تلك الفترة غامض أكثر من اللزوم . فهل تمت قراءة تلك القطعة كما ينبغي ؟

20) المعيار ، 212/6 ، 217 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و .

21) ربما لأنها كانت تحتوي على كميّة من الذهب أقلّ 4 مرات من الدنانير الفاطمية الزيريّة . انظر فروجيا ، المرجع السابق ، 1950 م ، (باريس 1953 م) ، 119-123 ، حوال دينارَيْن من النوع السني ضُربا في صفاقس ، الأول في سنة 447 هـ/1057-1058 م ، ويزن 4,08 غرام والثاني في سنة 461 هـ/1068-1069 م في مدة حمّو بن مليل ويزن 4,20 غرام .

22) حسب البرزلي ، أي نقود لواتة . والجدير بالتذكير أن البكري ، 145 ، قد أشار إلى وجود منجم فضة تابع لقبيلة لواتة البربرية في منطقة مجّانة المعادن . وفي المعيار ، نقود لوّانية ؟

23) حسب البرزلي ، مخطوط الرباط ، وفي المعيار ، سُدَاسيّة . وفي فتوى لأبي القاسم المناري السوسي ورد ذكر 150 ديناراً سوسيّة ، البرزلي ، مخطوط A.W 60/2 ظ .

وزنها مع الدنانير المرابطية[24] أو الطرابلسية .

ويبدو أن النّاس كانوا يحتاطون عند تقدير المبالغ المعبّر عنها بالدنانير التميميّة ، وذلك مثلاً لتحديد قيمة صداق[25] . ومن المحتمل أن يكون الدينار المهدوي والدينار التميمي متطابقَيْن[26] .

وقد ضرب ملك النرمان رُجار الثاني ثم ابنه غليوم الأوّل نقوداً ذهبيّة باسمها في المهدية . وهي نقود عربية الصيغة ، مقلّدة بصورة تكاد تكون تامّة عن دنانير الخليفة الفاطمي الظاهر (411-427 هـ/ 1021-1036 م)[27] .

وكان المنصور بن الناصر أوّل من ضرب السكة من أمراء بني حمّاد[28] . وتتمثل الإشارة الوحيدة التي لدينا حول النقود الحمّادية في الوصف الذي قدّمه ابن خلدون لدينار مضروب بالناصريّة (= بجاية) سنة 543 هـ/ 1148-1149 م ، في عهد يحيى بن العزيز بالله ، باسم الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله[29] .

كما ضرب السكّة الداعي أبو الفهم الذي أوفده الخليفة العزيز إلى كتامة سنة 376 هـ/ 986-987 م[30] ، وقامت بنفس العمل أسرة بني خزرون التي استبدّت بالحكم في طرابلس (391-541 هـ/ 1001-1147 م) . ونُقِشَت على دينار مؤرخ في سنة 425 هـ/ 1033-1034 م أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة[31] .

ويقال ـ كما أسلفنا ـ : إنّ القائد الفاطمي الحسن بن علي بن ملهم قد ضرب في قابس نقوداً ذهبيّة وفضيّة باسم المستنصر حوالي سنة 455 هـ/ 1063 م .

---

24) حول الدنانير المرابطية المضروبة في سجلماسة ، انظر ، مازار ، 96-99 .

25) فتوى المازري ، المعيار ، 221/3 ، 237 ، البرزلي مخطوط A.W ، 63/2 ظ ، 64 و ـ 66 و : حدّد صداق بمبلغ 100 دينار كِبَار من الذهب من الدنانير التميمية . وفي المعيار حُذِفَت كلمة كبار . ويتعلّق الأمر بالقيمة لا بالمعيار . وفي فتوى لأبي الفرج التونسي ، يبدو أن قيمة النقد بالنسبة إلى صداق قيمته 60 ديناراً تميمية لا تبلغ سوى 30 أو 40 أو 80 ديناراً صفاقسية عوض 120 $(\frac{4 \times 6}{2})$ ، إذا كان صحيحاً أن الدينار الصفاقسي يسمّى رُبُعيًا لأن قيمته تساوي ربع الدينار العادي (أو التميمي) ، المعيار ، 221/3 ، والبرزلي ، مخطوط A.W. ، 64/2 و .

26) فتوى المازري ، المعيار ، 243/3 : جهاز قدره 2000 دينار مهدويّة .

27) وحول دينار ضربه رجار بالمهدية سنة 543 هـ/1148-1149 م وآخر ضربه غليوم سنة 549 هـ/1154-1155 م ، انظر ح . ح . عبد الوهاب ، المجلة التونسية ، 1950 م (الثلاثية الأولى والثانية) ، 215-218 . [ولنفس المؤلّف ، ورقات ، الجزء الأول ص 451-425] .

28) حسب ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق عبد الرحمان محمد (ص 184) الذي استشهد بتاريخ ابن حمّاد .

29) العبر ، 177/6 (نقلاً عن ابن حمّاد) ، انظر أيضاً Canard ، 95-96 .

30) البربر ، 14/2 الهامش 1 (حسب النويري) .

31) فروجيا ، المجلّة التونسية ، 1948 م ، 105-106 .

الفصل السابع
الماليّـة

الغالب على الظنّ أن الأمير الصنهاجي كان مستحوذاً على بيت المال . وحسب شهادة القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) كان السلطان يغتصب خُمُس الغنيمة الراجع شرعاً إلى المسلمين أي إلى الخزينة العمومية التي لا يجوز للإمام أو نائبه إلّا إدارتها حسب التعاليم الفقهية[1] . وقد كانت إيرادات المغارم[2] (أي الضرائب) الموظفة على المسلمين منذ عهد بني عُبَيْد تتدفّق على « ديوان » السلطان ، أي المصلحة المالية المركزية الموجودة بلا شكّ في صبرة المنصورية حتى تاريخ زحفة بني هلال ، ثم في المهدية بعد ذلك التاريخ .

والجدير بالتذكير أن المعزّ لدين الله الفاطمي ، قبل خروجه من إفريقية إلى المشرق ، « أمر الكتّاب وولاة الأشغال (أعوان الماليّة) بالسمع والطاعة لبلكّين »[3] . ونستنتج من هذه الإشارة أنه كان يوجد إلى جانب كلّ والٍ ، أمين مال ربّما مستقلّ عنه يحمل عنوان « والي الأشغال » أو العامل ، بمعنى المدير الجهوي للمالية[4] .

وقد فوّض الخليفة إلى بلكين الإدارة المالية بأسرها وجباية الضرائب ، ولكنّه عيّن كبار

1) المعيار ، 310/1 . ابن خلكان ، 240/2 (نقلاً عن ابن شدّاد) : استدعى تميم ولده في دار الإمارة واستقبله في بيت المال قرب غرفة توجد بها كتب . فتوى السيوري (ت . 460-462 هـ/1067-1069 م) ، المعيار ، 411/9 : لا يمكن تطبيق القواعد الشرعية على مستغرق الذمة (خارج عن القانون) ، وينبغي توزيع المكاسب المغتصبة على ضحايا الفقراء إن وُجدوا ، وإلّا توزيعها كصدقة أو استعمالها لبناء الجسور أو تحويلها إلى بيت المال .

2) فتاوى اللخمي (ت . 478 هـ/1985 م) ، المعيار ، 120/6 ، وهي تتعلق بجابٍ فاسد : « يزن في ديوان السلطان المغارم المبسوطة على المسلمين بسطها بنو عُبَيْد . . . » . فتوى ابن محرز (ت . 450 هـ/1050 م) المعيار ، 293-138/10 ، البرزلي ، المختصر ، 125 ظ ؛ كانت إحدى العائلات توفّر الموظفين لديوان الخراج مدة ثلاثة أجيال ، وكانوا يستخلصون المداخيل السلطانية بالدنانير والدراهم .

3) البيان ، 228/1 .

4) برنشفيك (الدولة الحفصية) [الترجمة العربية 53/2-66] .

المسؤولين عن المالية وأمرهم بالسمع والطاعة للأمير[5] وهم :

ــ أبو مُضَر زيادة الله بن عبد الله بن القديم المكلّف بجباية الأموال (الضرائب) في إفريقية[6] ، « ونظر الدواوين بسائر كور (أقاليم) إفريقية » .

ــ وعبد الجبّار الخراساني والحسين بن خلف المرصدي ، مديرا الخراج .

ولا ندري ماذا كانت صلاحيات كلٍّ منهما ، وهل كانا راجعَيْن بالنظر إلى الأمير مباشرة أو إلى أبي مضر زيادة الله .

ويبدو أن المسؤولين عن الجباية في الأقاليم كان يُطلَق عليهم اسم « ولاة الأشغال »[7] ، ولكن رئيسهم لم يكن يحمل اسم « صاحب الأشغال »[8] .

وقد رأينا كيف استأثر عامل إفريقية بالشؤون المالية اعتباراً من سنة 364 هـ/ 974-975 م . ولكن حتى بعد هذا التاريخ ، احتفظ الخليفة الفاطمي ، خلال فترة لا نعرف مدّتها بالضبط ، بحقّ النظر في أموال الدولة الصنهاجية . فقد أمر بلكّين في سنة 663 هـ / 976-977 م بوضع حدّ للجباية المشطّة التي فرضها عبد الله بن محمد الكاتب على الناس . « وفي سنة 367 هـ بعث عبد الله الكاتب عامل إفريقية المال المجموع إلى ملك مصر العزيز بالله بأمر أبي الفتوح (بلكين) من قِبَل العزيز بالله ، وكتب على كلّ صُرّة اسم صاحبها . . . ولما وصل المال إلى مصر ، ردّ العزيز بعض الصُّرَر إلى أربابها »[9] . وفي مناقب الجبنياني (ت . 369 هـ/ 974 م)[10] ورد ذكر ضريبة فرضها عبد الله بن محمد الكاتب على أهل القيروان ، وقد أساء معاملتهم لابتزار ذلك المال الذي نُعِتَ في

---

5) في عهد عبيد الله كانت توجد أربع مصالح مالية متميّزة على رأس كل واحدة مسؤول عنها وهي : بيت المال وديوان الخراج والسكة والعطاء ، البيان ، 159/1 ، المؤنس ، 60-61 : في سنة 342 هـ/973-974 م عُهِد بخراج إفريقية إلى صولة الكتامي ، الاتعاظ ، 186 : في سنة 363 هـ/973-974 م عيّن المعز لدين الله في القاهرة موظّفَيْن اثنين على رأس ديوان الخراج وموظف آخر على رأس بيت المال ، المعزّ ، 170-171 .

6) في فتوى صادرة عن اللخمي ، المعيار ، 423/9 أشير إلى شخص دخل بطوع إرادته إلى « جباية السلطان » في الديوان الذي أسّسه بنو عُبَيد .

7) البيان ، 228/1 .

8) هـذا العنوان أطلق في صقلية على عبـد الرحمـان النصراني وزير المـالية في عهـد رُجار ، التجـاني ، 333 ، ستوريـا ، 369-370 ، ابن خلدون ، المقدمة ، 14/2-15 ، دوزي ، الملحق ، 467/1 ، برنشفيك ، المرجع المذكور .

9) البيان ، 230/1 .

10) مناقب ، 64 ، 252-3 .

النصّ « بمال المغرمَيْن » أي الضريبتَيْن[11] .

وفي سنة 373 هـ/ 984-985 م اشترى عامل إفريقية سودانيّين لضمّهم إلى حرسه الخاص ، ووظّف لهذا الغرض ضريبة على العمّال وأصحاب الخراج وكبار رجال الدولة . وأشير في السنة الموالية إلى خزائن الدولة وبيت المال المغلقة ، وإلى أصحاب الخراج ، وهم - حسبما يبدو - الأمناء الذين تحدّث عنهم ابن أبي دينار .

ولما أقرّ المنصور عبد الله الكاتب في خطة عامل إفريقية ، أوضح أنه مكلّف بجباية أموال القيروان والمهدية وسائر إفريقية . ولم نجد في المصادر أيّ إشارة لخزينة الأمير . بل بالعكس من ذلك ، فإن عبد الله الكاتب هو الذي وزّع ، بإذن من الأمير ، 10.000 دينار على أهل القيروان الذين جاؤوا ليسلّموا عليه في أشير ، وهو الذي موّل بناء قصر المنصور بصبرة الذي بلغت كلفته 800.000 دينار .

وحتى تاريخ القطيعة مع القاهرة ، بلغت قيمة الهدايا الموجّهة إلى الخليفة حدّاً ربما يجعل من الأصحّ وصفها بالجزية[12] . وفي مدة نائب الأمير « شيخ الورد » فُرِضت على البوادي غرامة باهظة وأُعفِي منها أهل القيروان . والجدير بالملاحظة أن هذا الأسلوب المطابق للنصائح التي كان الخليفة قد أسداها إلى بلكين ، يختلف تماماً عن الطريقة التي توخّاها عبد الله بن محمد الكاتب والرامية - كما أسلفنا - إلى توظيف الضرائب على المدن بوجه خاصّ . فقد كان يقوم بحملات عسكريّة حقيقية شبيهة بالحملات التي ستنظّم في العصر التركي ، « لجباية الأموال » . وكان ابن البوني يجمع الضرائب ويتلقى في كلّ بلدة الهدايا المقدّمة إليه طوعاً أو كرهاً وينفق بلا حساب على حاشية العامل التي كانت تقيم في بعض المدن عدّة أشهر حسب هوى سيّدها . وقد تحمّل المنصور هذه الفضيحة مدة طويلة .وإثر وفاة الحسين بن خلف المرصدي (380 هـ/ 990-991 م) ، فوّض خراج القيروان (أي إفريقية) إلى موظّفَيْن اثنين هما محمد بن عبد القاهر بن خلف وسلامة بن عيسى اللذان كانا يجلسان مع بعضهما في ديوان خراج صبرة المنصورية . والجدير بالتذكير أن المرصدي كان قد عيّنه المعزّ لدين الله الفاطمي في آن واحد مع زميله عبد الجبار الخراساني الذي لا ندري ماذا كان مصيره فيما بعد . وعلى كلّ حال ، نلاحظ أنّ صاحب أو أصحاب الخراج لم يتمّ

---

11) وفي رواية أخرى : مال المُقدَمتَين ، أو ربما : مال التقدِمتَيْن .

12) قُدّرت الهدايا التي وجّهها المنصور إلى الخليفة العزيز حوالي سنة 374 هـ/984-985 م بمبلغ مليون دينار ذهب .

تغييرهم منذ بداية الدولة الصنهاجية وأن قرار المنصور يدلّ على ما كانت تتميّز به تلك الخطة من استقرار وقد عُهِد بها ـ كما كان الشأن في الماضي ـ إلى موظَّفَيْن اثنين، وأُقيم مكتب الخراج في صبرة المنصورية ، أي في محلّ إقامة الأمير ومقرّ الإدارة السلطانية .

وفي سنة 381 هـ/ 991-992 م أعفى الأمير سكّان البوادي من دفع ما تخلّد في ذمتهم من بقايا الخراج ، وجدّد هذا الإعفاء في السنة الموالية ، ولعلّ الأمر يتعلّق بنفس الإجراء الذي اتُّخِذ في سنة 381 أو 382 هـ . ولا شكّ أنّ هذا العفو الجبائي ينمّ عن رغبة في تحقيق العدالة . ذلك أنّ الأمير ، بعد مدّة قليلة من محاولة استرجاع الأموال التي ابتزّها ابن البوني وابنه ، وإثر قتل ذلك الموظّف الجائر ، عزل « شيخ الورد » وعوّضه بمحمّد بن أبي العرب الكاتب .

وحسب إشارة وردت من باب الصدفة[13] قبل سنة 405 هـ/ 1014-1015 م ، كان المسمّى عيسى بن خلف يحمل عنوان « صاحب خراج المغرب » .

ولا شكّ أن إيرادات الجباية العينية كانت تُجمَع في المخازن . فقد أخبرتنا بعض المصادر أن مخازن عامل الأربس كانت تحتوي في سنة 382 هـ/ 992-993 م على 600.000 قفيز من الطعام (أي الحبوب) .

وكانت الهدايا المقدّمة إلى الأمير من قِبَل العمّال بمناسبة ارتقائه إلى العرش أو في بعض المناسبات العائلية ، على غاية من الأهمية ، فهي بمثابة ضريبة حقيقية . من ذلك أن عامل طرابلس قد قدّم إلى المنصور بمناسبة ختان ابنه باديس « هديّة جليلة فيها مائة حمل من المال » .

ويبدو أنّ بلاد كتامة كانت تتجاهل السلطة الصنهاجية ولم تدفع لها الضرائب إلى حدود سنة 376 هـ/ 986-987 م . ففي ذلك التاريخ دخل عمّال وجنود بني زيري للمرّة الأولى إلى تلك البلاد ، فجبوا الأموال وراقبوا السكان عن كثب . وبهذه المناسبة أعطت المصادر بصورة واضحة لكلمة « عامل » معنى الوالي المدني المكلّف بالجباية أوّلاً وقبل كلّ شيء .

ومن بين الامتيازات التي منحها باديس إلى تلاميذ محرز بن خلف قبل سنة 396 هـ/ 1005 م ، الإعفاء من « المظالم » (المكوس) . وقد تمّ تأكيد هذا الإعفاء بمقتضى الظهير[14] الذي

---

13) الحصري ، زهر الآداب ، 221/1 : نظم النهشلي (ت ، 405 هـ/1014-1015 م) قصيدة في رثاء هذا الشخص الذي توفّي من أثر دواء تجرّعه .

14) مناقب ، 316-319 ، 325 ، الهامش 155 .

أصدره المعزّ بن باديس سنة 417 هـ/ 1205 م وأمر « من وقف عليه من العمّال وسائر الولاة بأن يعمل ممتثلاً لشروطه ، واقفاً عند حدوده وزواجره » .

وقد جاء في هذا الظهير الموجّه إلى محرز بن خلف ما يلي :

« اقتضى النظر بهذا الظهير لجماعتكم بحفظكم ورعايتكم وحمايتكم وحسن معاملتكم ، وحفظ الأنصار الصائرة إلى حضرتكم وحسم الأيدي الممتدّة إلى إساءتكم وأهلكم وأموالكم ورعاياكم بحضرة تونس وباديتها وشركائكم وأتباعكم ، ومن عرف بكم وانتسب إلى نسبتكم وأوى إلى جنابكم ، ورَفْعِ الأيدي عن عشوركم في قرية أوسانية . . . وما أطاف بمدينة تونس ، وحرم دياركم وزاويتكم . . . وتسريح أعشاركم وإجرائكم على فارط رسمكم وجري عادتكم ، طائعين لجميع ما تضمّنه هذا الظهير الكريم »[15] .

وكان محمد بن الحسن نائب الأمير بإفريقية المعيّن في هذا المنصب إثر ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش يجبي الضرائب لفائدته ، وقد أخذ أموالاً من الخزينة ولم يرجعها ، وجمع ثروة طائلة على حساب الدولة . فأمر المعزّ بقتله في سنة 413 هـ/ 1002 م وصادر جميع ممتلكاته وعوّضه بزمام الدولة أبي القاسم بن أبي عبّود محمد بن أبي العرب الكاتب . وفي السنة الموالية عهد بالوزارة الكبرى إلى أبي البهار بن خلوف الذي كانت صلاحياته تتمثل بالخصوص في جباية الأموال وولاية العمّال وسائر الأشغال . وكان مقرّ بيت المال في آخر عهد تميم يقع ـ كما أسلفنا ـ في دار الإمارة الكائنة بالمهديّة .

ونقلت إلينا المصادر اسم « المتولّي لأشغال أمّ المعزّ » ، وهو محمد بن محمود ابن السكّاك . ويمكن أن نستنتج من لقبه أن جدّه كان مكلّفاً بالسكّة .

ويبدو من العبارات التي أوردها ابن عذاري[16] عند حديثه عن نكبة القائد عبّاد بن مروان الملقّب بسيف الملك ، أنّ هذا الموظف الذي « استعمل في أعماله » أعواناً لجباية الأموال ، كان يشرف على ماليّة الدولة الصنهاجية التي تصرّف فيها طوال عهد تميم بن المعزّ ، جرجي الأنطاكي . وقد أخبرنا التجاني أنّ تميماً « قد حكّمه في دخله وخرجه ، وجعل مصارف الأموال لنظره ، فصارت أموال المسلمين كلّها في يده وأيدي أقاربه »[17] . وفي سنة 480 هـ/ 1087-1088 م دفع تميم

---

15) [انظر النصّ الكامل لهذا الظهير في « نزهة الأنظار » ، (طبعة بيروت) ج 1 ص 369-370] .

16) البيان ، 279/1 .

17) رحلة التجاني ، ص 333 .

للمتغلبين عليه مبلغ 100.000 دينار ، قسم منه نقداً والآخر في شكل أوانٍ من المعدن النفيس .

وليست لدينا معلومات مدقّقة حول السياسة الجبائية التي طبّقها النرمان في ممتلكاتهم الإفريقية . والغالب على الظنّ أن العامل الأهلي المشرف باسمهم على إدارة المدينة هو الذي كان يجمع مداخيل الجزية والخراج ويسدّدها إليهم . وفي جزيرة جربة التي استولوا عليها سنة 529 هـ/ 1134-1135 م ، عيّنوا عاملاً عليها وفرضوا الجزية على أهلها .

وفي نفس الوقت الذي عيّن فيه عبد المؤمن بن علي ابنه عاملاً على إفريقية ، عهد « بالأعمال المخزنية » إلى موظف آخر ، يبدو أن صلاحيّاته كانت تكتسي أوّلاً وبالذات صبغة مالية .

الفصل الثامن
القضاء

الحاكم :

لا يبدو أنّ بني زيري قد قاموا بمهمّة « ردّ المظالم » ، لا بصورة مباشرة ولا بواسطة قاضٍ خاصّ(1) ، فقد كان يتولّى القضاء شبه المدني ، قبل ارتقائهم إلى الحكم ، قاضٍ يسمّى على حدّ السواء ـ حسبما يبدو ـ صاحب المظالم والحاكم(2) . وقد كان هذا القضاء يكتسب صبغة أسرع

1) لقد قام الخلفاء الفاطميون بمهمّة ردّ المظالم بأنفسهم ، انظر، المعزّ، 203-203 . وحول ردّ المظالم في العهد الحفصي ، انظر ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي [الترجمة العربية ص 145-146] .

2) المدارك ، 2-30/3 و : مظالم القيروان ، حاكم ، معالم الإيمان ، 75/3 : « صاحب مظالم القيروان والحاكم بها أيّام أبي زيد » ، المدارك ، 2-25/3 ظ : عهد القاضي ابن طالب إلى عبد الله بن الوليد (ت . 290 هـ/910-911 م) ، بأسواق القيروان وموازينها .

وحول صاحب السوق (ت . 299 هـ/911-912 م) ، انظر ، البيان ، 167/1 . وألّف الفقيه الأندلسي المقيم بسوسة يحيى بن عمر بن يوسف كتاباً بعنوان « أحكام السوق » ، خصّه حسن حسني عبد الوهاب بدراسة هامّة غير منشورة .

وكان أبو إبراهيم أحمد بن أبي الوليد (ت . 345 هـ/956-957 م) صاحب المظالم وحاكم القيروان في أيّام أبي يزيد الذي كان قد طلب من أهل القيروان تعيين شخص ليتولى الأحكام الشرعية ، فاختاروا هذا الشخص لكفاءته وتديّنه . وكان أيضاً يتولى الصلاة والخطبة في الجامع الأعظم بالقيروان ، معالم الإيمان ، 75/2 ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية 1935 م ، 171-172 (ص 171 : أبو العبّاس بن أبي ثوبان ، وحول الطرزي (ت . 317 هـ/929-930 م) ، نجد المرادفات التالية : مظالم القيروان ، حكومة القيروان ـ أسواق القيروان ، أحكام القيروان ، الحسبة ، المدارك ، 2-4/3 ظ . ومعالم ، 7/3-8 والبيان .

وأكّد مقديش 124/1 [طبعة بيروت ، 331/1] أن أبا القاسم الطّوزي (كذا) كان قاضي صقلية والمحتسب بالقيروان . ولكن الأمر يتعلق بشهادة متأخرة تؤكد مع ذلك أن خطة الحاكم كانت مطابقة لخطة المحتسب .

وحسب المدارك ، 2-4/3 ظ . يبدو أن إبراهيم بن الخشاب كان مكلفاً في فترة ما بمظالم القيروان ، في حين كانت الحسبة من نصيب الطّرزي [أو الطوزي] . وكان الشخص الأول الملقب بحارث الحسبة مكلفاً « بأحكام القيروان » وقضاء رقّادة ، البيان ، 185/1 . وكان ابن اللبّاد (ت . 333 هـ/944 م) كاتب ابن الخشاب في أوّل الأمر ثم كلّف بمظالم القيروان ، المدارك ، 2-148/3 و . ويطلق اسم حاكم في المصادر الخارجية على عمّال جبل نفوسة الإباضيين . انظر T. Lewicki ، دراسات إباضية ، 42/1 ، 125 ، 126 ، 127 ومواضع أخرى ، ليفي بروفنسال ، إسبانيا الإسلامية ، 83 ، 89 ، 94 ، 99 ، سيرة جوذر ، 123 .

وأنجع وأكثر مرونة من القضاء الشرعي المتقيّد بالإجراءات الشرعية . وكانت صلاحيّات الحاكم في عصر الإمام سحنون مقتصرة على النظر في القضايا التي لا تتجاوز القرارات المتّخذة في شأنها 20 ديناراً ثم ارتفعت فيها بعد إلى 100 دينار . وكان القاضي الشرعي هو الذي يعيّن ذلك المقدار[3] .

ويبدو أنّ الحاكم قد اضطلع أيضاً بمهامّ المحتسب الذي كان يسمّى قبل العصر الصنهاجي « صاحب السوق » . ولا شكّ أنّ العبارة الواردة في مناقب محرز بن خلف (ت . 413 هـ/ 1022-1023 م) ، « الماسك بسيف وسوط السلطان » تعني الحاكم[4] .

« وفي سنة 398 هـ (1007-1008 م) توفّي صاحب المظالم بإفريقية محمد بن عبد الله ، وكانت وَطْأته قد اشتدّت على أهل الرِّيَب والفساد بالضرب والقتل وقطع الأيدي والأرجل ، لا تأخذه فيهم لومة لائم »[5] .

وكانت الشؤون البلدية والتجارة والصناعة راجعة بالنظر لا محالة إلى الحاكم .

ومن الجدير بالتذكير أنّ أوّل من تولّى القضاء في القيروان من آل بني هاشم ، كان قد شغل قبل ذلك منصب حاكم القيروان سنة 337 هـ/ 948-949 م[6] .

وقد عُرِضت على الحاكم قضيّة الفتاة التي اُفتُضّت بكارتها ثم سلّمها ابن عمّها إلى صنهاجة . ولما استفتي القابسي حول هذه القضيّة أشار على القاضي بجمع شهادات تتعلق بحسن

---

3) المدارك ، 2-14/3 و : حبيب بن نصر (ت . 286 أو 287 هـ/899-900 م) عيّنه سحنون (صلاحيته محدودة بعشرين ديناراً) ، نفس المرجع ، 2-4/3 وظ : سليمان بن سالم القطّان (ت . 289 هـ/901-902) سمّاه عيسى بن مسكين (رفعت صلاحياته إلى 100 دينار) .

وعهد القاضي ابن طالب خلف بن جُبَيْر بالحكومة بالقيروان ، المدارك ، 2-30/3 و .

وفي سنة 320 هـ/932 م عيّن عُبَيْد الله قاضياً على طرابلس أحمد بن بحر الذي كان عهدئذٍ « صاحب مظالم القيروان وصلاتها » ، وكان قد عهد إليه بذلك الخطة القاضي إسحاق بن أبي منهال . ونلاحظ هنا الجمع بين مهام صاحب المظالم وصاحب الصلاة . وكان سلفه الملقب بصاحب الوثائق مكلّفاً بقضاء ووثائق طرابلس . ولا ندري هل أن هذا التمييز يعني وجود قاض وصاحب الوثائق بالقيروان . انظر ، البيان ، 205/1 ، أبو العرب ، 225 ، المدارك ، 2-174/3 ظ ، 175 و : كان أبو علي الحسن بن نصر (ت . 341 هـ/952-953 م) المكلّف من قبل القاضي حماس بأحكام سوسة ، يقوم بمهمة الحاكم ، حيث كان يقاوم فساد الأخلاق .

4) مناقب ، 286 .

5) البيان ، 258/1 .

6) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و [طبعة بيروت ، 357/2] : صلّى على القاضي ابن أبي منظور (ت . 337 هـ/948-949) ، « عبد الله بن هاشم وهو يومئذٍ حاكم القيروان » .

سلوك ذلك الشخص ، فإن أسفر التحقيق عن نتائج سلبية يجب سجنه ، مع التذكير بأنه مهما كان الأمر لا ينبغي تطبيق الحدود على الشّبهات[7] .

وفي فتوى أخرى لنفس الفقيه ، ورد ذكر مدين قد سجنه الحاكم ، اعتماداً على شكوى صادرة عن الدائن[8] .

وتضمّنت فتوى لابن العطّار إشارة إلى قضيّة عرضت على الحاكم الذي تسلّم وثيقة تقرّ البيّنة[9] .

وجاء في فتوى للإمام المازري أنّ حاكماً كان يستشير مَنْ لم يبلغوا درجة الفتوى ويصدر أحكامه على أساس آرائهم الشرعية[10] . وتدلّ هذه الوثيقة على أنّ الحاكم في عهد بني زيري ، وربّما قبل ذلك ، كان يطبّق على الأقلّ في بعض الحالات إجراءاتٍ مماثلة للإجراءات التي يتّخذها القاضي الشرعي .

وفي قضية إقرار بالدّين معروضة هي أيضاً على المازري حكّم الطرفان حَكَماً « وأشهدا على أنفسهما بإنفاذ حكومته »[11] . وقد اشتكى المدين من تعرّضه لضغوط الحاكم الذي « طبع على مخزنه »[11م] .

ورغم أن مهمّة الحاكم كانت تتضمّن أيضاً الحسبة في عهد بني زيري - حسبما يبدو - فليس من المستبعد أن تكون هذه الوظيفة الأخيرة قد ظلت قائمة الذات بصورة غير ثابتة ، على الأقلّ من الناحية النظريّة . فقد نظر السيوري في إحدى فتاواه في صحّة شهادة أدلى بها أحد الشهود أمام محتسب أو قاضٍ جاهل[12] . ولعلّ عبارة محتسب الواردة في هذه الفتوى مرادفة لعبارة حاكم ، وهو قاضٍ تشملُ صلاحياته في آن واحد ردّ المظالم والحسبة بوجه عام ، وشرطة الأسواق بوجه خاصّ . والجدير بالملاحظة أنّ هذه الصّلاحيات تختلف وعلى الأقلّ تتميّز عن صلاحيّات القاضي الشرعي .

---

7) فتوى القابسي (ت . 403 هـ/1012 م) ، المعيار ، 433/9 .

8) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 429/9-430 .

9) فتوى أبي حفص عمر بن العطار (ت . 450 هـ/1058 م) نفس المصدر ، 126/6 .

10) فتوى المازري (ت . 536 هـ/1141 م) نفس المصدر ، 269/10 .

11) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 188/2 ظ .

11 م) [أي ختم بالشمع الأحمر] .

12) فتوى السيوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) ، المعيار ، 92/10 .

ونحن لا نعلم بالضبط أسماء الأعوان التابعين للحاكم ، ولعلّهم كانوا يحملون ، لا سيما في الأسواق ، الاسم الذي كان يطلق في عصر سحنون على مساعدي المحتسب وحتى القاضي ، وهو « الأمين » (ج . أمناء)[13] . كما ورد في بعض المصادر ذكر « ناظر السوق » ، عند الحديث عن سوق ابن هشام[14] .

وفي بعض الحالات الهامة ، يقع اللجوء ، وفقاً للتعاليم الفقهية إلى الأمير ، صاحب السلطة الزمنية والروحيّة .

وقد أثارت الآراء التي أبداها أبو الحسن علي بن أبي طالب العابر حول الهيجان في القيروان ، ما دفع الفقهاء المتخالفين معه إلى تفويض الأمر إلى السلطان . وقد اعتبر محرز بن خلف بتحسّر أن هذا الدّواء أضرّ من الداء[15] .

واستفتي ابن أبي زيد [القيرواني] حول العقوبة الواجب تسليطها على من تطاول على الدين فأجاب : « عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان »[16] .

وفي عهد باديس ، حسب الاحتمال ، أحيل على الأمير سكّير متّهم بالتهجم على مقام الرسول [ﷺ] ، وكان مكبّلاً في الأغلال ، فأودع السجن بعدما ثبتت عليه البيّنة . ورغم ذلك فقد عرضت القضية على القابسي ، كبير فقهاء المالكية في القيروان بلا نزاع ، لإبداء رأيه حول العقوبة التي يجب على السلطة المدنية تسليطها على الجاني[17] .

وفي قضيّة مماثلة اتُّخِذت نفس الإجراءات ، واستُفْتِي القابسي[18] . ومن المعلوم أن الجاني في قضيّة الحال يستحقّ الإعدام ، اللّهم إلاّ إذا كانت هناك ظروف تخفيف مثل حالة السّكر ، حسب رأي القابسي .

وفي سنة 438 هـ/ 1046 م عُرِضَت قضيّة التونسي على المعزّ بن باديس الذي اتخذ قراره المعروف[19] ، بمساعدة ثلاثة علماء من كبار أهل السنّة .

---

13) الحلل ، مخطوط دار الكتب الوطنية تونس ، 140 و ، بساط ، 27 .
14) نقائش عربية ، 2/ عدد 341 .
15) منقاب ، 286 .
16) فتوى ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/996 م) ، المعيار ، 276/2 ، 276 .
17) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 276/2 ، 406 .
18) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 280/2 ، 407-408 .
19) إدريس الكراسات التونسية ، 1956 م ، 508-517 .

واشتكى مظلوم إلى السلطان الذي بحث عن المذنب بواسطة أعوانه وأودعه السجن . وبعد مدّة قليلة قدّم المشتكي إلى السلطان بيّنة ضدّ السجين . واستُفتيَ ابن محرز حول هذه القضية ، فأجاب : أن المشتكي يستحقّ التأديب لأنه التجأ إلى السلطان . وعليه أن يعوّض خصمه عمّا ألحقه به الأمير من أضرار بسبب تلك الشكوى ، وسوف لا تُعتمَد شهادته في المستقبل . واعتبر فقيه آخر لم يُعرَف اسمه أنّ من يشتكي إلى سلطان أو إلى عامل جائر ، يجب عليه أن يعوّض المتهم بقدر ما تعرّض له من تجاوزات . ولكن إذا لم يجد المظلوم ملاذاً آخر غير السلطان ، وإذا اغتنم السلطان الفرصة لتسليط عقوبات قاسية وغرامات جائرة على المتهم ، فإن المشتكي غير مطالب بدفع أي تعويض[20] . وأبدى ابن أبي زيد هذا الرأي : يجب تأديب المشتكي ولكنه غير مطالب بأيّ تعويض ، « هذا قول أصحابنا »[21] .

وسئل نفس الفقيه حول قضيّة رجل اشتكى إلى السلطان من « ظُلْمٍ » ، وهو يعلم أن المتّهم سيكون ضحيّة إجراء تعسّفي من قِبَل السلطان ، وهذا ما وقع بالفعل . فأجاب أنه يأبى تحميل المسؤولية على عاتق المشتكي ، ولكن من يفتي بذلك لا يبتعد عن الحقيقة[22] .

وقبيل غزوة بني هلال « اجتمع على الواعظ أبي عبد الله بن عبد الصمد بعض فقراء القيروان ، واستبشعوا ألفاظاً ذكرها ، فرفعوا رقاعهم إلى المعزّ لذلك »[23] .

وحسب المازري ، هناك خلاف بين الفقهاء حول مَنْ يشتكي من الغير إلى والٍ جائر ، وهو يعلم أن الوالي سيتجاوز الحدّ ، وسيسلّط على صاحب الجنحة غرامة أعلى بكثير من الغرامة التي يستحقّها . ويقول المازري : « إن أحد أصحابنا » يعفي المشتكي ، من دفع أيّ تعويض لضحيّة السلطة ، إذا كان هو نفسه قد تعرّض للاضطهاد . أما بالنسبة إلى من كشف لحاكم جائر عن مال أخفاه شخص آخر ، فاستحوذ عليه الحاكم ، فهناك أيضاً قولان حول مسؤولية المُخْبِر[24] . وأكّد نفس الفقيه في موضع آخر أن من يشتكي إلى قائد أو سلطان لا يستحقّ أيّ عقاب ، وأن اللجوء إلى السّلطان أمر شائع[25] .

---

20) فتوى أبي القاسم بن محرز (ت . حوالي 450 هـ/1058 م) ، المعيار ، 266/3 ، 279-280 ، 218/8-219
21) فتوى ابن أبي زيد ، نفس المصدر ، 280/3 ، 218/8-219 .
22) فتوى ابن أبي زيد نفس المصدر ، 127/6 .
23) البيان ، 279/1-280 .
24) فتوى المازري ، المعيار ، 280/3 ، انظر أيضاً : البرزلي ، المختصر ، 13 . و ـ ظ .
25) فتوى المازري ، المعيار ، 218/8-219 .

وقد كاتب محرز بن خلف الأمير باديس ووبّخه عدّة مرات ، لا سيما بخصوص التجاوزات التي تعرّض لها أحد الطلبة[26] .

ويمكن أن يصدر الأمير الصنهاجي ظهيراً لإعفاء أيّ كان من الرسوم وحماية شخص وأملاك أيّ فرد أو مجموعة . وقد اتخذ باديس إجراءً من هذا القبيل لفائدة محرز بن خلف ، وجدّه المعزّ بن باديس[27] .

ويرى أبو عمران الفاسي[28] أنّ القاضي لا ينبغي أن يتردّد في إلقاء مذنب في السجن ، حتى لو تأكّد أن المتّهم سيتعرّض للضرب والتغريم بلا حقّ ، وإلّا فسوف يتعذّر ضمان حقوق أيّ فرد . وفي هذا المعنى جلد الفقيه المذكور رجلاً آذى الأمير بشأنه هذا اليمين : « والله إن لم تجلد هذا الرجل خمسين جلدة لقطعت عنقه »! ، حتى يجنّب ذلك المسكين ما لا تحمد عقباه . وهذا دليل على مدى استبداد السلطة الملكيّة المطلقة في ذلك العصر .

وفي عهد باديس ، حسب الاحتمال ، سبّ شخصٌ رسول الله [ﷺ] ، ولعنه ، ناعتاً إياه « بالجمّال ويتيم أبي طالب »[29] ، ومضيفاً شتائم أخرى أبشع من ذلك . وقد ثبتت عليه البيّنة التي دوّنها القاضي في محضر . ولكن لم يتعرّض أحدٌ لهذا الشخص بأيّ أذى ، بل إنه بالعكس من ذلك قد بقي طليقاً ، فطلب بعض المحتسبين إلى القاضي تنفيذ العقوبة التي يستحقّها الجاني الذي أقرّ بذنبه ، فأجاب القاضي : « ارفعوا أمره إلى السلطان » . وحسب هذا الجواب ونوع الجريمة ، وعدم تعرّض الجاني لأيّ عقاب ، يبدو أنّ الأمر كان يتعلق بشيعي[29م] .

وقد أحيلت الفتوى على القابسي[30] الذي أجاب عليها بإطناب . فلاحظ أوّلاً أن الجاني « في حماية من السلطان »[30م] ، بحيث لا يستطيع القاضي اتخاذ أيّ إجراء ضدّه ، ويُخشى من هذا

---

26) مناقب ، 311-314-316 .

27) نفس المرجع ، 316-320 ، 324-326 .

28) فتوى أبي عمران الفاسي (ت . 430 هـ/1038 م) ، البرزلي ، المختصر ، 138 ظ .

29) لقد ربّى الرسول ﷺ وهو يتيم ، عمّه أبو طالب والد عليّ .

29 م) [المسألة فيها نظر] .

30) فتوى القابسي ، المعيار ، 408-409 ، 275 .

30 م) فتوى المازري . وحول شخص يتصرّف لحساب السلطان ويعتبر من أجل ذلك فوق القانون (لا يأخذه الأحكام) ، انظر البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب 177/2 ومخطوط الرباط 17/2 ظ .
انظر أيضاً فتوى أبي محمد بن أبي زيد (ت . 386 هـ/996 م) ، المعيار ، 414/9 : ففي قضية ميراث تدخّل أحد الطرفين لدى السلطان الذي أمر بسجن الطرف الآخر ,وفرض عليه تسوية لا تمنحه سوى عُشُر حقوقه .

التقييد التعسّفي لصلاحيّة « قاضي المسلمين » ، أن يشجّع الأشرار . وفي قضيّة الحال ، ما إن ثبتت البيّنة على الجاني ، كان من المفروض أن يُودَع السجن ويوضع في الأصفاد إلى أن يتمّ تنفيذ حكم الإعدام عليه ، بعد استشارة السلطان . وأوضح القابسي أنّ الأمر يتعلق بالحالة التي يكون فيها قاضي المسلمين العادل ، النزيه ، مكبّل اليدين فيما يتعلّق بتنفيذ حكم الإعدام على من يستحقّه . ثم لاحظ أنّ قاضي المسلمين العادل ، النزيه ، ينبغي أن يكون طليق اليدين لتنفيذ أيّ حكم من الأحكام . لأن القاضي العادل لا يتصرّف إلاّ وفقاً للقانون الذي يثبت لديه شرعاً ، وللنّصائح التي يسديها من استقام دينهم . وهذا يريح السلطان ويجنّبه مخاطر ارتكاب الإثم ، بإلغاء حكم قابل للتنفيذ بالضرورة . فلو فوّض القضاء إلى قاضٍ نزيه ، عادل ، لاستطاع أن يؤدّي واجبه نحو الله تعالى على أكمل وجه ممكن .

القـاضـــي :

من الجدير بالتذكير[31] أنّ من بين الشروط التي اشترطها جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي على الخليفة الفاطمي [المعزّ لدين الله] ليخلفه في المغرب ، « تقليد القضاء » . وبالعكس من ذلك لم يقبل بلكين إمارة المغرب إلاّ بشرط أن يولي الخليفة القضاة بنفسه .

وحتى سنة 435 هـ/ 1043 م لم يثر اختيار قاضي القيروان أيّ مشكل ، لأنّ تلك الخطّة كانت وراثيّة يتداول عليها أفراد أسرة مالكية عربيّة وثريّة ، بعد الحصول على موافقة الخليفة ، على الأقلّ بصورة ضمنيّة . ويبدو أنّ هؤلاء القضاة قد كانوا في مستوى المهمّة المناطة بعهدتهم ، محرزين في نفس الوقت رضى الأمير الصنهاجي ونائبه في إفريقية ، ورضى أهل السنّة .

وعند وفاة القاضي المباشر ، كان الأمير يعلن عن تعيين ابنه مكانه أثناء حفل بهيج ، بحضور القاضي الجديد المرتدي لخلعة القضاء . ولم توضّح لنا المصادر إن كان هذا الحفل ينتظم في القصر أم في الجامع الأعظم . ولكنّ سجلّ التقليد كان يُقرَأ في الجامع ، ربّما أثناء صلاة الجمعة ، مثلما تمّ ذلك بالنسبة إلى سجلّ تقليد آخر قاضٍ معروف من قضاة صبرة المنصورية حوالي سنة 441 هـ/ 1049 م . ويبدو أنّ القضاء في صبرة المنصوريّة الوراثي هو أيضاً ، وربّما المستقلّ عن القضاء السنّي بالقيروان ، قد كان حكراً على أسرة عربية من أصل مشرقي ، كانت على الأرجح شيعيّة . وليس من المستبعد أن يكون الإعلان عن ولاية قاضي صبرة المنصورية ، قبل ارتقاء المعزّ إلى العرش ،

---

31) الاتعاظ ، 142-143 .

يقع في تلك المدينة الأميريّة بالجامع الأعظم .

ومن بين العلامات المحتملة لقرب القطيعة مع القاهرة ، إسناد لقب « قاضي القضاة » إلى قاضي القيروان منذ سنة 424 هـ/ 1033 م ، وتدبير مؤامرتَيْن لتحويل مهمّة القضاء في كلّ من القيروان وصبرة المنصورية من خطّة « وراثية » إلى خطة « انتخابية » .

وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد أن قاضي المهدية قد أصبح « قاضي قضاة « إفريقيّة ، إثر استقرار بني زيري في تلك المدينة ، مثلما أصبح قاضي بجاية في آخر عهد بني حمّاد قاضي الجماعة بالمغرب الأوسط .

ويمكن التأكيد أن أمير القلعة ثم بجاية ، هو الذي كان يعيّن القضاة في مملكة بني حمّاد . ومن سوء الحظّ فإننا لا نعلم أي شيء حول نظام القضاء في عهدهم . وليس من المستبعد أن يكون أبسط من النظام القضائي في إفريقية ، وأن يكون بنو حمّاد قد اقتدوا بجدّهم الذي كان يتولّى القضاء ببساطة أبويّة[32] .

ولم يكن القاضي يتقاضى أيّ أجر[33] .

ومن الجدير بالملاحظة أنّ كبار الفقهاء في القيروان والمهديّة وسوسة وصفاقس وتونس وتوزر وقابس وطرابلس ، وغيرها من المدن الأخرى ، لم يتولّوا القضاء طوال العصر الصنهاجي . ولا شكّ أن ذلك راجع إلى الدور الأهمّ الذي كانوا يقومون به بوصفهم فقهاء ، وكان دور القاضي يقتصر في جلّ الحالات على تطبيق فتاواهم .

وقد كان وجود قاضٍ سنّي بالقيروان إلى جانب القاضي الشيعي بصبرة المنصورية يثير المشكل العويص المتعلق بصلاحيّات كلّ منهما ، التي لم نعثر بشأنها إلاّ على وثيقة واحدة تتمثل في فتوى القابسي . والغريب أن هذا الفقيه المالكي الشهير لم يقدح في صحّة شهادة أدلى بها شاهد لدى قاضي صبرة المنصورية[34] .

---

32) البكري ، 184 .

33) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 27/1 ظ .

34) فتوى القابسي ، المعيار ، 153/10-154 ، المقريزي ، الاتعاظ ، 133 . وفي القاهرة كان يوجد في عهد المعزّ لدين الله قاضيان ، أحدهما سنّي والآخر شيعي ، المعزّ ، 194-197 .

قاضي قضاة القيروان ـ بنو هاشم[35] :

بعدما قضى الخليفة الفاطمي إسماعيل المنصور على ثورة أبي يزيد ، وحرصاً منه على إرضاء أهل القيروان الذين كانوا قد انضمّوا إلى « صاحب الحمار » ، عيّن في سنة 334 هـ/ 945-946 م قاضياً سنّياً بالقيروان ، وهو محمد بن أبي المنظور[36] ، الذي توفّي بعد ذلك بثلاث سنوات وهو مباشر للقضاء[37] ، وصلّى عليه حاكم القيروان عبد الله بن هاشم الذي خلفه وباشر القضاء في القيروان في أيام المعزّ لدين الله الفاطمي وبلكّين ، إلى أن توفّي يوم الاثنين 23 شعبان 363 هـ/ 19 ماي 974 م[38] . وأصبح القضاء منذ ذلك الحين حكراً على آل ابن هاشم الذين باشروا تلك الخطّة أباً عن جدّ طوال عدّة أجيال[39] .

وقد خلفه ابنه محمّد[40] الذي توفّي في 15 شعبان 399 هـ/ 4 أفريل 1009 م .

---

35) بالإضافة إلى المصادر المشار إليها أعلاه ، اطلعنا على كتاب الجودي حول قضاة القيروان ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، انظر أيضاً ، بساط ، 26 .

36) [في معالم الإيمان ، 54/3 : ابن المنصور] .

37) التكملة ، تحقيق كوديرا ، 1/ عدد 332 . رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و [طبعة بيروت 357/2 : أبو عبد الله محمد بن أبي المنظور] ، إدريس ، مجلة الدّراسات الإسلامية ، 1935 م ، 157 ، 164-165 ، أبو العرب ، 173 ، المقريزي ، الاتعاظ ، 133 ، المدارك ، 2-163/3 ظ « أرادت الشيعة بتوليته تسكين نفوس أهل السنّة والنّاس . . . » . وقبل أن يقبل هذه الخطة فرض شروطاً لضمان استقلاليته . انظر أيضاً ، مقديش ، نزهة الأنظار [الطبعة الحجرية] 130/1 [طبعة بيروت ، 343/1] ، وقد أشار المؤلف في هذا السياق إلى ما قاله ابن الدبّاغ عن الفاطميين في إفريقية ، وهو رأي من الآراء الموضوعية النادرة التي أبداها شخص سني حول عهد أولئك الخلفاء .

انظر ترجمة والده أبي عمرو هاشم بن مسرور ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 72/7 ظ ، [ط . بيروت ، 144/2] ، معالم الإيمان ، 235/2 ، كان تاجراً وصاحب فرن ، توفي سنة 307 هـ/919-920 م وعمره 74 سنة ودفن في مقبرة باب سلم غربي قبر ابنه القاضي عبد الله .

وحول مسرور الصوّاف مولى الأغالبة الذي نُشر نصّ قبريّته المؤرخة في 276 هـ/880 ، في « نقائش عربية ، 128/1-130 ، انظر هذا الكتاب الذي جاء فيه ما يلي : « ربما يتعلّق الأمر بمسرور والد أبي عمرو هاشم (ت . 307 هـ/919-920 م . . . » .

38) 6بقين من شعبان ، نظريّاً : الثلاثاء ، انظر ، نقائش عربية ، 1/ عدد 151 ص 267-269 وقد استحق بتجرّده لقب « قاضي الحقّ » ، ابن حمّاد ، 39 ، معالم الإيمان ، 99/3-100 ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 38 ظ ، 91 و ، 96 و ، 98 و [طبعة بيروت ، 148/2 ، 168 ، 272 ، 273] . وحول قبريّة أحد أبنائه جابر انظر ، نقائش عربية ، 1/ رقم 169 مكرر ، ص 293-295 ، معالم الإيمان ، 160/3 .

39) خطط ، 144/4 .

40) وكنيته حسب الاحتمال إمّا أبو بكر أو أبو عبد الله أو أبو البركات ، معالم الإيمان ، 165/3 ، 108-160 ، وقد ورد اسمه في =

ولدينا وثيقتان[41] تثبتان وجود القاضي أبي عيسى أحمد بن القاضي الإمام أبي البركات محمّد بن هاشم . ولعلّ الأمر يتعلّق بابنٍ لا نعرف عنه شيئاً من أبناء القاضي محمّد بن عبد الله بن هاشم الذي ربّما كان يقوم أيضاً بمهمّة الإمامة[42] . وقد يكون خلفه أخوه عبد الرحمن بن محمّد بن عبد الله بن هاشم[43] . وهو أوّل من تلقّب بلقب « قاضي القضاة » في القيروان ، على الأقلّ اعتباراً من سنة 424 هـ/ 7 ديسمبر 1032 ـ 25 نوفمبر 1033 م[43] . ولا شكّ أن هذا اللقب كان مؤشّراً لقرب القطيعة مع الخليفة الفاطمي . وكان قد تلقّب به قاضي القيروان في العهد الفاطمي

= رسم تحبيس مصحف قرآن مؤرخ في جمادى الثانية 378 هـ/6 سبتمبر ـ 14 أكتوبر 988 ، Objects Kaironanais ، 146-145/1 .

41) المرجع المذكور ، 1/ رقم 84 ص 175 « جدّد تحبيس هذا السفر القاضي الجليل أحمد ابن الشيخ القاضي الإمام أبي البركات محمد بن هاشم . . . » . « ضبط نصّ تحبيس هذا السفر القاضي أبو عيسى أحمد ابن الشيخ القاضي الإمام أبي البركات محمد بن هاشم » .

42) في عبارة « القاضي الإمام » ربما تعبّر كلمة إمام عن معنى أشمل أي الرئيس الديني والعالم الجليل .

43) جاء في معالم الإيمان ، 164/3 حول متعبّد [محمد بن إسحاق بن التبان] ، توفي في محرم 397 هـ/27 سبتمبر ـ 26 أكتوبر 1006 م : « وصلّ عليه القاضي عبد الرحمان بن محمد بن هاشم » . فهل نستنتج من ذلك أنه كان قاضي القيروان منذ ذلك التاريخ ، أي قبل وفاة والده في 15 شعبان 399 هـ/14 أفريل 1009 م ؟ أم هل ينبغي تصحيح ذلك التاريخ كما يلي : 397 هـ ، نظراً لسهولة الخلط بين سبعة وتسعة في الكتابة العربية ؟ وقد ورد ذكره في رسم تحبيس علّة مصاحف حبّستها على الجامع الأعظم بالقيروان كلّ من أمّ ملال (بلا تاريخ) وفاطمة الحاضنة (واحد في سنة 410 هـ/ ماي 1016-26 أفريل 1020 م والآخر في رمضان 410 هـ/31 ديسمبر 1019-20 جانفي 1020 م) وشخص آخر في ربيع الأول 413 هـ/4 جوان 3 جويلية 1023 م ، شهيرات التونسيات ، 44-49 ونقائش عربية ، 1/ ص 27-32 ، 35 .

44) في نسخة من المدوّنة محفوظة بالجامع الأعظم بالقيروان [نقلت جميع هذه المخطوطات إلى المتحف الإسلامي برقادة] ألصقت بظهر الغلاف ورقة تحمل رسم تحبيس وقع أسام « قاضي القضاة عبد الرحمان بن محمّد بن عيسى » في سنة 422 هـ/1032-1033 م ، والمحبّس هو : « سيف الله وعبده الحامي لدينه والمؤيّد لشريعته » أي المعزّ بن باديس ، نقائش عربية ، 1/ ص 36-37 .

ولم نتحقّق من الاسم عيسى ، ولعلّه هاشم . ولكنّنا اطلعنا على نصّ قبريّة أمة الرحمان ، ابنة « قاضي القضاة » عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن هاشم المتوفاة ليلة الأربعاء 5 ربيع الثاني 425 هـ/27 فيفري 1034 م وقبريّة مكيّة ابنة « قاضي القضاة » عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن هاشم المتوفاة يوم الجمعة 19 رمضان 427 هـ/16 جويلية 1036 م ، نقائش عربية ، 1/ رقم 292 م ص 420-422 ، 2/ رقم 322 .

هذا وإن لقب « قاضي الجماعة » الذي كان شائعاً بالأندلس في العصر الأموي ، كان غير معروف في إفريقية في العصر الصنهاجي ولم يظهر بها إلاّ في العصر الحفصي ، انظر برنشفيك ، المرجع المذكور ، 113/2-114 [الترجمة العربية ، 114/2-115] ، ستوريا ، 13/2-14 ، ابتداء من سنة 405 هـ/1010 م أصبح قاضي قرطبة الذي كان يعرف إلى حدّ ذلك التاريخ بقاضي الجماعة ، يحمل هو أيضاً لقب قاضي القضاة ، إسبانيا الإسلامية ، 119-120 .

من سنة 366 إلى سنة 374 هـ/ 976-985 م[45] . وكان مستعملاً قبل ذلك في بغداد خلال القرن العاشر ميلادي . ولا شيء يسمح بالتأكيد أن خطّة قاضي القيروان المستقلّة عن قاضي القاهرة[46] قد طرأ عليها أدنى تغيير .

وقد توفّي عبد الرّحمان بن عبد الله بن هاشم سنة 435 هـ/ 1043-1044 م وترك ولداً كاد أن يخلفه . ولكنّ المعزّ بن باديس قد عيّن مكانه أحمد بن عبد الله بن أبي زيد صاحب « الرسالة » ، إثر المؤامرة التي قام فيها الشاعر ابن شرف بدور رئيسي . فوضع أنصار ابن هاشم عدّة عراقيل في طريق القاضي الجديد وأثاروا العامة ضدّه . فاضطرّ الأمير على مضض منه إلى عزله في آخر رمضان 436 هـ/ أفريل 1045 م ، تفادياً لحصول اضطرابات دامية . ولم تقل لنا المصادر إن كان قد عوّضه بابن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن هاشم . وليس من المستبعد أن يكون أحمد بن أبي زيد قد أعيد إلى منصبه ، حيث أخبرنا أحد المصادر أن المعزّ بن باديس قد أمر بإحضار التونسي بمقصورته يوم الجمعة أوّل صفر 438 هـ/ 7 أوت 1046 م ، « وأحضر معه الفقهاء أبا القاسم اللبيدي فقيه مشيخة الفقهاء وكبيرهم والفقيه أبا الحسن [ابن المقرىء] والقاضي أبا بكر أحمد بن أبي محمد بن أبي زيد »[47] .

وإن كان قد عُيِّن فقيهٌ آخر قاضياً بالقيروان ، فلماذا لم يكن عضواً في الهيئة المذكورة ؟ ومهما يكن من أمر فقد توفّي أبو بكر أحمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي زيد بعد سنة 460 هـ/ 1067-1068 م[48] .

وتوجد في محفوظات الجامع الأعظم بالقيروان وثيقة مؤرخة في رجب ـ رمضان 446 هـ/ 6

---

45) حسب القاضي النعمان ، (المجالس ، 203/2) ، الذي استشهد به صاحبا كتاب المعزّ ، 190 ، عيّن الخليفة الفاطمي المنصور النعمان قاضي المنصورية والمهدية والقيروان وسائر مدن إفريقية ، وقد أسند إليه مؤلّفا الكتاب المذكور لقب قاضي القضاة ، دون أن يوضّحا هل ورد هذا اللقب بصريح العبارة في « المجالس » .

وقد كان علي بن النعمان بن حيّون ، قاضي العزيز من سنة 366 هـ إلى سنة 374 هـ/974-988 أوّل من حمل هذا اللقب الذي كان شائعاً في بغداد ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، 101/2 ، 268/1 ، الاتعاظ ، 36 الإحالة ، 1 ، المعزّ ، 199 .

46) كانت سلطة قاضي الجماعة بالقاهرة تمتدّ نظريّاً إلى جميع الأقطار التابعة للخلافة الفاطمية أي مصر وسوريا والمغرب ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، 35/4 ، ستوريا ، 11/3-12 .

47) معالم الإيمان ، 221/3 ، انظر أيضاً ، إدريس ، حوليات معهد الدّراسات الشرقية ، 1954 م ، 169-172 ، مناقب المقدمة ، ترجمة اللبيدي ، 223 ، إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 ، عدد 16 ، 513-516 .

48) إدريس ، حولية معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 169 ، الإحالة 70 ، 172 .

أكتوبر 1054 م ـ 2 جانفي 1055 م صادرة عن القاضي عبد الرحمان بن أحمد « قاضي الإمام القائم بأمر الله وواليه المعزّ لدين الله »[49] .

قاضي صبرة المنصورية ـ بنو آلكوفي :

إلى جانب آل ابن هاشم قضاة القيروان نجد آل ابن الكوفي[50] الذين تولّوا القضاء في صبرة المنصورية أباً عن جد ، هم أيضاً . ففي عهد إسماعيل المنصور والمعزّ لدين الله ، وهما آخرا من تقلّدا الخلافة الفاطمية في إفريقية ، عُهِد بخطة القضاء في صبرة المنصوريّة إلى قضاة من الشيعة[51] . ويبدو أنّ أوّل من تقلّد تلك الخطّة من آل ابن الكوفي هو محمد بن إسحاق التميمي الذي خلف القاضي الشهير في عهد المعزّ لدين الله ، أبا حنيفة النعمان الذي ارتحل مع مخدومه إلى مصر . ويبدو أن القاضي محمد بن إسحاق التميمي أو خليفته [51م] ، هو الذي صلّى على الفقيه القيرواني ابن أخي هشام ، بوصفه قاضي صبرة المنصورية في صفر 373 أو 371 هـ/ 15 جويلية ـ 12 أوت 983 أو 6 أوت 3 سبتمبر 981 .

وقد مدح الشاعر الشهير ابن رشيق العضو الثالث من أفراد هذه الأسرة ، وهو جعفر بن عبد الله الذي خلف أباه وتوفّي بسبب دعاء أحد فقهاء القيروان عليه ، وهو الفقيه المالكي أبو بكر ابن عبد الرحمان (ت . 432 أو 435 هـ/ 1040-1041 م ، 1043-1044 م) ، وكان قد عاب عليه ارتكاب غلطة فادحة أو إبداء رأي مخالف للسنّة . ومع ذلك لا ينبغي أن يفوتنا أنّ الدبّاغ[52] قد أثنى على بني الكوفي ووصفهم بالقضاة الصالحين ، المتديّنين ، العالمين .

---

49) المجموعة عدد 417 . وتدلّ هذه الوثيقة على أن المعزّ الذي أسندت إليه نفس كنية الخليفة الفاطمي « المعزّ لدين الله » ما زال يعترف بالخليفة العباسي . ولا نعلم أيّ شيء آخر عن هذا القاضي الذي لم يلقّب بقاضي القضاة .

50) إدريس ، تحية لويس ماسينيون ، 2/353-357 .

51) الاتعاظ ، 133 ورد بدون ترتيب ذكر القضاة السنّيّين بالقيروان والقضاة الشيعة بصبرة المنصورية في عهد إسماعيل المنصور وهم محمد بن المنظور وعبد الله بن هاشم وعلي بن أبي سفيان ، وأبو محمّد زرارة بن أحمد (انظر أبو العرب ، 241 : زرارة بن أحمد قاضي المهدية) ، وأبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي . والغالب على الظنّ أنّ علي بن أبي سفيان وأبا محمد زرارة بن أحمد قد سبقا قاضي المنصور والمعزّ الشهير أبا حنيفة النعمان صاحب كتاب دعائم الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، 2/814 (ماسينيون) . وحول ابنه أحمد الذي « كان عراقي المذهب » (أي حنفي) ، انظر ، معالم الإيمان ، 3/128-129 .

51 م) ويرجع سبب هذا الشك إلى تسمية المعني بالأمر بابن الكوفي لا غير .

52) وهو مؤلف معالم الإيمان (ت . 699 هـ/1300 م) الذي علّق عليه ابن ناجي .

وحسب رأي نفس المؤلف ، كان أبو عبد الله محمد بن جعفر وخليفته « أَوْحَدَ أهل زمانه فقهاً وأدباً من بيت علم وصلاح وأدب ، فقيه القيروان في وقته وقاضي مدينة صبرة وخطيبها وإمام الجامع الأعظم بها ، وكان فصيحاً لَسِناً سنّياً مبايناً لأهل البدع شديداً عليهم »(53) .

وإثر ذلك بمدّة ، لا ندري تاريخها بالضبط من سوء الحظّ ـ هجاه ابن رشيق بأبيات من الشعر أفضت إلى عزله بعدما اطّلع عليها المعزّ بن باديس . ولّما تمّ البحث عن أبي عبد الله محمد بن جعفر الكوفي لمعاقبته ، فرّ إلى القاهرة . فعوّضهُ علي بن أحمد البوني الذي تقلّد كلّ ما مارسه سلفه من مهامّ في صبرة المنصورية ، بمقتضى سجلّ التقليد الذي قرىء في الجامع الأعظم بالقيروان . وبذلك تنتهي مدّة ولاية بني الكوفي . ويبدو أن البوني كان آخر من تولّى القضاء في صبرة .

وفي سنة 443 هـ/ 1051-1052 م « وردت الأخبار أن محمد بن جعفر الكوفي ولّي القضاء بمصر ولقّب قاضي القضاة وداعي الدعاة . قال ابن شرف : نعوذ بالله من سوء العاقبة ! لأن قاضي القوم منهم وعلى مذهبهم ، يعني الشيعة »(54) .

ولا ندري أيّ شيء عن القضاء في القيروان منذ زحفة بني هلال إلى تاريخ الفتح الموحّدي .

قاضـي المهديّـة :

الغالب على الظنّ أن قاضي قضاة إفريقية أصبح يقيم في المهدية منذ زحفة بني هـلال . ونحن نعرف أسماء بعض من تقلّدوا هذه الخطّة مثل المسمّى ابن شغلان (أو شعلان) الذي أولاه تميم القضاء في المهديّة قبل سنة 455 هـ/ 1063 م ، على الأرجح(55) .

وفي فتوى للمازري(56) مؤرخة في العشر الأواخر من محرم 515 هـ/ 10-20 أفريل 1121 م

53) معالم الإيمان ، 243/3 ، البيان ، 288/1 ، وبعدما استقال من مهامّه غادر مصر وتوفّي بسوريا بعد سنة 470 هـ/1077-1078 م .

54) البيان ، 288/1 .

55) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 504 ، ح . ح . عبد الوهاب ، الإمام المازري ، 71 .

56) المعيار ، 234/3-235 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب 61/2 ط ـ 62 و : نقلت هذه الفتوى شهادة أدلى بها شاهد بمحضر « قاضي القضاة » أبي القاسم بن ميمون في رجب 515 هـ/15 سبتمبر ـ 14 أكتوبر 1121 م . وفي فتوى المازري ، المعيار 205/8 حول نهب المهدية في سنة 480 هـ/1087 م ، جاء ما يلي : اعتمد القاضي (في مكان الاسم وردت علامة «ح» أي حلف كما لو أن الأمر يتعلق بهفوة) على فتواي . . . » .

ورد ذكر قاضي قضاة يدعى أبو القاسم بن ميمون . ويتضح من ذلك أن هذا اللقب قد انتقل من القيروان إلى المهدية عاصمة آخر أمراء بني زيري .

وعيّن يحيى بن تميم أبا يحيى زكرياء بن الحدّاد (ت . 570 هـ/ 1174-1175 م) قاضياً بالمهديّة ، ربّما بإشارة من شيخه الإمام المازري . ويبدو أن المعني بالأمر قد باشر هذه المهمّة حتّى نهاية الدولة الصنهاجية[57] .

قاضـي الأنكحـة :

لقد أشارت فتوى للمازري إلى « قاضي المناكح »[58] ، [أو الأنكحة] ، الذي لم تؤكّد المصادر وجوده إلاّ في العصر الحفصي[59] . ولا يمكن أن نستنتج من تلك الإشارة التي تتعلق لا محالة بالمهديّة في آخر عهد بني زيري ، وجود الخطة المذكورة في فترة سابقة .

وتحدّثت فتوى أخرى لنفس الفقيه عن قاضٍ آخر من قضاة الأقاليم قلّد شخصاً قضاء الأنكحة[60] .

قضـاة الأقاليـم :

لا نعرف شيئاً كثيراً[61] عن القضاة المفوّضين في أهمّ المدن من قِبَل قاضي القضاة . ومن

57) ح . ح . عبد الوهاب ، الإمام المازري ، 40 .

58) فتوى المازري ، المعيار ، 79/10 .

59) برنشفيك ، المرجع المذكور ، 118/2 ، 119 [الترجمة العربية ، 120/2] .

60) « سُئِل عمّن ولاّه قاضي بلده على المناكح ، فأتته امرأة للتزوّج . . . » المعيار ، 87/3-88 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 67/2 ظ ، المختصر ، 52 ظ ولم نجد أي أثر لذكر « ناظر في المواريث » الذي أشار صاحب البيان (190/1) إلى وجوده في عهد عبيد الله سنة 313 هـ/925-926 .

61) تتمثل أهم المعلومات التي لدينا فيما يلي :

1) مدينة تونس : الفقيه عبد الرحمان النحوي معاصر الشاعر القرامي الذي توفي سنة 408 هـ/1017-1018 م ، الكتبي ، 261/1-262 . والقاضي عبد الرحمان بن محمد بن الفقيه محرز المظنون أنه حفيد محرز بن خلف ، سليمان مصطفى زبيس ، Corpus ، 1/ عدد 16 ، ص 37-38 (نقيشة مؤرخة في ربيع الأول 457 هـ/10 فيفري 11 مارس 1065 م) . وأبو حفص عمر بن خلف بن مكّي الصقلّي ، أصيل صقلية ، وقد هاجر إلى مدينة تونس بعد استيلاء النرمان على الجزيرة ، ابن خلدون ، كتاب العبر ، أماري المكتبة العربية الصقلية ، 485 ، ح . ح . عبد الوهاب الجهاتة ، المقدمة ، الخريدة ، نقلاً عن الدرّة ، لابن القطاع ، مخطوط باريس ، 3330 ، 45و، 46و.

المحتمل أن تكون السلطة المحلية هي التي تقوم بدور في تعيينهم .

وقد كان القاضي يسهر بنفسه في بعض المناسبات على حظوظ مدينته ، كما وقع ذلك في طرابلس من 407 إلى 430 هـ/ 1016-1039 م ، وفي مدينة تونس أثناء الفوضى التي سبقت رجوع بني خراسان إلى الحكم . وكان الأمر كذلك في الأندلس خلال القرن الحادي عشر ميلادي أثناء فترة الانحطاط ، حيث تحوّل بعض القضاة إلى رؤساء دول بأتمّ معنىً الكلمة في إشبيلية وبلنسية وقرطبة[62] .

و . وأبو محمد عبد المنعم بن الإمام أبي الحسن وأبو الفضل جعفر بن حلوان .

2) سوسة : أبو الحسن طاهر بن علي صاحب الصلاة والخطبة، وقاضي سوسة لا محالة في آخر عهد بني زيري ، التكملة ، تحقيق كوديرا، 1/ عدد 82 و مخلوفي، 1/ عدد 428. 144.

3) قابس : ابن مشكان ، ويبدو أنه كان قاضي قابس في نفس تلك الفترة وابن زيادة الله القابسي ، قاضي قابس في عهد المازري ، حسب رأي ح . ح . عبد الوهاب .

4) طرابلس : أبو القاسم علي بن محمد بن المنمّر (ت . 432 هـ/1040-1041 م) يبدو أنه كان قاضي تلك المدينة حيث قام بالدور المعروف . ابن فرحون ، الديباج ، 201-202 ، إدريس ، حولية معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 153-155 .

5) قسنطينة : قاسم بن عبد الرحمان ، الذي كان مباشراً للقضاء عند مرور المهدي من تلك المدينة حوالي سنة 514 هـ/1120-1121 م ، البيذق ، 51 .

6) بجاية : والد أبي الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي المعروف بابن معشرة (541-598 هـ/1146-1202 م) ، الغبريني ، 30 .

قضاة مختلفون . تبرئة القاضي أحمد بن حجّون (ت. 421 هـ/1030م) نقائش عربية ، 1/ عدد 260 ص 388. استشار القاضي عبد الحق المازري ، وفعل كذلك القاضي عبد الرحيم ، المعيار ، 42/5 ، والقاضي خلف بن المازري ، لم يكن أهلاً لخطته في مدّة عبد الحميد بن الصائغ (ت. 486 هـ/1093م) واللخمي (ت. 478 هـ/1085م) . وعندما عُزل وعوقب حسبما يبدو ـ وصودرت أملاكه طالب عدد كبير من الدّائنين بحقوقهم ، المعيار ، 88/10-89 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 36 ، ص 2 ظ . أبو حاتم محمود بن أبي المنهار بن درع الأزدي الزبوني ، المعاصر للشاعر محمد بن أبي معتوق ، وبلا شك ابن رشيق ، وقد كان قاضياً بزبونة ، وهي قرية من قرى رصفة ، البلدان ، 375/6 ، ورثا ابن رشيق طاهر بن عبد الله قاضي المحمدية ، ابن قنفطي ، 301/1 . ودُعِي المسمى أبو طالب أحمد بن المنهال التونسي ، قاضي مدينة تونس الشيعي الإسماعيلي إلى مصر من طرف الوزير ابن كلس في عهد العزيز وسمي قاضي المظالم في القاهرة سنة 368 هـ ، ومن سوء الحظ لم نعرف متى اعتزل القضاء في مدينة تونس ، الكندي ، حكّام وقضاة مصر ، 591-592 : إسحاق بن أبي المنهال قاضي القيروان الشيعي في عهد عبيد الله وحول القاضي أبو علي الحسن بن محمد بن الجدود اللّواتي (ت . صفر 437 هـ/ سبتمبر 1045 م) انظر ، معالم الإيمان ، 213/3 ونقائش عربية ، 2/ عدد 437 ، وحول قاضٍ يدعى أبو الفضل جعفر بن أحمد النحوي المعاصر لابن رشيق ، انظر ، العمدة ، 57/1 .

62) إسبانيا الإسلامية ، 124/3-125 .

وكان صغار القضاة يتعرّضون للعزل في كلّ آن وحين ويتداولون الواحد تلو الآخر على نفس المنصب بسرعة مذهلة بالنسبة إلى المتقاضين . فقد جاء في فتوى للتونسي أن أحد القضاة أعفي من مهامّه ثم استرجع منصبه بعد عزل القاضي الذي عُيِّنَ مكانه ، ثم عوّضه قاض ثالث ، وفي الأثناء توفّي المدّعي[63] . وبالعكس من ذلك ، كانت وظيفة القضاء في القيروان وصبرة ـ كما أسلفنا ـ وراثيّة وبالتالي ثابتة أكثر ، على الأقل حتى قدوم بني هلال .

وحوالي سنة 439 هـ/ 1047-1048 م « نُكِب أحمد بن حجّاج قاضي قفصة ، فبادر بعشرة آلاف دينار »[64] .

وفي الأماكن التي لا يوجد بها لا قاضٍ ولا أيّ عون من أعوان السلطة ، يمكن للصالحين والعدول الذين لا عيب فيهم اتّخاذ قرارات صالحة في نظر الفقهاء[65] . كما يوجد بعض القضاة الجائرين أو عديمي الذمّة أو أحياناً الجهلة بل حتّى الأمّيّين[66] .

الإجــراءات :

تعتمد الإجراءات على الشهادات والأيمان . ويصدر القاضي أحكامه بمساعدة عدول الإشهاد واعتماداً على فتاوى المفتين . وعندما يصدر القاضي حكمه يجوز للمدّعي أن يطلب نسخة من الحكم . ويرى ابن أبي زيد أنّ القاضي الذي يكون هو وحده القادر على كتب الأحكام ، يستطيع القيام بتلك المهمّة مقابل مكافأة معقولة . ثم يضيف أنّ القاضي غير مطالب بإيداع نسخة من الحكم في ديوانه ، ولكنّ هذا الإجراء يُعتبَر احتياطاً لا بأس به في صورة الحاجة إلى الرجوع إلى ذلك الحكم[67] . والغالب على الظنّ أن القضاة كانوا يحتفظون بنسخ من الأحكام التي

---

63) فتوى التونسي (ت . 443 هـ/1051 م) ، المعيار ، 390/9 .

64) البيان ، 277/1 .

65) يرى القابسي وأبو عمران الفاسي أن المتعبّدين في بلدة لا يوجد فيها قاضٍ . يجوز لهم أن يقوموا مقامه ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 67/2 ، المعيار ، 76/10 ، انظر أيضاً ، فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 131 المعيار ، 76/10 .

66) فتوى ابن محرز (ت . حوالي 450 هـ/1058 م) ، المعيار ، 83/10-84 ـ فتوى اللخمي ، المعيار ، 89/10-91 ، البرزلي ، المختصر ، 113· العقوبة الواجب تسليطها على قاضٍ جائر بقفصة . فتوى السيّوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) : لا يمكن الإدلاء بشهادة أمام قاضٍ جاهل يستطيع بصعوبة كتابة اسمه واسم والده .

67) فتوى ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/996 م) ، البرزلي مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 5 و ، مخطوط الجزائر ، 28 ط ، 29 و ، المختصر ، 93 ، المعيار ، 70/10 .

يصدرونها ، ذلك أنّ ابن الشبّاط قد تصفّح بعض الأحكام التي يرجع تاريخها إلى العهد الصنهاجي واحتفظ بها في « مودّع » (أو ديوان) أحكام القضاة الموجود في الجامع العتيق بتوزر[68] .

وفي رسم الحكم الذي أصدره قاضي قفصة وعرضه الخصم الخاسر بلا شكّ على المازري ، صرّح القاضي أنه حرّره في نظيرين ، الأوّل « لديوان أحكامه » ، والثاني للطرف الرابح ، ثم قُرِىء الرسم في « مجلس قضائه » بمحضره ومحضر شهوده الذين صادقوا عليه[69] .

ويجوز للقاضي أن يؤيّد قراره بحكم صادر عن قاضٍ آخر ، وتعتبر هذه الطريقة ضرباً من ضروب فقه القضاء . وبطبيعة الحال ينبغي أن يكون الرسم المذكور صادراً عن قاضٍ معروف بعلمه ونزاهته . ومن المقبول أن يبتّ قاضٍ من قضاة الأقاليم في قضيةٍ ما وفقاً للإجراءات المتخذة من قِبَل قاضي القضاة بالقيروان حول قضيّةٍ مماثلة شيئاً ما . ولكنّ الرسم المذكور ينبغي أن يكون محرّراً بخطّ القاضي وحاملاً لخاتمه ومصادقاً عليه من طرف عدول ، اللهمّ إلّا إذا كان خطّ القاضي المعني بالأمر معروفاً معرفة تامّة من طرف الحاكم المدعوّ إلى البتّ في القضيّة . ذلك أنّ ابن أبي زيد قد أقرّ في مثل هذه الحالة صحّة « الشهادة المكتوبة »[70] . ولكنّ الفقيه أبا حفص بن العطّار أبدى تشدّداً أكبر ، إذ اعتبر أنّ الرسم ، حتى ولو كان مكتوباً بخطّ القاضي وحاملاً لخاتمه ، يجب أن يشهد بصحّته شاهدان[71] . ويمكن للقاضي أن يذيّل وثيقة تصديق على شهادات يكون قد كتبها وأمضاها قاضٍ آخر[72] .

ويجب أن يقسم المتقاضون على القرآن في المسجد الجامع . فقد جاء في فتوى للقابسي أنّ زوجاً قد أقسم أن يؤدّي زيارة إلى البقاع المقدّسة ، إن لم يحلّف القاضي والدي زوجته على المصحف الشريف بجامع سوسة[73] .

وفي عصر المازري كان للقاضي خاتم أو طابع يختم به المكاييل . فهو الذي كان حينئذ يتولّى

---

68) ابن الشباط ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 12/1 ، إدريس ، تحية جورج مارسي ، 95/2-106 .

69) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 50/2 و ـ 51 ظ ، المعيار ، 245/3-247 ، إن هذه الفتوى التي أصدرها المازري كانت تكون أفْيَد لو نُقِلت بحذافيرها . وقد كان المازري يؤكد مراراً وتكراراً « أن الأحكام إنّما تجب أن تُورَد بالنّصوص » .

70) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 71/10 .

71) فتوى أبي حفص العطّار (ت . حوالي 430 هـ/1038 م) ، المعيار ، 70/10 .

72) فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 131 : شهادة المدعو ابن أبي بكر الخلّال وأخته أمة العزيز حول مهر أمّها خديجة . وقد رأى المازري أن القاضي الثاني لا يجوز له التراجع في حكم أصدره ونفذه القاضي الأوّل .

73) فتوى القابسي ، المعيار ، 122/3 .

مراقبة الموازين والمكاييل(74) .

وكتب القاضي بخطّ يده في أسفل فتوى للمازري تقضي بتحليف بائع جارية من جبل نفوسة ادّعت أنها من أصل حرّ ، أنه يتعينّ عليه أن يحلف على المصحف في جامع قصبة الرباط(75) وهو واقف ومتوجّه إلى القبلة(76) ، أنه يجهل إنها من أصل حرّ .

وبعد غزو صقلية طُرِح سؤال(77) حول تنفيذ أحكام قاضي صقليّة الذي عيّنه النرمان في إفريقية . فأجاب ابن الضابط بالإثبات ، إذا تأكّدت عدالة ذلك القاضي بشهادة عدول المهديّة بوجه خاصّ ، المؤهّلين قبل غيرهم للبتّ في هذا الموضوع(78) . أما المازري ، فقد رأى أنّ الأحكام التي يصدرها قاضي صقليّة على أساس شهادات عدول ، تفرضها الضرورة ، إذ ينبغي في غياب أدلّة مخالفة لذلك ، أن نفترض أنّ ذلك القاضي لا يقيم في أرض الكفر بطوع إرادته ، وأنّ تعيينه من قِبَل النّصارى لا يفسد أحكامه ولا ينزع عنها قوّتها التنفيذية . على أنّ هناك خلافاً بين الفقهاء حول صحّة تولية قاض من قِبَل سلطان جائر(79) .

عـدول الإشهـاد :

لقد أصبح سلك الشهود أو العدول يكتسي صبغة نظامية في عهد بني زيري . ويبدو أنّ خطّة « عدالة الشهادة » كانت تُسنَد في عصر السيوري إلى أشخاص مُعيَّنين مقابل أجر . ولكنّ الشهادات العادية كانت من اختصاصات بعض الأفراد ، وذلك لا محالة في المدن الصغرى . وقد

---

74) فتوى المازري، البرزلي ، المختصر ، 143 .

65) « جامع قصبة الرباط » : هل هذا الاسم الغريب يطلق على رباط غير معروف في المهديّة ، أم على رباط سوسة ؟

76) فتوى المازري ، المعيار ، 151/9 ، وفتوى أخرى لنفس الفقيه (البرزلي ، مخطوط الرباط 160/2 ط والمعيار ، 130/8-131) ، جاء فيها أن القاضي حلّف شخصاً « بقصر الرباط بمحضر بيّنة » .

77) هذه المسألة لم تكن مطروحة من قبل .- فتوى القابسي ، المعيار ، 99/10-100 حول شخص من إفريقية حُكِمَ عليه في صقلية بدفع مبلغ إلى « رجل سلطاني من أهل صقليّة » .

78) فتوى ابن الضابط (ت . 443 هـ/1051-1052 م) ، المعيار ، 83/10 .

79) فتوى المازري ، المعيار ، 79/10-80 ، انظر أيضاً ح . ح . عبد الوهّاب ، الإمام المازري ، 87-89 (نقلاً عن كتاب الدكّانة للشيخ عظّوم القيرواني . وحول الوضعية القانونية « لأهل الدجن » الذين مكثوا في أرض الكفر بإذن ملك النصارى ، وقد كانوا يدفعون إليه الخراج لا سيما في جزيرة قوصرة فيما بعد ، انظر ، المعيار ، 90/2-106 و 340/2-341 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 178/2 ظ ومخطوط الرباط ، 18/2 ط ، 19 و ، والمختصر ، 64 ظ ، 113 و .

أنكر السيوري هذا التصرّف المنافي للسنّة ، لأن حقّ تجريح الشهادة أمر مقدّس[80] .

ففي سنة 400 هـ/ 1009-1010 م عفا باديس على أهل طرابلس الذين ثاروا ضدّه ، « وأشهد بذلك على نفسه »[81] . وبعد ذلك بخمس سنوات « أخذ إبراهيم على نفسه المواثيق » أنّه سيوفي بالالتزامات التي تعهّد بها تجاه الأمير[82] .

وأفتى الداودي مرّتين بأن العدول يستطيعون في المناطق التي لا يوجد فيها لا قضاة ولا سلطان ، أن يقوموا مقامهم . ورأى أبو عمران الفاسي أنّ أحكام الجماعة في غياب السلطان قابلة للتنفيذ ، بشرط أن تكون عادلة ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى « عمّال المنازل »[83] .

وسواء بالنسبة إلى التحقّق من وفاة شخص في مكان بعيد أو بالنسبة إلى رؤية هلال شوّال ، اضطرّ الفقهاء الصنهاجيّون إلى التخفيف من نظريّة « عدالة الشهادة » وقبول « أخبار التواتر » أو « شهادة الاستفاضة » ، لا سيما في المراكز التي ليس فيها عدول .

واعتباراً من ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/ 990 م) ، اكتست هذه القضية أهمّية أكبر فأكبر ، وقد خصّص لها كبار الفقهاء من القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) إلى المازري (ت . 536 هـ/ 1141 م) ، كثيراً من الفتاوى[84] .

وقد دفعتهم الضرورات العملية كلّها تقريباً ، ولكن على درجات مختلفة والحق يقال ، إلى التخفيف من اشتراط شهادة العدالة ، فاقتبسوا من « أهل الأصول » و« المتكلّمين » ومن الأشعريّة على وجه الخصوص ، مقياساً جديداً يتمثل في العلم الضروري المرتكز على أربع شهادات على أقلّ تقدير ، يدلي بها أيّ كان من الشهود (سواء أكانوا رجالاً أو نساء ، وعبيداً أو أحراراً ، أو كانوا

---

80) فتوى السّيوري ، المعيار ، 244/10-245 ، 254-255 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 175/2 ظ ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 135/2-138 [الترجمة العربية 136/2-140] .

81) البيان ، 258/1 .

82) نفس المرجع ، 261/1 .

83) فتوى الداودي (ت . 402 هـ/1011 م) وأبو عمران الفاسي ، المعيار ، 76/10 .

84) إدريس، تحية جورج مارسي، 102/2-104. فتاوي ابنّ أبي زيد والداودي والقابسي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي وأبي القاسم بن محرز ، وأبي الطيب عبد المنعم الكندي والأشيري وأبي القاسم عبد الجليل بن أبي بكر الربعي (المعروف بالديباجي وابن الصابوني) والسيوري وأبي محمد عبد الله الشقراطسي واللخمي وابن الصائغ والمازري والقابسي وأبي الحسن السوسي (المعروف بابن العلاّف) الخ ... المعيار، 329/1-333-335 ، 206/3 ، 103/10-104 ، 107-108 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 211/1 و ـ 213 ظ ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 71/2 ظ ، المختصر ، 24 ظ ، 52 ظ ، 53 و ، 122 و ، ظ ، 129 ظ .

مسلمين ممّن لا تقبل شهادتهم ، أو حتى غير مسلمين كالنصارى مثلاً) .

وكان المازري متشدّداً أكثر من السيوري ، فاقترح حلاّ وسطاً بين النظرية الأشعرية ونظرية الجمهور ، يتمثل فيما يلي : يجب أن يشهد شاهدان أمام الحاكم بصحّة أمر واقع حسب شهادة الاستفاضة[85] .

واعتباراً من أبي عمران الفاسي على الأقلّ ، نوقشت صحّة الشهادة الخطية[86] . فكان عبد الجليل الربعي لا يقبل إلا الشهادات الخطية الصادرة عن أشخاص خطّهم معروف وغير قابل للتدليس ، أو التي يشهد بصحّتها شيخ جدير بنفس الثقة التي يحظى بها شيخه أبو عمران الفاسي[87] .

وهل يجوز إرغام شخص أنكر تحرير إقرار بالدين ، على الكتابة بمحضر عدول ، للتثبّت من صحّة أقواله بالمقارنة بين الكتبَيْن ؟ يجيب اللخمي بالإثبات ، في حين يرى عبد الحميد بن الصائغ والمازري رأياً مخالفاً[88] . وقد أكّد المازري مراراً وتكراراً أنّ « الشهادة على الخطّ مختلف فيها »[89] . وهو يرى أنّ المفتين - مثلهم مثل الشهود - كثيراً ما يعمدون إلى مناهضة أحد الطرفَيْن ، وأن بعض القضاة يستسلمون لسلطة العدول . « فالقاضي لا يعمل من تلقاء نفسه كالعدول »[90] . وفي أغلب الأحيان لا يمكن الوثوق لا بالعدول ولا بالقضاة ولا بالمفتين[91] . كما يوصي بتدوين الشهادات بحذافيرها . وينبغي في هذا المضمار اجتناب الإشارات المبهمة والعبارات المقتضبة المثيرة للتخمينات[92] .

---

85) فتوى السيّوري ، المعيار ، 108/10 ، البرزلي ، المختصر ، 129 ظ .
86) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 71/10 .
87) نفس المصدر ، 141/10 . وحول أبي القاسم عبد الجليل بن أبي بكر الربعي المعروف بالديباجي وابن الصابوني ، انظر ، إدريس ، حولية معهد الدراسات الشرقية ، 1955 ، 49-50 .
88) فتوى اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) وعبد الحميد بن الصائغ (ت . 486 هـ/1093 م) والمازري ، المعيار ، 136/10-137 .
89) المعيار ، 87/3-88-236 ، 79/10 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 67/2 و ، المختصر ، 52 ظ . فتاوى السيوري واللخمي ، نفس المصدر ، 141/10-143 .
90) فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 113 ظ .
91) فتوى المازري ، نفس المصدر ، 113 ظ .
92) فتوى المازري ، المعيار ، 245/3-247 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 50/2 و ، 51 ظ .

وجاء في فتوى أخرى لنفس الفقيه ، أنّ قاضياً عينّ طبيبَيْن أحدهما ذمّي لإثبات إصابة شخص بالجذام[93] .

المـفتــي :

رغم اعتراف المازري بقدرة القاضي الكفء على إصدار الفتاوى المركّزة على « تهذيب الأصول »[94] ، فإنّ أحكام القضاة طوال العهد الصنهاجيّ كانت تعتمد أساساً على فتاوى كبار المفتين المالكيين الذين يُعتبَرون الرؤساء الحقيقيّين للجماعة الإسلامية والمسؤولين عن عقيدة المسلمين ، وتصدر تلك الفتاوى بطلب من القضاة أو المتقاضين أو أيّ شخص آخر[95] .

وقد أجاب القابسي على سؤال وجّهه إليه تلميذه أبو القاسم بن محرز ، معتبراً أن المفتي الذي حفظ المدوّنة و نوازل ابن أبي زيد و الموازية لا يمكنه إصدار الفتاوى إلاّ إذا درس الكتب مع الشيوخ ، وإلاّ فعليه نقل الفتاوى الواردة في تلك الكتب حرفيّاً وتطبيقها بدون أدنى استعمال للقياس[96] .

ووافق اللخمي ، لا بدون تردّد ، على الرجوع إلى الدواوين المشهورة عند الاقتضاء في صورة غياب الإمام الذي يمكن استشارته ، مشهّراً مع ذلك بمخاطر هذه العملية ، لأنه من النادر جدّاً العثور على قضيّة بعينها بصريح العبارة في كتاب من الكتب القديمة ، إذ لا توجد في أغلب الأحيان سوى بعض الحالات المتشابهة لا المماثلة ، وهذا التشابه تنجرّ عنه كثير من الأخطاء[97] . وبعبارة أخرى ينبغي دوماً وأبداً استعمال القياسَ الذي هو من اختصاص العلماء الحقيقيّين .

وروى المازري[98] أن المرتهنين والصنّاع قد أمروا ، إثر احتلال ونهب زويلة والمهدية من

---

93) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 62/2 ظ ، المعيار 235/3-236 .

94) فتوى المازري ، المعيار ، 232/3-233-232 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 60/2 و .

95) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 1/1 ظ ، 31 و . (مسائل الاستفتاء) ، المعيار ، 66/10 ، 30 ، 86/11 وما بعدها ، 205/3-236-237 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 138/2-143 [الترجمة العربية ، 141/2-145] ، المدارك ، 2-72/3 ظ ، 73 و : عينّ زيادة الله أربعة فقهاء لمساعدة القاضيّ حماس (ت . 303 هـ/915-916) . وحسب صاحبا كتاب المعزّ ، 192-193 ، كان قاضي القضاء في عهد المعزّ لدين الله الفاطمي ، أي القاضي النعمان يصدر فتاواه جواباً على الأسئلة التي تلقى عليه ، وكان الخليفة يراقب تلك الفتاوى الشيعيّة .

96) فتوى القابسي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 1/1 ظ ، المختصر ، 1 ظ .

97) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 10/1 ظ ، 11 و .

98) المعيار ، 205/8 .

طرف النرمان ، بإرجاع ما كان في حوزتهم من ودائع إلى أصحابها . وأصدر جميع المشائخ العلماء « والمتوفّرين »[99] الموجودين في المهدية ، فتوى تفرض على المرتهنين والصنّاع الاستظهار ببيّنة تثبت أن الودائع التي كانت لديهم قد استحوذ عليها الروم . وكان المازري قد صادق على هذا الرأي بمقتضى فتوى اعتمدها القاضي . ولكنّ كثرة المعارضين لفتوى المازري قد أجبرت القاضي على إرجاء إصدار الحكم إلى أن يشهد عدلان أمامه أن شيخ الجماعة أبا القاسم السيوري (ت . 460 أو 462 هـ/ 1067-1069 م) كان قد أصدر في السابق فتوى مطابقة لفتوى المازري . وفي الأثناء ورد كتاب المنتقى لصاحبه الباجي الذي أبدى حول الحريق رأياً مماثلاً لرأي المازري .

وسئل المازري حول فتوى ألحقت ضرراً ماليّاً بالغير ، فأجاب : إن كان المفتي قادراً على الاجتهاد والنظر ، فإنه لا يتحمّل مسؤولية تبعات الفتوى التي أصدرها . وفي حالة العكس ، فهو مسؤول عن ذلك لأنه قام بدور لا يجوز له القيام به . ويتعينّ على الحاكم بعد إثبات قصوره ببيّنة أن يعنّفه ، إذ أنه يستحقّ التأديب ، اللهمّ إلا إذا كان قد زاول دراسات في الماضي ، وعندئذ ينبغي أن يعاقَب ويُمنَع من ارتكاب مثل ذلك الخطإ في المستقبل[100] . « ولا خلاف أن إقامة المفتي ليس إليه (يعني القاضي) وإنّما هو لأهل الحلّ والربط ، وهم العلماء »[101] .

وقد قبل ابن شغلان (أو شعلان) خطّة القضاء التي عرضها عليه تميم بن المعزّ ، لكن بشرط استقدام عبد الحميد بن الصائغ إلى المهديّة ليتولى مهمّة الإفتاء . ذلك أنّه كان يريد تركيز أحكامه على فتاوى ذلك الفقيه ، لأنه كان يأبى استفتاء أيّ كان من المفتين الآخرين بالمهدية باعتبارهم من المشكوك فيهم . وقد استجاب الأمير لهذا الطلب ، وقدم ابن الصائغ إلى المهدية واعتبِرت فتاواه حجّة في المدينة . ويبدو أنّ هذا المفتي قد قام بدور المستشار لدى القاضي الذي كان يصدر الفتاوى بطلب منه[102] .

وكما هو الشأن بالنسبة إلى القاضي ، لا ينبغي أن يتقاضى المفتي أيّ جراية أو مكافأة مهما كان نوعها[103] .

---

99) [أي الأثرياء] .

100) فتوى المازري ، المعيار ، 321/2 .

101) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 12/1 ظ .

102) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 504 (ترجمة ابن الصائغ) . إسبانيا الإسلامية ، 127/3-128 .

103) هذا هو رأي اللخمي والمازري ، أما رأي عبد الحميد الصائغ ، فهو يكتسي أقلّ صرامة ، حسبما يبدو ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 27/1 ظ ، والمختصر .

وكثيراً ما كانت نفس القضية تُعرَض على عدّة مفتين في آن واحد(104) .

وإذا أصدر المفتي فتوى تتضمّن عـدّة آراء متناقضـة ، يقرّ ابن أبي زيـد للمستفتي بحقّ الاختيار بينها ، إذا كان قادراً على الاجتهاد ، وإلا فيجب عليه تقليد عالم جدير بأن يُتّبَع(105) .

وقد ظهر مع المازري اتجاه مناهض لتحوّل المتقاضين دون رويّة من مذهب إلى آخر لتحقيق أغراضهم في أغلب الأحيان . وجواباً على سؤال صادر عن قاضي مدينة تونس وفقهائها ، أشار إلى ضرورة التقليد في مثل عصره ، ورأى أن التلاعب بالخلافات بين المذاهب تساهل مخطر(106) .

وتحدّث المازري في هذا السياق عن حادث وقع له وهو صبي فقال : « أذكر أني كنت صبيّاً حين راهقت الحلم بين يدي إمامي في الأصول(107) رحمه الله ، وكان أوّل يوم من رمضان ، وبات النّاس بغير عقد نيّة في الصّيام ، فقلت : إن هذا اليوم نقضيه على مذهب أصحاب مالك في رواية شاذّة . فأخذ بأذني أستاذي وقال لي : إذا قرأت العلم على هذا فلا تقرأه ، فإنك إن اتّبعت ثنيّات الطريق جاء منكزنيدق »(108) .

واجتناباً لأيّ لجوء إلى الحِيَل الشرعيّة ، كان المازري لا يعتمد في فتاواه إلّا على « المشهور »

---

104) عُرِضت قضية فسخ زواج في آنٍ واحد على أبي بكر بن عبد الرحمان (ت . 432 أو 435 هـ/1040-1043 م) وأبي عمران الفاسي (ت . 430 هـ/1038 م) ، المعيار ، 3/316-317 .

لقد اعتُبِر في قفصة أحدُ سكّان تلك المدينة كان مستقراً في سوسة ، في عداد الأموات ، دون أن يثبت ذلك بيّنة أو حكم صادر عن القاضي ، فأجاب كلّ من أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي حفص العطار ، أنه لا يمكن استخلاص نتائج قانونية من وفاة لم تثبت شرعاً ، المعيار ، 10/132 ، البرزلي ، المختصر ، 114 ظ .

رغم وجود أجوبة شيوخه المتوفّين لدى القاضي أبي إسحاق القفصي ، وهم أبو القاسم بن محرز وأبو الطيب الكندي والسيّوري ، حول إحدى القضايا ، فقد عرض القاضي المذكور تلك القضية على عبد الحميد الصائغ ، البرزلي ، المختصر ، 30 ظ . وحول الأجوبة المختلفة التي تلقّاها القفصي حول إثبات ظهور هلال شوّال ، انظر ، إدريس ، تحية جورج مارسي ، 2/100-104 .

105) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 12/11-12 والمختصر ، 1/ظ .

106) فتوى المازري ، المعيار ، 3/249-251 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 1/11 ظ ، 13 و ، ومخطوط ح . ح . عبد الوهاب 2/100 و ، المختصر 2 ظ ، 3 و .

ويبدو أن السائل هو الشيخُ المحدّث المعروف باسم الجزائري ، الذي كان تعلم في السابق على المازري « شيئاً من علم الأصول » .

107) وهو بلا شك ابن الصائغ (ت . 486 هـ/1093 م) .

108) المعيار ، بنيّات الطريق ، والمختصر ، بينات الطرق ، ونحن نقترح : ثنيّات الطريق .

من أقوال المذهب المالكي ، ويفتخر بذلك[109] .

وقد صرّح أنّه لا يوجد في عصره أيّ مفتٍ بلغ من العلم درجة تمكّنه من إصدار فتوى دون الرجوع إلى أيمّة العصور السالفة ، وأنّه يتعيّن الالتزام بكلّ حذر بتعاليم الإمام مالك وأصحابه وبالدواوين الواردة فيها . وبعبارة أخرى كان يدعو إلى التقليد لكبح جماح الجَهَلة وغلق الباب أمام التجاوزات المحتملة[110] .

وفي كثير من الحالات كان المفتون يعتمدون على « العادة والعرف » في المكان الذي تصدر فيه الفتوى[111] . وأمّا مقياس « مراعاة أخفّ الضررين »[112] ، فقد كان يميّز طريقة ابن الصائغ وتلميذه المازري .

كما كانت تُعرَض على المفتي رسوم (أو محاضر) ويطلب إليه البتّ في صحّتها[113] ، وبالمناسبة كان يشير إلى ضعف التعابير التي يستعملها الموثّقون[114] . فقد كان المفتي يقوم حينئذ مقام قاضي الاستئناف أو التعقيب .

وفي بعض القضايا الدقيقة جدّاً ، كان المفتي يدرج في فتواه نصّ الحكم الذي يجب أن يصدره القاضي ليكون في مأمن[115] .

وقد اعتمد حكمٌ أصدره قاضي قفصة على فتوى عالم محلّي ، فأحيل الحكم على المازري الذي أثبت في جوابه أن تلك الفتوى غالطة بالأساس لأنها لا تعتمد على أيّ نصّ مالكي ، فينبغي مراجعتها وإصدار حكم جديد[116] . وهذا دليل آخر على تفوّق المفتي على الحاكم في العهد الصنهاجي . فالقاضي يبتّ في القضايا ، ولكن المفتي هو الذي يصدر الأحكام في الواقع ، وذلك بالنسبة إلى مختلف درجات القضاء . ومن أجل ذلك لم يقبل أيّ أحد من كبار فقهاء المالكيّة خطّة

---

109) المعيار ، 16/12 ، 164-163/9 ، 2/12 ، 12 ، 29/10 ، 247-245/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 50/2 و ـ 51 ظ .

110) فتوى المازري ، المعيار ، 247-245/3 ، 253/6 ، 80/9 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 50/2 و ، 51 ظ .

111) المعيار ، 207/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 83/2 ظ ، 126 ظ .

112) المعيار ، 285/8 .

113) نفس المصدر ، 242/2 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 103/2 و .

114) فتوى القابسي ، المعيار ، 117/3 ، المختصر ، 42 ظ ، 43 و ـ برنشفيك ، المرجع المذكور ، 137/2 [الترجمة العربية ، 141/2] .

115) فتوى السيوري أو اللخمي ، المختصر ، 53 و ظ .

116) فتوى المازري ، المعيار ، 247-245/3 ، البرزلي ، مخطوط الرباط 50/2 و ، 51 ظ .

القضاء ، بالرغم من قيمتهم العلمية وما يتمتعون به من نفوذ كبير ، بل كانوا يرفضون تلك الخطّة التي أُفرغت شيئاً ما من محتواها الأساسي .

أرباب الشعائر الدينيّة :

لقد كانت خطّة الإمامة والخطابة في العهد الصنهاجي ، حسب الاحتمال ، خطّة واحدة ، كما كان الأمر من قبل ، وكان صاحبها يحمل لقب « صاحب الصلاة والخطبة »[117] . ويمكن أن يجمع القاضي بينها وبين خطّة القضاء . من ذلك أنّ القاضي الأخير من آل ابن الكوفي كان في آن واحد ـ كما أسلفنا ـ « قاضي مدينة صبرة وخطيبها وإمام الجامع الأعظم بها » .

وكما كان بإفريقيّة قاضيًا قضاة ، أحدُهما في القيروان والآخر في صبرة ، كان لكلا المدينتين إمام خطيب[118] . ولا نعلم أيّ شيء حول طريقة تعيين الأيمّة الخطباء ، ولا حول جراياتهم المحتملة[119] .

وقد كان للأميرَيْن الصنهاجيّين الأوّلَيْن إمام ملحق بهما ، هو بمثابة الإمام الخاصّ ، إن صحّ التعبير . فقد ذكر ابن خلدون من بين مشاهير الصنهاجيّين المدعوّ سليمان بن مصعان بن غيلان[120] ، إمام باديس [بن المنصور] بن بلكّين ، ولعلّه كان يتولّى الإمامة في أشير . وكان بودّنا أن نعلم هل كان يصاحب الأمير في تنقّلاته أم لا .

واعتباراً من المنصور ، يبدو أنّ الأمير قد كان يتولّى الإمامة في بعض المناسبات الرسمية ، مثل صلاة العيدَيْن . من ذلك أنّ هذا الأمير قد صلّى بالناس صلاة عيد الفطر يوم أوّل شوّال 374 هـ/ 25 فيفري 985 م في مصلّى رقّادة الذي بُني منذ عهد قريب ، وألقى الخطبة قاضي صبرة المنصورية ابن الكوفي[121] .

---

117) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 172 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 2/150-152 [الترجمة العربية ، 2/153-154] .

118) البيان ، 1/280 : إن عبارة « خطيبَيْ القيروان » تعني بلا شكّ حطيب القيروان وخطيب صبرة .

119) المعيار ، 8/160 : لقد اشترك أهل بعض القرى لدفع جراية إمام ، ولكن يبدو أن هذه الفتوى التي أصدرها « أبو محمّد » لم تكن صادرة عن ابن أبي زيد . البيان ، 1/189 : كان أحد أيمّة جامع القيروان في أيام بني الأغلب « يرتزق في كل شهر عشرة مثاقيل » .

120) حسب العبر ، 6/153 ، وفي البربر ، 2/4 : سليمان بن بتينان بن علّان .

121) إدريس ، تحية لويس ماسينيون ، 2/354 .

وفي سنة 443 هـ/ 1051-1052 م ارتدى خطيبا القيروان وصبرة المنصوريّة وجميع المؤذّنين « لباس السواد »[122] . ونستنتج من هذا الخبر أنّهم كانوا قبل ذلك يلبسون الأبيض لون الفاطميّين .

ويبدو أن المسؤول عن صيانة المسجد وإدارة أوقافه كان يسمّى « النقيب »[123] . وكان القائم على شؤون المسجد الجامع يسمّى « قيّم الجامع »[124] .

---

122) البيان ، 280/1 .
123) فتوى السيّوري ، المعيار ، 26/6 .
124) فتوى نفس الفقيه ، المعيار ، 26/7 .

الباب التاسع
الحياة الإجتماعيّة والعائليّة

الفصل الأوّل
الطبقات والفئات الاجتماعيّة

كانت الطبقة الأرستقراطية تتألّف من الصنهاجيّين والشيعة والعرب من ذوي الأصل العربي ، وقد كان يُنتدَب من بينهم كبار الموظفين ومنهم نوّاب الأمير ، وكانت تضمّ أيضاً أفراد العائلات العربية والبربرية الماجدة والأشراف[1] ، بالإضافة إلى رؤساء القبائل الهلالية الرحّل ، الذين قدموا بعد زحفة بني هلال .

ويبدو أن تركيبة الطبقة البرجوازية المالكية الصغرى لم تتغيّر ، وكذلك تركيبة الريفيّين وأبناء القبائل الرحّل . وبطبيعة الحال كان يوجد في أسفل السلّم الاجتماعي ، سواء في المدينة أو في البادية ، عبيد أصحاب الأملاك العقارية والأثرياء البرجوازيّين .

أما النّرمان فقد مرّوا مرّ الكرام ، ولم يبق لهم أي أثر في البلاد . ولئن كان الدور الاجتماعي الذي يقوم به بعض النصارى من ذوي الأصل الإفريقي يبدو تافهاً ومقصوراً على الرّعاع ، إلاّ أنه من الجدير بالإشارة ، ما كان يتمتع به العبيد النصارى من نفوذ في بلاط تميم، لا سيما أسرة جرجي الأنطاكي .

وأمّا الجالية اليهودية ، فإن إسهامها في الحياة الاقتصادية لم يكن زهيداً ، كما سنرى ذلك في الباب الموالي .

---

1) أنظر حول الأشراف بإفريقيّة ، في عهد بني زيري ، نقائش عربية ، 80/1 .

ولا حاجة لنا إلى تأكيد المظاهر المتعدّدة للاعتداء على حقوق الناس إثر زعفة بني هلال ، من سلب ونهب وخطف واستعباد واغتصاب وقتل . . .[2] .

العبيــد :

كان العبيد يقومون في المجتمع الصنهاجي بنفس الدّور الذي كانوا يقومون به في سائر البلاد الإسلامية ، وكانوا خاضعين للوضع القانوني الذي حدّدته الشريعة الإسلامية[3] . فكانوا يوفّرون بالخصوص الخَدَم والمرتزقة والجواري[4] ، وكانوا من السود أو البيض ، ولكن يبدو أن هؤلاء كانوا في معظمهم من النصارى[5] . على أنّ عتق العبيد الذي تحثّ عليه الشريعة الإسلامية ، وكان معمولاً به مراراً وتكراراً ، لا سيما لفائدة المعتنقين للدين الإسلامي وأمّهات الوَلَد ، لم يكن يقطع صلتهم بأسيادهم السابقين ، حيث يظلّون موالين لهم ، بل كثيراً ما يستمرّون في خدمتهم . ومن ناحية أخرى ما انفكّ العبيد يتوافدون على إفريقية من الخارج ، بفضل كثافة حركة النّخاسة .

وقد أوصى القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) بتأديب العبيد برفق[6] . وسئل ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/ 996 م) هل يجوز لصاحب الجارية التي تغنّي في حفلات الزّفاف والولادة ، أن يأخذ نصيباً من المكافآت والهدايا التي تُسنَد إليها ؟[7] .

إلّا أنّ الفتوى التي خوّل بمقتضاها المعزّ لدين الله [الفاطمي][8] لكلّ من يعتنق المذهب

---

2) انظر بالخصوص فتوى السيوري والمازري ، المعيار ، 221/2 ، 226 .

3) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي [الترجمة العربية 169/2] ، وبالخصوص، دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة 2) ، 25/1-41 .

4) وحول تعاطي الإماء للبغاء في جبل نفوسة ، في دور مخصصة لذلك الغرض ، انظر ، الاستبصار (الترجمة) ، 59-60 .

5) بالنسبة إلى الفترة السابقة للعصر الصنهاجي ورد ذكر متعبّد اسمه ابن الروميّة في رياض النفوس ، مخطوط باريس 82 ظ و 83 و . كما جاء في نفس الكتاب أن خادمة ابن اللبّاد (ت . 333 هـ /944-945 م) اسمها مارية ، مخطوط باريس ، 84 ظ . [طبعة بيروت ، 284/2] . وكان للقاضي ابن هشام « غلام نصراني » في سنة 386 هـ/996 م . وورد في المعيار ، 120/3-121 ذكر خادمة روميّة بالمهدية أصبحت أم ولد ، فأعتقها صاحبها ثم تزوّجها . وجاء في فتوى للمازري ، المعيار ، 231/3 ، والبرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 59/2 ظ ، أنّ خلافاً نشب حول « وصيفة روميّة » (أي خادمة) . وحول العبيد النصاري في عهد تميم ، انظر ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1954 م ، ص 274 .

6) المعيار ، 213/2 .

7) نفس المصدر ، 163/5 ، وجاء في معالم الإيمان ، 59/3 « أنّ مغنيّة بالقيروان كانت مشهورة بالغناء في الأعراس » ، في عصر أبي الحسن القابسي .

8) المعزّ ، 193 ، نقلاً عن المجالس والمسايرات ، 310/2 .

الشيعي التمتّع بوضعيّة الرجل الحرّ ، قد بقيت حبراً على ورق في عهد بني زيري .

وقد افتكّ بنو هلال عدداً كبيراً من العبيـد من أصحابهم الأصليّـين ، ولم يستنكفوا عن استعباد بعض الأحرار من الرجال والنساء[9] .

وأثبتت فتوى صادرة عن التونسي (ت . 443 هـ/ 1051 م) وجود بعض العبيد المسلمين على ملك النصارى .

---

9) فتوى السيّوري ، المعيار ، 412/9 .

10) فتوى التونسي ، المعيار ، 140/9-141 .

الفصل الثاني
الزّواج

تعطينا الفتاوى الصادرة في عهد بني زيري معلومات كثيرة حول طرق الزواج[11] ، وبالتالي حول كثير من مظاهر الحياة العائلية ومنزلة المرأة في المجتمع . كما تكشف لنا عن بعض محاولات التوفيق بين النظريات الفقهية وبين العادات المحلية المتنوّعة .

ولا بأس من التذكير بوجود قاضي الأنكحة[12] على الأقلّ آخر العصر الصنهاجي ، للسهر على صحّة عقود النكاح واحترام الشروط الملتزم بها كلّ طرف .

ويُشترَط في صحّة عقد النّكاح : الوليّ والصداق وشهادة عدلَين[13] . ويتولّى العقد مُوَثِّق[14] ، وتسمّى وثيقة عقد النكاح : الجلدة[15] .

ويبدو أنّ موكب إبرام العقد المعروف باسم الإملاك ، كان ينتظم في بيت الزّوجة لا الزّوج[16] ، أو في الجوامع[17] . وتُقرَأ الوثيقة على الحاضرين[18] ، وإثر ذلك يتسلّم الوليّ النقد ،

---

11) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 174/2-175] . وقد أصدر القابسي عدة فتاوى حول هذا الموضوع ، انظر ، المعيار ، 116/3-127 .

12) انظر ، الفصل 8 من الباب الثامن ، القضاء .

13) الرسالة ، 172-173 ، المقدسي ، 46-47 ، افتخر المؤلف بتولي الشهادة في عقد نكاح لا محالة بالقيروان بطلب من المسمى أبي الطيّب حمدان .

14) فتوى القابسي ، المعيار ، 122/3 .

15) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 60/2 و : « زعمت أن جلدته ضاعت » ، وتحدّث البرزلي عن « جلدة الصداق » المختصر .

16) حضر الممّسي (ت . 333 هـ/944-945 م) حفلات إملاك (إملاكات) في بيت « ولي الزوجة » ولم يحضر في بيت الزوج ، المدارك ، 2-152/3 ظ .

17) معالم الإيمان ، 110/3 .

18) في حفل إملاك أحد أعيان القيروان حضر الفقهاء أبو الأزهر ، وأبو سعيد بن هشام وابن التبّان وابن أبي زيد ، ومن كثرة الحضور ، جلس ابن أبي زيد على الماجل . وقرأ الوثيقة أبو محمد بن الشقيقي ، المدارك ، 2-246/3 و .

ويصدّق الشاهدان على الرسم[19] . وعندئذ تقام وليمة الإملاك على شرف الضيوف[20] .

وكان الصّداق الذي يقدّمه دوماً وأبداً الخطيب ، وفقاً للتعاليم الفقهية ، يتركّب من جزءين متساويَيْن ، هما النقد والمهر . ويُدفَع الجزء الأوّل نقداً قبل إتمام الزواج ، ولذلك فهو يسمّى العاجل أو المُعَجَّل[21] ، وينفق في اقتناء الجهاز (أو الشّوار)[22] .

وينصّ العقد عادة على المبلغ الجملي للصداق وعلى قيمة النقد والمهر . وكان البعض ينقص من قيمة النقد ويضخّم المهر[23] . ويؤجل دفع المهر إلى وقت لاحق (ومن هنا جاءت عبارة الآجل أو المؤجّل)[24] . وقد اقتضى العرف عدم المطالبة بالمهر ، إلاّ في صورة الوفاة أو الافتراق[25] .

وقد طالب الزوج والد زوجة بِكْر توفّيت قبل أن يدخل عليها الزوج ، بصداق ابنته ، أي المهر المؤجّل ، في حين طالب الزّوج بأن يرث المبلغ الذي كان سيُخصَّص للجهاز . وحسب رأي عبد الحميد بن الصائغ ، فإن الأب غير مطالب بدفع أيّ شيء لصهره . في حين أبدى اللخمي رأياً مخالفاً لذلك[26] .

وطالبت امرأة بحقّ الاشتراك مع دائني والد زوجها في مقدار الصداق الذي ضمن دفعه عوضاً عن ابنه . فرأى المازري أنه يجوز للمرأة التمتّع بهذا الحقّ ، إن كان الزواج قد أُبرِم بضمان الصداق من قِبَل والد الزوج ، اللهمّ إلاّ إذا طالب الدائنون « بأعيان » ميراث مدينهم ، باعتبارها سلعاً[27] .

---

19) فتوى القابسي ، المعيار ، 122/3 ، وصف موكب عقد نكاح .

20) وافق المازري على ذلك ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 97/2 و .

21) صدرت حول هذا الموضوع عدة فتاوى للمازري ، المعيار ، 121/3-123 .

22) فتوى اللخمي ، المعيار ، 209/3 ، 310/9 . وللتعبير عن إعداد الجهاز نجد أحياناً كلمة جهّز (تجهيزاً) وأحياناً أخرى : شوّر (تشويراً) ، انظر أيضاً فتوى المازري ، المعيار ، 243/3-244 ، والبرزلي ، المختصر ، 52 و . وقد نظر المازري في مسألة تخصيص النقد لشراء الجهاز ، فأشار إلى وثائق ابن العطّار (ت . 430 هـ/1038 م) ، مذكّراً بأن الشريعة لا تفرض لا على المرأة ولا على والدها توفير الجهاز ، لأنّ الصداق « عِوَض عن البنت » . ولكنّه يقرّ صحّة العادة المذكورة .

23) فتوى القابسي ، المعيار ، 116/3-117 .

24) فتوى المازري ، المعيار ، 231/3 وفتوى القابسي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 57/2 و ، وقد وَرَدَ ذكر « ربْع » ضمن الصداق .

25) فتوى القابسي ، المعيار ، 123/3 وفتوى أبي الفرج التونسي ، المعيار ، 221/3 .

26) فتوى المازري ، المعيار ، 26/3-27 ، 243-244 ، المختصر ، 52 و . وقد نقل المازري رأي شيخَيْه عبد الحميد الصائغ واللخمي ، واعتبر أنه من الأفضل أن يتفق الطرفان بالتراضي .

27) فتوى المازري ، المعيار ، 241/3-242 .

وعُرِضت على اللخمي القضيّة التالية[28] :

زوّج والد فتاة بِكْر ابنته ، مقابل 100 دينار ذهباً ، منها 20 نقداً و 20 في شكل مهر « مؤجّل إلى أجل معلوم » . وحسب العادة الجاري بها العمل في كل عصر ، لا يُـذكَر النقـد في كتاب الصّداق ، لكنّه يُشترَط قبل ليلة الزفاف . فسلّم الزوج إلى الأب 20 ديناراً مدفوعة حالاً . ولما تمّ الزواج ، قدّم الأب إلى ابنته جهازاً متركّباً من أسرّة وكسوة وفروش ، قيمتها 30 ديناراً ، في حين يقتضي العرف أن تتجهّز البنت التي هي في نفس مكانتها بجهاز تبلغ قيمته 50 ديناراً . وحسب العادة الجاري بها العمل منذ عهد قديم ، ينبغي أن يخصّص الأب النقد لشراء الحليّ ، أو يدفع ذلك المبلغ لصائغ بغية صنعها ، دون أن يقتطع منه أدنى قسط لاقتناء الجهاز . والحال أنّ الأب لم يكتف فحسب بعدم إعطاء الحليّ لابنته ، بل أجاب صهره الذي طـالب بحقّه حسب العـرف الجاري ، بأنه قد خصّص النقد لاقتناء الجهاز . وقبل اتّهام الأب بالتقتير ، ألا يجوز لنا أن نتساءل هل أنه لم يطبّق العادة المشار إليها أعلاه ، والمتمثّلة في تخصيص النقد للجهاز ؟ وعندئذ ندرك لماذا أكّد أنه غير مطالب بدفع أيّ شيء آخر .

وإذا كان الخطيب غير قادر على دفع الصداق ، يُمكن للأب أن يمهله ، حتى بالنسبة إلى دفع المعجّل أو النقد[29] . وكانت العادة الجارية في القيروان تقتضي ردّ النقد إلى الزوج[30] .

وخلافاً للعادة المعمول بها في العصر الحفصي والتي أثبتها البرزلي[31] ، يبدو أن الزّوج لا يوفّر لا الكسوة ولا الحليّ[32] .

وتُحمّل نفقات الزّفاف (أو حقّ العرس) ، على الأقلّ جزئيّاً ، على كاهل الزّوج[33] . فقد استفدنا من فتوى للقابسي[34] أنّ زوجاً رفض دفع مبلغ يفـوق مبلغ النّقد المنصـوص عليه في

---

28) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهاب ، 32/3 و .

29) فتوى القابسي ، المعيار ، 118/3 .

30) فتوى أبي عمران الفاسي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب 104/2 ظ .

31) البرزلي ، المختصر ، 50 و . والمعيار ، 203/3 .

32) المعيار ، 237/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 63/2 ظ ، 66 و .

33) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 69 ظ ، [طبعة بيروت 121/2] : « تخاصم رجلان في حقّ العرس إلى حماس بن مروان (قاضي زيادة الله الثالث) ، فقال العروس : ليس يجب عليّ حق العرس ، وقال أبو العـروسة بـل هو واجب عليك ، فقال لهما حماس : المتعارف في البلد أنه من أُتيَ إليه بشوار يسوى خمسه وعشرين دينار أدفع دينارين ونصفا ، وإن كان أقلّ من ذلك دفع على قدر ذلك » .

34) فتوى القابسي ، المعيار ، 3/119-120 .

العقد ، حيث طُلِب إليه دفع ثلاثين ديناراً عوض عشرة ، وذلك اعتماداً على العادة الجاري بها العمل في هذا المضمار . فرفض دفع أدنى مبلغ إضافي ، مصرّحاً بأنه لن يدفع إلّا ما يـأمر بـه العلماء . وأجاب القابسي أنّ ذلك هو ما يسمّى « بحقّ العرس » أي الإعانة المقدمة إلى الزوجة . فالنّقد مخصّص لشراء الكسوة والشّوَار (الجهاز) ، ولكن هناك أيضاً نفقات العرس : وهي الطّيب والصّباغ والحنّاء واستئجار الحليّ لحفلة « الجلوة » ، فينبغي أن يمتثل الزوج للعـادة الجاري بهـا العمل ويساهم في هذه النّفقة ، لا سيّما وأنّ والد الفتاة مطالب عادة بزيادة مبلغ من ماله الخاصّ لصنع الجهاز . ولعلّ حقّ العرس يكتسي صبغة تفاخريّة ، أكثر ممّا يضيفه أولياء العـروس إلى « قِشاش » الجهاز . وختم القابسي جوابه مؤكّداً أن القضاة ، حسب علمه ، لا يأخذون بعين الاعتبار حقّ العرس في أحكامهم ، ولكن من مصلحة الزوج أن يمتثل لأحكام العادة والعرف .

وأفتى اللّخمي بجواز الإعلان عن دفع الصداق قبل الابتناء (الدخول على الزوجة) ، دون أيّ توضيح آخر ، في حين وصف السيوري هذا الزواج « بالفاسد » ، نـظراً لعدم تحـديد أيّ تاريخ[35] .

وكان « نكاح التفويض » (أي عقد الزواج الذي لا ينصّ فيه المتعاقد على مقدار الصداق) من الأعراف المعمول بها أحياناً في بعض الجهات التي جرت فيها العادة بعدم تحديد النقد والمهر إلّا يوم الزفاف . وبالنسبة إلى هذا النوع من الزواج على الأقلّ ، كان أبو الزوج وأبو الزوجة يتبادلان الهدايا المتمثلة في ملابس الأفراح[36] .

وسئل المازري[37] عن « أنكحة البادية » حسب العرف الجاري ، أي تحديد الصداق وإثباته بالشهادة عند إتمام الزواج ، لا عند إبرام العقد ، مع الملاحظ أن قيمة الصداق لا تتغيّر في جميع الحالات ، مهما كان نوعها .

وفي جهة من الجهات ، لم يحدّدها المصدر الذي نقل الخبر ، زوّج رجل ابنته البكر بصداق قدره 200 دينار ، أعطى منه 150 ديناراً لصهره ، لما علم أنه أنفق 200 دينار (لا محالة لسدّ نفقات

---

35) فتوى اللخمي والسيوري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 68/2 و .

36) الرسالة ، 180-181 ، فتوى ابن الصائغ ، البرزلي نفس المخطوط ، 67/2 و ، وقد جاء فيه : على العروس أن تدفع حق العرس إلى الجماعة حسب العرف .

37) فتوى المازري ، المعيار ، 230/3-231 ، البرزلي المخطوط المذكور 32/2 ظ ، المختصر ، 48 ظ . وقد أضاف البرزلي أنّ المهر اليوم معلوم في البادية حسب العرف وأنّ الكسوة تتغيّر بحسب مرتبة الرجل والمرأة ، المختصر ، 49 و .

الزواج) ، أي مقدار الصداق[38] ، وكما نلاحظ ، لا يتعلّق الأمر هنا لا بالنقد ولا بالمهر .

ويمكن أن تتحصّل المرأة من زوجها على « الخُلْع » ، مقابل « إسقاط المؤجّل »[39] .

ولا حاجة لنا إلى التأكيد أنّ الزواج ـ كما هو الشأن في كلّ زمان ومكان ـ مرتبط بكثير من الظروف الاجتماعية[40] .

ويتعينّ نظريّاً على المالكيّة الإمساك عن ربط أيّ علاقة زوجيّة مع الشيعة . ولكن ، لئن كان الأمر كذلك بوجه عامّ ، إلاّ أنّ هناك بعض الاستثناءات المحتملة . من ذلك مثلاً أنّ التونسي الذي نظر في قضيّة من هذا القبيل قد قال بجواز إبرام عقد زواج مع الشيعة المعتدلين[41] . كما يحدث أحياناً أن يرث المالكي الشيعي[42] .

ولا شكّ أن الزّواج « على عادة أهل القيروان » الذي أشارت المصادر إلى وجوده في أوائل العهد الإسلامي ، ولوحظ فعلاً في العصر الحفصي ، وهو يتمثل في ترخيص الزوج لزوجته بتطليق أية امرأة أخرى يتزوّجها ، قد كان رائجاً في العصر الصّنهاجي ، رغم أنّنا لم نعثر إلاّ على إشارة واحدة حول هذا الموضوع . ويتعلّق الأمر بفتوى لابن أبي زيد حول بند وارد في أصل عقد النكاح

---

38) فتوى أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان (ت . 432 أو 435 هـ/1040-1043 م) ، المعيار ، 226/3-227 والبرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 52/2 و . ظ .

39) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 68/2 و .

40) رياض النفوس ، مخطوط باريس 84 ظ ، [طبعة بيروت ، 285/2] ، قال ابن اللبّاد : « إني خطبت إلى جماعة من الناس ، فردّوني وقالوا : لا نزوّج صاحب محبرة وقلم » .

فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 40/2 ظ : يجوز للأب أن يزوّج ابنته البكر العربية بل حتى الشريفة لعربي دونها مرتبة أو لبربري أو مولى غني إن كانت فقيرة .

وحول فتاة سُلِّمت إلى صنهاجة ، انظر المعيار ، 433/9 ، انظر أيضاً فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب ، 41/2 ظ .

41) فتوى التونسي ، انظر ، إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 508-517 ـ فتوى اللخمي ، المعيار ، 211/3 ، البرزلي ، مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب 41/2 و : لا يجوز للولي تزويج البنت التي في ولايته لرجل معروف بسوء سلوكه وبخدمته مدّة طويلة في ديوان بني عُبَيْد ، ويجب فسخ هذا الزواج .

42) فتوى السيوري ، المعيار ، 411/9 ، 301/10 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 100/2 ظ ، ورث شخص نصف ضيعة عن مشرقي [شيعي] ، وأراد تصحيح هذه العملية من الوجهة الشرعية ، فقوّم منابه بواسطة شهود عدول وأوقف المبلغ أمامهم على « العلم » ، وأثبت ذلك بوثيقة . فطلب القاضي الاستظهار بالوثيقة وصرّح بفساد العملية لافتقارها إلى حكم القاضي . وأجاب السيوري بأنه لا ينبغي التعرّض للوارث .

43) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 174/2-175] . وترجع هذه العادة إلى منتصف القرن الثاني من الهجرة على أقل تقدير ، انظر ، المعالم ، 267/1 وأبو العرب ، 231 ، والبساط ، 23 .

أو مضاف إليه ، يصرّح الزوج بمقتضاه لزوجته « أنّ كل داخلة عليها طالق »[44] .

وليس من النادر أن تشترط الزوجة على زوجها عدم إبعادها عن مسقط رأسها بأيّ وجه من الوجوه[45] . فقد تعهّد والد زوجة ، لما زوّج ابنته ، بترحيلها من المهدية إلى قفصة[46] .

وفي قصور قفصة ، كان الصّداق المقوّم بالدينار يُدفَع في أوّل الأمر على قسطين ، قسط قبل البناء والآخر بعده . ثم جرت العادة فيها بعد أن لا تقبض الزوجة أو والدها أو وليّها الجزء المدفوع نقداً في شكل دنانير ، بل يكتفي الزوج بتقديم ملابس أو حليّ من الذهب أو الفضة أحياناً أو بعضها من الذهب والآخر من الفضّة ، ويصرّح بأنّه قد اشتراها بسعر كذا ، ويطرح ذلك المبلغ من أصل النقد المشترط قبل البناء[47] .

وفي قفصة أعمر والد فتاة كانت في عصمته ، أملاكها لزوجها طوال مدة الزوجيّة[48] .

وفي المهديّة وزويلة تخوّل الزوجة أو والداها أو أحدهما للزوج حقّ الإقامة في مسكن دون دفع معلوم الكراء طوال مدة الزوجية . ثم يُقرَأ هذا البند المحرّر على صحيفة مستقلّة عن « كتاب الصداق المُنزَّل على عقد النكاح » ، إمّا إثر ذلك مباشرة ، وإمّا في نفس اليوم أو من الغد . ويتمّ التصديق عليه بشهادات مسجلة بعد تسجيل عقد النكاح ذاته . على أن تحرّر أحكام الوثيقتين في آن واحد . وقد رأى المازري وجوب تقويم هذه المساعدة التي ينبغي أن تدخل في حساب الصداق[49] .

---

44) فتوى أبي محمد بن أبي زيد ، المعيار ، 202/3 ، البرزلي ، مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب ، 68/2 ظ .

45) فتوى القابسي ، المعيار ، 122/3 وفتوى المازري ، المعيار ، 241/3 ، البرزلي ، مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب ، 99/2 و .

46) فتوى اللخمي ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 68/2 ظ .

47) فتوى السيوري ، المعيار ، 203/3-204 ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 31/2 ظ ، 32 و ، 68 و : إن مثل هذا الزواج باطل ، لا سيما إذا كانت الملابس والحليّ من أنواع مختلفة ، حسبما يبدو .

48) فتاوى أبي محمد بن أبي زيد والتونسي والمازري ، المعيار ، 398/9 ، 104-105 ، البرزلي نفس المخطوط ، الكراس 38 ، ص 8 ظ ، وقد أنكر الفقهاء الثلاثة هذا الإعمار ، بنفس العبارات تقريباً . وفي صورة الطلاق يجب مطالبة الزوج بغلّة تلك الأملاك إن كان غنيّاً (مليء) ، وإن كان « عديماً » (لا يملك شيئاً) ، « أُخِذَ به الأب » .

وفي فتوى للمازري ، المعيار ، 244/3-245 ، والبرزلي ، المخطوط المذكور ، 105/2 و : « اعتمر » أبٌ « مستغلّ مال » ابنته التي في ولايته على سبيل « الإرفاق » (المساعدة) ، ما دام ذلك الرجل زوجها ، حسب العرف الجاري بقفصة ، الجواب : لا يحقّ للأب « تعمير ربع » ابنته ، وفي صورة الطلاق ، يكون الزوج مديناً بغلّة ذلك الربع ، إن كان غنيّاً ، وإلاّ فالعهدة على الأب .

49) فتوى المازري ، المعيار ، 244/3-245 ، البرزلي ، نفس المخطوط 12/2 ظ ، 13 و . ويذهب المازري إلى القول ببطلان =

وفي زويلة ، إذا توفّي والد الزوجة المُطَالَب بتوفير جهاز تساوي قيمته قيمة الصداق ، يحقّ للزوج أن يطلب ما يقابل الصداق أي الجهاز المذكور(50) .

وفي العائلات الثريّة بالمهديّة وزويلة ، يوفّر والد الفتاة البكر لابنته جهازاً يسمى « الصداق المسمّى » ، ويمكن إثبات أو عدم إثبات هذه « العادة » في عقد النكاح(51) .

وكان غياب الزوج قبل الدخول على الزوجة أو بعده يثير عدة مشاكل . فقد وافق « رئيس مراكب السلطان » بمقتضى رسم موثّق مُصدَّق عليه من قبل قاضي القضاة على إخلاء سبيل زوجته

مثل هذا الزواج إذا لم يدخل الزوج على الزوجة ، وإذا تم ذلك ، فهناك اختلاف بين الفقهاء . ويدعو إلى منع الكُتّاب والشهود من إبرام مثل هذه العقود . وينبغي تدوين هذا المنع وتأريخه لاكتشاف المخالفين فيما بعد .

وهناك فتوى أخرى مماثلة : المعيار ، 18/3 : في « عُقدة النكاح » بالمهدية وزويلة ، كثيراً ما نجد « إمتاع الزوج من مال الزوجة أو من أبيها » . ويكون هذا التنازل موضوع « عقد منفرد » يقرأ في نفس الوقت مع الصداق أو بعده . ويتعلق الأمر بالخصوص بمسكن الزوجَيْن . وقد أنكر المازري هذه العملية . انظر أيضاً تعقيب المازري على فتوى السيوري حول العرف الجاري بقفصة ، المعيار ، 104/9-105 : حسب العادة الجاري بها العمل في زويلة والمهدية ، يدخل مسكن الزوجين ضمن جهاز النساء .

(50) فتوى المازري ، المعيار ، 243/3-244 . البرزلي ، المخطوط المذكور 65/2 ظ ، 66 و ، المختصر ، 52 .

(51) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 227/3 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 52/2 ظ ، زوّج رجل ابنته بصداق قدره 100 دينار وتعهد بإعطائها جهازاً بمقدار 100 دينار .

فتوى المازري ، المعيار ، 243/3-244 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، المختصر ، 52 ، زوّج رجل ابنته مقابل صداق ، نقد ومهر ، وتعهّد بمقتضى التزام مدوّن في عقد النكاح بأن يوفّر لها جهازاً بمقدار 2000 دينار مهدوية (المعيار : مهريّة) . وحسب العادة الجارية بها العمل في المهدية وزويلة ، أيّ شخص ثريّ يزوّج ابنته البكر ينبغي أن يتعهّد بإعطائها جهازاً يساوي قيمه الصداق المسمّى ، سواء ورد هذا الشرط في العقد أم لا ، وفي الصورة الثانية يكون التعهد ضمنيّاً ومقرّراً حسب العرف الذي يعلمه الطرفان . ويرى المازري من المستحسن إثباته في العقد بصريح العبارة ، اجتناباً لأيّ اعتراض .

فتوى المازري ، المعيار ، 229/3-230 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 23/2 و : اشترط الزوج للدخول على زوجته تقديم جهاز يساوي قيمة الصداق المطالب بتسديده . ويرى الفقيه أنه ينبغي أن يطرح من الصداق ما يعادل الجهاز المقابل لذلك الصداق .

وحسب فتوى أخرى لنفس الفقيه ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 66/2 و ، استثنى أب بعض القطع من رَحْل ابنته « على قدر الصداق » .

وحسب فتوى أخرى للمازري ، المعيار ، المخطوط المذكور ، 27/2 و ، استحوذت امرأة بعد شهرين من زواجها على الرّحل (الحُروق) خوفاً من أن يفرّ الزوج ويتركها بلا مهر . وقد احتجّ الزوج مصرّحاً بأنه لا ينوي الفرار وأنه غير مطالَب بدفع المهر بعد مدّة قليلة من إتمام الزواج . وقد لاحظ المازري بلباقة كيف تغيّرت الأعراف منذ سحنون !

إذا غاب عن المهدية وزويلة أكثر من أربعة شهور متتالية ، دون أن يوجّه إليها مالاً[52] .

وعلى وجه العموم ، يمكن للزوج بعد الدخول على الزوجة أن يغيب مثلاً في صقلية أو الأندلس أو المشرق ، ما دام يوفّر « النفقة » لزوجته وأبنائه . فإذا توفّر هذا الشرط ينكر الفقهاء الصنهاجيون على المرأة المهجورة حقّ الطلاق[53] . إلاّ أنه من المحتمل منذ ذلك التاريخ ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الزواج على عادة أهل القيروان ، أن يعترف الزوج مسبّقاً لزوجته بحقّ تطليق نفسها إذا تجاوز غيابه مدة معيّنة[54] .

ويحقّ للسلطان تزويج فتاة لا يعرف الناس مأتاها[55] ، أو هاجر أبوها إفريقيّة وانقطعت أخباره[56] .

وقبل الدخول على العروس تقام وليمة اسمها « طعام النكاح » أو « طعام العرس »[57] . ويبدو أنها كان تُسمّى أيضاً ـ على الأقلّ في مدينة تونس ـ « فرق »[58] .

وأثناء حفل العرس تُعَرْقَب أحياناً بعض الجمال أو الثيران[59] ، كما تقام بعض الحفلات يوم سابع العرس[60] .

---

52) فتوى المازري ، مؤرّخة في 515 هـ/ 1121-1112 م ، المعيار ، 3/234-235 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/61 ظ ، 62 و .

53) فتوى المازري ، المعيار ، 3/244-247 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/50 و ، 51 ظ ، فتوى القابسي ، البرزلي ، نفس المصدر ، 2/57 و : غاب زوج بصقلية 5 سنوات قبل إتمام الزواج .
فتوى أبي محمد (بن أبي زيد) ، المعيار ، 3/202 : تعهّد زوج كان في حالة سفر بأن يطلق سبيل زوجته ، إذا لم يرجع في بحر تلك السنة . وبعد انقضاء الأجل تخلّت المرأة المهجورة عن صداقها وتزوّجت رجلاً آخر .
وقد حدّد ابن أبي زيد مدة غياب الزوج بأربع سنوات (الرسالة ، 186-187) .

54) برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 2/175] .

55) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 3/89 ، 227 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/37 و . وفتوى أبي محمد (ابن أبي زيد) ، المعيار ، 3/202 .

56) فتوى أبي محمد (ابن أبي زيد) ، المعيار ، 3/98 ، 201 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/57 ظ : غادر رجل من أهل القيروان إفريقية متّجهاً إلى صقلية وترك بنتاً بكراً ترغب في الزواج . الجواب : تُعرَض القضية على القاضي الذي يكاتب الأب ، فإن لم يُعثَر عليه ، يزوّجها السلطان .

57) وافق المازري على هذه العادة ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/97 و .

58) مناقب أبي إسحاق الجبنياني ، 299 ، هامش 57 . [يطلق اسم « الفرق » في العهد الحديث بمدينة تونس على الموكب الديني الذي يقام في بيت الهالك في اليوم الثالث من وفاته] .

59) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 2/20 .

60) أشار مقديش إلى عادة كانت شائعة بمدينة صفاقس في عهد متأخّر (عصر الكرّاي) ، فقال : « وكانت عادتهم أنهم يخرجون =

ويجوز للزوج تأديب زوجته برفق . وحسب رأي القابسي يجب عليه أن يعاملها كما يعامل المؤدّب تلاميذه ، بلا غضب ولا انفعال(61) .

وتوضّح لنا فتوى مطوّلة لأبي عمران الفاسي(62) قضية شبه احتجاز المرأة الحضرية في البيت ، وما تحاول بعض النساء أحياناً اتخاذه من احتياطات لجبر أزواجهن على الالتزام بتعهّدات تضمن لهنّ حدّاً أدنى من الحرية . من ذلك أن زوجاً قد التزم بتحرير زوجته من الرّوابط الزوجية إذا منعها من زيارة « محارمها » أو قريباتها أو حضور موكب « فرح » أو « حزن » أو أداء واجباتها نحوهم في الوقت المناسب أو منعهم من زيارتها في مثل تلك المناسبات . كما طالبت زوجة أخرى بزيارة أهلها كلّ يوم أو ثلاثة أيّام ، فرفض الزوج واقترح أن تكون الزيارات متباعدة أكثر ، فماذا ينبغي أن يكون نسق تلك الزيارات ؟ وهل يتمتّع الأبَوان بحقّ الأفضليّة ، أم ينطبق عليهما ما ينطبق على غيرهما من الأقرباء ؟ وهل تقتضي الزيارات وحضور الأفراح والمآتي أن تبيت الزّوجة خارج بَيْتها ؟ .

أجاب أبو عمران الفاسي على هذه الأسئلة معتبراً أنّ الوالدَيْن والإخوة يستطيعون استقبال الزوجة في أكثر ما يمكن من المناسبات ، ثم يأتي الأقرباء الآخرون ، وتكون زياراتهم متناسبة مع درجة القرابة . وينبغي اعتبار العرف واجتناب أيّ شطط في هذا الشأن . ويحسن بالزوج من حيث المبدأ أن لا يسمح لزوجته بالخروج من بيتها ، إلاّ عند الضرورة وفي الحالات التي لا يجد فيها أيّ مطعن . على أنه من الأفضل اجتناب مثل هذه الشروط المثيرة للنزاع ، والتي يأبى الفقهاء إدراجها في العقود أو جعلها موضوع شهادات . ويجوز للمرأة أن تبيت خارج بيتها بمناسبة الأفراح والمآتم بوجه خاصّ ، لأنّها غير مضطرّة إلى ذلك أثناء الزيارات العادية التي تقوم بها في المدينة . وإذا جرت أعمال مكروهة أثناء موكب زفاف أو مأتم ، يحقّ للزوج أن يمنع زوجته من الحضور .

ولا يحبّذ العلماء تردّد النساء على الحمّام ، لا سيما وقد اعتدن التجرّد من ثيابهنّ بتلك المناسبة . كما يعترض الزوج أحياناً على ذهاب زوجته إلى الحمّام العمومي أو يستأجر لها حمّاماً لتغتسل فيه بمفردها(63) .

سابع العرس مصطفّين من باب البحر ، يدورون خارج البلد ، ويدخلون من باب الجبلي ، بعدما يكون اجتماعهم بحومة العروسَيْن ، وإلى الآن تسمّى بذلك الاسم » ، نزهة الأنظار ، (الطبعة الحجرية 2/151-152) ، [الطبعة الجديدة ، 335/2] .

61) فتوى القابسي ، المعيار ، 213/2 .

62) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 3/86-87 .

63) الرسالة ، 306 ، وذكر المقدسي ، 46-47 ، أنّ أهل المغرب يدخلون إلى الحمامات العمومية بلا ثياب ، إلاّ ما قلّ وندر . =

ومما لا شكّ فيه أن المرأة الحضريّة كانت تحتجب[64] . ولا يجوز إكراه الزوجة الحرّة على السكن في بيت الحمو . وكذلك الشأن بالنسبة إلى « أمّ الولد » التي لا يتعينّ عليها خدمة والديْ مولاها[65] .

وفي صورة نشوب خلاف بين الزوجين ، ينبغي تعيين حكَمَيْن ، أحدهما من أهل الزوج والآخر من أهل الزوجة ، ليصلحا بينهما[66] ، مِصْداقاً لقوله تعالى : ﴿ وإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ، إنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا ، إنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾[67] . أمّا بالنسبة إلى العامّة ، فيُعَوَّض الحكمان بامرأة أمينة تنتصب في بيت الزوجين لتراقب حركاتهما وسكناتهما . وقد أدان أحد الفقهاء هذه العادة ، لأنّها منافية للكتاب والسنة[68] .

وفي صورة الطلاق قبل إتمام الزواج ، يتعينّ على الزوج دفع نصف المهر[69] . ولكن هناك عادة محلّيّة تفرض على المُطلّق أن يدفع حالاً نصف مجموع الصداق ، دون انتظار أجل دفع النصف

فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 59/1 و .

وفتوى السيّوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 59/1 و ، المختصر ، 8 و . ظ : يتروواح معلوم « إخلاء » الحمّام بين درهم ودرهم ونصف . وفي بيت شعر لابن رشيق حول الحمّام (الشريشي ، شرح المقامة الحريرية ، 54/1) ورد ذكر : بيت الحوض وبيت الطهور [المطهرة] . وانظر النادرة الواردة في معالم الإيمان (141/3-142) حول الحمام في العصر الصنهاجي ، انظر أيضاً ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 376/2 .

64) المعالم ، 141/3-143 : كشفت امرأة خارجة من الحمام عن وجهها ولم تظن أنّ أحداً ينظر إليها ، فلما رأت أحد طلبة الأندلس سترت وجهها . .

65) فتوى المازري ، المعيار ، 229/3 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 105/2 و .

66) البرزلي ، المخطوط المذكور 91/2 ظ .

67) سورة النساء ، الآية 34 .

68) فتوى أبي حفص بن العطّار ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 90/2 و . وجاء في المعيار ، 344/2-346 أن « الرافضة من أتباع ابن المسرّة » تخلّوا عن الفريضة وعوّضوا الحَكَمينْ بامرأة أمينة . انظر ، حول تشيّع ابن المسرّة ، محمود علي المكي ، التشيّع في الأندلس ، 108-109 .

69) لا كلّ الصداق . فتوى القابسي ، المعيار ، 123/3 : زوّج رجل ابنته البكر بصداق قدره 200 دينار معجّلة و 100 دينار مؤجّلة ، وقد انقضت سبع عشرة سنة دون أن يدخل الزوج على زوجته . ولما أُخطِر بوجوب إتمام الزواج ، أجاب أنّه أقسَم بأن يطلّق زوجته إذا لم يُسعَفْ بتخفيض المائة دينار المؤجّلة . ورأى القابسي أنه يحقّ لأهل العروس رفض أيّ تخفيض . ويجوز للزوج ، إذا رغب في ذلك ، أن يدخل على زوجته ويدفع الصداق ثم يطلّقها وفقاً لقَسَمه . وإذا فضّل الانفصال عنها قبل الدخول عليها ، يتعينّ عليه دفع نصف المائة دينار . ولكن من المستحسن أن يقبل الأب التخفيض الذي يسمح به بعض الفقهاء .

المؤجّل[70] . ومن المعلوم بالنسبة إلى الطلاق بالثلاث ، أنّه لا يجوز شرعاً للزوج إرجاع زوجته إلاّ إذا تزوّجها رجل آخر[71] . وقد احتجّ المازري بشدّة على رجل من أهل تونس أراد ، استناداً إلى رأي سعيد بن المسيّب إرجاع زوجته المطلّقة بالثلاث (مبتوتة) ، بعد أن تزوّجها رجل آخر بمقتضى عقد شرعي ، دون أن يدخل عليها[72] .

وتزوّجت أمَةٌ غلامَ مولاها بعد وفاة هذا الأخير ، وأنجبت منه بنتاً ، فأراد ابن الهالك الاقتران بها ، وقد منع السيوري هذا الزواج[73] .

واشترى رجل « خادمة روميّة » في المهديّة ، ووهبها لابنه الذي أعتقها بعدما أنجب منها عدّة أطفال ، ثم تزوّجها بصداق مسمّى[74] .

وكان أحد البرجوازيين الأثرياء يربّي أَمَة ليجعل منها فيما بعد « أمّ ولد »[75] .

وممّا تجدر الإشارة إليه أخيراً أن قبريّات بني زيري قد تضمّنت أسماء بعض النساء الصنهاجيّات مثل : سيّدة الجميع ، وستّ السيّد ، وستّ الأهل ، وزين الدّار[76] . وهناك عدّة أسماء تبدأ بلفظ « أمَة » (مؤنّث عبد) ، يتبعه اسم من أسماء الله الحسنى مثل : أمة الحقّ ، وأمة العزيز ، وأمة العظيم ، وأمة الرحمان . . .[77] .

---

70) فتوى السيوري ، **المعيار** ، 208/3 ، البرزلي ، **المخطوط المذكور** ، 105/2 ظ : إذا كانت تلك هي العادة ، فإن الزواج باطل ولا يتضمّن أيّ صداق .

71) **الرسالة** ، 182-183 ، 184-185 .

72) فتوى المازري ، **المعيار** ، 249/3-251 ، البرزلي ، **المخطوط المذكور** ، 99/2 ط ، 100 و ، **المختصر** ، 2 ط ، 3 و ، **مخطوط الجزائر** ، 11/1 ظ ، 13 و .

73) فتوى السيّوري ، **المعيار** ، 204/3 ، البرزلي ، **المخطوط المذكور** ، 53/2 ظ .

74) فتوى القابسي ، **المعيار** ، 120/3-121 .

75) **معالم الإيمان** ، 142/3-143 : حكاية الصبيّة التي ربّاها ابن أبي زيد ليتزوّجها فيما بعد رغم تقدّمه في السنّ . وقد أعطاها ، مع ما تحتاج إليه من ثياب وحليّ وفروش ، لأحد طلبة الأندلس ، وهو إمام مسجد الشيخ ، كان قد رآها خارجة من الحمّام ، « فأخذت من نفسه مأخذاً عظيماً » . وفي نفس الكتاب حكاية أخرى مفادها أنّ ابن أبي زيد قد زوّج ابنته لطالب ، كانت قد باتت في بيته ، إذ أدركها الليل وهي خارجة من الحمّام ، فدخلت إلى أوّل بيت اعترضها . ولمقاومة أيّ إغراء ، أحرق الطّالب أصابعه « بذبالة المصباح » . ويبدو أن هذه القصة الثانية تحريف للقصّة الأولى التي تكتسي هي نفسها صيغة خرافية ، بصورة تزيد أو تنقص .

76) يبدو أنّ هذه العبارات هي صفات أُثبتت عمداً في القبريّات عوض أسماء المتوفّيات ، انظر ، **نقائش عربيّة** ، 341/1-342 ، انظر أيضاً ، برنار روا ، المجلة التونسية ، 1918 م ، 91 .

77) سليمان مصطفى زبيس ، Corpus ، 71/1 ، هامش 129 ، **ونقائش عربيّة** ، 386/1-387 ، 406-407 .

الفصل الثالث
الغــذاء[1]

الأطعمــة :

كان الخبز المعجون في البيت يُحمَل على « لوح العجين »[2] إلى الفرن الذي يشرف عليه الفرّان . ويسهر المسؤولون على أن يكون وزن الخبز المباع في السوق مطابق للوزن المحدّد[3] . ويمكن أن يكون الخبز من السميد[4] .

وكثيراً ما يُقلَى الشعير والقمح والفول ، ولا شكّ أيضاً الحمص[5] . وتُصنَع البسيسة من « الدقيق المقلوّ » والزيت والماء[6] . كما تُطْبَخ العصيدة بالحنطة والزبدة والعسل[7] . ولم يرد في أيّ نصّ من النصوص الصنهاجية التي بين أيدينا ، ذكر الكسكسي الذي أشارت المصادر إلى وجوده في العصر الحفصي[8] . فهل يمكن أن نستنتج من ذلك أن هذا الطعام غير المعروف في المشرق والمُمَيِّز للطبيخ المغربي ، لم يظهر إلا فيما بعد ؟[9] ويبدو أن الدشيش هو نوع من حساء الشعير المدقوق ،

1) انظر ، E.G. Gobert ، المراجع التاريخية للأغذية التونسية ، الكراسات التونسية ، 1955 ، 501-542 .
2) فتوى أبي حفص ابن العطّار ، المعيار ، 200/8 .
3) فتوى اللخمي ، المعيار ، 347/6-348 ، رياض النفوس ، خبز فرني [طبعة بيروت ، 408/2-409] .
4) معالم الإيمان ، 153/3 [السميد] ، محمد الطالبي ، أرابكا ، 299/3 ، وحسب تحفة العقباني ، كانت تباع في إفريقية في القرن الثاني‌عشر م . ثلاثة أنواع من الخبز : خبز الدقيق « دُقاق » ، وخبز السميد « والحسكار » (الدقيق الأسمر) ، خلافاً لمصر وسوريا حيث لم يكن يوجد هناك سوى نوع واحد من الخبز ، وهو المصنوع من طحين القمح ، ولا تطرح منه إلا « النخّالة الكبيرة » .
5) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 90 ظ و 91 و ، وفي فتوى اللخمي ورد ذكر « دقيق مقلوّ » ، البرزلي مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب 145/2 و .
6) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 52/1 ، 338] .
7) نفس المصدر : عصيد [طبعة بيروت ، 34/2] .
8) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي [الترجمة العربية ، 282/2] .
9) لم يشر إليه الكاتب المشرقي المقدسي المعروف بحبّ الاطّلاع .

يُفتّت فيه الخبز ويُسمّى بـالمرق[10] . وهـو يشبه الجشيش المصنوع من الشعير والمصنوع في الفرن[11] . ويسمّى الدقيق الأبيض المستخرج من الحنطة : حوّارة (أو حوّاري)[12] ، ويسمّى الدقيق الغليظ : سُوَيْق[13] . ولا شكّ أن الجَرْدَق (ج: جرادق) كان يعني ، كما هو الشأن الآن في باجة مثلاً ، الرغيف الرقيق المخبوز في التّنور[14] . وورد في إحدى الفتاوى[15] ذكر جهة يقتات أهلها الزبيب والقطاني[16] والجبن واللبن والدُّخْن والرزّ والعَلَس .

الحلـويّـات[17] :

تُصنَع الغسّانية من السميد والعسل والزعفران و « حوايج أخرى »[18] . وأشارت المصادر إلى الكعك الذي توجد منه عدّة أنواع[19] ، والسفنج أو الأسفنج الملبّس بعسل جلولة ، ويبدو أنه مرادف للزّلابيّة[20] ، وأطباق اللّوزينج المرشوش بالسكر[21] وقرص السميد بالعسل[22] ، والقُبّاط المحشوّ باللّوز ، عند الاقتضاء[23] . وأحياناً تُحلّى الثردة بالسكّر وتُعَطّر بماء الورد والكافور[24] .

---

10) المدارك ، 2-72/3 و ، وحول الدشيشة وهو نوع من الكسكسي المصنوع من دقيق الشعير ، انـظر ، Beaussier ، المعجم ، 335 .

11) رياض النفوس [طبعة بيروت 297/1] .

12) نفس المصدر ، [طبعة بيروت 196/1] ، وفي موضع آخر : خبز نقي .

13) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 90 و ، والمعجم ، 504 .

14) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 531/1] .

15) فتوى السيوري ، المعيار ، 55/2 .

16) انظر القائمة في : Fagnan ، إضافات ، 144 .

17) بساط ، 25 ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 300-301 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 284/2 .

18) معالم الإيمان ، 107/3 ، 108 ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 448/2] .

19) معالم الإيمان ، 108/3 ، رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 294/2-295] .

20) معالم الإيمان ، 12/3 ، 104-105 ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 80 و ، 97 ظ ، [هذا النوع من الإسفنج المعروف إلى الآن باسم فطائر العسل يختلف عن الزلابيّة] .

21) المدارك ، 2-27/3 و ، دوزي ، الذيل ، 557/2 : نوع من الطعام شبيه بالقطايف يطبخ بزيت اللوز .

22) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و .

23) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 396/2] ، دوزي ، الذيل ، 302/2 : المُلَوّن ، أمّا قراءتنا فهي : المُلَوَّز ، أي المحشوّ باللوز .

24) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 360/1] .

ويبدو أن الفالوذج[25] هو نوع من الحلويات المصنوعة من النشا والماء والعسل . ويُمضَغ القصب السكري (أو القصب الحلو) قطعةً قطعةً[25م] ، ويستخرج منه ـ حسبما يبدو ـ نوع من الشراب[26] . وكان رجل إباضي طاعن في السنّ قد خارت قواه حتى أصبح عاجزاً عن الطعام ، فكان يسعى إلى استرجاع قواه بتناول شراب الجُلاّب ، وهو نوع من شراب العسل أو الزبيب (؟)[27] ، وكان يُصنَع أيضاً شراب الورد والبنفسج[28] .

الخمر :

كان النّصارى يبيعون الخمر للمسلمين من ذوي الأخلاق الفاسدة رغم احتجاجات الفقهاء[29] . فقد تحدّثت فتوى للمازري عن عطّار طلب استرداد ماله من وَرَثة رجل كان قد زوّده بالخمر وبأشياء أخرى[30] . ويبدو أنّ النبيذ (المستخرج من الزبيب) قد صار مهجوراً[31] .

---

25) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 396/2] ، معالم الإيمان ، 182/3 : قِطَع فالوذج .

25 م) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 182/2] ، المدارك ، 2-85/3 ظ .

26) فتوى أبي حفص ابن العطّار وأبي عمران الفاسي البرزلي مخطوط الرباط ، 77/2 و ، ومخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 230/2 ظ .

27) يتعلق الأمر بأبي عبد الله محمد بن داوود (ت . 555 هـ/1160 م) ، الشماخي ، 450 ، نلاحظ استعمال كلمة « زجاجة » (قدح من البلوّر) .

28) فتوى أبي حفص بن العطّار وأبي عمران الفاسي ، البرزلي ، مخطوط الرباط 77 و ، ومخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 230/2 ظ . انظر أيضاً ، قطب السرور ، مخطوط باريس ، 165 : عدّد زيادة الله الأغلبي الأشربة التالية : شراب الورد ، شراب الجُلاّب ، مطبوخ العنب ، مطبوخ الزبيب ، نبيذ العسل ، نقيع الزبيب ، نبيذ زبيب طرقوني (ربّما نسبة إلى طرقونة ، البلدان ، 44/6) ، مُقْنَع مضروب بالعسل .

29) فتاوى أبي محمد بن أبي زيد واللخمي والمازري ، المعيار ، 9/414-415 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 101/2 و ، 223 و . وقد باع العابد أبو الحسن الدباغ (ت . 359 هـ/969-970) فندقا كان يملكه وتصدّق بجميع ثمنه ، لأن رجلاً قد شرب فيه مسكراً ، معالم الإيمان ، 94/3 .

30) المعيار ، 245/10 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 188/2 و .

31) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 35 ، كان الحنفيون يعتبرون النبيذ حلالاً ، وكان الناس يستهلكونه في العهد الأغلبي ، الرقيق ، قطب السرور ، 164 ظ . وما بعدها ، وفي رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 479/2] ، ورد ذكر زوج فراخ يأكلان « حبّ الزبيب الذي يطرحه النبّاذون » ، وذلك في عصر السّبائي (ت . 365 هـ/966-967 م) . وفي عصر عبد الله بن طالب ، قاضي محمد بن أحمد بن الأغلب (250-261 هـ/864-875 م) ، كانوا يستعملون في قابس القدور النحاسية لطبخ النبيذ ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، الكرّاس 32 ، ص 6 ظ .

وكان حيّ المومسات بالقيروان يسمّى البقريّة . وقد جاء في بعض المصادر أنّ الشاعر بكر بن علي الصابوني (ت . 409 هـ/ 1018-1019 م) دخل على صاحب له في محلّ قِيان ، « فوجد عنده جماعة من إخوانه يشربون ، منهم ابن أبي حفص الكاتب ، ورأى برذونه (جواده) قائماً في السقيفة . فقال له بكر : كم لكم ها هُنا ؟ فقالوا : كذا وكذا يوماً ، فشرب معهم نهاره أجمع وليله وأراد الانصراف من الغد ، فافتقد رداءه ودراهم كانت معه ، وسأل القوم فما وقع على عين ولا أثر ، فقال لابن أبي حفص : سألتك بالله إلاّ ما نزلتَ بنا إلى هذا العبد الصالح فاستوهبتَ لنا منه دعوة بأن يفضح الله سارقنا أو يجمع علينا ما راح منّا ، فإنه صائم النهار قائم اللّيل . فقال ابن أبي حفص : وأيّ عبد يكون هذا ؟ قال بكر : برذونك يا سيّدي . فضحك الجماعة وجبروا ما ضاع له »[32] .

وفي بجاية أهرق المهدي الخمر الذي كان يباع في باب البحر[32م] وفي نفس المدينة فرّق بين الرجال والنساء اللذين كانوا مختلطين في البطحاء يوم عيد ، ومنع الرّجال من التزيّن بزيّ النساء . ولا شكّ أن الأمر كان يتعلّق بمحترفي الشّذوذ الجنسي[33] .

المـآكـــل :

ممّا لا شكّ فيه أن اللحم لم يكن يمثّل الغذاء الرئيسي بالنسبة إلى أهل إفريقية ولا سيما منهم العامّة[34] ، كما هو الشأن الآن . وفي البادية كان معدّل حصّة الفرد من الطّعام يتمثّل في « مُدّ قمح » في اليوم ، أو كميّة أكبر من الشعير في المناطق التي تستهلك هذا النوع من الحبوب ، وستّة أثمان من الزيت والخضر ، وشيء من اللحم خلال يومين أو ثلاثة أيّام في الأسبوع . وكان كثير من الناس لا يأكلون اللحم مدّة أسبوع أو أكثر . وبالعكس من ذلك كان أهل المدن يستهلكون كمية أكبر من اللّحوم[35] . وكان لحم البقر يدخل بالخصوص في تركيبة وجبة أهل البادية[36] . ولا شكّ أن السّمك كان يمثّل الغذاء الرئيسي في المناطق الساحليّة . كما كان لحم الطريدة يمثّل غذاء تكميليّاً

---

32) معالم الإيمان ، 118/2 .

32م) البيلق ، 53 .

33) انظر ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية 177/2] .

34) نفس المرجع ، [الترجمة العربية ، 282/2] .

35) فتوى القابس ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 86/2 ظ .

36) حسب ابن رشد ، البرزلي ، المختصر ، 31 ظ .

هامّاً هنا وهناك ، ويوضّح القابسي أن طيور الصيد التي تباع في السوق بلا رؤوس ، يجب أن تُذَكّى قبل قطع رؤوسها[37] .

وفي المناطق الجنوبية ، مثل قسطيلية (توزر ومنطقتها) ونفطة وقفصة بلا شكّ ، كان لحم الكلاب يملأ مناضد الجزّارين . وكان سكّان تلك المناطق متّهمين بوضع ذلك اللحم في هريستهم (ج: هرائس)[38] . والهريسة هي عبارة عن عجين مركّب من حبات قمح وقطع لحم « مهروسة » (أو مسحوقة) ، بعد طبخها[39] . وكان ابن أبي زيد يشتري الهريسة من السوق . وكان بائعها يسمّى الهريسي[40] . وكان الثريد أو الثردة يطلق على نوع من الحساء الذي يفتّت فيه الخبز . وقد أشار بعض المصادر إلى صحفة ثريد مع خبز قمح ، تعلوها قطعة لحم خروف سمين[41] ، وإلى ثريدة بالشمندر[42] ، وثريدة بلحم الخروف ، مع سلق وحمص[43] .

ويتمثل البيسار في فول يطبخ مع الزبدة والحليب ، ويُجمَّد عندما يبرد[44] . وتُطبَخ الفقّاعية باللحم[45] . وإليك فيما يلي وصف بعض المآكل الأخرى ، وهي : السماصاخية والحريرة ، أي بلا شكّ حساء بالفلفل والثوم[46] ، والكواكبيّة ، وهي سلق وحمص[47] ، والنيسابوريّة ، وهي سلق وجزر (السفنّارية)[48] ، والفستقية ، وهي سلق وفول[49] ، والإفريقية وهي دجاجة مطبوخة بزيت الزيتون[50] .

---

37) المعيار ، 3/2 ، الرسالة ، 158-161 .

38) المقدسي ، 60-61 ، البرزلي ، المختصر ، 31 ظ . وحسب ابن رشد ، يرجع سبب « هرش » المغاربة إلى استهلاكهم للحم الكلاب .

39) فتوى اللخمي حول جواز شراء اللحم والهريسة من جزّار غنيّ أو فقير ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 137/1 ظ ، ومخطوط الرباط ، 48/2 ظ . انظر أيضاً ، السقطي ، 36 والمعجم ، 69 .

40) فتوى القابسي ، المعيار ، 436/9 .

41) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 48 و .

42) نفس المصدر ، 93 و ، 91 ظ .

43) يتعلق الأمر بطعام أعدّه أبو القاسم البرادعي (توفي بعد سنة 386 هـ/996 م) ، رياض النفوس ، 1/ المقدمة 42 ، عن المدارك .

44) رياض النفوس [طبعة بيروت 32/26].

45) معالم الإيمان ، 153/3 .

46) رياض النفوس : سما صاحية ، (وهي الحزيرة) ، [طبعة بيروت ، 101/2] .

47) نفس المصدر .

48) نفس المصدر .

49) نفس المصدر .

50) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 120/2] : دجاجة إفريقية

كما ذُكِرَت المآكل التالية ، دون توضيح نوعيّتها ، وهي : الإسكباج[51] ، والإطريّة[52] ، والبرزق (ج: برازيق)[53] ، والحساء[54] ، والهبيص[55] ، والكنافة[56] ، والسخينة[57] ، والسكباجة[58] ، والسنبوسق[59] .

وكان الروّاس يبيع بلا شكّ رؤوس الخرفان المشوية في الفرن[60] . وكان الناس يملّحون الزيتون[61] . وقد أشارت المصادر إلى التوابل التالية[62] : الفلفل والكرويّة والزعفران والقرطم والخردل . ولا شكّ أن أهل البادية ـ كما هو الشأن الآن ـ كانوا يستهلكون عدداً كبيراً من الثّمار والخضر البريّة[63] .

---

51) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 408/2] ، إسكباج : هكذا في الأصل ، [وفي المعالم ، 62/3 : سكباج] .

52) رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 409/2] : لحم بإطرية .

53) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 17/2] .

54) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 31 و .

55) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 59 و .

56) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 168/2] ، وفي بساط ، 25 : لحم مبلّل ومطبوخ بالبخار .

57) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 360/1 : طعام رقيق يتّخذ من دقيق] .

58) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 98/2] .

59) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 389/2] : « كنت أشتهي الساعة أن آكل معك لحماً مطبوخاً بلفت وبعده سنبوسق » .

60) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 536/1] .

61) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 48 و .

62) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 120/2 و ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2 و ، ظ ، المختصر ، 82 ظ .

63) في فتوى لابن الصائغ (البرزلي ، مخطوط الرباط 120/2 و ، ومخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263 ، وظ ، والمختصر ، 82 ظ) ورد ذكر الأسماء التالية : البلّوط ، البُطْم ، النّبق (ثمر العنّاب البرّي أو السّدرة) ، الخرّوب ، الجربير.

الفصل الرابع
اللّبـــاس[1]

كان غطاء رأس الخاصّة يتمثّل عادة في العمامة ، وهي عبارة عن شريط مستطيل من القماش ملفوف حول الرأس . وكان فقهاء المالكيّة ، وفقاً لتعاليم مذهبهم ، يستنكرون لباس العمامة بلا رداء . وكان طرف العمامة (الذؤابة) يحيط بالعنق . وقد لاحظ ابن أبي زيد أن الأتراك هم الذين كانوا يتعمّمون بهذه الطريقة . ولا يجوز « حنق » العنق بهذه الصورة ، إلاّ إذا كانت العمامة مغطاة بالرداء[2] . ويمكن أن نتساءل هل كانت هذه التوصية متّبعة من طرف غير الفقهاء مثلاً ؟ ويبدو أن هذا الرداء مطابق لما يسمّى بالطيلسان . ولكن المقدسي أشار إلى أنّ المغاربة يرتدون لباس المصريين، ولا يلبسون الطيلسان، إلاّ ما قلّ وندر[3]. وكان التجّار يتفنّنون في لباسهم ويتعمّمون بالعمامة[4] . وكان أهل قابس « يشدّون عمامتهم » بطريقة مخالفة للطريقة المعمول بها في القيروان[5] . ولكنّ المصادر لم تصفها لنا .

وأخبرنا أحد المؤلّفين أنّ إباضياً من جبل نفوسة كان يرتدي ثوبَيْن أي قميصين معقودين في طَوْق واحد ، وعمامة جميلة وكساءً من سجلماسة[6] . وكان رجل معاصر للمعزّ بن باديس يرتدي « الطّاق »[7] ، عندما يكون في بلده زواغة ، ويرتدي العباءة عندما يتحوّل إلى جبل نفوسة[8] .

---

1) انظر ، L. Golvin ، المغرب الأوسط ، 169-175 .

2) رياض النفوس [طبعة بيروت 247/1] ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 م ، 298 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 127/1 ظ ، الغبريني ، 117 ، الشماخي ، 334 ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 288/2] .

3) المقدسي ، 46-47 .

4) المدارك ، 2-178/3 ظ .

5) « كان لأبي الحسن القابسي عمٌّ يشدّ عمامته بشدّ قابس ، فسمّي بذلك » ، معالم الإيمان ، 168/3 ، انظر أيضاً ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقيّة ، 1954 ، 173 .

6) الشماخي ، 334 .

7) رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 108/1] : الطاق (ج . طيقان) ، ويطلق هذا الاسم على الطيلسان .

8) الشماخي ، 337 .

ويبدو أن « الكرزيّة »[9] ، التي يكون لونها أحياناً أسود ، هي عمامة من نوع بدائي . وتسمّى قطعة القماش التي تصنع منها العمامة ، المنديل[10] . وأشار أحد المصادر إلى استعمال القطن والكتّان لصنع ملابس العيد التي يرتديها الزّوج ، وهي متركّبة من ملحفة ومنديل[11] . ويبدو أن كلمتيْ « أسماط » و « شروق » كانتا تطلقان على بعض الملابس الفاخرة[12] .

وكان العامّة يضعون على رؤوسهم قلنسوة (ج: قلانس) ملوّنة[13] ، وبالخصوص طاقية من الصوف أو شاشية (ج: شواشي)[14] . وكان أحد المتعبّدين يشتري الشواشي للأطفال الفقراء[15] . ولا بدّ أن لونها كان أحمر ، وعلى كلّ حال ، فإن أحد سكّان الساحل كان يلبس شاشية حمراء[16] .

وكان بنو حمّاد في بجاية يتعمّمون بعمائم من الشّرب (كتّان رقيق) مطرّزة بالذهب ، يمكن أن يبلغ ثمنها 600 دينار فما فوق . وكانت ملفوفة ومشدودة شدّاً ، حتى يُخيَّل للناظر أنّها تيجان . وكان بعض الحرفيّين المختصّين في صنع تلك العمائم يتقاضون دينارَيْن وأكثر عن كلّ عمامة . وكانت لهم قوالب خشبيّة في دكاكينهم تستعمل لهذا الغرض وتسمّى الرؤوس[17] . وقد اشتهرت

---

9) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 35/2] .

10) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 35/2 ، 408/2] : منديل مهلّبي . البرزلي ، مخطوط الرباط ، 67/2 و ، المدارك ، 15 و ، 72 ظ ، 90 ط . وحول لباس الوزراء الفاطميين ، انظر ، الخطط ، 304/2 . وحول الفرق بين كساء ومنديل ، انظر ، المقدسي ، 48-49 .

11) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 67/2 و : ويضيف المؤلف : ويبعث إليه صهره بكساء وملحفة ومنديل لارتدائها في الأفراح والأعراس ، وهناك قبريّة تحمل اسم الملاحفي (صانع الملاحف) ، نقائش عربية ، 369/1-370 .

12) معالم الإيمان ، 123/3 .

13) المقدسي ، 48-49 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 292/2 . لم تشر المصادر في العصر الصنهاجي إلى وجود « القلنسوّة الطويلة » ، التي غالباً ما تسمى « الطويلة » ، وهي غطاء رأس الارستقراطية الأغلبية والفاطمية . ولا يمكن أن نستنتج من ذلك أنها انقرضت ، المدارك ، 12/3/2 ظ . « قال ابن بسطام كان لسحنون قلنسوة طويلة ربّما لبسها . . . وقال سليمان بن سالم : رأيت لسحنون ساجاً (نوع طيلسان) كحيلاً وساجاً وقلنسوة زرقاء وَشْياً وقلنسوة تشبه الأغلبي ، فإذا قعد للسّماع لبس رداء وقلنسوة الأغلبي ، وإذا شهد الجمعة لبس السّاج وقلنسوة ، وإذا حضر جنازة لبس الساج الأزرق والقلنسوة الزرقاء » ، الحلل السندسية [طبعة بيروت ، 757/1] .

14) أشارت المصادر إلى وجود الشاسية بالقاهرة في عهد المعز والحاكم ، الخطط ، 217/2 : « شاشية مرصّعة في غلاف » ، 333 : « شاشية مرصّعة » . وفي نفس المصدر ، 5/3 ، إشارة إلى عمائم ملفوفة حول الشواشي في عهد الحاكم .

15) معالم الإيمان ، 160/3 .

16) الشماخي ، 390-391 .

17) الاستبصار ، الترجمة 34 .

الملابس المصنوعة في قلعة بني حمّاد بجودتها ورقّتها ، وكان لباس العيد المصنوع في تلك المدينة يسوى ثلاثين ديناراً[18] .

وعندما أقام ابن تومرت في بجاية منع انتعال الأقراق ذات السيّور المذهّبة (أقراق زرّاريّة) والتعمّم بعمائم « الجاهلية » ، وحرّم على الرجال ارتداء الجلابيب المعروفة « بالفتوحيّات » والتزيّن بزينة النساء[19] .

وكان أمراء بني زيري يتعمّمون بالعمامة . وقد أسلفنا أن عمامة باديس في معركة الشلف كانت حمراء[20] . ولما وقع الاعتداء على يحيى ، قطعت ضربة السكّين « طاقات » من عمامته[21] .

وكانت الجُبّة[22] ـ وهي ثوب فضفاض واسع الكمّين مصنوع في الغالب من الصوف ـ تمثّل اللّباس العادي لكافة سكّان المدن على اختلاف طبقاتهم ، في حين كان أهل البادية يفضّلون ارتداء الكساء ، وهو عبارة عن قطعة قماش ، يسدلون طرفها على كتفهم الأيسر . ولكن يبدو أن هذين اللباسَيْن لا يلغي أحدهما الآخر . وأشار المقدسي إلى رداء مشقوق إلى شقّيْن يسدل على الظهر كالعباءة ، وميّز بين أكسية سكّان الأقاليم ومناديل السوقة[23] .

وكثيراً ما تشير المصادر إلى القميص والسروال والمئزر . وكان الناس يرتدون « الجلالة » (الجلباب) مع القميص[24] « و الدّراعة »[25] ولا شك أن تلك الملابس التي أشير إلى وجودها قبل

---

18) نفس المصدر ، 105 .

19) البيلق ، 52 .

20) البيان ، 264/1 ، قال الرقيق :

« تجلو عمامته الحمراء غرّته كأنه قمر في حمرة الشّفق »

21) ابن خلكان ، 240/2 ، نقلاً عن ابن شدّاد .

22) المدارك ، 2-174/3 ظ : كان أبو الحسن بن نصر (ت . 341 هـ/952-953) يلبس جبّة من الصوف ، وعندما تتّسخ مقدّمتها ، يلبسها بالخلاف ، ويغطّي صدر المرقّعة بخرقة لطيفة . وكان يرتدي فروا وقلنسوة فرو . وجاء في فتوى لأبي محمد بن أبي زيد أن أكسية من الصوف وجبّات وميازر قد أعطيت للفقراء ، المعيار ، 9/405-406 .

23) المقدسي ، 48-49 ، المدارك ، 2-6/3 و ، ظ ، : كان القاضي عيسى بن مسكين (ت . 303 هـ/915-916) يغسل جبّته ويتأزّر بكسائه ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 74 ظ : كان قاضٍ آخر يرتدي كساء وفروة وجبّة ، وفي نفس المصدر [طبعة بيروت ، 463/2] : كُفّن أبو سعيد خلفون (ت . 354 هـ/965 م) في كساء وجبّة من صوف مع إزار وثوبَيْن .

24) المدارك ، 2-15/3 و ، 72 كان جبلة (ت . 299 هـ/911-912 م) يرتدي قميصاً وجلالة وسراويل ومنديلاً على أكتافه ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 33/2] ، وجاء في نفس المصدر أنه يرتدي قميصاً ورداءً .

25) المدارك ، 2-90/2 ظ ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 271/2] .

العصر الصنهاجي ، كانت لا تزال رائجة في ذلك العصر . وقد أشار أحد المؤلّفين إلى الكانشي (ت . 347 هـ/ 959 م) وقد لفّ رأسه بتأزيره[26] ، وأشار في موضع آخر إلى نفس الفقيه وقد التفّ بعباءته[27] . ووصف أبو الصلت غلاماً لابساً قباء أحمر وغلاماً غزيّاً عليه قرمزيّة[28] .

ويمكن أن يرتدي الرجل الحضري الملابس التالية : الجبّة والقميص والمقنعة (غطاء الرأس) والكساء[29] . وكان الفقيه أبو عمران الفاسي يرتدي قميصاً ورداء[30] ، والشاعر بكر بن علي الصابوني يرتدي رداء[31] . وفي فتوى للقابسي ، ورد ذكر الملابس التالية : الجبّة والقميص والحملة والمقنعة[32] .

ولعلّ البدن[33] (ج: أبدان) ما زال يعني نوعاً من الحزام[33م] . وفي الشتاء يتغطّى الناس بفَرْو قطّ أو سمور[34] ، وفي أغلب الأحيان بفرو مصنوع من جلد الخروف ، وذلك حسب ثروة كلّ فرد .

وعندما يذهب الصرائري (ت . 418 هـ/ 1027-1028 م) إلى سوق ابن هشام لشراء اللحم ، كان يرتدي فرواً أحمر كعامّة الناس ، وبالعكس من ذلك كان يرتدي في بيته ثياباً فاخرة تتمثل في عمامة وشملة مصنوعة في دبيق (بمصر) . ولا شكّ أن المحشوّ (أو المحشوّة) كان يطلق

---

26) المدارك ، 2-176/3 ظ ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 338/1] .
27) المدارك ، 2-176/3 ظ .
28) الخريدة [طبعة تونس ، 214/1 ، 241/1] .
29) ذُكِرت هذه الملابس في فتوى لأبي حفص عمر بن العطّار ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 81 و ، ظ .
30) معالم الإيمان ، 194/3 .
31) بساط ، 24 .
32) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 86/2 و ، ظ .
33) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 50/2] .
33 م) [البَدَن في المصطلح التونسي ثوب من الصوف] .
34) [رياض النفوس ، طبعة بيروت ، 147/2] : السمور حيوان ثديي من آكلات اللحوم يُتّخذ من جلده فرو ثمين (المعجم الوسيط) . المدارك ، 2-174/3 ظ ، معالم الإيمان ، 221/2 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 82/2 و ، برنشفيك ، المرجع السابق ، [الترجمة العربية ، 290/2] . وأشير إلى جلود السّمور من بين هدايا باديس إلى الحاكم في سنة 405 هـ/1014-1015 م . معالم الإيمان ، 17/3 : كان المتعبّد أبو القاسم عبد الوهّاب بن عبد الله (ت . 330 هـ/941-942 م) يرتدي فرواً « وصوفه إلى الخارج وعلى رأسه دَوْخَلة خوص » .
35) الصفدي ، 61/2-63 رقم 354 .

على ثوب مُبطَّن[36] . وكما هو الشأن بالنسبة إلى الإمام سحنون ، كان أهل إفريقية يلبسون البرانس السوداء (م : برنس)[37] .

وكان الحذاء الذي تردّد ذكره أكثر من مرّة في النصوص هو القرق (ج : أقراق) ، وهو خفّ نعله مصنوع من الفلّين (؟) ومشدود بسيور[38] . ورغم أن المصادر لم تشر إلى ذلك ، فمن المحتمل أن يكون النعل (ج : نِعَال أو أنعال) ما زال رائجاً في العصر الصنهاجي[39] ، وكذلك الخفّ (ج : خِفاف)[40] . وأشارت المصادر أيضاً إلى القباقب المصنوعة من الخشب (م : قبقاب)[41] . ولا شكّ أن المسافرين قد استمرّوا أثناء سفرهم في انتعال اللفائف[42] .

والجدير بالتذكير أن المتآمرين على يحيى كانوا يرتدون لباس أهل الأندلس ، وانتقاماً منهم قُتِل في المهدية عدد من الأشخاص المتزيّين بذلك الزيّ .

وممّا لا شكّ فيه أن أهل البادية كانوا يجهلون الملابس المصنوعة ويقتصرون على ارتداء قطعة قماش غليظة تسمى « تلّيس » ، وكانوا يمشون في أغلب الأحيان حفاة ونعالهم في أيديهم[43] . ويبدو أن ملابس بني هلال التي لا نعرف عنها شيئاً كانت تشبه ملابس أهل البادية في العصر الحديث[44] . وحسب البكري[45] ، كان المتعبّدون في جبل أدار في أقصى الوطن القبلي ، يرتدون « البردي » .

---

36) فتوى أبي حفص عمر بن العطّار ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 82/2 و ، الشمّاخي ، 347 .

37) المقدسي ، 48-49 ، الحلل السندسيّة ، المرجع المذكور [ترجمة الإمام سحنون] .

38) ليفي بروفنسال : وثائق غير منشورة عن تاريخ الدولة الموحديّة ، 50 ، المعجم ، 245 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 292/2] ، الغبريني ، 117 .

39) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 163/2] : الأنعال والأقراق ، المدارك ، 2-152/3 ظ : كان الممّسي (ت . 333 هـ/944-945 م) ، يمشي في بيته بنعل البيت وله نعل آخر يذهب به إلى الصلاة .

40) المدارك ، 2-152/3 ظ : كان الممّسي السالف الذكر يرتدي ثياباً فخمة جديدة وخِفَافاً سوداء . ومن شدّة ورعه كان السيوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) لا يلبس الفرو ولا النعال ولا الخِفاف إلاّ إذا كانت مصنوعة من جلود الوحش ، ولا يكتب إلا في رقّ قديم أو ما كان من جلود الوحش ، معالم الإيمان ، 226/1 .

41) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 129/1 و ، إشارة إلى أبي حفص عمر بن العطّار .

42) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 75 ظ ، المدارك ، 2-92/3 و .

43) المدارك ، 2-168/3 و (ترجمةُ الإبياني ، ت . 352 أو 361 هـ/963-972 م) .

44) مقديش ، نزهة الأنظار ، [الطبعة الجديدة ، 331/2] : « فلم يرَ أحداً إلاّ رجلاً يشبه أهل البادية ، بيده رمح ومِخْلب ، مشتمل بإحرام وبرجله سبّاط (حذاء) ومتعمّم كأهل البادية » .

45) البكري ، 84 : لا شكّ أن هذا البردي وارد من منطقة سرقوسة .

وأشار الشماخي إلى الكساء الطرّاقي[46] ، ووصف لباس أحد سكّان الساحل ، لعلّه كان إباضيّاً : كان يرتدي كساء « حَشَميّاً » وينتعل « أقراقاً قلعيّة »[48] ، وعلى رأسه شاشية حمراء وبيده مِزْراق .

ونحن لا نعرف جيّداً لباس النساء ، إلّا أن بعض أثوابهنّ كانت تحمل نفس أسماء ملابس الرجال ، مثل القميص والمُرَقّع والثوب والجبة والكساء[49] . ولا شك أن الحجاب لا يزال يسمى « المقنعة »[50] .

وجاء في فتوى لأبي حفص عمر بن العطار[51] ، قد شُوِّه نصّها ويا للأسف ، أنه يتعيّن على الأب أن يوفّر لابنه الملابس التالية :

محشوّ وفرو ، كلّ سنتين ، و . . . (كلمة غير مقروءة) أو طُوَيْق (تصغير طاق) من الحرير الخام (الخزّ) وقميصان وزوجان أقراق ، وزوج مُوقِس (خفّ من الجلد الغليظ) وجَوْرَبان ، كلّ سنة . ويجب أن تشتمل معدّات الفراش على ملحفة بنصف (دينار؟) وكساء بنصف (دينار؟) وشُوَيْذكة (تصغير شاذكة أي غطاء صغير) بربع (دينار؟) ومرقّع (بربع الربع)[53] . ويحقّ للمُرضِع الحصول على الفراش والملبس في كلّ سنة : مهد وشويذكة تبلغ قيمتها ربع (دينار؟) وأربع لفائف من الصوف ولفيفتان من الكتّان وإحرام (حايك)[54] وشان (شال)[55] ومحشوّ وفرو وقميص وجُوَيْربات (تصغير جوارب) .

---

46) الشماخي ، 386 ، في الأصل « طاقي » ، والصّواب ما أثبتناه .

47) نفس المصدر ، 390-391 .

48) نسبة إلى قلعة بني حمّاد .

49) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 33/2] : قيل إنّ جبلة خرج مرّة إلى الجمعة بقميص زوجته . المدارك ، 2-153/3 ظ : اشترى الممّسي ثوباً لامرأته . وحول المرقّعة ، انظر ، المدارك ، 2-174/3 ظ . وجاء في رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 74 ظ أن خادمة قاضٍ توفّي سنة 316 هـ/928-929 م ، كانت ترتدي جبّة وكساء .

50) جاء في ترجمة جبلة (ت . 299 هـ/911-912 م) . أنّه « أخذ مِقنعة أمّه فتردّى بها ومضى » ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 29/2] .

51) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 82/2 و .

52) « بربع صرف » .

53) 1/16 دينار ؟ .

54) Beaussier, 197

55) نفس المرجع ، 551 .

ويمكن أن تكون الألحفة (م: لحاف) مزركشة في كلّ طرف « بأعلام » (تطريزات) من الحرير ، يبلغ عرضها حوالي ثلثي شبر[56] . وجاء في فتوى للقابسي[57] أنّ « فراش النّوم » يشتمل على لحاف محشوّ وكساء وملحفة وما يوضع على الفراش أي نطع (زربية جلد) وسبنية (وقاء الفراش)[58] .

والجدير بالتذكير أن الخلعة الرسمية لبني زيري أتباع الفاطميّين كان لونها أبيض بلا شكّ ، ثم اتّخذوا الأسود ، لون العباسيّين ، بعد انفصالهم عن القاهرة[59] . وكانت ملابس الحِداد سوداء[60] .

وكان رجال الدولة الصنهاجية يطلقون شواربهم[61] . وكان حلق لحية الأسير يعتبر أكبر إهانة وينذر بقرب إعدامه[62] . وكان النساء والرجال « يخضّبون بالحنّاء » ، كما كان الشأن من قبل[63] .

وجاء في بعض المصادر أن زوجة المتعبّد ابن اللبّاد (ت . 333 هـ/ 944-945 م) كانت ترتدي في الأعراس « مُعَصْفَرات »[64] . وكان من الممكن تزويق القباقب بالفضّة[65] . كما كان

---

56) فتوى أبي الطيب عبد المنعم (ت . 421 هـ/1030 م) ، المعيار ، 227/9 .

57) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 86/2 و ، ظ .

58) Beaussier, 459.

59) ابن خلكان ، 240/2 ، نقلاً عن ابن شدّاد : أشار إلى اكتشاف خزنة بالملابس القديمة المزركشة بأشرطة مذهّبة ، عند حفر قصر المهدي . وأهدى المعزّ بن باديس إلى القائد بن حمّاد « طياب مُثقّلات » ، المؤنس ، 81 . ويبدو أنّ بني زيري لم تكن لهم معامل تطريز رسميّة .

60) يتجلّى ذلك من هذا البيت الوارد في رثاء أبي علي بن خلدون (ت . 407 هـ/1016 م ، والذي نظمه ابن يحيى ، المدارك ، 2-288/3 و :

لَبِسْت لبس الشاكلات وجئت في سود السُّلاّب كأنّي من حام

61) الصفدي ، 2/61-63 ، رقم 354 : كان الشاعر الصرائري (ت . 418 هـ/1027-1028 م) صديقاً للقاضي حُسَيْن بن مهنّى الفاسي ، « قد أخذ بزيّه في ترك شاربه لا يخفّفه تَشَبُّهاً برجال الدولة من صنهاجة » ، العُمَري ، مخطوط باريس ، 2327 ص 109و . ظ .

62) البيان ، 265/1 .

63) معالم الإيمان ، 75/3 : كان أبو إبراهيم أحمد بن أبي الوليد (ت . 345 هـ/956-957 م) « يلبس السواد ويخضب بالحناء » . المدارك ، 2-28/3 و : كان متعبّدان توفّيا حوالي 292-293 هـ/904-906 م) « يتخضبّان بالحنّاء » . وقد أقرّت الرسالة هذه العادة ، ص ، 304-305 .

64) المدارك ، 2-149/3 و .

65) حسب أبي حفص عمر بن العطّار ، لم يتّفق فقهاء القيروان على لبس « القباقب من الفضّة » ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 129/1 و .

النساء ينتعلن أحياناً نعالاً من الفضّة[66] .

وكانت تُنقَش على فصوص الخواتم بعض الآيات القرآنية[67] . وكان الأطفال يلبسون حليّاً من الذهب والفضّة[68] ، والنساء يلبسن قلائد من الأحجار الكريمة واللؤلؤ[69] . ووصف أحد الشعراء[70] مروحة « تُلْوَى وتُنشَر » ، ويُطرَّز الجلد أحياناً بالذهب[71] .

66) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و ، المختصر ، 79 و . أجاز ذلك أبو حفص عمر بن العطّار ومنعه أبو بكر بن عبد الرحمان .

67) لقد سئل السيوري حول خاتم نُقِشَت عليه هذه الآية : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ . سورة التوبة ، الآية 129 .

68) فتاوى التونسي واللخمي والمازري ، المعيار ، 301/1-302 ، 212/6-215 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 234/1 و .

69) في فتوى اللخمي ، المعيار ، 59/9 : « عِقْد جوهر » على ملك امرأة .

70) ابن خلوف الحروري (ت . 430 هـ/1038-1039 م) ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص 133-134 .

71) انظر ، الباب العاشر من هذا الكتاب : الجلود .

الفصل الخامس
المسكـن

كان أهل البادية المستقرّون يقيمون في مساكن بدائية من نوع الكوخ ، تضاف إليها أخصاص القصب والنخيل والغرف والكهوف في الجنوب الشرقي(1) .

ولا شكّ أنّ خيمة البدو كانت تشبه الخيمة المعروفة في العصر الحديث . وبطبيعة الحال ، فقد تغطّت السهول بالخيام إثر زحفة بني هلال ، في حين هجر كثير من الناس أكواخهم ، على الأقلّ في البداية ، قبل أن تحصل تسوية بالتراضي بين المقيمين والرّحل .

وكانت المنازل الموجودة في المدن تحتوي في أغلب الأحيان على طابق واحد(2) . وفي صورة تأجير منزل أو طابق علوي ، على وجه الخصوص ، لفتت انتباه الفقهاء المسألة المتعلّقة بمعرفة هل أنّ المطر النازل على السطح والمجمّع في الماجل هو من حقّ المستأجر أو المالك(3) .

وحتى بالنسبة إلى المنازل الموجودة في المدن ، فإن مادة البناء الأكثر استعمالاً هي الطوب(4) .

---

1) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 104 و ، برنشفيك ، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** ، [الترجمة العربية ، 296-295/2] .

2) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، الكراس 34 ، ص 6 و : علوي - سفلي - إفريز . فتوى السيُوري ، **المعيار** ، 26/7 : بيْع عمود مسجد ، بُنِيت عليه « حنيّة » أو اثنتين وعلوي .

3) **معالم الإيمان** ، 145/3 (محرز بن خلف بالقيروان) : قبل نزول المطر يُكنَس السطح ويُفتح الميزاب الذي ينزل منه الماء إلى الماجل . فتوى ابن أبي زيد : يجوز لمستأجر العلوي أن يتصرف كما يشاء في الماء الذي ينزل على سطحه ويمنعه من التسرّب إلى ماجل الطابق السفلي ، البرزلي ، **المختصر** ، 145 و ، فتوى ابن شبلون (ت . 390-391 هـ/999-1000 م) ، البرزلي ، **المختصر** ، 145 و : يرجع الماء إلى صاحب الطابق السفلي . ويرى المازري ، (**المعيار** ، 76/5 ، **المختصر** ، 106 و) أنه ينبغي العمل بالعرف ، وحسب رأي شيخه الفقيه أبي محمد عبد الحميد الصائغ ، يرجع الماء إلى المالك ، في حين يرى فقهاء المدينة ، مثل السلمي (لا شك أن الأمر يتعلق بأبي عبد الرحمان محمد السلمي صاحب **تاريخ الصوفيّة**) ، أن الماء يرجع إلى المستأجر . وأعلن المازري أنه بعدما اعتقد أن الماء الذي هو من منافع المنزل المؤجّر ، يرجع إلى المستأجر ، أدرك بعد ذلك بسبع سنين أن حجّته ضعيفة : ذلك أنّ تصنيف الماء من بين المنافع التي يحق للمستأجر أن يتصرّف فيها ، يحتاج إلى دليل . ولذلك فقد انضمّ إلى الرأي المطابق للعادة .

4) **المدارك** ، 2-176/3 ظ ، (ترجمة الكانسي المتوفّى سنة 347 هـ/958-959 م) ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية 297/2] .

ويُبنَى المطبخ عادة فوق « السقيف » (أو السقيفة)[5] .

وتحمي الستارة (أو السترة) « المطلع » (الطابق الأول) والسطح من الريح والشمس وفضول الجيران[6] . وقد اعترض صاحب « مطبق » (الطابق العلوي) على بناء « سهم » (نتوء) على الجدار العلوي لإقامة سترة ضدّ الجيران[7] .

وإذا سكنت عائلة منزلاً يحتوي على طابق علوي ، فإنّ الأبوَيْن يقيمان في الطابق السفلي ويقيم الابن في الطابق الأوّل[8] . ولا يمكن فتح باب جديد في زقاق إلاّ بموافقة جميع الجيران الذين تفتح منازلهم على ذلك الزقاق[9] . وكان سكّان الأسواق والشوارع مُطالَبين برفع الوحل المتراكم فيها . ولا يجوز صبّ الماء الملوّث المستخرج من الآبار في الشارع ، حيث يُمنَع تصريف المياه الأسنة[10] . وكانت أبواب المنازل الموجودة بمدينة تونس مُطوَّقة بالمرمر[11] . وفي طرابلس كانت الحجرة المرتفعة التي يمكن الوصول إليها بواسطة درج ، تسمّى « الغرفة »[12] .

« وليس في قسنطينة كلّها دار كبيرة ولا صغيرة إلاّ وعتبة بابها حجر واحد ، وكذلك جميع عضادات الأبواب ، فمنها ما يكون من حجرَيْن ، ومنها ما يكون من أربعة أحجار .

وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع ، منقورة في الحجر ، لذلك تبقى بها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها »[13] .

ويتمثّل أحد العناصر الأساسيّة من أثاث البيت في الخزنة التي تُكتنَز فيها الفضّة والحلي[14] ، وكثير من الأشياء الأخرى ، بلا شكّ .

---

5) فتوى السيوري ، البرزلي مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، الكراس 32 ، ص 8 ظ ، المختصر ، 160 و .

6) فتوى اللخمي ، المعيار ، 277/8 ، 282 ، Beaussier ، 460 .

7) فتوى اللخمي ، المعيار ، 284/8 .

8) فتوى المازري ، المعيار ، 229/3 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 105/2 و : يقيم ابنٌ وزوجته وأمّ ولده في العلوّ ويقيم والده في الطابق السفلي .

9) فتوى عبد الحميد بن الصائغ ، المعيار ، 43/9 : انظر حول كلّ هذه المسائل ، برنشفيك ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1947 م ، 127-155 .

10) فتوى اللخمي ، المعيار ، 47/9 .

11) البكري ، 40 : أشار إلى المثل المتعلق بديار مدينة تونس : « الرخام في الخارج والسخام في الداخل » .

12) مناقب ، 115 ، 293 .

13) الإدريسي ، ص 96 .

14) فتوى اللخمي ، المعيار ، 59/9 وفتوى القابسي ، المعيار ، 75/9 .

الباب العاشر
الحَيَاة الإقتِصَاديَّة

الفصل الأوّل
النظام العقاري

حقوق الملكيّة :

لقد عكست فتاوى فقهاء العصر الصنهاجي[1] الأضرار الجسيمة التي ألحقتها الاضطرابات الهلالية بحقوق الملكية . ففي القيروان ، على وجه الخصوص ، رجع بعض السكّان الذين فروا منها واستقرّ كل واحد منهم كيفما كان الحالُ ، دون أدنى اهتمام بحقوق الغير . ونحن نتصوّر أن أفخر المساكن لم تكن آخر ما تمّ الاستيلاء عليها . وقد أثيرت عدّة نزاعات ، وكان من الصعوبة بمكان في أغلب الأحيان التوصّل إلى تسويتها . ولئن أمكن في بعض الحالات إرجاع المحلاّت إلى أصحابها وإجراء مبادلات مشروعة ، إلاّ أن كثيراً من الملاّكين قد فقدوا رسومهم ولم يكن دائماً من الهيّن الحصول على الشهادات اللازمة لإثبات حقوقهم .

وقد أثارت اغتصابات الأعراب وغيرهم من المعتدين ، نفس البلبلة في البوادي ، وكان من النادر جدّاً وجود ممتلكين شرعيّين للحقول أو الزياتين . وقد سقطت كثير من الأراضي بين أيدي حائزين ، يصعب التثبّت من حسن نواياهم . وحسب رأي السيوري ، يتعينّ على هؤلاء الحائزين

---

1) السيوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) ، البرزلي مخطوط الرباط ، 217 و ، المختصر ، 105 ظ ، اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) ، المعيار ، 308/10 ، البرزلي ، مخطوط ح . عبد الوهاب الكراس 236/ ط ، المازري (ت . 536 هـ/1141) ، المعيار ، 369/6 ، البرزلي ، المختصر ، 140 ط ، 141 و

تعويض خسائر الملاّكين بتسديد معلوم كراء معقول . وقد أشارت فتوى صادرة عن اللخمي إلى امرأة عادت بعد 36 سنة من هجرتها وطالبت زوجها بأن يرجع إليها العقار (الرّبع) الذي كانت قد سلّمته إليه ، مقابل قرض قدره 100 دينار ، وقد عثرت على وثيقة الإقرار بالـدين . ولكن المغتصب أكّد أنه هو صاحب ذلك العقار ، مستنداً إلى بعض الشهادات . كما أثيرت قضايا من هذا القبيل في عصر المازري .

الإقطاعــات العقاريــة :

ما هو مفهوم « الإقطاع » في عهد بني زيري ؟ فهـل أن الأمر يتعلق بـإقطاع جبـائي أم عقـاري ، كما هـو الشأن في العهـد الحفصي[2] ؟ نظراً لغيـاب النصوص الصريحـة حول هـذا الموضوع ، يتعذر علينا الجواب على هذا السؤال . ولنتذكـر في هذا الصّـدد أنّ ابن الأثير قـد تحـدّث ، عند ذكـر تعيين عـامـل طبنـة في عهـد بـاديس[3]، عن «إقـطاع»، ولكن ربمـا كـانت هـذه العبارة سابقة لعصرها. وأضاف المؤلف أن هذا الأمير قد أقـطع أحد صنـائعه «ضِيَـاعاً وربـاعاً بكـل كورة من كُوَر إفريقية »[4] . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن أمراء بني زيري كانوا لا يمنحون الإقطاعات في منطقة قسطيلية ، لا لأسباب قانونية ، بل ربّما لأن السلطة المركزية لم تكن قويّة في المنـاطق الجنوبيّـة التي تكتسي صبغة خـارجيّة زنـاتية صميمـة . وخـلال الفـترة 460-470 هـ/ 1067-1078 م أقطع الناصر بن حمّاد « ضواحي » الزاب وريغة[5] .

ويبدو أن الإقطاع قد شمل أساساً « الأراضي المَوَات » ، إذ أوضح القابسي أن ملكيّة أرض المقبرة لا ترجع إلى مَنْ يحييها بواسطة إقطاع سلطاني[6] . كما أكّد ابن أبي زيد أنه لا يجوز للسّلطان إقطاع أرض موات ، ولو كانت قرب عمران[7] .

وفي عهد المعزّ بن باديس ، يبدو أن أرضاً عمومية تقع في ساحل المهدية قد كانت موضوع

---

2) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 184/2] .
3) البيان ، 250/1 .
4) نفس المصدر ، 262/1 .
5) ابن خلدون، العبر، 45/7.
6) فتوى القابسي ، المعيار ، 22/7-23 .
7) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 3/ الكراس 34 .

عقد « مغارسة » ، وقد حدّد الكتب « شيئاً معلوماً من الخراج » ، يتعيّن على كل مغارس[8] تسديده على مدى عدّة سنوات . وكان الأمر يتعلق بزياتين ، ولذلك فقد قُدِّر الخراج بحساب قفيز الزيت ، ولعله كان يسدّد نقداً لا عيناً[9] .

وقبل سنة 395 هـ/ 1004-1005 م ، حسب الاحتمال ، استولى السلطان في منطقة المنستير على حقول ومساكن ، ثم أرجعها إلى أصحابها ، مقابل زراعة الكروم لحسابه . وعندما يحين موعد قطاف العنب ، تُقوَّم المحاصيل التي يتسلمها السلطان ليستخرج منها الخمر ، ويتحصل المزارعون على نصف قيمة العنب . أمّا بالنسبة إلى الزراعات الأخرى ، فكان الخراج زهيداً . وبعد ذلك ردّ السلطان إلى الملاّكين حريّة الانتفاع بأملاكهم ، ومنحهم حقّ التصرّف في عنبهم وغير ذلك من المنتجات الأخرى[10] .

وأثبتت فتوى للقابسي وجود نظام مزارعة من نوع « المناصفة » ، كان مطبّقاً على ضيعة ربّما تقع في منطقة المهديّة . وأراد أحد سكّان « قاساس » ؟ الاستقرار بالمنستير ، ولكنّ المتعبّدين منعوه من ذلك ، بسبب كرههم لتلك الأرض التي تقسّم غلّتها مناصفة بين السلطان والمزارعين . ورأى المازري أنه يجب على المزارع أن يقتطع من حصّته من « الزرع » (أي الحبوب) معلوم كراء الأرض ، وأن يوزّعه على الفقراء . فيتعيّن عليه حينئذ إجراء تقويم تقريبي لذلك المعلوم ، بالمقارنة مع أرض مماثلة غير خاضعة لأيّ أداء[11] .

وهناك مثال آخر للمناصفة ربّما يرجع تاريخه إلى العهد الصنهاجي : فقد كان الخوارج في تقيوس بالجريد يقدّمون إلى السلطان نصف غلّة الواحة ، « الغابة والحبّات » ، ويدفعون من النصف الراجع إليهم « الظلم » (المكس) وربما « العُشُر » . وتقدّر قيمة الغلّة قبل جنيها من طرف « الخرّاص السلطاني » (أي المُقَوِّم)[12] .

---

8) هل يتعلق الأمر بهوّارة .

9) الشماخي ، 342-343 .

10) فتوى القابسي (ت . 403 هـ/1012 م) ، المعيار ، 438/9-439 .

11) فتوى القابسي ، المعيار ، 428/9-429 . في النصّ الأصلي : « طساس » ، ولعل الأمر يتعلق بتحريف كلمة « قاساس » ، وهو اسم ربض من أرباض زويلة ، البكري ، 31 . ثم تأتي فتوى أخرى لنفس الفقيه حول وصيفة فرّت من طساس وأكّدت أنها حرّة .

12) الشماخي ، 459 . لعل الأمر يتعلق بواقعة قد أشار إليها الدرجيني . برنشفيك ، المصدر المذكور [الترجمة العربية ، 199/2] .

وأكّد المؤلف الإباضي الشماخي أنه يجوز « لأهل المشاع » (أي أصحاب أرض على الشيوع) التفاهم فيما بينهم حول غرس تلك الأرض التي تنطبق عليها « أحكام المِلْك » ، ما لم تكن بُوراً[13] . أما الأراضي التي يغتصبها السلطان فهي مُدنّسة . وحسب فقهاء القيروان ، لا تجوز الصلاة في صبرة المنصورية ، وتعتبر جميع الموادّ المتأتية منها ، من لحوم وملابس ، محرّمة[14] .

ومن حيث المبدأ ، تُعتبَر الحمّامات العمومية والدكاكين في الأسواق والفنادق والأفران ، تابعة للدولة التي تؤجّرها . ويجوز أن يتصرف فيها الخواص حسب مشيئتهم ، شريطة أن يسدّدوا معلوم كراء . وقد اشترى أحد العمّال قطعة أرض وبنى فوقها دكاكين وحمّامات معدّة للإيجار[15] . ولما تداعت بعض المباني للسقوط ، أعاد المستأجرون بناءها وأصبحت تابعة لهم بصورة تكاد تكون تامّة . على أنّ تلك الأملاك تخضع لمعاليم الكراء ولكنها تكون موضوع صفقات حرّة . وعندما يُعفَى العامل المعني بالأمر من مهامّه ، يستخلص خليفته معاليم الكراء . وأحياناً يتولى العامل أو الأمير الراجع إليه بالنظر تحبيس تلك العقارات .

وأكّد البرزلي أن الأفران ودكاكين الربض (بمدينة تونس) في عصره (العهد الحفصي) كانت تعتبَر بصورة اعتباطية « ربع مناصفة » ، يرجع نصف مداخيلها إلى المستغلين والنصف الآخر إلى بيت المال .

ولم تكن تلك العقارات في أوّل عهدها خاضعة «لخراج الكراء»[16] .

الأوقاف (أو الأحباس) :

كانت في أغلب الأحيان الزياتين والنخيل والحقول والدكاكين والعقارات الخ . . . ، محبّسة

---

13) الشماخي ، 488 .

14) المعيار ، 106/6 . لقد اغتصب الخليفة الفاطمي أملاك أهل هذه المدينة الأميريّة . وقد، أفتى ابن أخي هشام (ت. 371 أو 373 هـ/981-983 م)وأبو بكر بن عبد الرحمان (ت .432 أو 435 هـ/1040-1043 م) بصحة الصلاة في منطقة صبرة ، البرزلي ، المختصر ، 142 ، و ، ظ . أما ابن التبّان فقد أبدى نفس الرأي ، إذا خشي المصلي خروج وقت الصلاة ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 355 ، 358-359 .

15) فتوى المازري ، المعيار ، 103/6-104 . وفي أحكام السوق ليحيى بن عمر ، أُطلِق على صاحب الحمّام اسم « المتقبّل » (أي الذي يدفع القبالة) ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 376/2 .

16) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 158/2 و ، ظ : فتوى المازري ، حول فرن يملكه (أو يستأجره ؟) شريكان . وفي نفس المخطوط ، 181/2 و ، فتوى المازري حول شريكين يملكان فندقاً .

على المساجد والرباطات والمواجل العمومية وغيرها من المؤسسات ذات المصلحة العامة[17] . كما يمكن تحبيس عبد أو فرس على الجهاد[18] .

وهناك أمثلة كثيرة للأوقاف[19] ، نذكر من بينها ما يلي :

كان يوجد في دمنة آهلة بسكّان سليمين مكاناً يسمّى « الأحباس » ، وقد كان في أوّل عهده محبّساً على الجذماء . وحسب رأي القابسي ، يجب أن يظلّ ذلك المكان وقفاً ، إلّا أن المحلّات التي تقام فيه ينبغي أن ترجع إلى مَن بَنَوْها ، سواء كانوا جذماء أم لا ، وأن تُنقَل ملكيّتها بالوراثة[20] . وقد كان تحبيس الأملاك على الورثة شيئاً معمولاً بـه[21] . ويجوز للمحبّس في حياته أن يعيّن وكيلاً ، يبدو أنه كان يسمّى الناظر ، وذلك لإدارة المِلْك المحبّس[22] . وقد طُرِح السؤال التالي حول مِلْك قد حُبّس على الفقراء ثم عُرِض القسم المشاع للبيع : هل تجوز الشفعة لفائدة المعوزين والمساجد ؟ فتهرّب ابن أبي زيد من الجواب ، في حين استعرض أبو عمران الفاسي خلافات الفقهاء حول هذه المسألة المتنازع فيها[23] . وكانت بعض الأوقاف مخصّصة لصيانة الأسوار لا سيما في صفاقس[24] . وقد أشارت المصادر إلى وجود « متولّي الأحباس » في سوسة في عهد بني زيري[25] . ولا ندري لماذا انقرضت هذه الوظيفة التي ربّما كانت موجودة أيضاً في المدن الأخرى .

وفي هذا الميدان بالذات ، لا بدّ أن الفوضى الهلالية قد تسبّبت في بعض الاحتكارات ، من

---

17) فتاوى أبي حفص عمر بن العطّار وأبي عمران الفاسي والتونسي واللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 234/1 ظ ، 236 و ، 237 ظ . وفتوى ابن أبي زيد حول بناء مواجل للسبيل وتحبيس مساقي أرض بيضاء عليها ، المعيار ، 159/7 ، وفتوى السيوري حول تأجير ربع تابع لمسجد ، البرزلي ، المختصر ، 104 و ، وفتوى نفس الفقيه ، المعيار ، 26/6 وفتوى اللخمي ، المعيار ، 232 وفتوى السيوري ، المعيار ، 272/8 .

18) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 229/7 وفتوى عبد الحميد بن الصائغ ، المعيار ، 37/7 .

19) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 279/7-284 وفتوى عبد الحميد بن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 138/1 و ، 158 و ، المعيار ، 159/7 .

20) المعيار ، 25/7 .

21) فتوى القابسي ، المعيار ، 19/7-20 .

22) فتوى مجهول ، المعيار ، 229/7 .

23) فتوى ابن أبي زيد وأبي عمران الفاسي ، المعيار ، 76/8-77 .

24) مقديش ، نزهة الأنظار ، الطبعة الحجرية ، 73/2 [طبعة بيروت ، 174/2] .

25) يتعلق الأمر بالفقيه عبد الله بن حمود (ت . 357 هـ/967-968 م) ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 396/2] ، المدارك ، 2-179/3 ظ وفي مصر في حدود سنة 363 هـ/973-974 م ، حُوِّل « مال الأحباس » إلى « مودع قضاة بيت المال » . وكان « أصحاب الأحباس » خاضعين « لشرائط » الاتعاظ ، 201 ، الهامش 1 (مودع = تابوت القضاة) .

ذلك مثلاً أن فتوى للسيوري قد أشارت إلى أرض تقع وسط بستان ، من المفروض أن تكون تابعة للفقراء ، فاستولى عليها أحدهم واكتفى بدفع كراء للآخرين [26] .

والجدير بالتذكير في هذا المضمار أن أحباساً مسيحية كانت موجودة بتوزر حتى أواخر العصر الصنهاجي للقيام بشؤون الكنائس[27] .

26) فتوى السيوري ، المعيار ، 40/7 .
27) إدريس ، نحية جورج مارسي ، 105/2-106 .

الفصل الثاني
الضرائب والمكوس

سنتولّى فيما يلي ، على سبيل التوطئة ، تحليل شهادة ثمينة لابن حوقل[28] ، حول الجباية الفاطمية التي كانت مطبّقة في إفريقية قبل بضع سنوات من رحيل المعزّ لدين الله إلى القاهرة . فقد استقى هذا الجغرافي مباشرة من الداعي الذائع الصّيت أبي الحسن بن أبي علي ، صاحب بيت مال أهل المغرب المعلومات التالية :

إن الضرائب الآتي ذكرها : الخراج والعشر والصدقات والمراعي[29] والجوالي (ضريبة الرؤوس) والمراشد (مكوس المرور) والأعشار الموظفة في الموانىء على السلع المستوردة من بلاد الروم والأندلس ، والأداءات الموظفة على الصادرات من القيروان إلى مصر ، والورق (النقود) المصدّر هو أيضاً من القيروان ، كانت تدرّ على خزينة الدولة ما بين 700.000 و 800.000 دينار مدفوعة عيناً ونقداً .

وصرّح ابن حوقل أن زيادة الله أبا نصر (مُضَر؟) بن عبد الله بن القديم[30] قد أفاده في سنة 360 هـ/ 970-971 م بنفس المعلومات التي استقاها من الداعي السابق الذكر ، كما لو أنّ هذين الشخصين قد اتّفقا على ذلك من قبل .

ومن ناحية أخرى كان أصحاب الأعمال (العمّال) يقدّمون هِبَةً إلى الأمير الذي يعيّنهم أو يثبّتهم في مناصبهم عند ارتقائه إلى العرش . وكانوا « يستأثرون » بفوائض الإيرادات ، بالنسبة إلى المبالغ المُطَالَبِينِ بدفعها لخزينة الدولة ، تطبيقاً للقوانين الصادرة لهم في هذا الشأن .

وفي عهد بني عُبَيْد كان « يُعمَل بالأمانة من غير ضمان »[31] في جميع أنحاء بلاد المغرب إلى أن

28) ابن حوقل ، 1/96-97 . وفي موضع آخر ، 1/77 أشار ، عند ذكر الجباية المطبقة في تنس ، إلى الخراج والجوالي والصدقات والأعشار والمراشد .

29) ورد ذكر الصدقات والمراعي جنباً إلى جنب في الاتعاظ ، 140-141 والخطط ، 2/165 .

30) الكامل ، 8/244 .

31) الضمان أو القبالة أو اللزمة (في المصطلح التونسي) : تأجير إيرادات الضرائب أو بعض الموادّ كالملح والصابون إلخ . .

« تُقُبِّلَت » برقة ، وهي المدينة الوحيدة في المغرب التي لم تكن خاضعة للضمان .

ولا شكّ أن هذه المعلومات قد بقيت صالحة على وجه العموم ، حتى زحفة بني هلال .

الـخــراج :

إنّ عبارة خراج ـ كما هو الشأن في العهد الحفصي[32] ـ قد فقدت معناها الأصلي[33] الذي هو الغرامة العقارية ، وأصبحت تعني الضريبة العقارية بوجه عامّ أو العُشُر . والدليل على ذلك ما جاء في فتوى للقابسي حول الواحات ، لّما ذكر أن السلطان فرض على « البَلَد غرامة أو مغرم ، تعرف باسم العشر أو الخراج » . ووزّعها دافعوها على نخيلهم ومائهم . وسُجّل اسم كلّ واحد منهم في « ديوان » ، مع بيان حصته من الضريبة[34] .

ورغم استمرار فقهاء العصر الصنهاجي[35] في التساؤل في بعض المناسبات حول وضعيّة إفريقية من الناحية القانونية ، بُعَيْد الفتح الإسلامي ، فإن هذه المسألة لم تعد تكتسي لا محالة سوى أهميّة نظرية ، ولكنهم صرّحوا أنّ منطقة قفصة وقسطيلية قد « كـان افتتاحهـا صُلْحاً في أوّل الإسلام » ، بما أنه ما زالت فيها بعض الكنائس المسيحيّة . ويرى ابن أبي زيد أن هذه المنطقة ، لو فُتِحَت عنوة لأقطع السلطان الأملاك لمن يشاء ، لكنه « ليس له فيها حكم »[36] .

واستناداً إلى فتوى صادرة عن اللخمي ، تولّى قاضي توزر بيع الأحباس المسيحية المعدّة لصيانة الكنائس المنهارة ، وخصّص ثمنها للمسلمين . ولدينا فتوى بارعة ومتسامحة للقابسي حول التعويض الذي يستحقّه النصارى الخاضعين للجزية ، عن الحجارة المتأتية من تلك الكنائس ، والتي أعيد استعمالها في بعض المباني الإسلامية[37] . ويمكن أن يؤدّي الخراج شخص آخر غـير

32) برنشفيك ، المرجع المذكور ، 2/195-196 .

33) يميّز ابن محرز والسيوري أحياناً بين ذلك الخراج الموصوف « بالصحيح » وبين « الخراج الظُّلْم » ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 2/234 ظ ، 279 و ، ومخطوط الرباط ، 2/138 ظ ، والمختصر ، 84 و .

34) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/434-435 وفتاوى السيوري ، نفس المصدر ، 6/107-108 ، 9/424 ، 10/292 ، والمختصر ، 138 ظ .

35) مثل التونسي ، المعيار ، 2/176 ، انظر نفس المصدر ، 9/49-50 .

36) أي لا يستطيع السلطان التصرّف فيها .

37) إدريس ، المرجع السابق ، 2/105-106 .

المُلاّك ، ولكن في صورة عدم التسديد تتولى إدارة الجباية بيع الملك[38] .

وما هو مفهوم الضريبة العقارية المعبّر عنها « بالوظيف » في فتوى لأبي حفص عمر بن العطار ؟ وقد طُولب بدفعها أصحاب الأملاك المقيمين في إحدى القرى ، فاستظهروا بوثيقة تقيم البيّنة على « حرّية أملاكهم »[39] . ومن الصعب تحديد معنى هذا « الوظيف » كما هو الشأن بالنسبة إلى « الوظيفة » الحفصية . ولعلّ هذه الكلمة كانت تعبّر عن معنى غامض[40] .

وقد أعفى الناصر سكّان عاصمته الجديدة بجاية من الخراج .

العُشُر والزكاة :

لقد كان « العُشُر » الذي يستخلصه الوالي أو العامل مطابقاً للزكاة . ولكنّ الفقهاء لم يقبلوا بلا تردّد أن يقوم العشر الذي يستخلصه العبيديون مقام الزكاة . فقد رأى ابن أبي زيد مع أغلب أصحابه أنّ الزكاة التي يستخلصها الولاة بإذن من ملك إفريقية تقوم مقام العُشُر الشرعي . وفي حالة العكس يجب على المسلم دفعها من جديد من باب الاحتياط[41] .

ولا يرى القابسي أيّ مانع من شراء البضائع المعروضة للبيع من طرف الباعة القادمين من أماكن أخرى ، والتي أخضعها سلطان ذلك العصر للعُشُر . وقد أجاز شراء تلك البضائع حرصاً على عدم إحراج الناس ، ولو أن أولئك الباعة ، إثر حصول تسوية مع ولاة ذلك السلطان ، قد

---

38) أسئلة موجّهة إلى أبي عمران الفاسي والتونسي ، المعيار ، 292/10 والبرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 34 ، 9 ظ .

39) أي ليست خاضعة لأي نوع من المكوس ، المعيار ، 126/6 .

40) برنشفيك، المرجع المذكور [الترجمة العربية، 200/2] وفي عهد عبيد الله في سنة 303 هـ/915-916 ورد ذكر مستولّي الخراج الذي «تولّى وظيف التقسيط على ضياع إفريقية»، البيان، 244/1 . وفي سنة 305 هـ/917-918 م « أخِذ أهل الضياع بأعمال إفريقيّة بمغرم سُمّيَ التضييع وزعموا أنه من بقايا التقسيط » ، البيان ، 181/1 ، انظر ، إسبانيا الإسلامية ، 39/3 . وفي ترجمة عيسى بن مسكين (ت . 295 هـ/907-908 م ، إشارة إلى التقسيط ، المدارك ، 2-5/3 و . وفي الأندلس في عهد الأمويين ، كانوا يميّزون بالنسبة إلى الضريبة العقارية بين النّدّ المستخلص نقداً والوظيفة المستخلصة عيناً ، إسبانيا الإسلامية ، 37/3 ، أما الحكر والجزاء فلم يرد ذكرهما في عهد بني زيري ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية 199/2] .

41) المعيار ، 304/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 232/1 و ، والمختصر ، 28 و ، ظ ، انظر أيضاً ، مناقب ، 323-324 والهامش 151 .

سدّدوا نقداً أو عيناً بعض المعاليم التي تقوم مقام العُشُر(42) .

وإن لم نخطىء في فهم النصّ الذي يفتقر إلى الوضوح ، فقد كان اليهود والنصارى مطالبين هم أيضاً بدفع العُشُر الذي يقوم مقام الجزية ، مثلما يعوّض العُشُر الزكاة بالنسبة إلى المسلمين . ويبدو أن جواز الخلط بين العُشُر والجزية قد أقرّه في أوّل الأمر ابن أبي زيد الذي استند إلى رأي شيخه ابن اللبّاد . ولكنّ القابسي قد أكد أن صاحب الرسالة قد عدل عن هذا التأويل في آخر حياته(43) .

وتؤكّد شهادات كثيرة أنه خلافاً للزكاة التي يجب أداؤها عيناً بعد الحصاد ، فإن العُشُر ينبغي دفعه نقداً قبل الحصاد وتقديره مسبّقاً . وحسب رأي ابن محرز ، فإن « الغُرْم » الذي يستخلصه السلطان على الحبوب ، حسب تقدير مسبّق لقيمة الزرع ، يقوم مقام الزكاة الواجبة على المحاصيل بأكملها ، دون أيّ طرح ناتج عن ذلك الغرم ، لتقدير العشر الشرعي . أمّا إذا أخذنا بعين الاعتبار طرح الغرم السلطاني ، فينبغي توظيف العُشُر على قيمة المحاصيل يوم « الدّرس » لا عند التقويم(44) .

وحسب رأي أحد الفقهاء ، فإن « قَوْماً يُخَرَّص عليهم زرعهم »(45) قبل الحصاد ، إلى أن يسدّدوا بعض الدراهم نقداً ، يجب عليهم أن يحسبوا مقدار جميع الدراهم المدفوعة ، ويطرحوه من مقدار الزرع ، ثم يقدّروا الزكاة على البقيّة . وقد أوضح الفقيه أنّ هذا الطرح ينبغي أن لا يشمل سوى الزرع الذي تمّ فعلاً تقدير قيمة مغارمه قبل الحصاد(46) . وأبدى السيوري نفس الرأي حول الحبوب والزياتين التي قدّر الأعراب أو السلطان قيمة مغارمها قبل الحصاد . ويتمتّع الملاّكون المطالبون بدفع مبلغ كبير من المال ، بإمهال لمدة شهر أو شهرين بعد الحصاد والجني والعصر . ويطرح من مبلغ الزكاة مقدار المغارم ، رغم أنه لم يقتطع من العين(47) .

وسئل اللخمي عن شخص باع زياتين أو تموراً وسدّد العُشُر على سعر البيـع ، لا عُشُر

---

42) المعيار ، 310/1 .

43) نفس المصدر ، 310/1 ، مناقب ، 324 .

44) فتوى ابن محرز ، المعيار ، 306/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 222/1 ظ .

45) أي يحتجز محاصيلهم .

46) فتوى أبي الطيب عبد المنعم الكندي (ت . 421 هـ/1030 م) ، المعيار ، 305/1 ، البرزلي ، المصدر المذكور ، والمختصر ، 26 ظ .

47) فتوى السيوري ، المعيار ، 295/1 ، البرزلي ، المصدر المذكور . انظر أيضاً المعيار ، 295/1-296 والبرزلي ، مخطوط الجزائر ، 224/1 و : فتوى السيوري وابن محرز حول « التخريص في الثمار » .

« المساكين » ، ولم يكن المشترون جديرين بالثقة التي وُضِعت فيهم[48] . فهل يعني ذلك أنه يجوز للمشتري أن يتحمّل دفع العُشُر ، وإن اقتضى الحال الزكاة المخصّصة للمساكين ، إن كان على حسن نيّة ؟ وهل نستنتج من ذلك أن الملاكين ، اعتباراً لعدم وجود بيت مال شرعي ، وحرصاً على دفع الزكاة للمحتاجين، كانوا يوزّعون بأنفسهم ما كانوا يعتبرون أنه ما زال متخلّداً في ذمّتهم من الزكاة ، بعد دفع العشر السلطاني ؟ وفي صورة وجود أرض مرويّة بالآلات يخفض من العُشُر نصفه[49] . وتجب الزكاة على غلّة الأشجار المحبّسة على الرباطات والمساجد[50] .

وبعد غزوة بني هلال تفاقمت المصاعب المتعلقة بتطبيق التعاليم الشرعية المتعلقة بالزكاة[51] . وحرصاً على تجنّب أعمال النهب التي يقوم بها الأعراب ، كان المزارعون مجبورين أحياناً على حصاد أراضيهم وزرعها قبل الأوان ، الأمر الذي يضطرّهم إلى انتداب عدد إضافي من اليد العاملة والسعي إلى الإسراع بنقل بضائعهم إلى العاصمة (المهديّة) . وكانوا يودّون طرح تلك النفقات الإضافية[52] الباهظة في أغلب الأحيان ، من الزكاة . ولكن المازري اعترض على ذلك اعتراضاً مطلقاً ، متعلّلاً بالمذهب ، وأجاز السيّوري الزكاة التي يؤديها مغتصبو الأنعام للفقراء وسمح للملّاكين بأن يطرحوا من الزكاة الأداءات العينيّة التي يفرضها عليهم الأعراب .

وإذا صدّقنا ابن خلدون[53] فإن الأعشار التي توفّرها بعض المناطق من إقليم صفاقس في عهد باديس ، قد بلغت 80.000 قفيز ، أي أن قيمتها تساوي 80.000 قفيز ، لأنّ العُشُر - كما أسلفنا - كان يدفع نقداً لا عيناً . ولعلّ تلك الضريبة كانت تقدّر في أوّل الأمر عيناً ، وعلى الأقلّ نظريّاً لتشبيهها بالزكاة ، ثم تقدّر بعد ذلك نقداً . وقد أمدّنا البكري[54] بالمعلومات التالية : لقد بلغت

---

48) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 235/1 و .
49) فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 298/1 ، البرزلي مخطوط الجزائر ، 235/1 و .
50) رأي أبي حفص عمر بن العطّار وأبي عمران الفاسي حول واحات محبّسة على مسجد أو حصن ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 176/1 و . ظ : 236 و 237 .
51) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 222/1 ظ ، المختصر ، 26 و . ظ . المعيار 295/1 ، 302-303 ، 213/6-214 ، 225-226 .
52) كان الملّاكون يسلمون إلى ملتقطي حبّات الزيتون ثلث بل حتى نصف المحاصيل التي كان بإمكانهم الحصول عليها بأنفسهم بمساعدة عبيدهم في زمن السلم . وكان أجر الحصّاد يساوي ديناراً ، بقطع النظر عن نفقات الأكل . وكانت نفقات النقل إلى المدينة تساوي ديناراً بالنسبة إلى كل حبّة . وكانت هذه النفقات ترتفع إلى ما يعادل نصف قيمة المحاصيل وأكثر ، في حين كان بإمكان الملّاكين في الظروف العادية القيام بهذه الأعمال بأنفسهم بمساعدة عبيدهم .
53) ابن خلدون ، العبر ، 159/6 .
54) البكري ، 36 .

جباية ساحل القيروان ـ أي سوسة والمهدية وصفاقس وتونس ـ المستخلصة لفائدة بيت المال ، بقطع النظر عن إيرادات « الدخل والخرج » التي لا تدفع لبيت المال : 80.000 مثقال . وبلغت الضريبة المستخلصة من بونة 20.000 دينار ، بقطع النظر عن الجباية الراجعة إلى بيت المال[55] . في حين بلغت جباية قفصة 50.000 دينار[56] وجباية قسطيلية هذا المقدار الضخم : 200.000 دينار[57] . وكانت بعض القبائل الجبلية المتمرّدة تدفع « للأمراء » (أي العمّال) كل سنة ضريبة ذات بال تتمثل في عدد من الخيول[58] .

ولا ندري بالضبط ماهيّة الضرائب المعروفة باسم « المعاوين » (م : معونة) التي أشار إليها ابن حوقل[59] .

المكوس :

كان جابي المكوس يسمّى المكّاس . وقد أكّد اللخمي (أو السيوري) عدم جواز الزواج مع المكّاس[60] . وأشارت فتوى للقابسي إلى « المراشد » الموظفة على المسافرين والأداءات المستخلصة في أبواب المدن والمكوس الموظفة على السلع[61] . وإن لم نخطىء الفهم ، فالمقصود بالمراشد أداءات المرور لا الأداءات الجمركية بأتمّ معنى الكلمة[62] .

وكان « ملتزم السوق » مكلّفاً بتحصيل مكوس السوق[63] . وفي فتوى صادرة عن اللخمي ، إشارة إلى شخص « اكترى قبالة القرستون » بمبلغ 70 ديناراً وقبالة الخضر وغيرها من المواد بمبلغ 400 دينار . ولعلّ المقصود بالقرستون الخشب المستعمل لصنع السفن والمستورد من منطقة القبائل بالجزائر ومن أروبا[64] .

---

55) نفس المصدر ، 55 .
56) نفس المصدر ، 7 .
57) نفس المصدر ، 49 .
58) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 128/6 .
59) ابن حوقل ، 75/1 .
60) فتوى السيوري أو اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 55/2 و .
61) فتوى القابسي ، المعيار ، 434/9-435 . وأشارت بعض المصادر إلى المراشد في عهد عبيد الله ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 74 ظ .
62) ابن حوقل ، 96/1-97 .
63) في عصر الجبنياني (ت 369 هـ/879 م) ، مناقب ، 77 ، 264 .
64) المعيار ، 211/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 40/2 ظ . وأشار ابن الخوجة إلى وجود مسجد يحمل اسم

ولا شكّ أنّ قبالات بني عُبَيد على التراب (أي الطين) والملح والسّمك وغيرها من المواد الغذائية قد بقيت قائمة الذات[65] . وقد حلف شخص بأن يتصدّق من أجرته إذا ما كُلِّف « بأعمال القبالة »[66] .

ومن الصعب توضيح مهامّ « كتّاب باب الغنم » بالقيروان . فهل هم مراقبو أداءات المرور ، أم المكلفون بحسابات المكوس الموظفة على الغنم المجلوب إلى السوق من داخل المدينة أو خارجها ؟ وأنّ هؤلاء الموظفين الذين أشارت إليهم النصوص في سنة 441 هـ/ 1049-1050 م[67] ، كانوا موجودين قبل ذلك بقرن[68] . وكان « المتقبّل » (أو اللزّام) يستخلص « مغارم السلطان » على بضاعة من بضائع السوق[69] . ولنتذكّر في هذا المقام « المغرمَيْن » اللّذين وظّفهما عامل القيروان[70] على أهل هذه المدينة في عهد بلكّين .

تحصيل الضرائب :

لقد كانت الضرائب من نوع « المغارم » تكتسي بصورة عامّة صبغة جماعيّة ، وكان دافعوها يتولّون توزيعها بأنفسهم ، وكذلك بالنسبة إلى « الجزية » . ذلك أن هذه الضريبة المقدّرة بأربعة دنانير أو أربعين درهماً لم تكن مستخلصة بصورة فردية ؛ على الأقلّ في عصر اللخمي - بل كانت

مسجد القرستون في نهج الزياتين بمدينة تونس ، معالم التوحيد ، 155 ، [طبعة بيروت ، 251] . وهناك مثل تونسي يقول « ولد القبّة والقرستون » ، أي ابن أسرة ماجدة . وفي المعيار ، 2/5 ، استعملت كلمة قرستون بمعنى الميزان ، [لعلّه ميزان الذهب] .

65) « قبالة السلطان على التراب » : المدارك ، 247/322 و ، ومعالم الإيمان ، 120/3 : « كان تميم ابن أبي العرب إذا أراد أن يطر داره وسقوفه احتفر في وسط داره حفرة وطر من تراب الحفرة ويقول إن السلطان يغرم على التراب » . وفي المدارك ، 2-120/3 إشارة إلى قبالة الملح . وجاء في رياض النفوس [طبعة بيروت ، 216/2 أن أبا جعفر القمودي (ت . 324 هـ/ 935-936 م) قال : « ربما أشتهي من الحيتان هذا اللّجي لأنه ليس عليه قبالة » . [اللجي هو الحوت الذي يؤتى به من عميق البحار والأنهار] .

66) فتوى القابسي ، المعيار ، 59/2 .

67) البيان ، 278/1 .

68) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 361/2] والمدارك ، 2-172/3 ظ .

69) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 129/6 وجاء في المدارك ، 2-150/3 ظ . (ترجمة ابن اللبّاد ، ت . 333 هـ/ 944-945 م) أنّ « بيوت المتقبّلين » بالقيروان قد هُدِّمت أثناء ثورة أبي يزيد .

70) إنّ هذا العامل الذي سبقت الإشارة إليه هو عبد الله بن محمّد الكاتب .

موظفة بصورة جماعية على الجاليتين اليهودية والمسيحية ، ويتولى رئيس كلّ جالية توزيع الحصص الفـردية[71] . أمّـا بالنسبـة إلى المسلمين ، فمن الممكن أن يضبط رجـل من رجال الـبرّ قائمـة الخاضعين للضريبة ويبيّن المبلغ الواجب على كل واحد دفعه[72] .

وقد صرّح أبو عمران الفاسي بخصوص المغارم أنّه يجوز شرعاً لبعض الأشخاص ـ وهم الأعيان بلا شكّ ـ حضور العمليّات الجبائيّة للضرورة وحرصاً على منع أعوانِ الجباية من سجن الناس أو سلبهم بلا تمييز ، ولكن لا يجوز لهم المساهمة في « التوظيف » . وترجع إلى المجموعة مهمّة توزيع الضرائب بين الأفراد توزيعاً عادلاً[73] . ويمكن أن نستخلص من ذلك أن السكّان الذين يرفضون تلك الضرائب أو لا يتعهّدون بتنظيم تحصيلها وتوزيعها يتعرّضون لتعسّف الجُباة .

وسئل ابن أبي زيد عن عامل وظّف مبلغاً معيّناً من الضرائب على بلدة دون توزيعه بين السكّان . فهل يجوز لهؤلاء شرعاً القيام بعملية التوزيع اللازمة ؟ وهل يتم التوزيع على أساس ثروة كل شخص أو بحسب عدد الأفراد ؟ وهل يجوز لشخص أن يفرّ ثم يرجع فيما بعد وهو يعلم أن حصته قد تحمّلها السكان الآخرون ؟ وهل يستطيع شخص أن يلتمس من الجابي إعفاءه من الضريبة ؟ وهل يجـوز للسكّان أن يـطلبوا إلى السلطان تعيـين موزّع للضرائب ، رغم احتـمال تعرّضهم لتعسّف ذلك الشخص ؟ وهل يمكن شراء ما يبيعه الخاضعون للضريبة ليتمكّنـوا من تسديدها ، أو تقديم سلفة إليهم ، لأنّ أعوان الجباية سوف لا يتأخّرون عن الرجوع ، في صورة تأخير الدفع ؟[74] ، وهو احتمال رهيب يحرص الناس على تحاشيه بجميع الوسائل ، ويجعل من الضروري تضامن الخاضعين للضريبة[75] .

وقد أصدر القابسي فتوى حول رجل وُظِّفَت عليه ضريبة من أجل وصيفة (زنجية) كان

---

71) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المختصر ، 34/ ظ ، والرسالة ، 134-135 .

72) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 106/6-107 وفتوى السيوري ، نفس المصدر ، 423/9-424 ، وإثر هذه الفتوى وردت بعض الإيضاحات المفيدة حول الجباية قبل العصر الصنهاجي ، نخصّ بالذكر منها ما يلي : في الأماكن التابعة لمنطقة تونس والخاضعة « لوظائف مخزنيّة ظلميّة » التمس السكان من أيمّتهم ضبط قائمة في الأشخاص المطالبين بدفع تلك الضرائب .

73) فتوى مقتطفة من « تعاليق » أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 107/6 ، 428/9 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر، 166/1 و، ولفتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 427/9 .

74) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 427/9 .

75) نفس المصدر ، 428/9 ، سئل ابن أبي زيد عن أناس وظّف عليهم السلطان مكوساً ، فتعاونوا فيما بينهم بكل إنصاف لجمعها .

يملكها . وكان رجل آخر يملك خادماً ووصيفة ، فطُلب إليه تسديد « المغارم والفروض » على تلك الوصيفة . فأجاب : أنها حرّة وأنه غير مطالب بدفع أي شيء . وبناء على ذلك فقد أعفي من تسديد تلك الضريبة (المغرم) ، وقد أضاف القابسي بعض الملاحظات التي تنمّ عن رغبته في وضع المستفتي في مأمن من أيّ ردّ فعل من قِبَل السلطان(76) .

وكان كثير من الناس يضطرّون إلى بيع ممتلكاتهم كليّاً أو جزئيّاً لتسديد الضرائب والغرامات المفروضة عليهم ، والحال أن فقهاء المالكية يقرّرون بالإجماع بعدم صحّة « بيع المضغوط » . وكثيراً ما كان يُطلَب إلى الفقهاء في العصر الصنهاجي إبداء آرائهم حول هذه المسألة المقلقة جدّاً ، إذ تتوقّف على مثل تلك العملية سلامة البائع . فكانوا يجيبون على مضض منهم(77) ـ ويستشفّ ذلك من قراءة أجوبتهم ـ ويبدون آراءهم وفقاً للإجماع المالكي ، متعلّقين بالمعنى الضيّق للقانون ، دون مراعاة للظروف . إلاّ أنّ آخر كبار فقهاء القيروان وهو السيوري ، ربّما تحت تأثير الفوضى الناشئة عن زحفة بني هلال واستناداً للمذهب الشافعي الذي يعتمده في بعض المناسبات ، لم يتردّد في الإعلان صراحةً عدّة مرّات عن صحّة « بيع المضغوط » ، بالنظر إلى « المصلحة » و« المعونة » المقدّمة إلى ضحايا أعمال التعسّف ، ولكنّ المشتري سيلقى جزاءه لا محالة(78) . وأبدى تلميذه اللخمي نفس الرأي حول يتيم سجنه الأمير ، فاضطرّ إلى بيع عقاره بدون رخصة من القاضي ، لاجتناب ما لا تحمد عقباه(79) .

وفي فتوى للمازري ، ورد ذكر شخص طالب باسترجاع حليّ أودعها بعنوان الرهن لدى

---

76) فتوى القابسي ، المعيار ، 440/9 .

77) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 426/9 : بيع ربع لتسديد مغرم ، نفس المصدر ، 428/9 : بيع عروض لدفع ظلم ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 165/2 ظ ، المختصر ، 63 و : بيع عروض وقمح لتسديد مال السلطان . فتوى أبي بكر بن عبد الرحمان ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 165/2 و ، المختصر ، 63 و : أجبر السلطان شخصاً على بيع بضاعته . فتوى اللبيدي ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 164/2 ظ ، 165 و . فتوى المازري ، البرزلي ، نفس المخطوط . 177/2 و ـ ظ ، مخطوط الرباط ، 17/2 و : باع رجل بستاناً لتسديد فدية ابنه الذي يعمل في خدمة السلطان ، لكن الابن تعرّض بعد ذلك للتعذيب .

78) فتوى السيوري ، البرزلي ، لمخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 163/2 و ، 165 ظ ، المختصر ، 62 ظ ، 63 و ، المعيار ، 422/9 ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 163/2 و ، المختصر ، 62 ظ ، : بيع ربع لتسديد فدية أسير لدى الأعراب أي الهلاليّين ، وهي عملية صحيحة وسيلقي المشترى جزاءه في الدنيا والآخرة .

79) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 165/2 و ، المختصر ، 62 ظ .

شخص آخر كان قد دفع مغرماً باسمه وبإذن منه منذ حوالي 20 سنة خلت[80] . فهلاّ يتعلق الأمر بقرض بضمان يكتسي إلى حدٍّ ما صبغة ربويّة ؟ .

وكانت توجد في عصر القابسي معصرة على ملك شريكَيْن اثنين . فطلب أحدهما من الثاني عدم تشغيلها خوفاً من الضريبة التي قد يوظّفها عليه السلطان . فتعهّد شريكه بتغطية المخاطر واستعمل المعصرة ، ولكنّه لاذ بالفرار لمّا طالبه السلطان بدفع الضريبة . فانقلبت السلطة ضدّ الشريك الثاني وفرضت عليه دينارَيْن[81] . وأشار نصّ آخر إلى رجل استخلص منه السلطان الضريبة ، ثم سجنه لأنه ادّعى أنه لا يملك مالاً آخر غير المبلغ الذي اغتُصِب منه . وبعد ذلك اكتُشفت وصيّته التي أشارت إلى ديون متخلّدة في ذمة الغير ، فأمر السّلطان المدينين بأن يسدّدوا إليه الأموال المذكورة[82] . ولاذ رجل آخر بالفرار هروباً من طلبات السلطان الذي أعلمه شخص بسيط بوجود مطمورة تابعة للهارب ، فاستولى عليها ، وقد أقرّ السيوري مسؤولية الواشي[83] . وكان « أصحاب الجاه » (الوجهاء) معفين من المغارم والضرائب بصورة تكاد تكون مطلقة[84] . وحسب رأي ابن أبي زيد ، ينبغي أن تطرح حصّتهم مسبّقاً من مجموع الضرائب ، لكي لا تثقل كاهل الآخرين . ويرى أبو عمران الفاسي أنّه لا يجوز للمتمتّعين بالإعفاء عدم التضامن مع المجموعة الخاضعة للضريبة ، دون محاسبتهم إن لم يفعلوا ذلك . ولكنّ الداودي يرى أن كلّ من يستطيع اجتناب دفع ما يسمّى بالخراج للسلطان ، يجب عليه الاستفادة من هذه الفرصة للتخلص من الضريبة[85] .

وتتمّ جباية الضرائب في المناطق الخارجة بصورة أو بأخرى عن السلطة المركزية أثناء حملات عسكريّة . وقد أخبرنا المؤلف الإباضي الشماخي عن جيش مؤلّف من « أعوان السلطان والأجناد » ، يبدو أنّه كان يقوم بتلك الجولات الجبائية والعسكرية التي ستتكرر في العهد الحفصي[86] . وكان كلّ هؤلاء الأشخاص يعسكرون في مكان معيّن ، ربما في المنطقة الإباضية ،

80) فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 129 و .
81) فتوى القابسي ، المعيار ، 9 .
82) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 429/9-430 .
83) فتوى السيوري ، نفس المصدر ، 411/9-412 : المقصود بالسلطان هنا : السلطة أو الحكومة أو الأمير .
84) فتوى ابن أبي زيد ، نفس المصدر ، 129/6 : إعفاء من طرف المتقبّل من مغرم السلطان على بضاعة مباعة في السوق .
85) المعيار ، 106/6-107 ، 427/9 ، البرزلي ، المختصر ، 138 ظ .
86) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 70/2] .

ويعد تناول العشاء يأخذون في الغناء على أنغام الآلات الموسيقية[87] .

والغالب على الظنّ أن السكّان هم الذين كانوا يتكفّلون بإيواء أعوان الجباية أثناء تنقلاتهم ، بواسطة تذاكر السكن المعروفة باسم « الشقاف » (م : شقفة)[88] .

التجـاوزات :

لدينا شهادات كثيرة حول التجاوزات المتنوّعة الناجمة عن التعسف الجبائي . فقد كان أحد عمّال السلطان يستحوذ على « العُشُر » ثم يفرض الضرائب على الناس بلا موجب شرعي[89] . وكان الجُباة يرتكبون أعمال الاختلاس المتعددة ويثرون على حساب الرعيّة . ولكنّ الأمير يسترجع منهم بالقوّة في أغلب الأحيان كلّ ما اختلسوه من أموال[90] . وكان بعض الأشخاص الذين تجعلهم وضعيّتهم في مأمن من المغارم ، يقومون بمنافسة غير نزيهة ، دون التعرّض لأيّ عقاب ، وذلك بتأجير الأراضي والسلع بمبالغ باهظة أو استئجارها بمبالغ زهيدة ، مقابل تقديم وعود خلاّبة إلى شركائهم . وقد يعترض المستأجر فيما بعد على صحّة العقد ، متعلّلاً بأنه عرض ثمناً أعلى من الثمن الحقيقي ، لحماية الملاّك من أي مغرم سلطاني مشطّ ، بفضل نفوذه الذاتي[91] . وبالعكس من ذلك كان بعض الأشخاص الآخرين يضعون تحت حمايتهم الأرامل واليتامى والعجّز المطالبين بدفع المغارم السلطانية ، فيسدّدون تلك المبالغ باسمهم ويتحصّلون لفائدتهم على بعض

---

87) الشماخي ، 517 .

88) المدارك ، 2-176/3 و (ترجمة الكانشي ت . 347 هـ/958 م) ؛ سجّل شيوخ المنزل أسماءهم في الشقاف لتعيين المطالبين « بضيافة الأعوان » . فأخذ والد الكانشي شقفة وقال لهم : خذوا اسم فلان ، فضيافتكم عليه هذا اليوم .

89) فتوى القابسي ، المعيار ، 310/1 ، 432/9 .

90) فتوى السّيوري ، المعيار ، 425/9-426 : باع أحدهم أملاكه لتسديد الغرامة التي سلّطها عليه السلطان . فتوى اللخمي ، نفس المصدر ، 120/6 ، 423/9 : كان رجل سكير ومشهور بالشذوذ الجنسي يعمل في خدمة السلطان ويستخلص الخراج لحساب مستخدمه في ديوان أسّسه بنو عُبَيْد . فتوى اللخمي ، نفس المصدر ، 422/9-423 : عُزِل رجل ظالم قد نال الجزاء الذي يستحقه . فتوى المازري ، نفس المصدر ، 103/6-104 : اشترى عامل « مفترق اللمّة » أرضاً وبنى فوقها دكاكين للإيجار وحمّامات . وإثر عزله ، استخلص معاليم الكراء أحد خلفائه . ويمكن أن يحبّس تلك العقارات العامل الجديد أو الأمير الذي يأتمر العامل بأوامره . ويمكن أن نتساءل هل أن تلك العمارات ليست تابعة لأملاك الدولة ؟ . انظر أيضاً فتوى المازري ، المعيار ، 418/9-419 .

91) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 186/8-187 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 219/2 و ، 219 ظ ، المختصر ، 106 و . ظ .

التخفيفات . والجدير بالملاحظة أن القابسي لم يستنكر مثل هذه التصرّفات ، لكنه خشي أن تترتّب عليها بعض المخالفات المكروهة ، فكان يفضّل أن تتمّ هذه التوسّطات دون التدخّل في شؤون المنتفعين[92] . وأشارت فتوى لنفس الفقيه إلى أحد الولاة كان يجبر منظوريه إمّا على شراء سِلعِه أو بيع سلعهم له ، وإمّا على توجيه الأنعام إلى والٍ آخر[93] . وجاء في فتوى أخرى للمازري « أنّ المشتري يتصرّف للسلطان وأنه لا يأخذه الأحكام »[94] .

وورد مراراً وتكراراً في النصوص ذكر « الأرض المغتصبة »[95] .

ويبدو أن سكّان المناطق الساحلية التي استولى عليها النرمان لم يُعَانوا من الجباية التي كان يتصرّف فيها عمّال محليّون باسم المحتلّين ، وقد اشتهرت بكونها معتدلة وعادلة نسبيّاً .

ومما لا شكّ فيه أن الضرائب المفروضة في المغرب الأوسط لم تختلف عن الضرائب المعمول بها في إفريقيّة ، إذ أنّ عبد المؤمن قد وعد أهل قسنطينة بإلغاء الضرائب غير الشرعية : « القبالات والمكوس والمغارم والمظالم »[96] . كما اشترط على أهل تونس « مشاطرتهم في رباعهم وأموالهم » ، وكلّف أمناء بضبط تلك الأملاك . إلاّ أنّ بعض الملاّكين قد احتفظوا بممتلكاتهم مقابل دفع « أجرة » تساوي نفس قيمة « الربع » . وقد طُبِّقت تلك الإجراءات « على سائر بلاد إفريقية »[97] .

---

92) فتوى القابسي ، نفس المصدر : ربما ينبغي أن نقرأ « مُهَيَّل » عوض : « فتحيّل » . وفي موضع آخر ، المعيار ، 154/10 : أجاز القابسي شهادة إمام لدى حاكم يضطهد مذهبه ، لفائدة المدّعى عليه ودفع المظلمة باسمه .

93) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 454/9 ، 437-438 : قبل 334 هـ/945-946 م ، باع الأمير قطناً لقطّانين بثمن أعلى من ثمنه الحقيقي (ديناران القنطار عوض دينار ونصف الدينار) ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 87و .

94) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 177/2 و . ظ ، مخطوط الرباط ، 17/2 و .

95) لقد اغتصب الخليفة الفاطمي المنصور منطقة صبرة من أصحابها القيروانيّين ، المعيار ، 104/6 . فتوى ابن محرز والسيوري ، المعيار ، 345/1-346 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 246/1 و . أصبحت ضيعة كان اغتصبها بنو عبيد ، ملكاً من أملاك أحفاد الملاكين الأصليين عن طريق الشراء أو الوراثة . فتوى القابسي ، المعيار ، 435/9 حول توبة غاصب . فتوى المازري ، نفس المصدر ، 417/9-418 : لا يجوز الحصول على أي ربح من أرض تقع في بلدة ، ولا تصحّ فيها الصلاة . فتوى السيوري ، نفس المصدر ، 423/9 ، اغتصاب ملك على الشيوع . فتوى الداودي ، نفس المصدر ، 413/9-416 : استرداد أرض مغتصبة بها محاصيل تحصل عليها المغتصب .

96) انظر الفصل الخامس من الباب السادس .

97) رحلة التجاني ، 345-346 .

الديـوان (الجمـارك) :

يبـدو أن الأداءات الجمـركيـة لم تكن تحمـل أسـماء خـاصّـة بهـا[98] ، كـما يبـدو أنّ « الـديـوان » الموجود في حدود سنة 543 هـ/ 1148-1149 م بمدينة تونس قرب باب البحر ، هو عينه مكتب الجمارك[99] .

وقد أثبتت المصادر أنّ كلمة « ملازم » كانت تعني في عصر المازري الأداء الموظف على نبات الصباغ المصدّر إلى صقليّة[100] . كما أنّ السلع المستوردة من الإسكندرية إلى تونس عبر بنزرت كانت خاضعة لأداءات جمركيّة تسمّى « الأخماس واللّوازم »[101] .

وكانت القوافل الذاهبة إلى السودان أو القادمة منه تدفع « اللّوازم » ، لا سيما في طرابلس ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى القوافل المتنقّلة بين إفريقية ومصر ، ذهاباً وإياباً[102] .

---

98) فتوى ابن شبلون (ت . 390 أو 391 هـ/999-1000 م) ، المعيار ، 186/8-187 . البرزلي ، مخطوط الرباط ، 225/2 و . ظ . المختصر ، 108 و . كانت سفينة متجهة من صقلية إلى سوسة فأجبرتها العاصفة على الإرساء في تونس حيث اضطرّ الركاب إلى تسديد مغرم « أكثر من المتعارف » ، أي ربما أعلى من المغرم الذي كان من المفروض أن يدفعوه في سوسة . وفي فتوى مماثلة لأبي سعيد بن أخي هشام (ت . 371 أو 373 هـ/981-983 م ، يبدو أن الأداء الجمركي كان يسمّى القبالة : « وقبالات السلع في الموضع الذي نزلوا أكثر من سوسة التي اكتروا إليها أو أقلّ فيها خسارة » ، المعيار ، 193/8 . انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 67/2-68] .

99) البيان ، 313/1-314 .

100) فتوى المازري ، المعيار ، 115/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 141/2 و . وحول اللازمة (ج . لوازم) ، انظر برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 200/2] .

101) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 146/2 ظ ، 149/2 و .

102) كان الأمير الأغلبي يستخلص اللوازم على القوافل الذاهبة إلى السودان والقادمة منه ، ابن حوقل ، 167/1 .

الفصل الثالث
الزراعــة

عقود الاستغلال العقاري :

تفيدنا الفتاوى الصادرة في العصر الصنهاجي ببعض المعلومات حول عقود الاستغلال العقاري وأنواعها . وقد كانت الحصّة المسندة إلى المزارع والالتزامات الملقاة على عاتق الملّاك متنوّعة ومتغيّرة ، ربّما بحسب نوع التربة والزراعة .

وكان معلوم إيجار الأرض المزمع زرعها بالكتّان محدّداً بالربح الناتج عن المحاصيل الزراعية[1] . وقد سُلّمت أرضاً مقابل ربع إنتاجها من الزرع (أي الحبوب) ، على أن يوفّر صاحب الأرض ربع البذور . ويرى ابن أبي زيد أنّ هذه العملية تُعتبَر صحيحة إذا كانت قيمتها مطابقة للعمل الذي يقوم به المزارع والثيران التي يوفّرها[2] . أمّا القابسي ، فهو يستنكر تأجير الأرض مقابل ربع أو ثلث المحاصيل ، إذا لم يتسلّم صاحب الأرض نصيبه من البذور[3] . ويجوز أن يكون إيجار الأرض لمدة سنة واحدة[4] . وإذا وفّر الملّاك الماشية والبذور ، يبدو أنه يحقّ له الحصول على أربعة أخماس المنتوج[5] . ويتعلّق الأمر حينئذ بنظام المزارعة المعروفة باسم « الخماسة » الذي ما زال معمولاً به إلى يومنا هذا[6] . وفي بعض الحالات يتسلّم صاحب الأرض ثلاثة أرباع المحاصيل[7] . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ الفتى الذي عهد إليه أبو علي

1) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 115/8، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 220/2 ط . وقد ذكرت الفتوى أن المستأجر قد اشترى بعد ذلك الأرض بربع محاصيل الكتان الراجعة إليه .
2) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 281/2 ظ . ومخطوط الرباط ، 141/2 و . ظ .
3) فتوى القابسي ، المعيار ، 101/8 .
4) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 186/8-187 .
5) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 101/8-102 .
6) وحول الخمّاس ، انظر ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية 206/2] .
7) فتوى القابسي ، المعيار ، 429/9 .

حسن بن خلدون البلوي في سنة 395 هـ/ 1004-1005 م بزراعة حقل ، واشترى له ثورَيْن وأعطاه بذور القمح والشعير، إنّما انتدبه بصفة خمّاس[8] .

ويجوز لصاحب الأرض أن يشترط على المستأجر توفير الأسمدة[9] . وقد كان أهل توزر يبيعون « فضلاتهم » لتُستعمَل في تسميد الأرض[10] . وبالنسبة إلى الأراضي المرويّة ، هناك الأراضي المرويّة « بالماء الكبير » (أي المياه الغزيرة) والأراضي المرويّة « بالماء الصغير » (أي المياه القليلة) . ففي الحالة الأولى لا يتحصل المزارع إلاّ على العُشْر ، وفي الحالة الثانية يتحصل على الخُمُس[11] . وبالنسبة إلى البساتين المرويّة بواسطة النواعير (السواني) يتحصل المزارع على الخُمُس ، ولكنّه لا يتقاضى سوى العُشْر ، إذا كان ريّ الأرض من السهولة بمكان[12] .

أمّا بالنسبة إلى زراعة الأشجار المثمرة ، فسنكتفي بالإشارة إلى نظام « المغارسة » الذي لا نعرف عنه سوى بعض المعلومات حول الأراضي السلطانيّة[13] .

وكان العملة الفلاحيّون يتقاضون أجورهم في أغلب الأحيان عيناً من المحاصيل . وقد أثبتت النصوص ذلك بالنسبة إلى ملتقطي حبّات الزيتون (اللقّاطة)[14] . وكان المشتغلون بالالتزام يتقاضون أجورهم من « اللّقاط »[15] .

---

8) معالم الإيمان ، 190/3-191 .

9) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 216/2 ظ .

10) فتوى اللخمي ، المعيار ، 232/8 ، رحلة التجاني ، 115 ، الخطط ، 184/1 ، العمري ، الترجمة ، 106 الهامش 1 ، القلقشندي ، 106/5 .

11) فتوى السيوري ، المعيار ، 180/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 213/2 و . المختصر ، 28 ظ . والجدير بالتذكير أن الفقه يخفض الزكاة إلى الجزء العشرين في صورة حصول نفقات طائلة للريّ بواسطة الدلو مثلاً . فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 298/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 235/1 و . فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 224/1 ظ .

12) فتوى السيوري ، المعيار ، 296/1 ، البرزلي ، المصدر المذكور .

13) ومن سوء الحظ فإننا لا نستطيع نسبة الإشارة التي أوردها البرزلي إلى العصر الصنهاجي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 272/2 و ، ومخطوط الرباط ، 130/2 ظ والمعيار ، 113/8 . يتعلق الأمر بمنح شجرة زيتون أو شجرة خروب للشخص الذي طعّمها في جبل وسلات . وينبغي أن تقسم الغلة بين الملاك والمُطعِّم . ولكن خلافاً للتعاليم الفقهية ، فإن المطعِّم لا يستحق أي شيء إذا تلفت الشجرة ، وترجع الأرض إلى صاحبها . الجواب : أن العقد المبرم على هذا الأساس فيه عيب شكلي .

14) فتوى المازري ، المعيار ، 142/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 196/2 ظ .

15) فتوى ابن العطّار ، المعيار ، 167/8 .

وبخصوص نظام « المساقاة » المطبّق على الزراعات المرويّة ، كان نصيب المساقي يتراوح بين عُشُر وثُمُن المحاصيل[16] . أما بالنسبة إلى الزياتين ، فيبدو أن للمساقي الحقّ في « نصف ما يخرج منها »[17] .

حراسة المحاصيل الزراعية :

لقد عالجت عدّة فتاوى لابن أبي زيد[18] موضوع حراسة الزراعات قبل حصادها ، وأوضحت وجوب مكافأة هذه الخدمة بأجر ثابت وغير مشروط ، على أن لا تتمثّل هذه المكافأة في الاشتراك في المحاصيل . والأرجح أن الطريقة المذكورة كانت الأكثر شيوعاً ، إن لم تكن الطريقة الوحيدة المستعملة عهدئذ . إذ أنّ كلّ الأسئلة الموجّهة إلى الفقهاء قد تعرّضت لها . وبطبيعة الحال ، فإنها كان توفّر لأصحاب الأراضي فوائد جمّة ، وتستنهض همم الحرّاس المتحمّلين للمسؤولية ، ولو بصورة جزئية . وفي صورة التقاعس أو الكوارث يمكن أن يُحرَم الحرّاس من أجورهم . وبالنسبة إلى الزرع (الحبوب) والزياتين والكروم ، يرى ابن أبي زيد أنه لا يجوز مكافأة الحرّاس من المحاصيل ، ولكنه لا يرى مانعاً من حصول حرّاس البيادر المُهيّأة للدّرس على كميّة معيّنة من الحبوب يتمّ تقديرها مسبّقاً بالقفيز ، لا بحسب عدد الدوابّ المستعملة للدرس ولا بحسب حجم المحاصيل . أمّا حرّاس الحقول الذين يقومون بعملهم ليلاً ونهاراً ، فإنهم يتحصّلون على كميّة تتراوح بين مدّيْن أو ثلاثة ، عن كلّ قفيز من المحاصيل . ويجوز تكليفهم ، علاوة على ذلك ، « بتفريغ الأحمال والشّباك » ، ويتحصل حرّاس « الفحص » (السهل) المكلّفون بحراسة الزرع والزياتين ليلاً ونهاراً على ثُمُنَيْن من الشعير عن كلّ « زَوْج » (أي المساحة التي يحرثها زوج دوابّ في الموسم الواحد) ، أو عن كلّ مائة شجرة زيتون . وقد أشارت المصادر إلى «زمام الحرس » (سجّل الحراسة) الذي كان يُقيّد فيه لا محالة اسم الحارس والعمل المكلّف به .

ومن المحتمل أن يكون استخدام أبناء قبيلة رياح لحراسة الزراعات في العهد الحفصي ،

16) فتوى السيّوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 236/1 و .

17) معالم الإيمان ، 227/3 (ترجمة السيوري) .

18) فتاوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 8/143-145 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 192/2 ظ ، المختصر ، 97 و . ظ . برنشفيك المرجع المذكور [الترجمة العربية ـ 207/2] .

يرجع تاريخه إلى أواخر العصر الصنهاجي[19] . وقد كانوا يتقاضون مقابل هذا العمل ديناراً عن كل سانية (أيّ الحقل المرويّ) ، إثر انتهاء الحصاد في أوائل الربيع .

الأشغــال المائيـة :

إنّ الدراسة الرائعة التي نشرها سولينياك حول هذا الموضوع[20] تعفينا من التـأكيد عـلى التجهيزات المائية في إفريقية التي ربّما كانت تمثل أهم عامل من عوامل ازدهار هذه البلاد قبل زحفة بني هلال . فقد واصل الفاطميّون العمل المبتكر الذي بدأه الأغالبة ، والغالب عـلى الظن أن الصنهاجيّين قد تعهّدوا تلك الإنجازات وأثّروْها . ولكنّ هؤلاء كانوا في هذا الميدان ، كما في غيره من الميادين الأخرى ، المواصلين الأوفياء لأعمال مخدوميهم ، بحيث يتعذّر فنّياً إماطة اللثام عن إضافاتهم الذاتية . وكلّ ما يمكن أن ننسبه إليهم ، على سبيل الافتراض ، الحوض الواقع في رقادة والمختلف شيئاً ما عن المنشآت الأغلبيّة والفاطمية المماثلة ، « من حيث علاقة أبعاد الدعائم ببقيّة البنـاء ، ومن حيث الطلاء الخـاصّ ، وباعتبـار أن الحوض لم يكن مكشـوفاً ، بـل مبنيّاً تحت الأرض »[21] .

وقبيل الكارثة الهلالية ، استنبط ابن بنت خلدون (ت . 435 هـ/ 1043-1044 م) مشروعاً يرمي إلى ربط القيروان بالبحر بواسطة قناة . بل يقال إن هذا المشروع قد دخل طور التنفيذ في المكان المعروف « بالكلبيّة »[22] . وكان الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله قد فكّر قبل ذلك في ربط المنصوريّة بالبحر[23] .

وقد قام المهندسون المائيّون العرب الذين كثيراً ما نُسِبت منشآتهم خطأً إلى الرومان ، بتزويد المراكز العمرانية بالماء ، وتلبية حاجات الصناعات الرعويّة باستعمال الميـاه الجاريـة ، استعمالاً محكماً ، وقد كانت هذه المياه مخزونة في خزانات كبرى مزوّدة هي أيضاً ، كلّ ما أمكن ذلك ،

19) المعيار ، 145/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 194/2 و . ط ، برنشفيك نفس المرجع .
20) سولينياك ، أبحاث حول المنشآت المائية بالقيروان والسباسب التونسية من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر من الميلاد ، الجزائر ، 1953 م ، تقديم إدريس ، الكراسات التونسية ، 1954 م ، 336-338 .
21) نفس المرجع ، ص 256-256 .
22) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 م ، 35 .
23) المعزّ ، 185 ، نقلاً عن المجالس والمسايرات (592/2) للقاضي النعمان .

بقنوات مياه العيون والطبقات المائية . كما توفّقوا إلى حلّ مشاكل قلّة الأمطار وعدم انتظامها ، ونفوذية الأرض ، والتبخير ، وتوحيل منشآت تجميع المياه . وكان الجهاز المائي يشتمل عموماً على مجموعة من الأحواض وحوض تصفية الماء والخزّان ، بالإضافة في أغلب الأحيان إلى حوض الاغتراف . وكان النوع الأكثر شيوعاً هو الحوض المستدير في القرن العاشر م. والحوض المربّع الزوايا في العصر الفاطمي والصنهاجي .

ومن بين كلّ هذه المنشآت المائية الموزعة على أحسن ما يرام توزيعاً مكثّفاً ، تجدر الإشارة إلى القنوات الواقعة بين بئر الأدين والقيروان ، والتي طوّرها الفاطميون وأضافوا إليها أجهزة جديدة لتزويد صبرة المنصورية بالماء[24] . وكانت توجد بسوسة والمحرس والمهديّة مواجل كبيرة مغطّاة . وكانت مواجل المهدية تتلقّى المياه الواردة من قرية ميّانش المجاورة . ويستخرج الماء من الآبار بواسطة دواليب ثم يُوجَّه إلى صهريج ويُصبّ بعد ذلك في أنابيب مفضية إلى ماجل الجامع الأعظم ، الذي يستخرج منه الماء بواسطة دواليب[25] . وتُوزَّع المياه حسب قواعد عرفيّة قد تم تجاوزها بلا شك بصورة تزيد أو تنقص بعد غزوة بني هلال ، لفائدة أشدّ الناس قوّة[26] .

ويستخرج الماء من البئر بواسطة سطل من الجلد (دَلْو) مرفوع بحبل ملفوف على بكرة ، من طرف حيوان يبتعد عن البئر على مستوى منحنٍ ، أو بواسطة قواديس ناعورة (سانية) ذات مدوّرة يحرّكها حيوان[27] .

وفي توزر ، بوجه خاص ، كانت المياه الواردة من الأودية بواسطة قنوات أو مجارٍ مبنية بالحجارة ، تُوجّه بجهاز يتضمّن ساعات مائية بدائية تفرغ 192 مرة في كل 24 ساعة وتُستعمَل لمقياس أوقات الريّ وتحديد المعاليم التي يجب أن يدفعها أصحاب الأراضي المرويّة[28] . وفي أواخر العصر الصنهاجي أشارت المصادر إلى حالة مثيرة للاهتمام تتعلق « بحوالة أسواق » (تحويل دَيْن)

---

24) سولينياك ، المرجع المذكور ، 126-181 . لقد جلب الأغالبة الماء إلى القيروان بواسطة قناة طولها 35,500 كم وجلب الفاطميون الماء إلى صبرة بواسطة قناة طولها 25,750 كم .

25) نفس المرجع ، 259-262 .

26) فتوى ابن محرز ، المعيار ، 345/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 246/1. و . فتوى السيوري ، المعيار ، 346/1 ، 424/9-425 . ونجد فيها عبارة « يد غالبة » التي يبدو أنها تعني المكتسح .

27) فتوى ابن الصائغ واللخمي ، المعيار ، 298/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 224/1 ظ ، 235 و . فتوى السيوري ، المعيار ، 182/8-183 البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 281/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 181/2 ظ ، المختصر ، 85 و ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية 218/2] .

28) برنشفيك ، نفس المرجع ، البكري ، 48-49 ، التجاني ، 113 .

تهمّ المياه الجارية في قسطيلية التي كانت محلّ معاملات غير قانونية . وحسب عادة معمول به في تقيوس ، يجوز لبائع الماء الوارد من قواديس ناعورة ، أن يستعمل حقّه في امتلاك مائه ، حالما يرجع إلى المشتري المبلغ الذي كان هذا الأخير قد دفعه له[29] .

ويمكننا أن نتصوّر مدى أهمّية الأضرار التي ألحقتها الاضطرابات الهلالية بالمنشآت المائية[30] . ذلك أن تدهور الأشغال المائية هو المسؤول عن خراب عدة مناطق مزدهرة مثل منطقة قمودة ، أكثر من اختلال الأمن وأعمال النهب .

وبطبيعة الحال فقد استمرّ أهل البادية ، كما هو الشأن الآن ، في استعمال التقويم اليليوسي المطابق لتسلسل الفصول[31] .

29) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 225/2 ظ ، 263 ظ ، مخطوط الرباط ، 70/2 ظ ، 121 و.

30) فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 306/5-307 .

31) لقد وُجدت في مقبرة السلسلة بمدينة تونس قبريّة مؤرخة في « يوليو » 490 هـ/1097 م ، س . م . زبيس ، Corpus ، 34/1-35 ، رقم 14 .

الفصل الرابع
الإنتاج الزراعي والصناعي والمنجمي

الحبوب والفواكه والخضر :

يتمثّل الإنتاجان الرئيسيّان من الحبوب في القمح والشعير[1] . وبفضل بساطته كان الشعير هو السائد في المناطق الأقلّ حظوة . وبما أن ثمنه يساوي نصف ثمن القمح ، فقد كان يمثل العنصر الأساسي من عناصر التغذية الشعبيّة . وبفضل تربته السوداء ، استحقّ سهل باجة وماطر لقب « مطمورة إفريقية » . وقد كانت الأسعار المعمول بها في تلك المنطقة معتدلة دوماً وأبداً ، سواء كانت السنة خصبة أم جدباء ، وذلك بالرغم من قدوم ألف جمل كل يوم لأخذ الحبوب .

وفي سنوات الرخاء كان حمل الجمل يباع بسعر زهيد لا يتجاوز درهمَيْن[2] . وفي القرن الثاني عشر من الميلاد كانت باجة تعتبر أغنى مدينة في بلاد المغرب ، من حيث الحبوب[3] . واشتهرت أيضاً بإنتاج الحبوب كلّ من مدينة الأنصاريّين التي بينها وبين الأربس مسيرة يوم ، ومدينة بلّ ، أو بلّاريجة في العصر القديم[4] . كما كان يُزرَع القمح بنجاح في تيفاش والمسيلة بمنطقة هضاب قسنطينة ، وكذلك في طبنة وتامديت غربي وادي ملاق[5] . وكانت تزرع أيضاً الذرة البيضاء والدُّخن والحمص والفول[6] .

وكما هو الشأن الآن ، فقد كانت الزياتين تمثّل أهمّ ثروة في منطقة الساحل[7] ، إلاّ أنّ غابة

---

1) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 2/225-226] .
2) البكري ، 56 .
3) الإدريسي ، 115 .
4) البكري ، 46-47 ، 53-54 .
5) الإدريسي ، 93 ، 117 .
6) البكري ، 56 : لقد أشاد بحمص وفول باجة . فتوى السيوري ، البرزلي مخطوط الرباط ، 2/216 ظ ، حول الزراعات التي تنهك الأرض : الجلجلان (السمسم) والدُّخن .
7) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 2/227-228] .

صفاقس التي كانت تمثّل مركزاً كبيراً من مراكز إنتاج زيت الزيتون ، قد أتلفها بنو هلال في آخر الأمر شيئاً فشيئاً ، ولكنّها لا تزال مزدهرة في عصر الإدريسي (القرن الثاني عشر م)[8] . وقد تعرّض ساحل سوسة والمهدية لأضرار أقلّ جسامة[9] ، في حين أتلِفت زياتين طرابلس[10] . كما أنّ وجود الزياتين في سهل القيروان ، بل ربّما حتى في قفصة ، أمرٌ لا شكّ فيه[11] . وكانت هناك زياتين كثيرة في بسكرة[12] . وكانت زيت الزيتون يُعتبَر من أهمّ الموارد المُصدَّرة ، إذ كانت في كلّ قرية من قرى الساحل معصرة زيت[13] . ويُستَخرج الزيت من الزيتون بواسطة معصرة ذات لوالب ، بعد سحق حبّات الزيتون في طاحونة تحرّكها الحيوانات ، وتسمح هذه الطريقة الموروثة عن الرّومان بالحصول على نوع من الزيت متوسّط الجودة يسمّى « المعصري » وقد لاحظ البرزلي في العصر الحفصي أن هذا النوع من الزيت كان مستعملاً بكثرة في زمانه في مدينة تونس . أمّا في الساحل فلا تستعمل إلاّ طريقة « الضرب على الماء » ، وهي تتمثّل في غسل الزيتون بالماء الحارّ ثم عجنه ووضعه برهة من الزمن في أوانٍ ، حتى يتسنّى بعد ذلك جمع الزيت الذي يطفو على سطح الإناء[14] . ويبدو حينئذ أن إفريقية قد اختصّت بإنتاج الزيت المعصري . ولكن ليس من المستبعد أن تكون طريقة الضرب على الماء التي تبدو في الظاهر أقلّ تطوّراً ، وتنتج كميّات قليلة من الزيت الأكثر جودة ، قد ظهرت إثر زحفة بني هلال . ويبدو أن تونس قد احتفظت بالطريقة العتيقة التي تخلت عنها بالعكس من ذلك منطقة الساحل ، ربما للأسباب التالية : صعوبة حماية المعاصر من جشع الأعراب ؟ وضرورة إنتاج نوع من الزيت الصالح للبيع والتصدير ؟ ويبدو أنّ خمسة قفيزات من الزيتون الجافّ إلى حدّ ما ، لا تنتج سوى قفيز واحد من الزيت[15] .

ويوضع زيت الزيتون والسمن الذائب في الجِرار والزِّقاق (أي القِرَب) . وكانت أخفّ

---

8) الإدريسي ، 107 .

9) كان السيوري يملك 12000 زيتونة في الساحل ، معالم الإيمان ، 227/3 .

10) الإدريسي ، 121 .

11) البكري ، 26 ، وحول نقل الزيت من قفصة إلى القيروان ، انظر معالم الإيمان ، 259/3 .

12) البكري ، 52 .

13) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 102 و .

14) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 170/2 ظ . برنشفيك المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 220/2-221]

15) فتوى أبي عمران الفاسي ، البرزلي ، المخطوط المذكور .

القِرب تُصنع من جلد الأنثى (النعجة أو العنزة) وأثقلها تصنع من جلد الـذكر (الكبش أو التيس) . أمّا القِرَب المصنوعة من جلد الخصيّ ، فكانت متوسطة السماكة والوزن[16] . واستعمل الشمّاخي عبارة « بطّة زيت » ، أي بلا شكّ قارورة زيت من الجلد[17] . وأشار مصدر آخر إلى زيت مستهلك ومستخرج من « زرّيعة الفجل » . ومن ناحية أخرى ، ليست لـدينا معلومـات مفصّلة حول صناعة الصابون في العصر الصنهاجي .

ومنذ العصور القديمة كانت واحات جنوب قسنطينة وتونس مزدهرة[19] . وكانت تمور بسكرة مشهورة[20] . وكان إنتاج توزر التي تُعتبَر أدبر واحة في إفريقية ، يُحمَل على الإبل بحساب ألف حمل في اليـوم[21] . وقد أشاد الإدريسي بتمور قـابس التي « يجنيها أهلها طريّة ، ثم يودعونها في دنّانات . فإذا كان بعد مدّة من ذلك خرجت لها عسليّة تعلو وجهها بكثير . ولا يقدر على التناول منها إلّا بعد زوال العسل عنها من أعلاها ، وليس في البلاد المشهورة بالتمر شيء من التمز يشبهه ولا يحاكيه في علوكته وطيب مذاقه »[22] . وكانت واحات طرابلس وبرقة تنتج التمور هي أيضاً ، وكذلك واحة أُوْجلة[23] . وكانت تحيط بمدينة طرابلس أشجار التين والزيتون والنخل ، « إلّا أن العرب أضرّت بها »[24] . كما انتشرت أشجار التين[25] بكثرة ، لا سيما في بجاية وجبل نفـوسة وتونس . وفي تاجنّة التي بينها وبين تنّس مرحلة ، ومرسى الدجاج ، « يُعمَل من التين شرائح مثل الـطوب ويُحمَل منها إلى كثير من الأقـطار »[26] . وكانت القـيروان تستورد التـين الـطازج من قلشانه[27] . وكانت تحيط بمدينة مذكور ، قاعدة قمودة ، غابة من شجر التين ، يُـوجَّه ثمـرها

---

16) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 211/2 و . مخطوط الرباط ، 54/2 و .
17) الشماخي ، 321 .
18) زرّوق : شرح الرسالة ، 110/2 وحول زيت الجلجلان والفجل ، الرسالة ، 128-129 .
19) برنشفيك ، المرجع المذكور[الترجمة العربية ، 228/2-229] .
20) البكري ، 52 ، فتوى التونسي ، المعيار ، 54/1 . رياض النفوس ، [مخطوط بيروت ، 17/2 : تمر برني] .
21) البكري ، 48 .
22) الإدريسي ، 107 .
23) البكري ، 12 .
24) الإدريسي ، 121 ، برنشفيك ، المرجع السابق .
25) الإدريسي ، 90 ، البكري ، 41 ، برنشفيك ، نفس المرجع .
26) الإدريسي ، 83-90 .
27) البكري ، 29 .

المجفّف الذي يُعتبَر من ألذّ ثمار إفريقية ، إلى القيروان حيث كان يُباع غالياً ، وكان المستهلكون يرغبون فيه أكثر من أي نوع آخر من التين[28] .

وكانت البساتين المحيطة بمدينة تونس تنتج نوعاً من اللّوز الطريّ (الفريك) المتميّز بقشرته الرقيقة وثمرته المزدوجة . كما كانت تنتج رمّاناً بلا نوى ، شديد الحلاوة وغزير العصارة ، ونوعاً من الأترجّ المعطّر ، وتيناً أسود غليظاً يسمّى الخارمي ، وهو نوع معسّل ذو قشرة رقيقة يكاد يكون خالياً من النّوى ، وسفرجلاً غليظاً ذا رائحة طيّبة ، وعنّاباً يشبه الجوز[29] . وأشارت المصادر أيضاً إلى وجود شجر الفستق في طرّاق بمنطقة قفصة[30] ، والسفرجل في تنّس وشرشال والمسيلة[31] ، والليمون في توزر[32] ، والنارنج في سردانية التي كانت تعدّ ألف شجرة[33] ، والموز في قابس[34] . وكانت مدينة نقاوس[35] تصدّر إلى الخارج الجوز الذي كان موجُوداً أيضاً في بجاية وجيجيل وتبسّة[36] . كما كان شجر الخروب منتشراً على نطاق واسع[37] . ومن بين الفواكه التي كان يُتاجَر بها ، أشارت المصادر إلى الرمان والتين والخوخ[38] . وكانت الكروم مزروعة في جزر قرقنة[39] ومنطقة المنستير[40] ، وغيرها من المناطق الأخرى . وكان يُصنع الخلّ حسب الاحتيال داخل المدن ، حيث اشتكى الجيران مراراً وتكراراً من رائحته .

وكانت المدن والقرى محاطة بالأجنّة والبساتين . كما كانت الخضر متنوّعة للغاية[42] . وقد

---

28) البكري ، 75 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، الكراسات التونسية ، 1954 م ، 10 .
29) البكري ، 41 .
30) نفس المصدر ، 47 ، معالم الإيمان ، 191/3 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 229/2] .
31) الإدريسي ، 83 .
32) نفس المرجع ، 104 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 230/2] .
33) البكري ، 32 .
34) نفس المصدر ، 17 .
35) الإدريسي ، 94 .
36) برنشفيك ، المرجع السابق ، 229/2-230 .
37) نفس المرجع .
38) فتوى ابن أبي زيد ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 278/2 و . مخطوط الرباط ، 132/2 ظ .
39) الإدريسي ، 127 .
40) فتوى القابسي ، المعيار ، 438/9-439 .
41) فتوى أبي حفص عمر بن العطّار وأبي بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 256/8 .
42) برنشفيك ، المرجع السابق .

أشارت المصادر بالخصوص إلى زراعة البصل الصقلّي في تونس ، وهو نوع غليظ مثل الأترجة ، له قشرة رقيقة ، حلو المذاق وغزير العصارة[43] .

وكان قصب السكر (أو القصب الحلو) موجوداً في جلولة[44] ، وقابس[45] . ولكنه لم يكن يُستعمَل لاستخراج السكر ، بل كان يمتصّ ، حسب الاحتمال[46] .

تربية الماشية :

سوف لا نفيض في الحديث عن الماشية التي نستطيع مع ذلك تصوّر وضعيّتها في العصر الصنهاجي[47] . فقد أشارت بعض الفتاوى إلى وجود الخرفان ذات الألية النحيفة (ربّما في منطقة قسنطينة)[48] ، وهي لا تقلّ قيمة عن الخرفان ذات الألية الغليظة التي كانت تمثل السلالة الإفريقية على الوجه الأكمل[49] . وكانت تربية الخيول التي تتعاطاها صنهاجة وزناتة على حدّ السّواء ، مزدهرة لا محالة ورائجة بالخصوص في سهول نوبة بالوطن القبلي . وكان سهل قمّودة ملائماً هو أيضاً لتربية الخيول . أمّا تربية الإبل المنتشرة جدّاً[50] ، فقد اتّسع نطاقها أكثر فأكثر بعد غزوة بني هلال التي تسبّبت في تقهقر الزراعة لفائدة تربية الغنم والعنز . وكان من الشائع استعمال نوى التمور المدقوقة لتعليف الماشية، وبالخصوص البقر . وكان يُعِدّ هذا النوع من العلف حرفيّون في دكاكين تقع في جلّ الأسواق الكائنة في قلب المدينة . وكثيراً ما كان الجيران يشتكون من

---

43) البكري ، 41 .

44) نفس المصدر ، 32 .

45) نفس المصدر ، 17 .

46) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 182/2] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1935 م ، 305 ، برنشفيك ، المرجع المذكور . رفض المّسي قبول حلويّات وجّهت إليه من القيروان ، لأنّه لا يريد أكل سكّر صقليّة الذي « يُعمَل من ضياع اقتطعها السلطان » ، رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 294/2-295] . الإدريسي ، الاستبصار ، الترجمة ، 185 . المدارك ، 152/3-2 ظ .

47) برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 233/2-235] .

48) نفس المرجع ، 234/2 .

49) فتوى السيّوري ، البرزلي ، المختصر ، 29 ظ .

50) لقد لاحظ ابن حوقل أن المغاربة الصحراويين أي البربر الرحّل يملكون الإبل أكثر بكثير من العرب (أي عرب الجزيرة العربية ؟) ، 98/1 .

الضجيج الذي تحدثه هذه الصناعة ، ويتمكّنون من إقصائها إلى خارج المدينة[51] . وكانت تربية الكلاب لاستهلاك لحومها رائجة في قسنطينة وقفصة وتوزر ونفطة[52] .

أما تربية النحل التي أشارت المصادر إلى وجودها في عنّابة وجيجل[53] ، فلا شكّ أنّها كانت منتشرة بكثرة في مناطق أخرى[54] .

وقد كان الشمع يمثّل أهمّ مادّة معدّة للتصدير[55] ، وكان عسل جلولة مشهوراً جدّاً[56] ، وأشارت بعض الفتاوى إلى تربية دودة الحرير[57] .

الصيد البحري والبرّي :

كان الصيد البحري نشيطاً في كافّة السّواحل ، وكان يوفّر تغذية وافرة ورخيصة للسكّان ، لا سيما منهم أهل بنزرت وتونس[58] . ولا شكّ أنّ الأمر كان كذلك في سوسة وصفاقس وغيرهما من المدن الساحليّة . وقد أشار أحد المصادر إلى صيد التنّ في المنستير[59] . وأشارت فتوى إلى تجّار المنستير ، وقد توجّهوا إلى الصيّادين في شبه الجزيرة بالقنطرة ، قرب قصر ابن الجعد ، واشتروا منهم ما صادوه من السمك ، ثم باعوه في المدن . وقد استنكر القابسي مثل هذه الصفقة الرابحة ،

51) فتاوى أبي بكر بن عبد الرحمان واللبيدي والسيوري ، المعيار ، 278/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 3/ الكرّاس 62 ، 1 و ، 6 ظ .

52) المقدسي ، 60-61 ، البكري ، 49 ، 148 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 236/2] .

53) الإدريسي ، 98 ، برنشفيك ، نفس المرجع ، 235/2 .

54) فتوى أبي عمران الفاسي حول شركة من نوع المناصفة لتربية النحل ، المعيار ، 123/8 .

55) لقد حرّم المازري بيع الشمع للكفّار ، نفس المصدر ، 186/5-187 .

56) البكري ، 32 .

57) فتوى ابن أبي زيد حول صفقة بيع دود الحرير بالسَّلَم ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 169/2 ظ . وفتوى أخرى لنفس الفقيه حول قسمة « لوز الحرير » ، المعيار ، 85/8 . وفتوى أخرى لنفس الفقيه حول شراء أوراق شجر التوت قبل ظهورها ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 49/2 و . وفتوى المازري حول انتداب رجل « لكبّ » كميّة من الحرير ، نفس المصدر ، 141/8 . وفتوى نفس الفقيه حول قيام شركة بين أقرباء وقريبات لشراء الماعون اللازم لإنتاج الحرير ، المعيار ، 245/2 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 188/2 و . ظ .

58) الإدريسي ، 114-115 .

59) « اشتهى (أبو علي حسن ابن خلدون البلوي) مرّة بالمنستير تنّا مقلوّا ، فاشترى (سمكة) حيّة فيها أزيد من قنطارين وقلى ذلك كلّه وفرّقه على المرابطين بالقصر » ، معالم الإيمان ، 191/3 .

حرصاً منه على تزويد أهل المنستير بأسماك رخيصة(60) . وأشار الإدريسي إلى نوعيّة وحجم السمك في جيجل(61) وإلى براعة أهل صفاقس في صيد السمك في المياه الميّتة ، قائلاً : « وأكثر صيدهم بالزروب (الشباك) المنصوبة لهم في الماء الميّت بضروب الحيل »(63) . وأشار البكري منذ ذلك العهد إلى الطريقة المستعملة حالياً لصيد البوري والمتمثلة في تحريك أنثى البوري على طول الشاطىء لجلب الذكور وصيدها بواسطة الشباك . وأفاض كلّ من البكري والإدريسي في الحديث عن الموارد السمكيّة في بحيرة بنزرت المتّصلة بالبحر ، وقال الإدريسي إنّها « من عجائب الدنيا »(64) . ويكفي أن يخبر التاجر أحد الصيّادين بنوع السّمك الذي يريد شراءه ، ليلبّي الصيّاد طلبه في الحين ، بإلقاء شبكته في البحيرة . وأكّد نفس المؤلف من جهة أخرى « أنّ ماء بحيرة تينجة عذب وماء بحيرة بنزرت ملح ، وكل واحدة منها تصبّ في أختها ستّة أشهر ، حتى ينعكس جريها فتمسك الجارية عن الجري ، وتصبّ البحيرة الثانية في الأولى ستّة أشهر ، فلا بحيرة تينجة يملح ماؤها ، ولا بحيرة بنزرت يعذب ماؤها »(65) . كما أشار إلى وجود اثني عشر نوعاً من السّمك ، [وهي البوري والقاجوج والمجّل والطلنطة والإشبيليينات والشلبة والقاروص ، واللاّج والجوجة والكحلاء والطنفلوا والقلا](66) . وأمّدنا البكري بمعلومات حول الأسماك التي تُصاد في تونس(67) . وأكّد الإدريسي أنّ « في المسيلة سمكاً صغيراً عليه طرق حمر حسنة . ومقداره من شبر فدُون ، وربّما صِيدَ منه الكثير فاحتُمِل منه إلى قلعة بني حمّاد »(68) .

ويبدو أنّ مصائد البحيرات كانت تابعة لأمراء بني زيري الذين كانوا يؤجّرونها للمتقبّلين .

---

60) فتوى القابسي ، المعيار ، 2/2 : كان الصيّادون يستعملون شباكاً . تسمّى « طرائح » .

61) الإدريسي ، 98 .

62) نفس المصدر ، 107 .

63) البكري ، 58 ، بونيار (Bonniard) ، المجلة التونسية ، 1934 م ، 135 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 237/2] .

64) البكري ، 58 ، الإدريسي ، 114-115 ، جورج مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 181 .

65) الإدريسي ، 98 ، 107 ، 114 .

66) وحول أسماء تلك الأسماك ، انظر ، B.E.A, A. Gateau ، الجزائر ، 1942 م ، 99-101 ، برنشفيك ، المرجع السابق .

67) البكري ، 41 .

68) الإدريسي ، 86 .

وقد اعتبر الفقهاء ذلك من ضروب « الغصب » . وعُرِضت على المازري[69] قضيّة بحيرة كان بها غاصِبٌ يمنع أيّاً كان من الصيد فيها ، من غير العاملين في خدمته . ولا شكّ أن الأمر يتعلق ببحيرة بنزرت وبأمير تلك المدينة ، التابع لأسرة بني الورد[70] . وكان الصيّادون يتولّون بيع السمك المقدّم إليهم بعنوان أجرة . وقد أكّد ابن أبي زيد بلا تردّد أن ذلك الاحتكار لا يُعتبَر غصباً بأتمّ معنى الكلمة وأن السمك المبيع حلال . وبالعكس من ذلك أدان القابسي ذلك التصرّف . وصرّح المازري أنّ رأي ابن أبي زيد « أقرب إلى أصول العلم » ورأي القابسي « أقرب إلى أصول الورع » . واعتبر أن رأي ابن أبي زيد صحيح ، إذا لم يأخذ الصيّاد سوى كميّة من السمك تساوي الكمية التي كان بإمكانه صيدها لو كان الصيد حرّاً . ورأى أنّ السمك الذي يسلّمه الغاصب إلى الصياد حلال ، شريطة أن تكون « الإجارة صحيحة » . وختم المازُري رأيه بالاستناد إلى الضرورة التي تبيح ذلك الموقف المتساهل .

ولم نعثر إلاّ على إشارة واحدة حول الصّيد البرّي الذي لا شكّ أنّه كانت منتشراً بكثرة[71] . فقد خرج ليلاً رفيقان مسلّحان بالبنادق « لصيد الجرمان من البرك التي تخلّفها الأمطار . ودخل كلّ منهما زريبة »[72] . ولا شكّ أنّ بعض الصيّادين كانوا يتعاطون الصيد بمساعدة الطيور المطاردة ، لا سيما منها الباز . وكانوا يستعملون أيضاً كلب الصيد والرّمح والسهام[73] .

النباتات النسيجيّة وغيرها :

لقد كانت زراعة النباتات النسيجيّة كثيرة ومنتشرة . وقد أشار أحد المصادر إلى زراعة الكتّان في بونة[74] وبعض المدن الأخرى . كما كان القطن يزرع في المسيلة ونقاوس وطبنة وقفصة

69) فتوى المازري وفيها إشارة إلى رأي ابن أبي زيد والقابسي ، المعيار ، 271/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 34 ، 6 ظ .

70) لا يتعلّق الأمر ببحيرة تونس ولا بأمير تلك المدينة ابن خراسان ، فقد تحدّث البرزلي بعد ذلك عن لزمة بحيرة بنزرت . ياقوت (النصف الأول من القرن 13 م) ، البلدان ، 292/2 . وجاء في هذا الكتاب أن السلطان كان « يُضمّن » بحيرة بنزرت وأن تلك « الضمانة » (اللّزمة) تبلغ 12000 دينار .

71) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 236/2] .

72) مقديش ، نزهة الأنظار ، الطبعة الحجرية 133/2 [طبعة بيروت ، 298/2] ، ولعل عبارة « البندقية » التي استعملها المؤلّف سابقة لعصرها . وقد أشار ابن رشيق إلى صيد الطيور عند وصفه « لقوس البندق » ، العمدة ، 221/2 ، ميمني ، 57-58 ، هانري بيريس ، الشعر الأندلسي ، 352 والهامش 5 .

73) رسالة ابن أبي زيد ، 154-155 . برنشفيك ، المرجع السابق .

74) الإدريسي ، 117 ، فتوى ابن أبي زيد حول كراء حقل يزرع فيه الكتّان ، المعيار ، 187/8 ، البرزلي ، مخطوط ، 220/2 =

وقرطاجنة[75] . وكثيراً ما أشارت النصوص إلى تجارة القطن ، وكانت كلمة « قطّان » (بائع القطن) مستعملة بكثرة في أسماء الأعلام . وكان قطن قرطاجنّة يصدّر إلى القيروان . وكانت قرطاجنة تنتج أيضاً القنّب[76] ، وتنتج ضواحيها القرطم (أو العُصْفر) والزعفران[77] . وأشار المازري في إحدى فتاواه إلى تصدير السماق إلى صقلية ، وهي مادة كانت مستعملة في العصر الوسيط في الدباغة والصباغة[78] . وفي جلولة كان أهل القيروان يعطّرون السمسم بالياسمين والورد والنرجس ويستخرجون منه زيتاً أساسيّاً[79] . وأشارت كثير من الفتاوى إلى زراعة الحنّاء[80] ، لا سيّما في تقيوس وقفصة وغيرهما[81] . كما أشارت النصوص إلى زراعة الكمّون[82] في قفصة وسبيبة وجزر قرقنة ، والكرويّاء[83] في قرطاجنة وسبيبة ، والأنيسون[84] في جزر قرقنة ، والزعفران[85] الشبيه بزعفران الأندلس في أبّة والأربس وماجنّة . ويبدو أن الصمغ كان يستعمل كبخور[86] . وكانت غابات الصنوبر في بجاية توفّر في عصر الإدريسي الخشب الصالح لإنشاء السفن والمراكب وإنتاج الزفت والقطران[87] .

ظ . وأشارت فتوى مجهولة المؤلف إلى نوعين من الكتّان : المصري والدّمني (ربّما نسبة إلى دمنة) ، ولهذا النوع الأخير مذاق خاص عندما تضعه الغزّالة في فمها ، المعيار ، 336/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 216/1 ظ ، 217 و .

75) ابن حوقل ، المجلة الآسيوية ، 1842 م ، 241/1-242 ، الإدريسي ، 86 ، 93 ، 104 ، 111 ، جورج مارسي ، العرب في بلاد البربر ، 27 وبلاد البربر الإسلامية ، 179 .

76) ابن حوقل ، 178 ، الإدريسي ، 111 .

77) ابن حوقل ، 178 ، الإدريسي ، 111 . وفي قبريّتين قيروانيّتين الأولى مؤرخة في 417 هـ/1026 م والثانية في 424 هـ/1033 م ، نجد اسم رجلين لقبهما « الأرجواني » (بائع الأرجوان) . نقائش عربية ، 369/1 ، 410 .

78) فتوى المازري ، المعيار ، 114/8-115 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 141/2 و . والجدير بالملاحظة أن هذا النبات لم يطلق عليه اسمه العربي السمّاق أو السموق بل أطلق عليه اسم : تيزرت أو تازغت ، وهو اسم بربري بلا شكّ .

79) البكري ، 32 .

80) فتوى ابن أبي زيد وفتوى اللخمي ، المعيار ، 184/8 ، 233/10 .

81) الإدريسي ، 104 .

82) نفس المصدر ، 104 .

83) نفس المصدر ، 111 ، 119 .

84) نفس المصدر ، 127 .

85) نفس المصدر ، 117 .

86) فتوى اللّخمي حول « بخور المصطكا » ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 35/1 ظ .

87) الإدريسي ، 90-91 : يوجد بالقرب من بجاية منجم حديد طيّب ورخيص .

صناعة النسيـــج[88] :

كان الغزل والنسيج على وجه العموم من اختصاص النساء اللائي يعملن في بيوتهنّ . وكانت النساء الفقيرات يغزلن لحساب الغير[89] . وكانت أهمّ الأنسجة المستعملة عصرئذ ، أي الصوف والقطن والحرير ، تُنتج في البلاد . وقد أشارت بعض المصادر إلى صنع منديل وملحفة من القطن والكتّان[90] ، وإلى ثوب أسديته من الكتان ولحمته من القطن[91] . ومن بين الهدايا التي قدّمها باديس إلى الخليفة الفاطمي الحاكم في سنة 405 هـ/ 1014-1015 م ، كان يوجد الخزّ . ولا شكّ أن الأمر يتعلق بنسيج « أسديته من الحرير ولحمته من مادّة أخرى كالصوف أو الكتّان أو القطن »[92] . وقبل العصر الصنهاجي كان الناس يستعملون البزّ المستخرج من البحر قرب سواحل إفريقية الجنوبية ، لصنع نوع من القماش المعروف باسم « المُخَيَّر » ، وهو نسيج (متموّج) من الطراز الرفيع يختصّ به الخليفة الفاطمي ويُمنَع تصديره . وقد أضاف المقدسي الذي استقينا منه هذه المعلومات أن هذا النسيج كان يُهرَّب ويباع الثوب المصنوع منه بألف دينار . ولا شكّ أن هذه الصناعة قد تواصلت في عهد بني زيري ، حيث أشارت بعض المصادر إلى وجودها في العصر الحفصي[93] . وكانت النيلة تُستورَد من المشرق وتباع في مكّة[94] . وكان الطرطر المجمّع في براميل الخمر يُستعمَل كمادّة مثبّتة للحصول على الصوف الأحمر[95] .

« وكان يُعمَل بالمهديّة من الأكسية الحسنة الرقيقة الجيّدة المنسوبة إليها ، ما يُحمَل ويُتجَهَّز به إلى جميع الآفاق »[96] . ومن بين قصور قفصة كانت مدينة طرّاق مختصة في صنع الأكسية المصدّرة

---

88) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 241/2] ، L. Golvin ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1959 م ، 213-231 .

89) فتوى المازري ، المعيار ، 231/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 58/2 و . 248/2 و ، مخطوط الرباط ، 101/2 ظ ، (حسب يحيى بن عمر) : استعمال الرّماد لتبييض الخيط .

90) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 67/2 و .

91) فتوى السيوري ، المعيار ، 46/2 ، البرزلي ، المختصر ، 39 و .

92) برنشفيك ، المرجع السابق ، 25/2 (حسب البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 128/1 و .) .

93) المقدسي ، 52-53 والهامش 143 (المراجع) . برنشفيك ، نفس المرجع [الترجمة العربية ، 242/2] .

94) المعيار ، 158/6 ، 69/9 .

95) فتوى المازري وأبي الفرج التونسي ، المعيار ، 212/6-218 ، البرزلي مخطوط الجزائر ، 42/1 ظ ، المختصر ، 5 ظ

96) الإدريسي ، 108 .

إلى مصر والمعروفة باسم « الأكسية الطرّاقية »[97] ، وكانت أقمشة تـوزر من الأنسجة الـذائعة الصيت[98] . كما اشتهرت سوسة بأقمشتها المنسوجة بخيوط ذهبيّة[99] . ولعلّ هذه الخيوط هي التي أطلقت عليها المصادر اسم « الغزل » دون ذكر المادّة المصنوعة منها . وقد قيل لنا أن المثقال من ذلك الغزل كان يساوي مثقالَيْن من الذهب[100] . وفي صفاقس كان ينسج القطن والكتّان[101] ، ويُدْعَك القماش ويُكمَد حسب الطريقة المستعملة في الإسكنـدرية ، ولكن بـأحسن منها[102] . وكانت أقمشة القيروان الرقيقة تُوجَّه إلى سوسة ، لتُدْعَك[103] واختصّت قفصة بصنع الشيلان والملابس والعمائم[104] . في حين كانت قابس تمثل المركز الوحيد في إفريقية المتخصص في صنع الحرير الجيّد والرّقيق[105] . ولكنّ الإدريسي قد أكّد أن هذه الصناعة قد انقرضت في قابس في عصره ولم تبق بها سوى « مدابغ للجلود يتجهّز بها منها »[106] . وكانت طرابلس متخصّصة في صنع وتصدير أقمشة صوفية جميلة ، منها ما كانت واردة من جبل نفوسة[107] . وفي قلعـة بني حمّاد[108] وبجاية كانت تصنع ملابس بديعة معدّة لسَرَوات القوم ، وكذلك عمائم الشرب (الكتّان الرقيق) المطرّزة بالذهب[109] .

الجلـد والجلـود :

لقد أشارت المصادر في أواخر العصر الصنهاجي[110] إلى أنّ « الذهب المسكوك المغزول »

---

97) البكري ، 47 ، جورج مارسي ، **بلاد البربر الإسلامية** ، 179-180 .

98) ابن حوقل ، 94/1 .

99) البكري ، 36 .

100) نفس المصدر ، المراكشي ، طبعة 1847، 255: أشار إلى ثياب سوسة .

101) مقديش ، 158/2 ، 159 .

102) البكري ، 20 .

103) نفس المصدر ، 36 .

104) برنشفيك المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 240/2] .

105) البكري ، 17 ، ماس لاتري ، **المقدّمة** ، 221 ، جورج مارسي ، **بلاد البربر الإسلامية** ، 179 .

106) الإدريسي ، 124 .

107) ابن حوقل ، 69/1 .

108) **الاستبصار** ، 105 .

109) نفس المصدر ، 34 .

110) فتوى المازري ، **المعيار** ، 212/6-215 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و . فتوى أبي الفرج التونسي ، **المعيار** ، 215/6-216 .

الوارد من العراق كان يُستعمَل في سالف الزمان في « جلود الذهب » ، والثياب العراقية القديمة ، وأحجبة النساء المعروفة باسم « المعاجر »[111] (م : مِعْجَر) ، والعمائم . وكانت صناعة الجلد مزدهرة في إفريقية وبالخصوص في القيروان[112] . وربّما كانت الجلود المطرّزة بالذهب تستعمل بكثرة ، لا سيما منها المستعملة في السِّراجة (صناعة السروج) . ولهذا الغرض ، كثيراً ما يُعوَّض الذهب « بالسمنتي » (وهو مزيج معدني مؤلّف من النحّاس والقصدير والزّنك أو مزيج مؤلف من الذّهب والفضّة)[113] .

وليس من المستبعد أن يكون الصنهاجيون قد استمرّوا ، على غرار الأغالبة والفاطميّين ، في توريد البردي واستعماله في المراسلات الرسمية والإدارة[114] . ولكن لم يصلنا أيّ نوع من أنواع البردي الإفريقي . وكان الرَّقّ الإفريقي الشهير والملوّن أحياناً (أزرق ولازوردي وقرمزي) يُصدَّر إلى الخارج . وقد أخذ الأندلسيّون عن أهل القيروان الأساليب الفنية المعتمدة لصنع الرقّ ثم الورق فيما بعد[115] .

وفي العهد الأغلبي كان يُصنَع « الكاغد » (وهو ورق مصنوع من الكتّان) في القيروان وتونس والمهديّة . وفي العصر الصنهاجي انتقلت صناعة الورق من إفريقية إلى أوروبا عن طريق صقلية وجنوب إيطاليا ، ثم عن طريق المغرب والأندلس ، بعد ذلك بقرن[116] . وقد ازدهرت صناعة الرَّق[117] والتجليد في القيروان . وسنتناول بالدرس الموضوع الثاني (التجليد) عند

---

111) حسب أبي الفرج التونسي الذي استعمل بعد ذلك هذه العبارة : « ثياب النساء والمعاجر » . [والجدير بالملاحظة أن كلمة مِعجَر قد حُرِّفت في مدينة تونس في العصور الحديثة وأصبح هذا الحجاب يسمّى « العجار »] .

112) جاء في معالم الإيمان (227/3) أن السيّوري « قد بنى داراً لدبغ الجلود يكريها » . وحول شهرة جلود القيروان ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ، 687/1 . وحول السروج القيروانية الشهيرة حتى في أوربا ، والجلود المطرّزة بالفضّة والخزّ والمستعملة في صنع السروج والأحذية والسروج العسكرية ، انظر ، بساط ، 19-20 .

13) فتوى المازري حول الجلود المطرّزة بالذهب حسب أبي حفص عمر ابن العطّار ، والسمنطي مؤلّف من الذهب والفضة ، المعيار ، 212/6-216 البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و ، المختصر ، 79 و .

14) ابن حوقل ، 86/1 .

115) حسب دراسة لم يسبق نشرها قام بها ح . ح . عبد الوهّاب ، الأندلس ، 1947/12 ، 293 ، ابن الفرضي ، 404/1 ، الضبّي ، 61 ، 93 ، 131 . التكملة ، 101/1 ، 190 ، 367 ، نفس المصدر ، تحقيق ابن الشنب ، 212 المقري ، 115/2 ، المدارك ، 162/3-2 .

116) ح . ح . عبد الوهّاب ، الدراسة المذكورة .

117) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 49/2 و . معالم الإيمان ، 11/3 .

الحديث عن الحياة الثقافية والفنية[118] ، وإلى حدّ ذلك التاريخ ، لم يتمكّن الورق من منافسة الرقّ ، لأنه كان أغلى منه[119] .

وعند تحليلنا للحبر المستعمل في الرقوق القيروانية ـ وقد كان لونه بنيّاً فاقعاً بالنسبة إلى الحروف وأحمر بالنسبة إلى النقط ـ لم نلاحظ وجود أيّ أثر للأملاح المعدنية ، والغالب على الظن أنه كان مصنوعاً من العفص والصمغ[120] . وقد كُتِب مصحف يرجع عهده إلى عصر ابن أبي زيد ، بالذهب الخالص[121] .

صناعة الخزف[122] :

لقد كان الخزف مزدهراً في إفريقية لا سيما في تونس[123] وقفصة وكانت تُصنَع في مدينة تونس « آنية للماء من الخزف شديد البياض في نهاية الرقّة ، تكاد تشفّ »[124] ، حتى سمّيت « الهوائية » . وفي بجاية أُخرِجَت من الأرض بعض الأواني المماثلة البالغة الرقّة والمصنوعة من طين غير مطلي[125] . وعُثِر في صبرة وقلعة بني حمّاد وبجاية على عدّة شقفات من الخزف المتعدّد الألوان . وكانت الزخارف على وجه العموم ذات لون بنّي وأخضر وأحياناً أصفر وفيما بعد أزرق[126] .

---

118) انظر الفصل السادس من الباب 12 .

119) ح . ح . عبد الوهّاب ، عناية ، 89 . وحول الورق الرومي الوارد إلى المغرب عبر طرابلس ، انظر ، المعيار ، 76/1 . ولعلّ عبارة « ورقة منصوري » الواردة في معالم الإيمان ، 140/3 ، تعني ورقة منسوبة إلى صبرة المنصورية . وأشار المقدسي إلى أنّ المصاحف والدفاتر مصنوعة كلها من الرق ، انظر أيضاً ح . ح . عبد الوهّاب ، المرجع المذكور ، 84 ، الهامش 123 .

120) (Objets Kairouanais) ، 287/1 والهامش 3 .

121) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 129/2 ظ : وهذه الختمة المشتملة على 30 جزء كانت محبّسة على جامع القيروان ، ومكتوبة كلّها بحروف من الذهب ومغشّاة بالحرير .

122) جورج مارسي : فخّار وخزف قلعة بني حمّاد ، قسنطينة ، 1913 م ، وفخار وخزف بجاية ، قسنطينة ، 1916 م ، والفنّ الإسلامي ، 86-87 .

123) الإدريسي ، المعجم ، 354-355 ، وفيه إشارة إلى أن خزف مدينة تونس يضاهي الخزف المستورد من العراق .

124) البكري ، 40 .

125) جورج مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 180 .

126) نفس المؤلف ، الفن الإسلامي ، 87 ، إسبانيا الإسلامية ، 111-513 .

ولا شكّ أنّ الأواني المنزلية كانت مصنوعة من الطين والنحاس ، وهناك أيضاً بعض الأواني المصنوعة من الحديد[127] .

صناعــة الزّجــاج :

لقد أشارت كثير من الفتاوى إلى « حانوت الزجّاج »[128] . وأشـارت إحداهـا إلى قدوم زجّـاج يستعمل نـوى التمور كمحـروقات ، والحـال أنها كانت تُستعمَـل بعد طحنهـا لتعليف الـدوابّ[129] . وفي صبرة وزويلة ، تمّ اكتشاف بعض أفران الزجّاجين[130] . وكان يُصنَـع في قفصة زجاج من الطراز الرفيع[131] .

المناجـم والمعــادن[132] :

يرى المازري[133] أنّ من واجب المالك الشرعي للمنجم (أو بالأحرى اللزّام) الاقتصار على امتلاك جزء من المعادن المستخرجة وتوزيع البقيّة على الفقراء أو على مشاريع البرّ والإحسان ، حسب بعض الفقهاء . ويجوز أن يتقاضى العملة المُستخدَمـون لاستخراج المعـدن أو صهره أو محصه ، إمّا أجراً ثابتاً للقيام بعمل معيّن ، أو عدداً من القُفف المليئة بالمعدن ، لاستخراج كمية

---

127) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 88/2 و ، المختصر ، 76 و . ظ : « شراء طاجين حديد » .

128) فتوى أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 166/6 .

129) وتبعاً لذلك فقد ارتفع سعر تلك المادة التي أصبحت نادرة . وقد أفتى السيوري بمنع الزجاج من حرقها إذا كان الناس في حاجة أكيدة إليها وباستطاعتهم الاستغناء عن الزجاج ، المعيار ، 247/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 33 ، 2 و . ظ ، المختصر ، 161 ظ . والجدير بالتذكير أن بعض المصادر قد أشارت إلى وجود حيّ أو سوق الزجّاجين بالقيروان ، أبو العرب ، 78 .

130) (Objets Kairouanais) ، 371/2-374 . ولئن لم يتأكد وجود فرن صبرة إلا بفضل وجود حُمَم زجاجية ، فإن فرن زويلة الذي اكتشفه ح . ح . عبد الوهّاب ، قد نجا من التدمير لأنه استُعمِل في فترة لاحقة كفرن جير .

131) الاستبصار ، الترجمة 75 وفي القرن الرابع عشر ميلادي تحدّث أبو الفراء (الجغرافيا ، الترجمة 201/1) عن زجاج طرّة الصافي جداً . وقد كانت هذه البلدة التي اسمها الآن تلمين ، تابعة لمدينة توزر ، (Objets Kairouanais) ، 375/2 والهوامش .

132) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 239/2-240] .

133) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 34 ، 7 و .

من المعدن محدّدة من قبل ، كما يجوز لهم خلط المعادن الموجودة في قففهم ، والاشتراك مع بعضهم بعضاً . وأوضح المازري أن هذه الأحكام لا تهمّ إلاّ الرصاص الذي لا ينبغي أن يكون محلّ صفقات ربويّة .

والغالب على الظن أن منجم جبل الرصاص الواقع على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب شرقي مدينة تونس ، كان مستغَلّاً في العصر الصنهاجي ، وكذلك معادن الحديد الموجودة في هنشير الحديد وفي منطقة ونزة . ويتمثل أهم مركز معدني في المنطقة المعروفة باسم « مجّانة المعادن » ، وتسمّى أيضاً « مجّانة المطاحن » ، إذا كانت تُستخرَج منها ـ حسب البكري ـ أحسن صخور الطحن في العالم . وأشار البلاذري إلى وجود منجم فضّة بالقرب من مجّانة . وأشار اليعقوبي من جهته إلى مناجم الفضّة والإثمد والحديد والمرتك والرصاص . وأكّد ابن حوقل أنّ منجم حديد وفضة كان تابعاً لمجّانة التي كانت توفّر صخور الطحن المصدّرة إلى جميع أنحاء العالم . وأشار البكري بعد ذلك بقرن إلى وجود عدّة مناجم في المنطقة المذكورة ، منها منجم فضّة اسمه « الوريتصي » ، على ملك بربر لواتة . وبعد غزوة بني هلال ، في القرن الثاني عشر من الميلاد ، لم يذكر الإدريسي ، ولا مؤلف « الاستبصار » الخفّي الاسم الذي ينقل كثيراً عن البكري ، إلاّ المطاحن . ولعلّ في هذا السكوت دلالة على ما ألحقته الاضطرابات الهلالية من أضرار بالمناجم[134] . إلاّ أن الإدريسي قد أشار مع ذلك إلى مناجم الأربس وبونة وبجاية .

وأشارت المصادر في عهد الأمير يحيى إلى القصدير ، لما تحدّثت عن « السروج والبنود والقباب والأواني »[135] . ولكن ربّما كان الأمر يتعلّق بمعادن مستوردة .

ولم تشر رسالة ابن أبي زيد إلاّ إلى مناجم الذهب والفضّة[136] . ولا شكّ إن استغلال ملح المناجم ، مثل منجم ربوة الوطاية الواقع شمال غربي بسكرة ، والمشار إلى وجوده في العصر الفاطمي[137] ، قد كان مزدهراً . وأشارت فتوى للمازري إلى ملّاحات من هذا القبيل[138] . ورغم انعدام الوثائق ، فمن المحتمل أن تكون قد هُيِّئت بعض الملاّحات في السباخ

134) جورج مارسي وليفي بروفنسال ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1937 ، 15-18 .

135) ابن خلكان ، 240/2 .

136) رسالة ابن أبي زيد ، 132-133 .

137) البكري ، 52 ، ماس لاتري ، معاهدات ، 224 ، برنشفيك ، المرجع السابق ، 239/2 .

138) فتوى المازري ، البرزلي مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 3/ الكراس 34 ، 6 و .

الإفريقية[139] . وقد كانت ملاّحة لمطة تنتج ملحاً بحريّاً لا مثيل له . يُصدّر إلى المناطق المجاورة[140] .

وكان استغلال الأرصفة المرجانيّة في عرض سواحل القلّ مزدهراً[141] . إذ كان الصيّادون يستخرجون المرجان بشدّ أغصانه إلى شباك في شكل صليب ، مثقّلة بالحجارة وملفوفة بخيوط القنّب أو الكتّان . وكانت تستغلّ تلك الأرصفة حوالي خمسين سفينة ، يركب كلّ واحدة منها عشرون ملاّحاً . وفي عصر ابن حوقل ، وكذلك في العصور الموالية بلا شكّ ، كان سلطان المغرب يكلّف أُمَناء بمراقبة صيد المرجان ، وكان موظّف آخر يسمّى الناظر مُكلّفاً بتحصيل جميع المكوس الموظفة على ذلك النشاط لفائدته (وهي الصّلات والمعاون واللّوازم) . ويسدّد الباعة الشركاء أجور الصّيادين التابعين لتلك المنطقة . وكانت محاصيل الصيد وافرة ، إذ يؤكّد المقدسي ، أنه من الممكن الحصول على ما لا يقلّ عن ثلاثين كيلوغرام من المرجان ، بواسطة شبكة واحدة[142] . ويتمّ صقل المرجان الخام غير الملوّن على عين المكان ، ثم يباع بلا ترتيب بأسعار زهيدة للباعة المذكورين الذين يتولّون بدورهم بيعه كما هو بلا فرز ، حسبما يبدو[143] .

ويُصدّر جزء من المرجان الإفريقي إلى الخارج ، ولا سيما إلى مصر[143] .

---

139) برنشفيك ، نفس المرجع ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 3/ الكراس 33 ، 9 و .

140) البكري ، 84 .

141) ابن حوقل ، 75/1 ، المقدسي ، 48-51 ، البكري ، 55 ، الإدريسي 116 ، البلدان ، 24/8 .

142) المقدسي ، 50-51 ، 84 ، هامش 24 : تتراوح الكمية المستخرجة بين 10,000 و 10 دراهم ، ولعلّ الأمر يتعلق بدرهم مكيال (3 غ 148) لا درهم نقد .

143) فتوى ابن محرز والمازري (أو أبي الفرج التونسي) ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 52/2 و .

الفصل الخامس
النقــود

لقد كانت عُمْلَتَا الذّهب والفضّة مستقلّتَيْن الواحدة تجاه الأخرى ، من حيث المبدأ . « فكلّ عملة منهما لها قوّة إبرائية تامّة ، عندما ترد في الرّسم المنشىء للالتزام ، أو عندما تفضّلها العادة الجاري بها العمل على الأخرى »[1] .

ونستطيع أن نؤكّد أن الصفقات ، قبل غزوة بني هلال ، كانت تتمّ على حدّ السواء بالفضّة أو الذّهب أو العروض[2] . وليس من المؤكّد أن يكون الأمر كذلك فيما بعد ، لا سيما في المهديّة ، بسبب قلّة الذهب .

ويتجزّأ درهم الفضّة إلى نصف درهم (ويسمّى القيراط) ، وربع درهم وثُمُن درهم ، ونصف ثُمُن الدرهم (ويسمّى الخرنوبة أو الخَرّوبة)[3] . وقد طُبع درهم مزدوج وارد من البلاد التونسية باسم الخليفة الفاطمي المستنصر[4] . ويبدو أن الخَرّوبة كانت مصنوعة من النّحاس[5] . فقد أشار مصدر إباضي إلى « قيراط حندسي »[6] . وفي جربة كانت تتمّ الصفقات بالحندوس ، أي

1) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، 74/2 .

2) وجاء في فتوى للقابسي ، المعيار ، 222/2 ، أن الديّة يدفعها المُطالَب بها ذهباً « إن كان من أهل الذهب » ، أو ورقاً « إن كان من أهل الورق » أو عروضاً « إن كان من أهل العروض » . وجاء في فتوى لابن أبي زيد أن أهل التلميذ يدفعون للمؤدّب « رُباعيّاً » ، ذهباً أو دراهم ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 و .

3) وورد ذكر نصف وربع الدرهم في معالم الإيمان ، 195/3 (ترجمة أبي سعيد خلف بن محمد الخولاني) فقد كان هذا المتعبّد ينفق درهمين في اثنين وثلاثين يوماً ، كلّ يوم خرّوبة . المقدسي ، 52-53 : نصف درهم = قيراط ، ربع ، ثُمُن ، نصف الثمن = خروبة . وإن كان المثقال يساوي 8 دراهم والدرهم يساوي قيراطَيْن ، فإن المثقال يساوي 16 قيراطاً .

4) F. Viré ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 73 ، رقم 127 : وهناك درهم آخر مطبوع باسم العاضد (555-567 هـ/ 1160-1171 م) ، نفس المصدر ، 80 رقم 155 .

5) المقدسي ، 52-53 والشماخي ، 369 وقد أورد هذه الإشارة الغريبة : يمكن لشخص أن يبيع بضاعة مقابل « قراريط (ج . قيراط) ، والمقصود بذلك « دراهم الحندوس » ، لأنّ القراريط داخلة في « أوزان الذهب » والدراهم داخلة «في أوزان الفضة » .

6) أبو الربيع (مذكّرات نقلها ح . ح . عبد الوهّاب عن مخطوط لهذا المؤلف) ، وقد أشار إلى رجل باع لشخص آخر مطحنة =

بالنقد النّحاسي[7] . ولكن قد تكون هاتان الإشارتان تتعلّقان بفترة موالية للعصر الصنهاجي .

وكان تحويل نقود الفضّة (الدّرهم والقيراط) إلى نقود نحاسيّة (الخروبة) من العادات الجاري بها العمل التي يسمح بها الفقهاء[8] .

وكان الصيارفة يقومون في نفس الوقت بدور أرباب المصارف[9] ، ويتعاطون نشاطهم على « مائدة »[10] .

ولم تكن العلاقة بين الذّهب والفضّة ثابتة ، إنّما كانت تتعرض لعدّة تقلّبات[11] .

وحسب البكري[12] ، كانت رائجة في مدينة تنّس النقود التالية : الدرهم الذي كان يساوي 12 درهماً صقليّاً ، والقيراط[13] وربع الدرهم والصقل (؟) والحبّة المزدوجة .

وكان صرف دينار الذهب ، ثمانية دراهم فضّة[14] . وسنرى أنّ إصلاح الدّرهم الفاطمي في

بستين قيراطاً ، وأوضح البائع للمشتري أنه يعني 60 قيراطاً ذهباً . وعند الدفع سلّم إليه المشتري 60 قيراطاً « حندسية » كانت رائجة آنذاك حسب العادة الجاري بها العمل ، وكانت العملة الرائجة في جربة الحندوس الذي يقوم عندهم إلى اليوم مقام الدرهم .

7) الشماخي ، 367 : « حناديس النحاس » « عرف جربة التبايع بالحناديس » .

8) فتوى التونسي وأبي عمران الفاسي ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 ظ ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 104/2 : كان أبو بكر بن اللبّاد (ت . 333 هـ/944 م) يعطي درهماً لتلميذه ابن أبي زيد الذي يذهب ليشتري له خضراً ويرجع له خراريب .

9) فتوى اللخمي البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 261/2 و ، مخطوط الرباط ، 117/2 و : ثمّ صرف دينار وقُسّم بين شريكَيْن ، فأخذ أحدهما الرّبع والآخر البقيّة . و« تعامل » هذا الأخير مع الصيرفي الذي أخذ منه الرّباعي مقابل قسط من الدراهم وترك له بقية الدراهم التي يسترجعها شيئاً فشيئاً . ومن البديهي أن هذا النوع من العمليات يمكن أن يشمل مبالغ أهمّ من ذلك .

10) المدارك ، 2-150/3 و (ترجمة ابن اللبّاد) .

11) فتوى عبد الحميد بن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2 ظ . ومخطوط الرباط ، 120/2 و . : تمّ تبديل الدنانير الموصى بها لفائدة فقراء المنستير بنقود فضّة ، وقد سمح القاضي بهذه العملية التي قام بها الوكيل وأطلق عليها اسم « الصرف الناجز » . وأثناء التوزيع انخفضت قيمة العملة ، فطالب الوكيل الورثة بدفع الفارق ، لأنّ الأموال (الدراهم) الموزّعة يجب أن تكون مطابقة لقيمة الدنانير (الذهب) الموصى بها .

12) البكري ، 62 .

13) جاء في فتوى قد يكون أصدرها اللخمي أن رجلاً قد سلّم إلى شخص آخر درهماً لصرفه مقابل قيراطين ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 261/2 و .

14) فتوى القابسي ، المعيار ، 118/3 . في حياة جبلة (ت . 299 هـ/911-912 م) ، كان صرف مثقال الذهب ، 12 درهماً ، وكان رُبع المثقال يساوي أقل من 4 دراهم ، وعلى الأرجح 3 دراهم ، المدارك ، 2-16/3 ط ، 17 و . في محرّم =

عهد الحاكم ، سنة 399 هـ/ 1008-1009 م ، ربّما كانت له انعكاسات على الصرف في إفريقية[15] . وفي عهد المعزّ بن باديس أُدخِلت إصلاحات هامّة على النّظام النّقدي ، أثناء فترة القطيعة مع الفاطميّين ، شملت في آن واحد أو على التوالي عُمْلتيْ الفضّة والذّهب ، وقد أشارت إلى ذلك الإصلاح بعض الفتاوى ، بالنسبة إلى عملة الفضّة ، وأخبار ابن شرف بالنسبة إلى عملة الذّهب .

وقد سُئِل التونسي عن « مراطلة » (أو موازنة) دراهم غير متجانسة ، بعضها ذات عيار أعلى من الفضّة ، وهي الدّراهم القديمة ، والأخرى ضُرِبَت منذ عهد قريب . وقد أجاز الفقيه هذه العمليّة ، ملاحظاً أنّ الدّراهم القديمة لو أعيد سبكها لإنشاء دراهم جديدة ، لفقد صاحبها الفائدة المنجرّة عن عيارها المرتفع من الفضّة ، ولَوُظّفت عليه رسومُ سَكّ النقود[16] . وبعد ذلك بمدّة أفتى السيّوري بجواز تبديل دراهم قديمة بدراهم جديدة « بلا مراطلة » ، دون التعرّض لأيّ عقاب ، إذا كان الأمر يتعلّق بمبلغ زهيد[17] . ولم يُذكَر الفارق بين النقود القديمة والنقود الجديدة ، من حيث عيار الفضّة ، ولكن تمّ التفكير ـ حسبما يبدو ـ في الطريقة التي يمكن أن يحدَّد بها ذلك الفارق على سبيل التقريب .

= 362 هـ/12 أكتوبر ـ 10 نوفمبر 972 م ، حدّد القائد الفاطمي جوهر الذي فتح مصر ، قيمة العملتين بثمانية دراهم فضة مقابل دينار ذهب ، **الاتعاظ** ، 183 . وفي عهد العزيز بالله كان صرف الدينار المعزّي (نسبة إلى المعز لدين الله) في مدّة وزارة يعقوب بن كلس ، 15 درهماً ونصف الدرهم ، المقريزي ، **نقود** ، 14 . وحسب ابن ميسّر ، انهارت أسعار المواد الغذائية في مصر في عهد العزيز ، في ربيع الأول 382 هـ/7 ماي ـ 5 جوان 992 م ، وكانت الدراهم القيروانية تساوي 15 درهماً ونصف الدرهم بالنسبة إلى الدينار ، وبلغت قطع الدراهم ما بين 77 و100 درهم بالنسبة إلى الدينار ، فتوقفت عمليات الصرف وضُرِبت دراهم جديدة . واشتريت قطع الدراهم من الصيارفة لسبكها ، بخمسة دراهم مقابل درهم واحد .

15) المقريزي ، **نقود** ، 14 : وفي عهد الحاكم بلغت قيمة الدراهم في ربيع الأول 399 هـ/3 نوفمبر ـ 2 ديسمبر 1008 م ، 34 درهماً بالنسبة إلى الدينار الواحد ، وانخفضت الأسعار بشكل مدهش ، ممّا دفع السلطة إلى سحبها من التداول . وأُخرج من القصر عشرون صندوقاً من الدراهم الجديدة التي وزّعت على الصيارفة ، وقُرِىء سجلّ يمنع أيّ معاملة بالدراهم القديمة . وأعطيت مهلة بثلاثة أيام لمن يملكون دراهم قديمة لدفعها بأكملها لدار الضرب . فاضطرب الناس ، وأصبحت قيمة أربعة دراهم قديمة تساوي درهماً جديداً واحداً . واستقر سعر قطع الفضة الجديدة في مستوى 15 درهماً بالنسبة إلى الدينار .

16) فتوى التونسي ، **المعيار** ، 77/6 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 250/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 103/2 و .

17) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 250/2 و ، مخطوط الرباط ، 103/2 و . قارن مع رأي اللخمي المتقارب حول المراطلة بوجه عام ، مع الإشارة إلى كتابه « **التبصرة** » وكتاب البرادعي ، « **التهذيب** » ، **المعيار** ، 44/5-45 .

أما بالنسبة إلى عملة الذّهب ، فقد أكّد ابن عذاري ، أن المعزّ بن باديس قد ضرب في سنة 441 هـ/ 1049-1050 م ، بعد حصول القطيعة مع الفاطميّين « الدينار المسمّى بالتجاري »[18] . ثم قدّم إلينا ، نقلاً عن ابن شرف ، المعلومات التالية حول ذلك الإصلاح النّقدي :

« وفي شوّال من تلك السنة (26 فيفري ـ 26 مارس 1050 م) نادى منادٍ بأمر السّلطان أبي تميم (المعزّ بن باديس) : أنّه من تصرّف بمال عليه أسماء بني عُبَيْد نالته العقوبة الشّديدة ، فضاقت الحال بالفقراء والضعفاء وغلت الأسعار بالقيروان . وكان الدّينار القديم بأربعة دنانير ودرهمين ، وكان صرف الدّينار الجديد خمسة وثلاثون درهماً »[19] .

فالشّهادات المقدّمة في هذا الشأن تبدو متطابقة ، ويمكن تشبيه الإصلاح النقدي الذي أنجزه المعزّ في سنة 441 هـ بإصلاح الحاكم في سنة 399 هـ[20] . والجدير بالملاحظة أنّ الدّنانير الصّنهاجيّة الأصليّة كانت مماثلة للدّنانير التي أصدرها بنو عُبَيْد في إفريقيّة قبل سنة 441 هـ ، من حيث القُطر والوزن والعيار . ومن جهة أخرى ، لا يمكن اعتبار الدّينار التّجاري الذي أمر المعزّ برواجه دون سواه ، مماثلاً للدّنانير المزدوجة والمثلّثة التي كان الفاطميّون يضربونها لتوزيعها كهدايا في بعض المناسبات الرّسميّة .

وفي الجملة يمكننا أن نستنتج من ذلك ، بقطع النظر عن فترات الأزمات ، أنّ الصّرف الإفريقي قد تطوّر قبل قدوم بني هلال في نفس الاتّجاه الذي اتّبعه الصّرف المصري . ولْنُحَاوِلْ تفسير ما وقع انطلاقاً من الملاحظات التالية :

1 ـ لقد شهدت إفريقيّة عهدئذ ، مثلها مثل مصر ، فترة طويلة من الازدهار تتخلّلها مجاعة كلّ عشر سنوات تقريباً .

2 ـ واتّجهت أسعار الموادّ الغذائية نحو الانخفاض . والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ ارتفاع الأسعار في مصر ، (نتيجةً لقلّة السّلع) ليس هو المتسبّب شيئاً فشيئاً في ارتفاع عدد الدراهم مقابل الدينار الواحد ، إنّما هو انخفاض الأسعار (نتيجة لتكاثر السّلع) .

3 ـ إنّ دراسة نقود الفضّة الفاطميّة التي ضُرِبَت في مصر طوال تلك الفترة ، تكشف لنا عن انخفاض تدريجي في عيار الدّراهم .

---

18) البيان ، 278/1 ، [انظر أيضاً ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ورقات ، ج 1 . ص 447] .

19) البيان ، 279/1 .

20) انظر الهامش السابق رقم 15 .

4 - وإنّ الحاجة إلى عملة الفضّة ترتفع كلّما انخفضت كمّية المواد المُستهلَكة الضرورية .

5 - ولئن كان الذّهب متوفّراً بكثرة سواء في إفريقية أو في مصر ، فإنّ الفضّة كانت نادرة في كلا البلدَيْن .

ويمكن أن نستخلص من ذلك ، الافتراض التالي : يتسبّب الازدهار في انخفاض الأسعار وارتفاع الحاجة إلى نقود الفضّة . إلاّ أنّ قلّة الفضّة الرقيقة تفرض الزيادة في عدد الدراهم وانخفاض عيارها ، وبالتالي ارتفاع عدد الدراهم اللاّزمة لصرف دينار واحد . وبناءً على ذلك ، فإنّنا نفترض عدم تغيير العلاقة بين الذّهب والفضّة (الدينار والدرهم الشرعيّان) ، على الأقلّ من الناحية النظرية . وقد كانت الدّراهم الفاطميّة نادرة جدّاً ، بحيث لا يمكن سبكها للتعرّف على عيارها الحقيقي . ومن الممكن أن يكون ذلك ممكناً في يوم من الأيّام . ذلك أنّ المقارنة بين تطوّر العنصرَيْن (عدد الدراهم المقابلة للدينار وعيار الدّرهم) من شأنها أن تكون مفيدة جدّاً . وليس من المُستبعَد أيضاً أن تكون وفرة الذّهب وقلّة الفضّة قد تسبّبتا في انخفاض قيمة المعدن الأوّل بالنسبة إلى الثاني[21] .

وقد أكّد الجغرافي المقدسي (ت . بعد سنة 378 هـ/ 988 م) أن نقود الذّهب والفضّة في كافّة الأقطار الفاطميّة كانت تُعَدّ بالقِطَع ، في حين كانت عملة الذهب في المشرق تُحسَب دوماً وأبداً بالوزن لا بالعدّ[22] . وتبدو هذه الشهادة غريبة ، لا سيما وقد أشارت كثير من الفتاوى إلى مراطلة سكّة الذّهب والفضّة . وليس من المستبعد أن يكون هذا المؤلّف قد أشار بالخصوص إلى الصّفقات القليلة الأهمّيّة التي أجاز بشأنها فقيه صنهاجي واحد على الأقلّ ، وهو السيّوري ، الإعفاء من « الموازنة »[23] ، وربّما لأنّ المعاملات التجاريّة تتمّ عادة على أساس القِطَع المعدودة لا الموزونة ،

21) حسب دراسة (F. Viré) ، جميع أنصاف وأرباع الدراهم الزيرية التابعة لمجموعة ح . ح . عبد الوهّاب مفضضة بل حق مغشّاة بطبقة من الفضة .

22) المقدسي ، 53-54 والهامش 137 .

23) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 250/2 و ، مخطوط الرباط ، 103/2 و : رداً على سؤال حول صرف دراهم قديمة مقابل دراهم جديدة بلا موازنة ، أجاب السيوري أن ذلك جائز ، بالنسبة إلى كمية قليلة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى صرف دينار ، مقابل دينار أثقل . ولكن هذه العملية ممنوعة إذا كان الأمر يتعلق بكمية كبيرة ، « نظراً لاختلاف الأعراض » . وحسب أبي حفص عمر بن العطّار (المعيار ، 78/6) يجوز وزن الدراهم المشتملة على النحاس ، لأن المقصود بذلك تداول القطع لا شراء عرض مقابل معدن الفضة . وجاء من فتوى للتونسي ، المعيار ، 77/6 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، مخطوط الرباط ، 103/2 و : « أجاز أصحابنا وزن التبر الجيّد بمسكوك دني » .

فقد أوضح المقدسي ما يلي : « ولا يُرَخِّصون في المعاملة بالقِطَع »[24] . ويجب قانونيّاً أن يكون وزن الدينار الفاطمي الرفيع العيار ، المضروب في إفريقيّة أو غيرها ، حوالي مثقال[25] .

ويتجزّأ الدينار أو مثقال الذّهب[26] إلى نصف دينار ورُبُع دينار (أو رُباعي)[27] ، وثُمُن دينار (أو ثُماني)[28] . وبما أنّ سُدُس الدّينار (أو سُداسي) لم يرد ذكره إلاّ في نصّ واحد[29] ، ولم يُشِر إليه أيّ مختصّ في المسكوكات ضمن النقود الفاطميّة والصنهاجيّة ، فإنّ وجوده مشكوك فيه إلى أبعد حدّ . ولعلّ الأمر يتعلّق بجزء صوري من الدينار . ومن ناحية أخرى فإن الصّنج الوحيد المساوي لضعف الدينار ، المعروف في الوقت الحاضر ، والذي عُثِر عليه في البلاد التونسية ، قد طُبع باسم المعزّ لدين الله الفاطمي[30] .

---

24) المقدسي ، 52-53 .

25) يتراوح وزن الدنانير الفاطمية الزيرية بين 3,62 غ و4,36 غ . المقدسي ، 52-53 . وكان الدينار الفاطمي يزن مثقالاً إلاّ حبّة (حبة شعير ، ما بين 70 و71 م . م . غ تقريباً) ، أي حوالي 4,18 غ (وعلى الأرجح 4,21 غ) . فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 و : إيجار « قاع » منزل مقابل 8 حبّات مرابطية من الذهب . وقد أراد المستأجر دفع الكراء بالحبات ، بحساب 76 حبّة مقابل مثقال ، في حين طالب صاحب المنزل بدفع 72 حبة مقابل مثقال ، وأجاب ابن أبي زيد أن المعلوم الواجب دفعه هو 8 حبّات ، تبلغ قيمتها الجملية تُسْع المثقال (أي 72 حبّة مقابل مثقال) . Dénéroux, F. Viré . . . كرّاسات تونسية ، 1956 م ، 47-48 : يتمثل معدّل موازين النقود ، حسب وزن الصنوج الفاطمية ، فيما يلي :

1) الذهب ، الدينار المزدوج : 8,500 غ ، الدينار : 4,190 غ ، ربع الدينار : 1,037 غ . 2) الفضة ، الدرهم المزدوج : 5,950 غ ، الدرهم : 2,975 غ ، نصف الدرهم : 1,487 غ ، ربع الدرهم : 0,743 غ .

26) انظر بالخصوص ، فتوى المازري ، المعيار ، 115/8-116 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 121/2 و ، ظ . المقدسي ، 52-53 : لم يذكر إلا الربع .

27) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 و . كان مؤدب صبيان يتقاضى نصف دينار في السنة : ربع دينار معجّل وربع مؤجّل . فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 261/2 و ، مخطوط الرباط ، 117/2 و ، المعيار ، 233/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 60/2 ظ ، 61 و . المختصر ، 121 و .

28) لم ترد كلمة « ثُماني » عوض ثُمُن إلاّ في فتوى لابن محرز (ت . 450 هـ/1058) ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 181/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 22/2 و .

29) أشارت فتوى ابن محرز المشار إليها أعلاه إلى « دنانير ثُمانية وسُداسية » . وأشار ساجدة شكري إلى ثلث دينار مضروب في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم (386-411 هـ/996-1002 م) ، مجلة سومر ، المجلّد العاشر ، بغداد ، 1951 م ، عدد 1 ، 132 .

30) F. Viré ، المرجع المذكور .

وقد كانت الدّنانير المغربيّة رائجة في بلاد المشرق التابعة للخلافة الفاطميّة[31] ، والدنانير المرابطيّة رائجة في إفريقيّة[32] .

وليست لدينا سوى معلومات قليلة حول قيمة النّقود التي ضربها بنو حمّاد وملوك الطوائف الذين استبدّوا بالحكم بعد غزوة بني هلال[33] . ولا شكّ أن النّقود الأولى كانت شبيهة بنقود بني زيري والنّقود الثانية ربّما كانت مُفضّضةوأقـلّ قيمة[34] ومن المحتمل أن يكون الدينار الصفاقسي مساوياً للدينار التميمي (أي الذي ضُرِب في عهد تميم بن المعزّ)[35] .

---

31) الخطط ، 335/2 ، المجلة التونسية ، 1936 م ، 341 : في سنة 427 هـ/ 1035-1036 م سُمِح باستعمال الدنانير المغربية في المعاملات ، وقد كانت ممنوعة في السابق من طرف الحاكم نجوم ، 101/5-102 (السّنة 468 هـ) .

32) فتوى ابن أبي زيد، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 و : حبّة مرابطية . فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 35 ، 8 ظ ، المعيار : 302/10-303 : صداق بمائة دينار مرابطية . فتوى المازري : المعيار ، 131/8-132 : دنانير مرابطية سُلّمت بعنوان قراض ، وفتوى نفس الفقيه ، المعيار ، 295/10 . فتوى أبي القاسم المناوي السوسي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 60/2 ظ .

33) [انظر، ح . ح . عبد الوهاب ، ورقات ، ج ، 1 ، ص 449 ، (أمراء الطوائف)].

34) انظر الفصل السادس من الباب الثامن .

35) نفس الفصل .

الفصل السّادس
الموازين والمكاييل

كان المثقال الذي يمثّل وحدة الوزن ، يعادل تقريباً وزن الدينار ، في حين كـان الدرهم الكيل يعادل الدرهم النقد[1] .

وكان الصّنج الفاطمي[1م] ، أو ميزان الزجاج المستعمل لوزن النقود ، يحمل طابعاً مماثلاً لطابع الرطل . ومن بين الصنوج أو أجزاء الصنوج التي عُثِر عليها في قلعة بني حمّاد ، يوجد صنج مطبوع باسم الخليفة الفاطمي الحاكم[3] .

وحسب المقدسي ، كانت المكاييل الفاطميّة تسمّى الدّوار ، وهي أرفع بقليل من الويبـة المصريّة . ويشتمل جزؤها الأعلى على عارضة معدنية متّصلة بالقاع بواسطة محور عمودي مرتكز على قطعة حديدية تدور فوق فتحة المكيال . فإذا امتلأ المكيال يتمّ تدوير القطعة الحديدية التي تسوّي المحتوى بمستوى الفتحة وتسمح بالتعرّف على الكيل المضبوط[4] .

والغالب على الظن أن الإشارة الموالية التي أوردها نفس المؤلف تهمّ العصر الصنهاجي : « وأرطالهم رصاص على كلّ رطل اسم أمير المؤمنين (الفاطمي) وصنوجهم من زجاج مطبوع كما ذكرنا من الأرطال »[5] .

---

1) لا ندري ما هي قيمة المثقال الزيري : 4,25 غ أم 4,21 غ ؟ وكذلك الشأن بالنسبة إلى درهم الوزن الذي كان يزن نظرياً 7/10 المثقال ، أي 2,97 غ ، مقابل مثقال شرعي أي 4,25 غ ، وبالنسبة إلى نصف الدرهم أو القيراط ، والحبّة . انظر ، المقدسي ، 53 والهوامش 134 ، 138 ، 139 ، 140 ، 142 ، ويرنشفيك ، إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 2/259-264] .

1 م) [انظر ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ورقات ، 1/419-424 ، الصنوج] .

2) المقدسي ، 52-53 ، والهامش 141 ، انظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، الذيل ، 4/208 ، جورج مارسي وليفي بروفنسال ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1937 ، 6-11 وبالخصوص F. Viré ، الكرّاسات التونسية ، 1956 م ، 17-90 .

3) Objets Kairouanais ، 2/375 والهوامش .

4) المقدسي 50-51 .

5) نفس المصدر ، انظر أيضاً ، ج . مارسي وليفي بروفنسال ، المرجع المذكور .

وتناولت بالدّرس فتوى ، يبدو أنها صادرة عن المازري[6] ، قضيّة شخص « يتـولّى طبع المكاييل » بطابع القاضي ، بمحضر الأمير . وقد زُجّ به في السجن لأنه وُجد عنده طابع مماثل لطابع القاضي كان يستعمله لطبع المكاييل ، في غياب الأمير . فإن تصرّف المعني بالأمر عن حسن نيّة ، تُعتبر عقوبة السجن كافية ويُقتصرَ على تهديده ، لكي لا يرتكب نفس الخطيئة مرّة ثانية . وفي حالة العكس ، تُسلّط عليه العقوبة التي تستوجبها خطورة الجريمة .

وأكّد المقدسي أن الرطـل المستعمل في الكيل هو البغدادي ، ما عدا بـالنسبة إلى الفلفـل (البهار) ، إذ يفوق الرطل الفلفلي الرطل البغدادي بعشرة دراهم كيل . وهذا الرطل هو الرائج عهدئذ في بلاد المغرب التابعة للخليفة الفاطمي[7] .

وكان رطل تونس يزن 12 أوقية ويساوي 12 درهماً[8] . وقد أكّد البكري أن الرطل المستعمل في القيروان لوزن اللحم والتين وغير ذلك من الموادّ الغذائية ، يساوي عشرة أرطال فلفلي[9] . كما ذكر أنّ « الطعام » (أي القمح) يُكال في باغاية بالويبة التي تساوي 64 مُدّاً نبويّـاً ، أي قفيزاً ونصف القفيز من مكاييل قرطبة . ويُكال الزيت بقفيز الزيت القيرواني الذي يساوي 5 أربـاع مكاييل قرطبة ، ويزن رطل اللحم 20 رطلاً فلفليّاً[10] .

وفي عصر المازري اعترفت امرأة غاب عنها زوجها في صقليّة منذ 5 سنوات ، بأنه ترك لها

---

6) البرزلي ، المختصر ، 143 و . وبما أنّ اسم المازري لم يتكرّر ذكره فلعل الأمر يتعلق ببقية الاستشهاد السابق المنقول عن التعليقة ، لأبي حفص عمر بن العطّار ، ولكنّ هذا الافتراض مستبعد على أن ذلك لا ينقص من قيمة النص ، بل بالعكس .

7) المقدسي ، 50-51 والهوامش 125-126 ، درهم كيل = 2,975 غ ، رطل بغدادي = 128 درهماً كيل = 380,8 غ ، رطل فلفلي = 380,8 غ +29,75 غ = 410,55 غ ، انظر ، برنشفيك ، المكاييل التونسية ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1937 م ، 86 ، والعهد الحفصي ، لنفس المؤلف [الترجمة العربية ، 264/2] .

8) المقدسي ، 52-53 والهامش 142 : أوقية = 37,776 غ ، رطل تونسي = 453,312 غ ، إذا افترضنا أن الدرهم الوزن يساوي 3,148 غ . وإذا كان الدرهم الكيل يساوي 2,975 فإن الأوقية تساوي 35,7 غ والرطل التونسي يساوي 428,4 غ . انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 260/2] ، يبلغ وزن الأوقية 31,48 غ .

9) البكري ، 27 ، برنشفيك ، المرجع السابق [الترجمة العربية 261/2] : الرطل العطاري = 16 أوقية ويبلغ وزنه 504 غ . ويستعمل لوزن الذهب والمواد الثمينة والمعادن ، والرطل السوقي الذي يساوي 18 أوقية ويزن 567 غ ويستعمل لوزن المواد الغذائية . وإذا كان الرطل الفلفلي يساوي 410,55 غ ، فإن الرطل المستعمل في القيروان لوزن المواد الغذائية يزن 4,105,5 غ .

10) البكري ، 145 : قفيز باغاية = 512 مدّا نبويا = 0,733 ل × 512 = 375 ل . وبالنسبة إلى البكري يساوي القفيز القيرواني 192 مدّا قيروانياً = 204 مدّاً نبويّاً = 0,733 ل × 204 = 149,532 ل والمدّ القيرواني يساوي : =

عدّة أشياء من بينها « رطلان بوزن صقلية من القطن المندوف »[11] . ويمكن أن نستخلص من ذلك أن الرطل المعمول به في إفريقيّة ، وبلا شكّ في المهدية ، كان يختلف عن رطل صقلية . ومن ناحية أخرى ، لا نعلم أي شيء عن قيمة القنطار في العصر الصنهاجي[12] .

وفي القيروان كانت الحبوب والموادّ الجافة تُكال بالقفيز الذي يساوي 8 ويبات ، وبما أن الويبة تساوي 4 أثمان ، والثمنة تساوي 6 أمداد ، فإن القفيز القيرواني كان يشتمل على 32 ثمنة و 192 مُدّاً قيروانياً[13] .

ولتقدير الزكاة ، كان الفقهاء يستعملون الصاع النبوي الذي يساوي 4 أمداد نبوية ، والوسق الذي يساوي 60 صاعاً نبويّاً . وقد حدّد ابن أبي زيد القيرواني نصاب الزكاة بخمسة وسوق (من الحبوب أو التمور) ، أي ستة قفيزات وربع القفيز ، فيكون النصاب حينئذ : 60 × 4 × 5 = 1200 مدّ نبويّ . وهذا يعني أن القفيز يساوي : $\frac{1200}{6,25}$ = 192 مدّاً نبويّاً ، باعتبار أنّ المدّ النبوي يساوي بالضبط المُدّ القيرواني[14] . ولكن العلاقة بين المدّ النّبوي والمدّ القيروان قد تغيّرت .

$\frac{149,532}{122}$ ل = 0,7788 لتر . انظر برنشفيك ، المكاييل ، المجلة الإفريقية ، 1935 ، 87-88 . إدريس ، المكاييل ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 119-126 . وإذا كان الرطل الفلفلي يساوي 410,55 غ فإن رطل اللحم في باغاية يساوي 8211 غ .

11) فتوى المازري ، المعيار ، 236/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 64/2 ظ .

12) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 261/2] : يساوي القنطار مائة رطل ذات 16 أوقية أي 50,4 كغ . وفي بجاية وتونس يساوي قنطار الكتان 150 رطلاً أي 75,6 كغ . وفي عنابة كان القنطار يزن 4 أرطال من القنطار المعمول به في بجاية وتونس أي 48,3 كغ .

13) في فتوى للمازري ، المعيار ، 236/3 أشير إلى قفيز قمح وثُمنيّة ، ولكن البرزلي قرأها ثُمنة ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 64 ظ . وإذا كان المدّ القيرواني يساوي 0,733 لتراً ، فإن القفيز القيروان يساوي 140,736 لتراً . المقدسي، 51 ، الهامش 128 : 144 لتراً ، وقد قدّر المدّ النبوي بـ 0,75 لتراً . برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 262/2] : يساوي القفيز القيرواني 187,58 لتراً ويتجزأ إلى 16 ويبة ، تساوي كل واحدة منها 11,72 لتراً . ويساوي قفيز تونس الوسق الشرعي أي 175,92 لتراً ويتضمن 10 صفحات ، وتسمى الصفحة أيضاً ويبة وتساوي 17,59 لتراً . وتشتمل كل صفحة على 12 مدّاً ، ويسمّى المدّ أيضاً الصاع الذي يساوي 1,46 لتراً . ويساوي قفيز طرابلس حوالي 252 لتراً . وفي عنابة والقلّ وقسنطينة كان الناس يستعملون لوزن الحبوب الثمنة أي ثمن القفيز التي تساوي 23,13 لتراً في عنابة و 20,69 لتراً في القلّ . انظر إدريس : المكاييل في العصر الصنهاجي ، الكراسات التونسية ، 1956 ، 119-126 .

14) رسالة ابن أبي زيد، 128-129 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 226/1 ظ . وبالنسبة إلى سحنون أيضاً ، النصاب = 6,25 =

وكنّا في دراسة سابقة[15] قد استخلصنا من بعض النصوص المتعلّقة بهذا الموضوع النّتائج التالية :

1 ـ كان فقهاء القيروان في القرنين التاسع والعاشر من الميلاد ، يعتبرون أن المدّ القيرواني يساوي بالضبط المدّ النبوي .

2 ـ وفي أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن الحادي عشر ، تحت تأثير اندفاع المذهب السنّي في العصر الصنهاجي ، اعتبر الفقهاء أن المُدّ القيرواني أقلّ من المُدّ النبوي .

3 ـ لا شيء يدلّ على أنّ المُدّ القيرواني قد تغيّر .

4 ـ لم يكن فقهاء القيروان متّفقين فيما بينهم حول قيمة المُدّ النبوي (المدّ المثالي الذي يحاولون تصوّره من جديد) ، وقيمة الفارق بينه وبين المُدّ القيرواني .

5 ـ بالنسبة إلى الحاجات الدينيّة العملية ، استنبط الفقهاء مُدّاً يساوي مُدّاً قيروانياً وثُمن المُدّ ، ولعلّ هذا الثُمن يمثّل أقصى فارق مفترض بين المُدّين ، إذ أن أهل القيروان يعتبرون أن الفارق بين المدّ المحلّي والمدّ النبوي النظري يبلغ 6 أمداد ، بالنسبة إلى القفيز الواحد .

6 ـ وقد اعترض بعض الأجانب على نظرية فقهاء القيروان في القرن الحادي عشر .

7 ـ يبقى من الصعب التعرّف على مصير الإصلاح الذي تمّ في القيروان في العصر الحديث ، وتوضيح الظروف التاريخية التي حفّت بتحديد المُدّ النبوي بما قدره 0,733 لتراً في بلاد المغرب الشرقية .

وبالنسبة إلى الزيت ، كان المكيال المستعمل يتمثل في قفيز الزيت الذي يساوي ثلاثة أرطال

قفيز قيرواني ، المعيار ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 225/1 ظ انظر ، إدريس ، المرجع السابق ، وينبغي أن تضاف إليه المعلومات الموالية . المقري ، طبعة 1949 ، 271-270/3 . وأجاز السيوري (المعيار ، 55/2) قضاء الكفارة بالمدّ القيرواني بلا زيادة . ولكن فيما بعد ، في فتوى صادرة عن اللخمي ، المعيار ، 289/9 ، تساءل أحدهم هل ينبغي قضاء الكفّارة بالمدّ القيرواني أم بالمدّ « الوافي » ؟ فتوى ابن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبدالوهاب، 9227/2 ومخطوط الرباط ، 72/2 ظ : أراد سكان بلدة التنقيص من الصاع القديم ، ولا شك أن الأمر يتعلق بالصاع الشرعي المعروف بالصاع النبوي لتحويله إلى صاع قيرواني . وإذا كانت هذه العملية صحيحة ، فهل يمكن أن تتم في فترة قحط وحسب الاقتضاء من طرف بائع طعام ؟ وقد أجاب المفتي بما يلي : إذا كان هذا المكيال شائعاًبين الناس فلا ينبغي تغييره بلا ضرورة . وهذا دليل آخر على أن المدّ القيرواني أقلّ قيمة من المدّ الشرعي ، وعلى استمرارية نظرية فقهاء القيروان حول هذا الموضوع ، بعد مدّة طويلة من غزوة بني هلال .

15) الهادي روجي إدريس ، المرجع المذكور ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 126 .

فلفلية ، والمطر الذي يساوي خمسة قفيزات زيت[16] ، والقلّة التي ربّما كانت تساوي ثلاثة أمطار[17] . كما تستعمل أيضاً الحفنة والقبضة[18] .

وقد أشارت المصادر إلى مقياس واحد للمساحة في العصر الصنهاجي ، وهو الزَّوْج الذي يعادل المساحة المحروثة بواسطة دابّتين مقرونتين في الموسم الواحد[19] .

وممّا لا شكّ فيه أنّ مقياس الطّول كان يتمثل عصرئذ في الذراع وتقاسيمه وهي : الشبر والقبضة والإصبع . كما يتمثّل في قامة الإنسان التي يتراوح طولها بين 1,65 و 1,70 متراً[20] .

وربّما كانت المسافات تُقدَّر بالميل (1,453 متراً) الذي يشتمل على 1000 خطوة (وتساوي الخطوة 1,45 متراً أي 3 أذرع) . وتُقدَّر أيضاً بالساعة والمرحلة (المسافة التي يقطعها المترجّل في اليوم)[21] .

---

16) البكري ، 27 ، انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 262/2] : يبدو أن مطر تونس وجربة كان يساوي 20,69 لتراً في العصر الحفصي .

17) فتوى القفصي واللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 37/1 و : حوّل شخص زيتاً من « خابية » تحوي حوالي 11 مطراً إلى خابية أخرى تحوي ما يعادل ثلاث « قلال » تقريباً . وحول الجرّة الحفصيّة « التي يبدو أنها كانت تساوي في تونس ثلاثة أمطار أو حوالي خمسين لتراً ، بدون أن نعلم هل أن تلك العلاقة بين المطر والجرّة ، كانت مضبوطة بدقة أم لا » ، انظر ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 262/2] .

18) نفس المرجع .

19) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 8/144-145 ، البرزلي - مخطوط الرباط ، 193/2 ظ ، انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 264/2 .

20) الإدريسي ، 136 ، 261 ، برنشفيك ، نفس المرجع : الذراع = 0,48 متراً ، الشبر = 0,24 متراً (نصف الذراع) ، القبضة = 0,08 متراً (4 أصابع وسدس ذراع) ، الأصبع = 0,02 متراً (الجزء الرابع والعشرين من الذراع) . واستعمل الإدريسي ، 139 ، الذراع الرشاشي الذي يساوي 3 أشبار ، ويقول المقري إنه « الذراع المكي المعروف بالرشاشي » ، ستوريا ، 209/2 ، الهامش 3 .

21) برنشفيك ، نفس المرجع ، 264/2 .

الفصل السّابع
التجـارة الداخليّـة

لقد كان الوسطاء يقومون بدور أساسي في التجارة خلال العصر الصنهاجي ، فكان يُعهَد بدنانير وحليّ (من الذهب) إلى الصيارفة ، وبعبيد ودوابّ إلى النخّاسين[1] . وكـان السماسرة والدّلالة (دلّال) يقـومون بنشـاط حثيث . ويبدو أن بعض السـماسرة كانـوا بمثابـة « الوكـلاء الطوّافين » (المتنقّلين)[2] . وكانت أجورهم تثـير عدّة نـزاعات[3] . وكـان المنادي (الـدلّال) يتقاضى أجرة ، حتى ولو لم يبع السلعة التي يعرضها على الحرفاء . وقد عُهِدَ بكمية من السكّر إلى سماسرة متتابعين . والتمس أحد المشترين من سمسار أن يوفّر له ملابس من الحرير .

وقبل غزوة بني هلال كان الوسطاء يبيعون لحساب الغير الملابس والدوابّ والعبيد على وجه الخصوص . وقد أشارت بعد المصادر إلى شركة مكوّنة بين عدد من السماسرة[4] . وأثبتت مصادر أخرى وجود سندات بأتمّ معنى الكلمة ، تأذن المُرسَل إليه بتسليم مبلغ معيّن إلى حاملها[5] .

ولم يعترف القابسي بصحّة عقد مبرمْ بين شخصَينْ متعاملَينْ تعهّداً بمقتضاه بإعطاء ممتلكاتها لمن يبقى منهما على قيد الحياة بعد وفاة الآخر[6] . كما استنكر ، على غرار الإمام سحنون ، إقراض كميّة من الشعير إلى أشخاص يتعهّدون بإرجاعها من المحاصيل الزراعية الموالية[7] .

---

1) فتوى أبي محمد بن أبي زيد ، المعيار ، 8/199-211-212 .

2) المعيار ، المصدر المذكور . ومن الجدير بالذكر أن الإبياني (ت . 352هـ/964م) قد ألف مجموعة عنوانها « مسائل في السماسرة » نُقلت مقتطفات منها في المعيار ، ويملك ح . ح . عبد الوهّاب مخطوطة منها . نقائش عربية ، 1/386-387 : قبريّة ستّ الأهل بنت أحمد بن إبراهيم السمسار الأبزاري ، توفيت في 421 هـ/1030 م .

3) فتاوى أبي محمد بن أبي زيد والقابسي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، المعيار ، 5/176-177 ، 8/198-199 .

4) أبو عمران الفاسي ، نفس المصدر ، 8/226 .

5) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 9/76 ، مناقب ، 30-221 .

6) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/99 .

7) فتوى القابسي ، البرزلي ، المختصر ، 68 ظ ، 69 و .

ولقد استحوذ بنو هلال على معظم الماشية الإفريقية وفرضوا على الفلّاحين ضرائب عينيّة . كما أصبحوا يتحكّمون في الطرقات ، وقد وظّفوا رسوماً على القوافل ، وتولّوا حمايتها مقابل دفع معاليم مالية ، بل كانوا يسهرون على تنظيمها ، هم بأنفسهم[8] .

وأشارت بعض الفتاوى إلى ما أسفرت عنه غزوة بني هلال من عواقب وخيمة على اقتصاد البلاد ، تتمثل بالخصوص في تقلّبات الأسعار والابتزازات وأعمال النهب . وقد خشي تاجر في القمح والشعير والزيت أن يصبح محتكراً ، على كُرْهٍ منه[9] .

وعرض سمسار للبيع حمولات من حبوب الحنّاء لحساب مُوَكِّليه ، فبلغ القنطار ثمناً معلوماً ، واشترى بعض الناس (كميّات قليلة لا محالة) لزرعها . وكان أحد التجّار يشتري أحياناً كامل الكميّة لبيعها فيما بعد بالتفصيل بأرباع معيّنة . وقد أقرّ المفتي صحّة هذه الصفقة ، شريطة أن لا تضرّ بالمصلحة العامّة[10] .

وانتشر البيع « بالثمن المؤجّل » في المدن والبوادي . من ذلك أنّ رجلاً قد وظّف رأسماله في التجارة ، فكان حرفاؤه يسدّدون المبالغ المتخلّدة بذمّتهم بالتقسيط (الثلث ، والربع ، وهلمّ جرّاً . .) ، مع تداخل آجال الدفع بسبب سوء نيّة المدينين ، فاستفسر التاجر عن كيفيّة أداء الزكاة . وأجاب اللخمي أنه يتعيّن عليه أداءها على غرار « المُدير » ، أي التاجر الذي يشتري ويبيع بالسعر الجاري به العمل ، مع تجديد التموينات بحسب الحاجة . كما يجب عليه ضبط حساباته في آخر كلّ سنة ، بتقويم السّلع التي بين يديه ، على أن يتمتع بمهلة شهر لتسديد ما يتعيّن عليه دفعه[11] .

وباعت امرأة منزلاً بمائتي دينار مدفوعة بحساب أربعة دنانير في الشهر[12] . كما بيعت كميّة من الصابون « في آخر الموسم » بسعر يتراوح بين 13 و14 دينار القنطار . وحسب « العارفين في التجارة » ، يسوى القنطار في أوّل الموسم 10 دنانير ونصف الدينار ، وفي منتصف الموسم ما بين

8) فتاوى السّيوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 222/1 و . ظ . المختصر 26 و ، 26 ظ ، المعيار ، 295/1 ، فتاوى المازري حول جواز شراء اللحم من المجزرة ، نفس المصدر ، 213/6 ، 223-225 ، 421/9-422 .

9) فتوى ابن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 226/2 و . ظ . مخطوط الرباط ، 71/2 و . ظ .

10) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 226/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 71/2 ظ .

11) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر 235/1 و . ظ . وجاء في فتوى للمازري أنّ بضاعة بيعت بالثمن المؤجل تسوى أغلى من المباعة بالثمن النقد ، المعيار ، 103/6 .

12) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 172/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 12/2 ظ .

11 و 11 دينار ونصف الدينار . ولا شكّ أنّ المقصود بالموسم فترة جني الزيتون وصنع الزيت[13] .

ولاذ بالفرار رجل أعمال كان يستثمر أموال جميع سكّان إحدى المدن ، بل كان يتّجر مع بعض « مستغرقي الذمّة »[14] .

وأقرض ذمّي دنانير إلى تاجر في سوق الزيت . فاعترف هذا الأخير بتسلّم ذلك المبلغ الذي اشترى به زيتاً بإذن من دائنه الذي ادّعى أنه لم يتسلّم سوى ثمانية دنانير[15] .

ويرى فقهاء المالكية أنه لا يجوز شرعاً إبرام أيّة صفقة مع النهّابين الهلاليّين المثقلين بالديون . وينبغي للرجوع إلى حظيرة المجموعة ، أن يتوب هؤلاء المارقون ويتصدّقوا بما اكتسبوه من أموال في السابق . إلاّ أن الفقهاء قد اضطرّوا إلى التخفيف من هذه الأحكام المتشدّدة ، فسمحوا للتائب بتسديد ما تخلّد بذمّته شيئاً فشيئاً[16] .

وفي عصر المازري ، كان أهل البادية مضطرّين في أيّام الحرب إلى شراء قوتهم بالتأجيل . وعند الحصار لم تكن لديهم الأموال اللاّزمة لتسديد ديونهم ، إنما لديهم « الطعام » (أي الحبوب) ، فيكون الدائن مضطرّاً إلى قبول ذلك الطعام ، خوفاً من عدم تمكّنه من استيفاء حقّه ، نظراً لفقر المدينين وانعدام الحكّام في البادية . وقد أفتى المازري بجواز تسديد سعر الطعام المُقتَرَض بالطعام . فإذا تعذّر على المدين تسديد دينه نقداً ، يجب عليه أن يكلّف شخصاً ببيع طعامه في العاصمة ، حتى يتسنّى له تسديد دينه نقداً[17] . ويبدو أن المازري قد سمح في فتوى أخرى للدائنين باستيفاء حقّهم عيناً ، متعلّلاً بالضرورة وفقر المدينين وغياب الحكّام في البادية وتسامح المذهب (المالكي) في مثل هذه الحالات[18] .

---

13) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 182/2 و . ظ ، مخطوط الرباط ، 23/2 و .
14) فتوى المازري ، المعيار ، 417/9 .
15) فتوى المازري ، نفس المصدر ، 293/2 .
16) فتوى السيوري ، نفس المصدر ، 411/11 ، فتوى المازري ، نفس المصدر ، 105-104/6 ، 103-102/6 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 231/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 78/2 و : إشارة إلى رأي اللخمي في كتاب الأكرية حول منع مساعدة عرب إفريقية ، بتمويلهم أو منحهم حق اللجوء إلى الزوايا للهروب من الذين يريدون الانتقام منهم . ويبدو أن هذا المنع قد جاء متأخّراً ، انظر ، المعيار ، 50/6 .
17) فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 68 ظ ، 69 و . المعيار ، 214/6 ، 227-226 ، 313/10 .
18) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 47/2 و . ظ .

وأمدّتنا فتوى أخرى لنفس الفقيه[19] بمعلومات حول الأهمية التي يكتسيها المصرف في العمليّات التجارية والتعامل بالأوراق المالية في مدينة المهديّة على الأرجح .

« وكان الكتّانون والقطّانون والزيّاتون والجزّارون والحنّاطون »[20] يدفعون ما تحصّلوا عليه من دراهم للصّيارفة الذين يتعهّدون بتسديدها إليهم فيما بعد بالدنانير . ويبدو أنّ هذه العمليات الربويّة ، حسب الفقه المالكي ، كانت موضوع عقود لم نتعرّف على صيغتها ، ويا للأسف . وكان هؤلاء التجار بالجملة (؟) لا يسدّدون ثمن السّلع أو الحبوب المُسلَّمة إليهم من طرف تجار آخرين والمقوّمة بالدينار ، بل يدفعونه بواسطة الديون المتخلّدة في ذمّة الصيارفة . ويتعلّق الأمر « بحوّالة » ، أو تحويل دين إلى حساب الغير . فالبائع هو المدين « المُحيل » ، والمزوّد هو الدائن « المُحَال » ، والصيرفي هو المدين « المُحَال عليه »[21] . إلاّ أنّ المزوّدين الذين لا يدركون دائماً طريقة الدفع بالحوّالة ، كانوا يخشون عدم قبض الذهب مقابل السلع التي باعوها . فهل نفهم من ذلك أن الصيارفة كانوا يسدّدون ثمن تلك السلع بالدراهم ؟ ومن ناحية أخرى فإن معظم أولئك التجار كانوا فقراء بلا حماية[22] .

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن المصارف كانت تتحكّم في جميع العمليّات التجارية وتُحابي التجّار الكبار على حساب الصغار الذين هم في وضع غير ثابت . وكانت الصفقات المقدّرة بالذهب الصّوري ، تتمّ عملياً بواسطة الفضّة ، نظراً لقلّة المسكوكات الذهبيّة . ذلك أن غزوة بني هلال قد أوقفت تدفّق الذهب السوداني . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن الفوضى قد تفاقمت حتى جعلت إفريقيّة مضطرّة إلى شراء الحبوب من صقلية . وبما أنّ النرمان كانوا يشترطون تسديد ثمن سلعهم بالذهب ، فقد لوحظ نزيف حقيقي للمعدن الأصفر ، وتميّز الوضع في المهدية بنقص فادح في الذهب ، وضرورة اللجوء إلى أعمال القرصنة للحصول عليه (الاستحواذ على السلع الثمينة وقطع الذهب ، والقبض على أسرى النصارى ثم إطلاق سراحهم مقابل فدية مدفوعة ذهباً) .

وفي عصر اللخمي كان الجزّارون ، ولا سيما أشدّهم فقراً ، يجدون صعوبة كبرى لشراء

19) فتوى المازري ، المعيار ، 212/6 ، 219 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 3/ الكراس 36 ، 8 و . مخطوط الرباط ، 106/2 ظ ، 107 و .

20) [أي باعة الكتّان والقطن والزيت واللحم والحبوب] .

21) وحول هذه المصطلحات انظر ، سيّوس ، 31 ، 139-140 ، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، 284/3-298 .

22) لقد تم تحريف الجملة الأخيرة من السؤال ، حسبما يبدو ، وهي ربّما تشير إلى أن المعنيّين بالأمر كثيراً ما يضطرّون إلى الإفلاس .

الأكباش من العرب أو البربر ، بسبب وجود « تاجر السلطان » الذي كان يستحوذ على الحيوانات ثم يبيعها بثمن مرتفع . وكان الجند والعبيد يقومون هم أيضاً بمثل هذه العمليّات[23] . وقد أصبح من الصعوبة بمكان شراء اللحم الحلال من الجزّارين[24] .

ولم نعثر في المصادر على أيّ أثر لعمليّات الاحتكار السلطانية[25] . والجدير بالتذكير في هذا السياق أنّ خزّانات الحبوب التابعة لابن العظيم[26] ، قد نُهِبَت أثناء الأحداث المعادية للشيعة التي جدّت بمدينة تونس في سنة 406 هـ/ 1015-1016 م[27] . ولعلّ هذا الرجل الشيعي كان يضارب على حساب بؤس الشعب . وقد أشارت الفتاوى الصادرة في العصر الصنهاجي إلى أعمال المضاربة على الحبوب[28] .

ويمكننا أن نتصوّر كيف كانت بعض البيوعات المؤجلة المصحوبة بقروض ، يقال : إنها كانت تُمنَح بلا فائدة . وقد كان بعض التجّار متخصّصين في هذا النوع من المتاجرة في الزيوت أو الحبوب[29] .

وممّا لا شكّ فيه أن كثيراً من مظاهر الأساليب التجارية أو المبادلات الداخلية قد فاتتنا . ولكن يمكننا أن نفترض أنّ أغلب العادات المعمول بها في هذا الميدان وفي كثير من الميادين الأخرى ، كانت مطابقة في الجملة لتقاليد متواصلة من العصر الأغلبي ، إلى عصرنا هذا ، مروراً بالعصر الحفصي[30] .

وكانت عمليّات الإبحار بين مرافىء إفريقية نشيطة جدّاً (طرابلس ـ صفاقس ، صفاقس ـ قابس ، الخ . .)[31] .

---

23) فتوى اللخمي متبوعة بملاحظات البرزلي حول عمليات مغارسة مماثلة جرت في عصره في تونس والقيروان ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 48/2 ظ ، المختصر ، 69 ظ .

24) حسب رأي المازري والسيوري وأبي عمران الفاسي ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 47/2 ظ ، 48 و .

25) انظر أيضاً : المعزّ ، 174 نقلاً عن الخطط ، 110/1 : كانت الحكومة الفاطمية تحتكر بعض المواد المعدنية مثل الشبّ والنطرون وبعض المواد الصبغية مثل الشنط . وتسمّى المصلحة التي تمارس هذا الاحتكار : « ديوان المستغلّات » .

26) مناقب ، 299 .

27) فتوى المازري ، المعيار ، 213/6 .

28) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 182/2 ظ .

29) فتوى المازري ، المعيار ، 205/8 .

30) انظر ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، الباب الحادي عشر .

31) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 162/2 ظ ، المختصر ، 89 و ، المعيار ، 129/8-130 : فتويان نسبهما البرزلي إلى البرقي =

الأسعار ومستوى المعيشة :

لقد قدّمت إلينا ترجمة أبي سعيد خلف بن محمد الخولاني (ت . في حدود سنة 408 هـ/ بعض الإيضاحات حول مستوى المعيشة : كان هذا المتعبّد خيّاطاً « وكان رأسماله مقصّاً بنصف درهم وحلقة (قمع الخياطة) بربع وإبرة بخروبة . وكان إذا خاط بدرهمين لا يخيط شيئاً حتى ينفقهما في اثنين وثلاثين يوماً ، كلّ يوم خرّوبة . فإذا فرغ ذلك ، خاط كذلك بدرهمين ، ولو قيل له تخيط ثوباً بمائة دينار لم يفعل حتى يفرغ الدرهمان ، وكان يدرس الشهر كلّه . وانصرف يوماً من مجلس أبي محمد بن أبي زيد وعليه أطمار كأنما نفشت من القبور ، فنظر إليه أبو محمد والى ثيابه ، وسأل عنه ، فقيل له : والله ما يلبس هذه إلاّ يتجمّل بها في الميعاد ، وأمّا ما يقطع به الأيام ففرو يسـاوي درهمين . فبعث إليه أبو محمد بن أبي زيد بصرّة فيها خمسون ديناراً ذهباً ، فأبى أن يقبلها على شدّة فقره وحاجته وقال : إنّما قوتي كلّ يوم خرّوبة ، آخذ بها خبزاً ، فتصبّ عليه الوالدة مرق بقل أو ما تيسّر وتهيّأ »[32] .

وكان سعر الزيت في صفاقس يتراوح حسب السنوات بين ستين ومائة قفيز مقابـل دينار واحد[33] .

وفي سنة 395 هـ/ 1004 م « اشترى أبو علي حسن بن خلدون البلوي ثورَيْن لم يُرَ أحسن منهما بإحدى وأربعين مثقالاً ذهباً »[34] .

وكان سعر البغل يساوي ، حسب بنيته ، حوالي ثلاثة أو ستة أو تسعة دنانير[35] . وكان الجمل يباع بحوالي تسعة دنانير[36] .

والمعيار إلى البوني . ونحن نفترض أن الأمر يتعلق بعبد الملك مروان البوني (ت . قبل سنة 440 هـ/1048 م) تلميذ القابسي . انظر أيضاً ، الهادي روجي إدريس : فقيهان . . . ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 193 .

32) معالم الإيمان ، 3/195-196 . وجاء في نفس المصدر ، 3/94 ، أنّ أبا الحسن الدبّاغ (ت . 359 هـ/969-970 م) ، رغم ثروته ، حيث كان يملك فندقاً « له غلّة كثيرة عظيمة » ، قد كان يكتفي بأربعة دنانير في كلّ شهر ، « اثنين لصدقته واثنين لنفقته » ، الهادي روجي إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 1/30 ، المدارك ، 2-153/3 و : اشترى الممّسي (ت . 333 هـ/944-945 م) ثوب امرأة بستة دنانير .

33) ابن حوقل ، 1/70 .

34) معالم الإيمان ، 3/190-191 .

35) فتوى المازري ، المعيار ، 8/115-116 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/141 و . ظ .

36) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/430 .

وقد أكّد ابن حوقل على الرخاء الذي كان سائداً في المغرب ، وعلى بخس الأسعار[37] .

وإثر غزوة بني هلال بيعت أَمَة بحوالي خمسين ديناراً[38] .

وفي غدير وارو بالمغرب الأوسط كان قنطار العنب يباع بدرهم واحد[39] .

وكان حمل الجمل في قسطيلية وقابس يسوى درهمين[40] .

واندهش المقدسي[41] من بخس الأسعار بالقيروان ، إذ يستطيع الإنسان أن يشتري بدرهم واحد عشرة أرطال لحم أو عشرين رطلاً تين . ثم قال : ولا تسأل عن سعر الزبيب والتمر والعنب الطريّ والزيت ! .

ولكن هناك عنصر مقلق . فقد كانت إفريقية عرضة للمجاعة كلّ عشر سنوات تقريباً لا سيما خلال السنوات 395 هـ/ 1004-1005 م و 413 هـ/ 1022-1023 م و 425 هـ/ 1033-1034 م و 432-433 هـ/ 1040-1042 م[42] .

وقد وصف لنا أبو إسحاق الرقيق وصفاً مؤثراً مجاعة سنة 395 هـ :

« كانت بإفريقية شدّة عظيمة ، انكشف فيها السّتور ، وهلك فيها الفقير ، وذهب مال الغنيّ ، وغلت الأسعار ، وعدمت الأقوات . وجُلي أهل البادية عن أوطانهم ، وخلت أكثر المنازل ، فلم يبق لها وارث ، ومع هذه الشدّة وباءٌ وطاعون ، هلك فيه أكثر الناس من غنيّ ومحتاج ، فلا ترى متصرّفاً إلا في علاج ، أو عيادة مريض ، أو آخذ جهاز ميّت، أو تشييع جنازة ، أو انصراف من دفن . وكان الضعفاء يُجمَعون إلى باب سالم ، فتُحفَر لهم أخاديد ويُدفَن المائة والأكثر في الأخدود الواحد ، فمات من طبقات الناس وأهل العلم والتجّار والنساء والأطفال ما لا يحصى عددهم إلاّ خالقهم تعالى ، وخلت المساجد بمدينة القيروان ، وتعطّلت الأفران والحمّامات . وكان النّاس يوقدون أبواب بيوتهم وخُشُب سقوفهم . وجاء خلق من أهل الحاضرة والبادية إلى

37) ابن حوقل ، 97/1-98 .
38) فتوى اللخمي ، المعيار ، 456/9 .
39) البكري ، 60 .
40) المقدسي ، 26-27 .
41) نفس المصدر ، 26-27 .
42) البيان ، 256/1-257 ، انظر أيضاً ، الكامل ، 77/9-136 .

جزيرة صقليّة . وكانت الرمّانة بدرهمين للمريض في ذلك الوقت ، والفرّوج بثلاثين درهماً . وقيل : إنّ أهل البادية أكل بعضهم بعضاً »[43] .

وأضاف الرقيق قائلاً :

« وفي سنة 396 هـ ، كثر الخصب بإفريقية ، ورخصت الأسعار ، وارتفع الوباء عن النّاس »[44] .

وليس من باب الصدفة أن تشير بعض الفتاوى الصادرة بعد غزوة بني هلال إلى الوسائل المستعملة ضدّ الحمل ، مثل « إسقاط الجنين » و « العزل » ، الأمر الذي يدلّ على رغبة بعض الناس في عدم الإنجاب أو على الأقلّ تحديد النّسل نظراً « لفساد الزمان »[45] .

---

43) البيان ، 257-256/1 ، انظر أيضاً ، الكامل ، 77/9 والنويري ، 126/2 ، والمعالم ، 160/3 ، 190 ، 191 .

44) البيان ، 257/1 .

45) فتوى اللخمي وابن الصائغ ، المعيار ، 282-266/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 121/2 و ، المختصر ، 58 ظ .

الفصل الثامن
التجارة الخارجيّة

التجـارة البحريّـة :

كانت التجارة الخارجيّة لبلاد المغرب الشرقيّة تتمثّل أساساً في التجارة البحرية وكانت مرتبطة ارتباطاً متيناً بالوضع السائد في البحر الأبيض المتوسّط ، حيث كانت المنافسة على أشدّها . ففي سنة 1091 م (484 هـ) أصبح الكُنت رُجار الأوّل يتحكّم في صقلية بأسرها . وكان قبل ذلك قد استولى على منطقة بويـي (1071 م) ومنطقة أمالفي (1073 م) وإمارة سالرنو (1076 م) . كما استقرّ النرمان في دورازو وفالونا في البحر الأدرياتيكي وأصبحوا يهدّدون مدينة البندقية بالاختناق . وقد جازى الامبراطور البيزنطي أليكس كومين البندقية بمنحها في سنة 1082 م امتيازات جـديدة ، بالإضافة إلى الامتيازات التي كانت قد حظيت بها في سنة 992 هـ . وأصبح تجار أمالفي المقيمون في الامبراطورية البيزنطية مرغمين على دفع ضريبة الكنيسة القديس مارك . ولم يكن باستطاعة أيّ بلد في أواخر القرن الحادي عشر منافسة البندقية تفوّقها التجاري في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسّط ، في حين بدأت تتأهّب بيزة وجنوة ـ المزاحمتان للبندقية فيما بعد ـ ثم مرسيليا في فترة لاحقة ، للاستفادة من انتعاش التجارة في جنوب إيطاليا وجنوب فرنسا (البروفانس) ، قصد التنافس في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط[1] .

وقد تضايقت المبادلات التجارية بين إفريقيّة الصنهاجية والبلاد المسيحيّة ، من جرّاء منع النصـارى من بيع الأسلحـة والخشب المعـدّ لصنـع السفن للمسلمـين[2] ، بصرف النـظر عن

---

1) الكامل ، 82/10 ، ستوريا ، 180/3 ، بيران Pirenne ، التاريخ الاقتصادي ، 174 ، Boissonnade ، نشريـة قسم الجغـرافيـا ، 1929 م ، 1-37، Navalpower, A.R. Lewis ، 206-224 ، كـريستيـان كـورتـوا ، Ch. Courtois ، ملاحظات حول التجارة البحرية في شمال إفريقيا في القرن الحادي عشر ، لمحية جورج مارسي ، 51/2-59 .

2) Sayours، 36 ، انظر أيضاً : R.S. Lopez و I.W. Raymond ، Medieval trade in medeterranean world ، نيويورك 1955 م ، 333-335 .

الإجراءات التي اتخذها حكّام البندقية والبابا غريغوار السابع لمقاومة الخناسة[3] . والحال أنّ بني زيري قد كانوا في حاجة ملحّة إلى استيراد الأسلحة وبالخصوص الخشب اللاّزم لأسطولهم ، وتصدير العبيد الذين كانت تجارتهم رابحة . إلاّ أن عمليّات التهريب لم تفتر أبداً ، بل تواصلت بصورة شبه رسميّة ، وربّما على نطاق أضيق ممّا كان متوقّعاً ، لو لم تُمنَع بصورة رسميّة .

وكان قسم كبير من التّجارة البحريّة يتمّ مباشرة ، سواء من قِبَل أمراء بني زيري بالمهديّة ، أو من قِبَل ملوك النّرمان بصقلية ، لحسابهم الخاصّ . ولم تكن تلك العمليّات التجاريّة الرسميّة معفاة فقط من الرسوم الراجعة إلى الأمير المنظّم لها ، بل كانت تتمتّع أيضاً بإعفاءات هامّة وتخفيضات في الأداءات الجمركية ، كان الملوك يمنحونها بعضهم لبعض[4] .

وفي قضيّة صفاقس ، ربّما كان الدافع لردّ فعل الأمير علي (بن يحيى) يتمثّل في رغبته في الاحتفاظ بالاحتكار شبه المطلق الذي كان يمارسه على استئجار السّفن التجاريّة ، أكثر ممّا كان يتمثّل في الاعتبارات السياسية . ولا شكّ أن إلغاء الأداءات الموظّفة على البضائع النرمانية ، لم يكن من أقلّ المزايا التي جناها النّرمان من احتلالهم لسواحل إفريقيّة .

العقــود البحريّــة :

نظراً لافتقارنا إلى الوثائق ، يصعب علينا توضيح الأهمّيّة النسبيّة التي كانت تكتسيها في العصر الصنهاجي صيغ العقود البحريّة الثلاث المعمول بها من قِبَل التجّار النصارى في علاقاتهم مع إفريقيّة وهي : القرض البحري والشركة البحريّة والشركة التجاريّة[5] . وقد أكّد سايوس أنّ عقد الشركة البحرية قد ظهر قبل مدّة قليلة من ظهور عقد القرض البحري في المعاملات التجاريّة بين جنوة وتونس[6] .

3) Schaube ، 23 .

4) كانار (M. Canard) ، رسالة من الخليفة ، 133-136 .

5) Sayous ، المقدمة .

6) Y. Renouard ، رجال الأعمال الإيطاليون في العصر الوسيط ، باريس ، 1949 م ، 14-31 ، Sayous ، المقدمة و 57-58 . يتمثل القرض البحري في تسليم صاحب رأس المال إلى تاجر مبلغ مالي أو في أغلب الأحيان بضائع ، ويتحصل ربّ المال على 3/4 الأرباح والتاجر على الربع ، مقابل عمله . وبالنسبة إلى الشركة البحرية يوفّر التاجر لا عمله فحسب بل أيضاً ثلث رأس المال . ويتحصل ربّ المال على ثلثيْ حصّة رأس المال التي تبلغ 3/4 أي نصف مجموع الأرباح ، ويتحصل

أمّا شركة التوصية الإسلامية أو « القِراض » التي هي صيغة قديمة جدّاً قد استعملها الرّسول [ﷺ] ، فهي تتمثـل في تقديم مبلغ مـالي من طرف صـاحب رأس المال إلى شخص مكلّف باستثماره في التجارة ، واقتسام الأرباح بالتساوي بين الطرفين حسب نسبة محدّدة من قبل[7] .

وممّا لا شكّ فيه أنّ القراض في صيغته المذكورة قد كان معمولاً به بكثرة في إفريقية في العصر الصنهاجي ، ونجد أمثلة عديدة لذلك في القرن الثالث عشر[8] . والجدير بالملاحظة أن المذهب المالكي قد جوّز القراض بالدنانير والدراهم ، مع التسامح في استعـمال قطع غـير مضروبة من الذهب والفضّة . وكان القراض بالعروض (البضائع) معمولاً به أيضاً في إفريقية على نـطاق واسع ، على الأقلّ منذ القرن العاشر ميلادي ، وذلك حسب صيغة بارعـة اعتنى ابن أبي زيد بتوضيحها في رسالته[9] . وتشتمل العمليّة على مرحلتَيْن مُمَيَّزَتَـيْن : يستلم العامـل في القراض السلع التي سيبيعها في مكان بعيد ، مقابل أجرة معلومة ، ثم يشترك في الأرباح المتأتية من بيع تلك السلع . فالعامل هو في المرحلة الأولى مجرّد أجير[10] إلى أن يتمّ بيع العروض ، فسيصبح عندئذ شريكاً منتفعاً بالأرباح حسب الصيغة المتعارف عليها .

وقد أوضح ابن أبي زيد أنّ « للعامل كسوته وطعامه إذا سافر في المال الذي له بال . وإنّما يكتسي في السفر البعيد . ولا يقتسم (المتعاقدان) الربح حتى ينضّ رأس المال (أي يصبح ذهباً أو فضّة) »[11] . وتتراوح حصّة ربّ المال بين ثلث ونصف الأرباح .

وفي صورة نشوب خلاف ، بما أنّ المُقارِض هو من أهل الثّقة ، فإن أقواله تُصدَّق ، إلى أن يثبت ما يخالف ذلك . ومن الأفضل في بعض الحالات تصديق أقـوال ربّ المال ، بشرط أداء اليمين[12] .

= التاجر على النصف الآخر ، أي 1/4 مقابل عمله وربع مقابل رأسماله . أمّا الشركة التجارية فهي شركة توصية وكانت في أوّل الأمر تجمّعاً عائليّاً للمصالح .

7) انظر حول القِراض ، ابن علي فاكر ، القراض في الفقه الإسلامي ، ليون باريس ، 1910 م ، وانظر أيضاً : برنشفيك ، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** [الترجمة العربية ، 257/2] ، Sayous ، 29 ، ابن أبي زيد ، **الرسالة** ، 216-217 .

8) برنشفيك نفس المرجع .

9) **الرسالة** ، 216-217 .

10) يقول القابسي في إحدى فتاواه : « العامل أجير » ، انظر المعيار ، 80/9 .

11) فتوى القابسي ، نفس المصدر 128/8-129 و 80/9-81 حيث ينبغي تعويض كلمة « سكّة » بكلمة « سلعة » .

12) فتوى ابن الضّابط (ت . 443 هـ/1051-1052 م) ، المعيار ، 128/8 ، 268-272/2 .

والغالب على الظنّ أن القراض بالعروض قد أثار ، منذ ظهوره في القرن العاشر ، أي في عصر ابن أبي زيد ، مجادلات فقهيّة تواصلت بعد ذلك بمدّة طويلة ، إذ صرّح المازري أنّه عثر على رسالة بخطّ ابن أبي زيد يقول فيها : إذا أتاك فلان ، فخُذْ السّلع التي بين يديْه وأعطه أجره ديناراً ، وسدّد له ثمن بيع العروض بعنوان القراض . ثمّ أشار المازري إلى الصّعوبات التي أثارها عقد ينصّ في آن واحد على قراض وإجارة أو جُعْل[13] .

ويبدو أنّ العامل ، بعد جمع السّلع المسلّمة إليه وتلقّي الإذن من ربّ المال بأن لا يشتري أي شيء آخر ، يستطيع شراء سلع أخرى لحسابه الخاص[14] . ويمكن أن يستعمل العامل في القراض أحياناً جزءاً من المال المسلّم إليه للدخول في شركة ، دون أن يرخّص له ربّ المال في ذلك[15] .

ولا يجوز لصاحب رأس المال أن يطالب شريكه صاحب السفينة باقتسام الأرباح معه دون اعتبار أجرة السفينة الملقاة على عاتقه ولو بصورة جزئية[16] .

وبالنسبة إلى بيع السفن ، لا يتعلّق الأمر بالتجّار[17] ، لأنّ العمائر البحرية هي على ملك الملاّحين .

وقد قيل لنا : إنّ التجّار الذين يصاحبون أو لا يصاحبون سلعهم هم الذين يستأجرون السفينة ، حسب العرف الجاري به العمل . إلاّ أنّه يجوز أن يملك صاحب السفينة قسماً من الشحنة[18] . وبطبيعة الحال فإنّ السفينة المُستأجَرة كثيراً ما تكون ضحيّة القراصنة النصارى[19] . وتُدفَع أجرة طاقم السفينة مسبّقاً للقيام برحلة معيّنة . فإذا تعذّر على الملاّحين الوفاء بتعهّداتهم

---

13) فتوى المازري ، مخطوط الرباط ، 159/2 ظ ، ثم يلاحظ البرزلي أن معظم التجار في عصره (القرن الخامس عشر) يتعاطون القراض بالعروض التي يروّجها المُقارض شرقاً وغرباً ويتقاضى أجرة معلومة ثم يستلم المبلغ بعنوان القراض (نقداً) . البرزلي ، مخطوط الرباط ، 162/2 و . ظ ، المعيار ، 128/3-129 وقد نقل ابن مشكان ، من أواخر تلامذة المازري ، آراء ابن شبلون والتونسي والقابسي والمازري حول جواز القراض بالعروض . وصرّح هو نفسه أنه رأى وثيقة من هذا القبيل محرّرة بخطّ ابن أبي زيد .

14) المعيار ، 132/8 .

15) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 79/9-80 .

16) فتوى أبي محمد (ابن أبي زيد) ، نفس المصدر ، 130/8-191 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 163/2 و ، المختصر ، 89و.

17) انظر مثلاً فتاوى ابن شبلون (ت . 390-391 هـ/999-1000 م) حول « مسائل السفن » ، البرزلي ، المختصر ، 108 و ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 177/2 ظ .

18) فتوى أبي حفص (عمر بن العطّار) والتونسي ، البرزلي ، المختصر ، 98 و .

19) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 188/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 226/2 ظ ـ 227 و ، المختصر ، 108 ظ .

لأسباب خارجة عن إرادتهم ، مثل تعرّضهم لعاصفة ، لا يطالَبون بأيّ تعويض ، ولكن يتعيّن عليهم تسديد رهونهم ، لأن الموانع تمثّل عاملاً من عوامل إبطال عقد الإجارة[20] .

وقد ادّعى بعض الركّاب أنّهم أجّروا سفينة « لوكيل في المراكب » ، وأنّ لديهم رقاعاً بخطّ يده ، يعترف فيها بأنه تقاضى أجرة السفينة . فأنكر الوكيل وجود أيّ عقد وأكّد أنه لم يستلم أيّ مبلغ[21] .

التجـارة مع صقليّـــة :

لقد كان أهل إفريقية ، قبل غزوة بني هلال ، يتحوّلون إلى صقلية لتعاطي التجارة ، ويدوم غيابهم هناك عدّة سنوات[22] . وكان تموين البلاد مرتبطاً بوصول القمح الصقـلي ، لا سيما في سنوات القحط . وخلافاً لما كان متوقّعاً لم تشر الفتاوى الصادرة في العصر الصنهاجي إلى تصدير الزيت أو النسيج إلى صقلية مثلاً ، ولم تتعرّض إلاّ لعقود القراض بالمال لشراء الحبوب . ومن الصّعب التسليم بأنّ كلّ تلك الفتاوى لا تهمّ إلاّ سنوات القحط . ومهما يكن من أمر ، خلافاً لما سيحدث فيما بعد ، فإن إفريقية التي ربّما كانت مفتقرة إلى ما يكفي من الموارد الزراعية لتغذية عدد أكبر فأكبر من السكّان ، بفضل السّلم الزيريّة ، لا بدّ أنّه كان لديها مدخّرات هامّة من الذهب .

وقد أشارت بعض النصوص[23] إلى استئجار سفينة للقيام برحلة من صقلية إلى سوسة . فحـوّلت الريـح اتّجاههـا إلى تونس ، حيث أرست ولكنهـا أُجبِرَت عـلى دفع « مغـرم أكثر من المتعارف »[24] ، أي ربما أكثر من الرسوم التي كانت ستدفعها على السّلع (القمح بلا شكّ) ، لو أرست في سوسة . ولذلك فقد عبّر بعض الركّاب عن الرغبة في تحويلهم إلى سوسة ، طبقاً لعقد الإيجار .

---

20) فتوى الـداودي وأبي عمران الفاسي ، المعيار ، 186/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 223/2 ظ ، المختصر ، 107 ظ . ينبغي حسبما يبدو حذف « لا » النفي من جواب أبي عمران الفاسي « لا يذهب عملهم باطلاً » .

21) فتوى المازري ، المعيار ، 291/10 ، 187/8 ، البرزليّ ، مخطوط الرباط ، 226/2 و ، ونلاحظ عبارة « برطيل النّوتيّة » أي أجرة البحّار . وحول هذه الكلمة انظر : E.W. Lane ، An Arabic-english lexicon ، 189/1 .

22) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 3/98-201 ، البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب ، 57/2 و . ظ .

23) فتـاوى ابن شبلون وأبي سعيد (بن أخي هشـام) (ت . 371 أو 373 هـ/981-983 م) المعيـار ، 8/186-187 ، البرزلي ، المختصر ، 108 و ، مخطوط الرباط ، 225/2 و . ظ .

24) « مغرم أكثر من المتعارف » ، أي رسوم أعلى قيمة من المعاليم الموظفة عادة على البضائع .

وتسلّم « صاحب لوح »[25] (أي مركب) بعض الدنانير من ربّ المال الذي جلب له القمح ، وأخذ منه أجرة السفينة المتعارف عليها . وحسب هذا المثال يمكن أن يكون صاحب السّفينة في آن واحد ناقلاً للبضاعة ومُقارِضاً .

ورافق عامل في القراض السّلعة (المتمثلة في القمح) على متن سفينة مستأجرة لنقلها ، وأثناء الشحن تم تحرير « بيّنة » حول الكمية المشحونة وإبرام عقد حول أجرة السفينة ، أُطلِق عليه اسم « شَرَنْبل »[26] .

وأرسِلَت دنانير إلى وسيط[27] في صقليّة لشراء القمح ، فأتمّ العملية ورجع بالحبوب . وكان من المفروض أن يتحمّل كلّ طرف من الطرفَيْن المتعاقدَيْن نصف أجرة السفينة ، إلاّ أنّ صاحب السفينة قد ظنّ أنّ المال على ملك العامل ، فأعفاه من دفع كامل الأجرة ، إمّا للتودّد إليه أو لشكره على خدمة قد يكون قدّمها إليه .

وكان شريكان يملكان سفينة ، فتحوّل أحدهما إلى صقليّة وسلّم إليه شريكه دنانير رُباعية ليشتري بها كميّة من الحبوب لحسابه . ولما عاد الشريك الأوّل من صقليّة أرجع إلى صاحبه المال الذي تسلّمه منه ، دون أن يستعمله ، وأتى بكمية من الحبوب خاصّة به . فهل هو مطالب بدفع حصّته من أجرة السفينة لا غير ، كما ادّعى ذلك ؟ وهل يتعيّن عليه دفع أجرة السفينة « طعاماً » (أي حبوباً) عند الإياب أم دراهم عند الذهاب ؟ الجواب : لقد تجاوز الشريك الأوّل حقوقه وعليه أن يدفع على الحبوب التي أتى بها لنفسه كامل أجرة السفينة المقدّرة بالدرهم أو بالدينار من

---

25) فتوى القابسي ، المعيار ، 79/9 .

26) المعيار ، 78/9 : فتوى القابسي حول مُقارض اشترى طعاماً بمال واستأجر سفينة لنقله . وقد شحن العامل القمح بلا بيّنة ولم يبرم الطرفان عقد شرنبل (كذا) ، لأن صاحب اللوح قد أشار عليه بعدم إبرام هذا العقد قائلاً له : « إن كلّ الطعام ملك كل ، إلاّ مالي أنا فيه » . ولما وصل المركب ، ادّعى الناقل أن له حقاً في جزء من القمح المنقول ، فسلّم إليه العامل كميّة منه إثر تسويه وديّة . فهل للعامل ضمان القمح الذي طالب به صاحب المركب ؟ أم يتعيّن عليه تسديده ، لأن « الطعام الحاصل » (أي القمح الصافي) قد تمّ بيعه ؟ الجواب : « إذا لم يتوثق العالم عند الشحن توثّقاً يعصمه من الدعاوى والإنكارات » ، فهو ضامن للقمح الذي احتفظ به النوتي حسب زعمه ، وذلك في المكان الذي بدأ فيه « التفريط » المتسبّب في إضرار ربّ المال . ويتعيّن عليه تعويض هذا الأخير بإعطائه نفس كمية القمح الموزونة . ويجوز للطرفين إبرام تسوية بالتراضي . وفي قضية الحال لا ينبغي اعتبار بيع القمح قبل استرداده . وفي البرزلي ، مخطوط الرباط ، 224/2 ظ ، والمعيار ، 186/8 ، وردت كلمة « شربيل » (عوض شرنبل) وكلمة « زمام » (أي الدفتر) .

27) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/76-77 ، « الواسطة » .

28) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 79/9 .

صقلية إلى ميناء الوصول ، وأن يسدّد ذلك المبلغ في المكان الذي صدر فيه الحكم[28] .

واشترك بعض التجّار في شحن كميّة من القمح ، على أن يأخذ كلّ واحد نصيبه منها[29] .

وسُلِّمت أكياس حبوب أو قِرَب زيت إلى ملاّح مكلّف بنقلها إلى المكان التي سيبيعها فيه ، دون استخلاص أجرة السفينة ، ثم شراء بعض السلع وجلبها ، مع الحصول على أجرة السفينة .

ويبدو أن المثالين الأخيرين يقيمان الدليل على تصدير القمح والزيت من إفريقية قبل غزوة بني هلال . ولكن كلّما أشير إلى استئجار سفينة لنقل الحبوب ، إلاّ وكان الأمر يتعلّق باستيراد القمح الصقلّي[31] . ولكنّنا نلاحظ بعد الغزو اتّساع نطاق هذه التجارة وتحوّل عدد كبير من الإفريقيين إلى صقليّة ، حيث كانوا يقيمون مدّة طويلة[32] . وكانت السّفن القادمة من صقليّة تصل إلى إفريقية في الصيف[33] .

وجاء في فتوى للمازري[34] أنّ بعض التجار قد اشتركوا مع بعضهم للتحوّل إلى صقليّة قصد شراء الحبوب ، وحملوا معهم لهذا الغرض دنانير طرابلسية ومرابطية « من الذهب الجيّد » . فأمر صاحب السكّة في صقليّة بسبك تلك النقود وأدمج فيها ربع وزنها من الفضّة وحوّلها إلى دنانير رُباعيّة ليس لها رواج إلاّ في صقلية[35] ، واحتفظ بوزن مجموع الفضّة الممزوجة في شكل دنانير رباعيّة . وبموجب ذلك ، تقاضى الإفريقيّون نفس الكمّية من النقود الذهبية ، مع انخفاض

---

29) وُجّه نفس السؤال في آنٍ واحد إلى ابن أبي زيد وأبي سعيد بن هشام وأبي محمد بن التّبان (ت . 371 هـ/981 م) ، المعيار 191/8 ، البرزلي ، المختصر ، 109 ظ .

30) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 51/9 .

31) انظر مثلاً : فتاوى أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب 178/2 ، المختصر ، 64 و . ظ .

32) فتوى المازري ، المعيار ، 236/3 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 64/2 ظ : ذهب رجل إلى صقلية وغاب عن زوجته مدة 15 سنة . فتوى المازري ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 127/2 ظ : ذهب أبٌ وصهره إلى صقلية حيث غابا نحو الستين .

33) فتوى المازري ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 127/2 ظ .

34) فتوى المازري وأبي الفرج التونسي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 243/1 ظ ، 245 و . ظ . مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 202 و . مخطوط الرباط ، 42/2 ظ ، 43 و ، 141 ظ ، المعيار ، 213-212/6 ، 222-220 ، 116/8 .

35) من بين الموانع الشرعية التي أشار إليها المازري في فتواه تمثيل الصليب في تلك النقود الصقلية

عيارها بنسبة 25%[36] . ثم تحدّثت الفتوى بإطناب عن الصعوبات الناشئة عن توزيع شحنة الحبوب بين الشركاء عند وصولها إلى المهديّة .

وفي أواخر عهد تميم ، قبل سنة 486 هـ/ 1093 م (تاريخ وفاة ابن الصائغ الذي سيأتي الحديث عنه بعد حين) ، وربّما بعد سنة 484 هـ/ 1091 م (انتهاء استيلاء النرمان على صقلية) ، أي في حدود 486 هـ/ 1091-1093 م ، روى المازري في نفس تلك الفتوى أنّ السلطان قد جمع أهل الفتوى ليأخذ رأيهم حول جواز السّفر إلى صقلية لشراء الموادّ الغذائية . ونظراً لصعوبة التوفيق بين الأحكام الشرعيّة وضرورة تموين السكّان ، حدثت بلبلة كبيرة داخل هذا المجلس العلمي . ورأى المازري أنّه لا يجوز للمسلمين الذّهاب إلى أرض خاضعة لسلطة الكفّار ، مهما كانت حاجاتهم المتأكّدة ، مستشهداً بهذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[37] . فينبغي حينئذ الاقتداء بالمسلمين الأوائل وتفويض الأمر إلى العناية الإلهيّة . وقد صادق المجلس على هذا التأويل الذي تبنّاه المازري .

إلّا أن الحيرة التي تملّكت الفقهاء في الأوّل قد دفعت المازري إلى عرض المسألة على شيخه الجليل الإمام عبد الحميد بن الصائغ الذي أصدر فتوى مماثلة لفتوى تلميذه ، رغم تقدّمه في السنّ وإمساكه عن الفتوى منذ مدّة طويلة . وقد استند ابن الصائغ إلى حجّة أخرى لم يعتمدها المازري ، وهي تتمثّل فيما يلي : إذا ذهبنا إلى بلادهم سترتفع أسعار الموادّ الغذائية هناك ، وسيتسلّمون منّا أموالاً طائلة سيستعملونها لمقاومة المسلمين وغزو بلادهم .

ويبدو أنّ الصقليّين لم يصدّروا القمح إلى إفريقية لسببَيْن اثنين ، حسب رأينا : أوّلاً لأنّ المهديّة المفصولة عن منطقتها الخلفية لا تستطيع أن توفّر للصقليين سلعاً نافعة يرجعون بها إلى بلادهم ، وثانياً لأنّ هؤلاء حريصين على الاحتفاظ بالأرباح التي يوفّرها لهم ضرب النقود ، ومنع الإفريقيين من الانتفاع بها[38] .

---

36) وحول المعاهدة المبرمة بين بيزة وأبي إسحاق إبراهيم ملك تونس ، انظر ، ماس لاتري ، مكتبة مدرسة شارت 1848 ، 147 ، الهامش 3 .

37) سورة التوبة ، الآية 28 .

38) برنشفيك ، تاريخ **إفريقية في العهد الحفصي** [الترجمة العربية ، 252/2] .

وقد كانت صقليّة تستورد الزيت من إفريقية عن طريق صفاقس[39] . وكان شريكان يملكان قارباً قد أجّراه بمبلغ عشرة دنانير ، للتحوّل من صقليّة إلى قابس . ولما وصل القارب إلى المهدية أكّد الركّاب وأحد الشريكين ، أنهم استأجروه للذهاب إلى قابس ، في حين ادّعى الشريك الآخر أنّ القارب قد استُؤجِر للتوجّه إلى المهديّة[40] .

وسلّمت امرأة مجوهرات وخاتماً من ذهب وسواراً كبيراً من الفضّة إلى شخص مكلّف بأن يبيعها في صقليّة ويشتري بثمنها طعاماً (أي قمحاً) يروّجهُ في المهدية . على أن يتحصّل كلّ طرف على نصف الأرباح[41] .

كما سلّم تاجر إلى بحّار دنانير مرابطية ليتاجر بها في صقلية بعنوان قِراض . فغاب ربّ المال ، ولما رجع تولّى محاسبة البحّار الذي صرّح له أنّه اقترض « قاربا لطيفاً » (أي خفيفاً) ، غير القارب الذي اعتاد أن يسافر على متنه من صقليّة إلى إفريقية . وأثناء الرّحلة نبّه المقيمون في حصن اسمه « الرّكام » الركّاب إلى اقتراب العدوّ . فتخلّى البحّار عن القارب ، وأخذ كلّ ما في السفينة ، وبالخصوص السلع (أي بلا شك الحبوب) التي اشتراها بدنانير ربّ المال ، وسلّمها إلى قائد الحصن . وضاع القارب الذي استولى عليه لا محالة القراصنة النصارى[42] .

وكانت السّفن الصنهاجية تحمل أسماء خاصّة[43] .

وبما أنّ أهل المدينة يغيبون مدّة طويلة ، فقد كانوا يوجّهون المال بانتظام إلى عائلاتهم . من ذلك أن واحداً منهم قد أرسل سبعة دنانير إلى زوجته وأبنائه بواسطة سفينة أولى ، وأرسل إليهم فيما بعد اثني عشر دينار بواسطة سفينة ثانية[44] .

ويمكن أن نأخذ فكرة عن الغزو في البحر ، وما ترتّب عليه من صعوبات عائلية ، من خلال تحليل بعض الفتاوى التي تمثّل وثائق حقيقية ، ومن بينها هذه الفتوى المعبِّرة[45] . فبمقتضى رسم ، صرّح عبد الله الرائس المعروف باسم عبد الله بن صدقة الأنصاري ، بأن زوجته تكون في

---

39) البكري ، 20 ، ستوريا ، 2/509-514 كورتوا ، المرجع المذكور ، 54/2 .
40) فتوى المازري ، المعيار ، 8/190-191 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 228/2 ظ .
41) فتوى المازري ، المعيار ، 132/8 ، 52/9 البرزلي ، مخطوط الرباط ، 161/2 ظ ـ 162 و .
42) فتوى المازري ، المعيار ، 8/131-132 ، البرزلي ، المختصر ، 88 ظ ، مخطوط الرباط ، 16/2 و . ظ .
43) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المختصر ، 122 ظ : مركب اسمه « البوني » .
44) فتوى المازري ، المعيار ، 32/6 .
45) فتوى المازري ، المعيار ، 3/234-235 ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 61/2 ظ ، 62 و .

حلّ من الروابط الزوجية ، إن غاب عنها اضطراراً أكثر من أربعة أشهر متوالية ، ولم يرسل إليها نفقتها ، أو سافر مع مراكب السلطان ولم يرجع معها إلى المهدية أو زويلة .

وقد أمضى الزوج على هذا الالتزام في العشرة الأواخر من محرّم سنة 515 هـ/ 10-20 أفريل 1021 م . وسُجِّلت في ظهر الرسم شهادتان أدلى بها شاهدان أمام قاضي القضاة أبي القاسم بن ميمون . وحسب الشهادة الأولى المؤرخة في رجب 515 هـ/ 15 سبتمبر- 14 أكتوبر 1121 م ، سافر عبد الله إلى صقلية بعد الدخول على الزوجة ، فانقطعت أخباره ، ولم يرسل أي مبلغ مالي إلى زوجته التي بقيت بلا مورد رزق . وأشارت الشهادة الثانية إلى غياب الزّوج نحو أربعة أشهر في طرابلس الغرب .

التجارة مع مصر والمشرق :

لدينا عدّة شهادات حول كثافة العلاقات التجارية بين إفريقية في عهد بني زيري ومصر في العهد الفاطمي . وكانت هذه التجارة ذات الصبغة البحريّة أوّلاً وبالذات ، لا سيما بعد زحفة بني هلال ، تغذّي حركة نشيطة من المبادلات التجارية بين المهديّة والإسكندريّة . ففي أوائل العصر الصنهاجي ، ذهبت قافلة من مصر إلى إفريقيّة عبر برقة ، وسلكت في الإياب نفس الطريق[46] . ثم أشارت وثيقة أخرى إلى توجيه سفينة إلى الإسكندريّة لعرضها للبيع[47] . وكانت القوافل القادمة من مصر تمرّ من قابس التي كان ميناؤها تتردّد عليه السفن من جميع أنحاء العالم[48] .

وفي عصر ابن حوقل ، خلال الفترة الصنهاجية بلا شكّ ، كان الزّيت المُستهلَك في مصر ، يُستَوْرَد من صفاقس[49] .

وغادرت الإسكندريّة سفينة محمّلة بالسلع ومصحوبة بسفن مهدويّة . وفي عرض جبل برقة استولى عليها الرّوم إثر معركة طاحنة وأخذوها . ولكن بعد ذلك تعرّض المعتدون بدورهم لهجوم الأسطول الصقلّي الذي خلّص المسلمين وذهب بهم إلى صقليّة . ورأى أبو عمران الفاسي أنّ من الواجب إرجاع السفينة إلى مَن يعنيه الأمر ، لأنّ المسلمين الذين خلّصوا إخوانهم قد قاموا بعمل

---

46) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 218/2ظ .

47) فتوى القابسي وأبي عمران الفاسي ، المعيار ، 215/8 ، 340/9-341 .

48) البكري ، 17 .

49) ابن حوقل ، 70/1 ، البكري ، 6 ، 20 .

نبيل لا يتقاضون عليه أجراً . على أنّه يجوز أن يُعَوّضوا عن بعض النّفقات التي ينبغي أن يتحمّلها صاحب السّفينة . ويجب حسم النّزاع في المدينة التي توجّهت إليهـا السفينة ، إن كـان أميرهـا عادلاً[50] .

واشترى تاجرٌ من مكّة المكرّمة قنطاراً من النيلة نقله إلى إفريقية ، ولكنّ المصدر لم يذكر وسيلة النقل التي استعملها[51] .

ولا يبدو أنّ القطيعة مع القاهرة قد ضيّقت من نطاق التّجارة البحريّة مع مصر ، إلاّ أنّه من الممكن أن تكون غزوة بني هلال قد قطعت تماماً الطرق البريّة . على أنّ البكري قد أكّد أن قلعة بني حمّاد أصبحت بعد خراب القيروان نقطة التقاء القوافل القادمة من العـراق والحجاز ومصر والشام وبقية بلاد المغرب[52] .

وأشارت بعض فتاوى المازري إلى الوقائع التالية . فقد جاء في الفتوى الأولى أنّ رجلاً كلّف شخصاً آخر ببيع عروض في الإسكندريّة مقابل أجر معلوم وتوجيه المال إلى المهديّة والأندلس[53] .

وجاء في فتوى أخرى أنّ رجلاً دفع لعامل مالاً قِراضاً ليسافر به إلى المشرق ، وكتب بينهما وثيقة . واشترى العامل بضاعة وحملها في مركب ، فلمّا وصل إلى جزيرة لنبدوشة انفتح المركب وخشي عليه الغرق ، فرجع سالماً إلى المهدية ورفع البضاعة إلى ربّ المال . فطلبه بمقتضى الوثيقة أن يرتحل من جديد في الموسم القادم . وانصرف العامل لحساب رجل آخر مقابل مبلغ أهمّ بكثير من المبلغ الذي سلّمه إليه رب المال الأوّل[54] .

وتوفّي إفريقي تاركاً المال الذي وجّهه إليه رجل في مصر . ويبدو أن الأمر يتعلّق بتوجيه أموال إلى وكيل مقيم في مصر[55] .

---

50) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 188/8-189 ، البرزلي ، المختصر ، 108 ظ ، 109 و ، مخطوط الرباط ، 227/2-228 و .

51) فتوى أحد الشيوخ مع رأي أبداه أبو بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 158/6 ، 69/9 .

52) البكري ، 49 .

53) فتوى المازري ، المعيار ، 52/9-53 .

54) فتوى المازري ، نفس المصدر ، 130/8-131 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 160/2 ظ ، 161 و .

55) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 172/2 و ، المعيار ، 388/9 ، 232/10-233 : « وذكر المقدّم أنّ الميّت له مال عند رجل في مصر على وجه الرسالة ووكّله الرجل المذكور على التصرّف » .

وتتضمّن فتوى مطوّلة للمازري(56) نسخة محضر يتعلّق بتقديم حساب مفصّل ضبطه عامل في القراض بالعروض . وقد ارتحل إلى الإسكندريّة ومعه كميّة من المرجان والحرير ، تولّى بيعها واشترى بثمنها قِفافاً من النيلة « وخمس حصر كتّان »(57) . وقد أُنزلت تلك السلع في بنزرت ثم وُجِّهت إلى تونس حيث تمّ بيعها ، ووُظِّفت عليها رسوم من بنزرت إلى تونس . وقد اشترى الصبّاغون في تونس النيلة بأثمان معجّلة أو مؤجّلة(58) . وسلّم العامل كميّة من النيلة إلى شقيق له كان قد سلّم إليه قبل سفره إلى المشرق كميّة من الحرير ، فحوّلها بعنوان تسديد دين إلى ربّ المال

---

56) فتوى المازري متبوعة بفتوى أخرى أصدرها المدعوّ أبو القاسم الفقيه ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 146/2 ظ ، 149 و ، 156 ظ . 159 و . النصّ مشوّه شيئاً ما .

57) « خمس حصر كتان » : ليس من المستبعد أن تكون واردة من روسيا ، انظر : S.D. Goitein ، **Speculum** ، أفريل 1954 م ، ص 192 .

58) تفاصيل الأرقام والحسابات الواردة في هذه الفتوى : أنتج بيع المرجان : 484 ديناراً + 1/3 + 1/4 + 1/8 (أجزاء الدينار) ، وأنتج بيع الحرير : 460 دينار + 1/6 + 1 قيراط . ولتسديد النفقات اقتطع 34 ديناراً + 1/2 + 1/4 من ثمن بيع المرجان و 37 ديناراً + 1/4 من ثمن بيع الحرير .

واشترى قفاف نيلة (مقابل 377 ديناراً) وخمس حصر كتان (213 ديناراً) وكبش القرنفل (102 دينار) والمسك (25 ديناراً) ومعاجر وقماش حرير رقيق (سندس ؟) (50 مثقالاً) . وبقي من هذه العملية نحو 35 ديناراً . وبلغت القيمة الجملية لهذه الشراءات 800 دينار . فسدد 40 ديناراً أجرة السفينة وأنفق 330 ديناراً إلا قيراطَيْن لسدّ نفقات الإقامة .

ولما سئل العامل عن وزن وسعر النيلة والكتّان أعطى المعلومات التالية : تزن النيلة في الإسكندرية 11 قنطاراً إلاّ ربع قنطار بسعر 33 ديناراً القنطار ، فتكون الجملة 376 ديناراً . يضاف إليها 16 ديناراً معلوم النفقات و 4 دنانير مصرية كانت عنده من قبل ، فتكون النتيجة : 376 ديناراً + الدنانير المصرية ، في حين تبلغ القيمة المعلن عنها سابقاً 377 ديناراً . وفي جوابه لاحظ أبو القاسم الفقيه أن الفارق حسب حساب العامل لا يبلغ سوى دينار واحد ، وليس أربعة ، ورأى أنه قد أخطأ لأنّ ثمن 11 قنطاراً إلاّ ربع قنطار بحساب 33 ديناراً القنطار الواحد يبلغ 355 ديناراً إلا ربع دينار ، فيكون الفارق حينئذٍ 6 دنانير ، ذلك أنّ : 354,75 + 16 + 6,25 تساوي 377 . وبما أن العامل قد أوضح أن الأمر يتعلق بأربعة دنانير مصرية ، يمكن أن نستنتج من ذلك إشارة هامة حول المعادلة بين العملتين (4 دنانير مصرية = 6.25 دنانير إفريقية) . إلاّ أن تشويه النصّ يدعو إلى الحذر . ويبلغ وزن الكتان في الإسكندرية 43 قنطار إلا الثلث (؟) فتكون النتيجة بما في ذلك النفقات 213 ديناراً . إلاّ أن النصّ المنقوص لا محالة لم يُشر إلى سعر القنطار ومبلغ النفقات . وقد أُنزلت تلك البضائع في بنزرت ووُجِّهت إلى تونس حيث تمّ بيعها .

ومن بين الأرقام والتفاصيل الموالية ، نستنتج المعلومات التالية : بيعت النيلة بسعر يتراوح بين 2600 و 3.300 درهم القنطار الواحد المسلّم إلى الصبّاغين (بتونس ؟) بثمن معجّل أو مؤجل مقابل بيّنة .

وبيع قنطار الكتّان بنحو 392 درهماً .

وبيعت الأقشمة بمبلغ 2500 درهم وكبش القرنفل بمبلغ 3582 درهماً وبلغت « الأخماس واللوازم » (الرسوم) 1523 درهماً من بنزرت إلى تونس . وفي الجملة فقد اعترف العامل أن لديه 43.501 درهماً .

الذي أمره ببيعها لشراء بضائع أخرى ، وبالخصوص الشعير .

وتسلّط وثائق الجنيزة[59] أضواءً ساطعة على جانب مهمّ من جوانب التجارة المتوسطيّة في العصر الوسيط ، أعني امتدادها إلى الشرق الأقصى ، وهي تضيف لحسن الحظّ معلومات تكميليّة إلى المعطيات الواردة في النّصوص العربيّة ، من نوع فتوى المازري السالفة الذكر ، وتوضّح نوعيّة قسمٍ على الأقلّ من البضائع المصدّرة إلى مصر ، مثل كميّات المرجان والحرير التي بيعت في الإسكندرية كما أسلفنا ، ومصدر بعض البضائع المشتراة في المقابل .

وتُعتبَر مصر منطلق العلاقات بين الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط ، وبين الشرق الأقصى ، إذ كانت بمثابة الواسطة بين تيارَيْن مستقلَّيْن من المبادلات التجارية ولكنّهما مرتبطَيْن بفضلها ارتباطاً متيناً .

وكان كثيرٌ من تجّار القاهرة يتنقّلون من المغرب الأقصى إلى الهند[60] . وفي أواخر القرن الحادي عشر كانت أكثر من 90% من البضائع الواردة من الهند تُشتَرى مقابل بضائع إفريقية ومصرية و10% فحسب مقابل الذهب .

وإلى حدود منتصف القرن الثاني عشر كانت الموادّ التالية تصدّر من عدن إلى الهند وهي :

---

59) S.D. Goitein، **Speculum** ، 29 أفريل 1054 م ، عدد 2 ، القسم 1 ، 181 ، 1997 م كامبريدج . ماساشوسيتس .

60) نفس المرجع ، 186-188 ، 191 ، ولنفس المؤلف : **اليهود والعرب** ، نيويورك ، 1955 م ،115، 209 .
والجدير بالملاحظة أنّ بعض أوراق جنيزة المتعلقة بالمعاملات متأتّية من الوثائق العائلية التابعة لتاجر تونسي قضى قسماً كبيراً من حياته في الهند ، وهو رجل عالم وشاعر ، اسمه ابن ياغو (= ياغو الصيغة الرومانية لاسم يعقوب) ، ولعل هذا الاسم يشير إلى أصله الأندلسي . انظر أيضاً ، S.D. Goitein ، مجلة الدراسات الإسلامية(Studia Islamica) ، 1955/3 ، 75-91 وجاء في نفس المرجع ، ص 80-81 أن مدن إفريقيا الشرقية وجنوب الجزيرة العربية والهند وسيلان كانت تعجّ بالبضائع الواردة من إفريقية (القيروان والمهدية والأربس ونفوسة) ومن المدن الأخرى (مالقة وفاس وطانجة وسجلماسة ودرعة) . وذكر B. Lewis في مجلة كليّة التجارة بجامعة اسطنبول ، 1952 م أنّ الفاطميّين قد حرصوا على افتكاك التجارة الهندية من خصومهم العراقيين بفضل الازدهار الاقتصادي التي تشهده المناطق المغربية الخلفية التابعة لهم . وابتداء من القرن الرابع الهجري لم تعد بلاد المغرب التي أصبحت غنيّة سوقاً « استعمارية » بالنسبة إلى التجار الفرس والعراقيين والسوريّين ، وقد حققت تقدّماً تجارياً في الهند والشرق الأقصى . انظر كذلك : كلود كاهن (Cl. Cahen) ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1955/3 م ، 109 الهامش ، 4 ، وS.D. Goitein ، **اليهود والعرب** ، نيويورك ، 1955 م ، 107-119 .

الحرير والنحاس والرّصاص والموادّ الكيميائية ، ومن عدن إلى مصر : التوابل والبرنيق والأقمشة[61] .

وتتعلّق عدّة وثائق قانونية تابعة لمجموعة الجنيزة بأحكام صادرة عن مجلس الأحبار بالقاهرة حول بعض القضايا التجاريّة التي عُولِجت في الهند[62] .

وكانت الجالية اليهودية باليمن تتولّى ربط الصلة بين مصر والهند ، وكان أحد كبار التجّار في كلّ من عدن والقاهرة يضطلع بمهامّ الوكيل ، وهو بمثابة أمين التجار الذي يقوم في نفس الوقت بدور المؤتمن ووسيط العبور والصيرفي ، ويشرف على « دار الوكالة »[62] .

وفي سنة 1102 م (؟) استقرّ تاجر يهودي[63] يحمل لقب اللّبدي (نسبة إلى المدينة الطرابلسية لبدة) بالقاهرة حيث اشترى جزءاً من منزل بمبلغ 300 دينار . وقبل التحوّل إلى الهند ذهب إلى المهدية حيث سلّم إليه « الديّان » (القاضي بمحكمة الأحبار) المدعوّ ابن لبرات كميّة من المرجان ، واشترى كميّة أخرى لحسابه الخاصّ . ولما رجع إلى القاهرة تسلّم السلع التي عهد بها إليه الوكيل والمتمثلة في الأقمشة وبالخصوص الكتّان الروسي المقدّر حقّ قدره في الهند ، والأواني الفضيّة والنّحاس والأدوية والمرجان ، مع كيس نقود فيه عشرون ديناراً من الذهب حديثة الضرب . وأمره الوكيل بتسليم نصف تلك السلع إلى وكيل عدن الذي سيشتري في مقابلها بهار مالابار ، وتوجيه النصف الآخر إلى مدينة أنهيلورة الواقعة شمالي بومباي لتبديله بالبرنيق .

فسار اللبدي نحو عالية نهر النيل ، إلى أن وصل إلى مدينة قوص[64] في الصعيد ، ومن هناك اجتاز الصحراء على ظهر جمل إلى أن وصل إلى ميناء عيذاب[65] الذي تنطلق منه السّفن في اتجاه الهند .

وقبل الوصول إلى المكان المقصود ، قام اللبدي ببعض الصفقات المتعلقة بالنسيج

61) S.D. Goitein ، **Speculum** ، 1954 م ، 187-188 والهوامش ، ولنفس المؤلف ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1955/3 م ، 81-82 ، واليهود والعرب ، 116-117 .
62) نفس المؤلف ، **Speculum** ، 1954 ، 189 .
62 م) نفس المؤلف ، اليهود والعرب ، 118-119 .
63) نفس المؤلف ، **Speculum** ، 1954 ، 191-195 .
64) البلدان ، 183/7 : كانت هذه المدينة التي هي قاعدة الصعيد المصري ملتقى التجار القادمين من عدن والذين يكوّنون أعظم قسم من السكّان .
65) نفس المصدر ، 246/6 : كانت تتردّد على هذا الميناء السفن القادمة من عدن والمحمّلة ببضائع موجّهة إلى الصعيد .

والمخدّرات ، ونقل معه إلى الهند كميّة المرجان التي سلّمها إليه كلّ من ديّان المهدية ووكيل القاهرة ، بالإضافة إلى الكمية التي اشتراها لحسابه الخاصّ . ولكنّه عِوَض أن يبيع مرجان وكيل القاهرة ويشتري بثمنه البرنيق ، أبدله بالخرز أو الخُريْزات (أي اللؤلؤ) ، ووجّه البهار والفولاذ إلى وكيل عدن .

ولما عاد إلى القاهرة لام عليه وكيل تلك المدينة وديّان المهديّة مخالفته لتعليماتها . وأثيرت حول هذا الموضوع قضيّة عدلية دامت زهاء السنتين من 1097 م إلى 1098 م وكانت موضوع عدّة جلسات عقدتها المحاكم اليهودية في عدن والهند والبلاد التونسية (أي بلا شكّ المهديّة) ، وانتهت بتسويات صُلحيّة .

وقد دافع عن مصالح ديّان المهديّة في القاهرة ممثّلان عنه . وسلّم اللبـدي إلى الديّان ثلاثة أكياس من المسك ، تعويضاً عن مرجانه الذي كان من النّوع الرّديء ، وتولّى بالإضافة إلى ذلك الاتّجار بالنيلة في القاهرة . ويبدو أنّه استظهر للوكيل بتذكرة في السلع التي تسلّمها ، مع بيان قيمتها بالعملة المحليّة . والجدير بالذكر أنّ الاتفاقيات المتعارف عليها ، المبرمة بين ربّ المال والعامل لم تكن موضوع عقود كتابية . ذلك أن المُقارِض المكلّف بالقيام بعمليّات تجارية في الهند مطالَب بأن يسدّد إلى شريكه كامل رأس المال المسلّم إليه وثلثَيْ الأرباح ، ويحتفظ بالثلث الآخر مقابل أتعابه[66] . والجدير بالتذكير من ناحية أخرى أنّ كتب الفقه القديمة تنصّ على أنّ التاجر المسلم مطالب بدفع ضريبة قدرها 2,50% من قيمة السّلع وأنّ التاجر غير المسلم مطالب بدفع 5% ، مع الإشارة إلى أنّ الحدّ الأدنى الخاضع للضريبة يبلغ 40 ديناراً بالنسبة إلى التاجر المسلم و 20 ديناراً بالنسبة إلى التاجر غير المسلم[67] .

ويبدو أنّ هذا الميز الذي ربما لم ينصّ عليه الفقه الإسماعيلي ، لم يطبّقه الخلفاء الفاطميّون المتسامحون إلى أبعد حدّ مع السكّان غير المسلمين[68] .

ولعلّ الضرورة الدينية التي تقتضي أن لا تصحّ الصلاة اليومية إلاّ بمشاركة عشرة كهول من

---

66) وحول المقارنة بين المضاربة الحنفية والقراض المالكي ، انظر ، S.D. Goitein ، **Speculum** ، 1954 م ، 195 ، الهامش 24 .

67) نفس المرجع ، 196 ، الهامش 26 ، أبو يوسف ، كتاب الخراج ، 79 ، الشافعي ، كتاب الأم ، 228/7 .

68) نفس المرجع ، 196 ، الهامش 27 : أشار المؤلف إلى تطبيق هذا الميز من جديد في عهد الأيوبيّين ثم إلى إلغائه في عهد صلاح الدين ، وبموجب ذلك أصبح اليهود والنصارى يدفعون نصف الأداء مثل المسلمين .

الذكور على أقلّ تقدير ، هي التي تفسّر ولو بصورة جزئية لماذا كان التجار اليهود يسافرون ضمن مجموعات كبيرة إلى حدٍّ ما ، ومن الأفضل أن تكون متجانسة ومؤلّفة من أفراد يسكنون في نفس الحيّ ، الأمر الذي من شأنه أن يساعد على فضّ بعض مشاكل القسمة الناشئة عن حالات الغرق والوفاة . أضف إلى ذلك أن كلّ تاجر سواء في الهند أو في البحر الأبيض المتوسط يجب أن يكون مصحوباً برفيق . كما نلاحظ من ناحية أخرى تشابك العمليّات التجارية وترابط العلاقات المتينة والوديّة أحياناً ، بل حتّى الأخويّة ، بين التجّار اليهود والنصارى والمسلمين الحريصين على التعاون فيما بينهم لتذليل المخاطر وتحقيق الأرباح ، أكثر من حرصهم على المنافسة التي لا شكّ أنّها لا تجدي نفعاً[69] .

التّجــارة مع السّــودان :

من الجدير بالتّذكير أنّ المغرب في أوائل العصر الوسيط كان يستورد من السّودان أعظم جزء من الذهب الخام الذي يصل إليه من ثلاث طرقات صحراوية : الطريق الغربي (عبر سجلماسة) والـطريق الأوسط وهو الأهمّ (عـبر ورقلة) والطريق الشرقي (عـبر الجريـد وطرابلس مـروراً بغدامس)[70] .

وكـان الخوارج في ورقلة (وارجـلان) يتحوّلـون إلى بلاد السّـودان لبيع تمـور سجلماسة والزّاب ، « ويُخرجون منها التّبر ويضربونه باسم بلدهم » . وكانت ورقلة مرتبطة بالمغرب الأوسط عن طريق المسيلة التي تبعد عنها 12 مرحلة كبار ، وبشرق إفريقية عن طريق قفصة التي تبعد عنها 13 مرحلة[71] . وقد تمكّن الفاطميّون في أوائل القرن العاشر من السيطرة عـلى هذه الـطرقات الثلاث ، ممّا هوّن عليهم إلى حدّ كبير غزو مصر . ثمّ افتكّ منهم الطريق الغربي حكّام الأندلس الأمويّون الذين فوّتوا فيه بدورهم لفائدة المرابطين خلال القرن الحادي عشر ، ولم يستطع بنو زيري إرجاعه . وممّا لا شكّ فيه أن تأسيس مملكة بني حمّاد لم يقطع الطريق الرابط بين ورقلة وقفصة الذي

69) نفس المرجع ، 1954 م ، 196-197 .

70) أماري ، Diplomi Arabi ، التوطئة ، ص 38 ، الهوامش 1 ، 58-407 ـ ماس لاتري ، المقدمة ، 222 ، لوتبار ، 150-151 ، ليويكي ، التوزيع الجغرافي. . . 337 ، ستوريا ، 420/2 .

71) الإدريسي ، Bel-121-120 ، بنو غانية ، 181 ، الهامش 1 .

ظلّ تحت سيطرة الإباضيين المستقلّين عمليّاً بالحكم . إلاّ أن غزوة بني هلال قد عرقلت لا محالة نشاط القوافل ، مدّة من الزمن على الأقلّ .

وممّا يفسّر توقّف تدفّق التبر السوداني ، نقص الذهب في المهدية ، وصعوبة تلافي النزيف المتولّد عن ضرورة استيراد القمح الصقلي إلاّ أن هذه المعلومات المتعلّقة بالحالة الاقتصادية في المهدية لا تنطبق إلاّ على هذه المدينة دون سواها . ويحقّ لنا أن نعتقد أنّ بني هلال الرحّل ما لبثوا أن أعادوا تنشيط هذه الحركة التجارية التي كانت تقوم بها القوافل . وليس لدينا ما يكفي من الوثائق حول المبادلات التجارية بين إفريقية والسودان[72] .

ففي عهد المنصور بن بلكين مثلاً تحوّلت قافلة من الواد (أريغ أو ريغ) إلى القنطرة مروراً بتوزر[73] .

وتوفّر لنا فتْوَيَان بعض المعلومات حول المبادلات التجارية بين إفريقية والسّودان قبل غزوة بني هلال . فقد جاء في الفتوى الأولى أن إفريقيّاً توفّي في السّودان بلا وصيّة . فأجبر الرجل الذي استحوذ على مفتاح مخزنه على تسليمه إلى الشخص الذي كلّفه ملك البلاد بالحكم بين المسلمين بالاتّفاق معهم . وسلّم الشخص المكلّف ببيع ممتلكات المُوَرِّث إلى القاضي إيرادات البيع التي اعترض عليها وريث الهالك . فأجاب القابسي بالموافقة على تلك العمليّة[74] . وتتعلّق الفتوى الثانية بعقد قراض يقضي بتحوّل المُقارض إلى منطقة تادمكة في بلاد السّودان . ولكنه ذهب إلى غانة ومنها إلى أوداجست حيث تزوّج ومكث هناك 11 سنة . فماذا يكون الجواب لو تحوّل مثلاً من تادمكة إلى الأندلس وسجلماسة ومن هناك إلى غانة وأوداجست ؟ أجاب المفتي : أنه بالنظر إلى المخاطر التي يمكن التعرّض لها ، لا ينبغي إبرام عقود قراض خاصّة بالسّودان[75] . ولا شكّ أنّ هذه التوصية غير المجدية لم تنقص أبداً من كثافة العلاقات التجارية مع تلك البلاد النائية . إلاّ أن

---

72) تجدر الإشارة إلى استعمال « أزقاق سودانية » لتبريد الماء في آخر العهد الفاطمي بإفريقية ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 102 ظ ، [طبعة بيروت ، 483/2] .

73) الشماخي ، 360 ، يقول النص : من أريغ إلى تمتار (؟) ، وحسب ح . ح . عبد الوهّاب ، فإنّ البلدة الأخيرة مطابقة لقرية جنطرار القريبة من الحامّة شمالي توزر ، وقد أشار ابن الشباط إلى هذه القرية التي انقرضت .

74) فتوى القابسي ، المعيار ، 98/10-99 .

75) فتوى القابسي ، المعيار ، 78-79 . أشار الجغرافيون العرب إلى المدن السودانية المذكورة ، البكري ، الفهارس ، البلدان ، الخ . . . وحول إبدال مسحوق الذهب بالملح والغوري والنحاس الخ . . . ، انظر البكري ، 179 وابن حوقل ، 101/1 .

الفوضى الناشئة عن غزوة بني هلال قد عرقلتها ، وينبغي أن ننتظر عصر المازري[76] لنعثر على إشارة إلى جلب التبر (السوداني ؟) عن طريق الجريد . فقد تسلّم عامل في القراض بضعة قناطير من الأرجوان[77] لبيعها في توزر مقابل أجرة معلومة تُقتطَع من سعر البيع ، والحصول على ثلث الأرباح . على أن يشتري في تلك المدينة بما يتبقّى له من المال سلعاً من المتوقع أن تكون مربحة . فالأمر يتعلق حينئذ بقراض عروض . وقد أمره صاحب رأس المال بأن يشتري له دابّة إن كانت موجودة هناك . ولكنّ العامل قد صرّح بأنه سيشتريها لنفسه بماله الخاصّ . كما تسلّم من شريكَيْن آخريْن سلعاً لترويجها في توزر ، مقابل أجرة محدّدة من قبل . ثم ارتحل دون أن يحمل معه أيّة بضاعة تابعة له شخصيّاً .

وفي توزر اشترى المقارض سلعاً لحساب الشريكَيْن الأوّل والثاني واقتنى ذهباً لحساب الشريك الثالث ، واشترى سلعاً لحسابه الخاصّ ، بمعلوم إيجار دوابّه ، وبأجرته ذاتها وبما استلمه من دنانير بعنوان سلفة على ثمن الزيت . كما اقترض ديناراً ونصف دينار على حساب رأسمال الشريك الأوّل ، على أن يقتطَع ذلك المبلغ من ثمن الكسوة التي يتعيّن على ربّ المال توفيرها له .

ولما عاد العامل من توزر سالماً ، سلّم إلى كل واحد من الشركاء الشيء الراجع إليه . ولكنّ الشريك الأوّل ادّعى أنّ كلّ ما رجع به المُقارض قد اشتراه بمال القراض ، في حين ادّعى العامل أنّه اشترى تلك السلع لحسابه الخاصّ ، حسبما هو مبيّن أعلاه ، وأنه قد تعوّد تسلّم المال على سبيل الوديعة ، مؤكّداً أنه اقتنى كلّ ذلك خوفاً من مخاطر الطريق . وأجاب المازري بقبول تصريحات العامل .

التجارة مع الأندلس :

إنّنا مدينون للمأسوف عليه كريستيان كورتوا بدراسة قيّمة[78] حول العلاقات الأندلسيّة المغربيّة في أوائل العصر الوسيط . ولا يسعنا في هذا المقام إلّا تقديم أهمّ ما جاء في هذه الدّراسة من معلومات .

كانت مدينة تنّس في عصر اليعقوبي (القرن الحادي عشر ميلادي) تمثّل القاعدة الأساسيّة

---

76) فتوى المازري ، المعيار ، 130/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 160/2 ظ .

77) الأرجوان ، حسب البرزلي ، مخطوط الرباط ، وفي المعيار ، « يَرْجُوَال » .

78) كورتوا (Ch. Courtois) ، المرجع السابق ، 51/2-59 .

للملاحة الأندلسيّة التي تفضي في النهاية إلى ميناء طبرقة . وقد كان التجّار الأندلسيّون يصدّرون المرجان من القالة والصوف من بونة والعسل من الجزائر ، وكانت تستهويهم بالخصوص في النواحي الشرقيّة ، الموادّ الشرقية المربحة إلى أبعد حدّ . ومن هنا جاءت في أوائل العصر الفاطمي أهميّة إفريقية التي كانت تقوم ، بفضل موقعها الجغرافي ، بدور الواسطة بين التجارة الشرقيّة والتجارة الأندلسيّة ، عن طريق ميناء المهديّة من جهة وميناء طبرقة من جهة أخرى ، « وقد كانا يمثّلان نقطة الوصول والانطلاق بالنسبة إلى تيّارَيْن اقتصاديَّيْن ، قد عمل الفاطميّون على الربط بينهما ربطاً مثمراً » . وقد أصبحت القالة (أو مرسى الخرز) عصرئذ وكراً مخطراً للقراصنة ، مجهّزاً بدار صناعة . في حين أُقصيت التجارة الأندلسيّة في اتّجاه الغرب ، الأمر الذي يفسّر ما شهدته طبرقة آنذاك من تدهور اقتصادي ، لفائدة بونة ، وما تمّ إنشاؤه من مستوطنات أندلسيّة في بجاية ومرسى الدجاج على سبيل المثال ، في منتصف القرن الحادي عشر ، تلك المؤسسات التي أقيمت « بلا شكّ أكثر من مرّة بمبادرة من أهل البحر » .

وقد تعدّدت المسالك الرابطة بين الساحل الإفريقي الممتدّ من شرشال إلى الجزائر وبين السّاحل الأندلسي الممتدّ من قرطاجنة إلى مصبّ نهر الإبر . ولعلّ التجزئة السياسيّة التي تعرّضت لها بلاد المغرب ، غربيّ خطّ طول مدينة الجزائر ، وبلاد الأندلس إثر انقراض الخلافة في قرطبة ، هي التي تفسّر تعقّد التجارة الأندلسية عصرئذ ، ويدلّ ظهور مسلكَيْن جديدَيْن يفضيان إلى الجزائر أو إلى ضواحيها القريبة على أنّ هذه المدينة التي طوّرها بلكين بن زيري قد أصبحت تقوم بدور مماثل للدّور الذي قامت به مدينة شرشال في العصر الروماني ، ومدينة تنّس في عصر اليعقوبي ، ذلك أنّ مدينة الجزائر قد صارت تمثّل « نقطة الاتّصال بين المسالك البحرية في أعالي البحار وبين المسالك البحرية الساحلية » . ولا أدلّ على ذلك من شهادات الجغرافيّين العرب . ففي حين أشار إليها المقدسي مجرّد الإشارة واعترف ابن حوقل بما تكتسيه من أهميّة نسبيّة ، وصفها البكري بأنّها مدينة كبيرة يستقبل ميناؤها أفواجاً من البحّارة الأندلسيّين والإفريقيّين وغيرهم .

وختم المؤلف دراسته مشيراً إلى نقطتين اثنتين لا جدال فيهما ، « أولاهما أنّ الشبكة التجارية المغربية كانت معقّدة أكثر بكثير مما يمكن أن نتصوّر من أوّل وهلة ، وأنّها تكشف لنا عن نفس ضروب المزاحمة والمنافسة المعروفة في البلاد المسيحية عهدئذ ، وبالخصوص في القرون الموالية . وتتمثل النقطة الثانية في كون التجارة قد أصبحت تكتسي صبغة « إسلامية » صميمة ، وتندرج ضمن نفس المجموعة الاقتصادية التي تنتمي إليها صقليّة والأندلس ، أي ضمن مجموعة تشمل الغرب الإسلامي بأسره » .

« وهكذا تتجلّى لنا في منتصف القرن الحادي عشر إحدى الخصائص الأساسيّة لأوائل العصر الوسيط المتمثلة في نموّ الطريق الإسلامي والطريق المسيحي بصورة متوازية ، إن صحّ التعبير ، على ضفّتي البحر الأبيض المتوسط . وقد تمّ الاتّصال الذي لا مفرّ منه بين العباد والموادّ في تخوم منطقة « كمبانيا » وفي حدود الأندلس غير الثابتة ، ليس إلاّ . وينبغي أن ننتظر بضعة عقود أخرى لينجرّ عن التوازن السياسي الجديد بين المسيحيّة والإسلام انبعاث المسالك المستعرضة وانتعاش النشاط التجاري الذي تتوقّف عليها كثافته » .

أضف إلى ذلك أنّ بجاية سوف لا تلبث أن تصبح بمثابة المهديّة ، بالنسبة إلى المغرب الأوسط ، إن صحّ التعبير ، وأن تتفوّق على مدينة الجزائر التي أشار الإدريسي مع ذلك إلى ازدهارها في القرن الثاني عشر .

وحول العلاقات التجاريّة بين الأندلس وإفريقيّة ، لم نعثر إلاّ على ثلاث فتاوى للمازري . وقد جاء في الفتوى الأولى أنّ رجلاً من قفصة تحوّل إلى الأندلس ومكث بها ستّ سنوات ، فطالبت زوجته بالطلاق[79] . وأشارت الفتوى الثانية إلى ولدٍ حمل معه إلى الأندلس أثاث أمّه الذي تبلغ قيمته 100 دينار[80] . وأخيراً جاء في الفتوى الثالثة أن إفريقيّاً تحوّل إلى الأندلس تاركاً (في المهدية ؟) زوجته وابنه ، وابناً آخر من زوجة مطلّقة ، وقد أرسل إليهم تسعة دنانير بواسطة سفينة أولى واثني عشر ديناراً بواسطة سفينة ثانية[81] .

التجارة مع الجمهوريات الإيطالية :

يعتقد شوب[82] أنّ سفن البندقية هي التي كانت تتولى تصدير الأقمشة البديعة ذات اللّون الأزرق والأسود ، في آخر القرن العاشر من طرابلس إلى البلاد المسيحية . وممّا يؤكّد هذا الاحتمال أن النسّاجين الإفريقيّين كانوا يجلبون مساديهم من البندقية . وقد أشارت المصادر إلى وجود سفن قادمة من البندقية في[83] المهديّة وطرابلس في سنة 971 م / 366 هـ[84] . كما أشارت وثيقة مؤرخة

79) المعيار ، 3/245-247 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/50 و .
80) المعيار ، 10/291 .
81) نفس المصدر ، 3/240 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح عبد الوهّاب 2/95 و .
82) Schaube، 22، ابن حوقل، 1/69.
83) ماس لاتري ، المقدمة ، 221
84) كورتوا، المرجع المذكور ، 2/54 ، الهامش 30 .

في جـويلية 1083 م / أوائـل 476 هـ إلى استئجار سفينـة من البندقيـة للذهـاب إلى طـرابلس الغرب[85] .

وفي عهد الحسن شهدت الجمهوريتان المتنافستان بيزة وجنوة ازدهاراً اقتصاديّاً مطّرداً . وقد أثبتت بعض الوقائع تواصل المبادلات التجارية بين المدن البحرية الإيطالية الأخرى وبين إفريقيّة . من ذلك أنّ عقداً مؤرّخاً في سنة 1123 م قد أشار إلى نقل 53 جلداً و 7 قناطير من الشمع[86] من تونس إلى غايت بواسطة سفينة تابعة لمدينة سالرنو .

ويبدو ، رغم افتقارنا إلى الوثائق ، أن رعايا بيزة قد تفوّقوا على رعايا جنوة ، حتى تاريخ الفتح الموحّدي ، لا سيما في تونس ، حيث تمكّنوا من التصالح مع حكّامها .

وفي ظـرف بضع سنـوات أبرمت كـلّ من بيزة وجنـوة معاهـدة مـع المـرابـطين لـمدّة 10 سنوات[87] . وفي نفس الفترة تقريباً سلّطت جنوة ضغوطاً لوضع حدّ لمنافسة مدن البروفانس (في جنوب فرنسا) مثل منبوليـي ولا سيما مرسيليا . وتمثّـل المعاهـدة المبرمـة بين المـدينتين في سنـة 533-532 هـ/ 1138 م حلفاً هجوميّاً ودفاعيّاً مُوجّهاً ضدّ المسلمين في المغرب الأقصى ينصّ على تعهّد الجنويّين بمساعدة تجّار مرسيليا على الاستقرار في شمال إفريقيا[88] .

ولنتذكّرْ في هذا السياق استيلاء أسطول تابع لبيزة وجنوة على بونة في سنة 528-529 هـ/ 1134 م ، واستيلاء رعايا بيزة على طبرقة في سنة 534-535 هـ/ 1140 م ، واستغلالهم لأرصفة المرجان التابعة لتلك المدينة ، ويبدو أن تجارة المرجان في ذلك التاريخ كانت تتعاطاها على وجه الخصوص مدينة تونس[89] .

وتحدّثت أخبار جنوة عن الهجوم الذي شنّته 12 سفينة شراعية جنويّة على بجاية في سنة 531-530 هـ/ 1136 م ، ورجعت القوادس مصحوبة بسفينة مشحونة ببضائع ثمينة[90] . ولكن رغم انعدام الوثائق ، نستطيع أن نؤكّد أن جنوة ما لبثت أن أبرمت معاهدة مع بني حماد ، حيث

---

85) Schaube ، 24 .

86) سايوس (Sayous) . 49-50 وشوب (Shaube) ، 276 انظر أيضاً ، ماس لاتري ، المقدمة ، 34 . . ولكن الأستاذ كلود كاهن (Cl. Cahen) قد أفادنا بأنّ تلك الوثائق مزيّفة .

87) ماس لاتري ، المقدمة ، 35-36 ، شوب ، 277-279 .

88) ماس لاتري ، مكتبة مدرسة شارت ، 1866/2 م ، 88 ، انظر أيضاً ، R. Pernoud ، تاريخ التجارة في مرسيليا ، 181-182/1 .

89) ماس لاتري ، المقدمة ، 8 والهوامش ، ومكتبة مدرسة شارت ، السلسلة 2 ، 1948/5 م ، 135 .

أشارت المصادر إلى وجود جنويّين في بجاية اعتباراً من سنة 546-547 هـ/ 1152 م[91] .

وقد حدّدت المعاهدة المبرمة بين جنوة وبيزة في 17 أفريـل 1149 م / 6 ذو الحجة 543 هـ المجال التجاري الذي يدّعي الإيطاليون الاستئثار به على حساب مرسيليا[92] .

ورغم ما كان يتمتع به رعايا بيزة من امتيازات في مدينة تونس ، فإن التجارة الجنويّة كانت نشيطة في هذه المدينة ، كما يدلّ على ذلك العقدان اللّذان حرّرهما الموثّق جيوفاني سكريبا[93] . ويتمثل العقد الأوّل المؤرّخ في 549-550 هـ/ 1155 م في قرض « مخاطرة كبيرة » ينصّ على تحمّل المُقرِض مخاطر الذهاب والإياب ، وتحديد سعر الفائدة بنسبة تتراوح بين 20 و30% . ويتمثّل العقد الثاني المؤرّخ في 550-551 هـ/ 1156 م في التعهّد بإعطاء شخص قاصد تونس المبلغ الذي سينفقه فيها لافتداء أسيرَيْن . وبما أنّ الأمر يتعلّق على الأرجح بجنويَّيْن ، فإن هذه الوثيقة تدلّ على أنّ رعايا جنوة كانوا يتمتّعون بنفس الامتيازات التي يتمتع بها رعايا بيزة ، وهو ما يتماشى مع محتوى الرّسالة التي وجّهها ابن أبي خراسان إلى رئيس أساقفة بيزة .

وحول المكانة المرموقة التي اكتسبتها تجارة بيزة في تونس قبل الفتح الموحّدي ، لدينا وثيقة ذات أهميّة بالغة تتمثّل في المكتوب الذي وجّهه عبد الله بن عبـد العزيـز بن عبد الحقّ بن أبي خراسان آخر جمادى الأولى سنة 552 هـ/ 10 جويلية 1157 م إلى رئيس حكومـة جمهوريـة بيزة ورئيس أساقفتها ، لتذكيره بالاتفاقيات المبرمة شفهيّاً مع سفير بيزة أبي تميم ميمون بن غليوم[94] .

وكان بودّنا أن نعرف مَنْ هو « ابن غليوم » هذا الذي أضفى عليه ابن أبي خراسان عنوان الشيخ والرئيس . فهل كان في أوّل عهده من النصارى المعتنقين للدّين الإسلامي والمساهمين في عمليّات الغزو في البحر التي كان يقوم بها بنو زيري ؟ وهل ينبغي أن نسلّم بأنه قد ارتدّ بعد ذلك عن الدين الإسلامي وتحوّل إلى خدمة بيزة ؟ وهل يمكن أن تستخدم بيزة نصرانيّاً معتنقاً للدين

---

90) ماس لاتري ، المقدمة ، 35 ، شوب ، 278-279 .

91) Pernoud ، المرجع المذكور ، 169/1-170 ، انظر أيضاً : R.S. Lopez و I.W. Raymond ، التجارة المتوسطية في عالم البحر الأبيض المتوسط ، نيويورك ، 1955 م .

92) Pernoud ، نفس المرجع ، 183/1-187 .

93) سايوس (Sayous) ، 56 .

94) 1) النص اللاتيني نشره ماس لاتري ، في مكتبة مدرسة شارت ، السلسلة 2 ، 1848/5 م ص 137-139 .

2) النص العربي نشره أماري ونقلة إلى الإيطالية ، Diplomi ، 1-6 ، انظر أيضاً ص 397 .

3) الترجمة اللاتينية للنص العربي ، أماري ، المرجع المذكور 255-256 .

3) تحليل مفصل بالفرنسية ، ماس لاتري ، المقدمة ، 37-39 ، شوب 278 .

الإسلامي ، مثلما استخدم ابن زيري جرجي الأنطاكي ؟ وهل كان المعني بالأمر يتظاهر بالإسلام في تونس ويتظاهر بالمسيحية في بيزة ، بفضل التباس لم يكن من صالح أيّ طرف رفعه ؟ .

ومهما يكن من أمر فقد وقع الاختيار على هذا المفوّض باعتبار اتّصالاته ببعض أعوان السلطة في تونس . والجدير بالذكر أنّ المكتوب الذي لدينا نصّه العربي وترجمته اللاّتينية المسجّلة في دفاتر المحفوظات في بيزة ، يفيد باستلام الرسالة التي قدّمها سفير بيزة ، ويشير إلى العلاقات الوديّة التي تربط بين البلدين . وقد أعلم ابن أبي خراسان بيزة التي يحبّها أكثر من أيّ دولة مسيحيّة أخرى - حسب قوله - بالانتصار الذي أحرزه أخيراً على المصامدة الموحّدين[95] ثم أجاب على عتاب بيزة - الوارد لا محالة في الرسالة السالفة الذكر - بشأن السفينة الإسكندرية التي خصّتها تونس بحسن القبول ، رغم ما ألحقته برعايا بيزة من أضرار . وقد حاول الاعتذار لدى أعضاء مجلس الشيوخ ، مذكّراً بأنه كان قد وجّه سفينة للغزو في البحر ، فاضطرّت إلى الإرساء في الإسكندرية حيث حظيت بحسن القبول . وبعد مدّة قليلة قدمت سفينة إسكندرية إلى تونس حيث عوملت بالمثل ، ثم تزوّدت بالمؤونة وباعت بعض أسراها وقفلت راجعة وعلى متنها القسم الأكبر من أولئك الأسرى . وكان ابن أبي خراسان يجهل تماماً وجود أسرى من رعايا بيزة في تلك السفينة ، وإلاّ لما تردّد في افتدائهم بماله الخاصّ وإرجاعهم إلى بلادهم بلا مقابل . وحرصاً على وضع حدّ لمثل هذه الأعمال ، أصدر تعليمات لمنع النخّاسين أو الأسرى من القيام بصفقات تتعلّق برعايا بيزة في كامل تراب بلاده . وقد أبرم هذا الاتفاق مع الشيخ الرئيس أبي تميم .

وأمّا بخصوص العادة الجاري بها العمل في تونس والمتمثلة في أخذ خمس حفنات (ملء اليدين)[96] من كل كيس حبوب ، فسوف يُقتصَر على أخذ أربع قبضات (ملء اليد) من أعلى كل كيس[97] . وفيما يتعلّق بالبضائع التي يستوردها رعايا بيزة ولكنّهم لا يتمكّنون من بيعها ، ومع ذلك فقد كان مُوظّفاً عليها (كما هو الشأن بالنسبة إلى المبيعات) أداء قدرة واحد من عشرة[98] ، فإنها ستُعفى في المستقبل من أيّ أداء ويمكن نقلها بكلّ حرية .

وكان الشبّ الذي يصدّره رعايا بيزة خارج إفريقية يدفع 38 ميلاراً وثلث الميلار عن كلّ قنطار[99] ، وسيُعفى ابتداء من ذلك التاريخ من أيّ أداء .

---

95) الفصل الخامس من الباب الرابع من هذا الكتاب .

96) الفصل السادس من الباب العاشر : « المكاييل والموازين » .

97) فهذا الأداء منخفض بأكثر من النصف .

98) لم يرد هذا التوضيح إلا في النص اللاتيني .

99) لم يرد هذا التوضيح إلا في النصّ اللاتيني .

وبعد ذلك تأتي في النصّ العربي عبارات تبدو مُشوَّهة ، وقد استنتج منها المحقّق أماري ، ومَن اقتدى به من المؤلّفين الآخرين أنّ رعايا بيزة كانوا يملكون فندقاً في مدينة تونس[100] .

ولكن يبدو ـ إن لم نكن قد أخطأنا في التأويل ـ أن ابن أبي خراسان قد صرّح بأنه أمر بمراعاة تجار الجمهورية والاعتناء بهم[101] .

وبناءً على ذلك فإنّ أسيراً من رعايا بيزة يوجد في مدينة تونس ، سيُطلَق سراحه بلا فدية ، إن أمكن ذلك ، أو يفتديه الأمير بماله الخاصّ ، ويُعامَل معاملة حسنة ثم يُوجَّه إلى بيزة . وفي المقابل تقرّر أن يُعامَل أيّ أسير تونسي يوجَد في بيزة بنفس المعاملة ويُرجَع إلى بلاده[102] .

وقد أُبرِم الاتّفاق الذي استبعد أيّ موضوع مثير للخلاف ، بصورة باتّة لا رجعة فيها ، مع سفير بيزة المكلّف بإبلاغ الرّسالة وتقديم بعض الإيضاحات شفهيّاً .

النّخاسة (تجارة الرّقيق) :

لا شكّ أن تجارة الرقيق ، أي الزنوج السودانيّين والصقالبة الأوروبيّين[103] ، كانت نشيطة جدّاً في القيروان والمهديّة وتونس . وقد اتّسع نطاقها في آخر عهد بني زيري بفضل الغزو في البحر .

ويبدو أنّ بلاد كانم في السّودان كانت أهمّ مزوّد لإفريقية بالعبيد السّود . وكانت القوافل القادمة من الجنوب الإباضي تتجمّع في زويلة التي تبعد عن أجدابيّة أربع مراحل[104] .

وكان أسرى الحرب من الرّجال والنّساء يُباعون بالمزاد العلني[105] أو يُطلَق سراحهم مقابل فدية[106] .

100) أكد لاتري (المقدمة 37) أن رعايا بيزة كان لهم في مدينة تونس حيّ أو فندق خاصّ يحتوي على عدة منازل وأسيجة .

101) إن النصّ التالي الذي نشره أماري مبهم وغير مستقيم :

« وأمرنا ليصاير عامة تجاركم والقيامة بهم الأهسل (أو الأهال) بسورهم وحرياتهم على الإكرام والرعاية والاهتمام » .

وقد اقترحنا القراءة التالية :

« وأمرنا أيضاً بمراعاة تجاركم والعناية بهم والاعتناء بشؤونهم وجَرْياتهم على الإكرام والرعاية والاهتمام » .

102) هذا البند وارد في صلب النصّ اللاتيني ، ووارد في هامش النصّ العربي ، مع بعض الاختلافات .

103) شوب ، 22-23 . سايوس ، 36 .

104) الشماخي ، 509 ، البكري ، 10-11 ، الاستبصار ، الترجمة ، 61 .

105) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 129/6 : شراء جارية داخلة في المغنم .

106) فتوى التونسي ، المعيار ، 332/2 : حُدّدت فدية عِلْج بمائة دينار .

والجدير بالتّذكير أنّ سوق العبيد بالقيروان كانت تسمّى « البركة » ولا شكّ أنها كانت تحمل نفس الاسم في تونس[107] . وكان نفس التاجر يتعاطى تجارة الرقيق والدوابّ[108] . وكان كثير من الصقالبة[109] يُعرَضون للبيع في السوق ويتعرّضون للخصي[110] .

وكانت إفريقيّة وسائر مناطق المغرب تزوّد المشرق بالمولّدات الجميلات والرقيق المِلاح والخصيان السّودانيّين أو الصّقالبة[111] .

وقد وصف رئيس النخّاسين الأسيرة المثالية بقوله : "إنها فتاة في التاسعة من عمرها كتاميّة الأب ، صنهاجية الأمّ ، قد تربّت عند المصامدة وأُتي بها إلى المدينة المنوّرة حيث مكثت ثلاث سنوات ثم إلى العراق حيث قضت عشر سنوات[112] .

وأشارت إحدى الفتاوى إلى نصراني توفّي وترك عبداً مسلماً يمكن عتقه بعد وفاة الهالك مقابل 100 دينار ، وكميّة من الخمر تساوي 100 دينار ، ونقوداً تبلغ قيمتها 100 دينار ، وولَدَيْن نصرانيَّيْن . وتتعلّق قطعة من الرقّ محرّرة بالعبرانية بهبة أَمَة ، والأرجح أنها حُرِّرت بالمهديّة في القرن الحادي عشر[114] .

وفي عهد بني زيري بالمهديّة كان الغزو في البحر هو المزوّد الرئيسي بالعبيد الروم والجواري والخدم . وقد سئل اللخمي عن جواز مثل هذه العمليّات نظراً لعدم شرعية الطريقة التي يتوخّاها القراصنة لاقتسام الغنائم[115] .

ولم يمتنع الهلاليّون عن اختطاف العبيد لبيعهم فيما بعد . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأنّهم كانوا يتعاطون تجارة الأسرى على نطاق واسع .

---

107) المدارك ، 2-172/3 ظ ، ترجمة أبي ميسرة (ت 337 أو 339 هـ/948-951 م) ، المعيار ، 129/6 .

108) فتوى ابن أبي زيد حول نخّاس يتاجر في الدوابّ والرقيق .

109) دائرة المعارف الإسلامية ، 79/4-80 .

110) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 41/2 و .

111) ابن حوقل ، 97/1 ، ماس لاتري ، المقدمة ، 215

112) السقطي ، 50 .

113) فتوى التونسي ، المعيار ، 140/9-141 .

114) Objets Kairouanais ، 209/1 .

115) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 121/2 ط ، المختصر ، 82 ظ .

في عصر أبي بكر بن عبد الرحمان كانت الخادمة النصرانية تباع في صقلية بثمن أغلى من الخادمة المسلمة ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 223/2 و ، مخطوط الرباط ، 80/2 ظ .

وقد عُرِض على اللّخمي والمازري رسم شهود يثبت أن الخادمة (ربّما كانت زنجيّة) التي اشتراها أعرابي بخمسين (أو ستين) ديناراً قد كان لها مالك شرعي[116] .

وجاء في فتوى للمازري أنّ رجلاً جاء ليبيع خادمة يقول إنّه قد اشتراها من ناحية الجبال . وقد أكّدت الخادمة أنّها من أصل حرّ ، وهي مولودة من أبوين حُرّين في جبل نفوسة ، حيث يعرفها كلّ الناس . وقد أثبت حاجّ قادم من نفوسة صحّة أقوال الخادمة ووعد باستقدام شهود ، ولكنه لم يفعل ذلك ، فمرّت الأيّام وأراد صاحب الخادم أن يعود بها . وقد أشار تعليق بخطّ القاضي أنّ الأمر يتعلّق بمُوَلّدة[117] .

لمحـة عـامّـة :

قدّم إلينا الجغرافي المقدسي[118] القائمة التالية في الصادرات الإفريقية وهي : الزيت والفستق والزعفران واللوز والخوخ المجفّف والمزامير وقطع الجلد والقِرَب . وكانت الأقمشة المغربيّة ولا سيما منها المعروفة « بالسوسيّة » مُقدّرة في مصر حقّ قدرها[119] .

وباختصار ، كانت الواردات الإفريقية تتمثّل في الموادّ التالية : القمح ـ وبالخصوص في سنوات القحط وفي مدّة استقرار أمراء بني زيري بالمهديّة ـ والخشب والمعادن وموادّ الصّباغ والتوابل[120] . وتتمثّل الصّادرات الإفريقية فيما يلي : الزيت والجلد والجلود والصوف والحرير والشمع والنسيج والمرجان والشبّ والزعفران والفواكه والعبيد والذهب[121] .

116) فتوى اللخمي ، المعيار ، 456/9 ، فتوى مماثلة للمازري ، المعيار ، 421/9-454 .

117) فتوى المازري ، المعيار ، 151/9 : « الخادم السمراء المُوَلّدة » . [أي المولودة من أبوين أبيض وأسود] .

118) المقدسي ، 48-49 .

119) الخطط ، 240 ، 258 ، 260 ، 261 ، 262 ، 358 : إشارة في سنة 516-517 هـ/1122-1124 إلى « شقّة خزّ مغربي» و «شقّة سوسي» و «منديل سوسي» . وأشار الإدريسي ، 67 إلى ما يلي : «ويُعمَل في بلاد السّوس الأكسية الرقيقة والثياب الرفيعة التي لا يقدر أحد على عمل مثلها بغيرها من البلاد» . فلا ندري هل أن كلمة « سوسي » منسوبة إلى بلاد السوس أو إلى سوسة .

120) انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع السابق [الترجمة العربية ، 273/2-277] . وحسب ابن حوقل ، 80/1 كانت مدينة البشرى [بشمال المغرب] تصدّر القطن إلى إفريقية وغيرها . وحول تجليد الكتب ، انظر ، Objets Kairouanais ، 211/1 .

121) برنشفيك ، نفس المرجع ، Pernoud ، المرجع المذكور ، 171/1-172 ـ ماس لاتري ، المقدمة 222 . ابن حوقل ، 97/1 . انظر أيضاً : كورتوا (Ch. Courtois) ، تحيّة جورج مارسي ، 54/2 .

الباب الحادي عشر
الحَيَاة الدّينيّة

الفصل الأوّل
المذاهب السنيّة

1 ـ المذهبان الحنفي والشافعي :

يبدو أنّ المؤلّفين[1] الذين أكّدوا أنّ المذهب الحنفي هو المذهب الذي كان سائداً في إفريقيّة حتى عهد المعزّ بن باديس ، قد طغت عليهم نظرة تبسيطيّة للأشياء ، جعلتهم يعترفون لصانع القطيعة مع القاهرة بالفضل في استئصال المذهب الشيعي وفرض الإجماع المالكي . ولئن كان من المحتمل أن يكون المذهب الحنفي قد ظلّ قائم الذات إلى حدّ ما ، باعتباره مذهباً مستقلاً عن المذهب الشيعي ، إلاّ أنه لم يكن هناك ما يؤكّد قيامه بدور ذي بال بعد سقوط الدولة الأغلبيّة ، بل إن غياب المجادلات بين الفقهاء الأحناف والمالكية وانضمام كثير من الأحناف إلى المذهب الشيعي ، يدلاّن على خلاف ذلك . فقد تحقّق التفوّق المالكي قبل عهد بني زيري ، وتدعّم فيما بعد وبلغ ذروته في عهد المعزّ بن باديس ، متسبّباً في القطيعة بين بني زيري والفاطميّين . ويبدو أن الاتّحاد الوثيق بين الأحناف والفاطميّين قد أوهم بعض المؤلّفين وحثّهم على تمديد فترة التفوّق الحنفي إلى ما بعد ظهور الدولة العبيدية بمدّة طويلة ، وهو ما يتنافى مع الحقيقة التاريخية . والجدير

1) أحمد أمين ، **ظهر الإسلام** ، 1/293-294 ، نقلاً عن القاضي عياض ـ الديباج ، 12 ـ الكامل ، 9/106 ، المقدسي ، 42-44 ابن خلكان ، 2/105 . **نجوم** ، 4/106-107 .

بالذكر في هذا الصدد أنّ « جماعة من العراقيّين » [أي الأحناف] قد خرجوا مع أبي يزيد صاحب الحمار[2] .

أمّا المذهب الشافعي ، فسنرى أنّ تأثيره لا يمكن إهماله ، ويبدو في كثير من الحالات[3] أنّه قد ساهم في انتشار العقيدة الأشعريّة . وكان ذلك التأثير واضحاً بوجه خاصّ لدى فقيهَيْن اثنَيْن هما الإبياني (ت . 352 أو 361 هـ/ 963-972 م) والسيوري (ت . 460 أو 462 هـ/ 1067-1069 م) . على أن المذهب المالكيّ الصنهاجي لم يكن متحجّراً ولا منغلقاً ، بل بالعكس من ذلك يبدو أنه كان متفتّحاً على جميع الاتّجاهات السنيّة ، على نحو جدير بالملاحظة .

ولا يفوتنا أن تقلّص المذهب المالكي في العراق لم يتمّ إلا بعد وفاة الأشعري (375 هـ/ 985-986 م)[4] ، أي بالضبط في الوقت الذي توطّد نهائيّاً في إفريقيّة .

المذهب المالكي :

الرّباط : لقد فقد الرباط كلّ قيمة عسكرية إبان ظهور الدولة الصنهاجيّة[5] . ذلك أنّ المرابطين الذين كانوا يعيشون في الرّباطات لم يعودوا يقومون بأيّ دور عسكري ، بحصر المعنى ، فقد أصبحوا متعبّدين ، مكرّسين حياتهم للتزهّد ، وليس لهم من المقاتلين إلاّ الاسم . على أنّ هذه المؤسّسة ما لبثت أن أصبحت مهملة ، وأقفرت الرباطات من سكّانها . وتسمح لنا بعض المصادر بتتبّع مراحل انحطاط رباط المنستير .

وكانت الرباطات تتمتّع بكثير من الأوقاف المحبّسة عليها[6] ، وكان يشرف على حظوظها

---

2 رياض النفوس [طبعة بيروت ، 339/2] .

3) ابن فرحون ، الديباج ، 13 : ظهرت آثار المذهب الشافعي جزئياً في إفريقية والأندلس بعد القرن الثالث من الهجرة ، وحول المذهب الشافعي في إفريقية قبل بني زيري ، انظر مدارك ، 2-10/3 و ، 28 ظ ، 29 ظ ، 88 ظ، 95ظ، 167و، أبو العرب ، 213 الضبّي ، 431 رقم 1293 ، الحميدي ، 309 رقم 763 .

4) مدارك ، 2-218/3 و ـ 219 و .

5) انظر حول الرباطات الإفريقية قبل بني زيري ، جورج مارسي ، نشرية معهد الدراسات العليا المغربية ، 11/ باريس 1925 م ، 395/2-430 ، ولنفس المؤلف كتاب الفنّ الإسلامي ، 45/1 ظ . الثانية ، الهندسة المعمارية الإسلامية ، 29-35 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1230/3-1232 (ج . مارسي) ، الهادي إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 294-298 ، زروق وابن ناجي ، شرح الرسالة ، 13/2 .

6) جاء في ترجمة السبائي (ت . 356 هـ/966-967 م) ، رياض [ط . بيروت ، 469/2-506] ومدارك ، 2-182/3 و ، أن حمام الجزارين كان محبّساً على القصر الجديد .

أمناء[7] . فقد تولّى أهل « المنزل » (أي البلدة) زراعة أرض مخصّصة لإنتاج الحلفا ومحبّسة على حصن . ولكنّ العمليّة التي تمّت في الأصل لصالح المرابطين بلا شكّ وبموافقتهم قد انقلبت ضدّهم وأصبحت تهدّد وجودهم ذاته[8] .

وكان قصر أبي (أو ابن) الجعد معموراً في عصر القابسي . وقد وهب أحد المرابطين أملاكه وبالخصوص بستانَيْن لعدد من أصحابه وللفقراء والمساكين[9] . ولا ندري إن كان قصر زياد الذي حوّله عبيد الله المهدي إلى دار صناعة قد عاد إلى ما كان مرصوداً له[10] . وأشارت بعض المصادر إلى أنّ العادة المتمثّلة في تحبيس أوقاف على فقراء المنستير لم تزل جارية بعد غزوة بني هلال[11] . وكان المرابطون المقيمون في قصر المنستير يعيشون بالخصوص من مداخيل الصيد البحري الذي كان يمثّل بالنسبة إليهم حقّاً يحظى بالأولويّة ، مثل التقاط العشب والخشب في المناطق الغابيّة . إلاّ أنّ فتوى للقابسي قد أشارت إلى وجود صيّادين ، كان أهل المنستير يشترون منهم كلّ أسماكهم لبيعها في المدن الأخرى ، وربّما كان أولئك وهؤلاء لا يقيمون بالرباط . وقد ألحقت هذه التجارة أضراراً جسيمة بتموين سكّان رباط المنستير وقصر ابن الجعد . ورأى القابسي أنّ الأسماك المتأتّية من هذا الصّيد يجب أن تُعرَض للبيع على عين المكان ، أمّا الكميّة الفائضة التي لم تجد من يشتريها ، فيمكن بيعها في أماكن أخرى[12] .

وكان أهل القيروان يتحوّلون إلى المنستير لقضاء شهر رمضان[13] . وبالنسبة إلى الأعياد أو المواسم ، لا سيما موسم عاشوراء ، كان النّاس يتوافدون على الرباط[14] . وكان القاضي يطالب

---

7) جاء في رياض النفوس [ط . بيروت 437/2] أنّ أحد معاصري السبائي كان أميناً بالمنستير ، وعُثِر في مقبرة المنستير على شهادة قبر « أمين المنستير » المتوفى سنة 419 هـ/1028 م ، زبيس ، Corpus، 29/2-30 رقم 6 . وتحدّثت فتوى لعبد الرحيم (بن الصائغ) عن وكيل فقراء المنستير المكلف بتوزيع الدنانير المسندة إليهم ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 120/2 و ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2 .

8) فتوى القابسي ، المعيار ، 24/7-25 .

9) فتوى القابسي ، المعيار ، 405/9 . وفي نفس المصدر ، 133/1 تحدّث القابسي عن صلاة أقامها في قصر أبي الجعد .

10) رياض النفوس ، [ط . بيروت 222/2] ، إدريس ، المرجع السابق 1936-298 .

11) فتوى عبد الرحيم (بن الصائغ) ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 120/2 و ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2ظ .

12) فتوى القابسي ، المعيار ، 2/2 .

13) مثلاً القابسي وأبو بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 138/1 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 م ، 31 .

14) جاء في رياض النفوس [ط . بيروت ، 127/2] أنّ رجلاً أسود كان يأتي كل سنة إلى قصر الطوب أول رجب فيقيم فيه رجب وشعبان ورمضان . وقبل سنة 324 هـ/935-936 م كان الناس يأتون من بعيد (على الأقل من سوسة) لإقامة =

أحياناً المتقاضين بأداء اليمين « ببعض الرباط »[15] . وفي فترات الاضطرابات كان النّاس يعهدون إلى المرابطين بأموالهم التي لم تكن مع ذلك بمنأى عن اللّصوص[16] . ويرى ابن أبي زيد أن مهمّة المرابطين الأساسية تتمثّل في أداء الصلوات في أوقاتها . وعندما يكثر المصلّون في المواسم لا ينبغي اللّجوء إلى المُسمِّع . ويعتبر الاجتماع لتلاوة القرآن بعد صلاة الصبح بدعة . ولا يجوز اعتبار « القراءة » (تلاوة القرآن) أفضل من الذّكر الذي ينبغي أن يتمثل في الخشوع ومحاسبة النفس أكثر ممّا يتمثل في الأذكار ذاتها . ولا ينبغي أن يكسب ساكن الحصن رزقه إلّا من كدّ يمينه ، ولا يجوز اعتبار إيرادات الأرض المحبّسة على الفقراء إلّا مجرّد إعانة ، كلّما دعت الحاجة إلى ذلك . ولا ينبغي أن يستغلّ الأغنياء « أرض السبيل »[17] .

وقد لوحظ أثناء توزيع الإعانات (التّسعيف) في ربيع الثاني 395 هـ/ 15 جانفي ـ 12 فيفري 1005 م ، في شكل دراهم دفعها أهل المهدية لسكّان رباط المنستير ، ربّما في مقابل استغلال الزياتين المحبّسة على الرباط ، أنّ كثيراً من المرابطين المزعومين لا يقيمون بالرباط ، بل يكتفون بالحصول على إحدى الغرف ولا يحضرون إلّا لأخذ نصيبهم من التبرّعات ثم يعودون إلى بيوتهم . وقد كانوا يستغلّون قطعة الأرض التي يقيمون بها ، إذ يبدو أنّهم هم الذين احتجز السلطان كرومهم مدّة من الزمن ، وأجبرهم على أن يسلّموا إليه كلّ محاصيلهم من العنب ، مقابل منحهم نصف قيمتها[18] . ولا شكّ أنّ مثال ذلك المرابط المتعبّد الذي كان يتعاطى التجارة ويخزن البضائع في غرفته لبيعها فيما بعد في الوقت المناسب ، كان شائعاً أكثر فأكثر[19] .

وكان القصر ممنوعاً على النساء ، وهذا ما دعا المرابطين إلى الإقامة خارج الرباط الذي تحوّل

- صلاة عاشوراء بالمنستير ، نفس المصدر ، مدارك ، 2-175/3 و : كان أبو علي حسن بن نصر (ت . 341 هـ/952-953 م) يسهر على « مواسم الرباط » بسوسة . وكان ابن الإمام (ت . حوالي 349-352 هـ/960-964 م) يخرج من المنستير إلى سوسة عندما يتوافد الناس على القصر في أيام المواسم ، نفس المصدر ، 178 ظ ، إدريس ، المرجع السابق ، 1956 ، 361-363 (ترجمة ابن التبّان) .

15) فتوى المازري ، المعيار ، 130/8-131 ، البرزلي ـ مخطوط الرباط ، 160/2 ظ ، 161 و : بقصر الرباط (أي بلا شكّ رباط المنستير) .

16) مناقب ، 234-235 ، 241-242 .

17) فتوى ابن أبي زيد حول رباط المنستير ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 173/1 و ، 176 ظ ، مدارك ، 2-176/3 و : كان الكانشي يمسك عن زراعة أرض الحِمَى لأنه يستطيع أن يستغني عن ذلك بزراعة الأرض في مناطق أخرى .

18) فتوى القابسي ، المعيار ، 438/9-439 .

19) فتوى أبي بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 159/7 .

شيئاً فشيئاً إلى محلّ لخزن المؤونة ، وانجرّ عن ذلك بناء أماكن لإيواء المتعبّدات قبليّ رباط المنستير ، قرب ضريح السيّدة[20] .

وقد شهد المازري إخلاء القصر الكبير بالمنستير من سكّانه . وكان السلطان قد كلّفه قبل ذلك ، هو و « صاحبه » أبو علي حسن (بن بكر البريري المهدوي)[21] بالقيام بتحقيق في المنستير . فضبطاً مع الشيخ أبي حفص (عمر القمودي)[22] الأحكام الشرعية الواجب مراعاتها ، ولكن بعد ذلك بقليل توفّي السلطان[23] وبقيت الأمور على حالها . وقد تأسّف المازري لانحطاط تلك المؤسّسة وأوصى بأن تُجرى عليها إصلاحات بلطف . وأصبح القصر الكبير لا يحتوي إلاّ على مخازن القمح والشعير التابعة لبعض المرابطين المقيمين داخل القصر أو خارجه . وكان بعض الزائرين يغلقون مخازنهم ويغيبون عدّة أشهر . وكان كثير من المرابطين لا يبيتون في القصر بل خارجه ، ولكن ذلك لم يمنعهم من الحصول على الصّدقات (المعروف) مثل غيرهم من سكّان القصر . وقد أقرّ المازري حقّ المرابطين في زيارة زوجاتهم من حين لآخر ، لتلقّي العلاج في صورة المرض ، ووصف البساتين والمغارس التي لم تكن موجودة في عصر « الأئمة » . ونستنتج من ذلك أن البوادي المجاورة قد تمّ إحياؤها . وقد استحوذ بعض المرابطين ، أكثر من غيرهم ، على الأراضي التي غرسوها وأصبحوا يتوارثونها[24] .

ووصف المازري[25] بعض الاستعراضات الليليّة التي كانت تُنظّم على الأرجح في سوسة والمنستير . فكان النّاس يتجمّعون إثر صلاة العشاء الآخرة ويتوجّهون إلى السور على ضوء القناديل ، على غرار الجنود ، مردّدين بصوت واحد : « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . ثم يجتاز الموكب المدينة بنفس الطريقة ، ويطوف بالشوارع مارّاً بدكاكين الجزّارين وأكوام الفضلات ، إلى أن يصل إلى السور .

وقد أيّد المازري تحريم مثل هذه البدعة واستنكر تلك الأناشيد وذلك الحماس غير اللائق ، وكذلك ارتداء الأكسية والملابس الصوفيّة الخشنة ذات اللّون الأسود ، وكلّ تلك التصرّفات

---

20) انظر الباب السابع من هذا الكتاب : المنستير .
21) وهو الاسم الكامل حسب البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 180/1 ظ .
22) حول هذا الفقيه ، انظر ، إدريس المرجع السابق 1955 ، 37 .
23) قراءة ظنيّة ، فهل يتعلق الأمر بتميم أم يحيى أم علي ؟
24) فتوى المازري ، المعيار ، 7/119-122 . البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 176/1 ظ ، 178 ظ .
25) المعيار ، 12/243-247 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، الإمام المازري ، 76-86 .

المقتبسة بصورة أو بأخرى ، عن الرّهبان النصارى ، حسب قوله .

وكان بعض النسّاك يعيشون في جبل زغوان وفي الوطن القبلي[26] . ولم تَخْلُ البلاد من العجائز المتعبّدات ، مثل تلك المرأة الصالحة التي كانت تتردّد على القابسي في القيروان وقد أسماها « بعجوز الحارة »[27] .

وقد كان الاختلاف أو بالأحرى التمييز بين الفقهاء والمتعبّدين ، وبين العلماء والنسّاك ، نظرياً أكثر منه حقيقيّاً . وعلى أيّ حال يبدو أن أصحاب كتب الطبقات قد حرصوا على التقليل من أهميّته ، مؤكّدين عمداً على ورع فقيه مثل ابن أبي زيد ، وعلى علم رجل صالح ، مثل محرز بن خلف . « فلا علم بلا عمل ولا زهد بلا فقه »[28] .

التصــوّف :

كان للتصوّف ، باعتباره مذهباً روحانياً ، ذا صبغة باطنيّة بصورة تزيد أو تنقص ، أتباع متحمّسون بالقيروان قبل مدّة طويلة من قيام الدولة الصنهاجية[29] . ففي القرن الثالث من الهجرة / القرن التاسع ميلادي ، كان تُعقَد اجتماعات صوفيّة أسبوعيّة في مسجدَيْن من مساجد القيروان على الأقلّ ،هما مسجد الخميس[30] وبالخصوص مسجد السبت[31] .

---

26) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 279 ، معالم الإيمان ، 166/3 .

27) معالم الإيمان ، 177/3-178 ، انظر أيضاً مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 285 .

28) إدريس ، المرجع المذكور ، 1935 ، 273-274 . وبالعكس من ذلك ، فقد جاء في رياض النفوس [ط . بيروت ، 215/2] أن النّاسك أبا جعفر القمودي (ت . 324 هـ/935-936 م) قد تأسف لأنه لم يحسن قبول الفقيه ابن اللبّاد الذي لم يعرفه ، وقد خرج ابن اللبّاد وهو يقول : عالم عند الله أفضل من سبعين عابداً . انظر أيضاً جواب أبي إسحاق التونسي حول هذا الموضوع في المعيار ، 226/11 . وانظر فتاوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 241/12 وأبي بكر بن عبد الرحمان ، نفس المصدر ، والمازري ، المعيار ، 241/12 .

29) إدريس ، المرجع السابق ، 1935 ، 289-291 ، وحول أحد كبار المتصوّفين القيروانيّين » وهو ربيع القطان ، انظر رياض النفوس ، [ط . بيروت 323/2-346] ومعالم الإيمان ، 35/3-42 ومدارك ، 2-155/3 و . ظ ، انظر أيضاً ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 129 . وحول أبي مالك سعد بن مالك الدبّاغ الصّوفي (ت . 361 هـ/971-972 م ، انظر ، معالم الإيمان ، 97/3 : كان دِينَوْري المغرب . وقال أبو عبد الرحمان محمد السلمي في تاريخ الصوفية إنّ أبا مالك الدبّاغ كان من تلاميذ أبي سعيد الخرّاز وإنه لا يدانيه أحدٌ في « علم الحقيقة » . وحول الدّينَوْري ، انظر ، البلدان ، 188/4-189 .

30) معالم الإيمان ، 116/2 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 8/32 و .

31) رياض النفوس [ط . بيروت 471/1-493-495-496] ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، 289-291 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 95 ظ ، معالم الإيمان ، 159/2-160 ،27/3-28 ـ مدارك ، 2-10/3 ظ ، 158 و ، الديباج ، 107 .

وكان يحيى بن عمر (ت. 289 هـ/ 901-902 م) قد استنكر بشدّة هذه البدعة ، بل ألّف كتاباً لمنع الناس من التردّد على مسجد السبت . وقد عارضه كثير من أهل القيروان المواظبين على تلك الجلسات التي حاول بنو عُبَيْد هم أيضاً منعها ، ولكن لأسباب أخرى[32] . ونحن نتصوّر مدى مساهمة هذا المركز الصوفي في إثارة حماس المالكيّة ضدّ الشيعة .

واستنكر حمديس القطّان (ت . 289 هـ/ 901-902 م) من جهته مثل هذه التصرّفات الملاحظة في المنستير[33] . إلّا أنّ جهود المتشدّدين من الفقهاء لم تمنعها من الاستمرار . وكان ابن أبي زيد وابن التبّان وغيرهما يتردّدون خفيةً على مسجد السبت ، خوفاً من بني عبيد[34] . ولم يتردّد لا القابسي ولا أبو عمران الفاسي على هذا المسجد[35] الذي لم يهجره الناس[36] .

والجدير بالتذكير أن المعزّ بن باديس قد استاء من الاجتماعات التي كان يعقدها في الجامع الأعظم بالقيروان أبو الحسن محمد بن أبي الفضل عبد الصمد الجواهري قبل حصول القطيعة مع الفاطميّين . وقيل لنا : إنّ هذه الاجتماعات التي كان يحضرها كثير من الرجال والنّساء ، كانت

وقد بُني هذا المسجد بالطوب في ربض المبطلين . وفي عصر ابن ناجي كان يسمّى مسجد العربي وكان يقع خارج القيروان قرب ضريح الصحابي أبي زمعة البلوي . وفي القرن الثالث هجري كان يُعقَد فيه كل يوم سبت ميعاد لتلاوة بعض الآيات القرآنية وبعض الأذكار والقصائد الصوفية . وكان يحضر هذا المجلس أحمد بن معتب صاحب سحنون وفي فترة لاحقة ابن اللبّاد وربيع القطان وأبو بكر بن سعدون وكان بعض الناس يتردّدون على هذا المسجد بالخصوص لأن بني عُبَيد لا يستحسنون ذلك . وقد جاء في رياض النفوس ، مخطوط لندن ، أن هؤلاء قد منعوا التردّد على مسجد السبت .

32) ومن الجدير بالملاحظة من جهة أخرى أن يحيى بن عمر الأندلسي الأصل قد تعرّف في صباه على يُمن بن رزق ، أصيل طليطلة صاحب كتاب الزّهد . وقد كلّف القائمون على مسجد السبت أندلسيّاً آخر بأن يقرأ في مسجد يحيى بن عمر الواقع « لحذاء حمّام النعمان » [بسوسة ؟] بعض آيات من القرآن الكريم تستنكر النهي عن حضور مسجد السبت . وكان أحد شيوخ ابن أبي زيد ، وهو أبو محمد بن مسرور الحجّام (ت . 346 هـ/957-958 م) ينهى عن قراءة كتاب الزهد ليمن بن رزق الذي كان ينعته « بصاحب الوساوس » ، انظر رياض النفوس ، [ط . بيروت ، 492/1 ، 493-494] ومجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، 289-290 ، وابن فرضي ، 63/2-64 رقم 1611 .

33) مدارك ، 17/3-2 ظ .

34) رياض النفوس [ط . بيروت ، 286/1] : « كان ممنوعاً دخول الناس إلى مسجد السبت » .

35) معالم الإيمان ، 27/3-28 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 95/1 ظ :

36) كان يتردد على مسجد السبت أبو عبد الله أحمد الخيّاط الواعظ المعروف بابن نمرة ، وهو رجل صوفي تتلمذ إلى عدد من الأساتذة المشارقة من بينهم الدينوري . وقد حضر معه ذات يوم في ذلك المسجد أحد تلاميذ ابن أبي زيد وهو أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت . 422 هـ/1030-1031 م) وعندما توفي ابن نمرة كفنه ابن أبي زيد الذي توفي بعده بثلاثة أيام ، معالم الإيمان 134/3-135 .

تشبه الاجتماعات الملتئمة بمسجد القرافة بالقاهرة ومسجد السبت بالقيروان[37] .

وإنّنا لنميل إلى اعتبار هذه الاجتماعات مظهراً من مظاهر التصوّف الشعبي الكفيل بمعارضة التصوّف المالكي الإفريقي ، ممّا يفسّر ردّ فعل المعزّ ، ولكن ليس هناك ما يؤيّد هذا الافتراض .

وعلاوة على عمل الصوفيّين والمتعبّدين والفقهاء ، يبدو أن العامّة قد تعرّضت لتأثيرات أخرى خفيّة بصورة تزيد أو تنقص . فقد أشارت المصادر عدة مرّات متتالية إلى « شيخ عامّي » كان يثير حماس العامّة[38] .

ويبدو أن فرقة الكرّامية ذات النزعة التجسيمية قد قامت بدورٍ ما في هذا المضمار[39] . وباستثناء بعض الذين أشرفوا على مجازر الشيعة ، أمثال محرز بن خلف في تونس وابن خلدون البلوي في القيروان وابن المنمّر في طرابلس ، يبدو أن قادة أهل السنّة قد تجاوزهم ، إن صحّ التعبير ، التصرف العاميّ الذي حاولوا طوعاً أو كرهاً التخفيف من حدّته أو توجيهه ، بل قلّ استغلاله ، لمّا عجزوا عن التحكّم فيه .

وقبل عهد بني زيري بمدّة طويلة ظهر النسّاك المكلّلين بهالة الصلاح في حياتهم بمظهر مقوّمي الأخلق ومرشدي أهل السنّة . وقد بدا هؤلاء الذائدون عن السنّة منذ ذلك التاريخ ، وكأنّهم الزعماء الروحيّون ، بالنسبة إلى البرجوازية الصغرى والحرفيّين ، على الأقلّ ، وأصبحت السلطة تخشاهم وتقرأ لهم حسابهم[40] . وقد تعاظم نفوذهم ، لا سيما وقد حصل اتّحاد حقيقي بين الفقهاء والمتصوّفين ، وواصل الجبنياني ومحرز بن خلف فيما بعد عمل السّبائي . ويمكن تفسير نجاح ابن أبي زيد والقابسي ومن جاء بعدهم ، ذلك النجاح الذي انجرّ عنه الانتصار النهائي للمذهب المالكي ، بالتمازج المتناسق والمتماسك بين كافّة القوى الحيّة السنيّة في إفريقية .

واستقرّ أحد منظّري التصوّف من أهل صقليّة المسمّى عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله البكري ، بالقيروان حيث أصبح قدوة للآخرين . وقد ذهب به الأمر إلى التصريح بأنه تمكّن من رؤية الله في حالة يقظة ، مؤكّداً أنّ الفقهاء عاجزين عن فهم مثل هذه الأسرار الخفيّة . واستنكر

---

37) البيان ، 279/1-280 ، معالم الإيمان 236/3-239 ـ مدارك 2-3 ، 160 و ، إدريس ، تحية ماسينيون ، 344/2-347.

38) انظر الباب الثالث ، الفصل الأوّل .

39) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 155-159 .

40) نفس المؤلف ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 60-88 .

ابن أبي زيد بشدّة هذه النّظريات وألّف رسالتَيْن في الموضوع(41) .

وقد أثار هذا الموقف ضجّة كبيرة في البـلاد ، وتهجّم عدد كبـير من الصوفيّـين والفقهاء والمحدّثين على ابن أبي زيد واتّهموه بإنكار كرامات الأولياء ، كما لو كان من المعتزلة . وفنّد كثيرٌ من المؤلّفين الأندلسيّين والشرقيّين آراءه .

وقد استفتى بعض خصوم ابن أبي زيد من القيروانيّين ، وكذلك المعني بالأمر ذاته ، البقلاّني الذي قيـل إنّـه ألّف كتاباً يحمل هـذا العنوان : « **الفـرق بين معجـزات الأنبياء وكـرامات الأولياء** » ، مصرّحاً في البداية بقوله : « شيخنا أبو محمد رضي الله عنه متسع العلم في الفروع ، مطلع على جمل من الأصول ، لا ينكر كرامات الأوليـاء ولا يذهـب مذهب المعتزلة »(42) .

ويتّضح من ذلك أن الأمر يتعلّق بتوضيح أكثر مما يتعلّق بتفنيد . إذ أنّ ابن أبي زيد ـ كما لاحظ ذلك المؤلف الأندلسي الطلمنكي ـ قد قصد وضع حدّ لبعض مظاهر التصوّف المتطرّف التي تشبه الشعوذة . ولربّما حرصاً منه على وضع حدّ لهذا الجدل ، أكثر من حرصه على الرجوع عن رأيه ، ألّف ابن أبي زيد كتاباً بعنوان « **جزء في إثبات كرامات الأولياء** »(43) . وذلك على الأرجح لتوضيح رأيه حول هذه القضيّة . وساهم القابسي في هذه المعركـة ، فانضمّ إلى صفّ ابن أبي زيد ، وقد نُسِبت إليه رسالة تحمل العنوان التالي : « **الرسالة الناصرة في الردّ على البكريّة** »(44) . وليس من المستبعد أن يكون الداودي قد فعل مثل ذلك(45) .

الفقـه المالكـي :

وبالتوازي مع الاتّجاه الصوفي ، وتعزيزاً له ـ إنّ صحّ التعبير ـ هناك اتجاه ثانٍ يمثّله الفقهاء الذين كرّسوا جهودهم أساساً لدراسة المسائل التي تثيرها العبادات(46) .

---

41) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 129-130 ، وحوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 146-149 ، 154 . المعيار ، 305/2 ، 343-344 ، ستوريا ، 102/1 ـ مائوية أماري ، 100/2-101 .

42) حسب المعيار ، 305/2 ، 343-344 . وفي المدارك ، ينبغي على الأرجح تعويض « وكان أرشدهم » بـ « وكان أشدّهم » .

43) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 149 .

44) نفس المرجع ، ص 183 .

45) إدريس ، تحية ماسنيون ، 2/ددّ33-334 .

46) ويتمثل هذا الاتجاه « في حفظ المناظرة (الجدل) والنظر للمسائل وتعليقها والحجّة » . وحسب القاضي عياض ، مدارك ، 160/3-2 ظ ، يمثّل هذه الطريقة أبو عبد الله محمد بن مسرور النجّار المعروف بابن الأصلع أو ابن الأقرع وربيع القطّان وابن حارث والمَمّسي . وقد نقض آراءهم أحمد بن النظر (كذا) الذي سمّاهم « العمليّة » ، وأيّده أحمد بن نصر وأبـو =

ونحن نتصوّر مدى السهولة التي كانوا يلتجأون بها إلى المجادلات الشرعيّة المطابقة إلى أبعد حدّ لعبقريّة الفقه . وقد كانوا يجتهدون في تذليل الصعوبات التي تثيرها تدقيقات المسلمين الأتقياء ، حرصاً منهم على التعلّق بالمعنى الضيّق للنصوص أكثر من التعلّق بروحها .

وقد كانت هذه المدرسة الامتثالية ذات النظر الضيّق ممثّلة بعدد من الفقهاء خلال العصر الصنهاجي(47) .

فقد لمس ابن التبّان ذات يوم ساق ابنته ، ظنّاً منه أنها زوجته ، فانفصل عن تلك الزوجة التي هي أمّ ابنته ، معتبراً أنها أصبحت محرّمة عليها . وقد درس معظم فقهاء العصر تلك المسألة بعناية فائقة(48) . إلاّ أنّ هذا النشاط النظري لا ينبغي أن ينسينا أنّ الفقهاء المولعين بالمجادلات الشرعية ، بل حتى من كان منهم أكثر تفتّحاً ، قد اهتمّوا بمثل هذه القضايا التافهة . فبالنسبة إلى كثير من المسائل الواردة في المدوّنة ، كان ابن شبلون مثلاً يتعلّق بالمعنى الضيّق للنصّ ، في حين كان ابن أبي زيد يستخلص منه المبدأ الأساسي(49) .

وبقطع النظر عن المنافسة الشخصية ، يبدو أنّ الخلاف بين أبي بكر بن عبد الرحمان وبين أبي عمران الفاسي ثم اللّخمي والسيّوري فيما بعد ، يرجع سببه ـ على الأقلّ جزئياً ـ إلى اختلافات مذهبيّة ، وإلى النزاع الذي لا مفرّ منه بين التقليد والتجديد .

فبخصوص إمكانيّة تسبيح الجمادات ، نرى اللّخمي يقرّ هذا الاحتمال ، مستشهداً بآية قرآنية ضدّ « أهل الأصول » الذين يصرّحون باستحالته . وقد حاول المازري عبثاً معارضته برأي القاضي أبي بكر بن الطيب البقلاّني ، فنصحه اللخمي بالتخلّي عن « كلام الأصوليين » الذي كان ينفر منه . وتوجّه إليه عبد الجليل الديباجي المعروف بابن الصابوني بقوله : إذن هذه الحصى تسبّح لله ؟ فأجاب اللخمي : أجل ! وبلغ به الغضب حدّاً جعل معارضيه يحجمون عن مواصلة النقاش معه(50) .

ميسرة . ومن سوء الحظّ فإن الفقرة تبدو مشوّهة . ومن الممكن تعويض « وأيّده » بـ « وأيّدهم » . وحول أبي ميسرة صاحب السبائي ، انظر ، رياض النفوس [ط . بيروت ، 2/361-367] ، وأبو العرب ، 23 . وحول أبي ميسرة أحمد بن نزار الفقيه ، انظر ، الهادي روجي إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 130 .

47) وكان يمثلها بالخصوص ابن أخي هشام وابن التبّان وابن معتب وابن شبلون وأبو بكر بن عبد الرحمان واللخمي والمازري الذكيّ .

48) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 360-362 .

49) نفس المرجع ، ص 370 .

50) فتوى المازري ، المعيار ، 12/233 .

وكان القضاة يحكمون بالإعدام على من يسبّون الدين ، وذلك طبقاً للتعاليم الفقهيّة[51] . وقد أفتى فقهاء القيروان بجواز معاقبة « مستغرق الذمّة » (أي الخارج عن القانون) ، بأن لا تُرجَع إليه الأمانة التي يكون قد عهد بها إلى أحد الأشخاص[52] .

المجـادلات الدينيّــة :

لقد التجأت المدرسة المالكية القيروانية من أوّل وهلة إلى الجـدل الديني ، وتـأثّرت بعلم الكلام ، ولا شكّ في وجود بعض المعتزلة الإفريقيين في العَهدين الأغلبي والفاطمي[53] ، وقد كان النّقاش حادّاً حول تعريف العقيدة[54] وخلق القيروان[55] وحرية الاختيار[56] .

ومن ناحية أخرى ، فإن المقاومة التي أبداها المذهب المالكي ضدّ المذهب الحنفي الذي كان يمثل مذهب الارستقـراطية الأغلبيّـة[57] لم تساهم قليلاً في تليين وإثراء المذهب المالكي الذي وجد نفسه بُعَيْد قيام الدولة الفاطمية الممثّل الوحيد للمذهب السنّي ، إثر الانضمام الجماعي للأحناف إلى الشيعة[58] .

واضطرّ علماء المالكيّة إلى مواجهة الدعاية الشيعية ، مُحَاوِلين ـ لا بدون مهارة فائقة ـ تفنيد حججها . وقد اضطلع ابن اللبّاد وبالخصوص ابن الحدّاد بهذه المهمّة الجسيمة بتفوّق[59] .

وإثر فشل ثورة أبي يزيد استفاد المذهب المالكي من فتور الدعوة الفاطمية[60] واستطاع في عهد بني زيري تنظيم صفوفه وتدعيم مواقعه والاستعداد لاستئصـال المذهب الشيعي .

---

51) فتوى القابسي ، المعيار ، 411/2 ، ورسالة ابن أبي زيد ، 250-251 .

52) فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 105/6-106 .

53) أبو العرب ، 298-222 ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، معالم الإيمان ، 202/2 : كـان ابن الحدّاد يسمّي المدوّنة ، المُدَوَّدة . وأشار ابن حوقل ، 96/1 إلى أن زناتة ومزاتة كانوا في معظمهم معتزلـة من أتباع واصـل بن عطاء . وصرّح في موضع آخر ، 70/1 أنّ كثيراً من النهّابين في بادية قابس كانوا يقولون بالوعد والوعيد .

54) إدريس ، مجلة الـدراسات الإسـلامية ، 1935 ، 132 ، ونفس المؤلف ، الكـراسات التـونسيـة ، 1953 ، 128 ، والمدارك ، 2-10/3 و ، 17 و ، 22 و ، 24 و ، 153 ظ ، 173 ظ ، 245 و ، 248 ظ .

55) رحلة التجـاني ، 19 ، الحلل ، 114/1 ، مـدارك ، 2-5/3 و ، إدريس ، مجلة الـدراسـات الإسـلامية ، 1935 ، 137-139 ، نقائش عربية ، 1/ رقم 77-83 ، 170 ، 267 : مشاهد قبور تؤكد أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق .

56) إدريس ، المرجع المذكور ، 139-141 .

57) أبو العرب ، 180-197 ، 219-222 ، إدريس ، المرجع السابق ، 129-137 .

58) أبو العرب ، 223-227 .

59) إدريس المرجع المذكور ، 148-152 ، أبو العرب ، 198-212 .

60) الصفدي ، 4/4 .

فقد أخبرتنا بعض المصادر أن أحد « العراقيّين » (أي الأحناف) وهو أحمد ابن قاضي المعزّ لدين الله الذائع الصيت ، أبي حنيفة النعمان ، الذي ربّما انضمّ مثل أبيه إلى المذهب « المشرقي » (الشيعي) ، سأل ابن أخي هشام (ت . 371 أو 373 هـ/ 981 - 983 م): لماذا يقول المالكية بإعدام من اتّهم عيسى بالزّنا ؟[61] .

وأجاب الشاعر ابن أبي سهل الخُشَني (ت . 406 هـ/1015-1016 م) عبد الله بن محمد الكاتب الذي دعاه إلى اعتناق المذهب الشيعي بأبيات مناسبة للمقام ، رجاه فيها عدم الإلحاح على رجل يأبى بيع ولائه بالمال[62] . وقبيل وفاة ابن التبّان (ت . 371 هـ/ 981 م) ذكرت بعض المصادر[63] أنّ نفس الوالي ونائب الأمير المعروف « بالمختال » قد دعا علماء القيروان ، ومن بينهم ابن أخي هشام وابن التبّان وابن شبلون وابن أبي زيد والقابسي ، إلى اعتناق المذهب الشيعي . وكان المختال قد تلقّى دعوة العزيز ، ثم قتله المنصور بعد ذلك بقليل[64] . فاجتمع أولئك العلماء بمسجد ابن اللّجام أو بدار بن أبي زيد ـ وربّما اجتمعوا مرّتين متتاليتين في المكانين المذكورين ـ وتعهّد ابن التبّان بأن يلبّي باسمهم دعوة المختال .

وبمحضر الوالي ، تناظر ابن التبّان مع اثنين من دعاة الشيعة هما أبو طالب وأبو عبد الله . وقد دار النقاش حول فضائل آل البيت وتفوّق علي بن أبي طالب على أبي بكر وفاطمة على عائشة .

وقيل : إن ابن التبّان قد أفحم منافسَيْه ، فقال له المختال : « يا أبا محمّد أنت شيخ المدنيّين ، ادخل العهد وخذ البيعة ! » . فعطف عليه أبو محمد وقال له : « شيخ له ستّون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويردّ على اثنتين وسبعين فرقة ، يقال له هذا ، لو نشرتني في اثنين ما فارقت مذهب مالك ! » . فلم يعارضه وقال لمن حوله : « امضوا معه ! » . وخرجوا ومعهم سيوف مصلّتة ، فمرّ بجماعة من النّاس ممّن حضروا لأخذ الدعوة ، وقال لهم : « تثبّتوا ، ليس بينكم وبين الله إلاّ الإسلام ، فإن فارقتموه هلكتم » . فترك عبد الله بقيّة الشيوخ .

وتعجّب ابن حزم (ت . 456 هـ/ 1063-1064 م) لمّا رأى فقيهاً متكلّماً إفريقيّا من أصل علويّ يعلن على رؤوس الملإ عن تفوّق عثمان على علي . ويبدو أنّ الأمر يتعلّق بأبي الحسن علي بن

61) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 ، 354-355 .
62) ابن القفطي ، 179/2 .
63) معالم الإيمان 113/3-115 ، إدريس ، المرجع السابق 363-366 .
64) انظر الباب الثاني ، الفصل الثاني .

أبي طالب العابر (معبّر الرؤيا) صاحب كتاب **الأزهار**[65] .

الأشعـريّـة :

لم تكن المسائل العقائدية غائبة عن مشاغل العلماء في العصر الصنهاجي[66] . فقد انتشرت العقيدة الأشعرية بسرعة في القيروان قبل ذلك العصر بمدّة طويلة[67] ، إذ كان فقهاء المالكية المتهيّئين لتقبّلها قد أدركوا من أوّل وهلة ما يمكن أن يجنوه من فوائد من هذه الجدليّة الدقيقة التي تمثل حلاً وسطاً بين المذهب السنّي والمذهب المعتزلي ، لا سيما وقد اعتبر علماء المالكية خطأ أو صواباً باعث النظرية الأشعرية واحداً منهم[68] .

ويبدو أن القلانسي (ت . 359 أو 361 هـ/ 969-971 م) كان من أوائل الأشاعرة القيروانيّين[69] . ويمكن أن يكون تعريف الإيمان قد طُرِح من جديد تحت تأثير الأشعرية[70] . فقد أخبرتنا المصادر أنّ المدعوّ أبا الحكم محمد بن حكمون الربعي الزيات هو الذي نقل هذه النظرية من العراق . وقد أثارت بلبلة في صفوف العلماء ، وتخاصم ابن التبّان وابن أبي زيد حول هذا الموضوع . فرأى الأوّل أنه يكفي أن يقول الإنسان إني مؤمن على سنّة الله ليكون مؤمناً ، وأيّده بعضهم ، في حين رفض خصمه هذا الرأي وعوّضه بالاقتراح التالي الذي حظي بموافقة جلّ العلماء : إذا كان الجهر بالإيمان تعبيراً صادقاً عمّا يخالج الإنسان من أفكار فهو مؤمن . وحسب رواية أخرى إذا قال : « أنا مؤمن إن شاء الله » . وقد شاطر السبائي والقابسي[71] و« الجماعة »

---

65) ابن حزم ، نقط العروس ، 246 ، انظر ، مناقب 285 ، 286 ، 308 .

66) وهذه بعض المواضيع التي لفتت انتباههم : التجسيم والتشبيه : ابن أبي زيد والقابسي والمازري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 135/1 و ، 137 و ، إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128 ، 155-159 ، - قيمة أسماء الله : التونسي ، المعيار ، 128/9 - معنى بعض الآيات القرآنية حول البعث : المازري ، المعيار ، 211/12-212 - معرفة إبليس واليهود والنصارى لله : عبد الحميد بن الصائغ . والسيوري والمازري ، المعيار ، 212/12-215 .

67) إدريس ، الكرّاسات التونسية ، 1953 ، 126-128 .

68) يقال إن الأشعري قد أكّد أنّ مالكاً تعاطى الكلام ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 136/1 ظ .

69) إدريس المرجع السابق ، 127-128 ، ونحية ماسينيون ، 332/2-333 .

70) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128 والمجلة الإفريقية ، 1956 ، 359-360 .

71) لقد عرّف القابسي الإيمان في أوّل « الرسالة المفصّلة » ، 246-247 ، بقوله : « مَنْ أظهر الإقرار بالإيمان ، وعمل فيما أظهر بما أُمِرَ به ، وانتهى فيما يُرعى منه عمّا نهي عنه ، وقلبه غير مؤمن بذلك أنه من عند الله ، فليس هو إسلاماً على الحقيقة . . . » . إنّما الإيمان « هو التصديق في القول والعمل . . . » . « وتبيّن بذلك أن الإيمان على الحقيقة إسلام » .

قارن مع تعريف ابن أبي زيد للإيمان ، الرسالة ، 24-25 : « إنّ الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح » . نلاحظ التطابق بين التصديق عند القابسي والإخلاص عند ابن أبي زيد .

رأي ابن أبي زيد . ودامت المعركة حتى آخر حياة ابن التبّان . وقيل : إنه لما رأى خصومه الذين يضمرون له حقداً دفيناً يناقشونه حول بعض المسائل الأخرى ، تمنّى من الله الموت ليتخلّص منهم ، فاستجاب الله دعاءه .

وقد استهلّ ابن أبي زيد رسالته الشهيرة التي حرّر نصّها الأوّل استجابة لطلب السبائي ، باستعراض لقواعد الإيمان يشبه إلى حدّ كبير العقائد الأشعرية سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون . وحسبما انتهى إليه البحث حول هذا الموضوع في الوقت الحاضر ، لا شيء يسمح بالتأكيد أن هذا الباب التمهيدي لم يرد في النصّ الأوّل . ومن الجدير بالتذكير أن ابن أبي زيد قد قدّم النصّ النهائي إلى ابن خالته محرز بن خلف (ت . 413 هـ/ 1022 م)[72] .

وقد أخذ ابن أبي زيد عن شيخَيْن أشعريّين على الأقلّ ، هما أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل الفاسي (ت . 357 هـ/ 967 م)[73] وأبو بكر أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن[74] . وكان الفقيه الأخير المكّي الأصل والقيرواني الموطن من تلاميذ العالم الأشعري ابن مجاهد البصري ، أحد شيوخ البقلّاني[75] . وكان لابن عبد المؤمن صاحب ابن أبي زيد وأستاذ القابسي ، تأثير بالغ على علماء القيروان الذين كان يناقشهم ويجادلهم ، وقد أثار إعجابهم وأصبح قدوة للكثير منهم . وإنّنا نجد عند ابن أبي زيد شخصاً اسمه أبو القاسم عبد الرحمان بن عبد المؤمن المتكلّم ، فهل هو نفس الشخص أم أحد أقاربه ؟ ولدينا الجواب الذي أجاب به هذان الفقيهان رجلاً استفسرهما حول خلود الخَضِر[76] .

أما الفقيه المغربي درّاس[77] فقد رحل إلى الأندلس والمشرق وأقام في القيروان ضيفاً على ابن أبي زيد ، وكان له تأثير كبير في هذه المدينة . وقد علم ابن أخي هشام أنه كان يحمل فكرة سيّئة عن علماء القيروان ، فتناظر معه ويقال إنه أفحمه .

وإنّ كنّا غير مخطئين ، فإن درّاس هو الذي ألّف رسالة في الدفاع عن الأشعرية ، وقد

---

72) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 130 ، 63 ، 68 ، 149 .
73) نفس المؤلّف ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1974 ، 134 .
74) نفس المرجع ، 138-139 والهامش 49 .
75) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128 والهامش 12 م .
76) نفس المؤلف ، حوليّات . . . 1954 ، 138-139 والهامش 49 ، 152 .
77) نفس المؤلف ، حوليات ، 1954 ، 134 ، 175 ، والكراسات التونسية ، 1953 ، 132-133 والمجلة الإفريقية ، 1956 ، 353-354 .

نقضها المجادل الظاهري السليط اللّسان ابن حزم (ت . 456 هـ/ 1064 م) .

وعندما يؤكّد ابن أبي زيد « أنّ الله فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كلّ مكان بعلمه » يبدو أنه يقتدي بالأشعري ، ويمكن أن تسمح لنا الدراسة المعمّقة لنوادره التي لم تقع إلى حدّ الآن ، بتوضيح العلاقة القائمة بين المدرسة المالكية القيروانية والعقيدة الأشعرية .

وفي الكتاب الذي ألّفه ابن عساكر لدحض الأكاذيب المنسوبة إلى الأشعري ، خصّص فصلاً لابن أبي زيد الذي سمّاه « بمالك الأصغر » واعتبره مُتضلّعاً في أصول الفقه ، وذكّر بأن أحد المعتزلة في بغداد وهو علي بن أحمد بن إسماعيل قد كاتب ابن حزم لحثّه على اعتناق مذهبه الذي هو مذهب مالك وأصحابه ، حسب زعمه . ثم استشهد ابن عساكر بفقرة من الرسالة التي أجابه بها ابن أبي زيد ، وقد قال فيها : إنّ أبا الحسن الأشعري رجلٌ معروف بنقضه لآراء الخوارج والقادرية والجهميّة وتعلّقه بالسنّة[78] .

وجواباً على الرسالة التي وجّهها ابن مجاهد إلى ابن أبي زيد في سنة 368 هـ/ 978 م ليطلب إليه إمداده بكتابيْه المختصر و النّوادر ، كلّف هذا الأخير شابّيْن قيروانيّين ، هما محمد بن خلدون وإسماعيل بن عذرة بأن يسلّما إلى ابن مجاهد مختارات من المختصر مصحوبة بإجازة . فتحوّل الشابّان إلى مكّة المكرّمة للاتّصال بابن مجاهد والأشعري .

وكان ابن عذرة من تلاميذ ابن مجاهد ، وقد نقل رسالته الشهيرة حول العقيدة الأشعرية التي سلّمها إليه المؤلف . وقد أخبرتنا المصادر أنه كان يلقّنها في القصر الكبير بالمنستير لأبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني الذي أبلغها بدوره إلى العالم الأندلسي أبي علي الغسّاني[79] .

وتأثّر القابسي هو أيضاً بالعقيدة الأشعرية[80] . وقد رحل إلى المشرق من سنة 352 إلى سنة 357 هـ/ 963-968 م صحبة شيخه درّاس الفاسي والأصيلي . وكان ينتسب إلى الأشعري الذي مدحه وألّف رسالة لعرض مذهب أستاذه الذي نعته بالإمام .

وجواباً على سؤال ورد عليه من تونس ، قال القابسي بالخصوص إنّ الأشعري لم يعتمد الكلام إلّا لتوضيح الأحاديث وإثباتها وتخليصها من أيّ عنصر مشكوك فيه . ويمكن أن يفهم ذلك كلّ من أنعم الله عليه بالإدراك ويسهى عنه كلّ من أعمى الله بصيرته . ثم أوضح أنّ

---

78) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128-129 . وحوليات . . . 1954 ، 146 . وحسب القاضي عياض وُجّهت رسالة المعتزلي إلى جميع فقهاء القيروان الذين نقضوها .

79) إدريس ، حوليات ، 1954 ، 155 ، وتحية ماسينيون ، 329/2 والكراسات التونسية . . . ، 1953 ، 128 .

80) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 132-134 وحوليات . . . 1954 ، 177-178 .

أبا الحسن الأشعري لم يكن سوى أحد من الذين عملوا على نصرة الحقّ ، ولم نسمع بأيّ شخص منصف قد وضعه دون تلك المرتبة التي هي مرتبته أو فضّل عليه أحداً من مناصريه أو أتباعه الذين اقتفوا أثره لفرض أوامر الله عزّ وجلّ والذّود عن دينه بقدر المستطاع . . وقد توفّي الأشعري رضي الله عنه ، فبكى عليه أهل السنة لمّا أدركته المنيّة وأراحت وفاته المارقين عن الدين . وإن تقديمه في مظهر آخر لدليل على عدم معرفته .

فهل يتعلّق الأمر بمقتطفات من فتوى ، أم يتعلق بفقرة من الرسالة التي ألّفها القابسي للدفاع عن الأشعريّة ؟ إن السؤال الذي ألقاه عليها رجل من أهل تونس ربّما قد حثّه على تأليف رسالة لم تصل إلينا .

وإثر وفاة البقلاّني سنة 403 هـ/ 1012 م ، وهي نفس السنة التي توفي فيها القابسي ، انتشر أتباعه في جميع أنحاء العالم . واستقرّ اثنان منهم ، هما أبو عبد الله الحسين بن حاتم الأزدي وأبو طاهر البغدادي ، في القيروان ، حيث كان لهما بالغ التأثير .

وممّا زاد في أهميّة عملهما ، أنّهما كانا مثالاً للعلم والتقوى ، وأنّ مناهضة الشيعة من قِبَل البَقلاّني الذي ألّف كتاباً للقدح في نسب الفاطميّين ، ما لبث أن ساهمت في إشعاع العقيدة الأشعرية في إفريقية المتلهّفة على التحرّر من نير الشيعة[81] .

وقد ألّف الأزدي كتاب **اللّمع في أصول الفقه**[82] . اللّهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بنقل **كتاب اللمع** للأشعري[83] .

وقد رحل أبو عمران الفاسي ، تلميذ القابسي المعجب بأبي طاهر البغدادي في سنة 399 هـ/ 1008 م إلى بغداد ، حيث تابع دروس البقلاّني الّذي قدّر علمه حقّ قدره ، رغم أن أبا عمران قد اعترف بأنه شعر بنفسه وكأنّه مبتدىء .

ولا شكّ أنّه بعد رجوعه إلى القيروان ما لبث أن غرس المبادىء الأشعرية في أذهان تلاميذه القيروانيّين والأندلسيّين الكثيرين الذين كانوا يتزاحمون على دروسه . ويُعتبَر هذا الإقبال مماثلاً للإقبال على دروس شيخه القابسي .

---

81) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 130-132 .

82) **الصلة** في المكتبة العربية الصقلية ، 47/2 ، ينبغي تعويض ابن علدرة بالأزدي . فقد درّس المؤلف أبو عبد الله الحسين بن حاتم الأزدي مصنّفه **كتاب اللمع في أصول الفقه** لأبي بكر عبد الله بن محمد القرشي المالكي الذي نقله إلى علي بن عثمان بن الحسين الربعي الذي نقله بدوره إلى أبي علي الغسّاني القرطبي .

83) نشر هذا الكتاب للأشعري ر . ج . ماك كارثي في **رسالة استحسان الخوض في علم الكلام** ، بيروت 1953 م .

وقد أظهرته لنا بعض النوادر وهو يخفّف من حماس العامّة ، بالاعتماد على بعض الحجج المتّسمة شيئاً ما بطابعها الأشعري[84] .

ومن بين العلماء الإفريقيّين الآخرين من ذوي الاتجاه الأشعري الذين سنتحدّث عنهم فيما بعد ، نشير بالخصوص إلى عبد الجليل الديباجي المعروف باسم ابن الصابوني ، وأبي إسحاق التونسي والسيّوري ، وثلاثتهم من تلاميذ الأزدي وأبي علي حسن بن محمود التونسي وعبد المنعم الكندي المعروف بابن بنت خلدون وعبد الحميد بن الصائغ .

واشتهر بالأشعريّة في بلاد المشرق ذاتها أحد علماء القيروان وهو أبو عُبَيْد (أو عبد) الله محمد بن أبي بكر عتيق السوسي[85] الذي عيّنه أبوعمران الفاسي قبل وفاته ليصلّي عليه صلاة الجنازة . كما أراد المعزّ بن باديس تكريم علمه ، فمنحه منزلاً . وقد أخذ محمد بن أبي بكر بن عتيق أصول الفقه في القيروان عن الأزدي صاحب البقلاني . ثم استقرّ في العراق ، ربّما إثر زحفة بني هلال ، ودرس في المدرسة النظامية الذائعة الصيت في مدينة بغداد التي توفّي بها سنة 512 هـ/ 1118 م ودُفِن في ضريح الأشعري . كما أنّنا نعرف اسم عالم أشعري إفريقي آخر وهو ابن العمورة الذي أنهى بقيّة حياته في المشرق ، وربّما في بغداد ، وقد توفّي بها سنة 517 هـ/ 1123 م[86] .

ورحل المتكلّم الأشعري أبو الحسن علي بن أبي القاسم محمد التميمي القسنطيني[87] إلى دمشق ثم إلى بغداد حيث تابع دروس أبي عبيد (أو عبد) الله محمد بن عتيق القيرواني السالف الذكر ، ثم عاد إلى دمشق . وقيل : إنه كان « يعمل كيمياء الفضّة »[88] . وقد ألّف كتاباً في الأصول موجّهاً ضدّ غلاة أنصار النظرية التجسيمية[89] ، وتوفي في دمشق يوم 18 رمضان 519 هـ/ 18 أكتوبر 1125 م .

وكان الإمام المازري (ت . 536 هـ/ 1141 م بالمهدية) أشعريّاً ونقل كتاب البقلاّني

---

84) إدريس الكراسات التونسية 1953 م ، 134-136 وحوليّات . . . 1955 م ، 54-56 .
85) نفس المؤلف ، حوليات . . . 1954 م ، 184-185 .
86) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 م ، 136-137 .
87) البلدان ، قسنطينة ، 7/89-90 .
88) يتولى تحويل الفضة إلى عنصر آخر .
89) ياقوت ، البلدان ، 7/89-90 : قال المؤلف أنه رأى هذا الكتاب الذي كان يحمل العنوان التالي : « كتاب تنزيه الإلاه وكشف فضائح المشبّهة الحشويّة » .

ـ التمهيد حسب الاحتمال ـ الذي أخذه من الأزدي ، إلى قاضي إشبيلية أبي بكر بن العربي (ت . 543 هـ/ 1148 م) .

كما كان سميّه تلميذ السيّوري أشعريّاً هو أيضاً ، وقد توفّي سنة 512 هـ/ 1118 م .

وكان أبو حفص عمر بن محمد بن إبراهيم البكري الصفاقسي المتكلّم الذي أقام بمصر وتوفي بها سنة 505 هـ/ 1111 م ، متضلّعاً في علم الكلام والطبّ ، وقد نقض آراء الغزالي .

وأخيراً فقد ألّف المتكلّم اليابري (ت . 523 هـ/ 1128 م بمكة) الذي نقض آراء ابن حزم ، شرحاً للباب الأوّل من رسالة ابن أبي زيد وأوضح العقائد الواردة فيه . كما ألّف مدوّنة في الفقه وأصول الفقه تتضمّن تصنيفاً يحمل عنوان المدخل ليكون بمثابة المقدّمة لكتاب آخر يحمل عنوان : **سيف الإسلام على مذهب مالك الإمام** ، أهداه إلى الأمير الصنهاجي على بن تميم[90] .

وأشار أحد المصادر[91] إلى وجود مجموعة من الأشاعرة في ورقلة في حياة أحد العلماء الإباضيين (ت . 528 هـ/ 1134 م وعمره 96 سنة) . ولكن ربّما لا يتعلّق الأمر إلا ببعض السنّيين المالكية الذين كان الإباضيون الوهبية يسمونهم وقتئذ بالأشاعرة . ويدلّ هذا التوسّع في المعنى على مدى تأثير الأشعرية في المذهب المالكي بإفريقيّة .

الشعائر الدينيّة :

لقد استمرّت في العصر الصنهاجي قراءة نافع[92] التي أقرّها المذهب المالكي في إفريقية من قبل . وانتقد القابسي إماماً اعتمد قراءة أبي عمرو بن العلى التي نقلها عن اليزيدي[93] في « قيام رمضان » (أي صلاة التّراويح)[94] . وقد كانت « القراءة بالشدّة » محرّمة[95] .

---

90) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 م ، 137-138 .

91) الشماخي ، 438-439 .

92) بفضل ابن خيرون (ت . 306هـ/918م) وانتشرت قراءة نافع في إفريقية وأزاحت قراءة حمزة ،' بلاشير ، القرآن ، 1/ المقدمة ، 131 ، المقدسي ، 46-47 ، المدارك ، 2-151/3 و : إنّ لقمان بن يوسف الغساني (ت . 318 أو 319 هـ/930-932 م) قد عاش في القيروان وأقام حقبة من الزمن في صقلية واستقرّ بتونس وبها توفّي . وكان يجيد القراءة ويدرّس قراءة نافع .

93) بلاشير ، القرآن ، 1/ المقدمة ، 123 .

94) المعيار ، 181/1 .

95) المعيار ، 49/12-52 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 131/1 ظ ، 139 ، و ، ظ .

والغالب على الظنّ أن معظم المتعبّدين كانوا يؤدّون جميع النوافل التي أشار إليها ابن أبي زيد في رسالته[96] .

وكان بعض المصلّين يجتمعون لقراءة سورة من القرآن إثر صلاة الصبح ويتوجّهون إلى الله بالدعاء بعد ختم القرآن . وقد وافق القابسي على ذلك ، لا بدون تردّد[97] . وصرّح ابن التبّان ذات يوم في المنستير أن الاجتماع لقراءة القرآن بدعة . وادّعى أحد المتهوّسين أنه ادّعى أن قراءة القرآن بدعة . وقد وجد القابسي صعوبة لتهدئة خواطر العامّة[98] . وقد شاطر ابن أبي زيد رأي ابن التبّان حول هذا الموضوع[99] .

ويبدو أنّ صلاة الضّحى قد كانت تقام خفية ، رغم أنّ الشيعة قد حرّموهـا . وفي سنة 407 هـ/ 1067 م أقامهـا ابن المنمّر علانيّة في طرابلس[100] .

وفي عصر السيّوري أقيمت صلاة الشفع والوتر قبل انتهاء الغسق بإمامة بعض الأيمّة في أحد المساجد ليلة الجمعة ، بل حتى في أيام الأسبوع الأخرى[101] .

وكان النّاس على الأرجح يعتكفون في المساجـد ، لا سيما في رمضـان ، ومن الأفضل في العشر الأيام الأواخر منه . ويدوم الاعتكاف عشرة أيام ، « ولا اعتكاف إلّا بصيام ولا يكون إلّا متتابعاً »[102] .

---

96) « ويُستحَبّ الذكر بأثر الصلوات . . . ويُستحَبّ بأثر صلاة الصبح التمادي في الذكر والاستغفار والتسبيح والدعاء إلى طلوع الشمس أو قرب طلوعها وليس بواجب ، ويركع ركعتيّ الفجر قبل صلاة الصبح . . . ويتنفّل بعد صلاة الظهر ويُستحَبّ له أن يتنفّل بأربع ركعات يسلّم من كلّ ركعتين ، ويُستحَبّ له مثل ذلك قبل صلاة العصر . . . ويَستحَبّ أن يتنفّل بعد صلاة المغرب بركعتين وما زاد فهو خير وإن تنفّل بستّ ركعات فحسن ، والتنفّل بين المغرب والعشاء مُرَغّب فيه . . . (وبعد صلاة العشاء) يصلّي الشّفع والوتر جهراً ، وكذلك يستحبّ في نوافل الليل الإجهار وفي نوافل النهار الإسرار . . . وأقلّ الشفع ركعتان ويستحبّ أن يقرأ في الأولى بأم القرآن وسبّح اسم ربّك الأعلى وفي الثانية بأم القرآن وقل يا أيها الكافرون ويتشهّد ويسلّم ثم يصلّي الوتر ركعة . . . وأفضل الليل آخره في القيام ، فمن أخّر تنفّله ووتره إلى آخره فذلك أفضل » . (رسالة ابن أبي زيد ، 64-73) .

97) فتوى القابسي ، المعيار ، 127/11 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر 106/1 و ، انظر أيضاً برنشفيك ، الدولة الحفصية [الترجمة العربية ، 324/2] .

98) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 350 (ترجمة ابن التبّان) .

99) البرزلي ، مخطوط الجزائر 175/1 و .

100) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 155 .

101) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 98/1 ظ ، 99 و ، المختصر ، 13 و .

102) الرسالة ، 124-127 ، 290-291 ، فتوى القابسي ، المعيار ، 340/1 .

ومن الجدير بالتذكير أن قاضي القيروان ونوّابه في الأقاليم كانوا في العصر الصنهاجي من أتباع المذهب المالكي . ولا شكّ أنّ ذلك كان من أهمّ أسباب الطمأنينة التي اتّسم بها المذهب السني الإفريقي قبل غزوة بني هلال بمدّة طويلة .

ولم يكن المذهب الشيعي الرسمي يتجلّى إلا من خلال الآذان وخطبة الجمعة[103] .

ومن المحتمل أن تكون قد جُلِبَت الحصي من مكّة المكرّمة لاستعمالها في التسبيح . ولكن ربّما يتعلق الأمر بحالة خاصّة[104] .

وقد وصفت لنا بعض الفتاوى[105] التي وردت فيها بيانات جذّابة ، الحياة في أحد المساجد الذي يمكن أن يكون مسجد قفصة . إذ كان النّساء يصلّين في العادة في « السقائف » ، ولكن عندما يشتدّ الازدحام يوم الجمعة ، تتّصل صفوف الرجال بصفوف النساء . وقد خصّص القاضي وبعض الشيوخ مقصورة للنساء مبنيّة بالطوب[106] . ولكن عندما يكثر المصلّون ، تُعطى الأولويّة للرجال ، ولا تقبَل النساء إلّا إذا بقيت أماكن شاغرة .

« وعلى رأس جامور » أحد المآذن ، يوجد منذ أربعين سنة ديك مصنوع من النحّـاس . ولا شكّ أن الأمر يتعلّق بدوّارة هواء . فينبغي حينئذ إزالة ذلك التمثال الحيواني أو جعله بلا شكل محـدود . كما توجد في المسجد المذكور مخازن للزيت والقناديل والخشب والجبس الخ ، ومسكن القيّم الذي بنى فوقه تنّوراً لطبخ الهريسة[107] .

وقد تعوّد المصلّون في الصفّ الأوّل على وضع نعالهم بين الحائط والحصير في اتجاه القبلة . فقرّر القيّم تهيئة رفّ مصنوع من الجريد [لوضع النعال] . وتوجد حول المسجد بيوت محبّسة عليـه ، يؤجّرها القيّم . ويقضي الناس القيلولة في المسجد ويبيتون فيه . ويُستعمَل صحن المسجد أحياناً لتجفيـف الشعير الأخضر والتّين والغسيل[108] . وكان الناس يتردّدون على المسجد ذهاباً وإياباً لاغتراف الماء من الماجل ، فيوسّخون المحلّ ويقلقون راحة المصلّين . ويمكن منع استعمال

103) انظر الفصل الثاني من هذا الباب .

104) معالم الإيمان ، 263/3 ، مناقب ، 24 ، 216 ، الهامش 65 .

105) فتوى اللخمي وابن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط الجزائر 137/1 و ، 138 و ، مخطوط ح . ح . عبدالوهّاب، الكراس 2/33 ظ ، المختصر ، 18 و ، 161 ظ ، 162 و .

106) الشماخي ، 536-537 : في المساجد الإباضية بنفوسة تُوجَد سترة في الصفّ الأخير تفصل بين النّساء والرّجال .

107) انظر الفصل الثالث من الباب التاسع .

108) انظر حول استعمال المساجد لأغراض دنيوية ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 61-62 .

ماجل المسجد في المدن التي يوجد بها نهر . ولكن في قضية الحال يعتبر ماء الماجل المذكور ضرورياً لطبخ الفول وغسل الثياب .

وينبغي وضع مواجل المساجد على ذمّة جميع الناس بلا ميز ، عندما يكونون في حاجة إلى الماء أثناء اشتداد الحرارة . وقد استنكر القابسي العادة القديمة المتمثّلة في إعطاء الأولوية للإمام أو للمؤذّن . فيجب أن لا يكون هناك أيّ ميز في هذا الميدان(109) .

وكانت صلاة الجنازة تقام في بعض المساجد المبنيّة وسط المقابر(110) .

وقد أجاز ابن أبي زيد الصلاة بإمامة إمامَيْن ، أحدهما داخل المسجد والآخر خارجه أو في الصحن(111) .

وأشارت بعض المصادر إلى حضور أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان صلاة عيد الأضحى في مصلّى القيروان ، وقد كان المصلّون المنقسمون إلى فريقين يكبّرون على التوالي . فسُئِل الفقيهان عن هذه العادة التي لم تزل جارية في عصر ابن ناجي (القرن الخامس عشر ميلادي) ، فأجابا أنها صحيحة(112) .

وحتى تاريخ القطيعة مع القاهرة ، كان أهل إفريقية من المالكيّة يمسكون عن حضور صلاة الجمعة التي تقام باسم الخليفة الفاطمي . « فكان بعضهم إذا بلغ إلى المسجد قال سرّاً : اللهمّ اشهد ! اللهمّ اشهد ! ثم ينصرف فيصلّي الظهر أربعاً »(113) .

ولكن قد يكون من المبالغة الاعتقاد أن جميع السكّان المالكية كانوا متشدّدين إلى هذا الحدّ . ومهما يكن من أمر ، فلربّما أصبحت الدعوة للخليفة الفاطمي في عهد بني زيري ، مجرّد إجراء تشريفاتي .

---

109) فتوى القابسي ، المعيار ، 230/7 ، رأي مماثل لرأي التونسي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 60/1 ظ ، 61 و ، حول مواجل مساجد القيروان وإشارة إلى رأي اللخمي ، وحول مواجل جامع قفصة ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 60/1 ظ : بيع ماء مواجل المساجد في عصر البرزلي لتعويض النّقص في مداخيل أوقافها ، إلاّ أنّه لا يزال من الممكن أخذ الماء مجّاناً من جامع القيروان .

110) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 204/1 و ، وقد منع أبو عمران الفاسي هذه العادة التي أجازها ابن الكاتب . وصرّح ابن محرز أنّ هناك اختلافاً حول هذه المسألة بين الفقهاء .

111) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي مخطوط الجزائر 134/1 و .

112) المعيار ، 358/2 ، إدريس ، حوليات . . . 1955 م ، 29 .

113) البيان ، 277/1 . وقد كان يفعل مثل ذلك أبو الحسن الدبّاغ المتوفى سنة 359 هـ/969-970 م أي في العهد الفاطمي . انظر أيضاً معالم الإيمان ، 3-96 .

ورغم أنّ موقف التونسي الموالي للشيعة المعتدلين تنقص من قيمة شهادته ، فقد رأى هذا الفقيه أنّ الصلاة تصحّ في جامع القيروان أو جامع صبرة ـ المنصورية على حدّ السواء ، وأنّ ذكر « السلاطين » في الخطبة لا يلغي وجوب حضور صلاة الجمعة . وصرّح أنه لا يعرف حول هذه المسألة أيّ اختلاف بين « أصحابه » ، الأموات منهم والأحياء[114] . وقد أبدى السيّوري رأياً مماثلاً لهذا الرأي[115] . وبالعكس من ذلك أدان ابن عـذرة والـداودي بشدّة الخطباء الذين كانوا يخطبون في الجوامع في عهد الشيعة وأفتى الـداودي بعدم صحّة صلاة الجمعة ، إذا كانت الخطبة تتضمّن الدعوة للفاطميّين . ولكن يبدو أنّ هذا المـوقف المتشدّد لا يعكس سوى وجهة نظر متطرّفة ، سابقة للعصر الصنهاجي[116] .

ولدينا بعض المعلومات حول طقوس المآتم[117] . فقد أشارت بعض المصادر إلى وجود « المسمّع » في صلاة الجنـازة في أواخر العصر الصنهـاجي[118] . واستنكر ابن أبي زيد وجود « المسمّع » أثناء الصلوات بوجه عام ، وذكر أن بعض أصحابه قد أجازوا ذلك في صلوات الجمعة والعيدَيْن ، لأنّ جميع المسلمين مطالبون بأدائها[119] .

وفي بعض الأحيان يُدفَن الأموات ليلاً على ضوء المشاعل[120] .

ولمّا دُفِن القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) نُصِبَت قرب قبره « الفساطيط » وبات فيها النّاس . وكان أبو عمران الفاسي من بين الذين أقاموا هناك شهراً كاملاً[121] .

وإثر موكب جنازة أبي بكر بن عبد الرحمان (ت . 432 أو 435 هـ/ 1040-1044 م) الذي

---

114) فتوى التونسي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 106/1 ظ ، 107 و .

115) فتوى السيّوري ، المعيار ، 365/2-366 ، 270/6 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 107/1 ظ .

116) إدريس ، تحيّة ماسينيون ، 330/2-331 ، 337-338 . وكان الـداودي يرى أنّ من واجب علماء القيروان الخروج من بلاد بني عُبَيْد .

117) انظر أيضاً الرسالة ، 105-117 .

118) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 206/1 و .

119) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 173/1 ظ ، 174 و . وحول صحّة الصلاة بالمسمّع ، انظر المعيار ، 133/1 : استشهاد بكتاب التعليقة على أحاديث الجوزقي لـلإمام أبي عبـد الله المازري (الإسكنـدراني) المتوفّى سنـة 530 هـ/1135 م وفتوى القابسي التي يبدو أنها لا تنطبق على هذه المسألة .

120) معالم الإيمان ، 154/3 .

121) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 197 ، المعيار ، 273/1 .

انتظم ليلاً ، سهر خلق كثير على ضوء المشاعل والشموع ، ولم ينصرفوا إلاّ عندما منعهم السلطان من البقاء هناك[122] .

وغداة الدّفن يُقام في الصّباح قرب القبر موكب يسمّى « صباح القبر »[123] . ويُطْعَم النّاس « ليلة الثالث »[124] . ولعلّ إحدى فتاوى القابسي قد أشارت إلى هذه العادة بالذّات لما ذكرت أن بعض القرى قد وجّهت « قصاع الطعام » (ربّما الكسكسي) إلى أهل الميّت المتجمّعين في بيته[125] .

وتوجد في بعض القبور « ألواح مكتوبة من الجهتين »[126] وألواح مزدوجة[127] .

ويمكن أن تُبنى قبور أفراد من نفس العائلة في مكان مسوّر ، مفصول بحائط صغير عن بقيّة المقبرة ، يسمّى « الحوطة » [أو التّربة][128] . وكان بعض الأشخاص ، كابن أبي زيد مثلاً ، يُدفَنون في بيوتهم مع أقاربهم وذريّتهم . واستقبل النّاس موكب جنازة أحد الصّالحين بالتكبير[129] . وكانت تبنى بعض الأضرحة في المقابر[130] .

وحول زيارة المقابر ، نعرف أن النساء كُنّ يتحوّلن إلى مقبرة باب سلم كلّ يوم خميس[131] .

---

122) إدريس ، المرجع المذكور ، 1955 ، 41 .

123) [ما زالت هذه العادة جارية في تونس إلى الآن] ، فتوى القابسي ، المعيار ، 1/275-276 . ويُسمّى هذا الموكب أيضاً « صباح قبر فلان » . وتعني عبارة « تصبيح القبر » ، زيارة القبر في الصباح . ويبدو أن هذه البدعة قد ظهرت في « السنة السابعة » (307 هـ ؟) وقد حضر الموكب ابن أبي زيد ، ولكن يبدو ، حسب قول القابسي ، أنه أصبح فيها بعد يزور بيت الميت لا قبره ، غداة يوم الدفن . ولم يحضر ابن التّبّان « صباح قبر » أمه . ولم يستنكر السبائي هذه العادة بمناسبة وفاة « أمّ بني صدور المشائخ » ، إذ اعتبرها مظهراً لتضامن المسلمين في المحنة . كما أقرّها القابسي ، انظر أيضاً ، مناقب ، 93 ، 276 .

124) فتوى القابسي ، المعيار ، 1/275-276 ، [ما زالت هذه العادة جارية في تونس إلى الآن وتسمّى « الفَرْق »] .

125) استنكر القابسي هذه العادة المنافية للسنّة ، المعيار ، 1/275 .

126) معالم الإيمان ، 3/100 .

127) يتعلّق الأمر بمشاهد قبور بني خراسان ، زبيس ، Corpus ، 1/64 .

128) معالم الإيمان ، 3/161-206 .

129) نفس المصدر ، 3/168 .

130) المعيار ، 7/23 : فتوى القابسي : الرسالة ، 108-109 « ويُكرَه البناء على القبور وتجصيصها » ، المعيار ، 9/292 ، فتوى ابن زيادة الله : يُكرَه أن يوصي إنسان بوضع « ختمة » أو جزء من القرآن أو من جزء من الأحاديث النبوية أو الأذكار في كفنه .

131) مدارك ، 2-3/85 و .

ولم تلبث بعض القبور التي يتبرّك بها النّاس ، مثل قبر اللّخمي (ت . 478 هـ/ 1055 م) بصفاقس ، أن أصبحت بمثابة الملاجىء[132] . ذلك أن بركة الوليّ تمنع الأعراب الرحّل من اختلاس أي شيء من ذلك المكان .

وحول صلاة الاستسقاء[133] ، لم نعثر إلاّ على نصّ طريف ، ولكن ربّما يرجع تاريخه إلى ما بعد العصر الصنهاجي[134] . فقد كانت توجد في مقبرة باب سلم [بالقيروان] بالقرب من قبر أبي حفص عمر بن العطّار « حوطة فيها مشاهد على قبور متعدّدة ، يقول العامة إنها قبور حنّاطين كانوا صلحاء ، فقحط النّاس واستسقوا أيّاماً فلم يُجابوا ، فخرج هؤلاء الحنّاطون وبأيديهم الويبات والصيعان[135] ، وخرجوا يطلبون الله عزّ وجلّ بالدعاء ، فكان من دعائهم أن قالوا : إن كنت تعلم أنّا لا نكتال إلاّ حقّاً ولا نغشّ في بيع طعامنا أو في معناه فأَمْطِرْنا . فأُمْطِروا من الفور في تلك الحالة بمطر وابل ، فكان ممّا عُلِمَ لهم ذلك . فجرت عادة العامة يتبرّكون بقبورهم ويزورونهم ويدعون عندهم » . وأضاف المؤلّف قائلاً : « ولا أعرف أحداً من المؤرّخين ذكرهم » .

وأشارت بعض المصادر إلى الاحتفال بعاشوراء في المنستير وقفصة[136] .

وحسب القاضي النعمان كان العامّة يسمّون « يوم الرؤوس » اليوم الأول من « أيام التشريق » الثلاثة التي تلي عيد الأضحى ، لأنهم كانوا يأكلون رؤوس الخرفان في ذلك اليوم[137] .

---

132) مقديش ط . حجرية 134/2 [الطبعة الجديدة ، 277/2] .

133) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 م ـ 45 ـ 46 .

134) معالم الإيمان ، 246/3 ، إثر ترجمة أبي حفص عمر بن محمد بن العطّار الذي دُفِن (حوالي سنة 430 هـ/1038 م) في باب سَلْم .

135) الويبات : جمع ويبة ، والصيعان : جمع صاع .

136) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 362-363 : بالمنستير في حياة ابن التبّان (ت . 371 هـ/981 م) ، البكري ، 36 : كان يقام في القصر الكبير بالمنستير موسم عظيم بحضور جمهور غفير يوم عاشوراء . وقد أقرّ الحدّاد في عاشوراء بمناسبة ذكرى استشهاد الحسين بن علي ، في سنة 366 هـ/976-977 م في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، نجوم ، 126/4 . كما أقرّه الأمير البُوَيْهي في بغداد سنة 352 هـ/963 م ، الكامل ، طبعة القاهرة ، 7/7-8 . تاريخ أبي الفداء ، 104/2 . ولم يتحدث ابن أبي زيد في رسالته ولا القاضي النعمان في كتابه دعائم الإسلام عن المواسم غير الشرعية .

137) دعائم ، 387/1-388 وابن ناجي (شرح الرسالة ، 345/1) الذي ذكر أنّ عبارة ابن أبي زيد « وحجّ بيت الله الحرام الذي ببكّة » (الرسالة ، 140-141) تشير إلى كثير من « العُتاة » الذين شيّدوا معابد وأمروا الناس بالحجّ إليها ، مثل المعبد الموجود بالمهديّة ، أبعده الله ! إلاّ أنّ الأمر يتعلق لا محالة بافتراء ، لأن عبارة ابن أبي زيد مقتبسة من الآية الكريمة ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ . . . ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية 96 .

ويبدو أن إفريقية لم تكن تحتفل بالمولد النبويّ الشريف في العصر الصنهاجي[138] . كما يبدو أن رؤية هلال رمضان كان يعلن عنها أحياناً في كل قرية ، بإشعال النّار[139] . وبخصوص الاختلاف حول رؤية هلال رمضان وهلال شوّال ، لاحظ السيّوري وجود فوارق بين الرؤية التي تمّت في كلّ من قفصة والقيروان وصقليّة[140] .

ولعلّ ما أشارت إليه المصادر من استعمال « البوقات » في العهد الحفصي للإعلان عن وقت الإفطار والإمساك ، يرجع تاريخه إلى العصر الصنهاجي[141] . ولئن كان حمّاد يلتزم هو نفسه بصيام رجب وشعبان ، فالغالب على الظنّ أنّ كثيراً من الناس كانوا يفعلون مثله[142] .

ومن المحتمل أن يكون تاركو الصّلاة يصومون رمضان هم أيضاً ، كما هو الشأن الآن[143] .

ورغم منع الشيعة لصلاة التراويح (أو قيام رمضان) ، فإنها كانت تقام سرّاً في العصر الصنهاجي ، بصورة أو بأخرى[144] ، قبل حصول القطيعة مع القاهرة ، وذلك حسبما أثبتته فتوى للقابسي[145] . وقد أقرّ ابن المنمّر « قيام رمضان » بطرابلس في سنة 407 هـ/ 1016 م وألغى الأذان الشيعي[146] .

ومن المعلوم أن حجّ بيت الله الحرام فريضة على كل من استطاع إلى ذلك سبيلاً من

138) انظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، 481/3-484 ، المَوْلد (فوكس) . برنشفيك ، الدولة الحفصية [الترجمة العربية 318/2] ، الديباج ، 193 ، المعيار ، 160/8-161 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 199/2 ظ .

139) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 108/10 ، إذا كان فعل « نيّر » يعني أشعل النار .

140) ابن الشباط ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 6/1 . المعيار ، 335/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 213/1 ظ ، إدريس ، تحية جورج مارسي ، 103/2 .

141) لقد منع القاضي الأغلبي ابن طالب البوق ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 6/32 ظ . برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 322/2] .

142) الرسالة ، 290/291 ، ابن حزم ، 175 . انظر أيضاً : **Objets Kairouanais** ، 124/1 : ورد في أحد الرقوق أن من يصوم رجب يُبْنَى له قصر من الذهب في الجنّة ومن يصوم رمضان يبنى له قصر من الزعفران ومن يصوم (شعبان) يبنى له قصر من الأحجار الكريمة . **رياض النفوس** مخطوط باريس ، 82 ظ ، : كان أبو القاسم عبد الوهّاب المتعبّد (ت . 330 هـ/941-942 م يلتزم الصمت خلال تلك الأشهر الثلاثة .

143) فتوى القابسي ، المعيار ، 436/9 .

144) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 145 ، يبدو أن المقدسي (14-15) قد تأسّف لعدم إقامة صلاة التراويح بالقيروان .

145) المعيار ، 180/1-181 ، الرسالة ، 122-125 . وحسب اللخمي يجب أن تقام صلاة التراويح « بين العشاءين » .

146) التجاني ، 190-191 ، إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 154-155 .

المسلمين ، مرّة في العمر . ولئن لم يُؤَدِّ أيّ أمير صنهاجي مناسك الحجّ ، إلاّ أنّنا نستطيع أن نؤكّد أنّ كثيراً من أهل إفريقية قد قاموا بتلك الفريضة(147) ، لا فحسب لأسباب دينيّة بل أيضاً لأسباب ثقافية وتجارية(148) ، بل حتى سياسية ، كما تدلّ على ذلك بعض التراجم .

وفي صورة تعذّر أداء مناسك الحجّ لأسباب قاهرة ، يجوز تكليف شخص آخر بـذلك ، بمقتضى التسهيلات الممنوحة للمسلمين في هذا الشأن(149) . ويبدو أن الشخص الذي قيل إنه قد أدّى مناسك الحجّ عدّة مرّات ، قد فعل ذلك لحساب الغير(150) . وكثيراً ما أشارت الفتاوى التي وصلتنا إلى بعض النّاس الذين أَوْصوا بتخصيص جزء من تركتهم لمكافأة المُعَوِّضين المكلَّفين بأداء مناسك الحجّ باسمهم بعد وفاتهم(151) .

وقد أسلفنا أنّ المعزّ بن باديس ، لما كان يتأهّب لقطع علاقته مع الخليفة الفاطمي ، قد فكّر في الانعكاسات المحتملة لتلك القطيعة على الحجيج الإفريقيّين(152) . وقـد كانت قـافلة هؤلاء الحجيج تتجمّع في قابس(153) .

وكان يُقام بالقيروان احتفال بهيج بمناسبة رجوع الحجيج القادمين من البقاع المقدّسة مكلّلين بالتيجان والرياحين ، وقد كانت إبلهم المزيّنة بأبدع زينة تُرَشّ بالعطور(154) .

وإثر غزوة بني هلال ، أصبح الحجّ عن طريق البرّ مستحيلاً . وقد أثار السفر إلى البقاع المقدسة عن طريق البحر على متن سفينة مسيحية عدّة مشاكل شرعيّة وعمليّة(155) . ومع ذلك لا يمكننـا التأكيـد أنّ أهل إفـريقية قـد أمسكوا عن الحـجّ . إلاّ أن آخر كبـار الفقهاء في العصر الصنهاجي ، أمثال السيّـوري واللخمي وابن الصائـغ ، بل حتى المـازري رغم إقامتـه بالمهـديّة(156)، لم

---

147) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 280 ، برنشفيك ، المرجع السابق [الترجمة العربية ، 324/2] .

148) فتوى القابسي حول الزكاة الواجبة على رجل زار البقاع المقدسة وتعاطى التجارة في طريقه ، المعيار ، 311/1 .

149) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 146/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 196/2 و : كان المعوّض يتقاضى مبلغاً من الدنانير والطعام .

150) مناقب ، 305-306 .

151) انظر مثلاً فتاوى القابسي ، المعيار ، 349/1-350 .

152) انظر الفصل السابع ، الباب الثاني .

153) إدريس ، تحية ماسينيون ، 345/2 .

154) مناقب ، 262-263 .

155) فتوى ابن محرز ، المعيار ، 343/1-344 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 243/1 و .

156) المعيار ، 343/1 ، البرزلي مخطوط الجزائر ، 245/1 ظ ، 246 و .

يسافروا إلى المشرق . وفي الجملة فقد كانوا يرون أنه يتعذّر أداء فريضة الحجّ بالنظر إلى المخاطر المترتّبة عليها[157] .

ومن البديهي أنّ فريضة الجهاد « التي يتحمّلها بعض النّاس عن بعض » [على حدّ تعبير ابن أبي زيد] ، قد كانت إحدى دوافع الكفاح ضدّ الشيعة في أوّل الأمر ، ثم ضدّ النرمان فيما بعد[158] .

وليست لدينا معلومات مفصّلة حول الختان ، ويبدو أن الأمراء الصنهاجيين كانوا ، مثل الخلفاء الفاطميّين[159] ، يقومون بمناسبة ختان أبنائهم ، بختان عدد كبير من أبناء الفقراء والمساكين ، وإسناد العطايا إليهم . وقد تمّ ذلك مثلاً بمناسبة ختان المعزّ بن باديس[160] .

علمـاء المالكيّـة[160م] :

بعدما أبرزنا مختلف اتجاهات الفقه المالكي ، بقي علينا أن نوضّح طرق عمل الفقهاء واستكمال البيانات السالفة الذكر باستعراض أبرز العلماء الذين أذاعوا صيت المذهب المالكي في العصر الصنهاجي بالتعليم والتأليف والفتوى .

وسنعطي أوّلاً بعض المعلومات الموجزة حول مشاهير الفقهاء السابقين :

فقد كان **ابن اللبّاد** (ت . 333 هـ/ 944 م)[161] أحد تلاميذ يحيى بن عمر يعرف معرفة جيّدة اختلافات المدرسة الفقهية المدنية . وقد اضطهده بنو عُبَيد ومنعوه من التدريس والفتوى . وكان تلاميذه « يقصدونه خفية ويجعلون كتبهم في أوساطهم » .

وكان **ابن سعيد بن الحدّاد** (ت . بعد سنة 320 هـ/ 941 م)[162] نجل مجادل بارع (ت . 302 هـ/ 914 م) ، تعاطى النظر والقياس والاجتهاد ونبذ تقليد كبار الفقهاء واعتنق المذهب الشافعي على نحو انتقائي وناقش بتألّق وشجاعة فقهاء المذهبين الحنفي والشيعي .

---

157) المعيار ، 1/342-344 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 1/239 ظ ، 240 و ، 242 ظ ، المختصر ، 39 و .

158) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 م ، 82-85 ، الرسالة . 162-167 ، المعيار ، 2/165-167 : آراء أبي عمران الفاسي والداوودي واللخمي والمازري .

159) ابن حمّاد ، 39 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية 2/326] .

160) النويري ، 2/136 .

161) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 126 .

162) نفس المرجع ، 127-128 .

وكان المَمّسي (ت . 333 هـ / 944 م) عارفاً بفنّ تحرير العقود ومتفوّقاً في الجدل والنظر . وإثر رجوعه من البقاع المقدسة بعد أداء مناسك الحجّ مال إلى الزهد والنّسك . وقد خرج مع أبي يزيد لقتال بني عُبَيد ومات شهيداً . وألّف عدة كتب ، من بينها بالخصوص اختصار الموازية [كتاب في الفقه من تأليف محمد بن المواز] .

وبالنسبة إلى **أبي العرب** (ت. 333 هـ / 945 م)[164] صاحب الكتاب الشهير « **طبقات علماء إفريقية** » ، سنكتفي بالتذكير بأنه كان محدّثاً وفقيهاً بارعاً .

وكان **ربيع القطّان** (ت . 344 هـ/ 946 م)[165] متضلّعاً في الحديث والتفسير . وإثر عودته من الحجّ سنة 324 هـ / 935 م ، اعتزل الشؤون الدنيوية والعلمية واستشهد أثناء ثورة أبي يزيد وأهل القيروان ضدّ الشيعة .

ورغم أن أبا ميسرة بن نزار (ت . 337 هـ / 946 م)[166] كان متعبّداً أوّلاً وقبل كلّ شيء ، فقد عرض عليه الخليفة الفاطمي المنصور خطّة القضاء .

وكان **الإبياني** (ت . 352 هـ / 964 م)[167] أصيل قرية إبيانة الواقعة في فحص مرناق من ضواحي مدينة تونس ، يتحوّل كلّ يوم إلى هذه المدينة للتدريس والفتوى . وقد كان يدرّس **الواضحة** لابن حبيب ، وكان ذا نزعة شافعية ، ويبدو أنه أخذ عن ابن اللبّاد وابن مسرور العسّال . وكان العالم المشرقي أبو إسحاق بن شعبان يعتبره أعلم علماء المغرب في عصره . وقد كان متفوّقاً في تحديد المسائل ومفصّلاً ذلك على العروض النظرية .

وأقام بالقيروان **درّاس الفاسي** (ت . 357 هـ / 967 م)[168] أحد تلاميذ ابن اللبّاد وصاحب كتاب الدفاع عن الأشعرية الذي نقضه ابن حزم . وقد ترك بالقيروان بالغ الأثر .

وكان **السدري** (ت . 361 هـ / 971 م)[169] فقيهاً ذا قيمة عالية ، أخذ عن شيوخ إفريقيّين وطرابلسيّين وأندلسيّين ، ورفض خطة القضاء ، ويقال إنّه أوّل من أدخل إلى إفريقية كتاب ابن المواز .

وكان **ابن زكرون** (ت . 370 هـ / 980 م)[170] ناسكاً طرابلسيّاً ، طاف في أرجاء المشرق

---

163)) نفس المرجع ، 126-127 .
164) نفس المرجع ، 128-129 .
165) نفس المرجع ، 129 .
166) نفس المرجع ، 130 .
167) نفس المرجع ، 132-174 .
168) نفس المرجع ، 134-175 .
169) نفس المرجع ، 175 .
170) نفس المرجع ، 176 .

صحبة ربيع القطّان ، وألف كتباً عديدة في الشريعة والفرائض و« الرقائق » (علم التصوّف) والحديث .

وألّف العالم الأشعري **القلانسي** (ت . 359 أو 361 هـ / 969-971 م)[171] **كتاب الإمامة والردّ على الرافضة** [أي غلاة الشيعة] ، فامتحن على يد أبي القاسم (الملقّب بالقائم) ثاني الأمراء العُبَيديين الذي حبسه مدّة من الزمن في دار البحر بالمهديّة .

وينبغي أن نشير أيضاً إلى **ابن الحجّاج** (ت . 346 هـ / 957 م)[172] الذي كان يملك مكتبة ، و**الكانشي** (ت . 347 هـ / 958 م)[173] ، العابد الأديب ، و**البزّاز** (ت . 355 هـ / 965 م)[174] ، أحد مشاهير أصحاب ابن اللبّاد ، وقد فرّ من الدعوة الشيعية إلى مصر وتوفّي بها ، و**ابن مسرور الدبّاغ** (ت . 359 هـ / 969 م)[175] و**ابن مسرور العسّال** (ت . 346 هـ / 975 م)[176] .

وأخيراً لا ينبغي أن نستهين بالعمل الذي قام به الناسكان الشهيران **السبائي** القيرواني (ت . 356 هـ / 966 م) الذي كان فقيهاً بارزاً هو أيضاً و**الجبنياني** الساحلي (ت . 369 هـ / 979 م)[177] .

وتجدر الإشارة إلى بعض الفقهاء الذين ماتوا خلال العقد الموالي لارتقاء بلكين إلى العرش وهم :

ابن أخي هشام (ت . 371 أو 373 هـ / 981-983 م)[178] أحد تلاميذ ابن اللبّاد والإبياني ، وقد كان يُعَدّ من بين كبار فقهاء عصره ، واشتهر بالعلم والتقوى ، وكان يعرف معرفة جيّدة اختلافات علماء المدينة المنوّرة والمذاهب الأربعة والحالات الخاصّة وفقه القضاء . وكان ابن شبلون والإبياني وابن أبي زيد معجبين به شديد الإعجاب . وتفيدنا بعض النوادر أنه استاء ، ربّما

---

171) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 م ، 127-128 ولمحة ماسينيون ، 2/332-333 .
172) إدريس ، حوليات .... 1954 م ، 131-132 .
173) نفس المرجع ، 132 .
174) نفس المرجع ، 133 .
175) نفس المرجع ، 175 .
176) نفس المرجع ، 175 .
177) نفس المرجع ، 133-134 ، 135 ، 176 ، مناقب ، القسم الأول .
178) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 349-357 .

في آخر حياته ، من ابن أبي زيد الذي كان اتّجاهه العقلاني لا يتماشى مع اتجاهاته التقليدية ذات الصبغة الصوفية . وأثناء الجدل حول كرامات الأولياء ، لم يشاطر آراء صاحب **الرسالة** ، هذا المناظر لدرّاس الفاسي .

وإنّنا لا نعرف شيوخ ابن التبّان (311-371 هـ / 923-981 م)[179] الذي كان متضلّعاً في العلوم القرآنية والفقه وأصول التوحيد . وقد سخّر مواهبه الخطابيّة للذبّ عن المذهب المالكي ، وسبق أن رأينا مدى ما أظهره من شجاعة ومخاطرة ، لما جادل منافسيه أمام والي إفريقية « المختال » . وكان متفنّناً في علوم شتى منها النحو واللغة والرياضيات والفلك والطبّ وتفسير الأحلام . وله مع ذلك ورع شديد وولوع بالشعر الصوفي والنوادر البليغة . وحسب الإبياني الذي كانت له معرفة بالرجال ، كان ابن أبي هشام علاّمة وابن أبي زيد ثاقب الفكر ، وابن التبّان لسان حال الحكمة المنبثقة عن كامل شخصيته . وقد ألحّ أصحاب التراجم على ما كان يتحلّى به من لطف وتواضع ونزاهة . وكانت الفتوى تأتيه من كلّ مكان . وقد تجمّع حوله ذات يوم بالمنستير خلق كثير من الأعراب الرحّل والقرويّين وأهل سوسة والمنستير والمرابطين ، جاؤوا ليعرضوا عليه بعض الحالات الخاصّة . وقيل : إنّه اضطرّ إلى غلق الباب في وجوههم ، بعدما أصدر زهاء الألف فتوى .

وكان ابن معتب ، أحد تلاميذ ابن اللبّاد وابن مسرور العسّال (ت . في حدود 371 هـ / 981 م)[180] ، فقيهاً . وقد نوّه بقيمته ابن أبي زيد ، ولكنّه لم يقم بأيّ دور يُذْكَر .

ولا نعلم عن الخشني (ت . 371 هـ / 981 م)[181] الذي هاجر إفريقية إلى الأندلس وهو صغير السنّ ، إلاّ التحاقه بالأمويّين لخدمتهم وإعلامهم بكل ما كان يجري في إفريقية في عهد بني عُبَيْد ، وقد شوّه سمعتهم هم وأتباعهم . ويُعتبَر كتابه **طبقات علماء إفريقية** على غاية من الأهميّة ، لأنه يتضمّن تراجم علماء من غير المالكية ، ومجادلين وقضاة ، وبالخصوص تراجم أهل السنّة الذين اعتنقوا المذهب الشيعي . وقد حاول إقامة الدليل على أن هؤلاء المرتدّين قد تصرّفوا هذا التصرّف إمّا رغبةً في المال ، أو لضعف عقلهم .

وكان أبو محمد عبد الله بن أبي زيد (310-386 هـ / 922-996 م)[182] يمثّل أنجع عامل من

179) نفس المرجع ، 357-367 .
180) نفس المرجع ، 367-368 .
181) نفس المرجع ، 368-369 .

عوامل انتصار المذهب المالكي نهائياً في إفريقية . وهو أصيل نفزاوة ، ولكنه وُلد في القيروان وزاول دراسته فيها . وقد أظهر في وقت مبكّر نبوغاً جديراً بالملاحظة . وكان شيخه الأوّل في الفقه ابن اللبّاد . ومن بين الشيوخ الآخرين الذين أخذ عنهم ، نشير بالخصوص إلى الممّسي وابن سعيد بن الحدّاد وأبي العرب وابن مسرور العسّال وابن الحجّاج والكانشي والإبياني والبزّاز ودرّاس الفاسي وأبي بكر أحمد بن عبد الله بن محمّد عبد المؤمن ، والمتعبّدين ربيع القطان وأبي ميسرة بن نزار والسبائي والجبنياني .

وتأثر ابن أبي زيد بالعالم الأندلسي الأصيلي (ت . 392 هـ / 1001 م) وببعض الشيوخ الشرقيّين أمثال الأبهري (ت . 395 هـ / 1004 م) وابن شعبان (ت . 355 هـ / 965 م) . وسوف لا نتعرّض من جديد لاتّجاهات ابن أبي زيد الأشعرية ولا لآرائه حول كرامات الأولياء .

وكان تأليفه الأوّل **الرسالة** عملاً رائعاً . وقد شعر ابن أبي زيد وهو في السابعة عشرة من عمره بضرورة تأليف كتاب لتبسيط المذهب المالكي . ونحن نعلم أن نصّ **الرسالة** الحالية مهدي إلى ابن خالته محرز بن خلف الذي كان آنذاك مؤدب صبيان . ورغم جفاء أسلوب **الرسالة** ، فإننا نميل إلى الاعتقاد أنها تمثل كتاباً مؤلفاً لغرض الدعاية وبالأحرى الدعاية المضادة ، لأنها سبقت ثورة أبي يزيد وركود الدعوة العُبَيدية . وقد جاءت في وقتها وأحرزت نجاحاً منقطع النظير في إفريقية وفي الخارج . وما فتئت منذ ذلك التاريخ محلّ درس وشرح .

وحظي كتابه الذي لم يصلنا **مختصر المدوّنة** بتقدير كبير في أوّل الأمر ، ثم تفوّق عليه كتاب البراذعي . ولكنّ تأليفه الرئيسي الذي وضع فيه زبدة معارفه الفقهية هو كتاب : **النوادر والزيادات على ما في المدوّنة وغيرها من الأمّهات** وهو عبارة عن مجموعة ضخمة من المعلومات المتعلقة بالفقه المالكي ، قد أحكم صاحبها صياغتها وأعدّها لإتمام المدوّنة . ولا شكّ أن نشر ما وصلنا من هذا الأثر الرائع ، سيجني منه الدارسون فوائد جمّة .

ومن بين آثار ابن أبي زيد العديدة ، نشير بالخصوص إلى المؤلفات التالية(182م) :

ـ **تهذيب العتبية** ، للفقيه القرطبي [محمد بن أحمد] العتبي (ت . في حدود 254-255 هـ / 868-869 م) .

ـ **كتاب قيام رمضان والاعتكاف** .

ـ **رسالة في أصول التوحيد** .

---

182) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 122-172 .

ــ **كتاب الاقتداء بأهل المدينة .**
ــ **كتاب الذبّ عن مذهب مالك .**
ــ **كتاب المعرفة واليقين والتوكّل** (وهي رسالة للردّ على محمد بن الطاهر القائد) .
ــ **كتاب ردّ الخاطر من الوسواس .**
ــ **في من تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة .**
ــ **رسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن .**
ــ **الردّ على القدريّة ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي .**
ــ **الردّ على ابن مسرّة المارق** ، وهو [محمد بن عبد الله بن مسرّة] (ت . 319 هـ / 231 م) الذي سخّر جهوده للفلسفة والتصوّف ، وقد تأثّر بالمذهب الشيعي[183] ، وأشارت المصادر إلى مروره بالقيروان .
ــ ثلاثة أجزاء في إثبات كرامات الأولياء الخ . . .

ويكفي هذا العرض لإعطائنا فكرة عامة عن غزارة وتنوّع إنتاج ابن أبي زيد الذي كان علاوة على ذلك كاتباً بارعاً . فقد جمع أسلوبه بين المتانة والإيجاز والأناقة ، دون اللجوء إلى المحسّنات البديعية . ولم تكن صياغة فتاواه أقلّ رونقاً من صياغة كتبه ورسائله .

وقد أخذ عنه عدد كبير من الإفريقيين ، والصقليّين والمغاربة والطرابلسيّين والأندلسيّين وغيرهم ، واستجازه كبار علماء المشرق أمثال ابن مجاهد البغدادي والأبهري الذي جمع الأحاديث التي استندت إليها المسائل الواردة في رسالة ابن أبي زيد . وألّف عبد الوهاب بن علي بن نصر الذي تولى القضاء في العراق ومصر ، شرحاً على **الرسالة** و**المختصر** . « وقد ذُكِر أن ابن أبي زيد بعث إليه بألف دينار عيناً . فلما بلغته قال : هذا رجل وجبت عليّ مكافأته ، فشرح **الرسالة** »[183م] .

وممّا زاد في شهرة ابن أبي زيد أنه كان على غاية من الثراء ، وكان « من الأجواد وأهل الإيثار والصدقة ، كثير البذل للفقراء والغرباء وطلبة العلم ، كان ينفق عليهم ويكسوهم ويزوّدهم » . وكان ابن أبي زيد وليّ نعمة ابن شبلون والقابسي ، وقد جهّز ابنة هذا الأخير بأربعمائة دينار عيناً .

ونحن نتصوّر مدى إشعاع مثل هذا الرجل على الصعيدين الروحي والاجتماعي . ففي حياته لهجت الألسن بالثناء على ما كان يتمتع به من علم وتقوى ، ذلك الفقيه الذي كان يُعرَف

---

183) محمود علي المكي .

« بمالك الأصغر » ، وازداد الثناء عليه بعد وفاته . وكان يُعتبَر ، إلى جانب الأبهري ، مدعّم المذهب المالكي . إذ لولاه ولولا تعاليمه الرائعة وما بذله من جهد ومثابرة لجمع الفقه المالكي وترتيبه وتصنيفه وتركيزه على أسس عقلية ، وفضلاً عن ذلك ، نشره بين الناس بواسطة تآليفه ومصنّفاته ، لولا كلّ ذلك لما تمكّن المذهب المالكي في آخر الأمر من الانتصار في إفريقية . وأخيراً فهو الذي استهلّ العصر الذهبي للمفتين الإفريقيّين .

وبفضل تلاميذه ، تواصل عمل ابن أبي زيد إلى أبعَد بكثير من القيروان . فقد رأيناه يبعث برسالة إلى أهل توزر ليوصيهم خيراً « بصاحبه » أبي زكرياء الشقراطسي الذي كان ضحيّة بعض الأعمال العدوانية . بل أكثر من ذلك : فإنّ لدينا نصّ الرسالة التي وجّهها علماء القيروان إلى عامل توزر يوصونه خيراً بهذا العالم الجليل الذي كان ضحية بعض الأوباش الأشقياء ، وبعالم آخر من العلماء المجدّدين للسنّة[184] .

ويستعرض هذا الحكم المجهول المصدر أسباب الحظوة التي كان يتمتع بها ابن أبي زيد :

« قال بعضهم : كان أبو محمد إمام المالكية في وقته وقدوتهم وجامع مذهب مالك وشارح أقواله . وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية ، كتبه تشهد له بذلك ، فصيح اللّسان ، ذا بيان ومعرفة بما يقوله ، ذابّاً عن مذهب مالك ، قائماً بالحجّة عليه ، بصيراً بالردّ على أهل الأهواء ، يقول الشرع ويجيده ، ويجمع إلى ذلك صلاحاً تامّاً وورعاً وعفّة ، وحاز رئاسة الدين والدنيا وإليه كانت الرحلة في الأقطار »[185] .

ولّما التحق ابن أبي زيد بجوار ربّه مكلّلاً بهالة الصلاح ، خلفه أبو الحسن القابسي الذي سيتسنّى له أكثر من أيّ عالم آخر ، إتمام عمل سلفه الجليل وإثراؤه .

وأخذ ابن شبلون (ت . 390 أو 391 هـ / 999-1000 م)[186] عن ابن أخي هشام وابن الحجّاج والكانشي ، وصنّف تأليفاً ضخماً وهو كتاب المقصد الذي فُقِد . ولم يشاطر رأي ابن أبي زيد الدقيق حول عدّة مسائل من المدوّنة التي كان متعلّقاً بمعناها الضيّق . وقيل لنا إنه كان « مفتي المدينة والبادية » ، حيث كان يفتي كلّ يوم في مائة مسألة ، وإن نفوذه كمفتي ومدرّس قد تدعّم

---

184) إدريس ، تحية جورج مارسي ، 2/95-97 .

185) معالم الإيمان ، 3/136 .

186) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 369- ـ نُشِر النص الوارد في مشهد قبره المؤرخ في 17 ربيع الأول 390 هـ/26 فيفري 1000 م في نقائش عربية ، 1/291-292 .

بالخصوص بعد وفاة ابن أبي زيد ، اللهمّ إلّا كان ذلك يعني أنه كان يحتلّ المرتبة الثانية بعد صاحب النوادر .

ويبدو أنّ أحد معاصري ابن شبلون ، وهو **أبو موسى عيسى بن مناس** (ت . 390 أو 391 هـ / 999-1000 م)[187] قد اشتهر بالتدريس والإفتاء .

وسبقت الإشارة إلى **ابن عذرة**[188] الفقيه والمحدّث والمتعبّد ، لما تحدثنا عن الأشعـرية ، وإدانته للخطباء الذين يدعون للخليفة الفاطمي الحاكم . وقد تولّى تبويب **صحيح الإمام مسلم** . والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أن أهل المغرب المالكية قد فضّلوا في أوّل الأمر صحيح مسلم على صحيح البخاري ، لأنّ مسلماً غالباً ما يعتمد رواية مالك . ورغم أنه قد قسّم الأحاديث هو أيضاً حسب أقسام الفقه ، فإنه لم يبوّب كتابه بنفس طريقة البخاري . وقد أضيفت فيها بعد العناوين المتغيّرة بحسب المخطوطات المنقّحة .

وكان أبو الحسن بن تمّام المعروف **بابن المهدي** (أو المهري)[189] فقيهاً ذائع الصّيت ، له عدد كبير من الأنصار ، وكان يغيّر المنكر ويصدع بالحقيقة . وقد عارض القاضي أبا بكر بن أبي زيد حول تحديد يوم العيد . وكان يحظى بتقدير المعزّ بن باديس ويتدخّل لديه لفائدة العـامّة ، معتبراً نفسه المتحدّث باسمهم .

وأما **الطرّاقي**[190] فهو جدير بالملاحظة لمعارضته الشديدة للمذهب الشيعي . وقد كان يرى أنّ من واجب أهل إفريقيّة الهجرة من بلادهم بعدما سقطت بين أيدي الشيعـة الذين يصفهم بالزنادقة .

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن أحد معاصري ابن أبي زيد والقابسي ، المدعوّ **ابن دحون**[191] الذي ورد ذكره عدّة مرّات عند الحديث عن الأندلسيّين الذين تابعوا دروسه بالقيروان .

وأما **الـدّاودي**[192]، فهو فقيه طرابلسي ، مسيلي (أو بسكري) الأصل ، قد كوّن نفسه بنفسه ولم يتتلمذ إلى أيّ شيخ معروف ، ما عدا القـلانسي الأشعري المـذهب . وكان « فقيهاً

---

187) نفس المرجع ، 350-371 .

188) إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/329-331 .

189) نفس المرجع ، 2/343-344 .

190) نفس المرجع ، 2/331-332 .

191) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 372-373 .

192) إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/332-338 .

متقناً ، مشاركاً في الحديث والنظر واللّسان » . وقد أملى شرحه على الموطأ ، ثم نزل بتلمسان وبها توفي ، ويوجد قبره في أغادير . وقبل أن يتفوّق عليه أبو مدين (ت . 594 هـ / 1197 م) ، كان يُعتبر « سلطان مدينة تلمسان » . وقد ألّف عدّة كتب منها : **شرح الموطأ** و**متن فقه** و**شرح صحيح البخاري** الذي يقال إنه كان أوّل كتاب من هذا النوع ألّفه إفريقي ، و**كتاب الأصول** و**كتاب البيان** و**كتاب الأموال** الذي ربّما كان يبحث في الأوضاع العقارية[193] وكتاب **في الردّ على البكرية** مماثل للكتابَيْن اللّذين ألّفهما ابن أبي زيد والقابسي . وقد اقتفى أثرهما الداودي في الجدل حول إثبات كرامات الأولياء . وكان قدوة لكثير من تلاميذه ، وأغلبهم من الأندلسيّين . وقد أدان هو أيضاً الخطباء الذين يدعون لبني عُبَيْد ، وكاتب علماء القيروان يعاتبهم على بقائهم بإفريقية الخاضعة للفاطميين ، فتلقى هذا الجواب اللاّذع : « اسكت ، فليس لك شيخ »! .

واتُّهِم **البراذعي**[194] (ت . في أواخر القرن الرابع هجري / الحادي عشر ميلادي) الذي كان صاحب ابن أبي زيد ثم حصل بينهما نفور ، بموالاة الفاطميّين ، فاضطرّ إلى الفرار إلى صقلية ، وتوفي بها بلا ريب ، ولو أنّ أحد المصادر يؤكّد أنه مدفون بالقيروان . وقد أخذ عنه بعض التلامذة الأندلسيّين ، ولكنّنا لا نعرف له إلا تلميذاً إفريقيّاً واحداً وهو القاضي أبو بكر أحمد بن عبد الله بن أبي زيد . ومن أشهر مؤلّفاته كتاب **التهذيب** الذي توجد منه عدّة مخطوطات ، وهو تلخيص **للمدوّنة** ، انتهى مؤلّفه من تحريره في سنة 372 هـ / 982 م . وقد اشتهر هذا الكتاب منذ ظهوره واعتنى به خصوم المؤلف أنفسهم عناية فائقة . واستحسن أهل القيروان على مضض وضوح ومتانة وإيجاز هذا الأثر الذي يتضمّن زبدة كتاب الإمام سحنون الضخم . وتؤكّد كلّ المصادر التي بين أيدينا بالإجماع أن التهذيب قد أزاح **مختصر** ابن أبي زيد وأصبح الكتاب المفضّل في إفريقية وصقلية والإسكندرية والمغرب والأندلس ، وتواصلت شهرته حتى الخامس عشر ميلادي وتناوله الفقهاء بالدرس والشرح ، وسوف لا يتفوّق عليه فيما بعد سوى **مختصر** خليل .

وكان أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف **بالقابسي** (324-403 هـ / 935-1012 م)[195] إمام المذهب المالكي بلا منازع في القيروان ، لا سيما بعد وفاة ابن أبي زيد . وهناك رواية شفهية تقول إنّ هذا الفقيه القيرواني النشأة والقابسي الأصل ، هو وابن أبي زيد

---

193) نفس المرجع ، 334/2 .

194) نفس المرجع ، 348/2-353 : ويضاف إلى المراجع : الغبريني 86 .

195) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 173-198 .

ومحرز بن خلف ، أبناء خالات ، تزوّج آباؤهم ثلاث أخوات .

ومن بين الشيوخ الذين أخذ عنهم القابسي ، نشير بالخصوص إلى الإبياني وابن مسرور الدبّاغ وابن مسرور العسّال وابن الحجّاج والكانشي ودرّاس الفاسي والسدري وابن زكرون . وتأثّر مثل ابن أبي زيد تأثّراً بالغاً بالعابدَيْن الجليلين السّبائي والجبنياني الساحلي . ويدلّ كتاب مناقب الجبنياني الذي ألّفه اللبيدي تلميذ القابسي ، على ما كان يكنّه فقيهنا لشيخه المبجّل من محبّة .

وأقام القابسي بالمشرق من سنة 352 إلى سنة 357 هـ / 963-968 م صحبة درّاس الفاسي والعالم الأندلسي الأصيلي . وحسب أصحاب التراجم ، كان العالم المصري حمزة بن محمد الكناني من أشدّ العلماء المشارقة تأثيراً عليه .

وقد وصلتنا مجموعة من مؤلّفاته نخصّ بالذكر منها(195م) :

– **الملخّص للمتحفّظين** جمع فيه ما اتّصل به إسناده من حديث مالك في الموطأ . وقد حظي هذا الكتاب الذي توجد منه عدة نسخ خطية بتقدير كبير ، لا سيما في الأندلس .

– **والرسالة المفصلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلمين** ، وهي مقتبسة من كتاب محمد بن سحنون آداب المعلمين .

وعلاوة على مجموعة كبيرة من الأحاديث المبوّبة على أبواب الفقه ، ألّف القابسي عدّة رسائل في أغراض شتى من العلم كالتفسير والعبادات والعقائد ومناسك الحجّ والرباطات وتزكية الشهود وتجريحهم وحسن الظنّ بالله تعالى والتوبة الخ(196) . . . ومن الجدير بالتذكير أيضاً أنه ألّف كتاب**كشف المقالة** حول آراء أبي الحسن الأشعري ، ورسالة في الردّ على البكرية .

وكان القابسي أعمى يستعين بأصحابه للقيام بدور الكَتَبة . وقد ألحّ أصحاب التراجم على اتّساع معارفه ودقّتها ، وما كان يتحلّى به من فضائل مثالية هذا الرجل المعوز الذي سخّر حياته للدراسة والعبادة . وقد بدأ بتدريس القراءات ، وكان القرّاء القيراونيّون يعتمدون عليه ، ولكنه لما علم أن أحد تلاميذه قد علّم الأمير قراءة القرآن ، تخلّى عن تدريس هذه المادّة وتفرّغ للفقه .

وكان القابسي فقيهاً فذّاً ، مولعاً بأصول الفقه . وقد أسلفنا أنّه كان أحد كبار أنصار المذهب

196) وردت في رياض النفوس ومعالم الإيمان ، حسب رواية القابسي ، معلومات كثيرة حول اضطهاد الشيعة لأهل السنّة . انظر أيضاً ، المعيار ، 2/414-415 ، فتوى مهمّة للمازري حول صحّة توبة الشيعة ، ولكنّ النصّ مشوّه .

197) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 180 ، ويضاف إلى المراجع المعيار ، 12/135-136 (فتوى مطوّلة للقابسي تدلّ على اتساع معارفه في علم الحديث) .

الأشعري في إفريقية . وكان تأليف ابن المواز يمثّل كتابه المفضّل ، لأنّ هذا المؤلف كان ـ حسب رأيه ـ يربط بين الفروع والأصول ولا يكتفي بجمع المعلومات . وكان يعيب على العالم المصري أبي إسحاق محمّد بن القاسم بن شعبان القرطبي (ت . 355 هـ / 965 م) نقله لأقوال غريبة منسوبة إلى مالك وآراء شاذة ، حسب معلومات غير معروفة .

ولكنّ القابسي كان أوّلاً وقبل كلّ شيء محدّثاً شهيراً ، نشر في المغرب **صحيح البخاري** ووضع له رواية تُعرَف برواية القابسي[197] . « ولما طُلِب للفتوى وعزم أهل القيروان ، أبى وسدّ بابه دونهم ، فقال لهم أبو القاسم بن شبلون : اكسروا عليه بابه لأنه قد وجب عليه فرض الفتيا وهو أعلم من بقي بالقيروان » . فقبل القابسي مكرهاً وأصبح مفتياً مسموع الكلمة ، وذاع صيته بالخصوص بعد وفاة ابن أبي زيد وابن شبلون .

وقد تجلّى دور القابسي كمتكلّم باسم الرأي العام وشيخ فقهاء القيروان ، بمناسبة قضيّة ابن أخي حاضنة باديس[198] . وأخذ عنه عدد كبير من التلاميذ ، ووصفته لنا أحد المصادر ، وقد بلغ من العمر أكثر من أربع وثمانين سنة ، وهو يصعد بصعوبة إلى غرفة عالية حيث كان في انتظاره زهاء الثمانين طالباً من القيروان والأندلس[199] والمغرب . وسيكون أبو بكر بن عبد الرحمان وأبو عمران الفاسي من كبار المواصلين لعمله .

ويقال إنّ أبا علي حسن بن خلدون البلوي، أحد تلاميذ القابسي البارزين (ت. 407هـ/ 1016 م)[200] ، قد اهتمّ بالعقيدة الأشعريّة ، أما في مجال الفقه ، فيبدو أنه كان متشدّداً ومتعلّقاً بالشكليّات ، وقد شاطر مرّة واحدة على الأقلّ وجهة نظر أبي بكر بن عبد الرحمان وعارض آراء ابن الكاتب وأبي عمران الفاسي . وكان يتمتع بنفوذ قويّ ويعارض الشيعة معارضة شديدة . وقد سبق أن رأينا ما قام به من دور في مجازر سنة 407 هـ وتعرّضه للاغتيال على نحوٍ مأسوي .

وكان **ابن الكاتب** ، تلميذ ابن شبلون والقابسي (ت . 408 هـ / 1017 م)[201] ، يتمتّع

---

198) نفس المرجع ، 196-197 : هذه الواقعة سابقة لسنة 396 هـ/1005 م تاريخ وفاة والي إفريقية محمد بن أبي العرب الذي شارك فيها ، انظر معالم الإيمان ، 3/175-176 .

199) من بين الطلبة الأندلسيّين القرطبي حاتم بن محمد الطرابلسي (ت . 469 هـ/1076 م) ، وهو من أهمّ الناقلين **لصحيح البخاري** حسب رواية القابسي ، إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 194 .

200) إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/338-343 .

201) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 188 والمجلة الإفريقية ، 1956 م ، 372 .

بشهرة كبيرة في ميدان الفقه والجدل . وقد اختلف حول كثير من المسائل مع أبي عمران الفاسي وواجهه بتألّق .

وكان **أبو الحسن بن المقلوب السوسي** ، أحد أصحاب القابسي[202] ، من أشهر فقهاء سوسة وأعيانها . وقد رحل إلى المهدية وتولى فيها التدريس ، بعد غزوة بني هلال بلا شكّ .

واستقرّ العالم الأندلسي **ابن سعدي** ، تلميذ ابن أبي زيد والأبهري (ت . بعد 410 هـ / 1019 م)[203] بالمهديّة التي أصبح مفتيها الأبعد صيتاً وبها توفّي .

وكان **أبو عبد الله محمد بن سفيان الهوّاري المقرىء** (ت . 415 هـ / 1024 م)[204] من مشاهير القرّاء . وقد ألّف عدّة كتب وقرأ الفقه والقراءات على القابسي الذي كان يحبّه حبّاً جمّاً . وأخذ عنه هو نفسه عدد كبير من التلاميذ .

أمّا المقرىء الجليل والمفسّر **أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي** (ت . 440 هـ / 1048 م)[205] ، فقد قرأ الحديث على القابسي والقراءات على أبي عبد الله محمّد بن سفيان ، وغادر إفريقية متوجهاً إلى الأندلس قبل وفاته بنحو عشر سنوات . وقد ألّف كتاباً في التفسير وآخر في القراءات السبع ، نال شهرة واسعة .

وأخذ الفقيه والمتعبّد **الخواصّ** (ت . 428 هـ / 1036 م)[206] عن ابن أخي هشام وابن أبي زيد وأبي عمران الفاسي .

واهتمّ **ابنا الأجدابي** الأب (ت . 384 هـ / 994 م)[207] والابن (ت . 432 هـ / 1040 م) ، تلميذاً ابن أبي زيد ، بترجمة المتعبّدين بالقيروان .

وألّف تلميذ آخر من تلاميذ ابن أبي زيد ، وهو **أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي** (ت . 432 هـ / 1030 م)[208] كتاباً مفقوداً بعنوان « **الافتخار في مناقب فقهاء القيروان** » .

وتفرّغ **أبو الحسن علي بن أبي طالب العابر**[209] ، تلميذ القابسي لتعبير الرؤيا (تفسير

---

202) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 189 .
203) نفس المرجع ، 159-160 .
204) نفس المرجع ، 185-186 ، الصفدي ، 114/3 ، رقم 1049 .
205) إدريس ، نفس المرجع ، 186 .
206) نفس المرجع ، 151 .
207) نفس المرجع ، 151-152 .
208) نفس المرجع ، 153 .
209) نفس المرجع ، 185 ومناقب ، 285-286 ، 308 .

الأحلام) . ويقال إنّه أبدى حول هذا الموضوع بعض الآراء التي استنكرها علماء القيروان بشدّة[210] . ونحن نعرف عالمَيْن أندلسيّين على الأقلّ ، قد أخذا عنه هذا الفنّ . وقد ألّف نحو مائة كتاب ، وقرأ عليه أبو القاسم المهلّب بن أبي صفرة .

وأخذ **أبو بكر محمد بن نعمة الأسدي العابر** القيرواني (ت . 481 أو 482 هـ / 1088-1089 م)[211] عن أبي عمران الفاسي والبوني وعبد الحقّ الصقلي . كما تتلمذ مدّة طويلة إلى علي بن أبي طالب العابر السالف الذكر . وتضلّع في « العبارة » (تعبير الرؤيا) وألّف في هذا الفنّ عدّة كتب . واستقرّ في المرية وبها توفّي . ويعتبره بعضهم ذا حجّة ضعيفة .

واعتبر **أبو بكر بن عبد الرحمان** (ت . 432 أو 435 هـ / 1040-1043 م)[212] ، على غرار منافسه وخصمه أبي عمران الفاسي ، من كبار الفقهاء المغاربة في عصره . وكان أبرز شيوخه الثلاثة ابن أخي هشام وابن أبي زيد والقابسي الذي رخّص له في الانتصاب للفتوى . وكان القابسي يقول : إنّه لا يفوقه أحد في التقوى والعلوم الشرعية . ولاحظ السيوري من جهته أن أبا بكر بن عبد الرحمان لم يخطىء ولو مرّة واحدة حول مسألة من مسائل المدوّنة و الموازية . ويبدو أنه انقطع للتدريس والفتوى دون سواهما . وقد كوّن عدداً كبيراً من التلاميذ الإفريقيين والأندلسيّين والصقليّين ، أي ما يناهز المائة والعشرين ، حسبما يقال .

وقرأ **أبو عمران الفاسي** (365 أو 368-430 هـ / 975 أو 978-1039 م)[213] أصيل مدينة فاس على القابسي . ورحل إلى قرطبة بإرشاد صديقه أبي عمر يوسف بن عبد البرّ (ت . 464 هـ / 1071 م) ثم إلى المشرق .

وفي حدود سنة 399 هـ / 1008 م تابع في بغداد دروس العالم الأشعري الشهير البقلاني (ت . 403 هـ / 1012 م) ، وعندما توفّي القابسي كان موجوداً بالقيروان . وفي حدود 425-426 هـ / 1033-1034 م ، رحل من جديد إلى المشرق ، ويبدو أنه لم يرجع إلاّ قبل وفاته بقليل . ونلاحظ انتقائية تكوين أبي عمران الذي استقى معارفه من القيروان والأندلس ومصر والحجاز والعراق .

ويدأ التدريس بتعليم القرآن الكريم -على الأرجح قبل سفره إلى المشرق- ثم تفرّغ إثر

210) مناقب ، 285-286 ، النص غير واضح .
211) إدريس ، حوليّات . . . 1955 م ، 47 .
212) نفس المرجع ، 39-41 .
213) نفس المرجع ، 40-58 .

عودته لتدريس الحديث والفقه . وكان متضلّعاً في القراءات السبع والتجويد ونقد المحدّثين وأصول الفقه . وقد أثارت شهرته المتزايدة ـ بالإضافة لا محالة إلى الاختلافات المذهبية ـ معارضة أبي بكر بن عبد الرحمان الذي ذهب به الأمر إلى لعن من يحضر مجلس خصمه من تلاميذه . وقد أسلفنا أن المعزّ بن باديس قد حاول بلا جدوى ، والحقّ يقال ، الاستفادة من خصومتهما[214] .

ورغم اختلاف أبي عمران مرات عديدة مع ابن الكاتب ، تلميذ ابن شبلون والقابسي ، يبدو أنه قد اتّفق معه ضمنياً مرّة واحدة على الأقلّ لأنه كان على خلاف مع أبي بكر بن عبد الرحمان . وقد حاول العالم القرطبي أبو العباس أحمد بن رشيق الكاتب (ت . بعد 440 هـ / 1048 م) بلا جدوى في الظاهر ، المصالحة بين الخصمين بتوجيه رسالة إلى كلّ منهما . ونعرف من مؤلفات أبي عمران الفاسي على وجه الخصوص كتاب **التعاليق على المدوّنة** الذي لا شكّ أنه يتضمّن عدّة معلومات حول التراجم ، والدليل على ذلك الاستشهادات المتكرّرة الواردة في المدارك للقاضي عياض الذي أعلن بصريح العبارة في مقدمة كتابه أنه اعتمد تعليقات أبي عمران الفاسي الخطّية . ومن بين المؤلفات الأخرى ، نشير إلى مجموعة أحاديث نبويّة وكتاب يحمل عنوان **النظائر** ، وقد قيل إنه يوجد مخطوطاً . وأشار أصحاب التراجم إلى الجمهور الغفير المتابع لدروسه والذي كان يضمّ علاوة على القيروانيّين ، عدداً كبيراً من التلاميذ القادمين من فاس وسبتة والأندلس . وقد كانت توجّه إليه الرسائل من كل الأنحاء للاستفتاء والاستجازة . وقام بدور بارز في نشأة الحركة المرابطيّة .

وألّف **أبو حفص عمر بن العطّار** (ت . في حدود 430 هـ / 1038-1039 م)[215] تعليقاً على المدوّنة واشتهر بالتدريس والفتوى .

وتتلمذ العالم الطرابلسي **أبو الحسن علي بن محمد المنمّر** (ت . ـ 432 هـ / 1040 م)[216] ، تلميذ ابن أبي زيد وابن زكرون الطرابلسي (ت . 370 هـ / 980 م) ، إلى عدد كبير من الشيوخ المشارقة ، وألّف عدّة كتب منها كتاب في الفرائض . ونحن نعرف ما قام به من دور سياسي وديني في طرابلس من 407 إلى 430 هـ ، قبل أن يجليه الزناتيون عنها فيما بعد .

وأمّا الفقيه أبو الطيب عبد المنعم بن محمد الكندي المعروف **بابن بنت خلدون** (ت .

---

214) انظر الفصل 7 الباب الثالث .

215) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 186 ،و 1955 م ،33 .

216) نفس المرجع ، 1954 م ، 153-155 .

435 هـ / 1044 م)[217] ، وهو ابن أخت الشيخ أبي علي بن خلدون (ت . 407 هـ / 1016 م) ، فقد قرأ القرآن على أبي عبد الله بن سفيان والفقه على أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي . وقد كان هذا الفقيه والمدرّس الجليل متضلّعاً في الأصول والكلام واختلافات الفقهاء والحديث والنحو وعلم اللغة ونحو عشرة علوم تطبيقية يقال إنه ألّف فيها عدّة كتب لم يُكمِلها .

وأخذ **أبو إسحاق التونسي** (ت . 443 هـ / 1051 م)[218] أصيل مدينة تونس ، الفقه عن أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، والأصول والكلام عن العالم الأشعري الأزدي . وكان ميّالاً إلى النظر ومتضلّعاً في القراءات والفقه والحديث والنحو ، وانقطع للعبادة . وقد كانت فتاواه على غاية من الروعة ، وسبق أن أشرنا ما كان لفتواه حول الشيعة المعتدلين من صدى بعيد . وقد ألّف تعليقاً على **المدوّنة** يعرف **بتعليقة التونسي** وتعليقاً على الموازية . وأخذ عنه عدد كبير من التلاميذ .

ودرس عبد الجليل الديباجي المعروف **بابن الصابوني**[219] على الأزدي والقابسي وأبي عمران الفاسي وأبي علي حسن بن محمود التونسي ، وكان عالماً في الأصول ومدرساً لهذا العلم ، وألّف عدة كتب وغادر إفريقية على الأرجح بعد غزوة بني هلال ، متجهاً إلى قلعة بني حماد وفاس للتدريس .

واستقرّ **أبو علي حسن بن محمود التونسي**[220]، أصيل مدينة تونس وتلميذ الإبياني، بالقيروان سنة 423 هـ / 1031 م وتحوّل إلى المشرق حيث تابع دروس العالم الأشعري ابن فورك (ت . 406 هـ / 1015 م) .

وكان أبو زكرياء **يحيى الشقراطسي** المولود بتوزر (ت . 429 هـ / 1036 م)[221] من تلاميذ ابن أبي زيد الذي كان يجلّه كثيراً ، وابن أخي هشام والقابسي. وبعدما رحّل إلى المشرق رجع إلى توزر لتدريس الفقه والإفتاء . ولا ندري أسباب المعارضة التي ظهرت ضدّه ودعت ابن أبي زيد « والجماعة » بالقيروان إلى التدخل لفائدته . وقد ألّف بعض الكتب ونظم عدداً من القصائد .

---

217) نفس المرجع 1955 ، 34-35 .
218) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م .
219) إدريس ، حوليات . . . 1955 م ، 49-50 .
220) نفس المرجع ، 50 ، الهامش 43 .
221) نفس المرجع ، 1954 م ، 153 ومجلة جورج مارسي ، 2/95-97 .

وأخذ ابنه **عبد الله الشقراطسي** (ت . 466 هـ / 1073 م)[222] عن ابن بنت خلدون وأبي حفص بن العطار وعبد الحقّ بن محمد بن هارون الصقلي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي والسيوري ، وخلف والده في التدريس والفتوى . ولكنه اشتهر بالخصوص بقصيدته « **الشقراطسية** » في مدح خير البريّة التي نالت شهرة كبيرة واستوحى منها البوصيري قصيدة **البردة** ، بعد ذلك بقرنين .

وقام **أبو محمد مكي بن أبي طالب المقرىء** (ت . 437 هـ / 1045 م)[223] ، تلميذ ابن أبي زيد والقابسي ، بعدّة رحلات في المشرق، تخلّلتها فترات إقامة بالقيروان ، قبل أن يرحل إلى الأندلس سنة 393 هـ / 1002 م ، وقد رصد حياته للعلوم القرآنية التي ألف فيها عدّة كتب لا سيما منها ما كانت مخصّصة للقراءات . وصرّح أنه ألف في القيروان كتاب **التبصرة** سنة 392 هـ / 1001 م .

وأما **أبو عبد الله محمد المالكي** (ت . 438 هـ / 1046 م)[224] ، فقد وهب نفسه لخدمة القابسي الذي كان يكلّفه بالصلاة بالنّاس . وإثر وفاة القابسي زار مكّة المكرّمة ، ودرس بها **صحيح البخاري** على أبي ذر المروي وعاد إلى القيروان صحبة أبي القاسم بن الكاتب في أوائل سنة 408 هـ . وألف كتاباً في مناقب شيخه المُوقّر القابسي وألّف ابنه **أبو بكر المالكي** كتاب **رياض النفوس** .

وغادر القيروان **أبو عبد الملك مروان البوني** (ت . قبل 440 هـ / 1048 م)[225] ، تلميذ القابسي والداودي قبل سنة متجهاً إلى بونة ، وقد توفّي بها . وألّف شرحاً **للموطأ** ، وكان له عدد من التلاميذ أغلبهم من الأندلسيّين .

ودرّس **ابن الضابط** (ت . بعد 440 أو 444 هـ / 1048-1049 م أو 1052-1053 م)[226] المولود بصفاقس ، الحديث وعلم اللغة والأدب بالقيروان لا محالة ، ولفت إليه الانتباه بالخصوص بوصفه سفيراً للمعزّ بن باديس . ونحن نعرف عناوين بعض مؤلفاته ، نخصّ بالذكر منها رحلة إلى المشرق ومجموعة من الأحاديث النبوية معروفة باسم **عوالي الصفاقسي** وكتاب **الاقتصاد في**

---

222) إدريس ، لمحة جورج مارسي ، 2/97-100 .
223) إدريس ، حوليات . . . 1954 ، 152-153 .
224) نفس المرجع ، 187 .
225) نفس المرجع ، 193 .
226) إدريس ، لمحة ماسينيون ، 2/357-359 .

القراءات السبع .

وأخذ **أبو القاسم بن محرز** (ت . في حدود 450 هـ / 1058 م)(227) عن القابسي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي وأبي حفص عمر بن العطّار ، كما أخذ عن بعض الشيوخ المشارقة . وقد ألّف عدّة كتب في الفقه ووصلتنا بعض فتاواه .

ويقال إنّ **أبا محمّد عبد الله الفحصي**(228) ، تلميذ أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، كان من كبار فقهاء إفريقيّة في عصره . وهو الوحيد الذي كان يكاتبه السيّوري باسم « الفقيه » . وفي حياة كبار الشيوخ القيروانيّين ، كان يحضر دروسه عدد كبير من المستمعين ، وكان منصرفاً للعبادة .

وأما **أبو بكر المالكي** (ت . بعد 453 هـ / 1063 م وربما في سنة 474 هـ / 1081 م)(229) صاحب التراجم الشهير ومؤلف « **رياض النفوس** » ، فقد روى عن أبي بكر بن عبد الرحمان « وكان قارىء حلقته بين يديه » .

وكان العالم القيرواني **أبو حفص عمر القمودي**(230) ، تلميذ أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، وصاحب السيّوري ، فقيهاً وأديباً . وانتهى به الأمر إلى الاستقرار بصفاقس .

وأخذ **السيّوري** (ت . 460 أو 462 هـ / 1067-1069 م)(231) الفقه عن أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، والقراءات عن أبي عبد الله بن سفيان ، والأصول والكلام عن الأزدي ، ودرس على البقلاني . وقد كان غنيّاً ، أنفق كلّ ماله في أعمال البرّ والإحسان . وخالف مالكاً في مسائل ثلاث : « خالفه في اختلاف جنس القمح والشعير وخالفه في التدمية ، إذا لم يذكر فيها أثرد دم ، وقال بخيار المجلس ، لما قام عنده من الأدلّة على رجحان قول المخالف » . ويقال إنه مال أخيراً إلى المذهب الشافعي . ولكنّه كان مدرّساً وفقيهاً قبل كلّ شيء ، لذلك لم يؤلّف أيّ شيء تقريباً . ولازم السيّوري الذي كان المازري يسمّيه « شيخ الجماعة » ، القيروان بعد أن خرّبها الهلاليّون ، وبها توفّي .

---

227) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 185 .

228) نفس المرجع ، 1955 م ، 37 .

229) نفس المرجع ، 36 .

230) نفس المرجع ، 37 .

231) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 م ، 138 ، 1956 م ، 494-500 .

وبالعكس من ذلك انتقل **اللّخمي** (ت . 478 هـ / 1085 م)[232] إلى سكنى صفاقس ، وأخذ بالخصوص عن التونسي وابن بنت خلدون وابن محرز والسيّوري الذي لم يكن يستحسنه .

ومن أشهر مؤلفات اللخمي « **التبصرة** » ، وهو تعليق على **المدوّنة** ، توجد منه بعض النسخ الخطيّة . « وهو مقدّم بتخريج الخلاف في المذهب [المالكي] واستقرار الأقوال ، وربّما اتّبع نظره فخالف فيما ترجّح عنده ، فخرجت اختياراته عن المذهب »[232م] . وتخرّج عليه جماعة من جلّة العلماء .

وأخذ **محمد بن سعدون** (413-485 هـ أو 486 هـ / 1022-1093 م)[233] عن عدد من الشيوخ الإفريقيين ، نخصّ بالذكر منهم أبا بكر بن عبد الرحمان واللبيدي والسيوري والبوني ، ومن الشيوخ المصريّين والمكيّين . وألف كتاب مناقب أبي بكر بن عبد الرحمان وكتاب « **الإكمال على التعليق** » ، وهو تكملة لتعليق التونسي على **المدوّنة** . وطاف في أنحاء المغرب والأندلس ، متعاطياً التجارة والتدريس .

وبعد خراب القيروان تهجّم على بني عُبَيْد في كتابه : « **تآسي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان** » وهو الكتاب الذي كثيراً ما استشهد به الإخباريّون ، وتوفي في أغمات جنوبي مرّاكش .

وانتقل **عبد العزيز التونسي الزاهد**[234] ، أصيل مدينة تونس وتلميذ أبي عمران الفاسي إلى سكنى أغمات وبها توفي سنة 486 هـ / 1093 م .

وهاجر **ابن الصّائغ** (ت . 486 هـ / 1093 م)[235] إلى سوسة بعد غزوة بني هلال وأدرك جماعة من كبار الفقهاء كأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، وأخذ عن أبي حفص عمر بن العطّار وابن محرز والتونسي والسيوري وابن بنت خلدون . « وكان فقيهاً نبيلاً فهيماً فاضلاً أصوليّاً زاهداً » . وكان معاصروه من الفقهاء يفضلونه على اللخمي . ويبدو أنه لم يؤلف سوى تعليق على **المدوّنة** أكمل به تعليق التونسي . ولما أراد تميم بن المعزّ تولية ابن شغلان القضاء ، اشترط هذا الأخير أن لا يتقلّد ذلك المنصب إلا باستجلاب عبد الحميد بن الصائغ إلى المهدية ليقوم بفتواها، فاستجاب الأمير لطلبه. وقد اعتُبِرَت فتاوى ابن الصائغ حجّة في المهدية. ولكنّ ابنه تعرّض للاضطهاد أثناء قمع الثورة التي اندلعت في سوسة سنة 455 هـ / 1063 م ، فرجع ابن

232) نفس المرجع ، 1956 م ، 500 ومعالم الإيمان ، 247/3 .

233) إدريس ، حوليات . . . 1955 م ، 35-36 .

234) نفس المرجع ، 51 .

235) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 502-505 .

الصائغ إلى سوسة واعتزل الحياة العامّة نحو خمس وعشرين سنة . ثم استجاب لنداء تميم لما دخل الفرنج مدينة المهدية واستباحوا أهلها سنة 480 هـ / 1063 م ، فرجع إليها واستأنف دروسه وفتاواه إلى أن أدركته المنية .

وأخذ **الكلاعي الصفاقسي** (ت . 505 هـ / 1111 م)[236] ، أصيل مدينة صفاقس بالخصوص على اللخمي . ورحل إلى المغرب والأندلس واستقرّ في سبتة وتوفّي في أغمات . وقد كان فقيهاً وأصوليّاً ، ومتضلّعاً في الهندسة والحساب والفرائض .

وكان **المازري الذكيّ** (ت . 512 هـ / 1118 م)[237] ، أصيل مدينة مازرة بصقلية ، من سكّان قلعة بني حماد ، وقد تعلّم بها في أوّل الأمر ثم أخذ عن عدد من فقهاء القيروان أمثال الخرقي والقفصي والسيوري الذي تخاصم معه فيما بعد . وقد ألّف كتاباً في القراءات وشرحاً في الفقه المالكي ، ولا ندري تاريخ استقراره نهائياً في المشرق . وكان من خصوم الغزالي .

وأقام **القفصي**[238] مدّة من الزمن في قفصة مسقط رأسه ثم انتقل إلى سكنى طرابلس . وكان من أصحاب ابن بنت خلدون والتونسي والسيوري ، وألف كتاباً حول رؤية هلال شوّال .

وقرأ **ابن النحوي** (ت . 434 أو 519 هـ / 1042-1111 م) في مدينة توزر مسقط رأسه[239] على أبي زكرياء الشقراطسي ، كما أخذ عن السيوري والديباجي والمازري . وأقام في آخر حياته بقلعة بني حماد إلى أن أدركته المنيّة . وقد كان متضلّعاً في الأصول ومدرساً لعلم الكلام ، وكان يبدي آراء شخصيّة حول المسائل المعروضة عليه ، وتولّى الدفاع عن الغزالي عند تعرّضه للاضطهاد ، وهو صاحب القصيدة الشهيرة المنفرجة ، [وطالعها (الخبب) :

اشتدّي أزمة تنفرجي   قد آذن ليلك بالبلجِ]

ولا ينبغي أن يشتبه علينا **الإمام المازري** (ت . 536 هـ / 1141 م)[240] إمام المذهب

---

236) نفس المرجع ، 502 .   237) نفس المرجع ، 505-507 .

238) إدريس ، تحية جورج مارسي ، 100/2-101 ، الكراسات التونسية 1956 م ، 506 .

239) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 502 ، وما زال الناس يتبركون بضريحه الواقع في سفح أطلال القلعة ، وقد أطلق اسمه على قرية صغيرة ، هي قرية سيدي فضْل (حسب رواية L. Golvin) .

240) الديباج ، 279-281 ، ابن خلكان ، 486/1 ، الصفدي ، 151/4 رقم 1680 ، ابن قنفذ ، 42 ، شذرات ، 114/4 ، مخلوف ، 127/1-128 الزركشي ، ترجمة فغنان ، 2 ، الهامش 3 ، البيان ، ترجمة فغنان ، 469/1 ، الهامش 4 ، أماري ، المكتبة العربية الصقلية ، 125 ، 133 ، 522 ، 629 ، 65/2-68 ـ ستوريا ، 544/2-549 ، مائوية أماري ، 384/1-389 ، 390-402 ، 92/2-94 ، 217-223 ، 224-244-492-493 . حسن حسني عبد الوهّاب ، الإمام المازري ، إدريس ، الكراسات التونسية 1953 م ، عدد 2 ، 137-138 .

المالكي بالمهديّة بمعاصرَيْه اللذين يحملان نفس لقبه[241] . فهو أصيل مدينة مازرة بصقلية ، ولا ندري هل وُلِد بإفريقية أم لا ، ولكنّه تكوّن بها ، والدّليل على ذلك أننا لا نعرف أنّه تتلمذ إلى شيخ صقلي . فقد أخذ عن اللخمي وبالخصوص عن العالم البارع ابن الصائغ الذي كان بمثابة والده الروحي الحقيقي . وكان متضلّعاً في أصـول الفقه والعقـائد ، وكـان يتبنّى أحيانـاً الآراء الشافعيّة . وكان مثل ابن الصائغ يقول بمبدإ اختيار أخفّ الضررَيْن[242] . وكان قاضي المهدية يستشيره وهو لم يبلغ العشرين من عمره[234] ، وقد اعتُبِر أكبر فقيه في عصره . وكان يركّز فتاواه على المشهور من المذهب المالكي ، إلاّ أنه كان يستخلص المبادىء العامة ويرجع إلى المصادر التي كان يأوّلها بحريّة . وبعبارة أخرى كان يطبّق الاجتهاد لا التقليد . وتُعتَبر بعض فتاواه من الآثار الرائعة في بـابها[244] . واهتمّ أيضـاً بالأدب ـ إذ كـان من فحول الشعـراء ـ وبكثير من العلوم الصحيحة مثل الرياضيات والطبّ . وكان وَرِعاً ، ليّن الجانب .

ومن بين مناهضي المازري وأتباعهَ نشير بالخصوص إلى العلماء الآتي ذكرهم ، وهم :

1 ـ أبو علي الحسن بن بكر البربري المهدوي[245] تلميذ السيوري وابن الصائغ . وكثيراً ما كان يذكره المازري ويسمّيه « صاحبنا » .

2 ـ أبو علي بن ثابت الخولاني المعروف بالحدّاد المهدوي (ت . حوالي 490 هـ / 1096 م) .

3 ـ أبو يحيى زكرياء بن الحدّاد (ت . بعد 566 هـ / 1170 م) قاضي المهدية ، وعلى الأرجح ابن العالم السالف الذكر .

4 ـ عمر الميّانشي (ت . 581 هـ / 1185 م) .

5 ـ ابن مشكان أصيل قابس التي يبدو أنه كان قاضيها . والغالب على الظنّ أنّه كان آخر تلاميذ المازري وناقل آثاره .

كما أخذ عن المازري عدد كبير من الأندلسيين . وكانت مجموعة من فتـاواه[246] متبوعـة

---

241) المازري الذكّي (ت . 512 هـ/118م) والمـازري الإسكندراني (ت . 530 هـ/1135 م) (بـالإضافة إلى الإمام المازري) ، والثلاثة كنيتهم أبو عبد الله محمد .

242) المعيار ، 285/8 .

243) نفس المرجع ، 205/8 : فتوى تتعلق باستيلاء الروم على زويلة والمهدية سنة 480 هـ/1087 م . فالمازري الذي توفي سنة 536 هـ/1141 م وهو يبلغ من العمر 83 سنة قد وُلِد حينئذٍ حوالي سنة 453 هـ/1061 م .

244) انظر مثلاً البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 170/1 ظ ، 171 و ، ح . ح . عبد الوهّاب الإمام المازري ، 75-89 .

245) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 180/1 ظ .

246) المعيار ، 212/6 وما بعدها .

بجواب المدعوّ أبو الفرج الذي يبدو أنه أبو الفرج التونسي[247] من طبقة المازري أو من الطبقة الموالية .

ومن بين آثار المازري ، نشير بالخصوص إلى الكتب التالية التي توجد منها نسخ خطيّة ، وهي :

- **كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم** وهو أوّل شرح على صحيح مسلم يتضمن تحاليل متنوّعة ، ذات فوائد جمّة[247م] .
- **كتاب إيضاح المحصول من برهان الأصول** ، وهو أقدم شرح على كتاب [إمام الحرمَيْن] أبي المعالي عبد الملك الجويني (ت . 478 هـ / 1085 م) ، في أصول الدين .
- **شرح على تلقين عبد الوهّاب** ، والتلقين هو تأليف القاضي عبد الوهاب (ت . 422 هـ / 1030 م) ، ويخرج الشرح في أربعة أجزاء .

وتُنسَب أحياناً إلى المازري بعض الآثار الأخرى التي يبدو أنّها من تأليف أحد سمِيِّيه .

---

247) نفس المرجع ، 221/3 .

248) [نُشِر المُعْلِم في تونس سنة 1991 م في 3 أجزاء بتحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، بيت الحكمة ، قرطاج] .

الفصل الثاني
المذهب الشّيعي

إنّ العرض الموالي ليس دراسة مقارنة ، تُعتبَر في غير محلّها ، للمذهبَيْن المالكي والشيعي ، إنّما هو محاولة مقصورة على إفريقية في العصر الصنهاجي[1] لدراسة الاختلافات العقائدية بينهما وخصوماتهما التي أثبتتها على وجه الخصوص كتب التراجم ، وكتاب دعائم الإسلام[2] للقاضي أبي حنيفة النعمان ورسالة ابن أبي زيد[3] ، وهما كتابان من كتب الدعاية ظهرا بالضبط في وقت واحد ، وبعض فتاوى فقهاء العصر الصنهاجي .

فكلّما تحدّث النّعمان ، ذلك العالم الحنفي الإفريقي الأصل والمعتنق للمذهب الشيعي فيما بعد ، عن المالكيّة ، إلاّ وسمّاهم « العامّة »[4] . ولا غرابة في استعمال هذه العبارة المشينة ، لأنّ المذهب الحنفي كان مذهب « الخاصّة » من الأغالبة الذين انضمّوا إلى بني عُبَيْد[5] .

في حين كان أتباع الإمام سحنون ، أعداء الشيعة الألدّاء ، ينتمون إلى الفئات الشعبية والعامّة ، وكان ميل المذهب الشيعي إلى الميز الطّبقي واضحاً جدّاً . وحينما ينقض القاضي النعمان آراء أهل السنّة ، مشدّداً على تناقضاتهم العقائدية ومنتقداً منهجيّتهم[6] ، يراعى الأحناف الذين

1) بالنسبة إلى فترة ما قبل العصر الصنهاجي ، انظر : أبو العرب ، رياض النفوس ، معالم الإيمان ، الهادي إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 144-152 ، 1936 م ، 72-88 ، البيان ، 233/1 ، ابن حمّاد ، 15-16 ، الاستبصار ، الترجمة ، 173 ، برنشفيك ، تحية جورج مارسي ، 13/2-20 .

2) تم تأليف هذين الكتابين على الأرجح في عهد المنصور (334-344 هـ/945-955 م) . وقد اطلع عليهما المقدسي ، 44-45 .

3) من الجدير بالتذكير أن النصّ الأول من الرسالة قد حُرِّر حسب الاحتمال في سنة 327 هـ/938 م بطلب من السبائي ، وحُرِّر الكتاب في صيغته الحالية المهداة إلى محرز بن خلف ، قبل سنة 375 هـ/985-986 م . انظر إدريس ، الكراسات التونسية ، 1954 م ، 63-68 . وحول ترجمة النعمان وآثاره ، انظر بالخصوص ، المعزّ ، 258-268 ، ومجلة هسبيريس ، 1953 م ، 324 ودائرة المعارف الإسلامية (ط . 2) ، 106/1-107 (S.M. Stern) .

4) العامّة ، مقابل الخاصّة ، دعائم ، 33/1 ، 49 ، 315 الخ . .

5) أبو العرب ، 223-226 .

6) أي الرأي والقياس والتقليد ، دعائم ، 106/1-120 .

يعتبرهم القابلين وحدهم للانتشال من بين أهل السنّة[7] .

ويتضمّن الكتابان المشار إليهما أعلاه (الرسالة وكتاب دعائم الإسلام) في المقام الأوّل أركان العقيدة[7م] ، مع الملاحظ أن العقيدة ، حسب تعريف ابن أبي زيد ، تتّسم بأكثر منهجية ودقّة . فهي تدعو إلى الإيمان « بأن أفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديّون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين وأن لا يُذكَر أحد من صحابة الرسول إلاّ بأحسن ذكر والإمساك عمّا شجر بينهم ، وأنهم أحقّ الناس أن يُلتَمس لهم أحسن المخارج ويُظنّ بهم أحسن المذاهب ، والطاعة لأئمّة المسلمين من ولاة أمورهم واتّباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم وترك المراء والجدال في الدين وترك كلّ ما أحدثه المحدثون »[8] . وبطبيعة الحال فإن النعمان لا يمكن أن يوافق على مثل هذا التعريف السنّي الذي يُعتبَر موقفاً مناهضاً للشيعة بشكل يكاد يكون مفضوحاً . فقد أدمج تعريف الإيمان في الباب الأوّل المطوّل الذي خصّصه « للولاية » ، باعتبارها الركن الأساسي للعقيدة والشرط الذي لا بدّ منه للإيمان[9] . ولا حاجة لنا إلى التذكير بأنّ الإسماعيليين لا يعتمدون فحسب على ما يعتبرونه السنّة الوحيدة الصحيحة ، بل يتفاخرون بأنهم هم أهل السنّة الحقيقيّون دون سواهم ، وأنهم قد ركّزوا نظريّتهم حول الإمامة على السنّة[10] . ولعلّ من قبيل البراعة أو الانتهازية ، أن لا يتعرّض القاضي النّعمان لعقيدة عصمة الإمام[11] ، بل بالعكس من ذلك ، فإنّه أظهر لنا القائم والمنصور ، وقد عبّرا عن أسفهما الشديد لمغالاة أتباعهما الذين يضعون « عُبّاد الله » في مقام الأنبياء ، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيعمدون إلى تأليه أولئك الذين لم ينعم الله عليهم إلاّ بتلك المنّة العظمى والرهيبة ، ألا وهي الولاية . وإنّ هذه الصفحة المؤثّرة ذات الصّبغة الإنسانية العميقة ، تتميّز بنبرة صادقة حقيقيّة[12] .

---

7) دعائم ، 1/116-117 ، ويُطلَق على الأحناف في المصادر المالكية (أبو العرب، المدارك ، رياض النفوس ، معالم الإيمان) اسم « العراقيين » ويسمّى مذهبهم « بمذهب العراق » ، انظر المدارك ، 2-3/88 ومائوية أماري، 1/261 .

7 م) دعائم ، 1/3-17 : ذكر الإيمان (3-15) ذكر الفرق ما بين الإسلام والإيمان (15-17) ، الرسالة : باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانة (18-27) .

8) الرسالة ، 26-27 .

9) دعائم ، 1/3-120 : كتاب الولاية ، انظر أيضاً ، النعمان ، كتاب الهمّة ، في مواضع مختلفة وسيرة المؤيّد ، 66 .

10) غولدزيهر ، Dogme ، 193-194 .

11) نفس المرجع ، 175-178 ، 181-186 .

12) دعائم ، 1/69-70 ، والملاحظ أن المؤلف قد أوصى بالرجوع إلى أحد الكتب السابقة المخصصة للإمامة ، 1/311 .

ويضيف الشيعة في الأذان والإقامة إلى « حيّ على الفلاح » عبارة « حيّ على خير العمل » تلك « الحيعلة »(13) الشهيرة التي يكرهها المالكية كرهاً شديداً ، إلى درجة أنهم يفضّلون الموت على النّطق بها(14) . فهي في نظرهم رمز لمروق الشيعة الذين يولون إليها من جانبهم أهمية بالغة . إذ يؤكّدون أنها من السّنن الأصليّة التي ألغاها عمر « خليفة الغزوات » ، لكي لا يعتبر المسلمون الصلاة أفضل من الجهاد . ويعيبون على أهل السنّة بكل ألم إهمال هذه النقطة الأساسية من السنّة النبويّة واتّباع بدعة من بدع عمر(15) . ومع ذلك فإنهم يقرّون بتفوّق الجهاد بقيادة الأيمّة على سائر الواجبات الدينيّة(16) .

وبالنسبة إلى الإقامة ، فهي عند المالكية وِتر ، أي لا تُقال إلاّ مرّة واحدة [ما عدا التكبير الأوّل والثاني] ، وهم يتبّعون في ذلك العادة التي سنّها بنو أميّة(17) . وبالعكس من ذلك فإن الشيعة ، بالاتفاق مع الأحناف ، يرون أن الإقامة يجب أن تُكَرَّر(18) .

ويزيد المالكيّة في نداء الصبح « الصلاة خير من النوم » مرّتَيْن ، ولم يقبل الشيعة بإضافة هذه الجملة(19) .

وخصّص ابن أبي زيد باباً من الرسالة « للمسح على الخفّيْن » مؤكداً أنه يجوز للمصلّي أن يتوضأ دون غسل رجليه ، وذلك بأن يمسح على الخفّيْن بيدَيْه ، « ما لم ينـزعها »(20) . إلاّ أن الشيعة رفضوا بشدّة هذه الرخصة التي تبدو من أوّل وهلة غير ذات قيمة ، ولكنّ مالكاً وأبا حنيفة قد تمسّكا بها . فبالنسبة إلى الشيعة ، تتمثل الأعمال الثلاثة التي لا يمكن قبولها فيما يلي : شرب المُسْكِرات والمسح على الخفّين وعدم الجهر بالبسملة (في الصلاة)(21) . فهم يعتبرون أن الجهر

---

13) اختصار جملة « حيّ على خير العمل » ، غولدزيهر ، المرجع المذكور 191 ، 291 .

14) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 114-115 ، معالم الإيمان ، 95/3 ، البيان ، 223/1 ، مناقب ، 227-260 .

15) دعائم ، 172/1-173 ، المقدسي ، 44-45 .

16) انظر بالخصوص ، القاضي النعمان ، كتاب الهمّة ، 59-66 .

17) المقدسي ، 44-45 ، الرسالة ، 56-57 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 485/2-486 (Th. W. Juynboll) .

18) غولدزيهر ، المرجع السابق ، 191 ، المقدسي ، 44-45 ، دعائم ، 172/1-176 ، مناقب ، 209 .

19) الرسالة ، 56-57 ، مناقب ، 312 .

20) الرسالة ، 48-51 ـ غولدزيهر ، المرجع المذكور ، 190-291 دائرة المعارف الإسلامية ، 1203/4 (شاخت) ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 369-370 .

21) دعائم ، 131/1-134 .

بالبسملة من بين الشعائر الدينية الأساسية . وحسب رأيهم يجب قراءتها جهراً في كل ركعة قبل الفاتحة والسورة التي بعدها(23) ، كما أن الشافعية يقرؤونها جهراً هم أيضاً ، ولكن المالكية لا يفعلون ذلك(24) .

ويوصي ابن أبي زيد بأن يقول المصلّي بعد قراءة الفاتحة : آمين ! [سواء كان وحده أو خلف الإمام](25) . ولكن القاضي النعمان يستنكر هذه العادة « العاميّة »(26) .

وفي حين يرى ابن أبي زيد في الرسالة أنّ الإمام أو المصلّي الذي يصلّي وحده يقول : « السلام عليكم ، تسليمة واحدة » ، ولا يسلّم تسليمتَيْن إلّا المأموم(27) ، يرى الشيعة [وكذلك الأحناف والشافعية والحنابلة] أنّ من واجب المصلّي في جميع الحالات أن يسلّم تسليمتين ، مرّة عن اليمين ومرّة عن اليسار(28) .

وأكّدت مناقب الجبنياني أنه كان يؤخر صلاة الظهر وصلاة العصر إلى أقصى حدّ لمعارضة عمل الشيعة ، وقد اقتدى به القابسي(29) . ذلك أنّ القاضي النعمان لا يوصي فحسب بالتعجيل بصلاة الظهر وأداء صلاة النافلة المعروفة باسم « الصبحة » ثم صلاة العصر ، بل يشهّر بالعامّة الجَهَلة الذين يؤخّرون صلاة العصر لمعارضة الشيعة(30) .

ويتّفق المالكية مع الشافعية على التوصية بدعاء القنوت في صلاة الصبح(31) ، إلّا أنّ القنوت

---

22) نفس المصدر ، 133/1، غولدزيهر ، المرجع المذكور ، 190 ، المقدسي ، 44-45 .

23) دعائم ، 193/1-194 ، البيان ، 223/1 ، المعزّ ، 243-245 .

24) دائرة المعارف الإسلامية ، 689/1 وما بعدها (Cara De Kaux) .

25) الرسالة ، 58-59 .

26) دعائم ، 194/1 .

27) الرسالة ، 64-65 .

28) مناقب ، 227 ، دعائم ، 199/1-200 . فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 143/1 و : السؤال : رجل يسكن قرب مسجد وهو أعلم أهل الحارة ، فقالوا له : « تَؤُمّ حتى تلتزم قراءة بسم الله الرحمان الرحيم والتسليم تسليمتين » ، فما هو الحكم إن قرّر عدم الخروج من بيته ؟ الجواب : « ما أُبِر به قد اختلف الناس فيه ، وعِمَارة المسجد أولى به » . انظر أيضاً ، البيان ، 223/1 .

29) مناقب ، 254-254 .

30) دعائم ، 166/1-167 ، البيان ، 223/1 : أمر المعز لدين الله الناس « بأن لا يؤخّروا العصر ، ولا يبكّروا بالعشاء الأخيرة » .

31) غولدزيهر ، المرجع المذكور ، 190 ، 290 ، المقدسي ، 44-45 ، الرسالة ، 50-51 ، 60-61 ، 72-73 ، دعائم ، 244/1-248 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1183/2 وما بعدها (Wensinck) .

المالكي أخفّ من الشافعي[32] ، كما أن الشافعية يشدّدون على أهمّيّة هذا الدعاء في صلاة الفجر ، في حين لم تتعرّض الرسالة لذلك[33] .

ويتفق المالكية مع الشافعية أيضاً على تحديد صلاة الوِتر بركعة واحدة ، ولكنّ النعمان يدمج فيها القنوت خلافاً لابن أبي زيد[34] .

وكان أهل السنّة يرفضون حضور صلاة الجمعة لعدم سماع الخطيب وهو يدعو للخليفة الفاطمي ، وقد اعتبـر علماؤهـم الخطباء الذين يدعون للفاطميّين خارجين عن السنّة[35] . أضف إلى ذلك أنّ الفقه الشيعي يوصي بدعاء القنوت في صلاة الجمعة خلافاً للفقه المالكي[36] .

« والتكبير على الجنازة أربع تكبيرات » حسب المذهب المالكي ، وخمس تكبيرات ، حسب المذهب الشيعي[37] .

ويستنكر الشيعة صلاة الضحى التي تقام جماعةً في المسجد باعتبارها بدعة[38] ، في حين كان المالكية حريصين على إقامتها[39] .

كما يأنف الشيعة من « قيام رمضان » بدعوى أنّه بدعة سنّها الخليفة عمر ، وهي تتمثّل في أداء صلاة التراويح جماعة في ليالي رمضان[40] .

وقد منعوا منعاً باتّاً تلك الصلاة التي يحرص المالكية على أدائها[41] . ومع ذلك فإن النّعمان

---

32) **الرسالة** ، 60-61 ، **دعائم** ، 247/1-248 ، يبدو أن الفاطميّين في إفريقية قد منعوا المالكية في وقت ما من دعاء القنوت في صلاة الصبح ، وذلك بلا شكّ لأنّ هؤلاء كانوا ينتهزون تلك الفرصة للعنهم ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 63 ظ ، والمدارك ، 2-16/3 و .

33) **الرسالة** ، 72-73 ، 288-289 ، **دعائم** ، 247/1-248 .

34) المقدسي ، 44-45 ، **دعائم** ، 245/1 ، **الرسالة** ، 70-73 .

35) إدريس ، **تحية ماسينيون** ، 330/2-331 ، 337 .

36) **دعائم** ، 221/1 ، 248 ، **الرسالة** ، 94-97 ، انظر أيضاً ، **الاتعاظ** ، 170 ، و168 : ألغى جوهر في مصر السّواد ومنع قراءة سبّح اسم ربّك في صلاة الجمعة وألغى التكبير بعد هذه الصلاة ، وانظر : المعزّ ، 241-242 ، 245 .

37) **دعائم** ، 282/1 ، غولدزيهر ، المرجع المذكور ، 190 ، **مناقب** ، 323 : إذا كان الميت من الأعيـان أو من عائلة الإمـام ، يزيـد الشيعة في عدد التكبيرات ، من ذلك أن المعزّ صلى في صفر 363 هـ على أحـد بني عمومتـه بسبع تكبـيرات ، **الاتعاظ** ، 198-199 ، المعزّ ، 250 ، **نجوم** ، 120/5 . في سنة 349 هـ أمر المعزّ المصلّين بأن يكبّروا على الجنائز خمسـاً ، ومنع النسـاء من النحيب وراء الجنائز ، ومنع العميان من قراءة القرآن على القبور إلا عند الدفن ، **البيان** ، 223/1 .

38) **دعائم** ، 255/1-256 .

39) **الرسالة** ، 288-289 .

40) **دعائم** ، 255/1-256 .

41) **الرسالة** ، 288-291 .

يـوصي بأداء صـلاة التراويـح في ليـالي 12 و21 و23 رمضـان ، مشيـراً إلى أن المسـألـة فيهـا اختلاف(42) ، فهل هذا تنازل من جانبه ؟ .

ويرى النّعمان أنّ صلاة الخسوف(43) تشتمل على مجمـوعتَيْن متتـاليتَيْن من خمس ركعـات وسجدتَيْن ، أي عشر ركعات وأربع سجدات في الجملة(44) ، في حين يؤكد ابن أبي زيد(45) أن تلك الصلاة لا تشتمل إلا على خمس ركعات وأربع سجدات فحسب . ويبدو أنّ هذه الاختلافات التي أشار إليها المقدسي(46) لم تكن لها نتائج تُذكَر ، وذلك لا محالة بالنظر إلى قلّة المناسبات التي تقام فيها صلاة الخسوف .

كما أنّ الشيعة وأهل السنّة لا يقيمون صلاة الاستسقاء بنفس الطريقة ، وما علينا لإثبات ذلك إلاّ المقارنة بين الطريقة التي اتّبعها إسماعيـل المنصور في سنـة 340 هـ / 951-952 م وبين البيانات الواردة في هذا الشأن في رسالة ابن أبي زيد(47) .

---

42) دعائم ، 139/1 ، من المفروض أن تكون إحدى تلك الليالي هي « ليلة القدر » الشهيرة التي خصّص لها النعمان باباً في كتابه ، 333/1-336 ، في حين أهملها ابن أبي زيد ، خلافاً لما كان منتظراً .

43) دعائم ، 240/1-241 .

44) نفس المصدر . انظر أيضاً المقدسي ، 44-45 .

45) الرسالة ، 100-103 .

46) المقدسي ، 44-45 . ولمزيد من التفاصيل حول صلاة الخسوف انظر المصدرين السابقين : رسالة ابن أبي زيد ودعائم الإسلام .

47) ـ ابن حمّاد ، 38 : ركع إسماعيل ركعة وكبّر تكبيرة واحدة ثم ركع ركعة ثانية وكبّر خمس تكبيرات . وبعد ذلك صعد على المنبر وقلب رداءه على منكبَيْه واستقبل القبلة وكبّر مائة تكبيرة ثم التفت إلى اليمين وسبّح مائة تسبيحة والتفت إلى اليسار وهلّل مائة تهليلة . ثم أولى ظهره للقبلة وخطب خطبتين وجلس بينهما ودعا الله ثم انصرف . وأضاف المؤلف أن هذه الطريقة هي التي اتبعها أهل البيت .

ـ ابن أبي زيد، الرسالة ، 102-104 : « وصلاة الاستسقاء سنّة تُقام ، يخرج لها الإمام كما يخرج للعيدين ضحوةً فيصلّي بالناس ركعتين يجهر فيهما بالقراءة ، يقرأ بسبّح اسم ربّك الأعلى والشمس وضحاها ، وفي كلّ ركعة سجدتان وركعة واحدة ، ويتشهّد ويسلّم ثم يستقبل الناس بوجهه ، فيجلس جلسة ، فإذا اطمأن الناس قام متوكّئاً على قوس أو عصا ، فخطب ثم جلس ثم قام فخطب . فإذا فرغ استقبل القبلة ، فحوّل رداءه يجعل ما على منكبه الأيمن على منكبه الأيسر ، وما على الأيسر على الأيمن ولا يقلب ذلك . وليفعل الناس مثله وهو قائم وهم قعود . ثم يدعو كذلك ثم ينصرف وينصرفون . ولا يكبّر فيها ولا في الخسوف غير تكبيرة الإحرام والخفض والرفع » . ويبدو أن ملاحظة ابن أبي زيد الأخيرة تشير إلى تكبيرات صلاة الاستسقاء العديدة عند الشيعة .

48) الرسالة ، 88-91 .

كما حدّد هذا الفقيه[48] سجود القرآن بإحدى عشرة سجدة ، وحدّده القاضي النعمان[49] بخمس عشرة سجدة .

ولئن كانت الاختلافات بين الفقه المالكي والفقه الشيعي طفيفة حول تحديد قيمة الزكاة[50] ، فهي ليست كذلك بالنسبة إلى طريقة دفعها واستعمالها . ذلك أنّ الشيعة يرون أن الزكاة التي كانت تُدفَع في القديم للرسول (ﷺ) ، يجب أن تُدفَع لخلفائه الشرعيّين ، وهم الأيمّة الفاطميّون ، المسؤولون وحدهم على توزيعها على مستحقّيها . ولا ينبغي أن يشغل المسلمون بالهم بالطريقة التي يتّبعها الإمام لاستعمالها ، ومن لم يسلّمها إليه بلا تردّد فهو مُشْرِك . على أنّه لا يجوز للإمام أن يقتطع من الزكاة أدنى جزء لاستعماله في أغراضه الشخصية ، لأنه لا يحقّ له التصرّف إلاّ في خُمُسها[51] .

وقد أكّد القاضي النعمان في كتاب الهمّة أنّ الإمام له الحقّ في خُمُس « الغنيمة » ، واستعمل هذه الكلمة بمعنى « الكسب » . ولا يتمتع أهل البيت ، وبالتالي الأيمّة ، بأي امتياز بالنسبة إلى الزكاة (أو الصدقة) . فإذا اقتنى المسلم مِلْكاً ، عليه أن يدفع الخُمُس للإمام ، من غير مساس بالزكاة التي يجب أداؤها على البقية ، أي مداخيل الأربعة أخماس . ولا يُدفَع الخُمُس الذي هو بمثابة الضريبة على المكاسب إلاّ مرّة واحدة ولا يُعتبَر ضريبة سنويّة مثل الزكاة . ولا ينبغي أن يكون وجوب أداء الخُمُس محلّ ضغط من قِبَل الإمام ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الزكاة التي هي فريضة . ويتعلّق الأمر بأمانة في عنق المسلم المُطالَب معنويّاً بتسليمها إلى الإمام ، فإن لم يفعل ذلك ، يكون قد خان الله والرسول وخلفائه[52] .

وأكد النعمان بكل مهارة ، معتمداً على كثير من الاستشهادات السنيّة ، أنّ أهل السنّة أنفسهم يعترفون بوجوب دفع الزكاة للأمير الجالس على العرش ، مهما كان ، ومن باب أولى وأحرى الأيمّة الشيعة ، على الأقلّ بوصفهم أمراء ، في واقع الأمر . ثم احتجّ بشدّة على المالكية الذين لا يدفعون الزكاة للإمام ، ويوزّعونها رأساً على الفقراء مبتدئين بأقاربهم ، وذلك خلافاً لما

---

49) دعائم ، 257-258 .

50) انظر مثلاً ، دعائم ، 301/1 ، 297/1 والرسالة ، 138-139 ، و128-129 . والجدير بالملاحظة أن باب الزكاة قد ورد في دعائم الإسلام بعد الصلاة وقبل الصوم وورد في الرّسالة بعد الصوم .

51) دعائم ، 291/1-300 ، 306-308 .

52) كتاب الهمّة ، 66-73 ، المعزّ ، 238 .

جاءت به السنّة[53] . بل يذهب معظمهم إلى أبعد من ذلك فيمتنعون عن أداء الزكاة ، مخالفين بذلك تعليمات أيمّتهم ذاتهم ، كما رفض النعمان بكلّ ازدراء ما ذهب إليه أبو عُبَيْدَة من أنّ الزكاة على الأنعام والحبوب والثمار هي وحدها التي يجب أن لا تُدفَع إلّا للسلطان . أما الزكاة على الذهب والفضة فيجوز دفعها على حدّ السواء للأمراء أو للفقراء . ولاحظ أن العامّة قد أجمعوا على رفض دفع الزّكاة للأيمّة المُؤَهّلين دون سواهم لجمعها ، مخالفين بذلك كتاب الله وسنّة رسوله .

والجدير بالملاحظة أن صاحب الرسالة قد تجنّب بمهارة[54] التعرّض لهذه المسألة وأشار إشارة عرضية بلا ملاطفة إلى « المُصدِّق » (أي جامع الضرائب)[55] .

وبالنسبة إلى صلاة العيدَيْن ، يتمثل أهم الاختلاف بين الفقه المالكي والفقه الشيعي فيما يلي : يكبّر الشيعة بعد قراءة الفاتحة والسورة[56] ويكبّر المالكية قبلها[57] .

ويحدّد المالكية بداية الأشهر (القمرية) برؤية الهلال ، وهو أمر من الأهمية بمكان بالنسبة إلى تحديد أوّل وآخر يوم من شهر رمضان ، وقد درس فقهاء القيروان قضية الرؤية بكلّ عناية[58] .

أمّا الشيعة فإنهم يرون أنّ الإمام هو الذي يحدّد بداية ونهاية الشهر ، وما على المسلمين إلّا الاقتداء به[59] . وقد تخلّى الفاطميّون في إفريقية عن رؤية الهلال واعتمدوا طريقة الحساب[60] .

---

53) أشار البرزلي إلى هذه المسألة في كتابه « جامع مسائل الأحكام » ، مخطوط الجزائر ، 236/1 و ، فتوى السيوري (المتوفّى سنة 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) الذي أجاب بعدم جواز إعطاء الأولوية للأقارب بالنسبة إلى الزكاة ، اللهم إلّا إذا كانوا فقراء فقـراً مدقعاً أو مدينين ، أو إذا تحصلوا على نفس المقدار الذي تحصّل عليه المستحقّون الآخرون ، وبشرط أن لا يكون ذلك حيلة تسمح للمزكّي بعدم أداء واجباته .

54) دعائم ، 311/1-314 .

55) الرسالة ، 138-139 : « ولا خِيار أموال الناس ولا يُؤخَذ في ذلك عرض ولا ثمن ، فإن أجبره المُصَدِّق على أخذ الثمن في الأنعام وغيره أجزاه إن شاء الله » .

56) دعائم ، 224/1 ، الخطط ، 222/2 .

57) الرسالة ، 98-99 .

58) نفس المصدر ، 116-117 ، إدريس ، تحية جورج مارسي ، 100/2-104 .

59) دعائم ، 322/1-323 .

60) ولا شكّ أن المقدسي قد أشار إلى هذه المسألة (44-45) لما قال : « والثالث مال تفرّد به ممّا يخالف الأئمة وإن لم يعرف له قدمة مثل الحيعلة في الأذان وجعل أوّل الشهر يوماً [لا] يُرى فيه الهلال . . . » .

وممّا لا شكّ فيه أن المقدسي قد اعتمد على كتاب الدعائم الذي قال إنه اطلع عليه (44-45 ، السطر الأخير) . وحول الحساب في العهد الفاطمي ، انظر ترجمة محمد بن سليمان القطان ، مدارك القاضي عياض ، 2-94/3 ظ ـ 95 و : « كان الشيعة يصومون يوماً قبل رمضان ويفطرون يوماً قبل الناس » . إدريس ، مجلّة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 147 ، =

ومن الجدير بالتذكير في هذا الصدد أنّ أهل القيروان قد رفضوا القرار الذي اتخذه القاضي أبو بكر بن أبي زيد ، بالاتفاق مع السلطة الشيعية ، أي بالاعتماد على الحساب ، حول تعيين يوم العيد ، قبل يوم من الموعد الذي حُدِّد بالاعتماد على الشهادات السنّية التي يعتبرونها هي وحدها الصحيحة .

وهناك اختلافات أخرى بين الفقه المالكي والفقه الشيعي حول مسائل شتّى ، نخصّ بالذكر منها هاتين المسألتين ، رغم أن تاريخهما يرجع إلى ما قبل العصر الصنهاجي . فقد أقرّ الشيعة « سقوط الحِنث عمّن طلّق بالبتّة وإحاطة البنات بالميراث »[61] .

ولا نعلم شيئاً عن البنية الفوقية الدينيّة الشيعية ، ولا عن مختلف أطوار تدهورها . وقد أسلفنا أنّ الخليفة الفاطمي العزيز كلّف المختال « بالدعوة » ، وأنّ هذا التعيين هو الذي ربّما تسبّب في نكبته وقتله من طرف المنصور[62] .

كما لا نعلم شيئاً عن « دار الإسماعيلية » الواقعة في صبرة المنصورية ، سوى تاريخ هدمها (407 هـ / 1016 م) . وهي مكان مُعَدّ لاجتماع الشيعة أو مركز للدراسة والرعاية مماثل لبيت الحكمة الأغلبي الشهير .

= الاستبصار ، 173 : « الصوم بالعلامة والفطر بها » ، الاتعاظ ، 165 ، ديوان المؤيّد ، 23 ، الخطط ، 388/2 ، سيرة المؤيّد ، المقدمة ، 18 ، 59 .

61) البيان ، 159/1 ، المدارك ، 2-88/3 ظ ، 181 ظ ، وقد جاء فيه أنّ المدعوّ أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي (ت . 319 هـ/931-932 م قد حرّر «كتاب صداق» فيه شرط ، « ولا يُكتَب في نكاح بشرط بيمين طلاق » ، وقد حكم القاضي إسحاق بن أبي المنهال على المخالِف بثلاثة أيام سجناً . انظر أيضاً ، A.A. Fyzee ، مجلة ستوديا إسلاميكا ، 1958/10 م ، 61-69 .

62) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني .

الفصل الثالث
المذهب الخارجي

يعتبر المالكيّة الإباضيين خارجين عن مذهب أهل السنة ، [ومن هنا جاءت تسميتهم بالخوارج] . وقد ذكّر ابن أبي زيد بأن مالكاً وأصحابه لا يأخذون قطعاً بشهادتهم وأنّ بعض العلماء الآخرين[1] يقبلون بأن يشهدوا فيما بينهم في الأماكن التي يمثّلون فيها الأغلبيّة ، وذلك على غرار الإمام مالك الذي أقرّ شهادة الرافضة لفائدة رافضة آخرين[2] . كما أن الخوارج في جربة مثلاً « لا يماسحون بثيابهم ثياب أحد ممّن ليس على مذهبهم ولا يؤاكلون في آنيته »[3] .

ويجوز للمالكية عند الاقتضاء تعليم القرآن لأبناء الخوارج ، لا الكتابة[4] .

أما الزواج بين الخوارج وأهل السنّة ، فقد استنكره الفقهاء السنّيون بشدّة ، على الأقلّ بعد غزوة بني هلال ، من غير أن يأمروا بفسخه . وحول هذه المسألة التي تشبه قضية الروابط الزوجية بين أهل السنّة والشيعة ، يبدو أن الفقهاء كانوا متسامحين أكثر[5] .

ولدينا جوابان[6] متشابهان ومتكاملان ، صادران عن السيّوري واللخمي حول بعض الوهبيّة القاطنين منذ عدّة سنوات مع أهل السنّة ، وقد أخذوا في نشر مذهبهم علانيةً . فبنوا

1) هذه إشارة إلى الأحناف الذين كانوا يقبلون شهادتهم ، البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب ، 55/2 و . (إثر فتوى صادرة عن السيوري) .

2) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 138/10 ، البرزلي ، المختصر ، 125 ظ .

3) انظر بالخصوص الإدريسي ، 128 .

4) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 150/8 والبرزلي ، مخطوط الرباط ، 203/2 ظ ، 204 و ، وفتوى أبي الطيب ابن خلدون المعروف بابن بنت خلدون ، المعيار ، 150/8 ، 154 ، 161 وما بعدها ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 204/2 و ، مخطوط الجزائر ، 113/1 ظ ، 114 و .

5) المخطوط المذكور ، 55/2 و . انظر أيضاً المعيار ، 210/3 ، 211 ، البرزلي المخطوط المذكور ، 55/2 و . انظر أيضاً المعيار ، 110/10-111 وحسب البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 138/1 ظ ، 139 و ، والمختصر ، 18 ظ ، يرى السيّوري جواز لعنة جماعة الخوارج لأنهم مسلمون مرتكبون للكبائر .

6) فتوى السيوري ، المعيار ، 346/2 ، 109/10 ، 126/11-127 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 112/1 و ، ظ ، فتوى اللخمي ، المعيار ، 346/2 ، 347 ، 109/10-111 ، 127/11 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 112/1 ظ ، 113 و .

مسجداً يجتمعون فيه ، وكان يتوافد عليهم من كلّ حدب وصوب بعض المثقفين (العزّابة) البالغ عددهم ما بين خمسين وستين شخصاً ، حاملين معهم الأطعمة ، فيتمتعون بالضيافة خلال عدّة أيام . ويؤدّي الوهبيّة صلاة العيدين في مصلّى خاصّ بهم ، يقع قرب مصلّى أهل السنّة . فاعتزم العامل الذي استولى على تلك المنطقة هدم مسجدهم وإلغاء عقود أنكحتهم ، لأنهم في كثير من الحالات لم يتزوّجوا نساءً سنّيات إلّا لتدعيم منزلتهم الاجتماعية . وأراد العامل سجنهم وجبرهم عنوةً على اعتناق المذهب المالكي . فهل يجوز له ذلك ؟ الجواب : لا ينبغي هدم المسجد ، بل تخصيصه لأهل السنّة دون سواهم ، وينبغي منع العزّابة من الاجتماع بهم . كما يتعيّن فسخ عقود الزواج المبرمة مع « نسائنا » . وينبغي أن نعرض عليهم التوبة ، فإن رفضوا ، يُضرَبون ويُسجَنون . وممّا يزيد في خطورتهم أنهم أخبث من اليهود والنصارى ، لأنهم يستطيعون التبجّح بكونهم مسلمين صالحين والظهور بهذا المظهر الخدّاع .

وكان الإباضيّون بجبل نفوسة يُقبِلون بكثرة على أداء مناسك الحجّ ، ويذهبون إلى البقاع المقدسة صحبة نسائهم وأطفالهم[7] .

العلماء الإباضيّون[8] :

تثبت كثير من الوقائع ما كان للإباضيين من تأثير في إفريقية . فقد استقبل أبو صالح

---

7) الشماخي ، نقلاً عن أبي العرب .

8) إن الخوارج في إفريقية وطرابلس هم من الإباضية أي أتباع عبد الله بن أباض التميمي (ت . حوالي 130 هـ/748 م) . وقد أوفد أبو عبيدة التميمي الزعيم الروحي للإباضيين في البصرة ، إلى المغرب خمسة دعاة ، عُيِّن أحدهم إماماً من طرف الإباضيين الطرابلسيّين ثم قُتِل في سنة 144 هـ/761 م . وتحوّل ابنه السّمح إلى عبد الرحمان بن رستم مؤسس الإمامة الرستمية في تاهرت ، وذلك في سنة 166 هـ/776-777 م وأصبح وزيراً لابنه عبد الوهّاب بن عبد الرحمان بن رستم (168-208 هـ/784-824 م) الذي عينه عاملاً على الإباضيين بطرابلس ، بطلب منهم . وكان السمح عادلاً ووفيّاً لعبد الوهّاب ، ولذلك قرر الطرابلسيون بعد وفاته تعين ابنه خلف رئيساً لهم ، وقد رفض الإمام هذا التعيين وانجرّ عن ذلك انشقاق ، ففي حين ظلّ جبل نفوسة وفيّاً لبني رستم ، أصرّت بقية الأقاليم الطرابلسية على الاعتراف بخلف ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالخلفيّة ، انظر ، T. Lewicki ، دراسات إباضية ، 1/112-115 وسمّي المعارضون للإمام الثاني الرستمي - ومنهم أبو يزيد - بالنكارة ، وقد اتهموا بالتعصب ، في حين ظل الخوارج الإفريقيون أوفياء لعبد الوهّاب وبني رستم ، وهم معتدلون أكثر ، وقد أطلق عليهم اسم الوهبيّة . وكان هؤلاء مناهضين للصفرية ومستاوة والحشويّة ، الشماخي ، 280-282 ، 345-346 ، Lewicki ، المرجع المذكور ، 1 ، 49 ، 50 ، 66 ومجلة ستوديا إسلاميكا ، 1958/9 م ، 72-82 .

الباجراني بالقيروان عدداً من أتباع هذه الفرقة (العزّابة)[9]. وأكد أبو نوح أن اثنين وثلاثين شيخاً إباضياً قد استقرّوا في إفريقية ، متعاطين التدريس والقيام بشؤون الطلبة ، وحين يتوفّى أحدهم يعوّضه زميله . وكان آخرهم أبا عبيدة وشق ، أحد تلاميذ الشيخ أبي الربيع سليمان بن زركون النفوسي صاحب أبي يزيد الشهير[10] .

وفي تلك الفترة بالذات أو بعدها بقليل ، تمكّن أبو مسور يسجى بن يوجين اليراسني[11] من حمل معظم الخلفيّين في جربة على اعتناق الوهبيّة .

وأراد بعض الشيوخ الإباضيين بإفريقية ، ومعظمهم تابعون ـ حسبما يبدو ـ للقصور ، أي قسطيلية ونفوسة ، زيارة الطرابلسيين الذين لم يتعرّضوا مثلهم لما أحدثه الفاطميّون من تخريب[12] . ولكن بما أنه يتعيّن عليهم اجتياز قابس التي تمثل حدّاً يصعب عليهم تجاوزه ، فقد قدموا إلى جربة واجتمعوا بشيوخها ، وبالخصوص بأبي مسور السالف الذكر[13] .

وكان الجدل بين الوهبيّة ومستاوة حادّاً ، لا سيما في جبل نفوسة . وعندما يُلقى سؤال على أحد العلماء الوهبيّين بنفوسة لا يجيب عليه إلا بعد عرضه على سائر زملائه في لالوت وتيجرمين[14] .

أمّا كبار العلماء الوهبيّين في الفترة السابقة للعصر الصنهاجي فهم : أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يعلى بن زلتاف المقيمان بالحامّة[15] وأبو نوح سعيد بن زنغيل . وكان أوّلهم ثريّاً جدّاً ، كثيراً ما يتحوّل ، مرتدياً أفخر اللباس ، إلى القيروان ويترك قدومه إليها أثراً بالغاً . ويتوافد الناس

---

9) الشماخي ، 378 ، وجاء في الصفحة الموالية أنه التجأ إلى درج (قرب غدامس) حيث بقي سبع سنوات على إثر الاضطرابات التي اندلعت في وارجلان .

10) وحول هذا المعاصر لصاحب الحمار ، انظر ، الشماخي ، 279-280 . والجدير بالتذكير أن سحنون هو الذي منع الخوارج الصفرية ، والإباضية من الاجتماع بالجامع الأعظم بالقيروان ، أبو العرب ، 102 .

11) الشماخي ، 345-346 .

12) في النصّ : المسودة ، ويمكن قراءة هذه الكلمة كما يلي : المُسَوِّدَة أو المُسَوَّدة . وكانت المصادر الإباضية تنعت بهذا النعت على حدّ السواء العباسيين الذين كان شعارهم السواد والأغالبة (انظر الشماخي ، 229 : إبراهيم ابن الأغلب أمير المُسوِّدة) وكذلك الفاطميين رغم أن شعارهم كان البياض . ويمكن أن يكون الأمر متعلقاً بتورية مستمدّة من هاتين الآيتين ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (سورة آل عمران ، الآية 106) ، ﴿ وَيَوْمَ القِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ (سورة الزمر ، الآية 60) .

13) حسب تعليق لحسن حسني عبد الوهّاب على مخطوط أبي العرب .

14) الشماخي ، 534-535 .

15) نفس المصدر ، 346-348 . أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 288-295 .

عليه لإلقاء الأسئلة عليه واستفتائه . وقد أشار إليه أحد المصادر وهو يناقش صفات الله مع ورّاق[16] . والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ الوهبيّين متّفقون مع المعتزلة حول بعض المسائل العقائدية الهامّة مثل حريّة الاختيار وخلق القرآن[17] .

وكان المعزّ لدين الله يستحسن أبا القاسم يزيد بن مخلد وصاحبيْه أبا خزر وأبا نوح . فكان يستقبلهم مع كثير من العلماء الإباضيين المقيمين بالقيروان ، وكان يكرمهم ويشرف على مناظراتهم عن طيب خاطر[18] . من ذلك أن بعض المصادر قد تحدّثت عن أبي نوح وهو يناقش بعض النكّارة ، بمحضر الخليفة . أضف إلى ذلك أن كثيراً من الخوارج كانوا يخفون عقائدهم ، بل كانوا يتصادقون مع رجال السلطة ، ويبدو أن هذه الدعوة السريّة كانت نشيطة في السّاحل[19] .

وكان ينقص أبا القاسم يزيد بن مخلد الحذر ، ولربّما فكّر في تدبير ثورة لدى مزاتة ، إلى أن أمر الخليفة عامله بالحامّة بقتله[20] . ويقال إن أبا خزر وأبا نوح قد ثارا للأخذ بثأره[21] . وبعد استسلام أبي خزر سنة 359 هـ / 969-970 م ، تمّ الصلح بالتراضي بين الفاطميّين والخوارج في المناطق الجنوبية من إفريقية ، وتواصل احترام الصلح بعد رحيل المعزّ لدين الله إلى القاهرة . وقد اصطحب أبا هزار ، وكان يودّ اصطحاب أبي نوح أيضاً ، ولكنّ هذا الأخير تمارض والتجأ إلى وارجلان ثم عاد إلى إفريقية فيما بعد[22] .

وكان أبو نوح[23] ينتقل ذهاباً وإياباً بين قسطيلية وإفريقية بحصر المعنى . وقد أشارت بعض

---

16) الشماخي ، 348 : اسم هذا الورّاق ، إبراهيم المُشَبّه ، أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 291 .

17) الشماخي ، 486 : يرى الوهبية بالإجماع أن سخط الله ورضاه فِعْلان وأن القرآن مخلوق . وبالنسبة إلى العلماء الإباضيين في العصر الصنهاجي كثيراً ما تشير المصادر إلى تضلعهم في الكلام . والجدير بالتذكير أنّ المعتزلي أبا حفص سليمان بن حفص الفرّاء (ت . 269 هـ/882-883 م) بعدما ابتعد شيئاً ما عن المذهب الإباضي ، رجع إليه فيما بعد ، حسبما يقال . البيان ، 111/1 والشماخي ، 262 .

18) الشماخي ، 339 ، 346-348 ، 353-354 ، 358 ، 361-362 . كان الإباضيون يعتبرون المجادل القيرواني الشهير أبا عثمان سعيد بن محمد بن الحدّاد (ت . 302 هـ/914 م) واحداً منهم . وقد نقض آراء عبد الله بن يزيد ، الشماخي ، 260-261 ، ولذلك كان يسمي « المدوّنة »المدوّدة ، معالم الإيمان ، 202/2 .

19) الشماخي ، 390-392 ، 417-418 .

20) نفس المصدر ، 348-349 .

21) انظر الفصل الثالث من الباب الأول .

22) الشماخي ، 349-350 . 353-355 ، 357-358 .

23) نفس المصدر ، 337-345 ، 353-354 ، 357-362 ، أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 295-310 .

المصادر إلى اجتماعه بعدد من أبناء مستاوة ، وانتمائه إلى حاشية ويجنين مقدّم درجين ، واستقدم المنصور بن بلكين الذي ساعد الخوارج[24] أبا نوح إلى بلاطه وأغدق عليه النعم . وفي ختام المناظرة بين أبي نوح وبين المدعوّ ابن حمّو الذي اتهمه بالاعتزال ، أرجع المنصور أبا نوح إلى بلاده محمّلاً بالهدايا .

وكانت تلك المناظرات العقائدية تتحوّل أحياناً إلى مشاجرات دامية[25] . وقد سجن عامل توزر أبا نوح ، على أمل ابتزاز بعض الأموال من الخوارج . فمرّت من هناك قافلة متوجّهة من أريغ إلى تمتار . فاقترح أبو نوح على الوهبي الوحيد التابع للقافلة وهو المدعو يوسف بن توجينت أن يشتري منه جمَال الركب . فاستجاب الوهبي لطلبه ، ولكنّ الصنهاجيين استولوا عليها . وأُطلِق سراح أبي نوح بفضل تدخّل يوسف ، فتحوّل إلى سوف ثم أريغ ثم وارجلان . وأوضح المصدر الذي روى هذا الخبر أنه عاد إلى وارجلان بعد وفاة أبي صالح[26] . وقد أقام أبو صالح أبو بكر بن قاسم اليراسني[27] في أوّل الأمر في بادية إزران . وكان يعاقب الأشرار بكلّ قسوة ويضعهم في الأغلال ولكنه كان لا يمسّ اللّصوص الصنهاجيّين بأيّ سوء . ولمّا اندلعت اضطرابات خطيرة ، تحوّل إلى جربة ، ثمّ غادرها لمّا اجتاح النكّارة جبل دمّر وتوغّل في الجبال . ويُروَى أن أهل دمر عرضوا عليه قضية قتل ، فحكم فيها بفرض الديّة ، الأمر الذي أرضى رئيسهم زيري بن كملين ، لأن العرف الجاري يقضي بأن يتقاضى المقدم ثلث الديّة . فاستنكر أبو صالح هذه العادة المنافية للشريعة .

وحضر أبو زكرياء فصيل بن أبي ميسر اليهراسني[28] نهب جزيرة جربة من طرف ابن ويمي (؟) ، قائد السلطان الظالم ، التابع لإباضية مزاتة بالقيروان . وكان ذلك القائد قد كاتب أبا زكرياء ، مقترحاً عليه الاحتماء بالجامع الأعظم ، هو وأبناء عشيرته ، ليسلموا من النهب . وبفضل بركة أبي زكرياء اكتفى ابن ويمي بطلب دينارَيْن من بني يهراسن ، أبناء قبيلة الشيخ .

أما أبو باديس أبخت بن باديس اليكشني[29] ، فهو شيخ إباضي زناتي ، كان يتعاطى تربية

24) لقد صرّح المصنور بما يلي : « إنّ سيفي للوهبيّة ورمحي » ، الشمّاخي ، 358 .
25) نفس المصدر ، 359-360 .
26) نفس المصدر ، 361-362 .
27) نفس المصدر ، 367-371 .
28) نفس المصدر ، 371 .
29) نفس المصدر ، 382-384 .

الخيول في فحص بونة (كذا) ، ولا شكّ أن الأمر يتعلّق بنوبة (سيدي داود في الوقت الحاضر) الواقعة في الوطن القبلي . وقد أهدى حفيده إلى المعزّ بن باديس مُهْرَيْن كان قد ربّاهما وروّضهما . فقبل الأمير الهديّة بابتهاج وجازاه . ولكنّ وزراءه استنكروا موقفه إزاء هذا الخارجي ، قائلين له : اقتله لكي لا يثور عليك ، فهو إباضي يجوز قتله ، لا سيما وقد شاهدت أهمية هديّته التي لا تمثّل مدى ما تركه من قوّة وراءه . ثم أعادوا إلى ذهنه العداوة الدفينة بين زناتة وصنهاجة وتمكّنوا من إقناعه وتغيير فكرتـه . فسألهم ما العمل لقتل شخص كان قد تلقّى هديّته بمرأى ومسمـع من الجميع ؟ فأشاروا عليه بأن يأمره بمصارعة « أسد السخط »[30] المعروف بضراوته ، إذ لا شكّ أن الأسد سيتغلّب عليه بسهولة . ومن الغد استقدم المعزّ الإباضي الذي استشعر ما كان يتهدّده من خطر ، فأسرع إلى طلب العفو . فقال له الأمير : ستصارع أسد السخط[31] . إذ أنكم معشر الزناتيين بارعون في الفروسية . فأُدخِل المسكين إلى « خان السباع » وامتطى صهوة أحد المُهرَيْـن ، وأُطلِق الأسد الضاري ضدّه ، واحتلّ الحاضرون مقاعدهم في « المعالي » (المدارج) للاستمتاع بالمشهد . فتمكّن الزناتي ببراعة فائقة من تطويع الأسد وتهدئته ، ثم اقترب منه رويداً رويداً ، لحثّه على الهجوم ، فتقدم الحيوان المفترس برشاقة نحو حوافر الفرس الذي انقضّ عليه في الحين وهشّم رأسه ، فسقط على الأرض . ورجع الإباضي إلى أهله ، بعدما سلّم إليه الأمير ألف دينار للفرس الذي مكّنه من القيام بذلك العمل الباهر ، وخمسمائة دينار للفرس الآخر ، وتحقّق بذلك ما كان تنبّأ له به جدّه .

وقد أدان الشيوخ الإباضيّون مَنْ يزورون الجبابرة . من ذلك أنهم أبعدوا في نفس تلك الفترة تقريباً عبد الله بن جابر الذي اتّهموه بزيارة أمراء قابس . ولكنّ الأمور كانت تجري على غير هذا النحو ، وذلك بسبب احتياط الإباضيين وحرصهم على إخفاء دعوتهم ، كما تدلّ على ذلك النادرة التالية[32] .

فقـد فـارق أبـو عبـد الله محمـد بن بكـر[33] (ت . 440 هـ / 1048-1049 م) شيخـه أبا زكرياء[34] ليدرس النحو بالقيروان التي كان يوجد في ضواحيها عدد كبير من « أهل الدعوة »

30) يبدو أن الأمر يتعلق باسم حيوان متوحّش .

31) في النصّ « مُهْر الخطّ » وهو تحريف محتمل لعبارة « أسد السخط » .

32) الشماخي ، 390-391 .

33) نفس المصدر ، 384-392 - أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 310-323 ، وهو ابن أبي صالح أبي بكر بن قاسم البراسني .

34) وهو بلا شكّ أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور اليهراسني .

(أي الإباضيين) . فأخذ الكلام عن أبي نوح سعيد بن زنغيل الذي تجاوزت شهرته شهرة أسلافه الذين كانوا علماء أباً عن جدّ منذ عهد جدّه الأكبر . وكان تلاميذه الكثيرون يشكلون شبه جماعة تسمّى الحلقة التي ضبط هو نفسه نظامها[35] . وقد روى أبو عبد الله محمد بن بكر أنه ذهب ذات يوم مع عدد من الطلبة لزيارة أهل الدعوة الذين آوَوْه ، وكان يوجد من بين زملائه في الدراسة شخص يرتدي في الظاهر زيّاً ساحليّاً[36] ، فابتعد عنه من أجل ذلك . ولكنّ ذلك الشخص قد أدخلهم إلى بيت ومعهم « أعوان الجبابرة » الذين أصبحوا ندماء لهم . ولم يهدأ غضب أبو عبد الله محمد بن بكر إلّا عندما أدخلهم مرافقهم إلى بيت آخر وقدّم إليهم طعاماً جديراً بطعام الإباضيين الحقيقيّين ، ثم أعلمهم أن سلوكه السابق لم يكن سوى وسيلة لإخفاء مذهبهم وعدم إثارة الشكوك حولهم . ثم أمّ المصلّين وألقى درساً في التفسير . وعندئذ شعر أبو عبد الله محمد بن بكر بالغبطة والسّرور لعدم تسرّعه في استنكار موقف ذلك الشخص ، حيث لم يكن سوى حيلة بارعة .

ولما قرّر الذهاب إلى أريغ في سنة 409 هـ / 1018-1019 م ، طلب إلى أبي القاسم يونس بن وزجين الوليلي أن يحفر له غاراً[37] .

وعاش ابن عالمنا الإباضي ، أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن بكر (ت . 504 هـ / 1110-1111 م)[38] في بلدة تمسولت ، وذاع فيها صيته وألف اثنين وعشرين كتاباً[39]

---

35) Lewicki ، المرجع المذكور ، الهامش 165 .

36) وكان يرتدي « كساءً حشمياً » وينتعل « قرقاً قلعيّاً » (وفي رواية أخرى نقلها ح . ح . عبد الوهّاب عن مخطوط أبي العرب : شهاشق قلعية) ، وعلى رأسه شاشية حمراء وفي يده مزراق .

37) الشماخي ، 469-470 .

38) نفس المصدر ، 423-425 ، 431-432 ، شاخت ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 390 عدد 78 .

39) وهذه الكتب هي :

1) **أصول الأرَضين** في 6 أجزاء (حول القانون العقاري ؟) .
2) **السيرة في الذمّة** .
3) **الجامع** ، واسمه أبو مسألة في جزءين ، وهو كتاب يبحث في الفروع ، ألفه بطلب من أبي عبد الله محمد بن سليمان النفوسي .
4) **كتاب القسمة** (حول الفرائض) .
5) **تبيان أفعال العُبّاد** في 3 أجزاء .
6) **كتاب الألواح** .
7) وألف في آخر حياته كتاباً في 25 جزء وترك كتاباً آخر في أجلو في شكل مسودّة ، ولعلّه كتاب الألواح السالف الذكر .

وترك كتاباً آخر في أجلو في شكل مسودّة . ويمكن أن نستنتج من ذلك أنه أنهى بقية حياته في البلدة الأخيرة . كما تدلّ هذه الرواية على أهمّيّة الثقافة الإباضية في العصر الصنهاجي . وقد أخبر أبا العباس شيخُه سعدون أن هناك رأيَيْن حول مسألة فقهيّة[40] ، من غير أن يذكر له اسم صاحبَيْهما ، فتحوّل أبو العباس إلى الديوان ، أي مكتبة جبل نفوسة ، وأخذ في مطالعة الكتب صباح مساء مدة أربعة أشهر ، وطالع بالخصوص نحو 33000 جزء من الأجزاء التي ألفها الإباضيّون بالمشرق .

وفي سنة 471 هـ / 1078-1079 م ، اندلعت المعركة الأولى بين الوهبيّة في اريغ (الواد أو وادريغ)[41] . فقد هجم على أريغ عنان بن دليم الطرفي قبل سنة 502 هـ / 1108-1109 م ، وهو بلا شكّ نكاري ، ولكنّ المغراويين تمكّنوا من صدّ الهجوم[42] ، ونجح أبو العباس في صدّ محاولة ثانية قام بها عنان ، وقد كان معظم جنوده ، أي حوالي ألف رجل ، تابعين لبني ورتيزلن . وكان عنان قد قتل زهاء الستّين رجلاً من بني يطّوفت واحتفظ برؤوسهم ، ولكنه تخلّص منها ودفنها بعدما تقهقر . ثم حشد من جديد عدداً كبيراً من الجنود ضدّ أبي العبّاس وتمكّن من الهجوم عليه بغتةً . ويبدو أنّ أبا العبّاس الذي نبّهه أحد الجواسيس إلى ذلك في الوقت المناسب قد لاذ بالفرار ، ولكنه لم يستطع تجنّب هدم قصره . فحشد رجالاً من بني ورتيزلن ومن رأس الوادي ، وحذّره المدعوّ فلفل بن فلنار (؟) من عنان ونصحه بعدم قبول الاجتماع به . وبالفعل فقد طلب عنان مقابلة أبي العبّاس الذي أُجْبِر على عدم تلبية دعوته ، بل إن الشيخ أبا عبد الله (؟) قد أمر بقتله إن رفض الامتثال . فأتلف عنان الواحة في سنة 502 هـ / 1108-1109 م ، ولكن عندما انسحب جنوده هزمهم 313 رجلاً من بني ورتيزلن وغيرهم شرّ هزيمة .

وقبل وفاته بمدّة قليلة اجتمع العزّابة ليحرّروا بالتعاون فيما بينهم تلخيصاً مخصّصاً للمبتدئين يحمل عنوان **ديوان العزّابة**[43] .

= انظر ، شاخت ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 382-387-390 عدد 20-21 ، 40-51 ؛ 77 . وقد راجع كتبه الاثنين والعشرين ما عدا الكتاب الأخير .

40) وهي « مسألة ذبيحة القلق » .

41) الشماخي ، 424-425 : أضاف المؤلف هذه المعلومات التي لم نستطع توضيحها : إثر هذه الاضطرابات فرّ أبو يعقوب بن عبد الله من أريغ إلى وارجلان وفرّ أبو صالح من واغلانت وتوفي أبو يعقوب هناك في تموانت .

42) في النصّ مغرارة [عوض مغراوة] .

43) يشتمل الكتاب على 52 جزء ، وقد حرّر أبو الطاهر إسماعيل بن بيّدير كتاب الصلاة ، وهو أحسن وأفيد باب ، وحرّر أبو =

وحظي بنفس الشهرة عبد الغني الوسلاتي المزاتي وابنه المنصور[44] المعاصران لأبي عبد الله محمد بن بكر وابنه أبي العبّاس .

ويبدو أن أبا محمد عبد الله بن مانوج الهوّاري اللّمّاعي[45] ، قد عاش في أوّل الأمر في جزيرة جربة ، وكان من بني الفقهاء السبعة في غار الجماج (أو أمجماج) .

وكان أبو الخطّاب عبد السلام بن منصور (أو منظور) بن وزجونة المزاتي[46] تلميذ أبي نوح سعيد بن زنغيل ، من بين الذين نظموا حلقة مماثلة للحلقة التي تكوّنت حول أبي عبد الله محمد بن بكر في أريغ ، ثم عاد إلى أهله . وقد صاحب المزاتيين في هجرتهم إلى طرابلس ، ولما غادروها[47] ، استقرّ في نفوسة ثم زار البقاع المقدس لأداء مناسك الحجّ وعند عودته استقر في درجين . وإثر المجاعة الكبرى التي ظهرت في سنة 430 هـ / 1038-1039 م ، تفرّق الطرابلسيّون ، فحاصر جيش صنهاجي درجين ونهبها وقتل جميع المدافعين عنها . ولعلّ الأمر يتعلق بالجملة التي قام بها نزار بن المعزّ ضد زناتة[48] . وبعد نهب تلك البلدة ، ذهب به بنو ورتيزلن إلى أجلو وأعطوه أراضي كثيرة . ويبدو أنّه اتّجه بعد ذلك إلى إفريقية ثم أريغ ، وقد وجد بها أبا عبد الله محمد بن بكر الذي توفي بعد ذلك بقليل (440 هـ / 1048-1049 م) .

وكان أبو عمران موسى بن زكرياء[49] أحد كبار العلماء الإباضيين في عصره . وهو ناسخ **ديوان العزّابة** الشهير الذي حرّره الفقهاء السبعة في غار الجماج (أو أمجماج)[50] .

= العباس (بن أبي عبد الله) بن بكر كتاب الحيض ويخلفتن بن أيوب النفوسي كتاب النكاح ومحمد بن صالح النفوسي المسناني كتاب الوصايا . وتوفي داود بن أبي يوسف قبل إتمام الكتابين اللذين عُهدا بهما إليه ، أما المساهمون الآخرون في هذا التأليف فهم : يوسف بن سوسى القنطراري ويوسف بن عمران بن أبي عمران وموسى بن زكرياء المزاتي التجديتي ، ومن أجير : عبد السلام بن سلام ، وجابر بن حمّو وإبراهيم بن أبي إبراهيم . وتولى مراجعه الكتاب أبو العباس بن أبي عبد الله بن بكر وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي وماكسن . وحول هذا الكتاب المسمّى ديوان الأشياخ ، انظر ، شاخت المرجع المذكور ، 382 . عدد 18 .

44) الشماخي ، 392-393 ، يبدو أن جعفر الوسلاتي وابنه أبا زكرياء يحيى كانا يعيشان في نفس العصر .

45) نفس المصدر ، 396-398 .

46) نفس المصدر ، 398-401 .

47) على الأرجح في سنة 430 هـ/1038-1039 م وهي السنة التي ظهرت فيها مجاعة كبيرة أجبرت الطرابلسيين على التفرّق .

48) انظر الفصل الخامس من الباب الثالث .

49) الشماخي ، 401-402 ، أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 312 .

50) لم نستطع تحديد موقع هذا الغار الذي ينبغي علاوة على ذلك ضبط اسمه الصحيح . وقد أطلق عليه الشماخي (404) من =

وسنسلّط فيما يلي بعض الأضواء على العلاقات بين الشيعة والإباضيين . فقد سئل أحد العلماء الإباضيين عن الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ[51] ، ومفاده أنّ صنفين من النّاس سيضلاّن طريق السلامة من أجل علي (بن أبي طالب) ، أحدهما لغلوه في حبّه ، والآخر لغلوّه في كرهه . فأجاب العالم أنّ الشيعة قد اتخذوا بالفعل تجاه عليّ موقفاً مماثلاً لموقف النصارى إزاء المسيح عليه السّلام ، إذ ذهب بعضهم إلى حدّ تأليهه ، في حين يرى الخوارج الصفريّة أنّ مرتكب الكبائر مُشْرِك ، وعلى هذا الأساس اعتبروا عليّاً من هذا الصنف لارتكابه الكبائر .

واشتكت أمّ أبي محمد ماكسن بن الخير[52] لأمّ المعزّ بن باديس من عمى ابنها ، وبإشارة من هذه الأميرة التي لاحظت في الطفل أمارات الذكاء ، أُدخِل إلى الكتّاب وحفظ القرآن بسرعة مذهلة ، ثم أصبح في جربة فيما بعد ألمع تلميذ من تلاميذ أبي محمد ويسلان . وحسب ماكسن ، أجاب أحد الفقهاء على هذا السؤال : « هل تجوز المُوَارثة بين الشيعة وبيننا » ، بقوله : كلاّ ، إن كانوا ينكرون « التعطيل » ، وأجل ، إن كانوا يقولون « بالتفضيل » (أي تفضيل علي) » . ويمكن أن يكون ذلك الفقيه هو أبو إسحاق التونسي .

وإثر الاضطرابات الدامية التي اندلعت بين بني ستيتن وغلاته ويا نجاسن ، أراد من نجَوْا منهم من الموت اعتناق مذهب « الحشويّة » (= المالكية) ، ولكنّ ماكسن الذي أقام بينهم ثلاث سنين قد استطاع تفادي الخطر . وبعد ذهابه أراد « أهل الخلاف » (أي المالكية بلا شكّ) بناء

= جديد اسم غار الجماج ، وورد اسم أمجماج في مخطوط أبي العرب الذي اطلع عليه ح . ح . عبد الوهّاب . والمشائخ السبعة الذين ذُكِر اسمهم هم :

1) أبو عمران موسى بن زكرياء (المزاتي) .
2) أبو عمر الذميلي .
3) أبو محمد عبد الله بن مانوج .
4) أبو زكرياء يحيى بن جرناز النفوسي .
5) جابر بن سدرمام .
6) كبّاب بن مصلح .
7) أبو مجبّر توزين . وحسب أبي العرب (المخطوط المذكور أعلاه) ينتمي المشائخ رقم 1 و5 و6 و7 إلى مزاتة ، أي أنهم إفريقيون ، والشيخان رقم 2 و3 من جربة ، وورد في هذا المخطوط اسم جرنان عوض جرناز . ويشتمل الكتاب على 12 قسماً . انظر ، موتلنسكي ، بيبلوغرافيا مزاب ، 24-25 .

51) واسمه أبو زكرياء يحيى بن وجمين الهوّاري ، الشماخي ، 405 .
52) نفس المصدر ، 414-416 .

مسجد . فسمح لهم بذلك بعض ضعاف العقول ، ولكنّ أبا يوسف بن زيري منعهم من تحقيق ذلك المشروع[53] .

وقد علّم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي[54] تلميذ أبي عبد الله محمد بن بكر ، قراءة القرآن لعدد كبير من التلاميذ[55] . كما ألّف كتاب **المُتحِف في الأصول** وكتاب **السِّيَر** ، وذاع صيته في البلاد . ويبدو أنه عاش في جربة ، إذ قيل لنا إن مقدّم طُرّة قد لقي حتفه من أجل دعاته ودعاء شيوخ الجزيرة ، وهذا المقدم هو المدعو أبو علي الذي أساء معاملة العزّابة .

وكان محمد بن أبي خالد[56] عالماً إباضياً جليلاً يسكن الساحل الإفريقي ، وقد ألف عدداً كبيراً من الكتب .

أما أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني (عاش في النّصف الثاني من القرن الخامس هجري / الحادي عشر ميلادي) ، فهو مؤلف كتاب **السيرة في أخبار الأئمة**[57] .

وفي سنة 450 هـ / 1058-1059 م قدم إلى أريغ أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتي[58] ، وكان يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة . فارتبط بماكسن ، ثم ذهب إلى قلعة بني حمّاد . وهناك فقرة غامضة من سوء الحظّ ، تشير إلى أنّ الوهبيّة بوارجلان قد تعرّضوا لهجوم جيش[59] السلطان بتواطؤ من الأشاعرة الموجودين في تلك البلدة . ولما علم هؤلاء بالمذبحة التي كانت بصدد الإعداد ابتعدوا عن وارجلان ، ربما للالتحاق بالجنود الإفريقيّين والانضمام إليهم . وقد تنبّه أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتي إلى ذلك في الوقت المناسب ، فلاذ بالفرار . وقد كان موجوداً في وغلانت لما قام أبو زغيل الخزري الذي ربّما كان نكارياً ، بحصار تلك البلدة بلا نجاح .

53) شخص غير معروف ، حسبما يبدو .

54) الشماخي ، 409-412 ، T. Lewicki ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1934 م ، ص 73 وما بعدها ، شاخت ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 397 عدد 139 .

55) يقول الشماخي (440) إن تلاميذه يضمّون أشخاصاً من سوف وأريغ ووارجلان والزاب وقسطيلية .

56) الشماخي ، 417-418 : يشير المؤلف إلى أنه عثر على اثني عشر كتاباً من تأليف هذا الشيخ ، فرفضها لأنه ظن أن المعني بالأمر مستاوي أي نكّاري ، ثم علم أنه من أهل الدعوة ، وقد نقض آراء معارضي وناكري إمامة عبد الوهّاب .

57) يتعلق الأمر بأخبار أبي زكرياء ، شاخت ، المرجع المذكور ، 395 عدد 140 ، و T. Lewicki ، دراسات إباضية ، 11/1-12 ، ودائرة المعارف الإسلامية (ط . 2) 171/1-172 .

58) الشماخي ، 437-440 .

59) نفس المصدر ، 438-439 ، وفي ترجمة يعقوب ابن أبي القاسم يونس بن وزجين الوليلي (469-470) أشار المؤلف إلى الاضطرابات التي اندلعت في وارجلان بين الموهبية والمالكية ، حسبما يبدو .

وكان أبو محمد عبد الله بن محمد اللنتي[60] ، موجوداً في تين ، حيث زاره تلاميذ أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي . وإثر المعركة التي اندلعت في صفوف بني تكسنيت بين المالكية وبين بني يروتن الوهبيّة ، لاذ العزّابة بالفرار وتفرّقوا .

وكان الإمام أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي المزغني[61] المتضلّع في علم الكلام بوجه خاص ، قد مرّ من الحامة[62] ، حيث ما فتىء المذهب الإباضي يتقهقر منذ عصر أبي القاسم يزيد بن مخلد وأبي خزر يعلى بن زلتاف[63] . فحاول بثّ المذهب الإباضي من جديد في تلك المدينة ولكنه أبعِد منها من طرف المالكية . بل إنّ الإباضيّين الأخيرين الذين ما زالوا موجودين هناك قد أجبِروا على التخلّي عن عقيدتهم ، وإنّ المالكية قد غسلوا المسجد الكبير لتطهيره ، فلعنهم أبو عمرو عثمان بن خليفة . ولذلك قتل الميورقي المعروف باسم علي بن غانية فيها بعد سبعة أو تسعة مائة نفر منهم[64] . وكثيراً ما استشهد الشمّاخي بمصنّفه كتاب السؤالات[65] .

وفي آخر العصر الصنهاجي كان كثير من الإباضيين ولا سيما أهل نفطة يذهبون إلى مدينة تونس لطلب العلم ، نذكر من بينهم أبا عمار عبد الكافي بن يعقوب التناوتي[66] الذي درس أثناء إقامته في تلك المدينة الأدب والنحو الخ . . . وكان يعمل ليلاً نهاراً ، ويتلقى كل سنة من بلده وارجلان ألف دينار ، يعطي نصفها لشيخه . ثم عاد إلى وطنه وأصبح عالماً مشهوراً متضلعاً في علم الكلام ، وألف عدة كتب[67] .

---

60) نفس المصدر ، 440 .

61) نفس المصدر ، 440-441 ، 519 : وهو أصيل سوف ويبدو أنه كان ينتمي إلى بطن من بطون لواته كان يقيم في ذلك البلد ، T. Lewicki ، المرجع المذكور ، 13/1 .

62) انظر حول استعمال الأوقاف لفائدة المساجد الإباضية بالحامة (؟) فتوى الغبريني (العصر الحفصي) ، المعيار ، 145-144/7 .

63) انظر الفقرة السابقة : العلماء الإباضيون في الفترة السابقة للعصر الصنهاجي .

64) حوالي سنة 583-585 هـ/1187-1189 ، A. Bel ، بنو غانية ، 77 وما بعدها .

65) T. Lewicki ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1934 م ، 74 ، شاخت ، المرجع السابق ، 383 عدد 25 . هذا الكتاب الذي يتضمّن مجموعة من الأسئلة التي ألقيت عليه ، قد أملاه أبو يعقوب يوسف بن محمد التناوتي وحرّره أبو موسى عيسى النفوسي وراجعه أبو صالح بن إبراهيم بن يوسف المزاتي ، الشماخي ، 524-598 ، Lewicki دراسات إباضية ، 13/1 .

66) الشماخي ، 411 ، 529 : ينتمي إلى قبيلة التناوتة المستقرّة في نفزاوة ، وكان بطن من هذه القبيلة يقيم في وارجلان ، موتلنسكي ، ببلوغرافيا مزاب ، الجزائر ، 1885 م ، 71 ، Lewicki ، المرجع السابق .

67) من بين الكتب التي أشار إليها الشماخي ، 441 ، نذكر : المُوجز في الردّ على كلّ من خالف الحقّ ، شرح الجهالة ، كتاب =

ويقال إن أبا نوح صالح بن إبراهيم بن يوسف المزاتي كان معاصراً لأبي عمار عبد الكافي السالف الذكر ، ولكنه كان أصغر منه سناً ، بدليل أنه استشهد به في كتابه التاريخي(68) .

وينتمي أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني إلى نفس جيل أبي عمار عبد الكافي ، وهو زناتي تابع لقبيلة بني وسيان (أو واسين) الذين كانوا يسيطرون على قسطيلية . وقد اعتمد الشماخي كثيراً على كتابه المخصص للتراجم الإباضية وأشاد به . وكان حيّاً في أوائل القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي(69) .

ويبدو أنّ المؤلف المجهول لكتاب سِيَر المشائخ ، تلميذ الشيخين أبي الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني وأبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي ، كان أصيل الجنوب التونسي مثل شيخَيْه ، وعاش في القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي(70) .

أما أبو سهل ، فهو من بين المصادر المعتمدة في كتاب سير المشائخ ، ويبدو أن الأمر يتعلق بأبي سهل يحيى (أو إبراهيم) بن سليمان بن ويجمن الذي كان يعيش في وارجلان في أواخر القرن الخامس هجري / الحادي عشر ميلادي . كان تابعاً لقبيلة مزاتة(71) . وكان ابنه أبو داود معاصراً لأبي محمد اللّواتي (ت . 538 هـ / 1143-1144 م)(72) .

ويمكن أن نختم هذا الاستعراض لمشاهير العلماء الإباضيّين بإفريقية في العصر الصنهاجي ، بالإشارة أيضاً إلى أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السوارجلاني(73) (ت . 570 هـ / 1174-1175 م) ، وهو عالم ذو معرفة واسعة ومتنوّعة وصاحب مؤلفات عديدة .

ومن بين شيوخ جبل نفوسة(74) ، يبدو بالنسبة إلى العصر الصنهاجي ، أن العلماء الجديرين

= الاستطاعة ، وهو أيضاً مؤلّف كتاب السِّيَر ، انظر ، شاخت ، المرجع السابق ، 395 عدد 141 . وحول تلميذه أبي يعقوب يوسف بن محمّد التناوتي الذي أملى كتاب السؤالات ، انظر ، الشماخي ، 498-499 ، 524 ، 598 ، وكان خاله يوسف بن إبراهيم قاضي ومفتي وارجلان هو الذي يوجّه إليه كلّ سنة المبلغ المذكور ، الشماخي ، 498-499 .

68) الشماخي ، 469-598 ، Lewicki ، المرجع المذكور ، 13/1 .

69) الشماخي ، 454 ، موتيلنسكي ، المرجع المذكور ، 43 ، Lewicki المرجع المذكور ، 12/1-13 .

70) آخر تاريخ مذكور في هذا الكتاب 557 هـ/1161-62 م ، Lewicki ، المرجع السابق ، 12/1 .

71) الشماخي ، 507 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 12/1-14 .

72) الشماخي ، 437-440 ، 503 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 14/1 .

73) الشماخي ، 443-447 ، شاخت ، المرجع المذكور ، 397 الهامش 36 . ثم أورد الشماخي (445-447) ترجمة أبي يعقوب يوسف بن خلفون المزاتي ، موتلنسكي ، المرجع المذكور ، 27-28 .

74) Lewicki ، المرجع المذكور .

بالذكر هم : أبو عبد الله محمد بن حنّون الشروسي الذي كان يتبادل الرسائل مع « ملوك إفريقيّة » أي مع بني زيري الذين كانوا يرغبون في حمل أهل نفوسة على اعتناق المذهب المالكي(75) ، وأبو محمد ورسفلاس بن مهدي(76) ، وأبو زكرياء يحيى بن الخير الجناوني(77) .

ومجمل القول إن « شدّة الخلافات الداخليّة » قد أنهكت المذهب الإباضي الإفريقي الذي قوّض أركانه « تنوّع المدّ السنّي وقوّته المعنوية والمادية على حدّ السواء »(78) . ولم يستطع تفادي التقهقر الذي بدأ قبل غزوة بني هلال وتواصل بعدها . ولكنه تمكّن من المحافظة على مواقعه مدّة أطول في جبال دمّر ونفوسة ، وكذلك في منطقة جفارة وجزيرة جربة وبني مزاب(79) .

---

75) الشماخي ، 323-324 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 42/1-43 .

76) الشماخي ، 327-328 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 45/1 عدد 25 .

77) الشماخي ، 535-536 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 94/1 عدد 92 . دائرة المعارف الإسلامية (ط . 2) ، 171/1 .

78) برنشفيك ، **الدولة الحفصية** ، [الترجمة العربية 362/1] .

79) يصعب تصديق الخبر الذي أكّده الشماخي ، 457-458 حول اعتناق ملك غانة السوداني للمذهب الإباضي في سنة 575 هـ/1179-1180 م بتأثير من علي بن خلف . لأنّ ذلك الخبر منقول عن البكري الذي ألف كتابه في سنة 461 هـ/1068 م ، انظر البكري 178 وبرنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 361/1] .

الفصل الرابع
أهـل الذمّـة

1 ـ النّـصـارى :

لقد أكّد ابن أبي دينار (القرن 18 ميلادي) أنّ عدة قرى في إفريقيّة « كانت عامرة بالكفر إلى ما بعد المائة الرابعة » (القرن الرابع هـ / أوائل القرن 11 م)[1] . وأشارت فتوى لابن أبي زيد إلى وجود النصارى واليهود في الأسواق حيث كانوا يبيعون الأقمشة ، وإلى وجود قرى يمثّلون فيها الأغلبية[2] .

وأشار البكري أيضاً[3] إلى وجود بعض الأفارق المنحدرين من الروم في قابس ومنستير عثمان[3م] . وفي القرن 12 ميلادي ما زال الناس يتكلّمون اللغة اللاتينية في قفصة . كما أشار إعلان ليون الحكيم إلى أسقفية ما زالت قائمة الذات[4] . وكانت قابس تسمّى « مدينة الأفارق »[5] .

وسئل القابسي عن استعمال الحجارة المتأتية من بعض الكنائس المتداعية بقسطيلية في بناء مسجد[6] . وتولّى أحد القضاة بتوزر ، اعتماداً على فتوى اللخمي ، بيع أحباس النصارى وتخصيص مداخيلها للمسلمين الذين كانوا في حاجة إليها[7] .

1) المؤنس ، 36 .
2) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 90/1 ط .
3) البكري ، 17 ، 55-56 .
3 م) منستير عثمان : قرية كبيرة تقع على بعد مرحلة من القيروان في طريق تونس .
4) الإدريسي ، 104-105 ، Courtois ، المجلة التاريخية ، 1945 م ، 110 .
5) الإدريسي ، 121 ، ج . مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 174 : يرى المؤلف أن النصارى قد تم تجميعهم في بلدة ما زالت فيها التقاليد اللاتينية والمسيحية قائمة الذات .
6) فتوى القابسي ، ابن الشباط ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 34/1-35 ، إدريس ، تحية ج . مارسي ، 105/2-106 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1935 م ، 143 .
7) فتوى اللخمي ، ابن الشباط ، المصدر المذكور ، إدريس ، المرجع المذكور انظر أيضاً التجاني ، 115-116 ، المعيار ، =

ويبدو أن الجالية السردانية المستقرّة في فترة غير محدّدة في بلدة سردانية الواقعة قرب القيروان وربّما في عدة قرى من منطقة قسطيلية ونفزاوة ، لم تحافظ على ديانتها[8] . وكذلك الشأن بالنسبة إلى الألف أسرة قبطية التي وجّهها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى تونس لبناء دار صناعة[9] .

وفي ضواحي طرابلس اكتُشِفت مقابر مسيحيّة يرجع عهدها إلى القرنين 11 و12 من الميلاد[10] . وحول تقهقر الكنيسة بإفريقيا[11] نذكّر بأن وجود حوالي 40 مدينة أسقفية في القرن 11 م ، ربّما كان نظرياً أكثر منه واقعياً ، وأنه لم يبق هناك حوالي سنة 444-445 هـ / 1053 م سوى خمسة أساقفة ولم يُوجَد في سنة 468-469 هـ / 1076 م الأساقفة الثلاثة اللاّزمون للرِّسامة .

وفي عهد البابا بينوا السابع (363-373 هـ / 974-983 م) اختارت الجالية المسيحية بقرطاجنة قسّاً اسمه جاك وأوفدته إلى روما لسيامته . وأكّدت رسائل ليون التاسع وجرجير السابع وجود تلك الجالية حتى أواخر القرن 11 م وقد كان قسطنطين الإفريقي أحد أبنائها . ورغم الإشارة في القرن 12 م إلى قرطاجنة في وثائق الكنيسة الرومانية ، فمن المستبعد أن تكون موجودة في تلك المدينة أسقفيّة في مثل تلك الفترة المتأخرة[12] .

ولدينا رسالتان الأولى بتاريخ 17 ديسمبر 1053 م / 3 رمضان 445 هـ موجّهة من ليون التاسع إلى القسّ توماس بقرطاجنة والثانية موجّهة من نفس البابا إلى قسّين إفريقيين بطرس ويوحنّا ، لا نعرف مركزهما . وقد أشارت الرسالتان إلى ادّعاءات قسّ جمّي ، أي المهدية ، الذي كان يريد دعوة المجامع الدينيّة وسيامة الأساقفة . وقد احتجّ البابا بشدّة على هذه الادّعاءات التي ترمي إلى المسّ بتفوّق الكرسي الأسقفي بقرطاجنة . ويبدو أن قسّ جمّي قد أراد أن يحظى مركزه

193-192/2 . وحول آثار المسيحية في الوسط الإباضي قبل العصر الصنهاجي ، انظر ، الشماخي ، 245 ، 256-257 ، T. Lewicki ، دراسات إباضية ، 1/ في عدة مواضع .

8) البكري ، 33 ، الكامل ، الترجمة 370-371 ، العبر 4/419 ، فورنال ، 360/2 .

9) Courtois ، المرجع المذكور ، 115 ، إدريس ، الأعياد المسيحية ، المجلة الإفريقية ، 1954 م ، 272 ، الهامش 39 .

10) Courtois ، المرجع المذكور ، 112-113 ، نقائش عربية ، 295/1 .

11) دي ماس لاتري ، معاهدات الصلح ، المقدمة ، 270/2 ، Seston ، مجموعة الآثار والتاريخ ، 1936 الكراس 1-4 ، 101-124 وبالخصوص Courtois ، المرجع المذكور ، 97-122 ، 193-226 ، ج . مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 172-175 ، برنشفيك ، الدولة الحفصية [الترجمة العربية ، 461/1] ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1954 ، 269-272 .

12) Courtois ، المرجع المذكور ، 111-112 .

بمنصب كبير الأساقفة في منطقة المهدية على غرار قرطاجنّة بالنسبة إلى منطقتها ، ويتمتع بشيء من الاعتبار بالنسبة إلى سائر المراكز الإفريقية . « إذ يبدو أن كبير الأساقفة في منطقة المهدية كان في سنة 1053 م ، أي غداة غزوة بني هلال ، بمثابة راع بلا رعيّة . . . » . ويبدو أن النزاع بين قسّ المهديّة وقسّ قرطاجنة لم يكن مظهراً من مظاهر الصراع بين كنيسة روما وكنيسة الإسكندرية ، « لأنّ الانشقاق المسيحي لم يدخل بعدُ حيّز الواقع ، وأن المأساة كانت تدور وقائعها بين روما والقسطنطينية دون سواهما »[13] .

وفي سنة 468-469 هـ / 1076 م طلب الناصر بن حمّاد إلى جرجير السابع تعيين الأسقف سرفندوس قسّاً في بجاية ، فسارع البابا إلى تلبية طلبه . ووجّه إليه الناصر هدايا وأطلق سراح جميع الأسرى المسيحيّين الموجودين في مملكته[14] . وكان الناصر قد أشهر الحرب على تميم الذي كان يساند المسلمين في صقلية ضدّ النرمان ، في حين كان جرجير السابع يسعى إلى التقرب من هؤلاء . ويبدو أن هذا التغيير في السياسة البابوية لم يكن غريباً عن العلاقات الودية القائمة بين جرجير السابع والناصر[15] .

وقد أظهرت لنا رسالتان صادرتان عن جرجير السابع ، الأولى موجّهة إلى رجال الكنيسة والطائفة المسيحية بقرطاجنة ، والثانية موجّهة إلى سيرياكوس كبير الأساقفة في تلك المدينة ، أن هذا الأخير قد رفض في سنة 465 هـ / 1073 م الاستجابة لرغبة بعض النصارى الذين طلبوا إليه القيام ببعض الرِّسامات التي اعتبرها منافية للتعاليم الدينية . وبما أن الطائفة المسيحية بقرطاجنة قد تحوّلت إلى مدينة تونس التي كانت عهدئذ في أوج تطوّرها ، فمن المحتمل أن يكون سيرياكوس قد رفض أن يتولى بمفرده رسامة قسّ في مدينة تونس . واحتراماً منه لقواعد الدين المسيحي وحرصاً على الدفاع عن تفوّق قرطاجنة ، بل ربّما خوفاً من منافسة القسّ الجديد ، أصرّ على موقفه رغم إلحاح الأمير عبد الحقّ بن خراسان الذي لم يتردّد في سجنه وجلده ، وكما فعل القسّ توماس في سنة 1053 م ، عرض سيرياكوس القضية على روما[16] . فأجابه جرجير السابع في جوان 1076 م / 25 شوال ـ 25 ذو القعدة 468 هـ وبتّ في القضية على النحو التالي : بما أنه لا يُوجَد في إفريقيا

---

13) نفس المرجع 195-203 . لقد أكد ح . ح . عبد الوهّاب التطابق بين جمّي والمهدية ، وأثبتت فسيفساء أوسني هذا التطابق .

14) Courtois ، المرجع المذكور ، 97 وما بعدها ، 207-215 وقد بيّن المؤلف أن Buzea هي بجاية وليست بونة .

15) نفس المرجع ، 219-224 .

16) نفس المرجع ، 216-224 .

الأساقفة الثلاثة اللازمون للرّسامة ، فينبغي أن يختار كبير الأساقفة بقرطاجنّة والأسقف الذي سامه البابا منذ عهد حديث ، إسقفاً يوجّهانه إليه مع المستندات اللازمة ، فيرجعه البابا إليهما بعد رسامته . وعندئذ يستطيع ثلاثتهم رسامة أساقفة آخرين ، حسب حاجة الكنيسة[17] . ومن المفروض أن تكون تعليمات البابا قد طُبّقت ، وأن تكون مدينة تونس قد أصبح لها إسقف معيّن بصورة قانونية .

ويمكن أن يُفسَّر ، ولو بصورة جزئية ، التقارب بين جرجير السابع والنرمان ، بحرص البابا على إرضاء ابن خراسان ، مع السهر على مصالح الكنيسة في تونس . ذلك أن أمير هذا البلد التابع لابن حمّاد ، رغم اضطراره إلى الاعتراف بتبعيّته للأمير تميم حوالي سنة 459-460 هـ / 1066-1067 م ، قد بقي مستقلاً عملياً وموالياً لبني حماد ، بصورة تزيد أو تنقص ، والدليل على ذلك أن تميماً قد اضطرّ فعلاً في سنة 491 هـ / 1097 م إلى إخضاعه من جديد . وكان من واجب جرجير السابع الموالي للنرمان ، وبالتالي المناهض لبني زيري ، أن يراعي في سنة 468 هـ / 1076 م عبد الحق بن خراسان عدوّ تميم المحتمل ، وأن يتقرّب في نفس الوقت من الناصر .

وفي سنة 507-508 هـ / 1114 م ، كانت للنصارى في قلعة بني حمّاد ، كنيسة مكرّسة لمريم العذراء[18] . كما اكتُشِفت بالقيروان قبريّة « القارىء » فيرموس المتوفى سنة 439-440 هـ / 1048 م وقبريّة « السنيور » بطرس المتوفى سنة 437-438 هـ أو 442-443 هـ / 1046 أو 1051 م ، وقد كُتِبَت على كلّ واحدة منها كتابة باللاتينية المحرّفة . ويدلّ هذا الاكتشاف على استمرار الديانة المسيحية في مدينة عقبة بن نافع حتى قُبَيْل غزوة بني هلال[19] .

وقد كانت الجاليات المسيحية المتبقيّة في إفريقية تضمّ على الأرجح بعض الموظفين المدنيّين المُعترَف بهم من قِبَل الأمير والمسؤولين لديه ، لأنّ رجال الكنيسة لا يهتمّون إلاّ بالشعائر الدينية[20] . وكانت معرفة اللغة اللاتينية عهدئذ بدائية بلا ريب .

---

17) نفس المرجع .

18) دي ماس لاتري ، المعاهدات التجارية ، المقدمة ، 67-69 ، De Genival ، أسقفية قلعة بني حمّاد المزعومة ، مجلة هسبيريس ، 1932 م ، 14 ، ج . مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 174 ، Courtois ، المرجع المذكور ، 204-207 .

19) Saumagne ، النشرية الأثرية ، 1928 م ، 370 ، Seston ، المرجع المذكور ، 101-124 ، Courtois ، المرجع المذكور ، 113 ، 115-116-118 .

20) Courtois ، المرجع المذكور ، 117-118 .

وممّا لا شكّ فيه أنّ النّصارى الأهليّين لم يقاسوا من غزوة بني هلال أكثر ممّا قاسى منها سكّان المدن المسلمون . ولكن يبدو أنهم لم يسلموا من أذى الإفريقيّين أثناء ثورة المدن الساحلية ضدّ النّرمان .

وفي عهد غليوم الأوّل التجأ عدد كبير من النصارى إلى المهديّة - زويلة التي عيّن الملك النرماني على رأسها في سنة 551-552 هـ / 1157 م رئيس أساقفة تابعاً لكبير الأساقفة في بلرمو[22] .

ولم يتردّد بعض النصارى المساهمين في الغزوة النرمانية أو القادمين من صقلية ، في الاستقرار بطرابلس وصفاقس والمهديّة ، ممّا يفسّر تعيين أسقف تابع لبلرمو هو أيضاً في طرابلس[23] .

وأخيراً فقد أعلنت الغزوة الموحّدية عن نهاية وجود الجاليات المسيحية بإفريقية ، ولا سيما في مدينة تونس . إلاّ أن بعض النصارى قد مكثوا في قرى نفزاوة حتى القرن 14 م ، وكذلك في توزر حتى القرن 18 م[24] .

وليست لدينا ما يكفي من المعلومات حول حياة النصارى في إفريقية في العصر الصنهاجي . وقد أشارت المصادر عدّة مرّات إلى النصارى الذين سبّوا الرسول[25] أو باعوا الخمر للمسلمين[26] ، وإلى عتق أو افتداء بعض الأسرى المسيحيين . ولم يكن مسموحاً للنصارى بالزيادة في ارتفاع كنائسهم ولا بإعادة بناء الكنائس المبنية بالطوب ، بالحجارة[28] .

وحسب القابسي ، يجب على المعلّمين أن يمتنعوا عن أخذ الهدايا « في أعياد أهل الكفر ، يدخل فيها أيضاً الميلاد والفصح والانبداس عندنا (أي بإفريقية الصنهاجية) والغبطة بالأندلس ، والغطاس بمصر . كلّ هذا من أعياد الكَفَرة ، لا يجب أن يطلب معلّم المسلمين فيه شيئاً ، وإذا أتي

21) نفس المرجع ، 119-120 .
22) ستوريا ، 483/3-484 ، 484-486 .
23) نفس المرجع ، 484/3-485 .
24) البربر ، 231/1 ، 156/3 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، Courtois ، المرجع المذكور ، 110-111 ، 121-122 ، 195 .
25) فتاوى ابن الكاتب والقابسي ، المعيار ، 272/2-273 ، 410 .
26) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 233/2 و .
27) فتاوى التونسي ، المعيار ، 332/2 ، 140/9-141 .
28) فتوى أبي حفص بن العطار ، المعيار ، 207/2 ، فتوى اللخمي ، المعيار ، 170/2-180 .

إليه بشيء في ذلك لا يقبله ، وإن أطاعوا له به . ولا ينبغي للمسلمين أن يتطوّعوا بذلك ولا يتزيّنوا له بشيء من الزيّ ، ولا يتهيّئوا له بشيء من التهيئة ، ولا يفرح الصبيان ، كعمل القِباب في الانبداس ، والقصوفات في الميلاد . كلّ ذلك لا يصلح من عمل المسلمين . . . »[29] .

وبالنسبة إلى كلمة « انبداس » الغامضة افترضنا أن تكون تحريفاً لكلمة « قلنداس » (Calendae) ، أي غرّة الشهر عند الرومان . ولكن هذا التأويل لم يحظ بموافقة الجميع[30] . ويمكن حينئذ التفكير في عيد القربان أو عيد الميلاد ، أو بالأحرى عيد التقدِمة .

وقد سمح أبو الطيّب عبد المؤمن بن محمد الكندي المعروف بابن بنت خلدون للمؤدّبين بقبول الهدايا في عاشوراء والأعياد الإسلامية ، لا في أعياء « العجم » ، وفي هذه الحالة يجب على المؤدب أن يرجع الهدايا إلى أصحابها أو يتصدّق بها ، إن كان لا يعرفهم[31] .

ويبدو أنّ بعض الجاليات المسيحية المحلية ، لا سيما في القيروان والمهدية قد تعزّزت في عهد بني عُبَيْد وبني زيري بعدد كبير من النصارى القادمين من الشرق[32] . ومهما يكن من أمر فإن نصّ القابسي يثبت أن الأعياد المسيحية كانت مصدر فرح بالنسبة للصبيان المسلمين . وكان بودّنا لو نعلم إلى أية فئة اجتماعية يشير ذلك النص ، وهل المقصود بذلك العامّة أم الخاصّة ؟ .

وقد استدعى الفاطميّون والصنهاجيّون الذين كانوا متسامحين إزاء النصارى الأهليّين ، بعض الحرفيّين المسيحيّين القادمين من الخارج . أما النصراني المتضلّع في مذهبه والذي ناظر ابن

---

29) [أبو الحسن علي القابسي ، الرسالة المفصّلة ، تحقيق أحمد خالد ، ص . 154 ، تونس 1986] .

30) إدريس ، الأعياد المسيحية . . . المجلة الإفريقية ، 1954 م ، 261-276 وبالنسبة إلى كلمة « انبداس » يرى Cantineau والسامرّائي وعبد النور أنها تحريف لكلمة « أقداس » أي عبد القربان . وقد كان النصارى في القديم ينصبون مذابح (ج . مذبح) لزيّاح القربان ، مظلّلة بأغصان الأشجار والزهور ، وإلى ذلك تشير كلمة قِباب الوادة في نصّ القابسي .

أمّا Courtois فهو يرى أن الأمر يتعلق بعيد الميلاد ، وكلمة قباب تعني مِذْود المسيح (أي مكان ولادته) .

وبالعكس منذ لك يرى ج . س كولان وبرنشفيك أن كلمة « انبداس » تعني عيد التقدمة (تقدمة المسيح في الهيكل) الذي يصادف يوم 2 فيفري . وعلى هذا الأساس فإن « انبداس » تحريف لكلمة « لمبداس » أي الشموع [وأما محقق الرسالة المفصّلة (المرجع السابق) فقد فسّر تلك الكلمة كما يلي : « تذكاراً لمخيّماتهم في الصحراء بعد خروجهم من مصر] .

31) المعيار ، 8/160-161 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/99 ظ .

32) ح . ح . عبد الوهّاب ، المجلة التونسية ، 1917 م ، 312-313 ، إدريس المرجع المذكور ، 1954 م ، 269 وما بعدها .

33) إدريس ، نفس المرجع ، 269-270 .

التبّان بواسطة مترجم وبمحضر نائب الأمير وعامل القيروان عبد الله بن محمد الكاتب ، فإننا لا نستطيع أن نؤكد أنه كان إفريقيّاً[34] .

وكان الشاعر عبد الوهاب بن محمد الأزدي المعروف بالمثقال « يألف غلاماً نصرانيّاً خمّاراً ، فعلقه فاشتهر به . وأقام ببابه في الحانة ثلاث سنين ويدخل معه الكنيسة في الآحاد والأعياد طول هذه المدّة حتى حذق كثيراً من الإنجيل وشرائع أهله »[35] .

وكان حرم أمراء بني زيري عامراً بالجواري المسيحيات اللاّتي أنجبن لا محالة عدداً من الأبناء . والجدير بالتذكير في هذا الصدد أنّ فاطمة حاضنة باديس الذائعة الصيت قد كانت قهرمانة القصر في بداية عهد المعزّ بن باديس ، وأنّ ابن أخيها الذي بقي على دينه قد قُتِل في المهديّة لأنه افتضّ بكارة إحدى بنات الأشراف ، في عهد باديس الذي قيل عنه إنه فكّر في قتل جميع أهل المهدية للأخذ بثأره .

أمّا تميم بن المعزّ فهو صاحب هذه الأبيات [الكامل] :

ألـيس الله يـعـلـم أنّ قـلـبـي يحـبّـك أيهـا الـوجـه المـلـيـح
وأهـوى لـفـظك الـعـذب المـفـدّى إذا درس الـذي قـال المـسـيـح
أظـاهـر غـيركـم بـالـودّ عـمـداً وودّكـم هـو الـودّ الـصـحـيـح
وفـيـكـم أشـتـهـي عـيـد الـنـصـارى وأصـواتـاً لهـا لحـن فـصـيـح[35]

وقد عهد هذا الأمير بإدارة المالية إلى جرجي الأنطاكي الذي أصبح قائد أسطول الملك النرماني فيما بعد . وسيطر جرجي الأنطاكي وأقاربه على أموال المسلمين إلى أن ارتقى يحيى بن تميم إلى العرش . وقد قال مبعوث تميم إلى الناصر إن مخدومه قد مال كلّ الميل إلى مواليه النصارى وأعطاهم كلّ شيء وترك جانباً صنهاجة وتلكاتة وسائر القبائل .

ومن الجدير بالتذكير أن جيش بني زيري لم يكن يضمّ العبيد الزنوج فحسب ، بل كان يضمّ أيضاً عبيداً مسيحيّين ، قد انتُدِب عدد منهم بلا شكّ من بين الأسرى النصارى الـذين قبض عليهم قراصنة المهدية .

ولما استولى جرجي الأنطاكي على المهدية (543 هـ / 1148 م) اختبأ عدد من المسلمين عند النصارى وفي الكنائس عوض الفرار[36] .

34) نفس المرجع ، 271 .
35) نفس المرجع ، 272-273 .
36) نفس المرجع ، 274-275 [ابن رشيق ، الأنموذج ، 235-236] .

2 ـ اليهـود :

لقـد أشارت المصـادر عدّة مـرات إلى وجود اليهـود في إفريقيـة في فترة مـا قبـل العهـد الصنهاجي(37) . ولا شكّ أنهم كانوا موجودين في معظم المدن الكبرى بشرق الغرب الإسلامي ، حتى بداية الغزوة الهلالية ، لا سيما في القيروان والمهدية وتونس وسوسة وقابس وطرابلس وقلعة بني حماد ، وكذلك لا محالة في الحامة وقفصة وجربة(38) . كما أشارت المصادر أيضاً إلى وجودهم في المناطق الإباضية (جنوب إفريقية وجبـل نفوسـة وشروس وجادو) في العصر الصنهـاجي(39) . وهناك مجموعات يرجع عهدها إلى العصور القديمة من اليهود السّاكنين تحت الخيام والمتـبربرين بصورة تزيد أو تنقص ، وما زالت آثارهم ماثلة للعيان إلى الآن ، لا سيما في منطقة التلّ الأعلى . ورغم سكوت مصادرنا بسبب الغموض الذي يكتنف وجود هؤلاء اليهـود ، فإن ذلك الـوجود لا ريب فيه في العصر الصنهاجي(40) .

ولا غرو أنّ نظام الطائفة اليهودية الإفريقية لم يكن يختلف قطّ عن نظام الطائفة اليهوديّة المصرية المعروفة أكثر بفضل وثائق جنيزة .

وكما هو الشأن بالنسبة إلى مصر والأندلس ، كان رئيس اليهود المقيم في القيروان يسمّى « ناجد » ، وباللغة العربية ، رئيس اليهود . وتشبه صلاحياته التي هي سياسية ودينية في آن واحد صلاحيات بطريرك النصارى في المشرق(41) .

وقد كان معظم رؤساء اليهود بالقاهرة أطبّاء في بلاط الخليفة ، ممّا يسمح لهم باستخدام نفوذهم لصيانة مصالح منظوريهم(42) . ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك في إفريقية . ففي عهد المعزّ بن باديس ، كان طبيبه إبراهيم بن عطاء هو الذي يضطلع بمهمة رئيس اليهود ، ويبدو أن

---

37) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 83 ظ : تقبّل يهودي خبز السوق . نفس المصدر [طبعة بيروت 501/2-502] : يبدو أن موسى اليهودي التابع لحاشية المعزّ لدين الله كان يهودياً .

38) D. Cazès ، 55 ، 71-72 ، 79-81 ، مجلة الدراسات اليهودية 1890 ، 78-87 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 429/1] ، Objèts Kairouanais ، 209/1 .

39) الشماخي ، 339-340 ، برنشفيك ، نفس المرجع ،

40) ح . ح . عبد الوهّاب المجلة التونسية ، 1917 ، 6 ، مانشيكور ، منطقة التل الأعلى ، 301-303 ، برنشفيك ، المرجع المذكور .

41) J. Mann ، Jews ، 123/1-124 ، 144 ، 250-257 .

42) نفس المرجع ، 255/1 .

المدعوّ يعقوب بن عِمران كان يقوم بنفس المهمّة في حدود سنة 426-427 هـ / 1035 م[43] .

وإثر وفاة كافور (357 هـ / 968 م) فرّ إلى إفريقية « تاجره » اليهودي يعقوب بن كلس الذي اعتنق الإسلام حوالي سنة 356 هـ / 965 م على أقصى تقدير ، ودخل في خدمة المعزّ لدين الله الفاطمي سنة 357 هـ / 968 م . وانضمّ إلى اليهود الذين كانوا يدورون في فلك الخليفة . وقد قام بدور بارز في إعداد غزوة مصر ، حيث صاحب مخدومه سنة 362 هـ / 972-973 م . ولم يلبث المعزّ لدين الله أن عهد إليه بإدارة المالية . والجدير بالذكر أن يعقوب بن كلس هو صاحب إصلاح نقدي هامّ ومؤسّس الإدارة الفاطمية . وقد خدم العزيز فيما بعد إلى أن أدركته المنية سنة 380 هـ / 990-991 م[44] . والغالب على الظنّ أن ابن كلس لم يكن المحسوب الوحيد الذي ذهب مع المعزّ إلى القاهرة . أما الإسرائيليّون الإفريقيّون ، فلا نرى لماذا لم يُحِطهم بنو زيري أتباع الفاطميّين ، برعايتهم ، هم أيضاً .

ولا شكّ أن الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للطّائفة اليهودية بالقيروان كانت مواكبة لتألّق مدرستها التلمودية التي سنتناولها بالدرس في الباب الموالي . فقد كان لها مجمعاً يرأسه شخص اسمه « روس كلا » أو « روس » (لا غير)[45] ، ومقبرة[46] وصندوق خيري وعدّة مؤسسات أخرى . وكانت ترسل إعانات لكلٍّ من مجمع صورة ومجمع بمديثة، وتقوم بدور الوسيط في تحويل الأموال الواردة من الأندلس إلى المجمعَيْن المذكورين . كما كانت تفتدي الأسرى اليهود الذين كانت فديتهم أغلى من فدية الأسرى النصارى[47] .

وكان بعض اليهود يسكنون بجوار المسلمين ويعيشون معهم متكافلين[48] . ويبدو أن حالة ذلك اليهودي الذي صلى ابن تومرت على جثمانه صلاة الجنازة ، عند مروره من تونس ، لأنه كان في حياته يصلّي مثل المسلمين ، لم تكن من الحالات النادرة[49] . ولكن لا شيء يسمح بالتأكيد أن

---

43) نفس المرجع ، 252/1 .

44) Fischel ، Jews ، 51-60 .

45) J. Mann ، المرجع المذكور ، 254/1 ، 277-278 .

46) انظر الفصل الأول من الباب السابع .

47) دائرة المعارف اليهودية ، 414/7-416 : القيروان .

48) فتوى القابسي ، المعيار ، 227/11-228 ، 280/2 ، 413-414 . فتوى السيّوري ، المعيار ، 273/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، الكراس 32 ، 6 ظ ، المختصر ، 152 و . فتوى اللخمي ، المعيار ، 271/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 34 ، 5 ظ ، فتوى المازري ، المعيار ، 206/2-207 .

49) البيذق ، 50 .

عدد اليهود أو النصارى المعتنقين للإسلام كان كبيراً في العصر الصنهاجي . بل إن ما كانوا يتمتعون به من تسامح يدفعنا إلى اعتقاد العكس .

وقد كان اليهود يتعاطون تجارة الأقمشة[50] والزيت[51] . ويبدو أن نقل البضائع كان يتمّ بواسطة الدوابّ المستأجرة يومياً ، والتي يجرّها أصحابها المسلمون[52] . وكان كثير من اليهود أطباء[53] وصائغين وأرباب مال .

وكانت علاقاتهم مع بني قومهم في بقية أقطار البحر الأبيض المتوسط تسهّل المبادلات التجارية الهامّة[54] .

وكان أهل الذمّة ، على الأقلّ من الناحية النظريّة ، خاضعين للواجبات التي يفرضها الفقه الإسلامي . يقول ابن أبي زيد في الرسالة :

« ولا تُبتَدَأ اليهود والنصارى بالسّلام ، فمن سلّم على ذمّي ، فلا يستقيله . وإن سلّم عليه اليهودي أو النصراني ، فليقل : عليكَ ، ومن قال عليك السِّلام بكسر السين ، وهي الحجارة ، فقد قيل ذلك »[55] .

ولما علم أبو عمران الفاسي أن طبيب المعزّ بن باديس اليهودي ابن عطاء « غير مُعْلَم »[57] ، أمر بصبغ طرف عمامته ، باللون الأصفر محالة[57م] . وحسب المازري ، يجب على القاضي أن يفرض على أهل الذمّة حمل العلامات المميّزة لهم ، مثل صبغ أطراف العمائم[58] . ولا يرى

50) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 90/1 ظ .

51) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 41/1 و ، المختصر ، 6 ظ .

52) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 165/8 .

53) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 239/2 ، مخطوط الرباط ، 88/2 و ، ظ .

54) Max Schloessinger ، دائرة المعارف اليهودية ، J. Mann 416-414/7 ، المرجع السابق ، 204/1 مجلة الدراسات اليهودية ، السلسلة الجديدة ، 162/9 .

55) الرسالة ، 312-313 ، فتوى القابسي ، المعيار ، 227/9-228 .

56) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المختصر ، 34 ظ ، الرسالة ، 134-135 .

57) [مُعلَم : أي يحمل العلامة المميّزة لأهل الذمة] .

57 م) [معالم الإيمان ، 201/3] ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1935 م ، 53-54 ، الاتعاظ ، 184 رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 52 ظ ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 142 ، المعيار ، 51/6 .

58) فتوى المازري ، المعيار ، 206/2-207 ، البرزلي ، المختصر ، 35 و ، : وأوضح السؤال أن هذه العادة صارت مهجورة .

اللخمي ضرورة ارتداء النساء اليهوديات أكسية خاصة بهنّ ، خلافاً للرّجال الذين هم على اتّصال بالمسلمين[59] .

ومن المستبعد أن يكون المدّ السنّي الذي أفضى إلى القطيعة مع القاهرة قد تسبّب في اضطهاد اليهود[60] .

ولما تحصّل يهود القيروان من السلطان ـ وهو على الأرجح باديس ـ على السماح لهم بإتمام بناء بيعتهم ، أبدى القابسي معارضته لهذا المشروع ، ومنع إنجازه . ولكنّه سمح لهم بصيانة المبنى القائم الذات والزيادة في ارتفاع بابه إذا ارتفع مستوى الأرض ، وتهيئته من الداخل حسب مشيئتهم[61] .

ومنذ عصر ابن أبي زيد ، كان « أهل الكتاب » ، أي اليهود والنصارى ، يكلّفون المسلمين بأن يحرّروا ، ربما وفقاً للتراتيب الإسلامية الجاري بها العمل ، شهاداتهم وعقود بيوعاتهم وبالخصوص عقود أنكحتهم ، وإلاّ فإن عقودهم تفقد قيمتها الشرعية في نظر المحاكم الإسلامية . ورغم استنكار ابن أبي زيد لهذا التصرف ، فقد أشار على الموثّقين بالإيجاز وإلغاء الصيغ الإسلامية الصِّرف[62] . وفي فترة لاحقة أشارت المصادر إلى حرص بعض اليهود على إحالة واحد منهم على المحاكم اليهوديّة ، بالاعتماد على عقود « بيّنة » يهودية ، ربّما كانت محرّرة بالعبرية أو بالأحرى باللغة اليهودية العربية ، في حين استظهر المدّعي عليه بوثيقة محررة بالعربية من طرف عدول مسلمين ، وطالب بإحالة القضية على قضاة مسلمين . فأجاب المفتي أن القضاء الشرعي هو الذي ينبغي أن يبتّ في القضية ، لا القضاء اليهودي[63] . ولا شكّ أن صلاحيات محاكم الأحبار كانت محدودة

---

59) البرزلي ، المختصر ، 34 ظ .

60) دائرة المعارف اليهودية ، 7/414-416 . تؤكد مع ذلك أن جميع الخارجين عن أهل السنّة بمن في ذلك اليهود وغيرهم قد اضطُهِدوا في سنة 1045/436-437 هـ ، في عهد المعزّ بن باديس ، ولكن لم يشر إلى ذلك أي مصدر من المصادر التي بين أيدينا ، ولعل هناك خلط ممكن مع مذابح الشيعة في سنة 407 هـ/1016 م أو سياسية الاضطهاد التي اتبعها الموحّدون ونسبها Benjamin De Tudèle إلى ابن تومرت وحدّد تاريخها بسنة 536-537 هـ/1142 م ، أي قبل استيلاء عبد المؤمن على المغرب الأوسط بنحو عشر سنوات .

61) فتوى القابسي ، إثر فتوى مماثلة لأبي حفص بن العطّار حول الكنائس ، المعيار ، 2/207 ، انظر أيضاً رأي اللخمي حول هذه المسألة ، المعيار ، 2/170-180 .

62) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 2/46 و ، انظر أيضاً ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 2/46-47 .

63) فتوى أبي حفص بن العطّار ، المعيار ، 10/42 ، البرزلي ، المختصر ، 117 و .

للغاية . إلاّ أن المصادر قد أشارت إلى وجود قاضٍ من الأحبار (الديّان) في المهدية حوالي سنة 490-491 هـ / 1097-1098 م ، وحتى بعد ذلك التاريخ[64] . ولا شك أن كثيراً من اليهود قد نزحوا مع المسلمين إلى المهدية وتونس والقلعة ، بعد نهب القيروان من طرف الهلاليّين ، وقد زاد ذلك النزوح في عدد اليهود الموجودين في تلك المدن من قبل[65] .

ولما خيّر عبد المؤمن اليهود بين الإسلام والموت اعتنق عدد كبير منهم الإسلام أو تظاهروا بذلك[66] .

وتؤكد بعض الروايات الشفهية أن يهود تونس الذين كانوا يقيمون في قرية الملاّسين خارج أسوار المدينة ، قد سمح لهم محرز بن خلف بالإقامة في حيّ خاصّ بهم مطابق للحيّ المعروف في العصر الحديث « بالحارة » [أو حارة اليهود] . إلاّ أن هذه الروايات مشكوك في صحّتها ، لا سيما وأنّ ليون الإفريقي (المتوفى في تونس سنة 1551 م) قد أكّد أن يهود تونس كانوا يسكنون في ضاحية الملاّسين ، ويعودون إليها كلّ يوم قبل الغروب ، وكان لهم فندق قرب باب البحر . وما زال اليهود في تونس يعتبرون أنفسهم في حماية « سيدي محرز » . ولا ندري متى تمّ بناء البيعة الكبيرة في حارة اليهود بمدينة تونس ، والتي تحمل نقيشة تكاد تكون كتابتها قد زالت تماماً[67] .

---

64) J. Mann ، المرجع السابق ، 264-264/1 .

65) برنشفيك ، المرجع المذكور .

66) زعم Benjamin De Tudèle ، ونقل ذلك Cazés ، 69-70 أن المدعوّ ابن تمورة (كذا) قد أمر باستئصال اليهود من كافة أنحاء إفريقيا حتى المهدية ، وذلك في سنة 536-537 هـ/1142 م ، ولا شك أنّ الأمر يتعلق بابن تومرت الذي خلط المؤلف بينه وبين عبد المؤمن بن علي .

ولعلّ التاريخ المذكور مغلوط . فالجدير بالتذكير أن عبد المؤمن قد استولى على المغرب الأوسط في سنة 547 هـ/1152-1153 م وعلى إفريقية بحصر المعنى في سنة 555 هـ/1160 م .

67) مناقب ، 314-315 والهامش ، 107 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 448/1] . Cazès ، 75-78 ، Sayous ، 66 .

الباب الثاني عشر
الحياة الفكريّة والفنيّة

الفصل الأوّل
الظروف العامّة

لمّا غادر الفاطميّون إفريقية ، حملوا معهم التراث الثقافي الأغلبي والكتب التي كانت تزخر بها مكتبة بيت الحكمة الشهير . ويبدو أن الوزير اليهودي يعقوب بن كلس قد كان أحد المسؤولين عن هذه العمليّة[1] .

إلاّ أنّ المكتبات الخاصّة قد احتفظت بذخائرها . من ذلك مثلاً أن ابن الجزّار (ت . حوالي سنة 395 هـ / 1004-1005 م) قد ترك بعد وفاته عشرين قنطاراً من المؤلفات الطبيّة وغيرها[2] .

وقد حبّس أهل البرّ والإحسان عدداً كبيراً من المصاحف والكتب على الرباطات والمساجد ، وبالخصوص جامع القيروان[3] . كما حبّس أبو بكر عتيق السوسي على طلبة العلم عدداً كبيراً من الكتب التي أهداها إليه المعزّ بن باديس[4] . وتعلّقت همّة أميرات بني زيري والمعزّ بن باديس بإثراء مكتبة الجامع الأعظم بالقيروان[5] .

---

1) ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، 1 القاهرة 1955 م ، 76 ، ابن خلكان ، 2/333-336 .

2) ح . ح. عبد الوهاب ، نفس المرجع ، 84 (نقلاً عن ابن أُصَيْبع ، **طبقات الأطباء** ، 1/38) .

3) فتاوى ابن أبي زيد والقابسي ، المعيار ، 7/24 ، 197 ، 228 .

4) ح . ح . عبد الوهّاب ، **بساط العقيق** ، 36-39 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 184-185 .

5) انظر ، محمد البهلي النيّال ، مجلة الندوة التونسية ، جانفي ـ فيفري 1953 .

وقد استوجبت رداءة الخطّ وقلّة المخطوطات[6] وتشويه النسّاخ للنصوص الاعتماد على الرواية بالإسناد . وهذا ما كان يقع بالضبط بالنسبة إلى القرآن والحديث ، ممّا جعل من الضروري طلب العلم ومخالطة العلماء .

وكانت الإجازة تتمثل في رخصة يمنحها الأستاذ لتلميذه ، ليدرّس ، نقلاً عنه ، الكتب التي نقلها عن غيره أو ألفها هو نفسه[7] . ولدينا عدة أمثلة لإجازات منحها علماء قيروانيّون قبل غزوة بني هلال ، أو بعض رجال العلم الأندلسيين والمشارقة ، عن طريق المراسلة .

وكانت مدّة ولاية المعزّ بن باديس تمثّل العصر الذهبي للخطّ الإفريقي في عهد بني زيري . وقد احتفظ الجامع الأعظم بالقيروان في مكتبته بعدّة نماذج من هذا الخطّ[8] . ونحن نعرف اسم الخطّاطة درّة الكاتبة التي نسخت المصحف البديع المُحبّس على جامع القيروان من طرف فاطمة حاضنة باديس الذائعة الصيت . ويبدو أنها كانت تعمل عند ورّاق يقال له علي بن أحمد الورّاق ، وقد صُنِع المصحف المذكور في مَشْغَله[9] . وكان الحارث بن مروان وابنه يحيى ناسخَيْن عند المعزّ بن باديس[10] . واشتهر بفنّ الخطّ كلّ من إبراهيم بن موسى الماردي أو المارديني وعبد العزيز بن محمد القرشي الطارقي ، الكاتبان في ديوان رسائل الأمير[11] .

ولم نعثر إلّا على إشارة واحدة[12] حول استعمال الصنهاجيّين في إفريقية للغة البربرية .

---

6) **معالم الإيمان** ، 191/3 : بلغ ثمن جامع ابن وهب نحو ثلاثمائة درهم ، في عصر أبي علي حسن بن خلدون البلوي (ت . 407 هـ/1016 م) .

7) بالنسبة إلى فترة ما قبل العصر الصنهاجي ، انظر : **معالم الإيمان** ، 3/72-73 ، انظر أيضاً ، فتوى القابسي ، **المعيار** ، 228/11 .

8) **نقائش عربية** ، 1/27-38 ، Objets Kairouanais ، في عدة مواضع ، ح . ح . عبد الوهّاب ، **مجلة معهد المخطوطات العربية** 1 ، القاهرة 1955 م ، 89 : يحتوي متحف دمشق على مخطوط بديع من كتاب **الملخّص** مكتوب على الرقّ . وهذه النسخة معاصرة لمؤلف الكتاب ، القابسي (ت . 403هـ/1012 م) . واطّلع ح . ح . عبد الوهّاب على مخطوط كامل من **المدوّنة** مكتوب على الرقّ ، يرجع عهده إلى القرن الخامس هجري .

9) **نقائش عربية** ، 1/28-33 ، Objets Kairouanais ، 60/1 .

10) **نقائش عربية** ، 37/1 ، انظر أيضاً 36 : مخطوط **المدوّنة** نسخة عبد الله بن محمد بن قتيبة في سنة 421 هـ/1030 م ، ح . ح . عبد الوهّاب ، **مجلة معهد المخطوطات العربية** ، المرجع المذكور ، ص . 85-86 .

11) ح . ح . عبد الوهاب ، نفس المرجع (نقلاً عن الصفدي ، **الوافي**) : لم يكن للمارديني مثيل في المغرب في الخطّ المعروف باسم « الرياشي الخفي » وكان الطارقي بارعاً في « الخطّ المحلّى من قِدَاح الميسر » . وأشار الغبريني إلى الخطّ الشرقي والغربي والريحاني والتحساني والديواني .

12) الشماخي ، 400 .

فالغالب على الظنّ أنهم تعرّبوا بسرعة ، رغم أنّ من واجبنا الاحتراز من سكوت مصادرنا التي لا يميل أصحابها كثيراً إلى الاهتمام بمثل هذه المسائل .

ومهما يكن من أمر ، فإن غزوة بني هلال التي ألحقت ضرَراً فادحاً بالحضارة القيروانية[13] ، قد كانت مع ذلك عاملاً أساسيّاً من عوامل التعريب .

13) معالم الإيمان ، 252/3 : أشار ابن ناجي إلى الفوضى والانحطاط الثقافي السائد في إفريقية من 500 إلى 550 هـ/ 1106-1156) .

14) ويليام مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1938 ، 23-1 ، 1956 م ، 5-17 : كيف تمّ تعريب شمال إفريقيا .

الفصل الثاني
التعليـــم

ليس من الغريب أن يكون ناشِرَا المذهب المالكي في العصر الصنهاجي ، ابن أبي زيد (ت . 368 هـ / 996 م) والقابسي (ت . 403 هـ / 1012 م) ، قد اهتمّا بتعليم الصّبيان ، فقد قدّم الأوّل كتابه **الرسالة** ، وهو تأليف مدرسي أوّلاً وبالذات ، إلى المؤدب محرز بن خلف ، وألّف الثاني « **الرسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين** »[1] ، وأصدر عدة فتاوى حول هذا الموضوع .

وإذا صدّقنا ابن خلدون[2] ، فقد ألّف ابن أبي زيد أيضاً كتاباً من هذا القبيل ، ولكنّ هذا الخبر مشكوك في صحّته[3] .

وقد كان الصّبيان يتعلّمون في الكُتّاب القراءة والكتابة وتلاوة القرآن . وكانوا يكتبون الآيات القرآنية على الألواح ، ويرتّلون القرآن بصوت واحد . ويبدو أنّ تعليم مبادىء الفقه للصّبيان لا يبدأ إلاّ بعد الختم الجزئي أو الكلّي للقرآن[4] . وقد أسلفنا أن المالكية كانوا يأنفون من تلقين أيّ شيء غير القرآن لأبناء الخوارج .

ويحثّ الشرع الآباء على توجيه أبنائهم إلى الكُتّاب ، ذكوراً وإناثاً . إلاّ أن القابسي قد أبدى

1) الرسالة المفصّلة متبوعة بدراسة مطوّلة عنوانها . التعليم في رأي القابسي بقلم أحمد فؤاد الأهواني ، القاهرة ، 1364 هـ/1945 م . [الرسالة المفصّلة ، تقديم وتحقيق أحمد خالد ، تونس 1986 م] .
وهذا الكتاب تعديل لكتاب محمد بن سحنون : «آداب المعلمين » ، تحقيق ح . ح . عبد الوهّاب ، تونس 1931 م ، وقد نقله إلى الفرنسية G. Lecomte ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1953 م ، 77-105 . وعلى غرار ابن أبي زيد الذي استهلّ رسالته ، 14-27 ، بفصل مخصّص للعقيدة ، بدأ القابسي كتابه بتعريف بعض المفاهيم الدينية ، وهي الإيمان والإسلام والاستقامة والصّلاح .

2) المقدّمة ، طبعة القاهرة ، بلا تاريخ ، 90 .

3) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 150 .

4) فتوى القابسي ، المعيار ، 8/163-164 ، يجوز أن يتقاضى المعلم أجراً لتعليم الحساب والكتابة والفرائض . البرزلي ، المختصر ، 101 ظ ، رأي أبي حفص بن العطّار حول التعليم

حول تعليم البنت المسلمة الرأي التالي : « وأمّا تعليم الأنثى القرآن والعلم ، فهو حسن ومن مصالحها . فإمّا أن تُعلَّم الترسّل والشعر وما أشبهه ، فهو مخلوف عليها . . . وسلامتها من تعلّم الخطّ أنجى لها »[5] . وبطبيعة الحال ينبغي « أن لا يُخلَط بين الذكور والإناث »[6] .

وينهي القابسي عن تعليم الصبيان في المسجد ، « لأنهم لا يتحفّظون من النجاسة »[7] . ويجوز للمؤدّبين كراء محلّ لتعليم الصبيان والاشتراك في ذلك مع بعضهم بعضاً[8] .

ويوصي القابسي المؤدب بأن « يجعل لعرض القرآن يوماً معلوماً ، مثل عشيّة الأربعاء ويوم الخميس »[9] . ويمكنه اللجوء إلى العقوبة البدنية (الضرب) لتأديب الصبيان[10] . ويجوز له أن يأخذ من الآباء أجراً معلوماً على تعليم أبنائهم ، على أن يتمّ الدفع حسب الاختيار ، إمّا مسبّقاً أو في كل شهر أو في كلّ سنة[11] . وتُقدَّم الهدايا إلى المؤدب بمناسبة الأعياد والأختام[12] .

وتتعطّل الدروس على وجه العموم من يوم الخميس بعد العصر إلى يوم السبت صباحاً . ولكن يبدو أن بعض المؤدّبين كانوا يعطّلون الدروس كامل يوم الخميس . وتتراوح عطلة عيد الفطر بين يوم وثلاثة أيام وعطلة عيد الأضحى بين ثلاثة وخمسة أيّام[13] .

« وأمّا بطالة الصبيان من أجل الختم ، فيجوز للمعلّم أن يأذن لهم اليوم ونحوه » . ولكنّ القابسي يرى أنه لا يجوز له أن يأذن لهم أكثر من ذلك ولا أن يتقبّل منهم الهدايا ، إلا بإذن آبائهم .

---

5) القابسي ، الرسالة المفصّلة ، 263-266 ، نقائش عربية ، 2/ عدد 389 ، قبريّة صبيّة توفيّت في سنة 434 هـ/1042 م ولها من العمر ثماني سنوات وتحفظ ربع القرآن . وكان أبوها القيسي طبيباً .

6) القابسي ، المصدر المذكور ، 287 .

7) فتوى القابسي ، المعيار ، 24/7 .

8) فتوى أبي العباس الإبياني (ت . 352 هـ/964 م) وأبي عمران الفاسي (ت . 430 هـ/1038 م) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 32 : تكوين شركة بين معلّمَيْن احدهما أعمى . فتوى المازري (ت . 536 هـ/1141 م) ، البرزلي ، نفس المخطوط : كراء دكّانين متحاذييْن من طرف مؤدّبَيْن .

9) القابسي ، المصدر المذكور ، 287 ، 290 ، مناقب ، 298 .

10) القابسي ، نفس المصدر ، 284-287 ، 312-315 .

11) القابسي ، نفس المصدر ، 270-283 ، 291 ، 302 وما بعدها . فتاوى القابسي ، المعيار ، 214/2 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 199/2 و ، وما بعدها ، المختصر ، 99 و ، 103 و ، فتوى اللخمي (ت 478 هـ/1085 م) ، المعيار ، 212-213/2 .

12) القابسي ، المصدر المذكور ، 290-291 ، 300-301 ، إدريس ، الأعياد المسيحية ، المجلة الإفريقية ، 1954 م ، 261-276 .

13) القابسي ، نفس المصدر ، 290

كما يستنكر ما جرت عليه العادة « من صنع المعلّمين ، إذا تزوّج رجل أو وُلِد له ، فيبعثون صبيانهم ، فيصيحون عند بابه ويقولون : أستاذنا ! بصوت عالٍ . فيُعطَوْن ما أحبّوا من طعام أو غير ذلك ، فيأتون به معلّمهم ، فيأذن لهم يتبطّلون بذلك نصف يوم أو ربع يوم بغير أمر الآباء »[14] .

ويغادر الطفل الكُتّاب في سنّ البلوغ ، وقد حفظ القرآن وتعلّم القراءة والكتابة ، على وجه الخصوص . ولا شكّ أنّ العائلات الميسورة تكلّف بعض المربّين بتلقين أبنائهم مبادىء العلوم وتكوينهم إلى أن يصبحوا طلبة .

إلّا أنّ الطلبة المعوزين الرّاغبين في مواصلة دراستهم لا يجدون لاستقبالهم معاهدَ من صنف « المدارس » [التي ستظهر فيما بعد في العهد الحفصي][15] .

ويمكن أن نتصوّر أنّ هؤلاء الطلبة كانوا ، قبل التحوّل إلى حلقات دروس الشيوخ ، يتلقّون العلم ، كيفما كان الحال ، بالاعتماد على أنفسهم أو بمساعدة زملائهم الأكبر منهم سنّاً ، ويتردّدون على مجالس رجال الصّلاح .

وعلى وجه العموم ، كان تعليم الشيوخ مجانيّاً ، لأنّ هؤلاء في معظمهم أثرياء . ولا شكّ أن ابن أبي زيد لم يكن الشيخ الوحيد الذي يجود على طلبة العلم ويوفّر لهم المأوى[16] .

---

14) نفس المصدر ، 291 .

15) حول المدارس الحفصية ، انظر ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 376/2] .

16) انظر المفصل الثاني من الباب الحادي عشر : ترجمة ابن أبي زيد .

الفصل الثالث
رجـال الأدب

ما فتىء الأدب في شرق الغرب الإسلامي يزدهر أكثر فأكثر في عهد بني عُبَيْد ، ويبدو أنّ رحيل المعزّ لدين الله الفاطمي لم يتسبّب قطّ في تدهوره[1] . ذلك أنّ معظم الشعراء والأدباء لم يصاحبوه إلى القاهرة ، بل بالعكس من ذلك فقد مكثوا في القيروان وغيرها من المدن الأخرى ، متعهّدين الشعلة التي انتقلت إليهم من أسلافهم ، حتى في عهد أمراء بني زيري الذي كانوا مع ذلك مُوَلّين وجوههم قِبَل المغرب . وإن تواصل التقاليد الأدبية المنبثقة عن الثقافة الإفريقية لهو جدير بالملاحظة . فلو كانت تلك التقاليد من المستحدثات الاصطناعية ورهينة الرعاية الملكية ، لما بقيت قائمة الذات . ولكن بما أنها تمثّل صورة من الحضارة القيروانية ، وتستمدّ منها عناصر قواها الحيّة الأساسية ، فلا يسعها إلاّ أن تزدهر معها ، بل أكثر من ذلك ، فإنها ستنجو من الزوبعة الهلالية ، شأنها في ذلك شأن التقاليد الفقهية ، وسوف لا يرجع عليها خراب القرآن بالوبال .

وقد وُلِد الشاعر الذائع الصيت ابن هانىء (ت . 362 هـ / 973 م) في إشبيلية ، من أب أصله من ضواحي المهدية . واضطرّ إلى الهجرة من الأندلس إلى المغرب ، وهو يبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة . فقد أنكر عليه أهل إشبيلية مجونه وشغفه بالفلسفة ، وأجبروا أميرهم على إبعاد شاعره المفضّل . وبعدما مدح ابن هانىء القائد جوهر ، ذهب إلى المسيلة ودخل أوّلاً في

1) بالنسبة إلى الفترة السابقة للعصر الصنهاجي نقتصر على ذكر الشاعر أبي القاسم علي الفزاري (ت . حوالي 345 هـ/956-957 م) ، **المنتخب** ، 39-41 ، الصفدي Rendiconti ، 342/25 . **رياض النفوس** [طبعة بيروت ، 302/2 ، 424 ، 475 ، 489 ، 493 ، 498] ، والنحوي أبي القاسم إبراهيم بن الوزّان (ت . 346 هـ/957-958 م) ، **الديباج** ، 91 ، **البكري** ، 30 ، **أدباء** ، 203/1 ، ابن **قنفطي** ، 172/1-174 ، والشاعر والأديب ابن الرائس (ت . 344 هـ/955-956 م) ، **المنتخب** ، 41-42 ، والشاعرة خدّوج الرصفية (منتصف القرن الرابع هـ) ، **شهيرات التونسيات** ، 52-54 .
وأخيراً فالجدير بالملاحظة أن قسماً من الكتب التي جلبها من المشرق الكاتب الشهير أبو علي إسماعيل القالي قد بقيت بالقيروان التي مرّ منها قبل ذهابه إلى الأندلس حوالي سنة 330 هـ/941-942 م ، **أدباء** ، 25/7-33 ، ابن خير ، 395-397 ، 398-400 .

خدمة جعفر بن علي بن حمدون وأخيه يحيى ، ثم في خدمة المعزّ لدين الله الذي بادر إلى إلحاقه بخاصّته . وذهب ابن هانىء إلى مصر مع الخليفة الفاطمي الذي سمح له بعد مدّة قليلة بالعودة إلى المغرب ليأتي بعائلته . ولكنه لقي حتفه ببرقة في طريقه إلى مصر ، وهو يبلغ من العمر ستّاً وثلاثين أو اثنتين وأربعين سنة ، وقيل : إنه مات مقتولاً ، وقد كان المعزّ لدين الله يرجو أن يفاخر به شعراء المشرق ، إذ أن ابن هانىء كان متبحّراً في الشعر ، وبفضل متانة لغته وإيثاره للمبالغة وميله إلى الفخامة بل حتى المغالاة ، اعتبره معاصروه « متنبي المغرب »[2] . وقد عاب عليه أبو العلاء المعرّي « الجلبة اللفظيّة والإغراق في الصنعة مع قلّة المعنى » .

وفسّر بعضهم تحامل المعرّي على ابن هانىء بتعصّبه المفرط لأبي الطيّب . ونحن نفضّل هذا الحكم المتزّن الذي أصدره في شأنه ابن شرف[3] :

« أما ابن هانىء فَرَعْدِيّ الكلام ، سرديّ النظام ، متين المباني ، غير مكين المثاني ، تجفو بِعَطْنها عن الأوهام ، حتى تكون كنقطة النظام . إلّا أنه إذا ظهرت معانيه ، في جزالة مبانيه ، رمى عن منجنيق ، يؤثّر في النيق ، وله غزل قفريّ لا عذريّ ، لا يقنع فيه بالطَّيْف ، ولا يشفع بغير السّيف . وقد نوّه به ملك الزاب ، وعظّم شأنه بأجزل الثواب ، وكان سيف دولته في إعلاء منزلته ، من رجل يستعين على صلاح دنياه ، بفساد أخراه ، لرداءة عقله ورقّة دينه ، وضعف يقينه . ولو عقل لم تضق عليه معاني الشعر ، حتى يستعين عليها بالكفر » .

وكان علي بن يوسف الإيّادي التونسي[4] (ت . 365 هـ / 976 م) من كبار شعراء

---

2) كان ابن هانىء معاصراً لأبي الطيب المتنبي .

3) رسائل الانتقاد ، تحقيق ح . ح . عبد الوهّاب ، طبعة دمشق ، 1911/1329 ، ص 22 ، طبعة بيروت ، 1983 م ، ص 36 .

مسائل الانتقاد ، نشر وترجمة شار بلّا ، الجزائر ، 1953 ، ص 40-43 ، 110 .

وحول أبي القاسم محمد بن إبراهيم بن هانىء الأندلسي الأزدي ، انظر أيضاً : بروكلمان ، 91/1 ، دائرة المعارف الإسلامية (ابن الشنب) ، 406/2 ، أدباء ، 92/19-105 ، ابن خلكان ، 5/2-4 ، المقري ، 364/2-367 ، التكملة ، 350/1 ، ابن بسّام ، 180/1-4 ، الصفدي 1/ عدد 240 ، 352-355 ، النجوم ، 67/4-68 ، المعزّ ، 225-230 ، المنتخب ، 42-46 ، النيفر ، عنوان الأريب ، 29/1-31 ، برنشفيك ، تحية ديمبيس ، القاهرة ، 1935-1945 م ، 152 ، العمري ، مخطوط باريس 72327 و ـ 18 .

[انظر كذلك ، محمد اليعلاوي ، ابن هانىء المغربي الأندلسي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1985 م] .

4) العمدة ، 71/1 ، الحصري ، زهر الآداب ، 234/1 ، ابن شرف ، رسائل الانتقاد ، تحقيق ح . ح . عبد الوهّاب ، ط . دمشق ، 14 ، 22 ، مسائل الانتقاد نشر وترجمة بلّا ، 43 ، 108 ، بساط العقيق ، 30-31 ، المنتخبات ، 46-49 ، شهيرات التونسيات ، 40 ، ابن رشيق ، قراضة الذهب ، مخطوط باريس 3417 ، 50-51 .

إفريقية . وقد التحق بخدمة الدولة العبيدية . وقال عنه ابن شرف عندما عرّف به :

« وأما عليّ التونسي ، فشعره المورد العذب ، ولفظه اللؤلؤ الرطب ، وهو بحتري الغرب ، يصف الحَمام ، فيروق الأنام ، ويشبّب ، فيُعشَّق ويُحبَّب ، ويمدح ، فيَمنَح أكثر مما يُمنَح »[5] . ونحن نعرف أسماء بعض الشعراء المقلّين الذين توفّوا في نهاية القرن الرابع هجري[6] .

وكان أبو عبد الله محمد بن عبدون الورّاق السوسي[7] (ت . حوالي سنة 400 هـ / 1010 م) ، وهو ابن أحد أعيان القيروان المستقرّين بسوسة ، شاعراً رقيقاً ، يتميّز شعره بعذوبة اللفظ . وإثر وفاة زوجته وابنته قصد جزيرة صقلية سنة 393 هـ / 1002-1003 م والتحق بأميرها ثقة الدولة الكلبي الذي عهد إليه بتربية ابنه جعفر ، ثم عاد الشاعر إلى مسقط رأسه سوسة وتوفّي بها .

أما شاعر باديس عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي[8] (ت . 405 هـ / 1014-1015 م) ،

---

5) ابن شرف ، مسائل الانتقاد ، نشر بلا ، ص 43 .

6) نظم كلّ من ابن خاقان النحوي وابن مازن قصيدة في رثاء الفقيه ابن أخي هشام (ت . 371-373 هـ/981-983 م) ، المدارك ، 2-228/3 و ، الهادي روجي إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 356 .

وصرّح ياقوت (البلدان ، 219/8) أنه اطلع على نسخة من كتاب أحمد بن محمد سعيد الميّانشي ، كتاب النقائد بين جرير والفرزدق ، مكتوبة بخطّ المؤلف بالقاهرة سنة 381 هـ/991-992 م .

وتحوّل أحمد بن حبيب القيرواني إلى الأندلس للجهاد وتوفي بها قبل سنة 400هـ/1009-1010م ، التكملة ، تحقيق ابن الشنب ، 156 ، عدد 319 . وحول ابنه أبي حبيب عبد الرحمان الذي وُلد بالمحمّدية (المسيلة) وذهب مع أبيه إلى الأندلس وهو صغير السنّ ، انظر التكملة ، 2/ عدد 1647 الكتبي ، 251/1 ، الصفدي ، المصدر المذكور ، 601/22 ، العمري ، مخطوط باريس 2327 ، 100 و ، 101 ظ .

وانتقل أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عمر المغربي النحوي من المغرب إلى مصر حيث توفي قبل سنة 400 هـ/1009-1010 م ، بروكلمان ، الذيل ، 202/1 ، الصفدي ، 376/2-377 عدد 848 .

ونشير أخيراً إلى أن أبا الوليد محمد بن محمد بن الحسن الزبيدي ، ابن مؤلف مختصر كتاب العين للخليل بن أحمد ، قد مرّ من القيروان ، الحميدي ، 36 ، 242 ، عدد 4 و 546 .

7) التجاني ، 27-38 ، الحلل ، 120/1-122 ، المنتخب ، 54-55 ، عنوان الأريب ، 48/1-49 ، العمري مخطوط باريس ، 100 و ، ظ ، الصفدي ، 205/3-207 ، عدد 1187 .

8) العمدة ، 58/1-59 ، 71 ، 76 ، 78 ، 82 ، 125 ، 138 ، 17/2 ، 228 ، الحصري ، 221/1 ، 371/2 ، 174/3 ، ابن منظور الإفريقي ، نثار الأزهار ، 36 ، 81 ، العمري مخطوط باريس ، 77 و 78 ظ ، المنتخب ، 51-52 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، عبد الكريم النهشلي ، مجلة البدر التونسية ، 542/2-547 ، أحمد أمين ، ظهر الإسلام 1 ، القاهرة 1946 م ، 304-305 ، 306 . [انظر أيضاً ، المنجي الكعبي ، النهشلي القيرواني ، الدار العربية للكتاب ، تونس - ليبيا ، 1978 م] .

فهو من المحمّدية (المسيلة) التي ربّما لم يفارقها إلاّ قبل مدّة قليلة من وفاته بالمهديّة . وقد كان عارفاً باللغة والشعر ، خبيراً بأيام العرب . ولكنه لم ينظم إلاّ مقطوعات صغيرة من الشعر ، ولم يهج قطّ . ومهما كانت روعة شعره ، فإنه جدير بأن يسترعي انتباهنا على وجه الخصوص بوصفه مؤلف كتاب في فنّ الشعر يحمل عنوان « الممتع » . وتدلّ المقتطفات العديدة التي نقلها ابن شرف من ذلك الكتاب على ما كان يتمتع به من رقّة تحليل ورجاحة رأي ، هذا الناقد الفذّ الذي كان صاحب « العمدة » مديناً له بالكثير من معارفه . وقد ظهر في هذا الميدان بمظهر الرائد ، إلاّ أن المقاطع القليلة التي وصلتنا من مؤلفاته لا تسمح لنا من سوء الحظّ بتقدير إبداعه وتأكيد مدى تأثيره في ابن شرف .

وكان ابن أبي سهل الخشني[9] (ت . 406 هـ / 1015-1016 م) ـ حسب ابن شرف الذي كان أحد تلاميذه ـ « مشهوراً باللغة والنحو جدّاً مفتقراً إليه فيهما ، بصيراً بغيرهما من العلوم . ولم يُرَ ضرير أطيب منه نفساً ولا أكثر حياءً ، مع دين وعفّة ، يكلّمه التلاميذ فيحمرّ وجهه خَجَلاً . وكان شاعراً مطبواعاً يلقي الكلام ويسلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطف التركيب ، وقرب مآخذ الكلام ، ولا غنًى لأحد من الشعراء الحذّاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه أخذاً للعلم عنه واقتباساً للفائدة . وكان نصير الدولة (باديس) عارفاً بحقّه مقرّباً لـه ، مقبلاً عليه . لزمه بالقيروان مَغرَم ، فترك بسببه ألوف الدنانير »[9م] .

وشتّان بين هذا الشاعر وبين عبد الرحمان الفِراسي[10] (ت . 408 هـ / 1017-1018 م) الذي « كان شاعراً شرّيراً ، كثير المهاجمات ، قليل المداراة ، خبيث اللّسان ، وتوفّي بسوسة ، سقط من سطح وتردّى ، وعمره نحو الثمانين عاماً »[10م] .

وكان بكر بن علي الصابوني[11] (ت . 409 هـ / 1018-1019 م) « شاعراً مطبوعاً حلواً ،

---

9) أبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير ويدعى أحياناً البقّال ، ابن قنفطي ، 178/2-180 عدد 394 ، **العمدة** ، 124/1 ، **ظهر الإسلام** 305/1 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، **ديوان الأدب التونسي** ، **مجلة البدر التونسية** ، 181-182 ، العمري ، مخطوط باريس ، 88 و ، ظ ، 79 ظ ، 80 و ، السيوطي ، **البغية** ، 308 ، الصفدي ، **نكت الهميان** ، 194 .

9 م) [ابن رشيق ، أنموذج الزمان ، تحقيق محمد العروسي المطوي والبشير البكوش ، تونس 1986 م ، ص 158-159] .

10) الكتبي ، 261/1-262 ، **المنتخب** ، 57-58 ، العمري ، مخطوط باريس ، 109 ظ .

10 م) [ح . ح . عبد الوهّاب ، مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص 114] .

11) الكتبي ، 80/1 ، **بساط العقيق** ، 23-24 ، العمري ، م ، باريس ، 118 ظ ، 119 و ، الصفدي ، **الوافي** ، مخطوط =

صاحب نوادر ومقالعة وهجاء خبيث ، وأقدر الناس على مهاترة وبديهة ، وهو مع ذلك نقيّ الشيبة والثياب ، حسن الصمت والخطاب »[11م] . وهو من الشعراء الذين مدحوا نائب الأمير ، عبد الله بن محمد الكاتب المعروف بالمختال .

وكان محمد بن عبد الله الناجحون الضرير[12] « شاعراً كفيفاً من أبناء القيروان ، يسرد جميع ديوان أبي نواس ويقرأ القرآن بروايات ويعلّم الصبيان . ولم يكن له صبر على النبيذ . وجرت له واقعة في النبيذ كادت تأتي على نفسه ، فقال [المجتث] :

ما للنبيذ وما لي ... أليس عنه محيصُ
قد بعت رأسي بكأس ... وذاك بيع رخيصُ

أُطعِم طعاماً فمات منه مبطوناً سنة أربع عشرة وأربعمائة (1023-1024 م) مشرفاً على الستين واتّهم به جماعة مما كان هجاهم »[12م] .

ويُعَدّ القزّاز (345-412 هـ / 956-957 هـ / 1021-1022 م) من مشاهير أدباء إفريقية في العصر الصنهاجي . وُلِد في القيروان ورحل إلى المشرق لطلب العلم ، فتتلمذ إلى عدد من الشيوخ نخصّ بالذكر منهم الآمدي تلميذ ابن دريد والأخفش . وأقام مدّة طويلة بمصر والتحق فيها بخدمة الفاطميين ثم رجع إلى القيروان ، على الأرجح بعد وفاة العزيز (386 هـ / 996 م) ، ودرس بها اللغة والأدب ، وقد أخذ عنه ابن رشيق وابن شرف ويعلى الإرسي وابن الربيب وعبد الرّحمان المطرّز بن أبي طالب ، بقطع النظر عن الأندلسيّين . وهو مؤلف عدة كتب نخصّ

جامع الزيتونة تونس ، 77/9 (نُشِرت مقتطفات منه في جريدة تونس) . وقد ألّب القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم على المدعو أبي بكر بن الوسطاني الذي اضطرّ إلى الهجرة إلى مصر .

11 م) [الأنموذج ، 94] .

12) الناجحون الأعمى محمد بن عبد الله ، العمري ، م . باريس 123 ظ - 124 و ، الصفدي ، 342/3 عدد 1411 .

12 م) [الأنموذج ، 387-388] .

13) أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي المعروف باسم القزّاز ، ابن خلكان ، 514/1-515 ، أدباء ، 105/18-109 ، 37/19 ، 111/8، الصفدي ، 304/2-305 ، عدد 746 ، العمدة ، 43/1 ، 48 ، 68 ، 110 ، 115-121 ، 45/2 ، 63 ، 69 ، 150 ، 191 ، 238 ، العمري ، م . باريس ، 130 ظ ، 132 و ، ابن خير ، 362/1-363 ، التكملة تحقيق ابن الشنب ، 163 ، عدد 340 ، المقري ، 374/1 ، السيوطي ، البغية ، 29 ، الحلل ، 102/1-103 ، بروكلمان ، الذيل ، 539/1 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، القزّاز ، مجلة الثريّا التونسية ، أوت - سبتمبر ، 1944 م ، ظهر الإسلام ، 304/1 ، عنوان الأديب ، 39/1-40 ، مخلوف ، 480/1-481 ، وقد سار ابن القزّاز عبد الله على منوال أبيه ، وحول مكّي بن أبي طالب ، انظر ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 152-153 .

بالذكر منها : **جامع اللغة** ، وهو معجم ضخم يشبه **التهذيب** للأزهري ، اعتمده كل من صاحب **لسان العرب** و**القاموس المحيط** ، وكتابَيْن في اللغة هما **المثلّث** و**العشرات** ، و**كتاب الحروف** ، وهو كتاب في النحو مبوّب حسب حروف الهجاء ، يحتوي على نحو ألف صفحة ، ألّفه بطلب من الخليفة الفاطمي العزيز ، ودراسة حول الضاد والظاء وكتاب **التعريض فيما يدور بين الناس من المعاريض** ، (**أو التعريض والتصريح**) ، وكتاب **ضرائر الشعر** ، وشرحَيْن ، أوّلهما على **مقصورة** ابن دريد المشهورة ، وثانيهما على رسالة في البلاغة ، ودراسة حول أخطاء المتنبي وأخرى حول « أبيات المعاني » لنفس الشاعر[14] ، وكتاباً في العلوم السياسية يحمل عنوان **أدب السلطان والتأدّب** ، وكتاباً غريباً حول العبيد يحمل عنوان **الحيلة والشيات** .

وقد قال ابن رشيق في صفحة مفعمة بعواطف التمجيد لشيخه الموقّر : « كان الغالب عليه علم النحو واللغة والافتنان في التأليف الذي فضح المتقدّمين وقطع ألسنة المتأخرين . وكان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصّة الناس ، محبوباً عند العامة . . . وكان له شعر جيّد مطبوع مصنوع ، ربّما جاء به مفاكهة وممالحة من غير تحفّز ولا تحفّل ، يبلغ بالرفق والدعة على الرحب والسعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني وتوكيد المباني ، علماً بمفاصل الكلام وفواصل النظام » .

وبعدما أورد ابن رشيق عدّة نماذج من شعر القزّاز ، لا سيما بعض المقطوعات القصيرة ، قال : « وشعر أبي عبد الله أحسن ممّا ذكرت ، لكنّني لم أتمكّن من روايته ، وقد شرطت في هذا الكتاب أنّ كل ما جئت به من الأشعار على غير جهة الاختيار »[15] .

وكان أبو إسحاق إبراهيم الحصري[16] (ت . 413 هـ / 1022-1023 م) أوّلا وقبل كل شيء راوية من رواة الشعر والأدب ، اشتهر بكتابه **زهر الآداب** الذي ألفه بطلب من أحد كتّاب ديوان الرسائل أبي الفضل العباس بن سليمان. وعلى غرار منافسه الأندلسي ابن عبد ربّه (ت.

---

14) وحول موقف الأدباء القيروانيين (القزاز وابن رشيق وابن شرف) من المتنبي ، انظر ، بلاشير : **شاعر من القرن الرابع هجري ، المتنبي** ، باريس 1935 م ، 291-293 .

15) ابن خلكان ، 515/1 ، نقلاً عن الأنموذج [ص 365-369] .

16) أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن تميم الأنصاري الحصري ، ابن خلكان ، 13/1-14 ، **أدباء** ، 94/2-97 ، **الحلل** ، 98/1-99 ، ابن خير ، 380/1 ، الضبّي ، 209 عدد 516 ، المقري ، 374/1 ، **المنتخب** ، 60-62 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة الثريا ، أكتوبر 1944 م ، **بساط العقيق** ، 51-52 ، بروكلمان ، 314/1 ، **عنوان الأريب** ، 43/1-44 ، **ظهر الإسلام** ، 306/1-307 ، **العمري** ، م . باريس ، 87 و ، 88 و .

328 هـ / 940 م) ، اقتصر على المؤلفين الشرقيّين وأهمل المغاربة . وقد وضع تلخيصاً لكتابه المذكور وألّف كتابين آخرين ، وكتيّباً في أعمال المغنيّات .

قال عنه ابن رشيق : « وقد كان أخذ في عمل « طبقات الشعراء » على رُتَب الأسنان ، وكنت أصغر القوم سنّاً ، فصنعت [سريع] :

رفقاً أبا إسحاق بالعالم حصلت في أضيق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة فُضِّل إبليس على آدم

فلمّا بلغه البيتان أمسك عنه »[16م] .

« وكان شبّان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، وهو رأس عندهم وشرف لديهم . . . وكان شاعراً نقّاداً ، عالماً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحبّ المجانسة والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبّهاً بأبي تمّام في أشعاره ، وتتبّعاً لآثاره ، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيّته لجرى جري الماء ورقّ رقّة الهواء »[17] .

ومن بين شعراء بلاط الأمير الشاب المعزّ بن باديس ، كان أبو بكر عتيق المجدولي[18] شاعراً خبيثاً معجباً بنفسه . وكان يختلق الكلمات أحياناً ، ويستشهد ببيت من الشعر ، مدّعياً أنه اقتبسه من كتاب لم يسمع به أحد قطّ .

وكان خلف بن أحمد[19] (ت . 414 هـ / 1023-1024 م) شاعراً موهوباً ، رحل إلى القاهرة بعدما درس الأدب في إفريقيّة ، وتوفّي في زويلة عن سنّ تناهز المائة .

وفي سنة 415 هـ / 1024-1025 م ، توفّي عبد الله بن محمد الجراوي ، وهو شاعر أشاد ببني باديس[20] .

---

16 م) [الأنموذج ، 48-49] .

17) [نفس المصدر ، 46] ، أدباء ، 95/2 ، الهامش 1 .

18) أبو بكر عتيق بن عبد العزيز المذحجي المجدولي أصيل بلدة مجدول بمنطقة قمّودة ، توفي وعمره 40 سنة ، البلدان ، 388/7 ، العمري ، م . باريس ، 112 ظ ، 113 و .

19) أدباء ، 65/9-66 ، الصفدي الوافي (نشرت مقتطفات منه في جريدة تونس) ، وقد لُقّب الشاعر بالسعدي (نسبة إلى السعديّين وهي قرية في ضواحي المهدية) .

20) البيان ، الترجمة ، 407/1 ، الإحالة 1 ، العمري ، م . باريس ، 89 ظ ، 90 و ، الصفدي ، Rendiconti ، 232/23 : خصّصت فقرة للشاعر عبد الله بن إسماعيل بن أبي إسحاق الحسني الصفاقسي (توفي سنة 415 هـ/1024-1025 م) على الأرجح في صفاقس اعتماداً على نسبته .

وبرزت موهبة ابن زنجي الكاتب[21] (ت . 416 هـ / 1025-1026 م) من خلال قصيدة صنعها في « قتلة الشيعة وقدّمها القزّاز على جميع ما صنع النّاس كلّهم »[21م] .

وكان الرقيق[22] ، الكاتب والدبلوماسي ومؤرخ الدولة الصنهاجية ، من فحول الشعراء وكبار الأدباء . وقد مدح مخدوميه وفي مقدّمتهم نائب الأمير محمد بن أبي العرب . قال عنه ابن رشيق : « هو شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف الطبع قويّه ، تلوح الكتابة على ألفاظه ، قليل صنعة الشعر ، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق النّاس »[22م] .

ومن أشهر مؤلّفاته : كتاب النساء وكتاب الأغاني وكتاب الراح والارتياح ، وقطب السرور في أوصاف الخمور ، ونظم السلوك في مسامرات الملوك .

وكان أبو الحسين الكاتب[23] (ت . 418 هـ / 1027-1028 م) ينتمي إلى أسرة من كتّاب ديوان الرسائل والشعراء . وقد نظم قصائد في مدح والي إفريقية محمد بن أبي العرب .

وتوفّي الشاعر الأربسي[24] تلميذ القزّاز ، في القاهرة سنة (418 هـ / 1027-1028 م) عن سنّ تناهز الستين .

---

21) العمري ، م . باريس ، 95 ظ ، 96 و ، الصفدي ، الوافي ، 292/2 (نُشرت مقتطفات منه في جريدة تونس) ، إدريس ، تحية ماسينيون ، 342/2 . وقد ذكر أحياناً باسم ابن يحيى وأحياناً باسم أبي الحسن الكاتب (النويري ، 135/2) . ويبدو أن اسمه الكامل هو : أبو الحسن علي بن يحيى الكاتب المعروف بابن زنجي ، توفي في صقلية عن سنّ تفوق الخمسين ولا نعلم أي شيء عن ابن الورّاق وابن جرمون اللذين نظما مع ابن زنجي قصائد في رثاء أبي علي حسن بن خلدون البلوي (ت . 407 هـ/1016 م) .

22) أبو القاسم إبراهيم بن القاسم الكاتب المعروف باسم الرقيق ، بروكلمان ، 155/1 (161) الذيل ، 252/1 ، المنتخب ، 62-64 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، مجلة البدر ، عدد 2 ، 395-400 ، أدباء ، 216/1-226 ، العمري ، باريس ، 101 ، ظ ، 103 ظ ، خِطط ، 370/1 ، البيان ، 264/1 ، المقري ، 71/1 ، 128/4 ، 129 ، 131 ، الصفدي ، E. Amar ، المجلة الأسيوية ، مارس - إفريل 1912 م ، 259 ، ابن حماد ، الترجمة ، 74 ، الإحالة 3 ، البربر 292/1 الإحالة 3 ، مقديش ، 130/1 ، المعيار ، 89/10-91 ، ستورا ، 39/1 ، مائوية أماري ، 454/2-574 .

22 م) [الأنموذج ، 55] .

23) أبو الحسين محمد بن إسماعيل بن إسحاق الكاتب المغربي ، الصفدي ، 214/2-216 ، عدد 604 ، العمري م . باريس ، 85 ظ ، 86 ظ .

24) يعلى بن إبراهيم الأربسي ، أدباء ، 105/18-106 ، البلدان ، 171/1 ، العمري ، م . باريس ، 78 ظ . 81 و .

وتوفّي في القاهرة أيضاً في نفس تلك السنة الصرائري[25] المشهور بشعره الهجائي ، مثل معاصره ابن حجّاج البغدادي[26] .

وكان العطّار[27] (ت . بعد سنة 400 هـ / 1009-1010 م) شاعراً حاذقاً ، رقيقاً . قال عنه ابن رشيق : « هو شاعر حاذق نقيّ اللفظ جدّاً ، لطيف الإشارات ، مليح العبارات ، صحيح الاستعارات ، على شعره ديباجة ورونق يمازجان النفس ، ويملكان الحسّ . وفيه مع ذلك قوّة ظاهرة تأتي في أماكنها في المدح وصفات الجيوش ، ولم أرَ عُطارِديّاً مثله لا ترى عينه شيئاً إلاّ صنعته يده .

وكان الأمير حسن (أو حسين) بن ثقة الدولة قد أراده للكتابة بعد أن استشار الحذّاق فدلّوه عليه . ولكن حال بينهما رجوع حسن إلى مصر .

وكان له عند عبد الله بن حسن[28] بمدينة طرابلس حال شريفة وجراية ووظيفة إلى أن نازعته نفسه إلى الوطن ، فتخلّص على غَرَر ، ووصل على خطر »[28م] . وربما كان رجوعه إلى القيروان بعد ارتقاء مخدومه إلى منصب الوزارة في عهد المعزّ بن باديس (407 هـ / 1016 م) .

ولا نعرف إلاّ شيئاً قليلاً عن الشعراء الشيعة ومنهم البحجور . . .[29] .

أمّا إسحاق بن إبراهيم ، فقد قال عنه ابن رشيق : « كان رافضيّاً سبّاباً . وكان اعتماده في الشعر على أبي القاسم بن هانىء ، وله كان يتعصّب ، وإن جانب طريقته ولم يسلكها »[30] .

وتولّى ابن الربيب[31] (ت . 420 هـ / 1029-1030 م) القضاء برهة من الزمن في مدينة

---

25) أبو الحسن محمد بن أحمد بن خليفة المعروف بالصرائري ، الصفدي ، 2/61-63 ، عدد 354 ، البلدان ، 2/376-377 ، العمري ، م . باريس 109 و ، 109 ظ ، وهو أصيل مدينة تونس .

26) التجاني ، 58 والعمري .

27) عبد الله بن محمد الأزدي المغربي المعروف باسم العطّار ، الكتبي ، 1/235-236 (وقد ادّعى خطأ أنه توفي سنة 600 هـ) التجاني ، 53-58 ، العمري ، م . باريس ، 41 ظ ، 43 و .

28) الكتبي (نصّ مغلوط : عبد الله بن حسين) .

28 م) [الأنموذج ، 198] .

29) إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/338 .

30) الصفدي ، الوافي (نقلاً عن الأنموذج لابن رشيق) [ص 78] .

31) أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد التميمي النحوي اللغوي النسّابة الإفريقي المعروف بابن الربيب والقاضي التاهرتي ، توفي عن سنّ تفوق الخمسين ، ابن قفطي ، 1/318-319 ، السيوطي ، البغية ، 230 ، العمري ، م . باريس ، 93 و ، ظ . المنتخب ، 64-65 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة العرب التونسية ، 303-306 ، الحميدي ، 273 عدد 658 ، =

تاهرت ، مسقط رأسه ، « ثم طلب العلم بالقيروان . وكان أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوي (القزّاز) معنيّاً له محبّاً له ، فبلغ به النهاية في علم الأدب والخبر والنسب ، وله في ذلك تأليف مشهور . وكان خبيراً باللغة ، شاعراً مقدّماً ، قويّ الكلام يتكلّفه بعض التكلّف »(31م) .

وقد التحق ابن الربيب بخدمة بني أبي العرب(32) ، ومدح محمّد بن أبي العرب . ونقل عبد الكريم النهشلي قسماً كبيراً من شعره ، وخصّص له ابن رشيق فصلاً طويلاً أورد فيه عدة مقطوعات من شعره .

واشتهر هذا الشاعر بالخصوص بالرسالة التي وجّهها إلى الأندلسي أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد (بن عبد الرحمان)(33) بن سعيد بن حزم (ت . بطليطلة 438 هـ / 1046-1047 م) ، وأشار فيها إلى تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسيرة ملوكهم . وقد أجابه مخاطبه برسالة طويلة(34) . كما ردّ على مكتوبه ابنُ عمّ مخاطبه المذكور ، المجادل الشهير ابن حزم (أبو محمّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفّى سنة 456 هـ / 1064 م) . ويتّضح من ذلك أن أحد أبناء القيروان هو الذي حثّ أهل الأندلس على إدراك قيمة تراثهم الثقافي . فلئن قام ابن الربيب فعلاً بهذا العمل ، فهو يستحقّ أن يتبوّأ مكانة مرموقة في تاريخ الغرب الإسلامي .

وحسب ابن رشيق ، كان ابن غانم الكاتب(35) (ت . 421 هـ / 1030 م) ، « شاعراً كنانيّ الشعر ، لطيف الألفاظ ، نظيفها ، رشيق المعاني ، وجيزها ، قليل المدح والهجاء ، كَلِفاً بالمواعظ في نظمه . كان توجّه إلى مصر وأقام بها مدّة ثم عاد وتوفّي بالقيروان »(35م) .

أمّا ابن عطيّة الكاتب(36) ، « فهو شاعر ذكيّ ، متوقّد ، سلس الكلام ، تطيعه المعاني

ابن بسام ، 1-110/1-147 ، المقري ، 4/151-155 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 2/407 شارل بلاّ ، مجلة الأندلس ، 19 ، مدريد 1954 م ، 53-102 .

32) قدمه إليهم عبد المجيد بن مهذّب وأبو بهلول بن شريش اللذين لا نعلم عنهما أيّ شيء .

33) زيادة من الحميدي ، 273 ، عدد 658 .

34) نشر ابن بسّام (1-113/1-116) مقتطفات من هذه الرسالة ولم يذكر جواب ابن حزم الذي أشار إليه المقري ، 4/154 ، 155 .

35) أبو إسماعيل إبراهيم بن غانم بن عبدون الكاتب القيرواني، المنتخب ، 66-67 ، نقائش عربية ، 1/26 ، الإحالة 3 ، العمري م . باريس ، 106 ظ ، 105 و .

35م) [مجمل تاريخ الأدب التونسي ، 127] .

36) أبو عبد الله محمد بن عطيّة بن حيّان الكاتب ، بساط العقيق ، 51-52 ، الصفدي ، 4/95-97 عدد 1575 ، العمري ، م . باريس ، 103 ظ ، 104 و ، ح . ح . عبد الوهّاب ، فصل منشور في مجلة العرب التونسية ، 182-184 (وقد

وينساغ له التشبيه ، وتحضره البديهة . وهو صاحب إبراهيم (الرقيق) في كتابة الحضرة ومن أبناء الكتّاب وأهل الخدمة قديماً »[36م] . وقد عمل في خدمة باديس[37] وابنه المعزّ ، بلا ريب .

هذا وإنّ ما ناله ابن أبي الرجال[38] (ت . 426 هـ / 1034-1035 م) من مجد في علم الفلك ، لا ينبغي أن يحجب عنّا ما قام به من دور في تطوير الأدب الإفريقي وذيوع صيته . وهو ينحدر من أسرة قويّة النفوذ في مدينة تاهرت ، وقد تربّى في القيروان وأصبح رئيس قلم الإنشاء في عهد باديس الذي عهد إليه بتربية ابنه المعزّ .

ويبدو أنه قد أثّر تأثيراً بالغاً في سير شؤون الدولة ، وكان في الدرجة الرفيعة من معرفة الأدب وصناعة الشعر . وقد علّق ابن رشيق على أبيات نظمها ابن أبي الرجال في التشوّق إلى أهله بالقيروان ، وكان بتاهرت ، فقال : « لو أن أعرابيّاً تذكّر نجداً فحنّ به إلى الوطن ، أو تشوّق فيه إلى بعض السّكن ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا المُوَلّد الحضري المتأخّر العصر »[39] .

ولئن كان ابن رشيق الذي عمل تحت إمْرَته قد ألّف باسمه كتابه الشهير العمدة ، فلا غرابة في ذلك[40] . إذ كان ابن أبي الرجال يشجّع الكتّاب والشعراء بالعطايا الطائلة ويأخذ بناصرهم . وقد تسبّب ثراء أسرته وكرمها في تلقيبها بلقب « برامكة إفريقية » ، ونحن نعرف اسم ابنه محمود الذي خلفه في خطّته[41] .

واشتهر أبو زكريّاء الشقراطسي[42] (ت . 429 هـ / 1037-1038 م) بالأدب في مدينة توزر .

وطوال عهده الذي دام أربعين سنة ، ما فتىء المعزّ بن باديس يسهّل على العلماء والأدباء

= استشهد فيه بالصفدي ، الوافي ، ج 3 ، وابن منظور الإفريقي ، وكتاب سرور النفس ... وشرح شواهد التلخيص ، 169/1) .

36م) [الأنموذج ، 396] .

37) كان الأمير يتناول النبيذ ذات ليلة فوق ربوة مطلّة على معسكر جيشه ، فطلب إلى ابن عطية الكاتب أن يصف له هذا المشهد .

38) انظر الفصل الخامس من هذا الباب : العلوم .

39) [مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص 127] .

40) العمدة ، 87/1 .

41) انظر الفصل الرابع من الباب الثامن : ديوان الرسائل .

42) أبو زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي القرشي ولد صاحب الشقراطسية الشهيرة ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 153 ، وتحيّة جورج مارسي ، 2/95-97 .

النزوح إليه ، فكان يحيط به زهاء المائة شاعر[43] . وكان مولعاً بالتحدّث إليهم في شؤون اللغة والأدب . ونحن نعرف أسماء عدد منهم .

وقال ابن رشيق عن الكمّوني[44] إنّه « شاعر فصيح الألفاظ ، حسن التقسيم ، جيّد الترسيم ، جزل الشعر ، ظاهر البلاغة ، عالم بأسرار الكلام ، إذا ركّب معنى أجاده ، وله في المعاتبات مذهب مليح »[44م] . وله قصائد مشهورة بالقيروان ، أوحى بها إليه عشقه للغلمان .

وكان الماردي (أو المارديني)[45] كاتباً وشاعراً وأديباً موهوباً . « غير أن الغالب عليه علم الخطّ ، وله من سرعة الحفظ ما ليس لأحد » . قال عنه ابن رشيق : « شهدته يوماً وقد صنعت أبياتاً في شكر سيّدنا (المعزّ بن باديس) أوّل تقريبه إيّاي ، وصنع محمد بن شرف ستّة في مثل ذلك ، وصنع محمد بن خيارة[45م] اثني عشر بيتاً ، وأنشد كلّ واحد منّا شعره . قال إبراهيم (الماردي) لمعدّ : شعرك قديم وأنا أحفظه ، فضحك معدّ مستهزئاً ، وقال له : هات ، فأنشده إلى آخره . ثم التفت إلينا وقال : وكذلك أنتما ، وأسمعنا أبياتنا . فحار معدّ حتى عرّفتُه حاله »[46] .

وأما الطارفي[47] ، فهو كاتب وخطّاط ، اكتسب ثقافته الأدبية في قريته بني طارف بالساحل ، وإليها يُنسَب . وقدم إلى القيروان متميّزاً بقريحة شعريّة قويّة . « إلاّ أن أكثر اشتهاره بالنثر دون النظم ، إذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان ، ما بين تزوير مقامة مبتدعة ، وتصدير خطبة غير مفترعة ، إلى الرسائل السلطانية والمكاتبات الإخوانية »[47م] .

---

43) بساط العقيق ، 49-53 ، من بينهم المأمون بن رشيد الذي كان الأمير يتخاصم معه .

44) محمد بن إبراهيم التميمي الكمّوني ، الصفدي ، 4/2 ، عدد 250 (لم تقع الإشارة إلى تاريخ وفاته) ، العمري م . باريس ، 82 و ، 83 ظ .

45) إبراهيم بن موسى الماردي (أو المارديني)، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ج 1 ، القاهرة 1955 م ، 86 ، بساط العقيق ، 52-53.

45 م) [في الأصل بن جبارة ، والتصحيح من الأنموذج] .

46) [الأنموذج ، 65-66] .

47) [في الأصل عبد العزيز بن محمد الطارقي ، نسبة إلى بني طارق ، وفي الأنموذج (ص 167 ، الإحالة 1) الطارفي بالفاء ، نسبة إلى طارف ، قرية في إفريقية حسبما جاء في معجم البلدان ، 4/4] . انظر الصفدي Rendiconti ، 561/22 ، والعمري ، م . باريس ، 88 ظ ، ح . ح . عبد الوهّاب ، بساط العقيق ، 52-53 ، مجلة معهد المخطوطات العربية 1 ، القاهرة 1955 م ، 86-87 .

47 م) [الأنموذج ، 167-168] .

وكان الحروري[48] أحد نبغاء شعراء القيروان وأدبائها في العصر الصنهاجي . قال عنه ابن رشيق : « شاعر مفلق ، ذو ألفاظ حسنة ومعانٍ متمكّنة ، مثقّف لنواحي الكلام ، رطْبُها ، حلوُ مذاقة الطبع عذبُها ، يشبه في المنظوم والمنثور بأبي علي البصير[49] . وله من سائر العلوم حظوظ وافرة ، وحقوق ظاهرة ، أغلبها عليه علم النحو والقراءات وما تعلّق بها » .

وبعدما أورد المؤلف أبياتاً من قصيدة مدح بها الحروري المعزّ بن باديس ، أضاف قائلاً : « وما حسبت أنّ أحداً من أهل عصرنا يبلغ هذه البلاغة ، أو يصوغ الكلام هذه الصياغة ، وأن كثيراً من أشعار المتقدّمين في هذا الوزن والرويّ ليضعف ويقصر دون بنيتها »[49م] .

[وهذه الأبيات هي [الكامل] :

لو يستطيع لأدخل الأموات من نعماه فيها نالت الأحياءُ
سوّت رعاياه يدا إنصافه حتى الشوامخ والوهاد سواءُ
متنوّع العزمات ماء مغدق فيهم وعنهم صخرة صمّاءُ
ما أنت بعض الناس إلاّ مثلما بعض الحصى الياقوتة الحمراءُ
فتحت لنا نعماك كلّ بلاغة فجرى اليراع وقالت الشعراء]

وكان ابن الطوبي[50] شاعراً وناثراً صقليّاً متفتّق القريحة . وإثر عودته من المشرق بعد رحلة طويلة ، التحق بالمعزّ بن باديس ووقف نفسه على مدحه . وتغنّى في شعره بنفس النجاح بالشباب والحبّ والنجوم والزهور ، ولم يتأخّر أحياناً عن الهجاء .

وأقام الشاعر الصفاقسي علي بن حبيب[51] (ت . 440 هـ / 1048-1049 م) بالمشرق ثم

48) أبو خلوف عبد العزيز بن خلوف الحروري (نسبة إلى حرورة قرية قريبة من الكوفة) النحوي الشاعر ، ابن قفطي ، 180/2-182 الصفدي ، المصدر السابق ، 558/22 ، السيوطي ، البغية ، 307 ، العمري ، م . باريس ، 83 ظ ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، مجلة العرب التونسية ، 301-303 .

49) انظر حول هذا الشاعر الكوفي : ابن قفطي ، 181/2 .

49 م) [الأنموذج ، 162-163-164] .

50) أبو الحسن علي بن حسن بن الطوبي ، ستوريا ، 581/2 ، 584 ، أماري ، المكتبة العربية الصقلية ، 590 . ح . ح . عبد الوهّاب ، الاستيلاء الإسلامي على صقلية ، بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين المنعقد بمدينة الجزائر سنة 1905 م ، [ورقات الجزء الثالث ، ص 474] . وحول وجود الشاعر أبو الحسن علي (ت . 430 هـ/1038-1039 م) في بلاط المعزّ ، انظر ، ح . ح . عبد الوهّاب ، المجلة الزيتونية ، ماي 1940 م ، فلعلّ الأمر يتعلق بشاعرنا .

51) علي بن حبيب التنوخي الصفاقسي ، الصفدي ، المصدر السابق ، 347/25 ، التجاني ، 50 ، 55-56 ، الحلل ، 135/1-140 ، عنوان الأريب ، 45/1-46 ، المنتخب ، 70 ، العمري ، م . باريس ، 127 ظ ، 128 و ، وفي نفس =

رجع إلى صفاقس مسقط رأسه وتوفّي بها . وكان شاعراً لطيفاً رقيقاً مطبوعاً ، ذا أسلوب سهل .

أمّا الشاعر عبد الواحد بن فتوح الكتامي[52] المعروف بالورّاق (ت . 447 هـ / 1055-1056 م) ، فهو من أبنار مدينة تونس وبها تأدّب ، ثم استوطن القيروان وانخرط في سلك كتّاب الدواوين ، قال عنه ابن رشيق : « هو شاعر مفلق ، قوي أساس الشعر ، كأنه أعرابي بدوي ، يتكلّف بعض التكلّف »[52م] .

وأقام الشاعر القيرواني أبو الطاهر التجيبي[53] (ت . حوالي سنة 450 هـ / 1058-1059 م) بالمهديّة ، وأخذ عن الحصري والنهشلي ، وزار الأندلس ومصر وأقام مدّة في صقلية . وكان عالماً بفنون الأدب ، متضلّعاً في اللغة ، شاعراً مجوّداً وكاتباً رقيقاً .

وقال ابن رشيق عن زميله وصديقه ابن حديدة[54] (ت . حوالي 450 هـ / 1058-1059 م) : « هو شاعر فَكِه الشعر ، رائق التشبيه ، مولع به ، قليل التكلّف ، قويّ المنهج والظرف ، يرفض المدح والهجاء ، ويخبر الترصيع خبراً جيّداً ولا يركبه إلا في الأماكن التي تصلح له ، كما شرط حذّاق المتقدّمين »[54م] .

وأمّا الشاعر أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد المعروف بكاتب كرامة[55] (ت . بعد سنة 441 هـ / 1049-1050 م) ، فقد « كتب لكرامة بن عدّة العزيز بالله[55م] (المنصور بن بلكين) ، ثم فارقه وتوجّه إلى ناحية المشرق سنة ثلاث عشرة وأربعمائة (1022 م) ، ولم يظهر له خبر » . وكان عالماً في الأدب ومن فحول الشعراء ، وله عدّة مؤلّفات .

هذا المصدر ، 127 و ، ظ ، لفقرة مخصصة لمحمد بن حبيب التنوخي الذي كان يتردد على الخمّارات ، ولم تكن له أية صلة قرابة مع علي بن حبيب . وكان أبو أحمد مضر بن تميم ، شقيق جيلان ، الفزاري الصفاقسي من فحول شعراء صفاقس ، العمري ، م . باريس ، 123 ظ ، التجاني ، 56-57 ، الحلل ، 141/1 .

52) المنتخب ، 70-71 ، العمري ، م . باريس ، 90 و ، 91 و ، الصفدي المصدر المذكور ، 202/23 .

52 م) [مجمل تاريخ الأدب التونسي ، 135] .

53) أبو طاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي المعروف باسم البرقي ، المنتخب ، 72-74 .

54) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي الليث التميمي القيرواني ، المعروف باسم ابن حُدَيْدة ، الصفدي ، المرجع المذكور ، 592/24 ، العمري ، م . باريس ، 107 ظ ، 109 و ، بساط العقيق ، 64 ، 71 ، المنتخب ، 74-75 . ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، مجلة البدر ، 33/3-35 ، الميمني ، 52-53 ، 84-85 .

54 م) [الأنموذج ، 71] .

55) [في الأصل « كاتب الكرامة » والصحيح ما أثبتناه . فقد جاء في الأنموذج (90-91) أنه « كتب لكرامة بن عدّة العزيز بالله » ، أي المنصور بن بلكين الصنهاجي] .

55 م) [في الأصل « كاتب الخليفة الفاطمي العزيز » والصحيح ما أثبتناه ، نقلاً عن الأنموذج] .

وكان محمد بن خلوف بن مُشْرِق [السلمي][56] « من أشراف أهل باجة القمح ورؤسائها وبها تأدّب . وهو شاعر مطبوع ذرب عذب الألفاظ واضح المعاني ، سهلُ الطريق ، حسنُ التلويح ، غَزِلُ الشعر ، حلوُ المقطعات »[56م] .

وأشار ابن رشيق إلى عدد من شعراء سوسة[57] وهم : ابن الصفّار وابن الغطّاس والقطّان وأبو هلال التجيبي وأبو الفتوح بن محمد .

فقال عن الشاعر الأوّل[58] ، وقد كان معجباً به شديد الإعجاب : « هو شاعر متّسع القافية ، سالم الطبع ، عالم باللغة ، لا تنقطع مادته . . . له كلام عربي صريح قلّما يأتي مثله للمتقدّمين المحسنين ، فضلاً عن المتأخّرين »[58م] .

وقال عن الثاني[59] : « هو شاعر متدرّب حسن المسلك في اعتدال وقوّة . قد جمع إلى رقّة المعنى رشاقة اللفظ وقرب المقصد »[59م] .

وقال عن الثالث[60] : « كنت أسمع بذكره وهو بسوسة إلى أن اجتمعت به فأنشدني بعض شعره ، ثم قال : كيف رضاك عمّا سمعت ؟ فقلت : أحسن رضا وأتمّه . فتكلّم بكلام جميل ولم أره بعد ذلك الاجتماع »[60م].

---

56) العمري ، م . باريس ، 124 و ، ط ، الصفدي ، 47/3 عدد 942 ، مع تصحيح عبارة « ناحية القمح » بعبارة « باجة القمح » .

56 م) [الأنموذج ، 378] .

57) لقد نقل رُواة الأدب الأندلسيين نادرة طريفة حول شاعر وأديب من أبناء سوسة سكر وأشعل النار في دار غلام كان يعشقه ولكنّ الغلام لم يوافقه . فأحيل على القاضي وتخلّص بأبيات شعر طريفة ادّعى فيها أن نار قلبه هي التي تسبّبت في الحريق ، الصّلة ، 204/1-205 عدد 457 ، الحميدي ، 206-207 عدد 449 ، ابن بسّام ، 4-95/1 ـ الضبّي ، 283-284 .
وروى ابن رشيق نادرة مماثلة حول شاعر من أبناء تونس اسمه عبيق بن مفرج العبقي ، [أو عتيق بن مفرج العتقي] ، العمري ، م . باريس ، 111 و ، ظ ، [الأنموذج ، 258] .

58) أبو الحسن علي بن أحمد الصفّار السوسي ، الصفدي ، 614/24 ، عنوان الأريب ، 46-47 ، التجاني ، 25-26 ، الحلل ، 118/1-119 ، العمري ، م . باريس 99 و ، 100 و .

58 م) [الأنموذج ، 265-269] .

59) عبد الوهّاب بن خلف بن القاسم بن محمد السوسي المعروف بالغطّاس ، العمري ، م . باريس ، 52 و ، الصفدي ، 199/23 التجاني ، 27 ، الحلل ، 119/1-120 عنوان الأريب ، 47/1-48 .

59 م) [الأنموذج ، 231] .

60) أبو موسى عيسى بن إبراهيم السوسي المعروف بالقطّان ، التجاني ، 27 ، الحلل ، 119/1 ، عنوان الأريب ، 47/1 .

60 م) [الأنموذج ، 328] .

وأما الرابع[61] « فهو شاعر معروف ، حسن الطريقة ، متصرّف بين التصنّع والاسترسال أحياناً »[61م] .

وأخيراً قال ابن رشيق عن الشاعر الخامس[62] : « إن شعره سهل وطيء لا يتكلّفه ، فإذا تكلّف ظهر عليه أثر ذلك »[62م] .

واستقرّ في وقت مبكّر بالقيروان الشاعر ابن ميخائيل[63] الذي هو أيضاً من أصيلي سوسة . وقد وصفه ابن رشيق بقوله : « هو صعب المكاره في الشعر ، شديد الانتقاد على مذهب قدامة بن جعفر الكاتب ، طالب للحقوق ، قليل الاستعارة ، وربّما سربل لفظه كرّة واحدة وعبث فملّح »[63م] .

وبطبيعة الحال كان لمدينة تونس شعراؤها هي أيضاً ، نخصّ بالذكر منهم ابن حربون[64] الذي ذاع صيته من جديد بعدما كان منسيّاً . فكان « لا يخلي نفسه من ذكر الخيل وآلة الحرب ، تقويةً للكلام ، وتفخيماً للمستمع »[64م] .

وأما الشاعر محمد بن إبراهيم القفصي[65] ، فأصله من مدينة قفصة وبها تأدّب . قال عنه

---

61) أبو هلال المحسن بن أحمد بن علي بن الحسن بن أبي هلال التجوبي ، التجاني ، 26 ، الحلل ، 119/1 ، **عنوان الأريب** ، 47/1 . وقد تملّق لوالي سوسة حسن بن بلبل ، ولعل هذا الشاعر متطابق مع ابن أبي هلال (أبو الحسن بن أحمد بن الحسن بن أبي هلال) . العمري ، م . باريس ، 115 و ، ظ .

61 م) [**الأنموذج** ، 102] .

62) **عنوان الأريب** ، 47/1 ، العمري م . باريس ، 128 ظ .

62 م) [**الأنموذج** ، 69] .

63) محمد بن الحسين بن أبي الفتح بن ميخائيل القرشي السوسي ، التجاني ، 25 ، **الحلل** ، 118-119 ، العمري ، م . باريس 106 و ، ظ ، الصفدي ، **الوافي** ، 6/3 .

63 م) [**الأنموذج** ، 375] .

64) حسن بن عبد العزيز بن حربون ، العمري م . باريس ، 113 و، ظ ، **بساط العقيق** ، 23-24 و **البلدان** : 419/4 : نقل ابن رشيق في **الأنموذج** بيتين هجا بهما الشاعر أبو لقمان الصفار ابن المؤدّب ، شاعر زويلة وابن حربون ، شاعر ترشيش (= تونس) .

[قال يهجو رجلين (البسيط) :

لا بـارك الله في دهـرٍ يـكـون بـه ... لابـن الـمؤدّب ذكـرٌ وابـن حَـرْبُـونِ

ذا مـن زُوَيْـلَة لا ديـنٌ ولا حـسـبٌ ... وذاك مـن أهـل تـرشـيش الـمجـانـينِ

الأنموذج ، ص 438] .

64 م) [**نفس المصدر** ، 104] .

65) محمد بن إبراهيم بن عمران القفصي الكفيف ، الصفدي ، 5/2-6 ، عدد 251 ، العمري ، م. باريس ، 94 ظ ، 95 ظ ، الصفدي ، **نكت الهميان** ، 234 .

ابن رشيق : « هو شاعر متقدم علاّمة بغريب اللغة ، قادر على التطويل ، وصّاف للديار ، مولع بذكر الإبل والقفار ، متّبع للعرب في أبنية أشعارهـا لا يعدو ذلـك إلا قليلاً في صفـات الخمر والزهر ، قليل الاختراع ، ركّاب لشوارد القوافي ، يصنع القصيدة تبلغ المائة وأكثر في ليلتها ، ويحفظها فلا يشـذّ منها شيء ، ويسرد أكثر مسائل كتاب العين للخليل بن أحمد »(65م) .

وشهدت ناحية رُصفة الواقعة غربي رأس قبودية نشاطـاً أدبيّاً يمثله الشعـراء محمد بن أبي معتوج الباجي(66) وأبو حاتم الربوني(67) ومحمد بن الربيع(68) .

وكان عبد الرزاق بن علي [النّحوي](69) « شاعراً قادراً يـطلب الطبـاق والتجنيس طلباً شديداً بالتصريف وتبديل الحروف ، ويستعمل القوافي العـويصة »(69م) . وقـد أورد ابن رشيق الأبيات الجميلة التي وجّهها إليه لتهنئته بإتمام كتابه الأنموذج ، ومنها [الكامل] :

يـا مـبرزاً إبـريـز خـير سـبـيـكـة ... ومـكـلّلاً إكـلـيـل خـير مـتـوّجِ
ومـمـيّـزاً جـنـسيّ مـقـدمـة الـنّهـى ... إن أشـكـلا مـن عـاقـر، أو مـنـتـجِ
ومـطرّزاً حُـلَل الـبـلاغـة مـعـجـزاً ... كـلّ الـورى بـبـلاغـة « الأنمـوذجِ »
فـكـأنـه لـلـسـمـع لـفظُ أحـبّـةٍ ... وكـأنّـه لـلعـين روض بـنـفـسـجِ
وكـأنـه للقلب سـحـر عـلاقـةٍ ... في مـهـجـة تخشى الـصـدود وتـرتجـي

كما شرّف ابن رشيق ثلاثة شعراء من المهدية(70) بإدراج تراجمهم ونماذج من شعرهم في كتابه

---

65 م) [الأنموذج، 336-337] .

66) من باجة الزيت ، وبها درس الأدب ، وهو تلميذ محمد بن سعيد الأبروطي ، وكان مرتجلاً ، نظم عدة قصائد في هجاء أبي حاتم الزبني ، البلدان ، 27/2 ، 375/4 ، العمري ، م. باريس ، 52 و .

67) أبو حاتم محمد بن أبي منهال بن دارة الأزدي ، أصيل زُبْنَة وقاضيها ، البلدان ، 375/4 . وهو شاعر ذائع الصيت ، لم يهتم إلاّ بفنّ الشعر . وكان ابنه عبد الخالق بن أبي حاتم أشهر وأعلم سنه ، العمري ، م. باريس ، 118 ظ .

68) من بلدة يمولش (أو ينونش) القريبة من باجة الزيت ، البلدان ، 529/8 ، الصفدي ، الوافي ، 69/3-70 عدد 970 . وكان على قيد الحياة سنة 406 هـ/ 1015 م .

69) أبو القاسم عبد الرزاق بن علي النحوي الشاعر ، ابن قفطي ، 174/2 عـدد 338 ، الصفدي ، 192/22 ، العمري ، م. باريس 161 و ، نقائش عربية ، 2 / عدد 384 شهادة قبر مؤرخة في 434 هـ/ 1042 م ، تحمل اسم أبي محمد عبد الغفّار بن عيسى الذي « ربّاه النحوي أبو محمد عبد الرزاق » توفي وهو يبلغ من العمر 27 سنة .

69 م) [الأنموذج ، 155].

70) التجاني ، 262 ، الحلل ، 262/1 .

« الأنموذج » وهم : ابن المؤدب(71) ، ومحمد بن حبيب [التنوخي](72) وعلي بن عبد الكريم بن أبي غالب(73) . وقد كان أوّلهم « مغرى بالسّياحة وطلب الكيمياء والأحجار . . . خرج مرّة يريد صقلية فأسرّه الروم في البحر ، وأقام مدّة إلى أن هادن ثقةُ الدولة ملكَ الروم وبعث إليه بالأسرى ، فكان ابن المؤدب فيهم »(73م) .

أمّا الثاني ، صنو ابن رشيق ، فهو « شاعر حاذق في المقطعات ، عاجز عن التطويل ، لم يصنع عشرة أبيات من جنس واحد قطّ . وقطعه كالنار في أيّ معنى قصد على لوثة فيه »(74) .

وكان إسماعيل بن إبراهيم الزويلي(74م) مادح المعزّ بن باديس متضلّعاً في اللغة على وجه الخصوص . قال عنه ابن رشيق : « له شعر جيّد وطيء الأكناف ، سهل المخارج . تقدّم في علم الغريب وصلبه وعلوّ سماعه . لقي شيوخاً جلّة من العلماء ببلدنا (إفريقية) وغيره من ناحية المشرق في أيام حجّه . وبحث عن الشذوذ بحثاً شديداً وإلى أمّهات كتبه يُرجَع بجميع النسخ ، وبها تُقابَل وعليها تُصلَح . وطريقته في الشعر طريقة العلماء يستعمل ما عليه الناس »(75) .

وقال ابن رشيق عن الشاعر المثقال(75م) (ت . بعد 500 هـ / 1006-1007 م) : « هو شاعر مطبوع قليل التكلّف سهل القافية(76) ، خبيث اللّسان في الهجاء ، عيّار ماجن لا يمدح أحداً . كان يألف غلاماً نصرانياً خمّاراً فعلقه فاشتهر به . . . وهجره (الغلام) مرّة فاستعان فلم يجد إليه سبيلاً . . . فلما يئس دعا بالفاصد وفصد إحدى يديه ، ثم دعا بفاصد آخر وفصد اليد الأخرى ودخل داره فأغلق باب بيته وفجّر الفصادين فما شعر أهله إلا بالدم يدفع من سُدّة الباب

71) عبد الله بن إبراهيم بن المثنّى الطوسي المعروف باسم ابن المؤدب ابن خلكان ، 221/2 ، البلدان ، 419/4 ، العمري ، م. باريس ، 110 ظ .

72) محمد بن حبيب التنوخي ، الصفدي ، 324/2-325 عدد 770 ، العمري ، م. باريس ، 127 و، ظ ، (ثم أورد ترجمة علي بن حبيب التنوخي ، 127 ظ ، 128 ظ) ، الميمني ، 32-33 .

73) حسب التجاني ، 262 والحلل ، 262/1 ، العمري ، م، باريس ، 122 ظ ، 123 و : ابن غالب علي بن عبد الكريم .

73 م) [الأنموذج ، 177-178] .

74) [نفس المصدر ، 370] .

74 م) ابن قفطي ، 192/1-193 ، العمري ، مخطوط باريس ، 122 و ، ظ : أبو الطاهر بن الخازن = إسماعيل بن إبراهيم الزويلي .

75) [الأنموذج ، 81-82] .

75 م) عبد الوهاب بن محمد الأزدي المعروف بالمثقال ، الكتبي ، 24/2-25 ، العمري ، مخطوط باريس ، 51 و ، 52 و ، الصفدي ، 200/23 ، الميمني ، 33-34 ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1954 ، 271 والإحالة 38 .

76) حسب الكتبي : سهل اللّقاء ، وقد قرأناه : سهل الإلقاء ، وحسب العمري [نقلاً عن ابن رشيق] : سهل القافية

فأدركوه وقد أشرف على الموت ، وبلغ الغلام أنه يدّعي أنه قاتله فصالحه خوفاً على نفسه . وبعد ذلك بمدة علم الشاعر « أن محبوبه النصراني (سليمان) قد مات بالإسكندرية »(76م) .

ويبدو أن عتيق بن محمد الورّاق(77) كان شاعراً غريب الأطوار ، نظم في الغزل والهجاء ومن حين لآخر في التصوّف . تحدّث عنه ابن رشيق فقال :

« دخلت الجامع في بعض الجُمَع فوجدته في حلقة يقرأ الرقائق والمواعظ ويذكر أخبار السلف الصالحين ومَنْ بَعْدَهم من التابعين ، وقد بدا خشوعه وترقرقت دموعه ، فما كان إلاّ أن جئته عشيّة ذلك اليوم إلى داره ، فوجدته ، وفي يده طنبور وعن يمينه غلام مليح وقدّامه شراب ، فقلت له : ما أبعد ما بين حالَيْك في مجلسَيْك ! فقال : ذاك بيت الله وهذا بيتي ، أصنع في كلّ واحد منهما ما يليق به وبصاحبه ، فأمسكت عنه »(77م) » .

وقدم ابن السرّاج الصوري (78) من المشرق، فالتحق بخدمة تميم ربّما قبل وفاة المعزّ بن باديس .

وهناك عدد آخر من شعراء إفريقية قد تسنّى لنا التعرّف على أسمائهم بفضل ابن رشيق(79) . إلاّ أنه من الصعب تحديدهم بالتدقيق في المكان والزمان ، ولو أن الأمر يتعلّق لا محالة بشعراء معاصرين لابن رشيق ، كانوا يعيشون في القيروان .

وكان ابن رشيق (ت . 456 هـ / 1064 م)(80) ، نجماً ساطعاً في سماء الآداب العربية ،

---

76 م) [الأنموذج ، 255] .

77) أبو بكر عتيق بن محمد الورّاق التميمي ، الكتبي ، 29/2 العمري ، م . باريس ، 49 و، 50 و .

[الأنموذج ، 255] .

78) الحلل السندسية ، مخطوط دار الكتب الوطنية التونسية ، 171 و ، المنتخب ، 50 ، مخلوف ، 132/2 ، 199 .

79) [تراجع تراجم هؤلاء الشعراء في : ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، وابن رشيق ، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي والبشير البكّوش ، المصدر المذكور] .

80) أبو الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني ، السيوطي ، البغية ، 220 ، أدباء ، 110/8-121 ، الخريدة ، العمري ، م . باريس ، 37 ظ ، 41 ظ ، العمدة في مواضع مختلفة ، الأنموذج [جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي والبشير البكوش ، تونس ، 1989] نُشِرت مقتطفات منه في جريدة تونس حسب مخطوطات الوافي للصفدي ، [قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، تحقيق الشاذلي بو يحيى ، تونس ، 1972] ، الكتبي ، 255/2 ، ابن قنفطي ، 298/1-303 ، 174/2 ، ابن خلكان ، 133/1 ، شذرات ، 297/3-298 ، ابن بسّام ، 1/4 في مواضع مختلفة ، التكملة ، 1/ عدد 660 ، التجاني ، 262 ، الحلل ، 99/1-102 ، 262 ، بساط العقيق ، 56-90 ، خلاصة تاريخ تونس ، 99 ، المنتخب ، 75-78 ، عنوان الأريب ، 52/1-54 ، ستوريا ، 39/1 ، 562/2 ، 567 ، والإحالات . المكتبة العربية الصقلية ، 591-592 ، 650-652 ، مائوية أماري ، 374/1 ، الميمني ، في مواضع مختلفة ، بروكلمان ، 307/1 ، 697/2 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 435/2-436 (محمد بن الشنب) ، أمجد الطرابلسي ، النقد الشعري عند العرب ، دمشق ، 1956 ، في مواضع مختلفة ، الفهارس ، 251 .

وبلا ريب أحد نبغاء الثقافة الأدبية بإفريقية في العصر الصنهاجي . وهو جدير بأن نخصّص له نبذة أثرى بكثير من اللّمحة الوجيزة الموالية التي لا تمثل في الحقيقة سوى جزء يسير مما يستحقّه هذا الشاعر الفذّ من تكريم .

فقد وُلد شاعرنا بمدينة المحمّدية المعروفة بالمسيلة وتربّى بها ، ثم قدم إلى القيروان سنة 406 هـ / 1015-1016 م ، أي نفس السنة التي توفّي فيها باديس ، وعمره يتراوح بين ست عشرة وعشرين سنة . فأخذ بالخصوص عن القزّاز الذي كثيراً ما كان يستشهد به ويسمّيه بشيخه ، وهو مدين له بأحسن ما اكتسبه من ثقافة . كما درس على النهشلي ، في المسيلة بلا ريب ، وابن سهل الخشني ، على الأرجح مدّة قصيرة .

وما لبث أن استرعى الشاعر الشاب انتباه ابن أبي الرجال رئيس قلم الإنشاء الذي ألحقه بدواوينه[81] ، ثم المعزّ بن باديس الذي ضمّه إلى دائرة شعرائه وجلسائه . وقد اشتهر بمنافسته لابن شرف ، بإيعاز من الأمير ذاته ، تلك المنافسة التي أوحت إليه بعدد من القصائد في الهجاء .

وبطبيعة الحال ، رافق ابن رشيق المعزّ لما انتقل إلى المهديّة سنة 449 هـ/1054 م. وعندما أغار أسطول نصراني على المهديّة تقدّم إليه شاعرنا بقصيدة مطلعها :

تـثبّـت لا يخـامـرك اضـطراب فقـد خضعت لعـزّتـك الـرقـاب

فغضب الأمير وخاطب ابن رشيق بقوله : « متى عهدتني لا أتثبّت ؟ . . . وأمر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فمزّقت وأحرقت ، وخرج الشاعر مذهولاً . ولمّا توفي المعزّ في 24 شعبان 454 هـ/2 سبتمبر 1062 م ، رثاه بقصيدة . وبعد ذلك ببضعة أشهر ركب البحر قاصداً جزيرة صقلية ، فوجد بها ابن شرف الذي سبقه إليها ، فتصالح الخصمان ، ولكنّ ابن رشيق رفض مصاحبة رفيقه في الهجرة إلى الأندلس واستقرّ بمدينة مازرة في رعاية عاملها ابن منكود ، وتوفّي بها يوم غرة ذي القعدة 456 هـ / 15 أكتوبر 1064 م ، عن سنّ تناهز السبعين .

وقد عاش الشاعر حياة أقلّ ما يقال فيها إنّها لم تكن حياة تقشّف . فكان يهجر أحياناً مقرّ عمله ، حيث نراه يعتذر لدى رئيسه ابن أبي الرجال لأنه غاب مدّة طويلة عن « الديوان » . وكان يخالط الظرفاء والشعراء المعربدين ويتردّد على الخمّارات . وكان يحبّ الخمر والمطربات والغلمان ، وقد عشق غلاماً صائغاً جميلاً مثل أدونيس . وجادت عليه قريحته بجميع الأغراض الشعرية المختصّة بشعراء البلاط ، كما ألهمته قصيدة يندب فيها خراب القيروان إثر زحفة بني هلال . إلاّ

81) على الأرجح في ديوان الجيش ، ففي أحد المخطوطات أضفى شاعرنا على نفسه لقب « كاتب جيش الأمير » ، الميمني ، 70 .

أنّ ابن رشيق قد اكتسب مجده أوّلاً وبالذات بوصفه ناقداً للأدب وراوية للأشعار والأخبار . وعلى هذا الأساس فإنّ كتابه الشهير في صناعة الشعر « العمدة » الذي قدّمه إلى مخدومه المفضّل ابن أبي الرجال ، وألّفه في سنة 420 هـ / 1029 م(82) ، يستحقّ دراسة إضافيّة ، ويسمح وحده بوضع صاحبه في المكان اللاّئق به ضمن تاريخ النقد الأدبي العربي وتقدير أصالة مؤلفه التي لا نزاع فيها .

ومن الجدير بالملاحظة أن الأمر لا يتعلّق قطّ بنقول مجهولة المصدر ، ولو أن شاعرنا يعتمد بكثرة كتابات أسلافه الشرقيين والمغاربة على حدّ السواء ، بل يتعلّق بأثر يمثّل التصوّر القيرواني للأدب ، وبالأحرى يشير إلى بعض التأمّلات حول المخاض الشعري لِـوَعْي حقيقي بإمكـانات الإبـداع وآلياته . فقد شعر ابن رشيق أنّ القضية الأساسية تتمثّل في انتقال الفكرة من أعماق اللاّوعـي إلى التعبير عنها تعبيراً جميلاً إيحائياً ، وفي القيمة السحريّة للكلام ، والقدرة المُوحِية للكلمة ، ومدلول الإيقاع والموسيقى وتناسق الألفاظ واختيار البحور ، وضرورات التفعلة والقافية الخ . . . فبإيعازٍ من أساتذته ، وبفضل صراعه المستمرّ مع شيطانه الباطني الذي نفترض أنه كان جموحاً ، وربّما من أجل هذا السبب ذاته ، لم يهمل ابن رشيق أيّ مشكل من تلك المشاكل الأساسية . فكم تضمّن كتابه من ملاحظات عجيبة بدقّتها أو عمقها حول قيمة المتقـدّمين والمتـأخّرين ، وحـول الإلهام والصنعة والفنّ والعبقرية ، والفارق بين الشاعر المطبوع والشاعر المصنوع ، والتكلّف والسجيّة ، وحول الصعوبة المنشودة أو المقهورة ، وعدم التكلّف التلقائي أو المتصنّع بمهارة .

وقد أعلن ابن رشيق بصريح العبارة في مقدّمة كتابه أنه استند أوّلاً وقبل كلّ شيء إلى تجربته الذاتية . ويكفي هذا الاعتراف لاستثناء **العمدة** من هذيان المتحذلقين .

كما ألّف شاعرنا عدّة كتب أخرى في النّقد ، نخصّ بالذكر منها رسالة **قراضة الذهب في نقد أشعار العرب**(83) حول السّرقات الشعرية وأعدّ بعض الدراسات اللغوية ، بل ألّف أيضاً شرحاً على **الموطّأ** .

وتدلّ المقاطع التي نقلهـا بعض الرواة فيـما بعد من كتـابه « **أنمـوذج الـزمـان في شعـراء القيروان** »(84) على أهمية هذه المدوّنة المخصّصة لشعراء إفريقية [في القرن الخامس من الهجرة] ،

---

82) حسب ح. ح. عبد الوهاب ، **بساط العقيق** . ووردت في **العمدة** ، 124/1 هذه الإشارة الثمينة : روى لنا الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل (الخشني ت. 406 هـ/ 1015-1016 م) رحمه الله . . . ومن ناحية أخرى فإن الشخص الذي أُهدِيَ إليه الكتاب قد توفّي سنة 426 هـ/ 1034-1035 م .

83) وجّه الشّاعر هذه الرسالة إلى الشيخ أبي الحسن علي بن أبي القاسم اللواتي .

84) وحول تاريخ تأليف هذا الكتاب روى العمري (المسالك ، مخطوطة باريس ، 100 و) أن ابن رشيق قال : « محمد بن =

وقد تسنّى لنا بفضلها معرفة الكثير منهم ، كما تشهد بذلك الصفحات السابقة . وفي آخر حياته ألّف ابن رشيق كتاباً أدبيّاً جمع فيه أشعار بعض شعراء المهدية ، ولكنّنا لا نعرف عنه إلا عنوانه ، وهو : **الرّوضة الموشّية في شعراء المهديّة** .

وبفضل ابن رشيق ومؤلفاته ، نستطيع أن نتصوّر النشاط الأدبي في إفريقية في أوج الدولة الصنهاجية .

ويمثّل ابن شرف(85) العصر الذهبي للأدب في عهد الدّولة الصنهاجية ، بتألّق لا يقلّ عن تألّق منافسه ابن رشيق . وقد وُلد بالقيروان حوالي سنة 390 هـ / 1000 م ، وبها أخذ اللغة والنحو عن القزّاز ، والأدب عن الحصري ، والفقه عن القابسي وأبي عمران الفاسي . وما لبث أن تألّق في كلّ هذه العلوم وفرض نفسه كشاعر وناثر ، بل حتى كفقيه بارع ، وأصبح محسوب رئيس قلم الإنشاء ابن أبي الرجال الذي يبدو أنه ألّف له **رسائل الانتقاد** .

ورغم أنّه كان أعور ، فقد نجح في البلاط ، وسرعان ما اتّخذت منافسته الأدبية مع ابن رشيق شكلاً حادّاً . وقد ابتهج بها شديد الابتهاج رجال البلاط والأمير ذاته الذي كان يستمتع بمناظرات الشاعرَيْن . وسرعان ما اكتسى ذلك الصراع الذي كان مبعثاً للشائعات صبغة شبه خرافية ، لفائدة سمعة شاعرنا ، لأن أصحاب التراجم كانوا يعتبرونه أقلّ قيمة بقليل من صاحب **العمدة**(86) .

= عبدون الورّاق ليس سوسيّاً على الحقيقة بل من أكابر القيروان وبها مقامه الآن » . ومن المعلوم أن الورّاق قد توفّي حوالي سنة 400 هـ/ 1009-1010 م .

85) أبو عبدالله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي ، ابن بسّام ، 1-74/1 ، 4-14/1 ، 108 ، 133-186 ، ابن شرف ، **رسائل الانتقاد** ، تحقيق ح. ح. عبد الوهاب ، **مسائل الانتقاد** ، تحقيق وترجمة شال بلّا ، ريزيتانو ، **ابن شرف القيرواني** . . . ، روما ، 1956 ، 51-72 (تقديم وترجمة رسالة الانتقاد) ، **التكملة** ، 1 ، عدد 224 ، **أدباء** ، 19/37-43 ، الكتبي ، 2/204-205 ، المكتبة العربية الصقلية ، 651 ، السيوطي ، **البغية** ، 46 ، ابن **قنفطي** ، 1/301-302 ، **معالم الإيمان** ، 15/1 ، 233/3 ، 238-241 ، **الخريدة** ، م. باريس ، 3331 ، 34 و ، 38 و ، العمري ، م. باريس 43 ظ ، 46 ظ ، الصفدي ، 3/97-101 ، عدد 1036 المراكشي ط . 1847 ، 260 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954، 188-189، 1955، 50-51، **بساط العقيق**، 48-49، 53-53، **المنتخب**، 78-81 ، الميمني ، 90-115 ، **عنوان الأريب** ، 1/56-57 ، **ظهر الإسلام** ، 307 ، مخلوف ، 110/1 ، عدد 289 ، بروكلمان 315/1 (268) الذيل ، 473/1 .

86) العمري ، م. باريس ، 44 ظ ، 55 و ، رأي ابن رشيق في ابن شرف : «شاعر حاذق ، متصرّف كثير المعاني والتوليد ، جيّد المقطعات والتصيد » .

وقد فارق ابن شرف القيروان إثر زحفة بني هلال ، قبل انصراف الأمير بقليل ، أي على الأرجح في سنة 447 هـ / 1055 م[87] ، وتوجّه إلى المهدية حيث أقام برهة من الزمن عند تميم بن المعزّ ، ثم قصد صقلية في وقت لا نعرفه بالضبط ، والتحق به كما أسلفنا ابن رشيق بعد وفاة المعزّ ببضعة أشهر ، وتصالح رفيقا الهجرة ..

وبعد ذلك بقليل توجّه ابن شرف مع عائلته إلى الأندلس[88] ولم يتمكّن من إقناع خصمه السابق بمرافقته . فأخذ يتردّد على ملوك الطوائف الأندلسيّين ، ويبدو أنه أقام بالقرب من المرية ، وتقول المصادر إنه توفّي يوم غرّة محرم 460 هـ / 11 نوفمبر 1067 م بإشبيلية . وخلّف هو أيضاً ابناً اشتهر بالأدب[89] .

وقد شبّه ابن بسّام[90] ابن شرف الذي كان يعتبره أقلّ قيمة من ابن رشيق ، بابن درّاج القسطيلي (ت . 421 هـ / 1030 م) الذي اشتكى من صروف الدّهر ، مثلما ندب ابن شرف خراب القيروان[91] .

وقد مدح شاعرنا ابن أبي الرجال[92] ، وجمع قصائده في ديوان لم يصلنا . كما جمع تحت عنوان **أبكار الأفكار** منتخبات من شعره ونثره .

ولا نعلم محتوى كتابه **لُمح المُلَح** (الذي هو نوع من المنتخبات الأدبية)[93] . ولكن لدينا قسم هامّ من الكتاب الذي ألّفه في آخر حياته بالأندلس ، ويعتبره أصحاب التراجم من أحسن مؤلّفاته ، وهو كتاب **أعلام الكلام** .

[كما ألّف **رسائل الانتقاد**] التي هي عبارة عن مقامات على لسان شخص خيالي اسمه

87) قدّمت جميع المصادر هذا التاريخ ولكنها أشارت إلى أنه ذهب مع المعزّ (أواخر شعبان 449 هـ/ أكتوبر 1057 م) . ويمكن أن نلاحظ مرّة أخرى إمكانية الخلط بين 7 و 9 .

88) ابن شرف ، **مسائل الانتقاد** ، يبدو تاريخ 449 هـ/ 1057 م مغلوطاً ، لأنه من الصعب تسبيق تاريخ رحيل ابن رشيق بخمس سنوات . فالغالب على الظن أن هذا الأخير كان موجوداً بالمهدية عندما توفي المعز بن باديس ، فقد رثاه بقصيدة ولم يغادر المهدية إلاّ بعد ذلك ببضعة أشهر ، غرسيا غوميز ، نشرية مجمع قرطبة ، 1929 ، 162 ، الإحالة 3 .

89) أبو الفضل جعفر (ت . 534 هـ/ 1139-1140 م) ، **مسائل الانتقاد** ، المقدمة ، 20 ، الإحالة 7 . المقري . ط. القاهرة 1949 ، 4/363-367 ، **الخريدة** ، م. باريس ، 7 و .

90) ابن بسّام ، 4/133 ، **مسائل الانتقاد** ، 110 .

91) الميمني ، 98-100 ، 110 ، ابن بسّام ، 1-1/74 .

92) الميمني ، 107-110 ، **المنتخب** ، 80 ، ابن بسّام ، 4-1/173-174 .

93) ابن بسّام ، 4-1/138-151 : الكتب التي ألّفها في الأندلس سابقة لكتاب **أعلام الكلام** .

أبو الريّان الصّلت السلهاني ، يتحاور مع المؤلف[94] . وقد أعلن المؤلف بصريح العبارة أنه نسج على منوال ابن المقفع وسهل بن هارون وبديع الزمان الهمذاني .

ويتّضح من هذا الكتاب أنّ ابن شرف كان ناقداً بارزاً من طراز ابن رشيق ، وأنه يتميّز بنفس ما يتميّز به صاحب العمدة من فكر ثاقب ونلاحظ كيف دافع عن « المحدثين » بحقّ ، وانتقد « القدماء » بتجرّد .

واشتهر عبد الله الشقراطسي (ت . 466 هـ / 1073-1074 م) بقصيدته المعروفة بالشقراطسية في مدح خير البريّة . وقد علّق عليها الكتّاب مرّات عديدة خلال القرون السالفة[95] .

ورغم هجرة كثير من رجال الأدب (إلى الشرق وصقلية والمغرب الأوسط والأندلس) ، فإن غزوة بني هلال لم تضع حدّاً للنشاط الأدبي الذي ظلّ مزدهراً في إفريقية ، بفضل العديد من ملوك الطوائف الذين عُرِفوا برعايتهم للأدب في كلّ من قفصة وقابس وسوسة وتونس وبنزرت . ولكنّ الآداب قد شهدت عهدئذ ازدهاراً خاصّاً في المهدية .

فقد انتقل العالم الصقلي أبو حفص عمر بن خلف بن مكي[96] إلى مدينة تونس وولي قضاءها في عهد بني خراسان . وهو فقيه ومحدّث وخطيب ، « له خطب لا تقصر عن خطب ابن نباتة » ، ولغوي صاحب كتاب تثقيف اللسان ، وهو شاعر أيضاً ، « وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة مأثور مرويّ » . وقد دُفِن في مدينة تونس .

ويبدو أن ابن فضّال الحلواني[97] قد توجّه بعد غزوة بني هلال إلى صقلية ثم الأندلس ،

---

94) إن الأسلوب غير اللائق الذي اتّبعه المؤلف يجعل من الصعب الاعتقاد أن ذلك الشخص يتطابق مع ابن أبي الرجال العظيم ، مسائل أدبية ، 2-3 ، 115 .

95) المنتخب ، 86-88 ، عنوان الأريب ، 42/1-43 . والجدير بالملاحظة أن هذا الشاعر هو ابن أبي زكرياء الشقراطسي الذي سبقت الإشارة إليه .

96) ابن قنفطي ، 329/2 ، الخريدة ، م. باريس ، 45 و ، 46 و [قسم شعراء المغرب ، ط . 3 ، تونس 1986 ، 106/1] ، ح. ح. عبد الوهاب ، الجمانة ، القاهرة 1953 ، المقدّمة .

97) أبو الحسن عبد الكريم بن فضّال القيرواني الحلواني ، ابن بسّام ، 4-219/1-231 ، العمري ، م. باريس ، 180 ظ ، الخريدة ، م. باريس ، 17 ظ ، 18 و ، معالم الإيمان ، 14/1 ، الميمني ، 103 ، الإحالة 2 . النجوم ، 124/5 : علي بن فضّال بن علي أبي الحسن المغربي القيرواني ، شاعر وناثر ، توفّي في غزنة في ربيع الأول 479 هـ/ 16 جوان ـ 15 جويلية 1086 م ، الخريدة ، م. باريس ، 120 و ، 121 و : أبو الحسن علي بن فضّال القيرواني المجاشعي النحوي (ذكر من بين المغاربة الذين ارتحلوا إلى سوريا أو العراق) . ولعلّ الأمر يتعلق بأحد أقرباء الحلواني .

وفيها ذاع صيته . وقد كان شعره متميّزاً بالروعة والرقّة والبساطة .

كما يبدو أنّ ابن الطلّاع[98] المهدوي قد عاش في نفس تلك الفترة وهاجر هو أيضاً إلى الأندلس .

وكان أبو الحسن علي الحصري[99] ، ابن عمّ إبراهيم الحصري صاحب كتاب زهر الآداب ، أو ابن أخته ، « قارئاً » وأديباً حاذقاً وشاعراً مفلقاً . وقد هاجر إلى الأندلس في سنة 450 هـ / 1058 م ، وحظي برعاية ملوك طوائفها . وكانّ ميّالاً إلى الهجاء ، واشتهر في القيروان بمعرفته للقراءات السبع ، وعُرِف بالإمام في هذا الفنّ . وهو مؤلف منظومة مشهورة في قراءة نافع . وقد أوحى إليه خراب القيروان ، ووفاة ابنه بعد رحيله من إفريقيّة ، بقصائد غرّاء[99م] .

وهاجر إلى الأندلس الشاعر والأديب القيرواني أبو الطيب عبد المنعم الذي ألف رسالة لنقض رسالة الشعوبي الشهير ابن غرسية[100] .

وأمّا العالم ابن الحدّاد المهدوي[101] (ت . حوالي 490 هـ / 1097 م) الذي كان الأمير تميم بن المعزّ يجلّه ويقدّره ، فقد اختصّ بتدريس النحو وألّف عدّة كتب في هذه المادة .

وبالإضافة إلى الشعراء الإفريقيين الذين يتعذّر عليهم استعراضهم كلّهم[102] ، تجدر

---

98) أبو محمد المهدوي المعروف باسم ابن الطلّاع ، ابن بسّام ، 4-222/1 ، العمري ، م. باريس ، 181 ظ .

99) أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الحصري ، ابن بسّام ، 4-192/1-216 ، الحميدي ، 296 عدد 716 ، ابن خلكان ، 342/1-343 ، ابن جزري ، 550/1-551 عدد2250، معالم الإيمان ، 250/3 ، شذرات ، 385/3-386 ، العمري ، م باريس ، 180 و ، ظ ، الخريدة ، م. باريس ، 16 ظ ، 188 و ، ظ : ترجمة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الحصري ، عنوان الأريب ، 55/1-56 ، المنتخب ، 84-86 ، ح. ح. عبد الوهاب ، مجلة الثريا ، نوفمبر 1944 .

99 م) [واشتهر علي الحصري بقصيدته : « يا ليل الصبّ متى غده » ، التي « عارضها جماعة لا تحصى من الشعراء المتقدمين والمعاصرين » ، ح. ح. عبد الوهاب ، مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص 159] .

100) أبو الطيّب عبد المنعم بن منّ الله بن أبي بكر الهوّاري ، ويبدو أن ابنه أبا بكر محمّد هو الذي عُرِف باسم ابن الكمّاد ، الصلة ، 383/1 ، عدد 385 ، التكملة ، 1 ، عدد 1051 و1052 ، نوادر المخطوطات ، القاهرة ، 1373 هـ/ 1953 م ، عدد 14 ، مجلة أرابيكا ، 1954 ، 371 .

101) أبو الحسن علي بن محمد بن ثابت الخولاني المعروف باسم ابن الحدّاد المهدوي ، ابن الأبار، الحلّة ، 307/1-309 ، البلدان ، 208/8 ، البيان ، 298/1 ، ابن خير ، 319-320 ، المنتخب ، 88-89 ، مخلوف ، 481/1 ، التجاني ، 238 .

102) الخريدة ، م . باريس ، 67 ظ ، 68 و [ط . تونس 160/1-163] ؛ حميد بن سعيد بن يحيى الخزرجي ، من ندماء تميم بن المعزّ ، وقد جمع شعره ، نفس المصدر ، م . باريس ، 67 و ، مكرّر : الحصيبي شاعر بلاط تميم ، ابن الأبار ، =

الإشارة إلى الشعراء الأجانب الذين عاشوا في بلاط الأمير تميم بن المعزّ ، وقد كان هو نفسه شاعراً مفلقاً ، تغنّى بملذّات الحياة[104] .

كما نشير أيضاً إلى الشاعر ابن النحوي التوزري[105] ت . 513 هـ / 1119-1120 م) الذي زاول دراسته في توزر والقيروان ، ثم طاف في أرجاء المغرب واستقرّ أخيراً في قلعة بني حمّاد . وقد تصدّر للتدريس واشتهر بقصيدته « المنفرجة » السائر ذكرها في الأقطار .

وكـان مظفّـر بن علي[106] ، كـاتب المعزّ بن بـاديس ، ثم كاتب حمّـو بن مليل صـاحب صفاقس ، أديباً أريباً ، كما أسلفنا .

وكان ابن عَيْذُون[107] التونسي (ت . بالإسكندرية أواخـر 519 هـ / 1126 م) من كبار علماء اللغة في عصره .

ويُعتبَر ابن بشير[108] من أحسن الشعراء الذين مدحوا عليّاً بن يحيى بن تميم . إلاّ أنّ أجْوَد مَنْ مدحوا آخر أمراء بني زيري هو بلا نزاع الشاعر الصقلي الذائع الصيت ابن حمديس[109] الذي

= الحلّة ، 308 : أبو الحسن بن خصيب ، أبو عبد الله محمد بن علي القفصي الأعمى ، ابن بسّام ، 1-351/11 : عتيق المغنّي المهدوي ، ابن خلكان ، 339/1 والكامل ، الترجمة 510 : ابن محمد خطيب سوسة (أو ابن خطيب سوسة) الخريدة ، م . باريس ، 68 و [ط . تونس ، 164/1] : محمد بن حبيب المهدوي القلانسي ، شاعر تميم ، الباب السادس الفصل الثاني من هذا الكتاب (مدة ولاية علي بن يحيى) : محمد بن عبد الله الكاتب ، نقائش عربية ، 2/ عدد 384 .

103) ابن الأبار ، الحلّة ، 308/1 : أبو إسحاق بن خفاجة (انظر أيضاً الخريدة ، م . باريس ، 1 ظ [ط . تونس 147/3] ، عبد الله بن عبد الجبار الطرطوشي ، أبو الحسن علي بن عبد العزيز الحلبي ، المعروف باسم الفكيك .

104) ابن الأبـار ، الحلّة ، 307-310 ، أعـمال ، 457 ، الخـريـدة ، م . بـاريس ، 59 ظ ، 67 ظ [ط . تـونس 141/1-160] ، وقد أورد المؤلف مقطوعات كثيرة من ديوان تميم سلمها إليه ابن شدّاد .

105) أبو الفضل (أو أبو المحاسن) يوسف بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النحوي التوزري ، المنتخب ، 91-92 ، عنوان الأريب ، 50/1-52 ، الخريدة ، م . باريس ، 132 و ، المكتبة العربية الصقلية ، 603 .

106) التجاني ، 52-53 ، الحلل ، 137/1-138 ، مقديش ، 83/2 .

107) أبو الحسن علي بن عبد الجبّار بن سلامة بن عيذون الهذلي التونسي ، ابن قفطي ، 292/2-293 ، عدد 474 ، أدباء ، 8/14-10 شذرات ، 59/4 . وقد نظم قصيدة ذات قافية واحدة تشتمل على 11000 بيت للحضر « المرتدّ البغدادي » ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 146 .

108) أبو عبد الله محمد بن عبد الصمد بن بشير التنوخي المهدوي ، التجاني ، 72 ، الحلل ، 243/1 ، مخلوف 126/1 عدد 366 ، المنتخب ، 93 ، الخريدة ، م . باريس ، 117 ظ ، 118 و ، الصفدي ، 258-259 ، عدد 1286 .

109) أبو محمد عبد الجبّار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي ، ابن حمديس ، الديوان ، نشر سكيابرلي ، الخريدة ، م . بـاريس ، 20 ظ ، 27 و ، العمري ، م . بـاريس ، 74 و ، 77 و ، الصفـدي ، Reudiconti ، 565/22 ، =

هاجر أوّلا إلى إفريقية ثم إلى الأندلس ، وقدم بعد ذلك إلى المهدية والتحق بخدمة علي ثم الحسن (على الأقلّ حتى سنة 1123 م)(110) . وإثر ذلك انتقل إلى ميورقة (أو بجاية) وبها توفّي ، وكانت صنعة الشعر عند ابن حمديس جديرة بابن شرف أو ابن رشيق ، ولكنه كان يتميّز بنبرات خاصّة ، لا سيما عندما يتغنى بملذات الحياة .

وكان أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز(111) أحد كبار ممثّلي الثقافة المغربية في عصره . ويحقّ لإفريقية أن تنسبه إلى نفسها ، لأنه عاش في ربوعها من سنة 506 هـ / 1112-1113 م ، إلى أن أدركته المنيّة سنة 529 هـ / 1135 م ، ودُفِن بالمنستير . وقد تسنّى لهذا الرجل المتعدّد الاختصاصات ، بفضل تبحّره في شتّى العلوم والفنون ، أن يتألّق في عدّة موادّ أدبية وعلمية أو شبه علمية . وكنّا أشرنا في مقدّمة هذه الدراسة إلى كتاب الأخبار الذي وضعه أبو الصّلت لصاحب

ابن خلكان ، 302/1-303 ، النويري ، 105/1 التكملة ، 2/ عدد 178 ، ستوريا ، 592/2-602 تكملة المجلد الثاني ، ص 15-17 ، المكتبة العربية الصقلية ، 607 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، المجلة التونسية 1917 ، 18-19 ، عنوان الأريب ، 125/1 ، بروكلمان ، 317/1 (269-270) ، الذيل ، 474/1 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 406/2 ، ابن حمديس ، تأليف فـ . غريالي ، مازرة 1948 . واعتبر ابن بشرون ابنه محمد أعلى قيمة من أبيه ، الخريدة ، م . باريس 27 و ، ستوريا ، 602/2 ، المكتبة العربية الصقلية ، 607-608 .

110) تاريخ واقعة رأس الديماس التي أوحت إليه بقصيدة . انظر الفصل الرابع من الباب السادس : واقعة الديماس (517 هـ/1123 م) .

111) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الدّاني الأندلسي ، انظر بالإضافة إلى المصادر التي سيرد ذكرها في الفصل الخامس من هذا الباب : التكملة ، تحقيق ابن الشنب عدد 539 ، ابن أبي أصيبعة ، كتاب طبقات الأطبّاء ، 52/2 أدباء ، 52/7 ، ط . الجزائر 1958 م ، 54-80 ، الصفدي ، المجلة الآسيوية مارس - إفريل 1912 م/289 ، الرسالة المصرية ، في نوادر المخطوطات ، 1/ القاهرة 1370 هـ/1951 م ، الخريدة ، م . باريس ، 76 و ، 114 ظ [ط . تونس ، 189/1-270] ، التجاني ، 53 ، الحلل ، 138/1-139 ، م . تونس ، 175 ظ ، ابن الصيرفي ، المقدمة ، 110 ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، 250/1 ، المكتبة العربية الصقلية ، 600-603 ، عنوان الأريب ، 58/1-59 ، مقديش ، 83/2-84 . وأورد صاحب الخريدة [ط . تونس 273/1-284] قائمة الأشخاص الذين كان يتبادل معهم أبو الصلت الرسائل نظماً ونثراً وهم : أبو الضوء سراج بن أحمد بن رجاء الكاتب الذي نظم قصيدة في رثاء ولد رجار ملك صقلية (استشهاد بكتاب المختار في النظم والنثر لأفاضل العصر لابن بشرون) ، وأبو أبو عبد الله محمد بن عبد الصمد بن بشير التنوخي (السالف الذكر) وأبو جعفر عبد الوالي البني الكاتب وأبو حفص عمر بن علي المعروف باسم الزكرمي المهدوي والشيخ أبو الفضل جعفر بن الطيب بن أبي الحسن الواعظ . وذكر العماد الأصفهاني أنه اطلع على ديوان أبي الصلت في دمشق ، وقد كانت القصائد مرتبة على حروف الهجاء وأحياناً مؤرّخة .

[انظر أيضاً ، محمد المرزوقي ، ديوان الحكيم (أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني) ، تونس 1974 م] .

112) انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

المهدية[113] . وقد برع في مدح أمراء بني زيري الثلاثة الأخيرين ، ويكفي شعره الرائع لدعم شهرته ، ونـزولاً عند رغبة الأمير المتنوّر وراعي الأدب يحيى بن تميم الذي كانت ثقافته تجمع بين الأدب وعلم الفلك والكيمياء ، ألّف أبو الصلت الرسالة المصريّة التي تتضمّن وصف مصر كما شاهدها المؤلف ، ولا تخلو من الطرافة[114] .

كما ألّف للأمير الحسن كتابه الشهير الحديقة الذي ترجم فيه لشعراء عصره . ويقال إنه كتبه على أسلوب كتاب الثعالبي يتيمة الدهر[115] . وأخيراً فهو صاحب كتاب في علم المنطق ، يحمل عنوان : **تقويم الذهن في المنطق** .

وكان ابنه عبد العزيز بن عبد العزيز (وُلِد بالمهدية وتوفّي في بجاية سنة 546 هـ / 1151 م) شاعراً حاذقاً ولاعباً بارعاً من لاعبي الشطرنج[116] .

ونقلت لنا المصادر أسماء بعض الأدباء والشعراء المقلّين الذين عاشوا في أواخر العصر الصنهاجي[117] ، وسنكتفي بالإشارة إلى اثنين منهم ، وهما :

1 ـ التّراب السوسي[118] المشهور بقصيدته الطويلة التي مدح بها جبارة بن كامل صاحب سوسة . وقد أوردها التجاني في رحلته مبرّراً ذلك بقوله : « وقد أولع أعراب زماننا بإنشادها وتردادها ، ولأجل ذلك ذكرناها بكمالها وإن كان فيها بعض طول ، فإن الحسن غير مملول »[119] .

2 ـ الشاعر الهلالي فرحان القابسي[120] (ت . 555 هـ / 1160 م) ، وزير مدافع بن رُشيد

---

113) انظر مقدّمة هذا الكتاب (الجزء الأول) .

114) [الرسالة المصرية : مطبوعة حققها ونشرها عبد السلام هارون في الجزء الأول من مجموعة نوادر المخطوطات ، ذكرها ياقوت في المعجم وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء وقال إنها « في وصف هيئة مصر وآثارها ومن اجتمع فيها من أطبّاء ومنجّمين وشعراء» ، ألفها ليحيى بن تميم] .

115) [الخريدة ، ط . تونس ، 189/1] .

116) ابن خلكان ، 1/80-81 ، شذرات ، 84/4 ، الخريدة ، م . باريس ، 114 و ، ظ .

117) [انظر تراجم هؤلاء الشعراء في المصادر السالفة الذكر وبالخصوص الخريدة ، وكتاب الجنان لابن الزبير ومسالك الأبصار] .

118) الخريدة ، م . باريس ، 54 ظ ، 57 ظ ، التجاني ، 31-37 ، الحلل ، 1/123-128 ، عنوان الأريب ، 1/49-50 .

119) نقل التجاني هذه القصيدة بحذافيرها .

120) سلاّم بن أبي بكر بن فرحان الهلالي ، الخريدة ، م . باريس ، 51 و ، 52 و ، ط . تونس ، 123/1 المكتبة العربية الصقلية ، 598-599 ، المنتخب ، 96 ، عنوان الأريب ، 60/1 . وقد توفي كما أسلفنا (الفصل 6 الباب 6) في أواخر شعبان 554 هـ/. أوائل سبتمبر 1159 ـ .

صاحب قابس ، ومادحه .

ويبدو أنّ الحياة الأدبية في إفريقية بعد غزوة بني هلال ، قد تميّزت بثلاث خصائص وهي : استمرار التقاليد القيروانية التي انتشرت في جميع آفاق البلاد ، واستيعاب بعض الأعراب المقيمين في المدن لتلك التقاليد ، وظهور اتّجاه جديد نحو إكساب الشعر صبغة بدويّة .

الفصل الرابع
الثقافة العبريّة

لقد اشتهرت المدرسة العبرية في القيروان عند ظهور الدولة الصنهاجية[1] ، بفضل عالِمَيْن جليلَيْن هما : إسحاق بن سليمان الإسرائيلي[2] (ت . حوالي 320 هـ / 1120 م) ودونش بن تميم[3] . فقد عُرِف إسحاق بن سليمان بوصفه طبيباً يحظى بتقدير الفاطميّين وثقتهم . أمّا زميله أبو سهل دونش بن تميم ، فهو صاحب شرح سفر التكوين الذي وضعه سنة 344 هـ / 955-956 م ، وهو عبارة عن محاولة تأليفية رائعة محرّرة في الأصل باللغة العربية ، حول الإسهامات الإغريقية العربية والشريعة الموسويّة[4] ، وتدلّ المقاطع التي وصلتنا من نقل هذا الكتاب إلى اللغة العبرية ما كان يتمتع به صاحبه من ثقافة موسوعية ومن معرفة جيّدة بالنظريات النحويّة العربية على وجه الخصوص . وقد استوحى دونش بعض أفكاره من الشرح الذي وضعه سعدية بن يوسف الفيّومي (268-331 هـ / 882-942 م) ، ولكنه نقض في كثير من المسائل آراء ذلك « الرائد العالمي » الشهير[5] . وذكّر دونش في مقدمة كتابه بأن سعدية كان ، قبل انتقاله من فيّوم إلى بغداد ، يتبادل الرسائل مع أستاذه إسحاق بن سليمان . ورغم أنّ عمره لم يكن يتجاوز آنذاك العشرين سنة ، كان دونش يبينّ أخطاء سعدية لأستاذه إسحاق بن سليمان المبتهج بنضج تلميذه المبكّر . وكان دونش طبيب الخليفة الفاطمي المنصور ، وقد قدّم إليه أحد المصنّفات التي ألفها في علم الفلك . كما كان

---

1) دائرة المعارف اليهودية ، 1414/7-1416 .

2) إسحاق الإسرائيلي : G. Vajda ، مدخل للفكر اليهودي ، 65-68 ، 222 ، ابن أبي أصيبعة ، 1958 ، 6-8 .

3) دونش بن تميم : G. Vajda ، المرجع المذكور ، وبالخصوص أطروحته ، الشرح القيرواني على سفر التكوين ، باريس ، 1945 (أطروحة مرقونة في مكتبة الصوربون) ، مجلة الدراسات اليهودية ، 7 (CVII) ، 1946-47 ، 97-156 ، 10 (CX) ، 1949-50 ، 67-92 ، 12 (CXII) ، 1953 ، 3-5 . حوليات معهد فقه اللغة والتاريخ الشرقي والسلافي ، 1953/13 ، تحية إيزيد ورليفي ، 641 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة الندوة التونسية ، جانفي 1953 ، [انظر أيضاً لنفس المؤلف ، ورقات ، 297/1-300] .

4) تفضّل G. Vajda بإعلامنا أنّه تحصّل على قطعَتَيْن هامتيْن من الأصل العربي .

5) G. Vajda ، مدخل للفكر اليهودي ، 45-60 .

يتبادل الرسائل مع اليهودي الأنـدلسي الشهير أبي يـوسف حسداي بن إسحـاق بن شبروت(6) (302-359 هـ / 915-970 م) ، وزير عبد الرحمان الثالث الذي ألّف لـه كتابـاً حول التقـويم اليهودي .

ونكاد لا نعلم أيّ شيء عن ظمح بن مـر بهلول(7) الذي كـان رئيس الطائفـة اليهوديـة بالقيروان في عصر كبير الأحبار شريرة (الثلث الأخير من القرن العاشر ميلادي) . وقد أثبت ج . فَجْدَا أنّ بعض الكتّاب قد نسبوا إليه خطأً شرح سفر التكوين الذي هو من تأليف دونش ، كما أسلفنا . وقد اشتهر بالخصوص بتوجيهه على لسان الطائفة اليهودية بالقيروان إلى شريرة مجموعة من الأسئلة المكتوبة حول الروايات التلمودية وطريقة تبليغها ، ولدينا نصّ جواب شريرة الذي يُعتبر وثيقة على غاية من الأهمية حول التاريخ اليهودي(10) ، وقد كان نصفه محرّراً باللغة الأرامية ، والنصف الآخر باللغة العبرية . كما وجّه إليه شريـرة رسالـة حول الألقـاب المسندة إلى العلماء التلموديّين . وتبادل يعقوب بن نسيم الرسائل مع الحاخام الأكبر هاي الذي استفتاه تلاميذ يعقوب حول القدرة الإعجازية لأسماء الإلاه .

ولتقدير أهميّة المدرسة اليهودية بالقيروان حقّ قدرها ، نذكّر بأن آسيا لم تعد هي الموجّهة للديانة اليهودية ، إثر انحطاط المدرسة البابلية . فقد شهد القرنان العاشر والحادي عشر من الميلاد تقلّص نفـوذ كبـار الأحبـار البـابليّـين ، رغم جهـود شريـرة وصمـوئيـل بن حُفْني(11) (ت . 403-404 هـ / 1013 م) وهاي(12) (ت . 429-430 هـ / 1038 م ز ، في حين كان غرب العالم القديم يشهد ازدهار الثقافة اليهودية الأندلسية التي شجّع بنو أميّة تطوّرها ، لفصل رعاياهم اليهود عن الخلافة العباسية في بغداد(13) . وتبعاً لذلك لم تعد القيروان التي كانت تمثل همزة الوصل بين الديانة اليهودية البابلية والأندلسية ، تقوم بذلك الدور ، إذ أنّ المدارس التي تأسّست في قرطبة

---

6) Graetz ، 215/3 وما بعدها ، Sarton ، 680/1 .
7) دائرة المعارف اليهودية ، 414/7-416 .
8) نفس المرجع ، 285-286/11 ، Sarton ، 687/1 .
9) نفس المرجع ، 40/7
10) نفس المرجع ، 284/11-285 .
11) G. Vajda ، المرجع المذكور ، 62 ، Graetz ، 252-253 .
12) G. Vajda ، نفس المرجع ، 62 ، دائرة المعارف اليهودية ، 153/6-155 ، Graetz ، 250/3-253 .
13) Graetz ، 215/3 وما بعدها .

ولوسينة وغرناطة بعناية يهود الأندلس المتمتعين بنفوذ ثقافي وسياسي واجتماعي كبير ، قد عوّضت المجمع اليهودي البابلي في كلّ من صورة ويمبديثة[14] .

ومن ناحية أخرى ، سمحت الفتوحات الفاطمية ليهود المغرب ، ولا سيما منهم يهود القيروان ، بالاتصال بفلسطين وإحياء تلمود أورشليم الذي هو أقدم من تلمود بابل ، وقد كان متفوقاً عليه إلى حدّ ذلك التاريخ .

فأصبحت الديانة اليهودية الإفريقية قادرة حينئذ على القيام بدور أكبر فأكبر ، لا سيما وهي لم تتعرّض ، حسبما يبدو ، لسياسة الاضطهاد التي أمر الخليفة الفاطمي الحاكم (ت . 411 هـ / 1020 م) باتباعها ضدّ اليهود والنصارى ، ولو أن آثار تلك السياسة في مصر ما زالت في حاجة إلى التوضيح[15] .

وقد شجّع نفوذ الحاخام حوشيعيل بن الهنن[16] القادم إلى القيروان حوالي سنة 380 هـ / 990 م ، الدراسات التلمودية وأعطاها اتجاهاً جديداً .

وقد وُلد هذا الحاخام على الأرجح في إيطاليا . ذلك أن الرسالة التي وجّهها إلى كبير أحبار القاهرة شمرية بن الهنن تسمح بالتأكيد أنه قدم إلى القيروان زائراً ثم استقرّ بها . وقبل اكتشاف هذه الوثيقة ، كان من المسلّم به ، استناداً إلى شهادة المؤرخ اليهودي الأندلسي إبراهيم بن داود (القرن 12 م) ، أن أربعة أحبار قادمين من صورة ومكلّفين بجمع مساهمات مختلف الطوائف اليهودية[17] ، كانوا موجودين على متن سفينة ، استولى عليها أمير البحر الأموي عبد الرحمان بن رماجس[18] في البحر الأدرياتيكي . ويقال : إن الأسرى الأربعة قد افتداهم بنو ملّتهم ، وإن شمرية الذي بيع في الإسكندرية قد أصبح رئيس الطائفة اليهودية في القاهرة . وتوجّه ناتان بن إسحاق كوهن إلى نربونة ، في حين أصبح موشي بن حنخ رئيس الطائفة اليهودية في قرطبة وأُنزِل حوشيعيل في المهدية وعُرِض للبيع في القيروان فافتداه أحد الأشخاص[19] .

---

14) نفس المرجع ،281-215/3، G. Vajda ، المرجع المذكور ، 79-94 .

15) Graetz ، 248-247/3 ، خطط ، في الاتعاظ ، 299-314 .

16) دائرة المعارف اليهودية ، 511-510/6 ، D. Cazés ، 62-64 ، Graetz ، 210-208/3 .

17) حول الأموال التي كانت ترسلها الطّائفة اليهودية بالقيروان إلى المجامع اليهودية بواسطة السفاتج ، انظر :

- W. J. Fischel, Jews in the economic political life of mediavel ıslam .
- J. Mann, Texts and studies in jewsh history and lıterature, 1/143-144.

18) ليفي بروفنسال ، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ، 153-155 ، تاريخ إسبانيا الإسلامية ، 231/3 .

19) J. Mann ، المرجع السابق ، 26/1-27 .

ومهما يكن من أمر ، فقد أصبح حوشيعيل ، بفضل معرفته الجيّدة بالتلمود ، يتمتع بنفوذ كبير ، إلى درجة أنه عُيِّنَ رئيساً للطائفة اليهودية بالقيروان ، بلا شكّ بعد وفاة يعقوب بن نسيم .

وقد صار حوشيعيل من كبار العلماء التلموديّين ، إن لم يكن أكبرهم في القرن العاشر من الميلاد . فذاع صيته وأصبحت الفتوى تأتيه من يهود الأندلس والمغرب ومصر وسوريا . ولما توفي وهو متقدم في السنّ ، تلقّى ابنه حننعيل رسالة تعزية من الوزير الأندلسي ، ورئيس الطائفة اليهودية بغرناطة ، الحاخام صموئيل بن نغريلة[20] (384-417 هـ / 993-1055 م) الذي كان يحمل لقب أمير اليهود ، في عهد بني زيري بالأندلس . وقد أمر بإقامة الصلوات في غرناطة ولوسينة وقرطبة ترحّماً على روح الفقيد .

وبالنظر إلى كتابات تلميذَيْه حننعيل وتميم بن يعقوب ، نلاحظ أن الاهتمام الذي أولته المدرسة القيروانية من جديد إلى تلمود فلسطين ، يرجع إلى تعاليم حوشيعيل . وقد خلفه هذان التلميذان اللّذان تقلّدا على التوالي رئاسة المجمع اليهودي ومنصب حاخام القيروان ، دون أن نعرف هل كان أحدهما متفوّقاً على الآخر . ويبدو أنّهما كانا متفاهِمَيْن يعملان جنباً إلى جنب وباتفاق تامّ .

ولم يتتلمذ حننعيل[21] (379-442 هـ / 990-1050 م) إلى أيّ أستاذ غير والده ، ولكنّه أخذ كثيراً عن كبير الأحبار في بمبديثه ، وكان يتبادل معه الرسائل بانتظام . وقد ساهم كثيراً في إعادة العمل بتلمود أورشليم . كما ساعد شرحه على التلمود الموافق تماماً لتأويل الحاخام الأكبر هاي ، الخالي من أي صبغة صوفية ، على ضبط النصّ الصحيح للتلمود ، وذلك بالرجوع إلى أقدم المخطوطات التي كانت على ذمّته . ولا بدّ أنه كان يحذق العربية واليونانية ، لأنه شرح كثيراً من الألفاظ التابعة لهاتين اللغتين . كما حرّر جميع كتبه بلغة عبريّة جيّدة ، ونظم أبياتاً من الشعر لرثاء الحاخام الأكبر هاي ، وقد كانت آثاره المتعلقة بتفسير التلمود معروفة في أروبا القروسطية التي يبدو أنها كانت تجهل أصلها الشرقي . ومن بين مؤلفاته نشير إلى شرحه المختصر لقسم من التلمود ، الذي كثيراً ما اعتمده إسحاق الفاسي وناتان بن يحييل[22] . وقد كان من أغنياء التجار ، وترك لبناته التسع ثروة طائلة تتمثل في عشرة آلاف قطعة من الذهب . وتقول المصادر : إنه توفّي أثناء الغزوة

20) Graetz ، 3/253-261 ، Sarton ، 1/704 .

21) دائرة المعارف اليهودية ، 6/205 ، Graetz ، 3/248-249 .

22) حول هذا المعجمي الإيطالي (المولودقبل1035هـ، ت. 1106 م) انظر ، دائرة المعارف اليهودية ، 10/180-183 .

الهلالية التي يبدو أنه كان من ضحاياها حوالي سنة 442 هـ / 1050-1041 م . كما توفي في نفس تلك السنة صِنْوُه نسيم بن يعقوب .

وقد أخذ هذا الحاخام[23] أوّلاً عن أبيه يعقوب بن نسيم بن شاهين، حاخام القيروان ، ثم عن حوشيعيل الذي خلفه في تلك الخطّة . واعتمد كثيراً ، مثل رفيقه في الدراسة حننعيل التلمود الفلسطيني ، وتبادل الرسائل مع الحاخام الأكبر هاي ، وأبلغ صموئيل بن نغريلة الشهير الرّسائل التي كان يوجّهها إليه هاي ، وساهم بذلك في نشر العلوم التلمودية البابلية في الأندلس .

وكانت الطائفة اليهودية بالقيروان مدينة إلى حدّ كبير لذلك الوزير الأندلسي الغني والقويّ النفوذ في عهد بني زيري أصحاب غرناطة ، بما كان يخصّها به من دعم مالي (وربما سياسي) وقد مدّ صموئيل يد المساعدة إلى نسيم بن يعقوب الذي كان فقيراً ، وزوّج ابنه يوسف بابنـة نسيم الوحيد .

وبالعكس من حننعيل ، كان نسيم المتمرّن على الأدب الإسلامي يكتب باللغة العربية[24] . ومن بين مؤلفاته نشير إلى شرحه الشهير للتلمود الذي يحمل عنوان مفتاح مغالق التلمود ، وقد وضعه حوالي سنة 1083 م ، وكتاب قصص أخلاقية ألّفه بطلب من دونش والد زوجته الذي فقد ابنه ، وكتاب آخر مفقود يحمل عنوان : سدّور خط تفلة ، وهو يتضمّن بلا شكّ معلومات حول الطقوس اليهودية القيروانية . والجدير بالذّكر[25] أن نسيم بن يعقوب كان له كرسي شرفي في البيعة إلى جانب تابوت القانون . وعندما ينتهي كوهن وليفيتيس من تلاوة الأناشيد الدينية الأسبوعية تُسلَّم إليه لفائف القانون التي يستطيع عندئذ كل أحد الاقتراب منها .

وقد أكّد غولدزيهر[26] أن تفكير نسيم كان متأثراً شديد التأثر بالمذهب المعتزلي ، أكثر من تفكير صموئيل بن حفني ، وهاي ، وسعدية . وكان بودّنا لو علمنا كيف تعلّم نسيم مبادىء هذا المذهب الذي كان شائعاً على نطاق واسع في العصر الأغلبي . ولا تسمح لنا مصادرنا العربية

---

23) نفس المرجع ، 317-315/9، D. Cazès ، 65-64 ، Graetz ، 249-248/3 ، غولدزيهر ، نصوص يهودية عربية ، نسيم بن يعقوب المعتزلي ، مجلة الدراسات اليهودية ، XLVII ، 1902 ، 186-179 ، ح . ح . عبد الوهاب ، مجلة الندوة ، جانفي ، 1953 ، S.D. Goitein ، اليهود والعرب ، نيويورك ، 1955 ، 197 .

24) ولكن بلا شك بحروف عبرية ، حسبما جرت به العادة عند اليهود في القرون الوسطى ، انظر W.J. Fischel ، المرجع السابق ، 16 ، الإحالة 4 .

25) دائرة المعارف اليهودية ، 416-414/7 .

26) غولدزيهر ، المرجع المذكور ، مجلة الدراسات اليهودية ، XLVII ، 1903 ، 186-179 .

المغرضة ، بأن نستنتج من سكوتها انقراض ذلك المذهب في عهد بني عبيد وبني زيري . ولعلّ نجاح المذهب الأشعري في إفريقية يثبت عكس ذلك . ويمكننا أن نقرّ بأن علم الكلام الإفريقي قد استوعب بصورة تزيد أو تنقص المذهب الشيعي ، وبالخصوص المذهب المالكي الذي كان عهدئذ في أوج تطوّره . ولكن لا شيء يجبر اليهود على التخلّي عن التقاليد التي لا شكّ أنها لم تزل رائجة عندهم آنذاك ، والموروثة عن إسحاق بن سليمان الإسرائيلي الشهير الذي كان قبل ذلك بقرن يمثّل علم الكلام اليهودي أصدق تمثيل . ومع ذلك فإن أصل تكوين نسيم في المذهب المعتزلي قد يكون في آن واحد شرقياً ومغربياً . وقد كانت استدلالاته مطبوعة بطابع علم الكلام ، إلى درجة أنّ غولدزيهر لم يتردّد في وصفه بالمعتزلي . ذلك أنه ، اقتداء بالمؤلفين المسلمين الذين يعلنون عن مذاهبهم في فاتحة مؤلفاتهم ، قد استهلّ كتابه مفتاح مغالق التلمودُ بفصل حول العقيدة التي يمكن أن تكون عقيدة كاتب معتزلي . فقد نفى فيه صفات إلاه إسرائيل الذي هو « حكيم في ذاته ولا تختلف حكمته عن ذاته . . » . وتكتسي جميع فصول الكتاب نفس هذه الصبغة . فهو يقول مثلا إنّ الإلاه لا يفرض على عباده أيّ حكم لا يستطيعون تنفيذه ، وإلاّ لما كان عادلاً ، حسب تصوّر المعتزلة « للتكليف » . وإن الإلاه يَهَب المعرفة بحكم نعمته الضرورية الملازمة للذات البشرية . ونرى في ذلك أيضاً تعبيراً عن نظرية أخرى من نظريات المعتزلة تتعلق « باللّطف » . كما أنّ فكرة تطابق صفات الإلاه الأساسية التي ترتكز عليها بعض تأويلات الكتاب المقدّس ، تمثل إحدى نظريّات الاعتزال . فقد خلق الإلاه صفة الكلام لغرض خارجي ، بحيث يصبح كلامه المخلوق قابلاً للإدراك خارج ذاته . وهذه بالذّات هي عقيدة « كلام الله المخلوق » التي اقتبسها سعديّة من علم الكلام .

وأخذ عن نسيم بن يعقوب عدد كبير من التلاميذ من بينهم بعض يهود الأندلس الذين نشروا تعاليمه في بلادهم . إلاّ أنّ المؤلف الوحيد الذي يمكن اعتباره من تلاميذه هو بلا ريب ابن جسوس[27] .

ومن المعلوم أن نسيم بن يعقوب قد توفي سنة 442 هـ / 1050-1051 م ، أي نفس السنة التي توفي فيها حننعيل ، وربما في نفس الظروف المأسوية .

وقد ظلّت بعض مراكز الدراسات العبرية[28] قائمة الذات في المهديّة بعد غزوة بني هلال

---

27) أبو إبراهيم إسحاق بن كستر (أو سكـتر) بن جسوس ، المعروف باسم يصحقي (982 هـ - 1057 م)، وهو طبيب وفيلسوف ، عمل في خدمة مجاهد الداني وابنه علي إقبال الدولة ، Graetz ، 273/3 .

28) S. Poznanski ، قلعة بني حماد ، مجلة الدراسات اليهودية ، ج 58 ، 1909 ، 298 ، D.Cazès ، 66-72 .

وتشتّت يهود القيروان[29] ، بفضل بني زغمار ، وكذلك في قلعة بني حماد الذي كان على رأس مدرستها التلمودية ديّان بن فرمش ، بلا شكّ بعد رحيل إسحاق الفاسي .

وأصبح يعقوب الفاسي[30] المولود بقلعة بني حماد سنة 403-404 هـ / 1013 م ، رئيس الدراسات التلمودية بعد وفاة حننعيل ونسيم ، وقد تتلمذ إليهما في القيروان حسبما يبدو . وفي سنة 480-481 هـ / 1088 م ، اضطرّ يعقوب الفاسي إلى الفرار إلى القلعة ، فوشى به إسرائيليّان : خلفة بن الأعجاب وابنه حيّم ، ولا ندري لأيّ سبب سياسي أو شخصي فعلا ذلك .

وقد أكّد بوزننسكي ، استناداً إلى أصل المعني بالأمر ، وإلى مقتطفات من أجوبة مكتوبة بفاس وصادرة عن تلاميذه ، أنه استقرّ في أوّل الأمر في هذه المدينة وأسّس بها معهداً قبل هجرته إلى الأندلس . فسارع أبو الحسن يوسف ، ابن صموئيل بن نغريلة وخليفته إلى استقباله في قرطبة ، ثم في غرناطة . وإثر مقتل مُضيِّفه[31] استوطن يعقوب الفاسي لوسينة وتوفّي بها سنة 497 هـ / 1103-1104 م . وقد اكتسب من الشهرة ما جعل اليهود يعتبرونه أعلم حاخام بعد الحاخام الأكبر هاي . وقد تفوّق كتابه « هلاخت » ، وهو تلخيص لقسم من التلمود ، على كتاب حننعيل المماثل[32] .

إلا أنّ الثقافة العبرية في إفريقيّة كانت وقتئذ في حالة احتضار . فقد تحدّث ابن ميمون الذي زار هذه البلاد حوالي سنة 560 هـ / 1165 م عن جهل اليهود بأمور دينهم وعن تحجّر دراساتهم التلمودية . وتعجّب بالخصوص من امتناعهم عن أكل مؤخرة الحيوانات المذبوحة ، ومعاملتهم للمرأة الحائض بنفس المعاملة الوهميّة التي يعامل بها المسلمون نساءهم . فقد كان يهود إفريقيّة لا ينظرون للمرأة الحائض ولا يكلمونها ويمتنعون عن المشي على الأرض التي وطئتها قدماها[33] .

ومن الجدير بالتذكير العلاقات الوثيقة التجارية والقانونية وبلا شكّ الثقافية القائمة بين الطائفات اليهودية في المهدية والقاهرة وعدن ، ووجود قاضٍ من الأحبار (الديّان) في المهديّة .

29) انظر الفصل الرابع (ب . اليهود) من الباب الحادي عشر .

30) دائرة المعارف اليهودية ، 357/1-377 ، Graetz ، 285/3-286 ، Poznanski ، قلعة بني حماد ، مجلة الدراسات اليهودية ، ج 58 ، 1909 ، 297-298 ، D. Cazès ، 67-68 ، Sarton ، 751/1-752 .

31) يقول Graetz (273/3-274) أنه قُتِل سنة 1066 م أو على الأرجح سنة 1096 م .

33) D. Cazès ، 79-81 . [هذا التصرّف لا يشبه لا من قريب ولا من بعيد معاملة المسلمين للمرأة الحائض ، وكلّ ما في الأمر - كما هو معلوم - أن الشريعة الإسلامية تعفي المرأة المسلمة من الصلاة والصوم وأداء مناسك الحجّ ، أيام الحيض والنّفاس] .

الفصل الخامس
العلـوم

لما ارتقى بلكين إلى العرش ، بدأت المدرسة الطبية القيروانية تشتهر بالطّبيبَيْن الإسرائيليَّيْن ، إسحاق بن سليمان ودونش بن تميم[1] . كما أنّنا نعرف اسم طبيبَيْن آخرَيْن هما أعين بن أعين[2] وابن البرّاء[3] معاصر ابن الجزّار[4] (ت . 395 هـ / 1004 م عن سنّ تفوق الثمانين) .

واشتهر أحمد بن الجزّار تلميذ إسحاق بن سليمان الإسرائيلي خارج إفريقية . وله كتاب في الطبّ بعنوان « **زاد المسافر** » ، نُقِل في حياة المؤلف إلى الأندلس وصقلية ثم إلى إيطاليا وتُرجِم في الحين إلى اليونـانية والعـبرية والـلاتينية . ولـه كتاب آخـر يبحث في الأدوية البـديلة [« **أبدال الأدوية** »][4م] . وقد كان ابن الجزّار غنيّاً جدّاً ، ولكنه كان يعيش عيشـة بسيطة ويبتعـد عن المحافل الرسمية ويعالج المـرضى، ويوزّع الأدوية على المعوزين بلا مقابل ، وقد ألف لفائدتهم كتاب « **طبّ الفقراء والمساكين** » . وكان مرجعاً من المراجع الرئيسية بالنسبة إلى معاصره الطبيب المستقرّ في مصر ، محمد بن سعيد التميمي .

وكان طبيب المعزّ بن باديس ابن عطاء اليهودي[5] الذي هو بلا شكّ إبراهيم بن عطاء ، وقد أثنى عليه الحاخام الأكبر هاي ثناء جزيلاً[6] .

1) انظر الفصل السابق ، الثقافة العبرية .
2) **معالم الإيمان** ، 191/3 ، **رياض النفوس** ، م . بـاريس 104 و ، [ط . بيروت ، 501/2 ، انـظر أيضاً ، ح . ح . عبد الوهاب ، **ورقات** 305/1] .
3) **المدارك** ، 2-3 ، 183 و .
4) Leclerc ، **تاريخ الطب العربي** ، باريس 1876 ، 413/1-416 . أحمد بن ميلاد ، **المدرسة الطبيـة القيروانيـة في القرنين العـاشر والحادي عشر** ، بـاريس 1933 م ، 26-47 ، ابن جلجل ، 88-91 ، Sarton ، 682/1 [انـظر أيضاً ، **ورقات** ، 306/1-322] .
4م) [**ورقات** ، 316/1 ، رقم13] .
5) **معالم الإيمان** ، 201-202 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية .
6) دائـرة المعارف اليهودية ، 782/9-785 .

ومارس الطبيب الأندلسي الشهير أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زُهْر (ت . حوالي 470 هـ / 1077-1078 م) مهنة الطبّ بالقيروان[7] .

وألّف أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز الداني (ت . 529 هـ / 1135 م)[8] الذي كان معجباً شديد الإعجاب بالطبيبَيْن الإغريقيَّيْن غليان وهيبقراط ، عدّة كتب في الطبّ نخصّ بالذكر منها : كتاب **الأدوية المفردة** وكتاب **الانتصار في الردّ على علي بن رضوان** ، وهو كتاب في الطبّ دافع فيه صاحبه عن حُنَيْن ضدّ هجومات علي بن رضوان ، و**رسالة العمل بالإصطرلاب** .

أمـا قسطنـطين الإفريقي[9] المتـوفّى في جبل كـاسينو سنـة (479-480 هـ/1087 م)، فقد وُلِـد بقرطاجنة سنة 406 هـ / 1015-1016 م . وبعدما قام برحلة طويلة في أرجاء المشرق ، عاد هذا التاجر والطبيب الذي يقال إنه اعتنق الديانة المسيحية ، إلى قرطبة ثم ارتحل إلى سالرنو حاملاً معه مجموعة من المخطوطات ، وهو يعتبَر مؤسّس مدرسة سالرنو[10] . ودخل بعد ذلك إلى دير جبل كاسينو وأصبح المشرف عليه . وعكف هناك على ترجمة بعض المخطوطات العربية ، أو بالأحرى انتحلها . وكان من أكبر العاملين على تسرّب العلوم العربية إلى أروبا . فبفضله تعرّفت الأقطار المسيحية على إنتاج الأطباء القيروانيين : إسحاق بن عمران وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي وابن الجزار ، كما اطلعت على كتاب ابن أبي الرجال في علم الفلك .

وكانت موجودة بإفريقية « دمنات » أو مرستانات للمصابين بالأمراض المعدية التي يـطول علاجها ويخشى منها تسرب العدوى للسكّان ، مثل الجذام[11] .

ولدينا بعض المعلومات شبه الخرافية حول الكيمياء في العصر الصنهاجي . فقد نقلت لنا

---

7) دائرة المعارف الإسلامية ، 456/2 ، Leclerc ، 83/2 ، المقري ، ط . القاهرة ، 1949 ، 13/3 ، التكلمة ، 2/ عدد 1691 ، Sarton ، 231/2 ، ابن أبي أصيبعة ، الجزائر 1958 م ، 86-88 .

8) Leclerc ، 74/2-75 ، بروكلمان ، 486/1-487 ، الذيل ، 889/1 Sarton 230/2 . [انظر أيضاً ، محمد المرزوقي ، ديوان الحكيم ، ترجمة أبي الصلت ، 5-44] .

9) Leclerc ، 539/1-541 ، أحمد بن ميلاد ، 48-53 ، Courtois ، المجلة التاريخية ، 112 ، الإحالة 3 ، دائرة المعارف الإسلامية ، الذيل ، 51-52 ، ح . ح . عبد الوهّاب فصل في مجلة الندوة التونسية ، فيفري 1953 ، 5-6 ، Sarton ، 769/1 ، دائرة المعارف الإسلامية ، ط . 2 ، 61/2-62 (أبو بكر بن يحيى) . [انظر أيضاً ، ورقات ، 211/1-212] .

10) انظر حول هذه المدرسة Sarton ، 725/1-727 .

11) فتوى المازري (ت . 536 هـ/1141 م) ، البرزلي مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 62/2 ظ ، المعيار ، 235/3-236 : تمّ فحص رجل مصاب بالجذام من طرف طبيبَيْن عيّنهما القاضي ، أحدهما ذمّي .

بعض المصادر أنّ ابن أبي زيد ترك في مخلفاته آلات الكيمياء . وتضمّنت تركة أبي عمران الفاسي الكبريت الأحمر الذي اشتراه المعزّ بن باديس وردّه إلى بيت مال المسلمين . وكان رجل من أصحاب المازري يتعاطى صناعة الكيمياء ، « فسار بقصد ذلك ثم جاء بدنيا (ثروة) وافرة وأتى بشيء من صنعته . فأمر المازري باستخباره ، فنظره أهل المعرفة ، فكلّ من رآه يقول : طيّب . فقال : هل بقي أحد ممّن يعرف الطيّب ؟ فقالوا : نعم ، فلان ، وقد لزم داره من كبر سنّه ، فقال : اسألوه ، فسألوه فعرّفهم بما يُختبَر به ذلك ، فآل الأمر إلى تلاشيها »[12] .

وكان مربّي المعزّ بن باديس الشهير ، أبو الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب الشيباني[13] ، متضلّعاً في علم الفلك والنجوم ، وقد عُرِف في أوروبا باسم Albohazen أو Albohacen أو Abenragel . وقد حضر عمليات رصد النجوم التي تمّت في بغدُاد سنة 378 هـ / 988-989 م . ويوجد كتابه الفلكي « البارع في أحكام النجوم » مخطوطاً ، وقد تُرجِم إلى اللّغة القسطيلية القديمة حوالي سنة 1256 م ثم إلى اللغة اللاتينية . كما ألّف منظومة في علم الفلك ، ولدينا نسخة من شرحها باللغة العربية . وطلب إليه المعزّ بن باديس تقدير مدّة حياة أمير صقلية أحمد بن أبي الحسين المعروف بالأكحل ، وسعيد بن خزرون .

ودرس الفقيه أبو الطيّب عبد المنعم بن محمد بن إبراهيم الكندي (ت . 435 هـ / 1043-1044 م)[14] بنجاح العلوم التطبيقية وفكّر في ربط القيروان بالبحر .

وأسّس الأمير يحيى الذي كان مولعاً بعلم الفلك والكيمياء مخبراً في قصره بالمهدية [سمّاه دار العمل][15] .

---

12) معالم الإيمان ، 101/3-103 . كان الشاعر القيرواني ابن المؤدب ، وأصله من المهدية « مغرى بالسياحة وطلب الكيمياء والأحجار » ، ابن خلكان ، 221/2 ، [الأنموذج ، ص 177]

13) أعلمنا السيد ح . ح . عبد الوهّاب أن قبريّة ابن الرجال مؤرخة في سنة 426 هـ/1034-1035 . بروكلمان ، 224/1 ، الذيل ، 401/1 . دائرة المعارف الإسلامية ، 378/2 . ح . ح . عبد الوهّاب ، فصل في مجلة البدر ، 389/2-394 ، المنتخب ، 67 ، 68 ، ستوريا ، 436/2 ، الإحالة 3 ، عنوان الأريب ، 57/1-58 ، العمدة ، 2/1 ، 87 ، 243/2 ، البيان ، 273/1، Gerald Hilty، مجلة الأندلس، 1955/20 م ومجلّة أرابيكا، 1956 م، 131. نلينو: Raccolta di Scriti editi efinediti ، 5 ، 1944 م ، 340-341 .

14) ح . ح . عبد الوهّاب ، فصل في مجلة الثريا ، التونسية ، مارس 1945 م . إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 ، 32-33 .

15) ح . ح . عبد الوهّاب ، فصل في مجلة الندوة التونسية ، فيفري 1953 .

أبو الحسن علي بن القاسم بن محمد التميمي القسنطيني المغربي الأشعري الكيماوي ، الصفدي ، **Rendiconti** ، 378/25 .

وبطبيعة الحال ، كان أهل شرق الغرب الإسلامي المتطيّرون بصورة تزيد أو تنقص ، بحسب مستواهم الثقافي والديني ومحيطهم الاجتماعي ، يتعاطون شتّى أنواع أعمال السحر[16] .

16) فتاوى ضدّ السحر والتعزيم : فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، م . الجزائر ، 133/1 و ، فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 134/9 ؛ فتوى عبد المنعم بن خلدون ، البرزلي ، م . الجزائر ، 133/1 ظ .

الفصل السادس
الفنـون

1 ـ الهندسة المعمارية المدنية :

بالنظر إلى ما وصل إليه البحث في ميدان الآثار ، يبدو من قبيل الرهان تفريد فنّ صنهاجي خالص ، حيث يتعذّر فصل هذا الفنّ عن الفنّ الفاطمي الإفريقي . فقد بلغ التلاحم بينهما حدّاً يفرض علينا أن لا نتحدث إلا عن فنّ فاطمي صنهاجي(1) .

ولئن تمتّعت إلى حدّ ما بعض المواقع في المغرب الأوسط ، مثل أشير وقلعة بني حمّاد ، بعزلة نسبية وبصلابة الموادّ المستعملة في البناء ، إلاّ أن كلّ العوامل قد ساهمت بالعكس من ذلك في هدم المعالم الصنهاجية بإفريقية بلا رجعة ، مثل أعمال النهب الشاملة وهشاشة الطّوب ، والترميمات المتلاحقة ، وإعادة استعمال الرخام والآجرّ في بناء المراكز العمرانية المجاورة أو التابعة لنفس المنطقة .

ومع ذلك فقد كان معظم الأمراء الصنهاجيّين بنّائين ، إذ بنى زيري وبلكين مدينة أشير وغيرها من مدن المغرب الأوسط ، وشيّد المنصور قصر صبرة المنصورية ، وبنى المعزّ بن باديس قصراً في نفس تلك السنة ورمّم عدة معالم ، لا سيما في القيروان . وأقام حمّاد وخلفاؤه صرح القلعة ، وبنى الناصر وآخر أمراء بني حمّاد مدينة بجاية . ومنعت زحفة بني هلال ثم الخطر النرماني بني زيري المقيمين في المهدية من تشييد أيّ معلم . ذلك أن ضيق المكان لم يكن ملائماً لإقامة بناءات جديدة . وأما بالنسبة إلى ملوك الطوائف ، أفلم يبالغ الإخباريّون في ذكر آثارهم العمرانية من باب المجاملة ؟ .

وكان الفاطميّون المستقرّون في إفريقية ، عوض قطع صلتهم بالفنّ الأغلبي ، قد أقرّوه

1) جورج مارسي ، الهندسة المعمارية الإسلامية في المغرب ، باريس 1954 م ، 63-113 ولنفس المؤلف ، الفنّ الإسلامي ، 68-90 ، سليمان مصطفى زبيس ، المجلة الآسيوية ، 1956 م ، 79-93 : المهدية وصبرة المنصورية هنري تراس ، جامع الأندلسيّين ، فنّ الدولة المرابطية ، مجلة ستوديا إسلاميكا ، 1955/3 م ، 28-29 ، L. Golvin، المغرب الأوسط ، 180-211 .

وواصلوه ، ذلك أنّ هؤلاء المشارقة المُوَلّين وجوههم قِبَل المشرق ، كانوا يستمتعون بلا شك باكتشاف عدة اقتباسات عراقية ومصرية . ولكنهم كانوا أقلّ ميلاً من أسلافهم إلى البذخ ، ربّما تحت تأثير البربر ، ولا سيما منهم الكتاميين والصنهاجيين الأكثر تقشّفاً . ولذلك اعتمدوا الزخرف السطحي الرامي بالخصوص إلى تركيز نفوذهم ودعوتهم[2] . وبالعكس من ذلك يبدو أن الأمراء الصنهاجيين ، سواء المعزّ بن باديس أو بني حمّاد في بجاية ، قد تهذّبوا شيئاً فشيئاً وصاروا يتباهون بثروتهم .

فما هي أهمّ خصائص الفنّ المعماري الفاطمي الصنهاجي ؟ .

في ميدان الهندسة المعمارية لعب « تراجع الجدران في الاتجاهَيْن الأمامي والخلفي » المقتبس من الفنّ العراقي ، دوراً كبيراً ، إلى جانب إبراز الأروقة[3] . وتحت تأثير نفس العوامل ، زُيِّنَت الواجهات بمحاريب صغيرة شبه دائرية ، ترتفع من القاعدة وتنتهي بتقوّس[4] . « وتتمثل إحدى خصائص ذلك العصر الجديرة بالملاحظة في تركيب واجهات عريضة ، تتوزّع عناصرها في الارتفاع والعرض ، بتناسق من الجهتين ، حول محور »[5] .

كما تتمثّل طريقة التسقيف الأكثر استعمالاً في « القبّة ذات الزوايا البارزة المتكوّنة من تقاطع قوسين في شكل نصف أسطواني » . والجدير بالملاحظة أن هذا الطراز لم يكن مستعملاً إلى غاية القرن التاسع من الميلاد إلاّ في المواجل[6] .

أما الإيوان الذي هو من أصل فارسي عراقي ، فهو يتمثّل في « قاعة مقبّبة تفتح على الخارج بواسطة قوس كبير بلا واجهة » . وقد كان هذا الطراز مستعملاً مع طراز « مقابل القاعة »[8] . وكانت الغُرَف مزيّنة من الداخل بمحاريب صغيرة ذات قعر مسطّح ، مع تراجع الجدران أحياناً ،

---

2) الهندسة المعمارية ، 66 .
3) نفس المرجع ، 84 .
4) نفس المرجع ، 82 ، 84 ، 100-102 .
5) نفس المرجع ، 106 .
6) نفس المرجع، 70 .
7) نفس المرجع ، 80 ، النشرية الأثرية ، 1922 م ، 25-26 ، 1925 م ، 296 . ObjetsKairouanais ، 372/2.
8) الهندسة المعمارية ، 80 ، جورج مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 288 ، ديوان ابن هانىء ، ط ، القاهرة ، 135 هـ ، عدد 57 البيت الرابع (في المسيلة في عصر جعفر بن حمدون) ، Canard ، تحية جورج مارسي ، 43/2 .

مثلما هو الشأن بالنسبة إلى منازل القاهرة القديمة[9] .

وكانت قاعات القصور موزّعة حول خمسة صحون ، وهي تشبه قاعات قصور الأمويّين في سوريا[10] . كما تشبه القاعات الخمس التي اكتشفت منذ عهد قريب في صبرة المنصورية قاعات المنازل الطولونية في القاهرة القديمة[11] .

وتُعَدّ الحدائق والبساتين والأحواض والبِرَك من العناصر الأساسية لقصور الأمراء[12] . كما نلاحظ الميل إلى بناء قصرَيْن متقابلَيْن ، تفصل بينهما ساحة[13] .

ويمثّل تشكيل المآذن المربّعة طرازَيْن اثنين ، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً . أما مئذنة جامع قلعة بني حماد فهي عبارة عن برج متّصل ذي جدران مقسّمة إلى ثلاث طبقات ومزيّنة ببعض الثقوب والمحاريب الصغيرة المميّزة للواجهات . وتُعتبَر صومُعة جامع صفاقس المشتملة على ثلاثة بروج منضّدة ، مماثلة في شكلها للطراز القيرواني ، مع شيء من التهذيب ، ولكنها تتألف من حزّات متتابعة مستوحاة من الطراز الطولوني[14] .

2 ـ الهندسة المعمارية العسكرية :

كان بودّنا الحصول على معلومات فنية حول أسوار صبرة المنصورية والقيروان ، والسور المزدوج الذي بناه المعزّ بن باديس إبّان الزحفة الهلالية للربط بين المدينتين ، وكذلك الأسوار التي بناها في زويلة[16] .

ولم تعلمنا مصادرنا هل عزّز بنو زيري ، بعد غزوة بني هلال ، التحصينات الفاطمية

---

9) الهندسة المعمارية ، 84-87 ، جورج مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 288-290 ، Golvin ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع .

10) الهندسة المعمارية ، إضافة إلى ص . 78 (القصر الذي اكتشف في أشير) . سليمان مصطفى زبيس ، المجلة الآسيوية ، 1956 ، 86 ، Golvin ، المرجع السابق .

11) الهندسة المعمارية ، 80-81 ، ج . مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 286 .

12) ديوان ابن حمديس ، عدد 314 ص . 440-442 ، عدد 347 ص 482-486 : وصف قصر ودار شيّدهما المنصور بن الناصر بن حمّاد في بجاية .

13) الهندسة المعمارية ، 78 ، زبيس ، المرجع المذكور ، 81 .

14) الهندسة المعمارية ، 109 ، ج . مارسي ، الجامع الكبير بصفاقس ، تونس 1960 م .

15) الهندسة المعمارية ، 89-92 ، Golvin ، المرجع المذكور .

16) **Objets Kairouanais** ، 371/2 .

الموجودة في المهدية والتي لا نعرف عنها هي ذاتها شيئاً كبيراً . ومع ذلك نلاحظ أن المصادر لم تشر عند حديثها عن هجوم أبي يزيد ، إلى مقدّم الجدار المُحاط بخندق الذي تجتمع فيه مياه المطر ، وقد وصفه الإدريسي ، في حين لم يذكره البكري[17] .

أمّا تحصينات المدن التي بناها الصنهاجيون في المغرب الأوسط (أشير والقلعة وبجاية) ، فهي تتألّف من سور مبني بالحجر الخام ومحصّن ببروج متماشية مع شكل التضاريس ، ومن خصائصها أنها تتمثل في هضبة منحدرة تحيط بها الوِهاد ، وتستند إلى مرتفع صخري يقوم مقام المرصد والمحرز . وفي القلعة تمتاز أقواس الجسور الممدودة على الوهاد بشكلها الفارسي[18] .

وفي كثير من المدن التي كان بنو هلال يهدّدونها ، يضطرّ السكّان إلى توحيد جهودهم لإقامة تحصينات مرتجلة أو إصلاح المنشآت الدفاعية القائمة الذات[19] .

3 ـ الزخرفة :

لقد تمّ تجديد الزخرفة الداخلية باستعمال المحاريب الصغيرة والأقواس التي تمثّل العناصر الأساسية لتزيين الواجهات[20] . وأصبح النقش على الحجارة والرخام أدقّ مما كان في القرن السابق ، واكتسى النقش على الجصّ المطلي بالدهن في أغلب الأحيان أهمية بالغة ، واتخذت الزخارف أشكالاً متنوعة ، مثل لوحات العَرْبسة (الزخرفة العربية) والأسطوانات ذات الزوايا والتيجان ، والقُبَيْبات المضلّعة ، والشرافات الزخرفية والدّرابزينات المرصّعة بزجيجات ملوّنة[21] .

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى استعمال نصف القباب النخروبية والثقوب الصدفية ، والضلوع المتشابكة في أعلى المحاريب الصغيرة بواسطة قوس داخلي ، و« المُقَرْبصات » ، وإلى إثراء مجموعات الأقواس بظهور القوس البارز المعروف باسم القوس الفارسي[22] .

---

17) الباب السابع ، الفصل الأول (المهدية) .
18) الهندسة المعمارية ، 92 ، 94 .
19) فتاوى اللخمي ، المعيار ، 5/306-308 ، فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 5/306-307 .
20) الهندسة المعمارية ، 110 ، L. Golvin ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع .
21) الهندسة المعمارية ، 97 ، س . م . زبيس ، المجلة الآسيوية ، 1956 م ، 79-93 .
22) الهندسة المعمارية ، 101-103 ، إضافة إلى ص 102 . 495 ، L. Golvin تحية جورج مارسي ، 2/75-94 .

وكان المهندسون يزيّنون أعلى الأسطوانات بحلقات مزخرفة بالخطوط أو الزهور ويستعملون بكثرة الأعمدة الصغيرة ذات الزوايا المُجصّصة[23] . كما أحدثوا نوعَيْن من تيجان الأعمدة ، وهما تاجٌ ذو أربعة ورقات مزيّنة بزخارف حلزونية ، وتاجٌ مزخرف بإكليلَيْن من الأقنثة ، مستوحى من الطراز الكورنثي[24] . وكانت زخارف الأفاريز المنقوشة على الخشب أو الحجارة متنوّعة ومبتكرة[25] .

وأمّا بالنسبة إلى الخزف[26] ، فإننا نلاحظ استعمال الزخارف في طلاء المآذن ، والدرابزينات ذات الزخارف المقطّعة والمشدودة بأواصر معدنية . كما ظهر ترصيع الخزف في البلاطات وتزيين الجدران ، ربّما إلى حدّ قامة الرجل ، في أغلب الأحيان ، بمربعات من الزليج مزخرفة بالدهن ، وطلي الجدران المجصّصة بطلاء ذي لون واحد أوبزخارف مدهونة[27] . وكانت رسوم عوارض الجامع الأعظم بالقيروان وسقوفه الخشبية ذات نفاسة عجيبة ، سواء من حيث الشكل أو من حيث اللّون[28] .

ويبدأ خلال العصر الفاطمي إعداد الزخرفة العربية المتقنة المعروفة باسم « العَرْبَسة » . ويتمثل العنصر الرئيسي من عناصر هذه النمنمة التجريدية ذات الكثافة المتماثلة بالنسبة إلى اللّوحة الواحدة ، في الشريطة المتشابكة الثابتة العرض . وتتولّد عن تشابك الأشرطة ، بصورة تكاد تكون مستمرة ، مضلّعات كوكبية الشكل ذات ثمانية رؤوس في أفضل الحالات[29] .

وقد ازداد أكثر فأكثر الدور الذي تقوم به النقوش المكتوبة[30] في الهندسة المعمارية وفنّ الزخرفة . ولم يزل الخطّ الكوفي العتيق المتركب من حروف صلبة ذات زوايا ، هو السائد وحده بلا منافس ، مع الخط النسخي . ولكن تحت تأثير العربسة التي هي عبارة عن « زخرفة مُغطِّية » تقتضي استكمال الزخرف ، تمّت تعبئة الفراغ الموجود في القسم الأعلى من الفضاء الذي تحتلّه ذيول

---

23) الهندسة المعمارية ، 103-104 .
24) نفس المرجع ، 104-105 ، جورج مارسي ، قباب وسقوف الجامع الأعظم بالقيروان ، 19-20 .
25) الهندسة المعمارية ، 105-106 ، جورج مارسي قباب وسقوف . . . 39 .
26) الهندسة المعمارية ، 105-106 ، س . م . زبيس ، المرجع المذكور ، 90-91 . L. Golvin ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع .
27) الهندسة المعمارية ، 99-100 ، س . م . زبيس ، المرجع المذكور ، 88 .
28) الهندسة المعمارية ، 99-100 ، ج . مارسي ، قباب وسقوف . . .
29) الهندسة المعمارية ، 117-118 ، ج . مارسي ، الفنّ الإسلامي ، 78-79 ، 81 .
30) الهندسة المعمارية ، 111-113 ، الفنّ الإسلامي ، 79-80 .

الحروف الطويلة ، بواسطة عدة زخارف مثل إثراء وتعديل ذيول الحروف ، وتمديد الحروف المنفردة أو الواردة في آخر الكلمة ، وتغيير حجم بعض الحروف ، واستعمال الأغصان ومساطر الحروف ، والمتقوّسات والكسرات والأقواس الزخرفية والتشابيك ، واستعمال زخارف زهريّة ذات اثنتين أو ثلاث أو خمس قُوَيْسات ، كلّما أمكن ذلك . وأخيراً يُسَدّ الفراغ بزخارف زهرية ، بصورة محتشمة لكي لا تختنق الحروف ، وذلك قصد إدماج الكتابة في الزخرفة[31] .

والجدير بالملاحظة أن هذا الخطّ الكوفي المزخرف لم يكن من خصائص الفنّ الفاطمي الصنهاجي دون سواه ، إذ أنه مقتبس من أمثلة شرقية . ولكن ألا يكفي رونقه الفائق وبساطته التي لم يفسدها البريق ، لإكسابه شيئاً من الطرافة ؟ .

ونلاحظ من جهة أخرى في مشاهد القبور بمدينة تونس اعتباراً من سنة 490 هـ / 1096-1097 م ظهور الخط النسخي المزخرف إلى جانب الخط الكوفي المزخرف[32] . ويبدو أن مشاهد قبور بني خراسان كانت مصنوعة في معمل واحد ، يكتسي صبغة رسمية بصورة تزيد أو تنقص[33] .

أما التشبيك النباتي ، فهو يتميّز بالتخلّي أكثر من ذلك شيئاً ما عن منطق الأشكال ، سواء تعلق الأمر بالجذوع أو السعف أو الأزهار ، و« برسوم إنشائية متقنة أكثر مما كانت في العصر الأغلبي»[34]. ولكن ينبغي تجنّب الحديث عن الابتكار، بخصوص تلك الزخرفة النباتية التي يصعب تحديد أصلها . فقد صرّح جورج مارسي حول هذا الموضوع بما يلي :

« لقد اقتبست بلاد البربر أغلب أشكالها الزخرفية من مصر التي اقتبستها هي ذاتها من بلاد ما بين النهرين »[35] .

ومن ناحية أخرى ، فإن الجمع بين الطوب والحجارة ، لا سيما في مفاتيح العقد المتناوبة ، يفضي إلى تعدّد الألوان ، مع فارقَيْن في درجة إشراق اللّون . إلا أنّ فسيفساء البلاطات الأغلبيّة ذات المكعّبات السوداء والبيضاء ، قد عوّضتها أرضيّات مركّبة تركيباً أحكم وملوّنة بالأمغر

31) ج . مارسي ، **قباب وسقوف** . . . ، 36-39 .
32) س. م . زبيس ، Corpus ، 68/1 .
33) نفس المرجع ، والذيل ، 87 وما بعدها .
34) **الهندسة المعمارية** ، 113-116 ، **الفنّ الإسلامي** ، 18-82 ، **قباب وسقوف** . . . ، 41-42 ، 50 ، 55 .
35) **الهندسة المعمارية** ، 116 .

والأحمر ، وتعتبر فسيفساء المهدية أصدق مثال لذلك[36] . وقد اكتُشِفت بعض قطع من الرخام ، نُحِتت فيها حزّات لترصيعها بالفسيفساء الزخرفية ، كما اكتشفت بلاطات مرمريّة مجوّفة لإدماج قطع من الرخام الملوّن أو الطين المطلي[37] .

وكانت صور الإنسان موجودة في الرسوم بكثرة ، ما عدا في المساجد ، حيث تمنع الشريعة الإسلامية عرضها هناك . ومن بين تلك الصّور ، نشير إلى الأسود المنقوشة على باب المهدية ، والرسوم التي اكتشفت أخيراً في المنصورية والممثلة لعدد من المقاتلين ، والنقيشة الممثلة للملك يستمع إلى عازفة على آلة موسيقية . ولكن يبدو بالنسبة إلى هذه الصّور أن الفنّانين قد استوحوا أعمالهم الفنية من بعض الأغراض الفارسية والعراقية القديمة أكثر ممّا استوحوها من ملاحظة الواقع[38] .

4 ـ صناعة الخشب :

لقد أضيف ظهر جديد إلى منبر جامع الأندلسيين بفاس[39] الذي بُني في شوال 369 هـ / 20 أفريل ـ 18 ماي 980 م ، لما استولى بلكّين على المغرب ، ورُمِّم سنة 375 هـ / 985-986 م ، مع المحافظة على طرازه . ولا نعرف إلى حدّ الآن خشباً منقوشاً في العهد الفاطمي ، سابقاً لهذا المثال الذي تأكّدت فيه ما يكتسيه الفنّ الفاطمي من صبغة تأليفيّة . فللمرة الأولى تمّ تنضيد الألواح المربّعة تنضيداً محكماً ، بحيث تقابل كلّ طبقة خطّاً في كلّ درجة من المنبر . وسنجد هذا الترتيب المخالف لترتيب المنبر الأغلبي الموجود في الجامع الأعظم بالقيروان ، في جميع الجوامع المغربية . وتعتبر « مشربيّات » منبر بلكين أقدم مثال في الغرب الإسلامي لهذا النّمط من النجارة .

واستعمل أمراء بني زيري وبني حمّاد المقصورة[40] لأداء الصلاة في الجامع بمعزل عن المصلّين . وبفضل فخامتها وتجديد نمطها ، تدلّ مقصورة المعزّ بن باديس على التحكّم البارع في

---

36) في قصر القائم المفترض ، **الهندسة المعمارية** ، 79 ، 86 ، 98 ، س. م . زبيس ، المجلة الأسيوية ، 1956 م ، 83-84 .

37) **الهندسة المعمارية** ، 98 ، س . م . زبيس ، المرجع السابق ، 87 .

38) **الهندسة المعمارية** ، 116-117 ، **الفنّ الإسلامي** ، 83 ، س . م . زبيس ، المرجع المذكور ، 88 ، 90-91 ، L. Golvin ، **المغرب الأوسط** .

39) هنري تراس H. Terrasse ، جامع الأندلسيين .

40) ابن خلدون ، **المقدمة** ، 2/72 .

فنّ النقش على الخشب[41] . وتعتبر الشبابيك المصنوعة من الخشب مثالاً جديداً لنجارة « المشربيّات » . ويرجع تاريخ النقيشة الرائعة المكتوبة بالخطّ الكوفي المزخرف على أرضية مزيّنة بالزهور ، إلى سنة 413 هـ / 1022-1023 م ، وهو تاريخ سابق للتاريخ الذي كان محدّداً إلى حدّ الآن[42] .

5 ـ النّحاس والبرنز[43] والحليّ والمصابيح :

إنّ المصباح الكبير المصنوع من النحاس والذي عُثِر عليه في الجامع الأعظم بالقيروان ، يحمل اسم المعزّ ، أي المعزّ بن باديس على الأرجح ، واسم النّحاس[44] .

واكتُشِف في منطقة الكاف وعاء مصنوع من الصلصال يحتوي على حليّ ونقود من الذهب . ويسمح تاريخ تلك النقود بتحديد الفترة التي خُبِّئت فيها (أواخر 436 وأوائل 437 هـ / 1044-1045 م) .

والجدير بالملاحظة أن الأساور والصفائح المثلثة والأقراط المتعددة الفصوص ، وحبّات القلائد ، لها ما يقابلها في المشرق ، سواء بالنسبة إلى الزخرفة أو بالنسبة إلى طريقة الصنع . فهي مصنوعة من الذهب المُطرَّق أو من خيوط الذهب المفتولة[45] .

وأمّا المصابيح المنقولة[46] ، سواء كانت مصنوعة من البرنز أو من الصلصال (المطلي أو غير المطلي) فهي تشتمل على واحد أو ثلاثة أفواه ، ومجهّزة في الغالب بقمع ، مع غطاء ومقبض . وكلّ هذه التحف لا تتّسم بأيّ خاصيّة تميّزها عن التحف المكتشفة في البلدان الإسلامية الشرقية والغربية .

---

41) الهندسة المعمارية ، 71 ، 97-98 ، الفنّ الإسلامي ، 85-86 . حول الباب المنقوش الجميل التابع لضريح سيدي عقبة قرب بسكرة ، وهو نسخة مطابقة للخشب المصنوع بالقيروان والمنسوب إلى المعزّ بن باديس ، انظر ، ج . مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1939-1941 م ص 1 وما بعدها .

42) إدريس ، مجلة أرابيكا ، 1956 ، 214-215 .

43) Objets kairouanais ، 409/2-466 .

44) نفس المرجع ، 411/2-433 ، نقائش عربية ، 24/1-26 ، كاتشاريان ، مجلة أرابيكا ، 1956/3 ، 243 .

45) Objets Kairouanais ، 2 ، 467-491 .

46) نفس المرجع ، 459/2-466 .

6 ـ صناعة الزجــاج :

لقد عُثِر في موقع صبرة المنصورية على مجموعة رائعة من الأواني المصنوعة من الزجاج المنقوش ، والمشتملة على أقداح وقوارير عطور ، مماثلة للأواني المصرية التابعة لنفس الفترة . ولا شكّ أن هذا الفنّ كان مزدهراً في قلعة بني حمّاد وبجاية وهما المدينتان المرتبطتان ارتباطاً وثيقاً بإفريقية في كافة الميادين الفنية(47) . وقد كانت الكؤوس والأقداح والقوارير وأوعية العطور مُقَوْلبة أو منفوخة ، ومزدانة بزخارف منقوشة بالمدقّة ومرصّعة بخيوط الزجاج ومزخرفة في أغلب الأحيان بصور الحيوانات . وهنا أيضاً يطغى التأثير المصري(48) .

وفي صبرة توجد بكثرة « عبرات الزجاج » ، وهي قطرات من الزجاج تتولّد عند اتصال الزجاج الذائب بالماء البارد . ولعلّ الدّرر الكبيرة الزجاجية البارزة التي تزخرف بعض الأواني ، قد صُنِعت بهذه الطريقة(49) .

ويبدو أنّ بني زيري وبني حمّاد ، مثل الفاطميين في المهدية وصبرة والقيروان ، كانوا يضربون ويطبعون الصّنوج المصنوعة من الزجاج(50) .

وقد سمحت الحفريات التي أُجريت في قلعة بني حمّاد وصبرة باكتشاف بقايا درابزينات مصنوعة من الجصّ ومرصّعة بالزجاج الملوّن « وببعض قطع من القوارير وعُرَى الأباريق وأعناق الأواني والقعور ، المزركشة أحياناً بزخارف مُقَوْلبة في شكل مجوّف » . ولون هذا الزجاج في الغالب أبيض ، وأحياناً أزرق وأخضر وأحمر . « وقد عُثِر على قطعة من وعاء مصبوغ في صلب الرخام الأبيض والأسود . وعُثِر على مثل هذه القطع في بجاية أيضاً »(51) .

واكتشفت في صبرة بعض المصابيح الزجاجية المعلّقة بواسطة سُلَيْسلات أو الموضوعة في أطواق دولاب. ولكنّنا لا نستطيع أن نؤكّد أنها صُنِعت في إفريقية . إذ يمكن أن تكون مستوردة من الشرق ، وعلى سبيل المثال من مصر(52) .

---

47) ج . مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 180 .
48) ج . مارسي ، الفنّ الإسلامي ، 88 ، **Objets kairouanais** ، 406-371/2 .
49) سولينياك ، بحوث ، 70 .
50) [ح . ح. عبد الوهّاب ، ورقات ، 424-419/1 : الصّنوج] .
51) **Objets Kairouanais** ، 375/2 .
52) نفس المرجع ، 402-400/2 .

7 - التجليـــد :

توجد في الجامع الأعظم بالقيروان عدّة مخطوطات مجلّدة من الصنع المحلّي[52م] ، تسمح بإعادة رسم ملامح تطوّر هذا الفنّ من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر من الميلاد . وقد كان موضوع دراسة مستفيضة يمكن الرجوع إليها[53] .

وفي الجملة كان حجم المجلّد طوال العصر الصنهاجي مطابقاً للنموذج العتيق المستعمل في القرن التاسع ، وهو نموذج مستطيل وعريض أكثر مما هو مرتفع ، ويعرف باسم « النمط الإيطالي » . ويوضع السفر في علبة مغلقة[54] .

وتتميّز فئة المجلّدات التابعة للقرن العاشر[55] عن الفئة التابعة للقرن التاسع[56] ، بكونها عملاً فنيّاً متّسماً بأكبر عناية وأكثر نفاسة[57] ، وتتميّز الفئة الثالثة[58] (القرن الحادي عشر) بعدة مستحدثات . من ذلك أنّ الحجم لم يزل مطابقاً « للنمط الإيطالي » ، إلاّ أنّ حجم حوالي عشر نسخ كان مطابقاً « للنّمط الفرنسي »[59] وظهر نوع جديد من التسفير يتميّز بتجليد بسيط يشتمل على أجزاء مسطّحة خالية من الحواشي ومن أيّ جهاز إغلاق ، ولم تعد نواتها مصنوعة من الخشب ، بل من الورق المقوّى أو الرقّ ، مع بعض الأوراق العادية أحياناً . وبالنسبة إلى المجلّدات الصلبة المتخذة لشكل العلب والتي ما زالت رائجة آنذاك ، يقتصر الجزء المسطّح الداخلي في جلّ الحالات على ورقة من الرق . كما أضيفت إلى التزويق زخارف جديدة ذات تركيبات بارعة ودقيقة[60] .

وهناك فئة رابعة من المجلّدات[61] تابعة هي أيضاً للقرن الحادي عشر ، لا تشتمل إلا على

---

52 م) [لقد نُقِلت هذه المجلدات إلى مركز الفنون الإسلامية برقّادة] .

53) **Objets Kairouanais** ، مذكرات ووثائق ، 11/ السفر الأول ، تونس 1948 م ، 364 صفحة و 54 لوحة .

54) نفس المرجع ، 15 ، 18-19 .

55) نفس المرجع ، 49-52 ، 126-158 ، رقم 55-72 .

56) نفس المرجع ، 44-49 ، 61-126 ، رقم 1-54 .

57) نفس المرجع ، 322-324 .

58) نفس المرجع ، 52-56 ، 158-228 ، رقم 73-117 .

59) نفس المرجع ، 73 ، 76 ، 94 مكرر ، 108-113 ، 115 ، 116 .

60) نفس المرجع ، 3 وفي عدة مواضع أخرى .

61) نفس المرجع ، 22 ، 56-58 ، 228-243 رقم 118-126 ، انظر أيضاً ص 22-23 ، 32-35 ، 58 وفي عدة مواضع أخرى .

أحجام مطابقة « للنمط الإيطالي » ، ومجلّدات في شكل عُلَب ذات سيور ورزّات . وتتألف نواة الأجزاء المسطّحة من لوحات مغطّاة في الظهر بأوراق من الرق . وتشتمل الزخرفة على عنصر جديد يبدو أنه من المستحدثات القيروانية ، وسيُتخلّى عنه بعد زحفة بني هلال . وهو في معظمه أو بأكمله مُقَوْلب على الخيط . أما الصفائح فتملأها أحياناً صفوف الدواليب ، وفي أغلب الأحيان زخارف زهرية بديعة .

ورغم أن الفنّ القبطي لم يكن غريباً عن نشأته ،فإن التجليد القيرواني يتناسق تماماً مع النمط الإفريقي . وهو نتاج متشعّب للتأثيرات الشرقية والتقاليد المحلية العريقة إلى حدّ لا يسمح لنا بأن نفترض أنه من صنع الحرفيّين المصريّين[62] .

8 - الموسيقى :

لدينا بعض المعلومات حول الموسيقى في العصر الصنهاجي[63] ، فقد كان المعزّ بن باديس « عارفاً بعدّة صنائع من الألحان والتوقيعات »[64] . ويبدو أنّ الذي شجّع هذا الفنّ بوجه خاص هو عبد الوهّاب بن حسين بن جعفر الحاجب[65] أحد معاصري الرقيق . ولا ندري إن كان هذا الفنّان يقيم في القيروان أم في المهدية . وهو على الأرجح حفيد جعفر بن علي ، حاجب الخلفاء الفاطميّين الثلاثة الأوائل .

« كان واحد عصره في الغناء الرائع والأدب البارع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق . وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللّهو واللعب والفكاهة والطرب ، وأعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون ، كثيراً ما يقول الأبيات الحسنة في المعاني اللطيفة ، ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة العجيبة، اختراعاً منه وحذقاً ، وكانت له قريحة وطبع . فكان إذا لم يزره أحد من إخوانه ، حضر مائدته وشرابه عِشْرة من أهل بيته ، منهم ولده وعبد الله بن أخيه وبعض غلمانه . كلّ هؤلاء يغنّون ويجيدون ، فلا يزالون يغنّون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعود ويغني لنفسه ولهم . وكان بشارة الزّامر الذي يزمر عليه من حذّاق زَمَرة المشرق . وكان بعيد الهمّة سمحاً

62) نفس المرجع ، 60/1-61 .
63) في سنة 314 هـ/925-926 توفي بالمهدية المغنّي مؤنس البغدادي مولى موسى بن بُغا ، البيان ، 191/1 .
64) المؤنس ، 82 .
65) المقرّي ،نقلاً عن قطب السرور ، للرقيق ، نشر دار المأمون 53/1-59 ، ط . القاهرة 1949 م ، 4 ، 143-144 .

بما يجد ، تغلّ عليه ضِياعه في كل عام أموالاً ، فلا تحول السنة حتى يفسد جميع ذلك ويستلف غيره ، فكان لا يطرأ من المشرق مُغَنٍّ إلاّ سأل من يقصد لهذا الشأن ، فيُدلّ عليه ، فمن وصل إليه منهم استقبله بصنوف البرّ والإكرام وكساه وخلطه بنفسه ، ولم يَدَعْه إلى أحد من الناس ، فلا يزال معه صَبُوح وغَبوق وهو يجدّد له في كل يوم كرامة حتى يأخذ ما عنده من صوت مطرب أو حكاية نادرة » .

« وجلس (الحاجب عبد الوهاب) يوماً وقد زاره رجلان من إخوانه وحضر أقرباؤه فطعموا وشربوا وأخذوا في الغناء ، فارتجّ المجلس ، إذ دخل عليه بعض غلمانه فقال : بالباب رجل غريب عليه ثياب سفر ذكر أنّه ضيف ، فأمر بإدخاله ، فإذا رجل سُنّاط رثّ الهيئة فسلّم عليه : أين بلد الرجل ؟ قال : البصرة ، فرحّب به وأمره بالجلوس ، فجلس مع الغلمان في صفّة ، وأُتِيَ بطعام ، فأكل وسُقِي أقداحاً ، ودار الغناء في المجلس حتى انتهى إلى آخرهم . فلما سكتوا اندفع الرجل يغني بصوت نديّ وطبع حسن . فطرب عبد الوهاب وصاح وتبيّن الحذق في إشارته والطيب في طبعه وقال : يا غلام خذ بيده إلى الحمام وعجّل عليّ به ، فأُدخِل الحمام ونُظِّف ، ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فألقيت عليه ورفعه فأجلسه عن يساره وأقبل عليه وبسطه فغنّى لـه ، فشرب عبد الوهاب ثم قال : زدني ! فغنّاه .

فمرّ يوم من أحسن الأيام وأطيبها . ووصله وأحسن إليه ولم يزل عنده مقرّباً مكرّماً .

وكان المغنّي خليعاً ماجناً مشتهراً بالنبيذ . فخلاه وما أحبّ . ثم وصف له الأندلس وطيبها وكثرة خمورها ، فمضى إليها ومات بها » .

وأضاف الرّاوي ـ والأرجح أنه الرقيق[65م] ـ قائلاً : « وعلى نحو هذه الحـال كان يفعـل الحاجب عبد الوهّاب بكلّ طارىء يطرأ عليه من المشرق ، ولو ذكرتهم لطال الكتاب » .

فيبدو حينئذ أن الموسيقى ، مثل غيرها من الفنون الأخرى ، كانت من وحي شرقي ، حتى زحفة بني هلال . ومهما يكن من أمر فإن التأثير الأندلسي لم يظهر إلاّ بعد غزوة بني هلال بقليل . فقد أخبرتنا المصادر أنّ أبا الصلت أمية بن عبد العزيز (ت . 529 هـ / 1135 م) هو الذي أدخل الموسيقى الأندلسية إلى إفريقية[66] .

---

65 م) [هو بالفعل الرقيق حسبما أكّده حسن حسني عبد الوهّاب الذي نقل عنه المعلومات السالفة الذكر . انظر ، ورقات ، 208/1-212] .

66) المقري ، 372/1 : « وهو الذي لحّن أغاني إفريقية » وأضاف ابن سعيد : « وإليه تُنسَب إلى يومنا هذا » . ح . ح . =

أما الآلات الموسيقية التي كانت مستعملة عصرئذ فهي : العود والرباب والناي والطبل والدفّ[67] .

= عبد الوهّاب ، المجلة التونسية ، مارس 1918 م ، 115 ، النيفر ، عنوان الأريب ، 104/1 : أورد المقامات الثلاث عشرة في قصيدة تُعرّف بناعورة الطبوع ، من نظم محمد الظريف (ت . 787 هـ/1385 م) .

67) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 95/2 ط ، 96 و ، إشارة إلى فقرة من « أحكام السوق » ليحيى بن عمر ، حول الآلات الموسيقية المستعملة في الأعراس قبل العصر الصنهاجي ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 97/2 ط ، 98 و ، المختصر ، 56 ظ : حول البوقات المستعملة في المساجد وطبل رمضان المستعمل للإعلان عن السحور ، وذلك في فترة لاحقة ، نقائش عربية ، 391/1-392 ، قبريّة أحمد بن سفيان المرادي الربّاب (ت . 422 هـ/1031 م) جورج مارسي ، تحية مسبيرو Maspéro ، 3/ القاهرة 1935 م ، 241-257 .

الخـاتمـة

في خاتمة هذه الحوصلة التي لا يمكن أن تكون نهائيّة ، سنحاول رسم ملامح هذه الدراسة الأوّلية المرتكزة على وثائق محدودة العدد ومتحيّزة ومبتورة ، وهي وثائق قليلاً ما تكون أصلية ، ولكنّها موضوعة بحذر شديد . وفي نهاية هذه المعركة التي خضناها ضدّ أشباح مفتقرة غاية الافتقار إلى النور ، وهذا التمشّي الطويل ، المحفوف بالمخاطر ، على حبل مشدود ، ليسمح لنا القارىء الكريم بالرجوع إلى الوراء لإلقاء نظرة أخيرة على ذلك التحوّل الذي شهده تاريخ بلاد المغرب الشرقية خلال القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد ، ذلك التاريخ الذي استعرضناه في لوحة ذات وجهَيْن : الوجه الأوّل المرتكز على سرد الأحداث والذي يشبه إلى حدّ كبير الأخبار التاريخية القروسطية ، والوجه الثاني الذي يتمثل في جملة من المعلومات المنقولة من شتّى المصادر[1] .

ويمكننا بادىء ذي بدء ، ولو على سبيل التذكير ، الرجوع إلى بعض الاعتبارات التأريخية . فقد دامت الملحمة الصنهاجية أكثر من قرنين ، وذلك من تاريخ تأسيس أشير (324 هـ / 935 م) إلى تاريخ سقوط آخر أمراء بني حمّاد (547 هـ / 1152 م) . وانطلقت طوال مدّة تناهز النصف قرن في عهد أمراء بني زيري الثلاثة الأوائل ، بلكين بن زيري (361-373 هـ / 972-984 م) والمنصـور بن بلكـين (373-386 هـ / 984-996 م) وبـاديس بن المنصـور (386-406 هـ / 996-1016 م) ، الذين ملكوا ، الأوّل والثاني ، كلّ واحد اثنتي عشرة سنة ، والثالث عشرين سنة .

ويمثّل تأسيس مدينة القلعة سنة 398 هـ / 1007 م بداية دولة بني حمّاد ، أكثر مما تمثّلها المعاهدة المبرمة بين حمّاد بن بلكيـن والمعزّ بن باديس سنة 398 هـ / 1007 م .

وكانت مدّة ولاية المعزّ بن باديس طويلة بشكل ملحوظ (47 سنة) . ويمثّل قسمها الأوّل الذي دام 35 سنة (من 407 إلى 442 هـ / 1016-1051 م) ، وشهد القطيعة مع الفاطميّين سنة (439 هـ / 1047 م) ، أوج السلطة الصنهاجية في إفريقية . وشهد قسمها الثاني الذي دام اثنتي

1) انظر ، إدريس ، إشكالية الملحمة الصنهاجية . . . حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1059 ، 243-255 .

عشرة سنة (من 442 إلى 454 هـ / 1051-1062 م) ، الكارثة الهلالية (هزيمة حيدران سنة 443 هـ / 1062 م وخراب القيروان سنة 449 هـ / 1057 م) ، واستقرار أمراء بني زيري الأخيرين في المهدية . وقد ملك أوّلهم تميم بن المعزّ هو أيضاً 47 سنة (من سنة 405 إلى سنة 501 هـ / 1062-1108 م) ، ولكنه لم يتوصّل إلى القضاء على الفوضى .

ومن بين الأمراء المحليّين في إفريقية الذين يشبهون ملوك الطوائف الأندلسيين ، نذكر بالخصوص بني خراسان ، وهم أوّل من أعطوا لمدينة تونس دور العاصمة الذي ستقوم به فيما بعد .

وتواصل احتضار إمارة بني زيري في المهدية في عهد أمراء بني زيري الثلاثة الأخيرين ، يحيى بن تميم الذي ملك ثماني سنوات (501-509 هـ / 1108-1116 م) وعلي بن يحيى الذي دامت مدة ولايته ستّ سنوات (509-515 هـ / 1116-1121 م) والحسن بن علي الذي ملك ثماني وعشرين سنة (515-543 هـ / 1121-1148 م) . وأخيراً أطرده من المهدية النرمان الذين تولّوا « حماية » الساحل الإفريقي زهاء الاثني عشرة سنة .

أما بالنسبة إلى بني حمّاد الذين يبلغ عددهم هم أيضاً تسعة أمراء ، فقد ملك حمّاد بن بلكين (من 408 إلى 419 هـ / 1017-1029 م) ، أي إحدى عشرة سنة (أو 21 سنة إذا اعتبرنا ارتقاءه إلى الحكم منذ تأسيس القلعة) . وملك القائد بن حمّاد سبعاً وعشرين سنة (من 419 إلى 446 هـ / 1029-1054 م) ، ومحسن بن القائد الذي لم تتجاوز مدة ولايته سنة واحدة ، وبلكين بن محمد بن حماد الذي ملك سبع سنوات (447-454 هـ / 1055-1062 م) .

وأمّا مدّة ولاية كلٍّ من الناصر بن علنّاس بن حماد ، وهو أوّل من استقر في بجاية التي بُنِيَت حوالي سنة 460 هـ / 1067 م ، والمنصور بن الناصر ، فقد دامت في الجملة 44 سنة ، وهي تقابل على نحو غريب مدة ولاية تميم بن المعزّ الذي هو أوّل مَنْ استقرّ في المهدية من أمراء بني زيري . ذلك أن الناصر قد ملك سبعاً وعشرين سنة (454-481 هـ / 1061-1088 م) والمنصور سبع عشرة سنة (481-498 هـ / 1088-1105 م) .

ويعد ولاية باديس بن المنصور القصيرة المدى ، ملك العزيز بن المنصور سبع عشرة أو عشرين سنة (498-515 أو 518 هـ / 1105-1121 أو 1125 م) ، ثم انقرضت أسرة بني حمّاد مع يحيى بن العزيز الذي بقي على العرش مدّة تناهز الثلاثين سنة (515 أو 518-547 هـ / 1121 أو 1125-1152 م) ، أي ما يعادل تقريباً المدّة التي قضاها على العرش في المهدية آخر أمراء بني زيري ، الحسن بن علي ، وهذا تشابه آخر غريب ولكنّه جدير بالملاحظة .

وقد دامت مدّة ولاية بني حمّاد أكثر من مدّة ولاية بني زيري لأن بني حماد كانوا أقلّ عرضة لبني هلال وبمنأى عن النزمان ، بفضل تضاريس بلادهم الجبلية . وتبعاً لذلك فقد أضرّت بهم هزيمة سبيبـة (457 هـ / 1065 م) أقلّ ممّا أضرّت هزيمـة حيدران ببني زيـري ، واستفادوا من خراب القيروان ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يستغلّون الفرصة التي وفّرها لهم القدر . وقد أخطأت الأسرتان خطأً فادحاً حينما تبارت الواحدة مع الأخرى ، عوض توحيد جهودهمـا ضدّ عـدوهما المشترك ، في صراع بين الأخوة لم يستفد منه إلا بنو رياح الموالون لبني زيري في إفريقية والأثبج الموالون لبني حمّاد في المغرب الأوسط . وفي لمح البصر أسرع الموحّدون إلى افتكاك المغرب الأوسط الذي أدركه الوهن من أيدي بني حمّاد (547 هـ / 1152 م) . وبعد ذلك ببضع سنوات انتزعوا إفريقية الثائرة على النزمان والمتأهّبة لاستقبال حكّامها البربر المسلمين الجُدد ، استقبال المُحرِّرين . كما تمكّن الموحّدون من قمع ثورة بني هلال في سطيف والقضاء على التكتّل الهلالي الذي ظهر في إفريقية وانتهى بهزيمة جبل القرن .

ورغم طموح الأعمام وأعمام الأعمام الصنهاجيين ، تطبيقاً لمبدأ حكم الشيوخ الذي ربما كان من التقاليد البربرية ، فقد لاحظنا انتظام ترتيب الوراثة على العرش بصورة قطعية بالنسبة إلى أمراء بني زيري الذين ملكوا بشكل مسترسل ، الابن خلفاً للأب ، دون صعوبات جمّة ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى أمراء بني حمّاد ، إلا ما قلّ وندر . ولا نستطيع اكتشاف أسباب تعيين الأمير الجالس على العرش لوليّ عهده . ولكن يبدو أن الابن المعيّن لولاية العهد ، كثيراً ما يُكلَّف بولاية إقليم من الأقاليم يكون حِكراً عليه ، وبقيادة الجيش ، الأمر الذي يسمح باختبار قدراته وتمكينه من ممارسة التأثير اللازم على الجنود الذين سيساعدونه فيما بعد على الارتقاء إلى العرش .

كما كان عبيد الأمير الأوفياء له على الدوام يقدّمون إليه يد المساعدة خلال الفترة الرهيبة الفاصلة بين عهدَيْن . وكان الخليفة الفاطمي من جهته يوافق تلقائياً على تعيين وليّ العهد ، ويوجّه إليه إثر ارتقائه إلى العرش السجل الرسمي الذي يصل بعد مدّة طويلة من البيعة التقليدية . ثم يأتي مبعوث الخليفة الذي يقع اختياره من الأفضل من بين الدعاة ، فيأخذ البيعة للإمام الإسماعيلي من الأمير ومن كافة أتباعه .

وكان أمراء بني زيري وبني حمّاد على حدّ السواء ـ إلاّ أن هؤلاء كانوا أشد فظاظة وغلظة من أبناء عمومتهم ـ ذا أنَفة . فبوصفهم رجال حرب أوّلاً وقبل كل شيء ، كانوا يقـودون الجيوش بأنفسهم في المعارك ، بصورة تكاد تكون دائمة ، كما كانوا ملوكاً متعلقين شديد التعلّق بالحكم الفردي . وكان للأميرات الصنهاجيّات تأثير كبير عليهم بلا ريب . ولكن لم يتمكن أيّ قهرمان من

فرض وصايته على مخدومه . فلا ينبغي أن نغترّ بالسلطة المطلقة التي كان يتمتع بها رجـل مثل المختال . فلئن عهد إليه الأمير الصنهاجي بإدارة شؤون إفريقية ، فذلك لأن صاحب أشير المهتم أكثر من اللزوم بالمغرب الأوسط ، قد أهمل إفريقية وأوكل أمرها ـ على الأرجح حسب مشيئته ـ إلى أحد أبنائها . ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أن الأمير قد أعدم مرّتَيْن متتاليتَيْن عامل إفريقية عندما أصبح يتمتّع بنفوذ قوي أكثر من اللزوم ويأتمر بأوامر الخليفة . أمّا أمراء بني حمّاد فلا شك أنهم كانوا يحكمون بصورة مباشرة ، ولم يكن وزراؤهم يتمتعون إلّا بسلطة التنفيذ ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى أمراء بني زيري ، لا سيما اعتباراً من عهد المعز بن باديس .

وكان أولئك وهؤلاء ميالين إلى الملذّات ، دون الإغراق فيها ، إن صـحّ التعبير . ونحن نتصوّر أنهم كانوا مولعين بالأكل وبإشباع شهواتهم ، ولكنهم كانوا حريصين على عدم الاستسلام للانتشاء . وقد أسرعوا إلى التخلّص من شوائب بربريّتهم الجبلية ، فتعرّبوا بعجَلة ، على الأقلّ لإثبات نسبهم الحِمْيَري ، وشجّعوا الآداب والفنون . إلّا أنّ بني حمّاد قد ظهروا مدّة طويلة بمظهر الأمراء الأفظاظ ، بالمقارنة مع بني عمومتهم بالقيروان ، على الأقلّ حتى عهد المنصور بن الناصر ، نجل مؤسّس بجاية الذي عمل على « تحضير » مملكته .

ولم يكن أمراء بني زيري المشجّعين للآداب والمشيّدين للمعالم ، أقلّ قيمة من أسلافهم بني عُبَيْد وبني الأغلب ، باعثي « الحضارة القيروانية » . فقد أبرزوا تلك الحضارة بصورة متألّقة إن لم تكن مبتكرة .

وما أشدّ هذا التناقض ، حينما نلاحظ أولئك الصنهاجيّين المنتمين إلى أوّل قبيلة بـربريـة أشرفت على حظوظ إفريقية الإسلامية ، يساهمون في الـرفع من شـأن حضارة عـربية صميمـة مستوحاة من المشرق ، ثم يشاهدون ذلك المعلم البديع وقد قوّضه بنو هلال المنتمون مع ذلك إلى نفس جنس الفاتحين العرب الذين شيّدوه من قبل بالتعاون من أبناء البلاد المعتنقين للإسلام ، تعاون الأخ مع أخيه ! .

ولا ريب أن غزوة بني هلال تمثّل بداية عهد جديد . ولا حاجة لنا ـ عند ذكر هذه الكارثة الخارقة للعادة ـ إلى تأكيد أهميّة استعمال الظرفَيْن « قبل » و « بعد » .

ولكن بالرغم من حدوثها فجأةً ، فإنها لا تمثّل سوى مظهر من مظاهر التباين بين نمطَيْن متناقضَيْن من أنماط العيش .

هذا وإن الصّراع بين الصنهاجيّين الجبليّين المستقرّين في المغرب الأوسط والتابعين للخلافة الفاطمية ، وبين العرب الرحّل المنتمين إلى قبيلة زناتة الغربية والموالين لبني أمية في الأندلس ، قد

تواصل حتى خراب القيروان ، لا سيما في المناطق الجنوبية من إفريقيّة .

وقد استمرّ الصنهاجيّون في الاضطلاع بمهمة الحراسة لمواجهة البربر الرحّل إلى أن سقطوا تحت ضربات أقوام رحّل آخرين ، هم هذه المرة من العرب .

وأثناء تقدّم الصنهاجيين في اتجاه الشرق ، ذلك التقدّم الذي يمثّل إحدى الخصائص الغالبة للفترة التاريخية التي تهمّنا ، يتعلق الأمر بتسرّب تأثير سياسي ، أكثر مما يتعلّق بنزوح قَبَليّ هامّ . ولا يبدو أنّ الفراغ الذي تركه رحيل الكتاميّين ، قد عوّضه مَدَد صنهاجي قوي . كما أنّ إنشاء مملكة بني حماد بصورة مبيّتة وغير عفوية ، سرعان ما فصل بني زيري عن موطنهم الأصلي .

وقبل خراب القيروان ، وكذلك بعده ، كانت تقلّبات التاريخ السياسي والعسكري مرتبطة وثيق الارتباط بالظروف الجغرافية والعرقية . ولكن لا ينبغي أن نظُنّ أنها قد غيّرت قبل قدوم بني هلال تغييراً جوهريّاً المحيط البشري الثابت إلى حدّ ذلك التاريخ في المدن والأرياف على حدّ السواء . بل يمكن أن نتصوّر أن تلك البلاد المزدهرة بالنسبة إلى ذلك العصر ، والمتطوّرة ، قد كانت قادرة على تلبية حاجات السكان رغم قناعتهم ، وقد تزايد عددهم بفضل السلام السائد في العصر الصنهاجي ، بالرغم من المجاعات والأوبئة . وفي الجملة لم يكن سكّان المدن يساهمون في الحروب التي لا ينبغي أن نغترّ بتعدّدها ، ولم يتأثر سير حياتهم بذلك تأثراً كبيراً . ولا ينبغي أن ننخدع أيضاً بأقوال الإخباريين الميّالين إلى تضخيم الخسائر التي يتكبّدها المهزومون ، والحديث عن فناء المراكز العمرانية التي نهبها المنتصرون ليس إلاّ . كما أن أهمية نزوح السكّان إثر إنشاء المدن الجديدة بالمغرب الأوسط كانت ضئيلة نسبيّاً . وإن سرعة انتعاش المدن المخرّبة رأساً على عقب - كما يقال - تجعلنا نشكّ في خرابها ، ذلك إنها إثر تغيير الحكام المشرفين على حظوظها ، وما إن يشبع الجنود من القتل والنهب ، حتى تعود المياه إلى مجاريها بسرعة في أغلب الأحيان . ومن باب أولى وأحرى تستعيد الأرياف حياتها الطبيعية بعد رحيل العسكر . وليس من المؤكد أن يكون الخطر الزناتي ، رغم خطورته واستمراريّته ، قد أثّر تأثيراً جديّاً في حياة المدن . وبناء على ذلك فإن الصراعات السياسية لم تكن لها على الأرجح انعكاسات عميقة على المجتمع ، حتى منتصف القرن الحادي عشر من الميلاد .

وبالعكس من ذلك فإن الأعراب الهلاليين الزاحفين بأعداد غفيرة وبأقلّ فوضى مما كنا نعتقد ، قد استولوا على السهول وعلى عدد كبير من المدن التي خُرّبت وأصبحت في وضع متخلخل ، وأطردوا السكّان المستقرين من البربر المستعربين والبربر الرحّل والمنتجعين ، الذين فرّوا زرافات ووحداناً ، فالتجأ الأوّلون إلى الجبال والتجأ الآخرون إلى المراكز القادرة على التصدّي

للغزاة . ونستطيع عندئذ فحسب أن نتحدّث عن قلب أو فقدان ذلك التوازن الثابت منذ القرن التاسع من الميلاد خلال العهد الأغلبي . أضف إلى ذلك أن السّلم الموحّدية قد أدخلت تغييرات ذات بال ، عوّضها فيما بعد رجوع الأمن إلى نصابه . إلاّ أنّ هذه الظاهرة قد كانت عاملاً من عوامل الاستقرار الناجز والمبتدىء ، أكثر مما كانت عاملاً ثوريّاً ، ولعلّها ساعدت على إعادة العمل ببعض التقاليد التي عاكستها الزحفة الهلالية والغزوة النرمانية .

ولكنّ مأساة بني زيري كانت أوّلاً وقبل كلّ شيء مأساة دينية . ذلك أنّ مقاومة الشيعة بالقتل لم تنتظر ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش . كما تبيّن أن القطيعة مع القاهرة التي تمّت على مراحل لم تكن من صنيع المعزّ بوصفه زعيم أهل السنّة ، بل كانت تتويجاً للعمل المنظّم الذي قام به العلماء لإثارة حميّة العامّة ، وقد ساعد دعوتهم إلى حدّ كبير استقلال إفريقية شبه التام في عهد بني زيري الأوائل .

والجدير بالملاحظة الدور الذي قام به أحد فقهاء القيروان في نشأة الحركة المرابطية ، والعمل الذي أنجزه الصنهاجيون الملثّمون ، الممتثلون لأوامر العلماء الأندلسيين ، لتحقيق انتصار المذهب المالكي في أقطارهم ، في الوقت الذي كان فيه بنو قومهم في إفريقية يستقبلون في القيروان مبعوث الخليفة العباسي الذي كان مؤسس القلعة قد اعترف من قبل بسلطته في المغرب الأوسط . وفي نفس الوقت أيضاً انتصر المذهب السنّي في المشرق ، حيث أزاح السلجوقيّون السنّيون البُوَيْهيّين الشيعة وحلّوا محلّهم لحماية الخلافة العباسية في بغداد .

ومن ناحية أخرى ، كان اصطباغ الدولة الصنهاجية بصبغة إفريقية ، من دواعي انتهاج سياسة متوسّطية ستمثّل فيما بعد الفرصة الوحيدة لبقاء بني زيري في المهدية وبني حمّاد في بجاية ، وقد أصبحوا مضطرّين أكثر من أيّ وقت مضى إلى تعاطي الغزو في البحر .

وفي الوقت الذي أفقدت فيه نهضة الغرب المسيحي التوازن المتوسّطي ، وتعرّض الشرق الإسلامي إلى الهيمنة الفاطمية التي انطلقت من المغرب ولم تزل تستمدّ منه قوّتها ، نتصوّر أهميّة الدّور الذي كانت تقوم به عهدئذ الكتلة البربرية العربية . أفلا تمثّل تلك الكتلة المتألّفة من إفريقية والمغرب الأوسط وصقلية حاجزاً داخل البحر الأبيض المتوسّط ؟ إلاّ أنّ زحفة بني هلال قد أوهنتها ، والغزوة النرمانية قد فكّكتها ، ولم يسع الموحّدون إلى إنعاشها والتفكير في إعادة وحدتها باسترجاع صقلية . وقد تسبّب توحيد بلاد المغرب تحت رايتهم ، وتقدّم سياسة الاسترداد في الأندلس في اتّساع رقعة النفوذ الإسباني في تلك الربوع ، على حساب النفوذ الشرقي الذي كان متفوّقاً إلى حدّ ذلك التاريخ . فلم تعد إفريقية محطّة عبور الحضارة الشرقية ، بل أصبحت نقطة

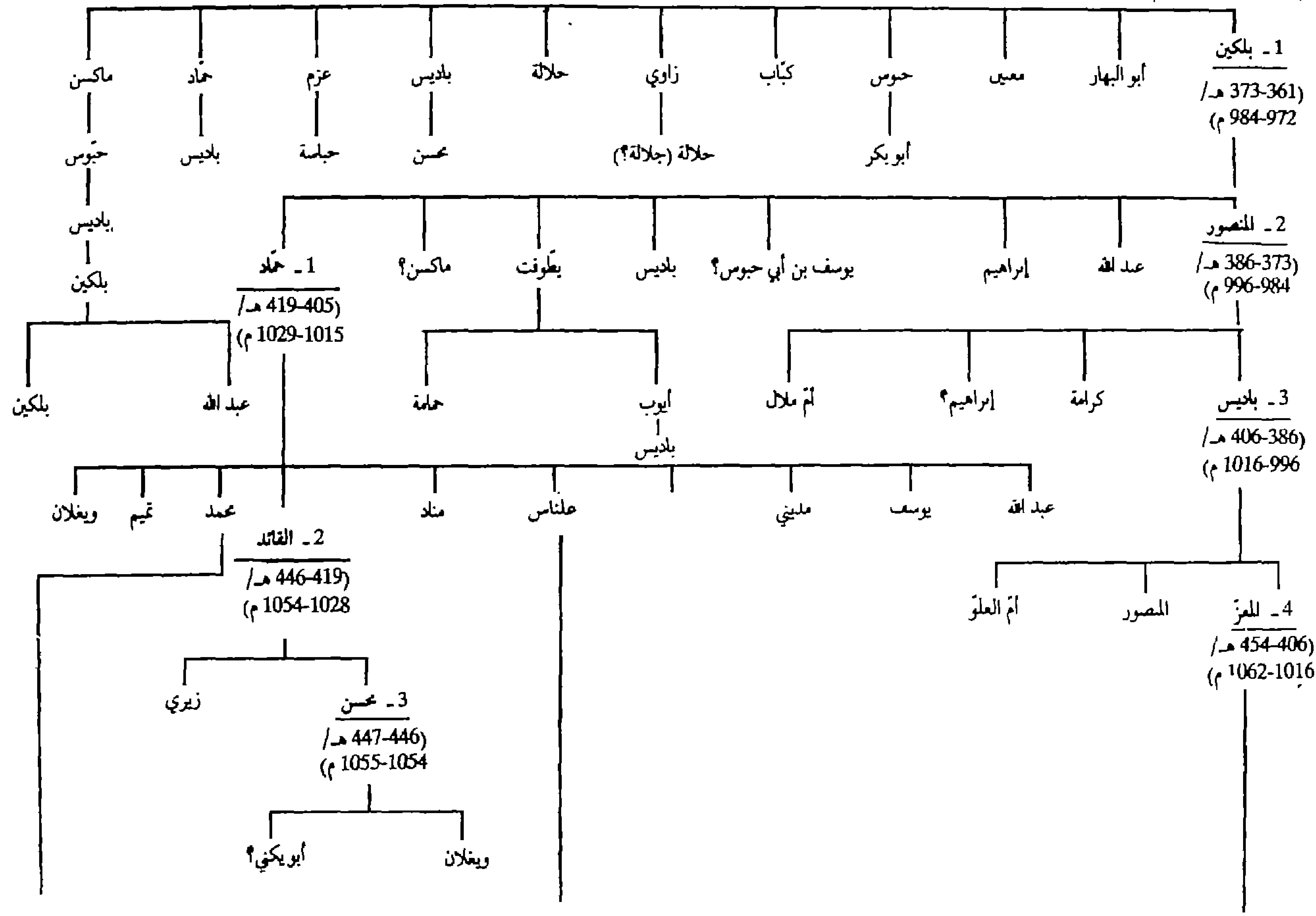
وصول بعدما كانت نقطة انطلاق ومركز انتشار .

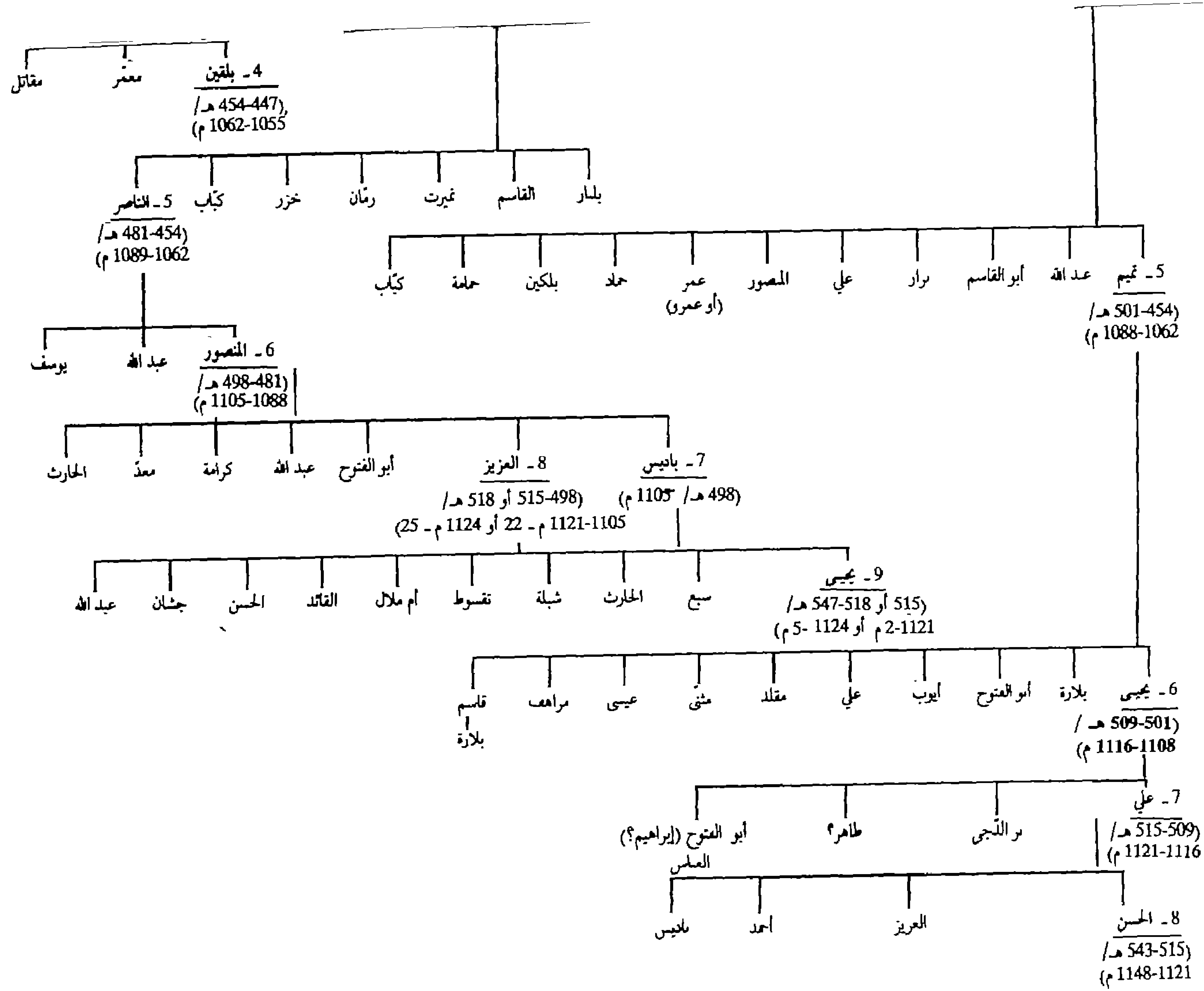
وخلال القرنين العاشر والحادي عشر من الميلاد اللّذين يمثلان بالنسبة إلى الغرب والشرق على حدّ السواء ، الخطّ الفاصل ونقطة الانطلاق ، بين أوائل وأواخر العصر الوسيط ، ستطرأ « التغييرات الرئيسية التي لا تزال تنبثق منها كثير من مظاهر المجتمع الإسلامي الحديث »[2] .

ولا نعتقد أن الموضوع الذي تناولناه بالدرس قد طغى علينا إلى حدّ الإفراط في تمجيده ، إذا ما أكّدنا أن الحضارة الصنهاجية شيء عظيم . ويكفينا للاقتناع بذلك ـ رغم قلّة الآثار الصنهاجية التي ما زالت ماثلة للعيان ـ أن نشير إلى البعض منها ، مثل منارة قلعة بني حمّاد ومقصورة الجامع الأعظم بالقيروان ، و رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، و عمدة ابن رشيق ، الخ . . . فكما نلمح نور بعض الكواكب بعد مدّة طويلة من اختفائها ، وكما تلتصق أنوار الغروب في بعض المناظر الطبيعية بالجوانب البارزة ، وتسطع بعد احتجاب الشمس وراء الأفق ، استمرّت الثقافة القيروانية في الإشعاع في محيط مَوْقِد مُخْمَد ، سوف لا يشعّ من جديد ، ويا للأسف ! .

2) كلود كاهين ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الإسلامي في العصر الوسيط ، ستوديا إسلاميكا ، 1955/3، 110 .

شجرة نسب الأمراء الصنهاجيّين





4 ـ بلقين
(454-447 هـ/ 1062-1055 م)
معمّر
مقاتل
5 ـ الناصر
(481-454 هـ/ 1089-1062 م)
كبّاب
خزر
رمّان
غيرت
القاسم
بلسار
6 ـ المنصور
(498-481 هـ/ 1105-1088 م)
عبد الله
يوسف
7 ـ باديس
(498 هـ/ 1105 م)
8 ـ العزيز
(515-498 أو 518 هـ/ 1121-1105 م ـ 22 أو 1124 م ـ 25)
أبو الفتوح
عبد الله
كرامة
معدّ
الحارث
9 ـ يحيى
(515 أو 518-547 هـ/ 1121-2 م أو 1124 -5 م)
سبع
الحارث
شبلة
تقسوط
أم ملال
القائد
الحسن
جشان
عبد الله
5 ـ تميم
(501-454 هـ/ 1088-1062 م)
عبد الله
أبو القاسم
برار
علي
المنصور
عمر
(أو عمرو)
حماد
بلكين
حامة
كبّاب
6 ـ يحيى
(509-501 هـ / 1116-1108 م)
بلارة
أبو الفتوح
أيوب
علي
مقلد
مثنى
عيسى
مراهف
قاسم
بلارة
7 ـ علي
(515-509 هـ/ 1121-1116 م)
بر اللّجى
طاهر؟
أبو الفتوح (إبراهيم؟)
العلس
8 ـ الحسن
(543-515 هـ/ 1148-1121 م)
العزيز
أحمد
باديس

بنـو زيـري

1 ـ بلكين بن زيري بن مناد (361-373 هـ / 972-984 م) .
2 ـ المنصور بن بلكين (373-386 هـ / 984-996 م) .
3 ـ باديس بن المنصور (386-406 هـ / 996-1016 م) .
4 ـ المعزّ بن باديس (406-454 هـ / 1016-1062 م) .
5 ـ تميم بن المعزّ (454-501 هـ / 1062-1108 م) .
6 ـ يحيى بن تميم (501-509 هـ / 1108-1116 م) .
7 ـ علي بني يحيى (509-515 هـ / 1116-1121 م) .
8 ـ الحسن بن علي (515-543 هـ / 1121(1148 م) .

بنـو حمّـاد

1 ـ حمّاد بن بلكين بن زيري (405-419 هـ / 1015-1029 م) .
2 ـ القائد بن حمّاد (419-446 هـ / 1028-1054 م) .
3 ـ محسن بن القائد (446-447 هـ / 1054-1055 م) .
4 ـ بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين (447-454 هـ / 1055-1062 م) .
5 ـ الناصر بن علنّاس بن حماد بن بلكين (454-481 هـ / 1062-1089 م) .
6 ـ المنصور بن الناصر (481-498 هـ / 1088-1105 م) .
7 ـ باديس بن المنصور (498 هـ / 1105 م) .
8 ـ العزيز بن منصور (498-515 أو 518 هـ / 1105-1121 م ـ 2 أو 1124 م ـ 25) .
9 ـ يحيى بن العزيز (515 أو 518-547 هـ / 1121 م ـ 2 أو 1124 م ـ 25 ـ 1125 م) .

بنـو خراسـان

1 ـ عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان (حوالي 450-488 هـ/1059-1095 م) .
2 ـ عبد العزيز بن عبد الحقّ (488-499 هـ/ 1095-1105 م) .
3 ـ إسماعيل بن عبد الحقّ (ت. 500 هـ/1107 م) .
4 ـ أحمد بن عبد العزيز (500-522 هـ/1107-1128 م) .
5 ـ أبو بكر بن إسماعيل (ملك 7 أشهر) .
6 ـ عبد الله بن عبد العزيز بن إسماعيل (ملك 10 سنوات) .

الفهارس

1 ـ فهرس الأعلام

ـ أ ـ

— ب —

– ت –

ـ ث ـ

ـ ج ـ

- خ -

— د —

— ذ —

— ر —

– ز –

– ص –

– ض –

– ط –

– ظ –

– ع –

– غ –

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

– م –

ــ ن ــ

— هـ —

— و —

— ي —

2 - فهرس القبائل والمجموعات

- أ -

- ب -

- ت -

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

3 - فهرس الأماكن والبلدان

- أ -

ـ ت ـ

- ح -

- خ -

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ق ـ

— ك —

— ل —

– ي –

فهرس المواضيع

القسم الثّاني
المؤسّسات والحياة العامّة

الباب السابع : البلاد والعباد

الباب الثامن : النّظام السياسي والإداري

الباب التاسع : الحياة الاجتماعية والعائلية

الباب العاشر : الحياة الاقتصاديّة

الباب الحادي عشر : الحياة الدينيّة

الباب الثّاني عشر : الحياة الفكريّة والفنيّة



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون 340131 - 340132 - ص. ب 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P. 113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم : 1992 - 3 - 2000 - 203

التنضيد: سامو برس - بيروت

الطباعة: دار صادر - بيروت

HADY ROGER IDRIS

La Berbérie orientale sous les Zirides
Xe - XIIe siècle

TRADUIT EN ARABE
PAR
HAMADI SAHLI

Tome II



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI